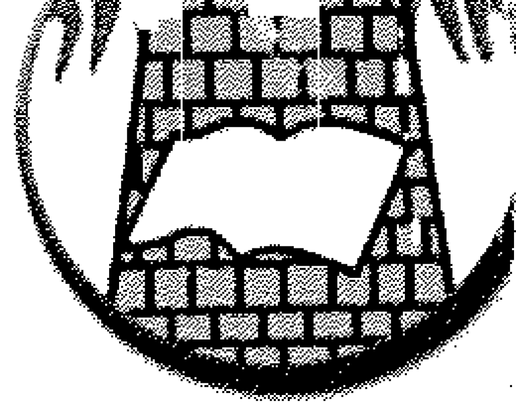


الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي والعلاقة بين الخليج العربي وشرق إفريقيا

ندوة رأس الخيمة التاريخية الأولى

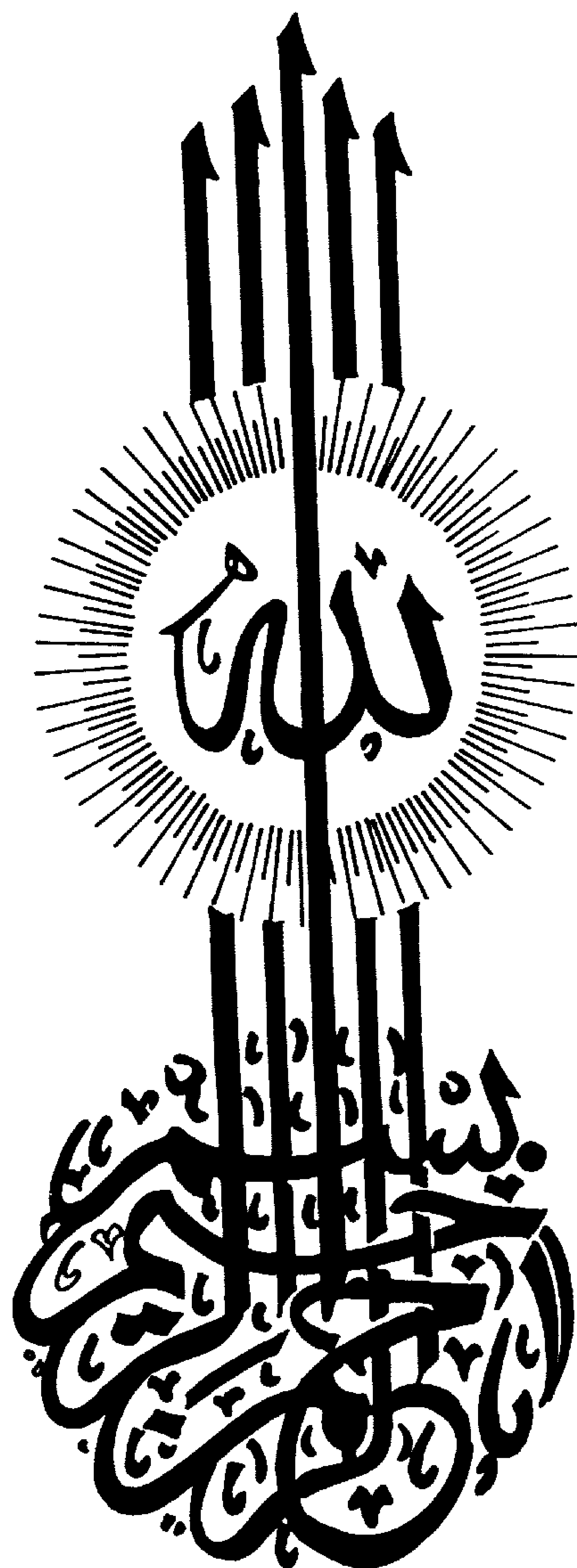
٥ - ٧ محرم ١٤٠٨هـ / ٢٩ - ٣١ أغسطس ١٩٨٧م

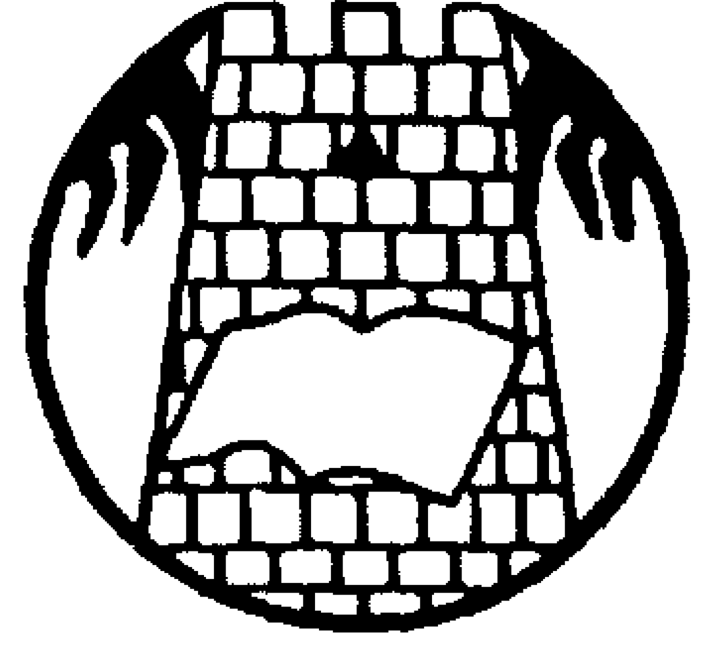
مجموعة أبحاث

سلسلة الندوات التاريخية

(١)

اهداءات ٢٠٠٢
حكومة رأس الخيمة الديوان الاميرى
الامارات العربية





الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي

والعلاقة بين الخليج العربي وشرق إفريقيا

سلسلة الندوات التاريخية

(١)

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

الطبعة الثانية

رقم الإيداع لدى وزارة الإعلام والثقافة

٤٥٣ بتاريخ ٢٠/١/٢٠٠١م

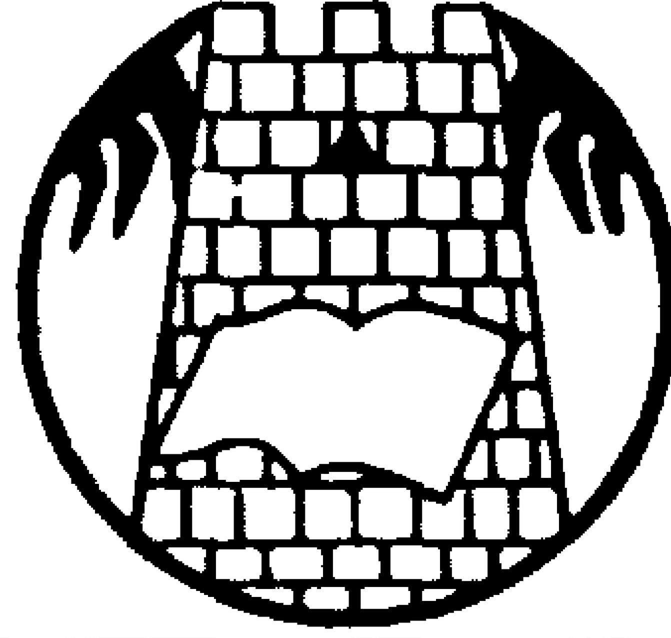
م د و
٣٢٥,١٦٥

الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي
والعلاقة بين الخليج العربي وشرق إفريقيا
(مجموعة أبحاث)

إصدار مركز الداسات والوثائق

رأس الخيمة - الإمارات العربية المتحدة

مقاس : ١٧ × ٢٤ ص: ٦٠٠



مـركـز الـدراسـات والـوثـائـق

ص.ب: ١٥٥٩ - رأس الخيمة - الإمارات العربية المتحدة

هاتف : ٢٣٣١١١١ - ٧ - ٠٠٩٧١ - فاكس : ٢٣٣١٠٠٠ - ٧ - ٠٠٩٧١

DOCUMENTARIES & STUDIES CENTRE

Tel.: 00971 - 7 2331111 - Fax : 00971 - 7 - 2331000

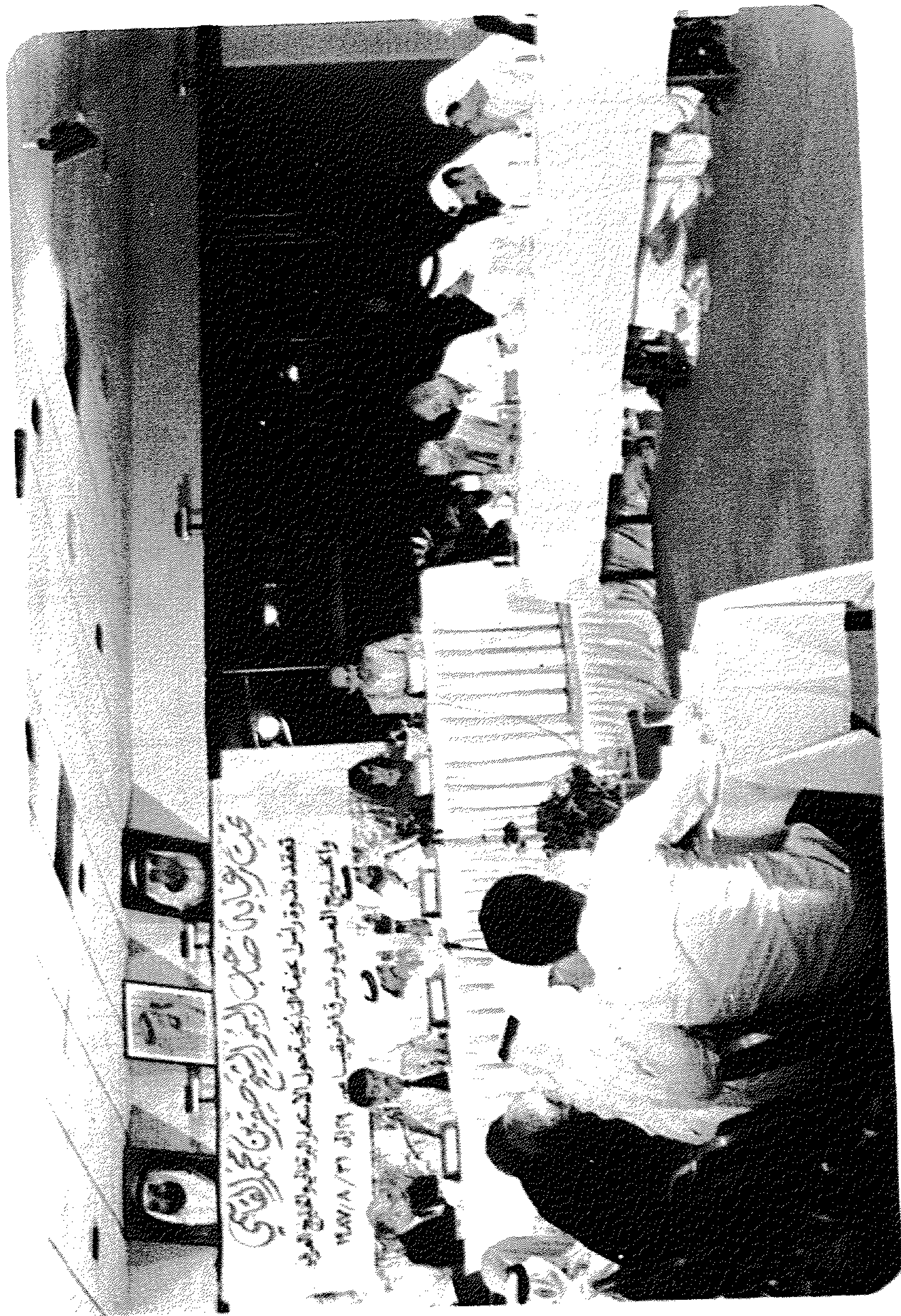
P.O.Box : 1559, Ras Al Khaimah, U.A.E.

E-mail: dscgrak@emirates.net.ae

www.dsc_amiricourt.com



صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي يفتتح معرض الكتاب التاريخي والوثائق،المقام بمناسبة انعقاد ندوة رأس الخيمة التأريخية



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير..



رغم التقدم الحضاري والعلمي الذي تعيشه البشرية في العصر الراهن فإن المعرفة التاريخية أصبحت ذات أهمية متزايدة لأنها تعطي فهماً عميقاً واعياً لواقع الحضارة الانسانية كما تلقي ضوءاً على مسيرة البشرية والعلاقات المستقبلية بين الدول والشعوب، ومن هنا كان لزاماً على المجتمعات والدول البحث عن الحقائق التاريخية سواء من خلال الوثائق والمخطوطات أو من خلال المعالم والملتقطات الأثرية.

وهكذا أخذت حكومة رأس الخيمة على عاتقها برعاية صاحب السمو الوالد الشيخ صقر بن محمد القاسمي حاكم الامارة، ومن خلال مركز الدراسات والوثائق بالديوان الاميري العناية بالأصول التاريخية والبحث والدراسة والاستقصاء فيها لايضاح هذا التاريخ المجيد بواقعه الصحيح ولتكون هذه الحقائق واضحة راسخة في نفوس الأجيال الحاضرة والقادمة.

ولهذا الهدف الكبير أقام مركز الدراسات والوثائق ندوته التأريخية الأولى التي غطت حقبة تأريخية مهمة، تلك هي حقبة الاستعمار البرتغالي للخليج العربي، ومتضمنة أبحاثاً أخرى عن العلاقة بين الخليج العربي وشرق افريقيا.

وقد كان نجاح هذه الندوة باعثا للغبطة ودافعاً للمزيد من العمل والبحث العلمي والوثائقي مما يترتب معه إقامة ندوات تأريخية أخرى قادمة إن شاء الله تسد ثغرات في المعلومات وفي المعرفة التاريخية.

ويسعدنا هنا أن يجد الباحث العلمي في هذا الكتاب حصيلة جهود طويلة تجسدت في أبحاث عدد من الأساتذة العلماء والمؤرخين.

والله نسأل أن يوفقنا وجميع العاملين المخلصين لخدمة الوعي العلمي بتاريخ أمتنا العربية والاسلامية.

سعود بن صقر القاسمي
رئيس الديوان الاميري
رئيس المركز

بسم الله الرحمن الرحيم

ندوة رأس الخيمة التأريخية الأولى:

بورعاية كريمة من صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد بن القاسمي عضو المجلس الأعلى لدولة الامارات العربية المتحدة حاكم إمارة رأس الخيمة. عقدت ندوة رأس الخيمة التأريخية جلساتها في الفترة من ٥ الى ٧ محرم ١٤٠٨هـ الموافق ٢٩ الى ٣١ آب/ أغسطس ١٩٨٧م. وذلك تحت عنوان الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي والعلاقة بين الخليج العربي وشرق إفريقيا.

وجاء انعقاد هذه الندوة التأريخية نتيجة تنظيم وتعاون مثمر بين مركز الدراسات والوثائق بالديوان الاميري برأس الخيمة والمنظمة العربية للتربية والثاقفة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية ممثلة بمعهد البحوث والدراسات العربية التابع للمنظمة.

وانتظمت في الندوة محاضرات ومناقشات على مدى ثلاثة أيام متتالية. لدراسات وابحاث قيمة بلغ عددها واحد وثلاثين بحثا علمياً أكاديمياً تناولت تلك الدراسات موضوعات الندوة بالبحث والاستقصاء التاريخي الوثائقي. مما أضاف للمكتبة العربية وللمعلومات التاريخية الجديد من المعرفة والجديد من الكشف والاستقراء والوضوح لفترة الاستعمار البرتغالي لمنطقة الخليج العربي. وكذلك للعلاقات التأريخية بين الخليج العربي وشرق إفريقيا. وتعتبر هذه البحوث محكمة علمياً واكاديمياً نظراً لما مرت به قبل اعتماد المشاركة بها في هذه الندوة من تدقيق تاريخي وتقصي علمي.

وقد شارك في جلسات الندوة عدد من رجالات العلم الأفاضل وكبار المؤرخين العرب والأجانب الذين قدموا من عدد من الاقطار العربية والدول الأجنبية، للمساهمة بعلمهم ومعرفتهم وأبحاثهم القيمة مما أكسب هذه الندوة بروزاً خاصاً ومكانة علمية مرموقة.

وقد خصصنا هذا الاصدار من البحوث للأبحاث المتعلقة بالاستعمار البرتغالي والخليج العربي وسيتضمن العدد الثاني إن شاء الله الأبحاث التي تناولت العلاقة بين الخليج العربي وشرق إفريقيا.

أحمد جلال التدمري
مدير مركز الدراسات والوثائق
رأس الخيمة ــ الديوان الأميري
سابقاً

الجلسة الافتتاحية

بدأت ندوة رأس الخيمة التأريخية الأولى اعمالها في الساعة العاشرة من صباح يوم السبت ٥محرم ١٤٠٨ الموافق ١٩٨٧/٨/٢٩ حيث عقدت الجلسة الأولى. وهي الجلسة الافتتاحية برعاية صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم رأس الخيمة. وحضور سمو الشيخ سلطان بن صقر القاسمي قائد لواء بدر الثاني نائب الحاكم وعدد من السادة الشيوخ والوزراء ووفود من جامعة السلطان قابوس وجامعة الامارات والامانة العامة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية وعدد من رجال السلك الدبلوماسي العربي. والمسؤولين في الامارة والمهتمين بالبحث التاريخي.

وبعد تلاوة مباركة من آيات القرآن الكريم. قدم معالي الشيخ عبد العزيز بن حميد القاسمي وزير الدولة لشؤون المجلس الاعلى للاتحاد كلمة صاحب السمو الحاكم والتي كان نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات الضيوف الكرام..

ايها الاخوة الاعزاء..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

انه لمن دواعي سروري واغتباطي ان ارحب بكم اجمل ترحيب وأن اقول لكم حللتم اهلا ووطئتم سهلا، وان اقدم لكم جميعا شكرنا الجزيل على تجشمكم مشاق السفر حتى نجتمع معكم وتزودونا بما جادت به قرائحكم وبما توصلتم اليه في ابحاثكم حول تاريخ هذه المنطقة في مرحلة معينة من مراحل التاريخ الا وهي الفترة الممتددة من الاستعمار البرتغالي حتى الاستعمار البريطاني وعلاقة الخليج العربي بشرق افريقيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. ولا اكتمكم القول ان هذه الفترة من الزمن يكتنفها الغموض ولم يسبق للمؤرخين ان سبروا غورها وبحثوا عن خباياها. فاجتماعكم اليوم ليدلي كل منكم بدلوه حول هذه الحقبة التاريخية انما هو مبعث اشراق وانارة، نستطيع ان نتبين من خلاله التاريخ الحقيقي لهذه المنطقة وعلاقتها التاريخية مع شرق افريقيا.

واسمحوا لي ان اشد على ايديكم فردا فردا مهنئا ومباركا لكم هذه الجهود التي بذلتموها لتضيفوا الى العلوم التاريخية ثمرة نتاج عقولكم وابحاثكم.

فشكرا لكم والف شكر، وسيروا على بركة الله والله يحفظكم ويرعاكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



الجلسة الافتتاحية الأولى للندوة بحضور صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمى عضو المجلس الاعلى للاتحاد حاكم امارة رأس الخيمة.

بعد ذلك كانت كلمة الدكتور محي الدين صابر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وكلمة معهد البحوث والدراسات العربية ألقاها الدكتور احمد ابراهيم دياب رئيس المعهد:ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي عضو المجلس الاعلى للاتحاد حاكم رأس الخيمة راعي الندوة

اصحاب السمو الشيوخ

اصحاب المعالي الوزراء والسفراء واساتذة الجامعات والباحثين

ايها الاخوة الضيوف الكرام

يطيب لي ان اشكر بأسم المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معالي الاستاذ الدكتور محي الدين صابر وباسم معهد البحوث والدراسات العربية وقسم البحوث والدراسات التاريخية صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي وحكومة رأس الخيمة للرعاية الكريمة لهذه الندوة العلمية التي تقام بالتعاون بين معهد البحوث والدراسات التاريخية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وبين مركز الدراسات والوثائق بالديوان الاميري برأس الخيمة.

وأدعو الله عزت قدرته وجلت حكمته أن ينفع بكم أهل العلم وأن يحقق بسعيكم تطلعات الأمة العربية التي تحمل أمانة التاريخ ورسالة الحق ودعوة الاسلام ليسعد في ظلها الانسان ويكرم الخلق بما أفاء الله عليهم من نعم لحياة وكرم الايمان.

أيها الأخوة الأجلاء:

لقد نالت الدراسات الافريقية أهتماماً متزايداً من الباحثين والدراسين خلال الثلاثين سنة الماضية وكان ذلك نتيجة لموجة التحرر التي شملت القارة الافريقية للخلاص من نير الاستعمار الذي خيم عليها مئات السنين بعد تكالب وصراع بين الدول الاوروبية نفسها حول الاراضي الافريقية.

لقد نادى الكتاب والزعماء الافارقة بضرورة الاهتمام بالدراسات الافريقية وذلك من أجل تنقية التاريخ الافريقي مما لحق به من دس وتشويه على مدى خمسة قرون على يد الرحالة امثال استانلي ولفسجتون وبيرتون وعلى يد المبشرين من امثال غردوت وكتشنر ورودس وبرمنجهام والكتاب الاوروبيين من امثال كويلاند وهل وهولت ومايلز وهلم جر، من أجل تمكين سيطرة اوروبا على الشعوب والاراضي الافريقية. ومن ثم جاءت الدعوة لاعادة كتابة التاريخ الافريقي بأقلام أبنائه ووضعه في اطاره الصحيح وكان اكثر المنادين بهذا كوامى نكروما.

وفي اطار جامعاتنا في الوطن العربي أهتم كثير من الباحثين العرب بالدراسات الافريقية عامة ودراسة العلاقات العربية الافريقية خاصة، كما اقامت ثلاث معاهد للدراسات الافريقية ملحقه بالجامعات في القاهرة والخرطوم وليبيا فقط. ونالت الدراسات الافريقية حظا طيباً من الدراسات الجامعية وفوق الجامعية في مصر والسودان فقط وذلك من أجل توضيح حقيقة العلاقة بين العرب والافارقة بقصد كتابة التاريخ الحضاري الافريقي من وجهة نظر الافارقة العرب أو العرب الافارقة أو الافارقة والعرب مجتمعين على أسس موضوعية بعيدة عن الغرض لابراز الجوانب المشرقة في الروابط الازلية التي تربط الشعبين العربي والافريقي.

فعلى سبيل المثال فقد لعبت الصحراء الكبرى دوراً بارزاً في التاريخ الحضاري لافريقيا فهي لم تكن مانعا أو حاجزاً كما أدعى بعض من الكتاب الاوروبيين ونحن في امس الحاجة الى اعادة كتابة تاريخ الصحراء واعادة دراسة جغرافيتها ومجتمعتها وابراز معالمها الثقافية والحضارية لان الصحراء كانت ولا تزال منارة علم تزخر بالعلم والعلماء والمدارس والجامعات وكانت أداة وصل فعالة وحدت بين شمال القارة وغربها أي بين جنوب وشمال الصحراء وعن طريقها تأكدت اخوة القبائل والعشائرفالصحراء بالنسبة اليهم ليست جسراً حاجزاً بل هي جسر خير بين الشمال والجنوب ينسابون على دروبها الواضحة التي عرفتهم وعرفوها، بين واحاتها الهادئة الهادرة بالقوافل المحملة بالخير والعطاء والمتنقلة بين فاس وتوات وكانم وطرابلس وغدامس وكانو وزويله وبرنو وتمبكتو ومرزق وجالو وسيوه والجغبوب والغاشر وعشرات المدن في تشاد ومالي والنيجر ونيجيريا والسنغال وموريتانيا والمغرب وتونس والجزائر وليبيا والسودان.

لقد ظهرت في السودان طريق الانتفاضة ظاهرة اندثرت في افريقيا عامة منذ أواخر الخمسينات واوائل الستينات من هذا القرن أي منذ اكثر من ثلاثين عاما مع استقلال الدول الافريقية وهي ظاهرة الزنوجة أو الافرقة وهي الان تتمثل في السودان المسلم العربي ويدعو لها ما سمى بكتلة الاحزاب الافريقية وفي حركة التمرد أو ما يعرف بجيش تحرير السودان من الاسلام والعروبة والمدعومة من الرأسمالية والامبريالية العالمية والماركسية واتحاد الكنائس ومن ورائها الصهيونية.

أن فكرة الزنوجة نشأت اصلا في امريكا الجنوبية في جزر المارتنيك ومنه اخذها سنغور الذي روج لها في افريقيا الغربية الفرنسية بتأييد اوروبي وبادعاء اشتراكي، هدفها التباعد الثقافي بين العرب والافارقة للمحافظة على المكاسب التي تمت في هذا الصدد خلال الفترة الاستعمارية الاوروبية عامة والفرنسية خاصة في منطقة السودان الفرنسي أو ما سموه بأفريقيا جنوب الصحراء وذلك لخدمة الاهداف الاوروبية ضد الحضارة العربية الاسلامية ولم يتبنى هذا المفهوم المرتبط بالغرب موديبو كيتا ولا سيكوتوري ولا نكروما فهؤلاء تبنوا قضيةالوحدة المصيرية والحضارة الافريقية الممزوجة بالعروبة والاسلام.

وقد وضحت تبعية دعاة الزنوجه (الافرقة) للفكر الغربي عندما اعتبر سنغور اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية لفلسفة الزنوجه واعتبرها لغة الوصل والتخاطب والثقافة بين الزنوج لانها الحضارة. هل ياترى يقصد الحضارة الافريقية؟ وسار على دربه هذا اخواننا الذين يتخذون اللغة الانجليزية كلغة لدعواتهم الزنجية أو الافرقه وليس لغة افريقية ـ رسميا بينما يتقنون اللغة العربية احسن منها ويستعملونها في منازلهم وبين العامة.

فقد اراد الزعماء والكتاب الافارقة دعوة الزنوجه العضوية فقد وصفها ستانيسه اس ادويتي بقوله:

«الزنوجه التي يريدوننا أن نؤمن بها هي زنوجة تجعل منه شخصا بسيطاً في حياته ليساير الاستعمار وزعماء الدعوة والزنوجه في وضعها الراهن تقوم لاغراض لا يصرح بها دعاتها وقادتها (هو ما يحدث الان في السودان) بتركيز دعائم التقاليد القبلية البالية في افريقيا التي يدعي دعاة الزنوجه انهم يستوحون آثارها الادبية منه».

ويصف ارنولد توينبي حركة الزنوجه بقوله: انها حركة يتناسق مظهراهما الرئيسيان بشكل عجيب في طورهما السلبي كانت نحو إزالة سيطرة الدول الغربية وفي طورها الايجابي كانت حافزاً لاعتناق اساليب الغرب العسكرية وانظمته السياسية والاقتصادية وثقافته الروحية.

ان التفريق بين العرب والافارقة أو الزنوج لم يتم على أسس موضوعية لا من حيث العنصر ولا اللغة ولا الثقافة. ولهذا فإن الاستمرار فيه سيضر بالعلاقات ضرراً بليغاً بما يشيد من حواجز نفسية تخدم الخيالات المرضية والاهداف الخبيثة والجهالة العمياء. وهكذا يتبين خطأ من يذهبون الى أن افريقيا شمال الصحراء عربية مسلمة وجنوبها افريقي أو زنجي اسود ووثني العامة مسيحي الصفوة التعلمية تعليماً كنسياً غربياً في الغالب الاعم، ولعل ضعف الاساس الذي قام عليها التفريق بين العرب والافارقة من الاساليب التي ادت الى انحسار موجة فلسفة الزنوجه أو الافرقه التي اكتسبت اهمية خاصة مع سنغور الذي قال وهو يتسلم الدكتوراة الفخرية من جامعة السربون وبحضور جيسكار ديستان:

«شكرا للثقافة الاوروبية التي عرفتنا بتوجيهها القيمة كيف نتميز ونرتقي بحضارتنا الزنجية عن اولئك الذين احتوونا»

واننا عندما ننادي بعلاقتنا العربية الاسلامية مع افريقيا فإن العروبة في مفاهيمنا والتقاليد الاسلامية قد بعدت عن العنصرية واصبحت اسسها ثقافة لغوية تضم اعراقا شتى بين الابيض والاسود وما بينهما من الوان واكتسبت مضامين اجتماعية وتحررية. ومما يدل على ضعف التفريق بين العرب والافارقة على أساس لغوي أن تجد لغة المحادثة والمواصلة بين مختلف المجموعات العرقية المتعددة في قطر افريقي غير عربي حسب تقسيم دعاة الزنوجه مثل تشاد هي اللغة العربية العامة.

كما ان فكرة الزنوجه (الافرقة) انما كانت ردة فعل ضد الاستعمار الغربي وتجارة الرقيق عبر المحيط الاطلسي اكثر من كونها رد فعل لما يدعى بانتشار الاسلام والثقافة العربية وتجارة الرقيق عبر

الصحراء وهذا ما دعى سيكوتوري للقول بأن الزنوجه أو الافرقة اصبحت دعوة تقسيم وتفرقة تخدم مصالح الامبريالية وتضعف الجهة المعادية للاستعمار.

لقد قدم الاسلام لافريقيا نماذج رفيعة من اخاء الدول فالافكار الصوفية التي انتشرت ولا تزال تنتشر في القارة ممكن اتباعها من الانتماء لمجتمعات روحية تقوم على الولاء للمجموعة وتبعث روح التآخي الصادق في سمو ارتفع على الجذور الطبيعية والقبلية والعنصرية كما أن الزنوجه أو الافرقة في المجتمعات الافريقية عامة وفي المجتمع السوداني المتعدد الاجناس والاديان واللهجات والوان البشرة ما هي الا موضوع من موضوعات الثرثرة الثقافية والاستقطاب السياسي الرخيص وبدعة لم نحظ بأسوأ منها فالداعين لها في السودان اخواننا الناطقين بالانجليزية يحتاجون الى برنامج دراسي في الشئون الافريقية ناهيك عن الشئون السودانية لانهم لا يعرفون القوى المؤثرة على الدول الافريقية جنوب خط ٣٠ شمالا ولا مقومات القومية السودانية ولا أبعاد الشخصية الافريقية المسلمة فكما قال الشاعر النيجري اوزواسين «أن تلك الممارسات العنصرية يجب الا نبق عليها حتى لاتكون خير اطروحة تلائم ذوق مؤرخ ابيض»

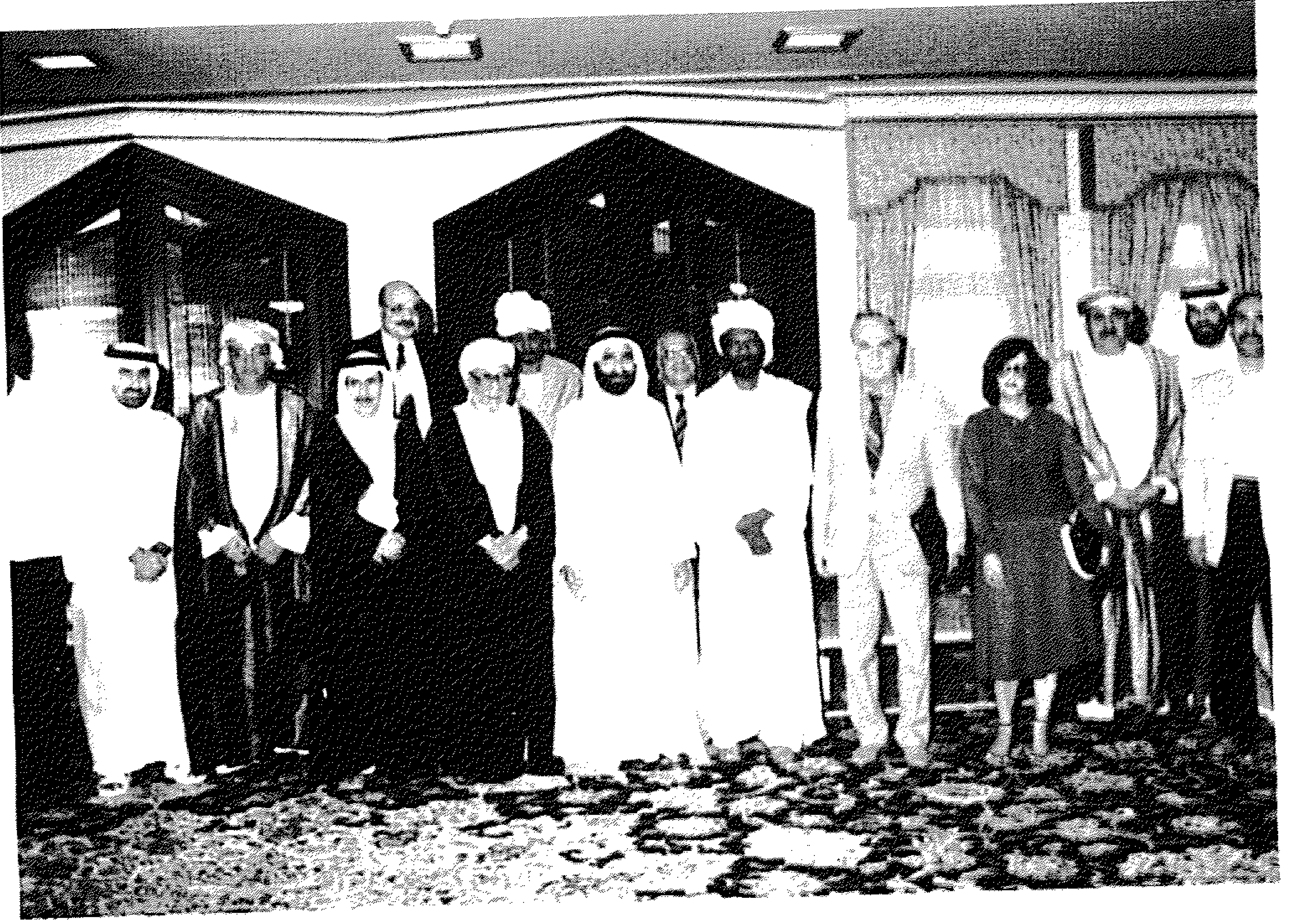
واقول:

«أن الاسلام كان ولايزال يلعب دوراً مؤثراً في افريقيا ويمدنا بعاطفة روحية تمهد كثيراً من قنوات التعاون وحسن الالتقاء في العلاقات العربية الافريقية».

واذا كانت رأس الخيمة عاصمة القواسم قد احتضنت هذه الندوة بما عرف عنها من وفاء كريم وانتماء اصيل وطوية صادقة، فإن إقامة هذه الندوة فيها كان له اكثر من دلالة تمثلت في هذا الجمع من العلماء. وبهذا الاهتمام الكبير الذي احيطت به، وهو دليل من أدلة الوفاء للحضارة العربية الاسلامية، وحرص يوحي بأصالة الجذور التي ظلت تشد أبناء هذه الامة بكل ما يحقق لهم التواصل والانتماء.

فالله أسأل التوفيق والهداية لأمتنا التي ظلت على مر العصور أمة خير وعطاء وبالله التوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



صورة تجمع صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي
مع عدد من الاساتذة المشاركين بالندوة.

ثم جاءت كلمة معالي الشيخ عبد الله بن خالد الخليفة الأمين العام لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية قدمها الدكتور علي أبا حسين نائب الأمين العام، مدير مركز الوثائق التاريخية بالبحرين.

صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي ــ عضو المجلس الاعلى حاكم رأس الخيمة
ايها السادة الاجلاء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لاشك ان التاريخ سجل تراث الامة، ولا تاريخ بدون وثائق، ومن اجل ذلك اهتمت المراكز والهيئات العلمية بجمع الوثائق والمخطوطات التي تلقي الضوء على تاريخ المنطقة، وقد خطت بذلك خطوات موفقة حين بدأت بتحقيق تلك الوثائق والمخطوطات والوثائق والمصادر التاريخية الاخرى، وقامت بنشرها افادة للباحثين وطلاب العلم، وتجاوبا مع جهود مراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية، فقد بذلت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم جهودا مشكورة في ذلك الميدان، وكانت منذ مدة طويلة قد اهتمت بجمع التراث المخطوط واحيائه، وما يتطلب ذلك من تنسيق وتوحيد للجهود في البلاد العربية في هذا المضمار خاصة ــ معهد المخطوطات ومعهد البحوث والدراسات العربية ــ وها نحن اليوم نجتمع في هذه الندوة التاريخية التي قام بتنظيمها كل من معهد البحوث ومركز الدراسات والوثائق بالديوان الاميري برأس الخيمة والذي لم يمض على التحاقه بالامانة العامة لمراكز الوثائق والدراسات في الخليج العربي والجزيرة العربية الا عاما أو بعض عام، حتى بادر باقامة هذه الندوة التاريخية التي ستقدم بها بحوث قيمة تزيد المعرفة التاريخية وتصحح بعض المفاهيم الخاطئة أو الغامضة في تاريخنا الحديث كأسطورة القرصنة، وسميتها أسطورة لان الاساطير في اللغة أباطيل لا دليل لها، وان البحث العلمي الموثق خير ما يفند تلك الاساطير.

فرحى للعاملين المخلصين في سبيل جمع التراث وتحقيقه ثم نشره.

واني اتقدم بالشكر باسم الامين العام لمراكز الوثائق والدراسات في الخليج العربي والجزيرة العربية معالي الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة الذي لم يستطع الحضور شاكرا لرأس الخيمة دعوتها، ولصاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي عضو المجلس الاعلى حاكم رأس الخيمة رعايته الكريمة لهذه الندوة وهذا ان دل على امر، فانما يدل على عنايته بالبحث والتدوين التاريخي وتشجيع المؤرخين والباحثين، وشكرا للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على تعاونها مع المراكز الوثائقية.

وتحية اجلال واكبار الى صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة على اهتمامه المتواصل في سبيل حفظ التراث وتيسير الانتفاع به.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

وأخيراً اختتم الحفل الافتتاحي بكلمة سمو الشيخ سعود بن صقر القاسمي رئيس الديوان الاميري رئيس مركز الدراسات والوثائق بحكومة رأس الخيمة القاها الاستاذ/ أحمد جلال التدمري مدير المركز وكان نصها:ـ

صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى للاتحاد حاكم رأس الخيمة المفدى
حضرات الشيوخ الكرام
أيها الأخوة الحضور الأفاضل
أيها الزملاء الكرام

أحييكم أطيب تحية وأرحب بكم الترحيب كله بالأصالة عن نفسي ونيابة عن سمو الشيخ سعود بن صقر القاسمي رئيس الديوان الأميري رئيس مركز الدراسات والوثائق والذي حالت ظروف تواجده خارج البلاد دون مشاركته ندوتنا هذه.

واسمحوا لي يا صاحب السمو في بداية كلمتي أن أتقدم لكم بالشكر كله لما أوليتموه لمركز الدراسات والعمل التاريخي من رعايتكم الكريمة ومن اهتمامكم الكبير.

أيها الأخوة الأعزاء

إنه لفخر لمركزنا ــ مركز الدراسات والوثائق أن يقيم هذه الندوة التأريخية عن فترة تاريخية شديدة الأهمية في تاريخ خليجنا العربي بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية ممثلة بمعهد البحوث والدراسات العربية وذلك لما لهذه الندوة من أهمية في طرح الجديد من الوثائق المكتشفة والدراسات والأبحاث عن فترة لازال الغموض يكتنف بعض جوانبها ولازالت التأويلات غير المثبتة تحيط بها.

إنها فترة القرنين السادس عشر والسابع عشر وما تمثله من أحداث عظام وجهاد عربي يجب أن يسطر بخطوط من نور نظراً لما واجه فيها خليجنا العربي من هجمات استعمارية وحملات عدوانية طامعة، سواء من الاستعمار البرتغالي أو من غيره.

أيها الأخوة

إن إقامة هذه الندوة التأريخية هنا في بلدكم رأس الخيمة لهو إنجاز يشكر عليه كل من ساهم بالعمل الدؤوب والجهد المتواصل طيلة شهور عديدة من البحث عن الوثائق والتنقيب عنها وعما يثبت الحقائق التأريخية.

فكانت تلك البحوث والدراسات ثروة غنية من المعلومات التاريخية التي تفضل الأخوة الزملاء بكتابتها وإعدادها لتكون وثيقة دافعة تدحض كل الافتراءات على تاريخنا العربي وتكشف الكثير من الوقائع والحقائق وتسد نقصاً وفراغاً في البحث التاريخي. وقد وصل عدد هذه البحوث إلى ٣٠ بحثاً علمياً أكاديمياً قيماً نالت بها منطقتنا شيئاً من الانصاف في البحث والدراسة عن تلك الفترة.

أيها الأخوة..

لقد جاء انعقاد ندوتنا التأريخية هذه. هنا في رأس الخيمة حدثاً وثائقياً في بلد تمتد جذوره إلى عهود بعيدة في العراقة التأريخية العربية.. وإن ما تضمنته أبحاثكم القيمة من وقائع وأحداث إنما تتحدث في الكثير من تفصيلاتها عن هذا الجزء العزيز من وطننا العربي والذي يشمل بالاضافة إلى إمارة رأس الخيثمة بقاعاً أخرى من دولتنا الفتية ـ الامارات العربية المتحدة وبقاعاً أخرى عزيزة في سلطنة عمان الشقيقة التي شهدت الكثير من هذه الأحداث والمواقف البطولية النضالية التي نفخر بها جميعاً، لذلك فإن ندوتنا جاء إنعقادها في مكانها الصحيح وسط ما تناولته من أحداث تشهد على ذلك عشرات أبراج الحراسة والقلاع والحصون التي تنتشر في مختلف أرجاء رأس الخيمة والربوع الأخرى المجاورة والقريبة والتي لازال بعضها صامد يتحدى الزمن، وبعضها الآخر تحول الى معالم تحكي جانباً من النضال العربي ضد الغزاة والطامعين.

كما أن ندوتنا التأريخية هذه إنما تلقي ضوءاً على الماضي الذي يمتد إلى ما قبل خمسمائة عام، وكأنها بذلك تلقي ضوءاً على الماضي القريب الذي يمتد الى الحاضر الماثل. وربما الى المستقبل أيضاً رغم اختلاف السنوات والمسميات.

لذلك فأننا نأمل أن يكون ما تعرضه ندوتنا من أبحاث موضع اهتمام لكل ذي قرار يأخذ منها العبر لارتقاء شرور الطامعين ويعي ما فيها من دروس لصنع المستقبل المشرق الذي تنشده أمتنا العربية والاسلامية.

وختاماً.. أتقدم منكم يا صاحب السمو بالشكر الجزيل على رعايتكم الكريمة كما أتقدم بالشكر للأخوة من عمان والبحرين ومن الأقطار العربية الأخرى على تفضلهم بالحضور إلى بلدهم رأس الخيمة ومشاركتهم لنا في هذه الندوة.

ولايفوتني أيضاً أن أشكر للاخوة الزملاء الأفاضل المؤرخين جهودهم القيمة. وكذلك للأخوة الضيوف والمدعوين كل الشكر على تفضلهم بحضور جلستنا الافتتاحية هذه.

وشكراً لأجهزة الاعلام التي لها دورها الكبير في إنجاح كل عمل أصيل وخير. وأخيراً شكرنا وامتناننا لكل من تعاون معنا في إنجاح هذه الندوة العربية.

والله يوفقنا جميعاً لما فيه الخير ولما يرضاه

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

وكان صاحب السمو الحاكم قد افتتح قبيل الجلسة الافتتاحية معرضاً للكتب والوثائق التاريخية شاركت به عدة جهات وفي طليعتها مركز الدراسات والوثائق، ومعهد البحوث والدراسات العربية وجامعة السلطان قابوس، بالاضافة الى ما عرضه الباحثون من مؤلفاتهم وبعض الوثائق التاريخية المتوفرة.

هذا وفي بداية جلسات العمل القى معالي الشيخ عامر بن علي العمير رئيس جامعة السلطان قابوس كلمة قيمة قال فيها:ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

غني عن القول ان سرد التاريخ وتدوينه يقتضيان الالتزام بالامانة التامة، سواء توافقت حقائق التاريخ ووقائعه الفعلية مع مقاصدنا أو خالفتها.. وتشكل هذه الامانة مسئولية مطلقة تقع على عاتق الباحثين والمتخصصين والمهتمين بتأليف أو نشر كتب التاريخ.

اسوق هذا القول لخطورة ما اكتشفته في رحلاتي للخارج من مراجعة بعض الكتب التي نشرتها عناصر معينة في افريقيا الشرقية فقد وجدت في هذه الكتب معلومات خاطئة لمسخ الدور الاسلامي والحضاري للعرب وخاصة العمانيين منهم في ارساء قواعد الاصول الحضارية في افريقيا الشرقية وامتد هذا المسخ الى تحريف اللغة السواحلية بمحاولات استهدفت استبدال الكلمات ذات الاصول العربية بكلمات اخرى.

ومكمن الخطورة هنا ان الاجيال الصاعدة في تلك المناطق سوف تظل تقرأ أو تنهل دون ان تدري من هذه الاخطاء المتعمدة والمعالم المشوهة لحقائق وخصائص تراثهم خدمة لاهداف ليست قطعاً في مصلحة الحضارة الاسلامية. ومن المؤسف هنا أننا اعتمدنا كثيراً في ما مضى على المصادر الاجنبية والمراجع القديمة وربما كان مرجع هذا لشح المراجع التي صدرت بأقلام اسلامية والتي أشارت الى الدور الحضاري والاسلامي الذي لعبه العرب في القارة الافريقية.

وأود أن أشيد هنا باهتمام المؤسسات العربية والاسلامية المعنية بالقاء الضوء على ذلك الدور الريادي لمنطقة الخليج وخاصة عمان في افريقيا الشرقية وما ندوتنا هذه الا دليل يبشر بتعاظم هذا الاهتمام ولزام علينا لوضع التاريخ في مساره الصحيح، وارجو ان لاتقتصر بحوثنا على استقاء المعلومات من الكتب وان لا تركز دراستنا على تاريخ الغزوات والمعارك اذ لابد هنا من تضافر الجهود لاجراء الدراسات الميدانية للتلاحم مع الواقع الفعلي قبل ان يندثر كلية وذلك بالتنسيق مع العناصر المعنية في تلك البلاد لجمع التراث المدون والمتناقل شفاهة ولايخفى عليكم انه لاتزال هناك عناصر تسعى جاهدة لاحياء واثراء اصولها الحضارية.

ومن هنا تتضح لنا المسئولية الملقاة على عاتقنا للاخذ بيد المؤسسات المهتمة بحفظ التراث والحفاظ على احياء هذا الاهتمام المتمثل في هذه الندوة واود ان اشيد هنا ثانية بالقائمين على امر هذه الندوة ولكل من اسهم في اخراجها بهذا الثوب القشيب وعلى رأس هؤلاء صاحب السمو الشيخ صقر ابن محمد القاسمي والله اسأل ان تكلل جهودكم بالنجاح.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

المشاركون في أعمال الندوة

معالي الشيخ عامر بن علي العمير رئيس جامعة قابوس، سمو الشيخ محمد بن صقر القاسمي رئيس دائرة المحاكم بالانابة، معالي سعيد بن سلمان وزير التربية والتعليم السابق، معالي سيف الجروان وزير الاقتصاد، الدكتور على أبا حسين مدير مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، الدكتور احمد ابراهيم دياب رئيس قسم التاريخ بمعهد البحوث والدراسات العربية، الاستاذ سعيد حارب والاستاذ شبيب المرزوقي والدكتور حسن عليكم من جامعة الامارات، والاستاذ محمد ناصر الوهيبي ممثلا لوزارة التراث القومي والثقافة العمانية بالاضافة الى عدد آخر من الاساتذة الأفاضل والمهتمين بالدراسات التاريخية.

أما الاساتذة المشاركون في الندوة بأبحاثهم. ومنهم من ساهم بالحضور، أوساهم بالبحث دون أن يتمكن من الحضور شخصياً. هؤلاء الاساتذة هم:ـ

الدكتور جمال زكريا قاسم والدكتور شوقي عطا الله الجمل. والدكتور حسين أمين. الدكتور على أحمد الزبيدي، الدكتور صادق ياسين الحلو، الدكتور طارق صادق الحمداني، الدكتور حامد ربيع، الدكتورة فوزية العطية، الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي، الدكتورة نوار عبد الوهاب القيسي، الدكتور يوسف رابغ الثقفي. الدكتور عبد الأمير محمد أمين، الدكتور محمد عارف الكيالي، الدكتور يوسف الخليفة ابو بكر، الدكتورة سنى عبد الجبار، الاستاذ احمد جلال التدمري، الاستاذ غانم محمد رميض. الاستاذ فالح حنظل، الدكتور حسام الخادم، الاستاذ بشير حمود كاظم، الاستاذة هيفاء عبد العزيز، والاستاذ محمد عبد الحسين عبود الحلي.

إضافة الى أساتذة آخرين شاركوا مشاركة فعالة بالمناقشات والمداولات التي دارت خلال جلسات الندوة.

وفي ختام اعمال الندوة عقدت الجلسة الختامية برئاسة سمو الشيخ محمد بن صقر القاسمي حيث تلى البيان الختامي التالي:ـ

بسم الله الرحمن الرحيم
البيان الختامي والتوصيات الصادرة عن ندوة رأس الخيمة التاريخية

برعاية كريمة من صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي عضو المجلس الاعلى للاتحاد حاكم رأس الخيمة اقام مركز الدراسات والوثائق بالديوان الاميري بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ــ معهد البحوث والدراسات العربية ندوة تاريخية في الفترة من ٥ ــ ٧ محرم ١٤٠٨ الموافق ٢٩/٣١ آب/ أغسطس ١٩٨٧ تحت عنوان الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي والعلاقة بين الخليج العربي وشرق افريقيا، وقد شارك في الندوة ثلاثون عالما وباحثا قدموا دراسات قيمة حول ذلك الموضوع غطت معظم جوانبه التاريخية وصلت الى ٣٠ بحثا علميا اكاديميا، تعتبر كسبا علميا جديدا، سدت فراغا في المكتبة العربية عن مرحلة حساسة من تاريخ الخليج العربي وشرق افريقيا.

وقد انتظمت الندوة في سبع جلسات خصصت الجلسة السادسة منها لعقد ندوة مصغرة سميت بندوة «الندوة» تم خلالها مناقشة عامة لما قدم من ابحاث وتساؤلات علمية ومقترحات مفيدة أشادت في مجملها بما قدمه الاساتذة والباحثون الافاضل من ابحاث ودراسات أوضحت الكثير من الحقائق والوقائع التاريخية التي عاشتها منطقة الخليج العربي خلال اواخر عهد الاستعمار البرتغالي والعلاقات الخليجية مع شرق افريقيا. ودحضت الافتراءات المغرضة على تاريخنا العربي، وعكست النضال البطولي لعرب الخليج والاصالة التاريخية العربية للخليج العربي بشاطئيه الشرقي والغربي، وأبعاد الغزوات الاجنبية والطامعة التي منيت في النهاية بالفشل والانحسار.

وقد خرجت ندوة رأس الخيمة بالتوصيات التالية:

أولا: تدعو الندوة لاقامة ندوة تاريخية مكملة تحت عنوان الاستعمار البريطاني للخليج العربي على ضوء الوثائق العربية والاجنبية..

ثانيا: توصي الندوة الجامعات العربية وخاصة الجامعات في دول الخليج العربي بالاكثار من المنح الدراسية لابناء الدول الافريقية التي ليس فيها جامعات وفتح اقسام لتدريس اللغة السواحلية ولغة الهوسا. كما توصي أجهزة الاعلام العربية، والمسموعة منها خاصة بتخصيص برامج اذاعية موجهة باللغة السواحلية.

ثالثا: تدعو الندوة الجهات المعنية في الاقطار العربية على تشجيع استخدام الحروف العربية في الدول والمجتمعات التي كانت تستخدمها ولجأت الى استخدام الاحرف اللاتينية نتيجة توجهات وضغوط خارجية.

رابعا: التأكيد على المساعي التي تبذلها الامانة العامة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية لجمع الوثائق البرتغالية والعثمانية وترجمتها الى العربية لتكون في متناول الباحثين والدراسين العرب.

خامسا: توصي اللجنة بأن ينقل الجهاز العربي لمحو الامية وتعليم الكبار ومعهد البحوث والدراسات العربية نشاطه لخدمة الاقطار العربية الافريقية التي لازالت تعاني من الامية والاهتمام بالدراسات والبحوث وذلك لتحقيق الهدف المرجو من ورائها.

سادسا: توصي الندوة الجهات المختصة بإنشاء بنك للمخطوطات العربية والاهتمام بها، وهي التي تشكل تراثا ضخما في الكم والنوع، وإبراز ما تحويه من تراث علمي عربي وإبداع حضاري إنساني من خلال اعداد متخصصين دارسين للمنهج العلمي لتحقيق المخطوطات.

سابعا: كما توصي الندوة علماء التاريخ العرب باعداد الدراسات التقييمية لفترة الحكم العثماني للبلاد العربية وذلك من خلال الوثائق العربية والعثمانية والاجنبية.

ثامنا: وتوصي الندوة ايضا بإقامة ندوات اخرى متخصصة تؤرخ للادب العربي والتطورات الاجتماعية التي شهدتها منطقة الخليج العربي نتيجة للصراع الخارجي الدائر حول هذه المنطقة العزيزة من الوطن العربي.

وفي ختام هذه التوصيات أعرب السادة المشاركون عن شكرهم لمركز الدراسات والوثائق برأس الخيمة وللمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على الجهود الناجحة التي بذلاها لعقد هذه الندوة والتي كانت عاملا مهما في انجاحها بالشكل المتفوق الذي تمت فيه.

وندعو الله ان يوفق كل العاملين المخلصين لما فيه خير امتنا العربية والاسلامية. وأن يحقق الله الآمال في توحيد أمتنا العربية وتضامن أمتنا الاسلامية إعلاء لشأنها وتحقيقا لمكانتها المنشودة في عزة وكرامة وازدهار.

هذا وقد بعث المشاركون بالندوة من اساتذة وباحثين برقية الى صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي عضو المجلس الاعلى للاتحاد حاكم امارة رأس الخيمة هذا نصها:ـــ

برقية شكر إلى صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي

يعرب المشاركون بندوة رأس الخيمة التاريخية عن جزيل شكرهم لسموكم لما اوليتموه من رعاية كريمة للندوة ولكريم الضيافة والحفاوة التي لقيها كل منهم في ربوع امارة رأس الخيمة والتي انما تعبر عن الاصالة العربية وعن السمو الفكري والثقافي لدى سموكم ولدى شعبكم العريق.

كما يتقدم المشاركون بهذه الندوة المباركة بعميق تقديرهم للجهود التي بذلت لانجاحها بتوجيهات سموكم ومتابعتكم.

ويعرب المشاركون ايضا عن اطيب تمنياتهم لسموكم ولشعب دولة الامارات العربية المتحدة وقيادته الرشيدة بالمزيد من الرفعة والازدهار.

ودمتم يا صاحب السمو ذخرا للثقافة والفكر العربي..
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

التوقيع

الاعضاء المشاركون بندوة رأس الخيمة التاريخية

الاوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي

دكتور/ جمال زكريا قاسم
استاذ التاريخ الحديث
كلية الاداب ـ جامعة عين شمس

يستلفت نظر الباحث عند دراسته للأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي في السنوات الأولى من القرن السادس عشر التفكك السياسي الذي كانت تعاني منه القوى العربية والاسلامية مما كان عاملا رئيسيا ساعد البرتغاليين في فرض سيطرتهم على المنطقة.

ولم يقتصر التفكك السياسي على القوى المحلية بل تعداه الى القوى الاسلامية الكبرى التي انشغلت إما في تدعيم قواعد حكمها أو في صراعات قامت فيا بينها مما مكن البرتغاليين من استغلال تلك الظروف لتأكيد سيطرتهم على بحار الشرق وتطبيق سياستهم الاحتكارية التي كان لها أثر كبير في اضعاف المقومات الاقتصادية وانهاء العصر الذهبي للملاحة والتجارة التي تمتع بها المسلمون في القرون التي سبقت الزحف البرتغالي إلى بحار الهند(١).

ولعل مما تجدر الاشارة إليه أن الفترة التي واكبت الغزو البرتغالي لمنطقة الخليج العربي كانت تعد فترة تحول بالغة الاهمية بالنسبة للقوى الاسلامية التي تصدت لزعامة العالم الاسلامي في ذلك الحين فقد شهدت تلك الفترة أفول بعض القوى الاسلامية وظهور بعضها الآخر فالسنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر أو بشكل اكثر تحديدا في عام ١٤٩٢ سقطت آخر المعاقل الاسلامية في الأندلس وفي خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر أخذ الاتراك العثمانيون يتحولون بفتوحاتهم على حساب الشعوب المسيحية في البلقان وأوروبا ويتجهون للتوسع على حساب الشعوب الاسلامية في الشرق وفي تلك الفترة ايضا تأسست الدولة الصفوية في ايران وانهارت دولة المماليك التي كانت تحكم مصر والشام وبعض أجزاء من الجزيرة العربية كما ظهرت الدولة المغولية في الهند.

وعلى الرغم من تلك التحولات السريعة التي تعرض لها العالم الاسلامي إلا أن النظرة الثاقبة تكشف لنا عدم تضامن تلك القوى في مواجهة البرتغاليين وإنما على العكس من ذلك انشغلت القوى الاسلامية في صراعات مذهبية أو توسعية فيما بينها وبين بعضها الآخر أو فيما بينها وبين القوى الأخرى المجاورة لها مما أضعف من تماسكها، ففي الهند كان الصراع محتدما بين القوى الاسلامية والهندوكية وشغل هذا الصراع تلك القوى عن التطلع لمواجهة الأطماع الأجنبية التي كانت تحيق بسواحل الهند الغربية على أثر اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح ووصولهم الى كاليكوت حتى أن سلطنة كجرات الاسلامية لم تجد سوى الاستنجاد بدولة المماليك في مصر رغم بعد المسافة فيما بينهما للتغلب على الغزو البرتغالي لسواحلها وفي تلك السواحل تعرض الاسطول المملوكي لهزيمة ديو البحرية في عام ١٥٠٩ التي تعد نهاية العصر الذهبي للملاحة العربية والاسلامية في المحيط الهندي(٢). ومما يسترعي الانتباه حدوث تلك الهزيمة خلال الفترة التي كان فيها الشاه اسماعيل الصفوي (١٤٩٩ ــ ١٥٢٤) يعمل على توطيد دعائم دولته التي اتخذت من تبريز عاصمة لها. ومما لاشك فيه أن تأسيس الدولة الصفوية في ايران قد استنفد جانبا كبيرا من الجهد الذي أضيف إليه جهد آخر تمثل في الصراع المذهبي الذي احتدم بين الدولتين الاسلاميتين الكبيرتين، الدولة الصفوية التي اعتبرت نفسها حامية للمذهب الشيعي والدولة العثمانية التي اعتبرت نفسها حامية للمذهب السني واستمرت المناوشات قائمة بين هاتين الدولتين حتى تفجر الموقف في معركة چالديران في ١٥١٤ التي انصرف العثمانيون بعدها للقضاء على دولة المماليك في مصر والشام حتى أجهزوا عليها في عام ١٥١٧.

ويمكننا ان نستخلص من ذلك انه لم تكد تمر سنوات قليلة على بدء وصول البرتغاليين الى سواحل الهند ثم الى سواحل الخليج العربي حتى قامت الحروب بين الدول الاسلامية الثلاثة المماليك والصفويين والعثمانيين واسفرت نتائج تلك الحروب عن تغيرات جذرية بعيدة المدى على الأوضاع السياسية في الشرق الاسلامي كان لها أثرها على الموقف العسكري والسياسي للبرتغاليين من ناحية والقوى الاسلامية من ناحية أخرى. ومما لاشك فيه أن تلك الأوضاع التي أشرنا إليها كانت مواتية لتوطيد السيطرة البرتغالية على بحار الشرق ولعل ما يؤكد لنا تلك الحقيقة أن البرتغاليين لم يواجهوا تحالفا بين القوى الاسلامية الكبرى ولم تكن هناك سوى دولة المماليك التي تصدت لهم عسكريا خلال السنوات الاولى من وصولهم إلى الهند وكان اصطدامهم اكثر وضوحا مع القوى المحلية الاسلامية سواء كان ذلك في سواحل شرق افريقيا أو في سواحل الهند أو سواحل الخليج والجزيرة العربية(٣). على أن تلك القوى المحلية كانت قد وصلت هي الأخرى إلى درجة كبيرة من الاعياء والتفكك فضلا عن احتدام الخلافات القبيلية والمنافسات الاسرية فيما بينها وكانت تلك الظروف جميعها في صالح البرتغاليين سواء ما كان يتعلق بها من أوضاع القوى الاسلامية الكبرى أو القوى المحلية إذ استغل البرتغاليون تلك الأوضاع لصالحهم، ففي سواحل شرق افريقيا حالف البرتغاليون شيخ مالينده ضد منافسه حاكم ممباسة، وفي منطقة الخليج العربي حالف البرتغاليون ملوك هرمز ضد منافسيهم شيوخ

بني جبر الذين نجحوا في السيطرة على البحرين والاحساء والقطيف وبعض المقاطعات العمانية وازداد الامر سوءا حين عمد البرتغاليون الى ارسال سفراء إلى ايران للتباحث مع الشاه اسماعيل الصفوي في شأن مشروعات دفاعية وهجومية ضد الدولة العثمانية التي بدأت تتطلع للسيادة على سواحل الخليج العربي.

ولعل ما يسترعي الانتباه ان الخلافات العصبية والمذهبية كانت أشد خطورة بالنسبة للمفاهيم التي كانت سائدة في ذلك الوقت من الأطماع الأجنبية التي بدأت تتربص بالقوى الاسلامية خلال تلك الفترة أقصر الطرق للمخططات الاستعمارية في المنطقة. وليست الخطورة في القوى الاستعمارية لتلك الخلافات بل أن الخطورة تتفاقم حين تعمد القوى المتنافسة اى الاستعانة بالقوى الاستعمارية لتصفية حساباتها فيما بينها، ولعل استقراء الاحداث التاريخية ما يفيد القوى العربية والاسلامية المتصارعة في منطقة الخليج العربي في وقتنا الحاضر...

بدأ البرتغاليون عملياتهم العسكرية الأولى بالسيطرة على مملكة هرمز باعتبارها تتحكم في مدخل الخليج العربي وتشكل في الوقت نفسه أكبر تنظيم سياسي واقتصادي عرفته المنطقة في السنوات التي سبقت الغزو البرتغالي. وقد أنيطت العمليات العسكرية البرتغالية في منطقة الخليج العربي إلى أنونسودى البوكيرك.. الذي نشأ في وقت كان الصراع فيه يدور على أشده بين المسلمين والمسيحيين في شبه جزيرة أبيريا فأشربت في قلبه الرغبة العنيفة في الانتقام من المسلمين، وقد بدأ البوكيرك حياته العسكرية في المغرب ثم انتقل الى ميدان الصراع الصليبي في بحار الشرق واليه ينسب بناء مجموعة من الحصون البرتغالية التي وصفت بالحصون التي لا تقهر في كل من هرمز ومسقط والبحرين وغيرها ولاتزال كثير من تلك الحصون باقية حتى يومنا هذا تشهد على ما كان عليه البرتغاليون من تسلط وغلظة.

وقد يكون من المفيد ان نتوقف عند مملكة هرمز باعتبارها ــ كما سبق أن أشرنا ــ أقوى التنظيمات السياسية والاقتصادية التي ظهرت في الخليج العربي حتى مجئ البرتغاليين في السنوات الاولى من القرن السادس عشر. وتجدر الاشارة الى أن هناك خلافات بين الباحثين بالنسبة لهوية تلك المملكة، فالكتاب الايرانيون يغالون في اصباغ الهوية القومية على هرمز فيصفونها بانها كانت مملكة فارسية على حين يؤكد الباحثون العرب على الصبغة العربية لهرمز باعتبار أن اللغة العربية كانت هي اللغة السائدة وأغلب سكانها من العرب وانتماء ملوكها الى أصول عربية فضلا عن اعتناقهم المذهب السني وذلك على خلاف المذهب الشيعى الذي كان سائدا في ايران. أما المصنفون المسلمون القدامى كالاصطخرى والمقدسي والادريس وغيرهم فقد أكدوا على أن هرمز كانت مملكة عالمية فسكانها من العرب والفرس والهنود والزنوج والبلوش والترك والاوروبين إلى الحد الذي كانت تظهر فيه كمنطقة تجمع عالمية وأن احتفظت في نفس الوقت بطابعها العربي والاسلامي إذ إنه على الرغم من أنها كانت تجمع الكثير من الاجناس إلا أن اللغة العربية كانت هي لغة التعامل كما كان أغلب سكانها من العرب إذ أن طبيعة النشاط البحري والتجاري الذي كانت تتميز به مملكة هرمز قد

ساعد على بروز الكثير من البحارة والتجار العرب خاصة من اليمن وعمان وموانئ الخليج العربي.(٦).

وينبغي أن نميز هنا بين مملكة هرمز القديمة التي كانت قائمة في البر الأصلي وبين مملكة هرمز الاكثر حداثة التي ظهرت في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي. فمملكة هرمز بمفهومها القديم كانت تشكل أجزاء داخلية من الساحل الايراني وتتفق معظم المصادر على ظهور تلك المملكة بدءاً بأواخر القرن العاشر الميلادي حيث تعاقب عليها الكثير من الأمراء والملوك حتى إذا وصلنا الى الامير بهاء الدين وهو الخامس عشر من سلالة ملوك هرمز نجد أن عهده قد صادف الهجوم الكبير الذي تعرضت له مملكة هرمز في عام ١٣٠١ أي في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي من قبل فرسان التتار وكان الهجوم عنيفا لدرجة أن الأمير وشعبه هجروا هرمز الواقعة على الساحل الشرقي من الخليج وانتقلوا الى جزيرة قشم ومنها الى جزيرة جروف المواجهة لمدينتهم القديمة والتي أطلقوا عليها هرمز تيمناً بها وأصبحت جزيرة هرمز منذ ذلك التاريخ عاصمة لاكبر تنظيم سياسي وتجاري عرفته منطقة الخليج العربي(٧).

ولعل مما يثير الانتباه أن تلك الجزيرة الصغيرة الجرداء قد ارتفع مستوى معيشة سكانها بعد فترة وجيزة من انتقال النشاط التجاري إليها ويرجع ذلك الى اتساع الحركة التجارية وكثرة الصادرات والواردات كما أن النشاط الاقتصادي لم يقتصر على بلدان العالم الاسلامي فحسب وانما امتد الى القارة الأوروبية حيث اصبحت هرمز حلقة اتصال تجاري بين الشرق والغرب كما لعب تجارها دورا بارزا في نقل بضائع الشرق الى أوروبا. ولم تقتصر هرمز على أهميتها التجارية فحسب وانما امتد نفوذها على طول السواحل الغربية للخليج حتى البصرة كما امتدت سيطرتها على سواحل فارس الجنوبية وطبقا لما يذكره الرحالة البرتغالي بدرو تكسيرا أن هرمز نجحت نجاحا باهرا خلال المائتي عام التالية من تأسيسها ١٣٠١/ ١٥٠٠ حتى أنها ساءت على كثير من مقاطعات الخليج والجزيرة العربية واستمرت قائمة حتى أخضعها البرتغاليون لسيطرتهم منذ عام ١٥٠٧ وظلت خاضعة للبرتغاليين حتى نجح الشاه عباس الكبير بالتعاون مع الانجليز في اجلاء البرتغاليين عن هرمز في عام ١٦٢٢ وأمر بتدميرها وانتقل النشاط التجاري الى ميناء بندر عباس(٨).

ولعل مما تجدر الاشارة اليه ان مملكة هرمز كانت من بين الممالك الاسلامية الهامة التي زارها الرحالة ابن بطوطة وذلك خلال رحلته الأولى التي قام بها في الربع الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي ١٣٢٥ ــ ١٣٤٩ وقد خلف لنا وصفا ممتعا عن هرمز وسلطانها وتجارتها وحياتها الاجتماعية وقدم لنا صورة شيقة عما كانت عليه المملكة من عظمة وثراء فذكر انها مرسى السند وفارس وخراسان والهند وابدى أعجابه بأسواق المدينة المجهزة تجهيزا حسنا كما وصف سلطانها قطب الدين وهو الحاكم الرابع في هرمز الجديدة بالكرم والتواضع والأخلاق النبيلة غير أنه وجده مشغولا ومتهيأ للحرب ضد أخيه نظام الدين(٩). ولم يكن الرحالة المسلمون وحدهم هم الذين استرعى انتباههم أهمية هرمز وانما جذبت الجزيرة انتباه عدد كبير من الرحالة الأوروبيين من بينهم الرحالة لودفيج فارتمان Wartheman الذي زارها قبل مجئ البرتغاليين بسنوات قليلة في عام ١٥٠٣ وكان بكتابته عنها خير شاهد على عظمتها، ومما ذكره بصدد ذلك أنه كان يوجد بمينائها ما يزيد أحيانا على

ثلاثمائة سفينة تجارية لمختلف بلاد العالم راسية على أرصفتها البحرية كما كان يقيم بصفة دائمة اكثر من اربعمائة تاجر وأن معظم تجارتها كانت من اللؤلؤ والاحجار الكريمة والحرير والعقاقير والتوابل(...).

أما الرحالة البرتغالي دورات باربوسا الذي كان مصاحبا لفاسكو دى جاما في رحلة الى الهند فقد وصف الجزيرة بالجمال وذكر أن بيوت أثريائها كانت أشبه ما تكون بالمتاحف لما تحويه من تحف وقطع أثاث واردة من الهند والصين وأن الازدهار التجاري الذي تمتعت به كان يعود في الدرجة الأولى الى موقعها الاستراتيجي في المضايق المؤدية الى الخليج، وقد أضيف الى ثرائها التجاري الدخل الذي كانت تتحصل عليه من المكوس الجمركية التي كانت تفرضها على الموانئ التابعة لها. ومن الطبيعي أن هذا الدخل أخذ يتحول لصالح البرتغاليين بعد سيطرتهم عليها وعلى ذلك فان من الخطأ المبالغة في أن البرتغاليين حولوا تجارة الشرق الى طريق رأس الرجاء الصالح إذ ظلت الطرق البحرية القديمة مستخدمة في تجارة الشرق وإن كانت تحت السيطرة البرتغالية ويدل ذلك على كثرة الرسوم الجمركية التي كان يجبيها البرتغاليون لحسابهم(...). وفي تقديرنا أن السبب في الأزدهار التجاري الذي تمتعت به هرمز يرجع الى أن دائرة النشاط التجاري قد اتسعت مع بداية العصور الحديثة فلم تعد مقتصرة على نقل التجارة بين الهند وسواحل شرق افريقيا الى قلب العالم الاسلامي بل أصبحت مملكة هرمز تمثل الحلقة الهامة في نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب وخاصة حين دخلت المدن الايطالية ذلك الميدان وأصبحت هرمز مثلا يضرب على الثراء ويعرفها رجل الشارع الاوروبي وتردد أسمها في أشعار جون ميلتون واعتبرت خاتمة العالم من يمتلكها يمتلك العالم بأسره(...). على أنه رغم العظمة التي بلغتها إلا أنها لم تستطع أن تحمي نفسها والمناطق التابعة لها من الغزو البرتغالي ولذلك سقطت في أيدي الغزاة البرتغاليين في عام ١٥٠٧(...).

ويمكن تفسير خضوعها السريع للبرتغاليين أن أهلها كانوا يشتغلون بالتجارة والملاحة ولم تكن لهم دراية بفنون القتال يضاف إلى ذلك التفكك الذي كانت تعاني منه المملكة بسبب تفاقم الصراع بين أفراد الاسرة المالكة كما أن الدولة الصفوية كانت منشغلة في توطيد دعائم حكمها، وحتى بعد أن ثبتت دعائم الحكم اتجهت الى التوسع في الشمال ولم تلعب دورا يذكر في صد الغزو البرتغالي وظلت بعيدة عن الاشتباكات العسكرية مع البرتغاليين بل إنها اتجهت في بعض الاحيان الى إقامة علاقات تحالف معهم ولم تتحول الدولة الصفوية الى قوة مناهضة للبرتغاليين الا منذ نهاية القرن السادس عشر الميلادي(...) وكان الامتداد الكبير الذي بلغته مملكة هرمز يشكل في نفس الوقت عاملا من عوامل انهيارها ولذلك كان من الطبيعي أن يؤدي تفسخ تلك المملكة الى افساح المجال لظهور مجموعة من القوى السياسية التي اتجهت الى منازعتها السيادة، ومن بين تلك القوى شيوخ بني جبر الذي بدأ نجمهم يصعد في أواسط نجد منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي (٨٧٢هـ ــ ١٤٦٧م) وتمكنوا من انتزاع البحرين والاحساء والقطيف وبعض الاقاليم العمانية من

مملكة هرمز مستغلين في ذلك الصراع الاسري الذي كان قائما بين سيف الدين وأخيه فخر الدين نورا نشاه بل أن الصراع أعطى بنو جبر فرصة التدخل في المملكة ذاتها وأصبح شيخهم يلعب بسلطان البحرين والقطيف والاحساء ورئيس أهل نجد(١٥).

نستخلص من ذلك أنه عند مجئ البرتغاليين إلى الخليج العربي كانت هناك قوتان متنافستان مملكة هرمز من ناحية وشيوخ الجبور من ناحية أخرى(١٦). وكان من الطبيعي أن يتجه البرتغاليون الى تعميق هذا التنافس تحقيقا لمصالحهم ويمكننا أن نضيف الى هذا التنافس بين هاتين القوتين تفكك الأوضاع السياسية في كثير من المقاطعات العمانية، ففي الوقت الذي خضعت فيه مسقط وخورفكان وقلهات وصور وسورات وغيرها من مقاطعات الساحل لمملكة هرمز(١٧) كانت المقاطعات الداخلية في أيدى الملوك البهائيين الذين كانوا يتعرضون دوماً لثورات الاباضين المتحمسين لبعث الامامة الاباضية(١٨). وفي عام ١٤٨٣ عقدت الامامة لعمر بن الخطاب الخروصي ولكن لم يلبث أن أطاح به البهائيون بعد سنة واحدة قضاها في الحكم ولعل ذلك مما جعله يستعين ببني جبر في الاحساء الذين نجحوا في إعادة تنصيبه إماما على عمان في عام ١٤٨٧ وكان من الطبيعي أن تصبح عمان الداخل في نفوذ بني جبر وظهر ذلك واضحا حين تجدد القتال بين الاباضيين والنبهانيين على عهد الامام محمد بن اسماعيل الذي خلف الامام الخروصي بعد أن نجح بفضل استعانته بشيوخ الجيور من قتل الملك النبهاني وأخذ البيعة بالامامة ١٥٠٠ ــ ١٥٣٥م(١٩).

ولعل مما يؤكد تفوق نفوذ بني جبر في عمان أن البرتغاليين حينما دخلوا الخليج أول مرة في عام ١٥٠٧ تحدثوا عن قوتهم حتى أن أفونسودى البوكيرك ذكر أن عمان الداخل كانت خاضعة لشيخ من شيوخهم الذي وصفه بملك الجبور وذكر أن معظم جزيرة العرب تدين له بالولاء وعلى الرغم من أن ذلك الوصف يحمل الكثير من المبالغة إلا أنه يحمل ايضا كثيرا من الحقائق فالأمر الذي لاشك فيه أن الجبور كانوا قد تمكنوا حول بداية القرن السادس عشر من السيطرة على كثير من المقاطعات الداخلية في الجزيرة العربية بالاضافة الى الاحساء والقطيف والبحرين وعمان الداخلية والساحلية ويؤكد ذلك ما أشار اليه المؤرخ البرتغالي باروس Barrotz من أن الجبور كانوا يشنون هجمات مستمرة على مملكة هرمز وأنهم كانوا يشكلون خطرا عليها(٢٠). ويفهم من ذلك ان الصراع بين ملوك هرمز وشيوخ الجبور كان هو الوضع السائد في الخليج حين وصل البرتغاليون الى سواحله وعلى الرغم من أن الجبور كانوا هم القوة الصاعدة إلا أن هرمز كانت هي القوة الرسمية المتصدية لزعامة الخليج وكان عليها أن تتكفل بحمايته من الغزو البرتغالي المفاجئ رغم التفكك السياسي الذي كانت تعاني منه(٢١). ولعل ما يلفت النظر أن الدولة الصفوية الناشئة في ايران حول ذلك الوقت لم تتعاون مع مملكة هرمز في هذه المهمة وتلك الملاحظة لها أهميتها الخاصة لأنها دليل واضح على عدم تبعية هرمز للدولة الصفوية أو للدول التي سبقتها في فارس وذلك خلاف لادعاءات بعض الكتاب الايرانيين المعا صرين الذين تمادوا في تطبيق النظرة القومية على ذلك العهد الى حد ادعائهم ان نفوذ فارس كان يمتد على طول سواحل شرق الجزيرة العربية باعتبارها تبعية هرمز للسيادة الفارسية(٢٢).

بدأ البوكيرك عملياته العسكرية الاولى في الخليج بمحاولة الاستيلاء على مسقط وكان ذلك على عهد الامام محمد بن اسماعيل في عام ١٥٠٧ وقد حاول حاكم مسقط تفادي الخراب والدمارالذي الحقه البرتغاليون بقريات بعقد الصلح معهم ولكن ملك هرمز رفض قبول ذلك الصلح وبادر بارسال قوة عسكرية الى مسقط التي كانت تابعة له بيد أن البرتغاليين نجحوا في تحقيق الانتصار وأصدر البوكيرك أمره بحرق المدينة واغتصابها انتقاما لنقد الصلح الذي عقد معها ولم تنته العمليات العسكرية إلا بعد تعهد شيوخ المدينة بتسليم جزية من الذهب قدرت بعشرة ألاف زرافين(٣٣).

وحين انتهت العمليات العسكرية في مسقط انتقل البوكيرك الى هرمز التي كان يحكمها سيف الدين وهو فتى لم يتجاوز عمره اثنى عشر عاما وكان يرأس مجلس البلاد خوجه عطار وهو شيخ محنك. وقد رأى البوكيرك أن السيطرة على هرمز سيؤدي الى احكام سيطرته على الخليج العربي لأهميتها الاستراتيجية(٣٤) وقد استطاع أن يحقق نصرا عسكريا وأصبحت هرمز منذ عام ١٥٠٧ تابعة للبرتغاليين حيث وافق ملك هرمز على دفع جزية سنوية قدرت بخمسة عشر زراقين وبمتضى المعاهدة التي عقدت مع ملك هرمز اعفيت البضائع البرتغالية من الرسوم الجمركية في الوقت الذي عمد فيه البرتغاليون الى تطبيق سياستهم الاحتكارية حيث أصدروا أوامر بمنع أية سفينة من ممارسة الملاحة في الخليج قبل حصولها على تصريح من السلطات البرتغالية وبذلك العمل كتب البرتغاليون السطر الاول في سيادتهم الحربية والتجارية على الخليج العربي(٣٥).

وعلى عكس ما كان متوقعا من ان تتجه القوى المحلية للتضامن فيا بينها لمواجهة البرتغاليين نجد أن تلك القوى أخذت تعاني قدرا كبيرا من التفكك إذ انصرف ملوك هرمز الى سحق نفوذ الجبور في البحرين حيث كانت هرمز في عام ١٥١١ بارسال حملة عسكرية الى البحرين نجحت في السيطرة عليها وانتزاعها من شيوخ بنى جبر الذين عاودوا السيطرة عليها ومن ثم فعلى أثر هيمنة البرتغاليين على هرمز كان من الطبيعي أن يساندوا ملوكها للتخلص من نفوذ بنى جبر. ومما يستلفت الانتباه أنه على الرغم من ان الشاه اسماعيل الصفوي قد احتج على العدوان البرتغالي على هرمز إلا انه لم يقم بدور ايجابي ضد البرتغاليين إذ كان منشغلا في صراعه العسكري ضد العثمانيين وكانت هزيمته في چالد يران ١٥١٤ سببا في مهادنته للبرتغاليين على أمل الاستعانة بهم ضد العثمانيين ويذكر لوريمر بصدد ذلك انه في عام ١٥١٥ وصل الى هرمز سفير الشاه اسماعيل الصفوي يحمل عدة مطالب أجيب الى بعضها واقترح ضمن اقتراحات كثيرة أن تقدم البرتغال بعض سفنها لايران كي تمكنها من غزو البحرين والقطيف وأن يساعد البرتغاليون الشاه في قمع تمرد قام ضده في مكران وأن يتنازل الشاه للبرتغاليين عن جوادور الواقعة على ساحل بلوخستان وأن يقوم تحالف ضد تركيا بين ايران والبرتغال(٣٦). ويمكننا ان نستنتج من ذلك ان البرتغاليين قد استغلوا الصراع الصفوي العثماني لكي ينفذوا الى صداقة الصفويين ولاشك ان نجاح البرتغاليين في تثبيت نفوذهم في هرمز قد اكد للصفويين أن البرتغاليين قد أصبحوا يشكلون قوة بحرية في الخليج لاقبل لهم للتصدى لها ومن ثم

أخذوا يعملون على كسب صداقتهم لمساندتهم ضد العثمانيين.

ولم يقتصر التسلط العسكري البرتغالي على هرمز والمقاطعات الساحلية من عمان وانما عمد البرتغاليون للسيطرة على البحرين والاحساء والقطيف وغيرها من المناطق الساحلية التي كانت تابعة لمملكة هرمز وباسم ملك هرمز خاض البرتغاليون صراعا عنيفا ضد بنى جبر الذين كانوا يسيطرون على تلك المناطق. وفي عام ١٥٢٠ تعرضت البحرين لهجوم برتغالي ــ هرمزي مشترك أثناء تغيب السلطان مقرن بن زامل من بنى جبر حيث كان قد سافر الى مكة لتأدية فريضة الحج ورغم البسالة التي تميز بها السلطان مقرن بن زامل الا أنه لم يلبث بعد عودته أن وقع أسيرا في أيدي البرتغاليين الذين بادروا باعدامه وكان بذلك أول حاكم في شرق العالم الاسلامي يلقي حتفه في معركة ضد المستعمرين البرتغاليين.

وقد روى تلك الاحداث المؤرخ المصرى ابن إياس كما وردت ايضا في المصادر البرتغالية المعاصرة على أنه مما يستلفت الانتباه اختلاف تلك الروايات فيما بينها فبينما تؤكد المصادر البرتغالية أن السلطان مقرف بن زامل مات متأثرا بجراحة تشير رواية ابن إياس أنه وقع حيا في أيدى البرتغاليين وأنه عرض عليهم أموالا كثيرة ليطلقوا سراحه إلا أنهم رفضوا ذلك وقتلوه ومع ذلك فإن صحت الرواية ابن إياس فن المحتمل أن يكون قد دارت بينه وبين البرتغاليين مفاوضات أبدى فيها استعداده بأن يدفع لملك هرمز ما في ذمته من ديون إلا ان اشتداد المعارك لم تؤد الى تنفيذ ذلك العرض وأنما انتهى الامر بنجاح البرتغاليين في السيطرة على البحرين باسم ملوك هرمز وإن لم يتمكنوا من التقدم الى الاحساء والقطيف بسبب عنف مقاومة الجبور(٢٨).

ومما يسترعى الانتباه أنه لم يكن مصرع السلطان مقرن وخضوع البحرين للبرتغاليين حدثاً عابرا وانما أحدث صدى كبيرا ورنة حزن وأسى في انحاء الخليج بل أن ابن إياس رغم اتهامه للسلطان مقرف بالتخاذل أمام البرتغاليين إلا انه لم يتردد في التعبير عن حزنه والتعليق على استشهاده بأنه كان من أشد الحوادث في الاسلام وأعظمها حيث أورد في حوادث عام ٩٢٨هـ (١٥٢١م) ما نصه «وأشيع قتل الامير مقرن أمير عرب بنى جبر متملك جزيرة البحرين الى بلاد هرمز الأعلى وكان أمير جليل القدر معظما مبجلا في سعة من المال وكان مالكي المذهب سيد عربان المشرق على الاطلاق وكان قد أتى الى مكة وحج في العام الماضى. فلما حج ورجع الى بلاده لاقته الفرنج في الطريق وتحاربت معه فانكسر الامير مقرن وقبضوا عليه باليد وأسروه فسألهم أن يشترى نفسه منهم بالف الف دينار فأبوا الفرنج ذلك وقتلوه بين أيديهم ولم يغن عنه ماله شيئا وملكوا جزيرة بين النهرين وملكوا قلعتها التي هناك واستولوا على أموال الأمير مقرن وبلاده وكان ذلك من أشد الحوادث في الاسلام وأعظمها وقد تزايد شر الفرنج على سواحل البحر الهندي والأمر لله تعالى»(٢٩).

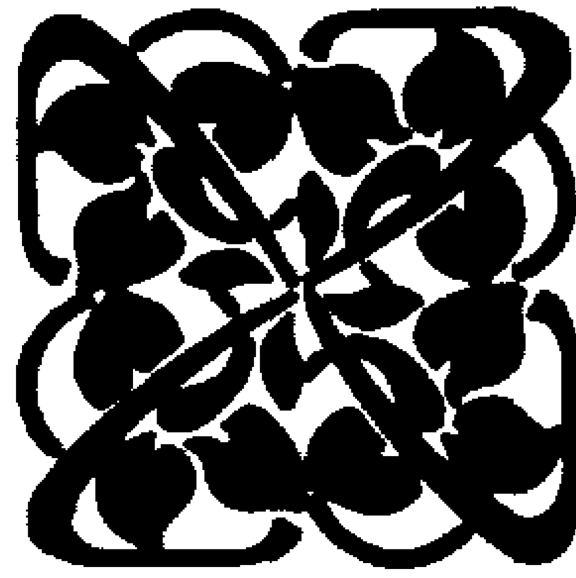
ولم يستمر التحالف قائما بين البرتغاليين ومملكة هرمز إذ سرعان ما تبين لتورا نشاه ملك هرمز سطوة البرتغاليين واستعلائهم وأنهم لم يهدفوا بتحالفهم مع هرمز إلا التمهيد لفرض سيطرتهم العسكرية والاقتصادية ومن ثم أخذ تورا نشاه يترقب فرصة تسنح له وللولاة التابعين له سواء من كان منهم في عمان أو البحرين أو الحساء والقطيف أو غيرها من مقاطعات الخليج للتحرر من السيطرة البرتغالية وحين وصلت الانباء بأن البرتغاليين يواجهون صعابا في الهند وأصبحوا مضطرين سحب جزء من قواتهم العسكرية في الخليج لمواجهة مشاكلهم هناك بادر تورا نشاه باصدار أوامره لاعلان الثورة ضد البرتغاليين (٣٠ نوفبر ١٥٢١) ومن الامور التي تثير الاهتمام ان يتوصل عرب الخليج الى خطة محكمة لتوقيت الصراع ومهاجمة الحصون البرتغالية دفعة واحدة حيث تعرضت الحاميات البرتغالية في هرمز والبحرين ومسقط وقريات وصحار وغيرها الى هجمات ليلية مفاجئة من البر والبحر وقتل خلال تلك الأحداث عدد كبير من البرتغاليين(٢٠). ومع ذلك فان هذه الحركة فشلت في تحقيق أهدافها بسبب استمرار الخلافات بين شيوخ الجبور وملوك هرمز.

ومما يجدر الاشارة اليه بصدد ذلك أن كثيرا من الكتاب الايرانيين يركزون على الموقف المتخاذل الذي وقفه فرع الجبور في عمان مما كان سببا في فشل الثورة. وفي تقديرنا أن الموقف السلبي الذي اتخذه بنو جبر في عمان يرجع اساسا إلى أن طبيعتهم القبيلية طغت على نفوسهم واستبدت بهم الرغبة للانتقام من ملك هرمز الذي سبق له ان تعاون مع البرتغاليين مما كان سببا في قتل زعيمهم الكبير مقرف بن زامل ولعل ما يؤكد ذلك تمكنهم من قتل الملك تورا نشاه الذي كان قد التجأ الى جزيرة قشم هربا من البرتغاليين بعد فشل ثورته حيث أرسل الشيخ حسين بن سعيد زعيم بنى جبر في عمان بعض أتباعه ليثأروا منه وبذلك نجح بنو جبر في تصفية حسابهم مع عدوهم اللدود تورا نشاه وإن كان ذلك على حساب القضية العامة(٢١).

وكان من الطبيعي أن يؤدي فشل الحركة الى قيام البرتغاليين بوضع نهاية للحكم الوطني في هرمز وذلك بمقتضى معاهدةميناب التي أبرمت مع محمود شاه الذي خلف تورا نشاه في الحكم وقد اكدت تلك المعاهدة السيطرة البرتغالية على هرمز وتوابعها واستمر خضوع هرمز للبرتغاليين حتى عام ١٦٢٢ حين سقطت في قبضة الانجليز والفرس وخلال تلك الفترة من السيطرة البرتغالية التي امتدت ما يقرب من مائة عام ١٥٢٣- ١٦٢٢ جرت محاولات من قبل القوى المحلية للتخلص من السيطرة البرتغالية، ففي عام ١٥٢٦ قام العمانيون بمهاجمة الحامية البرتغالية في كل من مسقط وقلهات وفي عام ١٥٢٩ أعاد البرتغاليون فرض سيطرتهم على البحرين(٢٢) كما حاولت الدولة العثمانية بين عامي ١٥٥٠ و١٥٨٠ التصدي للنفوذ البرتغالي في الخليج(٢٣) وبخروج العثمانيين من ساحة الصراع في الخليج العربي انفسح المجال أمام قوة عربية ناشئة هي قوة اليعاربة في عمان لكي تنهض بالتعاون مع القبائل العربية في الخليج لتحرير شواطئها من الاستعمار البرتغالي وهو الدور الكبير الذي قدر

لعرب الخليج أن يحرزوا قصب السبق فيه مستفيدين في ذلك من الظروف الداخلية والخارجية التي كانت تمر بها الامبراطورية البرتغالية مما جعلهم يقفون منها موقف التحدي ويشكلون عاملا كبيرا من عوامل انهيارها في بحار الشرق(٣٤).

وما كاد النفوذ البرتغالي ينهار في الخليج العربي منذ السنوات الاولى من القرن الثامن عشر حتى انفسح المجال للقوى العربية لتعيد تنظيم نفسها في شكل تنظيمات سياسية جديدة وهذه التنظيمات هي التي أصبح يرتكز عليها ـــ الى حد كبير ـــ التشكيل السياسي لدول الخليج العربي حتى وقتنا الحاضر(٣٥).



الهوامش

١. عن الازدهار العربي الملاحي والتجاري في المحيط الهندي انظر آدم متز: الحضارة الاسلامية ج٢، ص ص ٤٣٩ ــ ٤٤٣ ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة وكذلك فضلوا حوراني: الملاحة العربية في المحيط الهندي ــ القاهرة ١٩٥٨.

ويحدد جون كلي العصر الذهبي للملاحة والتجارة في الخليج العربي على الفترة الممتدة من نشؤ الخلافة العباسية في بغداد في منتصف القرن الثامن الميلادي (٧٥٠م) حتى وصول البرتغاليين الى مياه الخليج العربي في عام ١٥٠٧.

CF. Jahu: Britain and the Prtian Gulf 1795- 1880. PP- 6 -8 London 1968

٢. Durate Barbosa: ADescriptino of the Coast of East Africa and Malabar in the begining of the Six teen Century Trans. by H. Stanley PP. 75-76 Hakluyt Society London 1866

وانظر ايضا ما ذكره ابن إياس عن معركة ديو في كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور تحقيق محمد مصطفى، ج٤، ص١٨٥، القاهرة ١٩٦٠.

٣. عبد العزيز الشناوي: المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية ــ من أعمال مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية المجلد الثاني، ص ص ٦٣٥ ــ ٦٣٩، الدوحة ١٩٧٦.

٤. دكتور جمال زكريا قاسم: الخليج العربي دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسع الاوروبي الاول، ص ص٤٨٥/ ٤٨٦، القاهرة ١٩٨٥.

٥. Arnald Wilson: The Persian Gulf An Histori Lal Sketch From the Eartiest tiues to the begining of the 20 nh Century P. 185. London 1954.

٦. د. جمال زكريا قاسم: الخليج العربي دراسة لتاريخ الامارات عصر التوسع الاوروبي الاول، ١٥٠٧/ ١٨٤٠، ص ص٥٣ . ٥٤ القاهرة ١٩٨٥.

٧. راجع بصدد ذلك دراسة جان أوبان عن أمراء هرمز من القرن الثالث عشر الميلادي حتى القرن الخامس عشر التي تعتبر من ارق الدراسات التي كتبت عن مملكة هرمز.

CF. Jean Aubin: Les Princes d'Ormuz du X111 or XV Siecles P.7 et 120 FF. Journal Asiatique CDXLI 1973.

٨. Chades Low, History of the Indian Navyvol I P.43 London 1877 jee also Wilson, A, Op. Cit. P.124

٩. ابو عبد الله محمد بن بطوطه: تحفة النظار في عجائب ال سنار وغرائب الامصار، ج١، القاهرة ١٩٣٣.

١٠. عبد السلام عبد العزيز فهمي: مملكة هرمز، المجد في نشأتها وازدهارها والعبرة من سقوطها واستسلامها، مجلة العربي الكويت، العدد ١٨٤ مارس ١٩٧٤.

١١. CF The Travels of Pedro Teixiera With his Kings of Hormuz Translated by Wiuiam F. Siuclair Hakluyt Society London 1902 See Relation of the chranicle of the Kings of Ormuz PP. 265-266

١٢. لم تحصل هرمز على شهرة تجارية فحسب بل حصلت على شهرة في عالم الادب حين أشاد بها الكتاب والشعراء وعلى رأسهم الشاعر الانجليزي جون ميلتون Melton في ديوانه الفردوس المفقود The Lost Paradise حيث أورد بيتا من الشعر جاء فيه:

IF all the World Were mere a ring Ormuz the Diamand should bring

انظر: دونالد هولي: عمان ونهضتها الحديثة ص٢٦ (مترجم) نشر مؤسسة سنايس الدولية (بدون تاريخ)

١٣. عن خضوع هرمز للسيطرة الدولية انظر:

The book of Durate Barbosa by Mausil Dames Vol I PP 101-103 CF An allount of the Countries bordering on the Indian Olean and their in habitauts Written by Durate Barlosa and Com pleted about the year 1518

١٤. مصطفى عقيل: التنافس الدولي في الخليج العربي ١٦٢٢ ــ ١٧٦٣، ص٢٠، بيروت ١٩٨١.

١٥. علي عبد الرحمن أبا حسين: من تاريخ البحرين خلال المخطوطات والوثائق، انظر أبحاث الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية، ص٢٤٦، أبوظبي، نوفمبر ١٩٧٩.

١٦. علي عبد الرحمن أبا حسين:دراسة سبق ذكرها، ص ٢٤٦.

١٧. عائشة السيار: دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا ١٦٢٤ ــ ١٧٤١، ص ص ٢٢/ ٢٣، بيروت ١٩٧٥.

١٨. جون كلي: بريطانيا والخليج ١٧٩٥ ــ ١٨٧٠ ترجمة محمد أمين عبد الله الجزء الاول، ص ١٧، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان ١٩٧٩.

١٩. حميد بن محمد بن رزيق: الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى عبد الله ص ص ٢٥٧/ ٢٦٠، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٩٧٧، راجع ايضا أبو سليمان محمد بن عامر المعولي: قصص وأخبار جرشن في عمان (مخطوط) ورقة رقم ٤٣، وكذلك محمد بن عبد الله السالمي: عمان تاريخ يتكلم ص ص ١٥٢/ ١٥٣، وشن ١٩٦٣.

٢٠. عبد اللطيف ناصر الحميدان: التاريخ السياسي لامارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية، العدد ١٦ من مجلة كلية الاداب، جامعة البصرة، ١٩٨٠.

٢١. F. tdamyiat: Bahrein Islamds . Alegal& Diplomatic study of British Iraui an coutroresy P.14 New Yorke 1955

٢٢. صلاح العقاد: القيادات السياسية في الخليج العربي، ص ص ١٠/ ١١ القاهرة ٧٤

٢٣. الزرافين عملة برتغالية وكان يعادل ثلاثمائة ريال.

CF. Wendell Philips Oman A itistory PP. 37 - 39 London 1967

٢٤. عبد الأمير محمد أمين: المصالح البريطانية في الخليج ١٧٤٧/ ١٧٧٨ (مترجم) ص٩، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، بغداد، ١٩٧٧.

٢٥. أرنولد ويلس: تاريخ الخليج ترجمة محمد أمين عبد الله ص ص ٦٩/ ٧٠، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨١.

٢٦. ج.ج لوريمر: دليل الخليج ــ القسم التاريخي ــ الجزء الاول، ص٨، الدوحة ١٩٦٧، انظر ايضا صالح أوزيران: البرتغاليون والاتراك العثمانيون في الخليج العربي، ترجمة الدكتور عبد الجبار ناجي، ص ص ١٩/ ٢٠ منشورات مركزدراسات الخليج، جامعة القاهرة، ١٩٧٩.

٢٧. ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٥، ص ٤٣١.

٢٨. الحميدان: دراسة سبق ذكرها، مجلة كلية الاداب، جامعة البصرة، ١٩٨٠.

٢٩. ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، المجلد الخامس، ص ٤٣١، القاهرة ١٩٦٠.

٣٠. أرنولد ويلسن: الخليج العربي ص ص٧٩/٨٠ انظر ايضا عباس اقبال: مطالعاتي ورباب بحرين وسواحل وجزاير خليج فارس ص ص٦٣/ ٦٥، القاهرة ١٩٥٦.

٣١. جمال زكريا قاسم: الخليج العربي دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسع الاوربي الاول ١٥٠٧/ ١٨٤٠ ص٧٩/ ٨٠.

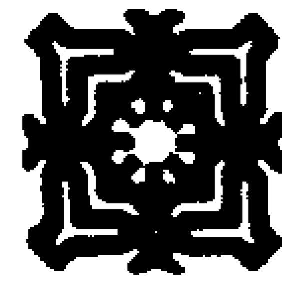
٣٢. Wendell Plirlips, Oman A History P. 39

٣٣. عائشة السيار: دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا ص٢٨.

ولمزيد من التفاصيل عن العمليات العثمانية في الخليج العربي ضد البرتغاليين راجع صالح أوزيران: البرتغاليون والاتراك العثمانيون في الخليج العربي، من منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة ١٩٧٩.

٣٤. CF Boyer, New light on the relation ship of Oman and Portu guese, Proceedings of Omaui Studies syun posium- Muscat, November 1980

٣٥. جمال زكريا قاسم: الخليج العربي دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسع الاوروبي الاول ص ٩٢.



الاوضاع الاجتماعية في الخليج العربي
إبان الغزو البرتغالي

د. فوزية العطية
استاذة علم الاجتماع المساعدة
كلية الاداب / جامعة بغداد

المقدمة:

كشفت البعثات الاثرية في الخليج العربي عن آثار مهمة تربط تاريخ الخليج العربي بتاريخ السومريين في العراق. ويعد الكنعانيون أول من سكن سواحل الخليج العربي، ثم الفينيقيون. كما استوطنت في منطقة الخليج العربي قبائل عربية اخرى هي قبائل قضاعة وربيعة واياد، واستقرت في عمان قبائل الازد من (كهلان) التي نزحت من اليمن بعد انهيار سد مأرب عام ١٢٠ق.م.

أما على الساحل الشرقي العربي (عربستان)، فقد سكنت ايضا قبائل عربية منذ اقدم العصور(١).

ان القاسم المشترك لاصول المجتمعات البشرية في الخليج كونها عربية بدوية المنشأ، تتميز بعلاقات قبلية وروابط عائلية متينة.

فسكان الخليج العربي يمثلون مجموعات كبيرة من القبائل، كانت تقيم على ضفاف الخليج وتخضع مباشرة لشيوخها، ولم يكن للقوى الدولية أي تاثير عليها. ومنطقة نفوذ كل قبيلة تسمى (الفريج) أي الفريق.

لقد شكلت منطقة الخليج العربي من الوجهتين الجغرافية والبشرية منطقة واحدة. فالقبائل والعشائر العربية التي تقطنها تترك من طرف الى اخر دونما قيود او حدود، الامر الذي أدى الى تداخل هذه القبائل والعشائر، وتناثر افخاذها وحمائلها على طول شواطئ الخليج العربي باعتبارها

ابناء عمومة. فأسرة سعود لها قرابة بالاسرة الحاكمة في الكويت والبحرين (عنزة) وتنتشر قبيلتا شمر وعنزة في كل من العراق والكويت والسعودية. وتنتشر عشائر العلمي والعوامل والمزاريع والغيم والقواسم والشرقيين وبنى ياس والزعاب والمناصير في كل من دبي والشارقة وعجمان وأم‌القيوين وابوظبي.

ومن الملاحظ ان القبائل التي تحضرت كانت تقيم على السواحل وتشتغل بالغوص على اللؤلؤ وصيد الاسماك والتجارة.

أما عمان التي كانت اكثر الاقاليم ازدحاما بالسكان واقربها الى المجتمعات الحضرية، فقد عرفت بنزعتها القبلية. وكان عرب الجنوب اول الوافدين للاقليم، استمرت سلطتهم حتى مجئ عرب الشمال وبالرغم من التزاوج بين المجموعتين، فان العصبية القبلية وقفت حائلا دون قيام اتحاد بينهما، واخذت كل فئة تحاول ان تسيطر على الاخرى.

لقد استمرت منطقة الخليج العربي خاضعة الى سيطرة القبائل العربية التي تنتمي الى ثلاثة تجمعات قبلية كبيرة نزحت من داخل شبه الجزيرة العربية، هي القواسم وبنى ياس والعقوب.

وقد حافظت تلك القبائل على علاقاتها القبلية، كما احتفظت بظواهر نشاطها الاقتصادي البدوي والتي من اهمها الرعي والزراعة ثم الغوص على اللؤلؤ والتجارة.

ورغم ان سواحل الخليج العربي كانت تمثل اشد مناطق العالم جدبا وفقرا، فقد تحول الخليج العربي الى مركز عالمي للملاحة في العصر الاموي وازدهرت فيه التجارة. واصبح أول منطقة عربية تتعرض الى تغلغل النفوذ الاوروبي، ومرت بجميع مراحل هذا التغلغل منذ بداية ظهوره وحتى تطوره الى اعلى المراحل في التغلغل والسيطرة الكولونيالية. فنطقة الخليج العربي تعتبر نموذجا امثل للصراع الدولي. فقد تصارعت فيها الدول الاوروبية الكبرى (البرتغال وانكلترا وهولندا والمانيا وروسيا وفرنسا). وقد كانت ايضا محط انظار الدولتين الشرقيتين الكبيرتين تركيا وايران، الا انها اصبحتا في مرحلة ظهور النظام الكولونيالي اضعف من ان تسيطرا على سير الاحداث في المنطقة(٢).

وسنحاول في هذه الورقة ان نتعرف على اهمية الخليج العربي والعوامل التي دفعت البرتغاليين الى اكتساحه في المبحث الاول، أما المبحث الثاني فنتناول فيه بعض الاوضاع الاجتماعية في الخليج العربي، أما المبحث الثالث فيتعرض الى دراسة بعض مظاهر الانشطة الاقتصادية في الخليج العربي واثرها في الحياة الاجتماعية.

المبحث الاول

اهمية الخليج العربي والعوامل التي دفعت البرتغاليين الى اكتساحه:

يمثل الخليج العربي نقطة وصل بين القارات الثلاث، آسيا وافريقيا واوروبا، كما يمثل جسرا طبيعيا لتجارة الشرق القادمة من الهند ومن الشرق الاقصى والمتجهة الى اوروبا، وكذلك التجارة الاتية من اوروبا عبر بلاد الشام والعراق فالخليج العربي.

ولاهمية الخليج العربي تاريخيا كممر بحري للثروات وطريق للتجارة اتجهت نحوه انظار القوى التوسعية الاستعمارية الغربية في العصر الحديث. فتوجه نحوه الباحثون عن الذهب والتوابل والعبيد خاصة بعد التطورات الاقتصادية الاجتماعية الهامة في المجتمعات الاوروبية التي انتقلت من مرحلة المجتمع الاقطاعي الى المجتمع الرأسمالي الجديد ومتطلباته واساليبه الضرورية في التوسع. فتنافس عليها الاوروبيون خلال الاربعة القرون الاخيرة، واصبح البرتغاليون أول نذر الشر[٣]. فالمصالح التجارية سبقت المطامع السياسية في منطقة الخليج العربي. وظل الانكليز متخلفين في التوسع التجاري، بينما اسرع البرتغاليون الى استكشاف الاراضي فيما وراء الهند[٤]..

فالتجارة كانت تنتقل عبر ثلاث طرق: الطريق الاوسط وتنقل فيه البضائع بحرا الى هرمز ومنها الى شط العرب ثم الى بغداد لتحملها القوافل الى حلب وانطاكيا والشام واحيانا كانت تنقل الى القاهرة والاسكندرية. والطريق الجنوبي على البحر الاحمر تنقل فيه السفن العربية البضائع من الهند والشرق الاقصى الى سواحل البحر الاحمر ومنها الى القاهرة والاسكندرية. اما الطريق الشمالي وهو عبارة عن مسالك متشعبة من الهند والصين تلتقي في سمرقند وبخاري وتفترق مرة اخرى ليمتد بعضها نحو بحر الخزر ليقطع روسيا الى سواحل البلطيق ويمتد بعضها الاخر في استراحات الى ضفاف نهر الفولكا ليسير شرقا الى ارمينيا عبر تبريز ليصل الى سواحل البحر الاسود. وكانت اغلب هذه الطرق التي تقطعها القوافل تخضع للسيطرة العربية[٥].

اما المدن الاوروبية التي كان لها اعظم الاثر في تجارة المشرق في مطلع القرن الخامس عشر فهي جنوا والبندقية وبعض المدن الالمانية.

الا ان جنوا فقدت مكانتها بعد سقوط القسطنطينية في ايدى الاتراك عام ١٤٥٣، وفقدت البندقية ما بقى لها من امتيازات بسبب الصراع المستمر بين المماليك في مصر. لذلك اصبح واضحا ان الدولة التي تتمكن من اكتشاف طريق يصل الى الهند ستحقق ثروة ومكانة عظيمتين. وقد كانت البرتغال قد بدأت بتكريس جهودها في البحث عن هذا الطريق بهدف التوسع والوصول الى الهند والشرق الاقصى مباشرة دون الحاجة الى توسط المسلحين البنادقة في نقل التجارة.

كانت البرتغال في الاصل جزء من قشتالة، احدى الممالك المسيحية الصغيرة في شمال اسبانيا. فتحت في القرن الثاني عشر اقطاعية للنبلاء الفرنسيين الذين كانوا قد شاركوا في الحروب الصليبية

الاسبانية وتحدى هؤلاء الاقطاعيون الفرنسيون ملك قشتالة واقاموا ملكية مستقلة بمساعدة الانكليز. وفي اوائل القرن الخامس عشر اكتمل الكيان السياسي للبرتغال واخذت تتطلع للتوسع ومد نفوذها على مناطق جديدة.

وفي عام ١٤٩٧ قام المستكشف البرتغالي فاسكو دى جاما برحلة للدوران حول القرة الافريقية، اكتشف خلالها رأس الرجاء الصالح وقد كان للملاحين العرب دورا اساسيا في هذه الاستكشافات وان كانت قد سجلت للبرتغاليين. فالبحارة العربي احمد بن ماجد. (ليث البحر) هو الذي قاد سفينة فاسكو دى جاما واوصلها الى الهند.

وبعد ان اصبح الطريق واضحا امام البرتغاليين للدوافع الاقتصادية والسياسية والدينية بدأت البرتغال عسكريا تتجه نحو الطريق الجديد وبدأت حملتها الاولى في الفترة ١٥٠٢ ــ ١٥٠٥ للسيطرة على الهند. وفي عام ١٥٠٦ كلف القائد البرتغالي البوكيرك بالتوجه نحو الخليج العربي.

يبدأ تاريخ الاستعمار الاوروبي باكتشاف رأس الرجاء الصالح وهي على مرحلتين، المرحلة التجارية وتنتهي بالثورة الفرنسية، والمرحلة الصناعية الاستعمارية أو الاستعمار الحديث ويبدأ بالثورة الصناعية(٧).

ويعتبر وصول فاسكو دى جاما الى الهند في مايس عام ١٤٩٨م أول بوادر الانقلاب العالمي الحديث ونشر الرأسمالية الاوروبية الحديثة وهيأ لها سبل السيطرة على العالم. وكان من نتائجه اندثار طرق التجارة البرية بين الصين والهند والبحر الابيض المتوسط التي كانت حينذاك تعتبر أساس الحياة الاقتصادية في الشرق الادنى والاوسط والركيزة الاساسية للحضارات التي عرفتها المنطقة.

وبعد ان ثبت البرتغاليون اقدامهم على سواحل الهند واسسوا بها حكومة يرأسها نائب الملك واصلوا تقدمهم لاحتلال مالقا وجزر الهند الشرقية في الشرق الاقصى ليمنعوا وصول التجار العرب الى مناطق انتاج التوابل. واستمر القائد البرتغالي البوكيرك بالتوجه باسطوله الى باب المندب للسيطرة على الاماكن الاسلامية المقدسة وذلك تحقيقا لاهدافهم الصليبية وتثبيطا للمقاومة الاسلامية في الهند.

وبدأ البرتغاليون بالقضاء على قوة هرمز والموانئ التابعة لها باعتبارها القوة التي يمكن ان تقف امام تحقيق اهدافهم. ثم تقدموا الى مواجهة الموانئ العربية فدمروا قريات ومسقط وشهد اهل عمان المسالمون فظاعة الغزو البرتغالي وعنفه وارهابه. فعمدوا الى قطع انوف وآذان السكان بهدف اذلالهم. واستخدموا نظام القرصنة ضد التجارة العربية(٨). واتضحت اطماع البرتغاليين واهدافهم الاستعمارية عندما بدأوا بمفاوضة الدولة الصفوية لتقسيم مناطق الشرق الاوسط ومنها المنطقة العربية. واتضحت مطامعهم الصليبية عندما اشترطوا ان تكون فلسطين ضمن حقهم. فاكتساح البرتغاليين للاراضي الاسلامية بعد استمرارا للحروب الصليبية لذلك ساندتها البابوية وساعدتها

ماديا ومعنويا.

وفي عام ١٥١٤ بدأ البرتغاليون داخل الخليج العربي فسيطروا على البحرين عام ١٥١٥ وظلوا في جزيرة المنامة وفرضوا الجزية على سكان البحرين. وقد واجه البرتغاليون مقاومة عربية كبيرة خاصة بعد قدوم البوكيرك(٩).

وبسبب المقاومة العربية هذه تمكن الخليج العربي من التخلص من السيطرة البرتغالية قبل نهاية الربع الاول من القرن السابع عشر. واقتصر وجود البرتغاليين في بعض الاديرة التي اقاموها لفترة من الزمن.

وكان الشاطئ الغربي للخليج العربي في تلك المرحلة يبدو خاليا من أي تنظيم سياسي يشبه الدولة، باستثناء عمان، حيث كانت اقرب الى المجتمعات الحضرية بسبب ازدحامها بالسكان ووجود المذهب الاباضي الذي عرف بنظام الامامة على اساس البيعة لا التوارث وان تحولت الامامة الى ملك يرتكز في حكمه على القوة في ظل الاسرة البنهانية التي امتد نفوذها الى عدن(١٠).

لقد بايعت النخبة، التي كانت تضم المثقفين بثقافة دينيةالامام ناصر بن مرشد عام ١٦٢٤. وقد واجه الامام ناصر صعوبات كبيرة في توحيد عمان. ولم تدرك القبائل العربية في حينه قيمة الوحدة واهميتها في حركة تحرر الخليج العربي. وكثيرا ما كانت تغلب النزعة الذاتية على بعض زعماء القبائلبشكل دفعبعضهم احيانا الى الاستعانة بالبرتغاليين انفسهم حفاظا على مراكزهم لذلك امضى العمانيون وقت طويل قبل الشروع بمحاربة البرتغاليين. وقد حاول العمانيون دون ان يتحالفوا مع اية قوة اجنبية.

بدأت الاشتبكات بين قوات ناصر بن مرشد وبين البرتغاليين تتجه للمنازعات القبلية. فقد اتجه مانع بن سنان الحميري حاكم (سمايل) الى القيادة البرتغالية في صحار وطلب مساندتها ضد الزعامة الاباضية. فأرسل الامام ناصر احد قواده (سعود بن رمضان) لقمع الفتنة وألحق بالبرتغاليين خسائر كبيرة، وافق البرتغاليون على اثرها على الصلح.

كان الامام ناصر بن مرشد يقيم في عاصمته نزوى وعندما كان يجد تجمعات قبلية تساند الامامة ولديها الاستعداد للجهاد يبادر بالتعاون معها لمحاصرة الحصون والقلاع البرتغالية. ولم يكن له جيش نظامي وانما تتجمع القبائل عند نشوب المعركة لتتفرق عند عودة الامام الى عاصمته(١١).

وكانت القلاع البرتغالية في مسقط تلفظ انفاسها حينا تمت البيعة لسلطان بن سيف اماما. ودخل العمانيون مسقط عام ١٦٥٠ وسلطان بن سيف هو عم ناصر بن مرشد تم اختياره اماما على أساس الكفاءة وليس الوراثة. وقد ساد أسلوب الاختيار في عهد اليعاربة وان كان مقيدا باسرة معينة.

بعد تطهير عمان من فلول البرتغاليين، وسع العمانيون دائرة الصراع ضد البرتغاليين لتشمل الخليج العربي والهند وشرق افريقيا.

المبحث الثاني

الاوضاع الاجتماعية في الخليج العربي:

في القرن السابع عشر بدأت الدول العربية الحديثة في منطقة الخليج العربي تنمو وتؤكد حضارتها العربية. واختلف التشكيل السياسي للمنطقة من عصر الى عصر اخر. ففي القرن السابع عشر كانت عمان اكبر قوة سياسية في منطقة الخليج العربي ثم انتكست لتظهر امارات عربية اخرى. وبدأت السعودية في بعض الفترات اكبر قوة عربية في المنطقة.

ومن الناحية الاجتماعية والحضارية لاتوجد اية فروق بين هذه الاجزاء العربية في منطقة الخليج العربي. الا ان التشكيلات السياسية الحالية لدول الخليج العربي تشمل:

١. العراق: ويقع عند رأس الخليج من ناحية الشمال.

٢. الكويت: وتقع عند رأس الخليج في الجانب الشمالي الغربي.

٣. السعودية: وتطل على الساحل الغربي للخليج العربي.

٤. البحرين: وتقع وسط الخليج في مدخل رئيسي من خلجانه (دوحة سلومي).

٥. قطر: وتقع وسط الخليج من الزاوية الجنوبية الغربية.

٦. الامارات: وتقع في الجنوب الغربي من الخليج العربي.

٧. عمان: وتقع عند اقصى الطرف الجنوبي الغربي للخليج العربي وتشرف على مدخل خليج عمان.

كانت تقطن منطقة الخليج العربي منذ بدء التاريخ موجات متتابعة من الشعوب السامية وغير السامية. نزحت من مشارف الصحراء من اتجاهين. الاول يمتد على طول الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية والثاني عبر الباب الشمالي البوريي.

ان الاصل الاسطوري لحجم القبائل العربية يرجع الى الشقيقين قطحان وعدنان. فالجماعات التي دخلت عمان الكبرى على طول الاراضي الحدودية للمناطق التي استوطنتها القبائل في شبه الجزيرة العربية تنتسب الى قطحان. أما الجماعات التي دخلت عن طريق المناطق الشمالية لمواجهة البوريي، فهي عدنانية الاصل.

وتشير الأدلة الى أن الهجرة من شبه الجزيرة العربية بدأت اثناء القرنين الاول والثاني للميلاد.

وطريقة الحياة البدوية الرعوية موجودة منذ ما يزيد على ثلاثة الاف عام، وقد تطورت هذه الحياة على مدى قرون من التكيف حسب الظروف البيئية القاسية واصبحت جزء من الحضارة السائدة في منطقة الخليج العربي.

وتوصف هذه الحضارة العامة بكونها تكيف اجتماعي معقد ومتوازن وفقا للطبيعة الايكولوجية. . وغالبا ما توصف (بالثلاثية الايكولوجية) أي نسق يتضمن ثلاثة انماط من المجتمعات المتكاملة

وهي: البدوية والريفية والحضرية. لكل منها طريقته في الحياة واسلوب المعيشة وتعمل في كيان ونمط متميز. الا ان هذه الانماط أو القطاعات الثلاثة تسند بعضها الاخر لتحافظ بالتالي وتصون المجتمع الكلي(١٢). وان كان الطابع البدوي هو الغالب.

من السمات الاساسية للحياة البدوية هي الهجرة التي تتحدد في ضوء التنقليات الموسمية والبيئية وذلك سعيا وراء المياه والمراعي. والصحراء وان كانت تفرض على سكانها البداوة بحكم طبيعة ظروفها ومواردها الاقتصادية الا انها لا تعتبر المجتمع الوحيد للبداوة.

ويمكن تصنيف البدو وفق اسس ومعايير مختلفة. حيث يتم تصنيفهم وفقا لنمط الحياة الغالبة على معيشتهم، أو تبعا لنوع الحيوان السائد والذي يشكل اساس حياتهم ويحدد نمط معيشتهم. أو استنادا الى مواسم التنقل والترحال(١٣).

اما تصنيفهم وفقا لنمط الحياة الغالب على معيشتهم فهو:

١. البداوة الرعوية وينتشر هذا النوع من البداوة في الجزيرة العربية وسيناء والصحاري السورية والصحراء الكبرى، خاصة في المغرب وفي السودان حيث ينتشر رعاة البقرة.

٢. بداوة البحر أو بداوة الصيد وتنتشر في منطقة الخليج العربي وشواطئ شبه جزيرة سيناء. وتمارس هذه الفئة ايضا نوعا من الرعى والزراعة.

٣. بداوة النخيل وتنتشر في ساحل عمان وتقوم هذه الجماعات ايضا برحلات جماعية للصيد في البحر بعد جمع التمور.

٤. بداوة الطير وهي في ترحال وتنقل دائم لقنص الطيور. وترتبط حياة البدو الاجتماعية بحياتهم الاقتصادية وظروف البيئة الطبيعية التي يعايشونها. وتنتشر القبائل في اماكن متفرقة متنقلة وراء الماء والكلأ. وتنعدم فكرة الربح والفائدة سواء في الانتاج أو التبادل كما ان حياة التنقل لاتساعد على تجميع الثروة بمفهومها الاقتصادي حيث تكون الثروة نوعية متمثلة في عدد الجمال ورؤوس الماشية. وهي ذات وظيفة اجتماعية اكثر منها اقتصادية.

وتحاول كل قبيلة ان تسيطر على منطقة محددة فيها موارد تكفي لسد احتياجات افرادها وان كانت هذه المناطق تتغير من وقت لاخر. واذا ما تجاوزت القبيلة حدود القبائل الاخرى فنتيجة لذلك قد تكون الحرب(١٤). لذلك تضطر القبائل الضعيفة الى اللجوء لقبيلة اخرى طالبة حمايتها لقاء دفع ضريبة (الخوة) وهي عبارة عن جزية تدفع لقاء توفير الحماية.

ويتمتع شيخ القبيلة بامتيازات وسلطات واسعة تشمل توزيع المراعي على الاعضاء وتسوية النزاعات فيما بينهم وله حق تمثيل القبيلة أو أي عضو من اعضائها في المعاملات الهامة الاجتماعية منها والاقتصادية والسياسية. وتقوم المجتمعات البدوية عموما على الترابط والعصبية والولاء ومجموعة من التقاليد وروابط القربى التاريخية الواقعية والاسطورية اذ تعتقد كل عشيرة انها تنحدر من جد أعلى حقيقيا أو اسطوريا.

أما وحدات البناء الاجتماعي في المجتمع البدوي فهي الاسرة وتمثل النواة الاساسية، ثم الفخذ

فالبطن فالعشيرة ثم القبيلة.

فالاسرة تعتبر ركيزة المجتمع البدوي والاسر ترتبط بروابط النسب حتى الجد الخامس تشكل الفخذ. والعشيرة تتكون من عدة افخاذ وقد تنصهر مجموعة من العشائر أو القبائل وتتوحد نتيجة لاستقرارها أو قد تندمج عائلة أو عشيرة في قبيلة قوية لتحتمي بها. أو قد تتفق مجموعة من القبائل المتجاورة لمقاومة عدو مشترك.

وترتبط عشائر الخليج العربي بعضها ببعض لاسباب عديدة منها النسب والقوة والنفوذ.

والبدوية حتمت على اهلها ان يكونوا فرسانا محاربين بسبب غزو بعضهم بعض.

وللمحارب عند العشائر البدوية منزلة عظيمة واذا سقط الفارس عن جواده لايجوز قتله. أما قتيل الحرب فيعيش اولاده مكرمون. وتصطحب النسوة في زمن الحروب لمدواة الجرحى وشد الهمم وتعيير الهاربين.

وللحرب تقاليدها وادابها الخاصة. فلابد من اعلان الغزو أو الحرب قبل بدئها. والعشيرة المغلوبة التي تبغي السلم يمكنها ان تلجأ الى قبيلة اخرى لتقوم بدور الوساطة وان فشلت فانها تشد ازر القبيلة المظلومة.

ويشيع في المجتمع البدوي نوع من العدالة الاجتماعية. وانهم يكرهون الضيم ولا يصبرون على الجرم حتى يثأروا منه. فالبيئة البدوية فرضت عادات وتقاليد وقيم متأصلة في شخصية البدوي.

وكما تميل العشائر البدوية الى كثرة الانجاب، خاصة من الذكور لانهم يرثونها ويحتفظون امجادها.

وتمثل صفات الكرم والضيافة احد مظاهر حياة البداوة الاجتماعية الهامة. وهما مفروضتان على كل عضو من اعضاء القبيلة.

أما العصبية القبلية فهي حافز لاظهار البطولة الفروسية، فالقبيلة مظهر من مظاهر الائتلاف الاجتماعي في المجتمع البدوي، فالبدو يهتمون بنسبهم لتأكيد وحدتهم والتعصب لقبيلتهم والاعتزاز والتفاخر بها(١٠). وهذا ما حتمته الظروف الطبيعية القاسية التي يعيشونها.

أما في المجتمع الريفي فقد أخذ يتزايد تأثير العائلة الممتدة وكانت الزراعة في القرن السادس عشر في منطقة الخليج العربي قليلة نسبيا وهي تعتمد على الامطار. كما حلت الاكواخ المبنية من الطين محل الضيم. وكانت تتناثر بعض القرى المأهولة بين بساتين النخيل أو حول اراضي القمح. ونبت اشجار القمح والاترنج والرمان وزرعت في عمان والبصرة(١١).

وبقيت القبيلة اساسا للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واستمر تنظيم العلاقات الاجتماعية مستندا على التقاليد والاعراف الاجتماعية التي تعتبر بمثابة قانون غير مكتوب. الا ان تأثير العائلة اخذ يتزايد في المجتمع الريفي. واستمر الزواج الداخلي في الاسرة حفاظا على زيادة الانتاج.

وتنبثق عن صلة الرحم داخل القبيلة صلة (الخمسة) أي اقارب الفرد من الدرجة الخامسة. هم المسؤولين عن الثأر له. أما الرئاسة فهي وراثية واذا كان الوريث غير اهل لها يتم اختيار اقرب

الافراد الى الشيخ المتوفي(١٧).

واستمر الشيخ في المجتمع الريفي بمسؤوليته عن كل أمور القبيلة وقيامه بواجبات الضيافة. ويحل المشكلات بين اعضاء قبيلته أو بينهم وبين القبائل الاخرى وفقا للعرف العشائري السائد. السائد.

وبقيت العقبة البدوية قائمة حتى لدى الفئات الاجتماعية التي نزحت نحو المدن واستقرت فيها. وذلك لان العقلية تمثيل وانعكاس للجماعة والمكون الاساسي لها. فالعقلية تبقى مستمرةحتى وان تغير المجتمع(١٨) الامر الذي كان يؤدي الى نشوب النزاعات والصراعات بين الفئات الاجتماعية بسبب شدة الولاء القبلي.

كما كانت هناك مدن مزدهرة وبلاد تجارية. ومع ان سفن التجار الهنود كانت تزور موانئ البحر الاحمر وشرق افريقيا كما وصلت السفن الصينية الى الجنوب العربي ومقديشيو ومالندى الا ان السيطرة على المحيط الهندي كانت للتجار العرب وكان لهم النفوذ التجاري على الساحل كله من سفالة في جنوب الساحل الافريقي الشرقي حتى جزيرة سومطرة(١٩).

لقد ازدهرت التجارة والملاحة في الخليج العربي قبل تغلغل النفوذ البرتغالي نتيجة لاستقرار الامن وما قامت به الدول الاسلامية من مقاومة ومنع اخطار القرصنة في مياه الخليج.

واستطاع البحارة والتجار العرب ان يكسبوا ثقة الحكام في داخل الهند وسيلان والصين بسبب حسن سلوكهم واسلوبهم القويم في المعاملات التجارية. واشتهرت العديد من المدن ومن اهمها:

١. البصرة: واشتهرت بكونها مركزا تجاريا هاما لتوزيع السلع الاتية عبر الخليج العربي أو من الشرق الاقصى.

٢. البحرين: واشتهرت بكونها مصايد اللؤلؤ ومركزا رئيسيا لتجارته.

٣. القطيف: واشتهرت بالزراعة خاصة زراعة النخيل.

٤. عمان: اشتهرت بموانئها في نقل التجارة الشرقية خاصة ميناؤها الرئيسي (صحار).

٥. مسقط: اشتهرت بكونها محطة تجارية ومركزا لتموين السفن وتتوفر فيها الابار والنخيل(٢٠).

لقد نمت المدن وتطورت نتيجة لهجرة تجمعات بشرية من داخل جزيرة العرب لعوامل اقتصادية أو سياسية مكونة من تحالف قبائل أو افخاذ.

فأصول التجمعات السكانية في المدن هي تجماعات عربية بدوية المنشأ . متنقلة ثم استقرت ـ مكونة قرى أو مدن صغيرة على امتداد شواطئ الخليج العربي محتفظة بعلاقاتها العائلية والقبلية. كما حافظت على بعض ظواهر انشطتها الاقتصادية البدوية وتعودت اضافة لذلك انماطااقتصادية جديدة ذات مرد اقتصادي افضل هي التجارة والغوص لاستخراج اللؤلؤ(٢١).

وكلما تقادم وجود القبيلة في المدينة واصبحت اكثر استقرارا كلما ضعف بناؤها الاجتماعي (بناء اجتماعي ما بعد القبلي) أي يشتد البناء الاسري (الاسرة الممتدة). فتصبح الاسرة هي أساس البناء الاجتماعي تمتلك أو تستأجر وسائل الانتاج. وتتركز السلطة الاجتماعية والاقتصادية بيد رب الاسرة.

وينتشر الزواج الداخلي حفاظا على وسائل الانتاج في الاسرة. وان ظهرت جماعات اخرى رسمية وغير رسمية في المدن لها تأثيرها الاجتماعي والاقتصادي.

المبحث الثالث

الانشطة الاقتصادية واثرها في الحياة الاجتماعية

ظهرت في الخليج العربي الى جانب الرعي والزراعة انشطة اقتصادية اخرى اثرت في الحياة الاجتماعية والعلاقات الانتاجية. مثل صيد الؤلؤ وصيد الاسماك. وكانت تلك الانشطة الاقتصادية على اختلافها تعتمد على الطبيعة.

لقد اثرت العوامل البيئية والايكولوجية في السكان ودفعتهم الى البحث عن مصادر الرزق في البحر وفق ظروف عمل شاقة.

وقد كان الغوص على اللؤلؤ له تأثير كبير في حياة نسبة عالية من سكان الخليج العربي. حيث يمثل احد الانماط الاقتصادية الهامة في المجتمع حينذاك، والمؤثرة في الحياة الاجتماعية بشكل عام. وفي حياة الفئات الاجتماعية المتوسطة والفقيرة بشكل خاص. فالاعمال البحرية مثل الغطس على اللؤلؤ وصيد الاسماك والحرف الساحلية الاخرى مثل صناعة القوارب والسفن كانت تشكل محور الحياة الاقتصادية والاجتماعية وقد كان يتم احضار مواد صناعة القوارب والسفن مثل الخشب والحبال المصنوعة من الياف جوز الهند والمسامير من الهند. ونظرا لاهمية الغوص وصيد اللؤلؤ في حياة سكان الخليج العربي سنتناوله بشئ من التفصيل.

بداوة البحر أو بداوة الصيد:

وينتشر هذا النوع من البداوة في الكويت وساحل عمان وبقية بلاد الخليج العربي وشواطئ شبه جزيرة سيناء. وتمارس هذه الفئة ايضا نوعا من الرعي والزراعة الى جانب نشاطها في الصيد والغوص على اللؤلؤ.(٣٣).

والغوص من اكثر المهن صعوبة وخطورة. فهو يحتاج الى عناء وصبر طويل. واكثر دول الخليج انتاجا للؤلؤ هي البحرين وقطر والكويت ودبي والشارقة وابوظبي وام القيوين.

وصيد اللؤلؤ اهم حرفة عرفها التاريخ في الخليج العربي قبل اكتشاف البترول. فقد اثرت في العادات والتقاليد ونمط المعيشة. لقد عرف العرب ركوب البحار منذ اقدم العصور. وبعد ظهور الاسلام ركبوا البحار لاستخراج كنوز البحر والتجارة. وترتبط عملية الغوص بمواسم صيدهالاول يسمى (الغوص الكبير) وهو يستمر لمدة اربعة اشهر (حزيران ــ ايلول). ويسمى ابتداء الموسم

(الركبة) وانتهاؤه (القفال). اما الموسم الثاني فيستمر لفترة ما بين ٣ ـ ٤ اسابيع ويطلق عليه اسم (الردادة) وهذا يكون ما بين تشرين الاول وتشرين الثاني وتتوقف في فترة الغوص احتفالات الزواج والخطبة والختان ووفاء النذور بسبب ابتعاد رب الاسرة ورجالها. وتقام عادة احتفالات خاصة في توديع الغواصين وفي استقبالهم. اما موقع استخراج اللؤلؤ فيسمى (المغاص) وكل غطسة للصيد تسمى (هيرا) اذا كانت حتى العمق العادي. أما اذا كانت على جزيرة تحت سطح الماء (مرتفع) فتسمى (نجوة). وافضل المغاصات هي القاع المستوى الصافي في المياه ورماله مائلة الى البياض فوق شعب المرجان. وتكون الاصداف ملقاة على الرمال أو ملتصقة التصاقا خفيفا مع قطع المرجان أو الاعشاب البحرية واحيانا قد تتعلق المحارات ببعضها في كتلة واحد تسمى (تبرى) جمعها (تبارى). والتبري الواحدة قد يكون فيها من اللؤلؤ ما يعوض سفينة عن موسم كامل(٢٤).

ويمكن تقسيم العاملين في الغوص الى قسمين: المولين والعاملين. وتتالف وحدة صيد اللؤلؤ مما ياتي:

١ ـ النوخذة وهو ربان السفينة وقد يكون مالكها أو مستأجرها أو مجرد موظف عند المالك. وهو الحكم في المنازعات وله مكانته المتميزة.

٢ ـ المقدمي وهو نائب النواخذا والمسؤول عن صدر السفينة وشراعها.

٣ ـ البندار أو المحاسب.

٤ ـ السكوني، وهي مأخوذة من السكان وهو المسؤول عن تسيير السفينة.

٥ ـ الغاصة أو الغواصون.

٦ ـ السيب، وهو المشرف على الغاصة ويفهم اشارتهم ويتميز بالذكاء والقوة.

٧ ـ الرصيف، وهو مساعد السيب في شد الغواص ومراقبته ومراقبة البحر من الاسماك.

٨ ـ السباب وهو الذي يؤدي الخدمات الخفيفية مثل إنزال ورفع الغواصة من البحر.

٩ ـ الطونسي أو الطباخ.

١٠ ـ النهام أو المعين.

١١ ـ الطواش وهو التاجر الذي يشتري اللؤلؤ الطبيعي من البحارة ويبيعه في الاسفار.

١٢ ـ العزال، وهو شخص يغوص لحسابه الخاص معه سيبه ويدفع مقابل ذلك مبلغا محدودا للنوخذا أو مالك السفينة.

ويعتبر الغوص بدائيا والغواص الماهر هو من يتمكن البقاء اطول فترة تحت سطح الماء. وترسو السفينة في المنطقة (الهيرا) التي يحددها النواخذا ويلبس الغواص لباسا خاصا. ويحشو اذنيه بقطع من الصوف أو شمع العسل ويسد انفه (بالفطام) وهو ملقط مصنوع من العاج ويعلق (الديين) في رقبته ليضع فيه المحارات ويلبس في يديه قفازاً لحماية الجلد ويربط بحبل (الجدار) ويقذف نفسه في البحر في موقع يتراوح عمقه بين ٨ ـ ١٦ قامة. وعندما يشعر بضيق التنفس يهز الحبل ليسحبه (السيب) للعودة الى سطح الماء ليملا رئتيه بالهواء ويعود للغوص ثانية

والخروج الى سطح الماء يسمى (التنبه) ويقوم الغواص بحوالي ٥٠ نبه يغطس بين ٤٠ ــ ٧٥ ثانية ثم يبعد لفترة ١٠ دقائق. ويتراوح مدة العمل اليومي بين ١٢ ــ ١٤ ساعة يوميا يغوص الغواص خلالها ويستريح. وعندما يكون الجو معتدل يغوص ساعة ويستريح ساعة أما في الصيف فيغوص ساعة ويستريح ٢/١ ساعة.

ويبدأ العمل مبكرا حيث يستيقظ الغواص قبل صلاة الفجر يصلي ويفطر تمرا وشايا وقهوة. ثم يغوص بعد طلوع الشمس لجمع المحار وبعد الغروب يقول النوخذة أو من ينوب عنه (اطووا حبالكم) فيخرج الغواص على ظهر السفينة. يصلي المغرب ويتعشى ارزا أو سمكا وينام بعد صلاة العشاء.

ويتعرض الغواص الى مخاطر عديدة فاذا اغفل السيب اشاراته قد يختنق ويموت، بالاضافة الى تعرضه للجرجور (سمك القرش) أو انفجارطبلة الاذن أو اداء الرئتين أو الالتهابات البادية.

وغالبا ما يتمرن الاطفال على الغوص في عمق ذراع لالتقاط الاصداف وهناك نظام اجتماعي وبناء طبقي خاص بالعاملين ينتظمون فيه حسب ادوارهم الاجتماعية. فالغاصة يشكلون قاعدة هرمية ثم النواخذة والطواشي والتجار. ويختلف عادة بحارة المركب فهو يتراوح بين ١٠و٤٠شخصا ويكون عدد الغاصة عادة اقل من عدد السيوب.

العلاقات الاجتماعية:

تتميز العلاقات الاجتماعية بالطاعة والخضوع. فوحدة العمل هي السفينة يتميز مالكها النوخذة بالسلطة المطلقة وتضع العلاقات العبء الاكبر على الغواص ولا يحمل نتيجة تعرض حياته للخطر الا على الفتات. واذا توفي الغواص ولم يف ما بذمته دين يقوم النواخذة بملاحقة ابنه ليعمل محله.....

والغوص يعتبر عملا انتاجيا ويختلف في هذا عن بقية الانشطة الاخرى مثل الصيد والزراعة التي كان محصولها يستخدم لاشباع الحاجات الاستهلاكية المباشرة للجماعة، في حين ان حصيلة الغوص تباع داخليا أو خارجيا. فالطواش أو الطواويش أي صغار التجار يشترون اللؤلؤ من مناطق استخراجه نقدا أو بالمقايضة ليبيعوه للتجار. ويقوم الدلال بدور الوسيط بين الطواويش والتاجر.

اذا يتم تكوين اعضاء الوحدة الانتاجية من العاملين على ظهر السفينة على أسس قرابة كل قبيلة كما ان تقسيم العمل في انشطة الغوص لم يرتكز على اساس الانتماء القبلي أو العرفي كما كان الحال في تربية الحيوانات والزراعة والحرف البدوية حيث كانت تربية الابل تقتصر على الوحدات القبيلية العليا، تليها الوحدات التي تمارس الصيد والزراعة ثم اصحاب الحرف الاخرى فالغوص يعتمد على الخبرة والمهارة..... والغاصة عادة من العامة فقراء العرب أو العبيد الاحرار أو العبيد الزنوج. أما السيوب فيقتصر عملهم على ملاحظة المركب وانزال ورفع الغاصة الى سطح الماء. وهم عادة من الغواصين السابقين يقومون بهذه المهنة نظرا لتركهم الغوص بسبب كبر السن أو سوء الحالة الصحية.

اما عملية فتح القواقع التي تتم بواسطة سكين معرجة تسمى (مغاليق) والتي تتم عادة في الدباح بين صلاة الفجر وابتداء الغوص فيشارك فيها الغاصة والسيوب والاطفال ويراقب بعضهم الاخر منعا للسرقة، وهي عملية غير مريحة، بسبب رائحة القواقع وما تجتذبه من حشرات.

وعلى الرغم من ان ارتباط العاملين على ظهر السفينة لا يتم على اسس قرابية فان نظام (السلف) ظل نوعا من الاستمرار القرابي بين اعضاء الوحدة الانتاجية فالابن بمقتضى هذا النظام يخرج للعمل في نفس الجماعة التي كان ابوه يعمل فيها. وهذا اضافة الى كيفية توزيع الارباح ادى الى خلق نوع من الاقطاع والقنانة ولم تكن هناك قوانين مكتوبة وانما كان العرف هو السائد وكانت محاكم الغوص تسمى (محكمة السالفة) وهي عبارة عن هيئة مكونة من (النواخذا) لتحكم في القضايا والمشكلات التي تحدث بين الغاصة والنواخذة.

اخيرا لابد من الاشارة الى تاثير الدين في الحياة الاجتماعية على منطقة الخليج العربي. فالدين الاسلامي انتشر في بداية ظهوره في شبه الجزيرة العربية وفي منطقة الخليج العربي. ودخلت القبائل العربية تحت راية الاسلام. وفي القرن السادس عشر كانت الديانات الاخرى مقارنة بالدين الاسلامي في منطقة الخليج العربي قليلة ونادرة. لقد ساهمت مبادئ الدين الاسلامي بشكل كبير في توازن البنى الاجتماعية مما ادى الى تضيق الاستغلال وعدم ارتكاب المحرمات ورفض الفائدة والوفاء بالدين. وان كان الايمان بالغيبيات والتفاؤل باشياء والتشاؤم من اشياء اخرى بقي مستمرا.

وقد استطاع العرب وبمساعدة الدين الاسلامي تاكيد الشخصية العربية في الخليج العربي وتمكنوا في العصر الاسلامي مواجهة الاخطار والمحاولات المحلية منها. مثل المحاولات الفارسية في فرض السيطرة على مياه الخليج العربي والمياه الدولية.(٢٧)

وقبل السيطرة البرتغالية كان البحارة والتجار العرب يتمتعون بهبة الحكام في سواحل الهند وبلاد الصين نتيجة التزامهم بتعاليم الدين الاسلامي في معاملاتهم التجارية مع تلك المناطق، وكانوا قد تمكنوا ايضا من تاسيس جاليات عربية على سواحل تلك البلاد نتيجة احتكاكهم باهاليها وكسب ودهم وثقتهم.

والبدوي عموما يتميز بالايمان العميق وان كان لايمارس الطقوس الدينية ويؤمن بوحدانية الله وباليوم الاخر.

وقد ظهر الاهتمام بتعليم القرآن وختمه خاصة في المدن وهذا مما ساعد على تعلم القراءة.

فالسيطرة البرتغالية على منطقة الخليج العربي والتي امتدت حوالي القرن والنصف اثرت في اضعاف التماسك الاجتماعي وادت الى انكماش هجرات القبائل الى سواحل الخليج العربي، نظرا للاسلوب الاستنكاري والقمعي الذي درج عليه البرتغاليون خلال سيطرتهم على بحار الخليج حيث كانت سياستهم محاربة التجمعات العربية في الخليج. وتأليب القبائل ومحالفته احدها ضد الاخرى. الا ان القوى العربية ادركت اهمية الترابط الاجتماعي لمقاومة الغزو البرتغالي خاصة في الفترة ١٥٨٠ ـ ١٦٤٠ ومما ساعد على نجاح تلك المقاومة بنية المجتمع العربي الاسلامي حينذاك.

الهوامش

١. د. خالد العربي، الخليج العربي في ماضيه وحاضره، مطبعة الجاحظ، بغداد، ١٩٧٢، ص١٦ ــ ١٧.
٢. د. عبد الجبار عطيوي جاسم، ملاحظات حول تغلغل اساليب النفوذ الاوروبي في الخليج العربي قبل الحرب العالمية الاولى. مجلة الخليج العربي، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة العدد العاشر، ١٩٧٨، ص٤٧.
٣. قدري قلمجي، الخليج العربي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٥، ص ٢٥٩.
٤.سر ريدر بولارد، ترجمة حسيب احمد السلمان، بريطانيا والشرق الاوسط منذ اقدم العصور، مطبعة الرابطة، بغداد ١٩٥٦، ص٩.
٥. رسائل الاهالي، الرسالة الاولى على طريق الهند، مطبعة الاهالي بغداد ١٩٣٥، ص٢٢.
٦. د. ابراهيم المشهداني، د. صبري الهيتي، د. محمد سعيد عمر، جغرافية الخليج العربي، وزارة التعليم العالي، جامعة بغداد، ١٩٧٩، ص١٩٣ ــ ١٩٦.
٧. رسائل الاهالي المصدر نفسه، ص٢.

صدر مؤلفات عديدة في اصول علم البحار ويرجع تاريخ تاليفه الى عام ٨٦٦هـ (١٤٦٢م).

٨. البرفسور س. بكنجهام، بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان، ندوة الدراسات العمانية، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان ١٩٨٠ الجزء السادس، ص١٨٤.
٩. د. ابراهيم المشهداني، المصدر السابق، ص١٩٦.
١٠. د. صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٥، ص١٣.
١١. صلاح العقاد، دور العرب في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج، ندوة الدراسات العمانية، المجلد الرابع، ص٩٠ ــ ٩٧.
١٢. نور الضحى، بدو عمان الوسطى، ندوة الدراسات العمانية وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان، ١٩٨٠، المجلد السادس، ص٢٤٩.
١٣. صلاح مصطفى الفوال، البداوة العربية والتنمية، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٧، ص١٣٩ ــ ١٤٠.
١٤.
١٥. ابراهيم الشكري، البداوة في الكويت.
١٦. ستيفن هيمسلي لونكريك، ترجمة جعفر الخياط، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، منشورات مكتبة اليقظة العربية، بغداد، ١٩٨٥، ط٦، ص١٤ ــ ١٥.
١٧. مكي الجميل، البدو والقبائل في العراق، مطبعة الرابطة بغداد ١٩٥٦، ص٤٠ ــ ٤١.
١٨.
١٩. د. عائشة عبد الرحمن، تراثنا بين الماضي والحاضر، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٩، ص٩٥.
٢٠. نوال حمزة يوسف، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن السادس عشر، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٨٣، ص٣٠.

٢١. د. محمد غانم الرميحي، البترول والتغير الاجتماعي في الخليج العربي، معهد البحوث والدراسات العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة ١٩٧٥، ص١٢.

٢٢. ج. لوريمر، ترجمة المكتب الثقافي لحاكم قطر، دليل الخليج للقسم الجغرافي، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع لبنان١٩٧٠، الجزء الرابع، ص١٣ ــ ١٧.

٢٣. يعتقد سكان الخليج في الخرافة القديمة ومفادها ان اللؤلؤ من الندى أو ماء المطر التقطتها القوقعة عند ارتفاعها الى سطح البحر ليلا أو وقت المطر.

• يعتبر يوم الركبة يوما كبيرا، يجتمع العاملون امام بيت (النواخذة) للغناء الشعبي الخفيف (الخماري) ليجمعوا الناس لدفع السفينة الى الماء. وفي يوم العودة (القفال) يقام احتفال كبير وتقام الولائم، وتستقبل النساء وازواجهن الغاصة بالهناء والعطور والاغاني الشعبية ورقصة (المراداة) وتدير المرأة شئون الاسرة اثناء غياب الزوج لموسم الغوص وكانت تشارك ايضا في الرعي والزراعة بالاضافة الى اعمالها المنزلية الا ان الرجل هو صاحب القرار وسيد الاسرة.

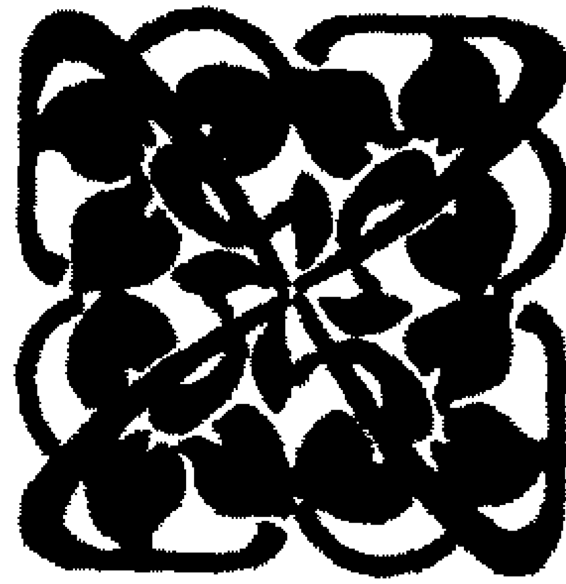
٢٤. ج. لوريمر، المصدر السابق، ص ٣٠.

• يطلق على اللؤلؤة الجيدة كبيرة الحجم (قاشة) أو (كماشة).

٢٥. عبد الملك خلف التميمي دراسة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي من بحوث الندوة العلمية، ابعاد التنمية الاقتصادية والاجتماعية في اقطار الخليج العربي، بغداد ١٩٨٠، ص٥٩.

٢٦. د. محمد عبده محجوب، انثروبولوجيا المجتمعات البدوية، المكتبة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية ١٩٧٧، ص ١٣٨ ــ ١٤٠.

٢٧. جمال زكريا قاسم، ندوة الدراسات العمانية وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الجزء الثاني، ص٣٦٣.



النظام الدولي الاقليمي في منطقة الخليج العربي خلال فترة الاستعمار البرتغالي

د. حامد عبد الله ربيع

استاذ النظرية السياسية بكلية الاقتصاد

جامعة القاهرة

درج العلماء في تحليل موقع الخليج من الصراعات الدولية المعاصرة على تقبل مفهومين اساسيين: الاول ويدور حول ان اهمية منطقة الخليج لم تبرز في صورة واضحة لتعلن بصراحة عن موقعه كأحد عناصر القلب في التوازن الاستراتيجي الدولي الا خلال الاعوام العشرين الماضية وعلى وجه الخصوص في اعقاب حرب الايام الستة. والثاني ان هذه الاهمية تنبع اساسا من الثروة البترولية التي تتميز بها المنطقة(١). هذان المفهومان رغم صحة كلا منهما الا انه يجب ان نعيد النظر في حقيقة ما يتضمنه أي منهما من احكام عامة لا تقبلها النظرة التحليلية لتاريخ هذه المنطقة. اهمية منطقة الخليج حقيقة تاريخية تنبع من نظرة استراتيجية كلية وشاملة لمبدأ السيادة الدولية. واذا استطعنا في هذه النظرة الكلية الشاملة ان نفصل بين الثابت والمتغير لكان بامكانية هذا التحليل ان يكشف حقيقة التوظيف الاستراتيجي للمنطقة ليس فقط على مستوى الماضي بل وكذلك في المستقبل وباستقلال مطلق عن عنصر البترول وجودا أو عدما.

ونستطيع بصفة عامة ان نؤكد انه منذ اقدم العصور وجدت نظريتان متباينتان في مفهوم السيادة العالمية: النظرة الاولى والتي نبعت منها مفاهيم الاسكندر الاكبر والنظرة الثانية والتي سيطرت على مدركات قياصرة روما. الاسكندر الاكبر اعظم قادة العصور القديمة كان ينطلق من ثلاث مبادئ

اساسية: (الاول) ان محور التحكم في السيادة العالمية هو المنطقة الممتدة من ارض الرافدين الى ارض وادي النيل. في هذه المنطقة يجب ان يتمركز من يريد ان يخلق امبراطورية عالمية (الثاني) ان البحر المتوسط لا يعنيه الا بقدر جزئه الشرقي الذي يكون حائطا تستند اليه عاصمة وقلب التوازن العالمي (الثالث) ان حماية هذا القلب تفترض التوجه ايضا نحو الشرق والى حدود الهند انها مجاله الحيوي الذي يمثل الحائط ازاء العناصر غير المتمدنية القادمة من مجاهل آسيا المتوحشة شرقا وشمالا. على العكس من ذلك فان قياصرة روما انطلقوا من ادراك اخر ومختلف بل ويكاد يكون متناقضا مع هذا الادراك في بعض عناصره. مبادئ ثلاث أخرى سيطرت على كبار القادة الرومانيين: (الاول) ان محور السيادة العالمية هو حوض البحر المتوسط (الثاني) ان البحر المتوسط يمثل وحدة متكاملة لا تقبل التجزئة ومن يريد ان يسيطر على سواحله الشمالية يجب ان يتحكم في سواحله الجنوبية (الثالث) ان حماية السيادة على البحر المتوسط تفترض التحكم في مصر التي تسمح وحدها بحماية «بحرنا» كما يقول قادة روما من تطرق عصابات الشرق المجمية(٢).

بين هذين المفهومين تصارعت المدركات منذ اقدم العصور حتى اليوم. فالعرب وبصفة خاصة مع فترة الحكم العباسي اتجهوا الى المفهوم الاول وسيطر مع تعاملهم مع العالم ما قدمه الاسكندر الاكبر من مدركات. والعثمانيون كانوا اقرب الى المفهوم الروماني. وجاء اعظم قادة التاريخ في التعامل لاستراتيجي وهم البريطانيون فورثوا المفاهيم الرومانية بعد ان اضافوا اليها بعض العناصر الجانبية. العنصر الاول وهو ان السيطرة على البحر المتوسط يفترض التحكم في امرين: الاول المداخل والثاني الجزر. وهكذا لم يكتفوا بالتحكم في قناة السويس بل اضافوا جبل طارق. وهم لم يتركوا جزيرة ذات اهمية في البحر المتوسط دون ان يرسموا تلك الجزيرة قواعد نفوذهم العنصر الثاني وهو ان النظرة الى البحر المتوسط على أنه محور القيادة العالمية تفترض ان يحاط هذا المحور بقواعد للمساندة. وبصفة خاصة قاعدتين: الاولى في منطقة الخليج والثانية في وسط افريقيا(٣).

هذا التطور العام للمفاهيم الاستراتيجية كان لابد وان يعكس نفسه على الواقع الدولي للتعامل مع منطقة الخليج. ما يعنينا في هذه الدراسة الموجزة ان نتناول مرحلة الاستعمار البرتغالي كاحد نماذج وتطبيقات هذا التطور.

١. عملية بناء النموذج التاريخي واهميتها في عملية المنهاجية الوضعية للتحليل السياسي منطقة الخليج خلال فترة الاستعمار البرتغالي

قبل ان ننطلق في موضوع هذه الدراسة يجب منذ البداية ان نحدد المنهاجية التي سوف نتبعها وخصائصها وكذلك اهميتها في كل ماله صلة بعملية التنظير السياسي.

فكرة بناء النموذج اضحت متقبلة في جميع العلوم الاجتماعية والتاريخية. بل انها في بعض فروع

هذه العلوم وبصفة خاصة في علم الاقتصاد القياسي وما يرتبط به من التحليل التاريخي للظواهر الاقتصادية ارتفعت الى القمة واضحت احد المداخل الاساسية للفهم العلمي لموضوع التحليل. ورغم ان علماء المنهاجية وبصفة خاصة خلال فترة العشرين عاما الماضية لا يزالون على غير اتفاق بمعنى النموذج وخصائصه من حيث البناء التجريدي الا ان هناك مجموعة من المسلمات التي لم تعد موضع مناقشة(١).

اول هذه المسلمات ان بناء النموذج يفترض ثلاث حقائق يجب ان تكون واضحة في الذهن. الامر الاول ويدور حول طبيعة العملية الفكرية التي تستتر خلف بناء النموذج. بغض النظر عن طبيعة النموذج وسوف نرى فيما بعد ان تطبيقاته عديدة فان معنى بناء النموذج في ابسط معانيه ان جهدا ذهنيا يتجه الى تحويل الحقائق أو المعطيات الى مفاهيم. بهذا المعنى فان النموذج قد يختلط بالنظرية أو الافتراض. الا ان الامر الذي لاشك فيه أنه اكثر من افتراض من جانب وأقل من نظرية من جانب أخر. انه واقع قد تحول الى اطار يسمح بالفهم من جانب وتبويب المعلومات أو ادراجها من جانب آخر وهو قادر على ان يقدم لعملية التنظير الكلية الشاملة بادق معانيها من جانب ثالث. الأمر الثاني ويدور حول جوهر الجهد المنهاجي الذي يفترضه بناء النموذج. فبناء النموذج لا يمكن ان يتحقق أو يكتمل ان لم يسبقه عملية افراز للمتغيرات من جانب وتحليل لحقيقة وضع تلك المتغيرات كما وكيفا بحيث تستطيع ان تميز بين المتغيرات الاصلية المتحكمة في الموقف والمتغيرات التابعة. هذه العملية التي قد تبدو لاول وهلة فقط تجريبية الا انها تجمع بين التعامل مع الوقائع واطلاق ذلك التعامل بمعنى ديناميكي حيث تتحكم في النتائج التي من مجموعها يتكامل البناء الواقعي للموقف موضع التجريد في عملية النموذج. الناحية التالية وهي ان النموذج لاتبدو وظيفته الخلاقة في معناها الحقيقي الا اذا ادخلنا في التحليل المقارنة المنهاجية. فالمقارنة بين المواقف والتطورات سواء استنادا الى نموذج واحد أو الى نماذج متعددة هو وحده الذي يثبت الفاعلية العلمية لهذه المنهاجية. النموذج الواحد يسمح ببناء التيبولوجية ويوضح تعدد التطبيقات. تعدد النماذج يقود الى افراز المتغيرات ودلالة تلك المتغيرات في فهم حقائق التطور.

النماذج بهذا المعنى عديدة ومتنوعة(٢) بل انها قد تتباين في توظيفها تبعا لكل باحث. رغم ذلك نستطيع ان نميز في تلك النماذج بين تطبيقات ثلاثة اساسية:

أولا: النموذج التجريدي أو الرياضي. ويسود التحليل الاقتصادي ويبرز واضحا من حيث اهميته في مشاكل التخطيط. تسوده اللغة الكمية وهو افتراضا نموذج تجريدي اي رغم انه يسعى للتعامل مع الواقع الا انه في بنائه ينطلق فقط عن افتراضات مجردة. ويكاد يقترب من هذا النموذج التطبيق المعروف والمنسوب الى ماكس فيبر باسم **idealtypus**.

ثانيا: النموذج التجريبي. والذي ينطلق من الواقع في محاولة تبسيط ذلك الواقع واعطائه دلالة شكلية يغلب عليها الربط بين المتغيرات، هذا التطبيق الثاني يسود العلوم الاجتماعية وبصفة خاصة

بدأ يتغلغل في التحليل التاريخي منذ طرح موضوعه لفيف من العلماء في المؤتمر الدولي للعلوم التاريخية الذي عقد بروما عام ١٩٥٥.

ثالثا: ثم النموذج المعملي وهو الذي طرحته تقاليد التحليل العلمي للظاهرة السياسية. هو يجمع بين التطبيقين الاول والثاني بنسب مختلفة. جوهر هذا التطبيق هو ان السياسة وهو علم اجتماعي لا يستطيع ان يتحقق من صحة نتائجه باي اسلوب من تلك الاساليب المتداولة في نطاق العلوم الباحثة. والتحقق من صحة النتائج ضرورة تفرضها عملية التحليل. وقد وجد في التاريخ المعملي الذي هو في حاجة اليه ومن ثم فهو يبحث في هذا التاريخ عن المواقف المماثلة أو المتشابهة مع الوضع الحاضر ويجردها في نماذج بالمعنى الثاني ثم من خلال المقارنة مع الوضع المعاصر يستطيع ان يؤكد من صحة نتائجه سواء في حالة التطابق أو في حالة الخلاف. التطابق هو تأكيد بصحة النتائج والخلاف هو دعوة للبحث عن اسباب التناقض وتفسير لهذا التناقض من منطلق فهم طبيعة الزمن التاريخي(٦).

الذي نحاوله في هذه الدراسة هو بناء نموذج بالمعنى الثالث.

موضوعنا هو تحليل النظام الدولي وموقع الخليج فترة الاستعمار البرتغالي لنستطيع ان نفهم الاطار الفكري الذي تنبع منه دراستنا علينا ان نتذكر مجموعة من الحقائق. أول هذه الحقائق ان الخليج منذ بداية العصور الحديثة وعلى وجه التحديد منذ القرن الخامس عشر حتى اليوم لم يملك أي ارادة اقليمية بل ظل يخضع لتلاعب القوى الدخيلة على المنطقة التي راحت تسعى لفرض نوع لها من السيادة العالمية. ومن الطبيعي ازاء منطقة تملك اهميتها الاستراتيجية ولا تملك ارادة الدفاع عن الذات ان تسعى تلك القوى ذات الطموح العالمي الى فرض التبعية على منطقة الخليج. والحقيقة الثانية وهي ان نظم الهيمنة والسيطرة على المنطقة رغم تعددها تتمركز وتتمحور اساسا حول نماذج ثلاث:

النموذج البرتغالي اولها يتبعه النموذج الانجلوسكسوني ثم نموذج الصراع المعاصر بين وشنطون وموسكو(٧). نماذج ثلاث كل منها يملك حقيقته المتميزة ورغم ان هذه الدراسة سوف تقتصر على النموذج البرتغالي الا ان ابراز اوجه الخلاف مع النماذج الاخرى يسمح بابراز الثابت والمتغير في علاقة منطقة الخليج بالنظام الدولي. الحقيقة الثالثة وتدور حول احد هذه المتغيرات الثابتة بل واهمها وهو البعد الاستراتيجي والجيوبولتيكي لمنطقة الخليج. هذا المتغير هو وحده الذي يجمع بين النماذج الثلاث في نموذج واحد اكثر اتساعا ويدور حول وظيفة منطقة الخليج في الصراع حول السيادة العالمية. ايضا هذا النموذج العام والكلي ليس موضوع هذه الدراسة ورغم اننا سوف نتعرض له بطريقة غير مباشرة وجزئية.

ما المقصود بموقع منطقة الخليج من النظام الدولي وبصفة خاصة خلال فترة الاستعمار البرتغالي؟

منطقة الخليج تمثل اهمية استراتيجية خاصة سوف نتعرض لها تفصيلا على ضوء التعامل التاريخي مع المنطقة. ولكن الذي يعنينا مؤقتا في بناء هذا النموذج والمرتبط بفترة الاستعمار البرتغالي تحديد معنى علاقة منطقة الخليج بالنظام الدولي. الاهمية الاستراتيجية لابد وان تخلق الاهتمام.

والضعف الذاتي لابد ان يشجع الاحتواء. وابتداء من هاتين الكلمتين نستطيع ان نلخص تاريخ منطقة الخليج في العصور الحديثة وابتداء من القرن الخامس عشر حتى هذه اللحظة قد يكون هناك خلاف في التفاصيل وقد تتعدد العناصر الجانبية المتباينة. وقد تختلف الاطراف المتعاملة، ولكن الجوهر يظل واحداً.واهميه خلقت من المنطقة عنصر جـذب. ضعف الارادة المحلية وعدم قدرة على الدفاع عن الذات لابد وان يشجع على الاحتلال أو التحكم. ولو تتبعنا مصدر هذا الاهتمام لنجده قد تنوع وتعدد. لم توجد أمة حاولت ان تكون لها سيادة عالمية معينة ولم تهتم بالمنطقة. البرتغاليون ارتبط بهم الهولنديون والفرنسيون والبريطانيون واعقبهم الالمان ونحن نعيش اليوم مرحلة يبرز فيها في صورة ساطعة كلا من الروس والامريكيين. بل ان الصينيين واليابانيين بدورهم لم يتركوا هذه المنطقة دون اهتمام. هذا التدخل في المنطقة بغض النظر عن مستواه ونماذجه لابد وان يخلق رابطة مباشرة بين التعامل في المنطقة والنظام الدولي السائد(٨).

لو تتبعنا تاريخ منطقة الخليج من حيث تعاملها مع القوى الدولية وابتداء من القرن الخامس عشر نستطيع ان نميز في هذا التعامل بين نماذج ثلاثة واضحة من حيث عناصرها ومتغيراتها. النموذج الاول وهو البرتغالي الذي سوف نتناوله بالتفصيل في الصفحات التالية. النموذج الثاني وهو البريطاني ويستغرق قرابة قرن ونصف حيث وصل الى كماله من حيث التحكم في المنطقة مع اواخر القرن الثامن عشر وظل طيلة القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين هو وحده صاحب السيادة والسيطرة. الحرب العالمية الثانية وضعت حدا لهذا النموذج من السيطرة حيث قوة واحدة دولية تتحكم بشكل أو بأخر في المنطقة ومن ثم يكون من خلالها ربط المنطقة بالنظام الدولي لتعاصر نموذجا اساسه ازدواج الاقطاب المتعاملة: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ورغم ان السياسة الامريكية انتهجت سلوكا اساسه محاولة الانفراد بالمنطقة والعودة من ثم الى النظام التقليدي الا انها حتى هذه اللحظة لم تنجح في ذلك.

حرب الخليج التي تدور رحاها منذ سبعة اعوام هي في الواقع تعبير عن حقيقة هذه العلاقة بين المنطقة والنظام الدولي الذي يسود التعامل مع المنطقة. لم يفهم اطراف الصراع تلك الحقيقة في بداية الصدام ولكنهم اكتشفوا عقب ذلك وعقب ان اضحى التراجع مستحيلا انهم ليسوا الا لعبة في يد الارادات الدولية(٩).

ولكن هذا يخرج بنا عن نطاق الدراسة

٣. الاستعمار البرتغالي وخصائص النظام الدولي الاقليمي خلال القرن السادس عشر

السيطرة الحقيقة للبرتغاليين على منطقة الخليج اكتملت عام ١٥٥٩. وكان ذلك عقب الحملة التركية بقصد استرجاع البحرين من ايدي البرتغاليين والحاق هزيمة ساحقة بهم اذ تحرك اسطول

تركي متجها نحو البحرين ليواجه اسطولا برتغاليا تسانده قوات عربية اعدها حاكم البحرين وهو الرأس مراد الذي كان يحكم باسم شيخ هرمز واستطاع هؤلاء المتحالفون ان يوقعوا الهزيمة بالقوات التركية وان يفرضوا عليها الانسحاب بل ودفع مبلغ معين على سبيل التعويض(١٠). في ذلك الوقت اكتملت للبرتغال السيادة على منطقة الخليج دون منازع حقيقي.

أ) على ان هذه السيطرة لم تتم دفعة واحدة. ونستطيع ان نحدد وقائع متتابعة انتهت بتحقيق تلك السيادة واستغرقت قرابة نصف قرن كامل من الزمن:

اولا: اول خطوة في سبيل تحقيق هذه السيادة وقد ارتبطت بتصريح دولي يؤكد هذه الحقيقة كانت رحلة فاسكو دى جاما الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح والتي انتهت به بالعودة الى لشبونة في سبتمبر ١٤٩٩ والتي احدثت دويا عظيما في مختلف الاوساط الاوروبية وقد توج بتصديق البابا على اللقب الذي خلعه على نفسه ملك البرتغال بأنه «سيد الفتح والملاحة والتجارة في الهند والحبشة وجزيرة العرب وفارس»(١١).

ثانيا: وكان من الطبيعي ان تبحث السلطات البرتغالية على مواقع اقدام لها في مختلف اجزاء الخليج لحماية مواصلاتها وتأمين نفوذها. في عام ١٥٠٧ كانت أول حملة هامة ذات دلالة عندما اتجهت قوات برتغالية الى سواحل عمان وبصفة خاصة الى هرمز حيث رفض الحاكم الاستسلام فخضع لهجوم مدمر انتهى بان قبل الشيخ سيف الدين حاكم المنطقة ان يوقع معاهدة يصبح بمقتضاها تابعا للتاج البرتغالي بل وان يرفع العلم وعليه شعار الصليب(١٢). وكان ذلك في سبتمبر ١٥٠٧.

ثالثا: واكتملت هذه العملية بعملية اخرى عام ١٥١٥. ذلك ان جزيرة هرمز لم تستقر فيها السلطة البرتغالية وخضعت لكثير من الاضطرابات بسبب الصدام المستمر بين اهالي المنطقة وكل من البرتغاليين من جانب واهل فارس من جانب اخر. في عام ١٥١٥ استطاع الاسطول البرتغالي مرة اخرى ان يعيد احتلال الجزيرة. اهمية احتلال هذه الجزيرة للمرة الثانية هو اعتراف حاكم ايران الشاه اسماعيل بهذا الاحتلال وابرام اتفاق مع القيادة البرتغالية اساسه:

١. ان تقدم البرتغال مساعدة بحرية لايران لتتمكن هذه من غزو البحرين.

٢. ان يقوم تحالف بين البرتغال وايران ضد تركيا بحيث يساعد بمقتضاه البرتغاليون اهل فارس في قمع التمرد ضد قواتهم في اكثر من موقع واحد بالخليج.

هذا الاتفاق هو اعلان بقبول سيادة البرتغال على المنطقة.

رابعا: على ان هذا الاتفاق كان خطأ دبلوماسيا دفعت البرتغال ثمنه غاليا عقب ذلك. فالاتفاق ضد العثمانيين هو تمكين لقوى اجنبية تحمل راية الصليب ضد قوى مهما وصفت فهي تمثل الاسلام. والحكم البرتغالي تميز بالقسوة والعنف مما دفع الى التململ والرغبة في الثورة. وقد استغل ذلك شيخ هرمز وقد استطاع تنظيم وتكتيل جميع القوى ضد البرتغال. وفعلا فاجأ هؤلاء الذين

خضعوا لهزيمة حقيقية. وكان لابد من حدوث رد فعل عنيف من جانب السادة الجدد. وهكذا ارسل اسطول برتغالي من الهند دمر المنطقة واستعاد هرمز حيث ابرم معاهدة جديدة عرفت باسم معاهدة ميناب في ٢٣ يوليو من عام ١٥٢٣ بموجبها لم تعد هرمز تخضع فقط للحماية البرتغالية وانما اضحت تحت الحكم البرتغالي المباشر(١٣).

ولم تكن هذه الاتفاقية سوى مقدمة لغزو حقيقي للمنطقة:

١. في عام ١٥٢٦ حدثت ثورات جزئية في بعض اجزاء مسقط لم يتردد المستعمر البرتغالي في سحقها بقوهوعنف.

٢. كذلك فقد اصر على تحصيل جميع متأخرات الجزية المستحقة على حاكم هرمز.

٣. واستكمل ذلك بنفي الرئيس شرف الدين المستشار الاول لحاكم هرمز الى البرتغال.

٤. وبدأت أول محاولات برتغالية بغض النظر عن فشلها لاحتلال البصرة الأمر الذي يعني مد النفوذ البرتغالي على جميع اجزاء الخليج من جنوبه الى شماله.

٥. واكتمل ذلك بهزيمة الاتراك في مسقط على ايدي البرتغاليين عام ١٥٥٣. الصراع المباشر الصريح بين البرتغاليين والاتراك بدأ عام ١٥٥٠ عندما ثار اهالي القطيف واعلنوا بانهم يضعون انفسهم تحت حماية الاتراك. وعندئذ خرجت حملة برتغالية استطاعت طرد الاتراك من القطيف بل وهددت البصرة. واكتمل ذلك بصدام عنيف بحري في اغسطس عام ١٥٥٣ قرب مسقط بين الاسطول التركي والاسطول البرتغالي انتهى بهزيمة ساحقة للاتراك، لم يعدل الاتراك رغم ذلك عن محاولاتهم في الحاق الهزيمة بالبرتغاليين وفعلا وفقوا في ذلك عام ١٥٥٩ حيث تمكنوا من استدراج البرتغياليين الى كمين والحقوا بهم خسائر فادحة. رغم ذلك فقد اعاد البرتغاليون الكرة عقب وصول امدادات من هرمز بفضل مساعدة الحكام العرب في المنطقة واستطاعوا ان يرغموا الاتراك على الانسحاب من البحرين عقب ان الحقوا بهم هزيمة نكراء.

ولكن ما هي خصائص هذه السيطرة التي سمحت للبرتغال بان تتحكم في الواقع الخليجي خلال فترة قرابة قرن كامل من الزمن؟

نستطيع ان نحدد عناصر هذا النموذج حول ستة متغيرات اساسية:

أولا: القوة الغازية واحدة ومنفردة وهي القوة البرتغالية.

ثانيا: القوى الغازية تسعى لتدعيم مراكز نفوذها التجاري.

ثالثا: القوى المتصارعة في المنطقة وحول المنطقة ستة قوى:

الى جانب البرتغاليين هناك البريطانيون والهولنديون من جانب ثم الفرس والاتراك والعرب من جانب آخر حيث المجموعة الاولى تسعى للتغلغل في المنطقة والمجموعة الثانية تمثل القوى الاقليمية التي تنتمي الى المنطقة وكان من الطبيعي ان تقف ضد ذلك التغلغل.

رابعا: القوى الاقليمية الوحيدة ذات الوزن هي قوة فارس.

خامسا: الارادة المحلية العربية مهلهلة وغير متجانسة.

سادسا: الاطار الدولي لم يكن يعرف خلال هذه الفترة مفهوم البحث عن السيادة العالمية.

لفهم حقيقة الاطار الدولي للتعامل مع منطقة الخليج وكيف ترتبت على ذلك الاطار نتائج معينة من حيث خصائص الصراعات المحلية والاقليمية المرتبطة بهذه المنطقة يتعين علينا ان نتابع هذه الخصائص بشئ من التفصيل.

أول هذه العناصر هو ان القوة الغازية للمنطقة كانت واحدة ومنفردة. بطبيعة الحال خلال الفترة الاولى نازعت السيادة قوى اخرى متعددة. وسوف نرى ذلك تفصيلا فيا بعد كما تعرضنا له بايجاز فيا سبق. ولكن منذ استقرت القوة البرتغالية وفرضت احترامها على القوى الاخرى المحلية وغير المحلية لم يكن هناك منازع أو اية قوة اخرى تستطيع ان تتحدى البرتغال وتلك السيادة. التحدي ان وجد هو فقط محاولة لاثبات الوجود أو انتزاع بعض التنازلات.

قد يبدو لاول وهلة ان هذا القول مبالغ فيه. خصوصا عندما نتابع الاحداث خلال الفترة اللاحقة لعام ١٥٥٣ التي نعتبرها لحظة وصل السيطرة البرتغالية الى قمتها من حيث الفاعلية. ولكن الواقع ان هذا غير صحيح. المتغير الذي خفف من حدة هذه السيطرة هو ان السياسة البرتغالية لم تكن ترمي من غزوها لمنطقة الخليج ان تجعل من ذلك عنصر من عناصر سيادة عالمية. البرتغال لم تكن تفكر في ذلك ولم تكن تطمع في ذلك. هدفها الوحيد هو السيادة التجارية والتحكم في التعامل الدولي المرتبط بالتبادل الاقتصادي. اهمية المنطقة الاستراتيجية من حيث موقعها وقدرتها على التحكم في عمليات الاتصال تظل قائمة. ولكن السعي نحو التحكم في النفوذ العالمي ليس وارد ومن ثم فان طبيعة الاستعمار البرتغالي لابد وان تختلف. وسوف يبرز ذلك واضحا عندما نقارن بين الاستعمار البرتغالي خلال القرن السادس عشر والاستعمار البريطاني خلال القرن التاسع عشر لنفس المنطقة.

والواقع ان الاطار الدولي خلال هذه الفترة لم يكن يعرف ولايدرك مفهوم البحث عن السيادة العالمية(٥). فالدولة العثمانية لم تكن قادرة على مواجهة مثل هذه الفلسفة بل ويخيل الينا انها لم تعرفها في أي مرحلة من تاريخها. وبريطانيا كانت لاتزال بعد لم تكتمل في اطارها الحركي وقدراتها الذاتية كقوة عالمية. ما عدا ذلك من قوى لم تكن سوى أفلاك ثانوية. مفهوم الوكالة العالمية الذي يضفي على سياستها بعدا كليا من جانب واستراتيجيا من جانب اخر ومتكامل من حيث عناصره من جانب ثالث وحيث الهيبة ترتفع لتصير متغيراً اساسيا من جانب رابع لم يكن بعد قد عاد الى الضمير السياسي. عقب اختفاء الامبراطورية الرومانية والدولة العظمى الاسلامية على الانسانية ان تنتظر حتى القرن التاسع عشر لتبرز هذه المفاهيم من خلال الدولة القومية. هذه الحقيقة تخفف من وطأة المفهوم الاستعماري ولكنها رغم ذلك تجعله يكشف عن انيابه القبيحة في اقسى صورها وحشية. وهذا ما تميز به الاستعمار البرتغالي.

ناحية اخرى جديرة بان تثير الانتباه وهي المتعلقة بالقوى المختلفة المتصارعة في المنطقة حول المنطقة. فرغم ان الاستعمار البرتغالي كان هو صاحب السيطرة الا انها لم تكن من حيث الواقع

مطلقة. الهيبة والخوف من القوة البرتغالية لم توجد في أي مرحلة من مراحل هذا الاستعمار حيث لم تتردد قوى اخرى عديدة من رفع راية التحدي. ويجب ان نتذكر بصفة خاصة خمسة قوى اخرى استطاعت كل منها في حدود معينة أن تخلق صعوبات جادة ضد السيطرة البرتغالية.

أول هذه القوى والتي لا تنتمي الى المنطقة الانجليز. لقد ادرك البريطانيون منذ فترة سابقة على الاستعمار البرتغالي اهمية المنطقة وخططوا لاخضاعها لنفوذهم ولكن باسلوب جوهره التدرج والحنكة وبعد النظر. وقد وصلت تلك الحنكة قمتها في عام ١٦٣٤ عندما بدأ واضحا ان نهاية البرتغاليين قادمة. وقد تضخم النزاع بين هؤلاء والايرانيين ورغم ان اهل فارس طلبوا من الانجليز مساعدتهم في طرد البرتغاليين من اخر مواقعهم في مسقط بل وانتزعوا من الانجليز وعدا بذلك اذا بهدنة تعقد في منتصف عام ١٦٣٤ بين الطرفين لتعقبها تعليمات الى العاملين في الشركة الانجليزية بالحياد التام ويتوج ذلك كله اتفاقية ودية بين الطرفين في ٢٠ يناير ١٦٣٦. القوة الثانية وهي بدورها اجنبية لاتنتمي الى المنطقةالمولنديون. بدورهم هؤلاء مثلوا قوة معينة ولكنها حتى نهاية الربع الاول من القرن السابع عشر لم تكن ذات فاعلية حقيقية وان كانت استطاعت ان تلعب في الماء القذر وبصفة خاصة في العلاقة بين ايران وبريطانيا. القوى المحلية والتي تنتمي الى المنطقة ثلاث: الايرانيون والاتراك والعرب. أهم هذه القوى هم أهل فارس. ورغم أن القيادة الايرانية كما سوف نرى فيما بعد تميزت بالتقلب وعدم وضوح الرؤية ورغم ان قواتها العسكرية لم تكن على ذلك القدر من الفاعلية بحيث يمكن القول بانها مثلت اضعف العناصر العسكرية خلال تلك الفترة إلا ان اسبابا معينة جعلت منها عنصراً اساسياً في عملية التوازن بين القوى،... ولعل اهم تلك الاسباب هو ضعف الجانب العربي وعدم اهتمام السلطات العثمانية بتلك المنطقة الامر الذي سمح لايران بالانتصار على القوات التركية في اكثر من مناسبة. في عام ١٦٢٣ استطاعت الجيوش الايرانية اقتحام العراق واحتلال بغداد الذي ظل قرابة خمسة عشر عاما وحتى عام ١٦٣٨. وقبل ذلك استطاعت ايران ان تسجل انتصارا حاسما على الدولة العثمانية قرب تبريز في عام ١٦١٨. هذه الانتصارات على الدولة العظمى منحت ايران هيبة لم تكن من حيث الواقع تملكها. القوة العربية كانت مهلهلة متناحرة لم تفكر في اي مرحلة من مراحل هذا التطور في ان تتحد او تكون جبهة واحدة بل كانت لعبة في يد القوى الاخرى المختلفة والتي رصدناها في خمسة قوى اساسية ولعل هذا هو الذي مكن البرتغاليين من ان يسيطروا على المنطقة قرابة قرن كامل من الزمان.

ب) كيف انتهت السيطرة البرتغالية على النظام الاقليمي في منطقة الخليج؟

كما سبق ورأينا كيف ان تحقيق السيطرة البرتغالية بحيث تستطيع التحكم في النظام الاقليمي في منطقة الخليج استغرق فترة من الزمن كذلك اختفاء هذه السيطرة كانت في حاجة الى فترة معينة تتابعت فيها الوقائع لتنتهي بالاختفاء الكلي للاستعمار البرتغالي على هذه المنطقة.

فلنتابع الوقائع لانها بدورها تفصح عن حقيقة وخصائص التعامل:

أولا: أول هذه الوقائع التي تمكنت في تدهور الوجود البرتغالي هو فقد لشبونة لاستقلالها مع

اندماجها في الدولة الاسبانية. ضم البرتغال لاسبانيا في عام ١٥٨٠ كان يعني سيطرة المدركات والمصالح الاسبانية. والواقع ان الحكومة الاسبانية باعتراف جميع المؤرخين لم تكن تدرك لاحقيقة الاستعمار البرتغالي ولا اهمية هذا الاستعمار ومن ثم لم تخطط لا لتثبيت دعائمه ولا لنشر اطاره من حيث التعامل المحلي والاقليمي. وعندما استعادت البرتغال ستقلالها عام ١٦٤٠ كان الموقف قد صفي تقريبا لغير صالح البرتغاليين. وتبدو هذه الحقيقة واضحة لو تذكرنا امرين:

١. أول ما يجب ان نتذكره هو الهزيمة الساحقة التي انتزعتها بريطانيا عندما حطمت الا رمادا الاسبانية في عام ١٥٨٨. وقد ترتب على ذلك ليس فقط تقلص القدرة الاسبانية بل والشعور بالنقص في مواجهة القوة البحرية الانجليزية.

٢. على ان اخطر ما يجب ان يعاب على السياسة الاسبانية الجديدة هي النظرة الى هذا الاستعمار على انه نوع من التبشير بالمسيحية متناسية حقيقة اهداف السياسة البرتغالية. برز ذلك واضحا في الممثلين الرسميين الذين ارسلتهم اسبانيا لعمليات التفاوض المختلفة وبصفة خاصة مع ايران. حتى ان الشاه عباس الذي في لحظة معينة كان متلهفا لوضع اسس نظام للتعامل مع القوة المستعمرة ضج من الممثلين الكهنوت وكتب للسلطات الاسبانية(١٦) يذكرها بانه يفضل ان يرسل اليه رجل ذو قيمة يتفاوض معه بدل هؤلاء الكهنة لانه «اقدر على التفاهم مع مثل هذا الرجل بما يرضي جلالة ملك اسبانيا ويرضي الله اكثر من هؤلاء الكهنة بل ويضيف «ان رجل الدين متى خرج من صومعته اصبح كالسمكة التي خرجت من الماء»».

ثانيا: كذلك فيجب ان نضيف ان جميع القوى الدولية حاولت استغلال هذا الواقع الجديد والذي محوره الحقيقي عدم الفهم واختفاء الوعي لدى القيادة الاسبانية بحقيقة ووظيفة الوجود البرتغالي.

١. اول من حاول استغلال هذا الواقع هو الحكم العثماني اذ خرجت حملة تركية الى مسقط يقودها علي بك واستطاعت ان تفاجئ الحامية البرتغالية التي لم يكن امامها سوى الانسحاب المؤقت الى الداخل.

٢. واعقب ذلك في العام التالي حملة من الجانب الايراني استطاعت محاصرة جزيرة هرمز ورغم ان هذه القوات طردت من الجانب البرتغالي الا ان هذا بدوره كان ايذاناً ببدء حركة التحدي.

٣. ثم اعقب ذلك محاولة من الجانب الانجليزي. وبطبيعة الحال كما عهدنا في السلوك الانجليزي لم تاخذ هذه المحاولة صورة الغزو المسلح وانما اخذت صورة رحلة قام بها مجموعة من المغامرين الانجليز ولكن السلطات البرتغالية تنبهت الى ذلك وشكت في ان يكون هؤلاء جواسيس لصالح الاستعمار البريطاني فقبضت عليهم واودعتهم السجن(١٧).

ثالثا: على ان الضربة الحقيقية التي اعلنت بداية انحسار النفوذ البرتغالي وابتداء مرحلة تقلصه كانت في نهاية الربع الاول من القرن السابع عشر. بدأت عام ١٦٢٠ عندما قام الايرانيون بمساعدة العرب المحليين بمحاصرة احد مواقع الاحتلال البرتغالي بالقرب من رأس الخيمة وتمكنوا من طرد

البرتغاليين في نهاية العام اصطدم الاسطول البريطاني بالاسطول البرتغالي في معركة عنيفة انتهت بانتصار الاسطول الانجليزي في عام ١٦٢١ تم الاتفاق بين الانجليز والايرانيين على تنظيم قدراتهم بقصد طرد البرتغاليين من هرمز. وفي ٩ فبراير عام ١٦٢٢ بدأ الهجوم المشترك حيث قاد العمليات البرية الايرانيون وتولى الانجليز تدمير القوى البحرية وفي ٢٣ ابريل استسلم البرتغاليون للانجليز، لينتهي وضع السيادة البرتغالية في منطقة الخليج بحيث يمكن القول ان هذه السيادة انتهت من حيث الواقع عام ١٦٢٢ وبهذا تكون قد استمرت دون منازع حقيقي سبعين عاما.

وقد اعقبت هذه الهزيمة مجموعة من التطورات كانت لابد وان تنتهي بتصفية النفوذ البرتغالي من المنطقة. نستطيع دون دخول في التفاصيل التاريخية ان نميز بصفة خاصة بين هذه التطورات التي ترابطت للوصول الى هذه النتيجة: (اولا) التقارب بين ايران والانجليز على حساب كل من الاتراك والبرتغاليين. (ثانيا) انسحاب البرتغاليين الى مسقط واستقرارهم فيها والعدول نهائيا عن محاولة استعادة هرمز بل وعقد صلح مع الايرانيين اعترف فيه البرتغاليون بانتقال هرمز الى حكم وسيطرة شاه ايران. (ثالثا) محاولة الايرانيين ملء الفراغ الذي احدثه انسحاب البرتغال بدءا بمطالبة الانجليز بمساعدة فارس في التعاون العسكري سواء للتخلص من البرتغاليين في مسقط أو لضرب الاتراك في البصرة ورغم استجداء ايران لصداقة بريطانيا فان الانجليز تهربوا من هذه المساعدة. (رابعا) وجاءت الضربة القاضية عندما استطاع العرب في عمان ان يتحدوا ويقوموا بمهاجمة مسقط عدة مرات انتهت بسقوطها في يناير ١٦٥٠ وارغام البرتغاليين على الجلاء نهائيا عن المنطقة(١٨).

من الطبيعي ان يطرح الباحث عقب هذه المتابعة تساؤلا اساسيا: ما هي الاسباب التي ادت الى فشل الاستعمار البرتغالي؟ الاجابة على هذا الاستفهام تطرح الخصائص الحقيقية لمختلف القوى التي تعاملت مع المنطقة خلال فترة القرن الذي كان موضع تحليل وبصفة خاصة منذ منتصف القرن السادس عشر حتى نهاية الربع الاول من القرن السابع عشر. لقد رأينا ان القوة المسيطرة والسائدة كانت المقدرة البرتغالية. رغم ذلك فان المتتبع للسياسة البرتغالية يلحظ بوضوح كيف انها تميزت بخمس متغيرات حكمت عليها منذ البداية بالفشل. رأينا في مقدمة ذلك تبعية البرتغال لاسبانيا. ولكن هذا لم يكن كافيا: علينا ان نضيف الى ذلك ضيق افق القيادة البرتغالية والتي لم تفهم ان التجارة دون سيادة وسيطرة حقيقية تستند الى الهيبة من جانب والوظيفة الحضارية ولو من منطلق الاصطناع والادعاء من جانب اخر لا يمكن ان تنتهي الا بالفشل اضف الى ذلك الخلافات الداخلية العنيفة بين القيادات حتى على مستوى التعامل المحلي، ثم وحشية المستعمر البرتغالي وسوء استخدامه للسلطة الذي خلق الكراهية المحلية واخيرا يجب ان نضيف عدم المقدرة العسكرية وبصفة خاصة لو قورن البرتغال بالانجليز.

هذا التساؤل يفرض تساؤلا اخر: ولماذا رغم هذا الضعف الواضح لم تستطع المنطقة ان تواجه الاستعمار البرتغالي؟ لقد سبق وحددنا القوى المحلية بثلاث: ايران وتركيا والعرب. علينا ان نستبعد منذ البداية الجنب العربي الذي لم يحاول في أي مرحلة من مراحل الاستعمار البرتغالي ان

يتكتل في ارادة وقيادة واحدة الا فقط في نهاية هذا الاستعمار في مسقط عندما استطاعت عمان ان تطرد وحدها فلول البرتغاليين. كذلك تركيا لم تهتم حقيقة بهذه المنطقة. ايران رغم بروزها كقوة اقليمية الا انها بدورها كانت تعاني من ثلاث نقائص: عدم قدرة القيادة على ان تبلور نظرية واضحة للتعامل مع الاعداء من جانب ثم عدم وجود قدرة عسكرية حقيقية من جانب اخر اضف الى ذلك اختلال حقيقي في القيادة من جانب أخير. ولعل اخطر ما يمكن ان يعاب على هذه القيادة انها لم تفهم كيف ان واجبها كان ان تتكتل مع الجانب التركي من جانب والجانب العربي من جانب اخر لطرد القوى الاجنبية الدخيلة في محاولتها التغلغل الى المنطقة. يستوي في هذا البرتغاليون أو الهولنديون أو الانجليز. على العكس من ذلك لقد وصل الامر بشاه ايران ان راح يستجدي الصداقة الانجليزية بل وفي بعض الاحيان نفس البرتغاليين في عام ١٦١٦ استقبل الشاه السفير دون جارسيا دي سلفيا في محاولة للتحالف ضد الاتراك. بل في عام ١٦٢٥ تم عقد صلح حقيقي بين الجانبين. أما عن التعامل مع بريطانيا فيكفي ان نتذكر كيف ارسل الشاه عباس سفيره نجدي على بك الى انجلترا يحمل رسالة يقول فيها: «إن ارسل نجدي بك لا ليطلب شيئا سوى مودة صاحب الجلالة وليأمر جلالته تجاره ورعاياه جميعا بان يقدموا كيفما يشاؤون الى بلاد فارس يبيعون أو يشترون أو يمارسون ما يحلوا لهم من نشاط ولن يجرؤ احد على ان يفرض عليهم شروطا من أي نوع»(١١).

هذه المتغيرات التي فرضت على المنطقة نظاما للتعامل سوف يظل سائدا خلال جميع الفترات اللاحقة وحتى اليوم.

٣. خصائص التعامل في المنطقة

قصة الاستعمار البرتغالي لمنطقة الخليج عامرة بالدروس والعبرات فهي تفصح بوضوح وصراحة مدى ضعف المنطقة وعدم قدرة قيادتها على فهم حقيقة الدور الذي تلعبه المنطقة والتي هي قادرة من خلاله على ان تصير عنصرا فاعلا في السياسة الدولية. محور ذلك متغيرين اساسيين: التكتل بين القوى الاقليمية في مواجهة أي غزو اجنبي من جانب والقدرة على توظيف الاهمية الاستراتيجية للمنطقة في التعامل مع القوى الفاعلة في الاطار الدولي. خلال هذه الفترة ورغم ضعف القوى الدولية الفاعلة لم تستطع القوى الاقليمية ان تتصدى للغزو الخارجي بأي وسيلة كانت. القوى الدولية الفاعلة التي كانت لا تزال في المهد اذا استثنينا القوة البرتغالية لم تكن بعد وصلت الى مرحلة النضج الحقيقي حتى من حيث الادراك. ايضا القوى البرتغالية يسبب ضعفها البنائي وعدم وضوح مدركاتها لم تكن قوة دولية تتطلع الى الوظيفة العالمية بمعنى السيادة والتوجيه والتحكم. كانت كل اهدافها مصالح تجارية واقتصادية محدودة ونسبية. ورغم ذلك فالقوى الاقليمية بدت مترنحة غير قادرة على رفع راية التحدي. فلا هي تجمعت في قوة وارادة واحدة ولا هي ارتفعت عن مستوى الفرقة المحلية بل وسمحت للقوى الغازية في ان تصير عنصرا اساسيا في التعامل الاقليمي. انها القصة

التي سوف تتكرر في جميع مراحل التعامل الدولي مع المنطقة عقب القرن السادس عشر وحتى هذه اللحظة.

يصف احد المؤرخين البرتغاليين اهمية منطقة الخليج بقوله: «هنالك ثلاثة مراكز تعتبر المفاتيح الرئيسية لتجارة الشرق والسيادة على التجارة العالمية: مالقا المتحكمة في مضيق سنغافورة ثم عدن عند مدخل ومخرج البحر الاحمر والمركز الثالث هو هرمز المتحكم في مضيق الخليج العربي»(...). بل وتعتبر مدينة هرمز اهم هذه المراكز جميعها. ثم يضيف «ولو سيطر ملك البرتغال على هذه المراكز الثلاث في الشرق لاصبح سيد العالم.» على ان الاهمية الاستراتيجية تتجاوز هذه الناحية حيث تستمد عناصر اخرى من حيث كون هذه المنطقة تمثل عنصرا اساسيا من عناصر المحيط الهندي(...) وتخلق حلقة الوصل بين المحيط الهندي ومنطقة البحر الابيض المتوسط.

هذه النواحي جميعها تدور حول البعد البحري لمنطقة الخليج. ولكنها تبرز في صورة اكثر خطورة من حيث البعد البري أي من حيث التعامل الدولي على مستوى الاتصال البري. فمنطقة الخليج اولا موقع رئيسي للتحكم في المواصلات البرية. الاتصال القادم من الشرق والمتجه الى الغرب وكذلك القادم من الغرب والمتجه الى الشرق يجد في هذه المنطقة موقعا متوسطا يسمح بالتوقف والاستعداد لاكمال رحلته. هو نقطة انطلاق ولكنه كذلك موقع للترقب وللاستمرار في رحلة طويلة في حاجة الي ذلك. لقد درج المؤرخون على الحديث عن طريق الخليج كبديل لطريق البحر الاحمر ومكمل له. وبصفة خاصة قبل فتح قناة السويس. الرحلات العديدة عبر بادية الشام أو عبر صحراء سيناء غمرت تاريخ العصور الوسطى والعصور الحديثة. ولكن هؤلاء المؤرخون ينسون رحلة ثالثة تبدأ من اليمن أو قرن افريقيا وتتجه عبر منطقة الخليج الى اوسط آسيا بل وتصل الى الصين وعاصمتها بكين.

هذه الاهمية التجارية والاقتصادية والتي مردها موقع منطقة الخليج سوف يقدر لها ان تتحول خلال فترة الاستعمار البرتغالي الى ايضا اهمية استراتيجية. والظاهرة التي تدعو الى الدهشة هو كيف فهم ذلك قادة العالم العربي ولم يفهمها قادة المنطقة. لم يفهمها قادة ايران ولا القيادات الهشة العربية. ولكن الاخطر من ذلك القيادات العثمانية. ولعل مما يفرض على المؤرخ التساؤل ان القيادة العثمانية خلال القرن السادس عشر كانت في اوج قوتها ولم تكن تواجهها أي قيادة اوروبية قادرة على ان تنازلها وهي امبراطورية كبرى تنتمي الى المنطقة رغم ذلك:

أولا: سمحت لايران ان ترتفع الى مرتبة القوة الاقليمية القادرة على تحديها بل واحتلالها العراق بما في ذلك بغداد وان كانت البصرة قد استطاعت ان تصمد ازاء ذلك الغزو.

ثانيا: اهتمت بالبحر الاحمر واطلقت قواتها في جميع اجزائه حتى انه وصف بانه اصبح بحيرة تركية.

ثالثا: بل ووجد بها من فهم هذه الاهمية. فحاكم مصر سليمان باشا في فترة الايناع البرتغالي ادرك ببعد نظر اهمية الخليج العربي بالنسبة للاستراتيجية العثمانية في الشرق بل وقام فعلا بحملة عسكرية عام ١٥٣٨ اتجهت الى شواطئ الهند. ولكن هذه الحملة فشلت ولم تكمل جهودها فقفلت

قواته راجعة الى البحر الاحمر. وهذا يعني ان الاهمية لم تكن واضحة بالقدر الكافي(٢٢).

وتكفي النزعات والصدمات المحلية بين الاطراف الثلاث المنتمية الى الاقليم حكام ايران من جانب، والقيادة العثمانية من جانب ثان. والزعماء العرب من جانب ثالث للتأكيد بان القدرات الاقليمية لم تفهم ولم تدرك حقيقة الوظيفة الدولية والعالمية للمنطقة والقادرة على ان ترتفع لو قدر الادراك الواعي لتصير متغيرا اساسيا في الصراع الاقليمي من حيث علاقته بالنظام الدولي للتعامل. هذه الحقيقة لا تزال حتى هذه اللحظة رغم اختلاف الاطار واختفاء بعض الاطراف المتعاملة وبروز اطراف اخرى جديدة هي المتحكمة في حقيقة العلاقة بين منطقة الخليج العربي والاطار الدولي للتعامل.

ناحية اخرى تدعو الى كثير من التساؤلات وهي خصائص الصراعات التي تدور في المنطقة وحول المنطقة. هذه الخصائص التي تبرز واضحة من متابعة احداث القرن التي تعرضنا له في الصفحات السابقة لا تزال لم تتغير حتى عالمنا المعاصر ورغم اختلاف المتغيرات. الامر الذي يدعو الى طرح هذا التساؤل: هل هذه الخصائص تنبع من طبيعة الواقع الاقليمي الذي لايزال يفرض نفسه كمتغير ثابت ومتحكم في اطار التعامل المحلي والدولي؟

نستطيع ان نميز في هذه الخصائص بين خمسة عناصر اساسية:

أولا: فهي صراعات متعددة الاوجه multi faceted بحيث يكد يستحيل الفصل بخصوصها بين ناحية واخرى أو بعد وأخر. هي صراعات شخصية من جانب وقومية أو ذات بعد جماعي من جانب، حيث الناحية الاقتصادية تتداخل مع البعد السياسي بل والحضاري. محاولة فصل أي من ابعادها والتعامل بحياد واستقلالية تصير امرًا صعب المنال. ان تطبيق فلسفة الخطوة الخطوة على الصراعات في منطقة الخليج يكاد يستحيل تصوره، فالصراع حول منطقة شط العرب على سبيل المثال يملك بعده الاقتصادي الواضح ولكن تتداخل في ذلك البعد طبيعة الصراع الحضاري بين الجانب القاري والجانب العربي حيث يكاد يغلف هذا الصراع الحضاري نزعة دينية واضحة ولا صلة لها بموضوع الصراع. ولو عدنا الي الفترة التي تعرضنا لها في هذه الدراسة لوجدنا هذه الحقيقة واضحة في خلال المرحلة الاخيرة من مراحل الاستعمار البرتغالي عندما تقلص الوجود البرتغالي حول مسقط. رغم ان هذا الصراع في جميع مراحله لم يغلفه طابع الدين أو عنصر الصدام بين المسلمين من جانب والمسحيين من جانب اخر الا ان الحركة العمانية انطلقت من مفهوم الجهاد وكان العامل الديني هو اساس حركة الوحدة العمانية في مواجهة الوجود البرتغالي.

ثانيا: الصراع في منطقة الخليج تتداخل مظاهره وتعبيراته الواحد مع الاخر بل وتعود الى فرض عملية الترابط مع الصراعات الاخرى في الاقاليم والمناطق المحيطة بمنطقة الخليج. لقد كانت جميع الصراعات حول منطقة الخليج تترابط بشكل واضح ومذهل ليس فقط مع المناطق المحيطة مباشرة بالخليج بل تمتد في بعض نتائجها ومظاهرها الى اجزاء بعيدة من الخليج في المحيط الهندي وافريقيا. عندما استطاع حكام عمان التخلص من البرتغاليين في مسقط لم يترددوا في ان يتبعوهم في الهند

وشرق افريقيا. الصراع بين البرتغاليين والانجليز في الخليج كان امتداداً بدوره لصراع اكثر اتساعا في الهند وانعكست اثاره على الوجود الاستعماري لكلا الطرفين ايضا في الهند(٣٣).

ثالثا: التداخل المستمر والثابت بين الصراعات المختلفة في منطقة الخليج مع الازمات الداخلية domestic والمتعلقة باوضاع امارات المنطقة من حيث علاقة القوى الحاكمة ذاتها وفيا بينها. ولعل خير نموذج لذلك هو وضع عمان خلال الربع الثاني من القرن السادس عشر وكيف اثر ذلك في تدعيم النفوذ البرتغالي. في عام ١٥٢١ اتفق حكام البحرين والقطيف وبعض زعماء القبائل العربية على مداهمة الحاميات البرتغالية. ولكن في اللحظة الاخيرة شذ حاكم مسقط. والسبب الحقيقي في ذلك هو ان العثمانيين كانوا قد بدؤا يفكرون جديا في احياء الامامة. ولكنهم لم يستطيعوا الاتفاق على زعيم ديني واحد.

رابعا: على ان اخطر ما يميز الصراعات الخليجية هو الدور الخطير الذي تلعبه تلك الصراعات مع المشاكل الدولية والصراعات العالمية. بدت منذ تلك الفترة حقيقة موقع الخليج من التوازنات الدولية ورغم عدم ادراك القوى الاقليمية وبصفة خاصة الدولة العثمانية. ويتجلى ذلك في اكثر من حقيقة واحدة:

١. فالصراع بين فارس والدولة العثمانية تبلور في تحالفات تبعد عن المنطقة تتحدد فقط بهذا الخلاف. فازاء الصراع القوي الذي قد بدأ بين الباب العالي وكل من ملك اسبانيا وامبراطور النمسا لم يتردد شاه ايران في ان يعرض على هذا الاخير استعداده للتعاون معه ضد حكام القسطنطينية وقد ترتب على ذلك تجدد الحرب مع فارس من الجانب العثماني وكان وقتها يحكمهم السلطان سليمان القانوني قرب منطقة الخليج.

٢. في عام ١٦١٨ ورغم ان الاسبان الذين كاوا قد تولوا مسئولية السياسة البرتغالية كانوا قد بدءوا يفكرون جديا في صدام مع الفرس الا ان ملك اسبانيا في محاولة واضحة لتطويع القيادة الايرانية عرض مبدأ التحالف بين البلدين على أساس مرابطة اسطول برتغالي عند باب المندب لمنع مرور التجارة بين مصر والولايات العثمانية من جهة والبحار الشرقية من جهة اخرى. وفعلا عندما ابحر الاسطول الاسباني عام ١٦١٩ الى المحيط الهندي كان هدفه المعلن اقفال باب المندب في وجه السفن العثمانية ورغم ان اهدافه الحقيقية كانت ايضا اعادة السيطرة التجارية على منطقة الخليج.

٣. كذلك فقد سبق ورأينا كيف ان حكام عمان لم يتوقفوا عند مناهضتهم للبرتغاليين عند منطقة الخليج بل تابعوهم الى الهند وكذلك في شرق افريقيا.

خامسا: على ان اخطر ما نلاحظه هو عدم قدرة قيادات المنطقة على فهم امكانياتها باتباع سياسة اقليمية واضحة:

١. فحكام فارس لم يتعاملوا في اي موقف خلال هذه الفترة مع القوى المحلية بحسن نية وارادة تعاون حقيقية. ليس فقط مع الدولة العثمانية بل وكذلك مع القيادات العربية. مما لاشك فيه ان خصائص الساحل الشرقي أي العربي وبصفة خاصة خلال تلك الفترة مما شجع على ذلك. فهي منطقة

قليلة السكان ولم يوجد بها حق ولو في شكل مبسط دولة منظمة. ولكن هذا كان ادعى لان تتجه القوى المحلية القادرة على ذلك الي تكتيل القوى. على العكس من ذلك فان فارس لم تجمل تحالفها الا مع الاعداء الحقيقيين للمنطقة سواء الانجليز أو البرتغاليين.

٢. ولعل خير نموذج يعبر عن هذه الفرقة هو عندما حدث صدام حربي بين القوتين البرتغالية والعثمانية في عام ١٥٥٩ حول البحرين. والغريب في هذا الصراعليس فقط ان الفرس لم يمدوا أي نوع من المعونة الى القوات العثمانية لطرد المستعمر الاجنبي بل ان حاكم البحرين ورغم انه مسلم ظل مواليا للقيادة البرتغالية وقد كان ذلك احد الاسباب الحقيقية في فشل العثمانيين وانسحاب قواتهم اى قواعدهم في البصرة.

٣. كذلك يجب ان نعترف بأن القيادة العثمانية لم تدرك اهمية وضع اسس سياسية للتعاون الاقليمي في مواجهة هذا التسلل الاوروبي والذي كان يسيطر عليه ايضا مفهوم التبشير. ويتجلى ذلك في اكثر من موقف واحد. فحاكم هرمز المحلي العربي المسمى بشرف الدين كان من بين من استنجدوا عام ١٥٤٦ بالدولة الاسلامية الكبرى بل وكتب الى والي بغداد التركي يغريه بمهاجمة البرتغاليين في هرمز. وعندما اقتنعت بذلك الاستانة ارسلت قوة لم تتعدى جهودها القيام بمظاهرة بحرية امام مسقط(٢٤).

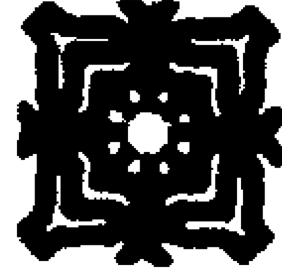
٤. ولعله مما يدعو للتساؤل كيف ان الخليفة العثماني لم يدرك مدى خطورة الاهداف التبشيرية خلف حركات المد الاوروبي في المنطقة وبصفة خاصة منذ تحرك الاسطول الاسباني في عام ١٦١٩ نحو منطقة الخليج. لقد كانت القيادة مناصفة بين زعماء دينيون يمثلون الطوائف التبشيرية بهدف غزو فارس وجميع اجزاء المنطقة بما في ذلك العراق ومدينة البصرة على وجه التحديد وقادة عسكريون. بل والغريب ان رجال الدين هم الذين كانوا يتحمسون الى الحرب والقتال. ان الخليفة العثماني هو الذي تصدى للغزو الاسباني باسم التبشير لبلاد الاسلام في شمال افريقيا فلماذا لم يتصدى بدوره لذلك في منطقة الخليج حيث وصلت حركات التبشير الى نفس مدينة الموصل؟ ولماذا لم يجعل تعامله مع شاه ايران اساسه حركة التوحيد أو التعاون بل وحتى الاستئصال كمقدمة لرسالة الجهاد؟

استفهامات عديدة تطرح نفسها وبصفة خاصة ونحن نعيش اليوم خبرة مماثلة. والواقع ان التماثل في الخبرة لا يقتصر على موضوع التعامل الدولي في المنطقة وحول المنطقة. بل ان التماثل يقودنا الى نفس استراتيجية التعامل العسكري. يجمع من تابع التطور العسكري للتعامل مع المنطقة على ان الحرب وبصفة خاصة حرب العمانيين كانت بالاساس معارك للحصون والقلاع(٢٥). التساؤل الذي لا نستطيع سوى أن نطرحه بل وبكثير من الحذر: هل هذه الفنادق التي بنيت في منطقة الخلاج على شكل قلاع حقيقية هي للانتفاع بهذا الدرس في حرب قادمة. لاتزال المنطقة لم تفهم بعد احتمالاتها الحقيقية؟

سؤال اخر نتركه دون اجابة.

خلاصة:

مقدمة: التطور العام في المفاهيم الاستراتيجية المتعلقة بالسيادة العالمية وموضوع منطقة الخليج عملية بناء النموذج التاريخي واهميتها في علمية المنهاجية الوضعية للتحليل السياسي: منطقة الخليج خلال فترة الاستعمار البرتغالي ــ التعريف بعملية بناء النموذج ــ انواع النماذج . الإطار الفكري للدراسة ــ ٢. الاستعمار البرتغالي وخصائص النظام الدولي الاقليمي خلال القرن السادس عشر التحديد الزمني بالفترة موضع الدراسة ــ خصائص السيطرة البرتغالية ومتغيرات النموذج الاقليمي الذي ساد المنطقة خلال فترة الاستعمار البرتغالي ــ اسباب فشل الاستعمار البرتغالي . ٣. خصائص التعامل في المنطقة ــ اهمية منطقة الخليج الاستراتيجية ــ خصائص الصراعات في المنطقة وحول المنطقة ــ الربط بين خبرة الماضي والواقع المعاصر. ملاحق الدراسة: مراجع ومصادر واشكال توضيحية.



المصادر والاحالات:

١. انظر التفاصيل في حامد ربيع، الابعاد الاستراتيجية لصراع القوى الكبرى حول الخليج العربي، ١٩٨٣، ص٤٧ وما بعدها، كذلك لنفس المؤلف نظرية الامن القومي العربي ١٩٨٤، ص٣٠٢ وما بعدها.

٢. المفاهيم الاستراتيجية التي نطرحها في هذه الدراسة ورغم انها محدودة وقليلة الا اننا تناولناها بالتفاصيل في محاضراتنا بمعهد البحوث والدراسات العربية خلال العامين الماضيين وسوف تبرز في مؤلف كامل خلال العام القادم بعنوان الابعاد الاستراتيجية للصراع العربي الاسرائيلي.

٣. انظر بهذا الخصوص الى جوار المرجع السابق ذكره المؤلفات التالية:

LEYMAIRE, Ocean In die , le noweau coeur du monde, 1981.

CAMPREDON, SCHWEITZER, Frence, Ocean indien, mer rouge, 1986.

DA LAGE, alt., jeux de go en m'editerrame'e Orieakale, 1968.

٤. التفاصيل يجدها القارئ في:

CAFAGNA Storie e modelli, la petica storio grefice in DE LUNA, at, glu strum eati dells ricerea, uol. II, 1983, P. 1381.

المصادر يجدها القارئ في نفس المرجع ص ١٣٧٩ ــ ١٣٨٠.

٥. قارن بايجاز:

SRAWITZ, Me'thodes des Sciences, Sociales, 1981, P.493.

٦. انظر بالتفصيل: حامد ربيع، نظرية التحليل السياسي، مذكرات كلية الاقتصاد جامعة القاهرة، ١٩٧٩، ص ٢٢٩ وما بعدها.

٦. تاريخ الخليج لا يزال في حاجة الى دراسة جادة، الى جانب مجموعة الدراسات التقليدية المعروفة والتي سوف نشير اليها فيا بعد كمصادر توثيقية:

فان الخليج لم يخضع لاي دراسة معاصرة جادة تتميز بالاحاطة من جانب والتفصيل من جانب اخر تتعدى المناهجية التقليدية من سرد للاحداث دون التحليل والغوص في المتغيرات الدفينة خلف الوقائع.

انظر على سبيل المثال:

ــ مصطفى النجار ــ واخرون ــ تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ١٩٧٤ .

ــ محمد رشيد النيل . الاهمية الاستراتيجية للخليج العربي ١٩٧٤.

ــ فاروق عمر ــ تاريخ الخليج العربي ١٩٨٥.

٧. كذلك وفي نفس المعنى:

RAMAZANI, The Persian Gulf and du Streit of Normuy, 1979.

لاحظ رغم ذلك التفرقة الجوهرية بالنسبة للنظام البرتغالي حيث انه لم يهتم بالسيادة العالمية والتي تجعل موقفنا يختلف عن موقف الكاتب السابق ذكره.

٨. ولعل هذا يوضح لماذا يمكن وصف النظام الدولي في منطقة الخليج بأنه نظام اقليمي ويفسر ذلك لماذا لا نستطيع ان نطلق كلمة نظام اقليمي على النظام الذي يسود حاليا الوطن العربي. انظر نقدنا بخصوص هذا الاصطلاح الاخير الذي يحمله احد مؤلفات مركز دراسات الوحدة العربية في: حامد ربيع، الحوار العربي الاوروبي ومنطق

التعامل الدولي الاقليمي. ١٩٨٣، ص ٢٨٦ وما بعدها.

٩. في محاضرة عامة القيت بابوظبي في شتاء عام ١٩٨٠ لفتنا نظر القيادات المسئولة الى احتمالات حرب الخليج وحذرنا من انها تنبع من مؤامرة دولية واسعة النطاق. هذا القول في حينه لم يكن موضع رضا وتقدير من جانب المسئولين. وكان على هؤلاء عقب اشتعال الحرب بخمسة اعوام ان يعترفوا بصحة ما ذكرناه قبل ذلك بقرابة ستة اعوام. انظر مع ذلك:

AMIRSADEYHI, The Security of Perseain Gulf, 1981.

AMINI, Political and streteyic iseues in du Gulf, 1984-

ABIR, Oil power and potilics: Candlit in arebik, he Red cea,and du Gult, 1979.

١٠. تاريخ الاستعمار البرتغالي للمنطقة لم يخضع حتى الان لاي دراسة جادة باللغة العربية. في تحليلنا للوقائع استندنا الى مصادر ثلاث اساسية وحيث كانت هناك خلافات بين هذه المصادر ابرزنا في معرض الاستدلال اسباب ترجيح رواية على اخرى. المصادر التي استندنا اليها اساسا هي:

ــ المصدر التقليدي والاجنبي والذي لا يزال رغم مرور قرابة سبعين عاما على اصداره وهو مؤلف لوريمر والذي نشر باللغة العربية بعنوان «دليل الخليج» وقد اعتمدنا بصفة خاصة على الجزء الاول من القسم التاريخي، طبعة قطر.

ــ البحث الهام الذي قدمه صلاح العقاد بعنوان «دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج» الى ندوة الدراسات العمانية في نوفبر ١٩٨٠ بعنوان «حصاد» المجلد الرابع ١٩٨١، ص٥٩ وما بعدها.

ــ الدراسة التي ندين بها للمؤرخ العراقي محمد علي الداود، العلاقات البرتغالية في الخليج العربي، ١٥٠٧ ــ ١٦٥٠، بمجلة كلية الاداب، جامعة بغداد. ١٩٦٠، ص١ وما بعدها. ويكمل ذلك بحث اخر لنفس المؤرخ بعنوان «تاريخ العلاقات الهولندية مع الخليج العربي» ١٦٣٠ ــ ١٧٦٠، نفس المجلة، ١٩٨١. ص ٢٦١ وما بعدها.

كذلك يستطيع الباحث ان يجد مصادر اخرى في المؤلف الثاني ص ١٠٥ ويغلب عليها الطابع العربي. وفي المؤلف الثالث ص٢٥ ويغلب عليها الطابع الاجنبي ولكنها جميعها قديمة احدثها يعود الى بداية القرن العشرين. لاكمال هذه المصادر بتوثيق اكثر دقة واكثر حداثة يستطيع القارئ ان يعود الى:

KELLY, arebic du Gulf and the West, 1980, p. 505 - 510.

١١. لوريمر. م. س. ذ. ، ص١١.

١٢. مطابق نفس المرجع ص ١٣.

١٣. نفس المرجع ص ١٥.

١٤. انظر في معنى مختلف العقاد، م. س. ذ. ص٦٧ حيث يرى في الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين صورة لما سيكون عليه الصراع بين العثمانيين والبريطانيين وهذا ما يعني فيها مختلفا لحقيقة الاستعمار البرتغالي.

١٥. انظر لوريمر، م. س. ذ. ص٤٦ ــ ٤٧.

١٦. اورده لوريمر م. س. ذ ص٣٠.

١٧. انظر بالتالي، نفس المرجع ص ٢١٨، ١٩، ٢٠.

١٨. انظر ايضا نفس المرجع ص ٣٨، ٢٩، ٥٠، ٦٥، كذلك العقاد م. س. ذ، ص٩٣ وما بعدها، العلاقات البرتغالية م. س. ذ.، ص١٣ وما بعدها.

١٩. انظر العقاد م. س. ذ، ص٧١ وما بعدها.

٢٠. اورده الداود، تاريخ العلاقات الهولندية مع الخليج العربي، م. س. ذ. ص٢٦١.

٢١. انظر من بين المصادر العديدة المراجع التالية:

MAZERAN, L'Oce'an, jndien, un eujeu pow l' Occidcut, 1987.

JAWATKAR, Siego Garcia in uiternatierirl diflm a ey, 1982.

BHARSAYA, South slsisn se curily ufter ofgh asistak, 1985-

AHSAN, Stretejic con cepts of atu laetion Ocea, 1981.

LABROUSSE, L' Ocean indien et le Galf Persiqe dens le stretegie moudiale in Rn. Lrauiense, 1776

٢٢. انظر لوزيرو، م. س. ذ ص٥٥، العقاد، م. س. ذ. ص٦٥.

٢٣. انظر العقاد، م. س. ذ. ص٩٨ وما بعدها.

٢٤. العقاد، م. س. ذ. ص٦٥.

٢٥. ويلخص ذلك العقاد بقوله: «ويمكن القول بان حروب العمانيين في هذه الفترة كانت هي معارك الحصون والقلاع. انظر م. س. ذ. ص٩٣.

٢٦. كذلك نحيل القارئ الى المصادر التالية التي اغنت في بعض عناصر الدراسة:

CABLE, Diklomacy at Sea, 1985, P. 120 PECIK, The United Arab Emirutes, 1986, P.26-27.

HEEYAN, WHEATCROFT, Zones of conflict, 1986, P. 44.

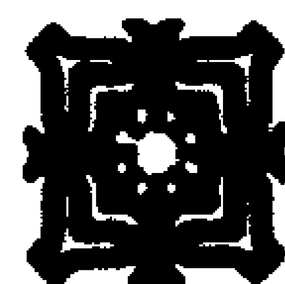
BEYARIE, Mare mostrum: esquisse d'une ge'ostrate'gie de le Med'iterrane'er, in Herodote, 1987, m 45, P. 31.

TRUVER, The Strait of Yibralt ar and du Me'diterranean, 1980.

OZBARAN, The ottomer turks and the Portu guese in thie Persien Yulf, in Jourual of Indien History, vol. XXiv, 1945, P. 60 - 76-

SALDANHA, The Portujuese in du Persian Gulf, in Journed Bombgy Royal Ouiatic Saciety, vol. XXIII 1908, P. 34-

WILSON, The Rersian Gulf, an historicel Cketch, 1928-



قراءات أرشيفية
في الوثائق التاريخية
وفي الصراع الدولي على الخليج العربي

أحمد جلال التدمري
مدير مركز الدراسات والوثائق
الديوان الاميري ـ رأس الخيمة

مقدمة:

واجه الخليج العربي منذ القدم هجمات أجنبية وأطماعاً دولية للسيطرة عليه واقتناص ثرواته، ولاتخاذه معبراً للتجارة بين الشرق والغرب. وبعد أن كان الخليج أشبه بالبحيرة العربية تقطن سواحله شرقيها وغربيها القبائل العربية المعروفة بأصالتها وبعراقتها، انتشرت على شواطئه الشرقية وبعض جزره المراكز الأجنبية من برتغالية وانجليزية وهولندية وفارسية. حتى كانت حملات التحرير العربية التي أجلت البرتغاليين وواجهت الفرس والانجليز والهولنديين.

إن البحث عن الوثائق والمعلومات التاريخية المسندة يبقى هاجساً دائماً يراود كل باحث ودارس في هذا الميدان، لربط الأحداث والكشف عن الحقائق والتوثق من الروايات التي جلها ذات مصادر أجنبية.

وخلال البحث والتنقيب عن الوثائق التاريخية ذات الصلة بخليجنا العربي، وبتعاون من الجهات الأرشيفية الرسمية عثرت على عدد من الوثائق الهولندية التي كانت مجهولة. ونظراً لأهميتها التاريخية وجدت من واجبي كباحث أن أضمن هذه الدراسة بها.

ودراستي هذه بمثابة المطالعة للوثائق التاريخية عن مرحلة حساسة من تاريخنا تشمل فترة القرنين السابع والثامن عشر الميلادي، ومن ثم الربط بينهما في نسيج يوضح حقيقة الوقائع ومسيرة الأحداث لتعكس في النهاية صورة عن الماضي القريب والبعيد الذي لازالت مؤثراته وذيوله ممتدة الى واقعنا الحاضر وربما الى المستقبل المعاش قريبه وبعيده.

القوة البحرية العربية في الخليج العربي:

شغل القواسم منذ مطلع القرن السابع عشر زعامة البحر وقيادة السفن الحربية إبان عهد الدولة اليعربية. إضافة إلى أن سفنهم التجارية كانت تجوب الخليج وشواطئ شرق إفريقيا وموانئ الهند، والبحر الأحمر.

وفي أواخر عهد اليعاربة برز القواسم ومن خلفهم قبائل الساحل كأبطال نضال ضد المستعمرين وكزعماء في الساحل الشرقي والغربي وجزر[1] الخليج العربي ومن خلال زعامتهم القبلية التي انفردوا بها في الساحل الشرقي للخليج منطقة بندر لنجة وجزيرة قشم وما جاورها وساحل الشميلية على الشاطئ الشرقي للامارات المطل على خليج عمان والتي ازدهرت فيها مدن دبا وكلبا وخورفكان... وكذلك الشاطئ الغربي للامارات مثل مدن رأس الخيمة والشارقة، كان للقواسم دور مشهود في مقارعة الغزاة ودحر المحتلين.

أطلق أسم الهولى على القبائل العربية التي تقطن الساحل الشرقي للخليج العربي ومعظمها من قبائل آل سميط والعثوب والدواسر والمرازيق وآل بوعلي والمطاريش في بوشهر والزعاب في بندر ريق، إضافة إلى القواسم الذين تركز وجودهم في جزيرة قشم وبندر لنجة ولاراك وما جاورها. إلى جانب وجودهم في مدن الساحل الغربي للخليج.

لقد كان التماسك العربي في حوض الخليج العربي شرقيه وغربيه قوياً في مقارعة الاحتلال البرتغالي وفي التماسك بين القبائل العربية على كلتا الضفتين وفي المناطق الداخلية لعمان مما أضاف لدولة اليعاربة قوة مكنتها من إنجاز الكثير من المهام التحريرية. في عام ١٦٢٠ تمكن العرب بالتعاون مع الفرس من طرد البرتغاليين من موقع احتلوه على الساحل الغربي قرب جلفار – رأس الخيمة[1] الا أن الفرس هادنوا بعد ذلك البرتغاليين وعقدوا معهم في عام ١٦٢٥ إتفاقية صلح اعترف فيها البرتغاليون بانتقال هرمز وقشم الى الشاه عباس مقابل حصولهم على نصف العوائد الجمركية في كنج بالقرب من لنجة. وهكذا ساءت العلاقات العربية الفارسية بسبب مهادنة الفرس للبرتغاليين وخاصة أن البرتغاليين لم يزالوا يحتفظون بقوات لهم في برج حصين قرب جلفار، *مما جعل هذا التحالف ينقلب الى احتلال فارسي لحصن الصير واحتلال برتغالي لحص آخر بالقرب* من جلفار، إضافة الى وجود سفن حربية برتغالية في ميناء جلفار. وهكذا كان لازماً على القوات العربية في عهد الامام ناصر بن مرشد أن تتوجه لتحرير هذه المواقع من المحتلين[2] حيث وقعت

معارك عنيفة في مواجهة القوات الفارسية والبرتغالية. ورغم التمركز القوي والمحصن للقوات الفارسية والبرتغالية فقد تمكنت القوات اليعربية بقيادة/ على بن احمد من تحرير حصن الصير بعد معارك رهيبة سارع خلالها البرتغاليون بإمداد الفرس بالأسلحة والسفن إضافة الى إطلاقهم نيران مدافعهم على القوات العربية المحاصرة للحصن. تدعيماً من البرتغاليين للفرس، وكادوا بهذا الدعم أن يحولوا بين العرب وبين تحرير الحصن، إلا أن شجاعة القوات العربية وتصميم قائدها على النصر أو الموت أدى الى تمكنه من الاستيلاء على الحصن وطرد المحتلين منه(٤).

وبإحراز القوات العربية اليعربية لذلك النصر وتلك المعركة تمكنت من حصر النفوذ البرتغالي داخل القلعة التي تقوقعوا فيها حيث أجبروا فيما بعد وإثر معارك ضدهم على الاستسلام للقوات العربية وطلب الأمان.

إن روح العرب العمانيين العالية وتصميمهم على النصر وإسترداد الحقوق والذود عن حياض الأرض والمياه العربية جعلتهم يتبوؤون مكانة عالية في المنطقة وبلغت القوة البحرية العربية بالذات في عهد الامام سيف بن سلطان اليعربي أقصى قوة لها فأخذ بمقاتلة القوى المعادية.. البرتغاليين في المحيط الهندي والفرس في مياه الخليج العربي(٥). فقد تحركت قوة بحرية عربية قوامها الف وخمسمائة مقاتل لمهاجمة منطقة كنج الخاضعة للفرس القريبة من بندر لنجة العربي على الشاطئ الشرقي للخليج العربي. وقضت هذه القوة على قوات الفرس واستولت على الكثير من الثروات وكبدتهم خسائر فادحة، مما أدى بالفرس إلى طلب العون من الوكالة الانجليزية لوقف أو إعاقة القوات العربية من التقدم نحو فارس ومن ثم لمهاجمة مسقط. وكان الهولنديون أيضاً على استعداد لتقديم المساعدة للفرس مقابل أن تقدم السلطات الفارسية لهم تسهيلات تجارية، إلا أن الفرس تراجعوا عن فكرة مهاجمة مسقط(٦) لتقديرهم بأن الهجوم لن تكون نتائجه في صالحهم.

واستمرت بعد ذلك محاولات تكوين جبهة فارسية برتغالية ضد التفوق البحري العربي في أواخر القرن السابع عشر. في عام ١٦٩٦ وصلت الانباء الى الامام سيف بأن هناك اتفاقاً بين الفرس والبرتغاليين لمهاجمة مسقط. ولهذا بادر الامام بشن هجوم مفاجئ على أكبر المراكز البرتغالية في منطقة مانجالور فقضى بذلك على محاولتهم في مهدها ومنع الحليفين من بلوغ أهدافهما(٧).

وإثر هذه المعركة يئس الفرس من الدعم البرتغالي فتوجهوا إلى القوى البحرية الجديدة في الخليج وهي الانجليزية والهولندية يطلبون مساعدتها ضد اليعاربة. الا أن الانجليز وقفوا على الحياد في الصراع العربي الفارسي نظراً لعدم تعرض قوات الامام سيف للتجارة والسفن الانجليزية.

وفي عام ١٧٠٧ قام الاسطول العربي بأسر عدد من السفن والقوارب الفارسية، وفي عام ١٧٢٠ استولى الاسطول على عدة جزر من أهمها جزيرة قشم، وقد أغضب ذلك الفرس فأرسلوا جيشاً يقوده/ على خان الى بندر عباس لاستعادة هذه الجزر، لكن غزو الافغانيين لبلاد فارس أرغم هذه القوة على التراجع نحو كرمان دون أن تحقق شيئاً من مهمتها(٨).

لم تكن للفرس قوة بحرية خالصة منهم، لذلك حاولوا لتحقيق أهدافهم الاستعانة بالبرتغاليين

والانجليز والهولنديين والفرنسيين، ليحاربوا بدلا منهم(٥). وباعتبار أن ساحل الخليج العربي على شاطئيه الشرقي والغربي معظمهم من العرب وان القبائل الفارسية موطنها البلاد الداخلية والجبال. لذلك لجأ نادر شاه ملك الفرس الى العرب عندما قرر إعداد اسطول حربي ليواجه به البرتغاليين. فجند منهم بحارة ونواخذة لذلك الاسطول. لكنه لم يستطع استغلالهم وتوجيههم لمحاربة أشقائهم العرب في مسقط والساحل العماني. فإن شعورهم القومي وإنتمائهم العربي جعلهم يرفضون محاربة أبناء جلدتهم رغم السيطرة الفارسية عليهم وعلى بلدانهم ورغم عملهم تحت راية ذلك الاسطول. لذلك شهدت حملات الاسطول الفارسي ضد العرب عصياناً من البحارة العرب وتمرداً عنيفاً كثيراً ما أدى إلى أيقاع ضربات بذلك الاسطول وبالبحرية الفارسية مما جعلها كثيراً ما تخفق في هجماتها على السواحل وللموانئ والجزر العربية.

وذكرت وثيقة هولندية أكتشفت حديثاً تناولت معلومات دونها المعتمد الهولندي في بندر عباس في ١٧٣٨/١٠/٨ جاء فيها:ـ وردت أنباء من جيش الشاه في الجانب الغربي العربي للخليج حول الانتصارات على الفرس، مثل طرد العرب للفرس من مسقط ووضعهم تحت الحصار في جلفار براً وبحراً مع بحريتهم. لهذا السبب فإن حركة التنقل للفرس قد أغلقت، كما أن سفن الشاه قد حوصرت. وبمعركة بحرية أحرقت بعضها على الشاطئ. ومن السفن الفارسية التي انحرفت الى الشاطئ السفينة الكبيرة /فالتي شاه/ بينما هوجمت ايضاً سفينة بريطانية ضخمة كانت قد أجرت إلى الفرس. وكانت حتى ذلك الوقت لازالت في ميناء جلفار وقد أسر قائدها واثنين من بحارتها..(٦)

وكان من نتائج حملات نادر شاه على عمان لاحتلال مسقط تمرد البحارة العرب في الاسطول الفارسي، وقاموا بقتل القائد الفارسي /على خان/ في مسقط، واستولوا على عدد من قطع الاسطول الفارسي وهاجموا مدينة باسيدو في جزيرة قشم ثم توجهوا نحو خورفكان طلباً لحماية الحاكم القاسمي.

وكات ردة الفعل قاسية على نادر شاه فطلب النجدة من الهولنديين والانجليز الذين أمدوه بسفينتين حربيتين هولنديتين وحوالي عشرين سفينة من نوع الغراب، وتوجهت هذه القوة مع سفن أخرى أعدها تقي خان القائد الفارسي نحو رأس الخيمة وخورفكان لمقاتلة القواسم. وفي ١٢ تشرين الثاني/ نوفبر ١٧٤٠ التقت قوات تقي خان بالاسطول القاسمي فكانت الغلبة للقواسم مما اضطر الحملة الفارسية الهولندية الى الانسحاب لجزيرة قشم فلحقها الاسطول القاسمي وأجبرها على الهروب الى ميناء كينج الفارسي. وعاد بعدها الاسطول القاسمي الى قواعده سالماً(٧).

ولكن ذلك لم يترك لنادر شاه أن ييأس، فأخذ يتابع تحرك السفن العربية وعين قائداً بحرياً جديداً هو السردار/ فودي خان الذي تحرك الى جزيرة قيس عندما علم بأن البحارة العرب المتمردين على الاسطول الفارسي السابق ينزلون فيها. واصطحب معه سفينتين هولندتيين كان قد احتجزهما في بندر عباس. وبوصول القائد الفارسي الى جزيرة قيس ومعه قواته واسطوله التحم في قتال شديد مع البحارة العرب أصيب خلالها السردار بجرح قاتل مات على أثره وتراجع اسطوله

خاسراً إلى بندر عباس.

وقد أدت الخسائر المتواصلة لاسطول نادر شاه والفشل الذي مني به الى تخلي نادر شاه عن إنشاء قوة بحرية فارسية في منطقة الخليج العربي. ولم يكن ذلك مفاجأة للقوة الاجنبية في الخليج فقد تنبأ بذلك الفشل وكيل شركة الهند الشرقية الانجليزيه في بند عباس حين قال:ـ «إننا نعتقد بأن مشروع نادر شاه في تأسيس الاسطول الفارسي غير ناجح. وان نجاح الاسطول الفارسي سيتوقف على تعاون العرب مع الفرس، أما الفرس فإنهم بطبيعتهم يكرهون ركوب السفن.»(١٢) ويقول السير بيرسي المهتم بالشئون الفارسية مؤكداً جهل الفرس بشئون البحر وعلل هذه الظاهرة تعليلا جغرافياً. إذ لاحظ أن السواحل الشرقية للخليج العربي مفصولة عن الداخل بسلسلة من الجبال الشاهقة(١٣) يقطن خلفها الفرس، في حين كان معظم القانطين على الساحل الشرقي للخليج من العرب.

ورغم محاولات نادر شاه وغيره من ملوك الفرس القضاء على الوجود العربي على الشاطئ الشرقي للخليج بإحلال القبائل الفارسية مكانهم فإن هذه السياسة لم تنجح تماما فقد بقي للعرب وجود.

لم يوهن التحالف العدواني الانجليزي الهولندي الفارسي من عزيمة العرب، بل زادهم تصميماً على التضحية والفداء. ويقول جان جاك بيربي في وصف أعمالهم الفدائية:ـ (وأخذوا يقومون بأعمالهم تلك وهم مرتاحو الضمير، لانهم إنما يفعلونها لتحرير بلادهم.) ويقول مالكولم:ـ (ولو كنت أسيراً لديهم وقدمت لهم كل ما تملك مقابل حياتك، رفضوا ذلك بإباء وشمم.. وقالوا:ـ إننا لانسرق الاحياء)(١٤).

شكل تحرير مدينة جلفار في عام ١٩٣١ من الاحتلال الفارسي والبرتغالي نصراً مؤزراً للدولة اليعربية. وقد كان ذلك الجيش العربي مسنداً بالقواسم الذين شاركوا في تلك المعركة، وقد برز في ذلك الزعيم القاسمي ــ كايد بن عدوان ــ الذي شارك في القتال(١٥) ثم برز القائد القاسمي رحمة بن مطر خلال الأحداث الداخلية وخاصة في وقائع معركة المصنعة أو معركة بركا في عام ١٧٢٣. وكان قد وطد ملكه في رأس الخيمة في موقع المعيريض أحد أحياء مدينة رأس الخيمة اليوم. ثم توسع في إمارته حتى شملت خورفكان(١٦).

ويذكر أيضاً أن قوة يعربية اتجهت في عام ١٧١٦ الى جزيرة قشم وفي طريقها توحدت مع قوات قاسمية أرسلها الشيخ رحمة بن مطر من بلدة الصير ــ رأس الخيمة ــ بهدف السيطرة على الجزيرة وتحريرها من الاحتلال الفارسي، حيث أن سكان الجزيرة من القبائل العربية من بني معين وغيرهم.. وقد تمكنت القوات اليعربية القاسمية من النزول في الجزيرة والسيطرة عليها، وأسس القواسم فيها محطة تجارية(١٧) ثم حاولت هذه القوات العربية السيطرة على هرمز، إلا أنها لم تنجح، فتركتها واتجهت لتجهيز نفسها والاستعداد لتحرير البحرين.

وبقيادة السلطان بن سيف الثاني توجهت قوات الدولة اليعربية والقواسم في صيف عام ١٧١٧ نحو البحرين لتخليصها من الاحتلال الفارسي. وبعد قتال طويل وعنيف بين الطرفين تكبدا فيها خسائر فادحة في الأرواح والمعدات هرب القائد الفارسي من البحرين إلى فارس. فدخلها الأمام

سلطان بن سيف بقواته ومعه مراكب الغواصين البحرينيين، وبنى هناك قلعة عراد الشهيرة(١٨).

ويذكر أنه في عام ١٧٢٤ تولى الشيخ رحمة بن مطر زعامة القواسم بعد وفاة أبيه وسجل مطر بطولة مشهودة في حملة بحرية غادرت في عام ١٧٢٦ رأس الخيمةلاستعادة جزيرة قشم فنزلت القوات القاسمية في ميناء باسيدو مما أثار مخاوف شركة الهند الشرقية البريطانية التي أرسلت وحدات بحرية مكونة من السفينة (بريطانيا BRITANNIA) والسفينة (بنغال BANGAL) وسفن أخرى أخف منها للحراسة. وبعد معارك شديدة انسحب القواسم الى الصير في رأس الخيمة، وارسل الانجليز وفداً الى الشيخ مطر ليفاوضه بدفع تعويضات عن الخسائر البريطانية بسبب تلك العملية. وعلى ما يذكر بأن تلك الحادثة هي أول صدام مسلح مباشر بين الانجليز والقواسم(١٩).

وكما هو معهود من الحمية العربية عند دولة اليعاربة والقبائل العربية في الخليج العربي والتي شهد لها التاريخ ببطولاتها عندما طاردت قوات اليعاربة البرتغاليين من سواحل إفريقيا الشرقية، فأجلتهم عن زنجبار وممباسة في سنة ١٦٦٢ فعاشت تلك البلاد في استقرار وازدهار إلى أن امتد التسلط البريطاني في نهاية القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر إلى أفريقيا. مما دعاء بزعماء تلك البلاد الى الاستنجاد بسليل زعماء البحار في الخليج وبحر العرب الشيخ سلطان بن صقر القاسمي كتبوا(٢٠) يستنجدونه على المستعمرين الانجليز الذين حلوا ببلائهم على العباد والبلاد في تلك البقاع. ومما جاء في رسالتهم الى الشيخ سلطان:ــ «الموصوف بأقل صفاته. المعروف برشح صفاته سلطان بن صقر القاسمي حرسه الله في حياته من فضيحة وفقر، وفي آخرته عن السعير وصقر.. ومراد الورقة السلام عليكم وايصال أخبارنا إليكم وتذكير طاعتنا وشوقنا لديكم، أقول لك يا أمير المؤمنين متع الله بحياتكم المسلمين وأيد الله بك الدين ونصر بجندك المجاهدين فإن ملوك أهل الاسلام ضيعوا الشريعة، ولينوا أركانها المنيعة، ونادوا سلاطين الكفار، واستمدوا على أهل الأمصار حتى أنزلوا القرين في عدن سمية الجنة وأقدم مسكن. أحلهم الله دار البوار وانتقم منهم بعذاب النار وذلك من الرعب المقذوف في قلوبهم، وهذا من جملة عيوبهم والواجب عليكم تقويمهم، لاقامة الحنيفية وإظهارها ولذب رافضيها عنها وإشهارها ونحن أهل بادية وأصحاب ماشية. لكننا أولوا قوة وأولوا بأس شديد وأصحاب جرد ومرد وعد عديد لكننا ناؤون عن الساحل لانصله إلا بشق الأنفس والرواحل. لكن بحمد الله قد طلع من الساحل نجم ثاقب وأسد رابض راقب، لزم وألزم التوحيد ونفى الشرك والتنديد وهو السلطان الصالح الناصح الحاج العاقل فارح. سلمه الله وحياه وحرسه وهداه وبياه، فصار واسطة بين الطرفين ومأوى لكلا الفريقين. وقد بحث هو وسلاطين المسلمين بالاستخبار وساس قوانينهم باعتبار. فتحصل له من مناقبك ما أسر خواطره، وحرك مشاعره ولميثاقه مع محمد بن سالم بن علي، عليه رحمة ربه العلي عن المنكر ذكرهم بهول القيامة والمحشر وأطع الله وأطع الرسول. اذ كل راع عن راعيته مسئول، وجاهد الكفار والمنافقين وأقم الحدود على الكافرين والزناة والسارقين فلا يجوز لك أن تهادن الكفار فوق أربعة أشهر، ووجب علينا إتباع الأمير الموحد المجاهد الامر الناهي القائم المساعد ونحن معدودون من رعيتك ومستريحون بمبيتك فساعدنا بيدك ولسانك، لقوله صلى الله

عليه وسلم (المؤمنون يد واحدة على من سواهم، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا). ونحن، محتاجون إلى مدد وحتى كلامك يكفينا إذا أمرت السواعي المسافرة إلينا، أن يقوموا معنا ويجاهدوا في سبيل الله، بحيث إذ جاؤا عندنا ما يخالف أحد من الصومال لأنهم يهابون إذا سمعوا أن السلطان ابن صقر قائم للجهاد فيهابون ويقولون كلهم نحن من رعيته هذه السواعي المسافرة تكفينا بحول الله وقوته وما ترى أن شاء الله إلا وهم داخلون تحت طاعته في سنة واحدة. ولايضر هذا البعد الذي بيننا لأن السواعي مقربة تحمل إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس.

واضافت الرسالة:ـ فاجتهد في ضم ملك الصومال الى ملكك فان المملكة سعادة لمن أدى حقها شقاوة لمن طغى وآثر الحياة الدنيا. فيجب عليك أن تعاوننا باليد واللسان ويجب علينا السمع والطاعة.. فيجب عليك أن تمدنا برجال وأموال. وتساعدنا بسواعي وأقوال، لأنك اذا أمرت السواعي المسافرة، والرجال المسافرة بالتناقيف والسفن يحاربون معنا، الكلاب والكفار والعفن.

فنسأل لك بوجه الله الذي لا يجوز رد السائلين به أن تساعدنا وتمدنا بالاعانة الواجبة عليك. لقول النبي صلى الله عليه وسلم فيا معناه (ان الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه) ويجب علينا السمع والطاعة، وعلى الله نصر المؤمنين فالله ... الله لاتتساهل في كلامنا هذا فانه مجلب الظفر ومعلم النصر ومكسب الاجر وتوكلوا على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

«ان الله بالغ امره، انا لننصر رسلنا والذين آمنوا كتب الله لأغلبن أنا ورسلي، أن الله قوى عزيز وكان حقا علينا نصر المؤمنين، أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون والغالبون وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين، وما يعلم جنود ربك الا هو».

وقد نزلت من البادية البعدى، الى قرى الساحل القربى، عند الحاج الأفخر، والسلطان الأعز فارح حرسي. وأنا منتظر منك سعده الى الفتوح والأمر كله لله واليه يرجع الأمر كله. وجيوش البادية علينا، ولو تبغي ثلاثين ألف خيال لكن مالنا قوة في البحر غير الحاج فارح. لكن أصحابه وبنو أعمامه لا يقومون للحق ويحسدون عليه، واذا جاءت سواعي منكم وذكروا أنك قائم معنا يهتابون ولا يتكلمون بكلمة، ولا يقدرون أن يخالفوننا، فان لم تقدر ترسل لنا سعده مستعدة، فالله الله، قل للمسافرين الجائين من أراضيهم، أرسلنا السلطان صقر لنجاهد الكفار الذين في أرض الصومال مع الحاج علي والحاج فارح، فان ذلك ينفعنا نفعا جما، وان لك فيه أجرا لما. فأعينونا بقوة حتى نجاهد الصومال وندخلهم في الاسلام والايمان باذن الله الرحمن، ونملك فيهم بعون الله الملك المعبود لما سمعنا فيك من الخصال الحميدة والمناقب العديدة والفضائل السعيدة، والفواضل المفيدة فأحببنا أن نكون لك عساكر مجاهدين وفوارس مساعدين.

وذكرت المصادر التاريخية أن الشيخ سلطان بادر الى مد يد العون والمساعدة ولم يتأخر عن تلبية نداء إخوانه في الدين في الصومال فأرسل لهم ما يمكن إرساله من الرجال والسفن.(١)

التجارة واجهة للغزو:

اعتمدت هولندا وانجلترا في دخولها إلى البحار الشرقية ومنطقة الخليج العربي على أسلوب تشكيل شركات تجارية خاصة أو مشتركة مع السلطات الحكومية في موطنها. حتى يكون تعاملها مع تلك البقاع مقبولا ومرحبا به من الأهالي ومن زعماء تلك البلاد. في حين فشلت الاساطيل الحربية الغازية التي قصدت احتلال بلدان أو جزر بالقوة ومن ثم تسير مصالحها التجارية كما فعل البرتغاليون.

لهذا استطاع الانجليز والهولنديون التسلل إلى منطقة الخليج وغيرها من البلاد الواقعة شرقي إفريقيا. رغم أنهم وفروا لسفنهم التجارية ولمقار وكالتهم الحماية العسكرية. مما حولهم فيما بعد إلى مستعمرين ومحتلين لبعض تلك المناطق.

وكمثال على ما تقدم سبق لتاجر انجليزي يدعى/ ريتشارد شان Richard Chan أن أسس في عام ١٥٥٥ شركة تحت اسم (شركة روسيا)(٢٢) إثر رحلته البرية الى روسيا في عام ١٥٥٣ ومن ثم رحلة لبعثة شركته الى بلاد فارس برئاسة انتوني جانكسون. للحصول على الحرير الفارسي وكان ذلك في عام ١٥٦١.

وكذلك رحلة التاجر الانجليزي/ نيو بري New Beria في عام ١٥٨٠ عبر بلاد الشام والتي أعقبتها رحلة أخرى رافقه فيها عدد من التجار الانجليز مثل/ رالف فينش ووليام ديداز وجيمس سنوري. وقد أثمرت هذه الرحلات عن قيام معاملات تجارية مفيدة..

وفي حين كان التجار الهولنديون يقومون بدور تجار التجزئة بشرائهم البضائع الشرقية من لشبونة وبيعها في الدول الأوروبية الأخرى(٢٣)، كان البرتغاليون يحتكرون التجارة مع الشرق ويسيطرون على تلك البلاد وعلى الطرق الموصلة إليها.

وفي ١٦٠٠/١٠/٣ أسس مجموعة من التجار الانجليز شركة خاصة للاتجار مع الشرق مباشرة لاستيراد التوابل والحرير والعقاقير والعطور واللؤلؤ والجوهرات مقابل تصدير البضائع الانجليزية من المنسوجات القطنية والنحاس والقصدير. واختاروا أسما لها هو (محافظ وشركة تجار لندن الذين يتاجرون مع الهند الشرقية) تحول فيما بعد الى/ شركة الهند الشرقية(٢٤). واتخذت هذه الشركة شكلا رسميا إثر إصدار الملكة اليزابيث الأولى مرسوما يمنحها الحق المطلق في احتكار التعامل التجاري مع الشرق.

وبذلك اقتحمت هذه الشركة أبواب الهند ومن ثم بلاد فارس ومنطقة الخليج العربي حيث اكتسبت مكانة وقوة بما لقيته من دعم عسكري ورسمي بريطاني جعلها تتحكم في المنطقة وأدت الى دخول الاستعمار البريطاني إلى معظم مناطق شرق السويس. مستعينة بالتحركات السياسية والصلات الدبلوماسية ومن ذلك ما عرضه مبعوث الملك جيمس على الشاه عباس في عام ١٦١٧ لانشاء مؤسسات تجارية إنجليزية في فارس مقابل تعهد بريطانيا بالوقوف عسكرياً الى جانب فارس إذا تعرضت لغزو أجنبي(٢٥).

وإثر بدء انحسار التسلط البرتغالي على منطقة الخليج العربي أخذ الهولنديون والانجليز في التقدم للحلول مكان البرتغال في المنطقة. مخالفين بذلك الامر البابوي(٢٦) الذي منح ممتلكات الشرق للبرتغاليين وممتلكات الغرب للاسبان. وهما الدولتان الأكبر سطوة واتساعاً في اكتشافاتها البحرية وتجارتها الخارجية.

وبينما كان التجار في البلاد الواطئة يتعاملون مع التجار البرتغاليين في لشبونة كتجار تجزئة فيقومون بتصريف بضائعهم في البلاد الواطئة والبلاد الاوروبية الاخرى، وكنتيجة لما واجهوه من مضايقات في تجارتهم مع البرتغاليين إضافة الى ضعف التسلط البرتغالي اتجهوا للتعامل مباشرة مع بلاد الشرق.

ففي عام ١٥٩٢ عقد كبار التجار الهولنديين اجتماعاً في امستردام قرروا فيه إنشاء شركة للتجار مع الهند ونظراً للسرية المطلقة التي فرضها البرتغاليون على الطريق الى الهند. انتدبت الهيئة التجارية الهولندية عنها المستر/ كورنيليوس دي هوتمان الى لشبونة لجمع المعلومات حول التجارة البرتغالية مع الهند. كما استطاعت الشركة الهولندية الحصول على المعلومات المطلوبة من الأسقف الهولندي/ هيوبن ڤان لينشوتن Hubhen Van Linschoten(٢٧) الذي نشر بعد عودته في عام ١٥٩٢ من رحلة الى الهند كأمين سر لكبير أساقفة جوا البرتغالي الذي كان يعرف نقاط القوة والضعف في تعامل البرتغاليين مع بلاد الشرق ومن ذلك أسرار الطريق الى الهند، وقد ضمت هذه المعلومات نتائج أبحاثه ودراسته مع ملحق خاص أوضح فيه المعلومات البحرية عن حركة السفن التجارية والرياح والتيارات والموانئ والجزر في الطريق الى الهند.

وفي عام ١٥٩٤ إجتمع تسعة من تجار شمال هولندا في أمستردام لمتابعة الموضوع وقرروا تأسيس شركة أطلقوا عليها اسم (شركة الاراضي البعيدة of Far land Company)(٢٨) وأرسلوا في عام ١٥٩٨ اسطولا تجارياً الى جزر الهند الشرقية عبر طريق الرجاء الصالح لاحتكار تجارة التوابل في الشرق يحمل تفويضا رسمياً من الحكومة الهولندية بالعمل الحربي والسياسي والتجاري.

حقق الاسطول نجاحاً عظيماً فقد استطاع فتح ارخبيل جزر الهند للتجارة مع هولندا بعد أن عبر رأس الرجاء الصالح وعقد اتفاقية تجارية بين هولندا وملك بانتام كما حقق ارباحاً مالية بلغت أكثر من ٨٠ الف فلورين. وذلك بالرغم من فقدانه عدداً كبيراً من بحارته وغرق إحدى سفنه.

ويعزو المؤرخون نجاح هذا الاسطول الى خبرة ودراية قائده/ كورنيلس هوتمان Cornelis Houtman الذي سبق له زيارة الشرق عدة مرات وجمع معلومات مهمة عن طريق البحرية للشرق.

وتوالت رحلات الأساطيل التجارية الهولندية الى الشرق حتى أنه قدر عدد السفن التجارية الهولندية التي زارت الشرق وجنوب شرق آسيا في عام ١٦٠١ بخمس وستين سفينة، سيطر الهولنديون خلالها على عدد من المستعمرات البرتغالية في أرخبيل أندونيسيا وأنشأوا عددا من المستعمرات في تلك الأرجاء.

وأمام هذا النجاح والتوسع الهولندي تنادى التجار الهولنديون الى اجتماع في ١٦٠٢/٣/٢٠ بتوجيه من الرئيس الهولندي/ جوهان ڤان أولدن بارنوفلت Van Olden Bornovelt Johan وقرر التجار توحيد مؤسساتهم تحت اسم شركة الهند الشرقية الهولندية برأس مال قدره ٦,٥ مليون فلودين. وتم دعم الشركة بمرسوم أصدره مجلس طبقات الأمة يمنح بموجبه الشركة حق احتكار التجارة في الشرق وخولها سلطات واسعة في عقد المعاهدات والمحالفات والاتفاقيات لفتح ما تشاء من الأراضي وتأسيس القواعد وغير ذلك لمدة واحد وعشرين عاماً(٢٩).

واستطاع الهولنديون كسب ود الدولة العثمانية من خلال اعترافهم بتبعية اليمن للدولة العثمانية، وقامت السفينة الهولندية /تاسو/ بقيادة بيتر ڤاندون بروكة بزيارة موانئ اليمن ووصل الى مسقط. وحصل على كتاب من باشا صنعاء يأمر فيه رعاياه باستقبال الهولنديين في كل مكان.

ونجح الهولنديون بعقد معاهدة في عام ١٦٠٤ مع امبراطور ملبار الهندي تنص على طرد البرتغاليين من الهند.

وفي عام ١٦١٨ أصدر السلطان العثماني فرمانا يخول الهولنديين حق مزاولة التجارة بالبحر الأحمر، لكن الهولنديين استولوا على مجموعة من السفن البرتغالية التجارية مما أثار سخط تجار عمان وجنوب الجزيرة مما أدى الى قيام السلطات العثمانية بطرد المعتمديات التجارية في جنوب الجزيرة وعدم تجديد امتيازتها(٣٠).

ونجح الهولنديون ايضاً في الاتفاق مع شاه فارس ـ الشاه عباس ـ على حصولهم على حصة من الحرير الفارسي. والذي لم يستطع الا الموافقة باعتبارهم ساهموا مع الانجليز في عام ١٦٢٥ بالحرب ضد البرتغاليين وفي إجبارهم على التخلي عن هرمز. فكان ذلك الاتفاق بداية لتوطيد أقدام الهولنديين في منطقة الخليج العربي. وبوفاة الشاه عباس في عام ١٦٢٩ خسر الانجليز صديقاً وفياً لهم. في حين وطد الهولنديون أقدامهم في فارس واستطاعوا أن ينتزعوا من الانجليز حصة الأسد بتجارة الحرير. ولم يبزغ عام ١٦٤٠ حتى كان للهولنديين مركز الصدارة في الخليج العربي ويهيمنون على التجارة مع بلاد فارس. بينما كان البرتغاليون مازالوا يحاولون دون جدوى استرجاع منزلتهم التي فقدوها في الخليج(٣١).

الحملات ضد العرب:

لقد كان اندفاع القوى الأجنبية للسيطرة على الخليج العربي ذات محورين الأول فارسياً والثاني أوروبياً مع تدخل هذين المحورين ضمن دائرة واحدة يعمل الفرس على إشغالها كلية عن طريق التحالف مع أي قوة أوروبية تزحف نحو الخليج العربي للسيطرة عليه وضرب القوى العربية فيه ومن ثم الانفراد بالهيمنة على المنطقة(٣٢).

ففي مطلع القرن السادس عشر اندفع البرتغاليون نحو البحار العربية للتحكم بها والاستيلاء على

منافذ التجارة العربية بين الشرق والغرب. فكان احتلال جزيرتي هرمز وقشم ومن ثم فرض البرتغاليون سيطرتهم على موانئ الخليج العربي في كلا ساحليه. وقابل ذلك التحرك تحرك فارسي مماثل تزعمته الأسرة الصفوية التي تسلمت السلطة في بلاد فارس عام ١٥٠٠ فالتقت تطلعاتها مع الغزو البرتغالي وتوجت ذلك بمعاهدة تحالف عسكري للعمل المشترك في عام ١٥١٥. نصت على أن تكون السفن الحربية البرتغالية في متناول أيدي الفرس لشن هجوم على البحرين وعلى القطيف(٣٣) وإستمرت تلك العلاقة حتى ظهور الهولنديين والانجليز في مطلع القرن السابع عشر كقوى جديدة في المنطقة الأمر الذي أدى الى متغيرات في التوجيه السياسي الفارسي حيث عمل الشاه عباس الأول (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) على استثمار الوضع الجديد للضغط على البرتغاليين كي ينسحبوا من البحرين ليكون بديلهم في احتلالها.

ومما رجح كفة الهولنديين على الانجليز طوال القرن السابع عشر تقريباً.. أن الانجليز رفضوا الاشتراك بأي عمليات عسكرية مع الفرس ضد الدولة العثمانية أو ضد البرتغاليين نظراً لمصالحهم الأخرى في مناطق غير منطقة الخليج. وهذا ما سبب لهم مشاكل في فارس استغلها الهولنديون لصالحهم(٣٤) الا أن الهولنديين عانوا بعد ذلك بعض المضايقات وخاصة بعد الاحتلال الأفغاني لايران في عام ١٧٢٢ حيث وجه الأفغان انذاراً للهولنديين في عام ١٧٢٧ بإغلاق وكالتهم في بندر عباس خلال مدة لا تتجاوز اسبوعاً(٣٥).

وفي خضم ذلك الوفاق بين الفرس وكل من الانجليز والهولنديين على حساب عرب الخليج والتناصاً لحقوقهم الوطنية والاقليمية. واستلاباً لارزاقهم ومعيشتهم وتجارتهم. كونت دولة اليعاربة اسطولا بحرياً قوياً ـ كما أشرنا سابقاً ـ للذود عن حياض الوطن وتحرير المواقع والبلدان التي تعرضت للاحتلال البرتغالي والفارسي. لمقاومة الغزو البحري الأجنبي المعادي للموانئ والأسواق التجارية.

من هنا كانت المحاولات الفارسية والهولندية والانجليزية لقهر الاسطول العربي واليعربي. الا أن هذه المحاولات في كثير من الاحيان لم تنجح وكان مصيرها الفشل في حين أخذ الأسطول يزداد قوة وسطوة، خاصة بعد ملاحقته البرتغاليين وانتزاع ممباسا منهم في ١٦٩٨/١٢/١٤ حيث كانت هذه المعركة بمثابة النهاية للتفوق البرتغالي. فازدادت ثقة العرب بأنفسهم وبحقوقهم بعد الانتصارات المتلاحقة التي أحرزوها في شرق إفريقيا والهند. حتى أن رئيس شركة الهند الشرقية الانجليزية وصفهم:ـ (بأنهم أصبحوا شديدي الغطرسة، ولايوجد من يمنعهم من القيام بشن هجمات على كل السفن التجارية باستثناء سفن شركة الهند الشرقية ذاتها لاقتناعهم بتفوق اسطول الشركة على اسطولهم)(٣٦).

لكن اقتناع رئيس شركة الهند الشرقية بتخوف الاسطول العربي من الاسطول الانجليزي لم يذهب بعيداً. حيث أن السفن الانجليزية لم تنج من هجمات السفن العربية فقد هاجمت سفينتان عربيتان في تلك الفترة احدى السفن الانجليزية الخاصة وكانت محملة بالمنتوجات الهندية في طريقها الى بندر

عباس. وهي أول حادثة معروفة يتعرض فيها البحارة العرب للسفن الانجليزية.

وكان الفرس في محاولات دائمة للسيطرة على موانئ الخليج العربي بشاطئيه الشرقي والغربي مستغلين توافق المصالح مع الحملات الأوروبية على منطقة الخليج، مستعينين تارة بالبرتغاليين وتارة بالانجليز وأخرى بالهولنديين ورابعة بالفرنسيين. وكانت تلك القوى تتصرف وفق ما تمليه عليها مصالحها وعلاقاتها سواء المحلية أو الخارجية.

ومن ذلك أن حاولت السلطات الفارسية في صيف عام ١٦٩٩ الحصول على مساعدات فرنسية ضد العرب العمانيين بعد أن رفض كل من الانجليز والهولنديين تقديم المساعدة، وفشل البرتغاليون أيضاً في تقديم مساعدات فعالة للقوات البحرية الفارسية. فبعث محمد مؤمن معتمد الدولة الفارسية مذكرة للملك لويس الرابع عشر للدخول بحلف عسكري مع فرنسا لاحتلال مسقط، وقد نصت المذكرة على:ـ ان مشروع الاحتلال يحتاج الى ثلاثين الف جندي وعدد من السفن لنقلهم الى الساحل العماني، واشترط أن تكون نفقات الحملة مناصفة بين الدولتين وكذلك الغنائم التي يحصل عليها الطرفان المتحالفان. وتناولت المذكرة أيضاً التفصيلات الى حد أنها أوضحت ما سوف يسلم للفرنسيين من حصون حول مسقط، وما يختص به الفرس. فللفرنسيين حصنا جلالي وماراني بينما يحتل الفرس بقية الحصون الداخلية(٧). ولكن هذا الحلف لم تنفذه، فجدد الشاه بعد ذلك عروضه للفرنسيين فأرسل في عام ١٧٠٣ خطابا الى الملك لويس الرابع عشر لانشاء علاقات دبلوماسية بين الدولتين على مستوى السفراء لتنسيق العلاقات الاقتصادية وغيرها بين البلدين. وأدت الاتصالات الى عقد اتفاقية عامة في عام ١٧٠٨ أتبعها الشاه في عام ١٧١٥ بمبعوثه/ محمد رضا بك سفيراً له لدى فرنسا والذي طلب لدى مقابلته الملك الفرنسي لويس الرابع عشر أن تبادر فرنسا بإرسال اسطول الى مياه الخليج ليقاتل في صفوف الفرس من أجل احتلال عمان(٨) بناء على الوعد الشفوي الذي قدمه السفير الفرنسي ميشيل الى الشاه في وقت سابق. ولم ينجح الفرس هذه المرة أيضاً في جلب الاسطول الفرنسي لمساعدتهم ضد العرب فقد وجد الفرنسيون أن ذلك ليس في صالحهم لاسيما وأن الاسطول العربي ذو شدة وبأس.

لقد كان للاسطول اليعربي وبحارته الاقوياء من القواسم وغيرهم هيبة في البحر وفي مواجهة الأعداء مما جعل الانجليز والهولنديين يحسبون لأية خطوة يخطونها ضد العرب مباشرة أو مدهم يد المساعدة للدولة الفارسية، يحسبون الف حساب حتى أن القائد الانجليزي الكسندر هاملتون وصف الأسطول العربي في تلك الفترة وصفاً دقيقاً حين قال بأن الاسطول العربي في عام ١٧١٥ كان يتكون من سفينة كبيرة تحمل أربعة وسبعين مدفعاً وسفينتين أقل حجماً تحمل كل منها ستين مدفعاً، وواحدة أخرى ثبت عليها خمسين مدفعاً. وثماني عشر سفينة صغيرة تحمل كل منها ما بين أربعة الى ثمانية مدافع. وبفضل هذه القوة البحرية مد العرب نفوذهم من رأس قران حتى البحر الأحمر. وكما يقول د. صلاح العقاد في كتابه ـ التيارات السياسية ـ إنه رغم رابطة الدين التي جمعت بين العرب والفرس فإن الصراع كان شديداً في ذلك الوقت ولم يتردد حكام فارس من الاستعانة

بالقوات الأوروبية لمهاجمة العرب، وفي النهاية كان الأوروبيون هم المستفيدون من هذا الصراع(٣٩).

وواصل الاسطول العربي حملاته التحريرية للذود عن الارض العربية وتحريرها من الاحتلال فقد أرسل الامام سلطان بن سيف اليعربي في عام ١٧١٧ حملة الى جزر البحرين لتحريرها من الاحتلال وقد تمكنت هذه الحملة من طرد الفرس من الجزيرة وتابعت مسيرتها الى الجزر المحتلة الأخرى وتتبعت السفن الفارسية على الساحل الشرقي للخليج حتى حاصرت جزيرة قشم وركزت على مدينة لافت وهرمز. وفي عام ١٧١٧ كادت هرمز أن تسقط في أيدي البحارة العرب(٤٠) لولا تدخل البرتغاليين الذي هرعوا لمساعدة الفرس بقوة كبيرة، وفك الحصار عن هرمز ومن ثم الاستيلاء على البحرين ثانية.

وفي عام ١٧١٩ وصل أسطول برتغالي آخر الى الخليج ودارت معارك عنيفة بينه وبين الاسطول العربي، اضطرت فيها السفن العربية للانسحاب الى رأس الخيمة.

ثم كان الاحتلال الأفغاني لايران في اكتوبر ١٧٢٢ فزالت الدولة الصفوية وسادت الفوضى البلاد الفارسية وعم الاضطراب وكسدت التجارة وتوقفت حركة الصادر والوارد. وهكذا ايضاً كان شأن الدولة اليعربية التي سادتها الخلافات والانقسامات.

ورغم الظروف الصعبة المحيطة بالمنطقة من اضرابات وصدامات وتدخلات أجنبية عدوانية. فقد استمر الاسطول العربي بقيادة القواسم في حروبه ضد الغزو الاجنبي للخليج ووقفت السفن العربية بكل صلابة تواجه الاطماع الشرسة الرامية للسيطرة على الجزر والموانئ العربية.

ولاستعادة مكانتهم قدم الهولنديون مساعدات عسكرية بحرية كبيرة الى الفرس ضد العرب الذين كانوا يغيرون على مواقع عربية على الساحل الشرقي للخليج لتخليصها من الاحتلال الأجنبي كما قدم الهولنديون المساعدة للفرس في عام ١٧٣٧ في حملة بحرية ضد قبائل البلوش بقيادة الملك دينار

وفي عام ١٧٤٠ قدم الهولنديون مساعدات بحرية للقائد الفارسي/ محمود تقي الدين خان ضد البحارة العرب العاملين في الاسطول الفارسي ــ الذي سبق ذكره ــ ولاستعادة السفن الفارسية التي يسيطر عليها العرب. ولكنهم فشلوا في ذلك(٤١).

كما استعان نادر شاه بالهولنديين ضد القائد الفارسي محمود تقي خان حاكم بندر عباس. وكافأهم على ذلك بان قدم لهم التسهيلات التجارية وسمح لهم بإنشاء مقيمية تجارية في ميناء بوشهر سنة ١٧٤٧، وبعث الهولنديون بعد ذلك بسفينة هولندية كبيرة الى بندر عباس من تبانيا بقيادة مينهر سكونديورت M. Secondeiwort يرافقه عدد كبير من الجنود الهولنديين مجهزين بأحدث المعدات القتالية وكميات ضخمة من البضائع بهدف إدخال الفزع في نفوس الأهالي وخاصة في نفوس القبائل العربية. كذلك ليسوقوا بضائعهم. ولكنهم في وقت لاحق أصيبوا بخيبة أمل لأن العرب لم يأبهوا لقوة الهولنديين. في ٢٣ ابريل ١٧٥٣ هجم عرب جزيرة قشم على السفينة الهولندية/ نانسي Nancy بالقرب من ميناء لافت واستولى عبد الشيخ حاكم الجزيرة على معظم

حمولتها قبل إغراقها.

ومع أن السلطات الهولندية لم تكل في محاولاتها للمحافظة على ما وصلت إليه من مكانة وسلطة في منطقة الخليج العربي فقد وجدت أن بقاءها في بندر عباس أصبح مستحيلا مما اضطرها لاغلاق وكالتها في بندر عباس سنة ١٧٥٩(١٠).

الهولنديون وعرب الخليج:

عندما قرر الهولنديون فتح أسواق لهم ومراكز تجارية في بلاد الشرق عامة والخليج العربي خاصة. اتجهوا للتعامل في أهم المواد والسلع التجارية رواجاً في كلا الاتجاهين فكان حصولهم على التوابل والحرير واللؤلؤ يمثل قمة النجاح، كما أن بيعهم لمنسوجاتهم الصوفية في أسواق المناطق الباردة يعتبر أيضاً قمة النجاح. ولهذا الغرض فقد كانت هولندا أكثر القوى إسهاماً في تصفية الوجود البرتغالي في البحار الشرقية في نهاية القرن السادس عشر وبالتالي كانت أكثر هذه القوى استفادة من هذه التصفية. حتى أنه لم يحل عام ١٦٤٠ الا وكانت البضائع الهولندية تغرق أسواق بندر عباس وتنتشر في المنطقة. ومن ذلك استطاع الهولنديون ان يحققوا أرباحاً طائلة عن طريق احتكارهم لتجارة التوابل فقد كانت سفنهم تجوب الموانئ العربية والهندية بحرية تامة(١٢).

وتتابعت بعدها أعمال تدعيم النفوذ الهولندي في الخليج فقد هاجم اسطولهم جزيرة قشم في عام ١٦٤٥ وأعلن سيادته عليها واضطر الشاه الى الاعتراف بهذه السيادة.

ومن منطلق العداء المشترك للوجود البرتغالي فقد سادت العلاقات الهولندية اليعربية العمانية لون من الود، بدى واضحاً بإعراب الهولنديين عن سرورهم لاسترداد العرب العمانيين مدينة مسقط من البرتغاليين في عام ١٦٥٠ وقد أدى ذلك الى زيادة وتضخم التجارة الهولندية في المنطقة.

واستمراراً لسياسة التفاهم بين الطرفين قدم الامام سلطان بن سيف الأول في عام ١٦٥١ عرضاً مغرياً للهولنديين يختص بتسهيل انتقال بضائعهم عبر الاراضي العمانية الى البصرة بدلا من بندرعباس ــ جامبرون ــ وكان لهذا العرض أهمية كبرى للطرفين.

وفي عام ١٦٥٤ وضع الهولنديون خطة لارسال تجارتهم الى جلفار ــ رأس الخيمة ــ لشراء اللؤلؤ. فقد جاء في تقرير(١) للحاكم العام الهولندي في بتافيا الى مدراء الشركة في هولندا بتاريخ ١١ نوفبر ١٦٥٤ حول تجارة اللؤلؤ في منطقة جلفار، بقوله:ــ

«برأينا أنه إذا فخامتكم ترغبون في المضي بهذه التجارة، فإنه يتوجب إرسال شخصين ماهرين ومختصين من التجار القديرين الى البحرين أو الى جزر جلفار قبل بعض الوقت من بدء موسم الصيد ــ الغوص ــ المعتاد، حيث يتم صيد هذه الجوهرات. ومن الواجب إبلاغهما بالبقاء من بداية موسم الصيد حتى نهايته. وهكذا يتعرفون شخصياً على طريقة العمل التجاري المتبع في تجارة اللؤلؤ.»

وتعتبر هذه الوثيقة بمثابة الاشارة الى أولى الخطوات المتخذة لتأسيس علاقات تجارية بين الواطنة

ـ البنولوكس ـ وبلاد الامارات الخليجية. ورغم أن تجارة اللؤلؤ الهولندية لم تلق النجاح المرتجى، الا أن الهولنديين كانوا في كثير من الاحيان يدرسون إمكانية إقامة علاقات تجارية مع العرب الذين وجدوا فيهم تجاراً متفهمين لطبيعة هذا العمل وأكثر وداً من التجار الفرس المتشددين(١٥).

وكما أسلفنا بأن الهولندين جاؤوا الى الخليج في عام ١٦٢٣ الى جانب البريطانيين وانشأوا لهم مركزاً في بندر عباس حيث كانت شواطئ الامارات آنذاك لازالت خاضعة للنفوذ البرتغالي. وكنتيجة لاتساع التجارة الهولندية مع بلاد فارس قام الانجليز بتحريض الشاه عليهم، وقد نجحوا في ذلك مما أدى الى قيام الاسطول الهولندي بغارة تأديبية على بندر عباس في عام ١٦٨٤ التي كانت خاضعة للشاه آنذاك.

لم يكن اليعاربة على استعداد لاستبدال السيادة البرتغالية بسيادة هولندية خاصة مع وجود قوة بحرية عربية يمثلها الاسطول العربي الذي يجوب مياه الخليج العربي والمحيط الهندي ناشراً الرعب والفزع في قلوب الشركات الأجنبية في هذه البقاع.

وكان طبيعياً أن يحدث احتكاك بين الهولنديين واليعاربة والذي بدأ منذ عام ١٦٩٥ وما بعدها. حيث أخذت السفن اليعربية تهاجم السفن الهولندية في مياه الخليج وفي مياه المحيط. وتفاقم الصراع بين العرب والهولنديين الى حد كبير، ويرجع ذلك الى نشوب صراع بين البحارة العرب والفرس مما جعل الفرس الذين ليس لهم قبل بالبحر أن يستعينوا بالهولنديين ضد البحارة العرب الذي ثاروا على الفرس بعد أن تعاقدت معهم على العمل تحت راياتهم ولكنهم قتلوا قائدهم الفارسي إثر توجيههم لمقاتلة أشقائهم العرب في مسقط. فاستولوا على الاسطول الذي كان يتكون من ثلاث سفن كبيرة وثلاث سفن صغيرة ومركب شراعي بساريتين. فاستنجدت الحكومة الفارسية بالهولنديين الذين سارعوا بسفينتين على كل منها عشرون مدفعاً، بحثاً عن الثوار العرب واشتبكوا معهم في معركة حامية كان من نتيجتها أن أغرق العرب إحدى السفينتين وعاد الهولنديون الى قاعدتهم دون أن يحققوا شيئاً لحليفتهم دولة الفرس.

ومدت بعدها الشركة الهولندية الفرس بسفينتين من نوع الغراب لمواجهة القوة العربية وإثر ذلك دارت مناوشات بين الجانبين أفزعت القوة الحليفة فسارعت الى الفرار واللجوء الى ميناء كنج.

وتشير الكتابات التاريخية الى أن الهولنديين لم يكونوا يثقون بالفرس الا أنهم قدموا لهم مساعداتهم تلك طمعاً في منحهم إحدى جزر الخليج العربي لاتخاذها مركزاً مستقلاًلهم عن جميع القوى المحلية(١٦).

أما عن رأس الخيمة التي كانت معروفة آنذاك باسم /جلفار/ والتي تحررت من النفوذ البرتغالي في عام ١٦٣١ فقد بدأت بعد ذلك التاريخ تستعيد مكانتها التجارية شيئاً فشيئاً حتى أصبحت جلفار في حوالي عام ١٧٠٠ مركزاً مهما للتجارة الدولية حيث عمل الهولنديون على التعامل معها(١٧). الا أنه لم تكن لديهم الرغبة في منافسة العرب في تجارتهم ذلك أن العرب هم أنفسهم بحارة وتجار

يستطيعون تقديم البضائع بأسعار أرخص من التجار الأوروبيين.

ومن بين أوجه التعاون ما أشار إليه تقرير لرئيس المؤسسة الهولندية في (جامرون) الى الحاكم العام الهولندي في الهند الشرقية بتاريخ ٢٧ يناير ١٧٠٢ تتعلق بسفينة هولندية متوجهة من الهند الى جلفار ــ رأس الخيمة ــ حيث واجهت السفينة طقساً سيئاً من أمواج عالية وعاصفة رعدية. مما اضطرها للرسو في بارسالور وانزال حمولتها من البضائع ووضعها في مقر شركة الهند الشرقية الهولندية هناك انتظاراً لتحسن الطقس وعندها حملت السفينة بضائعها إضافة الى بضائع أخرى لتاجر عربي ولاثنين من سكان (كانورا) متوجهين الى جلفار(١٨).

إن النمو التجاري للدولة اليعربية ونمو الموانئ العربية مسقط وجلفار والبحرين وحصولها على مكانة تجارية مؤثرة جعلتها في طليعة الفعاليات الاقتصادية العربية آنذاك جعل هذا النمو وما اكتسبته عمان من قوة كان سبباً مثيراً وداعياً للغضب في بلاد فارس. مما أدى إلى معارك حربية والى قيام تحالف بين الفرس والبرتغاليين ضد العرب. ومن ذلك كانت هناك معركة بحرية في رأس الخيمة في عام ١٧١٨ والتي حاول فيها البرتغاليون حصار البحرية التجارية العربية هناك، ولكن دون فائدة. وفي الجهة المقابلة من الخليج كان شيخ رأس الخيمة رحمة بن مطر قد حاصر جزيرة هرمز لمدة طويلة، ولكنه لم يكن مستعداً لمواصلة هذا الحصار حتى يجبر القلاع فيها على الاستسلام(١٩).

وقد كشف رسالة بعث بها الشيخ رحمة بن مطر ــ القاسمي ــ الى المعتمد الهولندي في الخليج بتاريخ ١٧١٨/٢/٢١ أعرب فيها الشيخ رحمة عن مشاعر الود والصداقة والاعتزاز بالعلاقات الودية بينه وبين الهولنديين. وأبدى اعتذاره عن مصادرة البحارة القواسم لمركب أجنبي فيه ثلاثة أشخاص أجانب، اتضح فيما بعد انه المركب هولندي. وأنه لذلك اطلق سراحه وسراح الأشخاص الثلاثة(٢٠).

ثم كان رد المعتمد الهولندي المفعم بعبارات الود والشكر لاطلاق سراح المركب والأشخاص الثلاثة المشار إليهم وكذلك الاعراب عن المطالبة باطلاق سراح محتجزين آخرين أجانب لدى القواسم في لاراك.

ومما يعكس تلك العلاقات ايضاً رسالة بعث بها رئيس المؤسسة الهولندية في بندر عباس في شهر اكتوبر من عام ١٧٢٨ الى مبعوث المؤسسة في جزيرة هرمز جاء فيها:ــ إن الشيخ رحمة الرئيس القوي لجلفار. هو رجل معروف جداً لدي، وقد حاول التملك في هرمز. وإنه عندما يريد ذلك الرجل تأسيس مكانته هناك، فإنه من الممكن أن يساهم كثيراً في إنجاح التجارة في هرمز لأن ذلك الصديق معروف بأنه من أغنى الأغنياء ومن أقوى التجار في الجزيرة العربية. وفي المنطقة المحيطة بنا بالذات (الخليج الأدنى). وإنه إذا كان شخصياً سيحضر الى هرمز (واني غير متأكد من ذلك وفيما إذا كان بقاءه في هرمز ملائما لشعبه) فإنه من الامور الممتازة أن نقدم له الود(٢١).

لقد ساعد الهولنديون الشيخ العربي/ راشد بن مطر زعيم قبيلة القواسم آنذاك برأس الخيمة ــ جلفار ــ لتثبيت سلطته وحكمه في جزيرة قشم. وقد أنشأ الشيخ راشد في هذه الجزيرة قوة تجارية صغيرة مستقلة وفعالة.

فقد أحب الهولنديون الشيخ راشد إلا أن الانجليز فعلى العكس من ذلك تعاونوا مع الفرس ضده. ولكن راشد كان قويا فقد حمى نفسه لمدة طويلة، والشيخ راشد اقام علاقات مع الادارة الهولندية في بندر عباس فقد كان هناك مراسلات بينهما محفوظة حتى الآن في خزائن الارشيف الهولندي. ومن هذه الرسائل رسالة بعث بها في ١٧٣٢/٥/١٧ من جزيرة قشم جاء فيها:ـ،،،،

بعد التحيات.

لقد وصلتني رسالة سعادتكم الأفخم في الوقت المناسب، وكنت سعيداً باستلامها، ولكن من جهة أخرى كنت آسفاً لعدم تمكني من الكتابة اليكم مبكراً من قبل لأن مسؤوليات عديدة حالت دون ذلك...

وقال:ـ إني أطلب من سعادتكم بكل الصداقة أن لا تعتقدوا بأني خائف من وصول محمد علی خان مع قوة عسكرية كبيرة الى الاراضي المنخفضة في البلاد. إن نفسي مرتاحة لأني لم أوذي أحداً، فكل ما عملته هو إقامة بلدة صغيرة ممتازة ومزدهرة جداً تجارياً حيث لجأ اليها الفقراء واللاجئين المنهكين الذين كان همهم إيجاد مأوى يعيشون فيه.

لهذا لاأجد أي سبب للخوف أو الاكتراث، بل على العكس.. إني أجد الوقت مناسب لأعلن بأنه من حق السعي لأخذ عرشه رداً على عدائه الأعمى..

كما أنني أقيم بمكان محصن تحصيناً عظيماً حيث لا يوجد هناك ما يدعو للخوف. أدعوا الله أن يمنح جلالة ملككم الصحة الدائمة والسعادة في الحياة. ولمعلومات سعادتكم فإن الشهبندر، ميرزا محمد هو عضيد جيد ومساعد جيد لي.. وتضمن الرسالة الكثير من عبارات الصداقة والود.

ورغم ذلك الود فقد كان الهولنديون يسيرون وفق ما تمليه عليهم مصالحهم الى تقديم مساعداتهم للحملات الفارسية في حروبها ضد البحرين وساحل عمان، في عام ١٧٤٠ قام الاسطول الهولندي بمظاهرة عسكرية على إثر التمرد الذي قام به البحارة العرب في بعض قطع الاسطول الفارسي في ذلك العام. فقد ارسل وكيل مجلس جامبرون ـ بندر عباس ـ رسالة بهذا الخصوص بتاريخ ١٧٤١/١٢/١٠ إلى رئاسته قال فيها:ـ «ثار العرب في خدمة البحرية الفارسية وأخذوا بعضاً من السفن، لهذا قام الهولنديون بضرب الثوار العرب باثنين من سفنهم، ولكنهم لم يكسبوا سوى القليل»

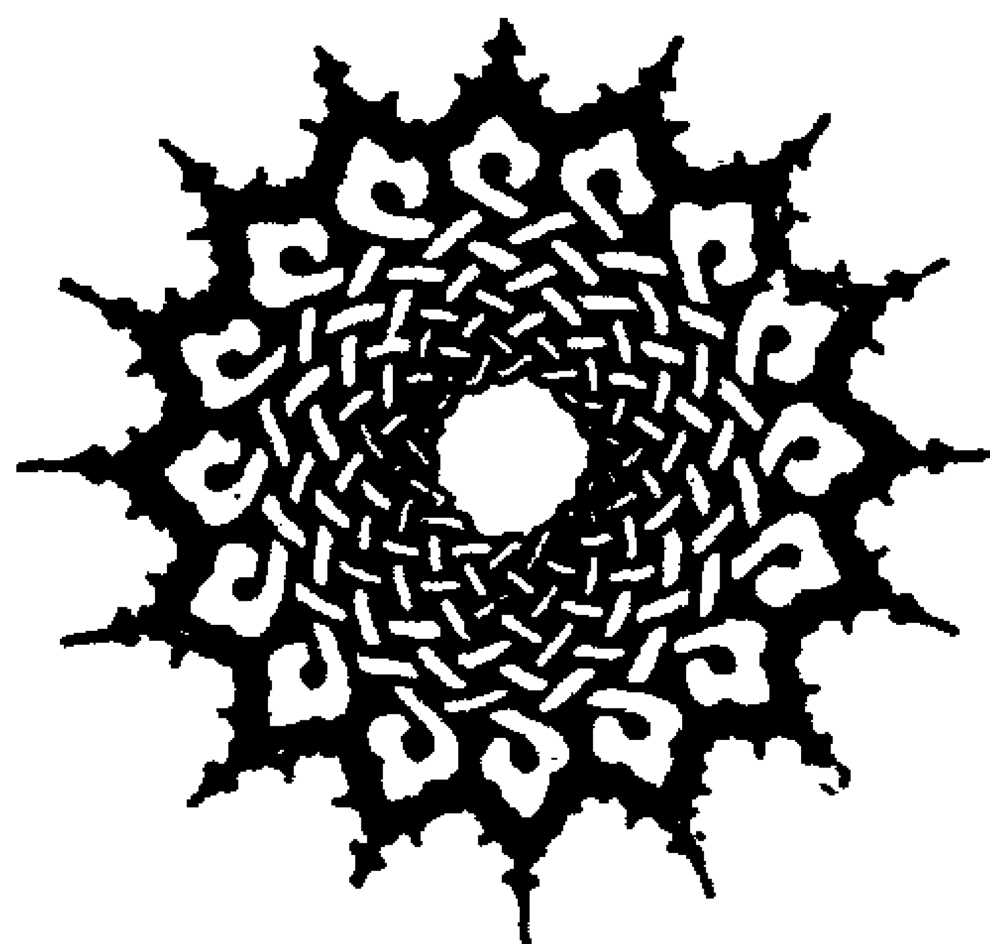
ووصف تقرير،،،، كتبه الهولنديان المقيمان في جزيرة خرج T.F. Vankniphausen J. Vander Hulst في عام ١٧٥٦ وصف منطقة الساحل الغربي للخليج العربي بين القطيف والصير ـ رأس الخيمة حاليا ـ فقال:ـ هناك ثلاثة مواقع بارزة على الساحل وهي:ـ الصير، جوهار، والشارقة. والتي يجلب لها الرز والتمر من البصرة ليباع الى عرب الصحراء والى غواصي اللؤلؤ.

الصير.. كما هو معروف محصنة جيداً وفيها عدد من المدافع ويسكنها عرب من قبيلة الهولا ـ المسمون بالقواسم. ويحكمها الشيخ رحمة بن مطر الذي يقال له أيضاً الشيخ كايد. وقد أيدته مختلف قبائل البدو العربية الصحراوية.

ويعتبر الشيخ رحمة في الواقع الأقوى في شيوخ وحكام عرب الهولا وقد سلح من جماعته أربعمائة

رجل في مدينة الصير التي يتبعها ميناء جيد قادر على أحتواء أكبر المراكب. وهناك تحت امر ته حوالي ستين مركباً أغلبها كبيرة وواسعة ومزودة بكل الاحتياجات بشكل جيد.

وفي السنة الماضية لذلك التاريخ قام الشيخ رحمة بالتعاون مع ملا علي شاه حاكم بندر عباس الذي تربطه به قرابة المصاهرة. بحملة بحرية أعاد فيها مدينة لافت في جزيرة قشم الى السلطة العربية.



الهوامش

١ ـ عمان تاريخ يتكلم ص ١٩٢.
٢ ـ دولة اليعاربة، د. عائشة السيار ص٠ نقلا عن Dennis OP. Cit p.210
٣ ـ Ross. OP. Cit. p. 160
٤ ـ Badger: OP. Cit P.67& &Miles OP. P. 204
٥ ـ Badger: OP. Cit. P.66
٦ ـ لوريمر ج١، ص ١٢٧.
٧ ـ Ibid P. 220
٨ ـ Leckhart, Nadir Shah's Compaigns in Oman 1737 - 1744 P. 160
٩ ـ Dr. Slot. In the land of the White Tower, P.6
١٠ ـ الوثيقة محفوظة في الارشيف ـ القسم الهولندي تحت رقم VOC 2476 -182
١١ ـ Lockhart: Nabir Shah P. 184
١٢ ـ I.O.R.G 129 -5 - 15th September 1740
١٣ ـ د. عبد الأمير محمد أمين، ص ٢٥
١٤ ـ جان جاك بيربي ـ الخليج العربي، ص٤١
١٥ ـ مخطوطة الجواهر واللآلي في تاريخ عمان الشمالي، عبد الله صالح المطوع
١٦ ـ المفصل في تاريخ الامارات العربية المتحدة ـ فالح حنظل، ص ١٠٩.
١٧ ـ نفس المصدر السابق، ص١٢٦
١٨ ـ دور القواسم في الخليج العربي، د. صالح العابد، ص٨٨
١٩ ـ ابن زديق ـ الشعاع الشائع ص ٣١٤ ـ ٣١٥، وعائشة السيار ـ دولة اليعاربة، ص١٩٠
٢٠ ـ كتاب وثائق عن الصومال، الحبشة وارتيريا ـ احمد برخت ماح، ص ١٨٢
٢١ ـ نفس المصدر السابق ص ١٨٥
٢٢ ـ وردت تفاصيلها في كتاب Haklay Richard Voyages & Discoveries P. 91
٢٣ ـ Steensgard. OP. P. 121
٢٤ . لوريمر ج١، ص ٢٣.
٢٥ ـ د. خانبابا بياني، خليج فارس وربزبان صفوية، ص ٩٨
٢٦ ـ مصطفى عقيل الخطيب ـ التنافس الدولي في الخليج العربي، ص ١٣٣ ـ ١٣٤
٢٧ ـ C.R. Boxer. The Dutch Seaborne Empire 1660 - 1800 P.22

٢٨ — C.R Boxer OP. Cit P. 233

٢٩ — مصطفى عقيل الخطيب — التنافس الدولي في الخليج العربي ص ١٤٦.

٣٠ — جاكلين بيرين — اكتشاف جزيرة العرب، ص ٨٢.

٣١ — الخليج العربي. قدري قلعجي، ص ٣٨٦.

٣٢ — د. علاء الدين نورس، السياسة الايرانية في الخليج العربي ص ٧

٣٣ — Lorimer, OP. Cit. Vol. 1, Part 1 A PP. 4 - 5

٣٤ — ج.ج لوريمر، ج١، ص ٦٢ . ٦٣

٣٥ — د. محمود علي الداود، العلاقات الهولندية مع الخليج العربي ص١٦.

٣٦ — Bruce's Annals - Vol. III P. 439

٣٧ — لورنس لوكهارت — انقراض سلسلة صفوية — ص ٥٠٩ — ٥١٠

٣٨ — د. محسن عزيزي، ص١٢

٣٩ — د. صلاح العقاد، ص ٤٩

٤٠ — سليمان الباروني، ص ٥٦.

٤١ — محمد حسين قدوسي — نادر نامة، ص ٢٠٢

٤٢ — لوريمر، ج١، ص ٢١٧

٤٣ — دولة اليعاربة، د. عائشة السيار، ص١٧٥

٤٤ — وثيقة من الارشيف الهولندي رقم Voc Vol. 1208

٤٥ — تقرير لقبطان السفينة الهولندية (ميركات) عن رحلة لها في موانئ الساحل العماني — الامارات — رقم التقرير في الارشيف Voc. 1259

٤٦ — Saldanha, Public Department Diary No. 10 of 1736, 1737 P. 56

٤٧ — د. سلوت Dr. B.J. Slot - in the land of the White Tower P.3

٤٨ — تقرير رئيس المؤسسة الهولندية في جامرون، تحت رقم ١٦٦٧ في الارشيف الهولندي.

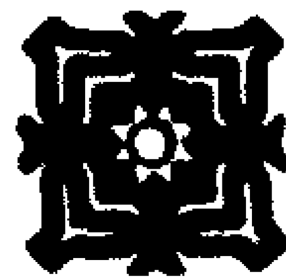
٤٩ — د. سلوت — المرجع السابق — ص ٥

٥٠ — الرسالة موثقة تحت رقم Vol. 1913 P. 437 - 438

٥١ — وردت الرسالة في الوثيقة رقم Voc. 2114 - 3657

٥٢ — الرسالة محفوظة في الارشيف الهولندي تحت رقم Voc. 2254 P. 1274 -1278

٥٣ — جاء هذا التقرير ضمن الوثيقة المعنونة ب Aanwinsten le afdeling 1889-23-B



أحمد بن ماجد وجهوده في الملاحة البحرية

الدكتور: حسين أمين
الامين العام السابق لاتحاد المؤرخين العرب

أحمد بن ماجد بن محمد السعدي، شهاب الدين، المعروف باسد البحر كما لقب بالمعلم، يعتبر ابن ماجد من اشهر ربابنة العرب وابرز علماء فن الملاحة، واعرفهم بمسالك البحار، له التآليف النافعة في فن الملاحة وعلم البحار وهو الذي اخترع الابر المغناطيسية والتي كانت العامل المهم في تسهيل معارف طرق البحر واتجاهات المسالك. لم يتيسر لنا تاريخ مولده، إلا اننا يمكننا تحديد تاريخ وفاته على الارجح بحدود سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م.

إن العرب منذ القدم وهم يركبون البحر ولهم فيه خبرة كبيرة ومعرفة جيدة، وقد وصفهم المقدسي بقوله: ورأيتهم من ابصر الناس به وبمراسيه وارياحه وجزائره، فسألتهم عنه وعن اسبابه وحدوده، ورأيت معهم دفاتر في ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها.

ولعل اول رحالة عربي اسلامي قام برحلة سجلها بشكل وثائقي هو سليان التاجر السيرافي الذي عاش في القرن الثالث الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وقد سجل هذا الرحالة الاسلامي رحلته بشكل دقيق وما شاهده من العجائب في الهند والصين واندونسيا، وهو من كبار تجار المسلمين المغامرين سار في بلده سيراف الى سواحل الهند والصين واندونسيا ونزل في موانئها وابتاع من البضائع المختلفة واتصل باهلها ودرس احوالهم، وبين لنا صورة واضحة لمسالك البحار والخلجان وما جابه من المصاعب والاهوال وما صادفه من العجائب والغرائب، كما ذكر اهم البضائع التجارية التي يتاجر بها الرواد من البحارة العرب.

وأمدنا سليان السيرافي بملاحظات قيمة عن حياة الناس في الاماكن التي ارتادها مثل سكان الهند والصين وبين وضعهم السياسي وعقائدهم الدينية وحالتهم الاقتصادية واهم منتوجاتهم الزراعية

والصناعية، ومن يطالع ما اورده سليمان السيرافي في مذكرات رحلته يتلمس انه امام شخصية على جانب كبير من الفهم الجغرافي والتاريخي والاجتماعي، واني ارى ان رحلة السيرافي من الكتابات الرائدة في مجال الرحلات العالمية.

كما يعتبر المسعودي الرحالة البغدادي المتوفي سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م من الرواد الكبار والذي جاب البحار وافادنا بمعلومات قيمة عن مشاهداته العديدة، وهو من الذين ركبوا البحر من بلاد عمان مع جماعة من نواخذة السيرافيين وهم ارباب المراكب، وزار الهند وسيلان وزنجبار وجزيرة مدغشقر كما زار مناطق اخرى من العالم الاسلامي، واخيرا حل بمصر حيث توفي هناك، وهو الاخر إتسم وصفه لمشاهداته وصف خبير مجرب وله ملاحظات قيمة في مجال الرحلات البحرية النادرة في التاريخ.

وتتابع الرحالة المسلمون في مراحل التاريخ المختلفة مثل ناصري خسرو المتوفي ٥٤٢هـ/ ١٠٦٠م والشريف الادريسي ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م، وابن جبير ت ٦١٤هـ/١٢١٧م، وابن بطوطة ت ٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م، وغيرهم كثيرون كانوا امثلة رائعة في تقديم المعلومات القيمة والتي ساعدت على تسهيل الرحلات وركوب البحار وازدهار التجارة العالمية ووصف المدن والبلدان والبحار واحوال الناس وحياتهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

ونلاحظ ان علم الجغرافية والرحلات الجغرافية والتجارة العربية والاسلامية ازدهرت بشكل مطرد مع قوة المسلمين ودرجة ثبات حاكمهم والتعاون الوثيق مع حكوماتهم المختلفة، وتطورت وسائل البحرية العربية الاسلامية في بناء السفن بانواعها المختلفة وإستخدامهم البوصلة للدلالة في البحار والخرائط التي تبين طرق الملاحة الصالحة، ومواقع الموانئ الآمنة، وكذلك فان ضعف حكومات المسلمين بشكل عام وسيطرة الاجانب عليهم، سبب ضعفاً في عملية الملاحة واضطراب امورها كما فسدت التجارة وارتكبت الاحوال الاقتصادية في عموم العالم الاسلامي، إلا انه بالرغم من كل هذه المعوقات فقد حاول الكثير من البحارة والملاحين العرب وبخاصة اولئك الذين كانوا يتواجدون في منطقة عمان والخليج العربي بشكل عام من جوب البحار والقيام برحلات بحرية لنقل البضائع التجارية بين مناطق الخليج العربي ومناطق الهند وجنوبي آسيا وغيرها من المناطق الاسيوية والافريقية.

ولعل ابرز من ظهر في البحار العالمية في اواخر القرن الخامس عشر الميلادي هو الملاح العربي الذائع الصيت احمد بن ماجد الذي كان المثل الرئع للربان العالم والخبير ذى التجارب الكثيرة والذي قدم للجغرافية بعامة وللبحرية العالمية بخاصة فوائد نافعة ساعدت على اختصار طرق الملاحة وازدهار التجارة بين عموم البلدان، وابعدت السفن عن مواقع الخطر والهلاك، كما قدمت للبحارة معلومات قيمة عن مسالك البحار وظروفها الجغرافية المختلفة.

ويبدو ان ابن ماجد ورث الخبرة العالمية في العلوم البحرية ممن سبقه من العرب الذين عاشوا في العصر العباسي المتأخر بخاصة، وقد ذكرهم في كتاب المعروف بالفوائد وهم محمد بن شاذان وسهل

ابن ابان والليث بن كهلان، وقد اشاد بعلمهم وخبراتهم كما ذكرهم في شعره، كقوله:

يا ابن شاذان يا سهل وثالثهم
السابقين بعلم معجب حسن
علم نفيس ولكن من تداوله
سواكم فهو منسوب الى الغبن
خلفتموني وحيداً في الزمان وقد
كنتم ثلاثة أحبار على الزمن

وقد نعتهم ابن ماجد بالليوث،أي ليوث البحر لخبرتهم وتجاربهم الكثيرة وشجاعتهم ونجاحهم في ركوب البحر، ويبدو ان ابن ماجد استقى من خبراتهم ومعلوماتهم كما استفاد من تجاربهم، إلا اننا لم يصلنا شئ عن آثار اولئك الثلاثة المشاهير، واخذ ابن ماجد وبمرور ايام حياته في اسقاط كل المعلومات الخاطئة التي اتبعها الملاحون الذين سبقوه، وصار يتبع الاساليب العلمية الناجحة في تحقيق اهدافه في الملاحة، وقد بدأ ذلك بوضوح في كتاباته وتآليفه واراجيزه المشهورة واشعاره المتوازنة، ومن يطالع كتاب الفوائد الذي باعتقادي من اثبت الكتب التي تعنى في الاسفار البحرية يجد نفسه امام شخصية علمية فذة ذات تجارب وخبرةعظيمة استمدها من تمريناته وتدريباته مع العديد من البحارة العرب ومن اصالة تربيته، لقد انحدر احمد بن ماجد من اسرة عمل معظم افرادها بالملاحة وكان ابوه وجده معلمين، والمعلم في مصطلح اهل البحر الشخص الذي له إلمام تام بالسفن أو بغاطسها إذا كان كبيرا أو صغيرا وله دراية بعلم الفلك وقدرة على تحمل المسؤولية في قيادة السفينة وسلامتها وأمن من في معيته من العاملين معه في السفينة، كما يكون على معرفة بمواقع الموانئ والشواطئ المختلفة والجزر والشعب المرجانية والمياه الضحلة والهضاب والجبال، وعليه ان يكون آخر من يترك السفينة في أي ظرف كان وبذلك يحفظ السفينة واموالها ويكون اهلا لقيادتها، ويعرف المعلم ايضا بالربان، ويدعى والد احمد بن ماجد بربان البرين أي ساحلي البحر الاحمر، هذا وكان والده ايضا قد دون ملاحظاته وتجاربه البحرية في ارجوزته المعروفة بالارجوزة الحجازية والتي ضمت اكثر من الف بيت في وصف الملاحة على سواحل البحر الاحمر، وكانت لتجارب احمد بن ماجد مع والده ذات أثر في اجراء التصويب على المعلومات التي ورثها عن والده وجده معتمداً على ملاحظاته الخاصة والمعلومات التي استمدها من تجاربه وخبراته في هذا الباب، يقول ابن ماجد: «كان جدي نادرة في معرفة احوال البحر، واستفاد منه والدي، وقد اخذت انا علم الرجلين مع كثير التجربة» وفي موضع آخر يذكر ابن ماجد: «كان جدي محققاً في علم البحر مدققاً، وزاد عليه الوالد بالتجريب والتكرار، وفاق علمه علي ابيه، فلما جاء زماننا هذا وكررنا قريباً من اربعين سنة حررنا وقدرنا علم الرجلين النادرين». يقول ابن ماجد: «ان والدي نظم الارجوزة الحجازية ومع

ذلك كله قد اصلحنا له منها ما رأينا فيه الخلل، وكانت ارجوزة الوالد خيراً لي من جميع ميراثه الذي تركه لي كله».

حقاً ان ابن ماجد نادرة من نوادر النتاج الحضاري الانساني فهذا العربي الذي ظهر في رأس الخيمة وقد تحلى بالصبر والاناة والعلم الغزير والثقافة الواسعة، وتمثلت فيه صفات الرجولة المثالية من شجاعة واقدام وتواضع وتسامح وارادة قوية على احكام القيادة وادارة السفن بشكل يستحق الانتباه والتقدير والاعجاب.

إن ابن ماجد ترك ثروة طائلة من المعلومات الجغرافية والتي استفاد منها الاجانب بشكل خاص، ولم يهتم بها إلا القليل من ابناء العروبة، فازدهرت تجارة الاوروبيين وتقدمت سفنهم، وتخلفت تجارة العرب وضعفت حركتهم البحرية، ولعل من ابرز مؤلفاته هو كتاب الفوايد في اصول البحر والقواعد، ويذكر ابن ماجد انه إختصر كتابه هذا من عشرة أجزاء كان قد ألفها في موضوع علم البحر خشية الاطالة، وانه ألف هذا الكتاب بعد تجارب وخبر امتدت لخمسين عاماً.

إن كتاب الفوايد الذي صنفه ابن ماجد وضع له مقدمة أبان فيها الهدف من تصنيفه لهذا الكتاب، وذكر في متن الكتاب اثنى عشر فائدة، تكاد تكون كل فائدة تختص بموضوع ملاحي، ففي الفائدة الاولى بين أصل كل أس من أسس علم البحر، واوضح في الفائدة الثانية قواعد علم البحر وما ينبغي لقائد السفينة ان يعرفه من القضايا والمهمات الجغرافية والطبيعية المختلفة مثل المنازل والاخنان والدير والمسافات والباشيات والقياسات والاشارات وحلول الشمس والقمر في البروج والمنازل والارياح ومواسمها ومواسم الاسفار وآلات السفينة وما تحتاج إليه وما يضرها وما ينفعها ومطالع النجوم ومغاربها والبرور وعلاماتها.

ومن المفيد ان نشرح هذه المصطلحات التي وردت في الفايدة الثانية، فالمنازل جمع منزلة، ذلك ان العرب قسموا الفلك لنزول القمر الى ثمان وعشرين منزلة، منها اربع عشر منزلة في النصف الشمالي منها سبع منازل لبروج الصيف ومثلها لبروج الخريف، واربع عشر منزلة في النصف الجنوبي، سبع منازل لفصل الشتاء ومثلها لفصل الربيع.

أما الاخنان جمع خن، وعلماء البحر قسموا الدائرة الافقية المحيطة بسطح الكرة الارضية الى اثنين وثلاثين جزءاً وكل جزء يعرف بالخن، ويعرف الخن ايضا ببيت النجم، وبيت الريح، والخن في اللغة العربية يعني مدخل الطريق. اما الدير جمع ديرة وهو جهاز لقياس سير السفينة، ويعرف ايضا بالبوصلة، أما الباشيات فهي قياسات صعود ونزول نجم الجاه في مداره حول القطب. أما القياسات جمع قياس وهي عملية فلكية يستخدم فيها الاسطرلاب مثلا لتحديد مكان أو طريق السفينة أو الآلة التي تحدد ارتفاع النجوم. أما الاشارات جمع اشارة وهو مصطلح بحري يعني تحديد وجهة الطريق ومكان البناء. والبروج وعددها اثنى عشر برجاً واطلق الفلكيون على كل برج اسم لحلول الشمس فيه. اما البرور جمع بر أي الارض أو الجزيرة، والعلامات جمع علامة وفي مصطلح اهل البحر الاشارة

التي يستدل بها على الاقتراب من الارض مثل الطيور أو الاسماك أو طحالب الماء.

وفي الفائدة الثالثة وصف ابن ماجد المنازل ومنافعها للملاحة البحرية كما وصف نجومها وقياساتها وياشياتها ومواقعها من البروج.

وأخذ ابن ماجد في الفايدة الرابعة في وصف كواكب الأخنان وقياساتها وبيت الابرة والتي تعني البوصلة. وخصص الفايدة الخامسة الى ما يحتاجه الملاحون معرفته لفصول السنة والتقاويم وبين في هذه الفائدة ما ابتكره في فن الملاحة.

وجعل ابن ماجد الفايدة السادسة لشرح الدير، وفي الفايدة السابعة اخذ في شرح الباشيات والقياسات، اما الفايدة الثامنة فجعلها خاصة باشارات البرور وعلامات الاقتراب من اليابسة كما بين صفات المعلم الناجح. وفي الفايدة التاسعة وصف دورة البحر في جميع الدنيا، وفي هذه الفايدة أخذ ابن ماجد في وصف جميع سواحل العالم المعروفة عند الملاحين العرب.

وفي الفايدة العاشرة قدم ابن ماجد وصفاً للجزر المشهورة والمعمورة، وفي الفايدة الحادية عشر بين مواسم السفر من بر العرب وبر الهند والسند وجزيرة القمر الى بر الزنج (الصومال). اما الفايدة الاخيرة وهي الثانية عشرة فقد خصصها في وصف السفر في البحر الاحمر ومجاريه وجزره وشعابه والمناطق الخطرة والآمنة فيه مبتدئاً من ميناء جدة الى باب المندب.

ونظم ابن ماجد العديد من الاراجيز وتكاد تكون كل ارجوزة تخص موضوعا بحريا معينا أو انها تخص الكلام على طريق بحري معين، وفي اراجيزه المشهورة قبل كتابته كتاب الفوايد ارجوزته الكبيرة المعروفة (حاوية الاختصار في اصول علم البحار) والتي نظمها في مدينة رأس الخيمة مسقط رأسه، وهي مكونة من أحد عشر فصلا يكاد كل فصل يختص احد المواضيع البحرية، ويمكن اعتبار هذه الارجوزة مختصرا لعلم الملاحة البحرية، واوضح ابن ماجد في الفصل الاول العلامات التي تشير الى قرب الساحل، مثل الطحالب والطيور والاسماك وغير ذلك. وفي الفصل الثاني بحث في منازل القمر وبيوت البوصلة وفي الاصابع، والاصابع وحدة قياس المسافة بين القطب والنجوم المجاورة والافق.

وفي الفصل الثالث بحث في مسائل التوقيت، وخصص الفصل الرابع لموضوع المواسم، وأجمل ابن ماجد في الفصول الخامس والسادس والسابع والثامن الكلام على طرق الملاحة البحرية المختلفة في البحر العربي والمحيط الهندي، وبحث في الفصل التاسع في موضوع الارصاد. وبحث في الفصلين العاشر والحادي عشر في مسائل مختلفة تتعلق بالملاحة.

ومن اراجيزه المشهورة، ارجوزة تحفة القضاة والتي تصف طريقة ايجاد القبلة أي موقع مكة المكرمة بواسطة خطوط الطول والعرض أو بالبوصلة. وارجوزة بر العرب في الخليج العربي وفيها وصف جذاب لجزيرة البحرين وخارج وداس وخربي وطنب وهنجام.

ومن الجدير بالذكر فان ابن ماجد قدم للبحرية العالمية ثروة طائلة من المعلومات القيمة التي ساعدت على تطوير الملاحة واختصار طرقها وتحديد اماكن الامان لسيرها، وهذا في اعتقادي اهم

انجاز عالمي قدمه هذا العربي الخليجي في عصر كانت فيه المنافسات والصراعات على اشدها بين الدول الاستعمارية.

ان الثقافة البحرية الواسعة التي حصل عليها هذا الملاح العربي واعتماده الكبير على البحث العلمي ولتجارب الميدانية التي قام بها مدة طويلة من الزمن جعلت من ابن ماجد الربان الاول في عصره إضافة الى ما كان يتحلى به من الصبر والصدق والفراسة والشجاعة والحزم في تثبيت حكمه وهو القائد والربان لسفينته.

يعتبر ابن ماجد من ابرز الملاحين في العالم في ضبط القياس، والقياس عند الملاحين هو ارتفاع النجم عن الافق، والاصبع هو وحدة القياس عند ملاحي البحار والمحيطات وبخاصة بحر العرب والمحيط الهندي، وكان ابن ماجد يستعمل الاصبع العادية في القياس، جاء في قصيدته المعروفة ضريبة الضرائب قوله:

ومن قاس في جاه اربع بسماكه
فخمساً يراه في انامله العشر

ويعني ابن ماجد ان من يريد قياس كوكب السماك في الموضع الذي يكون قياس الجاه عنده اربع اصابع فانه يرى قياسه خمس اصابع من اصابع يديه، وذكر ابن ماجد ايضا في قصيدته المعروفة بالملكية:

اصابع سبعاً قستهم بانامِلي
وينقص ربعاً ليس فيه مكاثر

ومن الجدير بالذكر ان وسيلة ابن ماجد في القياس اثنا عشر عوداً وقد صنفها حسب اطوالها العيدان الصغيرة والعيدان المتوسطة والعيدان الكبيرة، وبين شروط قياس كل مجموعة. ويذكر ابن ماجد انه امضى خمسين سنة من عمره في دراسة القياسات وضبطها.

وقد ضبط ابن ماجد النجوم والكواكب وأعطى لكل المهتمين في شؤون الملاحة قياسات دقيقة ومضبوطة عادت على حركة الملاحة العالمية بالفوائد الكبيرة.

وقد ابدع ابن ماجد في توضيح مواسم الرياح والاوقات الصالحة للاسفار، وقد عين اوقاتاً محددة في صلاحية السفر بها مما يدل على خبراته الواسعة، كما حدد عدم صلاحية البحر في منتصف شهر أيار (مايو) الى الثلث الاخير من شهر آب (اغسطس).

قال ابن ماجد في الحاوية:

من أول المائتين يا فطينا — لأول المائتين والتسعينا
فهذه التسعون فيها الفلقا — حقيق من جاز بها ان يشقا

وهذا اصدق دليل على اصالته في معرفة البحر ومواسمه وبذلك يكون ابن ماجد قد قدم أجل خدمة لزملائه البحارة في الوطن العربي والعالم، لتدارك الاخطار والمهالك.

وابن ماجد ونتيجة لهذه الخبرات الكبيرة في الملاحة نراه يبرز في ناحية مهمة من اعمال البحر، ذلك انه على معرفة كبيرة للعلامات البحرية والتي تعتبر من اهم اسس فن الملاحة، لان معرفته بتلك العلامات ابعدته عن الكثير من المخاطر وجعلته على معرفة تامة بمجاري البحر ومواقع الجزر ومقتربات البرور.

وقدم ابن ماجد نصائح للبحارة عامة تعينهم على النجاح والوصول الى هدفهم بسلام، فمن نصائحه:

«تأمل السفينة وهي فوق الارض، واكتب جميع خللها» ثم يستدرك ويقول: «وقليل في زماننا من يفعل ذلك من الناس». ويقول: «ولا ترى خللا وتهمله الى وقت آخر، إلا عند الضرورة اشد مما انت فيه». ويقول: «وتأمل جميع آلات السفينة خصوصاً في السكان في كل حين وساعة» ويقول ايضا: «ينبغي إذا أخذ الانسان من شخص علماً أو من تصنيفه فعليه أن يشكره، ويدعو له في حياته وبعد مماته». وغيرها من الوصايا والنصائح الكبيرة والتي تجمعت لديه نتيجة خبراته العظيمة وتجاربه لسنوات طويلة من العمل الدائب المستمر، ويؤيد قولنا هذا ما يذكره ابن ماجد نفسه فيقول: «وما صنفت هذا الكتاب أي (الفوايد) إلا بعد ان مضت لي خمسون سنة».

وابن ماجد الملاح العربي هذا كان يهتدي بآلات صنعت بايدي عربية خالصة كما كان يستخدم الخرائط التفصيلية للبحار والمحيطات التي كان يجوبها، ويذكر المؤرخون ان فاسكو دي جاما عرض على ابن ماجد عند مقابلته إياه، آلاته البحرية البرتغالية التي كان يستخدمها للدلالة، فعرض عليه ابن ماجد الآلات البحرية العربية المثلثية والمربعية الشكل لقياس ارتفاع الشمس والنجم القطبي على الخصوص، كما أراه خرائط تفصيلية للمحيط الهندي وشرقي افريقيا والجزيرة العربية وهي قائمة على حسابات دقيقة على خطوط طول وخطوط عرض متوازية ذلك الامر الذي كان الاروبيون يجهلونه، فاعجب فاسكو دي جاما بفطنة وذكاء الملاح العربي ونجح في إقناعه بتقديم المساعدة له في تحقيق رغبته للوصول الى الهند، ووافق ابن ماجد على تقديم مساعدته الانسانية والعلمية لذلك المغامر البرتغالي وحقق له ما اراد، وبذلك انفتح الطريق امام الاوروبيين، ذلك الطريق الذي كان له الاثر الكبير في تغيير معالم الحياة الاقتصادية والسياسية في العالم.

يشير الى هذه الحادثة المؤرخ النهروالي في كتابه البرق اليماني ويقول: فلا زالوا (أي الاروربيين) يتوصلون الى معرفة هذا البحر إلى ان دلهم الى معرفته شخص ماهر يقال له احمد بن ماجد.

ويعترف الاوروبيون بفضل هذا الملاح العربي وتحدثوا عن مقابلة دي جاما لابن ماجد، وذكروا ان دي جاما لما رأى قيمة هذا الكنز الذي ظفر به أحب الاحتفاظ بهذا المعلم المسلم واقلع متوجهاً الى الهند، فاجتاز البحر الكبير وطوله ٦٠٠ فرسخ في ٢٢ يوماً دون ان يلقي في طريقه عقبة أو مشقة بفضل ارشاد الملاح العربي ابن ماجد.

وقد امتدحه المؤرخ التركي الاميرال سيد على بن حسين الذي عاش في اواسط القرن السادس

عشر، وعند زيارته للبصرة رأى ان ابن ماجد قد ذاع صيته وان كل الملاحين يشيدون بفضله، وذكر هذا المؤرخ: «وجمعت الكتب التي الفها الملاحون الماهرون مثل احمد ابن ماجد من اهل جلفار، والحقيقة انه كان من الصعب علينا السفر في المحيط الهندي بدون الاطلاع على هذه المؤلفات».

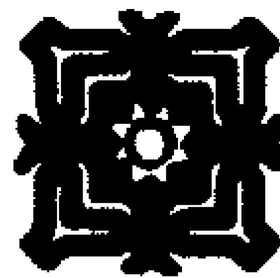
ويعتبر غابرييل فيران من الباحثين الرواد الذين تتبعوا جهود احمد بن ماجد ونشر بعض مؤلفاته تحت عنوان «المرشد البحري العربي لفاسكو دي جاما» وقد اشار فيران الى فضل ابن ماجد على الملاحة العربية، وبعد فيران قام المستشرق الروسي تيودور شوموفسكي بتحقيق ونشر مخطوطة لينينغراد المتضمنة ثلاثة اراجيز لاحمد بن ماجد تحت عنوان: «ثلاث ازهار في معرفة البحار».

هذا ويعتبر المستشرق الروسي كراتشوفسكي من ابرز الشخصيات العالمية التي اهتمت بدراسة الملاح العربي ابن ماجد واثنت الثناء العاطر على جهوده وانجازاته العلمية واثره في تطوير حركة الملاحة البحرية العالمية.

عاش ابن ماجد طوال عمره في شغل شاغل وهو متعلق بالبحر وبالمراكب ومع زملائه الملاحين، ولكنه وبناء على ما امتاز به من الفطنة والذكاء والصبر والشجاعة وما جمع من ثقافة واسعة، كان هو المؤهل ابداً لأن يكون بحق أسد البحر ورابع الليوث وشاعر القبلتين مكة والقدس، كما حظى باحترام وتقدير كل الذي عاصروه والذين جاؤوا بعده.

إننا إذ نقدر ونقيم جهود هذا الملاح العربي الفذ انما نقدر فيه روحيته الاسلامية السمحة، ونكبر له نفسيته الأبية المتواضعة، ونفخر بشموخه وكبريائه واخلاصه واعترافه بالفضل لكل الذين سبقوه وتعلم منهم.

إن سيرة احمد بن ماجد صفحة مشرقة من صفحات تاريخنا العربي، هنيئاً لامارة رأس الخيمة بابنها البار صاحب الفضل العظيم على العالم بما قدم من جهود ممتازة في تطوير الملاحة واثر كبير في اختصار الطرق البحرية التي ادت الى ازدهار التجارة العالمية وتنشيط حركة المواصلات البحرية. وهنيئاً للامة العربية التي انجبت هذا العلم الذي يمثل بصدق تراث الامة وحضارتها الخالدة.



مراجع البحث:

ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار.

ابن جبير: رحلة ابن جبير.

ابن ماجد: ١. ثلاث ازهار في معرفة البحار (تحقيق شوموفسكي، ترجمة محمد منير عيسى)

٢. كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد (تحقيق ابراهيم خوري، وعزة حسن.

الاصطخري: المسالك والممالك.

الحموي: معجم البلدان

سيدى على رئيس: المحيط، طبع في احمد آباد.

المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر.

المقدس: احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم.

النهروالي: البرق اليماني في الفتح العثماني.

الدراسات الحديثة:

اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار.

انور عبد العليم: ابن ماجد الملاح.

جورج حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي.

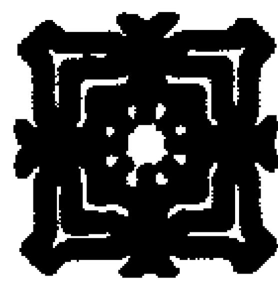
حسن صالح شهاب: علوم العرب البحرية من ابن ماجد الى القطامي.


زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في القرون الوسطى.

على البصري: رحلة السيرافي الى الهند والصين.

كراتشوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي العربي.

لوريمر: دليل الخليج.





الاسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي
في الخليج العربي
خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر

الدكتور محمد عارف الكيالي
استاذ الاقتصاد المساعد ـ جامعة بغداد
كلية الادارة والاقتصاد

المقدمة:

نعتقد ان علماء التاريخ سيرحبون جدا عندما تختلط دراساتهم التاريخية لأي حدث، بالعوامل والاسباب الاقتصادية له. ورغم اننا لن نذهب وننحو منحى الآخرين في اعتبار العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد في تفسير التاريخ. لكن بالمقبل يبقى عاملا عريضا وكبيرا ولا يمكن تجاهله في اية دراسة جادة وموضوعية.

والاستعمار كظاهرة اقتصادية سياسية استيطانية، وبشكليه القديم والحديث، مهما ادعى اصحابه ومؤيدوه من ان غرضه الاساسي كان دينيا تبشيريا أو ثقافيا تعليميا أو حضاريا فانه في التحليل الاخير خارج كل ذلك. انه تحويل للريع وفائض القيمة من الاطراف الى المركز عبر آليات السيطرة المنظمة والمدعمة بالقوة العسكرية والاعمال الهمجية الوحشية. والاستعمار البرتغالي للخليج العربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر لا يخرج عن هذا الاطار.

ولكي يبرر الاستعمار نهبه هذا فلابد ان يستخدم ويستند على ثقافة معينة يدعم بها توجيهاته. فلقد استغل العواطف البريئة لدى الجماهير والعامة من الناس تارة باسم الدين وتارة باسم الثأر.. من أجل ان يغطي اهتماماته بالايرادات والنفقات تلك الاهتمامات التي كانت اكثر بكثير من اهتمامه بنشر التعاليم المسيحية أو القيم الغربية.

ان طرح مثل هذا الموضوع القديم ـــ في رأيي ـــ في هذا الوقت بالذات له اكثر من أهمية ودلالة. وربما يأتي على قمتها، ان الحوادث التي جرت في الخليج قبل نحو خمسة قرون تتكرر اليوم تقريبا ولو كانت بصورة اخرى. ومن هنا فان الدراسة الموضوعية للاستعمار البرتغالي في الخليج تفيد أطرافاً متعددة في وطننا العربي. فالوقوف على الماضي يقدم لنا زاداً دسماً يغذي عقولنا في تجنب اخطاءه والتسلح بعبره.

ان اساطيل البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين والانكليز والتي شكلت الموجة الثالثة للاستعمار الغربي للشرق، تعود اليوم للخليج العربي، بشكل اساطيل امريكية وانجليزية وفرنسية وغيرها. والصراعات القديمة بين الاتراك والفرس والعرب، تعود اليوم في صراعات اقليمية، بل في حرب طاحنة بين العراق وايران. ورغم وجود اكثر من عامل يطوي تحت لوائه اهل المنطقة في مواجهة الاخطار الاجنبية الخارجية الكبرى، والتي تتخذ احيانا صفة صليبية الى جانب اهدافها الاقتصادية والسياسية. فان التعنت الايراني يجهل أو يتجاهل هذه الحقيقة. ان عدم ايقاف الحرب بين دولتين جارتين مسلمتين مهما كانت مبرراته يصب في النتيجة في طاحونة اعداء الامة العربية والاسلامية على السواء.

كان الاساس الاقتصادي للاستعمار البرتغالي ينصب على عنصرين، هما جلب المواد الأولية بما فيها المعادن الثمينة (الذهب والفضة واللؤلؤ) وتأمين سوق لتصريف الفائض من البضائع الاوروبية.. كل ذلك مع احتكار الموقع الجغرافي المتميز للخليج وبالتالي احتكار طرقه التجارية مع الهند شرقا وافريقيا واوروبا غربا.

وهذا هو المحور الاساسي الذي انصب عليه الجهد الاساسي في هذا البحث. ولابد من الاشارة الى الصعوبات الجمة التي صادفت الباحث. وأولها عدم توفر المصادر عن هذا الموضوع القديم. ان الدراسات القديمة وبالاخص العربية كانت تركز على الجوانب التاريخية والحربية، وتغفل تماما الجوانب الاقتصادية رغم اهميتها القصوى.. وربما يعود ذلك الى عدم ظهور علم الاقتصاد آنذاك بهذا المفهوم اليوم اولا.. وثانيا ان العوامل الدينية والمعنوية والقيمية كانت تأخذ حيزا كبيرا في وعي وادراك الاقدمين اكثر من العوامل المادية والاقتصادية.

التقويم التاريخي للعامل الاقتصادي:

ان تفوق الغرب الاقتصادي الحالي على الشرق لا يزيد عمره عن بضع مئات من السنين، وهي فترة لاتكاد تبلغ الا كسرا عشريا في التاريخ المدون للانسانية، أما تفوق أهل الشرق وبخاصة

العرب فانه يرجع الى بضعة الاف من السنين قبل الميلاد. ويبرز هذا التفوق في العصر الوسيط أبان الزخم الاسلامي، اذ تمكن العرب بهدى الدين الاسلامي الحنيف ان يكونوا أمة تمتد من خليج بسكاى الى دلتا السند، وان يقربوا بين الشرق والغرب الى حد لم يكن معروفا حتى ذلك الحين. وساهموا بشكل فعال في الحركة التجارية التي امتدت الى كوريا وأرخبيل الهند من ناحية وجنوب شرق افريقيا واوروبا والبحر البلطيق من ناحية أخرى(١).

ان نصيب اوروبا في التجارة الدولية في العصر الوسيط كان دون شك متواضعا للغاية، اذ قل سكانها وضعف انتاجها. وتقلصت حضارتها لتصبح حضارة ريفية قائمة على الاقطاع واذا كانت الجماهير الاوروبية لم تستهلك الا ما تنتجه ارضها. فان الصفوة من اهل السياسة والعلم والقوة فيها كانت تشتري منتجات الترف للمساكن والملابس من الشرق. فلم تخل المساكن والحصون الاوروبية من تأثير الشرق العربي عليها سواء في المواد الأولية أو الهندسة المعمارية، كما ان السيوف الفرنسية والصقلية كانت تتفوق على نظيراتها عندما كانت تصنع على الطراز الشرقي، ان اميرات اوروبا كن يتباهين بلباسهن الدمسق (نسبة الى دمشق) والموسليني (نسبة الى الموصل). اذا اضفنا الى ذلك كله وصول العرب المسلمين الى الاندلس وبقاؤهم هناك قرونا عديدة ونقلهم الحضارة الشرقية عامة والاسلامية خاصة بما فيها علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء.. الخ لادركنا كم استطاع الشرق الاسلامي العربي ان يربط اوروبا به لا سياسيا وحسب بل واقتصاديا(٢).

وليس من الصدفة ان تكون المدن الاوروبية على ساحل البحر الابيض المتوسط وبالاخص الايطالية نصف الشرقية، التي لم تهدأ قط طيلة العصور الوسطى مثل البندقية وسالرنو وفينيسيا.. في مقدمة العوامل التي ادت الى النهضة الاقتصادية في الغرب منذ أواخر القرن العاشر الميلادي(٣).

ان الحروب الصليبية التي شنتها أوروبا على العالم العربي الاسلامي طيلة مائتي عام، لم تكن بأهدافها المعلنة الدينية، وانما في جوهرها، تحويل للريع الذي ينتجه الفلاحون العرب الى رجال الاقطاع الاوروبية تحت حجج ومزاعم دينية زائفة. وبعد هزيمة الصلبيين، أدرك بعض رجال الفكر والسياسة الاوروبين اعتماد الدول الاسلامية والعربية في الشرق على تجارة الهند لذا وضعوا اقتراحات وخطط معينة لتدميرها ان (مارينو سانيتو Marino Sanuto) اقترح حلفا مع (Tortary dnubia) وبناء اسطول في المحيط الهندي للسيطرة على جزره وسواحله، في حين ناضل غليوم ادم Guilloum Adam من أجل بناء اربع سفن ضخمة في هرمز لتقفل البحر الاحمر من جزيرة سوقطره معتمدا على مساعدة الغرب والمسحيين له(٤).

ان مثل هذه الاعمال تضمن للغرب عدة فوائد في آن واحد: فاولها انها تصل الى المواد والسلع التي تحتاجها من الهند والارخبيل الاندونيسي والشرق الاقصى، دون وساطة العرب. وثانيها، تضعف العرب والمسلمين عن طريق قفل باب التجارة ومصدر الرزق الاساسي لهم. وثالثها، تؤمن اسواقا لتصريف منتجاتها الفائضة، بعد أن بدأت بشائر نظام الانتاج الرأسمالي تحل محل نظام الانتاج الاقطاعي في اوروبا بدء من القرن الخامس عشر.

ان سيطرة البرتغال على المحيط الهندي والخليج العربي تندرج تحت هذا الاطار، ولم يكن عملا ترفيا أو استكشافيا أو مجرد مغامرة بعض الملاحين.

ان الاستعمار البرتغالي وهو باكورة الاستعمار في العصر الحديث كان نتيجة لتحضيرات طويلة وخطط متقنة وناضجة محكومة بظروف موضوعية.. ورغم ان التحرك الاستعماري البرتغالي الى المنطقة العربية كان هو الاخر بحجج دينية والانتقام من العرب المسلمين الذين سيطروا على شبه الجزيرة الايبيريه الا ان الهدف الاساسي للطموحات البرتغالية كان لاحكام السيطرة الاقتصادية واحتكار التجارة الشرقية.

فقبل وصول البرتغالين كانت تجارة الهند والشرق الاقصى بيد المسلمين واغلبهم من العرب. (من جنوب وغرب الجزيرة العربية وعمان)، وكانت الطرق التجارية (البحرية والبرية) تمتد من الهند الى هرمز واعالي الخليج العربي ووادي الرافدين وحلب، أو عبر الخليج جنوبا وغربا الى عدن وجده والقاهرة وفنيسيا. أن اهالي جنوب ايطاليا اشتروا التوابل من الشرق وبيروت والاسكندرية لتوزيعها في أوروبا وموانئ شمال افريقيا واكثر الارباح كانت تجنى من عملية التجارة في المحيط الهندي. وكانت ارباح السلاطين في الخليج العربي وحتى سلاطين مماليك مصر كبيرة ومضاعفة. ومن جهة قدمت التعريفات الجمركية وسائل سهلة في جمع عوائد تلك الدول التي فيها موانئ بحرية أو محطات لوسائل النقل البري. ومن جهة ثانية جلبت العمل للاعداد الفقيرة من الجماهير الشعبية لتعمل في التجارة والملاحة والنقل وغيرها. ومن جهة ثالثة أمنت الكثير من المواد الغذائية والملابس للعديد من المدن التي كانت من الصعب العيش فيها دون تلك التجارة(٥).

لم يقتصر الامر على سلب العرب تجارتهم عند وصول البرتغاليين الى الاراضي العربية والهند وافريقيا.. انما عملوا على تدمير الحضارة العربية والاسلامية عن طريق تجميد اشكال الانتاج (الصناعة والزراعة) السائدة آنذاك والتي كان بامكانها التطور الى مراحل راقية وصولا الى مجتمعات متقدمة بالمفهوم السائد اليوم. لقد وجد البرتغاليون انفسهم في اراضي اكثر غنى من اراضيهم واستطاعوا التعرف على صناعات حرفية راقية. اكبر واهم بكثير من صناعاتهم، بالاضافة الى ذلك انهم وجدوا ملاحين مهرة من العرب والهنود وعلى رأسهم البحار العربي المشهور (احمد بن ماجد) الذي استعان به فاسكو دي غاما ليعرفه على سواحل شرق افريقيا والمحيط الهندي ويوصله الى مدينة كلكتا(٦).

الاستعمار البرتغالي:

لقد نجح البرتغاليون في نهاية المطاف في اكتشاف طريق بحري الى الهند يتجنب طرق القوافل القديمة بين البحر الابيض المتوسط من جهة والبحر الاحمر والخليج العربي من جهة ثانية، وانهم كانوا يدعون بانهم يقومون بشئ ذى أهمية بالغة بالنسبة للعالم(٧).

لاشك أن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وبعض مناطق امريكا اللاتينية(٨) افاد البشرية

ولكن اقامة الحصون والمحطات التجارية على السواحل الافريقية والعربية والاسيوية وتجنيد المرتزقة وقتل الاهالي أو ارغامهم على العمل بالسخرة وتهجيرهم واصطيادهم بالقوة خارج القارة الافريقية (تجارة الرقيق) كل ذلك كان من صلب الاستعمار البرتغالي.

ان السبب الموضوعي والاساسي للاكتشافات الجغرافية ــ كم هو معروف تاريخا ــ انغلاق الاقتصاد الاوروبي بعد سيطرة العثمانيين على البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر وبالتالي قطع المنفذ الوحيد على الاوروبيين. وكما كانت الحروب الصليبية هي المنفذ الوحيد للاقطاع (الكنسي والاجتماعي) كذلك كانت الاكتشافات النافذة الوحيدة للاقتصاد الاوروبي وهويتحول الى الرأسمالية، على كل حال لقد اطلقت هذه الاكتشافات الجغرافية سلسلة من ردود الفعل الاقتصادية واحدثت اثار تراكمية متصاعدةنتج عنها ثلاث نتائج هامة:

١. تراكم وانتقال كميات هائلة من الذهب والفضة (رأس المال النقدي) بسبب ما فرضه المستكشفون على أهالي المناطق من اتاوات وضرائب، أو ما نهبوه بشكل مباشر من المناجم أو الخزائن. وكان هذا النهب أحد أهم المصادر الاساسية للتراكم البدائي لرأس المال الذي وفر الظروف المواتية لنشؤ الرأسمالية كعملية اجتماعية تاريخية.

٢. تدويل السوق: لقد حولت الاكتشافات الجغرافية السوق الاقتصادية من وطنية قومية داخلية الى عالمية، لقد حدث اختلال في هيكل السوق بين قوى العرض المحلية المحدودة وقوى الطلب العالمية المتعاظمة.. فالطلب اصبح عالميا والعرض لازال محليا قوميا.. وبق هذا التناقض يتعاظم الى ان وصل الى الذروة، فكان لابد من حدوث عمل ليحل هذا التناقض فكان نشؤ الثورة الصناعية وهذا هو بالضبط سبب نشوءتلك الثورة. التي هي وليدة النظام الرأسمالي وليست خالقة له. أنها شرط تاريخي لاعادة النظام الرأسمالي الى التوازن بعد ان اختل. انها حل للصراع بين المنتج والمستهلك، بين الطلب (علاقات الانتاج) والتكنيك «العرض» (قوى الانتاج).

٣. والنتيجة الثالثة والتي تخدم غرضنا بالدرجة الاولى، هي نشوءالنظام الاستعماري. وليس من قبيل الصدفة ان تظهر كلمة المستعمر في القواميس الاجنبية منذ القرن الرابع عشر(٩). أي على وجه التحديد في فترة الانتقال التي سبقت قيام المشاريع الاستعمارية الكبرى للدول الغربية (البرتغال واسبانيا وفرنسا وانكلترا وهولندا). كانت الحروب الصليبية في الواقع قد انتهت منذ عهد قريب، وكانت الاحداث تدفع نحو فترة الكشوف الجغرافية الكبرى، وتضع اوروبا وجها لوجه امام عالم جديد يصبح مزرعة لها. ان ظاهرة الاستعمار حولتالنظام الرأسمالي من نظام مستقل وطني (يعيش في مكانه) الى نظام تابع طفيلي يعيش على حساب وحياة الآخرين. ومن هنا وبعد ان اصبح النظام الرأسمالي عالميا فلا يمكن فصله عن مشكلة التقدم والتخلف(١٠) ان هاتين الظاهرتين لا يمكن ادراكهما على حقيقتهما دون الوقوف على ظاهرة الاستعمار.

لقد قام تصنيع اوروبا الذي شجع عليه تراكم الثروات وهو التراكم الذي يعزى في المحل الاول الى الاستعمار شرطين: استيراد المواد الاولية وايجاد منافذ لتصدير فائض الانتاج. فقد كان على

الاستعمار منذ تلك اللحظة ان يحل المشاكل التي يثيرها هذا الشرطان. كانت المناطق المستعمرة تقوم بتزويد المواد الاولية الضرورية للصناعات الاوروبية الناشئة والمتطورة وتستخدم في الوقت نفسه كأسواق لفائض الانتاج الاوروبي. ولم تكتف الدول الاستعمارية بذلك بل كان لابد من ثقافة معينة تدعم هذا التوجه مع اجراءات عملية. فلكي تبرر الدول الكولونيالية اعمالها البشعة ضد سكان المستعمرات، فكانت تثقف شعوبها على ان عملها هذا هو مجرد ثأر للفتوحات الاسلامية في القرنين السابع والثامن الميلاديين، والعرب في رأيهم قد توسعوا في الحد الغربي وفتحوا شبه جزيرة ايبريا واستعمروها. وها هم اليوم (البرتغاليون) يهاجمون شواطئ الجزيرة العربية نفسها. بل ويهددون أقدس الاماكن الاسلامية (مكة المكرمة) ويخضعون الامراء العرب والمسلمين على السواء في هرمز ومسقط وملقا(١١).

ان مثل هذه الادعاءات لا تحتاج في تنفيذها الى عناء كثير. فالعرب المسلمون عندما دخلوا شبه الجزيرة الايبرية وجنوب ووسط فرنسا، فانهم حرروا سكانها من الظلم والاضطهاد ونشروا علومهم ودينهم الحنيف، واقاموا العدل في الارض. ولقد سار العرب المسلمون في فتح الاندلس على مبدأ تقسيم الاقطاعيات والاراضي الزراعية بين فلاحيها الذين كانوا محرومين من تملك الارض في عهد (الفزيغوت). وقد ذكر المستشرق المعروف (دوزى) في كتابه (تاريخ الاندلس) «لقد انقذ الاسلام الطبقات الدنيا من الاوروبيين العبيد واقنان الارض في العصور الوسطى، وحررهم من سلطة الاقطاعين الاقوياء الذين كانوا يعتبرون الفلاحين لا عبيد لهم وحسب، بل وعبيدا للارض»(١٢).

لقد كان الفتح الاسلامي في الواقع ميزة وحسنة لاسبانيا والبرتغال، اذ حقق ثورة اجتماعية واقتصادية بالغة، فازال سلطة الطبقات ونقل المجتمع الاوروبي لاول مرة من مجتمع طبقي شبه عبودي (اقنان ونبلاء) الى مجتمع لا طبقي بقضائه على الامتيازات للطبقات العليا الاقطاعية وتوزيعه الاراضي على اكبر عدد ممكن من افراد الطبقات المستغلة (الاقنان). ويذكر مستشرق آخر هو (ليفي برونفسال) في كتابه (اسبانيا المسلمة في القرن العاشر). «ان الازدهار الزراعي الذي أصاب اسبانيا بعد الفتح الاسلامي يعود الى التقسيم الكبير لملكية الارض»(١٣).

اين موقف العرب والمسلمين هذا من موقف البرتغاليين عندما استعمروا بعض مناطق الخليج العربي؟ لقد نزعوا كل سلطة من الملوك والامراء والرؤساء التقليدين اصحاب البلاد الاصليين، ووضعوا البلاد في الموضع الذي ارادوه لها واستحوذوا على ثرواتها الطبيعية وأدوات الانتاج فيها، ودمروا الصناعات التقليدية الحرفية فيها (والتي كانت ستتقدم على نظيراتها في اوروبا والبرتغال نفسها) وحولوا الشعوب التي استعمروها الى ايدي عاملة ذليلة، وفرضوا عليها قوانين ومعايير وقواعد تتفق وخصوصياتهم، واخضعوا السكان الاصليين الى عملية سيكولوجية تهدف الى تسيرهم في اتجاه يتفق ومصالحهم(١٤). وهنالك الامثلة الكثيرة على معاملة البرتغالين الوحشية للمناطق التي استعمروها وبالاخص سكان الخليج العربي. ويكفي ان ندلل على حادثة واحدة وقعت عندما هاجم البوكرك (قائد البرتغال) بلدة خورفكان (الفجيرة) حاليا وقام بنهبها فانه قام بتقطيع اذان وانوف

السكان الذين كان يطلق سراحهم.. ومثل هذا العمل كان روتينيا في المدن العمانية الاخرى(١٥).

ان البورجوازية الاوروبية في مراحل استعمارها حققت اكبر قدر من الارباح من مستعمراتها واجبرت كل الامم المستعمرة على اتخاذ اسلوبها في الانتاج، بعد ان قوضت الاساس القومي الوطني للصناعات المحلية واكسبت الانتاج والاستهلاك في جميع البلدان صفة عالمية. انها بالنهاية تقسر هذه البلدان والامم على دخول الحضارة المزعومة(١٦).

ان الاستعمار البرتغالي للخليج العربي ولافريقيا لم يخرج عن هذا الاطار، بل انه من طبع هذا الاسلوب بشكل عملي.. فلقد حققت المستعمرات البرتغالية امتيازا مزدوجا للبلد المركز، فقد كانت تشكل اراضي تستقبل فائض السكان وتنتج منتجات تفتقر اليها الاوطان ويمكن ان تستخدمها كمواد للتبادل. وكانت تجارة التبادل تشكل قاعدة العلاقات الاقتصادية في العالم القديم في القرن السادس عشر. وقد حلت محلها التجارة النقدية على نحو مطرد كلما حققت اوروبا غلبتها وسيادتها على العالم(١٧).. ان الحصيلة التي تقدمها المستعمرة تسهم باستمرار في تعديل الابنية الاقتصادية للوطن (الام) ولكن الاهداف تتغير فتفرض على الاستعمار اسلوبا ومجرى جديدا.

من هذا كله تخلص الى ان الاستعمار البرتغالي انطلاقا من دافع المنفعة والمصلحة المادية بالدرجة الاولى، ارتكز على دعامتين اقتصاديتين أو اساسين هما الموارد الاقتصادية والسوق.

الموارد الاقتصادية:

في الخليج العربي يلتقي الماضي المجيد بالحاضر المشرق. وتاريخيا كان الخليج ولا يزال يتمتع بموقع استراتيجي. جعلته محط انظار العالم منذ الازمنة الغابرة. ومع اكتشاف النفط فيه فقد تضافرت عوامل الجيولوجيا مع عوامل الجغرافيا لتجعل منه اليوم اهم منطقة حيوية في العالم.

ولكن الخليج العربي لا يحتوي على النفط وحسب، وقديما احتوى على ثروات طبيعية هائلة وخاصة في منطقة عمان، فالموارد الزراعية كانت مصدرا كبيرا من مصادر الاقتصاد القومي، ففي المناطق الجنوبية من الخليج حتى اواسطه (الامارات العربية حاليا) توجد مساحات مقبرة من الاراضي الخصبة والعديدة من الواحات الداخلية التي تزوع بها الفاكهة، ففي منطقة الباطنيه الساحلية ووادي سمايل وواحة العين وغيرها، يزرع النخيل والمانجو والرمان والجوز والخضروات والشعير والحنطة وقصب السكر. وحتى القطن كان يزرع في سهول عمان الشمالية ويغزل وينسج ويباع محليا وعالميا(١٨). والثروة الحيوانية بشقيها البري (الماشية) والبحري (الاسماك) تكاد تكون هائلة. فالغنم والماعز والجمل والابقار والجياد العربية الاصيله. كانت متوفرة للغاية في الخليج العربي.

ان طول الشاطئ العماني لوحده حوالي (١٥٠٠) كم ويمثله تقريبا لباقي المناطق العربية في الخليج وامتدادته. ان الثروة السمكية حتى اليوم تزيد عن حاجة الاستهلاك المحلي حتى ان المواطنين يقومون

بتجفيف الاسماك وتصديرها أو تقديمها علفاً للحيوانات.

ولقد ذكر ابن بطوطة في رحلته في القرن الثامن الهجري بلاد عمان «بانها ذات انهار وحدائق واشجار ونخيل..»(١٩). ووصفها ياقوت بانها «تشمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزرع»(٢٠) ولقد عاين المقدس في القرن الرابع الهجري ــ العاشر الميلادي . اقليم عمان بنفسه وقال: «والتجارات في هذا الاقليم مفيدة لان به فرضتي الدنيا.. فاليه يخرج ادوات الصيادلة والعطر كله ــ حتى المسك ــ والزعفران والصاج (الخشب) واللؤلؤ والديباج والياقوت والانبوس والنارجيل والحديد والرصاص والخيزران والفلفل وغير ذلك(٢١).

ولقد لخص البشاري المقدس صحار وباقي مناطق عمان وقصباتها قائلا «انها بلد عامر، آهل، حسن، طيب، نزه، ذو يسار وتجار وفواكه وخيرات اغنى من زبيد وصنعاء.»(٢٢).

وفي مجال التجارة، فبالاضافة الى الموقع الممتاز الذي يربط الخليج العربي افريقيا باسيا ويجمع على شاطئه العرب وغيرهم ويعتبر نقطة الوصل بين بلاد الرافدين والشام وآسيا الصغرى مع شبه القارة الهندية والجزيرة العربية فان التاجر العربي والملاح العربي الذي وصل الى الصين وارخبيل اندونسيا شرقا وشواطئ افريقيا غربا كان نموذجا للاهتداء به من قبل بحارة العالم وتجارها(٢٣). وفي هذه المنطقة العربية كانت لصناعة السفن شهرة عالمية خاصة ولقد ذكر ذلك الملاح العربي الشهير احمد ابن ماجد في العديد من كتبه التي بقيت تدرس في المدارس والجامعات الغربية حتى زمن طويل في بداية العصر الحديث. لقد اشتهرت المدن العمانية بهذه الصناعة مثل مسقط ومطرح وصور وصحار. وكان العمانيون مهرة بدرجة فائقة.. ولم يكتفوا بمواردهم المحلية من الاخشاب لهذه الصناعة، بل ان بعضهم كان يذهب الى الهند لصنع السفن هناك(٢٤) ولقد ضم الاسطول العماني اكثر من (٤٠٠) سفينة من مختلف الاحجام والانواع في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وكانت هذه السفن تمخر عباب البحار والمحيطات والانهار، رابطة العالم العربي من شماله (وادي الرافدين وبلاد الشام) الى جنوبه في اليمن ظفار ومن زنجبار الى اندونيسيا .. واليابان(٢٥).

ان صناعة الغزل والنسيج كانت متقدمة في الخليج اكثر مما كانت عليه في البرتغال نفسها، ولقد فوجئ البرتغاليون بوجود صناعات نسيجية متطورة وملابس راقية، تنم عن ذوق سليم، ومتانة في التصنيع.. بعضها صنع محليا والبعض الاخر استورد من خارج الاقليم وبالاخص الحرائر التي كانت تستورد من الهند وبلاد الشام(٢٦).

لم يرق ذلك الى سمع وبصر البرتغاليين، فقد عمدوا الى ابادة أو محق الاسلام والتجار المسلمين. فقد ارسلوا حملات متعاقبة الى المدن الاسلامية والجوامع لحرقها أو تفجيرها وهي مملوءة بالمصلين، ان المشاغل الحرفية كانت تحرق في أي مكان يلطخه البرتغاليون(٢٧). كل ذلك كان يتم عن حقد اعمى دفين، اضافة الى الهدف الاقتصادي. وهو تدمير القاعدة الاقتصادية الوطنية وربط البلد باقتصاديات الام وجعله تابعا له.. كي يسهل استمرار استعماره. وبهذه العملية انتقلت الممرات

التجارية من مدن الخليج وحولت الى الجنوب، ولذلك فان تلك الدول كانت متطورة ضمرت واصبحت بائسة. وفي مجال الصناعات المعدنية، فقد وجدت الاواني الفضية والنحاسية والادوات الحديدية. وآلات الحراثة، اضافة الى الصناعات الحربية كالسيوف والعجلات والمدافع والمنجانيق وغيرها.

ونحن نتكلم عن الموارد الاقتصادية للخليج العربي لابد وان نعرج على اللؤلؤ. والذي يعتبر من أرق أنواع اللؤلؤ في العالم. لقد تعددت مفاصات الؤلؤ في الخليج بدءا من عمان في أقصى الجنوب (خليج عمان) الى الكويت في أقصى الشمال ولكن اهمها واندرها ما كان يستخرج من مفاصات صور في عمان ورأس الخيمة في الامارات.

ان البرتغاليين الذين عمدوا الى الاستيلاء تقريبا على اغلب أو جميع هذه الموارد الاقتصادية وبالقوة المسلحة.. وغالبا دون تعويض، فانهم لم يعمدوا الى استغلال مفاصات الؤلؤ مباشرة عكس مصادر الثروة الاخرى حيث ان عملية الغوص شاقة وخطرة ولذلك قاموا بفرض ضرائب باهظة على المختصين بهذه المهنة، اذ كانوا يجبرون السكان على بيعها باثمان بخسه وينقلوها الى الغرب ويحصلون على ارباح وايرادات ضخمة من هذه التجارة الرائجة.

السوق:

كانت السوق الاقتصادية في الخليج العربي معتبرة جدا في الفترة ١٧٠٠ ــ ٢٣٠٠ق.م حيث كان المركز الحضري للبحرين صلة الوصل بين حضارة وادي الرافدين وحضارة الاندوز التي بزغت في مناطق السند والبنجاب(٢٨). ولقد لعبت التجارة دورا مهما في الخليج العربي. وكان ذلك بسبب حاجة البلد الى الاخشاب والمعادن غير المتوفرة والتوابل والاقمشة المصنعة محليا أو المستوردة.. وكانت صيغة التبادل في هذا السوق الاقتصادية الواسعة الممتدة من اندونسيا شرقا الى بلاد الشام وشرق افريقيا.. وجنوب اوروبا تمارس في صيغة المقايضة. ولكن مع ازدهار التجارة ادى ذلك الى استعمال النقود على نطاق واسع، واستعملت النقود المعدنية وبالاخص (الفضة والذهب) كمقياس مشترك للقيمة. ولكن مع مجيء عصر الاستعمار البرتغالي، الذي ارتبطت مقوماته بالتبادل الدولي. فلم يقم التبادل في هذه السوق على التبادل المتعادل للسلع فالجيوش البرتغالية وبعثات الاستكشاف في طبيعتها تشكل تهديدا مباشرا وفي تركيبها بما تستطيع حمله معها من المنهوبات، هذا اضافة الى الجزية السنوية التي كانت تفرضها على المناطق المغلوبة. وكانت احيانا اداة الدفع الفضة/ بابخس الاثمان. وعلى أية حال لم تكن هناك ضرورات ايجابية لانشاء وحدات اقتصادية حقيقية أو اسواق بالمعنى العلمي الصحيح لها. حيث ان ذلك يؤدي الى اقامة تبادل متعادل في ظروف تنافسية، يتقرر فيها الاثمان بشكل موضوعي.

ان الاجراءات القسرية التي استخدمتها الكولونيالية البرتغالية في الخليج العربي، قد استطاعت

اقامة تبادل دولي الا انه تبادل لم ينفع الاقطار التي قامت بالسيطرة عليها. وذلك لان أيه سلعة تشتريها بالاضافة الى الجزية التي تتقضاها غصبا، كانت تدفع اثمانها مما كانت تستخلصه من دافعي الجزية والضريبة انفسهم.. ان رسائل كولومبس الى ملكه بعد اكتشاف القارة الجديدة تشير بما لا يقبل الجدل الى صحة ذلك.

«هؤلاء الرجال لا يحسنون استخدام السلاح.. ويكفي خمسون جنديا لاخضاعهم وحملهم على ان يفعلوا كل ما يريده المرء ان يفعلوا»(٢٩). انها عبارات قليلة كافية للتعبير عن كل تاريخ الاستعمار القديم. ويلاحظ بيري اندرسون ان الاستعمار البرتغالي هو (استعمار رد الفعل) ولسنا بصدد مناقشة ذلك. ولكن يؤكد صاحب الفكرة على ان الهدف الجوهري لهذا الاستعمار من وراء الاكتشافات والرحلات هو السعي الى المنفعة، من خلال الوصول الى الهند وثرواتها الطائلة(٣٠)، ولكن طريقة هذا السعي تتغير وفقا للظروف الطارئة..

لقد حصلوا على الذهب من غينيا وحملوا به سفنهم وكنزوا هذا الذهب واستبدلوه بذهب السودان الذي أخذ يشح وينضب(٣١). والواقع أنه مع نهاية عصر الصلبيين في بلاد الشام ومصر، اخذت التجارة الاوروبية تعاني من عجز لم يكن ذهب السودان يغطي الا جزءا منه.. ان البرتغاليين لم يقتصروا على تجارة لذهب والمواد الاخرى بل اخذوا يحملون معهم العبيد(٣٢) الى لشبونة أو مزارع القطن الامريكية. ان ما يسمى بتجارة العبيد يشكل وصمة عار في جبين المدنية الاوروبية الحديثة فلقد حملت اساطيل الدول الاستعمارية من افريقيا اكثر من (٢٢) مليون من سكانها غصبا الى نصف الكرة الغربي للعمل في المزارع والمناجم لحساب الرجل الابيض.. وقد قتل أو مات اكثر من ربع هذا العدد حتى قبل وصوله اليابسة(٣٣).

كانت السلع التجارية الاساسية تصادر في اغلب الاحيان من قبل المرتزقة البرتغاليين، أو تقوم باثمان بخسه للغاية، وكان الملك البرتغالي يحتكر لحسابه الخاص اللؤلؤ والتوابل والعطور والحرير. وعندما كان يتدهور سلطان الملك فان ذلك الاحتكار يحول الى قواد الحاميات.. ان البرتغال نظرت الى الخليج العربي من زاويا ثلاث:

أولا: موقعه الممتاز: فهو يصل بين قارتين هامتين من العالم القديم (افريقيا وآسيا) وطرفه الشمالي يقرب المسافة بين أوروبا والشرق في حالة استخدام القوافل البرية وبالفعل وصل البرتغاليون في مرحلة ما الى منطقة البصرة وشنوا غارة مفاجئة عليها في عام ١٥٥٦ والحقوا بعض الاضرار بالميناء كونهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليه. أما منطقة الفاو فقد استخدموها كقاعدة وميناء لهم لفترة زمنية معينة. كما ان الخليج يسيطر على طرق الملاحة المتجهة من اوروبا الى الهند والشرق الاقصى وبالعكس.

ثانيا: ان شركاتها ورحلاتها الملاحية نظرت اليه من زاوية المصالح التجارية وخاصة في القسم الشرقي منه (بلاد فارس) اذ كانت سوقا استهلاكية لتصريف المنتوجات الاوروبية وما كانت تجلبه معها الى الهند، وبالمقابل فقد كان الخليج منطقة تصدير المواد الاولية والحرير والاخشاب والمواد

الغذائية.

ثالثا: انه مصدر نقدي كبير، سواء بما احتواه من مواد نقدية معدنية كالفضة والذهب واللؤلؤ أو بما فرضته السلطات البرتغالية من ضرائب ورسوم واتاوات خيالية على العمل والانتاج والملاحة.. وحسب ما يرويه احد حكام هرمز من البرتغاليين في عام ١٥٥١ وكان يدعى الفارودي.. ان سلفه جمع اثناء عمله في حكم الجزيرة (١٤٠) الف بردوسه من العملة البرتغالية، أما هو فقد جمع ضعف هذا المبلغ(٣٤).

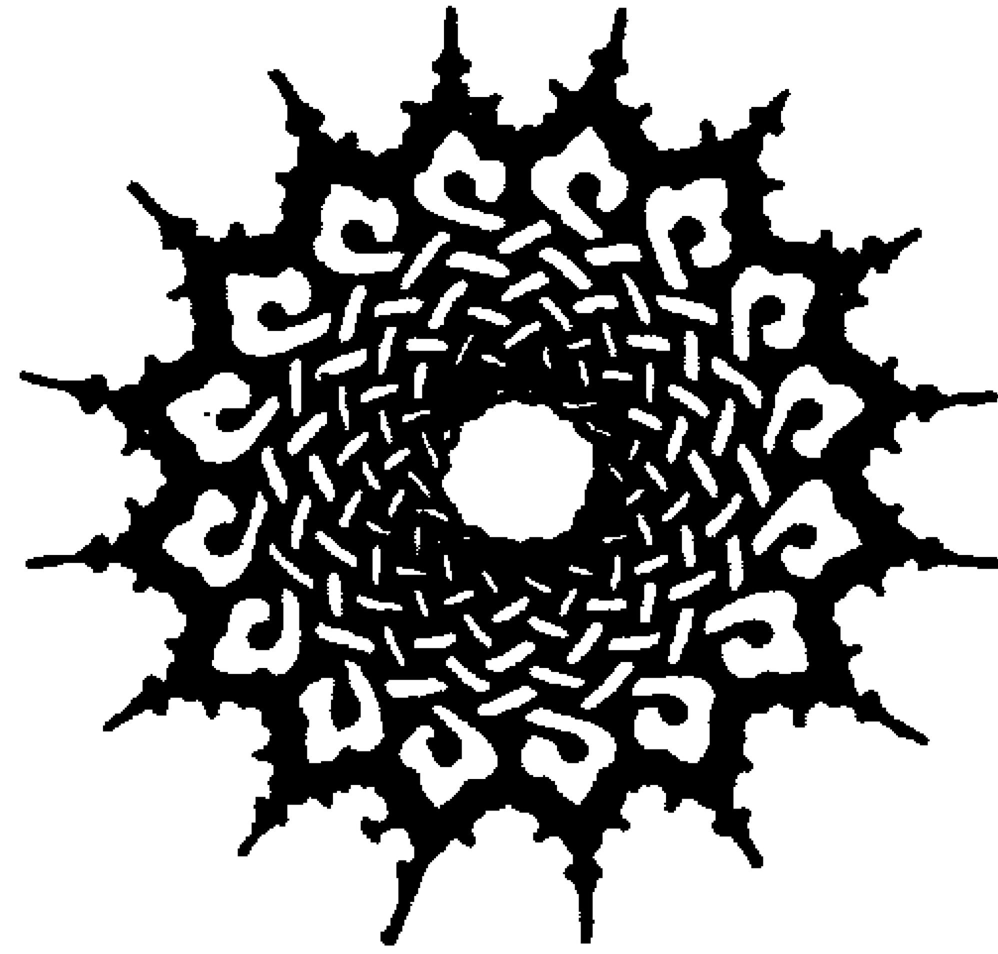
ومن الشروط التي قدمها فيليب الثالث الى شاه ايران عام ١٦١٨ ما يتعلق باحتكار الحرير «ينبغي على التجار الايرانين سواء كانوا مسلمين أو مسحيين ان ينقلوا كل ما يصدرونه من حرير الى هرمز اوغوا. واذا ما نقلوا بضائعهم الى مكان اخر فسوف تتخذ الاجراءات الضرورية لمنعهم»(٣٥).

واخيرا لابد من التنويه الى ان البرتغال شأنها شأن اسبانيا طبقت سياسة اقتصادية في داخل اراضيها عرفت باسم السياسة المعدنية أو السبائكية تقوم على الحصول على الذهب والفضة من المستعمرات بطريق مباشر (المناجم أو الضرائب) وقد انتقلت كميات كبيرة من هذه المعادن الثمينة الى داخل شبه الجزيرة الابيريه. كما منع خروجها قدر المستطاع اعتقادا من ان وفرة هذين المعدنين يعني غنى الدولة وقوة اقتصادها وبالتالي قوتها.

والى جانب هذه السياسة المحلية الداخلية، كانت الدول الاستعمارية بما فيها البرتغال تطبق ما يعرف باسم العهد الاستعماري. ومضمونه ان المستعمرات ليس سوى مناطق قد جعلت لخدمة اقتصاديات الدول الكبرى الاستعمارية. وبالذات لتسهيل الحصول على ميزان تجاري ايجابي. ويتلخص هذا العهد في الميادين الاتية: ان كافة المنتجات والعبيد التي تدخل المستعمرات لابد ان تأتي من الدول الام وعن وطريقها وبسفن تابعة لها. أما عن المنتجات والعبيد التي تصدر من المستعمرات، فيجب ان تذهب فقط للدول الاستعمارية (الام) وعلى سفن تابعة لها. وكذلك لا يمكن للتجار في الدول الاستعمارية شراء منتجات المستعمرات الا من المستعمرات التابعة للدولة واخيرا يحرم على المستعمرات (الاطراف) اقامة صناعات بها(٣٦). ان هذا العهد لوحده يفند كل نظريات التخلف التقليدية التي تعزو التخلف الى اسباب اجتماعية أو اقتصادية أو حتى عرقية أو طبيعية. ان عملية التراكم الاولى التي جرت لصالح المراكز المتقدمة على حساب الاطراف (المتخلفة) هي التي تشكل الميدان الذي تخوض فيه نظرية التراكم على الصعيد العالمي والتي بوسعها وحدها ان تفسر تخلف بعض البلدان وتقدم البعض الاخر(٣٧).

الخاتمة:

ان البرتغاليين اكتفوا طوال قرنين من تاريخهم الاستعماري للخليج العربي بترديد مزاعمهم الكاذبة عن مسؤوليتهم الحضارية والمسيحية، في حين انهم لم يحققوا أي شئ من التقدم في الخليج ولا في مستعمراتهم التي كانت منتشرة في افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية(٣٨) بل على العكس يعود تخلف منطقة الخليج العربي شأنها شأن باقي المناطق المتخلفة في العالم بالدرجة الاساس الى ممارسات الاستعمار البرتغالي والحملات الاستعمارية الغربية الاخرى، والتي لاتزال نراها عملية معاصرة ولكن باثواب جديدة واساليب مختلفة.. ان تحرير الاقتصاد من التبعية للغرب واتباع طرق واساليب انتاج ملائمة، واستراتيجيات تنموية خاصة، هي الضمان الاكيد للتوجه نحو التقدم والرفاه الاقتصادي والاستقرار السياسي والتماسك الاجتماعي.



مصادر البحث

أولا: العربية:

١. بورد وهنري (راهبة البرتغال) القاهرة، شركة فن الطباعة، الجزء الاول.
٢. نجاتي صدقي، «فاسكو دي غاما وابن ماجد» مجلة الاديب، العدد ٤، نيسان ١٩٦٨.
٣. صوت افريقيا الناهضة، عرض نشر بمجلة المبادئ، العدد (١ ــ ٢) السنة الرابعة، يناير، فبراير ١٩٦٤، الرباط.
٤. عبد اللطيف الخطيب «كامونيوس ــ شاعر الفتوحات البرتغالية»، ترجمة نشرت بدعوة الحق، فبراير ١٩٦٤.
٥. عصام عاشور، وسائل التعاون الاقتصادي بين بلدان الخليج العربي وسائر البلدان العربية.
٦. حصاد ندوة الدراسات العمانية، ستة مجلدات (١ ــ ٦) مجموع البحوث والدراسات التي قدمت في الندوة، ذو الحجة ١٤٠٠هـ، نوفمبر ١٩٨٠، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، وفي هذه الندوة ما لايقل عن عشرة ابحاث.
٧. سمير امين «التراكم على الصعيد العالمي ــ نقد نظرية التخلف» دار ابن خلدون، بلا تاريخ.
٨. لبيب شقير، تاريخ الفكر الاقتصادي، القاهرة.
٩. اسماعيل صبري عبد الله، نحو نظام اقتصادي عالمي جديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧.
١٠. محمد عارف الكيالي، معالم الفكر الاقتصادي الاسلامي، مجموعة محاضرات القيت على طلبة قسم الاقتصاد، جامعة بغداد، للاعوام ١٩٨٠ ــ ١٩٨٥.
١١. روبرت لوبيز، «التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية في الغرب»، دار النشر للجامعات المصرية، ١٩٦١، ترجمة توفيق اسكندر.
١٢. غي دوبوشير، «تشريح جثة الاستعمار»، ترجمة ادوار الخراط، دار الاداب ــ بيروت ١٩٦٨.
١٣. مصطفى صادق السباعي، «اشتراكية الاسلام»، دمشق ١٩٥٨، ص١٠٦.
١٤. جيمس دفي، «الاستعمار البرتغالي في افريقيا»، ترجمة د. شوقي حسن المراكبي، القاهرة مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٣.

ثانيا: المصادر الانكليزية:

1. R.B Serjeat, "The Potuguese off the South Arabian Coast," Librairi Du Liban, Beirut, 1974.
2. Gamal Zakaria Kassem, "OMANI, Portuges Conflict in the 16and 17 Centiries, Bulletin of A.R.S (A.L.E.C.S.O) The Institute of Arab Research Studies, V & X, 1979/ 1980 , Cairo
3. John Paxton, "The Statesman's Year Book, 1970-1972, Macmillan.
4. C.R. Boxer, "Portuguese Society in the Topics, 1510-1800, University of Wisconsin Press, 1965.
5. Luella J. Hall, "The U.S.A. and Morocco, 1971, 1776 - 1956.
6. Eneyclopedia A Mericamns No. 27, pp, 441 - 442.
7. Encyclopedia Britanica No. 1-4, pp. 882-882, 1046-1049.
8. The Middle East and North Africa in World Polocies, 2nd edition, Vol 1, 1535 - 1914, Compiled, translated by: J.C. Hurawi, Yale University Press, 1975.

الهوامش

١. محمد عارف الكيالي، معالم الفكر الاقتصادي الاسلامي، عصر صدر الاسلام، محاضرات القيت على طلبة قسم الاقتصاد في جامعة بغداد، كلية الادارة والاقتصاد، للاعوام ١٩٨٠ — ١٩٨٥.

٢. روبرت لوبيز، التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية في الغرب، ترجمة توفيق اسكندر في كتاب معنون (بحوث في التاريخ الاقتصادي)، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ١٩٦١، ص١٤٢.

٣. روبرت لوبيز، مصدر سابق ذكره، ص ١٤٤.

٤. R.B Serjeant "The Portuguese off the South Arabian Coast", Librairie du Liban, Beirut, Printed in London 1974, pp, 3-4.

٥. R.B. Serjeant, " Op. Cit" , p.3.

٦. Gamal Zakaria Kassem "Omani Portugeis Conflict in the 16 & 17 Centuries. Bulletin of Arab Research Studies. Arab Leage Educational, Cultural and Scientific Organization. The Institute of Arab Research stucies V & X 1979/1980 Cairo. p. 143.

٧. س يكنهجام «بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان» حصاد ندوة الدراسات العمانية، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، المجلد السادس، ذو الحجة ١٤٠٠هـ /١٩٨٠، ص١٨٨.

٨. تؤكد بعض المصادر ان البحارة العرب اكتشفوا امريكا قبل كولومبوس بثلاثة قرون، بناء على دراسة قدمها عدة علماء امريكا من اصل صيني هم (هوي ليندلي ولنجواى ياي واخرون) .. انظر.. امين سعيد «الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة» دار الكاتب العربي، بيروت، بلا تاريخ، ص ١٣ — ١٤.

٩. غي دوبوشير «تشريح جثة الاستعمار»، ترجمة ادوار الخراط، دار الاداب، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٣ — ١٤.

١٠. محمد عارف الكيالي «محاضرات في الفكر الاقتصادي لطلبة الاقتصاد» غير منشورة، الدراسات العليا (الماجستير) للعام الدراسي ١٩٨٦/١٩٨٧ كلية الادارة والاقتصاد، جامعة بغداد.

١١. س. يكنهجام، مصدر سابق ذكره، ص ١٨٦.

١٢. مصطفى صادق السباعي، «اشتراكية الاسلام»، دمشق، ١٩٥٨، ص ١٠٦.

١٣. ترجمة الدكتور عبد الرحمن الكواكبي، ص ١٦١.

١٤. غي دوبوشير، مصدر سابق ذكره، ص٤٣ — ٤٥.

١٥. س . يكنهجام، مصدر سابق ذكره، ص ١٨٧.

١٦. كارل ماركس وفرديرك انجلز «نصوص بشأن الاستعمار»، في مصدر غي دوبوشير، السابق ذكره، ص٤١.

١٧. غي دي بوشير، مصدر سابق ذكره، ص ٣٩.

١٨. صلاح العقاد «دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج»، دراسة مقارنة، حصاد الدراسات العمانية، مصدر سابق ذكره، ص٥٩ — ٦٠.

١٩. سعيد عاشور «عمان حصن الامان للعروبة والاسلام»، المجلد الاول لندوة الدراسات العمانية، مصدر سابق ذكره، ص٢٧٠.

٢٠. المصدر نفسه، ص ٢٧٠.

٢١. المصدر نفسه، ص ٢٧٢، ٢٧٣.

٢٢. المصدر نفسه.

٢٣. احمد شلبي «عمان في التاريخ من اقدم العصور حتى الان» المجلد الاول لحصاد ندوة الدراسات العمانية، مصدر سابق ذكره، ص ٢٧ — ٢٨.

٢٤. صلاح العقاد، مصدر سابق، ص ١١٠.

٢٥. احمد شلبي، مصدر سابق، ص ٢٩.

٢٦. المصدر نفسه.

٢٧. Gamal Zakari Kassim, Op. Cit. pp. 145 - 146

٢٨. N.R. Banerjee, "The Iron Age in India", Delhi, ⅟965, pp. 113 - 114.

٢٩. غي بوشير، مصدر سابق ذكره، ص ١٤٦.

٣٠. بيري اندرسون، «البرتغال ونهاية آخر عصر الاستعمار».

٣١. غي بوشير، مصدر سابق، ص ١٣٥.

٣٢. غي بوشير، المصدر نفسه، ص ١٣٥.

٣٣. عبد الرسول سلمان، «معالم الفكر الاقتصادي»، بغداد، ١٩٧٤، ص ٥٠ وما بعدها.

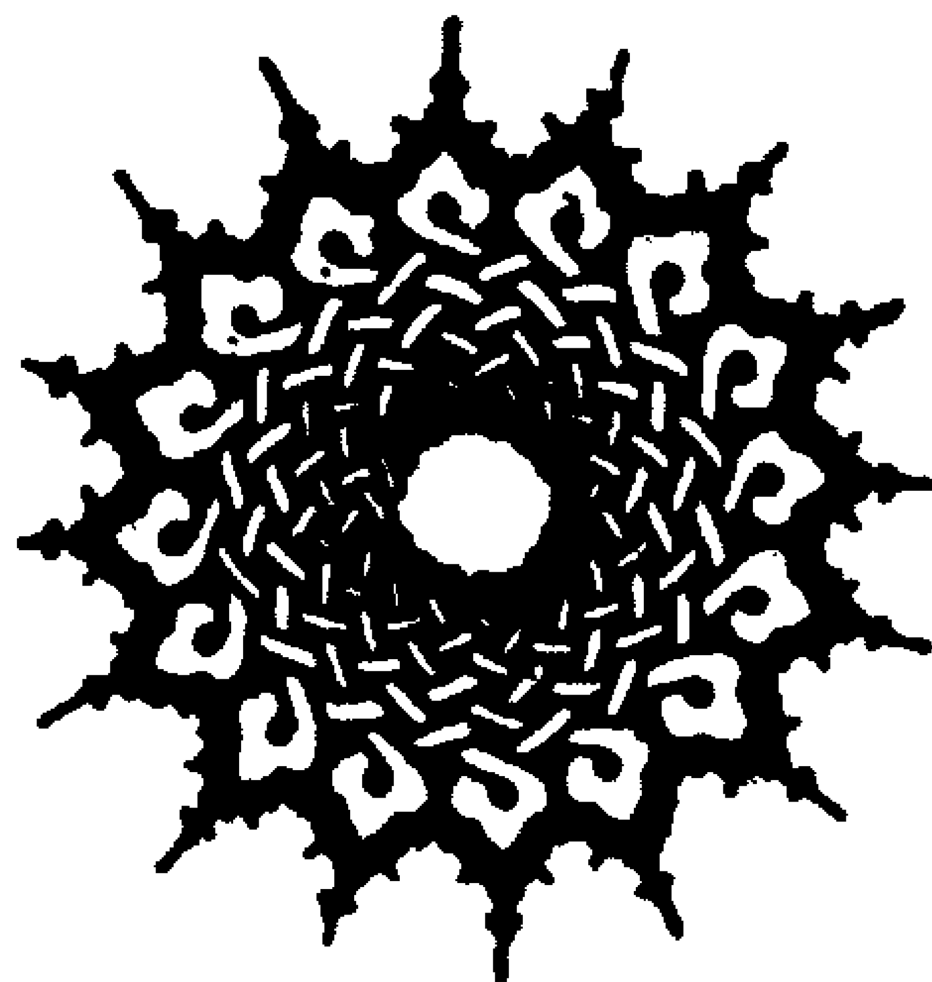
٣٤. صلاح العقاد، مصدر سابق، ص ٧٦ — ٧٧.

٣٥. المصدر نفسه، ص ٧٩.

٣٦. لبيب شقير، «تاريخ الفكر الاقتصادي»، مطبعة الانجلو مصرية، القاهرة، بلا تاريخ، ص١٢٧ — ١٢٨، ومن الجدير بالذكر ان العهد ليس معناه انه قائم على اتفاق أو عقد بين المستعمرات والدول الاستعمارية، وانما هو التزام تلتزم به المستعمرات في علاقاتها مع الدول المستعمرة والعالم الخارجي.

٣٧. هناك تحليل واسع ورائع لكاتب عربي هو الدكتور سمير امين حول هذا الموضوع بعنوان «التراكم على الصعيد العالمي، نقط نظرية التخلف» دار ابن خلدون، ترجمة حسن قبيس، والكتاب على ما يبدة كتب بلغة اجنبية (فرنسية) ولكن للاسف كانت الترجمة ليست على ما يرام.

٣٨. جيمس دفي، «الاستعمار البرتغالي في افريقية» ترجمة د. شوقي حسين المراكبي، القاهرة، مكتبة الانجلو مصرية، ١٩٦٣، ص١٢.



حركة الكشوف البرتغالية وأهدافها

الباحث: بشير حمود كاظم

عند دراسة العوامل التي أدت الى حركة (الكشوف) الجغرافية البرتغالية، نقف على عاملين رئيسين يمكن اعتبارهما اساسا للحركة وهما:

أولا: العامل الاقتصادي:

يعد هذا العامل من أهم العوامل التي اوحت للبرتغاليين ببذل الجهود المتواصلة والمغامرات المكثفة من أجل الوصول الى الشرق، حيث كانت لديهم رغبة شديدة في الاستئثار بالتجارة الشرقية، التي اصبحت موردا كبيرا تنعم به البلاد الاسلامية والمدن الايطالية، بينما تصلهم السلع باسعار مرتفعة لانها تمر في احتكارات عدة ترفع من اسعارها وتجعلها تشح في بعض الاحيان في الاسواق الاوروبية(١). ومن أجل ذلك سعت البرتغال جاهدة للوصول الى طريق بحري يربط بين أوروبا والهند وغيرها من الاقاليم الشرقية للاستعاضة به عن مسالك التجارة القديمة التي تمر من آسيا وشرقي افريقيا الى أوروبا(٢).

ومن خلال ذلك سعى البرتغاليون واعوانهم الجنويون الى تحقيق هدفين مهمين: أولهما: التخلص من احتكار المصريين والبنادقة للتجارة الشرقية والقضاء على الدعامة الاساسية التي يستند عليها اقتصاد مصر واقطار الخليج العربي وغيرها من الاقطار الاسلامية والبندقية وتحقيق الوصول الى طريق جديد لا يمر في البلاد الاسلامية يحصلون من خلاله على المنتجات الشرقية بأقل الاثمان. والهدف الثاني هو تعريض الاقتصاد في البلاد الاسلامية لحالة من الانهيار والتدهور، وفعلا نجح البرتغاليون في تنفيذ مخططهم العدواني بعد معرفتهم لطريق رأس الرجاء الصالح واصبحوا يحتكرون تجارة الشرق على اختلاف انواعها كالتوابل والبخور والعطور والعقاقير الطبية والاقمشة الحريرية، بعد أن وصلوا الى مراكز صنعها واخذوا ينقلونها الى عاصمتهم لشبونة، ثم يقوم التجار الاوروبيون بتوزيعها الى أسواق أوروبا التي تحتاجها. ومن أجل ذلك عملوا على تقوية مراكزهم التجارية في المحيط الهندي

ومنعوا سفن المسلمين من مزاولة نشاطها التجاري فيه، وقد كشفوا من خلال مواقفهم هذه اغراضهم الاقتصادية اللاانسانية من خلال اعمالهم العدوانية ضد اهالي المناطق التي وصلوا اليها وعمليات النهب والسلب التي كان التجار المسلمون يتعرضون لها على ايديهم(٣). وقد عبر البرتغالي (عمانويل الاول ١٤٩٥ ـ ١٥٢١م) الذي قامت في عهده أول حملة بحرية الى الشرق ـ في خطبته ـ عن أغراض الحملة وذلك عندما سفرها حيث قال: «ان الغرض من اكتشاف الطريق البحري الى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق»(٤).

ثانيا: العامل الديني:

يعد العامل الديني من العوامل التي تشكل اثرا فعالا في حركة الكشوفات البرتغالية حيث ان القضاء على الوجود الاسلامي في الشرق والمحيط الهندي كان غاية يطمع البرتغاليون الى تحقيقها وتباركها بابوية روما(٥). ويرجع هذا العداء الى تاريخ الصراع بين المسحيين والمسلمين في شبه جزيرة (ابيريا) في العصور الوسطى.

كانت الاهداف البرتغالية الانتقامية التحصينية موجهة نحو المسلمين حيث كان البرتغاليون يسعون للوصول الى مملكة القديس يوحنا. حاكم الحبشة المسيحي، الذي كان له شخصية اسطورية تناقلتها الشعوب المسيحية في أوروبا في ذلك الوقت ومن ثم يعقدون معه تحالفا للالتفاف حول البلاد الاسلامية. وكانوا يظنون انهم اذا بحروا جنوبا بمحاذاة ساحل المغرب فانهم سوف يصلون الى نهر السنغال الذي يتصل بنهر النيل، حيث يتمكنون بعدها من الوصول بمراكبهم هذه الى المملكة الحبشية التي توفر لهم تحقيق هدفهم في الاطباق على المسلمين من الشرق(٦).

وكانت المساعي البرتغالية تحظى بتأييد وتشجيع من البابا في روما الذي كان يصف المسلمين بمرض الطاعون حيث جاء ذلك في المرسوم الذي بعث به عام ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م الى الامير هنري الملاح والذي قال فيه: «ان سرورنا لعظيم ان نعلم ان ولدنا العزيز، هنري امير البرتغال قد سار في خطى ابيه، الملك جان (Jan) بوصفه جنديا قديرا من جنود المسيح ليقضي على أعداء الله وأعدء المسيح من المسلمين الكفرة..»(٧).

وتأكيدا للروح الصليبية لرحلات البرتغاليين الجغرافية فقد أمر البابا بان ترسم صورة الصليب على اشرعة السفن وعلى ملابس البحارة والمشتركين في هذه الرحلات كما كان يعلق في مقدمة السفينة علما رسم عليه صليب ضخم(٨).

وكان رفع الشعار الديني واستعمال القوة الضاربة ضد التجار المسلمين هو الذي دفع بعض الكتاب والمؤرخين العرب الى وصف الرحلات البرتغالية في الشرق بأنها حروب صليبية جديدة، وانها رد فعل لوصول المسلمين الى شبه جزيرة ابيريا وللحروب الصليبية في العصور الوسطى، وليس كما قالت بعض المراجع الاوروبية: بأن حركة البرتغاليين هذه الحركة علمية بحته ذات مضامين

انسانية(١).

وزيادة على هذين العاملين المذكورين اعلاه، فان هناك عامل آخر يأتي بعدهما من حيث الاهمية وهو الهدف السياسي الذي يتضمن رغبة البرتغال بتأسيس امبراطورية توسعية في افريقيا واسيا وكان هذا الهدف واضحا من خلال مساعي البرتغال الحربية في احتلال المراكز المهمة في اعقاب وصولهم الى الهند، وانشاء منصب نائب الملك فيها عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م حيث كان هذا بداية لاقامة حكومة برتغالية في الشرق، لاسيا وان هذا الطموح صار يراود حكومة البرتغال التي لم يكن بامكانها ان توسع حدودها البرية في أوروبا، فاتجهت نحو البحر لزيادة دائرة نفوذها التجاري الاستعماري.

التقدم البرتغالي نحو الشرق:

في بداية القرن الخامس عشر الميلادي كانت المعلومات عن وسط اسيا وشرقها مجهولة أو غامضة بالنسبة الى الاوروبيين، ومنذ ذلك الوقت اجهد الاوروبيون أنفسهم في سبيل الوصول الى المنطقة المذكورة، وكان الامير هنرى الملاح. (١٣٩٤م ــ ١٤٦٠م) أول من شجع على القيام بالاعمال الجغرافية والرحلات، حيث أرسل في سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م بعوثه الى سواحل افريقية الغربية حيث اهتدى من خلالها الى بلاد (غانه) وانتزع تجارتها من أيدي العرب.

وقد استفاد البرتغاليون في رحلاتهم الجغرافية من خبرة الجنويين الذين كان لهم السبق في الطواف حول ساحل افريقية منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي حيث كان هدفهم من ذلك يتجلى بالانفراد بتجارة الشرق ومنافسة البندقية التي أستأثرت بتجارة البحر المتوسط ومصر والشرق الادنى بسبب علاقاتها الوثيقة مع حكومة المماليك، وعندما واصل الجنويين جهودهم فانهم وصلوا الى بعض اجزاء الساحل الغربي لافريقيه في مواجهة جزر كناري(٢). وبعد ذلك تولت البرتغال اكمال الجهود الاستكشافية مستعينة بالعلوم والمعارف العربية كالمرشدات الملاحية والخرائط البحرية والبوصلة والاصطرلاب التي ورثوها بعد استيلائهم على مدينة (سبته) سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م(٣)، فضلا عن كتابات الجغرافيين العرب مثل الادريسي وابن بطوطه وغيرهم التي تتضمن وصف المدن والبحار الشرقية. ويذكر بعض المؤرخين أن أول رواد المحيط الاطلسي الغربيين كانوا من الجنويين وان أول من حاول الوصول الى الهند بالدوران حول افريقيه الغربية من الاوروبيين هو من مدينة جنوه، كما ان الاسطول البرتغالي كان يعتمد على الجنويين في مراحل انشائه وان كرستوف كولومبوس الذي اكتشف امريكا اثناء محاولته الوصول الى الهند بالابحار غربا من السواحل الاوروبية الغربية هو من الجنويين(٤).

أما الدكتور أنور عبد العليم فقد أشار الى أن العرب استطاعوا معرفة السواحل الافريقية الجنوبية

والوصول الى الهند قبل أن يبدأ هنري جهوده الكشفية بزمن طويل وأوضح أن وثيقة عربية لجغرافي عربي من غرناطة دو ابن سعيد (ت١٥٠٠م) الذي ألف كتابا بعنوان «جغرافية الاقاليم السبعة» ورد فيه ان ملاحا عربيا يدعى ابن فاطمة، دار حول افريقية من الغرب الى الشرق ووصف سواحل السنغال ومدغشقر(١٣).

وقد اعتمدت البرتغال في محاولاتها الاولى للوصول الى الشرق على الجواسيس في الحصول على المعلومات الكافية عن وسط آسيا وشرقها واستخدموا في ذلك العمل البحارة واليهود الذين يتكلمون اللغة العربية حيث ارسلتهم البرتغال الى الاقطار الشرقية لجمع المعلومات عن موانئها وحركة التجارة فيها والطرق البحرية في بحارها وامكانية الوصول اليها بطريق مباشر للوصول الى مملكة القديس يوحنا، في شرق افريقية ومعرفة ما اذا كانت بلاده تتصل بالبحر واين تقع مواطن الفلفل والقرفة وغيرها من التوابل والبهارات التي يؤتى بها الى مدينة البندقية من بلاد العرب وتبعا لذلك فقد صور البرتغاليون من صناعتهم للسفن الحربية والاسلحة البارودية(١٤)، وتبنوا مهمة ارسال الجواسيس الى الشرق نيابة عن الاوروبيين. حيث ارسلت البرتغال سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م الجاسوسين (الفونسو دي بيفا Alfonsodepava) و (بيدرو كوفلهام Pedrode Govilham). وقد ابحر هذان الجاسوسان من البرتغال بعد ان تزودا بالمعلومات والخرائط المتوفرة لدى الملك البرتغالي لتسهيل مهمتها، ووصلا الى رودس ثم الى الاسكندرية فالقاهرة، وتوجها بعدها الى عدن وفي طريقهما حصلا على معلومات عن تجارة قاليقوط ثم ابحرا الى سواكن فعدن حيث افترقا، فذهب كوفلهام الى الهند وبيفا الى الحبشة(١٥)، وخلال رحلتهم الجاسوسية هذه فقد ارسلوا تقاريرهم الى ملك البرتغال التي تتضمن معلومات كافية عن تجارة الهند والمسالك البحرية والخائط والمعلومات التجارية عن الرياح الموسمية(١٦).

واصل الملك البرتغالي (حنا الثاني) العمل الجغرافي والمغامرات الاستكشافية التي بدأها هنري الملاح من قبله لغرض الوصول الى الهند، في نهاية شهر آب ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م ارسل بعثة برئاسة الملاح البرتغالي الشهير (برتليمو دياز Bartholomeo Diat) لمواصلة الابحار في اتجاه الجنوب والدوران حول افريقية لتحقيق اهدافهم التي سبق ذكرها. وقد نجح هذا الملاح في التوغل بحذاء الساحل الافريقي رغم الصعوبات التي تعرضت لها بعثته ووصل بعدها الى منطقة تسمى خليج الجوا (Algoa)(١٧) في جو عاصف حيث سماها برأس الزوابع (رأس العواصف). ويذكر أنه وصل الى اقصى جنوب القارة دون أن يعرف ذلك ثم استمر بالدوران حول رأس العواصف الذي سماه الملك البرتغالي فيما بعد (برأس الرجاء الصالح) لانه بعث الامل في نفوس البرتغاليين من أجل الوصول الى الهند، ولكن بعثة دياز عادت في عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م الى لشبونه بسبب تمرد البحاره وعصيانهم وسوء الاحوال الجوية وشدة الرياح والعواصف التي ارغمتهم على العودة بنفس الطريق الذي جاءوا منه(١٨).

اعدت البرتغال حملة أخرى بقيادة فاسكو دي جاما (Vasco de Gama) الذي أبحر في عام ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م بثلاث سفن في رحلة استطلاعية متجها الى الساحل الغربي لافريقيا لمواصلة ما

عرفه (بارتو لوميو دياز)[١٩]، استطاع خلالها دي جاما من الوصول الى جزيرة القديس جورج القريبة من موزمبيق في الاول من آذار عام ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م[٢٠]، ثم وصل بعد ذلك الى موزمبيق، وكانت خطة دى جاما في أول الامر استخدام سياسة ودية مع سكان المناطق التي يمر بها، وعقد صداقات مؤقتة مع شيوخ العرب شرقي افريقيا، حتى اذا ثبت اقدامه في المنطقة نفذ خطته الصليبية مع العلم ان حكومة البرتغال كانت قد اصدرت تعليمات الى الملاحين في حملاتهم الاولى الى الهند، أوصتهم فيها بحسن المعاملة مع سكان المناطق التي يصلون اليها وعدم استخدام العنف والقسوة واخفاء اسلحتهم تحت طيات الملابس وعدم التظاهر بها لكسب مودة الاهالي وصداقتهم الى ان يثبتوا اقدامهم ثم ينفذوا خطتهم الصليبية المقصودة[٢١].

وقد اكد (سونيا هاو) تلك السياسة وذكر بان دى جاما اتبع الاسلوب السياسي المرن مع حاكم (قاليقوط) الذي باعه أنواع رديئة من التوابل وباسعار عالية لكي يظهر للسكان ان معاملة البرتغاليين حسنة واسلوبهم مرضى مع التجار[٢٢].

واستقبل دى جاما في أول الامر استقبالا وديا حتى ان امير موزمبيق استضافه ورد اليه الضيافة بان زاره في سفينته، ولكن سرعان ما تغيرت نظرة العرب اليه عندما اكتشفوا غاياته وعرفوا بأنه برتغالي صليبي.

وعندما شعر دى جاما بتغير الموقف اسرع الى مراكبه هاربا نحو الشمال، الا ان الاخبار كانت قد سبقته الى (كلوه) و(ممباسا) حيث لقي فيهما جفاء ايضا، الا ان (مالندي) رحبت به بسبب الخلاف الذي كان قائما بينها وبين ممباسا[٢٣].

وقد اعد بعض الكتاب المؤرخين ان نهاية القرن الخامس عشر الميلادي هو نهاية العصور الوسطى وفاتحة للعصر الحديث، حيث استطاع البرتغاليون في ختامه من الدوران حول افريقيه عن طريق رأس الرجاء الصالح والوصول الى مصدر التوابل، لذلك كانت السفن البرتغالية أول سفن أوروبية دخلت الى الهند، وان اغلب الكتابات التي تناولت الاستكشافات الجغرافية أكدت ان وصول الاسطول البرتغالي الى الهند، كان بمساعدة الملاح العربي احمد بن ماجد، الا ان هذه الآراء التي أوردها المعاصرون ما تزال تثير التساؤل عن الدوافع التي دعت ابن ماجد الى القيام بارشاد البرتغاليين في الوصول الى الهند.

ولذلك يمكن للباحث أن يعد تاريخ وصول البرتغاليين الى رأس الرجاء الصالح ومن ثم دخولهم المياه الهندية، نهاية للعصور الوسطى وفاتحة للعصر الحديث.

وأول من أشار الى اسم الملاح الذي أرشد فاسكو دى جاما بالوصول الى الهند هو المؤرخ العربي الشهير قطب الدين النهروالي في البرق اليماني حيث قال: «وقع في أول القرن العاشر من الحوادث الفوادح النوادر، دخول الفرتغال (البرتغال) اللعين من طائفة الفرنج الملاعين الى ديار الهند وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبته في البحر، ويلجون في بحر الظلمات، ويمرون بموضع قريب من جبال القمر.. ويصلون الى المشرق، ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضي، احد جانبيه جبل

والجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الامواج، لا تستقر به سفائنهم ولا ينجو منهم أحد، واستمروا على ذلك مدة، وهم يهلكون في ذلك المكان، ولا يخلص من طائفتهم احد الى بحر الهند، الى ان خلص منهم غراب الى الهند فلا زالوا يتوصلون الى معرفة هذا البحر الى ان دلهم شخص ماهر يقال له احمد ابن ماجد، صاحبه كبير الفرنج ــ وكان يقال له ملندى ــ وعاشره في السكر فعلمه الطريق في حال سكره، وقال لهم، لا تقربوا الساحل من ذلك المكان، وتوغلوا في البحر ثم عودوا، فلا تنالكم الامواج، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثيرمنمراكبهم، فكثروا من بحر الهند»(٢٤).

وكان النهروالي المؤرخ العربي الوحيد الذي ذكر اسم ابن ماجد دليلا للبرتغاليين في توجههم نحو الهند، ورغم كون النهروالي من مؤرخي القرن السادس عشر الميلادي، الا ان هناك شك كبير في ما أورده، عن رواية الخمر والسكر وقد تكون مدسوسة على ابن ماجد الذي اتصف بتدينه ومتانة خلقه وعفته(٢٥). ويذكر عن المسلمين في ذلك الوقت انهم لا يقبلون مسيحي لا يعرفون طعامه وشرابه(٢٦)، وفسر بعض المؤرخين والكتاب اتصال ابن ماجد بفاسكو دى جاما في ميناء مالندى بتفسيرات عدة نذكر منها ما يأتي:

١ ــ يرى هؤلاء ان هذا الاتصال كان تلبية لدعوة دى جاما الذي اتبع سياسة توطيد الصداقات مع اهالي الموانئ التي يصل اليها حيث يقيم دعوة لحكام تلك الموانئ ويدعو معهم ملاحي السفن الراسية فيها(٢٧)، وهذه سياسة سار عليها البرتغاليون في تلك الفترة من اجل الطمأنينة في نفوس اهالي المناطق التي يصلون اليها واكسابهم ثقتهم وضمان عدم التعرض لمقاومتهم لتسهيل مهمتهم.

٢ ــ والرأي الثاني الذي يرى زيارة ابن ماجد لاسطول فاسكو دى جاما كان مجاملة من ابن ماجد لصديقه ملك مالندى الذي رحب بالبرتغاليين خوفا أو ضعفا(٢٨) أو انه (حاكم مالندى) كان يريد توطيد علاقته مع البرتغاليين بهدف مساعدته ضد حاكم ممباسا(٢٩) حيث كان بينهما عداء سابق، ولهذا طلب ملك مالندى من دى جاما المروربمالندى عند عودته من رحلة الهند ليبعث معه وفدا رسميا الى ملك البرتغال للتحالف. معه(٣٠)، ومن اجل ذلك كان على ابن ماجد ان يجامل ملك مالندى ويستجيب له في الاتصال بالقائد البرتغالي دى جاما بعد ان طلب من ملك مالندى مرشدا يرافقه في طريقه الى الهند(٣١).

٣ ــ والتفسير الثالث مفاده ان مقابلة ابن ماجد كانت استجابة لرجاء ملك مالندى له بعد ان تطور الموقف في العلاقات بين ملك مالندى وبين دى جاما، حيث ان هذا الاخير طلب من ملك مالندى ان يزوده ببحار عارف بمسالك المحيط الهندي ويرشده الى الطريق الى الهند، الا ان ملك مالندى اهمل طلب دى جاما ولم يكترث اليه فتوترت العلاقات بينهما وعندما زار احد خواص ملك مالندى الاسطول البرتغالي احتفظ دى جاما به رهينة عنده الى ان يلبي ملك مالندى طلبه، لذلك بادر الملك الى ارســـال ابن ماجد واعتذر عن تقصيره ثم عادت العلاقات الى سابق عهدها(٣٢).

٤ ــ وهناك تفسير آخر لدى بعض المؤرخين الاوروبيين وبالاخص المستشرق الفرنسي فران

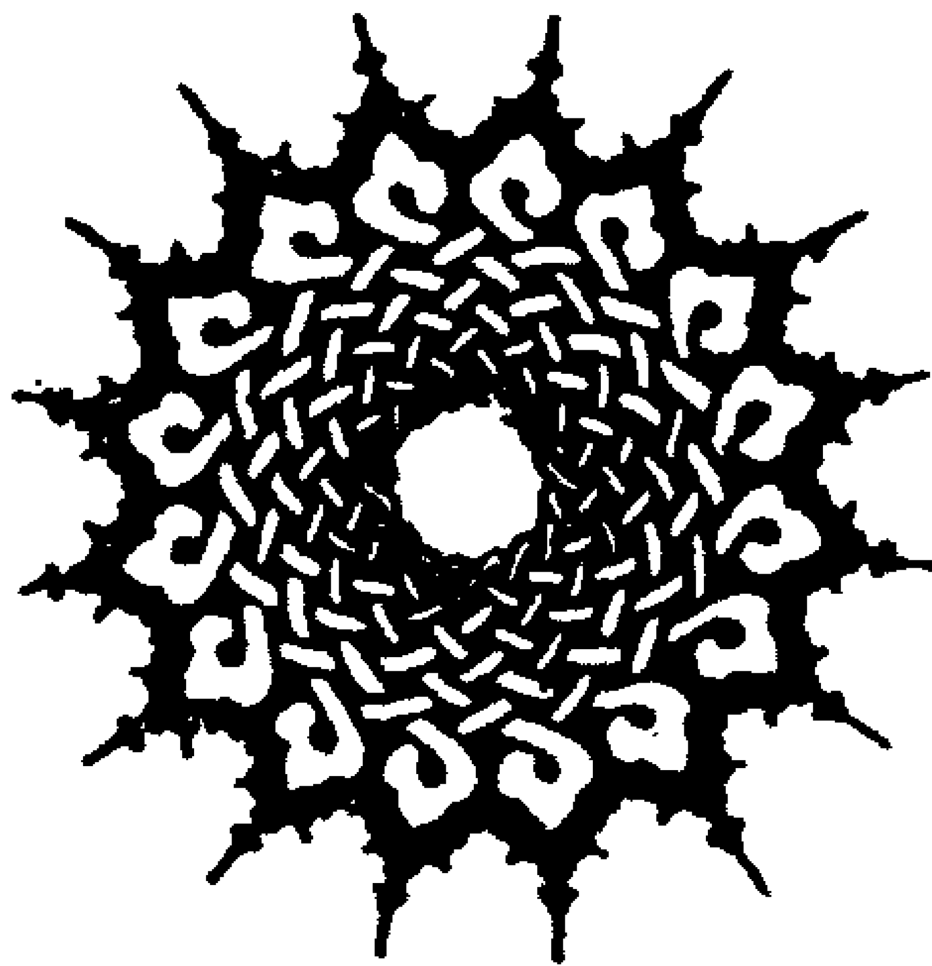
(Ferrand) يعلن فيه زيارة ابن ماجد للاسطول البرتغالي ومقابلة دى جاما واعطائه معلومات عن الطريق للوصول الى الهند، كان لقاء مكافأة مجزية وتعويض كبير من المال حصل عليه ابن ماجد عوضا عن الخدمات التي قدمها لهم(٣٣) واعتمد المستشرق الفرنسي فران فيا ذهب اليه حول تسمية الشخص الذي قاد اسطول دى جاما من مالندى الى موطن التوال في كاليقوط على النص السابق الذي أورده، النهروالي(٣٤).

وكتب عن ابن ماجد بشئ من التفصيل اشهر مؤرخي البرتغال من رجال القرن السادس عشر الميلادي وهو جوا دى بروس الذي كان مصاحبا لفاسكو دى جاما في رحلته حيث قال: «عندما كان فاسكو دى جاما في (مالندى) جاء بعض التجار الوثنيين من (كنهايت) الواقعة بكجرات (الذين كانوا موجودين في ميناء مالندى في تلك الفترة) لزيارته على ظهر السفينة وكان معهم مسلم عربي يدعى (معلم كاناكا). وكان ذلك لقبا هنديا لاسد البحر ابن ماجد المعلم. ورضى هذا الشخص بان يصحبنا نظرا لتلك المتعة التي احسن بها في صحبته رفاقنا وبغية رضاء الملك المالندى الذي كان يبحث عن دليل سفينة للبرتغاليين يدلهم على طريق الهند، فلما جرى الحديث بينه وبين فاسكو دى جاما، اعجب بمعلوماته واطلعه على مصور لجميع شواطئ الهند كما يعرفها المسلمون مع خطوط الطول والعرض..»(٣٥).

وأكدت المصادر التركية ان الملاح العربي احمد ابن ماجد الذي كان يسمى (معلما بحريا) هو الذي صاحب الاسطول البرتغالي الى الهند، عندما كان موجودا انذاك في ميناء مالندى(٣٦).

وينفي بعض المؤرخين العرب قيام احمد ابن ماجد الملاح العربي المشهور بمساعدة البرتغاليين الصلبيين في وصولهم الى الهند(٣٧).

وعلى اية حال فان قيام ابن ماجد بمساعدة البرتغاليين في الوصول الى الهند ربما كان بسبب عدم معرفة الملاح العربي لنيات البرتغاليين الحقيقية في القضاء على تجارة الشرق.



الهوامش

١. عبد الحميد البطريق: «التاريخ الاوروبي الحديث»، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٧، ص٤١.

٢. W .H Morelan: Op, Cit, P. 3.

٣. السيد مصطفى سالم: «الفتح العثماني الاول لليمن»، القاهرة، ١٩٦٩، ص٤٦.

٤. المصدر نفسه، ص٤٧.

٥. البطريق: المصدر السابق، ص ٤٧.

* ان المقصود بمملكة القديس يوحنا هو مملكة الحبشة التي كان الاوروبيون يتسامعون عنها ويتناقلون اخبار قوة حاكمها يسعون لمحالفتها لعلهم يتخذونها قاعدة في قلب افريقيا. (المصدر نفسه، ص٤٦).

٦. سالم: المصدر السابق، ص ٤٦.

٧. عبد العزيز الشناوي: «المراحل الاولى للوجود البرتغالي» لجنة تدوين تاريخ قطر، ج٢، المصدر السابق، ص٦١٨.

٨. حسن صبحي: «التاريخ الاوروبي» ج١، الاسكندرية، ١٩٧٥م، ص ٦٨.

٩. الشناوي: المصدر السابق، ص ٦١٥.

* هنرى الملاح: هو الابن الثالث لملك البرتغال «يوحنا الاول» وكان هنري شديد التعصب للمسيحية، فاهتم منذ صباه بالدراسات الجغرافية والفلكية حيث كان يجمع الخرائط الجغرافية ويدرسها دراسة دقيقة، ويدرس الاجرام السماوية وحركة الرياح، وكانت روحه الصليبية مسيطرة عليه وتقوده للمغامرة التي قام بها لنشر المسيحية في افريقية (البطريق، المصدر السابق، ص٤٨).

١٠. حسن احمد محمود: «التهديد البرتغالي لسواحل جزيرة العرب» مجلة المؤرخ العربي، بغداد، العدد/١٢، السنة ١٩٨٠، ص٢١٨.

١١. محمود: المصدر السابق، ص ٢١٨.

١٢. علي التاجر: «الربان احمد بن ماجد»، مجلة العرب، القاهرة، ١٩٨٢، السنة الثالثة، ص٢٨٨.

١٣. عبد العليم: «ابن ماجد الملاح» سلسلة اعلام العرب، العدد ٦٣ السنة ١٩٦٧، ص٧٥.

١٤. حسن صالح شهاب: «فن الملاحة عند العرب» دار العودة، بيروت، ١٩٨٢، ص٤٦.

١٥. Serjeant, R.B. The portuguese off the south Arobian Coast, (Oxfoed University press 1963) P. 40.

١٦. محمود الغول: «الصراع بين العرب والبرتغال في شرق افريقيا» مجلة العربي، العدد ١٤٤، لسنة ١٦٢، ص١٠٠.

١٧. البطريق: المصدر السابق، ص ٦١٥.

١٨. صبحي: المصدر السابق، ج١، ص ٧٠.

١٩. شهاب: «فن الملاحة عند العرب» ص٤٦.

٢٠. عبد ربه: المصدر السابق، ص ٢٠٦.

٢١. سونيا هاو«في طلب التوابل» ترجمة محمد عزيز رفعت، القاهرة، ١٩٥٧، ص ١٠٢ — ١٠٣

٢٢. المصدر نفسه والصفحة.

٢٣. الفول، المصدر السابق، ص ١٠٠.

٢٤. قطب الدين النهروالي: «البرق اليماني في الفتح العثماني» اشرف على طبعه احمد الجاس طه، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٨ — ١٩.

٢٥. احمد ابن ماجد: «ثلاث ازهار في معرفة البحار» تحقيق ونشر تيودور شوموفسكي، ترجمة محمد منير موسى، القاهرة، ١٩٦٩، ص١٨ — ٥٢، كذلك انور عبد العليم «ابن ماجد الملاح» ص ٥٢.

٢٦. محمد ياسين الحموي : «الملاح العربي ابن ماجد» ص١١.

٢٧. سونياهاو: «في طلب التوابل» ص ١٩٣ — ١٩٤.

٢٨. المصدر نفسه: ص ١٦٩.

٢٩. الفول: المصدر السابق، ص ٢٠٣.

٣٠. سونياهاو: المصدر السابق، ص ٢٠٣.

٣١. نفس المصدر والصفحة.

• وذكر سونياهاو بان العلاقات كانت قد توطدت بين القائد البرتغالي وملك مالندى وتبادلوا الهدايا فيا بينهم وكان من بين الهدايا التي اعدها ملك مالندى كتلةمن العنبرالهندي طولها اكثر من متر وعرضها كعرض خاصرة الرجل كما ان دى جاما قدم له عشرة صناديق تحتوي على الهدايا التي كان قد اعدها قبيل رحلة الطواف حول طريق رأس الرجاء الصالح.

٣٢. عبد العليم: «ابن ماجد الملاح» ص ٥٢.

٣٣. الحموى: «الملاح العربي احمد ابن ماجد» ص ١٢.

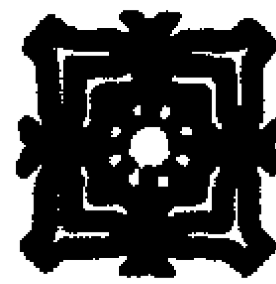
٣٤. نفس المصدر والصفحة.

• انها صيغة مستعارة من (كانا كان) أي رياضي، فلكي، كاتب، والمعلم كاناكا تعني معلم الملاحة الفلكية، وان بعض تجار مالابار في الهند كانوا يسترشدون برأيه في اسفارهم. فكاناكا اسم مهنه، ولقب هندي لاسد البحر احمد بن ماجد. هذا التوضيح للمستشرق الفرنسي فيران، منقول من كتاب الحموي: «الملاح العربي احمد ابن ماجد» ص١٢.

٣٥. الحموي: المصدر السابق، ص ٩٠.

٣٦. محمد صفوة بك: «وثائق عثمانية عن الشرق» مجلة المجمع العلمي العثماني، استنبول، السنة الرابعة، ص١٥٢١.

٣٧. انور عبد العليم: «الملاحة وعلوم البحار عند العرب» سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٣، ١٩٦٩، ص١٣٢.





الاطماع البرتغالية في المقدسات الاسلامية والمعجزة الربانية في صدهم كما وردت في الوثائق البرتغالية

د. فالح حنظل

بسم الله الرحمن الرحيم

ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول.

صدق الله العظيم

في عهد عبد المطلب وقع حادث عظيم خلده القرآن الكريم وأسهبت المصادر التاريخية في الحديث عنه، فقد حاول أبرهة ملك الاحباش غزو الحجاز وفتح مكة وتهديم الكعبة، ثم جاءت المعجزة حين أرسل الله عليهم من البحر طيرا أبابيل مع كل طائر ثلاثة أحجار القوا بها علي جيش الكفرة فأهلكوه.

هذه المعجزة تكررت بعد الف عام عندما حاول حاكم الهند والقائد العام للقوات المسلحة البرتغالية هناك (أفونسودى البوكيرك) مهاجمة الحجاز مكة المكرمة والمدينة المنورة.

ومن الوقائع التاريخية اللاحقة يعتبر التواجد العسكرى البرتغالي في جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي والذى امتد لاكثر من قرن من الزمان ١٥٠٠ ـ ١٦٣٠م، امتدادا طبيعيا للحروب الصليبية تلك الحروب التي دعا اليها البابا ايريان الثاني عام ١٠٩٥م فحمل الصليب ونادى.. «هذه هي ارادة الله».

حيث لم ينته الصراع بين الشرق والغرب باستعادة المسلمين اراضيهم عام ١٢٩١م ذلك أن دولة أوروبية جديدة ظهرت علي مسرح الاحاث عام ١٤٠٠م وهي دولة البرتغال، والتي تمكن ملاحوها من الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح ووصلوا الي المياه الاقليمية العربية عام ١٥٠٧م ومنها تمكنوا من الوصول الى الهند.

وفي الهند اكتشفوا سر التجارة المربحة للبضائع الهندية التي تباع في أوروبا هذا بالاضافة الى أن حركة الكشوفات البرتغالية استهدفت في ظاهرها قتل التجارة العربية ـ الهندية الا أنها في باطنها كانت تجسيدا جديدا للحركة الصليبية في جميع خطـواتها وافكارها، ذلك أنها ركزت علي القيام بحصار اقتصادى على الممالك الاسلامية في جنوب الجزيرة العربية والحجاز والسودان ومصر ودول الخليج العربي.

ولغرض السيطرة على اليمن والحجاز والسودان ومصر لذلك أصبح البحر الاحمر هدفا استراتيجيا مهما للبرتغال فأن السيطرة عليه تعني ضربة قاصمة لليمن والسودان والحجاز ومصر.

فلضمان النجاح العسكرى في السيطرة على البحر الاحمر كان لابد للبرتغال من احتلال مضيق باب المندب أو حصار هذا الباب كهدف عسكرى استراتيجي متقدم، كما وأنه لغرض السيطرة على باب المندب كان لابد من السيطرة على عدن في اليمن وسواكن في السودان والحجاز وبعدها مصر.

وعلى هذا الاساس قامت الحملة العسكرية البرتغالية لعام ١٥١٣م والتي نذكر تفاصيلها فيما يلي :ـ

في عام ١٥٠٠م اجتاحت الممالك الاسلامية حملة برتغالية كبرى حاولت السيطرة على البلاد الاسلامية فقاتلهم العرب والمسلمون بكل ما استطاعوا من قوة، الا أن عام ١٥١٣ الميلادى شهد تطورا كبيرا في ميزان القوى ذلك ان وجودالقائد السفاح البرتغالي افونسودى البوكيرك قد ساعد على استيلاء البرتغال على ساحل الهند الغربي.

كما قرر (البوكيرك)القيام بمغامرة كبرى ذلك أن يقوم بمهاجمة المدينة المنورة ويدخل الى الحرم النبوى الشريف وينبش القبر الطاهر ويخرج الجثمان المحمدى الزكي.

فاذا تم له ذلك قايضه بكنيسة القيامة في القدس، ثم يطلب بعدها مليون متطوع أوروبي لينزلوا في السودان ومن هناك يقوم بتحويل مجرى نهر النيل ليصب في البحر الاحمر وبذلك تموت مصر عطشا وجوعا فقام بالاعداد للخطة وسار فيها الى أن وصل المياه الاقليمية للحجاز، وهنا وقعت المعجزة الربانية وتكررت قصة أصحاب الفيل ثانية.

ففي ٨/فبراير/١٥١٣ أقلع افونسودى البوكيرك من ميناء (كوا) في الهند على راس حملة بحرية ضخمة مكونة من عشرين سفينة ومدمرة حربية بقيادة عشرين ضابطا وعلى متنها ١٧٠٠ جندى برتغالي و٨٥٠ هنديا ملباريا.

وقد وصل الاسطول اولا الى جزيرة « سقطرة» حيث استقبله سكانها المسيحيون وزودوه بالماء والمؤن، ثم اتجه نحو هدفه الاول وهو مدينة عدن عاصمة حضرموت، وقد شاهد أهل وادى (أبين) وهو واد يقع الى الشرق من عدن على ساحل البحر العربي ـ شاهدوا الاسطول البرتغالي وهو يتوجه نحو عدن فهالهم المنظر وعلموا بأن البرتغاليين سيهاجمون عدن، فجهزوا زورقا سريع الحركة اوفدوا فيه جماعة من عندهم تمكنوا من الوصول الى عدن في منتصف الليل قبل وصول طلائع القوة البرتغالية الى هناك وتوجه الوفد الى قصر حاكم عدن الامير « مرجان الظافرى» وأخبروه بأمر القوة المتجهة اليه، فساد الاضطراب والهلع في المدينة وهرع ربابنة السفن الموجودة في الميناء يلتمسون من الامير أن يسمح لهم بافراغ حمولة سفنهم وترك الميناء لكن الامير منع ذلك وكانت خطتة الابقاء على السفن التجارية هناك لتشكل حاجزا يمنع البرتغاليين من الاقتراب من ساحل المدينة وفي ليلة ١٥١٣/٣/٢٤ وصلت قوات البوكيرك أمام مشارف عدن ولاحظ البوكيرك بأن الاهالي قد اوقدوا النيران على قمم التلال والمرتفعات لتضيء المكان خوفا من الانزال البرتغالي ليلا.

في صباح اليوم التالي كان حاكم عدن الامير مرجان الظافرى يراقب من سور المدينة الاسطول البرتغالي. ولم يستطع اتخاذ قرار حاسم فيما يجب عمله فقد أراد أول الامر أن يأخذ زمام المبادرة ويشن هجوما على العدو، لكن بعض قادته لم يوافقوا على الهجوم مما أجبره أن يصدر أوامره الى الشعب والجنود بعدم الحركة والبقاء في أماكنهم الدفاعية مع التزام الحذر لحين أنجلاء الموقف.

وقد أنصرم اليوم كله بدون أن يقوم البوكيرك بأية حركة بل قضى اليوم كله في استطلاع المدينة وسورها الدفاعي الكبير، كان الامير مرجان الظافرى قد قرر أستعمال الحكمة والتعقل اولا فقرر إرسال وفد مفاوض الى قائد الحملة ليعرف منه نواياه وسبب وجوده في عدن فأمر أحد قادته بالذهاب الى الاسطول البرتغالي وأرسل معه هدايا من الخراف والفواكه.

استقبل البوكيرك الوفد اليماني وأخبرهم بأنه القائد العام لقوات الملك دوم مانويل ملك البرتغال وأنه في طريقه لاحتلال جده وملاقاة الاسطول المصرى المملوكي في السويس وانزال هزيمه به، وأنه طلب من أمير عدن أن يعلن ولاءه لملك البرتغال وأن يفتح أبواب الاسوار ليدخلها الجيش البرتغالي ويتعرض في شوارعها رافعا الاعلام البرتغالية أما اذا رفض الامير ذلك فأنه سوف يحطم السفن الراسية في الميناء ويدخل عدن عنوة.

فلما استلم الامير مرجان ذلك الانذار الشديد قرر القتال دفاعا عن المدينة فقام اولا بتوزيع مدافعه ومنجنيقاته على اسوار المدينة بحيث تصب قذائفها على طرق المواصلات ومسالك التقرب من الميناء الى المدينة وفي صباح يوم ١٥١٣/٣/٢٦ قرر البوكيرك الهجوم على ثلاثة محاور فتقدمت قواته بقوارب الانزال ونزلت في مناطق (شرشرة)و(الشيخ) و(قعان).

كان أكبر الارتال المهاجمة هو الرتل الذى يقوده الضابط(دون غارسيا دينورونها)المكون من وحدات من المشاة والفرسان وكان هدفه مهاجمة بوابة سور المدينة الرئيسية حيث توجد هناك قوات الدفاع العربية الرئيسية،أصدر دى نورونها أوامره بالهجوم واندفعت الارتال البرتغالية يحمل جنودها السلالم ووضعوها على الجدران وباشروا بالصعود للوصول الى قمة سور المدينة فيما راحت فصائل أخرى تهاجم سور المدينة الرئيسى وتحاول تحطيمه واقتحام المدينة من هناك، وبعدها تمكنت بعض فصائل الجنود الذين تسلقوا السلالم من الوصول الى قمة السور وراحت تقاتل هناك.

أما أفونسو البوكيرك فقد كان يقود الرتل الثاني بنفسة فهاجم الجناح الايمن للمدينة حيث يوجد حصن يسمى (حصن الخضراء) وما أن وصل جنود البوكيرك أمام الحصن حتى وضعوا السلالم وتسلقوا جدران الحصن ولكن السلالم لم تستطع تحمل ثقل الجنود طويلا اذ انهارت بهم وكلما حاولو الصعود كلما انهارت السلالم تحتهم فلما لاحظ البوكيرك أن قوات الضابط دى نورونها قد تمكنت من تسلق السور من ناحية البوابة الرئيسية أوعز الى قواتة بالالتحاق بقوة دى نورونها وتكثيف الهجوم هناك واقتحام المدينة من تلك الناحية.

أما رتل الهجوم الثالث فقد كان بقيادة الضابط (جواوفيدالكو)وكان عليه أن يهاجم في محور يقع بين محورى هجوم الرتلين الاول والثاني وقد اصيب هذا الرتل بالفشل ، حيث لم يستطع جنوده من الوصول الى أعلى سور المدينة لشدة الدفاعات ولتكسر ادراج التسلق تحت ثقل الجنود.

لذلك فقد اصدر البوكيرك أوامره لهذا الرتل بالتجحفل والالتحاق بالرتلين الاول والثاني وتكثيف الهجوم على بوابة المدينه الرئيسية .

كان الرتل الاول بقيادة دى نورونها قد اصبح فوق سور المدينة وراح يقاتل المدافعين اليمانيين هناك وقد اصيب دى نورونها بجرح بليغ وهو يقاتل في اعلى السور فيما تمكنت القوات الارضية التي كانت تهاجم البوابة الرئيسية من عمل فتحة في السور اندفعت منها الجحافل البرتغالية إلا أنها جوبهت بمقاومة عنيفة ووجدت نفسها تواجه سورا اخر لايقل عن صلابة السور الاول، فوقعت القوة البرتغالية بين سورين تمكن اليمانيو ن ابادتها بصب الزيت والنار والاخشاب عليهم.

إلا أن موجة أخرى من المهاجمين اقتحمت السور واجبرت المدافعين على التقهقر، فأمر دى نورونها قواته بالقفز من السور الى داخل المدينة واقتحامها.

كانت سرية الهجوم البرتغالية الاولى التي تمكنت من عبور السورين والنزول الى أرض مدينة عدن بقيادة الضابط(جورجي دى سيلفيرا) التي توجهت نحو أزقة ودروب المدينة، فساد الزعر والفزع وهرب الناس وصاروا يتراكضون في الازقة والشوارع، كما تراكضت فلول المسلمين من قوات اليمن وخاصة عندما نزل رتل دى نورونها كله الى شوارع المدينة.

هنا تقهقرت القوات اليمانية متراجعة الى قلعة اسمها(قلعة السعادة) وهي الثكنة الرئيسية في البلد ومركز قيادة الامير مرجان نفسة ولم تبق الا مقاومة يمانية عنيفة في ثكنة (حصن الخضراء)حيث تمكن المدافعون من الصمود في مواضعهم الدفاعية.

وفي مركز قيادة الامير مرجان في قلعة دار السعادة قرر الامير ان يقوم بهجوم معاكس لصد الجيش البرتغالي الذى كان قد وصل الى سوق المدينة في تلك الساعات.

فأمر سرايا الفرسان بالتهيؤ لشن الهجوم، وقسم السرايا الى رتلين بقيادة القائد إبن «مافرس»ورتل بقيادة القائد إبن المهرى ثم امتطى صهوة جواده وسار على رأس المقاتلين واندفع خارج القلعة فشاهدته جموع افراد الشعب الفارة في أزقة المدينة فهدأ روعهم.

وأمرهم بحمل السلاح والالتحاق به فارتفعت معنويات الشعب والتحقوا بقوة الفرسان.

وبالقرب من سوق المدينة التحم الطرفان واشتد الضرب والطعن فسقط قائد قوة الهجوم البرتغالي الضابط «جورجي دى سيلفيرا» وعدد من جنوده قتلى فراحت فلول المعتدين تتراجع واعتلوا الاسوار ثانية وتكدست جموعهم بغير نظام هناك.

وازاء قوة هجوم الفرسان العرب القت قوة دى نورونهابنفسها من بين السورين فسقطت في الفخ الذى نصبه العرب لها، إذ سرعان ما كانت قوات الفرسان العرب تعتلي الاسوار وبيدها الحطب والزيت والنار وقاومت قوة الحماية البرتغالية الموجودة فوق السور بها وقتلت الضابط (جارسيا دى سوزا) أحد قادة السرايا البرتغالية وابادت سريته عن بكرة ابيها، ثم قامت القوات العربية بصب النار والزيت والاخشاب الملتهبة على الجنود المحصورين بين السورين فحرقتهم حرقا، وعندما تكدس بقية جنود البوكيرك أمام باب السور الاول لانقاذ الموجودين في الداخل فتحت المدافع اليمانية الموجوده على قمة جبل يسمى (جبل الصبر) نيرانها وأحجار منجنيقاتها فهلك من هلك منهم.

وإزاء تلك المقاومة العربية الباسلة والتهديد بالموت المحقق أمر البوكيرك قواته بالانسحاب نحو السفن فكانت هزيمة منكرة اختلط فيها الحابل بالنابل.

ثم رفعت السفن البرتغالية اشرعتها متجهة الى جزيرة سقطرة لاعادة التنظيم وطلب نجدات من الهند لتنفيذ الغرض الخبيث الآخر وهو مهاجمة المدينة المنورة وقبر الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم.

وفي سقطرة كان البوكيرك قد وضع الخطط النهائية للهجوم علي المدينة المنورة وتتلخص الخطة بأن تقوم السفن البرتغالية باحتلال ميناء (ينبع) فاذا تم ذلك تقوم قوة خاصة من الفرسان البرتغاليين المدرعين بالحديد مكونة من أربعمائة رجل بقيادة البوكيرك نفسه بشن غارة ليلية

صاعقة على المدينة المنورة تقتحم فيها مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وتصل الى القبر الشريف وتقوم بنبشه ونقل الرفات الطاهرة والهرب به عائدين الى ينبع ثم الى السفن فإذا ماتم هذا الغرض الخبيث قام البوكيرك بعملين.

الاول: مقايضة الرفات الطاهرة بكنيسة القيامة التي كانت تحت حماية مماليك مصر واعادتها الى الكنيسة المسيحية في روما.

الثاني: في حالة تحقيق هذا النصر كان يعتزم ان يطلب مليون متطوع أوروبي ينزلون في السودان ومن هناك يقومون بتحويل مجرى نهر النيل ليصب في البحر الاحمر وبذلك تموت مصر، خصمه العنيد العاتي ليتم له بعد ذلك السيطرة على البحر الاحمر وجنوب الجزيرة العربية والخليج العربي وبذلك يحقق السيطرة الكاملة على الهند.

وهكذا تحرك البوكيرك بقوته ووصلت سفنه الى مدخل البحر الاحر وأرسل قوة متقدمة من سفينة واحدة بها عشرون برتغاليا ومترجماً يهودياً يجيد اللغتين العربية والبرتغالية، وصلت هذه السفينة الى جزيرة صغيرة تقع في باب المندب وهناك القوا القبض على سفينة عربية بها ملاح عربي واجبروه تحت تهديد السلاح أن يدلهم على الطريق المؤدي الى ينبع، ثم ارسلوا اشارة الى بقية القوات بالدخول الى باب المندب، اجتازت السفن البرتغالية الباب ودخلت الى البحر الاحمر فأمر البوكيرك أن تقوم السفن البرتغالية باطلاق نيران مدافعها مرة واحدة ابتهاجا بالدخول، وفي مساء ذلك اليوم أرست السفن مراسيها في جزيرة صغيرة تقع مقابل البر اليماني فوجدوا هناك أربع سفن حبشية بها بضائع محملة الى مكة المكرمة وجدة وفيها عدد من الركاب الاحباش والعرب، فأمر البوكيرك بفرز العرب عن الاحباش وأمر بقطع انوفهم وأذانهم وانزلهم جرحى الى البر.

وفي صباح اليوم التالي توجه الاسطول البرتغالي نحو جزيرة (كمران) اليمانية والق مراسيه فيها لاعادة التنظيم ودراسة الخطط اللازمة للهجوم.

أما بالنسبة الى الموقف في اليمن والحجاز فإن ملك اليمن السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى فقد قام بحشد بعض القطعات على السواحل البحرية لمراقبة القوة من بعيد فيما بعث رسولا الى حاكم مكة الشريف بركات يخبره بالموقف في اليمن، وقام الشريف بركات حاكم مكة والحجاز بإرسال رسالة الى حاكم مصر السلطان قانصوه الغورى يعلمه بالموقف ولم يكن الشريف بركات يعلم مقصد وهدف القوة البرتغالية بدقة لذلك فقد أخذ معه جيشه وقام بتحصين ميناء جده.

وتقول التقارير البرتغالية:ـ

انه في يوم الحركة الموعود للهجوم على الحجاز رفعت السفن اشرعتها بينما شحذ الجنود سيوفهم وتهيأت المدافع للرمي فكان إنذار السماء الاول لالبوكيرك أن سفينته غرزت في الرمال ولم تتحرك إلا أن البوكيرك أصر على الحركة ببقية السفن وما أن غادرت تلك السفن جزيرة كمران حتى وقعت المعجزة الالهية الاولى فكما فعل ربك بأصحاب الفيل فعل بهؤلاء القوم وإذا بريح صرصر عاتية تهب من جهة الحجاز وتمزق اشرعة السفن وتدخلها الواحدة بالاخرى وتدفع بها لترتطم بجزيرة كمران الا أن ذلك الرد الالهي لم ينه أو يوقف البوكيرك عن غرضه فحاول ثانية وثالثة ورابعة وخامسة الى نهاية شهر تموز، كلما اقلعت السفن جاء اليها جنود الرحمن راكبين الريح ليهلكوا عددا منهم.

ثم وقعت المعجزة الالهية الثانية فتروي لنا التقارير الوثائقية البرتغالية بأنه وفي آخر ليلة من ليالي الاسطول البرتغالي في المياه العربية وعندما كان البوكيرك مجتمعا مع اركان حربه يضع الخطط اللازمة للهجوم عند الصباح شهد بنفسه ومعه جميع ضباطه وأركان حربه لمعًامن الوهج واللهب ثم لم يلبث أن صار كتلتة من اللهب في السماء فوق سماء الحجاز والمدينة المنورة ثم تقدم هذا اللهب يسير في السماء وتوقف فوق السفن البرتغالية ثم تحرك صوب الحبشة واختفى هناك.

وهنا ايقن البوكيرك وضباطه وجنوده بأنهم يحاربون الله وان مقصدهم وغرضهم الخبيث لاترضى عنه السماء وأن الله تعالى اعطاهم إنذارا أخيرا بأن نارا من السماء ستحرقهم إن هم اصروا على الكفر.

وإزاء تلك المعجزة الربانية لم يجد البوكيرك بدًا من الاستسلام لارادة الله فأصدر أوامره بالعودة واقفل راجعا الى الهند يجر أذيال الخيبة والفشل.

هذه المعجزة الربانية لم يذكرها الكتاب العرب ولم يروجها المؤرخون المسلمون إنما هي مأخوذة من التقارير البرتغالية للحرب. في كتاب برتغالي اسمه: QUE OSONHO DA INDIA AFONSO DE ALDUQUER في الصفحات ٢٧٨ الى ٢٧٩ ثم ظهرت المعجزة في كتاب انجليزي بعنوان: OF THE DISEOYERY AND QONQUEIT OF INDIA HISTORY مطبوع عام ١٦٩٥ الميلادي في الصفحات ١٩٠ الى ١٩٣. وظهرت ثالثة في كتاب انجليزي أخر اسمه: THE PORTUQES IN INDIA مطبوع في لندن عام ١٨٩٤م.



المرفقات:

١. صورة الصفحة ١٩٢من كتاب THE PORTUQES ASIA الانجليزي اللغة الذي تحدث عن المعجزة الربانية:

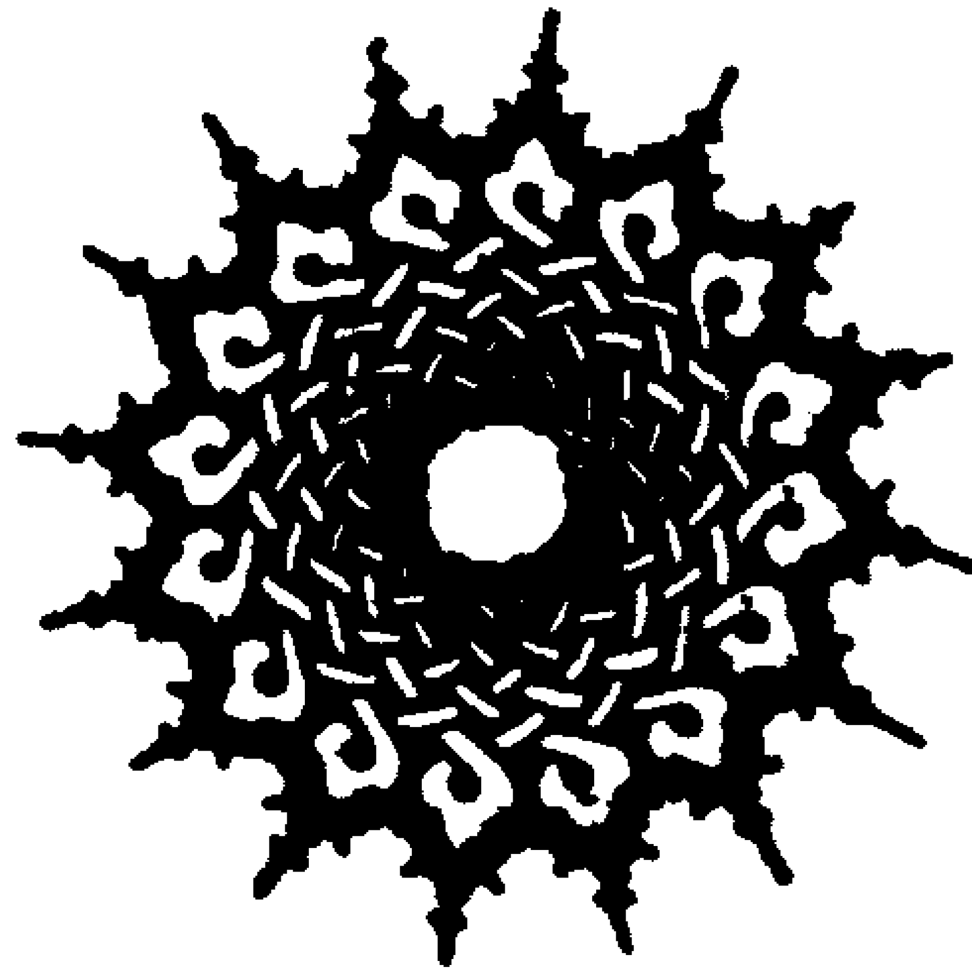
٢. صورة غلاف الكتاب الانجليزي THE PORTUGUES ASIAOR OR THE HUTORY OF THE DISOVEY AND CONQUST OF INDIA BY THE PORTNQUES. المؤلف عام ١٦٩٥م.

٣. صورة غلاف الكتاب البرتغالي:

AFONSO DE ALBUQUERQUE OSOHO DA LNDIA

٤. صورة الصفحة ٢٧٨ التي موضوعها حول المعجزة الربانية. والتي تعتمد في عرضها للموضوع على وثيقة مخطوطة لـ كارتاس كتب عام ١٥١٣م.

٥. صورة لقلعة السعادة التاريخية في عدن حيث كان مقر قيادة الأمير مرجان.



here 3 Leagues over; hence to *Suez* 40 Leagues, and there ends the Coast of *Arabia*. Let us now return from *Suez* to the streight, where we began, running along the opposite Coast of *Egypt* and *Ethiopia*: 20 Leagues from *Suez* is *Grand Cayr*, the vast Metropolis of *Egypt*, but it lies upon the *Nile*, not the *Red Sea*; 45 Leagues from it to *Alcozer*; thence 135, in which space are many Ports to the City *Zuanquem*; 70 Leagues farther *Mazua*, in a small Island, as is the other, and opposite to it *Arquico*; hence 85 Leagues to the Mouth of the Sea. Behind a ridge of Mountains that runs along this Coast lies the Empire of *Prester John*, which has always preserved Christianity after their manner, and has of late been much supported therein by the Portugues Arms.

2. *Albuquerque* sailing along this Sea, arrived at the Island *Camaran*, abandoned by its Inhabitants for fear of his coming. Here he took four Ships richly laden, one belonging the Soldan of *Cayr*, two more he had taken by the way. From this Island he visited others, and now appeared in the Sky, visibly to all, a Red Cross very bright, seeming to be about a Fadom athwart, and of a proportionable length. They all knelt, and *Albuquerque* made a devout Prayer, and the Vision was Celebrated with Joy and sound of Musick, and Cannon, till by degrees it was covered by a bright Cloud. He returned to *Camaran*, designing to winter there, the Wind having failed him to sail to *Ioda*, as he had designed.

3. Here

The Portugues Asia:

OR THE

HISTORY

OF THE

Discovery and Conquest

OF

INDIA

BY THE

PORTUGUES;

CONTAINING

All their Discoveries from the Coast of Africk, to the farthest Parts of China and Japan; all their Battels by Sea and Land, Sieges and other Memorable Actions; a Description of those Countries, and many Particulars of the Religion, Government and Customs of the Natives, &c.

In Three Tomes.

Written in Spanish by *Manuel de Faria y Sousa*, of the Order of Christ.

Translated into English by *Cap. John Stevens*.

Tome the First.

LONDON, Printed for *C. Brome*, at the Sign of the Gun, at the *West-End* of St. *Pauls*. 1695.

ELAINE SANCEAU
SÓCIA CORRESPONDENTE DO INSTITUTO DE COIMBRA

AFONSO DE ALBUQUERQUE
O SONHO DA ÍNDIA

COM NOTAS DA AUTORA PARA A EDIÇÃO PORTUGUESA

TRADUÇÃO DO
DR. JOSÉ FRANCISCO DOS SANTOS

(4.ª EDIÇÃO)



LIVRARIA CIVILIZAÇÃO – EDITORA
RUA ALBERTO AIRES DE GOUVEIA, 27 — PORTO

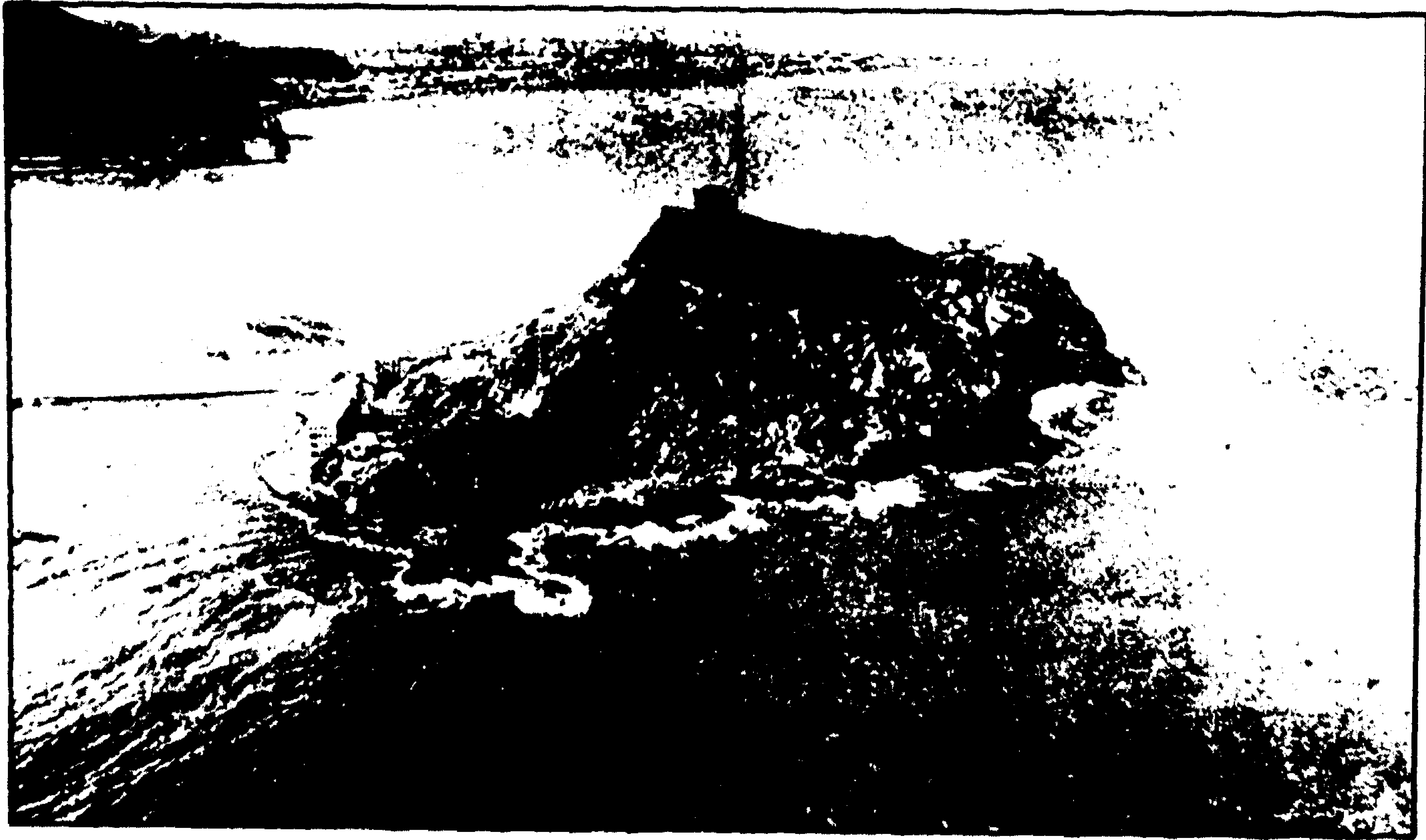
rado alguns dias, o vento leste não chegava e — «certo, senhor, m'agastey bem... ([1]). Mandou então que uma caravela atravessasse para Zebair, a fim de ver se no alto mar soprava vento diferente, mas era exactamente o mesmo.

Uma noite (que alegria!) o vento virou de facto para leste e a armada foi a toda a pressa impelida para fora do porto, logo que alvoreceu o dia. Os homens iam contrafeitos. Não viam vantagem nenhuma em penetrar naquele mar sinistro e ardente, com os seus baixios traiçoeiros e costas lúgubres, bafejadas pelo vento do deserto. Este encheu-lhes as velas por algum tempo e depois cruciantemente virou e soprou em sentido contrário. Albuquerque, mais arreliado que nunca, teve os navios ancorados durante três semanas. Quando a água se esgotou — e não durava muito naquela região de sede — voltou a Camarão buscar mais e arrastou de novo a armada relutante para fora do porto. O vento continuava a soprar do poente.

Enquanto ali esperavam, uma noite sem lua, uma cruz de fogo, formada de nove estrelas, surgiu no céu. Deslocou-se lentamente, através do firmamento, e desapareceu sobre a terra do Preste João. Era, diz Albuquerque, «muy crara e resprandecente, e veyo hũa nuvem sobr'ela e ela se partio em partes, sem tocar ha cruz nem lhe cobrir sua crarydade. Foy vista de muytas naos, e muyta jemte se assentou em jyolhos e adoraram, e outros com devançam adoraram com muytas lagrimas» ([2]). Aquela cruz — disse o governador — estava a indicar o caminho. Visto que não podiam alcançar Gidá, deviam dirigir-se para a terra do Preste João.

Bordejando sempre, seria posssível atravessar para Maçuá. Mas, por mais edificados que todos se sentissem, os homens não estavam preparados para confiar, a tal

(1) Cartas: I, p. 218 — 4 Dez. de 1513.
(2) Ibid., p. 219.



قلعة السعادة مركز قيادة الامير مرجان



موقف المماليك ودول الخليج العربي
من النفوذ البرتغالي
في القرن السادس عشر الميلادي

د. يوسف بن علي بن رابغ الثقفي

ان دراسة موضوع بهذا العنوان «موقف المماليك ودول الخليج العربي من النفوذ البرتغالي في القرن السادس عشر الميلادي» يتطلب تحديد الفترة الزمنية للدراسة نظرا لاختلاف الفترات التاريخية لكل من دولة المماليك ودول الخليج العربي. فدولة المماليك انتهى دورها في التاريخ كدولة مستقلة عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م بسقوطها أمام الدولة العثمانية في معركة مرج دابق، وبذلك فان مزامنتها لدول الخليج العربي في مقاومة النفوذ البرتغالي خلال القرن السادس عشر الميلادي لا تتعدى تلك السنوات الـ ١٧ الأولى من ذلك القرن. ومراعاة للمزامنة بين الطرفين (المماليك ودول الخليج العربي) فان موضوع البحث سيقتصر على موقف المماليك ودول الخليج العربي من النفوذ البرتغالي خلال الخمسة عشر عاما الاولى من القرن السادس عشر الميلادي.

ان هذه الفترة الزمنية القصيرة تتميز بتطور دولة البرتغال في مجال الاكتشافات البحرية والتي كانت لها أثرها العظيم على البلدان الاسلامية خاصة دولة المماليك ودول الخليج. ولو نظرنا الى جذور التطور البرتغالي في مجال الاكتشافات وأسباب ذلك لادركنا سر ذلك التأثير. فقد كانت الدولة البرتغالية يوما من الايام تحت حكم المسلمين قبل القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي(١)، ثم انها تطورت في المجال البحري مما ساهم في تنفيذ مخططها في الانتقام من العالم الاسلامي. فأول ما بدأت بتعقب المسلمين في الاندلس وشمال افريقيا حتى أصبحت ذات نفوذ على الشمال الأفريقي وأصبحت وريثة مدينة جنوة الايطالية في مجال الكشف وارتياد البحار(٢).

ويتمثل حقد البرتغال للمسلمين في شخصية هنري الملاح (٣٩٤هـ ـ ١٤٦٠م) الذي أحرز للبرتغال استقلالها بنصره على المسلمين، والذي غذى منذ طفولته بلبان التصوف المسيحي ببغضه المرير للاسلام. فكان أول ما قام به هو شن حملة على سبتة الاسلامية والتي دخل الاسلام منها الى

اسبانيا عام ٩٢هـ / ٧١١م(٣)، ثم وضع خطته لتطويق العالم الاسلامي فأسس أول مدرسة نظامية للملاحين والبحارة حتى أن في عام ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م حصل على تفويض من البابا نيقولا الخامس بأن له الحق في جميع الكشوف التي يكتشفها حتى بلاد الهند. ومن ذلك التفويض نورد الكلمات التالية:

«ان سرورنا العظيم اذ نعلم أن ولدنا هنرى أمير البرتغال، اذ يترسم خطى والده العظيم الملك يوحنا واذ تلهمه الغيرة التي تملأ الأنفس كجندي باسل من جنود المسيح، قد دفع باسم الله الى أقصى البلاد وأبعدها عن مجال علمنا كما دخل بين أحضان الكاثوليكية الفادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة(٤)...

ومن هذه الالفاظ يتضح لنا أهداف الروح الصليبية العميقة ضد العرب والمسلمين، وبذلك تكررت الحملات البرتغالية الى الشرق الواحدة تلو الاخرى هادفين من ذلك الوصول الى الموانئ الساحلية في الهند والخليج العربي لتطويق العالم الاسلامي وانشاء مراكز تجارية تخدم أهدافهم الاستعمارية. ومما يظهر النوايا الصليبية الخبيثة ضد الاسلام والمسلمين ما تحدث به البوكيرك. في خطابه الذي ألقاه على جنده بعد وصوله الى ملقا حيث قال: «ان أبعاد العرب عن تجارة الأفاوية هو الوسيلة التي يرجو بها البرتغاليون اضعاف قوة الاسلام»(٥) وفي نفس الخطبة يقول البوكيرك كذلك:

«الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وباطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيب.. وذلك لأني على يقين أننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيديهم (يعني المسلمين) لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثرا بعد عين ولا متنعت كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها الى البرتغال لشرائها من هناك»(٦).

مما تقدم يظهر لنا بوضوح أن العامل الديني كان المحرك الأول للاكتشافات الجغرافية البرتغالية بهدف الالتفاف حول العالم الاسلامي. ويأتي في الدرجة الثانية العامل الاقتصادي كمؤثر فعال في سير الكشوف البرتغالية. فقد كان لاكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٧م بواسطة فاسكو دى جاما ووصوله الى الهند عن طريق الطواف حول القرن الافريقي أثره العظيم على نمو وازدياد الحركة التجارية البرتغالية(٧). فقد حقق البرتغاليون تطورا اقتصاديا جديدا بسبب ايصال منتجات الشرق الأقصى للأسواق الأوروبية دون الحاجة الى توفيرها عن طريق مصر أو بواسطة تجار جنوه والبندقية ذووا الامتيازات التجارية في مناطق العبور التجارية بين الشرق والغرب(٨). وبذلك كان تحويل الخط التجاري عن مناطق العبور العربية الاسلامية عاملا فعالا لتحقيق الهدف الأول وذلك لما للمجال الاقتصادي من أثر في اضعاف القوة الاسلامية التي زعزعت أوروبا قرون طويلة. ومن جهة أخرى فقد كان عاملا أدى دوره الايجابي في التأثير على اقتصاديات العالم العربي وخاصة الدولة المملوكية. فهناك حقيقة لايمكن انكارها وهي أن الطريق التجاري الجديد أدى الى انقلاب مفاجئ في التجارة العالمية، فقد أصبح الاوروبيون يحصلون على المنتجات الشرقية دون التعرض لما

يفرضه المماليك من ضرائب على تلك التجارة العابرة اليهم عن طريق مصر. فقد كانت مصر خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي – قبيل الاكتشافات البرتغالية – غنية لموقعها التجاري بين آسيا وأوروبا وافريقيا(٩)، ولتحكمها في فرض الرسوم على المنتجات العابرة منها الى أوروبا. وعلى سبيل المثال كانت النظم التجارية عند المماليك تفرض رسوما على التوابل عند وصولها الى ميناء السويس، وعند اعادة شحنها في الاسكندرية تزيد في ذلك حتى وصل ثمن حمل الفلفل الى ١٢٠ أو ١٣٠ دينار فاذا ما وصلت الى اوروبا تكون أسعارها قد زادت بكثير(١٠). ولكن تحول الخط التجاري عن طريق رأس الرجاء الصالح قلل من أهمية مصر التجارية كمنطقة عبور عالمية، ومما يدل على ذلك أن سفن البندقية لم تستطع أن تحمل في عام ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م من موانئ مصر والشام سوى نصف الكمية التي تعودت ان تحملها من قبل(١١).

وأكثر ما زاد الوضع تفاقما زيادة النشاط البرتغالي في نقل منتجات الشرق الى الغرب – وذلك بتنظيم الرحلات البحرية لسفنهم والعمل على الحيلولة دون وصول السفن العربية الى الهند(١٢). اضافة الى أن ميناء جدة الذي كان الوسيط في نقل البضائع الشرقية الى مصر قد تأثر هو الاخر بالتحول التجاري عن طريق رأس الرجاء الصالح مما ساعد البرتغاليين على اضعاف الدولة المملوكية والمهيمنة على ما كل ما يتمتع به العرب من امتيازات تجارية، وبالتالي محاربة الدين الاسلامي كما أشرنا الى ذلك سابقا. ولم تكن المناطق الاخرى في العالم العربي أقل أهمية من ميناء جدة، ففي الخليج العربي وفي بلاد الشام وعلى البحر الاحمر وعلى البحر المتوسط كانت هناك مناطق متعددة تقدم دورا هاماكمعابرللتجارة الشرقية الوافدة من الهند والصين وأندونسيا. فعلى سبيل المثال كانت الاسكندرية ودمياط على البحر المتوسط تعجان بالحركة التجارية مع رواد التجارة الغربيين. وكانت المراكز التجارية في بلاد الشام حافلة بأنواع التجارة العابرة عن طريق الموانئ الخليجية الى الغرب. هذه الحالة الاقتصادية الجيدة في المناطق العربية بدون شك تأثرت بتحول الطرق التجارية عنها مما ساهم في تدهور الأوضاع عند الدولة المملوكية في مختلف جوانبها(١٣).

أما فيما يتعلق بالتوسع البرتغالي في الشرق ومدى ما وصلوا اليه، وموقف كل من المماليك والدول الخليجية فسنناقشه في الصفحات التالية. فكما ذكرنا سابقا كان العامل الديني العامل الاساسي وراء تقدم البرتغاليين نحو الشرق، ولكن جل ما يخدم اهدافهم الدينية توفر الجانب المادي والذي يتمثل في سيطرتهم على منافذ التجارة. فبعد أن تم عبور رأس الرجاء الصالح والذي كان يسمى سابقا رأس العواصف وانما سمي برأس الرجاء الصالح تفاؤلا(١٤)، أدرك البرتغاليون انه لا يمكن تنفيذ مخططهم الاستعماري الصليبي الجديد الا بالتحكم في مركزين اساسيين لهما شأنهما العظيم في التحكم التجاري عبر البلاد العربية. هذان المركزان هما جزيرة هرمز، التي تتحكم في طريق التجارة عبر الخليج العربي، وباب المندب وعدن، ذلك المكان الذي يتحكم في الطريق التجاري الى البحر الاحمر(١٥). وبالوصول والتحكم في هذين المرفقين سيحقق البرتغاليون أهدافهم الرئيسية التي

منها ضرب العالم الاسلامي من الخلف تحقيقا لأهدافهم الدينية المتعصبة ضد الاسلام والمسلمين الذين حكموهم عدة قرون في شبه الجزيرة الايبرية (أسبانيا والبرتغال)، وكذلك سيتمكنون من دق عصب الاقتصاد الاسلامي وتحقيق هدفهم النهائي في بناء حضارة مسيحية(١٦).

وبدأ تحقيق الاطماع البرتغالية في المناطق العربية عندما وضع الفونسو البوكيرك في عام ٩١٠هـ / ١٥٠٤مشروعا ضخما للابحار والتجارة والغزو في البحار الهندية. وتحقق له أمله عندما ولاه ملك البرتغال عام ٩١٢هـ / ١٥٠٦م أمور الشرق وأعطاه حرية التصرف كيفما يشاء ومما جاء في المذكرات الخاصة به أنه عليه أن يخرب هرمز وأن يجتث التجارة الاسلامية في البحار الاسلامية من جذورها(١٧). وعلى الرغم من ان الدون فرانسيسكو دى الميدا ـ نائب ملك البرتغال على الممتلكات البرتغالية في الهند السابق ـ كان يرى تأسيس وكالات تجارية في الهند للمحافظة على العلاقات التجارية مع المراكز التجارية، الا أن خلفه البوكيرك كان يرمي الى انشاء امبراطورية برتغالية عظيمة في الشرق، وعلى بناء القلاع أينما أسس وكالة، لا لحماية التجارة ولكن للسيطرة على الحكام الوطنيين واجبارهم على الاعتراف بالبرتغال كسلطة مسيطرة(١٨).

ونظرا لاهمية جزيرة سقطرة فقد بدأ البوكيرك عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م بالاستيلاء عليها خاصة وهي تمثل موقعا نموذجيا بالنسبة لأهداف الخطة البرتغالية. فهي تقع في مواجهة الساحل الجنوبي لشبه جزيرة العرب وفي منتصف الطريق تماما بين الخليج العربي والبحر الاحمر(١٩). ونظرا لعدم جدوى هذه الجزيرة بسبب فقرها من الموارد الطبيعية فقد فكر البرتغاليون في الاتجاه نحو عدن ربما يهدفون بذلك قطع الاتصال بين الهند والدولة المملوكية خاصة وان الممالك كما يقول العقاد: استعدوا لمقاومة البرتغاليين في المحيط الهندي لما لحقهم من أضرار اقتصادية نتيجة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح(٢٠). ورغم تمكن البوكيرك من الحاق الضرر بجزيرة بريم عند مدخل البحر الاحمر الا أنه لم يتمكن من الوصول الى عدن، فرأى أن يوجه شطر منافذ الخليج العربي وأهمها قرياط ومسقط وقلهات وصحار وخورفكان وهرمز والبحرين والقطيف والبصرة(٢١).

وبسبع سفن وأربعمائة وستين محاربا وصل البوكيرك الى قلهات التابعة لحاكم هرمز، وقبل وصوله اليها اجتاز اسطوله جزر كوريا موريا ورأس الحد حيث وجد ثلاثين أو أربعين سفينة صيد فأحرقها وألقى الرعب في قلوب سكان تلك الجزر. وفي قلهات طلب البوكيرك من أهلها التسليم والتبعية للبرتغال فتم له ذلك خوفا على أنفسهم من تدمير مدينتهم(٢٢).

ثم بعد ذلك ابحر نحو قرياط وهناك استقبله الاهالي استقبالا سيئا فاقتحم المدينة وسط مقاومة عنيفة انتهت بانتصاره فأحرقها وأحرق عدد من السفن الراسية في مينائها. ثم أقلع منها الى مسقط ـ ميناء عمان الرئيسي ـ والتي كانت محروسة حراسة جيدة لما بلغ الى أهاليها ما لحق بسكان قرياط من تدمير وتعذيب شديدين. وعند وصوله مسقط أتاه نبيلان مسلمان نيابة عن الاهالي وحاكم المدينة وتوسلا اليه الا يلحق الاذى بالمدينة وعبرا له ان يصبحوا تابعين لملك البرتغال وأن يدفعوا له ما كانوا يدفعونه لحاكم هرمز. غير أن تلك المفاوضات لم تجد نفعا. ورغم المقاومة الباسلة

من رجالها الا انهم لم يستسلموا لبعض شروطه فأمر بتدمير واحراق المنازل وتعذيب الشيوخ والنساء والاطفال(٢٣).

وبعد سقوط مسقط اتجه البرتغاليون الى صحار التي بدورها لم تستطيع المقاومة فما كان منها الا التسليم ودفع ضريبة سنوية. أما خورفكان فقد قاومت الاعداء حسب الاستطاعة ولكن النهاية كانت مريرة حيث لاقت قدرها كغيرها من المناطق السالفة الذكر، بل أنها نهبت ثلاثة ايام وعمل البرتغاليون على تشويه أهاليها ثم أحرقوها(٢٤).

وتأتي النقطة الحاسمة في التقدم البرتغالي نحو الموانئ الخليجية ويأتي دور هرمز تلك الجزيرة التي كانت بالنسبة لمعظم المناطق الخليجية العاصمة الأولى وهي مقر التجار والوكالات التجارية ومهبط السفن التجارية من كل صوب. فحاكمها عربي واسمه سيف الدين الذي يبلغ من العمر ١٢ عاما تحت وصاية خوجه عطار الرجل السياسي والمحنك(٢٥).

لقد علمت هرمز ما أصاب الموانئ الخليجية الاخرى من وبال وتدمير من قبل البوكيرك وأتباعه، وقد علمت أنها سوف تنازل البرتغاليين دون ريب. وبذلك أعدت العدة للعدو المشترك باشتراك الكثير من رجال البحرين والموانئ الخليجية الاخرى. ورغم ما أبداه بعض المؤرخين المتعصبين من التقليل من أهمية المقاومة العربية للبرتغال في هرمز مثل لوريمر وفاريا دى سوسا البرتغالي الا أن الحق لا يمكن ان يغيب، فقد أشار ويلسون في كتابه «الخليج العربي» بقوله: كان البرتغاليون في خشية وتردد لعظم طبيعة الواجب الذي عليهم القيام به، لانهم حينما وقفوا في النقطة التي رأى فيها القباطنة عظمة المدينة وعدد الرجال الفرسان المتجمعين على الشاطئ والسفن الكثيرة الرابضة في الميناء والمجهزة بالرجال والسلاح، أصيبوا بالخيبة والأسى. وفي غضون تلك الحالة النفسية جاؤا الى مقربة من سفينة ألفونسو البوكيرك وحذروه من مغبة ما هو مقدم عليه، لان تلك المدينة لم تكن كغيرها من المدن التي دمرها، نظرا لكثرة الجنود الذين يمكن ملاحظتهم على الشاطئ(٢٦).

فهل نتصور وفقا لما ذكره ولسن أن الأمر بتلك السهولة حتى نصدق ما يروجه الاعداء بضعف المقاومة العربية لأعداء الدين الاسلامي والامة العربية والاسلامية.

لقد استطاع حاكم هرمز ووصيه جمع ما استطاعا من العرب حتى بلغ عدد جندهما ٣٠ ألف محارب بينهم ٤٠٠٠ فارس من ذوى الحذق في رمي السهام، اضافة الى ٤٠٠٠ سفينة منها ٦٠ ذات حجم كبير وعليها ٢٥٠٠ رجل وعدد من قوارب خفر السواحل مليئة بالمدافع الصغيرة(٢٧). هذه القوات ليست بالهينة على البرتغاليين ولكن الذي خدم البرتغاليين تفوق المدفعية والتدريب المستمر خلال سير حملاتهم البحرية بين الحين والآخر. ورغم ما أصابهم من خسائر جسيمة، ورغم المفاوضات بين الطرفين الا أنهم حصلوا على استسلام حاكم هرمز، وموافقته على تبعيته لملك البرتغال واعفاء السلع البرتغالية من الضرائب، وأن يكون للبرتغاليين الحق في أن لايدفعوا ضرائب أكثر مما دفع المواطنون حين يجلب البرتغاليون بضائع أخرى من مناطق غير البرتغال الى ميناء هرمز والثغور التابعة له(٢٨).

وبهذا اصبحت هرمز والمرافئ التابعة لها تحت السيادة البرتغالية، وتحقق لهم الحلم الذي يستطيعون بواسطته ضرب الامة الاسلامية دينيا واقتصاديا. وتمكن البرتغاليون من السيطرة على الملاحة في الخليج العربي بعد استيلائهم على هرمز ذلك الميناء العريق والطريق المنفذ لكل تجار الخليج التي تصل الى البلاد العربية بمنتجات الهند وأندونيسيا وغيرها من بلاد الشرق.

ورغم تطلع حاكم هرمز الى القوى المملوكية في المساعدة والمقاومة لاعداءه الا أن ذلك لم يتحقق للاسباب التالية: لقد كانت الدولة المملوكية تعيش صراعا سياسيا داخليا ساهم في ضعف قوتها الدفاعية وأنها كذلك تعيش الصراع والحرب بين فترة وأخرى مع الدولة العثمانية والدولة الصفوية على مناطق الحدود، وأنها بالمقارنة مع البرتغال فهي لا تملك الوسائل الدفاعية البحرية المتطورة(٢٩). اضافة الى ذلك البعد المكاني لمناطق الخليج عن مراكز القوى المملوكية وتفشي وباء الطاعون(٣٠). كل ذلك جعل الموانئ الخليجية تعاني الأزمة وتعتمد على بسالة وتضحية المواطنين أمام الحملات الصليبية الاستعمارية الظالمة.

ولكن ذلك لا يعنى أن المماليك تحت قانصوه الغوري لم يفعلوا شيئا فقد كانت هناك عدد من المناورات بين البرتغاليين والمماليك في البحر الهندي على أمل أن يحقق المماليك بعض الانتصارات لايقاف التقدم البرتغالي نحو الخليج من ذلك ما أعده قانصوه الغوري من قوة بحرية عام ٩١٤هـ / ١٥٠٨م بقيادة حسين الكردي الذي اشتبك مع البرتغاليين في معركة شول وانتصر عليهم، ولكنه في معركة ديو عام ٩١٥هـ / ١٥٠٩م لم يحالفه النصر وعاد أدراجه الى البحر الاحمر لحماية الاماكن المقدسة(٣١). ولعل ذلك من الاسباب التي جعلت حاكم هرمز يتطلع الى قوة اسلامية أخرى تسانده، فلجأ الى الصفويين الذين كانوا في نفس الوقت من ألد أعداء الدولة المملوكية والدولة العثمانية نتيجة لاختلاف المذهب الديني. وبهذا لم يتحقق التأييد الصادق من قبل الصفويين مما جعل هرمز تعاني الأزمة الاستعمارية بنفسها.

لقد خضعت هرمز للقوة البرتغالية رغم ما قام به الاهالي من تضحية وطنية صادقة، وقد يكون سبب اخفاقهم في النصر اختلاف ميزان القوى اضافة الى عدم توفر دعم من الدول لاسلامية المجاورة، ويمكن القول بان البرتغاليين كانوا يعرفون حقا ما يعيشه العالم الاسلامي آنذاك من حروب وتفكك سياسي، فانتهزوا فرصتهم للتقدم نحو المناطق الخليجية، فكانت هرمز، درة المدائن في العصور الوسطى كما يقولون، هي كبش الفداء في النهاية(٣٢).

ورغم تذمر الاهالي وعدم قناعة حاكم المدينة بالاحتلال البرتغالي ورغم مغادرة البوكيرك . لاشباع أطماعه الاستعمارية ــ نحو عدن وفشله في الاستيلاء عليها (كما سيأتي ذكره)، ورغم كل ذلك فقد واصل البرتغاليون اهتمامهم بالقبضة على هرمز آخذين في اعتبارهم حدم اتاحة الفرصة لمجاورهم من الشمال (الشاه) ليصبح البديل عنهم في المنطقة. وكان مما عمله انه استقبل مبعوث الشاه اسماعيل الصفوي وعرض عليه صداقته(٣٣)، وهو يعلم تماما ما يدور من مناوشات عسكرية

على الحدود بين العثمانيين والصفويين. وليس أدل على نوايا البوكيرك من تلك الرسالة التي ارسلها الى الشاه مع مبعوثه روى جوميز يقول فيها: «اني اقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، وأعرض عليك الاسطول والجند والاسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند. واذا اردت ان تنقض علي بلاد العرب أو أن تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الاحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو في القطيف أو في البصرة وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له كل ما يريد»(٣٤).

لقد قام البوكيرك بهذه المناورات السياسية على أمل الاضعاف من المقاومة العربية والاسلامية سواء من جانب المواطنين في الخليج العربي أو الدولة المملوكية، ولكنه على الرغم من ذلك كان يشك في نوايا الفرس فأرسل ابن أخيه بيرو في حملة استطلاعية لمناطق الخليج كان من نتائجها أن قدم تقريرا لم يكن مطمئنا للبوكيرك حيث أن هرمز اعترفت بسيادة الفرس ولم تدفع لهم الضريبة السنوية المفروضة عليهم عام ٩١٤هـ / ١٥٠٨م(٣٥).

عند ذلك صمم البوكيرك ـ بعد مفاوضات مع ملك البرتغال ـ على الذهاب بنفسه، فابحر سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م على قوة بحرية تتألف من ٢٦ قطعة عليها ١٥٠٠ جندي برتغالي، ٧٠٠ مالاباري حتى وصل الى قرياط ومسقط ومن ثم الى هرمز حيث أعاد احتلالها واستسلمت له القلعة وتم له رفع العلم البرتغالي من جديد عليها(٣٦). وهناك بدأت المفاوضات مع الشاه اسماعيل فتوصلوا الى اتفاق يقضي بالتعاون العسكري في مواجهة الدولة العثمانية، وأصبح بموجبها حاكم هرمز من أتباع الملك البرتغالي. ومن ثم عاد البوكيرك الى الهند وهو في حالة غير جيدة بعد أن عين ابن أخيه قائدا للقلعة، وبعد وصوله الى جوا وافته المنية هناك(٣٧).

ورغم هذه الاعمال الوحشية من القائد البرتغالي لأهالي هرمز والمرافئ الخليجية، ورغم خيانة الفرس وانشغال الدولة المملوكية بمشاكلها مع الدولة العثمانية فقد واجه الاهالي في المناطق الخليجية مصيرهم معتمدين على أنفسهم، فهاجم المواطنون الحاميات البرتغالية في كل مكان في هرمز ومسقط والبحرين وقريات وصحار ولكن دون جدوى لاختلاف ميزان القوى ووفاة حاكم هرمز سيف الدين عام ١٥٢٢م. وفي عهد خلفه (ابنه محمود) عقد البرتغاليون معه معاهدة زادت بموجبها قبضتهم على هرمز حتى أنهم في عام ٩٣١هـ / ١٥٢٤م أسندوا حكمها الى فاسكو دى جاما لتظل تحت تبعيتهم لمدة قرن من الزمان(٣٨).

أما فيما يتعلق بعدن وباب المندب مفتاح الجيرة العربية من الجنوب، فقد تقدم البرتغاليون نحوها عام ٩١٩هـ / ١٥١٣م في ثمانية عشر مركبا تحت امرة البوكيرك(٣٩). ورغم محاولاتهم العنيدة في اقتحامها فانهم أخفقوا في تحقيق مآربهم لحصانة المدينة ومساعدة دولا كبيرة لها مثل دولة آل طاهر في عدن واليمن ومن ورائهم دولة المماليك، اضافة الى ان عدن تولاها حكام عرفوا كيف يدرأون عنها الخطر البرتغالي مثل مرجان الظافري(٤٠). ونظرا لانهم لم يحققوا استيلائهم على عدن، فقد أحرقوا السفن الموجودة في الميناء ثم اتجهوا بعد ذلك نحو الشمال الى المخا والحديدة، ولكن المسلمين قاوموهم

شر مقاومة حتى ردوهم على أعقابهم، فوجد البرتغاليون فرصتهم في الاستيلاء على جزيرة كمران: ومنها حاولو اعادة التجربة مرة أخرى للاستيلاء على عدن الا أنهم باءوا بالفشل ثانية فوجهوا حملتهم نحو الهند(١٠).

ولكن ما هو الموقف الفعلي لدولة المماليك من التوسع البرتغالي وتهديد جنوب الجزيرة، لقد ذكرنا سابقا ما كان السلطان المملوكي قانصوه الغوري يعاني من المشاكل الداخلية في مصر، ومشاكل الحدود بينه وبين العثمانيين والصفويين، وكذلك ضعف الموارد الاقتصادية لبناء السفن اللازمة للمواجهة وبسبب ما تعانيه بلاده من تحول الطريق التجاري بسبب اكتشاف رأس الرجاء الصالح. اضافة الى ذلك ما كانت تعانيه مصر من نشاط الفرسان الاسبتارية في المياه الشرقية للبحر الابيض المتوسط وقيامهم بشن سلسلة من الغارات على السفن المصرية وهي محملة بالبضائع والاخشاب والعتاد اللازم لبناء السفن(١١). ولكنه مع ذلك كانت المسؤولية تملى عليه وجوب المجابهة للاعداء البرتغاليين الذين تمكنوا من الوصول الى جنوب الجزيرة العربية ودخلوا مياه البحر الاحمر واستولوا على كمران وهددوا ميناء جدة الاسلامي(١٢).

ولو استعرضنا دور المماليك في مواجهة البرتغاليين منذ البداية والمراحل التي مرت بها في تكوين قوتها البحرية لتلك المواجهة لادركنا أنهم بذلوا جهدا يشكرون عليه رغم ضعف الامكانيات لتفادي ما يمكن تفاديه من الاخطار البرتغالية التي كانت تهدف الى تدمير الدولة الاسلامية والوصول الى الأماكن المقدسة.

فبينما كان المماليك يحاولون بناء أسطولهم البحري استولى البرتغاليون على سقطرة عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م كما أشرنا الى ذلك سابقا، واستطاعوا بهذا العمل التحكم في مدخل السفن البحرية الى باب المندب(١٣). ومع ذلك تمكن قانصوه الغوري من ارسال حملته البحرية المكونة من ثلاث عشر سفينة وألف وخمسمائة رجل تحت امرة حسين الكردي، حيث انتهى به المطاف الى جزيرة ديو: ومنها توجه الى شول Chaul لمجابهة الاسطول البرتغالي بقيادة لورنزو دى الميدا Lorenze de Almeyda، ابن نائب الملك وكان ذلك عام ٩١٤هـ / ١٥٠٨م، وكان النصر حليف القائد العربي المسلم حيث قتل ابن الملك(١٤). ولكن انتصار المسلمين لم يدم طويلا فقد عزز البرتغاليون قوتهم وتحت قيادة نونو فاز بييريرا Nunno vaz pereira تمكن الاعداء من مهاجمة الاسطول الاسلامي سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٩م في معركة ديو وأوقعوا بالجيش الاسلامي الهزيمة وأغرقوا سفنهم وعاد القائد المسلم حسين كرد الى مصر حيث تم تعينه نائبا على جده(١٦).

زد على ذلك فان البرتغاليين خططوا بعد هزيمة المماليك في معركة ديو الاستيلاء على ملقا ومنافذ البحر الاحمر والخليج العربي. فتم لهم الوصول الى ملقا عام ١٥١١م ومهاجمة عدن والاستيلاء على كمران عام ٩١٩هـ / ١٥١٣م(١٧).

ولكن السؤال الذي يتبادر الى الذهن هل كان ذلك العمل الذي أثر بدون شك على تحويل

المنتجات الشرقية عن الطرق القديمة المألوفة كان له أثر على الدولة المملوكية بمفردها أم شاركهم في ذلك بعض الدول الأخرى؟ وفي الجواب على هذا السؤال يجب الاشارة الى أن المدن الايطالية جنوة والبندقية صاحبتا الامتيازات التجارية في المناطق العربية آنذاك كانت من أهم البلدان التي تأثرت بهذا الاكتشاف البرتغالي الجديد. وبذلك ما هو موقف المماليك من تلك المدن وخاصة مدينة البندقية؟

لقد كان تجار البندقية من أعظم المتأثرين اقتصاديا من تحول الطريق التجاري عبر المسار الجديد. ففي أوروبا كانت البندقية قبل ذلك الاكتشاف في قمة ازدهارها الاقتصادي، وقد أثراها احتكار تجارة الشرق والغرب. وكان وصول فاسكو دى جاما الى الهند هو الضربة القاصمة لتجارتها. حتى أنها سنة ١٥٧٣م بدأت تقفل أسواقها(٤٨). لذلك عمل تجار البندقية على بذل كل جهد مع المماليك لايقاف النشاط البرتغالي. في عام ٩٠٨هـ ديسمبر سنة ١٥٠٢م اجتمع ١٥ من وجهائها لدراسة هذه الحالة التي وصلت اليها مواردهم الاقتصادية بسبب البرتغال. فأرسلوا وفدا الى مصر برئاسة بندتو سانوتو Benedetto Sanuto لتحذير الغوري من عواقب سيطرة البرتغاليين على المحيط الهندي وكذلك تخفيض أثمان التوابل في الموانئ المصرية لكي يساعدهم على الوقوف أمام ارتفاع أسعارها في الاسواق الاوروبية(٤٩). وكان الغوري من جانبه أن أرسل الى البابا يوليوس الثاني Julius II والى بعض الدول الاوروبية متظلما من التصرفات البرتغالية وأنه في حالة عدم الاعتبار واتخاذ القرار المناسب فانه سيعامل المسحيين القاطنين في بلاده أسوأ معاملة، كما سيقوم باغلاق كنيسة القيامة(٥٠).

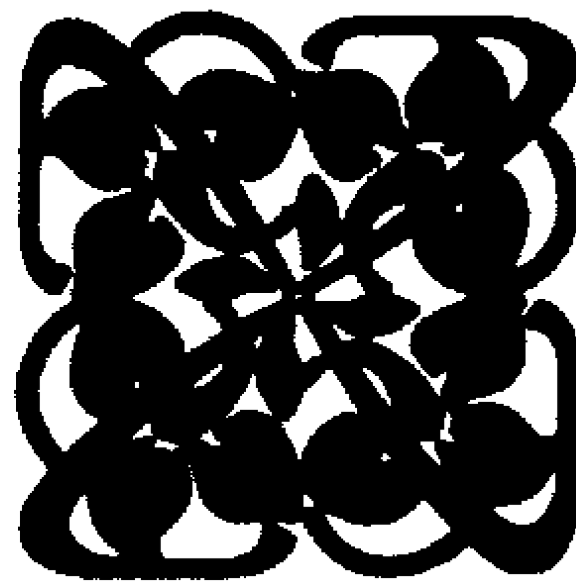
لم يكتف البنادقة بالبعثة الاولى فأرسلوا عام ٩١٠هـ / ١٥٠٤م بعثة أخرى لنفس الغرض، ولكن الغورى أجابهم بانه لا يستطيع أن يعمل شيئا بدون مساعدة عسكرية يستطيع بواسطتها مواجهة البرتغاليين في المحيط الهندي(٥١).

وعندما لم يجدوا الوسيلة الفعالة ضد البرتغال وعجزوا منهم لأن الكلب لا يعض اذن أخيه كما يقول المثل، اقترح البنادقة على الغوري حفر قناة السويس، ولكن الغوري لمشاغله لم يحقق لهم ذلك فوجه أمله نحو الدولة العثمانية لطلب المساعدة في تكوين أسطوله البحري، ولأن الدولة العثمانية تعرف الخطر البرتغالي على العالم الاسلامي لم تتردد في المساعدة فسرعان ما أرسل بايزيد الثاني الى ميناء بولاق عام ٩١٧هـ / ١٥١١م ثلاثين سفينة تحمل الاخشاب والحديد والبارود والبنادق والمجاديف والسهام وغيرها من أنواع العتاد الحربي دون ثمن(٥٢) ولكن العداء الصليبي المتأصل ضد الاسلام والمسلمين دفع حاكم رودس وقبارصتها لمهاجمة السفن المصرية في خليج اياس والاستيلاء عليها وأخذها الى رودس. فما كان من الغوري الا ان أمر بالقبض على الاوروبيين في الاسكندرية ودمياط وكذلك رجال الدين المسيحي في القدس، وأمرهم بالكتابة الى الحكومات الاوروبية باعادة السفن بأسلحتهاز ويصف ابن اياس تأثر الغوري من أعمال الاوروبيين يقولن: «فلما بلغ ذلك السلطان تنكد الى الغاية وامتنع عن الاكل يومين»(٥٣).

بعد ذلك استعد الغوري لمنازلة البرتغاليين، فأرسل عام ٩١٦هـ / ١٥١٤م تحت قيادة حسين الكردي وسلمان العثماني حملة بحرية أخذت طريقها الى جدة ومن ثم الى اليمن ثم الهند. ولكن الحملة لم تحقق الغرض الذي أرسلت من أجله فعادت الى جدة سنة ٩١٨هـ / ١٥١٦م(٥٤). وقد يكون سبب اخفاقها ما حدث من تطورات جديدة على الدولة المملوكية، هذه التطورات تتعلق بالتقدم العثماني نحو مصر وانتهاء دور المماليك كدولة مستقلة عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م.

وبانتهاء حكم المماليك لمصر انتقلت مسؤولية الدفاع عن الاراضي العربية والاسلامية الى الدولة العثمانية التي قدر لها ان تعمل بجهد واخلاص على حماية الأماكن المقدسة وبقية أجزاء العالم الاسلامي من أخطار الاستعمار البرتغالي، ورغم تمكن الدولة العثمانية من تحقيق الانتصارات العظيمة على القوى البرتغالية في جنوب الجزيرة العربية ومناطق الخليج، الا أن القوى البرتغالية بسبب ما يصلها من تعزيزات ــ كانت تظهر بين الحين والآخر لاستعادة بعض المناطق الخليجية. غير أنه بفضل القوى الوطنية ودخول بعض الدول الاوروبية في حلبة الصراع مثل فرنسا وبريطانيا، فانه لم يقدر لهم البقاء في المناطق الخليجية بعد أن سقطت مدينة مسقط سنة ١٦٥٠م آخر موقع حصين لهم في منطقة الخليج ــ على يد الامام ناصر بن رشيد من يعاربة عمان(٥٥).

ولا يسعني في ختام هذا البحث الموجز الا القول بان ما قام به المماليك ودول الخليج من مقاومة ــ على الرغم من قلة الامكانيات ــ خلال تلك الحقبة القصيرة من الزمن يمثل المنهج الراسخ في نفوس أبناء الأمة العربية والاسلامية، ذلك المنهج الذي ساروا عليه جيلا بعد جيل في كفاحهم المستمر ضد الاستعمار والروح الصليبية. فدولة المماليك لا يمكن بأي حال من الاحوال التقليل من شأنها فيا بذلته من جهد ومقاومة تمثلت بوضوح في حماية الاماكن المقدسة التي كان البرتغاليون يصرحون بأهدافهم علنا في الوصول اليها واطفاء نور الاسلام في منابعه. وفي اعتقادي أنه لولا تعرض هذه الدولة (المماليك) لبعض العوامل الخارجة عن ارادتها ــ كما أشرنا الى ذلك في سياق البحث ــ لما تحقق للبرتغال الوصول والاستقرار في المناطق العربية الخليجية. والدول الخليجية الأبية بذلت كل ما في وسعها، وعمل أبناؤها جاهدين مثابرين ضد الاستعمار البرتغالي، وجندوا أرواحهم وأموالهم حفاظا على كرامتهم واستبقاء لشرف أمتهم العربية الاسلامية. وكانت الوقائع الدامية بين المستعمر وأبناء الخليج شهادة صادقة لاثبات روح الوطنية الصادقة التي لاتعرف الكلل والملل والاستسلام.



المصادر والمراجع

ـ ابن اياس، محمد بن احمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، مطابع الشعب، ١٩٦٠م.
ـ أحمد العناني، البرتغاليون في البحرين وما حولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر «مجلة الوثيقة» الصادرة عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، العدد الرابع.
ـ احمد د راج، مقالة بعنوان «ايضاحات جديدة» مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ٦٧/٦٨.
ـ احمد دراج، والسيد رجب حراز، دراسات في التاريخ المصري، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٦م.
ـ أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٧٧م.
ـ الموسوعة العربية الميسرة، ط٢، دار الشعب، ١٩٧٢.
ـ المقريزي، تقي الدين احمد، السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة، دار الكتب، ١٩٧٠م.
ـ بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢م.
ـ رجب حراز، عصر النهضة، القاهرة، ١٩٧٤م.
ـ سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عهد الايوبيين والمماليك، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٢م.
ـ سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الثاني، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٠م.
ـ صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة، المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧٤م.
ـ عبد العزيز سليمان نور، الشعوب الاسلامية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٣م.
ـ عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دارسة وثائقية، الرياض، مطبوعات دار الملك عبد العزيز، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
ـ غسان على محمد رمال، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر، جده، مطابع دار العلم، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.
محمد رزق سليم، الاشرف قانصوه الغوري، القاهرة، الدار المصرية.
ـ محمد عبد الله عنان، دولة الاسلام في الاندلس، القسم الاول، ط٤، القاهرة، مطبعة لجنة التاليف، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.
ـ محمد عبد الله عنان، نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين،(ط٣، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.

ـ نوال صيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، الرياض، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
ـ ويلسون السير أرنولد، الخليج العربي، ترجمة الدكتور عبد القادر يوسف، الكويت، مؤسسة فهد المرزوق الصحفية.

المصادر الأجنبية

* Albaquerque Afonso, The Commentaries of the Great Afonso Albaquerque Vol. III. Traslated from the portuguese edition by Walter de Gray Birch London, Printed for the Hakluga society, 1880.
* Bailey, W. Diffie and Winius George, D. Foundation of the Portuguese Empire, 1415 - 1580, Minneapolis: University of Minnesota, Press, 1977.
* Coupland, R. East Africa and its Invaders. Oxford: The clarendon Press, 2nd ed, 1958.
* Faria sousa. The History of the Discovery and conquests of India by the Portuguese, Translated in English by John Stevens, London: 1894.
* Fisher, S.N. The Middle East A History. New York: Alfred A. Knop, Inc, 2nd Ed, 1968.
* Gordon, D. Historical Geography of Europe. London: 2nd ed, Mathen and co. Ltd, 1943.
* Grane Briton, and others. A History of Civilization, Vol. I, 2nd Ed. New Jersey: Prentice -Hall, Inc, 1960.
* Hess Andrew, S. The Evolution of the seaborn Empire in the Age of Oceanic Discoveries. " American Historical Review ", 1970
* Jeudwine, J.W. Studies in Empire and trade. London: Longmans, Green and co, 1923.
* Kertesz, D.S. and Fitzsimins, M.A. Diplomacy in A Changing World. University of Notre dame, Press,1959.
* Miles, S.B. The Countries and Tribes of the Persian Gulf. London: 1966.
* Solomon Modell. A History of the western world, Vol. I. New Jersey: Prentice - Hall, Inc, 1974.
* Stripling, G.W.F. The Ottoman Turks and The Arabs. Urbana:The University of Illinois Press, 1942.
* Torayah Sharaf, A. A Short History of Geographical Disçovery.London : George, G. Harrap and co. Ltd., 1967.

الهوامش

١. محمد عبد الله عنان، نهاية الاندلس، ص ٣٢٢.

٢. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، ص ٢٤.

٣. محمد عبد الله عنان، دولة الاسلام في الاندلس، القسم الاول، ص٢٤.

٤. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، ص٢٥.

• الفونسو دى البوكيرك Alfonso de Albuquerque قائد بحري برتغالي والمؤسس الحقيقي للامبراطورية البرتغالية في الشرق. رحل الى الهند عام ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م، واستولى عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م على هرمز، وفي عام ٩١٧هـ / ١٥١١م أبحر الى ملقا واستولى عليها وبذلك وضع جنوب شرق آسيا في دائرة النفوذ البرتغالي وقد مات بمدخل ميناء جوا عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م. (الموسوعة العربية الميسرة ١٩٧٢م ص١٩٦).

٥. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، ص١٠.

٦. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، ص ٤٨.

٧. Solomon Modell. A History of the western world, Vol.I, p. 605.

Kertesz, S.D and Fitzsimons, M.A. Diplomacy in A changing world, p. 5.

٨. Fisher, S.N. The Middle East A. History, p. 144.

سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج٢ / ٣٠٣.

٩. Fisher, S.N. The Middle East A History, p. 145.

١٠. احمد دراج، مقالة بعنوان «ايضاحات جديدة»، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، عدد ٦٧/٦٨، ص٢٢٠.

١١. أحمد دراج، دراسات في التاريخ المصري، ص ١٠٩.

١٢. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، ص ١٠/١١.

١٣. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، ص٢٣٣.

سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المملوكي في مصر والشام، ص ٣٠٠.

١٤. السيد رجب حراز، عصر النهضة، ص ٣١٦.

١٥. عبد العزيز سليمان نوار، الشعوب الاسلامية، ص ١٣١.

١٦. عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دارسة وثائقية، ص١٩.

١٧. نفس المصدر، ص ٢٥.

١٨. السير أرنولدت ولسون، الخليج العربي، ترجمة عبد القادر يوسف، ص ١٠٤.

١٩. صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، ص١٥.

٢٠. نفس المصدر ونفس الصفحة.

٢١. نوال صيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج، ص١١٨.

٢٢. أرنولدت ويلسون، الخليج العربي، ص٢٠٥.

٢٣. ويلسون الخليج العربي، ص٢٠٦.

أحمد العناني، البرتغاليون في البحرين وما حولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، مجلة الوثيقة

الصادرة عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، العدد الرابع، ص٨٦.

٢٤. Faris Sousa. The History of the Discovery and conquest of India by portuguese. Translated into English by John Steven, Vol, I, p. 128

٢٥. ويلسون، الخليج العربي،ص ٢٠٨.

• لوريمر في دليل الخليج الجزء الأول وفاريا سوسا في كتابها يشيران الى تمكن البرتغاليون من فتح مدينة هرمز بيسر وسهوله وكأنها أقل مدينة قاومتهم في منطقة الخليج، ورأيها تماما عكس الواقع حيث كانت مقاومتها أعظم مما كانوا يتصورون وهي المدينة الوحيدة التي واجه فيها البرتغاليون خسائر جسيمة حتى تغلبوا عليها.

٢٦. ويلسون، الخليج العربي، ص ٢٠٨.

٢٧. ويلسون، الخليج العربي، ص٢٠٨. عبد العزيز سليمان نوار، الشعوب الاسلامية، ص١٣٢.

٢٨. عبد العزيز ابراهيم، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دارسة وثائقية، ص٣٠.
صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، ص١٦.
ويلسون، ص٢٠٩.

٢٩. East Gordon. Historical Geography of Europe. p. 320
Crane Briton, Jhon, B. Christopher, Robert lee wolff. A History of Civilization, p 519-21.

٣٠. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٥٠٧، ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٨٧، ٣٣٥.

٣١. J.W Jenwine. Studies in Empire and trade. p. 130.
R. Coupland. East Africa and its Invaders, p.47

٣٢. أحمد العناني، البرتغاليون في البحرين وحولها، مجلة الوثيقة، العدد الرابع، ص٧٩.

٣٣. ويلسون، الخليج العربي، ص ٢١٣.

٣٤. صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، ص١٧.

٣٥. ويلسون، ص٢١٣.

٣٦. نفس المصدر السابق، ونفس الصفحة.

٣٧. عبد العزيز ابراهيم، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دراسة وثائقية، ص٣٢، ويلسون، ص٢١٤.
Miles, S.B. The countries and Tribes of the persian Gulf, p. 154.

٣٨. ويلسون، ص ٢١٨.

٣٩. Afonso, Albaquerque. The commentaries of the Great Afonso Albaquerque. Vol.III. Translated from the portuquese Edition of 1774 by walter de Gray Birch. p. 126, 28.

٤٠. عبد العزيز نوار، الشعوب الاسلامية، ص ١٣١، صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، ص١٨.

٤١. غسان محمد رمال، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر، ص ١٤٢.

٤٢. احمد سيد دراج، دراسات في التاريخ المصري، ص١١٤.

٤٣. المصدر السابق، ص ١٢٦، انظر ايضا:
G.W.F. Stripling. The Ottoman Turks and the Arabs. p. 30.

٤٤. A Torayah Sharaf. A short History of Geographical Discovery, p. 170. Andrew c. Hess "The Evolution of the Ottoman Seaborne in the Age of the Oceanic discoveries 1455- 1525. American historical revieu, 1970, p. 1905.

٤٥. J.W. Jeudwine. Studies in Empire and trade. p. 130. Sir John Glubb. Soldiers of fortune, The story of the Mamluks. p. 418.

كذلك انظر ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٤/ ١٤٢.

٤٦. ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٤/ ٣٠٨، وايضا: احمد دراج، دراسات في التاريخ المصري، ص١١٣.

٤٧. Afonso, Albaquerque. The Commentaries of the Great Afonso Alaquerque. Vol. III, p.126- 28.

كذلك انظر: غسان رمال، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر، ص٩٩/١٨٧.

٤٨. عبد العزيز ابراهيم، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دراسة وثائقية، ص٢٣/٢٤.

سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك، ص٣٧٥.

٤٩. احمد دراج، دراسات في التاريخ المصري، ص ١٠٩/١١٠، انظر كذلك:

Bailey, W. Diffie and George D. Winius. Foundations of the portugues Empire. p. 230- 31

٥٠. المصدر الانجليزي السابق، ص ٢٣١.

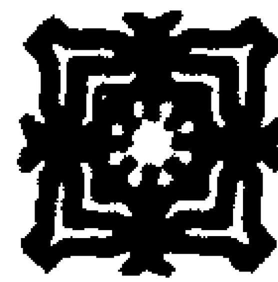
٥١. أحمد دراج، دراسات في التاريخ المصري، ص ١١٠.

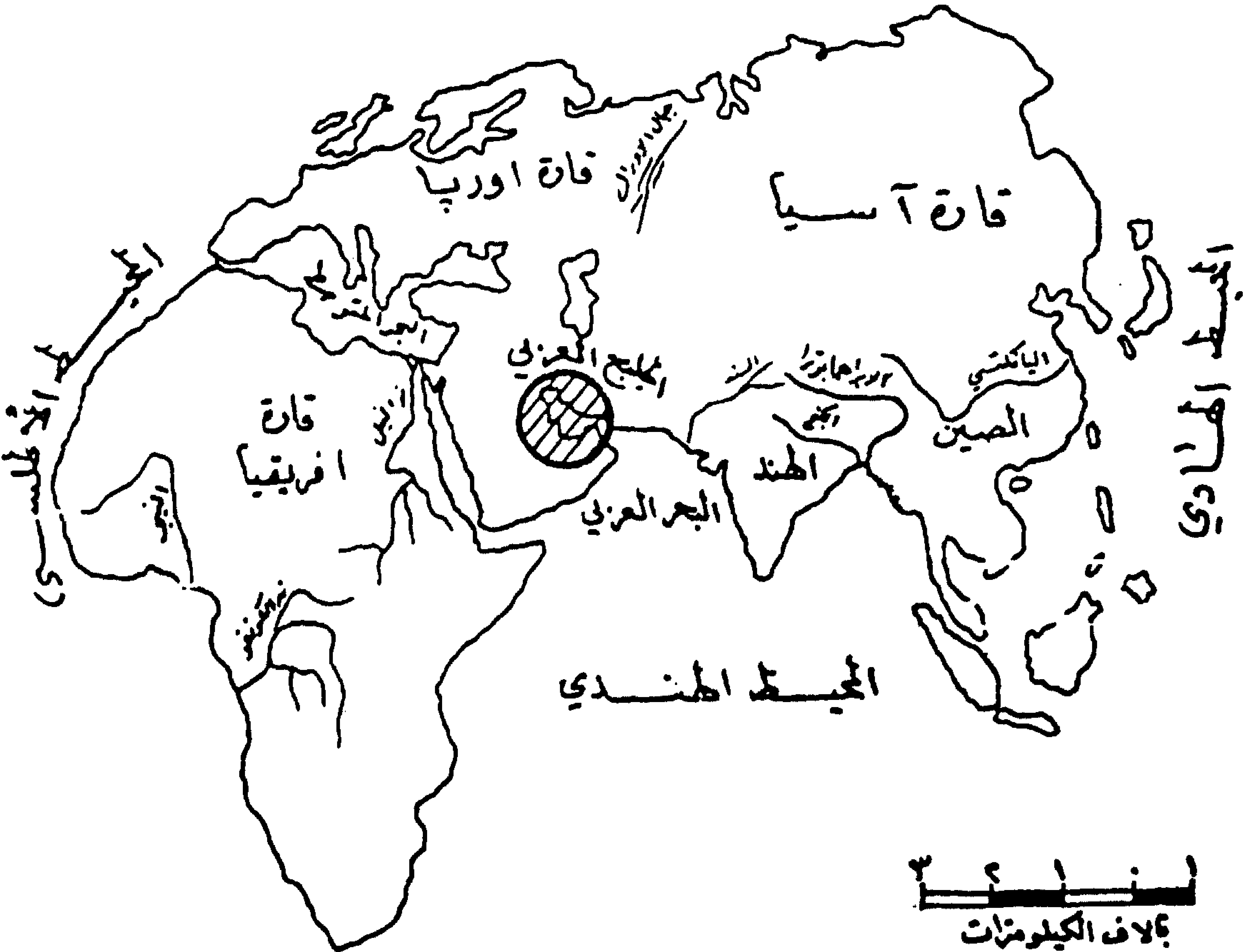
٥٢. ابن اياس، ص٧٨٧. أحمد دراج، دراسات في التاريخ المصري، ص١٢١.

٥٣. المصدر السابق، ص ١١٧.

٥٤. محمد رزق سليم، الاشرف قانصوه الغوري، ص ١١٧. ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤/٤٥٨.

٥٥. أحمد العناني، البرتغاليون في البحرين وحولها، مجلة الوثيقة، العدد الرابع، ص١١٤.





الموقع الجغرافي لمنطقة الخليج العربي
قارة اوربا
قارة آسيا
قارة افريقيا
الخليج العربي
البحر العربي
الهند
الصين
المحيط الهندي
المحيط الهادي
المحيط الاطلسي
البحر المتوسط
آلاف الكيلومترات

المجابهة البرتغالية ـ العثمانية في المياه العربية

د. عبد الوهاب عباس القيسي
قسم التاريخ
كلية التربية ـ جامعة بغداد

حين وصلت طلائع السفن البرتغالية الى المياه العربية في أوائل القرن السادس عشر كانت المنطقة العربية تواجه اوضاعا خطيرة لم تمكنها من التصدى الجاد للتغلغل البرتغالي في المياه العربية. فالاقطار العربية في شمال افريقيا كانت منهمكة في الدفاع عن اراضيها ضد هجمات الايبيريين (الاسبان والبرتغاليين) الصليبية الاستعمارية بينما بدات تظهر على الحكم المملوكي في مصر وسوريا والحجاز علائم التدين الاقتصادي والعسكري، اما بالنسبة للعراق فقد تعرض منذ سنة ١٥٠٨ الى الاحتلال الصفوي الفارسي. من ناحية اخرى يلاحظ ان الدولة العثمانية باعتبارها اعظم وأقدم دولة اسلامية في النصف الاول من القرن السادس عشر، كانت منشغلة بحروبها البرية ضد امبراطورية آل هبسبرك النمساوية وبمعاركها البحرية ضد الاساطيل الايبيرية واساطيل حكومات المدن الايطالية في البحر الابيض المتوسط، لذلك فانها لم تلعب دورا مباشرا في التصدي للغزو البرتغالي للبحر الاحمر والخليج العربي الا بعد احتلالها لمصر عام ١٥١٧ والعراق عام ١٥٣٤. عندئذ بدأت الدولة العثمانية تعد العدة للتواجد في المياه والسواحل العربية والاسلامية بغية الكفاح ضد توسع البرتغاليين الصليبي وسياستهم التجارية الاحتكارية التي استهدفت تحطيم التعامل التجاري العربي والاسلامي بين الهند والشرق الاقصى من جهة والشرق الاوسط وأوروبا من جهة أخرى.

ان تاريخ الغزو البرتغالي للمياه العربية واحداثه التي دامت من بداية القرن السادس عشر حتى منتصف القرن السابع عشر وما تخلل ذلك من اضرار اقتصادية وسياسية بالنسبة للاقطار العربية

قد درس الى حد كبير من قبل الكتاب العرب في حين ان رد الفعل العثماني لذلك الغزو لم يحظ بالعناية الكافية من جانب المهتمين بتاريخ الدولة العثمانية والتغلغل الاوروبي في الوطن العربي(١).

الخلفية التاريخية للتوسع البرتغالي:

بدأت البرتغال منذ عهد الملك جون الاول (١٣٨٥ ـ ١٤٣٣) تتطلع بصورة جدية الى التوسع خارج القارة الاوروبية. وكان جون هذا ابنا غير شرعي للملك البرتغالي بطرس الاول (١٣٥٧ ــ ١٣٦٧) وقد تزوج بأميرة انكليزية تدعى فليبا ابنة جون جونت وبذلك دخل عروق الاسرة الحاكمة البرتغالية دم انكليزي(٢). وولدت فليبا لجون خمسة اولاد وبنتاً، من بينهم هنري الملاح (١٣٩٤ ــ ١٤٦٠) الذي اشتهر اسمه في تاريخ الاستكشافات الجغرافية في القرن الخامس عشر الميلادي.

كان جون الاول وزوجته وكذلك اولاده الخمسة، وخاصة هنري الملاح، يحملون نزعة صليبية مناهضة للعرب والمسلمين وعلى ذلك فان ادل عمل توسعي لهذا الملك اتجه صوب البلد العربي مراكش، اذ قام هو وبصحبته اربعة من ابنائه، في سنة ١٤١٥م باحتلال مدينة سبته الواقعة مقابل جبل طارق(٣). والذي يهم من هذا الاحتلال ان هنري، الابن الثالث لجون، عند عودته من سبته قرر أن يبقى مخلصا حتى مماته كملاح ورائد في عملية الاستكشفات والتنقيبات(٤).

ان احتلال مدينة سبته يعتبر أول انتصار تحصل عليه دولة اوروبية على العرب والمسلمين في شمال افريقيا. وفي اعقاب ذلك الاحتلال ظهرت طموحات مآلها ان الحكم البرتغالي والمسيحي من الممكن ان يتم تأسيسه في جميع انحاء منطقة شمال افريقيا. لقد كانت مدينة سبته بمثابة المحطة النهائية للتجار القادمين من جنوب الصحراء. ومن أولئك التجار تعرف البرتغاليون على مناجم الذهب في غينيا وعلى العاج والرقيق الاسود وغيرها من البضائع التي يمكن شراؤها من ملك المنطقة. كذلك فان الامير هنري، ابن الملك جون الاول صار يقوم بادارة عملية الاستيطان في مجموعة جزر الماديرا منذ عام ١٤١٨. وفي عام ١٤١٩ عين هنري حاكماً على اقليم الكارف Algarve (أي الغرب) البرتغالي وعندئذ اسس مركز ادارته على الساحل في مدينة ساغريس Sagres ومنها صار يرسل الحملات البحرية للتنقيب والاستكشافات فى غرب افريقيا.

كان الامير هنري رجلا متصوفاً ومتحمساً للمسيحية لذلك لايمكن اعتباره من رجال النهضة الاوروبية. كما ان تحمسه للاستكشافات لم يكن هدفه الرغبة في توسيع حدود المعرفة البشرية بل كان نابعاً من تصميمه على حمل العلم المسيحي الى العالم الاسلامي(٥)، واذا كان ممكنا الاتصال بالحاكم المسيحي الاسطوري بريستر جون (عرف فيما بعد انه ملك الحبشة) الذي كان يعتقد بانه يحكم منطقة تقع في قلب القارة الافريقية. من ناحية اخرى يمكن القول بان الاستكشفات في الساحل الافريقي كانت ستحدث سواء رغب هنري في ذلك أم لم يرغب، اذ ان اغراء الذهب والعاج والرقيق الاسود كان قوياً الى درجة لم يكن بالامكان مقاومته، غيرأن هنري اعطى حركة

الاستكشافات زخماً كبيرا بتوظيفه الافراد والاموال والحماس الديني لتلك الحركة. وكان هنرى هذا الملقب بالملاح رئيساً لجمعية المسيح العسكرية وبسبب شهرة انجازاته منحه ملك البرتغال حق احتكار التجارة في الساحل الافريقي الغربي بينا جعل البابا جمعية المسيح العسكرية المسؤول الوحيد عن اعمال التبشير في الاقاليم المكتشفة حديثا(٦). توفى هنري عام ١٤٦٠ في وقت كان الملاحون العاملون تحت ادارته قد وصلوا الى سيراليون. وليس هناك دليل بان هنري كان يفكر في البحث عن طريق بحري يربط أوروبا بالهند.

لقد تباطأت بعض الشئ اعمال الاستكشفات بعد وفاة هنرى لذلك اضطر الملك البرتغالي الى منح احتكار بعض الاعمال الاستكشافية الى التجار البرتغاليين. وبعدئذعادت ثانيةعمليات التنقيب ووصلت الى ساحل العاج وساحل الذهب وهي مناطق اطلقت عليها اسماء ترتبط بمصادر ثرواتها الرئيسية(٧). والى الغرب من الساحلين المذكورين يقع ساحل الحبوب Grain Coast الذي ينتج نباتا من الفلفل الثمين في حين كانت تتوفر عند ساحل موريتانيا مصائد عجل البحر النفيسة.

في عام ١٤٨١ ظهر خليفة لهنري الملاح متمثلا بشخص الملك جون الثاني. وقد نظم هذ الملك رحلات الاستكشاف وأسس مدرسة ملاحية واختار رجالا اكفاء جسودين كي يكونوا ربابنة في اسطوله البحري. وصمم الملك جون على الاستفادة من التجارة مع السواحل الافريقية التي تم اكتشافها. بالاضافة الىذلك تكونت لديه طموحات واسعة تتعلق بايجاد طريق بحري يؤدي الى الهند. لذلك قام بتجهيز حملة تستهدف تنفيذ رحلة طويلة برئاسة بارثولوميو دياز. تحركت الحملة المؤلفة من ثلاث سفن في آب ١٤٨٧(٨). ولقد ساقت العواصف القوية دياز بعيداً الى البحر خارج الساحل الافريقي ثم استطاع شق طريقه باتجاه الشرق لكنه فشل في ايجاد اليابسة. وعندئذ اكتشف انه في داخل المحيط الهندي. وهكذ دار دياز حول افريقيا في منطقة رأس الزوابع (الذي سمي فيا بعد رأس الرجاء الصالح) وعاد في أواخر عام ١٤٨٨ الى لشبونة فخوراً بما انجزته حملته. وسرعان ما أمر الملك جون الثاني بتجهيز حملة كبيرة تبحر الى الهند.

وعلى أية حال مضت حوالي تسع سنوات قبل ان تغادر تلك الحملة بلاد البرتغال. وبعد وفاة جون الثاني سنة ١٤٩٥ تولى الحكم ملك جديد وهو عمانوئيل الاول (١٤٩٥ ــ ١٥٢١) الذي اكمل مشروع الملك السابق اذ أناط رئاسة الحملة بفاسكو دى غاما ويساعده في الرئاسة بارثولوميو دياز. وفي تموز ١٤٩٧ تحرك دى غاما من لشبونة وبعهدته سفينتان مسلحتان تحملان اسمي دينيين هما القديس جبرائيل والقديس روفائيل. وفي تشرين الثاني ١٤٩٧ دار دي غاما حول رأس الرجاء الصالح وتوقف عند الساحل الافريقي الشرقي في اقليم الناتال ومن هناك ابحر الى الهند ثم وصل في ايار ١٤٩٨ الى كاليكوت، وبذلك استغرقت رحلته التي فتحت عهداً جديداً في تاريخ العالم مدة عشرة أشهر(٩). ان فاسكو دى غاما لم يصل، شأن كريستوف كولبس مكتشف امريكا، الى عالم غير معروف يسكنه همج بدائيون، بل وجد في آسيا اقطارا غنية متعودة على التعامل مع التجار العرب والمسلمين. وكان عليه استخدام الدبلوماسية، أو القوة احيانا، كي يشق طريقه بحذر بسبب ما وجده

من ذهول وخوف وغيرة وفضول عند من التق بهم من السكان. ورغم الصعوبات التي وضعها في طريقه تجار المنطقة، الذين شكوا، وهم على حق بان اسطوله الضئيل ينذر بتحد برتغالي لنشاطهم التجاري في المحيط الهندي، استطاع دى غاما شحن حمولات من التوابل والاحجار الثمينة وعاد معها الى لشبونة التي وصلها في تموز ١٤٩٩. فقد دى غاما نصف اسطوله ونصف رجاله لكنه اظهر دون أي شك ان طريقا بحريا يؤدي الى الهند وما جاورها موجود وبالاستطاعة استغلاله وجني الارباح بواسطته. لذلك فسرعان ما أخذ ملك البرتغال عمانوئيل الاول يضفي على اسمه لقب (سيد الفتوحات والملاحة والتجارة في الحبشة وجزيرة العرب وبلاد فارس والهند(١٠).

منذ القرن السادس عشر توالت الرحلات البرتغالية الى سواحل غرب افريقيا والهند بهدف احتكار التجارة الشرقية وابعاد العرب والمسلمين عن تلك التجارة. وفي عام ١٥٠٥ عين دي الميدا أول نائب ملك على الهند واعقبه في ذلك المنصب سنة ١٥٠٩ ألفونسو دي البوكيرك. وقد صار البرتغاليون يشيدون الحصون والمراكز التجارية على السواحل الافريقية والاسيوية، واستطاع البوكيرك عام ١٥١٠ من احتلال غوا التي كانت تتبع السلطان الهندي بيجابو ثم اصبحت غوا المركز الرئيسي للعمليات البرتغالية في الشرق(١١). بعد مدة سنتين تم الاستيلاء على ملقا فأصبحت مركزا للتجارة مع جاوه وسيام وبيكو، وبسبب اشراف ملقا على مضائق الملاحة تمكن البرتغاليون من السيطرة على معظم التجارة بين الشرق الاوسط والشرق الاقصى.

لغرض منع أو عرقلة التجارة العربية والاسلامية بين الهند والشرق الاوسط صمم البرتغاليون على احتلال مدخلي البحر الاحمر والخليج العربي. وبالفعل استطاع البوكيرك من الاستيلاء على جزيرة سوقطره الواقعة في منتصف الطريق بين البحر الاحمر والخليج العربي، كما هاجم عدن ولكنه فشل أمامها بسبب المقاومة العربية العنيفة. وحصل البرتغاليون على تنازل اسمي من هرمز اثناء فترة دي الميدا نائب ملك البرتغال في الهند. وبعد الميدا ابحر خليفته البوكيرك باتجاه هرمز برفقة سبع سفن تحمل ١٥٠٠ برتغالي. وكانت النتيجة استسلام الحصن وبذلك توطدت سيادة البرتغاليين على هرمز(١٢) المدخل الجنوبي للخليج العربي.

ان البرتغال من رواد أوروبا الاول في عالم الاستكشافات والاستعمار، لم تكن في مستهل القرن السادس عشر الميلادي الا قطراً صغيراً من حيث المساحة والسكان والموارد الاقتصادية. فساحتها لم تتجاوز ال ٩٠ ألف كليو متر مربع (أي حوالي خمس مساحة العراق الحالية)، أما سكانها فلم يكن مجموعهم يزيد على المليون نسمة. ومن حيث التكوين العرقي يمكن القول ان البرتغاليين كانوا خليطا من أصول مختلفة. فالسكان الاصليون ينتمون الى الايبريين (سكان الباسك حاليا) ثم اختلط بهم الغاليون (سكان فرنسا القديمة) وخاصة في شمال البلاد، كما ينتشر في وسط البرتغال سكان من أصل عربي بينما يضم جنوب البرتغال عناصر من أصل افريقي — زنجي(١٣).

استفادت البرتغال، شأنها في ذلك شأن اسبانيا، من استقرار نسبي بالنسبة للأقطار الاوروبية الاخرى، في أوضاعها السياسية والدينية في أوائل القرن السادس عشر، الى جانب استفادتها من

خبرات الملاحين الايطاليين (البندقيين والجنوبيين) وكذلك في موقعها القريب من سواحل افريقيا الشمالية والغربية. وبذلك اصبحت من الاقطار الاوروبية الرائدة في عمليات الاستكشافات.

وبسبب ذكريات الصراع بين الامارات المسيحية الصغيرة وبين الحكم العربي الاسلامي في الاندلس، وسقوط آخر معالم ذلك الحكم في غرناطة سنة ١٤٩٢و ارتبطت نشاطات البرتغاليين، والاسبان، الاستكشافية والتجارية بالنزعة الدينية الصليبية المناهضة للعرب والمسلمين. أذ «كان القادة البحريون البرتغاليون يظهرون كبرياء عنصريا متطرفا، الى جانب تعصبهم ضد الاسلام وكانوا بالنسبة للعرب عدوا عديم الرحمة وعديم المبادئ»(١٠٤).

من المرجح ان مركب النقص الذي شعر به البرتغالون بسبب نقص السكان وضآلة مساحة البلاد وقلة الموارد الاقتصادية، بالاضافة الى شعورهم بأنهم في الشرق كانوا غرباء بين السكان، من الناحيتين اللغوية والدينية جعلهم يتصنعون باظهار شعور الغرور والكبرياء. ولذلك صاروا يتطرفون في مواقفهم العدوانية واساليبهم الصليبية ضد العرب والمسلمين الذين واجهوهم في المياه العربية والمحيط الهندي، وبسبب ما لاحظه البرتغاليون من تقدم النشاط العربي التجاري، والحضاري بصورة عامة، في افريقيا وآسيا لجئوا الى استخدام الاساليب الصليبية والعنف والقرصنة في تعاملهم مع سكان الشرق. «وكان البرتغاليون يعتقدون، ويبدو ان هذا أمر غريب، ان البرتغال وان كانت دولة صغيرة في أوروبا لكنها أمة عظيمة في العالم كله. وهذا الشعور بالكبرياء وبالانتشار البرتغالي فيما وراء البحار اصبح جزءاً من العقلية الاستعمارية البرتغالية»(١٠٥).

الخلفية التاريخية للموقف العثماني:

منذ أن وصل البرتغاليون الى سواحل الهند أخذت التجارة الخارجية التي تصل الى مصر عن طريق البحر الاحمر تتحول الى طريق رأس الرجاء الصالح. ولقد عبر الكتاب العرب والمسلمون المعاصرون للغزو البرتغالي عن اخطار ذلك الغزو من الناحيتين التجارية والدينية. اذ كتب احدهم في حوادث سنة ٩٠٨هـ (١٥٠٢م) انه «في تلك السنة ظهرت مراكب الافرنج (البرتغاليين) في البحر وطريق الهند وهرمز وتلك النواحي واخذوا سبعة مراكب وقتلوا أهلها»(١٠٦). وكتب ثاني انه في سنة ٩١٣هـ (١٥٠٧م) «هاجم الافرنج جزيرة سوقطرة وانشأوا حصناً للاشراف على تجارة البحر الاحمر والمحيط الهندي في محاولة للقضاء على نفوذ السلاطين المماليك»(١٠٧). أما الكاتب الثالث فيقول عن البرتغاليين «ان بغيتهم العظمى وهمتهم الكبرى قديما وحديثا تغيير دين المسلمين وادخالهم في النصرانية نعوذ بالله من ذلك»(١٠٨).

أرسل ملك كوجرات والحكام المسلمون الآخرون بجنوب الهند الى السلطان المملوكي الغوري يستحثونه على التدخل والمساعدة في طرد البرتغاليين(١٠٩). وبناء على ذلك أصدر الغوري أمره في عام ١٥٠٥ بأعداد حملة حربية تتجه الى الهند وتتكون من خمسين سفينة بقيادة الامير حسين الكردي

نائب جدة. غادرت الحملة السويس ثم وصلت ينبع فجدة ومن هناك اتجهت الى الشاطئ الغربي للهند.

وقد انتصر الاسطول المملوكي على البرتغاليين في معركة شول Chaul سنة ١٥٠٨ غير ان البرتغاليين استطاعوا في السنة التالية ان ينتقموا بتحطيم الاسطول المملوكي في معركو ديوا(١٠). وقام السلطان الغوري فيا بعد بتجهيز حملة اخرى تتوجه الى الهند وطلب العون العسكري من السلطان العثماني بايزيد الثاني الذي أمده بالاسلحة والاخشاب اللازمة للاسطول لانقاذ الاماكن الاسلامية المقدسة. وتم بناء نحو عشرين سفينة في السويس وصار هذا الاسطول تحت قيادة الامير حسين الكردي ايضا ومعه الرئيس سلمان العثماني. توجهت الحملة الى جدة ومن ثم الى اليمن سنة ١٥١٥ غير ان القائد حسين لم يستطع الذهاب الى الهند وان كان قد أمن مدخل البحر الاحمر(١١).

انشغل السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢ ــ ١٥٢٠) في بداية توليه السلطة بصراع مرير ضد الحكام الصفويين في بلاد فارس الذين اصبحوا يشكلون خطراً على منطقة الاناضول. وعلى أي حال استطاع هذا السلطان الانتصار على اسماعيل الصفوي في المعركة الحاسمة چالديران عام ١٥١٤. في هذه الفترة بالذات اتجهت انظار بعض الاقطار العربية والاسلامية الى الدولة العثمانية كي تعينها ضد الخطر البرتغالي. وعلى سبيل المثال اقترح شريف مكة في أوائل عام ١٥١٦ ارسال وفد الى السلطان سليم الاول طلبا للمساعدة العسكرية غير ان السلطان المملوكي الغوري منع سفر ذلك الوفد(١٢). وبالنسبة لعلاقة الدولة العثمانية بالمماليك فقد صارت متأزمة منذ معركة چالديران وذلك بسبب موقف المماليك المؤيد أو المتعاطف مع الصفويين، بالاضافة الى ايواء المماليك لبعض افراد الاسرة العثمانية المناهضين للسلطان سليم. من جهة أخرى، أدت سيطرة العثمانيين على امارة ذي القدر الحدودية الواقعة في جنوب غربي الاناضول الى غضب المماليك لانهم انفسهم كانوا يطمحون في احتلال تلك الامارة. واخيرا فان عدم قدرة المماليك على ابعاد الخطر البرتغالي عن الاقطار العربية والاسلامية عزز مشروع السلطان سليم القاضي بضم بلاد المماليك، التي تتألف أساساً من مصر وسوريا والحجاز، الى الدولة العثمانية. وفي شهر آب من عام ١٥١٦ زحف السلطان سليم الاول باتجاه سوريا واعلن للعرب انه جاء ليحررهم من الطغيان المملوكي ويحمي العالم الاسلامي(١٣).

بعد انتصار العثمانيين على المماليك في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦ تسلم السلطان سليم في جامع حلب الكبير، وبحضور الخليفة العباسي المتوكل، لقب «خادم الحرمين الشريفين مكة والمدينة» ومن ثم تم احتلال دمشق من العام نفسه والقاهرة سنة ١٥١٧ وبذلك زالت دولة المماليك. وبعد بضعة اشهر من احتلال القاهرة ارسل شريف مكة السيد بركات ولده «أبانمي» الى السلطان سليم معلناً تبعيته للسلطنة العثمانية(١٤). وهكذا اصبحت الدولة العثمانية تتحمل مسؤولية الكفاح ضد البرتغاليين سواء من اجل انقاذ الاراضي المقدسة الحجازية من تهديداتهم المتكررة لها أو من حيث اعادة التجارة الشرقية الى مصر وبقية الاقطار العربية. وبذلك «بدأت صفحة جديدة من الصراع في المياه العربية

كان التمويل والاعداد والقيادة للاساطيل الاسلامية ضد البرتغاليين في المياه العربية والهندية في يد العثمانيين»(٢٥).

سبقت الاشارة اعلاه الى ان البرتغال المتحمسة للنشاط الاستكشافي والتجاري والصليبي لم تكن في القرن السادس عشر الا دولة صغيرة جدا من حيث عدد سكانها وحجم قطرها ومواردها الاقتصادية، في حين ان الدولة العثمانية التي أخذت تسعى الى مجابهة البرتغاليين في المياه العربية كانت قد اصبحت وخاصة في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦) دولة امبراطورية عالمية تمتد اراضيها الى القارات الثلاث آسيا وأوروبا وافريقيا وتبلغ مساحتها حوالي اربعة ملايين ونصف المليون كليو متر مربع. أما عدد سكانها الموزعي في القارات الثلاث المذكورة فقد بلغ حوالي خمسين مليون نسمة(٢٦). بالاضافة الى ذلك فانها كانت تمتلك أقوى واضخم الجيوش البرية في العالم. وبالنسبة لنواحي القوة عند البرتغاليين يمكن القول انهم، بعكس العثمانيين الذين توزعت نشاطاتهم ومهامهم في مناطق واسعة في آسيا وأوروبا وافريقيا، كانوا متفرغين للقرصنة والنشاط التجاري وخاصة في قارة آسيا.

كذلك استفادت البرتغال من سياستها الدينية التبشيرية اذ حصلت على تشجيع وبركة الكنيسة الكاثوليكية والرئاسة البابوية. واخيراً امتلكت البرتغال سفناً كانت مصممة للابحار في رحلات عاصفة بعكس السفن الآسيوية المصنوعة للابحار وفق حركة الرياح الموسمية. والحقيقة ان سفن المماليك والعثمانيين كانت ملائمة لظروف البحر المتوسط اكثر من ملائمتها لظروف البحر الاحمر والمحيط الهندي(٢٧).

اسباب المجابهة البرتغالية ــ العثمانية

بعد ان ضم السلطان سليم الاول الى الدولة العثمانية كلا من سوريا ومصر والجزيرة العربية تبدلت مكانة السلطان العثماني بصورة جذرية اذ اصبح اكثر من سلطان «غازي» يحكم على حدود العالم الاسلامي فقد صار حامي مكة والمدينة والمسؤول عن سلامة طريق الحج. أي أن الدولة العثمانية لم تعد دولة تحرس الحدود «ضد الكفار» بل صارت من الناحية العملية، وليست الشرعية، خلافة اسلامية واصبح السلاطين العثمانيون يعتبرون انفسهم حماة ليس فقط للحدود، بل لجميع العالم الاسلامي(٢٨). فعندما استعان سلطان كجرات الهندية سنة ١٥٣٨ بالسلطان سليمان القانوني(٢٩) بسبب استيلاء الفرنج (البرتغاليين) على بلاد الهند وكثرة ضررهم وأذاهم للمسلمين «تحركت حمية الاسلام لديه وأمر بترتيب عمارة كبيرة في مصر يتوجه فيه عسكر جرار ويأخذون الثأر من الكفار»(٣٠) وقد عين سليمان باشا الخادم قائدا لهذه الحملة. وبعد ان انتهى القائد المذكور من اعداد العمارة البحرية واستعد للتوجه من السويس الى السواحل العربية والهند نادى «بالجهاد في سبيل الله على الفرتقان (البرتغاليين)»(٣١).

في الحقيقة ان الناحية الدينية في المجابهة البرتغالية ـ العثمانية لم تكن تقتصر على الجانب العثماني بل شملت، وبصورة اكثر تطرفا، الجانب البرتغالي كذلك. والذي يراجع المصادر البرتغالية للاستكشافات يجدها مليئة بالعواطف المناهضة للاسلام والمسلمين(٣٢). وعلى سبيل المثال نجد القائد البرتغالي البوكيرك يكتب الى ملك البرتغال عمانوئيل الاول (١٤٩٥ ـ ١٥٢١) انه حيثما امكنه الحصول على عربي، كان افلاته من يده من المحال، وانه كان يملأ بهم المساجد ويضرم فيها النار(٣٣).

فالمستكشفون البرتغاليون الاوائل كانوا متشوقين لنشر المسيحية الى جانب اكتشاف البلدان التي يجلبون منها الفلفل وشتى التوابل(٣٤). وان القائد البرتغالي البوكيرك كان يحلم بقيادة جيوش ضخمة كي يستطيع التقدم للاستيلاء على مصر والاماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين. ورغم ان هذه الخطط كانت فوق طاقة البرتغال ولكن يتجلى مغزاها في انها تظهر لنا ان اعظم قادة البرتغال لم ينس المثل الصليبية العليا(٣٥). هذا ومن جهة أخرى كان البرتغاليون مدركين وقلقين ايضا من ان رد الفعل لغزوهم سوف لا يقتصر على المقاومة العربية بل سيشمل قوى اسلامية اخرى. وبهذا الصدد وجه البوكيرك رسالة الى الملك عمانوئيل الاول سنة ١٥١٢ قال فيها: «ان اعظم الشرور كلها بالنسبة الى غوا هو على كل حال الأراجين المستمرة بأن الروم (الاتراك) قادمون. ان هذا مصدر عظيم للخطر على الهند ويسبب كثيراً من القلق والضطراب لذا أعرض لجلالتكم بكل احترام انه لن يكن هناك ثقة أو سلام لرعايا جلالتكم في هذه الأجزاء الا بأن نذهب الي البحر الاحمر ونؤكد لهؤلاء الناس ان مخلوقات اسمها الروم ليس لها وجود»(٣٦). كما ان الملك البرتغالي عمانوئيل الاول كان يؤمن «ان العدو الذي يخشى ليس هو العرب الذين لا توجد لديهم سوى مراكب تجارية يقاومون بها السفن الحربية البرتغالية المحكمة التسليح، وانما هو سلطان مصر الذي لديه قوات قوية في البحر الاحمر، وكذلك الاتراك العثمانيين الذين يحتمل ان يجيئوا لمساعدة ابناء دينهم»(٣٧).

بدأ التوسع العثماني في البلاد العربية في نفس الفترة التي حدث فيها الغزو البرتغالي للمياه العربية. وعلى الرغم من اختلاف الاهداف الاستراتيجية للعثمانيين والبرتغاليين في الاقطار العربية غير ان المجابهة العسكرية بين الطرفين كانت محتملة الوقوع اثناء الربع الاول من القرن السادس عشر. فعندما عرف القائد البرتغالي البوكيرك باندحار الصفويين امام العثمانيين في معركة چالديران سنة ١٥١٤ كتب الى الملك عمانوئيل الاول للسماح له بتجهيز الشاه اسماعيل بالمدفعية اللازمة كي يتمكن الصفويين من اضعاف القوة العثمانية ويعرقلوا تقدم العثمانيين صوب المياه العربية والهندية(٣٨). وفي أواخر عام ١٥١٢ أرسل نائب الملك في الهند رسالة الى الملك عمانوئيل يطلعه فيها على اوضاع الهند ويخبره بوصول «مبعوث امبراطور الحبشة لعقد حلف ضد المسلمين، ذلك الوصول الذي اعتبره صاحب الرسالة بداية تخريب (مكة) الذي يبدو له سهل المنال لأنها منطقة ضعيفة وقليلة المحاربين»(٣٩).

وهكذا حشد البرتغاليون في الربع الاول من القرن السادس عشر عدة اقطار مناهضة للعرب والعثمانيين واشتملت تلك الاقطار على الحبشة وفارس وبعض الامارات الهندية(٤٠). وبرزت روح

التنافس والتوسع عند البرتغاليين والعثمانيين في تصريحات كل من الملك البرتغالي والسلطان العثماني اذ اكد الملك عمانوئيل، كما سبقت الاشارة اعلاه، انه سيد الفتوحات والملاحة في حين اعلن السلطان سليم الاول بعد احتلاله لمصر سنة ١٥١٧: «والان فان كافة اقاليم مصر وملاطيا وحلب وسوريا ومدينة القاهرة ومصر العليا والحبشة وجميع الاراضي حتى حدود تونس، والحجاز ومدن مكة والمدينة والقدس قد اضيفت الى اراضي الامبراطورية العثمانية»(١١).

اتجه التوسع الاقليمي في عهد السلطان سليمان القانوني صوب العراق والخليج العربي. وقبل ان يبدأ هذا السلطان بتنفيذ خططه اسرع في التوقيع على هدنة مع فرديناند الملك المبسبركي لهنغاريا وبوهيميا سنة ١٥٣٣ ثم زحف باتجاه بلاد فارس واستطاع في هذه الحملة (١٥٣٤ ــ ١٥٣٥) من ضم اذربيجان والعراق (١٥٣٤) الى الدولة العثمانية. وتسلم السلطان خلال مدة بقائه في بغداد التي امتدت من كانون الاول ١٥٣٤ الى نيسان ١٥٣٥ وفوداً من شيوخ القطيف والبحرين حاملين معهم رسائل الترحيب الى السلطان. وعلى أي حال كان هؤلاء الشيوخ بحاجة الى حماية أو تحالف مع العثمانيين ضد البرتغاليين(١٢). وفي عام ١٥٤٦ ضم العثمانيون، بصورة كاملة، مدينة البصرة الى حكمهم. وهكذا فان الدولة العثمانية بعد ان سيطرت على رأس الخليج العربي وعلى البحر الاحمر ايضاً، صارت تتحكم بجميع الطرق التي تربط الشرق الاوسط بالهند. وجعل العثمانيون في عام ١٥٤٦ ميناء البصرة قاعدتهم الثانية بعد السويس لتجهيز الاساطيل ضد البرتغاليين(١٣).

يمكن القول ان العامل الاقتصادي كان من العوامل الرئيسية التي جذبت البرتغاليين للمياه العربية. وبهذا الصدد نجد الوثائق البرتغالية الجديدة ذات الطابع الديني قد جعلت عددا من المؤرخين يتخلون«عن اعطاء الاولوية للعامل الديني» ويعترفون بوجود هذا الدافع ولكنهم يؤكدون على طغيان العامل الاقتصادي وخصوصا بعد وصول البرتغاليين الى المراكز التجارية بغرب افريقيا ونجاح فاسكو دي جاما في ربط لشبونة بالهند. غير ان البرتغال استمرت تؤكد على الناحية الدينية التبشيرية لغرض كسب الدعم الكاثوليكي والبابوي لفعالياتها التجارية(١٤). وعلى أي حال قرر الملك عمانوئيل الاول ملك البرتغال في سنة ١٥٠٥ «ان يقضي على سيطرة الدول العربية التجارية مرة واحدة وللأبد عن طريق احتلال عدن وهرمز وملقا»(١٥). كذلك فان العثمانيين كانوا قد ادركوا في وقت مبكر ان رخاء سوريا ومصر «يعتمد على اعادة فتح الطريق التجاري القديم بين الهند والشرق الادنى»(١٦). وفي عام ١٥٢٥ اطلع السلطان سليمان القانوني على نسخة «منقحة» لكتاب بيري رئيس المعنون «كتابي بحرية» والذي تضمن وصفا مفصلا للرحلات الى العالم الجديد والمحيط الهندي واشتمل على الفعاليات التجارية والتكنولوجيا البحرية للبرتغاليين(١٧). كذلك تسلم السلطان تقريراً مفصلا عن القائد البحري سليمان رئيس حول حجم واهداف القوات العثمانية والبرتغالية الموجودة في المحيط الهندي. ودعا سليمان رئيس في تقريره الى «هجمات اكثر ضد البرتغاليين الذين صاروا يوجهون معظم التجارة الهندية الى البرتغال بعد ان كان اكثرها في السابق يمر عبر مصر»(١٨). وهكذا

يمكن القول ان من اسباب المجابهة البرتغالية ـ العثمانية في المياه العربية، وخاصة بعد سقوط دولة المماليك في عام ١٥١٧، عزم العثمانيين على اعادة الحياة للطرق التجارية القديمة التي تربط ما بين الهند والبلاد العربية ومحاولة تحطيم الاحتكار البرتغالي للتجارة الشرقية.

الاحداث الرئيسة في المجابهة البرتغالية ـ العثمانية

لم يتخذ السلطان سليم الاول اجراءات كبيرة ضد البوتغاليين ولعل هذا يرجع الى انه كان قد خرج من حربين كبيرتين ضد فارس (١٥١٤) وضد مماليك مصر (١٥١٦/ ١٥١٧) وعاد الى مقر حكومته ثم توفي بعد سنوات قليلة (١٥٢٠). كذلك فان الفترة الاولى من حكم سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) كانت مليئة بالاحداث الكبرى في أوروبا بالاضافة الى الكفاح ضد الحكم الصفوي الفارسي. لذلك لم يرسم السلطان سليمان الفارسي خططاً جادة وعملية لمكافحة الوجود البرتغالي في المياه العربية والاسلامية حتى تولية سليمان باشا الخادم والياً على مصر(٤٩). في عام ١٥٣٨ أمر السلطان سليمان القانوني بارسال اسطول حربي ضخم من السويس هدفه طرد البرتغاليين من ديو(٥٠). وعين سليمان باشا الخادم قائداً للاسطول الذي ضم ٢٠ ألف شخص مع ٧٤ سفينة كان قد اشرف على صناعتها مهندس بحري جنوبي(٥١). وقد زار الاسطول عدن ثم ابحر بعد ذلك الى الساحل الغربي للهند وضرب حصاراً على حصن ديوا في كجرات. ولكن الحصار لم يكن ناجحاً مع انه ترك انطباعاً لدى البرتغاليين عن الخطر المحتمل للقوة البحرية العثمانية في السويس. وقد توطدت اثناء هذه الحملة سيطرة العثمانيين على عدن وزبيد في اليمن(٥٢). ويرى ستر بلنك ان عدم نجاح هذه الحملة الضخمة لم يحدث بسبب ان العثمانيين كانوا أدنى من البرتغاليين في السفن والسلاح بل لأن «قيادة الحملة كانت سيئة وجبانة وغير كفؤة» ولو توفر للعثمانيين قائد بحري كالذي توفر لهم في البحار الشرقية بعد عشرين عاماً من هذه الحملة لكان هناك احتمال قوي بعدم بقاء الهند تحت الحكم البرتغالي(٥٣).

بدأ الصراع السافر بين العثمانيين والبرتغاليين في الخليج العربي حوالي سنة ١٥٥٠ عندما اعلن اهالي القطيف انهم لا يدينون بالولاء لحاكم هرمز (الذي كان تابعا وحليفا للبرتغاليين) وانهم يفضلون ان يدخلوا في حماية العثمانيين الذين كانوا آنذاك يحكمون مدينة البصرة(٥٤). وعلى كل اسرع البرتغاليون لافشال مطمع سكان القطيف واعادوا الاوضاع الى سابق عهدها. في عام ١٥٥١ ارسل السلطان العثماني قائد البحر المتميز بيري رئيس على رأس اسطول يتألف من ثلاثين سفينة لتهدئة اوضاع عدن الثائرة ضد العثمانيين ولمكافحة الوجود البرتغالي في المحيط الهندي والخليج العربي. تحرك بيري رئيس من السويس، وبعد ان طاف حول غرب وجنوب سواحل الجزيرة العربية، اعاد السيطرة العثمانية التامة على عدن. وتوجه الاسطول بعدئذ الى مسقط فوجد ان البرتغاليين الموجودين فيها لم يكونوا مهيئين للقتال فاحتلها دون صعوبة تذكر كما تم أسر بعض البرتغاليين من بينهم

قائدهم جودي لسبون(٥٥). وفي عام ١٥٥٢ حاصر بيري رئيس جزيرة هرمز، خلافا لأوامر السلطان، ومن المحتمل ان السلطان سليمان القانوني كان يدرك صعوبة احتلال هرمز بسبب تحصيناتها القوية التي انشأها البرتغاليون خلال وجودهم منذ أربعين سنة(٥٦). وعلى كل، بعد حصار دام شهراً، انسحب العثمانيون الى البصرة لعدم تمكنهم من احتلال هرمز. وعندما عرف بيري رئيس اثناء وجوده في البصرة بتقدم اسطول برتغالي قوي نحوه واحتمال غلق مضيق هرمز بوجهه اسرع في مغادرة البصرة بصحبة ثلاث سفن فقط تاركا بقية اسطوله هناك. وفي البحرين فقد احدى تلك السفن ثم عاد الى مصر بصحبة سفينتين فقط. وقد أعدم بيري رئيس في القسطنطينية لأن عدم اطاعته للاوامر أدى الى فشل الحملة وتدني سمعة البحرية العثمانية كما ترك انطباعاً عاماً في المنطقة وهو ان البرتغاليين لا يمكن ان يقهروا(٥٧). وكان بيري رئيس في الوقت ذاته جغرافياً عثمانياً مشهوراً وفناناً في رسم الخرائط وواحدا من الملاحين الاتراك المشهورين كثيرا(٥٨).

في عام ١٥٥٣ وجهت رئاسة الاسطول البحري في مصر الى سيدي علي رئيس الذي كان قد نال سمعة طيبة في حملات البحر الابيض المتوسط(٥٩). وطلب منه أولا السفر براً الى البصرة ليأخذ من هناك السفن العثمانية ويتوجه بها الى مصر. وعند وصوله ميناء البصرة تسلم من الوالي العثماني هناك خمس عشرة سفينة واقلع عام ١٥٥٤ متوجها الى هرمز(٦٠). وبالقرب من خورفكان على ساحل عمان تقابل اسطول برتغالي يتكون من ٢٥ سفينة مع السفن العثمانية وتحارب الجانبان هناك في واحدة من اعنف المعارك البحرية فأجبر البرتغاليون على التراجع. وبعد فترة اعيد تجهيز وتنظيم الاسطول البرتغالي وصار مؤلفا من ٣٤سفينة، ودخل في معركة ثانية مع العثمانيين. وبسبب اطلاقات مدافع العدو والرياح المعاكسة القوية اندفع الاسطول العثماني دون خطه باتجاه الساحل الهندي. ووصل الى كجرات حيث مكث فيها سيدي علي بعض الوقت، وفيها ايضا انجز مؤلفه المشهور (المحيط) وهو دليل للملاحة في البحار الشرقية(٦١). وفي ميناء سورات تفرق اعوان سيدي علي وتركوا ما لديهم من سفن وساروا في الطريق البري عائدين الى البصرة فاضطر سيدي على الرئيس على بيع السفن وتسليم اثمانها الى الجهات المسؤولة في القسطنطينية التي وصلها في أواسط عام ١٥٥٧(٦٢).

توقفت اعمال المقاومة العثمانية ضد الوجود البرتغالي في المياه العربية فترة من الزمن وخاصة بعد وفاة السلطان سليمان القانوني في عام ١٥٦٦. وفي اثناء تلك الفترة فكر البرتغاليون بمشروع استهدف إبعاد العثمانيين عن جميع مناطق الخليج العربي ثم اخراجهم من مدينة البصرة. غير انهم في النهاية ادركوا صعوبة منازلة الجيوش البرية العثمانية لأنه ليس بحوزتهم الا قوة برية صغيرة لا تقوى على الصمود امام الجيوش العثمانية القوية كما ان تفوقهم في البحار الشرقية كان يعتمد على قوتهم البحرية فقط. وعلى ذلك قدر البرتغاليون التركيز على تقوية مواقعهم في جزيرة هرمز والاستمرار في امداداتها بالتجهيزات اللازمة كي تبقى قادرة على صد جميع الهجمات المعادية(٦٣).

تجدد الكفاح ضد البرتغاليين عام ١٥٨٠ في عهد السلطان مراد الثالث حفيد سليمان القانوني غير ان عمليات المجابهة اقتصرت في الأغلب على ساحل شرق افريقيا. ففي سنة ١٥٨٠ ارسل الوالي

العثماني في اليمن قائدا بحريا يدعى الرئيس علي بك لمهاجمة البرتغاليين في مسقط برفقة أربع سفن. وقد استطاع على بك ان ينزل بالبرتغاليين هزيمة ساحقة(٦٤). ونتيجة لذلك نال شهرة كبيرة مما جعل والي اليمن ايضا يرسله في عام ١٥٨٤ الى ساحل شرق افريقيا ومعه سفينتان اصاب العطب احدهما فاستأنف العمل بالثانية. وفي اثناء تجوله التقى بعدد من السفن الساحلية التي يمتلكها العرب المحليون في المنطقة الذين أبدوا الكثير من المساعدة والتأييد لعلي بك، وخاصة في مقديشو وجزر لامو وممباسا، كما اظهروا تفضيلهم للعثمانيين وتحديهم للبرتغاليين(٦٥). وفي سنة ١٥٨٩ أرسل نفس الوالي علي بك ، على رأس حملة افضل تجهيزاً من السابقة تتكون من اربع سفن ومعها سفينة برتغالية كان علي بك قد اسرها في الحملة الاولى. ويعتقد بهذه المناسبة انه لو كان الحكام العثمانيون في وضع يساعدهم على ارسال اسطول قوي لمنازلة البرتغاليين لتمكنوا، في الاغلب، من القضاء على الاسطول البرتغالي في المحيط الهندي. ذلك ان سنة ١٥٨٩ هي السنة التي تلت اندحار الاسبان ـــ ومعهم البرتغاليون الذين كانوا تابعين لاسبانيا في هذه الفترة ـــ في معركة الارمادا البحرية لعام ١٥٨٨ أمام الانكليز. لكن الدولة العثمانية لم تكن في ظروف تمكنها من استغلال ذلك الاندحار الاسباني ـــ البرتغالي لذلك ضاعت عليها تلك الفرصة(٦٦). نزل علي بك على ساحل مالندى لكنه واجه مدفعية وقنابل البرتغاليين فاتجه نحو ممباسا حيث عزم على تحصين نفسه فيها. ولكن عندما عرف البرتغاليون بذلك اسرعوا في ارسال اسطول كبيرمن غوا لمجابهة السفن العثمانية. ولقد وصل الاسطول البرتغالي في ٥ آيار ١٥٨٩ الى ميناء ممباسا. وعلى كل، انتهت المجابهة بين الطرفين بتحطيم السفن العثمانية واحتلال القلعة التي كان يشغلها العثمانيون. ثم استسلم الرئيس علي بك للبرتغاليين فأخذوه اسيراً الى لشبونة وحاولوا تنصيره بالقوة وتوفي هناك(٦٧).

وعلى قدر ما تسمح به المصادر العربية والاجنبية في الوقت الحاضر يمكن ان نعتبر فعاليات على بك آخر الفعاليات العثمانية المناهضة للوجود البرتغالي في المياه العربية.

قاوم سكان الجنوب العربي والخليج العربي الهجمات البرتغالية ذات الصبغة الصليبية بقدر ما وسعهم الجهد. كما ان الدولة العثمانية، وهي اقوى الدول الاسلامية وقتها، لم تتوان عن معاونتهم معاونة ان لم تؤد الى القضاء على النفوذ البرتغالي في المياه العربية الا انها على شكل لا يمكن انكاره أو تجاهله أدت الى أضعاف ذلك النفوذ وكانت احد اسباب انهيار القوة البرتغالية في القرن السابع عشر في الخليج العربي وفي بقية المياه العربية(٦٨). وفي الحقيقة كان لكفاح السكان العرب، في الخليج والجنوب العربي، ضد الوجود البرتغالي دور أساسي في تدمير آخر معقل للبرتغاليين هناك في أواخر القرن السابع عشر(٦٩).

نتائج المجابهة البرتغالية ـــ العثمانية

قبل تناول موضوع نتائج المجابهة البرتغالية ـــ العثمانية في المياه العربية لابد من ذكر ابرز

الاسباب التي أدت الى عدم قدرة العثمانيين على ابعاد البرتغاليين عن المياه العربية بصورة كلية. يمكن الاشارة أولا الى ان الاسطول العثماني كان في القرن السادس عشر يتألف، في الأغلب، من سفن صغيرة galleys غير قادرة على التأثير الفعال ضد السفن المحيطية الكبيرة وخاصة في عرض البحار[٧٠]. يضاف الى ذلك صعوبة تجهيز وادارة اسطول عثماني تكفي قواته لمواجهة الاساطيل الاوروبية في البحر المتوسط والمحيط الهندي في نفس الوقت، وخاصة لانشغال العثمانيين في هذه الفترة بالحروب البرية مع الامبراطورية الرومانية المقدسة والدولة الصفوية.

بالنسبة للنتائج التي ترتبت على المجابهة البرتغالية ـ العثمانية في المياه العربية والشرقية يلاحظ ان القوة البحرية العثمانية اثناء النصف الاول من القرن السادس عشر «فشلت في كسب هجمات بحرية على الاساطيل البرتغالية سواء في غرب البحر المتوسط أو في المحيط الهندي، ولو كانت تلك الهجمات ناجحة لأدت الى قطع المواصلات البحرية بين البرتغال والهند» كذلك فان «التقصير العثماني البحري أدى، من الناحية الاستراتيجية، الى غلق العالم الاسلامي بواسطة اساطيل الامم الاطلسية، وهذه الاخيرة استخدمت فيما بعد تفوقها البحري لغرض السيطرة السياسية على الاقطار الاسلامية»[٧١].

وبالنسبة للناحية الدينية والحضارية يمكن الجزم بان البرتغاليين فشلوا في تنفيذ مخططاتهم التبشيرية في الاقطار العربية الافريقية والاسيوية طوال مكوثهم في المياه العربية والاسلامية. كذلك فانهم لم يقوموا من جانبهم بأي محاولة ترمي الى تعريف الشرق بالنواحي الانسانية والعلمية لعصر النهضة الاوروبية. والحقيقة كان البرتغاليون في آسيا قد اصابتهم الدهشة وشعروا بالرعب بسبب مواجهتهم أدياناً متقدمة وحضارات أصيلة، هي في مجملها أرقى مما كانوا يحملونه من ثقافة وحضارة.

يشير المؤرخون العرب والمسلمون المعاصرون للأحداث البرتغالية الى نتائج التصدي العثماني للوجود البرتغالي فيقررون بان الدولة العثمانية كانت، في القرن السادس عشر، قوية استطاعت المحافظة على العالم الاسلامي وطريق الحج والمدن الاسلامية المقدسة كما تمكنت من حماية الحدود الاسلامية بوجه هجمات البرتغاليين والفرنج وذلك بواسطة سفنها الساحلية galleys[٧٢].

نجح البرتغاليون في بداية القرن السادس عشر في اضعاف النشاط التجاري العربي والاسلامي سواء في مصر أو الخليج العربي أو بلاد الشام اذ صار القسم الاعظم من المنتوجات الآسيوية الشرقية تتجه الى اوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح. غير أن الاحتكار التجاري البرتغالي أخذ في الضعف خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر. والعثمانيون، رغم ضعف اسطولهم البحري وارتكاب بعض قوادهم البحريين اخطاء سياسية وعسكرية، فأنهم قدموا قسطاً لابأس به من المجهودات التي عملت على اضعاف السياسة التجارية البرتغالية في المنطقة العربية[٧٣]. وصار واضحاً حتى قبل وفاة سليمان القانوني ان البرتغاليين لم يكونوا يمتلكون القوة الكافية لفرض سيطرتهم المطلقة في المحيط

الهندي. اذ استمرت الولايات العثمانية تتسلم التوابل بصورة مباشرة من الهند وجزر الهند الشرقية (اندونيسيا) اثناء القرن السادس عشر، رغم وجود نقص في كمية التوابل في بعض الاحيان(٧٤). ولم تنقطع عمليات تبادل البضائع الهندية مع التجار الاوروبيين في أسواق حلب والقاهرة والقسطنطينية وبورصة. في سنة ١٥٥٤ على سبيل المثال اشترى البندقيون لوحدهم ستة آلاف قنطار (القنطار ١٠٠ كغم) من التوابل من الاسكندرية. كما ان مشتريات البندقيين السنوية البالغة ١٢ ألف قنطار بين سنة ١٥٦٠ وسنة ١٥٦٤ هي نفس الكمية التي كانوا يشترونها قبل اكتشاف فاسو دى جاما للطريق البحري الجديد المؤدي الى الهند(٧٥).

في نفس الوقت كانت تصل الى ميناء جدة في كل سنة حوالي عشرين سفينة محملة بالبضائع الشرقية. لذلك كان رعايا الدولة العثمانية من الحجاج العائدين من مكة يحملون معهم عند عودتهم الى بلدانهم التوابل والاصباغ والانسجة الهندية. وقد ارتفعت في عام ١٥٦٢ قيمة الضرائب الجمركية في دمشق على التوابل التي جلبها الحجاج الى ١١٠ آلاف دوكات ذهبي (الدوكات يساوي حوالي دولارين وربع دولار)(٧٦).

كذلك استمر وصول البضائع الشرقية الى الخليج العربي في نفس هذه الفترة. وعلى سبيل المثال يذكر الرحالة الانكليزي ج. الدريد الذي زار البصرة اثناء الربع الاخير من القرن السادس عشر، ان «سفنا مختلفة تصل شهريا الى ميناء البصرة قادمة من هرمز وهي محملة بجميع انواع البضائع الهندية كالتوابل والادوية وصبغة النيلة والمنسوجات(٧٧).

ولقد وصلت الى الاسكندرية في السنوات القريبة من عام ١٥٦٤ حمولات من الفلفل ساوى بل ربما زاد حجمها على تلك التي وصلت الى لشبونة في نفس الفترة. كما ان مدينة حلب، باعتبارها المحطة النهائية للقوافل القادمة من العراق وفارس، أخذت تزدهر باعتبارها من اسواق المشرق العربي الكبيرة المتخصصة بتجارة التوابل والحرير.

على أي حال، فان كفة طريق رأس الرجاء الصالح سرعان ما رجحت ثانية على كفة الطرق القديمة وذلك في اعقاب وصول امم بحرية اوروبية اقوى بكثير من البرتغاليين، الى مياه المحيط الهندي، وتألفت تلك الامم على الاخص من الهولنديين والانكليز الذين صاروا يسيطرون على الجزء الاعظم من التجارة الشرقية(٧٨).

وأخيراً يمكن ان نستخلص من هذا البحث بان العثمانيين، بسبب سعة امبراطوريتهم وانشغالهم بالحروب البرية وتخلفهم في التكنولوجيا الحربية، لم يتمكنوا من طرد البرتغاليين من معظم المياه العربية والشرقية. غير أن حملاتهم البحرية استطاعت، الى حد كبير، اضعاف الاحتكار التجاري البرتغالي كما نجحت في المحافظة على البحر الاحمر والمدن الاسلامية المقدسة وطرق الحج. بالاضافة الى ذلك استطاعت الدولة العثمانية حماية رأس الخليج العربي من الغزو البرتغالي، وهذا كل ما كانت تسمح به ظروف العثمانيين وامكاناتهم المادية في القرن السادس عشر.



الهوامش

١. د. عبد الوهاب عباس القيسي، موقف العثمانيين من الغزو البرتغالي للمياه العربية، مجلة الخليج العربي، البصرة، مجلد١، عدد١، ١٩٨٠. هذا المقال يعتبر دراسة مختصرة لكنه يشكل الخلفية الاساسية لبحثنا الحالي.

٢. وليم لانكر، موسوعة تاريخ العالم، الجزء الثالث، اشرف على الترجمة: د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ٢٩٦٢، ص ص ٧٧٢ . ٧٧٣.

٣. عندما وقعت البرتغال تحت حكم اسبانيا عام ١٥٨٠ اصبحت مدينة سبته تابعة للتاج الاسباني.

٤. William C. Atkinson, AHistory of Spain and Portugal (London, 1965), pp. 98-99-

٥. نوال حمزه الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي (الرياض، ١٩٨٣)، ص٧٣.

٦. Roger Lockyer, Habsdurg and Bourbon Europe 1470-1720 (London, 1974), p.32.

٧. Loc. Cit-

٨. H.V. Livermore, Portuguese Exponsion, The New Cambridge Modern History (Cambridge, 1976) Vol. 1, pp 423- 424

٩. Roger Lockyer, op. Cit., p. 33. H.V. Livermore, op. Cit., p.425.

١٠. Loc, Cit.

١١. H.V. Liver more, op. Cit., p. 427.

١٢. د. صالح أوزبران، الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي، ترجمة د. عبد الجبار ناجي، البصرة، ١٩٧٩، ص ص ١٨ ــ ١٩.

١٣. كان عدد سكان لشبونة في عام ١٥٥١ يقدر بمائة ألف نسمة عشرهم من العبيد Slaves

W. C. Atkinson, Op. Cit., p. 151.

١٤. R.B. Serjeant, The Portuguese off the South Arabian Coast (Beirut, Reprinted, 1974), pp. 2-3.

١٥. جيمس دفي، البرتغال في افريقيا، ترجمة جاد طه، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٢٣.

١٦. ابن الديبع، قرة العين، نقلا عن نوال الصيرفي، المصدر اعلاه، ص ١٠٢.

١٧. ابن المطهر، روح الروح، نقلا عن نوال الصيرفي، المصدر اعلاه، ص ١٠٣.

١٨. زين الدين، تحفة المجاهدين، نقلا عن نوال الصيرفي، المصدر أعلاه، ص ٦٧.

١٩. د. ابراهيم على طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٩٤.

٢٠. نفس المصدر، ص ص ٢٩٥ ــ ٢٩٦.

٢١. نوال الصيرفي، المصدر اعلاه، ص ص ١٠٨ ــ ١٠٩.

٢٢. Halil Inalcik, The Ottoman Empire (London, 1973), 33.

٢٣. Loc Cit.

٢٤. قطب الدين النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، الرياض، ١٩٦٧، ص ٢٤.

٢٥. د. عبد العزيز نوار، التاريخ الحديث للشعوب، الاسلامية، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٣٨.

٢٦. J.K. Birge, A Guide To Turkish Area Study (Washington, 1949), P. 17. Raphaela Lewis,, Everyday Life in Ottoman Turkey)London, 1971), P.19.

٢٧. R.B. Serjeant, Op. Cit., PP.2-3.

٢٨. H. Inalcik, op. Cit., P. 34 and P. 57.

٢٩. عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، المجلد الرابع، بغداد، ١٩٤٩، ص ٦٥.

٣٠. النهروالي، المصدر أعلاه، ص ٧٠.

٣١. نفس المصدر، ص ٧١.

٣٢. Andrew C. Hess, "The Evolution of the Ottoman Seaborne empire in the age of the Oceanic discoveries, 1453 -1525" in The American Historical Review, Vol LXXV, No. 7, 1970, PP. 1899-1900

٣٣. نوال الصيرفي، المصدر اعلاه، ص ١٢٨.

٣٤. ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، الجزء الاول، ترجمة: مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر، الدوحة، ١٩٦٧، ص ص ٤ — ٥.

٣٥. أ.ب نيوتن، التوسع الاستعماري ونمو القوة البحرية، في تاريخ العالم، نشره جون.أ. هامرتن، المجلد السادس، ترجمة لجنة في وزارة التعليم العالي، القاهرة، بلا تاريخ، ص٢٩٠.

ارنولد. ت. ويلسون، الخليج العربي، نقله الى العربية، دز. عبد القادر يوسف، الكويت، بلا تاريخ، ص٢١٤.

٣٦. أرنولد. ت. ويلسون، المصدر اعلاه، ص ص ٢١١ — ٢١٢.

٣٧. أ. ب. نيوتن، المصدر اعلاه، ص ٢٨٩.

٣٨. A.C. Hess, Op. Cit., P.1910

٣٩. د. احمد بو شرب، مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الاحمر والخليج العربي، مجلة الخليج العربي، البصرة، مجلد ١٦، عدد ١، ١٩٨٤. ص ص٣١ — ٤٦.

٤٠. A.C. Hess, Op. Cit., P. 1911

٤١. Loc . Cit.

٤٢. د. صالح أوزبران، المصدر اعلاه، ص ٢٩.

٤٣. H. Inalcik, Op. Cit, P. 38

٤٤. د. احمد بو شرب، المصدر اعلاه، ص ٤٤.

٤٥. لوريمر، المصدر أعلاه، ص ٦.

٤٦. George W. F. Stripling, The Ottoman Turks and the Arabs (Urbana, Illinois, 1942) P.88.

٤٧. A.C. Hess, Op. Cit., P. 1922.

٤٨. Ibid, P. 1914

٤٩. د. عبد العزيز نوار، المصدر أعلاه، ص ١٣٨.

٥٠. H. Inalcik, Op. Cit., P. 126

٥١. G. Stripling, Op. Cit., P.90

٥٢. د. صالح أوزبران، المصدر اعلاه، ص ص ٤٢ — ٤٣.

٥٣. G. Stripling, Op. Cit., P. 93.

٥٤. لوريمر، المصدر اعلاه، ص ١٠.

٥٥. M. Longworth Dames, "the Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the Sixteenth Century" in Journal of the Royal Asiatic Society, 1921, Part I., January, PP. 20- 21.

٥٦. G. Stripling, Op. Cit., PP. 93 - 94.

لكن د. صالح أوزيران، المصدر اعلاه ص ٤٤، يذكر ان من الاوامر التي اعطاها والي البصرة الى بيري رئيس احتلال هرمز والبحرين ان امكن.

٥٧. G. Stripling, Op. Cit., P. 95.

٥٨. د. صالح أوزيران، المصدر أعلاه، ص ٤٧.

٥٩. عباس العزاوي، المصدر أعلاه، ص ١١.

٦٠. نفس المصدر، ص ٧٥.

٦١. د. صالح أوزيران، المصدر أعلاه، ص ص ٤٩ ــ ٥٠ G. Stripling, Op. Cit.,. P. 95-

٦٢. عباس العزاوي، المصدر اعلاه، صج ص ٨٠ ــ ٨١.

٦٣. M. Longworth Dames, Op. Cit., P. 25.

٦٤. نوال الصيرفي، المصدر اعلاه، ص ١٥١.

٦٥. M. Longworth Dames, Op. Cit., P. 26.

٦٦. Loc. Cit.

٦٧. Loc. Cit.

٦٨. نوال الصيرفي، المصدر أعلاه، ص ٦، ص ١٤٦.

٦٩. د. عبد الأمير محمد أمين، دور القبائل العربية في صد التوسع الأوروبي في الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ، بغداد، وزارة الاعلام، ١٩٧٤، ص ٦٥٤.

٧٠. A.C. Hess, Op. Cit., P. 1916 H. Inalcik, Op. Cit., P.44

٧١. Arnold J. Toynbee, Astudy of History (London, 1934 - 1961), II, PP. 444 - 445- Cited by A.C. Hess, Op. Cit ., PP. 1893 - 94.

٧٢. A. C. Hess, Op. Cit., P. 1919.

٧٣. V.J. Parry, "The Ottoman Empire, 1520-1566" in the New Cambridge Modern History, Vol. II. (London, 1976) P. 531.

انظر كذلك: د. طارق نافع الحمداني، النزاع العثماني ــ البرتغالي، رؤية جديدة، في دراسات عن تاريخ الخليج العربي، والجزيرة العربية، البصرة، ١٩٨٥. ص ص ١٩٤ ــ ١٩٦

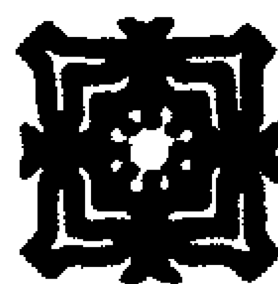
٧٤. H. Inalcik, Op. Cit., P. 127

٧٥. Loc. Cit

٧٦. Loc Cit.

٧٧. H. Inalcik, Op. Cit., P. 128 وانظر كذلك: د. احمد بوشرب، المصدر أعلاه، ص ٤٥.

٧٨. V. J. Parry, Op. CVit., P 530 - 31





خارطة بحر القطيف (الخليج العربي) من اطلس فان هونديوس وتعود الى حوالى عام ١٦٦٥م.

الصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي والتحرر الافريقي من الاستعمار البرتغالي

الدكتور/ شوقي عطا الله الجمل

الاستاذ بمعهد البحوث والدراسات الافريقية

جامعة القاهرة

محتويات البحث:

١ ــ البرتغاليون يفتحون صفحة الكشف والاستعمار في افريقيا في العصر الحديث.

٢ ــ وصول البرتغاليين لشرق أفريقيا والنتائج التي ترتبت على ذلك.

٣ ــ الصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي وفي السواحل المطلة عليه.

٤ ــ نظام البرتغال الاداري في مستعمراتهم لشرق القارة ووضع الوطنيين في ظل هذا النظام.

٥ ــ الحركة الوطنية في المستعمرات البرتغالية في شرق افريقيا.

٦ ــ نهاية الاستعمار البرتغالي بشرق القارة.

افتتح البرتغال صفحة الاستعمار الاوروبي في العصر الحديث بنزولهم في ساحل بلاد المغرب (مراكش) واحتلالهم قلعة سبتة (Ceuta) في اغسطس سنة ١٤١٥، ومن هذا التاريخ الى اليوم لم تعد سبتة الى حظيرة الوطن الام، ولذا يقول الضابط البرتغالي فاسكو دي كارافللو «ان هذا الحدث الخطير والعظيم أجدر بأن يعتبر بداية للعصور الحديثة من أن يتخذ سقوط القسطنطينية في يد المسلمين في عام ١٤٥٣ بداية لها»(١).

ولم يكتف البرتغال بالاستيلاء على سبته فبعد أن ثبتوا أقدامهم فيها وحصنوها اتجهت أنظارهم إلى طنجة، وتعددت محاولاتهم للاستيلاء عليها، وقد نجحوا بعد ذلك في الاستيلاء على العديد من الثغور المغربية مثل العرائش، والقصر الصغير، وأصيلا، وأسفي وأزموربل اعدوا حملة للزحف على مراكش على أن الوجود البرتغالي في الغرب صفي في منتصف القرن الخامس عشر(٢).

أولا: البرتغال يتابعون فتوحهم في افريقيا:

تابع البرتغال فتوحهم الاستعمارية في القارة الافريقية متتبعين الشاطئ الغربي للقارة.

ومن أهم الدوافع التي دفعت البرتغال وهي مملكة أوروبية صغيرة حديثة التكوين كانت خاضعة للنفوذ العربي في الاندلس ولم تستكمل استقلالها إلا في القرن الثالث عشر هو نجاح (البرتغال) في طرد العرب فأندفعوا مع موجة الحماس الديني في تتبعهم للعرب الفارين الى ثغور شمال افريقيا، كما أن قرب البرتغال نسبياً من جزر وسواحل افريقيا الشمالية والغربية شجعهم على الاتجاه لهذه السواحل قبل غيرهم من الاوروبيين.

وقد لعب الأمير هنري الملاح الذي حكم البرتغال فيما بين ١٣٩٤ ــ ١٤٦٠ دوراً حاسماً في الحملات البحرية البرتغالية لشاطئ افريقيا الشمالية والغربية.

وواصل البرتغال نشاطهم الكشفي والاستعماري فاحتلوا جزر كناريا (Canary Is.)، ماديرا (Madera)، وأزورس (Arores)، ووصلوا الرأس الابيض ثم مصب السنغال وتتبعوا الساحل الغربي للقارة صوب الجنوب فنجح الكابتن ديجو كام Diego Cam في عام ١٤٨٤ في الوصول الى مصب نهر الكنغو، وأعقب ذلك رحلات بارثليمو دياز Bartholomeo Diaz في عام ١٤٨٦ التي نجحت في الوصول الى الطرف الجنوبي من القارة وأطلق عليه في المبدأ رأس العواصف[٣].

واهتم البرتغال بأنشاء القواعد والحصون قرب المناطق الهامة على الساحل الغربي للقارة وفي الجزر الغربية، فأقاموا حصن ارجيوم (Argium) مقابل الرأس الابيض وسانتياجو (Santiugo) قرب الرأس الاخضر، وسان جورج دامينا (San Jorge Demina) مقابل المنطقة التي عرفت بساحل الذهب وساوتومي (Sao Tome) في الجزيرة الهامة التي عرفت بهذا الاسم والتي اصبحت نقطة ارتكاز هامة لهم في الطريق لأقصى جنوب القارة وكذلك الطريق المؤدي للبرازيل.

ثانيا: وصول البرتغال الى شرق افريقيا والنتائج التي ترتبت على ذلك:

في سنة ١٤٨٧ وصل لمصر رحالة برتغالي كان يعمل لحساب ملك البرتغال هو بيدرو دي كوفيلهام Pedro de Covilham ثم سافر هذا الرحالة عن طريق البحر الاحمر لعدن والهند، وفي أثناء عودته زار اغلب المناطق العربية في الساحل الشرقي لافريقيا فقد وصل جنوبا حتى سفالة Sofala ثم واصل رحلته شمالا حتى عاد الى القاهرة وكانت رحلة هذا البرتغالي بالغة الاهمية فقد فتحت العيون الى أهمية المناطق العربية بشرق القارة كما أن معلوماته كانت أساسا للرحلات التي قام بها فيما بعد فاسكو دا جاما Vasco Da Gama[١].

في عام ١٤٩٧ قام فاسكو دا جاما برحلته الأولى في أربع سفن فوصل الى نهاية القارة الافريقية

وعبر رأس الرجاء الصالح الى ساحل افريقيا الشرقي وزار الامارات العربية هناك وتابع رحلته الى كلكت Calicat على الساحل الغربي للهند وفي عودته زار دا جاما مرة اخرى الموانئ الهامة لشرق افريقيا وعاد الى لشبونة في سبتمبر ١٤٩٩ فكأن رحلته استغرقت ثلاث سنوات.

وفي عام ١٥٠٢ قام دا جاما برحلة ثانية للهند وفي طريقه نزل في كلوة Kilwa وأجبر سلطانها تحت التهديد باحراق المدينة على الاعتراف بسيادة البرتغال ودفع جزية سنوية رمزا لهذه التبعية.

وقد اصدر ملك البرتغال في عام ١٥٠٤ قانوناً يحرم حمل الخرائط التي توضح طريق الملاحة الجديد المؤدي الى الهند، فجمعت الدولة الخرائط البحرية المتداولة وأعدمتها كما ان الاسطول البرتغالي كلف بتعقب أية سفينة تحاول شق طريقها بالقوة عبر هذا الطريق المحظور.

وفي عام ١٥٠٥ اتخذت البرتغال الاستعدادات لتثبيت أقدامها في المناطق الاستراتيجية والتجارية الهامة بالساحل الشرقي للقارة والقضاء على نفوذ العرب التجاري والسياسي هناك. ولتحقيق هذا الهدف غادر لشبونة اسطول كبير من ثلاثة وعشرين سفينة تحت قيادة فرانسيسكو دي الميدا Francisco de Almeida.

واستولى الاسطول البرتغالي على سفالة، وحاصروا كلوه واستولوا عليها عنوه وعاثوا في المدينة نهبا وسلبا وأقاموا حصنا في مينائها به حامية لهم وانتقموا إنتقاماً وحشياً من أهل المدينة لمقاومتهم الباسلة للغزاة.

ثم تقدموا صوب ممبسة (Mombasa) وكانت في ذلك الوقت مدينة عظيمة قدر سكانها في ذلك الوقت بعشرة الاف نسمة وقد قاوم سكانها من العرب والسواحلية القوة الغازية مقاومة عنيفة ودافعوا عن كل شبر من أرض بلادهم حتى انتقل القتال للشوارع الضيقة، لكن انتصرت أخيراً اسلحة الغزاة المتقدمة على بطولة المدافعين عن حقهم في الحياة الحرة، واشعل العدو في دور المدينة وحقولها النار انتقاماً من بطولة أهلها وساعدت شدة الرياح في ذلك الوقت على سرعة انتشار اللهب فأتت على كل شئ(٥).

وقد كتب حاكم المدينة المنكوبة الى زميله حاكم مالندى Mlindi يصف كيف وجدوا المدينة بعد عودتهم إليها بعد ان نهبها الغزاة البرتغاليون وتركوها للنيران فقال «إنهم لم يتركوا فيها أي كائن حي لا رجلا ولا إمرأة ولا صغيرا ولا كبيرا حتى الاطفال من الذين فشلوا في الهرب قتلوا أو احرقوا»(٦).

وبسقوط وتخريب كلوه، وممبسة سقط عمودان من أهم الاعمدة التي كانت ترتكز عليها السيادة العربية في شرق افريقيا. وفي عام ١٥٠٦ عاود البرتغاليون الكرة فأرسلوا اسطولا كبيرا من اربعين سفينة لشرق افريقيا تحت قيادة البوكرك (Albuquerque) استولى على لامو، براوه، وعلى جزيرة سوقطرة.وفي عام ١٥٠٧ سقطت موزنبيق (Mozambique) في يد القائد البرتغالي دوارت دا ميللو (Duarte de Mell) وأهتم البرتغاليون بتحصينها وبنوا فيها معسكراً ومستشفى وكنيسة، ومنذ ذلك الوقت اتخذوها مركزاً رئيسياً لاشرافهم على مختلف أوجه النشاط في شرق القارة وفي سنة ١٥٠٩ عين البرت

غال حاكماً عاماً لمستعمراتهم في شرق افريقيا فاتخذ موزمبيق مقراً رئيسياً له.

وهكذا في أقل من عشر سنوات حقق البرتغاليون حلمهم في شرق افريقيا وسقطت في ايديهم معظم المدن العربية الهامة على هذا الساحل.

ولم يكتف البرتغال بذلك بل اتجهوا لساحل الجزيرة العربية والخليج ليكملوا سيطرتهم الكاملة على التجار والملاحة في المحيط الهندي والطرق المؤدية اليه.

وهكذا ترتبت على كشف طريق رأس الرجاء الصالح نتائج هامة نجملها فيا يلي:

١ ـ نتائج سياسية:

افتتح الطريق أمام البرتغال لشرق القارة الافريقية بل وبلاد الشرق التي كانوا يطمعون في غلاتها وثرواتها، وكانت الامارات العربية بساحل افريقيا الشرقي اكثر المناطق التي تأثرت بذلك.

فقد اصبحت للبرتغال السيادة في الطريق البحري المؤدي للشرق وقد حاولت الدولة المملوكية التي كان لها النفوذ في مصر والحجاز والشام وكانت تسيطر على تجارة الشرق التي تمر في طريقها لأوروبا بموانيها في مصر أو الشام حاولت ان تتصدى لهذا الخطر البرتغالي وتحالف البنادقة مع المماليك للتصدي لهذه القوة المنافسة الجديدة، لكن انتصار الأسطول البرتغالي في موقعة ديو Diu البحرية في عام ١٥٠٩ حسم الموقف لصالح البرتغال.

وأدى هذا الى أن أصبحت البرتغال رغم أنها دولة أوروبية صغيرة ناشئة قوة سياسية يعتد بها.

وقد كان من أهداف البرتغال المعلنة الوصول الى الحبشة المملكة المسيحية التي كثر الحديث عنها في أوروبا منذ قرون ولم يكن هناك خبر أكيد عن مكانها والطريق إليها. ونجحت البرتغال في تحقيق هذا الهدف وبدأت رسلهم وبعثاتهم تفد للحبشة وكان غرض البرتغال من اتصالهم باثيوبيا تطويق البلاد العربية بقوة مسيحية والقضاء على النشاط التجاري للعرب في المحيط الهندي والبحار المحيطة به وكانت هذه التجارة بأرباحها والمكوس التي تجئ في الموانئ على تجارة الشرق المارة لاوروبا هي مصدر ثروة وقوة البلاد العربية، وانتهى الأمر بضعف دولة المماليك وسقوطها وحل العثمانيون محلهم باعتبارهم القوة الاسلامية الكبرى ودخلوا في هذا الصراع مع البرتغال والأحباش(٧).

وقد طال الصراع بين العثمانيين والقوى الاسلامية الأخرى من جهة وبين البرتغال والاحباش من جهة أخرى. ولا نريد أن نخوض في تفاصيل هذا الصراع لكن نشير لبعض المعالم في هذا المجال.

فن صور الصراع البرتغالي العثماني:

حدث في حكم السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ــ١٥٦٦) أن ارسل عدة حملات بحرية لمقاتلة البرتغاليين في البحار الشرقية واعادة السيادة العربية في هذه البحار وكانت هذه الحملات تعد في ميناء السويس المصري وسعى الاتراك في هذا المجال ايضاً للسيطرة على المنافذ العربية الواقعة على الخليج العربي وفي الطريق الحيوي الجديد للشرق.

واستمر النضال بين البرتغاليين والعثمانيين مدة طويلة دون طائل، فأرسل مراد الثالث القائد البحري ميراك بك في عام ١٥٨٨ بقوة لتخليص البلاد العربية بالساحل الافريقي الشرقي من سيطرة البرتغال ولمعاونة القوى الوطنية في هذه البلاد في مقاومتها للغزاة.

وقوبل القائد العثماني بالترحاب من سكان الامارات العربية السابقة في مدغشقر وبراوة وقسمايو وغيرها من الموانئ العربية فقد نظروا اليه نظرتهم للمخلص من نير الاجنبي وفضلوا الخضوع للعثمانيين على الوقوع تحت نير البرتغال، لكن العثمانيين لم يستطيعوا ان يحتفظوا في هذه البلاد بقوات تثبت سلطانهم وتحمي السكان من اغارات البرتغاليين المتكررة، فاستطاع البرتغاليون ان يستعيدوا سلطانهم وانتقموا من السكان الذين اظهروا ولاءهم للعثمانيين.

واستمر النضال بين البرتغال والعثمانيين واتخذ صورا متعددة منها أن الدولة العثمانية كانت تؤيد وتعاون الممالیك الاسلامية المحيطة بهضبة اثيوبيا والتي سميت ممالك الطراز الاسلامي ــ بينما كانت البرتغال تؤيد مملكة اثيوبيا وتعينها على مهاجمة الممالك الاسلامية المحيطة بها ــ وظل هذا النضال حتى القرن السابع عشر إذ فترت الحمية في الدولتين وضعفت قوتها ولم يبق تحت السيادة العثمانية إلا بعض الثغور كمصوع وكذلك اضطر البرتغاليون للتنازل عن مكانهم في البحار الشرقية لمنافسيهم الهولنديين ثم الانجليز الذين احتلوا مكان هؤلاء وأولئك في السيطرة على المحيط الهندي وطريق الرأس منذ أن تأسست شركة الهند الشرقية البريطانية سنة ١٦٠٠ واخذت توجه نشاط الانجليز في البحر الأحمر والخليج العربي(٨).

٢ ــ نتائج اقتصادية:

كان الدافع الاقتصادي في مقدمة الدوافع التي دفعت البرتغال في جهودها لمتابعة الكشوف والاستعمار في غرب القارة بهدف الوصول الى مصادر تجارة الشرق التي كانت يتحكم فيها العرب والطرق التي تسلكها الى أوروبا والتي كانت تتحكم فيها دولة المماليك.

وبعد أن حقق البرتغال حلمهم بوضع أيديهم على طرق التجارة بين الشرق والغرب احتكرت البرتغال تجارة الشرق والتجارة في السلع الافريقية وفي مقدمتها الرقيق والذهب والفضة وأصبحت لشبونة مركزاً رئيسياً للسلع الافريقية ومنتجات الشرق وتحول الطريق التجاري الذي تسلكه هذه السلع الى طريق رأس الرجاء الصالح بدلا من طريق الخليج العربي (الفارسي) والبحر الأحمر الذي أصبح كبحيرة راكدة وتحولت الانظار عن هذا الطريق وعن أقطار آسيا الغربية وظل الأمر كذلك حتى التطورات الاخيرة التي صاحبت الثورة الاقتصادية في أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر والتي دعت للعودة بسرعة للطريق القديم المهجور فبدأت الحياة تدب فيه من جديد وأخذت انظار الدول الأوروبية القوية المتنافسة في ذلك الوقت تتجه نحو هذا الطريق القديم وتدرك الأهمية المنتظرة له ومن ثم أصبحت السيطرة على منافذ هذا الطريق وموانيه مجال صراع استمر طوال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين(٩).

وقد اتخذ البرتغاليون من موزمبيق مقراً لهم ومركزاً لسيادتهم فاهتموا بتحصينها واعداده كقاعدة تجارية تخدم أسطولهم التجاري الذي يعمل من لشبونة التي أصبحت سوقا تجارية هام للسلع الافريقية والشرقية وبين الهند ويقال انه كان في لشبونة سوق كبير للرقيق الافريقي يمد العالم الجديد كله بحاجته منهم وقد قدر عدد العبيد الذين بيعوا في سوق لشبونة سنة ١٥٣٩ بـ ١٠,٠٠٠ عبد وبالطبع لم يكن كل هؤلاء من شرق القارة فقد لعبت انجولا في جنوب غرب القارة دورا هاما في ذلك وإن كانت حصيلتها من الرقيق في الغالب تصدر الى جزيرة ملوتومي ومنها الى البرازيل مستعمرة البرتغال في جنوب امريكا(١٠).

والحقيقة إن الاثار الاقتصادية لوصول البرتغال لشرق القارة وحلولهم محل العرب في هذا المجال ومحاولتهم القضاء على نشاط العرب الاقتصادي في شرق القارة كانت عميقة.

ومما يذكر في هذا المجال محاولات البرتغال للسيطرة على امبراطورية المونوموتابا التي ذاعت شهرتها بسبب مناجم الذهب فيها والتي كان العرب يحتكرون الاتجار فيه ولتحقيق هذا الهدف ارسلت البرتغال عدة بعثات لعل أشهرها بعثة انطونيو فرناندز (Antonio Fernandes) التي كلفت بزيارة امبراطورية المونوماتابا ومحاولة الاتفاق مع الامبراطور على أن يحل البرتغال محل العرب في تجارة الذهب وأن يسمح الامبراطور بوجود مندوب للبرتغال في بلاطه لهذا الغرض. وتوالت بعثات البرتغال لتحقيق هذا الهدف الكبير لكن يبدو ان البرتغال لم ينجحوا كثيراً في تحقيق اطماعهم فقد صدموا بالواقع اذ أدركوا أن الشائعات عن ثروة المناجم في هذه البلاد والتي ربطت بينها وبين صورة ملكة سبأ مبالغ فيها الى حد كبير وان ما يمكنهم الحصول عليه من الذهب لا يغطي تكاليف إنفاذ جيش ضخم لاحتلال المنطقة فاكتفى البرتغال بعقد اتفاقات تجارية مع بعض الحكام ليتعهدوا بحماية التجار البرتغال ومن يرغب منهم في العمل في مناجم الذهب واكتفى البرتغال بالاحتفاظ ببعض النقط الامنة الحصينة لخدمة عملية التبادل التجاري(١١).

وأدى هذا لتركيز البرتغال أكثر على تجارة الرقيق بالاضافة الى الغلات الافريقية الاخرى — ويعلل بعض الكتاب ضآلة الكثافة السكانية في مدن وموانئ الساحل الشرقي للقارة — رغم أن هذه المناطق اكثر ملاءمة للسكن من المناطق الاستوائية وغيرها من المناطق الداخلية بافريقيا بضخامة اعداد العبيد التي اقتنصت وبيعت في أسواق آسيا وأوروبا والتي رحلت للامريكتين وان بعض الكتاب الاوروبيين من امثال كولاند يحملون العرب تبعة ازدهار تجارة الرقيق المجلوب من شرق افريقيا إلا أن وجه المغالطة في ذلك واضح فالرق كان معروفا في افريقيا من زمن بعيد لكنه لم يكن يمثل ظاهرة لها خطورتها وجسامتها إلا بعد أن ادخل البرتغال وغيرهم من الاوروبيين الاسلحة النارية للقارة وسلحوا بها اتباعهم من الجلابة ليجلبوا لهم الاعداد المتزايدة من الرقيق التي اصبحوا بحاجة ملحة لها للعمل في مستعمراتهم في العالم الجديد ويذكر كويلاند نفسه ان التعدادات أثبتت ان تجار الرقيق الاوروبيين تقع عليهم تبعة ما لايقل عن مليون عبد سحبوا من قارة افريقيا بالاضافة الى أن مثل هذا العدد على الاقل قد قتل اثناء عملية القنص والترحيل(١٢).

وقد حمل البرتغاليون هذه التجارة معهم الى البرازيل وتعلم منهم البرازيليون أسس هذه التجارة الرابحة ــ وظلت البرازيل حتى بعد ان فصلت عن التاج البرتغالي تبذل جهودا لا تقل عن جهود السادة البرتغاليين في إحياء تجارة الرقيق وإن كان نشاطهم تركز اكثر في غرب القارة.

ويذكر كويلاند نفسه ان البرتغاليين وإن كانوا يأتون بعد العرب في الاتجار بالرقيق في شرق افريقيا إلا أنهم كانوا أول من فتح باب استيراد الرقيق من غرب افريقيا وشحنه لاستخدامه في امريكا(١٣).

هذا ونشير في مجال النتائج الاقتصادية لوصول البرتغال لشرق القارة الى أنهم عمدوا لانتزاع مساحات واسعة من الاراضي الزراعية على ضفاف الزمبيزي بنوع خاص من اصحابها لاستغلالها لصالحهم وكانت وسيلتهم في ذلك إما استخدام القوة والتهديد أو محاولة شراء الارض من زعماء القبائل وادى هذا لنشأة طبقة من الاقطاعيين البرتغاليين وانغمس بعض رجال الدين وأعضاء البعثات التبشيرية في هذا الميدان فبدلا من القيام بمهمتهم الدينية والانسانية بين القبائل الافريقية استهوتهم حياة البذخ التي يعيشها رجال الاقطاعات فعمدوا الى تملك الاقطاعات الكبيرة من الارض وساروا فيها سيرة امراء الاقطاع من حيث استغلالها واسترقاق اهلها والاعتماد على الجيوش المرتزقة لمساعدتهم على تقوية نفوذهم وتوسيع إقطاعياتهم(١٤).

هذه صورة مبسطة للنتائج الاقتصادية التي ترتبت على وصول البرتغاليين لشرق افريقيا.

٣ ــ من الناحية الدينية:

كان الدافع الديني من الدوافع الهامة وراء محاولات البرتغال الكشفية ورحلاتهم البحرية التي وصلت بهم الى شرق افريقيا بعد الدوران حول رأس الرجاء الصالح وكان من أهدافهم الوصول الى ملك الحبشة المسيحي والتعاون سوياً على تطويق العالم الاسلامي وقطع مصادر الثروة التي تعتمد عليها الدول الاسلامية.

وقد حقق البرتغال هذا الحلم فوصلوا الى اثيوبيا وحاولوا نشر المذهب الكاثوليكي فيها وفصم عرى الرابطة بين الكنيستين الاثيوبية والمصرية وان لم يفلحوا في هذا لكنهم اكتفوا بالعمل سويا ضد المسلمين، ورأينا كيف أمتد الصراع بين البرتغال والمسلمين مدة طويلة واتخذ صوراً متعددة.

وقد اقتفت البعثات التبشيرية البرتغالية خطى الرحالة والتجار وجيوش الاستعمار، وأصبح طبيعياً ان نجد في كل قلعة انشئت في سفالة وموزمبيق وغيرها من الموانئ الافريقية واحدا أو اكثر من الجزويت، ومن أشهر هؤلاء جونسال دى سيلفيرا (Goncalo Da Silveira) الذي وفد من لشبونة الى شرق افريقيا وتوغل حتى مقر المونوموتابا ونجح في إقناع الامبراطور الافريقي ورجال حاشيته باعتناق المسيحية ــ لكن خشى بعض تجار الرقيق بنوع خاص من نتيجة هذا العمل فكادوا له عند الامبراطور واتهموه بالجاسوسية فنكل به الامبراطور وقتله وانتقمت البرتغال بارسال

حملة بقيادة فرانسيسكو باريتو (Francisco Barreto) في عام ١٥٦٩ للانتقام من قتل المبشر البرتغالي لكن لم تحقق هذه الحملة أهدافها.

وقد تنافست بعد ذلك بعض فرق الرهبان على العمل في هذا الميدان الجديد بشرق افريقيا، واشتهر من هذه الفرق فريق الدومينكان، فقد امتد نشاطهم على طول نهر الزمبيزي وانشأوا مدرسة للاهوت في الهند بعثوا إليها عدداً من الشبان الافريقيين لاعدادهم للعمل في الحقل لتبشيري في افريقيا بعد عودتهم إليها(١٠).

على ان انحراف رجال الدين البرتغال عن أهدافهم واتجاههم الى السعي لتملك الاقطاعيات الكبيرة والمتاجرة في الرقيق وغير ذلك من المخازي، بالاضافة الى الصراع الرهيب الذي نشب بين طوائف المبشرين ــ أدى الى قصر نشاط هذه البعثات على نقط بسيطة ساحلية وعلى بعض الاعمال البسيطة في المستشفيات أو في مجال التعليم، ثم تطور الامر فتوقف عملها كلية بعد ذلك بعد أن نضبت أموالها وفتر الحماس الديني الذي كان هو الدافع في المبدأ وراء هذه المغامرات الشاقة.

٤ ــ من الناحية الثقافية:

أدى كشف البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة عن مصر والشرق الاسلامي الى عزل هذه البلاد عن العالم وعن أوروبا التي كانت قد أخذت تنهض وتتقدم منذ عهد النهضة الاوروبية مما أدى الى الركود الذي شمل المشرق الاسلامي بالذات من مستهل العصور الحديثة حتى القرن التاسع عشر الميلادي.

على أنه فيما يتعلق بالاخذ بأيدي الافريقيين في مجال التعليم والثقافة ــ وهي من الاهداف التي تذرع بها المستعمرون وبرروا بها عملياتهم الاستعمارية ــ فقد تركت السلطات البرتغالية للارساليات الدينية مهمة القيام بهذا العمل والحقيقة ان جهود هذه الارساليات وامكانياتها كانت محدودة للغاية فلم تحقق الا نجاحا بسيطا.

وحتى بداية القرن التاسع عشر كانت المدارس القليلة الموجودة في موزمبيق وغيرها من الساحل الافريقي الشرقي تخضع خضوعاً تاماً لاشراف الارساليات الدينية فهي التي تديرها وتنفق عليها وتتولى شئونها.

والاحصائيات التي وصلتنا تدل على ضآلة عدد المنتظمين في المدارس من الافارقة.

وإذا وضعنا في الاعتبار انتشار الشعور العدائي بين الافريقيين ضد البعثات التبشيرية، وعدم الثقة في نواياها بالاضافة الى النظرة للافريقي على أنه يجب ألا يحصل إلا على قدر ضئيل من الثقافة يؤهله ليكون عاملا يمكنه أن يمارس العمل الذي يكلفه به الأوربي، وأن ينفذ الأوامر الصادرة إليه ــ يمكن أن ندرك النتائج التي يمكن أن تسفر عنها مثل هذه الجهود في ميدان التعليم.

وقد رد فريردا اندريد (Fraire de Andrade) الحاكم العام لموزمبيق في عام ١٩٠٦ على السؤال

الذي كان يجول دائما بأذهان القائمين على التعليم في المستعمرات البرتغالية عن نوع التعليم الذي يمكن ان يقدم للافريقي بأن «تعليم الافريقي يجب أن ينحصر في إعداده ليكون عاملا يسهم في تقدم اقتصاد البلد فحسب،ويجب ألا نشجعه حتى يصل به الغرور لدرجة أن يحاول تمثيل دور الضفدعة التي ظنت أنه يمكنها ان تنتفخ فتصبح كالثور فانتهى الأمر بأنها انفجرت وبالطبع لم يلحق بالثور في هذه القصة أي ضرر لكن في حالة الافريقي لابد أن يلحق الضرر بالآخرين»(١٦).

والحقيقة أن الأوضاع التي تركت البرتغال مستعمراتها فيها بعد أن انتهى الوجود البرتغالي تعطي صورة سوداء حالكة عن ظروف التعليم في هذه المستعمرات وأوضاع الأفارقة في ظل الاستعمار البرتغالي.

وأشير الى أن البرتغال كانت دائما تخشى ان تنتقل تيارات التحرير التي أخذت تهب على القارة الافريقية الى مستعمراتها ولذلك فرضت ستاراً حديدياً على المستعمرات وسكانها.

وحاولت عزل هذه المستعمرات عن مختلف التيارات الخارجية لكن كما سنعلم أن هذا لم يكن ممكنا إلا لفترة محدودة.

ثالثا: نظام البرتغال الاداري في مستعمراتهم بشرق القارة ووضع المواطنين في ظله:

رسم البرتغال سياستهم الاستعمارية لتحقيق أهدافاً محددة هي استغلال المستعمرات الى أبعد حد من الناحيتين المادية والبشرية، ومقاومة أية حركة تمرد، خصوصاً حين بدأت القومية الافريقية تظهر وأخذت حركات التحرر ومقاومة الاستعمار تهدد النفوذ البرتغالي.

وظلت سياسة البرتغال في مستعمراتها سائرة على نفس النهج الاستغلالي المحض تقريباً دون تغيير حتى منتصف القرن التسع عشر، وكانت مساوئ ومظالم النظام الاستعماري البرتغالي قد وصلت الى درجة ضج منها الرأي العام العالمي الذي استنكر هذا النظام والذي وصفه بأنه صورة جديدة من الرق (A modified form of Slavery)(١٧).

وكانت هناك وزارة للمستعمرات ويعاون وزير المستعمرات مجلس استشاري كانت السلطة في المستعمرة في يد الحاكم العام وهو المسئول عن كافة الشئون لكن بمضي الوقت تكونت في المستعمرة طبقة من الاقطاعيين، وكان عدد البرتغاليين الذي قبلوا الهجرة الى المستعمرات الافريقية قليلا فلجأت الحكومة البرتغالية لارسال المجرمين والخارجين عن القانون، ولذا كانت الاغلبية العظمى من البيض في المستعمرات البرتغالية حثالة المجتمع، وكانت جهود المستعمرين البرتغال منصرفة الى تجارة الرقيق واستنزاف كافة خيرات المستعمرة وكما ذكرنا فإن الجمعيات التبشيرية التي بدأت نشاطها في أعقاب الاستعمار البرتغالي شاركت في هذا النشاط الهدام. وقد برر البعض هذه الجريمة بان الرقيق الافريقيين كانوا اكثر استعداداً لتقبل تعاليم المسيحية حين يبتعدون عن موطنهم الاصلي حيث تنتشر معتقداتهم في السحر وغيره، ولذا أصبحت الحصون البرتغالية في شرق القارة عبارة عن مجرد مراكز للتبادل التجاري وكان الرقيق أهم سلعة فيه(١٨).

وقد ظلت موزمبيق زمناً طويلا المركز الرئيسي لتصدير الذهب والعاج بالاضافة الى الرقيق والغلات الافريقية الاخرى، وكان حاكمها تابعاً لنائب الملك في الهند وعليه ان يرفع إليه تقارير دورية لرفعها هو بدوره الى لشبونة(١٩).

وقد منحت البرتغال في مستعمراتها الامتيازات للشركات الاستغلالية الأجنبية لمزاولة نشاطها في هذه المستعمرات.

ولقد كانت نظرة البرتغال للافريقي قائمة على أنه كائن حي أقل من الاوروبي وأن عليه أن يعمل وان يجبر على العمل لتحقيق الرفاهية للأوروبي. فالمستعمرات كان ينظر إليها دائماً كأقاليم منتجة لصالح الرجل الأبيض ــ وكافة القوانين والنظم التي وضعت كلها تشير الى هذا الاتجاه. ولذا كانت المستعمرات البرتغالية أسواقاً لتجارة الرقيق وغيره من السلع الافريقية وحتى بعد أن صدرت القوانين بالغاء الرق أصبح الرق الجديد يمارس في صورة العمل الاجباري ولم يقبل البرتغاليون في أي يوم من تاريخهم الاستعماري الطويل في افريقيا والذي يقرب من خمسة قرون، ان ينظروا الى الافريقيين نظرة الند للند وأن يعاملوهم على قدم المساواة. ولذا كان القانون الذي وضعه البرتغال لحكم مستعمراتها يقسم السكان دائماً الى ثلاث فئات:

أ. فئة الأوروبيين.

ب. فئة الوطنيين الذين اندمجوا في الحياة البرتغالية وهم ثمرة التزاوج بين الاوروبيين والافريقيين.

ج. فئة الوطنيين الذين لم يندمجوا في الحياة البرتغالية.

يضاف الى هذا في المستعمرات البرتغالية في شرق افريقيا عدد من الآسيويين من الهنود وغيرهم هاجروا الى تلك المستعمرات ولم تكن النظرة إليهم تختلف كثيراً عن النظرة للوطنيين الأفارقة.

وبالطبع كانت الخدمات كلها سواء التعليمية أو الطبية أو غيرها مركزة في مراكز تجمع الأوروبيين.

وفي موزمبيق مثلا رغم أن غالبية الأفارقة كانوا يعملون بالزراعة فإن السلطات البرتغالية وجهت الانتاج للمحاصيل النقدية كقصب السكر والسيسال والقطن والشاي، كما أدخلت زراعة الحمضيات والموز، وتركزت مشروعات الري الهامة المتعلقة بنهر لمبوبو على المناطق التي يحتلها الاوروبيون، أما مزارع الوطنيين فيزرع بها الذره والدخن والكبره ــ كما وجه الاهتمام ايضا لاستغلال مناجم الفحم.

وفيما يتعلق بطرق المواصلات مدت الخطوط الحديدية بقصد خدمة الأهداف الاقتصادية للمستعمر لنقل الصادرات وأعدت الموانئ لنفس الهدف.

ويكفي لاعطاء صورة صادقة بعض الشئ عن وضع الوطنيين الافارقة في المستعمرات البرتغالية أن نشير الى التقرير السري الذي وضعه بتكليف من الحكومة البرتغالية الكابتن هنريك جلفاو (Galvao Henrique) وقد رفع تقريره الى الجمعية الوطنية في عام ١٩٤٧ لكن الصراحة المؤلمة التي كتب بها التقرير أدت الى توجيه الاتهامات له فسجن وبقي في السجن حتى عام ١٩٥٩ حين استطاع الفرار، وفي

١٢ يناير ١٩٦١ استولى على السفينة سانتا ماريا (Santa Maria) بقصد التوجه الى افريقيا وتحرير المستعمرات البرتغالية من الدكتاتورية، وبالطبع لم يحقق جلفاو خطته وانتهى به المطاف الى اللجوء الى ميناء رسيف Recife البرازيلي لكن هذا العمل لاشك في أنه لفت الأنظار الى الأوضاع السيئة في المستعمرات البرتغالية(٢٠).

وفي تقريره أشار جلفاو الى الحالة السيئة التي يعاني منها الوطنيون في المستعمرات البرتغالية لدرجة أن السكان القادرين على العمل في موزمبيق وغيرها يهرعون ويهجرون الارض الى جنوب افريقيا وروديسيا وغيرها وقد قدر عدد الذين هاجروا في خلال السنوات العشر الأخيرة من موزمبيق وانجولا وغينيا بمليون نسمة، وذكر أن المعدل السنوي للهجرة أخذ في الازدياد وذكر التقرير أن الأمر لا يقتصر على انخفاض مستوى المعيشة في المستعمرات البرتغالية بل إن هذه المستعمرات تعاني من نقص الخدمات الطبية مما ترتب عليه هبوط معدل المواليد وارتفاع نسبة الوفيات التي قدرت ب ٦٠٪ من الاطفال، ٤٠٪ من متوسطي العمر.

ويشير التقرير الى عمليات القمع التي انتهجتها البرتغال ضد الوطنيين حتى إنه ذكر انها قامت في صورة عمليات إبادة حقيقية، وذكر أن الارقام الواردة في الاحصائيات الرسمية لا يمكن أن تصور مدى آلالم الذي يحس به المرء حين يشاهد أوضاع الوطنيين بنفسه، فالذين يكتبون التقارير الرسمية يخشون أن يضمنوا تقاريرهم الحقائق التي يهمسون ببعضها فيا بينهم، وأشار التقرير الى أن عدد الاطباء قليل وهم يتركزون في أهم المراكز المدنية حيث يتجمع البيض تاركين المناطق الداخلية خالية من أية رعاية طبية وتفتقر المستشفيات للتنظيات الصحية الأولية وهي لا وجود لها في الاماكن التي يكثر فيها الوطنيون ولتي تشتد فيها الحاجة إليها والعناية بالامهات قبل الوضع وبعده ورعاية الاطفال ومقاومة الامراض المتوطنة كالملاريا ومرض النوم مجرد شكليات.

والزوار الذين ترسلهم الحكومة المركزية لكتابة تقارير عن الحالة لا تترك لهم الفرصة في الواقع إلا لمشاهدة المظاهر الراقيةالتي تستخدم بمناسبة زيارتهم ويشبه التقرير الحالة في موزمبيق بأنها كانما تعاني من الاثار المروعة لحريق مروع، وتحدث التقرير عن نظام الالزام في العمل فذكر أنه لا يختلف في الحقيقة عن نظام الرق والسخرة وإن اكثر من ٣٣٪ من الذين هم في سن العمل عاجزون لاسباب صحية عن مزاولة العمل لكن لا يعني في الحقيقة من السخرة سوى الموت، وتحدث عن هذا النوع من الرق فذكر انه اسوأ من الرق المجرد لأنه كما ذكر ــ اليوم لا يشترى الوطني إنما يجري استئجاره من الحكومة، وإن كان يشغل مركز الرجل الحر ــ يكاد سيده لا يهتم به إن مرض فهو يواصل العمل طالما هو حي، وحين يعجز عن العمل أو يموت يستطيع سيده دائماً ان يطلب إبداله بعمال آخرين.

وأورد جلفاو في تقريره صورة لنقل العمال الذيت تتكفل إدارة شئون الوطنيين بجمعهم لأصحاب الأعمال وشحنهم في ظروف شبيهه بما يحدث عند تصدير الحيوانات.

وتحدث التقرير أيضاً عن الظروف السيئة التي يعمل فيها العمال الوطنيون وعدم توفر المساكن

الصحية اللائقة بآدميتهم، وعدم دفع الأجور المناسبة لهم، والعقوبات البدنية التي يتعرضون لها، والنظر للوطني على أنه مجرد حيوان يحمل الاثقال حتى أن كثير من الأعمال الشاقة تعهد إليه بدلا من إستخدام الآلات، وذكر إنه ليشعر بعجزه عن ذكر الحقيقة كاملة لكنه يجمل الوضع بأنه أشبه بعملية إبادة بالجملة للسكان الافريقيين.

والعجيب أن حكومة البرتغال بدلا من أن تتخذ خطوات لعلاج الوضع نجدها تحيط التقرير بسياج من الكتمان وتصب نقمتها على كاتبه فتزج به في السجن(٢١).

لقد أوردنا بعض ما جاء في هذا التقرير لأنه يعطي صورة دقيقة لوضع الوطنيين ولأنه مكتوب بقلم مسئول برتغالي سجل ما شاهده بعينه في زيارة له قام بها في منتصف القرن العشرين (١٩٤٧) بعد العديد من الاصلاحات التي إدعت حكومة البرتغال أنها قامت بها لاصلاح أوضاع الوطنيين في موزمبيق وغيرها من مستعمراتها.

رابعا: الحركة الوطنية في المستعمرات البرتغالية في شرق افريقيا:

واجه البرتغال منذ وطأت أقدامهم شرق افريقيا مقاومة عنيفة من الوطنيين الأفارقة ومن العرب سواء المستوطنين أو الحكومات العربية الاخرى التي سارعت لمساندة حركة المقاومة الوطنية للوجود البرتغالي في الساحل الشرقي للقارة والمياه التي تطل عليها هذه السواحل.

وقد رأينا من قبل صوراً لهذا الصراع مع دولة المماليك ثم الدولة العثمانية. كما رأينا أن هذا الصراع أتخذ أشكالا غريبة واشتركت فيه اثيوبيا الدولة المسيحية مع البرتغال كما اشتركت فيه القوى العربية والاسلامية لمساندة الامارات العربية في شرق القارة.

وذكرنا أن هذه الامارات العربية قاومت الغزو البرتغالي ما إستطاعت الى ذلك سبيلا لكن البرتغال بأسلحتهم المتقدمة إستطاعوا قهر هذه المدن وقد أصابها من جراء ذلك الكثير من التدمير والتخريب والحرق والابادة، فقد كان نصيب المقاومين الذين يتصدون للغزاة الابادة والرق للسكان والمدن والمزارع والحيوانات لنشر الرعب والفزع في قلوب من يفكرون في مقاومة المعتدين.

وظهرت بطولات في هذا المجال تستحق الدراسة والتنويه ــ وان استطاع البرتغاليون بأسلحتهم ان يتغلبوا على المقاومة الوطنية التي واجهتهم لكن كان عليهم بعد ذلك أن يواجهوا ثورات الافريقيين والعرب التي هددت مراكزهم وسلطتهم.

ومن أبرز الثورات التي واجهها البرتغاليون الثورة التي تزعمها مير على في عام ١٥٨٠م في مقديشيو وامتدت الى ممبسة وغيرها من الموانئ بشرق افريقيا، ولقي مير على من الاتراك معاونة مكنته من إخضاع معظم المناطق الخاضعة للبرتغال ما عدا مالندى.

ولم يستطع البرتغاليون إخماد الثورة إلا بالاستعانة بالقوات البحرية من الهند، وبعد ان نجحوا في استمالة قبائل زومبا (Zumba) وهم من البانتو، وكان انضمامهم للبرتغاليين من العوامل الرئيسية التي مكنتهم من إسترجاع ممبسة والقبض على مير على وإعدامه.

وقد أيقن البرتغال بعد هذه الثورة أن قواتهم في موزمبيق ومالندى غير كافية لتحقيق السيادة لهم على الساحل الشرقي للقارة ولذا أقاموا في عام ١٥٩٣ حصناً قوياً في ممبسة.

على أن ثورات العرب والافريقيين لم تكن تهدأ حتى تبدأ من جديد، ففي عام ١٦٥٠ اندلعت الثورة مرة أخرى في كل الشاطئ الشرقي واتصل الثوار بإخوانهم العرب في الشاطئ الآسيويوجاءتهم نجدات من عمان وغيرها من انحاء شبه الجزيرة العربية.

وهكذا لم ينعم البرتغاليون بالاستقرار على الساحل بالاضافة الى محاولتهم لمد نفوذهم تدريجياً للداخل ــ وكان اعتمادهم على ما يأتيهم من ممثل الملك في الهند من إمدادات ونجدات لمواجهة ثورات الأفريقيين.

وحفل النصف الثاني من القرن السابع عشر بأحداث الصراع بين البرتغاليين من جهة وبين الوطنيين من الأفارقة والعرب في سواحل افريقيا الشرقية ومؤيديهم من العثمانيين من جهة أخرى، وقبل أن يختتم هذا القرن استطاع الأفريقيون والعرب بمساعدة قوة من عمان حصار الحصون البرتغالية بالساحل وسقطت هذه الحصون في أيدي الوطنيين، وإنكمشت سلطة البرتغال وأقتصرت على بعض الاماكن الحصينة في جزيرة موزمبيق وأضطروا للاعتراف بسيادة العرب على المنطقة الواقعة شمال رأس دلجادو (Cape Delgado) بينما كانت السيادة للبرتغال الى الجنوب من ذلك.

واتخذ البرتغاليون من جزيرة موزمبيق مقراً لهم ومركزاً لسيادتهم واهتموا بتحصينها وإعدادها كقاعدة تجارية تخدم اسطولهم التجاري الذي يعمل بين لشبونة التي أصبحت سوقاً تجارياً هاماً للسلع الافريقيهالشرقية، وبين الهند، وأصبحت قلعة موزمبيق مركز القائد العسكري العام الذي هو في نفس الوقت رئيس الجهاز الاداري، وكان مسئولا أمام نائب الملك في الهند وقد زاد مركز البرتغاليين في شرق أفريقيا حرجاً بعد أن فقدوا سيادتهم في المحيط الهندي والهند(٢٢).

خامساً: نهاية الاستعمار البرتغالي في شرق افريقيا:

ظلت البرتغال متمسكة بوجودها في موزمبيق وفي مستعمراتها الاخرى انجولا، وغنينيا بيساو حتى بعد أن اضطرت الدول الاستعمارية الكبرى مثل انجلترا وفرنسا ان تعترف بحق الشعوب الخاضعة لها بالاستقلال.

وكانت السياسة التي وضعها انطونيو سالازار (Antonio Salazar) في ١٩٣٠ للمستعمرات البرتغالية في افريقيا تقوم كما شرحها جورج إميل (Jorge Ameil) أحد دعاة هذه السياسة، على أساس الاحتفاظ بالمساحات التي يرفرف عليها علم البرتغال فيما أطلق عليه «البرتغال فيما وراء البحار» وبذل كل جهد ممكن لاستخلاص الثروة الخبئة في باطن الأرض أو الظاهرة على سطحها والبحث عن مناطق الانتاج والدمج وتذليل الصعوبات التي تعترض استغلالها(٢٣).

وقد صدر في عام ١٩٣٣ قانون لتحقيق هذه السياسة، وعمدت الحكومة البرتغالية لتشجيع المواطنين البرتغال وطلاب الجامعات للقيام برحلات للمستعمرات البرتغالية وحث الحكومة البرتغالية ووسائل الاعلام المختلفة على العمل لاثارة حماس الشباب للهجرة الى المستعمرات واستغلال خيراتها، كما شجعت رجال الفكر والكتابة لتسخير أقلامهم للدعوة لهذه السياسة ليبقى حياً في أذهان الشعب البرتغالي ــ كما ذكر ساليزار ــ ان افريقية بالنسبة للبرتغال أكثر من أرض تستغلها لكنها السر في أن البرتغال ينظر إليها كبلد عظيم، وبدونها سوف تكون شعباً أوروبياً صغيراً، وحولت المدرسة العالية للدراسات الاستعمارية في لشبونة الى معهد أطلق عليه أسم (معهد دراسات ما وراء البحار) لخلق طبقة من البرتغاليين لادارة المستعمرات وغير إسم المستعمرات الى إسم (أقاليم ما وراء البحار) وهو الاسم الذي أصبح يطلق أيضاً على وزارة المستعمرات (وزارة ما وراء البحار).

وفي سنة ١٩٥١ صدر قانون أخر خاص بإدارة الاقاليم البرتغالية فيا وراء البحار وهو لا يختلف في جوهره عن القانون الصادر في عام ١٩٣٣ وأهم المبادئ التي أحتواها هذا القانون[٢٤]:

١ ــ تعتبر جميع الأراضي الأفريقية الخاضعة للبرتغال جزءاً لا يتجزأ من أراضي البرتغال ذاتها.

٢ ــ تتبع أقاليم ما وراء البحار وزارة ما وراء البحارولوزيرها سلطة تامة فيا يتعلق بكافة شئونها ويعاونه مجلس استشاري، ولكل اقليم حاكم عام يدير شئونها.

٣ ــ يعقد مؤتمر عام في لشبونة كل ثلاث سنوات برئاسة وزير أقاليم ما وراء البحار يحضره حكام هذه الاقاليم للنظر في شئونها المختلفة.

٤ ــ يحرم في هذه الاقاليم الاشتغال بالسياسة أو تأليف أحزاب.

٥ ــ تشجيع سياسة الاندماج (Assimilade) كما تعرف في اللغة البرتغالية وهي تقضي بمنح الافريقي الذي يتعلم اللغة البرتغالية ويعتنق الكاثوليكية حق المواطن البرتغالي.

٦ ــ منح القانون للادارة البرتغالية حق توريد العمال الافريقيين لعمل داخل الاقاليم التي تسيطر عليها البرتغال أو خارجها تحت ستار ما يسمى بعقود العمل.

٧ ــ إنتقال الافريقيين داخل الاقليم يخضع لنظام بطاقات الانتقال فلا يستطيع الافريقي مغادرة قريته إلا بأذن سابق من بوليس المنطقة.

٨ ــ وضع نظامصوري لتمثيل الاقاليم فيا واء البحار في البرلمان البرتغالي تحقيقاً لسياسة الادماج وهذا يعنى بالطبع القضاء على القومية الافريقية للافريقيين في هذه الاقاليم، وكان من الطبيعي أن يتحرك الوطنيون الافريقيون في المستعمرات البرتغالية في وجه المستعمر الذي أذاقهم صنوف العذاب والاستعباد وأن يتحينوا الفرصة المناسبة للانقضاض عليه وتحطيم الاغلال التي تربطهم به.

وكانت البرتغال تخشى أكثر ما تخشاه من أمرين:

١ ــ تسرب أخبار حركات القومية الافريقية . التي أخذت تجتاح القارة ــ لمستعمراتها.

٢ ــ الرأي العام العالمي ممثلا في الأفراد والجماعات وكذا في المنظمات الدولية ومعارضة

الاساليب الوحشية واللاإنسانية التي تتسم بها سياسة البرتغال في مستعمراتها، وكذا مساندة الدول الافريقية المستقلة وتشجيعها للوطنين الافارقة في ثوراتهم ضد المستعمرين البرتغال.

وقد حاولت البرتغال إحاطة مستعمراتها بسياج يمنع تسرب نسمات الحرية والقومية التي تهب على القارة الى هذه المستعمرات.

ورغم انضمام البرتغال الى الأمم المتحدة سنة ١٩٥٥ لكنها رفضت تقديم أية تقارير عن مستعمراتها كما نص على ذلك ميثاق المنظمة الدولية بحجة أن هذه أقاليم برتغالية فيما وراء البحار.

لكن لم تجد هذه المحاولات فمنذ سنة ١٩٤٨ توالت الاضطرابات وحركات الاستنكار للسياسة الاستعمارية البرتغالية في شرق القارة، فنشطت في موزمبيق مثلا (حركة الاتحاد الديمقراطي) وهي حركات انضم إليها عدد كبير من الافارقة بل انضم إليها عدد من المسئولين البيض الذي شعروا بضرورة تغيير الاوضاع في المستعمرة حتى لا يؤدي الامر الى إنفجار الموقف.

وقابلت البرتغال هذه الحركات بوسائل وحشية للقمع والارهاب فقتل عدد كبير من الأفريقيين، كما زج بأعداد منهم في السجون والمعتقلات.

وكان طبيعياً أن تساند الدول الأفريقية والآسيوية في الأمم المتحدة حق الوطنيين الأفريقيين في حريتهم.

ففي فبراير ١٩٦١ طالبت خمس وثلاثون دولة افريقية وآسيوية من مجلس الأمن بحث الموقف في المستعمرات البرتغالية لأنه يعرض السلام والأمن الدوليين للخطر.

وتقدمت سيلان، وليبيريا، ومصر بمشروع قرار للمجلس يقضي بتشكيل لجنة لتقصي الحقائق في المستعمرات البرتغالية.

وقد شهدت الساحة الوطنية في موزمبيق عدداً من التنظيمات الوطنية من أهمها جبهة تحرير موزمبيق التي عرفت باسم (الفريليو) التي أعلن تشكيلها في يونيو ١٩٦٢ وقد اعلنت الجبهة في سبتمر ١٩٦٤ الكفاح المسلم ضد المستعمر واستطاعت فعلا تحرير مساحات واسعة من أرض موزمبيق وكان يتزعمها دكتور موندلاني، وبعد اغتياله أختير ميشيل سامورا رئيساً للجبهة، وكان للجبهة تمثيل دائم في القاهرة ومجلة دورية باسم ثورة موزمبيق.

ومنذ أن قامت منظمة الوحدة الافريقية في عام ١٩٦٣ ساندت قضية المستعمرات البرتغالية، ورغم اشتداد حركة المقاومة الوطنية في المستعمرات البرتغالية في شرق القارة وغربها مما ترتب عليه استنزاف قوة البرتغال المعنوية والمادية والحربية ـــ لكن ظلت حكومة سالازر العسكرية في عنادها الى أن أنتهى الأمر بسقوط الحكومة بعد أن وصلت الحالة الاقتصادية في البرتغال الى الحضيض.

وكان طبيعياً أن تسلم الحكومة المدنية التي خلفتها بحق المستعمرات البرتغالية في إستقلالها.

فقامت جمهورية موزمبيق المستقلة في يونيه ١٩٧٤ وقد علق أحد المؤرخين على ذلك بقوله «إن المستعمرات البرتغالية في افريقيا نجحت في تخليص البرتغال من الحكم العسكري ولما سقط الحكم العسكري في البرتغال استطاعت المستعمرات البرتغالية ان تنال استقلالها».



مكتبة البحث

أولا: مراجع عربية أو معربة:

١. تشرين، ج، هاريسون: الاستعمار الحديث ترجمة د. دولت صادق، مراجعة د. محمد السيد غلاب (الاصل المترجم ١٩٥١).

٢. راشد البراوي (دكتور): الرق الحديث في افريقيا البرتغالية (القاهرة ١٩٦٢).

٣. شوقي الجمل (دكتور): المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (القاهرة ١٩٦٢).

٤. شوقي الجمل (دكتور): تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (القاهرة ١٩٨٠)

٥. شوقي الجمل (دكتور): قضية روديسيا بين الامم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية (القاهرة ١٩٧٧).

٦. عبد الملك عودة: السياسة والحكم في افريقيا (القاهرة ١٩٥٦)

٧. المقريزي، تقي الدين احمد بن علي: الالمام باخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام (نشرة الدكتور رنك ـ القاهرة ١٨٩٥)

٨. يوسف احمد: الاسلام في الحبشة (القاهرة ١٩٣٥).

ثانيا: مراجع باللغة الانجليزية:

1. Batlett, Vernen: Sttuggle for Africa (London 1950)
2. Coupland, R. : East Africa and its Invadets (London 1936)
3. Davidson, B. : The African Awakening (1955)
4. De Carvalho, Vasco: La Domination Portugaise au Maroc 1, 1789. (Lisbonne 1936)
5. Duffy, James: Portugese Africa (London 1959)
6. Duffy, James: Portugal in Africa (London 1952)
7. Galvao, H.: Santa Maria and My Crusade for Portugal. (1962)
8. Harris, John, H.: Portuguese Slavery (London 1915)
9. Hoskins: British Routes to India (London 1928)
10. Johnston, H.: Hist ory of the Colonization of Africa by Aliean Races Cambridge 1931
11. Kamerer: La Mer Rouge, L'Abyssinie et l'Arabe depuis L'Antiquite, (1929)
12. Moreira, Edwardo: Portuguese East Africa, (London 1926)
13. Nerinson, H.W: Modern Slavery, (London 1936)
14. Ransford, Oliver: The Rulers of Rhodesia from earliest times to Referendum, (London 1968)
15. Swan, Charles: Slavery of to day, (London 1900)

هوامش البحث

١. De Caravalho, Vasco: La Domination Portugaise Au Maroc, 1415-1789 (Lisbohne 1936) P.15

٢. لمن يريد المعلومات الوافية عن دور البرتغال في المغرب يرجع الى:

شوقي الجمل: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (القاهرة ١٩٧٧) ص ٤١.

٣. Johnston, H.: History of the Colonization of Africa by Alien Races (Combridge 1913) P.30

٤. Ibid P. 32

٥. كان اسمها العربي (بساسة) وهو كنية مكة المكرمة لان مؤسيسها وفدوا من اقليم الحجاز وعرفت بعد ذلك عند المؤرخين العرب باسم منبس وحرفها البرتغاليون الى ممبسة انظر محمود طه: المؤثرات العربية في شرق افريقيا ص١٤.

٦. Duffy, James: Portugues Africa (1957) P,28

٧. عن تفاصيل هذه الصراعات يرجع الى:

المقريزي تقي الدين احمد بن علي: الالمام باخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام (نشره الدكتور رنك ــ القاهرة ١٨٩٥)

وكذلك يوسف واحمد: الاسلام في الحبشة (القاهرة ١٩٣٥)

٨. شوقي الجمل: تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (القاهرة ١٩٨٠) ص ١٨١ وما بعدها.

٩. Hoskins: British Routes to India (1928)

وكذلك Kammerer: La Mer Rouge, L'Abyssine et L'Arabie depuis L'Antiquite' (1929)

١٠. تشرش، رج، هاريسون: الاستعمار الحديث (الاصل ١٩٥١) ترجمة د. دولت صادق ومراجعة د. محمد السيد غلاب ص٣٠.

١١. Ransford, Oliver: The Rulers of Rhodesia From earlies times to Refereaum (London 1968) P.58

وشوقي الجمل: قضية روديسيا بين الامم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية (١٩٧٦) ص٥٥ وما بعدها.

١٢. Coupland R. : East Africa and its invaders (London 1938) P.35

١٣. Ibid P. 36

ملاحظة: ناقش كاتب هذا المقال بتفصيل قضية اتهام العرب بنشر تجارة الرقيق والتوسع فيها في شرق القارة، انظر شوقي الجمل: تاريخ كشف افريقيا واستعمارها مرجع سابق ص ١٣٩ وما بعدها.

١٤. Duffy: OP. Cit. P111

١٥. الدومينيكان ــ طائفة كالجزويت انتسبت الى القديس دومينيكا (St.. Dominic) وبدأت نشاطها في اسبانيا وانتقل نشاط جماعة منهم الى البرتغال وكان لها نشاط خاص في العمل التبشيري في الصين والهند واليابان، وحين فتحت الكشوف الجغرافية الميدان الافريقي للعمل اسرعوا لضم هذا الميدان لنشاطهم.

١٦. Duffy: OP Cit: p. 159

١٧. انبرى عدد كبير من الكتاب لمهاجمة سياسة البرتغال التي كانت قائمة على اجبار الافريقيين على العمل في المزارع والمصانع وغيرها والتي اعتبروها صورة جديدة من الرق ومن هؤلاء:

Swan, Charles: Slavery of to day (London 1900)

Harris, John, H. Portuguese Slavery (London 1915)

Nerinson, H. W. : Modern Slavery (London 1936)

١٨. Bartlett, Vernon: Struggle for Africa (London) p. 89

١٩. استقلت مستعمرة موزمبيق البرتغالية عن جوا بالهند في عام ١٧٥٢ واصبح حاكم موزمبيق مسئولا ايضا عن زمبيزيا وسفالة.

٢٠. لزيادة المعلومات عن هذا الحدث الطويف يرجع الى:

Galvao, H.: Santa Maria and my Crusade for Portugal (1962)

٢١. نجحت جريدة الاوبزرفر (Oberver) في الحصول على صورة كاملة من التقرير ونشرته في عددها الصادر في ٢٩ يناير ١٩٦١.

٢٢. للمزيد من التفاصيل عن حركة المقاومة الوطنية للوجود البرتغالي في شرق افريقيا انظر:

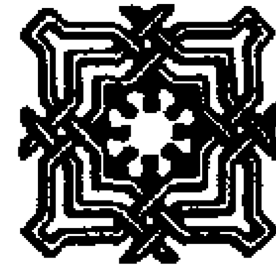
شوقي الجمل: تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، مرجع سابق، ص ١٩١ وما بعدها

وكذلك Davidson, B. : The African Awakening (1955)

٢٣. راشد البراوي: الرق الحديث في افريقيا البرتغالية (١٩٦٢) ص ٧٢ وما بعدها

٢٤. عبد الملك عوده: السياسة والحكم في افريقيا (القاهرة ١٩٥٩) ص ٢٠٠

وكذلك Perlett: Op, Cit. p.86



التنافس والصراع بين البرتغاليين والتحالف الانجليزي الهولندي في الخليج العربي في القرنيين ١٦ ــ ١٧م

هيفاء عبد العزيز كريم
باحثة بمعهد البحوث والدراسات العربية
قسم البحوث والدراسات العربية ــ بغداد

تقديم:

يعتبر موضوع التنافس والصراع بين البرتغال والتحالف الهولندي الانكليزي من المواضيع المهمة والجديدة والتي لم تطرق بصورة مباشرة. أن موضوع البحث يتميز بفترة هامة تتركز في تدفق الغزو البرتغالي وبداية الصراع والتنافس بين الهولنديين الذين ظهروا كقوة في مطلع القرن السابع عشر وتعاونهم مع الانكليز ضد البرتغاليين وقد لعب العرب فرسان الخليج العربي دوراً بارزاً وهاماً في تصفية الوجود البرتغالي اضافة الى الدور الذي لعبه الصفويون في زيادة حدة التنافس ثم وصولا الى الاشتباك بين الاقطاب الثلاثة في اساطيل مشتركة بين الانكليز والهولنديين من جهة والبرتغاليين من جهة أخرى، وبنهاية هذه الاقطاب انتهى الوجود البرتغالي في الخليج العربي في منتصف القرن السابع عشر.

لقد كان لاهمية الخليج العربي الاستراتيجية دوراً كبيراً في توجه أنظار الدول الاوروبية اليه في القرن الخامس عشر ومنذ بداية عصر الاستكشافات الجغرافية(١) حيث يعتبر الطريق الذي لعب دوراً خطيراً منذ أيام السومريين والأكاديين وكطريق يوصل أوروبا بالهند والشرق الاقصى وهذه المناطق واسعة في الجزيرة العربية(٢). اضافة الى كونه مركزاً تجاريا هاما مهدا للحضارات، وهذا كله كان سببا في تنافس وتصارع قوى أوروبية تنافست لاكثر من خمسة قرون ابتداءا بالبرتغاليين والهولنديين والفرنسيين والانكليز وحتى المانيا وروسيا القيصرية في وقت متأخر «وقد برزت هذه الصراعات بعد الثورة التجارية في اوروبا وتوجهت الانظار نحو الشرق فظهرت البرتغال وهولندا ثم فرنسا وانكلترا في مقدمة هذه الاقطار»(٣).

لقد استمر الخليج العربي طيلة قرون طويلة ولحد وصول النفوذ الاوروبي للمنطقة في بداية القرن السادس عشر محتفظا بسماته ومقوماته العربية، ولكن سرعان ما أخذت هذه القوى بالتمزق نتيجة الزحف الاستعماري على بحار الشرق الذي استهله البرتغاليون بعد نهضتهم الملاحية والاستكشافية الكبرى(٤) وقد دخل البرتغاليون المنطقة كغزاة للاستفادة من موقعها كخط دفاع أمامي عن مستعمراتهم الرئيسية في الهند ووضع البرتغاليون نصب اعينهم القضاء على تجارة الشرق والتفوق التجاري بما في ذلك السواحل، مداخل الخليج(٥) ومارس البرتغاليون القرصنة وابشع الطرق قساوة ومرارة حتى اصبحت سفنهم تسيطر على مياه الخليج وتنظم تجارة سكانه بأجازات تصدر من البرتغاليين(٦)، ولم تتمكن أي دولة أو قوة من تحديهم كما لم تؤثر الثورات التي قام بها العرب في الموانئ على زعزعة تلك السيطرة(٧).

وبعد كل ذلك استفشى النفوذ البرتغالي في المنطقة واصبح البرتغاليون قوة كبيرة لا تضاهي قوة اخرى وسيطرة تامة على اكثر المراكز التجارية في الخليج العربي، كان لذلك نتائجه في توجيه القوى الاوروبية للمنطقة ونمو التجارة بالذات. «ومنافسة البرتغاليين والدخول في سباق معهم لانتزاع ذلك النفوذ»(٨).

بوادر التنافس الانكليزي ـ البرتغالي على تجارة الخليج العربي

لقد كانت القوى الاوروبية التي بدأت المواجهة والمنافسة مع البرتغاليين تتشابه في أهدافها التجارية الاستعمارية ولكن مختلفة في اساليبها «لقد اتبعت اكثر هذه القوى اسلوب السيطرة التجارية البحرية» في قبض سيطرتها على تلك المناطق(٩)، وهنا لابد من الاشارة الى ان الظروف كانت مواتية للقوى الاوروبية حتى بدأ التنافس وذلك لانها استعملت العنف الذي أصاب البرتغاليين عام ١٥٨٠ عندما اصبحت البرتغال تابعة لاسبانيا حتى عام ١٦٤٠(١٠)، وقد اصبحت

اسبانيا هي الممثلة لمصالح البرتغال وكانت اسبانيا في صراعات داخل القارة الاوروبية فقد سارعت الدول المعادية لاسبانيا بالانقضاض على الامبراطورية البرتغالية بأعتبارها تشكل جزءا من الممتلكات الاسبانية(١١) وقد دفع التنافس بين الدول من ناحية أخرى الى تأسيس شركات تجارية خاصة بها واخذ الانكليز على عاتقهم زعامة حرية البحار وأطلاق المجال للتجارة الحرة للتخلص من سياسة الاحتكار البرتغالية، وأخيرا فلم يعد بمقدور البرتغال وهي دولة صغيرة محددة المساحة والسكان الاستمرار في حماية امبراطورية ساحلية توجه لها الضربات منذ عام ١٥٨٨. وقد ظهر التحالف الانكليزي الفارسي لطرد البرتغاليين من الخليج العربي كنتيجة لسياسة مبيتة حيث كان للانكليز رغبة شديدة في المشاركة في تجارة الشرق المربحة ولان شعورهم بالضعف وعدم القدرة على مقاومة البرتغاليين ودفعهم الى التفكير بأيجاد طريق آخر مع الشرق عن طريق روسيا وبحر قزوين(١٢) حيث ارسلوا عدد من البعثات التجارية خلال القرن السادس عشر وحققوا نجاحاً محدوداً.

وقد جرت عدة محاولات للوقوف ضد البرتغاليين بالتعاون مع الصفويين بالذات حيث ساعد الانكليز الصفويين عندما عجزوا عن توفير السفن الحربية القادرة على مواجهة السفن البرتغالية عندما قامت بالاستيلاء على هرمز فتردد اعضاء الشركة الانكليزية في البداية للعلاقة الجيدة بين ملك انكلترا واسبانيا ولكن تهديد الشاه لهم بأبقاء الامتيازات حصراً لهم للمساعدة فوافقوا مقابل جملة من الشروط(١٣). ولكن البرتغاليين حاولوا افشال الاتفاق فتقربوا من الصفويين وطلبوا التريث لكن الصفويين اصروا على موقفهم واتصلوا بالبرتغاليين وبالانكليز ولم يستجيبوا واصر الانكليز على موقفهم وارسلت سفن الى ميناء جاسك قرب هرمز وبعدها سقطت هرمز وقشم.

هولندا تدخل ميدان المنافسة ايضا

لم يكن الانكليز فقط من ينافس البرتغاليين على تجارة الخليج العربي بل ظهر الهولنديون بعد ان اسقطت هولندا عن السيطرة الاسبانية عام ١٥٨١ وضع الاسبان البرتغاليون(١٤) من المتاجرة مع هولندا مما حدا بالهولنديين ان يفكروا في حرمان الاسبان من مصدر ثروتهم(١٥) بعد ان اصبحت البرتغال تابعة للتاج الاسباني(١٦) فكان ذلك الطريق هو المنافسة التجارية والمزاحمة في تجارة الشرق والحصول على التوابل من مصدرها الاساسي والقضاء على احتكار البرتغاليين للتجارة وبهذا بدأ نجم الهولنديين يلمع في الشرق.

وفي السنوات من ١٥٩٦ ـــ ١٦٠٤ بدأت السفن الهولندية تترى عبر طريق رأس الرجاء الصالح الى المحيط الهندي(١٧) ومن هنا بدأت المنافسة حيث أخذ الهولنديون يفرضون نفوذهم على حساب النفوذ البرتغالي(١٨).

أسلوب الهولنديين في المنافسة

لقد اتبع الهولنديون اسلوبا خاصا في التدخل من خلال عقد اتفاقيات مع الولايات المحلية لطرد البرتغاليين من سواحلهم واسست شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٦٠٢ مركز تجاري في الخليج العربي. واستمرت في محاربة البرتغاليين والحصول على مراكز تجارية في المناطق التي لهم فيها مراكز تجارية أيضا، وبدأت المنافسة بعد تحرك نفوذ الهولنديين في الهند وبداية تطلعهم نحو الخليج العربي «وخلال فترة التوحد الانكليزية الاسبانية بالذات ١٥٨٠ ــ ١٦٤٠» مستغلين بذلك ضعف البرتغاليين اضافة الى اشتداد النزاع بين شاه فارس والبرتغاليين، ويبدو أن الخطة الهولندية هي خطة ذكية ذات أوجه ثلاثة الدين والاصدقاء والحلفاء وسياسات اخرى مكملة اضافة لقواتهم الذاتية(٢٠) هذا وقد كان احد اهداف هولندا هو الانتقام من الاسبان والبرتغاليين (واللذين كانا تحت عرش واحد عندما دخلت هولندا الى الشرق)(٢١)، ومن حسن حظ الهولنديين ان مركز البرتغاليين الحصين بدأ ينهار بعد الهزيمة التي لحقت بهم على يد الاسطول الانكليزي عام ١٦١٥ وتركت تأثيرا على سفنهم التجارية(٢٢)، ولكن رغم كل هذه الاساليب والمحاولات فقط اصبحت المنافسة محدودة بنشاط الهولنديين ومحاصرة بالنشاط الانكليزي حتى بدأت الامبراطورية الاستعمارية الهولندية تنمو وتتطور وخاصة ما بين عام ١٦١٨ ــ ١٦٢٣ عندما ركزت سياستها على فرض التجارة الهولندية بالقوة ولو أدى الامر الى فرض السيطرة السياسية(٢٣) ويبدوا أن سياسة البرتغاليين قد فشلت لانها كانت تجارية وعسكرية فرضت القوة والعنف حتى نفرها سكان المنطقة، اضافة الى اختلاف سياسة الهولنديين عن سياستهم لانهم أرادوا أن يحتكروا التجارة وخاصة تجارة الطيب والبهار حتى ولو بأسوأ الوسائل دون حساب أو أعتبار لمقاييس الخداع والهدم للتجارة الانكليزية والبرتغالية ودون اعتبار للصداقة.

وهنا يمكن القول انه في الوقت الذي اضمحلت فيه السيطرة البرتغالية ظهرت السيطرة الهولندية ومن هنا تعاظم وازداد التنافس بين الاطراف الثلاثة انكلترا وهولندا والبرتغال.

اشتداد التنافس والصراع بين التحالف الانكليزي والهولندي ضد البرتغال في الخليج العربي

لقد بدأ التنافس التجاري بين الهولنديين والبرتغاليين برفع اسعار البضائع والسيطرة على مراكز تجارية مهمة اثرت على البرتغاليين، وكانت فرص التجارة للبرتغاليين قليلة ولكن الهولنديين استفادوا منها وكونوا تجارة ذات ارباح طائلة رغم أن البرتغاليين كانوا يحصلون على البضائع بأنفسهم ولكن سرعان ما يفوت الهولنديين الفرص عليهم ويأخذوا البضائع للمتاجرة بها ومن مظاهر المنافسة ايضا هو استخدام القرصنة التي كان يمارسها الهولنديون ضد البرتغاليين حيث حصل وان

خطفت سفينة برتغالية من قبل سفينة هولندية عندما كانت السفينة البرتغالية راسية في الميناء(٢٤).

وقد استخدم الهولنديون مظهرا أخر من مظاهر المنافسة وهو استخدام الاسرى في العمل كأجراء لديهم وبأسعار قليلة لكي يخذلوا البرتغاليين، «وقد حصل ذلك عندما اصطدم الاسطول الهولندي بالبرتغالي قرب ملاقا وقفز طاقم السفينة البرتغالية الى الماء وبقي القسم الاخر منهم كأسرى»(٢٥).

وقد حصل اصطدام آخر عام ١٦٤١ عندما اتحد الاسطولان الانكليزي والهولندي ورحلا الى فيتنام وصمما على مقابلة الاسطول البرتغالي لكي تصبح لهم انزعامة في الشرق الاقصى وليأخذ كل منهم نصيبه «فالانكليز لهم ثلث التجارة من مخزن التوابل والهولنديين لهم نصف التجارة من فلفل فيتنام»(٢٦).. وفي الطريق تفاوض كلا الجانبين على الامتيازات وهناك التقيا بالاسطول البرتغالي ودمروه شر تدمير، وكان عام ١٦٢٢ عاما قاسيا بالنسبة للبرتغاليين ومليئا بالاحداث والمشاكل التي هي نتيجة الاجراءات والفعاليات التي اتخذها رجال البحر في تلك المنطقة لتعويض خسارتهم على الساحل. وكان الهولنديون والانكليز ايضا قد اشتركوا في الاسطول عام ١٦١٩ لمحاربة البرتغاليين حيث خرج الاسطول لملاقاة السفن البرتغالية الثلاثة ودارت معركة كثيفة لم يخرج منها القائد البرتغالي لملاقاتهم حتى رست السفينة فتوجه اليها الانكليز والهولنديين لاقتسام الغنائم التي قدرت ب (ـــ ـــ/٦٨) الف ريال قسمت بالتساوي بينهم(٢٨).

وهذا الضعف البرتغالي اضافة الى تعرض هيمنتهم التجارية للاهتزاز منذ اوائل القرن السابع عشر بتأثير عوامل متشابكة منها انتهاء العرش الاسباني والبرتغالي عام ١٥٨٠ وتعصب البرتغاليين وقساوتهم وما اتصف به حكامهم من جشع أو فساد حدا بسكان الخليج فيما بعد ان ظهرت مقاومة شديدة، فسكان المنطقة أدت فيما بعد الى نهايتهم، وقد ظهرت المنافسة ايضا في تعاون الهولنديين مع الصفويين في فارس في صد البرتغاليين والتي بدأت باحتكار التجارة وتأسيس مراكز تجارية في فارس حيث أصبحت اكثر من نصف المبالغ المقررة لهولندا من الفلفل الاسود ثم البضائع الاخرى مما أثر على وضع البرتغاليين وقد سمح الشاه للهولنديين بأقامة مراكز تجارية ومن خلال تحالف الانكليز والهولنديين اتيحت الفرصة للسيطرة على بعض المواقع في الخليج العربي واهمها جزيرة خرج(٢٩).

وفي عام ١٦٢٠ كان هناك عدد من البرتغاليين قد وفدوا الى مسقط بعد هزيمتهم وطردهم من هرمز فأصبحت مسقط محل هرمز وقاعدة للنفوذ البرتغالي فأستغل أمام مسقط هذا التخلخل في مركز البرتغاليين ومعاناتهم في المنافسة الانكليزية الهولندية فتبنى سياسة هجومية لهدم الموانئ والتحصينات في مسقط ولكن الهجوم فشل، وتمكن بعد ذلك من التوصل الى فكرة لطردهم بعد تجربة البرتغاليين أولا من قواعدهم على الساحل(٣٠). وعلى الرغم من مساهمة الانكليز والهولنديين والصفويين في اضعاف البرتغاليين وفي تقليص نفوذهم في الخليج العربي لابد من التأكد على أن نمو قوة عرب عمان هو العامل الحاسم في طرد البرتغاليين وتصفية وجودهم في المنطقة «ولكن

البرتغاليين عوضوا خسارتهم في هرمز في زيادة الفعاليات التجارية في مناطق اخرى في مسقط»(٣١).

ولابد من الاشارة الى أن مجئ المولندين الى الخليج يرتبط بالمساعدة التي قدموها للانكليز في انزال الهزيمة بالاسطول البرتغالي في سلسلة معارك خارج بندر عباس(٣٢)، وقد ظل المولنديون يحاربون الى جانب الانكليز ضد البرتغاليين للسيطرة على تجارة المنطقة ولم يكن سقوط القوة البرتغالية في الشرق يوازي السرعة التي كان بها ظهورها اذا اشتبكت في حروب طويلة الامد مثلثة الاركان استمرت من اربعين عاما ولم تنته الا في منتصف القرن السابع عشر عندما اصبحت البرتغال دولة من الدرجة الثالثة.

الخاتمة:

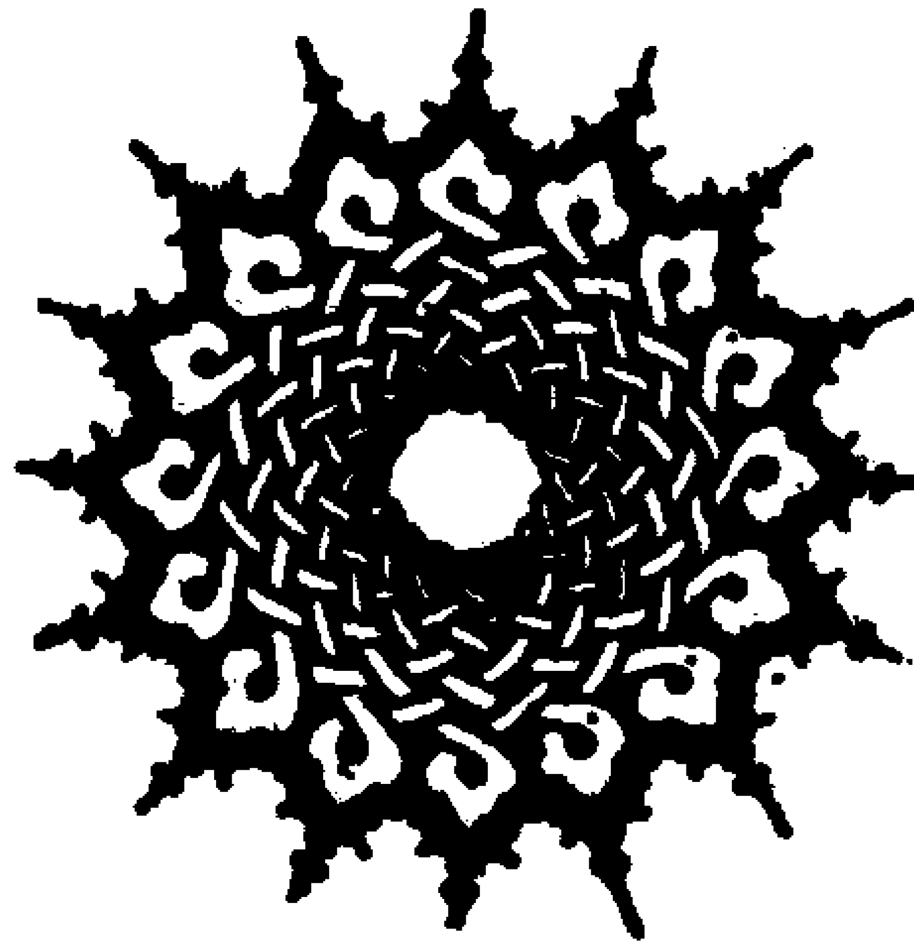
لقد توصلت من خلال بحثي هذا الى النقاط التالية:

١. لقد كانت الاهمية الاستراتيجية للخليج العربي سببا في توجه انظار القوى الاوروبية الى المنطقة التي كانت سببا في التنافس والصراع بين الاقطاب الثلاثة، الانكليز/ المولنديين/ البرتغاليين.

٢. بدأ التنافس تجاري بين البرتغاليين والمولنديين والانكليز في بداية الامر ثم تحول الى صراع بأساطيل، فيا بعد، عند مطلع عام ١٦٢٢ ثم طرد البرتغاليين في هرمز معقلهم الرئيسي.

٣. كان للفرس دورا بارزاً في شد حدة التنافس من خلال الامتيازات التي منحت للانكليز والمولنديين.

٤. لقد تميز اسلوب المولنديين في المنافسة بالحدة والعنف واستخدام اساليب القوة وصولاً الى الصراع للسيطرة على المراكز التجارية التي كانت بيد البرتغاليين.



الهوامش

١. منذ عام ١٤٩٧ ــ ١٤٩٩ اكتشف فاسكو دي جاما رأس الرجاء الصالح، ثم اندفع مع مستكشف برتغالي آخر وهو ماجلان نحو سواحل الجزيرة العربية والخليج العربي، من مسقط اتجه نحو الهند مستخدما المعلومات والدراسات الملاحية للطرق التجارية البحرية في المحيط الهندي.

محمود على الداود، عوامل التجزئة في الجزيرة العربية، تجربة دولة الامارات العربية المتحدة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦، ص٢٤.

٢. المصدر نفسه، ص ٢٥.

٣. جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسع الاوروبي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥، ص٣٦.

٤. ابحرت اربع سفن عام ١٤٩٧ بقيادة فاسكو دي جاما وكان عدد بحارتها (١٥٠) بحاراً من لشبونة وكان هدفها ايجاد قاعدة قوية على الساحل العربي للهند ايذانا للوصول الى الخليج العربي والسيطرة على المراكز التجارية هناك، صالح محمد العابد، تحرير ساحل عمان وانهيار الامبراطورية البرتغالية في الشرق، مجلة آفاق عربية، آذار/ ١٩٨٥، ص٣٩.

٥. George, W. Persian and Perstion, Curzons, Frank eass Ltd. London, 1966. Vol.2, P.419

٦. Ibid

٧. قام سكان مسقط وقلهات بثورة ما بين ١٥٢٦-١٥٢٩ نتيجة العنف الزائد الذي يمارسه قائد حامية هرمز (ديميلر).

٨. William Foster, The English fectories in India, Vol.2. London, 1986, P.20, Op. Cit, P.19

٩. Selection form state papers, 1600-1800, Bombay, 1908. P. 19

١٠. C.G.F. Simkin, The tradetional trade of Asia, Oxford New York, 1968.

١١. جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة... مصدر سابق ص ٩٨.

١٢. لوريمر (دليل الخليج، القسم التاريخي، وزارة التراث القومي والثقافة، قطر، لات، ص٣٢.

١٣. المصدر نفسه، ص ٣٤.

ارنولدت، ويلسون، الخليج العربي مجمل تاريخي من أقدم الازمنة حتى أوائل القرن العشرين، ترجمة عبد القادر يوسف، مكتبة الامل، السالمية، لات، ص١٩.

١٤. English factories, Opcit, P. 29-

١٥. Ibid

١٦. Letter from Anderson to east Indian Company (Dut ch) English fectories, Opcit, P.49

١٧. Ibid

١٨. جان جاك بيريبي، الخليج العربي، تعريب نجدة هاجر المكتب التجاري، بيروت ١٩٥٩، ص٢٠.

١٩. Letter from William Method to Thomas Roe in Surat on 9-12, 1618, English fectories, Opcit, P.59

٢٠. Ibid

٢١. نيقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب، بيروت، ١٩٦٢، ص٢٢٤.

٢٢. G.E.Erik, Ashort history of the middle east, Methuen, London, 1959, P.20

٢٣. English fectories, Opcit, P.3

٢٤. R.Coupland, East Africa and its invander's, Oxford, London, English. P.129

٢٥. George, E. Eirk, Op. cit, P.20

٢٦. لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع الى: English factories, Opcit, P.30

٢٧. Op. cit, P.31

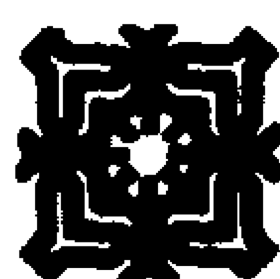
٢٨. زكي صالح، بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤، دراسة في التاريخ الدولي والتوسع الاستعماري، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٨، ص١٩.

٢٩. تقع جزيرة خرج في مواجهة مياه بوشهر والتي اتخذها الهولنديون مقراً لقوات حماية مصالحهم التجارية في الخليج العربي، جمال زكريا قاسم، مصدر سابق، ص١٦٣.

٣٠. المصدر نفسه نفس الصفحة.

٣١. نور الدين عبد الله، تحفة الاعيان في سيرة اهل عمان/ القاهرة، لات، ص٦٢.

٣٢. عبد الامير محمد امين، دور القبائل العربية في صد التوسع الاوروبي في الخليج العربي وتغلغل الاستعمار الاوروبي ١٥٠٠ ـ ١٨٢٠ مقالة في تجربة دولة الامارات العربية المتحدة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٣، ١٩٨٦، ص٥٥.



المصادر:

١. ارنولدرت، ويلسون «الخليج العربي مجمل تاريخي من أقدم الازمنة حتى أوائل القرن العشرين، ترجمة عبد القادر يوسف» مكتبة الامل السالمية، لا ت.

٢. جان جاك بيريبي، الخليج لعربي، تعريب نجدة هاجر، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٥٩.

٣. جمال زكريا قاسم، دراسة التاريخ، الامارات العربية في عصر التوسع الاوروبي الاولي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٨.

٤. زكي صالح، بريطانيا والغزو حتى عام ١٩١٤، دراسة في التاريخ الدولي والتوسع الاستعماري، مطبعة العاني، بغداد. ١٩٦٨.

٥. صالح محمد العابد، تحرير ساحل عمان وانهيار الامبراطورية البرتغالية في الشرق، مجلة آفاق عربية، اذار، ١٩٨٥.

٦. عبد الامير امين، دور القبائل العربية في صد التوسع الاوروبي في الخليج العربي، وتغلغل الاستعمار الاوروبي ١٥٠٠ ــ ١٩٢٠، مقالة في تحرير دولة الامارات العربية المتحدة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٣، ١٩٨٦.

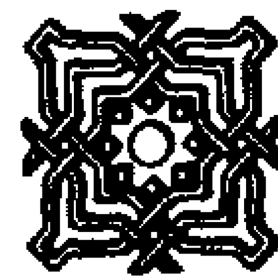
٧. محمود علي الداود، عوامل التجزئة العربية، تجربة دولة الامارات العربية المتحدة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦.

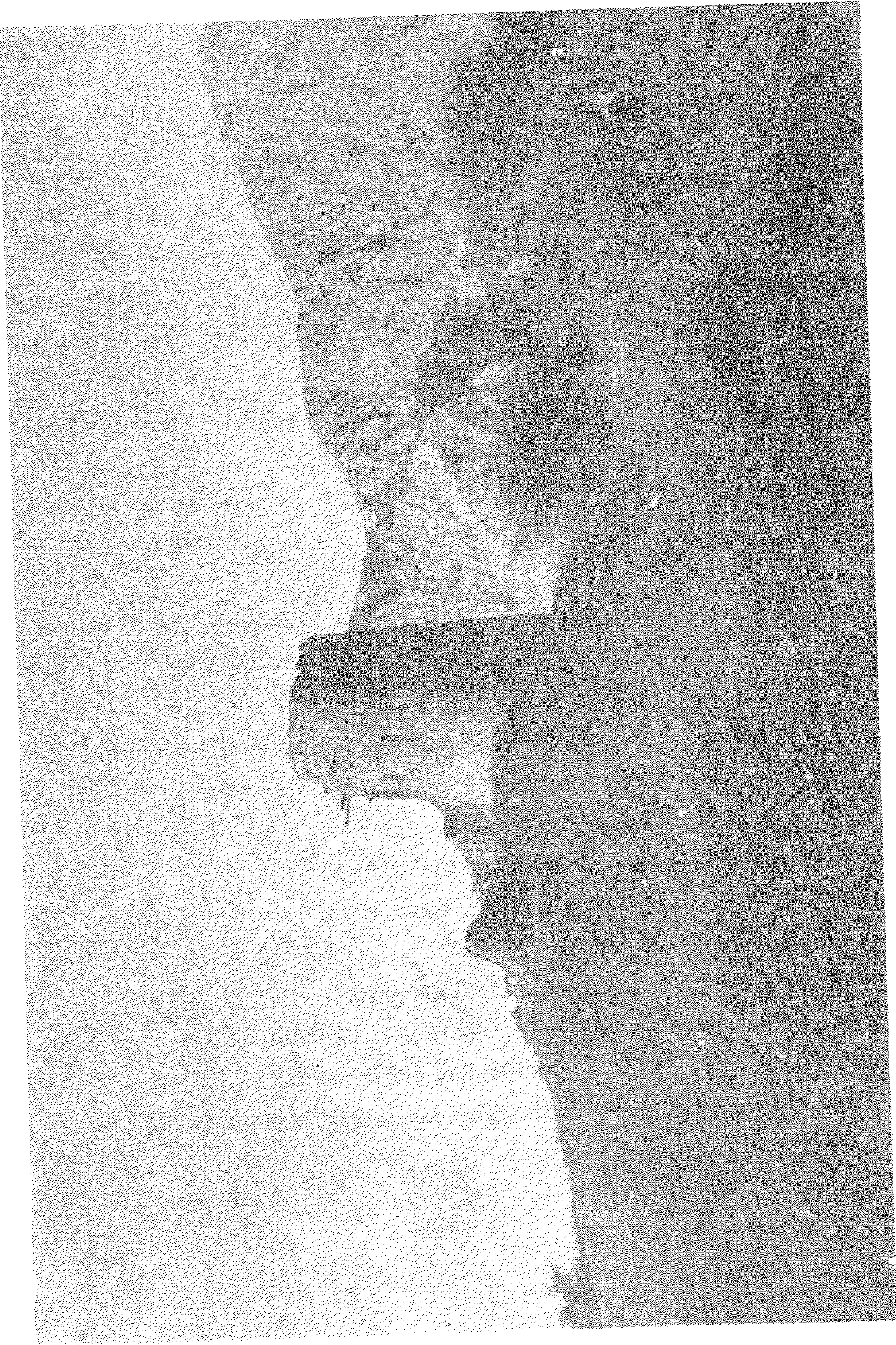
٨. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، وزارة التراث القومي والثقافة/ قطر/ لا ت.

٩. نور الدين عبد الله، تحفة الاعيان في سيرة أهل عمان، القاهرة/ لا ت.

١٠. نيقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب الحديث، بيروت، ١٩٦٢.

- Selection from State papers, Bombay, 1968.
- C.G.F.Simlkin, The tradetioned trade of Asia. Oxford, New York, 1908.
- C.R.Boxer, The duteh seabrne. 1600-1800.
- Geaye W. Curzon, Persian question, London, 1906.
- Geaye E. Erik, Ashort history of the Middle East. London 1959.
- R.Coupland, East Africa, and it's, Nanders, Oxford, 1961.
- William Foster, The English Factories in India. Vol. 2. London. 1906.





معــركة تحريــر مســقط

اعداد/ غانم محمد رميض
معهد البحوث والدراسات العربية

الهجوم على مسقط عام ١٦٤٨ ووفاة ناصر بن مرشد:

كان تحرير سواحل عمان من الهيمنة البرتغالية هدفا مركزيا للامام ناصر بن مرشد (١٦٢٤/ ١٦٤٩) بعد نجاحه بتحقيق وحدة وطنية ارتكزت على قوة القبائل العمانية وتلاحمها(١). وقد ادرك ان الاستقرار الحقيقي للبلاد لا يمكن ان يتحقق دون التخلص من الوجود الاجنبي فوجه اهتمامه صوب الشريط الساحلي، وخاض صراعا مريرا ضد الفرس والبرتغاليين.

ومما تجدر الاشارة اليه انه على الرغم من ان كثيرا من المصادر تحدد سقوط قلعة البرتغاليين في هرمز على ايدي الانكليز والفرس عالم ١٦٢٢، على انها نقطة النهاية للسيطرة البرتغالية على الخليج العربي، الا ان حقيقة الامر تبدو في تحول البرتغاليين بتحصيناتهم الى السواحل الغربية للخليج، وبدأت القلاع البرتغالية في مسقط(٢) تدعم تدعيما كافيا باعتبارها القلاع الرئيسية بعد سقوط قاعدتهم الحصينة في هرمز.

شهدت سنة ١٦٤٨ بداية المرحلة الحاسمة في حرب التحرير وتتويجا لخطة الامام في انتزاع قاعدة البرتغاليين في مسقط، فقد تحرك جيش كبير بقيادة مسعود بن رمضان ووصل الى مسقط في ١٦ آب ١٦٤٨ وباشر بعملية التطويق، وتواصل القتال حتى ١٠ ايلول من العام نفسه. ونجح العرب خلاله في انتزاع معظم تحصينات الميناء، كما اجبر الحامية البرتغالية على طلب الصلح في نفس الوقت الذي كان القتال مستمرا بشكل منقطع . وقد تضمنت الشروط العمانية: اعفائهم من دفع الضرائب على البضائع العربية في مسقط، وان يدفع البرتغاليون جزية الى الامام، ويزيلوا اسوار مسقط(١). الا ان القائد البرتغالي دوم جولحياو دانورنها اعتبر هذه الشروط ثقيلة جدا،

ولذلك استأنف القتال، واستطاعت القوات العربية الاستيلاء على القلعتين الكبيرتين فورت كابتن ومكلا (الميراني والجلالي)(٥)، واستمر ضغط العرب باصرار متزايد ستة اسابيع اخرى على البرتغاليين مما ولد اليأس في نفوسهم، ووجد القائد البرتغالي نفسه مجبرا على التماس الصلح موافقا على الشروط العربية، وتم التوقيع على اتفاقية في ٣١ تشرين الاول ١٦٤٨، ووقعها كل من سلطان بن سيف القائد العام لقوات الامام، والقائد البرتغالي درم جولياو دانورنها(٦)، وقد تضمنت الاتفاقية(٧):

١. يتعهد البرتغاليون بدفع الجزية بانتظام لامام عمان.

٢. يمتنع البرتغاليون عن القيام باية اعمال عدوانية ضد رعايا وممتلكات الامام.

٣. ضمان حرية التجارة لرعايا الامام واعفائهم من الضرائب ورسوم الكمارك.

٤. حرية السفن العربية في الملاحة والتجارة وعدم خضوعها للتفتيش في مقابل حصولها على تصريح من السلطات البرتغالية في طريق عودتها.

ومن الواضح جدا ان هذه المعاهدة أوضحت ان السيطرة البرتغالية لمسقط اوشكت على نهايتها، وانه من الضروري بذل جهود موحدة وقوية لتأمين طردهم منها. وان اهم ما يستلفت النظر ما نصت عليه المعاهدة باعتراف البرتغاليين بحرية التجارة في مسقط والمحيط الهندي ومرور السفن العمانية في البحر دون تفتيش، وان كان عليها ان تتزود بتصاريح من المراكز البرتغالية عند عودتها من الهند فهي بمثابة جوازات للمرور تسمح للعمانيين بالابحار بحرية مع أي نوع من البضائع والى أي من الموانئ.

اثارت انباء الحصار العربي للحامية البرتغالية قلقا كبيرا للسلطات البرتغالية في كل من لشبونة، ومستعمراتها في الهند، فقد رفض ملك البرتغال الشروط السابقة واعتبرها اهانة لشرف بلاده، وامر باعلان الحرب ضد العرب. وسارع نائب الملك في الهند الدوم فيلبي ماسكارينا الى ارسال قطعة من الاسطول لنجدة الحامية البرتغالية ووصل الاسطول الى مسقط في منتصف كانون الثاني ١٦٤٨ ليفاجأ بالتسوية التي تمت بين القيادة العربية وقائد الحامية البرتغالية(٨)، وتغلبت روح العنجهية الاستعمارية على قائد الاسطول فوجه الاتهام الى دوم جولياو ولعدم صموده امام الحصار العربي وامر بارساله الى (كوا) حيث القي في السجن(٩). كما ان الملك دوم جوا الرابع اصدر اوامره في ٤ كانون الثاني ١٦٤٩ ببذل كافة الجهود من اجل التمسك بمسقط وزيادة عدد السفن الحربية في الميناء ومنع العرب من البقاء في المدينة(١٠). ولكن في الوقت الذي وصلت فيه الاوامر الى (كوا) كان الامر قد خرج من ارادة البرتغاليين وكان العلم العربي يرتفع بشموخ على طول الساحل المحرر.

توفي الامام ناصر بن مرشد(١١) في ٢٣ نيسان ١٦٤٩ بعد ان حقق المرحلة الاصعب من مراحل ملاحقة وطرد الغزاة البرتغاليين. ويصف لنا المؤرخ انطونيو بوكارو صعود نجم الامام بأنه (جعل من نفسه منذ سبع سنوات اقوى حاكم في جميع انحاء الجزيرة العربية، بمناصرته للشريعة المحمدية التي كان من اشد المتمسكين بها)(١٢) الا انه توفي ولم تسعد عيناه برؤية اخر جندي اجنبي يرحل عن بلاده فقد انحصر وجودهم في مسقط ومطرح.

انتخاب سلطان بن سيف اماما:

ما ان اعلنت وفاة الامام ناصر بن مرشد حتى اجتمع الفقهاء والقضاة والقادة لاختيار امام جديد. وفي تلك الظروف الدقيقة التي كانت تمر بها البلاد لاسيا ان معركة تحرير مسقط لم تحسم بعد كان منطقيا ان يحصل الاجماع على اختيار ابن عم الامام الراحل وقائد جيوشه سلطان بن سيف لما يتمتع به من صفات ابرزها: الحزم والجرأة والكفاءة العسكرية ويصفه السالمي بانه كان (للامام ناصر بن مرشد سيفا وكفا يبيد بها الاعداء)(١٣) وقد شهد عهده المرحلة الاخيرة من عملية التحرير فقد عاود السياسة الهجومية ضد البرتغاليين وتقدم بنفسه لقيادة العمليات الحربية التي تكللت بنهاية مجيدة خلال اشهر تسعة(١٤).

شهدت عمان في ظل امامة سلطان بن سيف عهدا زاهرا بذرت فيه بذور التوسع المذهل الذي اعطى ثماره بعد فترة وجيزة(١٥).

قطعت عمان شوطا بعيدا في الرقي والازدهار بعد نجاحه في فتح منافذ البلاد البحرية. وقد لخص لنا ابن زريق عهده بقوله: «ان عمان اعتمرت في ايام دولته وازدهرت واستراحت في عصره رعيته ورخصت الاسعار وصلحت الاسفار وكان متواضعا رؤوفا بالرعية وكان يخرج الى الطريق بغير عسكر»(١٦) وهذا هو شأن القادة العظام.

وضع الامام الجديد الخطط الكفيلة بتطوير ودعم قوة عمان البحرية لحماية سواحلها وتجارتها البحرية ضد القراصنة البرتغالية واضاف الى الاسطول التجاري العماني عددا ملحوظا من السفن كما كان يشترك بنفسه في الاعمال التجارية(١٧) مقدما المثل لمن جاء بعده من الائمة الامر الذي جعله موضع انتقاد البعض من الوجهة الفقهية.

وفي عصر الامام سلطان بن سيف وضعت خطط عديدة لحملات بحرية بهدف مطاردة البرتغاليين وتصفية تدخلاتهم حتى في المياه الاقليمية الهندية وشرق افريقيا، الامر الذي هيأ الفرصة لحكام عمان لطرد البرتغاليين من (ممباسا). أما في داخل عمان بنى الامام الجديد القلعة المستديرة في نزوى التي استغرق بناؤها اثنى عشر عاما.

ويذكر لنا المؤرخ العماني سرحان بن سعيد بصدد ذلك انه:

«نصب الحرب لمن بقى من النصارى بمسقط وسار عليهم حتى نصره الله عليهم وفتحها له ولم يزل يجاهدهم اينما وجدهم في بر وبحر، فاستفتح كثيرا من بلدانهم وخرب كثيرا من مراكبهم وغنم كثيرا من أموالهم فقيل انما بنى القلعة التي بنزوى من غنيمة الدير»(١٨).

وادى انتعاش الموانئ العمانية وازدهار الحركة التجارية، الى انتعاش مماثل شمل الاقسام الداخلية من البلاد، فنشطت حركة التبادل التجاري، وتطلب ذلك من الامام ان يوجه اهتماما متزايدا للزراعة ويوضح هذا الاموال الطائلة التي صرفها لصيانة الافلاج عماد الزراعة العمانية منذ عهود قديمة(١٩)، فقد احدث فلج (البركة) قرب (ازكان)(٢٠).

ومن الملفت للنظر ان المصادر العمانية(٢١) لم تفصل لنا في موضوع الصراع بين الامام سلطان بن سيف والبرتغاليين بالقدر الذي كتبت عن الصراعات القبلية المحلية وهو تقصير كبير في رأينا فما لاشك فيه ان طرد البرتغاليين من السواحل الشرقية بشكل نهائي على يد الامام سلطان بن سيف يعد عملا رائعا ومفخرة قومية. ولم يكتف بذلك بل نقل ميادين القتال الى مراكز المستعمرات البرتغالية غرب الهند وشرق افريقيا(٢٢) محققا انتصارات مهمة.

معركة تحرير مسقط:

اوضحت المعاهدة التي فرضها الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٤٨ درجة الضعف الكبيرة التي كان يعيشها البرتغاليون وان نهايتهم اصبحت وشيكة.

اعد الامام سلطان بن سيف الخطط اللازمة لمهاجمة البرتغاليين في مسقط وفي عام ١٦٤٩ باشر الامام حملته النهائية لدحر العدو: (واستجابت القبائل العمانية بابتهاج عظيم لنداء الامام وتحشدت في (سيع الحرمل) خارج مطرح وهي مهياة للهجوم)(٢٣).

ولابد من ملاحظة ان بعض المصادر العمانية(٢٤) تشير الى ان الامام سلطان بن سيف هاجم مسقط بسبب عدن التزام البرتغاليين بالاتفاقية التي فرضها عليهم الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٤٨. ولكن واقع الحال ان الامام كان مصمما اساسا على انهاء الوجود البرتغالي من البلاد متمما الشرط الذي قطعه سلفه العظيم.

وكان البرتغاليون قد استعدوا لصد الهجوم فبنوا ابراجا حصينة على رؤوس الجبال، وكانت الحاميات العسكرية البرتغالية مكونة من وحدات عسكرية برتغالية ووحدات هندية وصفها مؤرخو عمان بانها من ولاية (هندجوه)(٢٥)، اتخذت لها مواضع دفاعية عند اطراف المدينة ووضعوا فيها خيرة رجالهم المزودين بالبنادق والمدافع وكانوا يضربون كل من يتقدم من قوات الامام باتجاه مسقط(٢٦). اما قلعتا مسقط الشهيرتين فقد كانتا بمثابة مقرات للقيادة العامة والتموين ومدفعية الساحل والثكنة العسكرية الرئيسية في المنطقة، وقد اكمل البرتغاليون تحصيناتها بشكل محكم(٢٧).

اتخذ الامام من منطقة (طوى الرولة) قاعدة متأخرة له وتقدم بوحداته المقاتلة الى منطقة التجمع والوثوب في منطقة (سيع الحرمل) ومن هناك اصدر اوامره بالهجوم. وتقدمت القوات العربية واستولت على اول اهدافها وهي مجموعة تلال تسمى (بير الراوية)، ولكنها جوبهت بنيران كثيفة. وفي نفس الوقت لم يتمكن البرتغاليون من زحزحة قوات الامام في المطرح(٢٨).

وفي ٢٣ كانون الثاني ١٦٥٠(٢٩) قامت قوات فدائية بهجوم ليلي مباغت، فعبرت السرر واندفعت الى شوارع مسقط ببسالة عالية واصيب البرتغاليون بالذعر والانهيار المعنوي التام، فقد اندفعوا الى السفن الراسية في الميناء(٣٠) والمراكز (مخزن السلاح والذخيرة) طلبا للنجاة. واندفع العرب نحو اعدائهم ونجحوا في الاستيلاء على سفينتين كانتا راسيتين في الميناء واحاطوا بالمركز ولم يتمكن

المدافعون من الصمود وانسحبوا الى القلعة الحصينة (فورت كابتن ـ الجلالي) تاركين الحرس المنود لمصيرهم. وفي اليوم نفسه استسلم قائد القلعة فرانسسكوا دي تافوتا وبعد ثلاثة ايام استسلم المركز وتراجع الاسطول البرتغالي بعد ان فقد اثنتين من سفنه(٣١).

ومن المناسب ان نطلع على ما كتبه لنا الكسندر هاملتون الذي اورد لنا اقوال شاهد عيان لعملية الهجوم الاخير على مسقط:

«بلغت الحماسة لدى العرب درجة قصوى بحيث هددوا بالتمرد اذا لم يقدم ضباطهم على الفور الى الهجوم على اسوار المدينة وحينما لم يجد الملك (الامام) حجة يمكن تهدأ ثائرتهم على الرغم من اقتراب الليل اصدر امره بالهجوم وجوبه المهاجمون بنيران كثيفة اطلقها البرتغاليون عليهم من قلاعهم على المرتفعات ولكن العرب تقدموا الى الامام ولم يكن بحسبانهم ان يتراجعوا ولم يبالوا بالاعداد الكبيرة من رفاقهم الذين تساقطوا قتلى وواصلوا تسلق الاسوار على اشلاء من سقطوا في ساحة الوغي. وعند غياب الشمس تمكنوا من السيطرة على بابين من ابواب المدينة مجبرين المدافعين على الفرار، واندفعوا خلف اعدائهم باصرار بحيث لم ينج منهم احد بالرغم من فرارهم باقصى سرعة باتجاه القلعة الكبيرة حيث يقيم الحاكم. وكانت القلعة مبنية على صخرة عظيمة محاطة بالبحر من كل جهاتها تقريبا. والطريق الوحيد المؤدي اليها لا يسمح لاكثر من شخصين او ثلاثة بارتقائه سوية. وادرك العرب ان اقتحامها امر مستحيل دون تضحية جسيمة ولهذا فرضوا عليها الحصار الكامل، خسر العرب في الهجوم ما بين اربعة الى خمسة الاف من رجالهم... واجبر المتحصنون في الحصون الصغيرة على الاستسلام... ثم استسلم رجال الحصن بدون قيد أو شرط»(٣٢).

وهكذا دخل الامام المدينة محررا وطهر القلعتين الشهيرتين وابدل اسميها الى (المصرعني) و (الجبلالي) وعين سيف بن بلعرب واليا عليها(٣٣) اما هو فقد اسرع بقواته الى مطرح لمنازلة البرتغاليين هناك ويبدو ان قائد منطقة مطرح العسكري قد وصلته انباء الهزيمة المريرة التي حلت بالحامية البرتغالية في مسقط فخرج على رأس معاونيه ورجاله رافعا راية الاستسلام(٣٤).

وكان رد الفعل البرتغالي على الاندحار الذي منيوا(٣٥) به في مسقط سريعا فما ان وصلت انباء الهزيمة نائب الملك (دوم فليبي) عن طريق سفينة تحمل ٧٠٠ برتغالي نجحت في الهروب من مسقط الى ديوا(٣٦) حتى ارسل اسطولا من سبع سفن الى الخليج العربي واصدر تعليماته الى قائد الاسطول بان يبذل ما بوسعه للحصول على مساعدة الفرس ضد العرب(٣٧) وبعد ان توقف في ميناء (كنك)(٣٨) اتجه الى القطيف وهناك التق بقطعة من الاسطول العماني، فنشبت معركة بحرية اسفرت عن تراجع البرتغاليين. وفشل اسطول اخر اكثر قوة من سابقه ارسله نائبالملك في اذار ١٦٥٠ لاستعادة أي موانئ ساحل عمان(٣٩).

وبعد هذه الانتصارات الرائعة عاد الامام الى العاصمة (نزوى) واستقبل استقبالا كبيرا يليق بهذا الانتصار العظيم الذي الهب حماس العمانيين الذين لم يكتفوا بذلك بل وضعوا استراتيجية جديدة تمثلت في ضرب مواقع العدو في غرب المحيط الهندي وشرق افريقيا وبموجب هذه الاستراتيجية

كان من الطبيعي ان يعمد العمانيون الى بناء قوة بحرية(٤٠) مناسبة للمنازلة المرتقبة.

بناء القوة البحرية العمانية:

ادرك الامام سلطان بن سيف ان معركة مسقط لم تكن نهاية الصراع مع البرتغال فقد صاحب هذه الوحدة الوطنية الجديدة في عمان انبعاث الشعور القومي ضد البرتغاليين بشكل خاص ولهذا فان امتلاك قوة بحرية قوية موازية لقوة العدو يعد امرا حاسما لتأمين السواحل من الهجمات التدميرية وصيانة تجارة البلاد، فالصراع مع البرتغال هذه المرة سيكون صراعا بحريا بالدرجة الاولى حتى ان هذه الفترة اطلق عليها (حرب البحر العربي)(٤١) أو حملة بحر الهند ولتحقيق نتائج حاسمة كان على العرب تطوير بناء سفنهم، وبناء قوتهم البحرية على طراز جديد وقد شكلت السفن التي اسرها العرب خلال معارك التحرير نواة الاسطول الحديث(٤٢). يتم بناء السفن والمراكب في العديد من الموانئ العمانية وخاصة مينائي مطرح وصور. أما الاخشاب بمختلف انواعها فيتم استيرادها من (مليبار)في الهند. ويتم ربط اجزاء السفينة بواسطة الحبال التي تصنع محليا وغيرها من الموانئ، اما الاشرعة فيتم جلبها من البحرين ويتم صنعها في صحار والموانئ العمانية الاخرى. ويمكن تقسيم السفن العمانية من حيث حجمها ونوعها الى طبقتين تختلف احداهما عن الاخرى، فطراز (البدن) و(التعلية) مخصصة للتجارة مع الموانئ الاجنبية، بينما تستخدم الانواع الصغيرة للتجارة المحلية(٤٣) والى جانب السفن التي تصنع محليا، كانت السفن الكبيرة تصنع في سورات وعلى نهر السند، في احواض بناء السفن التي لم يكن الاوروبيون يعرفون عنها الا القليل ولم يكن لهم فيها نفوذ.

ولقد نجح العمانيون في التكيف مع الاساليب الجديدة في صناعة السفن، وقد مكنهم هذا النجاح في اتقان هذه الاساليب من خلال المراكب التي اسروها من عدوهم واستخدموها، واستوعبوها دون وسيط(٤٤).

فخلال وقت قصير تحرر العرب من الاسلوب التقليدي في بناء السفن ذات الهيكل الذي تشد الى احد الحبال، وأخذوا ببناء سفن على الطراز الاوروبي من ذوات الاشرعة المربعة المزودة بمدفعية حديثة، وحتى المراكب المبنية على الاسلوب القديم اخذت تبنى بالواح مثبتة بالمسامير(٤٥).

واضافة الى السفن التي تم اسرها فقد نما الاسطول العربي ووضع خطة بعيدة المدى وضعها العرب في الحصول على كافة الوسائل التي يمكن بها مقابلة خصومهم. واخذت القوة البحرية اليعربية في النمو في نفس الوقت الذي تدهورت فيه القوة البحرية البرتغالية(٤٦)، وقد اشار المبشر الفرنسي الشهير (الاب روفائيل دي مان) الذي مكث في اصفهان مدة ستة وعشرين عاما وقدر له البقاء هناك حتى مماته في عام ١٦٩٦، الى ما يعانيه البرتغاليون من مضايقات يثيرها عرب عمان.

«الذين نجحوا بفضل السفن التي غنموها في مختلف مقارعاتهم البحرية في الحد من قدرات وامكانيات البرتغاليين في فرض هيمنتهم على البحر»(٤٧).

بالامامة فقد قطعت القوة البحرية في عهده شوطا بعيدا في الرقي والازدهار واصبحت (البحرية العمانية في اوج نشاطها من حيث القدرة والتجهيزات والمدفعية الحديثة)(٤٨). وقد وصف لنا الكابتن شالز لوكير الذي زار مسقط عام ١٧٠٦ ذلك الميناء فاشاد بتطوره:

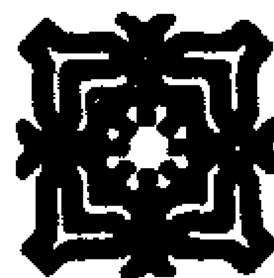
«تحسن تحسنا مطردا منذ ان انتزعه العرب من ايدي البرتغاليين حتى انه اصبح مصدرا قلق لكافة المتاجرين مع الهند.. ان السفن الحربية كانت تصنع في سوارت. وشاهدت في الميناء: اربعة عشر سفينة حربية وعشرين سفينة تجارية، وكانت تحوي احدى هذه السفن سبعين مدفعا ولا يوجد من بين هذه السفن الحربية جميعها من تحمل اقل من عشرين مدفعا.. ورغم ان البارود كان شحيحا فان العرب كانوا من اكثر سكان العالم تبذيرا له في كافة المناسبات.. لقد كانت الالوان الحمراء هي المفضلة لديهم حيث تتجلى في راياتهم وصواريهم وعارضات اشرعة سفنهم وفي كل الاماكن البارزة الاخرى من سفنهم، كما كان للاسطول العربي مظهرا آخاذا عند دخولنا المرفأ وللوهلة الاولى»(٤٩).

توفي الامام سيف بن سلطان الاول في الرستاق عام ١٧١١ بعد ان حكم البلاد حوالي عشرين عاما حافلة بالامجاد. وخلفه في الامامة ولده سلطان بن سيف الثاني الذي شهد عهده قمة التفرق الملاحي العربي، فازداد من قوة الاسطول الذي شن بواسطته سلسلة من الغارات على المواقع البرتغالية وبعمله هذا فانه لم ينفق كل ما ادخره اسلافه من اموال فحسب بل تعداه الى اقتراض اموال الجوامع والاوقاف(٥٠) وكان عدوا لدودا للبرتغاليين والفرس(٥١) لقد اعطى الكابتن الكسندر هاملتون الذي كان في مسقط عام ١٧٢١ الوصف التالي لما كان عليه الاسطول العربي من قوة في عهد سلطان بن سيف الاول.

«كان الاسطول العربي عام ١٧٥١ يتكون من سفينة تحمل اربعة وسبعين مدفعا وسفينتين تحملان ستين مدفعا وواحدة بخمسين مدفعا وثمان عشر سفينة صغيرة تحمل ما بين اربعة الى ثمانية مدافع لكل منها».

اما السالمي فقد قدر الاسطول العربي في الحقبة نفسها ما بين اربع وعشرين الى ثمان وعشرين سفينة حربية تحمل اكبرها وتدعى (الملك) ثمانين مدفعا ضخما(٥٣). وتمكن الائمة اليعاربة المتعاقبون(٥٤) وحتى عام ١٧١٨ من جعل عمان اعظم قوة بحرية غير اوروبية في غرب المحيط الهندي وبلغ اسطولهم اوج عظمته خلال العقدين الاول والثاني من القرن الثامن عشر(٥٥).

«وبفضل خبرتهم هذه وقوتهم البحرية فرض العوب هيبتهم وسيطرتهم على كافة السواحل البحرية الممتدة من رأس قران حتى البحر الاحمر وكان العرب غالبا ما يشنون غاراتهم ضد المستعمرات البرتغالية على ساحل الهند»(٥٦).



الهوامش والمراجع

١. صالح محمد العابد، تحرير ساحل عمان وانهيار الامبراطورية البرتغالية، مجلة افاق عربية، بغداد/ اذار ١٩٨٥، ص٣٩.

٢. للتعرف على تحصينات البرتغاليين في مسقط يراجع: نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، تحفة الاعيان في سيرة اهل عمان، القاهرة ١٣٥٠هـ، ج٢، ص٦٢، سعاد ماهر، الاستحكامات الحربية في مسقط، ندوة الدراسات العمانية وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٠، المجلد الثاني، ص ص١٤٠ ــ ١٤٥.

٤. العابد، تحرير ساحل عمان، ص ٤٢.

٥. في عام ١٥٢٧ بدأ البرتغاليون في بناء هاتين القلعتين، وقد تم تجديد قلعة الجلالي عام ١٥٨٧، والميراني عام ١٥٨٨. انظر: احمد حمود المعمري، عمان وشرق افريقيا، ترجمة محمد امين عبد الله، سلطنة عمان، ١٩٨٠، ص٦٢.

٧. عبد العزيز محمد عوض، الاحتلال البرتغالي لموانئ الجزيرة العربية، مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، العدد٢٩، بغداد، ١٩٨٦، ص٢٠.

٨. العابد، تحرير ساحل عمان، ص٤٢.

١١. توفي الامام بنزوى بعد ان دام حكمه ستة وعشرين عاما حافلة بالكفاح البطولي ولم يخلف غير ابنة واحدة هي فاطمة الزهراء توفيت بعده بستة اشهر. انظر: السالمي تحفة الاعيان، ج٢، ص٥٧.

١٢. مقتبس في: بوكسر، ملاحظات جديدة عن الصلات بين العمانيين والبرتغاليين من ١٦١٣ الى ١٦٣٣، ندوة الدراسات العمانية، سلطنة عمان، ١٩٨٠، ص٢١٢.

١٣. السالمي، تحفة الاعيان، ص ٦٣.

١٥. لورنس لوكهارت، التهديد العماني ونتائجه في اواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، ترجمة علاء الدين احمد حسين، مجلة الخليج العربي، العدد العاشر ١٩٧٨، ص٩٠.

١٦. حميد بن محمد بن رزيق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين تحقيق عبد المنعم عامر وموسى عبد الله، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٩٧٧، ص ص ٢٩١ ــ ٢٩٢.

١٧. وزارة التراث القومي والثقافة، عمان تاريخا وعلماء، ترجمة محمد امين عبد الله، سلسلة تراثنا، العدد العاشر، سلطنة عمان، ١٩٨٠، ص٩.

١٨. سرحان بن سعيد الازكوي، تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لاخبار الامة، تحقيق عبد المجيد حسيب القيس، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٠، ص١١١.

١٩. وزارة الاعلام والثقافة، عمان وتاريخها البحري، سلطنة عمان، ١٩٧٩، ص٦٤.

٢٠. الازكوي، المصدر السابق، ص ١١١.

٢١. من امثلة هذه المصادر: الازكوي، المصدر السابق، بن زريق، المصدر السابق، السالمي، المصدر السابق.

٢٢. جمال زكريا قاسم، الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية، القاهرة ١٩٧٥، ص١٠٥.

٢٤. السالمي، تحفة الاعيان، ص ٦٣.

٢٥. بن زريق، الفتح المبين، ص ٢٨٤.

٢٦. السالمي، تحفة الاعيان، ج٢، ص٦٣. بن زديق، الفتح المبين، ص٢٨٥.
٢٧. فالح حنظل، المفصل في تاريخ الامارات العربية المتحدة، لجنة التراث والتاريخ، الامارات العربية المتحدة، ابوظبي، ج١، ص٨١.
٢٨. طارق نافع الحمداني، دور عرب عمان في اقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي خلال النصف الاول من القرن السابع عشر، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، العدد الثالث، بغداد، ١٩٨٤، ص٢٨٠.
٢٩. في حين يذكر لنا مايلن تاريخين فيهما اختلافا بسيطا حول عملية الهجوم واستسلام القائد البرتغالي، ففي الصفحة ١٩٣، يحدد يوم ٢٣ كانون الثاني، وفي الصفحة ٢٠٠ يحدد يوم ٢٢ كانون الثاني تاريخا للهجوم العماني.
٣٠. مالين، الخليج بلدانه وقبائله، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان ١٩٨٦، ص١٩٣.
٣١. العابد، تحرير ساحل عمان، ص ٤٢.
٣٣. بن زديق، الفتح المبين، ص٢٠٩، السالمي، تحفة الاعيان، ص٦٥.
٣٤.فالح حنظل، المصدر السابق، ج١، ص ٨٣.
٣٥. ان طرد البرتغاليين من هرمز عام ١٦٢٢ ومن مسقط عام ١٦٥٠ قد اضاع لقبان هامان من القاب ملوك البرتغال وهما سادة الفتح والملاحة في حزيرة العرب وفارس، انظر: لوريمر، دليل الخليج القسم التاريخي، ترجمة قسم الترجمة بمكتب امير دولة قطر، الدوحة، بلا تاريخ، ج١، ص ص ١١ — ١٢.
٣٦. مايلن، المصدر السابق، ص١٩٣. لوريمر، المصدر السابق، ج٢، ص٦٢٦.
٣٧. مايلن: المصدر السابق، ص ١٩٤.
٣٨. كنك: ميناء صغير يقع على الساحل الشرقي من الخليج العربي التجأ اليه البرتغاليون بعد طردهم من مسقط.
٤٠. يذكر مايلن ان الامام قام بزيارة سفنه الحربية مباشرة الهجوم على مسقط. والحقيقة ان نواة الاسطول العماني كان مكونا من السفن البرتغالية لتي غنمها العرب بعد معركة تحرير مسقط ولا نتفق مع المؤرخة عائشة السيار بذكرها ان (الامام سلطان بن سيف تزعم حركة الجهاد ضد البرتغاليين حيث ارسل حملاته الى المحيط الهندي قبل استيلاءه على مسقط). «عائشة السيار دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا في الفترة من ١٦٢٤ — ١٧٤١، ص٧٢» اذ لا يتفق ذلك مع المنطق العلمي.
٤١. وزارة التراث القومي والثقافة، عمان في امجادها البحرية، سلطنة عمان، ١٩٨٠، سلسلة تراثنا، العدد الثامن، ص٤٦.
٤٢. لورنس لوكهارت، التهديد العماني ونتائجه في اواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، مجلة الخليج العربي، العدد العاشر، جامعة البصرة، ١٩٧٨، ص٩٠.
٤٣.مايلن، المصدر السابق، ص ٣٤١.
٤٤. وزارة الاعلام والثقافة، عمان وتاريخها البحري، ص٦٤.
٤٥. روبرت جيران لاندن، عمان منذ ١٨٥٦، مسيرا ومصيرا، ترجمة محمد امين عبد الله، سلطنة عمان ١٩٨٤، ص٥٤.
٤٦. السيار، المصدر السابق، ص ٦٧.
٤٧. مقتبس من: لوكهارت، المصدر السابق، ص ٩٠.
٤٨. لاندن، المصدر السابق، ص ٥٤.
٤٩. مقتبس من: لوكهارت، المصدر السابق، ص ٩٢.

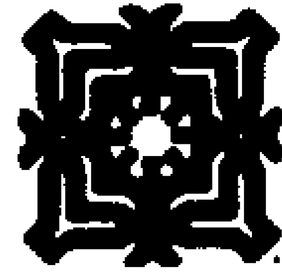
٥٠. السالمي، تحفة الاعيان، ج٢، ص١٠٩، مايلن، المصدر السابق، ص٢١٣.

٥١. مايلن، المصدر السابق، ص ٢١٣.

٥٣. السالمي، تحفة الاعيان، ج٢، ص١٠٠.

٥٤. سلطان بن سيف (١٦٤٩ ــ ١٦٧٩)، بلعرب بن سلطان (١٦٧٩ . ١٦٩٢)، سيف بن سلطان الاول (١٦٩٢ ــ ١٧١١)، سلطان بن سيف الثاني (١٧١١ ــ ١٧١٨).

٥٥. كاظم باقر علي، البحرية الفارسية في الخليج العربي، دراسة لواقعها البحري ١٨٤٨ ــ ١٩٠٧، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة ١٩٨٤، ص ص ٣٣ . ٣٤. مايلن، المصدر السابق، ص ٢١١.



الرحالة البرتغاليون في الخليج العربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر

الدكتور طارق نافع حمداني
جامعة بغداد/ كلية التربية

الرحالة البرتغاليون الاوائل واهداف السياسة البرتغالية:

ظل العرب والمسلمون يسيطرون على التجارة ما بين الشرق والغرب حتى نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، وذلك عبر طريقين رئيسيين هما: طريق البحر الاحمر ومصر، وطريق الخليج العربي وبلاد الشام، وكلاهما كانا تحت هيمنة العرب. وكانت المشكلات والخلافات السياسية التي تنشب احيانا قد تؤدي الى اغلاق احدهما أو كليهما، وحينما يغلق الطريقان في وقت واحد فان مدد البضائع الشرقية كان ينقطع عن اوروبا الا بالقدر الذي يمكن فيه سلوك طريق وعر غير مأمون عبر اسيا الوسطى(١). وكانت المدن الايطالية، وبخاصة جنوا والبندقية هي اكثر الدول الاوروبية استفادة من تجارة الشرق، اذ كانت تحتكر توزيعها في مختلف انحاء القارة الاوروبية، مما جعل اسعارها تتزايد باضطراد، فكثف ذلك الجهود لاكتشاف طريق غير مطروق يصل الى الهند، وكانت دولة البرتغال الصغيرة الواقعة على المحيط الاطلسي هي الدولة التي كرست نفسها في البحث عن مثل هذا الطريق.

اتجهت انظار البرتغاليين نحو الشرق منذ اوائل القرن الخامس عشر الا ان اندفاعهم بنجاح ناحيتي الشرق والغرب لم يتم الا في اواخر هذا القرن، وذلك على ايام ملكهم المسمى جون الثاني ١٤٨١ ــ ١٤٩٥. اذ كان هذا الرجل متشوقا لنشر المسيحية وتوسيع رقعتها، وارتياد طريق تجاري جديد نحو الهند، واكتشاف الاراضي التي يجلب منها الفلفل والقرفة وشتى انواع التوابل(٢). على اساس هذه الاعتبارات ارسل ملك البرتغال العديد من الحملات البحرية والبعثات السرية، وكان من اول تلك الحملات ما قام به بارثليمو دي دياز عام ١٤٨٦، والتي استدار فيها حول الطرف

الجنوبي من افريقيا واعقبتها حملة فاسكو دي غاما عام ١٤٩٧ التي قادت البرتغاليين الى الهند. وما ان حل القرن السادس عشر حتى كان البرتغاليون يسيطرون على الطرق التجارية البحرية ما بين الشرق والغرب دون منازع وانتهجوا في هذا المضمار الاساليب المختلفة لاحتكارها. من ذلك ان البرتغاليين اصبحوا يأملون بعد افتتاح الطرق البحرية الى الهند، مرورا برأس الرجاء الصالح، ان تتحول مجمل التجارة الشرقية الى أيديهم. وكانت الخطوة الاولى التي قاموا بها هي التركيز في سواحل الهند، ومن ثم قرروا القيام بمراقبة حركة النقل التجارية في الخليج العربي، حيث انشأوا عددا من القلاع الحربية في هرمز والبحرين وعمان، كما حاولوا اغلاق مدخل البحر الاحمر للغرض نفسه(٣). وبعد أن اطمأن البرتغاليون الى استحواذهم الكامل على طرق التجارة البحرية، فقد راحوا يعملون على اعاقة حركة النشاط التجاري عبر الطرق البرية التي كانت ما تزال قائمة بين بعض المراكز التجارية في الخليج العربي والبحر الاحمر وتلك الواقعة على البحر الابيض المتوسط، بطرق برية وبحرية مشتركة(٤).

ومن الطبيعي فان هذه السياسة التجارية الهادفة الى تقوية حركة النقل التجاري بحرا باتجاه لشبونه، على حساب الموانئ الموجودة في الشرق العربي، سببت معاداة القوى القائمة آنذاك، ونقصد بذلك المماليك ومن بعدهم الاتراك العثمانيين. وقد جعلت هذه العداوات امكانية استمرار الترحال عبر الاراضي العربية محفوفا بالخطر خلال القرن السادس عشر(٥).

وساندت الجهود البحرية البرتغالية جهودا اخرى اتسمت بالسرية لجمع المعلومات عن مصادر تجارة الشرق، وطرق هذه التجارة عبر الأراضي العربية وانواع البضائع الشرقية واسعارها وما الى ذلك. قد وكل الملك باحدى هذه البعثات بدور دي كوفلهام Covilham والفونسو دي بايفا Paiva وكان كوفلهام هذا يجيد عدة لغات ومنها اللغة العربية منذ ان كان اسيرا في المغرب. وحدد الملك مهمة هذين الرسولين في ثلاث نقاط هي: جمع المعلومات عن الحبشة التي كانت تعرف في اوروبا حينئذ باسم مملكة القديس جون أو يوحنا Prester John ومعرفة المصادر الاصيلة للتوابل ومعرفة طرق التجارة عبر الاقطار العربية حتى تصل الى البندقية(٦).

وقد اقلع هذان الرجلان سنة ١٤٨٧ عن طريق برشلونة نابولي، ورودس الى القاهرة بعد ان تزيا بزي التجار، وهناك تمكنا من ان يندسا بين جماعة من التجار المغاربة الى الطور على البحر الاحمر، واتجها نحو سواكن وعدن. وفي عدن انفصل كوفلهام وبايفا عن بعضهما حيث اتجه الثاني الى الحبشة ولكنه توفي بعد قليل، بينما واصل كوفلهام سيره نحو الهند فوصل الى كنانور وكلكتا وغوا (جوا) مستقصيا اينما حل عن التوابل.ومن هناك سافر كوفلهام مع طائفة من التجار العرب حتى هرمز ــ كبرى المستودعات لتجارة الشرق. وبعد ان احاط علما بالتجارة التي تجري في هذا الميناء المزدحم بالاعمال ابحر الى عدن ثم زيلع فسفالا ومنها عاد الى القاهرة(٧).

وبينما كان كوفلهام على وشك الرحيل الى البرتغال توجه لمقابلته يهوديان(٨) هما ابراهام دي بيا ويوسف لاميجو، وقد سلماه تعليمات جديدة من حكومة البرتغال عن مهمته الجديدة. وفي الوقت

الذي سلم فيه احدهما تقريره الطويل عن رحلته السرية هذه لتوصليه الى البرتغال اصطحب الثاني الى هرمز ليكتب بدوره تقريرا آخر عنها نظرا لاهميتها التجارية الكبيرة على ان يتوجه بعدها الى الحبشة لكتابة تقرير خاص عنها. ونجح كوفلهام في القيام برحلة جديدة، فاتجه اى هرمز مع زميله الجديد ثم عاد الى جدة، ومكة، والمدينة، فسيناء وعن طريق الطور ابحر الى عدن ومنها الى زيلع ثم توغل الى داخل الحبشة حيث قابل النجاشي، الا انه حكم على كوفلهام بان يبقى في الحبشة طيلة حياته، اذ لم يسمح له بمغادرتها بعد مقابلة النجاشي وذلك طبقا لخطة الحذر الحبشية بحجز من يزورها من الاجانب(١).

وهكذا استطاعت هذه البعثة الحصول على البيانات الخاصة بالتجارة الشرقية من حيث حجمها وفئاتها وما الى ذلك. ويبدو انها حصلت على خارطات عربية عن المحيط الهندي ومعلومات تفصيلية عن التيارات البحرية والرياح الموسمية في هذا المحيط، وليس ادل على ذلك ما جرى أثناء مقابلة كوفلهام لفرانسيسكو الفارز الذي مثل بلاده في الحبشة من ١٥٢٠ الى سنة ١٥٢٦ حيث استفسر من الاخير عما اذا كان للخرائط التي ارسلها مع المبعوث اليهودي المشار اليه اعلاه من ثمانية وعشرين سنة بعض الفضل في تحقيق ما حققه فاسكو دي غاما(١).. وبدون شك فان المعلومات والخارطات البحرية التي قدمها الرحالة كوفلهام ومن معه الى السلطات الحاكمة في لشبونة، كانت نعم المعين في تقدير الموقف والمضي قدما في ايفاد الحملات الكشفية الجغرافية ابتغاء تحقيق الهدف الاساسي وهو الوصول بحرا الى الهند.

ومما يلفت النظر ان البحارة البرتغاليين المبكرين منهم والمتأخرين قد جاءوا الى الشرق أما برفقة الاساطيل البرتغالية حيث قدموا ليشهدوا استقرار النفوذ البرتغالي كما هو الحال بالنسبة لبيريز وباربوسا أو انهم افدووا ضمن سفارات دبلوماسية الى بلاط بعض الملوك في الشرق كما هو الحال بالنسبة للفارز وتفريدو وكان ذلك كله في العقود الاولى من القرن السادس عشر ــ أما بعد فانه لا يرد أي ذكر لرحالة برتغالي. ولا تختلف الرحلات البرتغالية الى الشرق في القرن السابع عشر عن نظيرتها في القرن السابق من حيث طبيعة وأشكال وفودها الى المنطقة حيث جاءت بصحبة الاساطيل البرتغالية أو ضمن سفارات دبلوماسية ولكنها اختلفت من حيث اهدافها العامة وذلك لاختلاف بنية الامبراطورية البرتغالية نفسها. ففي الوقت الذي جاء فيه الرحالة البرتغاليون الاوائل في ذروة قوة واستقرار النفوذ البرتغالي في الشرق وكان عليهم ابراز هذا الجانب في مدوناتهم فان الرحالة المتأخرين قد قدموا في فترة اضمحلال النفوذ البرتغالي بسبب منافسة قوى اوروبية عديدة لهم وتطلب منهم دراسة اسباب هذا التدهور والاضمحلال من ناحية وتوجيه تقارير مستعجلة الى المسؤولين عن وصول أي دولة اوروبية جديدة الى الشرق من ناحية اخرى.

وبناء على ذلك فاننا سنقوم بدراسة الرحالة البرتغاليين على الاسس المذكورة اعلاه، وفقا للترتيب الزمني مبينين أهداف كل رحالة ورحلته وقيمة المعلومات التي تركها عن منطقة الخليج العربي.

تومي بيريز Tome Pires

يعد تومي بيريز شخصية متواضعة بالمقارنة مع بعض الرجال الذين برزوا في تاريخ البرتغال بالشرق خلال النصف الاول من القرن السادس عشر. فعلى حين نال البعض شهرة بكونهم قادة عسكريين لامعين كالبوكيرك واخرين كمحاربين وملاحين أو مكتشفين وحتى كتابا عالميين مشهورين مثل باربوسا الذي انتهى من تأليف كتابه بعد سنوات قليلة من كتاب (سوما اورينتال) (The Suma Oriental) لبيريز فان الاخير لم ينل شيئا من ذلك، وان مؤلفه قد طبع بدون ان يذكر اسمه عليه(١١).

كاد مؤلف بيريز ان يندثر في طي النسيان وان ينسى كونه سفيرا برتغاليا في الصين، حيث توفي عام ١٥٤٠ بيد ان مساهمته في المعرفة المبكرة عن الشرق كانت ذات اهمية كبيرة. وان بيريز نفسه قد كان شخصية تدعو للاهتمام وان مؤلفه (سوما اورينتال) كان قد احتوى على رواية مفصلة عن الشرق كتبت من قبل برتغالي، وانه اول اوروبي ايضا قد كتب عن ماليزيا، وان التفصيل الذي ذكره في هذا المجال لم يسبقه فيه من عدة وجوه أي مؤلف اخر لاكثر من قرن أو قرنين. وعلاوة على ذلك فقد كان بيريز مراقبا متشوقا ووصوافا لايمل ولايتعب ومع ان اسلوبه الادبي كان ضعيفا جدا، الا ان بيريز استطاع ان يحتل مكانا لائقا بين الكتاب الاوروبيين الاوائل في الشرق(١٢).

ووفقا لسياسته السرية في مسألة الاستكشافات التي تابعها العرش البرتغالي منذ النصف الاول من القرن الخامس عشر، فان المعلومات المهمة عن جزر التوابل في الهند الشرقية لم يكن يسمح لها بان تتسرب الى أي جهة اجنبية. وعلى الرغم من ان اسبانيا كانت قد كفت عن القيام باي ادعاءات أو مطالبة بمالقا في الثاني والعشرين من نيسان عام ١٥٢٩ فان الاسبان لم يتخلوا ابدا وان جواسيسهم لم ينقطعوا محاولين الحصول على معلومات حول هذا الجانب حتى عام ١٥٨٠، عندما بدأت الفترة غير السعيدة في تاريخ البرتغال والتي اصبحت فيها تحت هيمنة الاسبان لمدة ستين سنة باندماج العرش البرتغالي بالعرش الاسباني. ولهذا فان المعلومات التي تركها بيريز في (سوما اورينتال) قد اصبحت معروفة ولم يعد في مخطوطة لشبونة أي شئ من المعلومات السرية غير المعروفة(١٣).

ان ما نعرفه عن حياة بيريز منذ وصوله الى الهند حتى وفاته ليس أمراً نادرا رغم انه ليس متكاملا ولكن بالنسبة لنشأته في البرتغال فان هناك عددا من الاشارات القليلة الغامضة. وكل ما نعرفه عنه من معلومات قد جاءت من خلال كتابه (سوما اورينتال) وعدد من الرسائل التي كانت تحمل اسمه وتوقيعه.

كان بيريز ابن شخص يمارس الصيدلة وقد كان في الاربعينات من عمره حين شرع بالسفر الى الهند، التي وصلها عام ١٥١١ وبقي في كنانور في الهند في السنوات التالية، واوفد الى الصين في بعثة دبلوماسية عام ١٥١٦(١٤).

على الرغم من ان الجزء الاعظم من (سوما اورينتال) قد كتب في مالقا فن المحتمل ان بيريز كان قد بداه واتمه في الهند. وعلى أية حال، فان سوما اورينتال عبارة عن تقرير بعثه بيريز الى الملك البرتغالي مانوئيل وربما هو جزء من المهمة التي كلف بها قبل رحيله الى لشبونة.

كان اسلوب الكتاب بعيدا عن الوضوح، وقد يكون مرتبكا ومشوشا عندما يكتب المسميات والمعاني الاجنبية، بحيث يذكر احيانا كلمات بدون معنى بخاصة عندما تتعلق الكلمات بالاسماء أو التعبيرات المحلية. على ان الصفة المميزة لكتاب سوما أورينتال هي انه كان مكرسا في الغالب للقضايا الاقتصادية، ولهذا فانها لم تعط الكاتب فرصة لاظهار مقدرته الادبية. ولكن، وعلى الرغم مم ان المؤلف كان يفتقر بصورة عامة الى الاسلوب الابداعي فقد اظهر بيريز معرفة حضارية جيدة بالمنطقة التي كتب عنها وكانت له لمحات مشرقة ينطلق بها قلمه(١٥).

تعد معلومات الكتاب ذات اهمية كبيرة لاقطار الشرق الاقصى عامة بخاصة وان المؤلف كان قد عاش لمدة سنتين ونصف هناك. واذا وضعنا جانبا روايات الرحالة الاوروبيين عن المنطقة في العصور الوسطى، فان ما تضمنه سوما اورينتال يعد اول كتاب يحتوي على معلومات مهمة عن تلك الاقطار والجزر الواقعة بين البنغال في الهند واليابان. وتعتبر المعلومات التي اوردها عن المناطق التي زارها بنفسه اكثر اهمية بالطبع من المعلومات الاخرى التي حصل عليها. ويعني هذا ان معلوماته عن الهند والصين اكثر اهمية من تلك التي اوردها عن الجزيرة العربية ومصر وفارس الى حدود كامبي في الهند، رغم مروره بتلك البلدان في اثناء رحلته من البحر الاحمر الى الصين. وليس هناك حاجة للتأكيد على القيمة الكبيرة للمعلومات التاريخية والجغرافية والتجارية عن جميع الاقطار والناس الذين تعرض لهم لان هذا الامر واضح من المعلومات الغزيرة التي احتواها المؤلف.

يحتوي سوما اوريتنال في القسم الاول منه على معلومات مهمة عن مملكة هرمز ونشوء الدولة الصفوية وكل الجزر الواقعة في الخليج العربي. كما انه يؤكد على ناحية اساسية تتعلق بهرمز اوردها الرحالة الذين اتوا من بعده وهي ان الماء الموجود في المدينة يأتيها في جرار من مناطق اخرى واذا لم يات الماء اليها فان هرمز لاتخلو من عدد من الابار ولكن نوعية الماء الموجودة غير مستساغة لكثير من الناس(١٦).

ويتطرق بيريز الى البحرين حيث يصف انواع اللؤلؤ الموجودة فيها بقوله: «أن الجزيرة الرئيسية في الخليج هي البحرين وتمتاز بتوفر افضل انواع اللؤلؤ فيها حيث ليس له وجود في مناطق اخرى غيرها، ويشكل جزءاً مهماً من تجارة هرمز، ذلك لان هذا النوع من اللؤلؤ يمتاز بانه انصع بياضا واكثر استداره من غيره»(١٧).

عمل المؤلف في خدمة الحكومة البريطانية في الهند كاتبا ومترجما منذ عام ١٥٠٠ الى ١٥١٦ أو ١٥١٧. وموهبته الفذة لم تكن في الترجمة فحسب بل تعدتها ــ كما سنرى ــ الى الكتابة عن شعوب الشرق وممالكه.

صدر كتاب باللغة الايطالية لاول مرة في مدينة البندقية عام ١٥٦٣ وباللغة البرتغالية عام ١٨١٣ بينما صدرت اول نسخة باللغة الانجليزية بعنوان (كتاب باربوسا of Durate Barbosa The Book) وذلك في عام ١٨٦٥ من قبل مؤسسة هاكلايت مترجمة عن النسخة الايطالية، وصدرت نسخة محققة اخرى من قبل المؤسسة المشار اليها سنة ١٩١٨، وهي النسخة التي نقوم بعرضها في هذا البحث. وتتمثل قيمة الكتاب في انه اول المؤلفات البرتغالية ــ الى جانب كتاب (سوما اوريتنال) لبيريز ــ التي سجلت لنا تاريخ البرتغاليين بعد سنوات قليلة من دخولهم الى المحيط الهندي.

كان باربوسا من اسرة غير مشهورة وقد سافر عمه عام ١٥٠٠ الى الهند مع اسطول برتغالي وبقي هناك، وتبعه والد باربوسا الى الهند في السنة التالية، وربما يكون باربوسا قد اصطحب عمه في رحلته الاولى، أو والده في رحلته الثانية(١٨). ومن الادلة الداخلية على سفر باربوسا مع كابرال Peolve Alvares Gabral وهي الاكثر احتمالا، ان الاخير نزل على الساحل الشرقي لافريقيا في سفالة، موزمبيق وومباسا، مالندي ثم جزيرة سوقطرة ومدخل البحر الاحمر فهرمز والخليج العربي حيث جاء في مؤلفه انه وصف كل ماشاهده في هذا الفصل، واخيرا وصل الى الهند(١٩).

لقد عمل باربوسا مع البوكيرك بصفة مترجم وكان مع الاخير اثناء مقابلته دإجا كنانور كما كلف من قبل البوكيرك للاشراف على بناء سفينتين كبيرتين في كاليكوت، حيث كان من المفروض ان تستخدم هاتان السفينتان في الحملة البحرية المقترحة الى البحر الاحمر بعد زيارة هرمز، ولكن البوكيرك لم يعش لينفذ تلك الخطة. ولهذا فانه من المحتمل ان يكون باربوسا قد رافق هاتين السفينتين عند شروعها بالرحيل من الهند الى هرمز. وربما حط في المدينة الاخيرة انباء الحوادث الاخيرة في المنطقة(٢٠).

عاد باربوسا الى البرتغال عام ١٥١٧، ومن المحتمل انه انهى مخطوط كتابه، وربما اضاف اليه بعض المعلومات خلال عامي ١٥١٧ ــ ١٥١٨. ولكن يظهر ان باربوسا لم ينل الترقية التي كان يأملها مقابل خدمته لذلك التحق بخدمة الاسبان ولاقى حتفه في احدى المهمات الى جزر الفلبين في الحادي والعشرين من نيسان ١٥٢١(٢١).

يحتل كتاب باربوسا مكانة متميزة بين المؤلفات البرتغالية المبكرة وذلك لان مؤلفه عاش في اواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، وهي فترة مليئة بحركة الكشوف الجغرافية. وقد ارتحل بروح ملؤها التحري عن كل المناطق الجديدة، ووصف المدن الرئيسية والموانئ ابتداء من

رأس الرجاء الصالح وحتى الهند.

كتب باربوسا مقدمة دقيقة عن الدوافع لرحلته وغرض تأليفه الكتاب، والطريقة التي جمع ودون فيها معلوماته حيث يقول: «انني رجل من مدينة لشبونة وقد قضيت الجزء الاكبر من حياتي في الابحار ي البحار الشرقية، واكتشفت باسم صاحب الجلالة أي ملك البرتغال، كما سافرت على اليابسة وعبر مناطق عديدة مختلفة تقع على تلك البحار، وقد رأيت وسمعت اشياء لم يسمعها احد من اسلافي وقد اعتزمت على كتابتها لاجل ان تكون لصالح كل الناس، رغم انني أرى تلك الاحداث واعلمها يوماً بعد يوم،محاولا ان اباشر في كتابي هذا بالمدن وحدود تلك الممالك التي زرتها والتي علمت عنها من اشخاص موثوقين، مبينا ما هي الممالك الاسلامية وما هي عاداتها وتقاليدها.

كما لم انس تجارة تلك الاقطار وكل انواع التجارة الموجودة فيها. والاماكن التي تنتج بها، والى أي المناطق تحمل.

وفضلا عن تلك الاشياء التي شاهدتها فقد كان لدي الرغبة في ان استطلع الامور من المسلمين والمسيحيين فيما يتعلق بعادات وتقاليد تلك الاقطار الذين هم اعرف بها، وقد قارنت بصورة دقيقة الروايات بعضها بالبعض الاخر حتى خرجت عنها بمعلومات وثيقة، والتي لم يكن حتى الرؤوساء من ذوي الشأن راغبين في ان يكتب حول هذه القضايا ولكن لما كنت مقتنعا بان اعمل لاكتشاف الحقيقة فسوف لن افشل في ذلك وقد انتهيت كتابة هذا الكتاب في عام ١٥١٦»(٢٢).

ويظهر ان قيمة كتاب باربوسا بصورة رئيسية في الوقت الحاضر هي جغرافية وبشرية، تناولت اوصاف البلاد والاجناس التي مر بها وتعرف عليها، أما اشاراته التاريخية فهي على جانب كبير من الاهمية ولكنه كان قد اعلن بصورة محددة بان هدفه ليس ان يكتب تاريخا بقدر ما يتعرض لوصف الناس والبلاد ومنتجات الاقطار التي شاهدها(٢٣).

لكتاب باربوسا اهمية كبيرة لشبه الجزيرة العربية عامة ولموانئها على البحر الاحمر والخليج العربي بصفة خاصة كما ان معلوماته عن التجارة في هذه الموانئ قد دونت بمعرفة شخصية وعكست بصورة واضحة طبيعة السياسة البرتغالية تجاهها حيث اشار اثناء حديثه عن عدن قوله:

«وتتدفق هذه التجارة (أي التجارة الشرقية) الى البحر الاحمر حيث تجد طريقها عن طريق القوافل الى الاسكندرية، ومن هناك الى ايدي السلاطين المماليك، ولكن قدر لها خلال سنوات قليلة ان تقع بيد الاتراك، الذين كانوا قد سيطروا على حلب، المركز التجاري لتوزيع بضائع الخليج العربي. ولم يتمكن البرتغاليون ان يوقفوا هذه التجارية بصورة تامة كما عملوا في الخليج العربي عن طريق امتلاكهم لهرمز، ولكنهم كانوا قدرين فقط في السيطرة وتقييد هذه التجارة الى حد ما بصورة تاريخية، مما افقد الاتراك واحدا من مصادر مواردهم الرئيسية»(٢٤).

ولاتقل اهمية الكتاب في تعرضه لمدن الخليج العربي وموانئه. فقد اشار الى قريات بقوله: «وفيها تجارة مزدهرة وهنا ــ كما هو الشأن في المناطق الاخرى ــ توجد مواد غذائية كثيرة، فضلا عن الخيول الممتازة في نوعيتها، حيث كان التجار من هرمز يقدمون لشرائها وتصديرها الى الهند»(٢٥).

اكد باربوسا توفر الاسماك بصورة كبيرة في مسقط. حيث ان هناك تجار رائجة فيها، لانه يصطاد بشكل واسع ويصار الى تمليحه وتجفيفه ويتعامل اهل هذه البلاد بهذه المادة مع عدد من الاقطار(٢٦). وقد تطرق الى الموانئ الاخرى في الخليج حيث ذكر جلفار ــ رأس لخيمة ــ حيث يقول: «وفيها يستقر اشخاص يمتلكون اموالا كبيرة، فضلا عن وجود ملاحين ماهرين وتجار جملة. ويوجد هناك اسماك كثيرة وكميات هائلة من اللؤلؤ، حيث تؤلف مورداً كبيراً للبلاد جراء حملها الى الهند والمناطق الاخرى»(٢٧).

واشار باربوسا الى رأس الخيمة بالاسم، واورد اسماء بعض المناطق الاخرى التي تليها ولكن بصورة غير مضبوطة، مؤكدا ان سكانها كانوا من العرب، وكانوا يؤكدون وجودهم من خلال مطالبتهم لسكان القرى بدفع الاموال لهم، وهم في حالة ثورة متكررة ضد ملكها (أي ملك هرمز على ما يبدو)(٢٨).

كما تعرض باربوسا لمدينة البصرة وبخاصة تجارتها، والى وجود كميات كبيرة من السلع والبضائع فيها كالتوابل والملابس القطنية، التي يتم الحصول عليها مقابل كميات كبيرة من الحنطة والشعير(٢٩). ولكن من الواضح ان الاوصاف التي اطلقها باربوسا على البصرة لم تكن بصفته شاهد عيان، وانما استمدت من اقوال مسموعة، بدليل أنه، ولا أي برتغالي اخر قد زار البصرة انذاك، رغم ان السفن قد وجدت طريقها الى مصب شط العرب(٣٠).

على ان اهم ما تضمنه الكتاب من معلومات هو ما اورده لنا باربوسا عن ملكة هرمز، والمناطق التي كانت تشملها. اذ جاء عنها عن تجارتها بحدود اربعين صفحة مطبوعة، وتعد المعلومات عنها اكثر تكاملا حتى مما ذكره عن عدن. ويظهر بان معلومات باربوسا عن هرمز قد استمدت من ملاحظاته الشخصية وهي مع ذلك ناقصة ــ كما سنرى ــ بالنسبة لمناطق الخليج العربي فيما يلي مضيق هرمز(٣١).

على الرغم من ان باربوسا كان قد ادعى في مقدمة كتابه بانه يعمل لاكتشاف الحقيقة ولكنه ظل يعبر عن وجهة النظر البرتغالية الاستعمارية شاء أم ابى. ففي اثناء حديثه عن قدوم الاسطول البرتغالي الى هرمز عام ١٥٠٧ بقيادة البوكيريك يقول: «وقد رغب (أي البوكيرك) ان يسود السلام معهم (أي مع سكان المنطقة) في جميع القضايا ولكنهم لم يرضوا مما دعى البوكيرك الى شن حرب على هذه المملكة وبخاصة على الموانئ البحرية، حيث تسبب في الحاق خسائر كبيرة بهم»(٣٢).

فالسلام اذن من وجهة نظر باربوسا هو استسلام شعوب المنطقة لمشيئة البوكيرك والا فانهم لا يعبرون عن رغبة في السلام.

ويتغافل باربوسا عن بعض الحقائق التي تمس البرتغاليين من ذلك مروره السريع على حقيقة تخلي البوكيرك عن العمل في بناء قلعة هرمز الذي كان مرتبطا بخيانة بعض قادته العسكريين بخاصة جواو دانوفا Jaoe da Nova في حين ان الرواية التي وضعها باربوسا تضع اللوم في هذه القضية على

سكان المنطقة مما دعا البوكيرك الى توجيه المزيد من التدمير للمدينة، وذبح عددا من سكانها واجبرهم على الخضوع للسيطرة البرتغالية(٣٣).

وعلى الرغم من اهمية معلومات باربوسا عن الخليج الا ان ما يتعلق منها بأسماء المناطق لم يكن دقيقا وغير معروف للقارئ. من ذلك ما ذكره بالنسبة للبحرين حيث وصفها على الساحل الفارسي للخليج مع انها تقع على الساحل العربي وان كان قد وصف المنطقة بصورة مفصلة(٣٤).

كما لم يرد ذكر الاحاء على الشاطئ العربي في خريطة باربوسا، وهي مكان ذو اهمية انذاك، في حين ان مثل هذه المناطق قد ظهرت على خريطة رينييل Reinel التي وصفت عام ١٥١٧(٣٥).

كما ان ضعف المعرفة الشخصية قد انسحبت على رواية باربوسا حول مملكة هرمز في فارس، اذ تضمنت قائمة بعض الاسماء التي تقع على الشاطئ العربي من الخليج، وان القائمة بمجموعها مضطربة، وعلى غرار كل تلك التي تظهر في الخرائط المعاصرة يبدو انها قد وضعت بدون معرفة شخصية وان عددا قليلا منها فقط هو الذي يمكن معرفته أو تحديد مواقعه(٣٦). فعلى سبيل المثال ان باربوسا اورد اسماء بعض المناطق على الساحل الفارسي للخليج بصورة محرفة من ذلك Lyma والمحتمل انه قصد بها Linga وهو الميناء الذي يقع على الساحل غرب جزيرة قشم وArman وعنى بها كمبرون أو بندر عباس Corgam واراد بها جزيرة خارج أو خرج وما الى ذلك(٣٧).

الفارز وتنريرو

اذا كان بعض الرحالة البرتغاليين قد اصطحبوا الاساطيل البرتغالية مثل بيريز وباربوسا لاداء خدمات معينة، فان البعض الاخر منهم قد افدوا لاغراض دبلوماسية كما هو الحال بالنسبة لفرانسيسكو الفارز وانطونيو تنريرو. فالاول ارسل في سفارة برتغالية الى الحبشة حي نزلت في مصوع على الشاطئ الغربي للبحر الاحمر ــ في نيسان عام ١٥٢٠، ثم عادت بعد ست سنوات من ذلك، وهي تمثل اول بعثة معروفة من اوروبا قد وصلت الى بلاط الحبشة وعادت بسلام. ذلك لان مثل هذه السفارات لم يكن يسمح لها في الغالب بالعودة الى بلادها مرة اخرى(٣٨) كما حدث لكوفلهام عام ١٤٨٧ اذ بقي في الحبشة مدة ثلاثين سنة وتوفي فيها. وقد التقى الاخير بالفارز في الحبشة وقص له اخباره.

لقد ذكر الفارز ــ كما اورد ذلك في سبب تاليفه للكتاب ــ بانه اوفد في سفارة من قبل الملك البرتغالي مانوئيل، وقرر بانه سيدون كل ما يحدث له في اثناء رحلته، والاقطار لتي يمر بها وعادات الناس وتقاليدهم وممارساتهم. ولما كان الفارز قد بقي في الحبشة ست سنوات لذلك ان ما كتبه عنها ــ كما يقول ــ قد جاء عن مشاهدة واقعية في حين ان القسم الاخر قد كان عن طريق السماع من اشخاص موثوقين(٣٩).

وفي الثامن والعشرين من نيسان عام ١٥٢٦ توجه الفارز الى الخليج العربي على ظهر احدى هذه

السفن البرتغالية فوصله بعد شهر من اقلاعه، حيث اقلته هذه السفينة الى ميناء مسقط مع خمس سفن برتغالية اخرى، وذكر عند حديثه عن هذه المدينة ارتباطها بالبرتغاليين. على ان اهم ما في هذا المؤلف من معلومات ما اورده عن السفن البرتغالية في الخليج وتحركاتها ما بين مسقط وهرمز، وبين الخليج العربي والبحر الاحمر(١٠).

اما بالنسبة لانطونيو تنريرو Antonio Tenreiro، فهو برتغالي يهودي ارسله الحاكم البرتغالي في الهند في بعثة دبلوماسية الى البلاط الفارسي بحدود عام ١٥٢٠، لرفع الشكوى عن بعض حالات الاغتصاب التي تتعرض لها التجارة البرتغالية في هرمز، وقد وصل الى هذه المدينة عن طريق البحر في مدينة غوا (جوا) في الهند(١١). بقي تنريرو في هرمز حوالي خمس أو ست سنوات، وفي نهاية تلك الفترة ارسل من قبل حاكم هرمز متدوزا Mendoza الى ملك البرتغال برسائل هامة عام ١٥٢٨(١٢).

من المعروف ان تنريرو لم يترك رواية مكتوبة عن رحلته ولكن هناك ناحيتين اساسيتين بالنسبة له وهما: (١)انه اول رحالة اوروبي استغل الطريق الصحراوي البري (طريق البصرة ــ حلب) ولهذا حمل معه رسالة من حاكم هرمز الى حاكم البصرة، يطلب فيها الى الاخير ان يؤمن لتنريرو عبورا امنا عبر الطريق الصحراوي وقد فعل حاكم البصرة هذا بالفعل حيث وصل تنريرو الى حلب، ومنها سافر الى طرابلس ومن هناك اقلع على ظهر سفينته، حيث وصل الى البرتغال عن طريق ايطاليا(١٣). (٢)يبدو ان استخدام تنريرو للطريق الصحراوي البري كان يمثل جزءا من السياسة البرتغالية انذاك. فعلى الرغم من ان السياسة البرتغالية كانت تقوم على احتكار الطريق التجاري البري الى الشرق وجعله مقصورا على السفن البرتغالية، وعرقلة النقل عبر الطرق البرية لاغراض التجارة، الا ان البرتغاليين وجدوا ان هذا الطريق هو اكثر الطرق ملائمة للوصول الى ممتلكاتهم في الهند وفي الخليج العربي، باعتبار انه اقصرها واكثرها سرعة. وهكذا بدأ الرسميون البرتغاليون والرحالة والتجار والمبعوثون برسائل خاصة يتخذون طريق البصرة ــ حلب عندما يتطلب الامر مواصلات سريعة(١٤).

الرحالة البرتغاليون المتأخرون وطبيعة السياسة البرتغالية:

حدث تغير كبير في ظروف البرتغاليين في الشرق في الربع الاخير من القرن السادس عشر وبالتالي ظهر فيما كتبه الرحالة البرتغاليون انذاك. اذ تعد هذه الفترة من الفترات الحرجة في تاريخ البرتغاليين في الشرق، ذلك لانه في عام ١٥٨٠فقدت البرتغال استقلالها وضمت الى عرش اسبانيا في عهد الملك فليب الثاني. ومع ان حكومة مدريد تركت للبرتغاليين ادارة ممتلكاتهم فيما وراء البحار كما كانت من قبل، الا ان هذا الحدث شكل نقطة بداية حقيقية لافول مجد البرتغاليين في الشرق(١٥).

لقد ذعر البرتغاليون من وصول قوى اوروبية جديدة الى الشرق، اذ كان عليهم ان يواجهوا المنافسة الحادة على الصعيدين التجاري والسياسي من جانب الهولنديين والانكليز. اذ كان الهولنديون (سكان الاراضي الواطئة) تابعين لعرش اسبانيا وحينما حاول فيليب الثاني سحق االتجارة

الهولندية باتخاذ اجراءات مشددة لوقف كل تعامل تجاري بين البلدين، بالقاء القبض على السفن الهولندية الموجودة في المياه الاسبانية، لم يكن للهولنديين مع الهند والشرق الا تجارة غير مباشرة من خلال لشبونة. لقد كانت سياسة فيليب ان يستثني الهولنديين من التعامل مع المستعمرات البرتغالية في الشرق، وبدلا من يحطم هذا المنع روح المغامرة لدى الهولنديين الذين ادركوا حقيقة الارباح الكبرى التي حصل عليها البرتغاليون من تجارة التوابل بوجه خاص، ادى ذلك الى تحفيزهم على ان يقوموا باتصال مباشر مع الشرق(٤٦). وعلى هذا الاساس ابحر الهولندي جان هيوجن فان لنشوتن Linschoten الى جزر الهند الشرقية عام ١٥٨٣، وبقي هناك مدة تقارب ثلاثة عشر عاما، وجمع فيها قدرا كبيرا من المعلومات فيما يختص بالمنتوجات ذات القيمة التجارية ووسائل النقل وطرق التجارة. وحينما عاد عام ١٥٩٢ نشر ذلك واضاف دليلا عمليا للملاحين وصف فيه الطريق من لشبونة الى الشرق والتيارات والرياح التجارية والمرافئ والجزر وما شاكلها في البحار الهندية مع خرائط ورسوم بيانية(٤٧).

على ان القيمة الاساسية لما نشره لنشوتن هي اتاحة الفرصة للاطلاع على فساد الاستعمار البرتغالي، ذلك الفساد الذي استغلته القوى الناشئة، الهولندية والانكليزية، للقضاء على البرتغاليين في الخليج والشرق الاقصى. وعندما نشرت الترجمة الانكليزية لاعمال لنشوتن عام ١٥٩٨ فانها كانت بمثابة (نفخة بوق)(٤٨). لتأسيس شركة الهند الشرقية الانكليزية عام ١٦٠٠، وحملت في طياتها الدعوة لمشاركة الانكليز في مضمار التجرة ومد النفوذ الى الربوع الهندية. وعلى ذلك فقد كان لحاكم هرمز البرتغالي تعليمات خاصة على اثر وصول الانكليز الى منطقة الخليج في اواخر القرن السادس عشر، تدعو لحماية المدينة من الخطر الجديد ذلك لان الخليج ــ على حد قوله ــ «هو المنفذ الرئيسي الذي يودون دخوله»(٤٩).

انعكست هذه الوضعية في اعمال الرحالة البرتغاليين والمهمات التي انيطت بهم خلال القرن السابع عشر. فعلى سبيل المثال، عندما اراد تكسيرا ان يعود الى البرتغال عام ١٦٠٠، قرر ان يعود عن طريق جزر الفلبين. ذلك لان القائد العام في مالقا كان يعتزم ارسال احدى السفن الى الحاكم الاسباني في الفلبين تحذيرا من قدوم الهولنديين الى تلك المنطقة وبحارها(٥٠). ومثل ذلك نجده في رحلة غودينهو عام ١٦٦٣ حيث وضع اللوم على الهولنديين لقضائهم على البرتغاليين عن طريق استبعادهم من سيلان ومالقا، وحرمانهم نهائيا من تجارة التوابل. واضاف ان الضربة القاضية التي وجهت لهم ــ اى البرتغاليين ــ كانت من قبل الانكليز الذين هاجموهم في القارة وساعدوا الفرس في الاحتلال النهائي لهرمز(٥١).

بيدرو تكسيرا Teixeira

لا يعرف الا القليل عن بيدرو تكسيرا وذلك مما ذكره هو عن نفسه. ومن هذا القليل يبدو انه

ينتمي الى احدى الاسر اليهودية البرتغالية المستقرة على الاغلب في لشبونه، ولكنه لم يكن يجرؤ على الاباحة بديانته، وربما لم يتربى علي العقيدة اليهودية. ولعله بامكاننا الاستنتاج مما رواه، بانه خلال الجزء الاعظم من حياته، ومن خلال رحلاته كان مسيحيا، وربما كاثوليكيا ورعا(٥٢). ويبدو ان تكسيرا وعلى غرار تنريرو الرحالة البرتغالي اليهودي السابق في القرن السادس عشر كان يتظاهر لبعض الوقت بانه مسيحي، لأن ذلك يلائم ظروف السفر في الاقطار الشرقية بصورة اكثر(٥٣).

اما بالنسبة لوالديه، ولادته، وحياته المبكرة، فيقف تكسيرا صامتا عن ذكر اي شئ عنها، ما عدا قوله انه في شبابه قد كرس نفسه لدراسة التاريخ(٥٤). اما اى حرفة أو تجارة كان يمارسها تكسيرا في اثناء ذهابه الى الشرق هو امر غير معروف، ولكن يبدو بانه كان طبيبا ومضاربا وتاجرا للجواهر، وهو بجانب ذلك كان مؤرخا. وعلى الرغم من ذلك كله فقد كان تكسيرا افضل بكثير في كتابه يوميات رحلته، واعطاء الانطباعات الشخصية عنها، مما هو أي شئ اخر(٥٥).

لم يذكر لنا تكسيرا ايضا سبب توجهه الى الهند أو السنة التي ابحر فيها من اوروبا الى آسيا. ولك يستنتج مما ورد من اشارات بانه غادرها عام ١٥٨٦ ووصلها في السنة التالية على ظهر احدى سفن الاسطول البرتغالي. ذلك لان الاسطول البرتغالي في البحر الاحمر وشرق افريقيا كان قد عانى من اندحار على يد الاتراك العثمانين، فاراد البرتغاليون ان يثاروا لذلك عن طريق ارسال اسطول قوي لمواجهتهم مرة اخرى.

ولما علم تكسيرا بان هذا الاسطول سيتوجه نحو هرمز بعد انجاز مهمته، حيث كانت الاوامر الصادرة الى قائد ذلك الاسطول انذاك تدعوه لبناء قلعة في مسقط للمحافظة عليها من الاتراك لذلك قرر تكسيرا بان يستغل هذه الفرصة برفقته حيث ربما لا تتاح له فرصة اخرى لمشاهدتها وقد حصل على اذن بذلك فاصطحب الحملة التي خرجت عام ١٥٨٧(٥٦). وبعد انتهاء هذه الحملة توجه الاسطول البرتغالي الى الخليج العربي وحط في مسقط حيث ابدى تكسيرا اعجابا كبيرا بكمية الاسماك الكثيرة التي كان يجري اصطيادها هناك، ثم ابحر الى هرمز. ولكن باستثناء ما ذكره تكسيرا عن مسقط، فانه يتغاضى عن هذه الحملة ولا يذكر عنها ولا عن مسقط، كما هو الحال في اثناء مروره بها عام ١٦٠٤(٥٧).

لقد ارتحل تكسيرا كثيرا في الشرق وعاش في الهند لمدة طويلة لهذا يبدو ــ من استنتاجات عرضية في كتابه ــ بانه كان قد امضى عام ١٥٩٣ في الهند ثم تركها نحو هرمز حيث استقر هناك حتى عام ١٥٩٧. ومهما يكن غرض الزيارة، فيبدو من الواضح ان تكسيرا كان قد كرس معظم وقته للقضايا التي تتعلق باللغة الفارسية، والى دراسة تاريخ فارس وهرمز، والى الترجمة بصورة مختصرة لحوليات ميرخواند في كتابه (روضة الصفا) ولطوران شاه في كتابه (ملوك هرمز). وفيما يتعلق بهذا الامر يخبرنا تكسيرا في المقدمة التمهيدية لهذا الكتاب؛ ومن اشارات اخرى في كتابه على انه كان شاهد عيان للاحداث في هرمز والتي وقعت خلال اقامته فيها، كما انه، وفي كتاب ملوك هرمز ايضا يعطينا وصفا مختصرا عن الجزيرة كما بدت عليه اثناء اقامته فيها. وفي نفس هذه السنة غادر هرمز

الى الهند، وذلك بصحبة الاسطول البرتغالي الذي كان قد اتجه الى الشرق الاقصى على اثر توارد الانباء من الهند عن هجوم هولندي متوقع على الممتلكات البرتغالية في الشرق الاقصى(٥٨).

عاد تكسيرا الى بلاده عام ١٦٠٠، وقبل ان يغادر مالقا في الهند، كان قد عهد الى بعض اصدقائه مبلغا كبيرا من المال من اجل ايصاله الى البرتغال عن طريق السفن البرتغالية الذاهبة من الهند الى البرتغال. ولكنه اصيب بخيبة امل عند وصوله الى لشبونة وذلك لعلمه بعدم وصول المال. ولهذا فقد بقي هناك في انتظاره لمدة سنة ونصف دون نتيجة، وعلى ذلك قرر العودة الى الشرق مرة اخرى، حيث ابحر على متن احدى سفن الاسطول الذاهبة الى الهند في الثامن والعشرين من آذار ١٦٠٤، فوصلها في تشرين الاول من السنة نفسها(٥٩).

في خلال اقل من اربعة اشهر من وصوله الى الهند، قرر تكسيرا العودة مرة اخرى الى بلاده. وبعد ان ضجر من الاسفار البحرية ورغبة في ان يرى مناطق جديدة، قرر ان يقوم برحلة برية الى اوروبا عن طريق الصحراء. ولذلك ترك غوا في التاسع من شباط ١٦٠٤، مبحرا في احدى السفن البرتغالية الى الخليج، حيث وصل هرمز في السابع عشر من اذار ومن ثم توجهه الى البصرة، ولما كان النهر غير قابل للملاحة في هذا الوقت قرر ان يصطحب احدى القوافل الذاهبة بواسطة الطريق الصحراوي الى حلب، هذا الطريق الذي استمر بالاستخدام من قبل ممثلي الوكالات السياسية البرتغالية القادمين من غوا الى لشبونة(٦٠)، ومن سواحل بلاد الشام الى فينيسيا ومنها الى مدينة انتويرب، حيث كانت نهاية رحلته. وهناك طبع كتابه عن اصل وتسلسل ملوك فارس وهرمز، حيث تناول الجزء الاخير تاريخ مملكة هرمز وملوكها حين احتلال البرتغاليين لها ويذكر ملوكها من ١٥١٥ ــ ١٦٢٢ وعلاقاتهم بالبرتغاليين. كما كتب رحلته من الهند الى ايطاليا، وكانت وفاة تكسيرا في منتصف القرن السابع عشر على العقيدة اليهودية(٦١).

لرحلة تكسيرا التي نشرها و. ف. سنكلير وطبعتها مؤسسة هاكلايت في لندن عام ١٩٠٢ اهمية خاصة عن تاريخ الخليج، ذلك لان الرجل مر بالمنطقة عدة مرات برفقة الاسطول البرتغالي. ومع ان المعلومات التي تركها لنا هذا الرحالة عن الموانئ العربية على الخليج قليلة، كمسقط مثلا التي مر بها كما ذكرنا، الا انه اشار الى ناحية مهمة انذاك وهي ان اغلبية السكان على الساحل الشرقي في الخليج كانوا من العرب. واظهر كيف ان جزر (نخيلو) و(ريق) وغيرها، وكلها ماهولة بالعرب، كانت ممتعضة من البرتغاليين وتتحين الفرصة للثورة ضدهم اذ قال: «ان رجال ريق لم يكونوا على صلح مع البرتغاليين وذلك بسبب المظالم التي كانوا ينزلونها بهم»(٦٢).

تبرز اهمية رحلة تكسيرا في وصفه المركز للمناطق العراقية الواقعة على الطريق الصحراوي ما بين البصرة وحلب. فالبنسبة للبصرة المدينة الخليجية ترك لنا اوصافامفصلةعن هذه المدينة والحكومة القائمة بها انذاك، واسطول البصرة وحاميتها، وعن الحالة العمرانية فيها(٦٣). كما تحدث عن اسواق المدينة، والمنتجات الرئيسية فيها، وعن تجارتها مع مناطق الخليج العربي الاخرى(٦٤)، وهي

معلومات قلما تتوفر بمثل هذه الدقة في المصادر المحلية المعاصرة.

مانوئيل غودينهو Godinho

عاش الاب مانوئيل غودينهو ــ وهو يسوعي برتغالي ــ ما بين ١٦٣٠ ــ ١٧١٢، وهي الفترة التي تمثل نهاية عصر النهضة في اوروبا وبداية العصور الحديثة. واذا كان لهذه الفترة من تأثير، فانها قد جعلت منه، وعلى عكس الرحالة الاوائل، شخصا يمتاز بروحيه حديثة فظهر كاتبا ذو ذكاء بارع يمتاز بالوضوح والرؤية الفلسفية الشاملة لحركة التاريخ، ولعل هذا ما يمكن ان نلمسه في رحلته الاصلية بالبرتغالية المعنونة:(٦٠)

Relations of the new route Father Mauvel Godinho too K From india to Fostug at in the year 1663

يفتتح غودينهو كتابه بمقالة رائعة عن اضمحلال الامبراطورية البرتغالية حيث يقول:

«ان الامبراطوريات مثل الامبراطورية الرومانية قد مضت للزوال، والان فان الامبراطورية البرتغالية تمضي في نفس الطريق. وان الهند تقع الان في يد الهولنديين والى حد ما بيد الانكليز.. ان قصة الامبراطورية الهندية لم تنته هنا، ولكن عمر الاستكشافات البرتغالية قد جاء الى نهايته.. لقد استطاعت امبراطوريات اخرى ان تبني امبراطوريات اكبر من الامبراطورية البرتغالية، ولكن يعود للبرتغاليين الفضل في الاكتشافات اكثر من أي امبراطورية اخرى تعتمد على القوة البحرية»(٦٦).

على اية حال فقد قام الاب غودينهو عام ١٦٦٣ برحلة برية من الهند الى البرتغال. ولعل من المعتاد بالنسبة لغودينهو كرحالة ان يعطينا غرض رحلته ولكنه نكص عن ذلك على اساس طبيعتها السرية، ولكنه اكد لنا بانها (في خدمة جلالته (اي الملك البرتغالي)) والله والبشر، وانها تتعلق بخلاص الاف من الارواح، والابقاء على القوة البرتغالية في الهند(٦٧). اننايبدو بان رحلة غودينهو لم تكن رحلة عادية وان الرجل كان يحمل الى بلادهوثائق سرية وهامة جدا، ويجب ان تكون ذات اهمية سياسية، وان لم يبح غودينهو بذلك. على ان المعلومات الاخرى التي ذكرها الرحالة في كتابه حول الاماكن التي مر بها قد اعطيت بصورة واضحة وبارعة الايجاز، ومن الجلي بانها قد وصفت لغرض الاستفادة منها من قبل الحكومة البرتغالية(٦٨).

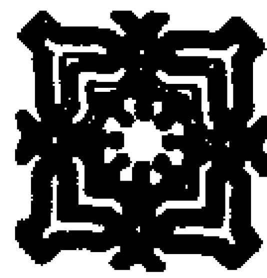
باشر غودينهو رحلته من الهند فر بسورات حتى وصل الى الخليج العربي. وبعد ذلك واصل رحلته الى كمبرون وكنج ومنها على ظهر سفينة الى البصرة. وكان من المفروض ان يسافر عن طريق النهر الى بغداد، ولكنه وجد بان ذلك يحتاج الى الانتظار لبعض الوقت، فدفعه حماسه في ايصال الوسائل السرية الهامة المستعجلة الى البرتغال والتي عهد اليه بنقلها، الى اتخاذ الطريق الصحراوي والمار بالنجف والحلة وبغداد وعانة فحلب. ومن ثم سافر الى مارسيلية فلشبونة حيث وصلها في الخامس والعشرين من تشرين الثاني عام١٦٦٣(٦٩).

تلقي رحلة غودينهو لنا الضوء على معلومات مهمة بالنسبة لمنطقة الخليج العربي وعلى التطورات الجارية فيها. فعندما يتحدث عن كمبرون يشير الى انها تمثل مركزا رئيسياً في الخليج، ويحاول الفرس ان ينقلوا اليها تجارة هرمز الضخمة(٧٠) وان اكثر ممثلي الوكالات الاوروبية في المدينة هم الانكليز والبرتغاليين، ولكن بالنظر لان الانكليز كانوا قد ساعدوا الشاه في احتلال هرمز، فانهم يتمتعون بالاستثناءات من الضرائب الثقيلة(٧١).

اتيحت لغودينهو اثناء بقائه هناك الفرصة لان يلقي نظرة على ما تبق من مدينة هرمز، حيث سرد لنا كيف اصبح البرتغاليون سادة في المدينة منذ عام ١٥١٤، واصبحت هرمز تحتل المكانة الثانية بعد غوا من حيث القوة والمنعة بالنسبة للبرتغاليين، الى ان سقطت بيد الشاه عباس عام ١٦٢٢ وذلك بمساعدة الانكليز، حسث قام الطرفان بطرد البرتغاليين منها ومن كل جزد وموانئ الخليج العربي الاخرى. كما قام الشاه عباس بتهديم كل المنشأت البرتغالية، واجبر الرعايا على المجرة، ولم يترك في الجزيرة غير حامية فارسية مؤلفة من ثمانمائة شخص(٧٢).

اما بالنسبة للبصرة فقد قال عنها بانها اعظم مركز تجاري في تلك البحار. وهي تضم حوالى مائة الف شخص من مختلف الاجناس، وعدد هائل من التجار حتى اذا ما جاءت مائتي سفينة الى مينائها فان بامكانهم تنزيل حمولتها في خلال شهر. على ان الحاجة الملحة بالنسبة لهذه المدينة هي الاخشاب، اذ لايتوافر فيها قطع الاخشاب الصالحة لبناء السفن لا فيها ولا في الساحل الفارسي للخليج. ولهذا فان البصرة تستوردها باسعار عالية من الهند. اما حكومة البصرة فانها تحكم من قبل امير عربي وراثي، نادرا ما يدفع الضريبة والولاء للباب العالي(٧٣).

وهكذا تعكس لنا هذه الصفحات صورة عن اهم الرحالة البرتغاليين الذين زاروا منطقة الخليج العربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، كما تعكس لنا صورة حية عن كثير من الوقائع التاريخية والجغرافية والبشرية للمنطقة، التي طالما نجد لها نظيرا في المصادر المحلية. وفضلا عن ذلك فانها تكشف لنا طبيعة التطورات التي مرت بها السياسة البرتغالية خلال هذين القرنين، وعلاقاتها بمنطقة الخليج، وحالة التدهور والانحلال التي الت اليها، والصور التي كان يظهر بها الرحالة البرتغاليون في تمثيلهم لتلك السياسة، وهذا ما يعطي القيمة الحقيقية لرحلاتهم.



حواشي البحث

١. ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، طبع بمطابع علي بن علي، الدوحة، قطر، (د.ت) ج١، ص٩.

٢. المصدر نفسه، ج١، ص ص ١٠ ــ ١١.

٣. جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، نقله الى العربية قدري قلعجي، منشورات الفاخرية، الرياض (د.ت) ص ص ٥٧ ــ ٥٨، وانظر ايضا:

C.F. Beckingham, Some early travels in Arabia, Journal of the Royal Asiatic Society (1949), P.146.

٤. Douglas carruthers, The desert reute to India (printedin 1928 and repriutedin). P. xiii.

٥. Beckingham, Op. Cit, P. 162.

٦. الدكتور السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الاول لليمن ١٥٣٨ ــ ١٦٣٥ (معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٤) ص٤٨.

٧. للتفاصيل انظر سونيا. ي. هاو. في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت (مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٧) ص ص ١٣٦ ــ ١٥١. ارنولدت. ويلسون، الخليج العربي، نقله الى العربية وقدم له الدكتور عبد القادر اليوسف (مكتبة الامل، الكويت، د.ت) ص٢٠٣.

٨. من الملاحظ ان عددا كبيرا من الرحالة البرتغاليين كانوا من اليهود ويعود سبب ذلك لمعرفتهم باللغة العربية.

٩. سالم، المصدر السابق، ص٤٨، هاو، المصدر السابق، ص١٥٣ ــ ١٥٤.

Beakingham, Op. Cit, P. 158

١٠. هاو، المصدر السابق، ص ٢٢٦.

١١. Tome Pires The suma oriental of Tome pires: an account of the East, from the Red Sea to Japan Written in Maiacca and India in 1512-1515, translated from the portugnese by Armando Cortesae, London, Hakluyt society, 1944, Vol. 1. P. XVii

١٢. Ibid, PP. XVii - XiX

١٣. Ibid, pp. LXVii.

١٤. Ibid, pp. XiX- XXi.

١٥. Ibid, pp. LXXiii.

١٦. Pires, Op. Cit, P. 19.

١٧. Ibid.

١٨. Durate Barbosa, The book of Durate Barbosa: an account of the Countries berdering on the Indian Ocean about the year 1518A. D, translated from the Potuguese text by Mausal lengworth Dames (London, Hakluyt Sooiety, 1918) Vel,1, p. XXXiV.

١٩. Ibid, Vol.1, p XXXV

٢٠. Ibid, Vol.1, pp. XLiV- XLV

٢١. Ibid, Vol.1, p. XLiX

انظر ايضا مجلة الوثيقة البحرينية، العدد الاول، السنة الاولى (يوليو، ١٩٨٢) ص١١٤، حيث يرد تعريف موجز باسماء بعض الرحالة البرتغاليين ورحلاتهم.

٢٢. Barbesa, Op, Cit, Vol.1, pp. 1-2

٢٣. Ibid, Vol.1, p. LViii

٢٤. Ibid, Vol.1, p.LXi

٢٥. Ibid, Vol.1, p. 70

٢٦. Ibid, Vol.1, p. 71

٢٧. Ibid, Vol.1, p. 73

٢٨. Ibid, Vol.1, p. 74-

٢٩. Ibid, Vol.1, p. 89

٣٠. Ibid, Vol.1, p. 90, (note of the translator)

٣١. Ibid, Vol.1, p. LXii

٣٢. Ibid, Vol.1, p. 101

٣٣. Ibid, Vol.1, p. 101

٣٤. Ibid, Vol.1, p. 81

٣٥. Ibid, Vol.1, p. 76

٣٦. Ibid, Vol.1, p. 75

٣٧. Ibid, Vol.1, p.77

٣٨. Francisco Alvaves, The prester john of the Indies: being the narrative of the Portuguese embassy to Ethiepia in 1520, ed. by. c.F. Beckingham and G.W.B. Huntingferd, Cambrridge, Hakuyt sooiety, 1961, Vol.1, p. 1 -2

٣٩. Alvares, op. cit, pp. 38-90

٤٠. Ibid, Vol.1, p. 473

٤١. Hugh Muray, Historical account of discoveries and travels (Edinburgh, 1829) Vol.1, p.367

٤٢. Ibid, p. 379. Sea also. p. Grant, The syrian desert (A. B BLACK Ltd, London, 1937), p. 83

٤٣. Murray, Op, Cit, P. 379

٤٤. Carruthers, Op. Cit, p.XVI, Crant, Op. Cit, p.83

٤٥. مصطفى عقيل الخطيب، التنافس الدولي في الخليج العربي، ١٦٢٢ ــ ١٧٦٣ المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ١٩٨٠، ص٢٥.

٤٦. ويلسون، المصدر السابق، ص ٢٧١.

٤٧. المصدر نفسه، ص٢٧٢.

٤٨. المصدر نفسه

٤٩. Carruthers, Op, Cit, p. XiV.

٥٠. Pedro Teixeira, The Travels of Pedro Teixeira, translated and annoted by william f. sinclair (Londo Haklzyt society, 1902), p. XViii

٥١. Myrray, op, cit, p.382

٥٢. Teixeira, op, cit, p.1

٥٣. Grant, op, cit, p, 85

٥٤. Trixeira, op, cit, p. ii

٥٥. Crant, op, cit, p.85

٥٦. Teixeira, op, cit, p.V

٥٧. Ibid, p. Vii, 180

٥٨. Ibid, pp. XVi - XVii

٥٩. Ibid, p. XVii

٦٠. Crant, op, cit, p. 87

٦١. Teixeiram op, cit, P. XXiV

٦٢. Ibid, p, 24

٦٣. Ibid, pp. 25-29

٦٤. Ibid,

٦٥. Charles David ley, (ed), Portuguese Veyages 1498-¾663 (I. M Bent& Sons, lendon,1947), p. xx

٦٦. Ibid, pp. XX- xxi

٦٧. Murray, op. cit, vol, p. 384

٦٨. ley, op, cit, p. XX

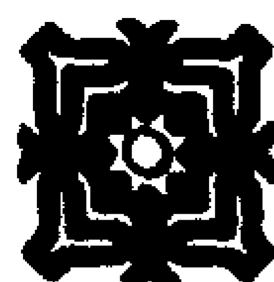
٦٩. للتفاصيل انظر: Murray, op. cit, pp. 385-408

٧٠. Ibid Vol, P. 393

٧١. Ibid Vol,1., p393

٧٢. Ibid, vel, I b- 394

٧٣. Ibid, Vol ,Vol, I p.p 395 - 6



الغزو البرتغالي للخليج العربي
من خلال المصادر الفرنسية

الدكتور: صادق ياسين محمد الحلو
جامعة بغداد ــ كلية التربية
قسم التاريخ

أتسمت الكتابات الفرنسية عن بدايات الغزو البرتغالي للخليج العربي بشحتها أو نستطيع الجزم بانعدامها سواء أكان ذلك في الوثائق الفرنسية (عدا وثيقة واحدة) أو في كتب الرحلات، والواقع لاتوجد أي صعوبة تواجه الباحث في تفسير هذه الظاهرة فهي ولاشك تعود الى دخول الفرنسيين متأخرين في ميدان الصراع والمنافسة الاستعمارية الاوروبية في المحيط الهندي بشكل عام وفي الخليج العربي بشكل خاص قياساً الى بقية الدول الاوروبية الاخرى كالبرتغاليين والهولنديين والانكليز، غير أن عدم وجود وثائق ومصادر فرنسية معاصرة لبدء الغزو البرتغالي للمنطقة لايعنى استمرار هذه الحالة لاحقاء، أثناء فترة الاحتلال البرتغالي لجزر ومدن عديدة في الخليج العربي وأقامتهم فيها حاميات وحصون عسكرية. فقد جاب المنطقة وخاصة في القرن السابع عشر العديد من الرحالة والبعثات الدينية التبشيرية الفرنسية تمخض عنها صدور كتب وضعت عن سير تلك الرحلات ووصف للمدن الواقعة تحت سيطرة البرتغاليين وتجارتهم وتعاملهم مع السكان والتحالف الانجليزي الفارسي لأخراجهم من هرمز ومن ثم طردهم من قبل اليعاربة من آخر حصونهم في الخليج العربي وتتبعهم الى شرق أفريقيا والهند.

وتأتي بالمرتبة الثانية الرحلات والكتب العادية التي صدرت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر وتأتي فائدتها من قربها زمنيا الى فترة الوجود البرتغالي كما ويركز بعضها على التحليل الاجتماعي لاسباب ضعف النفوذ البرتغالي وتدهوره، ويتناول الاخر بالتفصيل مقاومة اليعاربة العمانيين لهم في شرق افريقيا والهند.

أما الكتب المعاصرة والاطروحات والدوريات فتتصف بقلتها ولا يوجد كتاب أو بحث متخصص عن الغزو البرتغالي للخليج وإنما يتم التعرض لذلك من خلال دراسة الخليج العربي أو المحيط الهندي في الفترة موضوعة البحث، كما أن ما تذكره هذه المصادر يكرر ما روته المراجع والمصادر السابقة دون تحليل أو أضافة.

ولأجل اعطاء صورة واضحة وتغطية شاملة عما ورد من كشف عن الغزو البرتغالي للخليج العربي في المصادر الفرنسية قسم الموضوع حسب قدم التسلسل الزمني لفترة الرحلة وسنة طبع الكتاب.

١ ـ الوثائق وزارة الخارجية الفرنسية:

ARCHLVES DU MINISTERE DES AFFAIRES ETRANGERES

توجد وثيقة واحدة فقط ضمن وثائق وزارة الخارجية الفرنسية تحت عنوان في بحوث ووثائق فارس، الجزء(٨)

MEMOIRET DOCUMENTS, PERSE (1547- 1839) VOL.8.

تتعرض للوجود البرتغالي في الخليج العربي في بحث كتبه مجهول ANON بعنوان تفصيل العلاقات بين فرنسا وفارس (١٦٠٥ الى ١٨٢٤)(١) وكما جاء يقول فيه:

بأن جزيرة هرمز كانت تحت حكم أحد الشيوخ العرب، وجعل منها مركز تجاري بين شبه الجزيرة العربية وفارس والهند حتى وصول البوكيرك الى الخليج وسيطرته على الجزيرة وعلى مسقط وكوك وقشم والبحرين حيث كان يصاد هناك اللؤلؤ الجيد، ويصف البحث تصرف البرتغاليين مع السكان بالفظاظة والغباء، يشير بعدها الى كيفية طرد البرتغاليين من هرمز عام ١٦٢٢ بتحالف الانكليز الذين تعهدوا بإعداد السفن مع الفرس الذين كان عليهم إعداد الجيوش البرية، ويعتبر البحث سقوط هرمز نهاية لأمبراطورية البرتغاليين في الهند ثم يذكر طرد البرتغاليين من مسقط على يد أحد القادة العرب لكنه يخطأ في التاريخ فيحدده بعام ١٦٤٩، كما ويؤشر هذا البحث الى أن السيادة في الخليج بعد هذا التاريخ أصبحت للعرب.

٢ ـ الغزو البرتغالي للخليج العربي من خلال المصادر الفرنسية في القرن السابع عشر:

شهد القرن السابع عشر كثرة الرحلات الفرنسية الى الهند وفارس والعراق والخليج العربي، غير أن قسماً من الرحالة لم يسلك طريق الخليج العربي عند ذهابه الى الهند وانما سلك الطريق البري عبر تركيا وشمال ايران وروسيا، لذا جاءت رحلاتهم خالية من المعلومات التي تتعلق بالوجود البرتغالي فيه بشكل تفصيلي. وأهم الكتب والرحلات التي تناولت الاحتلال البرتغالي للخليج في هذا القرن الاتي:

أ. رحلة الشرق، تأليف فليب ر. ب

PHILIPPE (DU R.P.) "UOYAGE D' ORIENT" PARIS, 1652.

بدأ فيليب رحلته عام ١٦٢٩، ووصل البصرة في عام ١٦٣١ ووجد في ذلك الوقت اسطولا برتغالياً تجارياً مؤلفاً من خمس وعشرين سفينة(٢)، تحمل بضائع متنوعة ويذكر فيليب أن البرتغاليين وجدوا صعوبة في تصريفها، كما واجهوا ضغوطاً من حاكم فارس الذي طالب المتسلم العثماني بتسليم أحد البرتغاليين الفارين الى البصرة، وكان البرتغاليون يحرسون سفنهم بيقظة، وعملوا بسرعة فائقة وشحنوا سفنهم بالتمور وغادروا المدينة في ٤ تشرين الثاني.

زار بعدها فيليب جزيرة لارك في نفس العام (١٦٣١) والتقى هناك كما يقول «بالاسطول الحربي البرتغالي وهو راس في الجزيرة ويقوم بمنع كل القوارب الصغيرة التي تريد الخروج لصيد اللؤلؤ من جزيرة نخيلو (NIHILO) دون أذن من البرتغاليين، لذلك ذهب معظمهم الى جزيرة قيس وبيلود تخلصاً من الرقابة البرتغالية»(٣) غير ان الرحالة الفرنسي لم يقدم أي وصف لسفن الاسطول البرتغالي الحربي أو أعدادها أو نوعية تسليحها.

سافر فيليب الى الاحساء والقطيف ووصف تجارة البرتغاليين مع هذه المنطقة فذكر «أن السفن البرتغالية التي تأتي مرتين خلال السنة للمتاجرة كما هي الحالة في البصرة، تبيع بضائع الهند ويشترى البرتغاليون من القطيف التمور، وبعض الفواكه الاخرى، والسجاد وأشياء أخرى وينقلونها الى الهند، كما يشترون ويشحنون بشكل رئيسى من القطيف الخيول العربية المشهورة بأصالتها وتستثنى عشره منها من ضرائب الكمارك»(٤).

والمنطقة الاخرى التى زارها كانت مسقط التي اعتبرها «أقوى مكان للبرتغاليين، حيث يوجد فيها قلاع محصنة تحصيناً قوياً جداً، والتي تحولت اليها تجارة هرمز بعد طرد البرتغاليين منها ولذلك كبرت كثيراً» ويقدم فيليب ايضاً وصفاً دقيقاً لميناء مسقط وتحصيناته والمدفعية المثبتة فوق الجبال للدفاع عنه ويصف أيضاً صحار التي فيها قلعة عسكرية للبرتغاليين ويتطرق الى وجود عدد من الجزر بالقرب من الخليج بالقرب من مسقط، وتوجد جزيرة صغيرة جداً تسمى جزيرة النصر، وتخليداً لذكرى انتصار البرتغاليين على عدد من سفن الكاليوز التركية(٥).

ويؤكد الرحالة الفرنسي (المبشر) بأن هرمز والمناطق الساحلية غرباً وشرقاً وبعض الجزر كانت تحت سيطرت أحد الشيوخ العرب عند وصول الفونسو البوكيرك وغزوها، كما يذكر أن في وقت زيارته للخليج كانت مسقط وقريات وصحار وخورفكان ودبا وغيرها ضمن الاحتلال البرتغالي وفيها حاميات عسكرية(٦).

ب. حالة فارس في ١٦٦٠، تأليف رافائيل دو مات، باريس ٨٩٠، مع مقدمة كتبها سيشفر. (SCHEFER)

LE P. RAPHAEL DU MANS "ESTAT DE LA PERSE EN 1660" AVEC INTRODUCTION DE SCHEFER, PARIS, 1890.

جاء في المقدمة التي كتبها سيشفر SCHEFER استعراض وتتبع تاريخي لعلاقات فارس بأوروبا، ومنها العلاقة مع البرتغاليين ونشاطهم في الخليج العربي، ويبدأ بسرد العراقيل التي وضعها البرتغاليون أمام السفير (فكورا) الذي أرسله الملك الاسباني الى فارس عند وصوله الى كوا عام ١٦١٤، وكانوا يغارون من رؤية الاسبان ولهم سفير في أحد بلاطات الشرق فأخروه ثلاث سنوات الى أن استأجرت في الاخير سفينة على حسابه الخاص قامت بنقله الى فارس(٧)، وتوضح المقدمة المعاملة السيئة التي كان يتلقاها تجار وموظفوا شركة الهند الشرقية الانكليزية من البرتغاليين في هرمز بعد إنشاء مكتب لهم في بندر عباس عام ١٦١٣.

غير أن أهم ما أسهب روفائيل في شرحه: قصة قرار شركة الهند بمهاجمة البرتغاليين في الخليج العربي والمفاوضات والاتفاق الفارسي الانكليزي بهذا الشأن فيشير «الى اجتماع عقد في نهاية عام ١٦٢١ لهيئة الشركة بالقرب من سراة برئاسة توماس روستيل، تقرر فيه أرسال خمس سفن وأربع PINASSE الى الخليج العربي، وأسر كل السفن التي تعود للبرتغاليين ونهب بضائعهم وأسر طواقمها وضرورة مهاجمة أسطول الاميرال روى فريرا RUY FRERA حيثما تلاقيه السفن الانكليزية، ويتعين على حاكم مقاطعة فارس التابع للشاه عباس بتحريك جيوشهم باتجاه هرمز عندما يعلمون بوصول السفن الانكليزية ويتجهون بها الى السواحل»(٨).

وفي ٢١ كانون الاول عقد اجتماع على ظهر السفينة الانكليزية جوناس هول وصاغوا الشروط التى طالب بها الموظفون الانكليز كثمن لتعاونهم مع الفرس لطرد البرتغاليين من هرمز وكانت على النحو الاتي:

١. في حالة الاستيلاء على قلعة هرمز وتكون السيطرة للفرس فيها، على أن يتم تقاسم الغنائم والمواد التجارية مناصفة بين الطرفين.

٢. تعطى القلعة والمدفعية والذخيرة للانكليز ويبنى الفرس قلعة أخرى على نفقتهم.

٣. واردات الكمرك يجرى تقاسمها بالتساوى بين الطرفين وتعفى المواد التجارية الانكليزية من الضرائب، ويتسلم الانكليز الاسرى المسحيين، ويتسلم الفرس الاسرى المسلمين وأخيرا على الفرس أن يتحملوا نصف نفقات الاسطول ورواتب طواقم السفن، وتزويد الاسطول بالبارود والقنابل.

يتطرق بعد ذلك الى المفاوضات التي جرت بين الفرس والانكليز في ٨ شباط ١٦٢٢ بمدينة ميناب لعقد اتفاقية بينها وقد أقر البند الاول دون أي تعديل، وطلب الفرس أجراء تعديل على البند الثاني لينص على ان يحتل الفرس والانكليز القلعة بشكل متساو(٩). وتستعرض المقدمة ايضاً مواجهة البرتغاليين للفرس والانكليز في هرمز وتعطي وصفا للأسطول البرتغالي الحربي في هرمز الذي كان تحت الابحار والمؤلف من خمس كاليونات GALIONS وعشرون فرقاطة، فأحزم الانكليز النار

بالسفينة سان بير SAINT PIERRE التي تبلغ حمولتها ١٥٠٠ طن ويستخدمها اميرال الاسطول بعد أن قطعوا صواريها وتركوها بهذه الحالة حيث تستطيع الرياح والمد أخذها(١٠)

ويستطرد سيشفر في المقدمة ليروى تفاصيل الهجمات التي قام بها الجنود الفرس ضد البرتغاليين واحراقهم لبراميل البارود تحت سور القلعة، ولكن رغم كل ذلك لم يحققوا شيئا الى أن تقدمت قوات انكليزية ونجحت بايقاع الهزيمة بالبرتغاليين، وركزت القوات المشتركة جهدها بعدئذ على السفن وبعد مقتل عدد من البحاره والمدافعين أغرقوا سفينة قائد الاسطول روي فريرا وبذلك تدمر الامل الذي بق عند المحاصرين من البرتغاليين الذين ظلوا يعتقدون بأنهم سادة للبحار، وبسبب الطاعون والجوع لم يستطع البرتغاليون الاستمرار في المواجهة فاضطروا الى ارسال رجلين من عساكرهم ليفاوضوا على شروط الاستسلام(١١).

وتستمر المقدمة لسيشفر لتشرح سير المفاوضات بين البرتغاليين والانكليز في ٢٣ نيسان حول الاستسلام وطلبوا الحفاظ على أرواحهم ونقلهم الى مسقط، وفعلا نفذ الانكليز الطلب ونقلوا اليها ثلاث الاف من البرتغاليين، بعد ذلك تم اقتسام كل المدافع التي وجدت في قلعة المدينة وقدر عددها بثلاثمائة قطعة، وهناك من يضاعف هذا العدد، بينما أشار القسم الاخر الى وجود (٥٣) قطعة مدفع فقط منصوبة على قواعدها(١٢) (ويبدو أن هذا الرقم هو الاقرب الى الصحة) وكنتيجة لهذا التعاون حصل وكلاء الشركات الانكليزية والهولندية كهدية من الشاه الفارسي على فتح بيوت تجارية في أصفهان وتبريز وحصلوا على رخصة بأن يصنعوا في المدينة الاخيرة الخمر وماء الحياء لحسابهم وأخذوا يرسلون كميات هائلة من هذا الانتاج الى الهند(١٣).

وفي متن الكتاب يتطرق المؤلف رافائيل الى العقد الذي وقعه الفرس مع البرتغاليين لاعطائهم نصف واردات كمرك بندر كونج اضافة الى عدد من الخيول سنوياو لكن في عام ١٦٦٠ ولعدم امتلاك البرتغاليين على قوة مؤثرة في هذه السواحل، أخذ الفرس يحاولون التخلص من اعطائهم أي شئ من واردات الكمارك.

أما في ال APPENDICE فيوجد عدد من الرسائل تمتد الى سنوات اكثر من ١٦٦٠ التي كان يرسلها رافائيل الى الملك الفرنسي ورئيس وزرائه كولبير تتركز على علاقته مع الحكومة الفارسية وعن الوضع في الخليج العربي، وتوضح أحدى الرسائل المؤرخة في ٢٠ آب ١٦٧٠ عن الهدف من انشاء دار للاوغسطينين البرتغاليين في فارس وذلك كما تقوله الرسالة لخدمة ومساعدة رعايا الملك البرتغالي الذين تاجرون مع هذا البلد(١٤)، وتسترسل نفس الرسالة لتوضح الاتفاقية مع فارس حول ميناء كو نج وتعهد البرتغاليين بتشجيع التجار بالمجئ اليه وجلب البضائع على شرط ان يوافق الشاه الفارسي بأعطائهم نصف واردات الكمارك، ثم تبين الرسالة مقاومة عرب مسقط البحرية ومهاجمة سفن البرتغاليين من اشتباكات متعددة حيث اصبح المسقطيون أقوياء ومخيفين في البحر(١٥).

ج. توماس هوبرت، قصه سفره لفارس وجزر الهند الشرقية، باريس ١٦٦٣.

THOMAS (HERBERT), RELATION DU VOYAGE DE PERSE ET DES INDES ORIENTALES, PARIS, 1663.

يروى حكاية قبطان أحد السفن البرتغالية المسمى وودكوك WOOD COCK الذي حصل على ثروة كبيرة وواجهه سوء الطالع عندما قرر الانسحاب بفرقاطته المشحونة بالاموال واللؤلؤ وكمية من النقود تصل الى مليون اكوس (ECOUS)، لكنه لم يتمتع بهذا الكنز لفترة طويلة فغرقت سفينته المسماة البالين LEBALEINE في عمق ميناء ساولي (SAWLEY)(١٦)

ولايوجد في الكتاب أي معلومات أخرىذاتقيمة تاريخية.

د. م.د. تيفنو، رحلات تيفنو، باريس ١٦٨٩.

THEVENOT (DE), VOYAGES DE MR. THEVENOT, PARIS, 1689, 4 VOL

تنبع أهمية هذا الكتاب أن مؤلفه زار المنطقة عام ١٦٣٨ في وقت الاحتلال البرتغالي لبعض المناطق في الخليج العربي التي لازالت قائمة، ويتألف الكتاب من أربع أجزاء.

ففي الجزء الثاني من الكتاب يذكر الرحالة الفرنسي أن للانكليز موظف كمرج في بندر عباس، ويجب على الفرس نظريا أن يدفعوا نصف واردات الكمارك لهم كثمن لمساعدتهم بالاستيلاء على هرمز من البرتغاليين، لكنهم في الواقع لا يستلمون الا الربع.

ثم زار هرمز ورأى وجود حصن عسكري كان البرتغاليون قد بنوه عند احتلالهم الجزيرة، ويرى أن خسارتهم لهرمز ترجع الى خطأ الحاكم البرتغالي فيها، الذي كان واثقا بأمكانياته، ولم يقبل النصح والمشوره من أي شخص(١٧).

وعندما وصل الى ميناء كونج وجد وكيلا لملك البرتغال فيها واسمه فانوئيل منديز هزبيك (LE SIEUR MANUEL MENDEZ HENRIQUEZ)

ويروى تيفنو عن بعض الاعمال الوحشية التي قام بها البرتغاليون ضد سكان المنطقة فيقول: «ذكر لي سكان جزيرة رشير بالقرب من كيرك بأن سكان هذه المدينة قتلوا في الماضي رجلا برتغاليا، بسبب قيامه بعمل سيئ، فما كان من البرتغاليين الا أن أرسلوا في وقت لاحق سفينة برتغالية بقيادة الاميرال روي فريرا أندراد L ADMIRAL FERRYRA ANDRADE APPEDE RO فأخذ طفلا من والدته ووضعه أمام مدفع وأجبر والده وأمه على أطلاق النار عليه وقتله. وبهذه الطريقة الفظه كانوا ينتقمون من سكان السواحل، عندما يتعرضون لما لا يسرهم ولا يزال اسمهم حتى الان مرعباً جداً بين السكان في هذه المناطق.بسبب هذا العمل الاجرامي ترك أعداد كبيره من السكان الجزيرة بسبب هذه المعاملة تخلصاً من المعاملة البرتغالية السيئة»(١٨).

وكان الشاه الفارسي عند زيارة تيڤنو لميناء كونج لايزال رسميا عليه أن يدفع نصف ضرائب وارداتها من المكارك وخمس خيول سنويا الى الملك البرتغالى الذي فرض ذلك بفعل سفنه التي تجوب السواحل الفارسية. لهذا فللملك البرتغالي مكتب في الميناءيرفع العلم البرتغالي، ويوجد ايضا عدد من الاباء الاوغسطنيين البرتغاليين ولهم دار وكنيسة خاصة بهم(١٩).

ولعل تيڤنو يعتبر خير شاهد عيان على تأزم العلاقة بين وكيل الملك البرتغالي مانوئيل منذيز هزيك والسلطات الفارسية لعدم التزام الفرس بدفع حصة البرتغاليين من واردات الكمارك بشكل مضبوط فذكر «خلال وجودنا على ظهر السفينة مقابل كونج ترك وكيل الملك البرتغالي مكتبه في الميناء حتى يدلل نقمته وعدم رضاه على رجال الكمارك الفرس الذين لايريدون ان يدفعوا له كل ما هو من حصة ملك البرتغال من الكمارك لهذه السنة والسنة الماضية،ومن أجل ذلك قررالذهاب الى عمان ومنها الى كوا حيث سيشرح الوضع لنائب الملك (البرتغالي)، حتى يسمح له بالعودة مع سفينتين مسلحتين لينهب كل ما يستطيعه من كونج، لذا فقد أنسحب الى السفينة مع ثمانية من رجاله سواء كانوا خدم أو أقنان، مع اربع خيول وترك في كونج نائب وكيل وكاتب، وأمر وكيله بأن لا يرى رجال الكمارك ولا يتسلم أي شيئ منهم حتى تصلهم أوامر جديدة من الهند»(٢٠)

هـ. تاڤرنيه (ج ب) «الرحلات الست لجون باثبيت تاڤرنيه خلال تركيا الى فارس وشرق الهند» نقله الى الانكليزية ج.ب لندن ١٦٧٨.

TAVERNIER (J.B) THE SIX VOYAGES OF JOHN BAPTIST TAVERNLER THROUGH TURK IN TO PERSIA AND THE EAST- INDES LONDO 1678.

لعام ١٦٣٨ وتكررت في ١٦٤٤، لم نستطع الحصول على النسخة الفرنسية فتمت الاستعانة بالنسخة الانكليزية المترجمة أكد تاڤرنيه في رحلته التي قام بها عام ١٦٣٨ في الجزء الثانى من كتابه نفس ما ذكره الرحالة الفرنسيون السابقون بخصوص أخذ الملك البرتغالي لنصف واردات الضرائب في كمرك كونج(٢١).

وفي الروايات الطريفة في الجزء الرابع من الكتاب أن البرتغاليين بعد احتلالهم هرمز أرسلوا ولدي ملك هرمز الى اسبانيا وهناك عاملهم الملك الاسباني بلطف واعطاهم سكنا لائقا وعمل لهم جوله في اسبانيا وزاروا الاسكوريال وسألهم بعد ذلك عن انطباعاتهم عن هذه الزيارات(٢٢).

وعن المتدخل البرتغالي في شؤون أهل المنطقة يقول تاڤرنيه في الجزء الثاني من رحلاته «عند احتلال البرتغاليين لهرمز ومسقط كانت كل طراده (سفينة) أو بارك تذهب الى الصيد مجبره أن تأخذ منهم اذن مرور ويكلف ذلك خمس عشرة أباس ABASY وكانوا يغرقون كل واحدة لا تحصل منهم على ذلك الاذن، وقد تغير هذا الوضع وضعفت السيطرة البرتغالية بعد أن سيطر العرب على مسقط(٢٣).

وتوجد في الجزء الخامس من رحلات تافرينيه معلومات عن هرمز واحتلالها ودورها التجاري وقت الاحتلال البرتغالي(٢١).

و. مارتن، فرانسوا، مذكرات فرنسوا مارتن مؤسس بوند شيري ١٦٦٥ ــ ١٦٩٤، باريس ١٩٣١ ــ ١٩٣٤، ٣ أجزاء.

MARTIN, FRANGOIS, "MEMOIRES DE FRANCOIS MARTIN FONDATEUR DE PONDCCHERY 1665-1694. 3VOLS, PARIS, 1931-1934.

يعطى مارتن فرنسوا في مذكراته في الجزء الاول (VOL.1) وصفاً حياً لتصدى عرب مسقط للسفن البرتغالية في المياه العربية وفي المحيط الهندي، وذلك من خلال احدى سفراته من سراة الى بندر عباس في مايس ١٦٦٩ فيقول: «انه عندما عبر رأس الحد فأن سفينته تقاطعت مع اسطول مؤلف من اثنتي عشرة الى خمس عشره سفينة، وتلك السفن هي لعرب مسقط مسلحة بأسلحة الحرب من أجل الذهاب لمواجهة اساطيل البرتغاليين الذين هم في حالة حرب معهم، ويوجد بين هذه السفن العربية ما تصل سعته بين ٣٥٠ الى ٥٠٠ طن، وفعلا واجهت سفناً لتجار سراة متعاونيين مع من كانوا يتعاونون مع البرتغاليين ذاهبة الى البصرة وعند ارسائها أمام مسقط سيطر عليها العرب وانزلوا حمولتها وتم تسليحها حربياً وضمت الى سبع أو ثمان سفن صغيرة كانت عائدة لهم.

وبظهور البرتغاليين سواء كان في الهند أو سواحل افريقيا الشرقية عملوا على وضع عقبة أمام النشاط البحري العماني، وشهد النصف الثاني من القرن السابع عشر عرض التنافس الحاد بين الخصمين فتزايدات الصدامات بين البحارة البرتغاليين والعرب، وكان جرأة ومهارة الاخيرين هي الغالبة دائما(٢٥).

ز. كاريه (م.) رحلات جزر الهند الشرقية، باريس ١٦٩٩

CARRE (M.) "VOYAGES DES INDES ORIENTALES PARIS, 1699.

حصلت رحلة كاريه عام ١٦٧١ ويتعرض في رحلته بشكل مقتضب الى سيطرة البرتغالين على هرمز وغزوهم للمناطق الاخرى، ويشير بشكل عابر الى ثورات العرب ضدهم، ويخلص الى ان البرتغاليين لم يتركوا أثراً سوى بعض القلاع والحصون العسكرية التى لا تزال بعض آثارها (عند زيارته) لها باقية(٢٦).

ح. كوديرو، قصة الشاه ملك فارس، باريس ١٦٩٦.

GAUDEREAU, RELATION DE LA MORT DE SCHAH SOLEMAN ROI DE PERSE COARONNEMENT DE SULTAN , SONFILS, AVEC PLUSIEURS PARTICULARITES TOUCHANT ETAT PRESENT DES AFFAIRES DE LA PERSE ET LE DETAIL DES CEREMONIES OBSERRUEES A'LA CONSECRATION DE L'EVEQUE DE BABYLONE A'ZUCPHA-LES ISPAHAN, PARIS, 1696.

وصل كوديرو الى فارس عام ١٩٦٤ بصحبة سانسون الى البلاط الفارسي وهناك عرف بمهاجمة عرب مسقط لوكالته البرتغالية في ميناء كونج في شباط عام ١٦٩٥، ويعتبر هذا الحادث علامة على ازدياد وتصاعد القوى العربية البحرية في الخليج حيث كتب سلطان مسقط الى كوديرو رسالة الى الشاه لم يطلق عليه فيها لقب ملك «وحدد في الرسالة ثلاث مطالب: الاول أن يسلمه كل البرتغاليين داخل فارس مع كشف بحساباتهم والثاني تسليمه أحد التجار العرب المشكوك بتجسسه لصالح البرتغاليين والثالث اعطاءه في كونج نفس الامتيازات التي منحها للبرتغاليين (نصف واردات ضرائب الكمارك). وبالمقابل تعهد الامام بتسيير عشرين باخرة لحراسة الخليج»(٢٧).

ولم يكتف امام عمان بالرسالة وانما هدد الشاه الفارسي في حالة عدم استجابة الشاه لهذا الطلب فانه سيقوم بمهاجمة بندر عباس وأحتلالها(٢٨).

٣ ــ المصادر الفرنسية في القرن الثامن عشر:

على الرغم من وجود كتب رحلات فرنسية في القرن الثامن عشر الى تركيا وفارس والهند كرحلة أوثر في تركيا وفارس(٢٩). ورحلات ڤواليت رسول شركة المسيح(٣٠). فأنها لم يتطرقا الى الغزو والاحتلال ونهايته في الخليج العربي.

والكتاب الوحيد المنشور بالفرنسية والمترجم اليها في القرن الثامن عشر ويتطرق بشكل مقتضب لايتعدى بضعة سطور الى البرتغاليين وغزوهم للخليج وطرد العمانيين لهم منه هو كتاب نييور

(C.) "DESCRTION DE L'ARABIE" AMESTERDAM, MDCCLXXIV. «وصف العربية»
CNIEBUHR

فجاء في وصفه عند زيارته لهرمز في عام ١٧٦٥ «ان البرتغاليين احتلوها عام ١٥٠٨، ولا يزال يرى فيها كنيستين بنيتا من قبلهم، وتستخدم أحداهما الان كحانوت، والاخرى يقيم فيها الحاكم، ولكن بعد ١٥٠ سنة من وصولهم الى مسقط طردهم منها العرب ومن كل المنطقة لاحقاً»(٣١).

٤ ــ المصادر الفرنسية في القرن التاسع عشر:

تصاعد اهتمام الفرنسيين بمنطقة الهند والخليج العربي في القرن التاسع عشر وكانت بدايته فترة منافسة بينهم وبين الانكليز لاقامة العلاقات مع قواه المحلية ولاستغلال خيراته، وشهدت كذلك نهاية القرن تزايداً في التنافس الدولي على منطقة الخليج العربي، ومن هذا نرى تزايد الرحلات والكتب الفرنسية كنتيجة لذلك الصراع وتلك المنافسات.

وأهم المصادر الفرنسية في هذا القرن هي:

أ. يأتي مؤلف دوبريه «رحلة في فارس»

DUPER, "VOYAGE EN PERSE", PARIS, 1809. 2.VOLS

تناول الغزو البرتغالي لهرمز في الجزء الثاني VOL.2 ولو بشكل مختصر ونص ما ذكره دوبريه عن ذلك:

«بأن هرمز كانت تقوم بتجارة زاهره وتتمتع بالسلام عندما هاجمها البوكيرك، وطلب من الحاكم العربي فيها دفع الضريبة للملك البرتغالي وأن يكون تابعاً له، فرفض الحاكم العربي هذا الطلب وحصلت معركة بين الاسطولين العربي والبرتغالي المتفوق في كثافته النارية وعلى الرغم من التفوق البرتغالي ظل الحاكم العربي في هرمز ينتهز أي فرصة للتخلص من الحكم الاجنبي»(٣٢).

ولايختلف كثيراً عن المصادر السابقة في ذكر التعاون الانكليزي الفارسي ضد البرتغاليين وأخراجهم من هرمز.

ب ــ كيلان (م.) وثائق عن التاريخ والجغرافية والتجارة لافريقيا الشرقية، الجزء الثاني القسم الاول، باريس، ١٨٥٧.

GUILLAIN (M.) "DOCUMENTS SUR L'HISTOIRE, LA GEOGRAPHIE ET LE COMMERCE DE L'AFRIQUE ORIENTAL" VOL.II, PART 1, PARIS, 1857.

أن مؤلف هذا الكتاب أحد ضباط البحرية الفرنسية الذي زار سلطان مسقط في زنجبار وبعدها زار مناطق الخليج في طريقه الى الهند في نهاية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يبدأ أولا بعرض تاريخي لبداية ظهور الاسطول البرتغالي بقيادة الفونسو البوكيرك في مياه الخليج العربي، ويؤكد حقيقة أن كل المدن البحرية الساحلية كانت تابعة لسلطان هرمز وبعضها كان له فيها حاميات عسكرية ويدير السلطة فيها حكام يتم اختيارهم من قبله.

ثم يشرح استيلاء البوكيرك بشكل متتابع مدن قلهات، قريات، مسقط، صحار، خورفكان، وفرضه على تلك المدن بدفع ضريبة سنوية كما كانت تفعل من قبل مع سلطان هرمز، وبعد ثمان سنوات من بدء الاحتلال البرتغالي حصلت ثورة في هرمز ضد البرتغاليين ويروي كيلان كيفية مواجهتها فيقول «حوصرت الجزيرة من قبل الاميرال البرتغالي في الهند وسقطت بشكل نهائي لسلطة نائب الملك البرتغالي في الهند روم عمانوئيل وأصبحت كل الممتلكات التابعة لهرمز تحت ادارة

المحتلين الجدد»(٣٣).

ويذكر كيلان «ان قلهات، ومسقط، وصحار، عين فيها البرتغاليون وكلاء أهتموا بالمصالح التجارية وبوار دات الكمارك، ولم يكن لهذه المناطق أهمية سياسية لهم حتى بداية القرن السابع عشر، ولذلك لم يحتلوها عسكريا ما عدا مسقط»(٣٤).

ويذهب كيلان بعيداً في المغالاة حين يعتبر مسقط غير مهمة عسكرياً وسياسياً للبرتغاليين فيقول «حتى هذه المدينة (يقصد مسقط) لم يهتم البرتغاليون بوضع دفاعات مهمة عنها الا بعد أن سيطر عليها الاتراك مؤقتا مرتين في عام ١٥٥٢، ١٥٨١، ثم حوصرت من الاسطول التركي بقيادة بيري بريس، والامير باي علي، وفي عام ١٥٨٨ إسترجع نائب الملك البرتغالي مانوئيل دوسوزا كوتينهو الحامية التي لا نزال نلاحظ آثارها الى أيامنا هذه (أيام كيلان)، GUAILLAN»(٣٥).

ويرى كيلان أن طرد البرتغاليين من هرمز أدى الى ضعف قوتهم في الخليج، فركزوا امكانيات فعلهم التي يملكونها في مسقط. ولتأمين الأحتفاظ بهذا المكان الذي يأخذ منه البرتغاليون الكثير من المواد الغذائية ولتزويد اسطولهم بالمؤن، لم يكتفوا بزيادة تحصيناتها بل سعوا (دون جدوى) الى أنشاء علاقات صداقة مع السكان المحليين، وعمل البرتغاليون من جانب آخر على فرض حاميات بالقوة حتى في الاماكن القليلة الاهمية الواقعة على الساحل بين رأس الحد ورأس مسندم وهكذا احتل البرتغاليون خلال هذه الفترة تباعاً كل من مطرح، سيبو، برقة، كلبا، ليبيدا، ديبا، بالاضافة الى حامية قلعة صحار التي كانت مسبقاً بأيديهم منذ عام ١٦١٦(٣٦).

أما الحامية العسكرية البرتغالية في مسقط فيقول عنها: «في مسقط بضعة مئات من البرتغاليين موزعين على حامية معزوله، وكانوا ضعيفين جداً في أخذ زمام الهجوم، وأجبروا بفعل المقاومة العربية أن يبقوا محصورين داخل اسوارهم»(٣٧).

ينتقل كيلان الى المرور سريعاً على عمليات تحرير الساحل العماني من قبل اليعاربة في عهد الامام ناصر بن مرشد فيذكر «لم يبق أياً منهم (البرتغاليون) في عهده داخل اسوار مسقط».

وعند وصول الامام الجديد سلطان بن سيف بن مالك بدأ الحرب ضد المتبقي من المسحيين (كما يسميهم كيلان) وقد سيطر على مسقط ولم يتوقف عن مقاتلتهم على الاراضي وعلى البحر وحرر معظم أجزاء بلاده مدمراً قسماً كبيراً من حصونهم، ودمر الحامية التي كانت في داخل نزوى(٣٨).

وتطرق كيلان الى طرد البرتغاليين من مسقط آخر معاقلهم على ساحل عمان، وانشاء سلطان بن سيف اسطولا بقي فيه الساحل من هجماتهم، ولم يتأخر من أخذ زمام المبادرة في الهجوم على منشآتهم في الهند وساحل افريقيا. ويوضح كيلان أن أمام عمان سلطان بن سيف الثاني «استجابة منه لنداء والتماس مبعوثين من قبل سكان ممباز في سواحل افريقيا لتخليصهم من عبودية البرتغاليين أرسل أسطولا لمحاصرة تلك المدينة»(٣٩) كما قام بتدمير بومباس والعديد من السفن البرتغالية التي يلاقيها في البحر، وفي عهد حكم بلعرب عام ١٧٦٠ قام عرب مسقط بالنزول في ديو(٤٠).

ج ـ كوبينو (الكونت دو) ثلاث سنوات في آسيا، باريس.

GOBINEAU (LE COMNTE DE), TROIS EN ASIE, PARIS.

أن أهم ما جاء في هذا الكتاب عن الغزو البرتغالي للخليج العربي هو شرح لكيفية طرد البرتغاليين من مسقط وفيه تجني كبير على العرب وانحياز واضح الى جانب البرتغاليين ويبرد لهم هزيمتهم فيقول: «باغت العرب البرتغاليين بالهجوم عندما كان العسكر البرتغاليون يحتفلون في أحد أعيادهم الدينية، حيث كانوا قد تركوا مواقعهم وكانوا راكعين أمام مكان الانبثاق (أنبثاق روح الاب الى الابن)»(١).

ويصف كوبينو الكنيسة البرتغالية في مسقط التي زارها أثناء ذهابه في سفاره الى فارس في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر بأنها لاتزال باقية ولكنها قسمت فقط من الداخل وفيها عدد من الفرق، وهي محل سكنى الان لاحد أقارب الامام، ويضيف كوبينو أن البرتغاليين انشأوا مراكز لهم على طول السواحل العربية مثل عدن ومسقط وهرمز(٢).

٢ ــ ريڤواير (دنيس دو) مسقط، بوشير، بصره.

RIVOYRE (DENIS DE), OBOCK, MASCATE, BOUCHIRE, BASSORAH, PARIS, 1883.

أحسن ما يقدمه ريڤواير وصف لبقايا الحامية العسكرية التي بناها البرتغاليون في هرمز عام ١٥١٥ واستخدموها كمكان لحفظ سلاحهم وقد تمت السيطرة عليها من الفرس والانكليز بعد حصار دام شهرين ونصف عام ١٦٢٢ ويقول ريڤواير بأن الحامية تتصف بصفات القلاع المحصنة في القرن السادس عشر، ويلاحظ على الخندق الذي يفصل الجزيرة عن اليابسه بقايا جسر، والجبهة الشرقية من الحامية هي الاكثر تحصيناً، ويدافع عنها بشكل مباشر بثلاثة أبراج لا يقل ارتفاع أي منها عن ١٤ متراً وكانت تحمي القصر (LECHATEAU) الذي كان يشتمل على اقامة وسكن الحاكم والموظفين، وكان المد يغمر الثلاثة أبراج الباقية أما الوجه الغربي للحصن فقد تآكل بقوه بفعل المياه. والان (وقت زيارته) لم يبق من قلعة هرمز التي هجرت بشكل كامل ما يدل على عظمتها سوى عدد من المدافع العاطلة الجاثمة على عجلاتها الغير فاعله(٣).

وعند زيارته لمسقط ورؤيته للحصون والقلاع المهيأة للدفاع والتي بنيت في الجبال لمشرفة على الميناء يطرح التساؤل التالي: كيف سمح جنود البوكيرك لانفسهم أن يطردوا من مكان حصين كمسقط وهم يملكون تلك الوسائل القوية للمقاومة، والنوعية العسكرية والمعرفة الاستراتيجية التي جعلت من أسلحتهم مشهورة وذائعة الصيت بالقياس الى أعدائهم (يقصد عرب عمان) الذين يقلون عنهم في نوعية تسليحهم وسوء تنظيمهم(٤).

وبعد ان ينتقد المصادر التي يصفها بانها بقيت خرساء لتفسير تلك الهزيمة يحاول ريڤواير ويرجعها الى اعتبارات اجتماعية صرفه كما يقول قياساً الى سقوط مستعمراتهم الحالية (في وقته) كل مكان ينزلون فيه تقريباً يتمثل البرتغاليون الجيش الذي يسيطرون عليه ويحتلونه، ولا يقومون مطلقاً برفع وتطوير معنويات أبناء المناطق المحتلة أو تحسين حالتهم الاقتصادية بل على العكس

يذهبون الى حد اعتياد اساليبهم واخلاقهم وأحياناً حتى لغتهم، ووصلوا الى حد الاندماج مع سكان المناطق المفتوحة، وجنودهم عندما تركوا بلادهم كانوا شباب ولبقائهم فترة طويلة في هذه المناطق المحتلة فقد وا ذكرياتهم عن أوروبا دون أن ينتظروا منها موارد أو انتفاعات بل بدؤا يبحثون عن ذلك بأمتزاجهم مع تطلعات وآمال السكان المحليين، ونتج كل ذلك تزاوج وتهجين، وفي نهاية جيلين أو ثلاثة لم تتغير فقط عادات المحتلين بل أخذ لسانهم (لغتهم) تتعرض الى التبديل بل التغير بشكل تام، وحتى لون البشرة تغير ايضاً وسياء وجوههم التي اصبحت قسماتها لا تحتفظ مطلقاً بالجنس الاولي، وبالتأكيد فأن قلب هذا الجيل متأثر شعوره لا يكون مع وطن لا يعرفه مطلقاً.

وفي أيامنا هذه (وقت زيارة ريڤواير) قصة كوا، وموزمبيق على الساحل الغربي لافريقيا، أحسن دليل على هذه التحليل وهو ينطبق أيضاً بدون شك على الغزاة البرتغاليين في مسقط الذين أرتبطوا بعلاقات مع نساء البلد وأنصهروا مع العوائل المحلية ومن هذا الجانب يمكن القول أنهم اصبحوا لا يشكلون سوى شئ واحد ويتوجهون بروح واحدة ويرتبطون بمصالح واحدة وهذا يفسر نهاية الاحداث والثورة التي جرت تباعاً بدون زلزال وضجة في حدود ١٦٤٨ و اخراج البرتغاليين من ذلك الموقع العظيم الهائل(٤٥).

والواقع أن هذا التحليل لا ينطبق على مسقط لان الذين أخرجهم كانت ثورات عرب عمان المتتالية كما لم يظهر أي أثر سواء من ناحية الاسماء أو لون البشرة في مسقط يدلل على اندماج البرتغالين مع السكان العرب الاصليين.

هـ ـ ڤونتانيه (ڤ)، رحله داخل الهندوداخل الخليج من خلال مصر والبحر الاحمر، القسم الاول، ج١، باريس ١٨٤٤.

FONTANIER (V.) "VOYAGE DANS L'INDE ET DANS LE GULFE PAR L'EGYPTE ET LA MER ROUGE" PREMIER PARTIE VOL.1, PARIS 1844.

عندما زار ڤونتانيه هرمز أعطى وصفاً للبيوت المتبقية فيها فذكر «لاحظت بأن أثار السكان الاقدمين التي توضح لحد الان خارطتها مماثلة الى البيوت البرتغالية : صغيرة في بومباس وتشابه بشكل كامل تلك التي في كوا» ويقول ان العمليات التجارية التي كان يقوم بها البرتغاليون في الخليج بأنهم كانوا يبيعون البضائع باستخدامهم فاتورات(٤٦).

٥ ـ المصادر الفرنسية في القرن العشرين:

تتنوع المصادر الفرنسية التي تناولت الغزو البرتغالي للخليج العربي في القرن العشرين، فمنها أطروحات جامعية وأخرى كتب عامة غير أنها جميعاً تناولت الموضوع بشكل ثانوي كما هي الحال مع المصادر في القرون السابقة، وسيتم تناولها حسب قدم سنة طبعها.

أ. روبير (د.) التنافس الانكلو ــ روسي في القرن التاسع عشر في آسيا، باريس١٩٠٨.

ROUIRE (DR.) "LA RIVALITE ANGLO-RUSSE AU XIX' SIECLE EN ASIE" PARIS 1908.

يشير روبير الى أن عرب الخليج كانت لهم الهيمنة الملاحية في المحيط الهندي، وسفنهم تذهب من البصرة ومسقط الى كلكتا وجزر الهند وميلان وزنجبار واضعين افريقيا وآسيا في علاقة تجارية، وقد قاد البرتغاليون ضدهم حرباً شرسه وبدون رحمه(١٧).

ب. هوارت (س ال.)، تاريخ العرب، ج٢، باريس ١٩١٣.

HUART (CL.) "HISTOIRE DES ARABES" T.2, PARIS, 1913

يتناول هوارت دور ناصر بن مرشد في طرد البرتغاليين وسيطرته على جلفار (رأس الخيمة) التي كانت تدافع عنها حامية مشتركة من الفرس والبرتغاليين، ونجح في حصر البرتغاليين في قلاع صحار ومسقط، أما مطرح فقد أجبر العرب الحامية المسيحية فيها بقبول بعض الشروط منها تسليم بعض المراكز العسكرية والتخلي عن التحصينات الخارجية في مسقط، وحرية التجارة على الساحل. وفي النهاية حرر ناصر بن مرشد صحار (عدا القلعة)، وقريات وأكمل ابن عم سلطان بن سيف عمليات التحرير فأخرجهم من مطرح وصحار ومسقط، وعندما يستعرض عملية تحرير مسقط يبدو أنه اعتمد نفس الرواية التي أوردها ريڤواير لكنه يضيف بأن سفينتين برتغاليتين كانتا تتجولان في المناطق الغربية في وقت عملية الهجوم على مسقط وتحريرها صعد اليها البحارة العرب مستخدمين السفن الصغيرة (CANOTS) وأسروا طقمها واستولوا عليها. وبعد هذا الانتصار الذي يسميه هيورات بالهائل لم يخشى سلطان بن سيف من ارسال سفن لمهاجمة الممتلكات البرتغالية في الهند على سواحل كجيرات وديو ورامان وربح غنائم كثيره ومنها يمكن ملاحظة مزهريات الذهب والفضة ويذكر ايضا هيورات العمليات البحرية العمانية في سواحل شرق افريقيا(١٨).

ج. كاجر (فيروز)، سلطنة عمان، باريس ١٩١٤ (في الاصل أطروحة دكتوراه جامعة).

FIROUZ (KAJARE) "LE SULTANAT D'OMAN" PARIS, 1914.

يتناول كاجر بناء القلاع في مسقط من قبل البرتغاليين واستعمالهم القوة في الاحتلال والشروط التي فرضوها على السفن التي تمر بهرز ودور ناصر بن مرشد في التحرير، واكمال سلطان بن سيف لذلك الدور وانهاءه للاحتلال البرتغالي. لكنه يعتمد نفس رواية ريڤواير وهورات في طردهم من مسقط ويذكر أيضاً مهاجمة المستعمرات البرتغالية في غزيرات ودامو وغيرها(١٩).

د. كاميرا (أ.) «البحر الاحمر» الحبشة والجزيرة العربية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، القاهرة.

KAMMERER (A.) "LA MER ROUGE, L'ABYSSINE FT L'ARABIE AUX xvie ET xviie SIECLES" LE CAIRE, MEMXL vii.

يركز كاميرا على المعارك البرتغالية العثمانية البحرية في المياه العربية ويبدأ بيبري ريس الذي جمع من السويس ٣٠ سفينة «كايد والكاليون» وأبحر بأتجاه المحيط الهندي في عام ١٥٥١ وبصحبة قوة مؤثرة تتكون من ١٦٠٠٠ رجل ويشرح فشل العثمانيين بقيادة مراد أمام البرتغاليين في محاولة استرجاع البواخر العثمانية الباقية في البصرة وفوز السفن العثمانية الى وسط الخليج، وأخيرا يذكر المحاولة الثالثة للعثمانيين لانقاذ المتبقي من سفنهم في البصرة(..).

هـ. فاروكي (أ.) تاريخ مملكة هرمز منذ نشأتها، بروكسل ١٩٤٧

FAROUGHY (A.) HISTOIRE DU ROYAUME D'ORMUZ DEPUIS SON ORIGINE-1622, BRUXELLES, 1947. YJNSQU'A SON INCOR- PORATION DANS L'ENPIRE PERSAN DES SEFEVISE

يبين فاروكي أهمية هرمز وموقعها لهيمنتها التجارية على الملاحة في الخليج العربي والمحيط الهندي وكان ذلك بسبب احتلال البرتغاليين لها، فوقع هرمز بين العربية وفارس والاناضول اعطاها أهمية استراتيجية كبيرة، وأقام فيها البرتغاليون قاعدتهم البحرية الرئيسية كما أصبحت المركز الرئيسي لتجارتهم، وهي أيضاً نقطة لشحن البضائع الثمينة. واعتبر البرتغاليون هرمز موضع فخرهم وكبريائهم حتى قالوا في لغتهم «اذا كان العالم حلقة من ذهب فهرمز ماسته» وهكذا الم يكن من قبيل المصادفة اذا اعتبر المؤرخون البرتغاليون هرمز مفتاح المحيط الهندي(٥١).

و. تاد جباكاش (غلام رضا) «مساله جزر البحرين» في الاصل (اطروحة دكتوراه جامعة السوربون)، باريس ١٩٦٠.

TADJBAKHCHE (GHOLAM- REZA) "LA QUSTION A DIS, LES BUHVIEN"THESR POUR LE DOCTORAR D'UNIVERSITE, PAIS, 1960.

ما يخص الغزو البرتغالي في اطروحة (تاد) تناول هرمز واحتلال البرتغاليين لها وادراكهم لاهميتها وينتقل الى الاحتلال البرتغالي للبحرين عام ١٥٢١ بعد الغزو الذي قام به القائد البرتغالي انتونيو كورير ونزوله لاول مرة بالجزيرة، ويرى تاد أن السياسة البرتغالية في هذه المناطق المحتلة قائمة على القوة، وينتقل بعد ذلك الى وصف الاسطول البحري العثماني الذي هاجم البرتغاليين في البحرين عام ١٥٥٩، فتعاون الفرس والبرتغاليون عام ١٦٠٢. وفي النهاية يشير الى طرد البرتغاليين النهائي من الخليج على يد عرب عمان(٥٢).

ز. بياني (كان بابا)، علاقات ايران مع أوروبا الغربية في فترة الصفويين، البرتغال، اسبانيا، انكلترا، وفرنسا، باريس ١٩٣٧. (اطروحة دكتوراه جامعة)

BAYANI (KHAN BABA)" LES RELATIONS DE L'IRAN AVEC L'EUROPE OCCID-ENTAL L'EPOQUE SAFARIDS PORTUGAL, ESPAGNE, ANGLETERRE ET FRANCE " PARIS 1937.

أهم ما يذكره بياني عن توماس باركر مبعوث شركة الهند وشروط الشاه عليه بعد موافقته على بيع الحرير وبعدم ارسال البضاعة عبر الامبراطورية العثمانية، لكن هذه الاتفاقية كانت تحتاج الى موافقة البرتغاليين المسيطرين على مداخل الخليج.(٥٣).

ح. توسان (م.) تاريخ المحيط الهندي، باريس.

TOUSSAINT (M.), HISTOIRE DE L'OCEAN INDIEAU PARIS

يركز توماس على الصدام العثماني البرتغالي في مياه البحر الاحمر والمحيط الهندي والخليج العربي ويعزو هذا المؤلف فشل العثمانين أمام البرتغاليين الى نوعية السفن المستخدمة(٥٤).

ط. كوريل (آن)، لويس الرابع عشر، فارس ومسقط، باريس ١٩٧٧.

KORELL (ANNE) "LOUIS xiv LAPERSE ET MASCATE" PARIS 1977.

ركزت كوريل على سقوط هرمز ودور التعاون الفارسي الانكليزي في ذلك، وحصول الانكليز على مكافأة بأعطائهم وكالة في بندر عباس وبعدها أتفق الفرس مع البرتغاليين عام ١٦٢٩ بالحصول على نصف واردات ضرائب كونج، وتذكره خطأ بأنه عام ١٦٥٢(٥٥).

ي. أوبن (ج) «سفارة كريكوربيرارا فيدالكو الى بلاط شاه سلطان حسين ١٦٩٦ — ١٦٩٧، لشبونه ١٩٧١.

AUBIN (J) L'AMBASSADE DE GREGORIO PEREIRA FIDALGO A'LA COUR DE CHAH SOLTAN- HOSSEN 1696 - 1697, LISBONNE, !#)!.

في مقدمة هذا المصدر يوجه استعراض للظروف التي قادت الى التنازل عن وكالة كونج من الشاه الفارسي الى البرتغاليين وفي متن المصدر التركيز على دور هذا السفير الذي أرسل من قبل نائب الملك البرتغالي لاجل التحالف مع الشاه الفارسي لتدمير مسقط.

ويوضح المصدر ايضا «أن البرتغاليين فقط أصبحوا حلفاء الشاه لان لهم عدو مشترك هو أمام عمان ووافقوا على ارسال اسطول لمهاجمة مسقط مقابل تعويض ومساعدة جيش يعبر الى عمان على سفنهم، هذه المعادلة ظلت بدون تأثير لعدم كفاءة الحكومة الصفوية في جمع الاموال والقوات السكرية اللازمة»(٥٦).

ك. العزاوي (محمد)، المصالح الفرنسية في الخليج العربي بين سنوات ١٨٤٤ . ١٨٩٠، اكس أون بروفانس ١٩٧٧، (دبلوم لشهادة المتديز)

AL- AZZAWI (M.) LES INTERETS FRANGAIS DANS LE GOLFE ARABE DES ANNEES 1844-1890 AIX- EN- PROVENCE. 1977.

يشير بشكل مقتضب الى بداية غزو البرتغاليين للخليج العربي ويذكر في النهاية اسباب تدهور النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ودور عرب عمان في طردهم(٥٧).

ل. خليلي (محمد رضا)، المحيط الهندي، باريس، ١٩٧٨.

D JALILI (M.R.) L'DCEAN INDIE, PARIS, 1978.

يتناول وصول البرتغاليين الى الهند وغزوهم للخليج العربي ويعلقأسباب سقوط الامبراطورية البرتغالية الى ظهور قوى منافسه أوروبية أخرى وقوى محلية، ويذكر انهم فتحوا في وقت متأخر وكالات في بندر عباس والبصرة(٥٨).

م. AL-SABAH (SALEM AL - JABIR), LES EMIRATS DUGOLFE, PAROS, 1980

الصباح (سالم الجابر) امارات الخليج، باريس ١٩٨٠ أطروحة دكتوراه.

أهم ما جاء به هذا المصدر عن الغزو البرتغالي أشارته الى انهم مارسوا الهيمنة فيه نظرياً وعملياً بانشائهم القلاع الصغيرة ويعزو اسباب ضعفهم الى اتحادهم مع العرش الاسباني وظهور منافسين أوروبيين جدد كالهولنديين والانكليز(٥٩).

ن. الغزواوي (محمد) التنافس الفرنسي ــ البريطاني في الخليج العربي ١٧٩٣ ــ ١٨٦٢، ج١، اكس اون بروفانس، فرنسا، ١٩٨٥، أطروحة دكتوراه دولة غير منشوره.

AL-AZZAWI (M.), LARIVALITE FRANCO- BRITANNIQE DANS LE GOLEE ARABF 1793- 1862, vol.1, AIX- EN PROVENCE FRANCE, 1985.

أهم ما فيه اشارة الى المصادمات التي وقعت بين غرب مسقط والبرتغاليين في الفترة بين ١٦٩٣ــ ١٦٩٨ والتي تمكن العمانيون من هزيمتهم فيها في مواقع رئيسية متعددة ومهاجمة اسطول عماني ضخم في ١٦٩٢ ــ ١٧١١ يضم خمس سفن عمانية وعلى ظهورها ١٥٠٠ رجل حيث كان مركز البرتغاليين ونجح اسطول مسقط في تحطيم المركز ومن ثم يتطرق الى استعداد البرتغاليين لمساعدة الفرس بحرياً ضد مسقط مقابل جزء من التعويضات، وكان هذا التحالف أحد الاسباب التي دفعت امام مسقط الى مهاجمة البرتغاليين في الهند وشرق افريقيا(٦٠).

ص. الحلو، صادق، اوروبا والمشاكل البحرية في الخليج العربي بين ١٧٨٩ . ١٨٥٧، ج١ اكس أون بروفانس ١٩٨٤ اطروحة دكتوراه دولة غير منشور.

AL- HILO (SADJK) L'EUROPE ET LES PROBLEMES MARITIMES DU GOLFE ARABE DU 1789- 1857. vol.1, THESE DU DOCTORAT D'ETAT, AIX- EN- PROVENCE 1984, FRANCE.

يتناول الغزو البرتغالي للخليج ومراحله، وعمل البوكيرك على تدمير التجارة العربية والسفن العربية، ثم يستعرض الثورات العربية المتتابعة للتصدى للغزو البرتغالي خلال القرن السادس عشر، ويذكر المحاولات العثمانية لمواجهة البرتغاليين وأخيرا اليعاربة في طردهم نهائيا من الخليج العربي(٦١).

٦ ــ الدوريات الفرنسية والغزو البرتغالي للخليج العربي:

توجد دوريات قليلة تعرضت للغزو البرتغالي للخليج العربي وأهمها الاتي:

أ. باڤي (ت)، البحاره العرب والهندوس، مجلة العالم، الجزء ٤، باريس ١٨٤٣.

PAVIE (TH,) LA MARINE DES ARABES ET DES HINDOUS, REVUE DES DEUX MONDES, vol. 4. PAIS 1843.

يوضح هذا المقال السياسة البرتغالية البحرية تجاه القوى العربية البحرية فيذكر كاتب المقال أن البرتغاليين «من أجل القضاء الى الحد الاعلى على الامكانية البحرية العربية، دمر البوكرك بانتظام كل الاساطيل (العربية) التي يجدها حول هذا الحوض (الخليج العربي) حتى تلك التي لم يصدر عنها أية مقاومة»(٦٢).

ب. كاميرار (أ.) البرتغاليون في البحر الاحمر والحبشة، مجلة تاريخ الدبلوماسية، تموز أيلول ١٩٣٤، باريس ١٩٣٤.

KAMMERER (A.) LES PORTUGAIS DANS LA MER ROUGE ET EN ABYSSINIE, REVUE D'HISTOIRE DIPLOMATIQU, JUILLET-SEPTMBER, 1934, PARIS, 1934

يرد في هذا المصدر السياسة البرتغالية تجاه الطرق التجارية العربية حيث يذكر «أن المحتلين البرتغاليين قطعوا التجارة العربية سواء في البحر الاحمر أو الخليج بسد المنفذين قناة السويس وطريق السفرات»(٦٣).

ج. كير مادل (ب) الخليج، مجلة البحرية، العدد ١٠٠، باريس ١٩٥٩

KER MDEL (B.), LE GOLFE, REVUEDF LA MARINE INO 100 PARIS, 1959

يتعرض المقال الى تحليل اسباب تدهور الاحتلال البرتغالي للخليج ويرجع قسما من الاسباب الى اندماجهم مع العرش الاسباني(٦٤).

تلك هي لمحة عن المصادر الفرنسية



الهوامش والمصادر

1. Pre'cis des relations entre la France et la perse 1605 a' 1824, Archives Du ministe're des affaires 'etrangeres, Memore et Documents, perse (154) 1839 vol.8 p. 8
2. Philippe (Du. R . p) "voyage d' orient", PARIS, 1652, p. 47.
3. Philippe (Du R. P.) op. cit, p.49
4. Philippe (Du. R. P.) op. cit, p. 80
5. Ibid. p. 97
6. Ibid. p. 277
7. Le p. Raphael du Mans, "Estat de la perse en 1660 "avec un introduction p. XXI
8. Ibid, p. XXV.
9. Ibid, p. XXVII.
10. Ibid, p. XXVIV.
11. Ibid, p. XXXI.
12. Ibid, p. XXXV.
13. Ibid, p. XXXVI.
14. Ibid, p. 323
15. Ibid, p. 326
16. Thomas (Herbert), Relation du voyage de perse et des Indes orientales, "paris, 1663 p. 190
17. Thevenot (De. 1. "voyages de Mr. Thevenot," paris, 1689, vol. 2, p. 480
18. Thevenot (De.) op. cit, vol. 4. p. 618
19. Thevenot (De.) op. cit, vol. 4. p. 625
20. Ibid, p. 632
21. Tavernoet (J.B),"The six voyages of John Baptist Tavernier through turk into persia and the EAST - INDES, loulou 1678, vol. 2. p. 94
22. Taverier (J.B), op. cit, vol.5 p. 255
23. Ibid. vol. 2. p. 255
24. Ibid. vol. 5. 280
25. MARTIN (Francois), "Memoires de Francois martin fondateur de pondichery 1665 - 1694", vol. 1., p.201
26. Carre (M.), "voyages des Indes orientales", Paris, 1699, pp. 125 - 131
27. Ganderean, "Relation de la mort de schah soleman ro, de perse pt du loaronnement de sultan ussain, sonfils avec plusieurs particularites touchant etat present des affaires de la perse et la detail des ceremonies observiss a' la conseration de levegue de Babylone a Zucpha - les Isphan, "paris, 1696. p. 71
28. Ganderean (m.), op. cit, p. 88 - 89
29. Otter (m. 1, "voyage en Turquie ct en perse "2. vols. paris.
30. voillotte (Jacques), "Voyages d'vn missionaire de la compagnie de jesus" paris,
31. Niebuttr (c),"Description de l'Arabie" Amesterdam, MDccl XXIV, p. 257
32. Dupre', "voyage en perse, "Paris, 1809, vol. 1. p. 207
33. Guillain (M.)", Documents sur l' histoire, la Geographic ct le commerce de l' Afrique oriental ", vol. 2., part paris, 1857, p. 499
34. Civilian op. cit, vol.2 part 1 p. 502
35. Ibid p. 503

36. Ibid p. 505
37. Ibid p. 512
38. Ibid p. 514
39. Ibid p. 516
40. Ibid p. 519
41. Gobinean (le comute de), "Tvois ans en Asie "paris, p. 99 - 100
42. Gobinean (le. comutel, op. cit, P
43. Rivogre (Denis de), "obock, Mascate Bouchire, Bassorah, "paris, 1883, P. 111
44. Rivoyre (Denisde, op. cit, p. 108 - 109)·
45. Ibid., p. 109
46. Fontanier (v.), "voyages dans l' inde et dans le Gulfe por l' egypte et lamer Rouge", premier partie, vol. 1, paris, 1844, p. 146
47. Rouire (Dr.), "lavivalite Anglo - Russe an XIX e siede en Aise", paris, 1908, pp.13-14
48. Huart (cl.) "Histoire des Arabes, T. 2., paris, 1913. pp. 262 - 263
49. Kajare (Firoz), "le sultanat d' ouran" paris, 1914., pp. 54 - 61
50. Kammerer (A.) "la mer Rouge, L' Abyssir et Arabic an XVI e ct XVII e sicdes" U caire MCMxl VII, p.p. 90 - 92
51. Faroughy (A) Histoire du royamme d' ormuz Depuis son origines jusqua' son incorporation dans l'empire persan des sefrvise 1622, Bruxelles, 1947 p. to
52. Tadjdakhihe (Gholam - rela)" laquestion des les Bahrien "These des doctorat University paris, 1960. p.p. 26 - 39
53. Bayani (Khan Baba) "les relations de l'tran avec l'Europe oceidental a lepoque safavids, portugal, fspague Anyleterreet France", paris, 1937, p. 14
54. Toussaiut (m) "Histoire de l'olean indiean, "paris. p.p. 108 - 109
55. Korell (Anne), "Louis XIV la perse et mascate "paris 1977 pp. 3 - 10
56. Aubin (J), "laambassade de aregorib pereira Fidalgo a'la cour de chih Soltan -Hoyssen 1696 - 1697, Lissbonne, 1971, pp 23 - 24
57. Al Azzawi (M "Lesinterets Francis dans le golfe Arabe des annees 1844 - 1890 Aix -enprovente, 1977. memoir du metrise vu public p.-2
58. Djalili (Mohamed - Reza), "l'olean Indian " paris, 1978, p.21
59. AL SABAH (Salem Al Jabir), "les Emirates du Golfe "paris, 1980, Ture du doctorat de 31 siocl vu public p. 22
60. Al Azzawi (M), "larivalite Franco Britanique dans le Golfe Arabe 1793 - 1862 These du doctorat d' steat public, aixen provenco 1985, pp. 68 - 71
61. Al - Hilo (Sadik), L'EUROPE et les problemes maritimes Du Golfe Arabe Du 1789 - 1857, vol. 1 T nese du Ductorat d' flat, un public a'l' unversite d' Aix - en province, france, 1984 pp. 55 - 63
62. Parie (Th.I, "lamarine des Arabes et des Hindous, "Revenue des darxmondes vol. 4. paris 1843 p. 576
63. Kamerer (A), 'les portugais dans Lamer Rouge et enabyssinic "Revne d' histoire diplomatiques (1) millet September 1934, paris 1934. p. 4
64. Kernadel (B), 'le Golfe "Revne dela marine No. 100 paris, 1959 p. 999



دراسة في الوثائق والمصادر المنشورة عن الغزو البرتغالي والسيطرة البرتغالية في الخليج العربي

الدكتور طارق نافع الحمداني
جامعة بغداد/ كلية التربية

لقد انكشف جزء غير يسير من تاريخ الخليج العربي في مطلع العصور الحديثة، وبالذات الفترة التي اعقبت الغزو البرتغالي للمياه العربية، بيد أن جزءا آخر غير قليل ما يزال غامضا ويحتاج الى تسليط الضوء عليه. ومن المعروف ان عددا كبيرا من الباحثين اعتمد الى حد ما في دراسة تاريخ هذه المنطقة على المؤلفات الاجنبية اكثر من اعتمادهم على المؤلفات العربية المحلية التي أما انها كانت قليلة أو انها وقفت صامتة امام احداث هذا الغزو ــ كالمصادر العمانية مثلا. وعلى اية حال، فان استقصاء هذه المؤلفات، اجنبية أم عربية، ستعين الباحث على دراسة تاريخ الخليج العربي بصورة افضل، وهو ما سنقوم به في هذه الدراسة، التي تهدف اساسا الى التعريف بالمصادر التى لها علاقة وثقى باحداث الغزو البرتغالي في المنطقة ودراستها.

قسمت هذه الدراسة على عدة أقسام، يشمل القسم الاول منها حصر الوثائق المنشورة ــ وبالذات البرتغالية والعثمانية والانكليزية. وقد سهل مهمتنا في هذا المجال اقدام كثير من مراكز الدراسات في اقطار الخليج العربي على نشر مثل هذه الوثائق. تتطرق بعدها الدراسة الى التعريف بالمصادر الاجنبية والعربية المعاصرة أو القريبة من احداث الغزو البرتغالي للخليج، من خلال اعطاء صورة عامة عن هذه المصادر، ثم اولت الدراسة اهتماما مماثلا بالمراجع والبحوث ذات الصلة بالموضوع اجنبية كانت أو عربية.

الوثائق البرتغالية المنشورة:

١ ــ تاريخ الخليج العربي في الوثائق البرتغالية، فصول مترجمة من كتاب جوادي باروس (عن آسيا)، أصدرته لجنة وثائق الخليج العربي.

يتحدث هذا الكتاب عن وصول البرتغاليين الى الخليج، وتعرضهم للموانئ الواقعة على شاطئه، كما يتطرق الى وصول العثمانيين الى المنطقة وحملاتهم البحرية في منتصف القرن السادس عشر. بيد أنه من الملاحظ أن الكتاب فيه روح تعصبية ظاهرة، إذ يجد فيه القارئ تبرير واضح لكل ما ارتكبه البرتغاليون من اعمال وتخريب وتدمير في موانئ الخليج بعد وصولهم اليه. ولذلك فن الضرورى ان نتذكر عند قراءتنا لهذا الكتاب ــ كما يقول بكنجام ــ الاسباب التي دفعت مؤلفه للكتابة والافكار والافتراضات التي طرحها في عمله(١).

ومع ذلك فالكتاب له فائدة كبيرة جداً في دراسة تاريخ المنطقة واستقصاء كثير من المعلومات عنها، بخاصة وانه ليس هناك روايات عربية معاصرة معروفة عما نعتمد في تدوين احداث الغزو البرتغالي للخليج ومراحله المختلفة.

٢ــ مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الاحمر والخليج العربي وما تولد عنه من ردود فعل.

قام الدكتور احمد بوشرب في هذا البحث بجمع كثير من الرسائل والمعاهدات المحفوظة في الارشيف الوطني البرتغالي، والمتعلقة بمراحل الغزو والسيطرة البرتغالية على الخليج العربي، وفيها معلومات عن تعسف المسؤولين البرتغاليين وطغيانهم في المنطقة وردود الفعل التي تولدت عن ذلك بين سكان البلاد. وتسمح هذه الرسائل ايضا بدراسة المخططات البرتغالية لاغلاق الخليج العربي بوجه الملاحة العربية، فضلا عن الدوافع المختلفة التي حدت بالبرتغاليين لاكتساح مناطق الوطن العربي. سياسية واقتصادية ودينية.

وعلى الرغم مما تحمله هذه الوثائق من وجهات نظر موالية للبرتغاليين فان بالمستطاع اعتمادها لسد الكثير من الثغرات التي تركتها المصادر العربية اذا ما استخدمت بشئ من الحيطة والحذر.

ومن الجدير بالذكر ان الدكتور بوشرب قد نشر هذه الوثائق عدة مرات، اذ ظهرت لاول مرة في (مجلة المناهل) (المغربية) العدد السادس والعشرين، السنة العاشرة (مارس ١٩٨٣) ص ٣٢ ــ ٨٣. وظهرت للمرة اثانية في مجلة (الخليج العربي) التي تصدر عن مركز دراسات الخليج العربي

بجامعة البصرة، المجلد السادس عشر العدد١ (١٩٨٤) ص ٣١ ــ ٤٦. واخيرا قامت مجلة الوثيقة البحرانية بنشرها في عددها العاشر، السنة الخامسة (يناير ١٩٨٧) ص ١٤٤ ــ ١٨١.

٣ ــ مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الاول من القرن السادس عشر «نشره الدكتور احمد بو شرب في مجلة الوثيقة، العدد الرابع، السنة الثانية (يناير ١٩٨٤) ص١١٨ ــ ١٤٠.

يتطرق هذا البحث الى أوضاع الخليج العربي في النصف الاول من القرن السادس عشر، بخاصة البحرين والقطيف والاحساء. ولكن اهمية البحث الفعلية تكمن في الملاحق الثلاثة التي وردت فيه: فالملحق الاول هو بعنوان (حملة برتغالية ضد البحرين من خلال رسالة لوالي هرمز ١٥٢٩)، والملحق الثاني (رسالة من الرئيس ركن الدين، وزير هرمز الاول الى الرئيس شرف، وزير هرمز المعزول حول محاولات ملك الاحساء السيطرة على البحرين والقطيف والبصرة)، والملحق الثالث (رسالة من برنالدودو سوزا الى الملك البرتغالي حول هجوم برتغالي على الخليج العربي ١٥٤٥).

والحقيقة ان هذه الملاحق الوثائقية تسلط بعض الضوء على المحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة على مناطق الخليج العربي، والاهم من ذلك احتوائها على معلومات تتعلق بالقوى العربية المحلية الموجودة في المنطقة ودورها في مقاومة البرتغاليين، كما هو الحال بالنسبة لآل مغامس ــ حكام البصرة.

٤ ــ الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي (١٥٣٤ ــ ١٥٨١) تأليف صالح اوزبران، ترجمة الدكتور عبد الجبار ناجي، نشر مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة (مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٧٩).

لاتكمن اهمية هذا الكتاب في المعلومات القليلة التي نشرها الباحث ملخصا لاطروحة الدكتوراه المقدمة الى مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن عام ١٩٦٩، والمتعلقة بالصراع العثماني ــ البرتغالي في الخليج العربي، التي قد تكون اكثرها معروفةللباحثين المختصين بتاريخ المنطقة، ولكن في الملاحق التي اوردها المؤلف وهي عبارة عن ترجمة لرسائل برتغالية مهمة تحتاج لدراسة تفصيلية لالقاء الضوء على منطقة الخليج العربي آنذاك.

فالملحق الاول هو (رسالة من دوم مانوئيل دي ليما حاكم هرمز الى د. جواو دي كاسترو حاكم الهند، هرمز في ٢٣ حزيران ١٥٤٧). هذه الرسالة تتضمن معلومات قيمة عن تحركات البرتغاليين في الخليج، ومراقبتهم لتحركات العثمانيين وقوتهم في المنطقة وبعض الجهود العثمانية الرامية الى اقامة

نوع من التقارب الودي مع البرتغاليين، وذلك من خلال ايفادهم للتاجر العربي الحاج فياض ومعه رسالة الى الحاكم البرتغالي في هرمز دي ليما، وقد اوضحت هذه الرسالة نوايا السلطان العثماني في استمرار حركة التجارة عبر الخليج العربي.

واما الملحق الثاني (ص٧٦ ــ ٨٠)، فهو عبارة عن رسالة مكتوبة في هرمز في ٣٠ اكتوبر ١٥٥٢، وفيها تفصيلات عن كيفية محاصرة الاتراك العثمانيين لهذه المدينة. واما الملحق الثالث ففيه «رسالتان من دوم نورونها في هرمز حول النشاطات التركية على طول ساحل الجزيرة العربية. وفي هاتين الرسالتين يظهر لنا بوضوح طبيعة التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري للمحيط الهندي والخليج العربي في القرن السادس عشر، وطبيعة الاهتمام الشديد للبرتغاليين والعثمانيين بتلك الاجزاء التي كان يصل عن طريقها المواد والبضائع الاسيوية الى سواحل البحر المتوسط.

الوثائق التركية المنشورة:

مازالت الوثائق التركية المنشورة عن الخليج العربي واحداث المجابهة البرتغالية ــ العثمانية فيه قليلة جدا ولاتفي بالمراد. ولعل مما له علاقة بهذا الموضوع ما نشره الدكتور احمد فؤاد متولي بعنوان (البحرية العثمانية والبرتغالية في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي على ضوء الوثائق التركية)، في (مجلة كلية العلوم الاجتماعية (السعودية)) ١٩٨٠. ولكن يظهر ان البحث يحمل عنوانا اكبر بكثير مما هو في المتن، لكونه لا يحتوى على مادة غزيرة تتعلق بالخليج،وليس فيه غير وثيقتين مترجمتين الى العربية موجهتين الى سيدي على الريس لقيادة الاسطول العثماني،وما عدا ذلك فان البحث لا يتضمن مادة جديدة.

وهناك ايضا التقرير الذي اعده البروفسور ى. اورهونلو بالتركية وترجمه الى العربية الدكتور حسين علي الداقوقي بعنوان (تقرير حول الحملة العثمانية على البحرين سنة ١٥٥٩) ونشرته (مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية) العدد الرابع والعشرين، السنة السادسة (تشرين اول، ١٩٨٠). وهذا التقرير كتبه شخص شارك في هذه الحملة العثمانية، وهو يلقي ضوءا على بداية الحملة واسبابها والجهود البرتغالية المضادة لابعاد العثمانيين عن البحرين.

وقد نشرت مجلة (الوثيقة) البحرينية ايضا في عددها الاول السنة الاولى (يوليو ١٩٨٢) ص١٤٩ نص الوثيقة العثمانية الموجهة الى مراد شاه حاكم البحرين في ٢٨ ذي الحجة ٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م، تعلمه بعدم رضى السلطات العثمانية بقيادة مصطفى باشا حاكم الاحساء بمحاصرة البحرين دون اذن منها، فاتخذت بعض الاجراءات ضده حيث تقرر طرده وتعيين شخص اخر محله حتى لا يتمكن

البرتغاليون من الحاق ضرر بتلك الاقاليم.

وتعد اطروحة الدكتور سي. ايج. انبر C.H. Imber المعنونة: ادارة البحرية العثمانية خلال حكم السلطان سليمان الاول ١٥٢٠ ـــ ١٥٦٦. التي قدمها لجامعة كمبردج عام ١٩٧٠، من اكثر المصادر صلة بموضوع الصراع العثماني ـــ البرتغالي في الخليج العربي خلال القرن السادس عشر. ذلك لان هذه الاطروحة قد كرست اصلا لترجمة الوثائق العثمانية حول الموضوع والموجودة في دور الوثائق العثمانية، ومن هنا تكمن اهمية هذه الاطروحة. فمثلا قام هذا الباحث بترجمة كافة الاوامر الصادرة الى الولاة العثمانيين في البصرة، والمتعلقة باتخاذ كافة الاستعدادات المادية والعسكرية ـــ لمواجهة البرتغاليين في الخليج (انظر على سبيل المثال وثيقة رقم ٧٧ ـــ ٨١ في ص٩٤ ـــ ٩٨).

الوثائق الانكليزية المنشورة:

تعد الوثائق التي نشرها وليم فوستر في مطلع القرن العشرين بعنوان الوكالات الانكليزية، التي ظهرت بثلاثة عشر مجلدا وتغطي الفترة من ١٦١٨ . ١٦٦٩ من ابرز الوثائق الانكليزية المنشورة التي تلقي اضواء مهمة على النشاطات البرتغالية المختلفة في الخليج خلال القرن السابع عشر. وعملية التنافس التي حصلت بين البرتغالين من جهة والقوى الاوروبية الاخرى التي وصلت المنطقة من جهة اخرى. وهي في الوقت نفسه من اهم المصار عن تنامي المقاومة العربية العمانية التي تمت على يدها نهاية النفوذ البرتغالي في الخليج في منتصف القرن السابع عشر. وعن طريقها يمكن مقارنة النصوص الاجنبية بالنصوص العربية العمانية التي بدأت ترد باسباب. وبدون شك فان هذه الوثائق قد افادت الباحثين كثيرا في تخفيف الصعوبات التي يواجهونها في مراجعة السجلات الرئيسية لشركة الهند الشرقية. وهي بحق معين لاينضب من المعلومات عن القرن السابع عشر.

ومما يتمم هذه المجموعة الوثائقية المهمة ما نشره كل من نويل سينس بيري بعنوان: East Lndies, China and Persia وسلدان Setedtions، اذ تعد هاتان المجموعتان قيمة جدا لدراسة النشاط البرتغالي في الخليج العربي خلال القرن السابع عشر، من حيث علاقته بالقوى المحلية والاجنبية.

ومن المصادر الوثائقية الهامة ايضا «حوليات شركة الهند الشرقية» التي صنفها جون بروس. وتعد هذه المجموعة ذات صلة وثيقة بتاريخ الخليج، ذلك لانها حولت كثيرا من المعلومات عن توسع البرتغاليين وغزوهم لهذه المنطقة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وذلك بالاعتماد على رسائل شركة الهند الشرقية الانكليزية.

ومن ضمن تلك الوثائق الانكليزية المنشورة المهمة (حوليات الاباء الكرمليين في فارس). تلك الوثائق التي نشرت غفلا، ولكنها تحتوي على الكثير من الموضوعات التي لها علاقة وثيقة بوضع البرتغاليين في الخليج وانحدار نفوذهم فيه بفضل تنامي ثورة عمان وازدهارها، حيث يجب عدم

اغفالها من قبل اي مؤرخ يهتم بتاريخ هذه المنطقة واحداثها انذاك.

المصادر البرتغالية والمصادر الاخرى:

تشكل المصادر الاجنبية ـــ وبخاصة البرتغالية ـــ العمود الفقرى لدراسة تاريخ الغزو والسيطرة البرتغالية في الخليج العربي، ذلك لانه في الوقت الذي انعدمت فيه المعلومات عن احداث الغزو البرتغالي للمنطقة بخاصة في المصادر العمانية، فان الباحث لايجد بديلا عن هذه المصادر سواء ما كان منها بشكل مذكرات أو رحلات أو كتب اصلية مستندة على هذا وذاك.

تأتي مذكرات أو «تعليات» الفونسو دي البوكيرك التي نشرت في اربعة أجزاء بعنوان Dalboqerque Portugue في مقدمة الكتب البرتغالية ذات الصلة باحداث الغزو البرتغالي. ومن الواضح فان هذه المذكرات تحمل روح المبالغة في اظهار افضال ابطالها فهي تشهد بالانتصارات الكبيرة والاحداث الضخمة التي قام بها البرتغاليون في الشرق، وتتضمن حكايات عن حالات الحصار والمعارك وذبح (الاعداء). ويمكن للمرء ان يعدد الكثير من الامثلة على ذلك، بيد ان موقف البوكيرك الساحلية يكشف عما كان يحدث بوجه خاص. اذ لم يكتف البوكيرك عند مهاجمته لبلدة خورفكان ونهبها، بل انه قام بنفس ما كان يقوم به في المدن العمانية الاخرى في قطع اذان السكان وانوفهم، وهو عمل يحمل روح القسوة والتعصب لدى البرتغاليين تجاه سكان المنطقة(٢).

وعلى أيه حال، فان هذه (المذكرات) لاتخلو من الفائدة الكبيرة في معلوماتها عن منطقة الخليج العربي وسكانها اذ نجد فيها وصفا مسهبا لمعظم المدن الواقعة على الساحل.

ومن الكتب الاساسية التي الفها البرتغاليون في النصف الاول من القرن السادس عشر وفيها وصفا مفصلا للبلدان المطلة على المحيط الهندي والخليج العربي، فضلا عن القائها الضوء على احداث الغزو البرتغالي المبكرة، كتابا تومي بيريز ودوراتي باربوسا فالكتاب الاول الموسوم: (سوما اورينتال) لا يتضمن الا القليل من المعلومات عن الخليج العربي، بل ان معلوماته عن هذا الجانب جاءت مخيبة للامال. اما كتاب باربوسا المعنون: Bordering Portuguese Mansul فانه ذات قيمة كبيرة، ذلك لانه يجمع بين الخبرة الشخصية الطويلة في الشرق وبين كثير من الملاحظات الدقيقة. لقد وصف باربوسا عددا كبيرا من مدن الخليج العربي، على الساحلين الشرقي والغربي، وكانت اوصافه غاية في الاهمية لانها عرفتنا باوضاع تلك المدن في الفترة المبكرة من القرن السادس عشر. الا ان المؤلف يظهر تعصبا سياسيا للبرتغالبين عندما يتحدث عن مواقفهم السياسية المتطرفة تجاه سكان المنطقة.

وهنا لابد من الاشارة الى كتاب اخر مهم بعنوان (اسباني في جزر الهند الشرقية البرتغالية A Spainard Portugnese Untversity Massachusetts لمؤلفه مارتن فرناندز فيكارو (فيغارو) الذي نشره جميس مكينا كمبردج ماساجوسيتس ١٩٦٧.

ويعد هذا الكتاب من المصادر المهمة عن العقدين الاولين من القرن السادس عشر. ذلك لان معلوماته تكمل (تعليقات البوكيرك و(كتاب باربوسا). وفي الكتاب نجد الاشارة الى حالة الرعب التي اثارها البرتغاليون بين السكان عند دخولهم الى مدن الخليج العربي ــ بخاصة المدن العمانية، فضلا عن رغبتهم الفعلية في السيطرة عليها لما كانت عليه هذه المدن من غنى في ثرواتها ومواردها (انظر على سبيل المثال ص٨١ ــ ٨٧).

وحتى الان لم اقل شيئا عن اهم مصدر برتغالي نشر حتى الان يتعلق بالعقود الاولى من القرن السابع عشر ذلك هو كتاب روي فريرٍ اندرادي المعروف ب (التعليقات): Boxer

وتعود اهمية هذا الكتاب لان مؤلفه كان ممن تولوا عدة مناصب في الاساطيل البرتغالية وقيادتها، كما عهدت اليها مهمة قيادة الحملة البحرية البرتغالية الى الخليج العربي عام ١٦١٩. وفي خلال وجوده هناك اتخذ مسقط مقرا لقيادته فاستعاد كلا من صحار ودبي وخورفكان وغيرها من الاماكن التي كانت تحتلها حاميات من الفرس. كما قام بعدة غارات على الساحل الغربي للخليج العربي عرف من خلالها بحماسته ومقدرته الحربية، لكنه من الناحية الاخرى كان معروفا بالعنف والقسوة وقد اكسبته الاعمال والفضائح التي ارتكبها في الخليج على مدى فترة تصل الى ثلاثة عشر عاما (١٦١٩ ــ ١٦٤٢)، اكسبته شهرة دائمة وسمعة سيئة(٣).

وعلى ايه حال، فان الكتاب يعطينا معلومات مفصلة عن العمليات الحربية البرتغالية في منطقة الخليج العربي انذاك وعن موقف القوى المحلية من البرتغاليين.

ومن المصادر المهمة في تاريخ الغزو البرتغالي كتاب المؤرخ البرتغالي فاريا سوسا المعروف ب (اسيا البرتغالية Portugnese وقد ترجم جون سيفن هذا الكتاب الى اللغة الانكليزية ونشر في لندن عام ١٦٩٥.

يقع الكتاب في ثلاثة اجزاء، يحتوي على تاريخ مفصل للنفوذ البرتغالي في الخليج العربي والمحيط الهندي وجنوب الجزيرة العربية والبحر الاحمر، بيد ان مما يؤخذ على فاريا سوسا تعصبه الشديد للبرتغاليين وروحه الحاقدة ضد المسلمين، لذلك نجده يميل الى المبالغة في تصوير عدد القتلى من المسلمين في المعارك التي جرت ضد البرتغاليين، وتصوير عمليات الارهاب والوحشية اثناء غزو البرتغاليين للخليج على انها من اعمال البطولة البرتغالية، لذا يجب ان تؤخذ رواياته بحذر شديد، ومقابلتها مع الروايات الاخرى المعاصرة.

والى جانب هذه المجموعة من كتب المذكرات (او العمليات) والكتب البرتغالية الاصلية تبرز كتب الرحلات البرتغالية حيث تعد رحلة بيدور تكسيرا الى الخليج عام ١٦٠٤ من اهمها وهي بعنوان: Pedro ورحلة مانويل غوديبهو الموسومة ب: Manuel took والتي نجد لها ملخصا بالانكليزية نشره ويفيد لي ١٦٦٣ في كتابه:

والرحلتان ذات فائدة كبيرة عن الخليج العربي ذلك لانها تشيران الى عوامل ضعف النفوذ

البرتغالي في المنطقة، وتحذران من وصول القوى الاوروبية الاخرى، واعتزامها انهاء الوجود البرتغالي في الشرق.

وبهمنا في هذا المكان ان نشير بوجه خاص الى رحلة الايطالي بترو ديلا فال المعروفة ب

وترجع اهمية هذه الرحلة لانها الفت في نفس الفترة التي الفت فيها مذكرات القائد البرتغالي روي فريير اندرادي، ولهذا فان بالامكان استخدامها وسيلة للتحقيق في المعلومات التي ذكرها اندرادي، تلك المعلومات التي تطغى عليها صفة المبالغة عن انتصارات البرتغاليين واعمالهم الوحشية تجاه سكان الخليج العربي.

المصادر التركية والمصادر العربية:

لم يكن القادة البحريون البرتغاليون الوحيدون الذين تركوا مذكرات عن اعمالهم الحربية ــ البحرية في الخليج العربي كما هو الحال في مذكرات البوكيرك واندرادي، ولكننا نجد مثل هذه المذكرات لدى بعض القادة البحريين والعثمانيين مثال سيدي علي ريس، الذي عهدت اليه قيادة الاسطول العثماني عام ٩٦٠/١٥٥٣، وكان عليه ان يقوم بتخليص السفن العثمانية الراسية في البصرة وايصالها الى مصر. وقد قبل سيدي على هذه المهمة فتوجه الى البصرة عن طريق حلب وبغداد فوصلها في اليوم الاخير من صفر ٩٦١/ الثالث من شباط عام ١٥٥٤، وشرع باصلاح السفن العثمانية للعودة الى مصر. ولكن في طريق العودة التق بالاساطيل البرتغالية في الخليج العربي ودارت بينهما عمليات بحرية متعددة وكانت النتيجة ان لاقى الاسطول العثماني الهزيمة على يد البرتغاليين واندفعت السفن العثمانية المتبقية بفعل الرياح المعاكسة الى سواحل الهند. ومن هناك اتخذ سيد علي ريس الطريق الى القسطنطينية وقد وصلها في رجب ٩٦٤/ مايس ١٥٥٧.

لقد وصف سيدي علي هذه الاحداث جميعها في كتابه المعروف ب (مرآة الممالك، درسعاوت، اقدام مطبعة سي، اسطنبول، ١٣١٣)، الذي يعد من ابرز المصادر التركية لا عن عمليات الصراع العثماني ــ البرتغالي في الخليج العربي في منتصف القرن السادس عشر فحسب، ولكن عن كل الجهود البحرية العثمانية في المياه الشرقية.

لقد ترجم كتاب «مرآة الممالك» من قبل المستشرق الهنغاري فامبري تحت عنوان India ولكن من الملاحظ ان هذه الترجمة تتجاوز بعض التعبيرات التي قد تكون غير مفهومة للمترجم، مما يجعل النص الانكليزي غير واضح في بعض الاحيان.

استفاد الميرالاي اسماعيل سرهنك في كتابه (حقائق الاخبار عن دول البحار) القاهرة ١٣١٢ من كتاب سيدي علي «مرآة الممالك» فاشار بصورة ملخصة الى عمليات المواجهة البرتغالية العثمانية في الخليج العربي في منتصف القرن السادس عشر انظر ص ص٥٤٧ ــ ٥٥٠.

ولايقل كتاب تحفة الكبار في اسفار البحار، استنبول مطبعة بحرية ١٣٢٩، لمصطفى بن عبد الله حاجي خليفة المعروف بكتاب جلبي (ت١٠٦٧/١٦٥٦)، اهمية عن كتاب سيدي علي، ذلك لانه يلقي الضوء على النشاط العثماني البحري في البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندي والخليج العربي ابان القرن السادس عشر مما يجعلها افضل مصدرين واكثرهما تفصيلا لمن اراد الكتابة عن تاريخ الخليج البحري في القرن المذكور.

ومما تجدر الاشارة اليه، فان كتاب كاتب جلبي هذا قد ترجم الى الانكليزية من قبل جيمس ميشل باسم: Naritime Wars.

اما المصادر العربية بخاصة العمانية، التي كان من المتوقع ان تمدنا بمعلومات وافية عن اوضاع الخليج العربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر بصورة لاتقل اهمية عن المعلومات التي زودتنا بها المصادر البرتغالية المعاصرة الا انها للاسف الشديد جاءت مخيبة لامال الباحثين. ذلك لان المصادر العمانية قد تجاهلت، وبشكل يكاد يكون تماما احداث الغزو البرتغالي للخليج العربي التي بدأت بظهور البرتغاليين في مياه الخليج عام ٩١٣/ ١٥٠٧ وحتى مجئ الامام ناصر بن مرشد اليعربي عام ١٣٠٤ / ١٦٢٤. ويبدو ان سبب سكون المؤلفين العمانيين عن هذا الحدث ــ كما يقول سليمان محمد الغنام(٤) ــ يعود الى العوامل التالية:

١. ان اهل عمان، كما يشير السالمي(٥) لايعتنون بتدوين الاحداث لذاتها وانما تاتي عرضة في سير الائمة ومناقشة القضايا الدينية كالاحكام وغيرها.

٢. ان المؤلفين العمانيين شعروا ان الاحتلال البرتغالي لموانئهم، وما يعنيه من سيطرة ليس فيه ما يشرف فاعرضوا عن تدوينه عمدا، في حين انهم سجلوا بشئ من الحماس وعلى الاخص المراحل الاخيرة لطرد البرتغاليين من عمان(٦).

والملفت للنظر انه لم ترد أي أشارة في المصادر العمانية الى البرتغاليين واحتلالهم لموانئ عمان، أو اسهام امام عمان محمد بن اسماعيل في المقاومة التي بدأها سكان هذ البلاد ضد الاحتلال البرتغالي، سواء عند بدأ هذا الاحتلال أو الثورات التي حدثت في كل مسقط وقريات وصحار وقلهات عام ٩٣٠هـ / ١٥٢٣ بينما اوردت المصادر الاجنبية ذلك(٧).

احجمت المصادر العمانية، كما اشرنا، عن ذكر احداث الغزو البرتغالي لسواحل عمان حتى مجئ الامام ناصر بن مرشد عام ١٦٢٤، وبدء الصراع معهم حتى اخراجهم النهائي من مسقط عام ١٦٥٠ ما عدا بعض الاشارات التي وردت عرضا من ذلك وصف البرتغاليين (بالجبابرة) لان (خراج) عمان قد اصبحت تحت سيطرتهم(٨). واشار ثانية الى احتلال البرتغاليين صحار سنة ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م(٩).

توفرت الكثير من المعلومات بعد مجئ الامام ناصر بن مرشد ودخوله في حروب متواصلة مع البرتغاليين، ولكن هذه الاحداث على وفرتها النسبية، نجدها تستقي من مصدر يكاد يكون واحد هو كتاب (سيرة الامام ناصر بن مرشد) لمؤلفه عبد الله بن خلفان بن قيصر[10] الذي كان معاصرا للامام ناصر بن مرشد اليعربي فأرخ له وكتب سيرته.

استقت المصادر التي تلت ابن قيصر معلوماتها عنه فيا يتعلق بالعقدين الاولى من عهد الامام ناصر، يقول السالمي[11] في ذلك: (وانما كتبنا من سيرة هذا الامام ما لم نكتبه في سيرة من قبله لان بعض اصحابه «أي ابن قيصر» قد ارخوا بعض سيرته ولم يؤرخ من مضى الا ما وجدناه في القضايا التي يحتاج الي البحث عنها في الاحكام).

وواضح من مقارنة كتاب (كشف الغمة الجامع لاخبار الامة) لسرحان بن سعيد الازكوي، ان هذا الكتاب قد اعتمد الى حد كبير على كتاب ابن قيصر بيد ان الازكوي قد عدل من روايات ابن قيصر المسجوعة واضاف اليها وحذف منها، ولكنه لم يشر الى مصدرها[12].

ومع هذا فان كتاب (كشف الغمة)[13] الذي استمر بحوادثه حتى عام ١٧٢٨، يعد مصدرنا الوحيد فيا يخص استعادة مسقط من البرتغاليين وطردهم منها على يد الامام سلطان بن سيف عام ١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩ ــ ١٦٥٠م[14].

وهناك كتاب (قصص واخبار جرت في عمان)[15] الذي ينسب لابي سليان بن محمد بن عامربن راشد المعولي (ت بعد سنة ١٧٨٣م). ومقارنة بين هذا الكتاب وبين كشف الغمة يظهر مدى اعتماده على الاخير لدرجة انه ينقل حرفيا عنه، غير ان هناك بعض المعلومات في كتاب المعولي غير موجودة في كشف الغمة. وعلى أية حال، فالكتاب مفيد عن حروب الامام ناصر بن مرشد مع البرتغاليين حتى تحرير مسقط عام ١٦٥٠م.

ويمدنا كتاب (الفتح المبين لسيرة السادة البوسعيدين)[16] لمؤلفه حميد بن محمد بن رزيق وكتاب (تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان)، لمؤلفه نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، بمعلومات مماثلة للمصادر العمانية الاخرى، وذلك عن علاقة الامام ناصر بالبرتغاليين. كماويشترك هذان المؤلفان مع المصادر العمانية المحلية الاخرى في كونها لا يعدان مصدرا رئيسيا بالنسبة لنشاطات البرتغاليين المبكرة في الخليج وغزوهم له منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي.

وما دمنا بصدد الحديث عن المصادر العربية لابد من الاشارة الى المصادر العربية الاخرى غير العمانية واهمية معلوماتها عن الموضوع الذي نتناوله بالبحث.

يعد كتاب (تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتغاليين) لزين الدين المليباري المعبري ــ المتوفي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي) تحقيق دي لوبز Lopes من اهم المصادر العربية

واقدمها من حيث تناوله لامتداد النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي، وتوضيحه للاهداف الصليبية والاقتصادية التي دفعت بالبرتغاليين لاجتياز رأس الرجاء الصالح. ومع ان كتاب زين الدين هذا يمتاز بدقة الملاحظة والتحليل، الا انه لم يترك لنا الا اشارات قليلة عن الخليج العربي وجنوب شبه الجزيرة العربية.

اما كتاب (البرق اليماني في الفتح العثماني) لقطب الدين النهروالي المتوفي في أواخر العقد الثامن من القرن السادس عشر، فيزودنا بمعلومات هامة عن مجئ البرتغاليين الى الشرق، وتحركاتهم في البحر الاحمر غير انه لا يتطرق الى احداث الخليج العربي بشئ.

وتجدر الاشارة هنا الى ان المصادر اليمنية، ورغم انها كتبت في نفس الفترة التي ازداد فيها النفوذ البرتغالي في الشرق، الا انها لاتمدنا بمعلومات هامة عن منطقة الخليج العربي. يستثنى من ذلك (الحوليات الحضرمية) التي ترجمها سيرجنت Serjeant في كتابه المشهور ب (البرتغاليون في الساحل العربي الجنوبي — Portuguese).

وقد تناولت هذه الحوليات بالذكر وصول البرتغاليين الى هرمز وسيطرتهم عليها، واتخاذها قاعدة لنفوذهم في المنطقة (ص٤٣ — ٤٤). كما وتطرقت الى النشاطات العثمانية ضد البرتغاليين في الخليج العربي في منتصف القرن السادس عشر (ص١٠٩ — ١١٠).

ويبدو ان سيرجنت لم يكن على علم بنص يمني لايقل اهمية عن تلك النصوص التي نشرها في كتابه المشار اليه، بخاصة وانه يتناول الفترة التي صاحبت ضعف السيطرة البرتغالية وقيام الانكليز والفرنسيين بدورهم. وهذا النص الذي سنعرض له فيما يلي هو مخطوط لمؤرخ يمني هو عبد بن علي بن محمد بن عبد الله بن احمد الوزير الذي توفي سنة ١١٤٧ أو ١١٤٨هـ / ١٧٣٤ — ٣٥م بعنوان (طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى). لقد نشر الاستاذ عبد الله محمد الحبشي نصوصا من هذا المخطوط باسم (البرتغاليين على ساحل البحر الاحمر: نصوص لم تنشر عن مخطوطة يمنية) في مجلة العرب، ج١، ٢ السنة التاسعة آب وايلول (١٩٧٤) ص ١٨ — ٣٧. على ان النصوص التي نشرت من هذا المخطوط تكاد تكون ملحقا لكتاب سيرجنت، بخاصة وان المؤرخ اليمني قد رصد اخبار البرتغاليين وتحركاتهم حول ساحل البحر الاحمر والخليج العربي في القرن السابع عشر.

ومما يذكر ان الاستاذ الحبشي اشار (حاشية٢ ص٢٨) في النصوص التي نشرها في (مجلة العرب) عام ١٩٧٤ بانه عرض على الاستاذ سيرجنت ما نقله من مخطوطة (طبق الحلوى) فذكر له بانه لم يرجع اليها في كتابه المشار اليه ولم يكن له علم بها. ويظهر ان الباحث الانكليزي المعروف قد انتبه الى اهمية هذه المخطوطة فاعتمدها اساسا في كتابة بحثه المرسوم (النشاط الملاحي العماني على الساحل العربي الجنوبي) الذي قدمه لندوة الدراسات العمانية عام ١٩٨٠ ونشر في حصاد ندوة الدراسات العمانية ١٩٨١، ج٨، ص١١٣ — ١٣٧.

وعلى اية حال، فان البحث يعد ذات فائدة كبيرة عن النشاطات العمانية البحرية ضد البرتغاليين في القرن السابع عشر.

المراجع والبحوث والاجنبية:

عندما وصل البرتغاليون الى الشرق وسيطروا على اماكن كثيرة فيه اصبح توسعهم مطمح انظار الاوروبيين الذي ارادوا ان يعرفوا سر توسع دولة البرتغال الصغيرة والسياسة التي اتبعتها في البحار الشرقية، فراحوا ينقلون كثيرا من المدونات البرتغالية كالوثائق وكتب المذكرات والرحلات. ولعل من ابرز هذه الكتب المنقولة كتاب فاريا سوسا الذي ترجم من البرتغالية الى الانكليزية ونشر في اواخر القرن السابع عشر، كذلك ترجمت (تعليقات) البوكيرك (ورحلة تكسيرا) وما الى ذلك. وقد اصبحت هذه الكتب المترجمة الاساس الذي بنيت عليه معلومات كثير من المؤلفات التي صدرت عن الشرق عامة والخليج العربي خاصة، منذ القرن الثامن عشر وحتى الوقت الحاضر، نخص بالذكر كتابا يحمل عنوان (تاريخ الاكتشافات والغزوات والمؤسسات التي اقامها البرتغاليون في جزر الهند الشرقية: Indies Portuguese والذي نشر غفلا وبدون تاريخ تحت عنوان (التاريخ الحديث استمرارية للتاريخ العام:

ويعد هذا الكتاب من المصادر المهمة ذلك لانه يحوي على معلومات مفصلة لا نجدها في مؤلف اخر عن تاريخ الغزو البرتغالي للخليج ومراحل هذا الغزو خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. وتأتي اهمية هذا الكتاب لكونه اعتمد بالدرجة الاولى على المصادر الاصلية المؤلفة باللغة البرتغالية واللغات الاوروبية الاخرى.

اما كتاب فردريك شارل دانفرز Portuguese فانه يكمل الكتاب المذكور اعلاه: انه لم يقتصر على احداث الغزو البرتغالي للخليج والسيطرة عليه خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وانما تابع المؤلف تاريخ البرتغاليين حتى القرن الثامن عشر.

صدر في القرن العشرين عدد من المؤلفات الاوروبية التي نالت شهرة كبيرة لدى الباحثين في تاريخ الخليج الحديث وهذه المؤلفات هي كتاب صموئيل مايلز المعنون:
الذي ترجمه من قبل السيد محمد امين عبد الله باسم «الخليج بلدانه وقبائله» وصدرت طبعته الثالثة عام ١٩٨٦ وكتاب جي. جي. لوريمر Gazetteer of the Gulf الذي ترجم الى اللغة العربية من قبل المكتب الثقافي بديوان حاكم قطر لقسميه التاريخي والجغرافي بعنوان (دليل الخليج). وهناك كتاب ارنولد ويلسون الذي ترجم من قبل الدكتور عبد القادر يوسف، ونشر في الكويت د.ت، وصدرت له ترجمة ثانية عام ١٩٨١ من قبل السيد محمد امين عبد الله.

يعد كتاب مايلر من اولى المؤلفات الاوروبية التي صدرت في القرن العشرين التي تناولت احداث الغزو البرتغالي للخليج اعتمادا على المصادر البرتغالية الاساسية، فضلا عن ابرازها لدور المقاومة العربية للبرتغاليين. غير ان هناك على ايه حال كتاب (دليل الخليج) للوريمر، الذي وضعه المؤلف بتكليف رسمي من قبل حكومة الهند البريطانية في مجلدين احدهما تاريخي والاخر جغرافي وذلك في عام ١٩٠٨، ثم اعيد طبعه عام ١٩١٥، ١٩٧٠. وقد ظل هذا الكتاب مقصورا على الرسميين البريطانيين لعدة اعوام، ولم يتح للجمهور الاطلاع عليه الا في الخمسينات من هذا القرن. يعد هذا الكتاب اوسع نطاقا من كتاب مايلر ذلك لانه تناول احداث الخليج من اوائل القرن السادس عشر حتى السنوات الاولى من القرن العشرين. ومن حيث علاقته باحداث الغزو البرتغالي للمنطقة فقد جاء معتمدا بصورة رئيسية على وثائق شركة الهند الشرقية الانكليزية والمؤلفات الرسمية الاخرى للشركة(١٠٧).

اما كتاب ويلسون فقد كان واحدا من ابرز المصادر الهامة عن الخليج ذلك لان مؤلفه افرد ثلاثة فصول مسقلة عن وصول البرتغاليين الى الخليج، والصراع بينهم وبين الانكليز، وطرد البرتغاليين من الخليج. ومما يزيد من قيمة الكتاب انه احتوى على قائمة فريدة من المصادر الوثيقة الصلة بالخليج واوضاعه، ويبدو ان هذا الكتاب قد خلى من قائمة المصادر تلك بترجمته العربية.

والى جانب تلك المؤلفات الرئيسية عن الخليج هناك كتاب ستربلنك المعروف ب (الاتراك العثمانيون والعرب ١٥١١ . ١٥٧٤) Dhaman ومع ان هذا الكتاب قد صدر في الاربعينات(١٠٨)، الا ان بعض معلوماته عن المراحل الاولى للغزو البرتغالي للخليج مازالت مفيدة جدا، وان مصادره عن الموضوع ذات قيمة كبيرة للباحثين.

وضعت عددا من المؤلفات الحديثة عن تاريخ البرتغاليين وتوسعهم في الشرق وقد تناولت هذه المؤلفات تاريخ الخليج ايضا ومن بينها سي. ار. بوكسر Boxer الموسوم (امبراطورية البرتغال البحرية ١٥١٤ ـ ١٨٢٥) لندن ١٩٦٩ Portuguese Seaborne وللمؤلف نفسه فصل بعنوان (التنافس الانكليزي ـ البرتغالي في الخليج ١٦١٥ ـ ١٦٣٥) في مؤلف جي. بريستدج المعنون: (فصول في العلاقات الانكليزية البرتغالية، واتفورد ١٩٣٥).

وهناك ايضا كتاب أر. أس. وايت وي While way المعنون ظهور القوة البرتغالية في الهند ١٤٩٧ ـ ١٥٥٠ India الذي تناول فيه المؤلف احداث الغزو البرتغالي المبكرة للمياه الشرقية بصورة عامة ومياه الخليج العربي بصورة خاصة.

وهنا من الضروري ان نتذكر كتاب سونيا.ى. هاو، مصر، القاهرة ١٩٥٧، باعتباره من المصادر القديمة التي ركزت على التوابل باعتبارها الدافع الاساسي لتوسع البرتغاليين والامم الاوروبية الاخرى من بعدهم. بيد ان كتاب نايلر سترينزكورد يعد قفزة نوعية في الدراسات التاريخية

الاقتصادية ذلك لان مؤلفه تابع ولمدة طويلة دراسة النشاطات الاقتصادية البرتغالية والاوروبية الاخرى في الخليج ودوافعها في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وقد يكون من المفيد ان نشير هنا الى عدد من البحوث والدراسات التي تناولت الغزو والسيطرة البرتغالية لانها تحفل بمادة تاريخية كبيرة عنها، قلما تتوفر في المصادر العربية. من ذلك دراسة ستيف التي احتوت على معلومات قيمة عن الوسائل التي احتل فيها البرتغاليون الساحل العماني (انظر ص ص٦١٥ . ٦١٧).

وثمة دراستان عالجتا بشكل خاص التوسع البرتغالي في الخليج العربي والمحيط الهندي خلال القرن السادس عشر لمؤلفها بالارد الاولى بعنوان: War Arabian Sea, Mariner's Mirror والثانية باسم Mariner's ·Mirror

وهناك بحثان يدخلان في عداد الدراسات الخاصة التي تعالج نشوء القوة البحرية العثمانية في مواجهة القوة البحرية البرتغالية في المحيط الهندي والخليج العربي اولهما مقالة هيس الموسومة: «نشوء القوة البحرية العثمانية في عصر الاستكشافات المحيطية ١٤٥٣ ـ ١٥٢٥». وثانيهما بحث ديمز الموسوم: البرتغاليون والاتراك في المحيط الهندي في القرن السادس عشر، Portuguese على ان البحث الثاني يمتاز بتركيزه الشديد على عمليات المواجهة البحرية البرتغالية ـ العثمانية في المياه الشرقية بشكل عام ومياه الخليج العربي بشكل خاص، وذلك اعتمادا على المصادر العثمانية الرئيسية.

على ان هناك بعض البحوث التي عالجت السيطرة البرتغالية على بعض مناطق الخليج العربي وتابعت مراحل هذه السيطرة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، نذكر منها على سبيل المثال بحث بلكريف المعنون (البرتغاليون في جزر البحرين ١٥٢١ ـ ١٦٠٢) Poruguese ·

وقد عالج الباحث نونو. بي. سلفا الموضوع نفسه في بحثه الذي ترجم عن الانكليزية الى العربية بعنوان (ملاحظات حول تاريخ البحرين في العصر البرتغالي ١٥٢١ ـ ١٦٠٢) ونشر في مجلة الوثيقة العدد الثامن، يناير ١٩٨٦، ص ص١٢٤ ـ ١٣٠، ولكن الملاحظ ان الباحث استعرض احداث الغزو البرتغالي للبحرين بصورة موجزة دون تحليل الاحداث.

اما ابرز البحوث والرسائل التي عالجت علاقة البرتغاليين بعمان فهناك الدكتور بارتست المعروف ب (التجارة البحرية وحكومة الامامة).

على ان الباحث قد تناول في هذا الموضوع بشكل مفصل في رسالته التي قدمها لنيل درجة الدكتوراة من جامعة اكسفورد عام ١٩٦٧ الموسومة: (اسرة اليعاربة في عمان): Linacve فقد افرد الفصل الثالث لدراسة موضوع (طرد البرتغاليين في الخليج)، في حين خصص الفصل الرابع لدراسة (مطاردة البرتغاليين فيا وراء البحار)، وكان جل اعتماده على الوثائق الانكليزية غير المنشورة.

والى جانب تلك البحوث لابد من الاشارة الى بحث مانديفل الموسوم (ولاية الاحساء العثمانية في

القرنين السادس عشر والسابع عشر) الذي ذكر فيه كثير من المعلومات عن العلاقات العثمانية ـ البرتغالية في الخليج العربي خلال القرن السادس عشر اعتمادا على الوثائق العثمانية غير المنشورة، وهذه المعلومات تعين الباحث على معرفة طبيعة النشاطات العثمانية في المنطقة انذاك.

المراجع والبحوث العربية:

مما لاشك فيه ان غزو البرتغاليين لمناطق الوطن العربي في القرن السادس عشر كانت بداية المرحلة الاستعمارية الطويلة التي عانى منها وطننا العربي في القرون التالية، وهي عند كثير من الباحثين المنطلق الحقيقي لتاريخ العرب الحديث. ومما يدلل على اهمية هذه الفترة وبعدها التاريخي كثرة النصوص التاريخية التي كتبها الاوروبيون عنها. ولكن للاسف الشديد معلوماتنا عن هذه الفترة ظلت حتى العقود الاخيرة من القرن العشرين معتمدة بالدرجة الاولى على كتب الاوروبيين الذين وفدوا الى الخليج العربي بصورة أو باخرى، وكتبوا عنه كتبا عدة سبقت الاشارة اليها مثل كتاب (الخليج العربي) لارنولد ويلسون وكتاب (الخليج بلدانه وقبائله) لمايلر وكتاب «دليل الخليج» للوريمر وما الى ذلك.

وضح اهتمام الباحثين العرب بمنطقة الخليج العربي في العقود الاخيرة، بيد ان معظم دراساتهم انصبت على القرنين التاسع عشر والعشرين، اما القرنين السادس عشر والسابع عشر فقد كان نصيبهما محددا حتى صدر كتاب الدكتور بدر الدين عباس الخصوصي الموسوم: (دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر الجزء الاول، منشورات ذات السلاسل الكويت ١٩٧٨)، الذي عالج الفترة من القرن السادس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر. ولكن هذا الكتاب اعتمد في سرده لاحداث الغزو البرتغالية على مراجع ثانوية معروفة ولم يعتمد على المصادر البرتغالية والاوروبية الاصلية، ومع ذلك فان الكتاب يلقي ضوء جديدا على موضوعات جديدة مثل دراسة القوى العربية التي نشأت في الخليج العربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وظروف تطورها.

وهناك كتاب الاستاذ مصطفى عقيل الخطيب (التنافس الدولي في الخليج العربي ١٦٢٢ ـ ١٧٦٣) المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨١. وهذا الكتاب في الاصل هو رسالة ماجستيرلذلك فقد اعتمد فيه الباحث على مجموعة جيدة من الكتب والوثائق التي لها صلة بتاريخ الخليج خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر تعد البداية للدارسين عن تاريخ هذه المنطقة.

ومن المؤلفات التي صدرت عن البرتغاليين في الخليج كتاب نوال حمزة يوسف الصيرفي (النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي) الرياض، ١٩٨٣. الذي نالت فيه المؤلفة على درجة الماجستير من كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة الملك عبد العزيز. وواضح ان المؤلفة ركزت بصورة اساسية على الدافع الديني كاساس لحركة

الاستكشافات الجغرافية، ورد الفعل العثماني الديني تجاهه. ومع ان الباحثة قد جهدت في بيان روح المقاومة التي اظهرها اهل الخليج ضد تلك الهجمة البرتغالية الصليبية بقدر ما وسعهم الجهد، بيد ان معظم اعتمادها جاء منصبا على مراجع ثانوية ولم تعتمد الا قليلا على المصادر الاساسية التي تناولت احداث الغزو البرتغالي للخليج ومراحله.

يعد كتاب الدكتور جمال زكريا قاسم (الخليج العربي: دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسع الاوروبي الاول ١٥٠٧ ــ ١٨٤٠)، دار الفكر العربي القاهرة ١٩٨٥ واحد من ابرز المؤلفات التي لها علاقة وثيقة بتاريخ الغزو البرتغالي في الخليج ذلك لان المؤلف قد خصص فصلين رئيسيين عن هذا الجانب وتابع افول الامبراطورية البرتغالية في الشرق حتى نهاية القرن الثامن عشر. وقد اعتمد الباحث على عدد غير قليل من المصادر البرتغالية الرئيسية وكتب المذكرات التي وثقت الكتاب.

ومن المؤلفات التي تطرقت بصورة مفصلة الى عرب عمان وعلاقتهم بالبرتغاليين كتاب (دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا للفترة من ١٦٢٤ . ١٧٤١) لمؤلفته عائشة على السيار (دار القدس، بيروت ١٩٧٥). وفيه تابعت المؤلفة نمو قوة دولة اليعاربة وقيامها بمطاردة البرتغاليين ليس فقط في الخليج العربي وانما في المياه الشرقية بصورة عامة.

والى جانب الكتب المذكورة هناك الكثير من البحوث المنشورة التي تناولت البرتغاليين في الخليج من جوانب مختلفة. اولها بحث الاستاذ عبد العزيز محمد الشناوي (المراحل الاولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية) الذي نشره ضمن البحوث المقدمة الى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، الدوحة، قطر، الجزء الثاني ١٩٧٦. ويمتاز هذا البحث بانه تناول مجئ البرتغاليين الى الشرق منذ اواخر القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن السادس عشر ولكن الملاحظ انه بحث استعراض اكثر منه تحليلي خاص.

وهناك بحث للدكتور عبد العزيز محمد عوض باسم (الاحتلال البرتغالي لموانئ الجزيرة العربية) المؤرخ العربي العدد ٢٩، السنة الثانية عشر ١٩٨٦ ص ص١٧ ــ ٢٦، الذي عالج فيه الباحث وقائع الغزو البرتغالي لموانئ الخليج العربي في النصف الاول من القرن السادس عشر، وعملية الصراع العثماني البرتغالي في المنطقة، معتمدا في ذلك على عدد من الدراسات وثيقة الصلة بالموضوع.

ومن البحوث التي تلقي مزيدا من الضوء على حالة الصراع العثماني ــ البرتغالي بحث الدكتور عبد الوهاب القيس المعنون «موقف العثمانيين من الغزو البرتغالي للمياه العربية» مجلة الخليج العربي، البصرة، المجلد ١٢ العدد (١٩٨٠) ص٤٥ ــ ٥٣. وفيه تناول الباحث اسباب المجابهة العثمانية ــ البرتغالية، والاحداث الرئيسية في هذه المجابهة ونتائجها.

على ان فلسفة الصراع العثماني ــ البرتغالي في الخليج العربي خلال القرن السادس عشر قد تطرق

اليها الدكتور طارق نافع الحمداني في بحثه الموسوم «النزاع العثماني ــ البرتغالي: رؤية جديدة»، المنشور في دراسات عن تاريخ الخليج والجزيرة العربية، منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ١٩٨٥، ص١٨٥ ــ ١٩٨. وتقوم فكرة البحث الرئيسية على اعتبار ان عملية الصراع بين البرتغاليين والعثمانيين قد اتخذت مراحل مختلفة دينية وسياسية واقتصادية. ومع صعوبة الفصل بين كل مرحلة من هذه المراحل لتداخلها وامتزاجها مع احداث المرحلة الاخرى، الا انه من الممكن القول ان المرحلة الاولى في النزاع العثماني ــ البرتغالي اتخذت الصفة الدينية على اعتبار ان البرتغاليين انتحلوا هذه الظاهرة لدعم اهدافهم التوسعية من قبل الكنيسة من جهة ولتبريرها في الشرق من ناحية اخرى، واتخذ العثمانيون الصفة الدينية نفسها في الرد على اهداف البرتغاليين وكسب شعور المسلمين من ناحية والدفاع عن الاماكن المقدسة والاماكن المحيطة بها من ناحية اخرى.

وبمضي الوقت اتخذ النزاع اشكالا سياسية واقتصادية على اعتبار ان البرتغاليين ارادوا ان يوجدوا لهم قواعد يستقرون فيها ويثبتون نفوذهم في الشرق، ومن ثم عمدوا الى تحقيق منافع اقتصادية عن طريق ذلك وكان الرد العثماني على ذلك منسجما مع الاهداف العثمانية.

وهناك عدد من البحوث التي تناولت عمليات الغزو البرتغالي لمناطق معينة في الخليج العربي منها بحث الاستاذ احمد العناني الموسوم: (البرتغاليون في الخليج وما حولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر) مجلة الوثيقة، العدد الرابع، السنة الثانية، يناير ١٩٨٤. وفيه تابع الباحث المطامع البرتغالية في المنطقة حتى طردهم من الخليج في منتصف القرن السابع عشر. وعلى غرار هذا البحث نشرت «مجلة الوثيقة» ايضا في عددها الاول، السنة الاولى، يوليو ١٩٨٢، بحثا لم يذكر اسم صاحبه تحت عنوان (صفحات من تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين) تناول البحث عمليات الغزو البرتغالي للمنطقة، وتضمن نشر عدد من الوثائق التركية المتعلقة باوضاع البحرين (انظر ص ص١٤٧ ــ ١٤٩).

ومن البحوث التي عالجت مقاومة البرتغاليين في الخليج وطردهم منه بحث الدكتور صالح محمد العابد الموسوم (تحرير ساحل عمان وانهيار الامبراطورية البرتغالية في الشرق) مجلة «افاق عربية» العدد الثالث السنة العاشرة ١٩٨٥.

وهناك بحث اخر للدكتور صلاح العقاد بعنوان (دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج) دراسة مقارنة، حصاد ندوة الدراسات العمانية، المجلد الرابع، ١٩٨٠. وهذا البحث الاخير كما يقول الباحث نفسه (يستهدف توضيح الفرق بين الاسلوب الذي اتبعه العرب عامة، والعمانيون بصفة خاصة حينما كافحوا البرتغاليين بصورة منفردة، في حين ان الفرس رغم قيام دولة قوية في بلادهم كانت اوسع انتشارا من الدولة العمانية الا انهم تصدوا للبرتغاليين مستندين الى تحالفات أجنبية (انظر ص٥٩).

الهوامش

١. بروفسور س.بكنجهام، بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان حصاد الندوة العمانية، سلطنة عمان، مطابع سجل العرب ١٩٨١، ص١٨٥.

٢. بكنجهام، المصدر نفسه، ص ١٨٧.

٣. بروفسور سي. بوكسر، ملاحظات جديدة عن الصلات بين العمانيين والبرتغاليين، من ١٦١٣ ـ ١٦٣٢، حصاد الندوة العمانية، المجلد الثاني، مطابع سجل العرب، ١٩٨٠، ص٢١٠.

٤. «الوجود البرتغالي في عمان في المصادر المحلية العمانية» دراسات تاريخ الجزيرة العربية، مصادر تاريخ الجزيرة العربية (مطبعة جامعة الرياض، الرياض ١٩٧٩) ج٢، ص١١٦.

٥. نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان، (١٣٩٤/ ١٩٧٤) ج١، ص٣٥٣.

٦. س.ب.مايلز، الخليج العربي بلدانه وقبائله، ترجمة محمد امين عبد الله، امون للطباعة، القاهرة، ط٣، ١٩٨٦، ص١٤٩.

٧. Frederick charle Danvers, the Portuguese in Lndin (London, 1894), Vol.1, p.354. الغنام، المصدر نفسه، ص١١٧.

٨. سرحان بن سعيد الازكوي، تاريخ عمان، المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لاخبار الامة، حققه عبد المجيد حسيب القيسي، مطابع سجل العرب، ١٩٨٠، ص٧٧.

٩. الازكوي، المصدر نفسه، ص٩٢.

١٠. حقق هذا الكتاب عبد المجيد حسيب القيسي، ونشرته وزارة التراث والثقافة لسلطنة عمان، ١٩٧٧.

١١. تحفة الاعيان، ص٢٠.

١٢. انظر الدكتور فاروق عمر، مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني، بغداد، ١٩٧٩، ص١٠٢.

١٣. من المعروف ان المستر روس الذي كان معتمدا بريطانيا في مسقط قد نشر ترجمة لهذا الكتاب في مجلة الجمعية الاسيوية في البنغال عام ١٨٧٤ تحت عنوان، حوليات عمان، Annals until

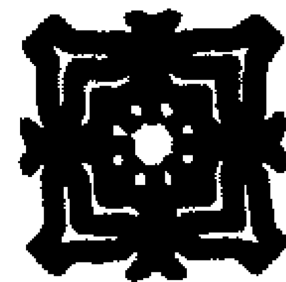
١٤. الازكوي، المصدر نفسه، ص ١١١.

١٥. نشرت وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان هذا الكتاب عام ١٩٨٣.

١٦. لقد نشر جورج برسي بادجر، وهو احد الباحثين الثقاة في تاريخ عمان، هذا الكتاب الذي تناول تاريخ الائمة والسادة البوسعيدين حتى عهد سعيد بن سلطان (١٨٠٦ ـ ١٨٥٦). وقد اضاف مقدمة تاريخية تحليلية امتد بها الى عام ١٨٧١.

١٧. يمكن الاطلاع على المصادر العديدة التي اعتمدها المؤلف في كتابه دليل الخليج القسم التاريخي، ج١ ص ص٢٠ ـ ٢١.

١٨. لقد صدرت طبعة جديدة للكتاب عام ١٩٧٨.



اصداء الغزو البرتغالي في أدب الخليج العربي

الدكتور/ علي أحمد الزبيدي

صلات الادب بالبيئة العامة والخاصة وتأثره وأحوالها الطبيعية والاجتماعية والثقافية والسياسية مازالت تشغل النقاد ومؤرخي الادب والفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع وغيرهم. وبفضل هذا التأثر والتأثير تنكشف الروابط الوثيقة التي تشد الادب الى التاريخ وتصل التاريخ بالادب حتى لتجد صفحات وفصولا مما يدونه المؤرخون ترفل بأساليب أدبية جميلة وتزهو بصور وصيغ فنية فاتنة(١). كما تجد فصولا أخرى وكتبا ورسائل كتبها الادباء وشعرا كثيرا مما ينظمه الشعراء أشبه بالوثائق التأريخية التي لا يستغنى عنها المؤرخ(٢). لهذا كان التأرخ وما زال أقرب العلوم الانسانية الى الادب. وكثيرا ما أجتمعا في رجل واحد. وفي تاريخ الفكر العالمي والعربي العشرات من الاعلام الذين جمعوا بين الادب والتاريخ كابن المقفع والجاحظ وابن قتيبة والصولي ومسكويه وغيرهم من الكتاب والمؤرخين القدماء(٣). ولم يختف هذا المظهر من مصابيح الفكر والثقافة والادب حتى اليوم على الرغم من شيوع التخصص الدقيق.

والحق أن الشعر والنثر العربيين يكشفان عن كثير من الاحداث التاريخية ويسلطان الاضواء من زوايا فنية وغير فنية على أسرارها وخفاياها. والظاهر أن اهتمام الشعراء والكتاب بأحداث عصرهم يزداد في عهود القوة والازدهار ويخفت في عصور الضعف والانحدار، هذا سبب التفتت الشديد والصعوبة المنهجية البالغة التي يعاني منها الذين يدرسون مواقف الادباء من الاحداث بعد الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٤م لانها عصور انهيار الحكم العربي في العراق والشام ومصر والاندلس وخضوعها لسلطان الاعاجم من مغول وفرس وترك وفرنجة، ولا تنس ان انفعال الادباء بهذا الحدث أو ذاك خلال تلك الحقبة المظلمة كان يتوارى تحت ركام النكسات والازمات والمحن هذا فضلا عما اصاب الشعر والنثر من تدهور وجمود وجفاف وتخلف واستهلاك المواهب في ألاعيب الصنعة البديعية، واستنفاذ القدرات الفنية في تفريغ البديع وتعقيده وتكبيل النتاج الشعري والنثري بقيوده الثقيلة(٤).

ولكن صعوبة الكشف عن مواقف ادباء العصور المتأخرة من الاحداث لا يعني انهم عاشوا بمعزل عنها فلم يشعروا بها ولم يؤثر فيهم بشكل من الاشكال. كل ما في الأمر أن أسلوب مواجهة الحدث أو التعامل واياه يتغير فيلجأ الاديب الى التلميح والغمز واللمز واللغز والتورية أو التعبير عن الرفض والاحتجاج بالانسحاب من معترك الحياة والانصراف عن أدب الدنيا الى أدب الدين كشعر الزهد والشعر الصوفي والمدائح النبوية ومراثي آل البيت والشعر التعليمي وما شاكل ذلك.

وكان مد الشعر الديني طاغيا في شمال بلاد العرب ووصلت أمواجه القوية الى أدب الجزيرة العربية فجرف تيار التصوف والزهد وتأثيراتها السلبية وفئات الشعراء وأضعف استجاباتهم المباشرة لاحداث عصورهم وهمومهم وازماتها ومآسيها. فالغزو البرتغالي الذي يدور عليه هذا البحث كان أشد الاحداث خطرا في تاريخ شرقي جزيرة العرب وجنوبها في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين (السادس عشر والسابع عشر الميلاديين) ولكننا لانكاد نجد له صدى يلفت النظر الا في الادب العماني، ولم نعثر له على أي أثر يذكر في الشعر الحضرمي، ولا في شعر مناطق الخليج العربي التي اغار عليها البرتغاليون واحتلوها مدة طويلة من الزمن كالقطيف والبحرين، ولعلنا واجدون شيئا اذا ما توفرت المصادر وسمح الوقت بتوسيع هذه الدراسة(٥).

ان منهج بحثنا يحتم علينا ان لا نثقل بالتفاصيل التاريخية بدراسات وافية عن الغزو البرتغالي وسنكتفي بلمحة تاريخية خاطفة تحدد المواقع المكانية والزمانية لابرز أحداث الغزو ليتسنى لنا استقصاء انعكاساتها في الشعر والنثر والادب التاريخي.

لقد وقع أول احتكاك بين البرتغاليين والمشرق العربي عند وصول فاسكو دى غاما الى موزمبيق سنة ١٤٩٧م واعتدائه على مينائها (سفالة) وصعوده شمالا الى مالیندی وممباسا وارهابه أهلها وحكامها ثم ابحاره الى الهند بمعونة الملاح العربي ابن ماجد أو ملاح مسلم آخر كما يروي بعض الباحثين(٦). وقد تحول هذا الاحتكاك الى صدام خطير في البحر والبر خلال رحلة دى غاما الثانية سنة ١٥٠٢م/ ٩٠٨هـ لانه صمم على اغلاق البحر الاحمر بوجه الملاحة العربية بعد ان احتل كلوا وزنجبار على ساحل افريقية وكلكتا على ساحل الهند مرتكبا في البر والبحر في اثناء غزواته ورحلاته جرائم وحشية فظيعة ثم توالت أحداث العدوان والرد على العدوان بين العرب والغزاةالبرتغاليين. وقد تمكن الاسطول البرتغالي بقيادة دالميدا ثم الامير بوكيرك من احتلال جزيرة سوقطره القريبة من عدن سنة ١٥٠٧م كما حاول البرتغاليون الاستيلاء على عدن نفسها فأرتدوا خائبين(٧). ثم اتجهوا الى سواحل عمان وأغاروا في طريقهم على المكلا وسواحل حضر موت واستولوا على عدد من السفن العربية التجارية ثم قتلوا ملاحيها وركابها واحرقوا عددا منهم احياء بعد ان قطعوا آذانهم وانوفهم. وفي عام ١٥٠٨م هاجم البوكيرك مسقط فأحتلها بعد أن قاومت مقاومة باسلة فخرب رجاله بيوتها وهدموا جامعها الذي كان تحفة فنية أثرية رائعة وقتلوا مئات النساء والاطفال. وقبيل ذلك كان البرتغاليون قد احتلوا ظفار وشيدوا فيها حصنا منيعا واستولوا على الموانئ العمانية القريبة من مسقط

مثل قلهات وصور وقريات والمطرح كما استولوا على جزيرة هرمز. وانقضوا سنة ١٥٢١ على القطيف والبحرين فاستولوا عليها وبنوا قلعة في المنامة وأخرى في القطيف. وبذلك هيمنوا على الخليج العربي هيمنة كاملة طوال القرن السادس عشر (العاشر الهجري) ونصف السابع عشر ومع ان نفوذهم قد تقلص لاستمرار المقاومة هناك ولتدخل العثمانيين الا ان انهيارهم لم يبدأ الا في عهد الامام ناصر بن مرشد (١٠٢٤ ــ ١٠٥٠هـ) فهو الذي أخرجهم من الموانئ العمانية الجنوبية وضيق الخناق عليهم في مسقط وأخيرا تمكن اليعاربة في عهد خليفته سيف بن سلطان بن سيف من تحرير مسقط والبحرين في سنة ١٦٥٠م/ ١٠٦٠هـ وتطهير الخليج وبحر العرب وموانئ الساحل الافريقي كزنجبار وممباسا وكلوا ومقديشو من آخر الغزاة والقراصنة البرتغاليين(٨). لقد طالت مدة العدوان كما يلاحظ فاستغرقت قرنا ونصف القرن. ويجمع المؤرخون من القدماء والمحدثين على أن سبب انتصار البرتغاليين وبقائهم في صحار وعمان والبحرين هو سوء الاحوال السياسية في عمان واقطار الجزيرة العربية التي انهكها الصراع المستمر على السلطة بين الرؤساء والشيوخ والامراء وانتشار الفتن الدينية والحروب القبلية في أواخر عهد النبهانين(٩) وحتى قيام حركة اليعاربة بتولي الامام ناصر بن مرشد (١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م ــ ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م) كما أشرنا.

وقد سرد صاحب تحفة الاعيان وقائع النزاع بين النبهانيين والاباضية وتمكن الاباضية من عزل الامام النبهاني وتولية محمد بن اسماعيل الخروصي سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م وحكم هذا ثم عزل لسوء سياسته سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م(١٠). وفي عهده ظهر البرتغاليون في شرق افريقيا وغزوا عمان واستولوا على ظفار والمطرح ومسقط. وكان الصراع على السلطة والامامة قد اشتد في آخر حكمه، ثم ازداد شدة في عهد ابنه وخليفته بركات، قال السالمي واصفا ذلك التمزق «ولبث محمد الهنائي في بهلى وآل عمر في سمائل ومالك بن ابي العرب البصري في الرستاق والجبور في الظاهرة والنصارى (البرتغاليون) في (مسقط) وصحار وجلفار وصور وقريات وخربت عمان بعد العدل والامان وعاثت فيها الجبابرة وقل فيها العلم والخير»(١١). ومما قاله ايضا: «وبقيت عمان كذلك حتى اظهر الامام الارشد ناصر بن مرشد رحمه الله فاستفتح جميع عمان ودانت له جميع البلدان وطهرها من البغي والعدوان والكفر والطغيان»(١٢). وعن مرحلة عودة النبهانين الى السلطة خلال النصف الثاني من القرن العاشر للهجرة قبيل تولي ناصر بن مرشد يقول السالمي «وبنصب الائمة في وقت واحد، (ثلاثة أئمة) تشتتت الكلمة، وتفرقت الجماعات وضعفت دولة المسلمين ووهنت قوتهم، وطمع فيهم من كان لا يطمع قصار الملك متفرقا في ايدى الرؤساء من النبهانية وآل عمير وآل هلال وهم رهط الجبور وصارت الشدة على أهل عمان ولم تبق دولة المسلمين الا في مكان دون مكان»(١٣).

وقبل ذلك العهد المضطرب كان العمانيون سادة المحيط الهندي وبحر العرب والخليج(١٤). وقد لاحظ ذلك المسعودي في القرن الرابع للهجرة(١٥) وأكد قوة هذه السيادة واستحرارها الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطه بعد نحو خمسة قرون(١٦)، ولم ينافسهم منافس حتى الغزو البرتغالي لساحل افريقيا

الشرقي والساحل العربي الجنوبي الشرقي والخليج العربي في القرن العاشر للهجرة، ولهذه السيادة العربية البحرية أهمية كبيرة في تاريخ الحضارة العربية والاسلامية لانها نشرت الاسلام واللغة العربية في شرق افريقية ورفدت اللغات الافريقية بفيض من الالفاظ والمصطلحات العربية وأدت الى نشوءأدب عربي فصيح في مناطق زنجبار ومقديشو وممباسا وغيرها ونقلت كثيرا من عناصر الحضارة العربية الاسلامية الى شرق القارة ووسطها(١٧). ولم يوقف الغزو البرتغالي ولا الاستعمار الاوروبي من بعد هذا التأثير العربي العميق فاستمر الى يومنا هذا، وخير دليل على قوته وعمقه أن معجم اللغة السواحلية ونحوها وشعرها وادبها القصصي الشعبي والديني تؤكد صلات اللغات الافريقية الشرقية وآدابها باللغة العربية وآدابها(١٨) ولا ارتاب ايضا من ان الغزو البرتغالي كانت له اصداء وآثار في أدب المقيمين العرب في حواضر وثغور الساحل الشرقي لافريقيا(١٩)، وفي الاداب الافريقية الشعبية الاسلامية، ولكن هذه الاداب لم تصل الينا لانها لم تدون لانتقالها من جيل الى آخر بالروايات الشفهية. وقد اكدت الدراسات الحديثة من الادب الصومالي أم معظم الشعر الديني والصوفي المنظوم بالعربية والسواحلية قد ضاع. والمقصود هنا ما نظم قبل مدة قصيرة فكيف بالشعر الذي قيل قبل قرون؟(٢٠).

ان هذه الدلائل التاريخية تؤكد ان أدب الاعصر المتأخرة لم يكن بمعزل عن الاحداث السياسية والحربية على الرغم من ضغوط الحكم الاجنبي وكثرة عوامل التخلف والجمود والعقم. والملاحظ أن مؤرخي الادب العربي المحدثين والمعاصرين لم يهتموا كثيرا بدراسة آدابها فوسموه بشدة الضعف والجمود بصورة مطلقة فوسموا أدب الجزيرة العربية بما وسموا به عموم أدب الفترة المظلمة بل ذهب كثير منهم الى أن الادب في اقطار الجزيرة العربية كان اشد تخلفا لما كان يسودها من حروب قبلية ونزاعات مذهبية وتأخر ثقافي واجتماعي واقتصادي..(٢١) الخ. وبالغ نفر منهم كمحمد اسعد طلس الذي أعتمد على أحكام أمين الريحاني وبعض المستشرقين كيروكلمان ونيكلسون وهوار في تعميم هذه الاحكام العامة. وكذلك أواخر المصنفين كعمر فروخ وحنا الفاخوري ولم ينته الى وجه الخطأ في مثل هذه التعميات الا بعض مؤرخي الادب كشوقي ضيف الذي أثبت في كتابه الاخير أن صورة الادب العربي في الجزيرة اكثر اشراقا مما توحي به أقوال مؤرخي الادب السابقين وان لم يشر الى ذلك صراحة(٢٢).

لقد فاتهم أن أقطار الجزيرة قد سلمت من الغزو والاحتلال والاستباحة والخراب التي انزلها المغول بالعراق والشام وفلسطين، فلم تتعرض اللغة العربية وآدابها في الجزيرة العربية الى غزو لغوي أو ثقافي أو اجتماعي كما حدث في الشمال صحيح أن أدب الجزيرة قد تأثر بالتيارات والموجات التي أشاعت التخلف والجفاف في عموم الادب العربي ولكنه استطاع ان يحتفظ بسلامة اللغة بالقياس الى ما طرأ عليها في العراق والشام فكان الشعر في أقطار الجزيرة اكثر نشاطا وحيوية من شعر الشمال العربي بصرف النظر عن انجرافه بموجة التصنع البديعي التي كانت مسيطرة على آداب العصور المتأخرة في كل مكان وعن ابتلاء أقطار الجزيرة العربية بسموم التفرقة وشرور التمزق والانقسام الى

أمارات ومشيخات صغيرة عانت شر التنازع والفسوخ من أجل الرئاسة والامارة والمشيخة والاحقاد التي تضرمها العصبيات القبلية.

وكان الشعر في العراق والشام قد خمدت جذوته منذ سقوط الخلافة في القرن السابع وزوال الحكم العربي واستيلاء المغول والفرس والترك وغيرهم من الاعاجم على السلطان والمال والجاه. ولم يسلم الشعر في مصر ايضا من هذا الجمود في عهد المماليك على الرغم من احترامهم للعربية وادابها لانهم اعاجم ولاسباب أخرى يطول شرحها. وكان من الطبيعي والاحوال كما ترى ان يحتفظ الادب والشعر في جزيرة العرب بكثير من خصائص الشعر والنثر وتقاليدهما التي اختفت أو كادت تختفي من الشمال العربي. فشعر الحرب والحماسة والفخر بقي حيا مرغوبا فيه وان تخلف وراء الشعر القديم لان الحروب والنزاعات المستمرة في أقطاب الجزيرة بين الامراء والشيوخ والقبائل كانت تثيره وتغذيه وقديما قال الاصمعي ان طريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل أمرئ القيس وزهير والنابغة (الذبياني)، من صفات الديار والزجل والهجاء والمديح والتشبيه بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار فاذا ادخلته في باب الخير (٢٣). وشعر المديح في أقطار جزيرة العرب لم ينكمش كما انكمش في شمالها للاسباب المذكورة ولان الممدوحين عرب اقحاح يطربون للمديح ويتذوقونه ويفيدون منه على الصعيدين الاجتماعي والسياسي ويجزلون العطاء للشعراء في حين أن شعراء العراق والشام ومصر كانوا بعد زوال الحكم العربي وسيادة الاعاجم لا يجدون اميرا عربيا يفهم المديح ويثيبهم عليه ولا بطلا قوميا عربيا يشيدون ببطولة ولا فداء، اذا زعمت اننا لانجد في القرنين التاسع والعاشر الهجريين في العراق والشام ومصر شعراء افضل من كبار شعراء عمان والبحرين واليمن. لقد كان الصفويين الفرس كانوا يحتلون معظم العراق، والبلاد خراب بيابل، والحياة الثقافية والعلمية راكدة، والناس في كرب وهلع. ولم يلبث العثمانيون والاتراك ان هاجموا العراق سنة ٩٣٥ بعد ان استولوا على الشام ومصر وقتلوا قانصوه الغوري آخر المماليك(٢٤). وكان قانصوه قد أرسل قوة بحرية لتساعد عدن وأمير مالابار الهندية في صد البرتغاليين فدمروها هؤلاء(٢٥).

وثمة فوارق أخرى بين أدب شبه الجزيرة العربية وأدب شمالها لامجال لشرحها هنا. مثل النهج التقليدي والطابع البدوي، وتقلص شعر المجون وقلته وانتشار شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ومدائح آل البيت واقسام هذا الشعر بالحرص على تجنب ما يبلبل العقيدة ويثير الشك والالحاد في حين أن شعر التصوف في العراق والشام وغيرهما لم يتقيد بمثل هذا الحرص والحذر. ومن الخصائص ايضا استمرار وصف الصحراء وحياتها في شعر الاعراب ومقلديهم ووصف البحر والرياح والسفن والمعارك الحربية البحرية والمدن الساحلية ولا سيما الموانئ الافريقية الجميلة كزنجبار وممباسا وكلوا كما في شعر الحضارمة والعمانيين المارين والمقيمين.. الخ. مهما كان فالذي يهمنا هنا أن الشعر (كان على لسان على حد تعبير الدكتور شوقي ضيف في عرضه القيم الممتع للحياة الادبية في الجزيرة العربية(٢٦). وقد راج شعر الحرب والحماسة والفخر والمديح وبعض الاغراض التي تتم بالاحداث الحربية والسياسية لان الحياة في أقطار الخليج كانت توفر لها الحوافز والدوافع والظروف الملائمة

فتتواثب في قصائدها واشعارها صور الغزوات والمعارك والحروب الداخلية والخارجية. وكان العدوان البرتغالي أشد هذه الحروب وبالا واطولها عمرا في تاريخ الجزيرة العربية فترددت اصداؤه في شعر عمان وحضر موت والبحرين وفي نثرها الادبي والتاريخي، وتفاوتت تأثيرات تلك الاصداء واختلفت قوة وضعفا باختلاف الظروف الحربية والسياسية والنفسية التي أحاطت بأحداث ذلك الغزو الاستعماري الذي دام قرنا ونصف القرن.

وهنا يجب أن نؤكد أن متابعة تلك الاصداء والصور في دراسة كهذه لا تلتزم مطلق الالتزام بالمعايير النقدية الخاصة بالادب الرفيع ولا تهملها كل الاهمال لان الاهتمام هنا ينصب على الجانب التاريخي ومع هذا فان مؤرخ الادب لا يستطيع ان يتخلى عما يميز الدراسة الادبية التاريخية عن البحث التاريخي الصرف. ويحسن ان نعترف ايضا ان موضوعنا هذا وما يماثله من موضوعات لا تحظى عادة باهتمام خاص لان حدثا تاريخيا كالغزو البرتغالي يتحرك حول محور واحد من محاور الادب ويدور حول موضوع رئيسي كبير تلتف حوله عدد من الموضوعات الثانوية ولا تجد لها صدى الا في أغراض شعرية معينة كشعر الحرب والحماسة والفخر والمديح وبعض أنواع الوصف. لذا يندر ان نجد مؤرخا أو باحثا يحصر أهتمامه في موضوع كهذا ولا يتعداه لغيره الا اذا كانت هناك مناسبة كمناسبة هذه الندوة فلولاها لما خطر ببالي ان اجازف لتصيد اصداء الغزو البرتغالي في الشعر والنثر. لقد خيل لي من بادي الامر انني كالراكض وراء السراب. زد على هذا ان تاريخ ادب الجزيرة العربية وتاريخها السياسي والاجتماعي ما زالا محتاجين الى دراسات كثيرة وابحاث مفصلة عديدة، واذا كانت الحياة الادبية في اليمن قد نالت قسطا من العناية في السنوات الاخيرة فان اقطارا أخرى كعمان والامارات وحضر موت لم تحظ الا بدراسات قليلة تعد على الاصابع.

والحق أن حظ المؤرخ أفضل بكثير من حظ الاديب لوفرة الدراسات التاريخية الحديثة التي قام بها المستشرقون والعرب والمصادر التاريخية الاولية المطبوعة والمخطوطة لذا كانت الشكوى من غياب المصادر الادبية وقلة الدراسات الحديثة تتكرر في كل دراسة ادبية حول الادب وفنونه في اقطار الجزيرة العربية فعظم دواوين الشعر فقدت والقليل الذي سلم من الضياع ما زال مخطوطا محتجبا في اماكن يتعذر الوصول اليها وكتب التراجم المعنية بالشعراء والادباء ليس لها جود. والمتأخر منها كخلاصة الاثر للمحبي وريحانة الالباء للخفاجي والسلافة لابن معصوم ونفحة الريحانة للخفاجي ايضا ونشوة السلافة لمحمد علي بشارة وامثالها قلما تعنى تهتم بشعراء وادباء عمان وحضر موت واليمن فإن صادف وجود تراجم لبعض رجالها المشهورين فهي موجزة انجازا مخلا يحرج الباحث ويزعجه(٢٧).

كانت عمان كما يعرف المؤرخون القطر العربي الذي نكب بالغزو البرتغالي مدة قرن ونصف فقد احتل الغزاة أكبر ثغوره وفتكوا بأهلها وأشاعوا فيها الخراب. وقد تعرضت البحرين والقطيف للعدوان والاحتلال ايضا مدة طويلة ومع هذا فلا نجد شيئا فيما كتبه مجموع شعرائها يرضى الباحث عن أثر الغزو البرتغالي في الشعر والنثر. اما عمان فاهم دراسة عن شعرها للدكتور على عبد الخالق(٢٨) ليس فيها الا بعض الاشارات والنصوص لمستشهديها قليلة وقد سبق ان انتبه الى بعضها الدكتور

شوقي ضيف وبعض المؤرخين(٢٩). وكانت حضر موت قد اصيبت هي ايضا بويلات الغزو البرتغالي وان لم يحتل البرتغاليون موانيها وسواحلها وانما اكتفوا بالاغارة عليها وباعمال القرصنة في مياهها مرات عديدة خلال المرحلة الاولى من غزوهم على الاخص. ومع هذا لانجد شيئا فيا عرفنا من شعرها ونثرها الادبي والتاريخي. فكتاب السقاف تاريخ الشعراء الحضرميين وهو كبير في ثلاثة اجزاء أوجز فيها المؤلف نحو مئة وعشرين ترجمة لشعراء حضارمة عاش منهم عشرات خلال القرنين الهجريين العاشر والحادي عشر للهجرة (فترة الغزو البرتغالي) لا نجد فيه نصا شعريا أو نثريا واحدا ينعكس عليه ظل حدث صغير أو كبير من احداث الغارات البرتغالية المتعاقبة على سواحل حضرموت وجزرها وسفنها(٣٠). وقد احتل البرتغاليون القطيف كما ذكرنا وبنوا فيها حصنا ولكننا لانجد كتاب شعراء القطيف للشيخ على المرهون أية أشارة أو نص يتردد فيه صدى ضعيف من اصداء العدوان البرتغالي الذي دام أكثر من قرن(٣١) ونصطدم بالعقبة نفسها اذا اتجهنا الى أدب البحرين التي احتلها البرتغاليون واقاموا فيها قلعتين طوال مدة وجودهم في الخليج العربي. ولا نستطيع التثبت بعدم وجود اثر لهذا الغزو في أدب البحرين ولعلنا واجدون اذا توفرت لدينا بعض المصادر. تلك اذن هي العقبة الكاداء اعني مشكلة قلة المصادر للدراسات الخاصة باقطار الخليج والجزيرة العربية ولولا فضل نفر قليل من المؤرخين واهتماماتهم الادبية وكثرة النصوص الشعرية والنثرية التي ذكروها، اقول لولا هؤلاء الافاضل كالازكوي والسالمي وابن رزيق والمعبري من القدماء وشوموفسكي واستاذه كرانشوفسكي روندل فيليبس وفران وغيرهم لما استطعنا ان نضيف شيئا الى الاشارات الخاطفة والوقفات القصيرة التي وجدناها في بعض الدراسات الادبية والتاريخية.

وأقدم أشارة ادبية الى البرتغاليين وردت في احدى الاراجيز الثلاث المنسوبة للملاح العربي الذائع الصيت شهاب الدين بن ماجد التي اكتشفها المستشرقون الروس كرانشوفسكي بعد الحرب العالمية الاولى(٣٣) ثم قام بتحقيقها ودراستها بعد ذلك تلميذه تيودور فشوموفسكي ونشرها بعنوان: ثلاثة أزهار في معرفة البحار في لينتغراد سنة ١٩٥٧(٣٤) وهي كما لاحظ كراتشوفسكي غير الاراجيز الشهيرة المسماة بالحاوية المرجوة في كتاب (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) الذي قام المستشرق الفرنسي جبرييل فران بدراسته والكتابة عنه ثم نشره في باريس سنة ١٩٢٢(٣٥).

يقول الاستاذ الروسي شوموفسكي في دراسته (والترجمة العربية لمحمد منير مرسى ناشر الكتاب): والجزء الثاني من الارجوزة الاولى حي بالاشارات المتكررة (الى) الفرنجة (البرتغاليين).. ويتكرر اسمهم (بقصد الاشارة اليهم) اربع عشر مرة(٣٦) ويقول: وفي الاخبارات (هكذا جمعها) عن رحلات الفرنجة الذين وصلوا الى الحبشة واخذوا معلومات وصفية من كل قادم من الهند.

ومن بين هذه الانباء عظمة واتزان فكر الانسان ولكن يتغير هذا الفكر لدى ابن ماجد، شاهد العيان لوقائع الاستعمار البرتغالي بنظامه الدخيل على المحيط الهندي الذي أساء الى الملاحة العربية

فيجد انه من الضروري أن يعبر فنيا عن احساسه الثائر فيقول عن المستعمر البرتغالي:

وجالكاليكوت خذ ذى الفائدة
لعام تسعماية وست زائدة
وباع فيها واشترى وحكما
والسامري (برطله) وظلما
وسار فيها مبغض الاسلام
والناس في خوف (وفي) اهتمام
وانقطع المكس عن أرض السامري
وشد جرد فون للمسافر
(وخبرني) ما حمله الفرنجي
من جانب السودان شط اللجي
وهو الذي قد قهر المغاربة
واندلس في حكمه مناسبة(٣٧)

ويمضي شوموفسكي قائلا:

«وبعد فترة قصيرة يعود المؤلف (يعنى ابن ماجد) الى احداث عام ١٥٠٠ ـ ١٥٠١م: (ص٩٤أ س ١٦ ـ ٢٠):

وبعد ذا من عام تسعماية
وست جاؤا الهند يا أخايه
واشتروا البيوت ثم سكنوا
وصاحبوا وللسوامر ركنوا
والناس تضرب فيهم الظنونا
ذا حاكم أو سارق مجنونا
وتضرب السكة وسط البندر
بندر كاليكوت بين السفر
يا ليت شعري ما يكون منهم
والناس معجبين من امرهم

ويرى المستشرق ان في ابيات الاراجيزا نبرات ندم فيقول بعد هذه الابيات: وبهذا الندم المرير لملاح فاسكو دى جاما، والتاريخ الذي يشير اليه شهادة ذات أهمية تاريخية أدبية من الدرجة

الاولى. ولا يوجد حتى الان أي مصدر آخر يتضمن هذه المعلومات من المصادر التي بنيت عليها دراسة فاسكو دى جاما وابن ماجد. وهناك في نهاية كل من الاراجيز الثلاثة يرد لحسن خاص يكمل الصورة العامة للمزاج الفكري عند المؤلف (الناظم) فهناك الشكوى من هبوط روحه المعنوية التي يفسرها على ما يبدو بضعف التأثير الاسلامي في الخارج(٣٨). واشارات ابن ماجد الى البرتغاليين وملاحظات محققها المذكورة أثارت اهتمام المستشرق الروسي الاستاذ اولدوروجي الذي كتب لها مقدمةيقول فيها بعد ان ذكر اربعة ابيات منها اولها (وجالكاليكوت):

«وكان قدر ابن ماجد تراجيديا، فقد كان شاهدا على ما قام به البرتغاليون من افناء للسلاطين العرب في شرق افريقيا وتدعيم قبضتهم على لبنة الاستعباد الاستعماري لشعوب جنوب آسيا. ومنذ ذلك الحين مرت ٤٥٠ عاما كانت لشعوب الشرق فترة ظلم واستعباد ...الخ»(٣٩) وادرك شوقي ضيف أهمية رجز ابن ماجد التاريخية الادبية. تاريخ الجزيرة العربية وأدبها وأهمية ملاحظات شوموفسكي واولدروجي فقال وهو يتحدث عن الملاحة العربية وعن ابن ماجد:

«ومن سوء طالع هذا العالم العربي الفذ من علم الملاحة البحرية وهو على وشك أن يختم حياته وقد بلغ سبعين عاما ونيفا أن تعرف عليه في (مالندى) بشرقي افريقيا فاسكو دى جاما البرتغالي، وكان قد يئس من الوصول الى الهند عن طريق البحر، اذ كان يجهل هو وربابنته البرتغاليون الطريق البحري اليها، وكانت سفنهم كلما خرجت في المحيط الهندي واتجهت نحو الهند تحطمت ولم ينج منها أحد. ونعجب أن نرى ابن ماجد يتحول له مرشدا يهديه الطريق في سنة ٩٠٦ للهجرة الى كلكتا في الهند. وبذلك يكون ــ لغفلته ــ اداة للاستعمار البغيض. البرتغالي اولا. ثم الانجليزي والفرنسي والهولندي، من شاطئ افريقيا الشرقي الى جزر الهند الشرقية وبحر الصين. وسرعان ما شعر بسوء فعله، فصور ذلك مرارا من ألم ومرارة عن فاسكو دى جاما واصحابه البرتغاليين في الارجوزة الاولى من «ثلاث ازهار في معرفة البحار».

وجا لكاليكوت خذ ذى الفائدة
لعام تسعماية وست زائدة
وسار فيها مبغض الاسلام
والناس في خوف وفي اهتمام
واشتروا البيوت ثم سكنوا
وصاحبوا وللسوامر ركنوا

وهو يريد ــ الكلام لشوقي ضيف ــ بالسوامر البرتغاليين نسبة الى السامري الذي صنع العجل وعبده بنو اسرائيل، يريد انهم كفار. ومع ذلك صاحبهم حكام ثغر كاليكو ت في الهند. وكانما عرف قصر نظره وشفاعة عمله بعد فوات الاوان. ومع انه اكثر من الاراجيز والقصائد مما يدل على ان نبع الشاعرية عنده كان فياضا يختل الوزن عنده احيانا»(٤٠).

وتفسير شوقي ضيف لمعنى لفظة (السوامر) لاوجه له هنا فالسوامر هو رهط السامري حاكم كاليكوت كما ذكر زين الدين المعبري في (تحفة المجاهدين) وابن رزيق والسالمي وغيرهم من المؤرخين. وقد سامر المعبري تفاصيل الفظائع التي ارتكبها البرتغاليون وصب بعض غضبه وسخطه على السامري والسامريين باسلوب مشبع بالالم والمرارة التي لاحظناها في رجز ابن ماجد.

ان القيمة الادبية والفنية لمنظومات ابن ماجد ضئيلة لافتقار الشعر التعليمي كله الي عناصر الفن والجمال الا ان هذه القيمة الضئيلة لا تنفي أنها أثر منظوم من أثار الادب عكس مشاعر عالم كبير وأديب شاعر عبرت تعبيرا صادقا عما تركه الغزو البرتغالي في نفسه ونفوس العرب والمسلمين من ابناء عصره. ولا يفوتنا ان ابن ماجد ينظم للربابنة والملاحين وهم صنف لا يلم بأصول الثقافة الادبية واللغوية المام طلاب علوم اللغة والنحو والفقه والكلام وسائر الذين اعتاد أن ينظم لهم شيوخهم اراجيز الشعر التعليمي. ثم ان اراجيز ابن ماجد بمثابة دليل بحري ملاحي علمي جغرافي للرحلات عبر البحار والمحيطات فهو اذن ضرْبٌ من النظم يتيح للناظم فرصا للتصوير والتلوين والتنويع والتطرق الى بعض الاحداث ووصف احوال البحار والجزائر على الرغم من الصعوبات العديدة التي تعترض النظم في هذا النوع الفريد النادر من الشعر التعليمي لان كثرة الاسماء الغريبة للجزائر والبحار والسواحل والمدن والاقوام اضافة الى ما تنطوي عليه علوم الملاحة من المصطلحات العلمية والاسماء الاعجمية والمعربة والمحرفة والعامية تضطر الناظم الى اثقال النص المنظوم وارباك وزنه بالعلل والزحافات والالفاظ والعبارات الخارجة على قواعد اللغة والنحو والصرف ومع هذا كله فان هذه المساوئ والهفات قليلة بالقياس الى ما ذكرناها من خصائص هذا الضرب من النظم ومشكلاته.

واذا تركنا ابن ماجد واراجيزه فلا نكاد نجد في أثار القرن العاشر الادبية ما يدل على تأثر الشعراء والكتاب والادباء بأحداث الغزو البرتغالي وهو في مرحلته الاولى. أيكون هذا خطأ سببه قلة مصادرنا وضياع الاشعار ودواوين الشعر والنثر؟ أو ان الهزائم التي أنزلها البرتغاليون بالعرب من العمانيين والحضارمة وابناء الخليج والهنود المسلمين وبالاسطول المصري والعثماني قد شلت المواهب واخرست الالسن فسكتت وكأنها تنتظر نصرا كبيرا على الغزاة ينفس عن مشاعر الغيظ المكظوم ويطلق السنة الشعراء والادباء من حبوسها؟ وهل كان سبب هذا السكوت الصراعات العنيفة على السلطة والحروب الداخلية المستمرة في عمان وحضر موت واقطار الخليج العربي من شيوخ القبائل والامراء وهي حروب استهلكت طاقات الشعراء ومواهبهم وشغلتهم كما شغلت الزعماء المتنازعين المتوالية ونجاحهم في احتلال صحار وجلفار وقريات وهرمز والبحرين والقطيف والصعود حتى جده ومحاولة غزوها وقطع الطريق على السفن العربية في المحيط الهندي ومنعها من الوصول الى شرقي افريقيا والهند وارتكابهم ابشع جرائم القرصنة في البحر والحرق والنهب والتدمير واسترقاق الاسرى والسبي في البر ثم قيامهم زيادة على هذا بالتدخل بين المتنازعين في عمان وظفار ومساعدة بعضهم

وتحريضه على الاخرين للتخلص منهم جميعا. وهل كان السبب ضعف العرب والمسلمين في ذلك العصر نتيجة التفرق والتمزق وسقوط الدول العربية الكبرى وغير ذلك مما يطول ذكره؟ مهما كانت اسباب سكوت الشعراء والادباء ازاء الغزو البرتغالي فما على الباحث الا تسجيل هذا السكوت والمعنى في البحث والتنقيب املا في العثور على ما يغير الصورة أو يصححها. ففي سنة ١٤٩٧م/ ٩٠٥هـ وصل فاسكو دى جاما الى شرقي افريقيا ثم عبر الى الهند وعاد في سنة ١٥٠٠/ ٩٠٦ ـ ٩٠٧هـ عاد باسطول اكبر الى المنطقة وانتزع السيادة على المحيط الهندي من العمانيين ثم غزا البرتغاليين بعد ذلك عمان. وكان على عرشها آنذاك الامير الشاعر سليمان بن سليمان النبهاني آخر امراء بني نبهان. وقد عزله العمانيون في تلك السنة نفسها بعد ثورة الاباضية وانصارهم فهرب الى هرمز وعاش حتى سنة ٩١٥هـ/ ١٥١٠م. أترى ان هذه الحروب الداخلية قد شغلته عن ادراك خطر الغزو البرتغالي؟ أو ان احداثه المبكرة جرت في شرق افريقيا والهند بعيدا عن عمان؟ ولكن الوقائع التالية من تاريخ عزل الامير النبهاني سنة ٩٠٦هـ وفراره ووفاته سنة ٩١٥هـ دارت على سواحل عمان نفسها، فقد احتل البرتغاليون صحار وقريات وقلهات قبل وفاته. ولكن الذين رووا بعض اخباره واشعاره ونشروا ديوانه في عصرنا هذا لم يشيروا الى أي أثر من آثار الغزو البرتغالي في شعره. ولم اعثر على نتيجة من الديوان في بغداد كي اتأكد من خلوه من اية أشارة الى البرتغاليين وهو ما ارجحه لان الامير الشاعر كان منشغلا بالدفاع عن عرشه وحياته وما جلب له عزله وفراره من هموم وصدمات نفسية ابعدته عن مسرح الاحداث.

وكان النبهاني اكبر شعراء عمان في عصره وشعره كما يقول شوقي ضيف «يفيض بثقافة لغوية وادبية جيدة وهي ثقافة تتضح بجلاء في معارضاته الكثيرة للشعراء. ولكن من الحق انه مع هذه المعارضات الكثيرة في ديوانه واغاراته على معاني الاسلاف واخيلتهم وافكارهم شاعر مجيد يحسن وصف الكلم والموضوع الاساس في ديوانه والفخر وهو شئ طبيعي اذ كان سلطانا وصاحب دولة ...الخ»(١) ويذهب اهتمام النبهاني ايضا على الغزل ووصف مجالس الشرب واللهو، ويقول على عبد الخالق عن شعر النبهاني انه «تعبير عن ملذاته ونمط حياته وهي ذاتية ملك شاعر، تماما كما كان الشأن في امرئ القيس الملك الضليل، النبهاني هو الملك العربي وقد دفعه الى ذلك حياة الترف واللهو والغنى ..الخ» ثم يبالغ على عبد الخالق حين يعقب: «وشعر النبهاني اصدق مثال للغزل الناضج واللهو والمجون ..»(٢) فاذا وصفنا غزل النبهاني المعن في التقليد والنسج على منوال الجاهليين والاسلاميين بالعربدة والمجون فماذا يقول عن غزل امرئ القيس وابو نواس ومن لف لفهم؟ وفصل المقال من النبهاني وشعره أن ظروف حياته وسلطنته التي عصفت بها الاهوال السياسية الداخلية، وابتداء الغزو البرتغالي في شرقي افريقية سنة ٩٠٦هـ هي السنة التي خلع فيها ووصول البرتغاليين عمان بعد خلعه بوقت قصير ثم وفاته عام ٩١٥هـ قبيل سقوط مسقط بايديهم كل ذلك حال دون تأثره وتأثر شعره بوقائع الغزو البرتغالي ونتائجه المدمرة. ولم تتحسن الاحوال السياسية في عمان

خلال امامة محمد بن اسماعيل الخرصي (٩٠٦ ــ ٩٤٢هـ) بل ازدات سوءا وتمزقا في آخر سني حكمه وخلال حكم خلفه بركات بن اسماعيل وبقيت في اسوء حال حتى عام ١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م عندما بايع العمانيون ناصر بن مرشد اليعربي الازدى وبولايته انتهى عهد بني نبهان الاخير واسست دولة اليعاربة التي اعادت اليها الوحدة والقوة وبعثتها بعثا جديدا. وكان البرتغاليون قد احكموا سيطرتهم على ثغور عمان وتحصنوا في مسقط والبحرين والقطيف وهيمنوا على الخليج العربي هيمنة تامة وفرضوا سيادتهم على ساحل الهند الغربي الشمالي وعلى كلكتا وعلى الثغور المهمة من ساحل افريقيا الشرقي والقرن الافريقي وجعلوا المحيط الهندي تحت قبضتهم البحرية.

وبأمامة ناصر بن مرشدابتدأت مرحلة تحول حاسم في تاريخ عمان والخليج العربي والمحيط الهندي فقد وحد الصفوف بقوة وحزم وحصانة سياسية وقضى على الفتن والمغامرات والاطماع وجعل من عمان دولة قوية وسجل بداية النهاية لمأساة الغزو البرتغالي عندما دحر البرتغاليين عدة مرات واسترجع منهم معظم الثغور العمانية جنوب مسقط وحاصرهم وضيق الخناق عليهم في مسقط التي اصبحت آخر المعاقل الحصينة التي اهتموا بها.

والذي يعنينا هنا ان المصادر التي بين أيدينا لا تقدم لنا نصوصا شعرية أثرية أو صدى من اصداء الغزو البرتغالي من أدب عمان والخليج بين اوائل القرن العاشر واواسط القرن الحادي عشر للهجرة. لقد انجبت عمان واقطار الخليج عشرات الشعراء والادباء فالشعر كان وما زال فيها هو الفن المفضل على فنون الادب بدليل ان اسماء شعرية عديدة تتردد في المصادر التاريخية مع نماذج أو شواهد من شعر الحماسة والفخر والمديح الذي قيل في اثناء النزعات والحروب المتوالية بين الامراء أو بين شيوخ القبائل الكبيرة، وليس من المعقول ان تتعاقب احداث الغزو البرتغالي وتمر على اغتصابهم الثغور العمانية السنين دون ان يسمع صدى من الاصداء في شعر شاعر او نثر اديب. والرأي الراجح في ضياع دواوين الشعر والمصنفات هو الذي حرمنا من العثور على نصوص نجد فيها بغيتنا. ولعل اكتشاف ما فقد أو بعضه ونشره في المستقبل كفيل بازاحة الظلام المخيم على الحياة الادبية خلال فترة الغزو التي استغرقت القرن العاشر والحادي عشروغمطتمن تاريخ عمان العصر التاريخي والادبي الممتد بين اخر عهد النبهانيين واواسط عهد البصريين.

فالملاحظ ان الحياة الادبية قد نشطت وان الشعر قد انتعش بعد انتقال الحكم الى اليعاربة ونجاحهم في بعث عمان القوية من جديد وتسنى للشعراء ان يتغنوا بامجاد ناصر بن مرشد واحلافه وانتصارهم على الغزاة البرتغاليين ومن هذا يقول الدكتور عبد الخالق على: «كان قيام الدولة اليعربية (١٦٢٢ ــ ١٧٤١م) مدفوعا باسس دينية، وبدأ منذ نشأتها دورهاالبارز في طرد البرتغاليين من منطقة الخليج العربي وشرف افريقية الى جانب صراع المواجهة المنتظر مع الفرس جهة الشرق. ووضحت القوة الحربية لهذه الدولة، كما غدا اسطولها يسيطر سيطرة شبه كاملة على طريق التجارة الى الهند. ومع هذه النهضة الحربية فاننا سنكتشف ان الحياة الادبية فيها بقيت تسير على نمط الشعر

في عهد بني نبهان (٥٤٩ ــ ٨٠٩هـ/ ١١٥٤ ــ ١٤٠٦م) رغم ان كثير من الائمة كانوا يتذوقون الشعر كما ورد عن الامام يعرب بن سلطان اليعربي قوله:

ولما رأيت الناس لم أر صاحبا
أخا ثقة في النائبات العظائم
وأبصرت فيهم من رخاء وشدة
فلم أر منهم غير كسب الدراهم

أما شعراء هذا العصر فمن جملتهم خلف بن سنان الغافري، ومحمد بن مسعود الصارمي، وعلى بن ناصر الريامي والحروقي والحبسي. وهؤلاء قالوا الشعر في مدح أئمة اليعاربة وذكر انتصاراتهم في الخليج والهند وشرق افريقية»(٤٣).

ونحن لا يهمنا كثيرا في هذه الدراسة ما قيل وما يقال عن القيم الفنية والجمالية لشعر هذا العهد من خلال موازنته بشعر العهد النبهاني والعهد العباسي، ولا يصح ايضا الحكم عليه وفق معايير النقد الحديث والذوق الادبي والنقدي المعاصر وهذا ما يلاحظ على اقوال صاحب (الشعر العماني) وأحكامه. انما الذي يعنينا ويشغلنا حقا ان الحملات التي شنها اليعاربة على البرتغاليين المعتدين والانتصارات التي احرزوها ونجاحهم في طرد الغزاة من ثغور الخليج والبحر العربي ومن موانئ الساحل الافريقي الشرقي قد انعكست صور منها في شعر الشعراء ومن النثر الديواني الرسمي والنثر التاريخي. صحيح ان هذه الصور أو الاصداء ليست كثيرة أو انها لا تتناسب مع الانتصارات العربية وان قيمتها الفنية لم تصل المستوى الذي وصل اليه الشعر العربي في عهود الازدهار والتفوق الماضية الا انها ذات اهمية كبيرة اذ قيست بظروف العصور المتأخرة السياسية والحربية والادبية والفنية. ولو وصلتنا دواوين شعراء العصر اليعربي لتوفرت لنا شواهد اكثر مما رواه ابن رزيق والسالمي والمصادر التاريخية والغريب اننا لا نجد في شعر العهد اليعربي قصائد أو مقطوعات تشيد بأمجاد الامام ناصر ابن مرشد مؤسس دولة اليعاربة وتتغنى بانتصاراته على البرتغاليين الا ان الادب الديني والقصصي الشعبي يحفل باقاصيص واخبار اشبه بالاساطير والحكايات التي ينسجها الخيال الشعبي حول كبار الابطال.

ولعل الشعر الذي قاله الشعراء في مدحه قد فقد أو لم يصل الى الرواة الذين اعتمد عليهم ابن رزيق والسالمي وغيرهما أو ان هذا الامام اليعربي الزاهد المقتدي بالرسول (ص) والصحابة الابرار لم يكن يثيب الشعراء أو يجزل لهم العطاء شأنه شأن اغلب مؤسسي الدول الكبار لذلك وجدنا كل الاشعار التي تغنت بانتصارات العمانيين وصورت هزائم البرتغاليين موجهة لخلفاء ناصر بن مرشد ولا سيا خلفه وابن عمه سلطان بن سيف (١٠٥٠ ــ ١٠٩١هـ) الذي «شمر وجاهد ونصب الحرب لمن بقى من النصارى (البرتغاليين) بمسكنه (مسقط) وسار عليهم بنفسه حتى نصره الله عليهم وفتحها، ولم يزل يجاهدهم في بر وبحر فاستفتح من بلدانهم وخرب كثيرا من مراكبهم وغنم كثيرا من

اموالهم»(٤٤) كما تغنى الشعراء بامجاد ابنه وخليفته بلعرب بن سلطان ثم خلفه سيف بن سلطان الملقب (قيد الارض) الذي: «حارب النصارى في كل الاقطار واخرجهم من ديارهم وابتزهم من قراهم. وأخذ منهم بندر ممباسة والجزيرة الخضراء (زنجبار) وكلوة وبات وغيرهن من البلدان من ناحية الزنج بأرض السواحل»(٤٥) وكان والده سلطان كما يقول وندل فيليبس: «قد وجه اهتمامه خلال حكمه ايضا الى افريقية فطرد البرتغاليين من كل الموانئ شمال قناة موزمبيق، وجعل من عمان العامل الحاسم في شوؤن افريقيا»(٤٦).

ويذكر المؤرخون انه قام بذلك مستجيبا لاستنجاد وفد من كبار ممباسا ناشدوه انقاذهم من نير البرتغاليين وجرائمهم الوحشية، فقامت السفن العمانية بالغارة على زنجبار واستولت على المستوطنات البرتغالية فيها فاعلنت ملكة زنجبار ولاءها لسلطان عمان(٤٧) ولا ريب في ان هذه الانتصارات المجيدة قد ألهبت حماسة الشعراء فترنموا في مدائحهم لهؤلاء الائمة السلاطين. ولا ريب ايضا في ان تحسن الاحوال المالية بفضل هذه الانتصارات قد اتاح لهم ان جزلوا العطاء للشعراء فافاضوا في مدحهم والاشادة بامجادهم الحربية. وكان الشاعر خلف بن سنان الغافري أول من لفت انظار مؤرخي الادب الذين انتبهوا الى الغزو البرتغالي وأثار بعض اصدائه في الشعر العماني. وكان ابن سنان أحد قضاة الامام سلطان بن سيف اليعربي وكان عالما فقيها محبا للادب يحسن قرض الشعر على طريقة الفقهاء المهتمين بالتاريخ وقد نظم قصائد طويلة فذكر السالمي في تحفة الاعيان ثلاثة واربعين بيتا احداها اكثر من ذلك كما يفهم من قول المؤرخ وقد لفتت بعض ابياتها التي ذكرت البرتغاليين وأشادت بانتصارات الإمام سلطان عليهم انكار بعض المؤرخين العرب المهتمين بتاريخ الخليج كالاستاذ سليم طه التكريتي فذكر ثلاثة ابيات فيها في فصل تاريخي خصصه للغزو البرتغالي(٤٨). ولفت هذا الموضوع نفسه انظار مؤرخ الادب الكبير الدكتور شوقي ضيف فقال وهو يتحدث عن شعراء الخوارج في الجزيرة العربية: «وتعود عمان الى النبهانيين فترة من القرن العاشر، ثم يستولى عليها نهائيا ناصر بن مرشد (١٠٢٤ ــ ١٠٥٠هـ) وتظل منذ هذا التاريخ في أيدي الخوارج. وكان البرتغاليون قد نزلوا في شواطئها، فاخذ ينازلهم وظلت مدينتا صحار ومسقط في ايديهم، واستطاع خلفه سلطان بن سيف اليعربي (١٠٥٠ ــ ١٠٩١هـ) أن يطردهم من البلاد نهائيا وتبعهم اسطوله ينكل بهم وباسطولهم في شرقي افريقية وغربي الهند. وفي ذلك يقول شاعره خلف بن سنان الغافري ممجدا:

ثم اودى لمسقط سقط عزم
اسقط الظالمين منه ضرائم
وغدت من عمان كف بني الاحد
فر صفرا قد هزها الانهزام

و بممباسة اذاقهم بأسا بئيسا سيئت به الاصنام.

ولدى زنجبار زجر فيهم

رعد زجر لم ينج منه اعتصام

ويمباني نابهم منه نات

لم يشبه عن المضى انهتام

وهو يشيرالى انتصارات اسطول سلطان على الاسطول البرتغالي في ممباسة وزنجبار ومن بمبي بالهند وهي انتصارات جديرة بكل تمجيد وأشادة(١١) وليس هذا كل ما جاء في هذه القصيدة الطويلة عن انتصارات سلطان بن سيف على البرتغاليين. فمنها ايضا: وفدوا (مسقطا) وعدة بلدان عليها ومع القسوس سجام

وقوله يصف رعب البرتغاليين:

أيهم العقل عنهم فاتاهم

عنوة ما اصفرت به الابهام

همهمت فيهم رعود حتوف

من همام في ملكه مهمائم

وسباهم ألفي أسير كأن قد

مازج الدمع منهم العلام

واقتنى منهم كنوزا غدا

يبهر منها قارون بل بهرام

وعن استيلاء العمانيين على حصنين في مسقط ذكر الجلالي والميراني يقول ابن سنان:

ماد عن أرضها كفيتا ومور

بهد شهد له المرار طعام(٢٠)

وتجلى عنها جلال

فلله علينا الاجلال والعظام

وواضح جدا ان هذا الشعر بعيدا جدا عن الازدهار الذي وصل اليه شعر الحماسة في العصرين الجاهلي والاسلامي وفي العصر العباسي وخاصة في شعر ابي تمام والمتنبي وأبي فراس الحمداني وليس هذا بغريب فقد غلب الضعف على الشعر العربي بوجه عام في هذا العصر، اذ اننا أزاء شعر نظم في القرنيين العاشر للهجرة وهو من أشد عصورنا الادبية ظلاما يقطع الناس الشعراء بل يخنقهم خنقا. ولعل عمان هو المكان الوحيد في الوطن العربي الذي نجد فيه شعراء يتغنون بانتصارات عربية خالصة.

وقد امتدح شاعر آخر هو محمد بن مسعود الصارمي سلطان بن سيف اليعربي بقصيدة طويلة وصف فيه هجومه على (تبة) التي كان البرتغاليون يتعاظمون فيها وهنأه بالنصر مفتخرا بشجاعة

وحسن قيادته وفتكه بالبرتغاليين واسترجاعه الحصن منهم ودفعهم بالذل والخزى والافتضاح. ويفتح الصارمي قصيدته بالغزل على عادة الشعراء القدماء قائلا:(٥١)

كشفن عن تلك الوجوه الصباح
اذ زمت العيس ليوم المزاح
وجئن يختلن يعاتبنني
يبسمن عن دركلون الاماح

وفيها يقول عن الهجوم على بتة وتحريرها من البرتغاليين:

اطوى الغلا واليم في فيلق
يطفئ ضوء الشمس والجو صاح
حتى اتينا بتة ما لضحى
ثم نزلناها بأرض بمراح
قلت لاصحابي لاتحزنوا
من عنده الله فلا يستباح
اصطنعوا الصبر ولا تجنبوا
عند الوغى فالجبن لؤم صراح
ثم اعلموا لابد للمرء من
موت وبالهندي فيه الفلاح
فامتثلوا الامر ولا قصروا
وجردوا اسيافهم والرماح
فاقتحموا السور كأسد الفلا
واشتدت الحرب وضرب الصفاح
كأنما القتلى بأرجائها
من فئة الافرنج صرعى طراح
كأنهم اعجاز نخل بها
منعقر من عاصفات الرياح
فانهزم الافرنج من بتة
بالذل والخزى وبالافتضاح
بعدا لهم بعدا وسحقا لهم
من قوم سوءووجوه قباح

بعزم سلطان بن سيف الذي
أباد اهل الكفر يوم الكفاح

وتكثر القصص التي تصود بطولة سلطان بن سيف محرر مسقط المنتصر على البرتغاليين في كل مكان وجدوا فيه في عمان وسواحل الخليج والساحل الشرقي لافريقيا ومن هذه القصص مادار حول وقائع حقيقية كالرواية التي تسرد حكاية الهندي البانباني سكبيلة الذي كان هو واخوه نروثم يعملان مع البرتغاليين وكيف حاول القائد البرتغالي اجباره على ان يزوجه ابنته الهندية الجميلة وكيف رفض البانباني ذلك ثم تظاهر بالموافقة واتصل برجال الامام السلطان بعد ان استعان بالجميلة فاتلف طعام البرتغاليين فتقدم العمانيون بالهجوم فجر يوم الاثنين لان البرتغاليين يتأخرون عن القتال لكثرة ما يشربون من خمور وما يأكلونه مساء الاحد(٥٢).

ومن الادب الفصيح المواعظ والرسائل التي كتبها الزهاد والعلماء من اهل لادب للامام ناصر والامام سلطان وقد ذكر احداها السالمي في تحفة الاعيان وهي فصيحة أي موعظة وجهها الشيخ سعيد بن أحمد لاحد الامامين ناصر أو سلطان لان الناقل لم يعرف لايهما. وهي طويلة غطت نحو سبع صفحات من كتاب تحفة الاعيان. وتبدأ الموعظة بالبسملة وحمد الله والدعاء للامام وللامة بالرحمة والنصر وقهر الاعداء. واسلوبها فصيح والفاظها مختارة وعباراتها واضحة تقل فيها السجع وتكلف البديع واستعمال القريب.. وهي على أية حال نموذج جيد يمثل رواج أدب المواعظ في هذا العصر المتأخر.

ويتوفى سلطان بن سيف ويتولى الامامة بعده ابنه بلعرب بن سلطان سنة ١٠٩١ه «فقام بالحق وسار بالعدل وعمر جبرين وبنى حصنا وانتقل من نزوى اليها.. الخ ومن اطراف ما روى المؤرخون من اخباره وصول رجل من اهل جربا من تونس يدعى الشيخ عمر بن سعيد الجربي الاباضي وقد سر الشيخ المغربي بأحوال عمان ولكنه رأى مجالس العلم بها قليلة فكتب للامام موعظة تنصحه بأن يحث الرعية على طلب العلم وتقويم المجالس وعمارة المدارس. وهي موعظة طريفة واسلوبها يعد خلوا من التعقيد، يختلف عن اساليب مواعظ العصور المتأخرة المثقلة بالسجع وبانواع البديع المتكلف(٥٣).

وطرافة هذا الخبر المروي تتجلى من دلالته على اهتمام العمانيين الاباضية وتحسن علاقاتهم بأباضية المغرب والتعاون واياهم في المجالات الدينية والثقافية والافادة مما ينجم عن هذا التعاون من منافع سياسية(٥٤). وقد نشط الشعراء في مدح الامام بلعرب. يقول السالمي:

«وقد كثر الناس في الثناء على هذا الامام، ورأيت في مدحه ديوانا حافلا محتويا على قصائد طنانة بلغت من فنون البلاغة مبلغا عظيما. وعلى هوامشها تنبيهات على انواع البديع في الابيات وقد غاب عني هذا الديوان فلم اره منذ زمان وانما رأيته ايام الصغر واحفظ من اوائل بعض قصائده ابياتا ..الخ

والقصيدة الثانية التي أذكر منها ابياتا مطلعها:

الله اكبر جاء الفتح والظفر واشرقت في الدياجي الانجم

واصبحت سبل الاسلام واضحة

اعلامها واستقام السمع والبصر(٥٥)

وواضح أن معنى البيتين يتضمن فيا يتضمن التنويه بانتصار العمانيين على الغزاة البرتغاليين فالفتح والظفر واشراق الأنجم المضيئة في الدياجي ووضوح سبل الاسلام واعلامها تدل على أن الهزيمة قد الحقت بالمعتدين على بلاد المسلمين. واكبر الشعراء ايام الامام بلعرب بن سلطان (١٠٩١ ــ ١١٠٤هـ) هو الحبسي راشد بن خميس بن جمعه وقد اشاد بشاعريته السالمي في تحفة الاعيان وكتب له ترجمة وافية ذكر فيها ان للحبسي مدائح في الامام بلعرب وله فيه رثاء ومدائح في غيره من ائمة اليعاربة وله مدائح نبوية على عدد حروف المعجم صدر بها ديوانه الذي فيه من فنون الشعر شئ كثير(٥٦) ولم يصل الينا هذا الديوان. ومع هذا فان في القطعة التي ذكرها السالمي وهي من قصيدة نونية في مدح الامام بلعرب ابياتا تفخر بانتصار العمانيين على البرتغاليين ولاسيا قوله:

وقائل من ملوك الارض خائفة

منه وتحمده في السر والعلن

ومن إذا سار في جيش تضيق به

وسع البلاد ووسع السهل والقنن

جيش يبيد العدى في البريعقبه

جيش يبيد اهيل الشرك في السفن(٥٧)

ولا ريب في ان المقصود بـ (اهيل الشرك في السفن) هم البرتغاليون الذين يثبت فلول منهم. وبعض سفنهم التي كانت تمارس القرصنة في الخليج بعد ان فقدت صلتها بقيادتها ولم تبق لها قاعدة بحرية ترسو فيها. ولم ترو المصادر كثيراً من شعره مع انه كان اكبر شعراء العصر واكثرهم مدحا للامام بلعرب وخلفه سيف بن سلطان قيد الارض الذي قضى على الغزاة البرتغاليين قضاءاً تاما وحارب النصارى في جميع الاقطار وعمل لهم مراكب عظيمة في البحر، وعظم جيشه وقوى سلطانه حتى قيل انه اجتمع له في الجيش الذي دخل به الى الهند ستة وتسعون الف عنان (يعنى الحصان وراكبه) وكان له تسعون الف حصان ذكرها الحبسي في قصيدة خاصة بها سماها الخليلة وهي من اجود شعره كما يرى السالمي. وقد وردت في بعض ابياتها عبارات وصور مستوحاة فيا يبدو من الحروب والحملات البحرية التي شنها الامام قيد الارض على بقايا البرتغاليين كقول الحبسي فيها يصف خليه:

كادت تكون مع العنقاء طائرة   لو لم تكن بيدي فرسانها اللجم

فكيف تقوى العدا يوما على شهب
بها الشياطين في يوم الوغى رجموا
لم ينج منهزم ملتجئ
لو أنه برؤوس النيق معتصم
تستغرق البر والامطار ساكبة
وتقطع البحر والامواج تلتطم
ومن طمراتها الف معودة
للحر ب باشقوة الاعداء لو علموا(٥٨)

وبعد ان يروي السالمي القصيدة كلها يعقب قائلا عن الامام قيد الارض:
«واخذ من النصارى ممباسا والجزيرة الخضراء وكلوة وبتة وغيرهن من البلدان التي بالزنج ومن البلاد التي بالهند. كذا قيل والصحيح ان ممباسا وكلوة اخذها والده الامام سلطان بن سيف»(٥٩). وقد مر بنا شعر محمد بن مسعود الصارمي الذي يصف هجوم سلطان على (بتة) في شرقي افريقية واقتحم حصنها واحتلاله،وطرد البرتغاليين منه. وارجح الظن ان هذه الحملة البحرية البرية هي التي طردت البرتغاليين ايضا من ممباسا وغيرها من المواقع على الساحل الافريقي. وممن اشار الى الغزاة البرتغاليين والانتصار عليهم شاعر آخر غير معروف هو محمد بن صالح المنتفق البصري ساكن الصير، ويبدو انه شاعر عراقي نزح اليها، وورد ذلك في قصيدة رثى بها الامام سيف بن سلطان بعيد وفاته سنة ١١٢٣هـ. ويقول السالمي انه لم يظفر بها كلها وانما وجد فيها قطعة لا تخلوا من تحريف. والذي يهم موضوعنا منها قول المنتفق فيها:(٦٠)

فسل النصارى ما رأوا من برهم
والبحر من تلك الجيوش الغاشية
كم احرقوا كم اغرقوا من مرة
كم ذوقوا ضربا يهد الناصية
كم مزقوا بددا فشبههم على
ضأن غشت فيها سباع ضارية
ما بالكم اولاد الاّصفر صفرت
جمر الوطيس وجوهكم يا صابية
ثم انقلبتم خاسئين ومسكم
نفح الوبا فبطونكم كالخابية
وانشد مراكبه التيصدمت مرا
كبهم واهدتها بنادق حامية

الملك ثم الفلك ثم الناصري
مع كعب رأس كالجبال الراسية
كم خرّقت كم غرّقت كم حرّمت
من برشة حربية أو باغية

كم غادرت جثث الكلاب مجافة
أو جيفة في البحر تذليب طافية(٦١)

هذا ما جاء في القصيدة من الابيات التي تصف اندحار البرتغاليين وسفنهم وتفخر بقوة الاسطول العماني وشجاعة رجاله. ومع أن هذا الشعر لا يرقى الى المستويات الفنية العالية شأنه شأن اكثر ما قاله الشعراء في احداث الغزو، فان وصف الشاعر المنتفقي ما حل بالغزاة من الهزائم وما اصابهم من الويل والقتل والاسر في البر والبحر يخلو من الانفاس الشعرية. اما قيمته التاريخية التوثيقية فغاية في الاهمية لانها اوصاف شاهد عيان تصور على ما فيها من مبالغات الاصداء المدوية التي بثها الانتصار على الغزاة البرتغاليين في المحافل الشعرية والادبية وفي المجتمعات العربية في الخليج وفي البلاد العربية والاسلامية الاخرى.

واذا استثنينا الحبسي وهو شاعر فحل يتأثر بأسلوب ابي تمام والمتنبي ولا يعرف اسراف شعراء عصره في استعمال البديع فاكثر ما قاله الشعراء في الغزو البرتغالي ضعيف. وقد لاحظ الدكتور علي عبد الخالق في قصيدة خلف بن سنان «على هذا النحو يصور الشاعر فتوحات الامام (سلطان بن سيف البعربي ١٠٥٠ ــ ١٠٩١) على البرتغاليين ويتحدث عن انتصاراته عليهم في جزيرة زنجبار وممباسة ثم بمباي بأرض الهند. وعلى الرغم من أنها حروب ضارية وانتصارات عظيمة، الا أن تعبير الشاعر جاء ــ كما ترى ــ غاية في الضعف والركاكة. ولو أن الشاعر جرى على سجيته واطلق لوجدانه عنان التعبير. ولم يتقيد بقيود الزخرف واغلال البديع لاصاب القول، ولاثر في القلوب ولما وصل شعره الى هذا الدرك من الرداءة التي افقدته روح الاصالة واتقاد العاطفة والنغم المطرب، والمعنى المستقيم»(٦٢) واول هذا الكلام صحيح ولكن آخر الذي بدأ بقوله ولو ان الشاعر جرى على سجيته ..الخ، قول فيه نظر لان خلف بن سنان كان فقيها يحسن النظم على طريقة الفقهاء ويعجز عن البث والنفث والتفنن في التعبير والتصوير كما يفعل الشعراء فشعره والحالة هذه شعر علماء وقلما وجدنا فقهيا أو عالما يستطيع التحليق مع الشعراء المبدعين. والحق أن خلف بن سنان قد اطلق لوجدانه العنان فعواطفه صادقة بادية القوة، وابتهاجه بالانتصار على البرتغاليين غير مصطنع ولكن موهبة الفقيه قاصرة، وقدراته استنفذها اختصاصه بالفقه واستنفاله بالقضاء وتأثره المستمر بالاحكام واساليبها والكلف بالبديع الذي اغرم به شعراء العصور المتأخرة لا يمنع الموهبة الشعرية المقيدة باغلاله من أن تنتفض مرة أو مرات من قيودها فتجيد هنا وهناك فتطلق قطعة صغيرة رائعة أو بيتا سائرا قادرا على ارضاء كل الاذواق في كل العصور.

وما يقال عن شعر ابن سنان ينطبق على شعر ابن مسعود الصارمي وقد مرت بنا قصيدته الحائية التي اشادت بانتصارات سلطان بن سيف في عمان وفي شرقي افريقيا فهو كما يقول علي عبد الخالق لم يستطع تصوير الحب تصويرا صادقا فغزله تقليدي فرضه عليه منهج القصيدة القديم. «ولم يستطع تصوير رغبته في قتال الاعداء والذود عن الوطن» وليس سبب ذلك ان نفسه كانت موزعة بين عاطفة الحب والواجب الوطني كما يرى الباحث(٦٣)، فليس في شعره ما يدل على اصالة الحب وقوة العاطفة لانه يصطنع ذلك، اصطناعا في أول قصيدته جريا على العادة الفنية التقليدية. لهذا جاء تصويره للحروب وللانتصارات على الاعداء ضعيفا فاترا كما في قوله:

أطوى الغلا واليم في فيلق
يطفئ ضوء الشمس والجو صاح
حتى اتينا (تنة) بالضحى
ثم نزلنا ها بأرض براح

فالفليق الذي يطفئ ضوء الشمس لابد ان يطفئها «في جو صاح» فكيف يمكن ان يطفئ ضوءها اذا حجبها الغمام، فالعبارة مقحمة اقحاما ثقيلا من أجل القافية. وكذلك الجار والمجرور (بالضحى) في البيت الثاني فهي قلقة لانها الصقت الصاقا، أما عبارة (نزلناها بأرض براح) فهي ركيكة باردة ضاعفت ما في البيت من فتور.

اما المنتفقي فنظمه اكثر برودة وفتورا. بل هو أشبه بالنثر العلمي لا النثر الادبي وقافيته فيها ما لايطاق في التفاهة التي يأباها شعر الفخر والحماسة الذي لا يحتمل مثل هذا الاسلوب الباهت والقافية المائعة والنثرية المتعثرة التي جعلت هذا (الشعر) اشبه بالنظم التعليمي المبسط. فارجع الى القصيدة وهي طويلة كي تلاحظ صحة ما أقوله عنها منذ أول بيت في النطق:

فسل النصارى هل رأوا في برهم ... والبحر من تلك الجيوش الغاشية
كم احرقوا كم اغرقوا من مرة ... كم ذوقوا ضربا يهد الناصية

وشاعر العصر الكبير المقدم بلا منازع هو الحبسي: «فشعره صورة لحياته من فخار واعتزاز بأصله ونسبه، كان صورة لحياة الدولة اليعربية وانتصاراتها(٦٤) ولكن ديوانه لم يصل الينا فليس له ذكر بين الدواوين المخطوطة التي ذكرها الدكتور على عبد الخالق في آخر كتابه. ولاريب في ان هذا الديوان قصائد أو اشعار تتغنى بالانتصار على الغزاة وتقترب من الشعر الحماسي القديم والمحدث لان الحبسي يمتاز بموهبة شعرية متدفقة، وثروة لغوية كبيرة واسلوبه حسن السبك قوى التعبير يتابع اساليب كبار شعراء الاعصر العباسية كابن تمام والمتنبي. وقد كانت للغزو البرتغالي اصداء وانعكاسات وآثار في الادب المنثور لاتقل أهمية عما وجدناه في الادب المنظوم. وتلاحظ هذه الاصداء أول ما تلاحظ في الرسائل الرسمية المتبادلة بين السلاطين العمانيين وقادة البرتغاليين. وقد ذكر السالمي رسالتين رسالة القائد البرتغالي وهي اشبه بالانذار الى الامام سيف بن سلطان، وجواب سيف. قال السالمي:

وهذا كتاب من النصارى للامام سيف بن سلطان اليعربي:

الحمد الله فاطر السموات والارض أنت تحكم بين عبادك فيا كانوا فيه يختلفون. اعلم بأننا جنود الله مخلوقون من سخطه، مسلطون على من يحل عليه غضبه، لا نرق لشاكي ولا نرحم عبرة باكي، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل كل الويل لمن لا يتمثل لامرنا. قد خربنا البلاد واهلكنا العباد، واظهرنا في الارض الفساد فان اعجبكم شرطنا كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا. وان انتم ابيتم وعلى نعيكم تماديتم، فالحصون منا لا تمنع، والعساكر لدينا لا ترد ولا تدفع، لانكم اكلتم الحرام وضيعتم الجمع فابشروا بالذل والجزع، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تعملون. فان اعجبكم كلامنا اننا كفرة فقد صار عندنا انكم فجرة، قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، كثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل قد ملكنا الارض شرقا وغربا، واخذنا منها كل سفينة غصبا. وقد أرسلنا اليكم هذا الكتاب فاسرعوا برد الجواب قبل ان ينكشف الغطاء ولم تبق لكم باقية وينادى عليكم بالفناء هل تحسن منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا. وقد انصفناكم وارسلنا اليكم جواهر الكلام والسلام.

وهذا جواب الامام لهم:

«قل اللهم يا مالك الملك تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير». قد حصل الوقوف على هذه الكتبة الشاهرة لقولكم قد نزع الله الرحمة من قلوبكم، فهذا من اقبح عيوبكم وأشد وأشنع. وبغيتم وذكرتم انكم كافرون الا لعنة الله على الكافرين، من تعلق بالاصول فلا يبالي بالفروع نحن المؤمنون لا يصدنا عنكم ولا يدخلنا شك ولا ريب، والقرآن علينا قد نزل فهو رحيم بنا لايزل وخيولنا برية بحرية هممنا سامية عليه، ان قتلناكم فنعم البضاعة وان قتلتمونا فبيننا وبين الجنة ساعة، لاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله. وقولكم قلوبكم كالجبال وعددكم كالرمال: الجزار لا يبالي لكثرة الغنم وان الله مع الصابرين ... ان عشنا عشنا سعداء وان متنا متنا شهداء. الا ان حزب الله هم الغالبون، لقد جئتم شيئا اذا كاد السموات انفتحت منه وتنشق الارض وتخز الجبال هذا. فقل لصاحبك اذ رصع وشيد مقالته: حصل الوقوف على هذا الكتاب كصرير باب وطنين ذباب سنكذب ما قالوا ونمد لهم العذاب مدا. وما عندنا بعد ذلك الا الخيل تمطر بالويل والنار مطهرة العار، والسيوف مسقية الحتوف والسلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى، واطاع الملك الاعلى واختار الاخرة على الاولى. والصلاة والسلام على خير الانام محمد عليه افضل الصلاة والسلام(٦٠).

ورسالة القائد البرتغالي ضعيفة وان انبعث نهج الرسائل الديوانية العربية لابتدائها بحمد الله وانتهت بلفظة السلام وحدها والفاتحة والخاتمة فتجيب التعبير باسلوب المسلمين ولعل كا تبها راهب يعرف العربية ومن الغريب ان تتضمن عبارة تصف البرتغاليين بالكفر وترد على لسانهم هم.

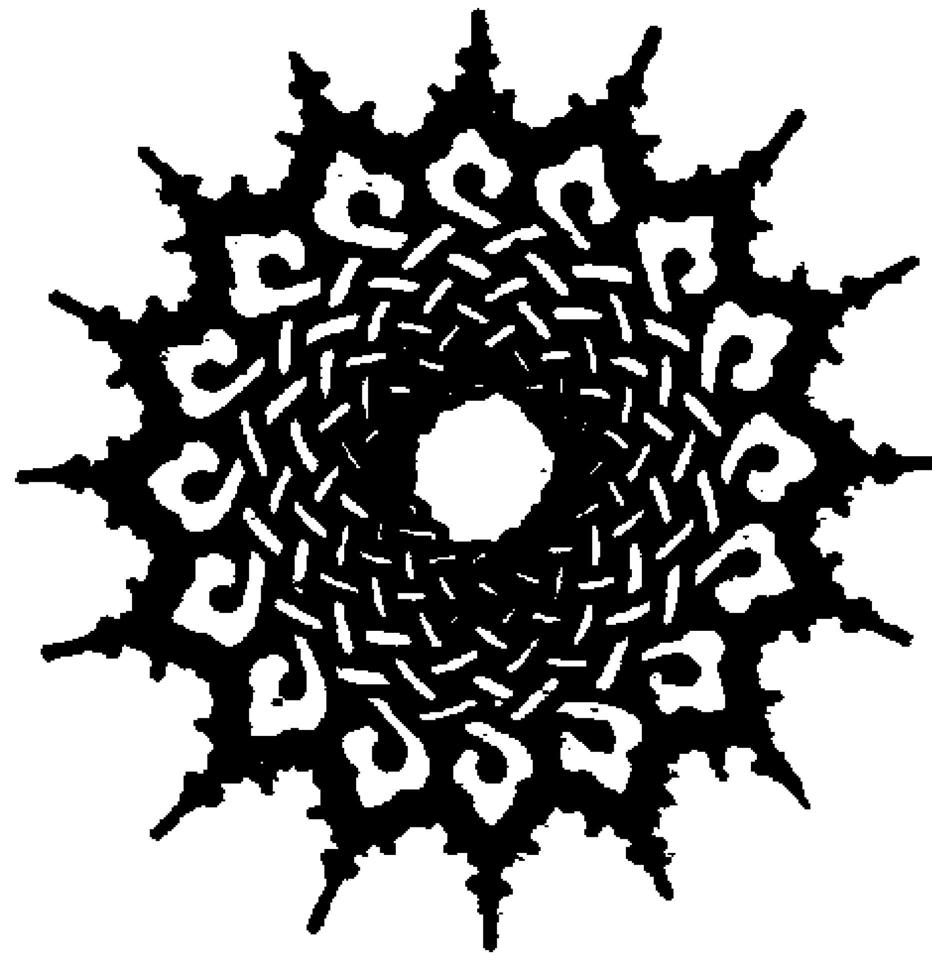
اما جواب سيف بن سلطان فنموذج جيد للرسائل الديوانية الرسمية فقد افتتحها بأحسن ما تفتح به الرسائل هي الاية الكريمة: قل اللهم مالك الملك ... ورد على رسالة خصمه أحسن رد لا يخلو من منطق وحجج بأقل لفظ واتم معنى ونجد الكلام ما قل ودل. وقد استشهد في انهائها بآية أخرى ورد على التهديد والوعيد بالوعيد والخاتمة أجمل وأروع ما فيها،فلفظة والسلام التي ختمت الرسالة ليست موجهة للقائد البرتغالي لانه آخر جملة الصلاة والسلام على النبي (هل) ومع هذا فورودها من آخر الرسالة لفتة بارعة في غاية الفطنة والذكاء.

ولا اشك في أن رسائل كثيرة من هذا النوع قد يتبادلها الطرفان ولكن المصادر لم تذكر سوى هاتين الرسالتين. والاسلوب ناضج بعيد عن التعقيد واستعمال السجع والمحسنات البديعية، مما يدل على أخذ كتابها بالامر الواقع الذي تفرضه امور السياسة والحرب على الاسلوب. وكان ابن خلدون قبل هذا العصر قد نصح بالتزام الاسلوب المرسل في الرسائل السياسية. وقد ترجم وندل فليبس الرسالتين المذكورتين الى اللغة الانكليزية ونقلها الى العربية مترجم الكتاب عن النص الانكليزي(٦٦) ولم يعكف بنفسه على مراجعة النص العربي الذي نقله المؤرخ الانكليزي عن تحفة الاعيان ولكن المترجم لم يكتف بهذا الخطأ الفاحش فاضاف اليه ترك الهوامش والفهارس التي اثبتها وندل فليبس ولهذا تعذر علينا معرفة أصل نص رسالة أخرى وجهها ملك ممباسا الى ملك ماليندى يحذره من البرتغاليين الغزاة عندما نزلوا عاصمته ممباسا بقيادة دالميدا سنة ١٥٠٥م. ومن المحتمل ان تكون الرسالة المذكورة باللغة العربية لان حكام شرق افريقيا كانوا يستعملونها في مراسلاتهم الرسمية والتجارية. ولم تتوفر لدينا النسخة الانكليزية لنعرف المصدر الذي نقل عنه المؤرخ الانكليزي. واذا لم تكن كتبت بالعربية فلا ريب انها حررت باللغة السواحلية. وسواء كانت بالعربية أو بالسواحلية فهي تمثل صدى رسميا للغزو البرتغالي. واليك نصها كما جاء في الترجمة العربية لكتاب وندل فيلبس:

«بارك الله فيكم يا سيد علي، اكتب اليكم هذا لابلاغكم ان سيدا عظيما مر بهذه البلدة وأحرقها وتركها خرابا.. وقد جاء الى البلدة بقوة ووحشية بالغة، حتى أنه لم يترك رجلا أو امرأة، كهلا أو شابا.. بل واصغر طفل.. حتى اولئك الذين فروا من ضرواته.. وهو لم يكتف بقتل الرجال وحرقهم بل واسقط حتى الطيور في السماء. ان رائحة الجثث في البلدة بلغت حدا شنيعا حتى أنني لا أجروء على الذهاب الى هناك، كما لم استطع التأكد أو تقدير مدى ما نهبوه من ثروات من البلدة. وأنا أبعث اليكم هذه الانباء السيئة في سبيل سلامتكم»(٦٧) ولم تقتصر انعكاسات الغزو البرتغالي على الرسائل الرسمية المتبادلة بين الحكام العمانيين والافارقة فقد ظهرت كما قلنا في الانواع النثرية الاخرى كالقصص والحكايات والاخبار التي دارت حول الاحداث المختلفة. وقد اشرنا الى بعضها كقصة الهندي البانيابي نرويم مع فريرا قائد الحامية البرتغالية في مسقط، وقصص القتال العنيف الذي دار في اثناء اول هجوم برتغالي بقيادة بوكريك ثم القصاص الذي روى احداث القتال الذي دار

حولها وفي داخلها في اثناء هجوم العمانيين على المدينة الشهيرة ووصف تفاصيل خطط الهجوم على البرتغاليين المتحصنين فيها والانتصارات عليهم واسترجاع المدينة منهم وطردهم الى الابد من عمان(٦٨) ويطول البحث ويتشعب اذا تتبعنا نصوص هذه القصص ودرسنا خصائصها الادبية واللغوية. ويطول ايضا اذا دخلنا في التفاصيل الخاصة بالاداب الشعبية المنظومة والمنثورة التي صيغت باللهجات المحلية وتداولتها الاجيال المتعاقبة. وجمع بعض النماذج والنصوص المختلفة يحتاج الى استقصاء دقيق طويل لان المدون والباقي في ذاكرة الشعب منها أقل من القليل شأن الاداب الشعبية عند كل الامم ومن جميع العصور.

اما النثر الاول التاريخي فتمثله المصادر القليلة التي اعتمدنا عليها فهي خير نموذج يصور قيمة هذا النثر وخصائصه الادبية فكتاب تحفة الاعيان للسالمي والفتح المبين لابن زديق افضل انواع النثر الادبي التاريخي المتحرر من السجعوالازدواج وانواع التصنع البديعي فهما لا يلجآن الى فنون التصنيع الا قليلا ويستخدمانها في اعتدال وبلا افراط مترسمين خطى اوائل ذلك العصر العباسي، كالطبري والمسعودي. ثم ان الكتابين كلهما مصدران للتاريخ وللآدب في آن واحد. وانه لاسيما في التحفة يجد مؤرخ الادب الكثير من الشعر الذي قيل في البلاد التاريخية السامية كما يجد القصص والحكايات ونصوص العهود والرسائل السياسية وغير السياسية والمواعظ ورسائل العلماء والفقهاء والقضاة وغيرهم. وكان اعتمادنا على هذين الكاتبين في استخراج النصوص الشعرية والنثرية التي انعكست عليها أو فيها اصداء الغزو البرتغالي، في حين أن مؤرخين آخرين كابن قيصر لا يقدم اى نص يشير الى هذا الموضوع من قريب أوبعيد. اما صاحب كشف الغمة فلو ذكر عن تاريخ عمان مثلا لا نجلى كثير من نصوص الشعر والنثر الفني. ويمتاز كتاب الفتح المبين بشدة عناية مؤلفيه بالحياة العلمية والادبية وكثرة العلماء الذين ترجم لهم ذاكرا مؤلفاتهم المختلفة.



المصادر والمراجع والملاحظات

حسب ارقام الهوامش:

١. اشتهر كثير من المؤرخين العرب بجودة نثرهم وجماله وبعنايتهم بالشعر والشعراء والادب والادباء كالجهشياري وابن قتيبه والمسعودي والقاضي التنوخي وابن شداد وابن الساعي وعبد الله ومؤلفاتهم معروفه لا يوجب لذكرها هنا.

٢. الاشارات التاريخية كثيرة في الشعر العربي في جميع عصوره. وقد نظم ابن المعتز ارجوزه تاريخية طويلة في مدح الخليفه المعتضد ضمنها وصف الحوادث الدامية في القرن الثالث للهجرة الناجمة عن تسلط الجند الاتراك.

انظر: ديوان ابن المعتز.

٣. انظر مؤلفاتهم الادبية والتاريخية في الفهرست لابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفه وتاريخ الادب العربي لبروكلمان وفي ومؤلفاته الكثير عن كل واحد منهم.

٤. انظر بحثنا: الادب في العصر المغولي وبحثنا الادب في العصر العثماني. كتاب حضارة العراق ١١/بغداد ١٩٨٥ وانظر ايضا بحثنا فيس الموضوع نفسه مجلة كلية الاداب بجامعة بغداد ١٩٧٨.

٥. لم اعثر على اشارة واحدة الى البرتغاليين في كتاب السقاف تاريخ الشعر الحضرمي وهو بثلاثة اجزاء، القاهرة.

ولا من كتاب شعراء القطيف للشيخ المرهون النجفي ولم اعثر على نسخة واحدة لكتاب شعراء هجر لعبد الفتاح الحلوفي بغداد، رغم البحث المنهك في المكتبات.

٦. اجمع الباحثون من المستشرقين كراتشوفسكي وستوموفسكي وجابربيل فران وغيرهم والباحثون العرب والمسلمون على ان ابن ماجد كان دليل فاسكو دى غاما. وما لفهم الاستاذ وادلته ضعيفه، انظر: ندوة عمان.

٧. حسن صالح شهاب: اضواء على تاريخ اليمن البحري، ١٩٥ ــ ٢١٦، فصل: التدخل البرتغالي ونهاية زعامة العرب الملاحية في المحيط الهندي ط٢ بيروت ١٩٨١.

٨. سيأتي ذكر ذلك والتفاصيل في (الفتح المبين) لابن زديق ط. القاهرة ١٩٧٧ وفي (تحفة الاعيان) للسالمي، القاهرة ١٣٥٠ه ومن تاريخ عمان لوندل فليبس، ترجمة محمد بن عبد الله/ القاهرة، ١٩٨١.

٩. اكد المؤرخون العرب القدماء والمعاصرون دور النزاع الداخلي في نجاح الغزو البرتغالي وعزاه بعضهم الى تفوق اسلحة البرتغاليين النارية كالمدافع والبنادق وقدم اسلحة العرب وسفنهم.

١٠. تحفة الاعيان ٣٢٨/١ ــ ٣٤٦ والفتح المبين ٢٥٧ ــ ٢٦١.

١١. تحفة الاعيان ١/ ٣٤٩.

١٢. م. ن ٣٤٩.

١٣. تحفة الاعيان ١/ ٣٣٥.

١٤. اكد المعنيون بتاريخ عمان هذه الحقيقة، انظر: وندل فلبيس تاريخ عمان ٣١ . ٣٧ ومراجعة في النسخة الانكليزية.

صلاح الدين حافظ: صراع القوى العظمى حول القرن الافريقي ٣١ ــ ٤٥ وهوامشه: سلسلة عالم المعرفة ٤٩ الكويت ١٩٨٢.

ومحمد عبد الغني سعودي: قضايا افريقية / عالم المعرفة ٣٤ الكويت ١٩٨٠ ولاسيا قسم: افريقيا والعرب هي ٥٨ ــ ٦٣ و ص ٦٤ ــ ٦٧، ص ١٢٥، وفيه نخبه حسنه من المراجع العربية والاجنبية والدكتور سعودي من خيرة المتخصصين بالشئون الافريقية، وانظر ايضا كتاب البرق اليماني: العرب والملاحة في المحيط الهندي من مواضع متفرقه.

١٥. المسعودي: مروج الذهب ٦/٢ ــ ٧ ط. الثمانية القاهرة ١٩٤٨ وقد اشار اليه دكتور سعودي بلا هامش محدد.

١٦. رحله ابن بطوطه (تحفة النظار في غرائب الامصار) ١٦٠ ــ ١٧٤ ط. المكتبة التجارية، القاهرة ١٩٣٨م وقد انتقد السالمي في تحفة الاعيان ابن بطوطه وفند بعض اقواله واخباره عن امام عمان وقاضيها وبعض احوال اهلها. انظر تحفة الاعيان ٣٠٩/١ ــ ٣١٩.

في فصل (ذكر قدوم ابن بطوطه على عمان) ويعنينا هنا ما جاء بالرحلة عنمقديشو وسلطانها واهلها وعن كلوا وممباسا وغيرها من جزر شرقي افريقيا وعلاقاتها الحميمة بالعثمانيين والحضارمة.

١٧. سعودي: قضايا افريقية ٨٤ ــ ٩٠، ١٤٣ ــ ١٤٨ وهوامشه.

١٨. المرجع السابق: نفسه وصلاح الدين حافظ. المرجع السابق ص ٣٥ ــ ٤٠، باب: جسور اللغة والدين بين العرب والافارقة.

١٩. ابن زريق : الفتح المبين ١٥٠ حيث يذكر تراجم العلماء العمانيين وبعضهم كان يقيم في زنجبار، وانظر: وندل فليبس تاريخ عمان الفصل الثاني ٣١ ــ ٣٦.

٢٠. على الشيخ يحلو: الادب الصومالي المعاهد: رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة الطابعة قدمت لمعهد البحوث والدراسات العربية ببغداد ١٩٨٥ وللمؤلف نفسه: الادب الصومالي بحث للدبلوم مقدم للمعهد نفسه ١٩٨٤. انظر مقدمة كتاب (ابي نواس) للعقاد.

حيث يحدث عن شخصيته في الادب السواحلي. وتطرقت الى هذا المضمون كتب وابحاث كثيرة لمؤلفين عديدين نذكر منهم حسن محمود، وحسن ابراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، وعبده بدوي وغيرهم.

٢١. تشترك في هذا التصور التاريخي جميع تواريخ الادب العربي المتداولة مثلا في كتاب عمر فروخ تاريخ الادب العربي ٤٢٦/٣ حيث خص ادب الجزيرة العربية بثلاثة اسطرفقط. وانعكس ذلك على دراسة للشعر العماني للدكتور على عبد الخالق (انظر الهوامش التالية) ولاحظ ذكره محمد اسعد في كتابه: عصر الانحدار ١٢١ ــ ١٢٢ وكتابه: ادب الدول المتتابعة في مواضع عديدة.

٢٢. شوقي ضيف: وهو اول وافضل من كتب الادب في اقطار الجزيرة العربية بين مؤرخي الادب العربي المعاصرين. انظر كتابه الاخير: عصر الدول والامارات، الفصل الثاني والفصل الثالث، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠.

٢٣. المرزباني: الموشح ٨٥، ٩٠ وابن رشيق: العمده والشريف المقرضي: امالي المرتفي ٢٦٩/١ ذكره احسان عباس تاريخ النقد الادبي عند العرب ص٥٠.

٢٤. تفاصيل ذلك في كتب التاريخ الاسلامي لبروكلمان وفليب حتى وحسن ابراهيم حسن وشفيق عزيال ومحمد رزق سليم وغيرهم.

٢٥. حسن صالح شهاب: المرجع السابق ١٩٧.

٢٦. شوقي ضيف: المرجع السابق (عصر الدول) ٨٨ ــ ١١٠ وعبارة (الشعر على كل لسان) جعلها عنوان القسم الاول من الفصل الثالث.

٢٧. شكا من قلة المصادر جميع الذين كتبوا عن الادب في الجزيرة العربية تقريبا ومنهم د. علي عبد الخالق في مقدمة كتابه الشعر العماني والشفاف وعبد العزيز المقالع في دراساته عن الادب في اليمن ..الخ.

٢٨. الشعر العثماني: ٢٦ـ٣٣، ٣٤ ـ ٣٩، باب: ملامح الادب من عصر بني نبهات وباب: الشعر في عصر اليعاربه وهي مباحث صغيرة موجزة ط. دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤ وسنشير اليه بعنوان: الشعر العثماني في الهوامش القادمة.

٢٩. شوقي ضيف: المرجع السابق، ٦٢، ١٧٢.

٣٠. السقاف: تاريخ الشعراء الحضرميين.

٣١. علي الشيخ منصور المرهون: شعراء القطيف، ط. النجف.

٣٢. اشرنا الى ذلك في الهوامش السابق.

٣٣. كراتشوفسكي: مع الخطوات العربية ١٧٣ ـ ١٨٤ بعنوان ريان فاسكو دي جاما. ط. دار التقدم. موسكو ١٩٤٨.

وانظر: تبودور شوموفسكي: ثلاث ازهار من معرفة البحار ٧٥ . ٧٦ القاهرة ١٩٦٩ ترجمة محمد منير مرسي.

٣٤. شوموفسكي: المرجع السابق (هامش ٣٣).

٣٥. ابن ماجد: الفوائد في اصول علم البحر والقواعد: نشر جبرييل فرانالمستشرق الفرنسي باريس ١٩٢٢.

٣٦. شوموفسكي: المرجع السابق ١١٨.

٣٧. المرجع السابق: ١١٩.

٣٨. المرجع السابق ١٢٠.

٣٩. المرجع السابق المقدمة ص ١١يتسع اولدروجي احد المشرفين الروس الذي قدم الكتاب وامتدحه.

٤٠. شوقي ضيف: عصر الدول والامارات ٦٢

٤١. المرجع السابق ١٤٠ ـ ١٤٢.

٤٢. علي عبد الخالق علي: الشعر العماني ٣١ ـ ٣٢.

٤٣. الشعر العماني ٣٤.

٤٤. الازكون: كشف الغمة ١٠٨ نشر وتحقيق الاستاذ عبد المجيد حسيب القيسي بعنوان: تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لاخبار الائمة. وقد تكرم الدكتور محمود علي الداود باهداء النسخة التي اهداها اليه محقق الكتاب. وهو اول سلسلة مصادر ـ التاريخ العماني (١) ابو ظبي ١٩٧٦.

٤٥. الازكوي: المرجع السابق ١٠٩.

٤٦. وندل فليبس: تاريخ عمان ٦٤ ترجمة محمد امين عبد الله القاهرة ١٩٨١.

٤٧. نفسه.

٤٨. سليم طه التكريتي: المقاومة العربية في الخليج العربي ٥٨ وانظر الفصل الثالث القيم عن الغزو البرتغالي ٢٩ ـ ٥٨ منشورات وزارة الاعلام بغداد ١٩٨٢ وامتاز المؤلف بالتفاتته البارعة الى سفر خلف بن سنان واستشهاده به خلال تتبعه لمراحل الغزو البرتغالي.

٤٩. شوقي ضيف المرجع السابق (عصر الدول) ١٧٢.

٥٠. تحفة الاعيان ٦٠/٢ ـ ٦٢ وقد ذكر اكثر ابيات القصيدة وانظر الشعر العماني، ٣٥ ـ ٣٦ حيث اقتطع عدد من ابياتها.

٥١. تحفة الاعيان ٢/٧١ ــ ٧٣ وهي قصيدة طويلة استشهد ببعض ابياتها د. علي عبد الخالق: الشعر العماني ٣٦ ــ ٣٧ ٥٢. القصة من تحفة الاعيان ٢/٦٤ ــ ٦٥ وفي الفتح المبين ٢٨٦ ــ ٢٩٠

٥٣. تحفة الاعيان ٢/٦٥ ــ ٧٠.

٥٤. تحفة الاعيان ٢/ ٧٩.

٥٥. تحفة الاعيان ٢/ ٨٣.

٥٦. تحفة الاعيان ٢/٨٦.

٥٧. تحفة الاعيان ٢/ ٨٧.

٥٨. تحفة الاعيان ٢/ ٩٦ . ٩٨.

٥٩. نفسه ٩٨.

٦٠. تحفة الاعيان ٢/ ٩٩.

٦١. تحفة الاعيان ٢/ ٩٩ . ١٠٢ وذكر القصيدة كلها.

٦٢. الشعر العماني ٣٦.

٦٣. نفسه.

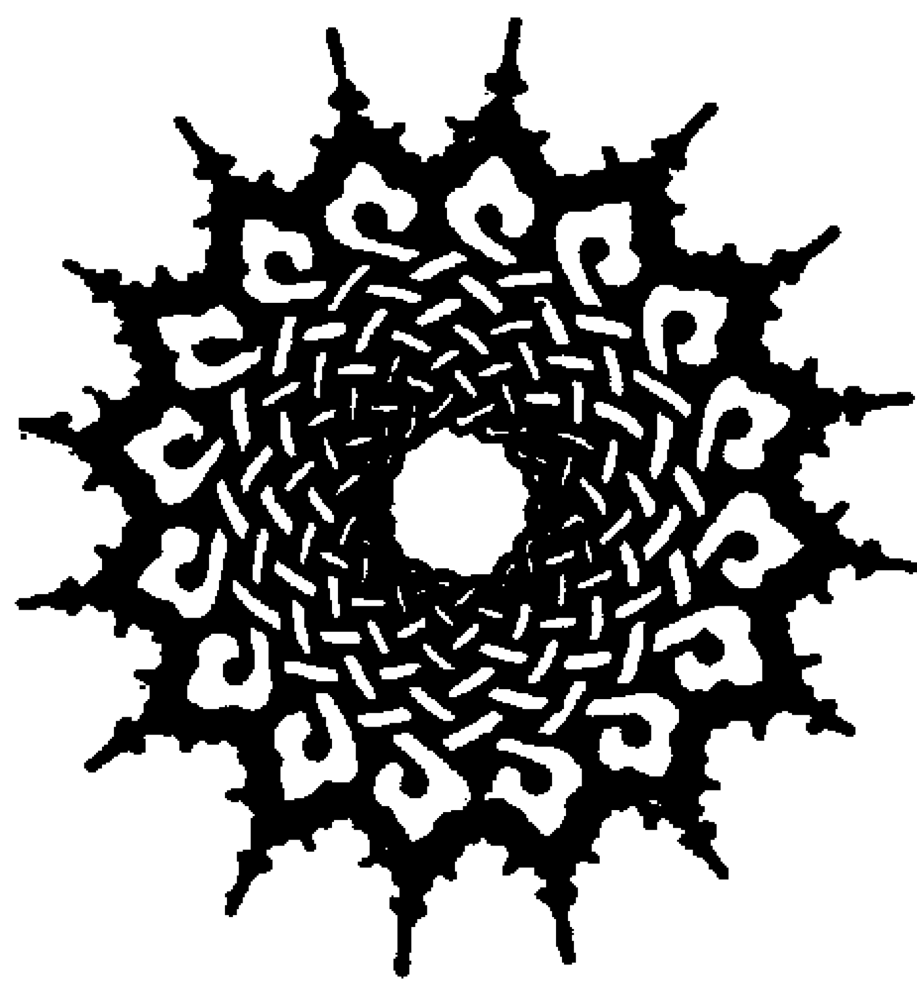
٦٤. المرجع السابق ٣٧.

٦٥. تحفة الاعيان ٢/ ١٠٦ ــ ١٠٧ ومنه نقلنا نص الرسالتين.

٦٦. وندل فليبس: تاريخ عمان ٦٧ ــ ٦٩ حيث ترجم العرب نص الرسالة من الانكليزية الى العربية ولم يرجع الى النص العربي.

٦٧. المرجع السابق ٤٨.

٦٨. تحفة الاعيان: وقد سرد تفاصيل هجمات ناصر بن مرشد على حصن ٢ حصار ٢/٨ ــ ٩ وفتح الصبر ١٠ ــ ١٢ وانظر ٢/ ٦٢ ــ ٦٥ والفتح المبين ٢٧١ ــ ٢٧٩.



الخليج العربي:
الاهمية الاستراتيجية وملامح
السياسة البرتغالية

اعداد الاستاذة/
نوار عبد الوهاب قاسم القيسي
جامعة بغداد ـ كلية العلوم السياسية

المقدمة:

تعتبر منطقة الخليج العربي من أهم المصادر الاولى للحضارة العربية، حيث هيأت للعرب منذ القدم اسباب المهارة في الملاحة واتساع الميادين في التجارة وكانت محط انظار الغزاة والمستعمرين في العصور القديمة طمعا في السيطرة على العالم العربي والاسلامي والافريقي.

وكان للخليج العربي دوراً مهما في كافة مراحل تطور الحضارة الانسانية والتاريخ الدولي عبر العصور، ففي الماضي كانت منطقة الخليج ممرا حضاريا رئيسيا في تاريخ الشرق القديم وهي اليوم قلب السياسيةالدولية ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة. ولقد انقضت الاف السنين والخليج العربي ينقل حضارات الشعوب وثقافاتها وليس في تاريخ البشرية خليجاآخرأعزعلىالمجتمعاتالانسانية بقدر هذا الممر المائي الذى امتاز بكونة مركزا لاقدم الحضارة العالمية واكثرها اصالة.

وتتميز المنطقة الخليجية بأنها متشابهه ومتجانسة فهي بيئة صحراوية ساحلية كما انها تشترك في وحدة الرقعة اى ذلك الاتصال الجغرافي المستمر للمنطقة. ويحتفظ سكانها كسائر ابناء الامة العربية وباستثناء مجموعات المهاجرين غير العرب بقدر كبير من التجانس في الملامح والسمات وبدرجة مميزة في وحدة السلالة وأصالة العروبة والوحدة الروحية الاسلامية ، وكان لذلك وفي اطار الوحدة الجغرافية ووحدة التجربة التاريخية على تجانس الاسس الاجتماعية لسكان المنطقة وفيما يتعلق بالعادات والتقاليد وكيفية الاستجابة للمؤثرات الخارجية.

لذلك فأن هذه المنطقة كانت هدفا للطامعين والمستعمرين فقد تعرضت لحملة الاغريق في عهد الاسكندر المقدوني ثم الرومان وبعدها أخذت الافكار الاستعمارية الغربية تتجه صوب هذا الخليج

وخاصة في عهد الاستكشافات الجغرافية التي كانت بزعامة البرتغال في مطلع القرن الخامس عشر هذا القرن الذى يواكب مطلع العصور الحديثة بصفة عامة، كما انه شهد أول حركة استعمارية اوروبية تصل الى منطقة الخليج ونعني بها حركة الاستعمار البرتغالي حين شهد حملات عسكرية بحرية ضمت المراكز التجارية العربية في الخليج العربي وكما انها سيطرت على مراكز استراتيجية على ساحليه الشرقي والغربي كذلك سيطرت على اكثر جزر هذا الخليج واتخذت فيها مراكز عسكرية هجومية تشنها على المدن الامنه على ساحليه ولم تزل اثار هذا الاستعمار ماثلة في قلاعه ومدافعه فى بعض الجزر او المدن الساحلية كما في راس الخيمة والشارقة.

وفي هذه الدراسة استراتيجية الخليج العربي والاستعمار البرتغالي سنتناول الموضوع كالاتي.

اولا: الاهمية الاستراتيجية لمنطقة الخليج العربي.

ثانيا: السياسة البرتغالية في الخليج العربي.

١ـــالوضع السياسي العام في منطقة الخليج العربي ابان الغزو البرتغالي.

٢ـــاساليب السياسة البرتغالية في منطقة الخليج العربي.

٣ـــأبعاد السياسة البرتغالية في منطقة الخليج العربي.

٤ـــعوامل انهيار السيطرة البرتغالية في منطقة الخليج العربي.

الخاتمة.

اولاـــ الاهمية الاستراتيجية لمنطقة الخليج العربي:.

قبل البدء بالبحث عن الاطماع البرتغالية في الخليج العربي لابد من الاشارة الى الاهمية الاستراتيجية التي تتمتع بها منطقة الخليج العربي(١)واثر ذلك في الميزان السياسي الدولي وتأتي هذه الاهمية في استراتيجية الموقع الجغرافي فالعامل الجغرافي يأتي في مقدمة هذه الاهمية حيث أن المنطقة تتوسط العالم القديم(٢)وبحكم ذلك فهي كالجسر الذى يربط دول الشرق القديم وحضاراتة فقد تأثر الخليج العربي تأثرا مباشرا بحضارة وادى الرافدين.حيث يتصل من الناحية الشمالية بنهر دجلة والفرات عبر شط العرب وكانت العلاقات العراقية القديمة واسعة ومتعددة وشملت نواحى النشاط الانسانى المختلفة كالثقافة والفنون والتجارة وان تلك الاوضاع ادت الى تفاعل الحضارات في المنطقة وعليه تخيل الخليج العربي موقعا فريدا وتؤلف سواحله الغربية المنافذ الطبيعية للاقاليم الداخلية فكانت أهميتة تتركز من كونه جسرا أو معبرا بين الغرب والشرق وطريق مواصلات فريد بين اوروبا والشرقين الادنى والاقصى وفي هذا كله كان لموقعه سبب التنافس على ممر العصور بين الدول الطامعه فيه وفير ثرواته وخبراته منذ فترة مبكرة من التاريخ(٣).

واشتد ذلك التنافس الاستعماری وعلى الاخص الاوروبي منذ القرن الخامس عشر ای بعد الاستكشافات الجغرافية وباذدياد هذه الاهمية ازداد الصراع الاستعماری والسيطرة الاجنبية والتسابق من أجل التوسع والاستحواذ على موارده الطبيعية وجزره الغنية بالثروات الطبيعية(٤).

وقد برزت أهمية الخليج العربي كطريق تجارى مهم منذ فترة بعيدة اذ كون مع المعبر البرى الذى يقع بين نطاق زاجروس وطوروس الطريق الاوسط من طرق التجارة الشرقية وقد استمر هذا الطريق يلعب دوره الهام في نقل التجارة وغيرها من الاتصالات البشرية الاخرى بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط منذ أقدم العصور الى ان تم فتح طريق قناة السويس(٥) وكانت السفن العربية منذ القدم تسلك في ابحارها وهي تنقل البضائع والثروات من الشرق الاقصى والهند طريق بحر الصين في المحيط الهندى ثم البحر العربي فالخليج العربي حتي رأسه الشمالي جنوب العراق ومن هناك تنقل تلك الحمولات برا عبر العراق الى حلب لموانى ألبحر المتوسط ليتم نقلها الى البندقية وبقية أنحاء أوروبا(٦).

وقد عبر عدد من الباحثين ورجال السياسة في كتاباتهم وابحاثهم عن تلك الاهمية الاستراتيجية الكبيرة التي يتمتع بها الخليج العربي ومكانتها في التطبيق الجيوبرلتيكي للسياسة الدولية ويمكن التمحيص بما كتبه «فيرجريف» الذى اطلق تسمية منطقة الارتطام والتصادم على المنطقة البينية التي هى جغرافيا بينية بموقعها في العالم وتمثل تلك المنطقة بطبيعتها وبيئتها منطقة انتقال تجمع بين الصفة البحرية والبرية بدرجات متفاوتة وهي استراتيجيا جبهة تصادم ومن ثم ارض المعركة فيما اذا حدثت بين ای قوى(٧).

وقد حدد فيرجريف تلك المنطقة الاستراتيجية وجعلها تشمل الوطن العربي بما فيها منطقة الخليج العربي اضافة الى مناطق اخرى غير عربية كجنوب شرقي آسيا وجزء من ايران وهذا مايثبت بشكل تطبيقي اهمية الخليج العربي على مر الزمن منذ العصور القديمة واستمرارها حتى الوقت الحاضر حيث تعتبر منطقة الخليج العربي من المحاور الاساسية للصراع الدولي في المنطقة العربية فهي بمثابة المجال الطبيعي الحيوى للعالم العربي اذ لايمكن الاطمئنان على امنه وضمان تقدمه اذا تحكم اجنبي في تلك المنطقة.

وما من شك أن المنافسة الاستعمارية التى شهدتها المنطقة منذ القرن الخامس عشر كانت نتيجة طبيعية للتسابق بين الدول الاستعمارية لاستغلال هذا الموقع وادراكا منها لقيمتة الخطيرة والفعلية للموقع الجغرافي.

ولقد ادرك البرتغاليين أهمية الخليج العربي من الناحية الاستراتيجية ودور المنطقة في السيطرة على الهند وجنوب شرق آسيا فقد ذكر المؤرخ البرتغالي البوكيرك من هذه الاهمية:ـــ
(هناك ثلاث مراكز للهند تعتبر المفاتيح الرئيسية لتجارة الشرق والسيادة على التجارة العالمية وهي مالاقا عند مدخل مضايق سنغافورة وعدن عند مدخل البحر الاحمر والمركز الثالث هو هرمز عند

مدخل مضايق الخليج العربي وتعتبر هرمز حسب ما أعلم أهم هذه المراكز جميعها، ولوكتب لملك البرتغال السيطرة على عدن وتحصينها بقلعة قوية لاصبح سيد الموقف في آسيا بدون منازع ولو سيطر على هذه المراكز الثلاث في الشرق الاوسط لاصبح سيد العالم كله كما أصبح الاسكندر قبل ذلك عندما توغل في قلب السهول في الكنح وأصبح بامكانه غلق الابواب المؤدية الى الشرق بوجه كل طامع في البحار الهندية (٨).

ولما سبق فان منطقة الخليج كانت تعتبر دربا في الازمنة القديمة ثم تحولت الى معبر للحضارات وأصبحت فيا بعد محورا للمنافسة الاستعمارية التي شهدتها المنطقة منذ القرن الخامس عشر ادراكا منها لاهميتة الممتازة.

وكان لظهور البرتغاليين في أوائل القرن السادس عشر اثر بعيد في التاريخ السياسي للخليج العربي واقطاره فهو من جهة يمثل بداية عهد الاطماع الاوروبية الاستعمارية وذلك العهد الذى لم ينته الى وقتنا الحاضر رغم انسحاب بريطانيا من المنطقة.

ثانيا : السياسة البرتغالية في منطقة الخليج العربي

١ــالوضع السياسي العام في منطقة الخليج العربي ابان الغزو البرتغالي.

كان لظهور البرتغاليين في اوائل القرن السادس عشر اثر بعيد في تاريخ الخليج العربي واقطاره وهو يمثل من ناحية أخرى بداية عهد الاطماع الاجنبية والاستعمارية وفي هذا المجال سنبين تلك الاوضاع التي كانت تتمتع بها المنطقة في فترة الغزو البرتغالي.

منطقة الخليج العربي كانت تزخر بالمناطق التجارية لاسيا عند مدخل الخليج العربي وتعتبر سيراف من أقدم هذه المراكز التي تمتعت بهذه الشهرة لفترة أكثر من قرنين، ونعني بذلك منذ بداية القرن العاشر الميلادى حتي القرن الثاني عشر عندما انتقل النشاط التجارى لمركز آخر مجاور هو هرمز، والتي اقض عليها الغزو المغولي الا أن تجارها لم يستسلموا لغزوات المغول وانتقلوا الي جزيرة أخرى في مواجهتها اطلقوا عليها نفس الاسم.وتمكنوا أن يؤسسوا فيها دولة من أعظم الدول ثراء حين اصبحت تمثل حلقة هامة في نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب وفي الجانب الاخر فان البندقية كانت لها نفس الاهمية فبعد سقوط بيزنطة استولت الجمهورية الايطالية على اليونان واصبح تجارها يترددون باستمرار على مواني ألشام واذداد طلب منتجات الشرق الاقصى واستفادت من ذلك هرمز، واصبح لها سمعتها الممتازة فاستطاعت ان تبسط سلطانها السياسي على اجزاء مترامية من شواطى الخليج العربي وجزره شملت ساحل عمان حتى القطيف شمالا ودخلت جزيرة البحرين وجزيرة قشم في تبعيتها كما ضمت قسما من الساحل الشرقي وهيمنت على مصايد للؤلؤ ونظمت الرسوم الجمركية على المواني ألتابعة لها.

كان ذلك وضع هرمز ابان الغزو البرتغالي الى الخليج وكانت هذه الدولة تتكفل بحماية الخليج من الغزو الخارجي وكانت الدولة الصفوية قائمة في فارس الا انها لم تبدى اى مساعدة لهرمز في هذه المهمة، وفي ذلك دليل على عدم تبعية هرمز للدولة الصفوية خلافا لادعاءات بعض الكتاب الايرانيين في ان نفوذ فارس كان يمتد على طول سواحل شبه الجزيرة العربية وحتى عدن وحقيقة الامر ان هرمز لم تكن فارسية بل كانت تضم مختلف الاجناس الاسلامية التي تسكن حول شواطى الخليج العربي واضافة لوجود الدولة الصفوية في الشمال الشرقي كانت هناك الدولة العثمانية في الشمال الغربي ولم تساهم اى من الدولتين في مقاومة البرتغاليين قبل منتصف القرن السادس عشر وانشغلتا في صراعاتها المذهبية بل بلغ الامر بالدولة الصفوية الى التحالف مع البرتغال للتخلص من منافسة الدولة العثمانية لها سواحل الخليج(٩).وكان في ذلك الاثر في اضعاف المقاومة العربية في تلك المنطقة.

اضافة الى ان تلك الانقسامات بين الدولتين العثمانية و الصفوية كانت تؤدى الي ايجاد انقساما جديدا بجانب الانقسامات السياسية والقبلية في المنطقة والتي اضعفت ايضا المقاومة الوطنية ضد البرتغال.

وفي اكثر من مناسبة كانت الدولة الصفوية تبدى استعداد التحالف مع دول اوروبية ضد العثمانيين ودخلت الدولتين العثمانية والصفرية في صراعات وحروب وفى عام ١٥٣٤ كان للعثمانين اصول في بغداد الموصل وتأخروا نحو خمسة عشر عاما في تأسيس آصولهم في البصرة التي تعتبر نقطة انطلاقهم نحو الخليج وحين بدأوا بعد ذلك كان البرتغاليون قد اكدوا سيطرتهم عليهم وفي تلك الفترة كانت منطقة الخليج خالية من اى تنظيم سياسي يشبة الدولة(باستثناء عمان التي كانت اكثر ازدحاما بالسكان واقرب الي المجتمعات الحضرية وامتد ذلك الي عدن ايضا) واستغل البرتغاليون الاوضاع السيئة وتخلف المرافق الاقتصادية واهمال المشاريع في مجالات الرى والسدود وطرق المواصلات وتأخر الزراعة والصناعة والفنون واستعدت لغزوها عسكريا واقتصاديا وبدأ عهد الامتيازات الاجنبية في المنطقة التى تعرضت شعوبها الى افظع عوامل الاستغلال الاقتصادى واخضاع شعبها العربي الى مختلف ضروب التعسف والجور واصبحت هذه البقعة التي كانت تعرف بقلب الشرق اكثر المناطق تخلفا بفضل السياسات الاستعمارية والامبريالية المستغلة.

٢ـــاساليب السياسة البرتغالية في منطقة الخليج العربي.

كان الخليج ومازال محط اطماع الدول الكبرى لما له من اهمية تعاظمت في الفترة المعاصرة ويمكن ارجاع الاطماع الاجنبية الغربية في منطقة الخليج الى عام ١٤٩٨ عندما تمكن الملاح البرتغالي(فاسكو دى كاما) من اكتشاف الطريق الى الهند عبر رأس الرجاء الصالح وكان ذلك

بمساعدة الملاح العربي أحمد بن ماجد الذى يعود أصله الي مدينة (جلفار) راس الخيمة، وكان ذلك الاكتشاف ايذانا بمجي الاستعمار الغربي (الطامع في مناطق الشرق الي الخيج)(١٠).

ومما لاشك فيه ان الاستعمار الغربي قد اتخذ من بعض القوى المحلية وجملة الظروف المحيطة بها سلما لبلوغ مآربه وما كان بمقدور الاستعمار البرتغالي والذى قطع المسافة البحرية الطويلة من شبة جزيرة ايبريا الى اقصي الشرق ان يبسط نفوذه بامكانياته الذاتية التي كانت غاية في التواضع فاذا استثنينا كون البرتغال من رواد الامم البحرية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر فانها كانت بلدا صغير الرقعة قليل الموارد والسكان(سكانها يقل عن مليون نسمه)لذلك فقد كان على القوى البرتغالية ان تتبع سياسة معينة لتنفيذ اغراضها والاستعانة بأدوات محلية بجانب ما لديها من قوة(١١).

وقد استفاد البرتغاليون من المعلومات البحرية التي خبر العرب بها في الملاحة وصناعة السفن والتجارة البحرية وصيد الاسماك واللؤلؤ وقد نجم عن السيطرة البرتغالية على بحار الشرق تطبيق اسلوب الاحتكار الذى تميز به البرتغاليون وما عمدو اليه من حرمان القوى الملاحية المحلية من المشاركة بنصيب في تجارة الشرق بما اتبعوه من اساليب شاذه وقاسية في المعاملة لذلك فان وصول البرتغاليين الى الهند يعد نهاية للعصر الذهبي للملاحة العربية والاسلامية في بحار الشرق(١٢).

كذلك فان افتقاد القوى المحلية للوحدة فيما بينها بسبب انقساماتها وخلافاتها ساعدت على احكام السيطرة البرتغالية لمنطقة الخليج العربي والتي استمرت خلال الفترة ١٥٠٧ـ١٦٥٠ وتعتبر ثاني موجه استعمارية غربية في الوطن العربي بعد الحروب الصليبية للسيطرة على الاراضي المقدسة في فلسطين وحين بدأ الغزو لم يكن هناك من كيان سياسي في المنطقة سوى الدولة الصفوية الناشئة ولابد من الاشارة الى ان الغزاة البرتغاليين قد اتوا الى الشرق وهم مشبعون بالروح الصليبية واثار حروبها المريرة من جهة والصراع مع العرب المسلمين في الجزيرة الايبيرية وشمال افريقيا من جهة اخرى، لذا فقد انصب اهتمامهم ايضا في معاداة المسلمين ومحاربتهم لاخضاعهم وانتزاع ما في ايديهم والامعان في اذلال الدولة الاسلامية.

وشهدت فترة الحكم البرتغالي صراعا عنيفا بين عرب المنطقة وبين قادة الاساطيل البرتغاليين الذين استخدموا افظع اساليب الارهاب والقسوة لاخضاع هذه المنطقة للاستعمار الجديد الذى كان على درجة في القساوة والبشاعة بما ليس له نظير فحرقوا العديد من السفن في خورى: هجره وجرمه ومسقط وقلهات وسلبوا مدن قريات ومسقط وقلهات ولجأوا لقتل الرجال والنساء والاطفال دون تميز وبوحشية متناهية فيما حاولوا من جهة اخرى اجبار السكان العرب على التنصر ومصادرة الاسلحة وفرض الاتاوات الباهظة كل ذلك في سبيل اشاعت الرعب والارهاب بين سكان المنطقة ليحل الجيش في المنطقة وكان حربا ان قدرا يسيرا من هذه الاعمال كافية تنبئ بنوايا الغزاه واهدامهم (١٣)والتى سيتم التطرق لها.

٣ـابعاد السياسة البرتغالية في منطقة الخليج العربي:.

لقد كانت التجارة بين الشرق والغرب تتبع طريقين رئيسيين طريق البحر الاحمر ومصر وطريق الخليج العربي، والعراق وسوريا وكان كل من هذين الطريقين تحت السيطرة العربية، وفي مناسبات

عديدة اغلقت هذه الطرق نتيجة لمنازعات وصراعات سياسية وقد سبب ذلك اضرارا جسيمة لاستيرادات اوروبا من البضائع الشرقية ما عدا تلك التي كانت تنقل عن طريق وسط آسيا(١٤).ورغم ان فينيسيا وجنوه كانتا في الدول الاوروبية المهمة التي تاجرت مع الشرق على نطاق واسع منذ القرن الخامس عشر الا انها خسرت مركزها الاقتصادى الممتاز بعد استيلاء الاتراك على القسطنطينية عام ١٤٥٣م اضافة الى ان طلب السياسة الاقتصادية للمماليك في مصر افقدت هذه المدن ما تبقى لها من افضلية واصبح واضح من اكتشاف طرق جديدة للهند وجنوب شرق آسياسيدر فوائد عظيمة للدول ذات الاهداف الاستعمارية وفي مقدمتها البرتغال الدولة الاوروبية الاولى ذات الاهداف الاقتصادية الاستعمارية والتجارية ليس في منطقة الخليج العربي فقط بل وفي الهند وجنوب شرق آسيا.

وفي منتصف القرن الخامس عشر دعا الملك البرتغالي(دوم هنريك)الذى عرف بملاح الدول الاوروبية التجارية التوجه عن طريق رأس الرجاء الصالح نحو الشرق تجنبا لملاقاة الاتراك الذين كانت لهم السيطرة التامة على البحر المتوسط بعد فتحهم للقسطنطينية وعلى كافة الطرق المؤدية الى وادى الرافدين والخليج العربي وآسيا الوسطي وتم ذلك في عام ١٤٩٨م حين تمكن البرتغاليون من الوصول الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح.

اذن كان الهدف الرئيسي في التوسع البرتغالي هو الوصول الى الهند والشرق الاقصي مباشرة دون الحاجة الى توسط المسلمين والبنادقة في نقل التجارة(١٥)والهدف من استعمار الهند لما كانت تتمتع به من حضارة وثراء واعتبر الخليج البوابة المؤدية الى الهند لذا كانت اهميتة في اعين المستعمر نابعة من كونة قريبا من الهند وتمكن البرتغاليون من تثبيت اقدامهم على سواحل الهند عام١٥٠٥م حينما اسرا بها حكومة يرأسها نائب الملك. ورغم انهم كانوا ما يذالون في دور بناء امبراطوريتهم بالهند فقد اتجه اهتمامهم لمناطق الخليج العربي وشبة الجزيرة العربية.

وبالرغم من القوة البحرية الهائلة التي نتقلها البرتغاليون الى المحيط الهندى فأنهم لم يستطيعوا أن يوقفوا حركة الملاحة العربية في المحيط الشاشع هذا بالاضافة الى أن الحكومة البرتغالية سمحت للبحارة كأفراد بأن يمارسون اعمال القرصنة ضد الملاحة العربية لهذا السبب واصل البرتغاليون تقدمهم لاحتلال مالطا وجزر الهند الشرقية في الشرق الاقصى ولكي يمنعوا التجار العرب من الوصول الى مناطق انتاج التوابل ذاتها.فأذن كان هدفهم ازالة الاحتكار التجارى من ايدى عرب البحر المتوسط والخليج العربي الذين سيطروا علي زمام الحركة التجارية بين اوروبا وآسي.

اضافة لذلك كان البرتغاليون مدفوعين في حركة الاكتشاف والتوسع هذه بروح صليبية وسيطرت هذه الروح على عدد من ضباط البحرية البرتغالية وأبرزهم الفونسو البوكيرك الذى بدأ حياتة في الجيوب البرتغالية على سواحل المغرب ثم دخل الى ميدان الصراع الصليبي المتجدد في الشرق واشترك في حملة بحرية الى المحيط الهندى عام ١٥٠٦م ومنها استمر في قيادة الغزو البرتغالي في المنطقة.

إذن الاستعمار البرتغالي كان يهدف الي تحقيق اطماعه التجارية والعسكرية الى خدمة الكثلكه عن طريق بعثات تبشيرية عديدة استقرت في الكنائس التي بـ... جنبا الي جنب مع القلاع البرتغالية في هرمز ومسقط والبحرين كما فكر البرتغاليون في الاستيلاء والسيطرة على منطقة باب المندب لتحقيق اهداف صليبية محضة وكذلك لتثبيط همة المقاومة الاسلامية في الهند، حيث ان البحر الاحمر كان اكثر اغراء للبرتغاليين في الخليج العربي لانه يؤدي الي الاماكن المقدسة الاسلامية(١٦)فكان هم البرتغاليين ان يقطعوا سبل الاتصال مابين دولة المماليك وبين مسلمي الهند سيا وان المماليك استعدوا لمقاومة البرتغاليين في المحيط الهندى لما لحقهم من اضرار اقتصادية نتيجة اكتشاف رأس الرجاء الصالح. وعند فشل البرتغاليين في تحقيق تلك السيطرة على هذا المنفذ ارتدوا الي الشرق ومنطقة الخليج العربي وكانت هرمز والمواني ألتابعه لها أول ماصادف البرتغاليين عند غزوهم للخليج عام ١٥٠٨، وقد شرع قائد الجيش البرتغالي الفونس البوكيرك في ضرب الحصار علي جزيرة هرمز لكنه اضطر الى فكه فيما بعد ثم توقف البرتغاليون عن غزو ساحل الخليج العربي حتي عام ١٤١٤م حين حاصروا هرمز التي لم تلبث ان استسلمت ووافق حاكمه على دفع جزية سنوية وقبول حماية البرتغاليين واقامة برتغالية علي الجزيرة.

وي عام ١٥١٥م بسط البرتغاليون نفوذهم علي أغلب مدن الخليج العربي ومن ضمنها البحرين ولكن سيطرتهم علي الخليج العربي لم تدم طويلا فقد أخذ نفوذهم يضعف تدريجياً اذ خسروا مواقعهم علي الساحل وفي عام ١٦١٢و١٦١٥م انهزم اسطولهم الضخم امام الانكليز في معارك سورات(١٧).

٤ــعوامل انهيار السيطرة البرتغالية في منطقة الخليج العربي:.

في عام ١٦٢٥م اصبح البرتغاليون اغرابا في منطقة الخليج العربي لكنهم بقوا رغم انحدارهم عن المكانة العالمية التي كانت لهم في الخليج العربي خطرا عسكريا يهدد الانكليز ومستقبلهم في الخليج.ومالبثت مقاومتهم ان انهارت اذ تم في عام ١٦٥٠م وبعد معارك شديدة اجلاؤهم عن منطقة الخليج العربي من قبل العثمانيين بل وتعقبهم حتي سواحل الهند وافريقيا الشرقية(١٨).

وفي هذا الصدد نود أن نوضح عوامل تدهور القوة البرتغالية للخليج العربي في نهاية القرن السادس عشر واوائل القرن السابع عشر ومن ذلك تغير وضع البرتغال في اوروبا كان له دورا مهما في انهيار حكمهم في الخليج العربي وساحل شرق افريقيا والقارة الهندية فالبرتغال فقد استقلاله وخضع الى التاج الاسباني عام ١٥٨٠م واصبحت لاتعدو كونها مقاطعة اسبانية ولم تسترجع استقلالها الا في عام ١٦٤٠م.ولكن نفوذها في الخليج استمر حتي عام ١٦٢٤ دون اتصال مع لشبونة وكانت السياسة البرتغالية في الخليج في هذه الفترة تخط من قبل القادة العسكريون بالاتفاق مع القواعد البرتغالية في الهند وعدن مما سهل على خصوم البرتغال انهاء حكمهم والسيطرة على قواعدهم وفي منصف القرن

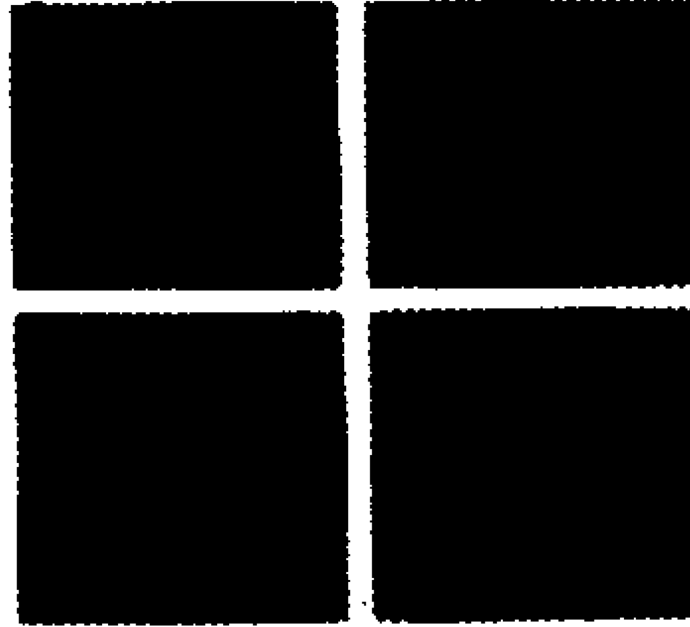
السابع عشر لم يكن للبرتغاليون اى قاعدة عدا مستعمرتهم الصغيرة في كوا ونتيجة لذلك اخذت البرتغال بعد هذه الفترة تركز علي التجارة مع الصين وجنوب شرق آسيا وعلي التوسع في امريكا الجنوبية.

ومن أسباب انهيار السيطرة البرتغالية الاخرى في بحار الشرق عدم قدرتها وهي الدولة المحدودة المساحة والسكان في السيطرة على امبراطورية ساحلية ضخمة امتدت من لشبونة الي كاليكوت، كما وجابه الاسطول البرتغالي مقاومة عربية بطولية في كافة مواقعه وخصوصا في مسقط وفي عام ١٥٠٧م حقق حاكم هركز الشيخ سيف الدين انتصارا ساحقا علي الاسطول البرتغالي واجبر القائد البرتغالي علي قبول معاهدة اعترف فيها البرتغاليون بحكمه رغم ان الحاكم البرتغالي في الهند قد انتقم لهذا التحدى حين ارسل عام ١٥٢٣ اسطولا كبيرا احتل هرمز واحرقها الا انه مع ذلك كله فانه لابد من الاشارة ايضا الي الدور الذى قام به اليعاربة في عمان وجهودهم في التصدى للبرتغاليين وتوحيد معظم قبائل الخليج تحت زعامتهم الدينية والسياسية فقد حقق الامام ناصر بن مرشد مؤسس اسرة اليعاربة في عمان نجاحا كبيرا في صراعه ضد البرتغاليين تمكن به من طردهم من بعض موانيء وجزر الخليج بل وانتزاع تعهد منهم عام ١٦٤٨ بدفع الجزية السنوية الي عمان واطلاق حرية الملاحة لجميع الامم في مياه الخليج والمحيط الهندى.

ويمكن القول ان المقاومة العربية في منطقة الخليج العربي مافتأت تجابه البرتغاليين ووقفت لهم بالمرصاد رغم ضعف امكانياتها في تلك الفترة وفي مقابل المقاومة العربية فأن الاحتلال البرتغالي قد اتسم بالوحشية المتناهية ضد السكان العرب ومحاولة اجبارهم الارتداد عن الاسلام الى النصرانية كما سادت الفوضي والفردية في صفوف القوات البرتغالية التي كان قادتها يحاربون من أجل النهب والسلب والحصول على المكاسب الشخصية مستخدمين وسائل الرشوة والخيانة وادى ذلك كله الى الفوضي والانهيار الاجتماعي وفقدان الفضيلة وكان ذلك من الاسباب التي ساعدت في انهيار النفوذ البرتغالي في الخليج اضافة الى تصاعد الهجمات العسكرية التركية والنشاط الذى اظهرته اساطيلها وتهديدهم لطرق المواصلات البرتغالية في الخليج العربي ومن ثم احتلال الاتراك للبحرين واستعادتهم للبصرة(١٩)وظهور النفوذ البريطاني واذدياد النشاط الهولندى بمعني آخر ان ظهور قوتان بحريتان في المحيط الهندى في اوائل القرن السابع عشر الاسطول الهولندى والاسطول الانكليزى وتميز هذان المنافسان الاستعماريان بانهما كانا اكثر ادراكا للمصالح التجارية وقد استطاعا ان يحظيا بمكانة افضل عند الدول الاسيوية كما حدث بالنسبة لفارس كما اتصف البرتغاليون بروح التعصب والقسوة في معاملة الشعو الاسيوية الافريقية ولم يكتفوا بتنظيم التجارة مع تلك الشعوب، اضافة الي ان سياستهم ترمي الى التوسع الاستعمارى بالقهر العسكرى واستغلال هذه القوة للحصول على موارد اقتصادية في حين ان القوى الاستعمارية الاخرى كالهولنديين والانكليز حين ظهروا في اوائل القرن السابع عشر اتبعوا سياسة جديده يقصدون التجارة فيها اولا ثم تأتي بعد ذلك القوة الحربية لحماية

تلك التجارة علاوة على ذلك فان البرتغاليون لجأوا الى استغلال الشعوب المقهورة على استخراج المواد الخام بالاضافة الي اعتمادهم على العبيد أو المرتزقة في الهنود الذين كانوا يشكلون اعدادا كبيرة في حامياتهم (٢٠).

واخيرا فأن في العوامل التي ادت ايضا لتدهور القوة البرتغالية في الخليج العربي ان ملك البرتغال كان يحتكر تجارة السلع المربحة ولم يترك مجالا للبرجوارية التي كانت اكثر انشاطا في النظام الهولندى او الانجليز حيث ان تأسيس البرجوارية للشركات الاحتكارية يربط مصالح عديدة في الافراد بحركات الاستعمار وكذلك فان الاحتلال البرتغالي يفتقر الي وجود نظام دقيق في البحرية وتكرار حوادث التمرد والخلافات بين كبار الضباط واخيرا فان مصير البرتغاليون في الخليج العربي كان هو نفس مصير الحملات الصليبية فقد نجحت الامارات العربية في توحيد جهودها للقضاء على القواعد العسكرية بناها الاسطول البرتغالي وهكذا انهارت الامال العريضة التي كان يرمي اليها الاستعمار البرتغالي عسكرياً وسياسياً ودينياً.



الخاتمة

بعد هذا العرض نخلص الى انه لموقع الخليج العربي اثر كبير وأهمية فهو كان ولايزال شريانا حيويا للتجارة بل يمكن اعتبار النشاط التجارى الذى يمارسه سكان هذه المنطقة العامل المباشر للنمو والازدهار لمراكز العصران التي قامت فيها. وهي بحر داخلي عظيم الاهمية ولايوجد بحر داخلي في العالم له نفس الاهمية العظيمة التي يتمتع بها الخليج العربي سواء بالنسبة للجغرافيين أو المؤرخين أو رجال السياسة فالخليج العربي له تاريخ البشرية سجل حافل يرجع الي فجر التاريخ فيفضل موقعة علي أحد الطرق الرئيسية بين الشرق والغرب اكتسب تلك الاهمية التي لايعادله فيها بحر داخلي آخر.

وكان الكشف عن طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر بداية عهد جديد في تاريخ النشاط التجارى في حوض الخليج فمنذ ذلك الحين اخذت انظار الدول الأوروبية تتجه اليه كمنافس للطريق البحرى الذى تم اكتشافه حديثا فأخذت تسعي للسيطرة علية.

والسبيل الي السيطرة على الخليج كان يعني ان تكون الدولة المسيطرة دولة بحرية بالدرجة الاولى وبرزت الدولة البرتغالية في القرنين السادس عشر والسابع عشر وجاء استيلاء البرتغاليين على منطقة الخليج العربي عن عمد واصرار وكانوا كجند وغزاة لكي يفرضوا سيطرتهم على دولة المختلفة وكان ذلك جزء من برنامج ضخم تولي تنفيذه القائد الفونسوالبوكيرك بهدف السيطرة على تجارة الهند وكان سبيل ذلك الاستيلاء علي المنافذ البحرية التقليدية كالبحر الاحمر والخليج العربي وبوغاز ملقا وارغام التجار على اتخاذ طريق رأس الرجاء الصالح في سبيلها الي البرتغال واوروبا.

وقبل أن يستولي عليه البرتغاليون كان الخليج العربي أحد الطرق البحرية الرئيسية للتجارة الآسيوية ففية كانت تمر بضائع الهند والصين وجزر الهند الشرقية وهي في طريقها الى أسواق ايران واوروبا وفي طريق العودة كانت تمر به متاجر البلاد العربية وفارس واوروبا في طريقها الى اسواق الهند والشرق الاقصي وعلى سواحله قامت دول تجارية في صورة مدن واذدهرت الحياة فيها ومنها البصرة والبحرين وسيداف وقيس وهرمز ولكنها سرعان ماكانت تذوى ثم تندثر بمرور الوقت بسبب الاحداث التي كانت تعصف بها واحدة تلو الاخرى كثورة القرامطة وسقوط الخلافة العباسية والغزوات المغولية وقيام الامبراطورية الصفوية وكان صدى اضمحلال تلك المدن يتردد في الفترة التي تم فيها للبرتغاليين اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر ومنذ ذلك الوقت تحولت طرق التجارة الرئيسية بين اوروبا وآسيا عن الخليج العربي والبحر الاحمر الي المحيطات الجنوبية ورأس الرجاء الصالح ولم تعد الى مجراها القديم ثانية الا بعد فتح قناة السويس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وبتحول مسارات التجارة عن طريق الخليج العربي في القرن السادس عشر يعد ضربة قاصمة لدول المدن القائمة على سواحله ولموانى ألبحر المتوسط علىٰ حد سواء ويحرمان الخليج العربي في المهمة الرئيسية التي يقوم بها كطريق للتجارة بين الشرق والغرب بقي طوال قرن مجرد تابع من توابع المملكة البرتغالية وكانت السفن البرتغالية تسيطر سيطرة كامله على مياهه واصبحت هرمز كقاعدة برتغالية تتحكم في مدخله وتقف في وجه حركة التجارة الدولية منه واليه.

وعليه فان فترة السيطرة البرتغالية التي امتدت على مدى القرن السادس عشر يميزها ان الخليج العربي كممر بحرى يربط الشرق بالغرب قد اغلق تماما وان اهميتة كطريق للتجارة العالمية تدهورت تدهورا بالغا وانه اصبح مجرد طريق مسدود وسوقا محلية للتجارة البرتغالية سواء كانت تجارة البرتغال نفسها أو تجارة امبراطوريتها في جنوب آسيا.

ما وتمكن البرتغاليون من الاستيلاء على مسقط وصحار والبحرين ووطدوا اقدامهم في مراكز أخرى على سواحل الخليج وبصفة خاصة في القطيف وراس الخيمة لكن سيطرتهم على الخيج لم تدم طويلا فقد أخذ نفوذهم يضعف تدريجيا وخسروا مواقعهم علي الساحل وفي الوقت الذى ظهر فيه البريطانيون في الخليج كان البرتغاليون قد اخذ في الافول ذلك انهم كانوا قد زحرحوا في البحرين في عام ١٦ز٢ وفي راس الخيمة في عام ١٦١٩ وفي سبيل زخرجتهم عن هرمز اتصل الشاه عباس بممثل شركة الهند البريطانية في جاسك في عام ١٦٢١ مقترحا حملة مشتركة ضد البرتغاليين وبموافقة مدير الشركة في سورات هوجم البرتغاليون في هرمز في عام ١٦٢٢ وكانت مهمة البريطانيين تحطيم الاسطول البرتغالي في مياه الخليج بينما كانت مهمة الشاه مهاجمة القلعة في هرمز ولم يمض شهران ونصف علي بدء المعركة حتي سلم البرتغاليون وبذلك زخرجوا نهائيا عن الخليج.

ويمكن القول أن نتائج النفوذ البرتغالي في الخليج العربي تكمن فيا يلي:ـــ

١ــ محاولة البرتغاليين السيطرة على تجارة السلع الشرقية وحجبت وصولها الى مصر والشام.

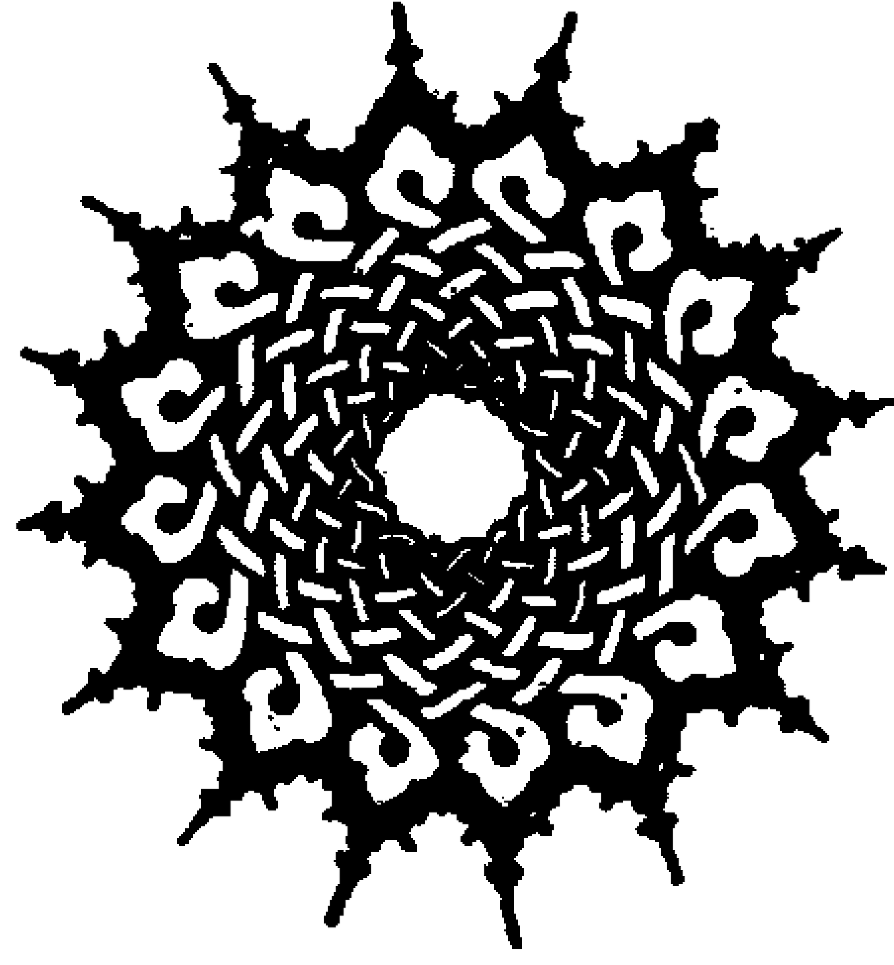
٢ــ تحالف البرتغاليين مع الاحباش ضد القوى الاسلامية.

٣ــ بداية التنافس بين القوى الاوروبية علي تجارة الخليج العربي.

وختاما ورغم كل ذلك فان الحاضر يرتبط بالماضي ولابد لنا نحن العرب اليوم ان نستفيد من تاريخنا ونضالنا العريق ضد الاطماع الاستعمارية وان نجعل من تلك الدروس صورة مشرقة لمستقبلنا فعلي دول الخليج العربي ان تستفيد من بر ما حدث في السياسة الدولية وتجد بوضوح ان الاعتماد على الدول الكبرى هو في النهاية سياسة غير مجدية والبحث عن امنها واستقرارها يأتي عن طريق التعاون العربي والتضامن وبناء القوة الذاتية وتنسيق الجهود العربية التي تهدف للتعاون الحقيقي المخلص فقد رحل الملاح البرتغالي وذهب الشسرطي البريطاني وبات الامر في العمل العربي المشترك وقد برهنت الاحداث على خرافة الافكار القائلة بوجود دولة اجنبية حامية او ضامنة لامن الخليج العربي وانما

هناك استعمار ومستعمرين وسعي لاحلال نفوذهم وتحقيق اطماعهم بابخس الاثمان تيمنا بالمبدأ القائل ليس هناك من اصدقاء دائمين وانما مصالح دائمة.

فالخليج العربي هو المنطقة البالغة الاهمية في تاريخ وحاضر الامة العربية ومستقبلها ويؤلف محردا هاما في السياسة الدولية الحاضرة، وبذلك يمكن القول بدون تردد ان نجاح التضامن العربي بين اقطاره يؤلف قوة عربية هائلة تعكس اثارها الايجابية علي الموقف العربي والدولي ويمكن القول لهذه القوة اذا احسن استخامها وانتظم امرها ان تصبح وحدها اقوى الكتل الرئيسية في العالم.



الهوامش والمراجع:ـ

(١)يقع الخليج العربي جغرافيا بين شبه الجزيرة العربية غربا وايران شرقا ومضيق هرمز وخليج عمان جنوبا والعراق شمالا وللمزيد من المعلومات حول مساحتة وابعاده انظر: د.صبرى فارس الهيتي .الخليج العربي دراسة في الجغرافية السياسية، دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٧٩،ص ١٨.
(٢)انظر الخريطة الخاصة بالخليج العربي.
(٣)سليم طه التكريتي،المقاومة العربية في الخليج العربي ،دار الرشيد للنشر،منشورات وزارة الثقافة والاعلام،بغداد ١٩٨٢،ص١١.
(٤)سالم سعدون،جزر الخليج العربي،دراسة في الجغرافية الاقليمية،دار الحرية للطباعة،بغداد ١٩٨١،ص٢٨.
(٥)د.ابراهيم شريف،الشرق الاوسط،منشورات وزارة الثقافة والارشاد بغداد،١٩٦٥،ص،٢٣.
(٦) S.A. Morrison, Middle East Survey, S.C.M. Press LTD, London, 1954, p. 14.
(٧)جيمس فيرجريف،الجغرافية والسيادة العالمية،ترجمة علي رفاعه الانصاريود.محمد عبد المنعم الشرقاوى،مكتبة النهضة العربية القاهرة،١٩٥٦،ص٢٩٧.
(٨)د.محمود علي الدا‌ود.الخليج العربي والعمل العربي المشترك،مطبعة الارشاد منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة،١٩٨٠،ص٣٢.
(٩)د.جمال ذكريا قاسم.الصراع العمانيــالبرتغالي في القرنين السادس عشر والسابع عشر،مجلة البحوث والدراسات العربية،المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،العدد العاشر القاهرة،١٩٨٠،ص٣٣٩.
(١٠)د.صدقة يحيي فاضل.الاهمية العالمية المعاصرة للخليج ودول مجلس التعاون،مجلة التعاون،الامانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربي السنة الثانية،العدد الخامس،١٩٨٧،ص٣٦.
(١١)علي غنام. احداث فاصلة في احلال النفوذ الاجنبي بالخليج العربي،مجلة الخليج العربي،مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة،المجلد السابع عشر العدد٢ السنة الثالثة عشرة،١٩٨٥،ص١٠.
(١٢)د.جمال ذكريا قاسم.مصدر سبق ذكره،ص٣٣٩.
(١٣) S.B. Miles. The Countries and Tribes of the persian Gulf, frank cass, Co. LTD, 1966, p. 145.
(١٤)د.محمود علي الداود،مصدر سبق ذكره،ص٢٨.

(١٥)د.جمال حمدان،استراتيجية الاستعمار والتحرير.دار الهلال القاهرة١٩٦٨،ص٦٥.

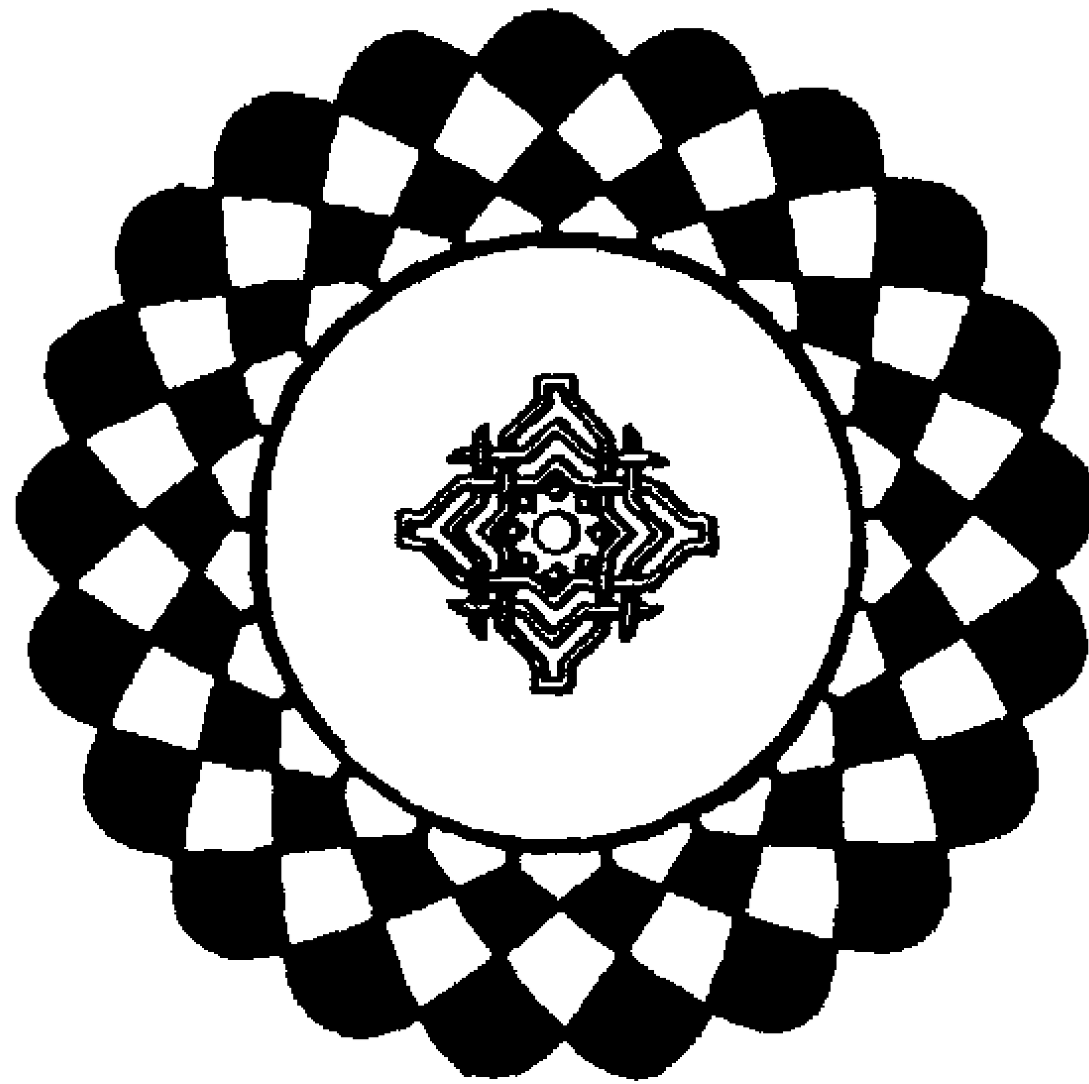
(١٦) Sir Arnold T. Wilson : The persian Gulf, Third Impression, 1959, p. 120.

(١٧)د.محمود علي الداود.العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي ١٥٠٧ــ١٦٥٠.مجلة كلية الاداب.جامعة بغداد،العدد٢ــشباط ١٩٦١،ص٢٣٩.

(١٨)د.صبرى فارس الهيتي.مصدر سبق ذكره،ص٣٣.

(١٩)صالح اوربران.الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي،مطبعة الارشاد،منشورات مركز دراسات الخليجالعربي بجامعة البصرة،١٩٧٨.

(٢٠)د.صلاح العقاد،التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الانجلو المصرية،القاهرة،١٩٧٤،ص٢١.



دور العرب الحضاري في شرق افريقيا في القرنين الـ ١٦ ـــ ١٧

الدكتور/ شوقي عطا الله الجمل

لعب العرب دورا هاماً في تاريخ القارة الافريقية، وتاريخها الحضاري بصفة خاصة. وكان هذا الدور اكثر وضوحا في شرق القارة، وفي شمالها الغربي.

وسنقتصر الحديث هنا عن دور العرب الحضاري في شرق القارة. وقبل التعرض لهذا الدور ومظاهره لابد من الاشارة بسرعة للمصادر الهامة التي أمدتنا بمعلومات عن هذه العلاقة بين العرب وشرق القارة، كما أننا سنشير في عجالة الى تطور علاقات العرب بسكان شرق القارة حيث اننا سنركز على الاثار الحضارية للعرب في هذه المنطقة في الفترة بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر.

أولا: مصادر معلوماتنا عن علاقة العرب بشرق افريقيا:

يرجع الفضل في إلقاء الاضواء على علاقة العرب بشرق افريقيا الى ما كتبه الرحالة العرب وغيرهم ممن زاروا هذه الجهات وكتبوا عنها ـــ قبل أن تبدأ الابحاث الحديثة التي استطاعت على أساس ما كشفت عنه من آثار، وبقايا، ومن دراسات انثروبولوجية وغيرها ـــ الكشف عن بعض الجوانب الغامضة في العلاقات العربية الافريقية المبكرة.

ومن الرحالة العرب الذين كتبوا عن شرق افريقيا ـــ المسعودي وقد زار الهند، والصين وزنجبار والصومال، ومدغشقر، وسجل مشاهداته في هذه البلاد في ثلاثين جزءاً وكانت زيارته لشرق افريقيا في صحبة بعض التجار العرب من عمان، وساحل الخليج العربي، وجاءت أخر رحلاته لهذه المناطق في عام ٣٠٤هـ (٩١٦م) ووصل فيها الى سفالة وتحدث بتفصيل عن حياة سكانها(١).

أما الادريسي فانه لم يزر ساحل أفريقيا الشرقي كما فعل المسعودي ـــ لكن أهميته فيما نحن بصدده ترجع الى انه قضى معظم حياته في بلاط الملك روجر الثاني Roger II ملك صقلية فاستفاد من ثراء هذا الملك، ومن الاخبار التى كانت تتناقلها السفن التجارية المترددة على سواحل جزيرة صقلية تحدث مثلا حديثا شائقا عن مدينة مالندى بشرق افريقيا ومناجم الحديد بها، وعن مدن

ممبسة، وكلوة، وبراوه، وبركة ونشاطها التجاري كما تحدث عن غيرها من المدن الساحلية الاخرى بشرق افريقيا، وعن جزر المحيط الهندي مثل زنجبار.

ومن أشهر الرحالة العرب الذين زاروا مدن شرق افريقيا ابن بطوطة ــ فقد اشتهر بكثرة التجول ــ إذ زار الهند والصين في عام ٧٣٢هـ (١٣٣١م) وزار مدن الساحل الشرقي لافريقيا وكتب معلومات مفصلة عن الحياة في هذه المدن وما كانت تتمتع به من ثراء وفي مقدمة المدن التي زارها وقدم وصفا لها ــ مقديشيو، وممبسة، وكلوة، وقد وصف الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بها معتمدا على مشاهداته هو حين زارها، وكذلك عما سمعه ممن قابلهم اثناء هذه الزيارة من الشخصيات البارزة في هذه البلاد(٢).

أما عن المصادر الهامة التي تعرضت لتاريخ العرب بشرق افريقيا ــ خلاف كتابات هؤلاء الرحالة ــ ففي مقدمتها المخطوطة المعروفة (بالسلوة في اخبار كلوة) وهي لمؤلف مجهول تعرض فيها لتاريخ مدينة كلوة منذ تأسيسها في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الى وصول البرتغال الى هذه البلاد في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي).

وأصل هذه الوثيقة مفقود لكن النسخة المعروفة لنا ترجع الى عهد السلطان برغش بن سعيد ــ سلطان زنجبار وهي بخط عبد الله بن مصبح الصوافي وقد أهداها السلطان للسير جون كيرك Kirk Sir John الذي اهداها بدوره للمتحف البريطاني وهي محفوظة هناك تحت رقم ٦٦٦، وقد قام بتحقيقها ارثر سترونج Arthur Strong ونشرها في عام ١٨٩٥(٣).

ورغم أنه يتضح مما ذكره المؤلف في مقدمته ــ انها من مقدمة وعشرة أبواب اورد محتوياتها وذكر أنه سيختم كتابه بولاية الملك العادل السلطان محمد بن حسن بن السلطان سليمان بن السلطان محمد، وأنه صنف هذه المخطوطة بناء على طلب هذا السلطان ــ فان المخطوطة المنشورة تتوقف عند نهاية الباب السابع وقد كثرت الأقوال حول الابواب الثلاثة الباقية فمن قائل ان المؤلف قد اضطر للتوقف عند نهاية الباب السابع لان الابواب الثلاثة التالية كانت تتناول فترة السيطرة البرتغالية، وهي فترة حرجة لم يستطع المؤلف معالجتها بصراحة ودقة، ومن قائل ان الامر يرجع لعدم عثورنا على النسخة الاصلية الكاملة للمخطوطة(٤).

ولابد من الاشارة هنا وقبل ختام المصادر العربية الى أنه من أوفى وأبعد ما كتب عن المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا ما كتبه الدكتور جمال زكريا قاسم تحت عنوان المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا (المجلة التاريخية المصرية ــ المجلد الرابع عشر ١٩٦٨ ص١٦٩ ــ ٢٣٠).

أما عن المؤرخين الاجانب الذين تعرضوا للعلاقات العربية الافريقية ــ فلعل ما كتبه المؤرخ الانجليزي تشيتيك Chittick رئيس المعهد البريطاني للتاريخ والاثار بشرق افريقيا عن كلوة من أحسن ما كتب عن هذه البلاد ــ فقد استند في كتاباته على ما اسفرت عنه عمليات التنقيب

الاثرية في هذه البلاد كما أنه تعرض لبعض ما كتبه الرحالة والمؤرخون الآخرون من العرب وغيرهم عن شرق افريقيا في دراسة مقارنة طيبة(٥).

وقد تعرض غيره من الكتاب والمؤرخين الاجانب لدراسة تاريخ شرق افريقيا وعلاقة العرب بهذه البلاد وتأثيرهم الحضاري فيها ــ لكن يؤخذ على أغلب الكتاب عدم التزامهم بالموضوعية في دراساتهم وفي عرضهم للاحداث وتحليلها.

فالمؤرخ الانجليزي جرانفيل فريمان Freeman Granville مثلا الف اكثر من كتاب عن شرق افريقيا ــ ابرز دور الهنود في هذه المجالات وقلل من شأن العرب رغم مخالفة ذلك للامر الواقع(٦).

كذلك شأن المؤرخ اوليفر رولاند Oliver Roland في كتابه عن تاريخ شرق افريقيا وفجر التاريخ الافريقي حيث وصل الامر الى أنه رجح ان الاسلام وصل الى شرق القارة عن طريق الهند بعد ان انتشر هناك، وتجاهل تماما جهود عرب شبه الجزيرة العربية في هذا المجال رغم ذلك(٧).

وقد ركز بعض هؤلاء المؤرخين الاجانب على دور الفرس في شرق افريقيا وغلبوه على الدور الذي قام به العرب هناك ــ ومن هؤلاء المؤرخ المعروف كوبلاند(٨).

هذه بعض المراجع والمصادر التي تعرضت لتاريخ شرق افريقيا ودور العرب في هذه الفترة وان كنا لا نقل من اهمية هذه المراجع في دراسة تاريخ هذه المنطقة فاننا يجب أن نأخذ أقوالها بشئ غير قليل من الحذر.

وقد افاض الاستاذ جمال زكريا في بحث وتقييم المصادر العربية بالذات في بحثه السابق الاشارة اليه والمنشور في المجلد الرابع عشر من المجلة التاريخية المصرية (١٩٦٨) فليرجع اليه من اراد المزيد من المعلومات في هذا الشأن.

ثانيا: علاقات العرب المبكرة بشرق أفريقيا قبل الاسلام:

تجمع المراجع المختلفة على أن علاقة عرب شبه الجزيرة بشرق افريقيا بدأت في وقت مبكر وبغرض التجارة. ويصعب تحديد زمن بعينه كبداية لهذه العلاقات.

وقد ساعدت عدة عوامل على هذه الاتصالات المبكرة بين العرب وسكان شرق القارة في مقدمة هذه العوامل عامل جغرافي هام ــ في ديسمبر من كل عام تهب الرياح التجارية من الشمال الشرقي ويستمر هبوبها بانتظام في هذا الاتجاه حتى نهاية فبراير، ومن ابريل الى سبتمبر ينعكس اتجاه الرياح فتهب من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ــ من زنجبار الى مدخل خليج عدن ثم الى خليج عمان ــ فلقد أصبح في امكان التجار الذين يبدأون رحلتهم التجارية في سفنهم الشراعية الصغيرة ــ التي كان يطلق عليها اسم الداو Dhows من الشاطئ العربي في الشتاء ــ الاستعانة بقوة الرياح الذاتية في سفرهم جنوبا صوب الساحل الافريقي، وفي اثناء عودتهم ــ الى اوطانهم في الربيع ــ وبعد ان يكونوا

قد قضوا بضعة شهور في التجارة ــ يجدون ايضا الرياح مواتية للاتجاه صوب الوطن الاصلي محملين بسلع افريقية متنوعة. وبمضى الوقت اصبحت للتجار والبحار العرب خبرة تامة بمواقيت الرياح واتجاهاتها، وأصبحت رحلاتهم بين شبه الجزيرة العربية والساحل الافريقي ومدة استقرارهم بهذا الساحل تنظم تنظيما دقيقا تبعا لمواسم الرياح المنتظمة المعروفة لهم(٩).

كذلك من الاسباب الرئيسية التي دفعت سكان السواحل العربية للخروج من شبه جزيرتهم ــ العمانيون والحضارمة على وجه الخصوص ــ انهم نشأوا في بيئة بحرية مثالية في جنوب الجزيرة العربية ظهيرها طارد فكان طبيعيا ان يتسللوا الى شرق افريقيا في مجموعات صغيرة انتشرت في البداية في بعض الجزر الساحلية مثل مافيا Mafia وزنجبار Zanzibar وبمبا Pemba، وفي المراكز الساحلية مثل سفالة Sofala ومالندى Malindi وكلوه Kilwa وممبسة Mombassa، ودار السلام. واستطاعت هذه المجموعات ان تطبع مناطق واسعة من شرق القارة بلغتها وحضارتها وان تندمج مع السكان الوطنيين(١٠).

وأشير الى ما ذهب اليه بعض الجيولوجيين من أن شبه جزيرة العرب كانت في العصور الجيولوجية القديمة متصلة بالقارة الافريقية ومهما يكن فن المرجح ان مضيق باب المندب كان في العهود القديمة أصغر مساحة مما هو عليه الان، وكانت القارتان اشد تقاربا فلم يكن يفصل بينهما أكثر من خمسة وعشرين ميلا ــ ولذا كان هذا الباب منذ اقدم العصور ــ طريقا لدخول موجات بشرية متتالية من شبه جزيرة العرب وبالذات لشرق افريقيا(١١).

وهكذا اصبحت السفن العربية تحمل بين الحين والاخر بعض الذين طاب لهم الاستقرار بالساحل الافريقي ليكونوا حلقة اتصال بين اخوانهم في الجزيرة العربية وبين سكان السواحل الافريقية والجهات الداخلية فيها، وبمضي الزمن زاد عدد الوافدين للاستقرار وزادت العلاقات مع الداخل والتوغل فيه وتشعبت المصالح وأصبحت للعرب أمارات عربية في هذه السواحل الافريقية لها اتصال بالجماعات أو الشركات التجارية العربية ــ اذا صح التعبير ــ في الجزيرة العربية نفسها، وبالتجار في القارة الافريقية ونحن نجد وجوه شبه كثيرة بين هذه العمليات العربية وبعض العمليات الاوروبية في القرن التاسع عشر وما قبل القرن التاسع عشر في انها كانت عمليات تجارية تدار وتنظم بواسطة جماعات مالية تجارية. وفيا يتعلق بالشركات الاوروبية كانت الادارة تستمر مدة في يد الشركة ثم بعد ذلك تتنازل الشركة عن الامتيازات التي حصلت عليها للحكومة، وأشهر مثال لذلك شركة الهند الشرقية البريطانية British East India Company التي استطاعت ان تحصل على امتيازات وحقوق في مناطق واسعة من الهند ثم انتقل الامر كله للحكومة الانجليزية، وبالطبع لم تبلغ الشركات أو الجماعات التجارية العربية هذا القدر من التنظيم الذي بلغته هذه الشركات الاستعمارية الاجنبية لكنها كانت على كل حال تتمثل في مجموعات من التجار يساهمون

ويشتركون في هذا النشاط لكن لم تكن وراءهم حكومة مركزية واحدة ـ فكان الامر ينتقل في النهاية لاحد الرؤساء يطلق على نفسه لقب السلطان أو أمير فتصبح له الكلمة كما أن الغرض التجاري كان هو الغالب على هذه الجماعات العربية فلم تكن الفكرة كما كانت عند الكثير من الشركات الاوروبية ــ فكرة استعمارية أي استغلال الارض ثم الانتشار منها للداخل، ولهذا كان الاستقرار غالبا مقصورا على الساحل فحسب، وفي نقط مختارة تخدم هذا الهدف التجاري، ولذا كانت تختار هذه النقط بحيث تكون لها مزاياها التجارية، كثغر من الثغور سهل الاتصال بداخل القارة، ويسهل ايضا الوصول اليه من الجزيرة العربية المقابلة.

فالغرض الاساسي من الاستقرار العربي بالساحل الافريقي المقابل لشبه الجزيرة العربية هو استغلال الحاصلات الداخلية ونقلها للثغور الساحلية للاتجار فيها، وكذلك استيراد ما يمكن تصريفه من البضائع داخل القارة ــ ولهذا لم تهتم هذه الجماعات العربية بامتلاك الارض الا بالقدر الضرورى لحماية الثغر التجاري ومن ثم كانت رقعة الممالك العربية على الساحل الافريقي ضيقة، ولاشك في أن عوامل طبيعية اخرى أملت الى حد ما عدم الانتشار للداخل، منها عوامل تتمثل في التضاريس والمناخ والنبات، ولكن لاشك ايضا في أن الاغراض التجارية حتمت في كثير من الاحيان ارسال حملات للداخل لحماية القوافل وضمان وصولها، ولعقد اتفاقات تجارية مع امراء افريقيين في الداخل، ولذا فقد انتقل النفوذ العربي في ظروف كثيرة نحو باطن القارة وترتب على هذا معرفة العرب ببعض الجهات الداخلية في القارة الافريقية قبل ان يتجه اليها نشاط المستكشفين الاوروبيين.

ويمكن ان نتصور ان التوسع العربي في ساحل شرق افريقيا قد مر بمرحلتين(١٢):

١. اقتصر الامر في البداية على الجزر الساحلية «زنجبار وممباسة وبمبا، ولامو» وعلى بعض الاقاليم الساحلية.

٢. انتشر النفوذ العربي بعد ذلك في شرق القارة في المناطق المواجهة للجزر ثم أخذ يتوغل في الداخل وأدى هذا لظهور المدن ثم الامارات العربية بشرق القارة. وبظهور الاسلام برزت عناصر اخرى جديدة دفعت لهجرة العرب لشرق افريقيا.

ثالثا: تطور علاقات عرب شبه الجزيرة بشرق افريقيا في ظل الاسلام:

بظهور الاسلام دخلت علاقات عرب شبه الجزيرة العربية بشرق افريقيا في مرحلة جديدة فقد حدثت اسباب ودوافع أدت لهجرة جماعات من عرب شبه الجزيرة العربية لشرق افريقيا للاتجار فحسب بل للاقامة الدائمة والاستقرار في هذه المناطق.

وكانت أول الهجرات العربية المعروفة الى شرق القارة في فجر الاسلام ـــ الى أرض الحبشة فقد

اختارها الرسول عليه الصلاة والسلام دون غيرها من البلاد لهجرة اصحابه عندما اتجهت قريش الى تعذيبهم وسجنهم وذلك لان ملك الحبشة اشتهر بعدم التعصب لفريق دون فريق أو مذهب أو ديانة دون ديانة(١٣).

وكانت بلاد الحبشة معروفة للعرب فقد كانت لقريش بها صلات وثيقة ومصالح متبادلة، وزيارات منتظمة وكان التجار العرب يستعينون بالاحباش بكثرة في حروبهم القبلية وفي حراسة قوافلهم كما كان بمكة عدد غير قليل من العبيد الاحباش ـــ ادرك بعضهم الاسلام وأسلم(١٤).

وقد أشار الطبرى الى ذلك فقال: «أن ارض الحبشة كانت متجرا لقريش يتجرون فيها ويجدون فيها سعة من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا»(١٥).

ونشير الى أن الهجرة الى أرض الحبشة كانت أول هجرة في الاسلام وأنها تمت في شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة المحمدية (٦١٥م) حيث خرج أحد عشر رجلا واربع نسوة من المسلمين متسللين فوصلوا الى ميناء الشعيبة ومنها حملتهم سفينتان للتجار الى أرض الحبشة(١٦).

وتوالت بعد ذلك هجرات العرب المسلمين الى ارض الحبشة وبقى المهاجرون المسلمون بارض الحبشة حتى استقرت الامور للمسلمين في المدينة المنورة، ويبدوا ان المسلمين الذين استقر بعضهم بالحبشة ما يقرب من ستة عشر عاما لقوا من النجاشي معاملة طيبة، واستمرت العلاقات الودية بين العرب والحبشة بعد عودة المهاجرين العرب لشبه الجزيرة العربية(١٧).

على أن الاوضاع السياسية في شبه جزيرة العرب كان لها أثارها على هجرة العرب للساحل الافريقي المقابل فحين اشتد النزاع بين احزاب المسلمين كانت بعض الاحزاب المغلوبة على أمرها تهاجر الى شرق افريقيا وتتخذ هذه الجهات موطنا لها، فأثناء حكم عبد الملك بن مروان مثلا هاجر عدد من العرب الى لامو واستقروا بها(١٨).

وأدت سياسة البطش التي اتبعها الحجاج بن يوسف الثقفي عامل عبد الملك بن مروان على العراق الى هجرة عدد كبير من المعارضين لهذه السياسة الى شرق افريقيا.

وقد أسهمت امارة عمان التي تشغل الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة ويحدها المحيط الهندي من ناحيتين والصحراء العربية من الداخل بالنصيب الاكبر في تزويد الساحل الافريقي الشرقي بعناصر جديدة من العرب باستمرار.

فقد كانت هذه الامارة كالجزيرة المنعزلة، وكان لهذا الموقع أثره في طباع السكان وميولهم فلم يقبلوا الخضوع لاية قوة بل ظلوا يناضلون ضد النفوذ الفارسي ثم العثماني، بل ان خلفاء المسلمين انفسهم لم يكن لهم الا نفوذ أسمى على عمان.

وفي القرن الثامن الميلادي انتخب حاكم لعمان يلقب بالامام، وظل يتعاقب على الحكم في عمان عدد من الائمة المنتخبين لمدة عشرة قرون.

والعرب في عمان عبارة عن خليط من عدة قبائل عربية لكن اهمها قبيلة أسد وكانت مدينة مسقط هي المنفذ البحري للامارة وكانت هذه المدينة هي النافذة التي أطل منها أهل عمان على العالم الخارجي فخرجوا لعرض البحر وساهموا في التجارة العربية في المحيط الهندي، وذاعت شهرتهم في بناء السفن فكانوا يبحرون لجزيرة زنجبار وغيرها من الجزر التي اشتهرت بأشجار جوز الهند الضخمة التي تصلح لصناعة السفن فيقطعون الاخشاب ويصنعون منها السفن ويحملونها بثمار جوز الهند لتسويقها في الجهات البعيدة.

وان كانت مسقط تعتبر بابا للخروج لكنها لم تكن كالبصرة مثلا تعتبر ميناء للخروج كما تتحكم ايضا في الطريق البري المؤدي لاوروبا ومنها، فكان طبيعيا ان يخرج اهلها للبحار وان يبحث هؤلاء البحارة المهرة من أهل عمان عن وسيلة للثراء لا تعتمد على البر بل يستغلون فيها مهاراتهم البحرية ومن ثم فقد اندفعوا بكامل قوتهم للبحر وأصبحت لهم السطوة في الخليج العربي والمحيط الهندي وانتهى المطاف بجموع منهم بالاستقرار على الشاطئ الشرقي لافريقيا لخدمة الاغراض التجارية بها وأدى ذلك لتكوين أمارات عربية في هذه الجهات(١٩).

ويعتقد ان العمانيين رجع اليهم الفضل في تكوين أقدم امارة اسلامية في شرق افريقيا فعندما هاجروا الى لامو كما ذكرنا سابقا واستقروا في المناطق الواقعة شمال ممبسة نجحوا في مستهل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) في تكوين حكومة تعتنق مذهب الخوارج الذي كان منتشرا في عمان في ذلك الوقت(٢٠).

واستطاع العمانيون ايضا عن طريق المصاهرة بين الاسرة النبهانية صاحبة النفوذ في عمان وبين حاكم جزيرة بات Pate بالساحل الافريقي مد نفوذهم الى هذه الجزيرة. ففى اوائل القرن السابع الهجري (الرابع عشر الميلادي) تزوج سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني امير عمان بابنة حاكم بات وآلت السلطة بعد ذلك الى الاسرة النبهانية التي ظلت تحكم هذه المنطقة حتى القرن التاسع عشر الميلادي(٢١).

وقد نجح أئمة عمان في أن يمدوا سلطانهم على ساحل افريقيا الشرقي من ارض الصومال حتى نهر روفوما Rovuma وان يقيموا في هذه المناطق امارات تابعة لهم، وضعوا على رأسها رؤساء من العائلات العربية في ممبسة وزنجبار وغيرهما من المناطق الهامة وظل سلطان ائمة عمان قويا ومعترفا به في كلوة، ومافيا، وبمبا، وزنجبار حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين بدأت الدول الاوروبية تلتهم املاك سلطان زنجبار.

هذا فيما يتعلق بالعمانيين ودورهم في شرق افريقيا على اننا نشير بوجه عام الى ان ما تعرضت له الدولة الاسلامية في تاريخها من صراعات وأزمات ادى لهجرات مستمرة من المسلمين لساحل افريقية الشرقية، فحدث حين شدد الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك قبضته على الشيعة الزيدية باليمن ان هاجر عدد منهم الى شرق افريقيا حيث استقر بهم المقام هناك وأصبح لهم نفوذ على ما عرف

باسم ساحل البنادر(٢٢).

وحدث مثل هذا ايضا حين اشتد النزاع بين الامويين والعباسيين وانتهى بالقضاء على الدولة الاموية وفرار مروان الثاني آخر خلفاء الامويين الى مصر وتوغله مع عدد من اتباعه الى صعيد مصر ووصولهم الى النوبة، بينما توجه بعضهم الى مصوع، كما حدث حين احتدم النزاع بين العباسيين والشيعة واستمر هذا الصراع حتى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وما بعد ذلك وأدى لهجرة المغلوبين على أمرهم من قوات أعدائهم، وكان ساحل شرق افريقيا بموقعه الجغرافي ولمعرفة العرب السابقة به ملجأ لهؤلاء الفارين الراغبين في الاستقرار في اماكن بعيدة عن متناول ايدى اعدائهم(٢٣).

رابعاً: الآثار الحضارية للعرب في شرق افريقيا:

استقر العرب كما رأينا في شرق افريقيا من وقت مبكر وساعدت الاحداث المتتابعة في بلاد العرب على المزيد من الهجرة العربية والاستقرار بشرق افريقيا، وكانت للعرب الذين استقروا بشرق القارة ومازالت آثار عميقة في حضارة هذه البلاد وسكانها يمكن ان نجملها فيما يلي:

١. تأسيس المدن والحواضر الهامة وتعميرها وادارتها:

ترتب على استقرار العرب بشرق افريقيا قيام تجمعات سكانية لم تلبث ان نمت وأدت لقيام عدد من المدن الهامة، وقد قامت هذه المدن في البداية كمراكز تجارية لخدمة التبادل التجاري ثم بالتدريج ازدهرت وتطورت واصبحت نواة لامارات عربية هامة وامتدت هذه المدن بطول الساحل الافريقي من سواكن شمالا الى سفالة جنوبا(٢٤).

كما استقر العرب في جزر المحيط الهندي مثل جزر بمبا، وزنجبار، ومافيا، وكلوه، وجزر القمر وغيرها(٢٥).

ونلاحظ ان بعض هذه الجزر كان قريبا من الساحل لا يفصلها عنه سوى خور بحري ضيق بينما كان البعض الآخر بعيدا عن الساحل وقد عمرت هذه الجزر بقدوم العرب واصبحت هي الاخرى مراكز تجارية هامة.

وقد شبه البعض هذه المراكز العربية بالساحل الشرقي للقارة أو الجزر القريبة منه بالمدن اليونانية City States حيث ان استمرار الهجرة الى هذه المناطق ترتب عليه وجود مجتمعات مكتملة منظمة وكان الشيوخ يؤلفون ما يمكن ان نشبهه بمجلس المستشارين يشارك الحكام في المسئولية وكان الافراد يلجأون لهذه المجالس طالبين رد الظلم أو الانصاف من جور اعدائهم(٢٦).

ولا يتسع المجال هنا لتتبع تاريخ كل مدينة من المدن التي أسسها العرب في شرق القارة وتطور نموها خلال القرون المتعاقبة لكن نشير لأهم هذه المدن.

فبعض المؤرخين يرجعون تأسيس مدينة مقديشيو Magadishu عاصمة جمهورية الصومال حاليا الى هجرة جماعة من الحميريين الى الساحل الافريقي حيث استقروا وأسسوا المدينة، وقيل أنه تم انشاؤها قبل مولد الرسول عليه الصلاة والسلام بمائتي عام، بينما يرجع آخرون تأسيسها الى وقت متأخر حين اشتد الصراع بين العباسيين والقرامطة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ففر بعض افراد من القرامطة وشيدوا مدينة مقديشيو، ثم جاء في اعقابهم تجار من شيراز يعزى اليهم بناء مسجد الاحقاف ثم جاء بعدهم تجار من العراق استقروا بهذه البلاد للتجارة ايضا، واستمرت مقديشيو في النمو والازدهار واصبحت قبلة الوافدين من الجزيرة العربية وغيرها من البلاد الاخرى(٢٧).

وهناك روايات مماثلة تروى عن تأسيس مدينة كلوة، فالبعض يذكر ان بعض المسلمين هاجروا لهذه المنطقة من جزيرة العرب واستقروا فيها وأسسوا مسجدا، والبعض يربط بين هذه المدينة وبين الحسن بن على الشيرازي من الاسرة الحاكمة في شيراز وانه واتباعه اضطروا للهجرة من وجه السلاجقة ويرجعون هذه الهجرة الى ما بين ١٠٥٥، ١١٠٠.

وقد زار ابن بطوطة مدينتي مقديشيو وكلوة خلال رحلته التي قام بها بشرق افريقيا وتحدث عن مشاهداته بهذه المدن ومظاهر الحضارة بها.

وترتب على غارات المغول ودخولهم بغداد في عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨) دفع مزيد من المسلمين للهجرة الى الساحل الشرقي لافريقيا(٢٨).

ويرتبط تأسيس مدينة سفالة بالتجارة في الذهب ويرجع ان العرب قد جاءوا الى المنطقة الواقعة قبالة جزيرة مدغشقر في عام ٣٠٣هـ (٩١٥) بهدف التجارة في الذهب المستخرج من المناطق الداخلية والتي اطلقت عليها بعض المصادر العربية اسم (ظفار ـــ الزنج)(٢٩).

وسفالة هي أقصى منطقة في الساحل الشرقي لافريقيا وصل اليها العرب، وقد ظلت سفالة مركزا تجاريا هاما للعرب حتى اوائل القرن السادس عشر. وقد تحدث ابن ماجد عن سفالة ووصف مناخها وسكانها وطبيعة ارضها ومعادنها وذلك في الارجوزة التي اطلق عليها اسم الارجوزة السفالية(٣٠).

ويرجع البعض تأسيس براوة الى جماعة قدمت من الاحساء في اوائل العام الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وأخذت المدينة تنمو وتزدهر منذ ذلك الوقت.

وترجع هجرة العرب بأعداد غفيرة الى لامو الى فترة حكم الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان، وفي اثناء اشتداد الصراع بين الامويين والعباسيين.

وقد تتابعت هجرة العرب الى لامو في السنوات التالية حتى عمرت المدينة وازدهرت.

ومن الموانئ الهامة التي أسسها العرب في الساحل الشرقي للقارة مدينة مالندى.

ويقال ان أول من وفد اليها جماعة من العراق، لكن خرجت المدينة التي أسسها العراقيون في حوالي عام ٣٦٥هـ الى أن جاءت جماعات أخرى من شيراز ومن شبه جزيرة العرب فأعادت بناء المدينة.

ومن المدن الهامة في الساحل الافريقي الشرقي مدينة ممبسة ويرجع ان جماعة من عمان رحلت للساحل الافريقي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حيث أسست هذه المدينة وأطلقت عليها هذا الاسم وهو اسم مدينة في عمان(٣١).

وقد كانت هناك منافسة شديدة بين مالندى وممبسة على السيادة في هذه المنطقة بالساحل الافريقي، وقد زار ابن بطوطة ممبسة في عام ١٣٣١ وتحدث عن المدينة ومساجدها وسكانها(٣٢).

وقد وقفت ممبسة في وجه البرتغال ورفضت الخضوع لهم سلما وقد انتقم البرتغال من المدينة وسكانها فخربوها وسلبوا ما استطاعوا سلبه واشعلوا النار في الباقي منها كما نشير اليه بتفصيل أكثر فيما بعد.

وبالاضافة الى هذه المدن والموانئ الهامة التي أنشأها العرب في شرق افريقيا والتي عرفنا عن تاريخها وحضارتها مما كتبه الرحالة عنها نشير الى أنه كما يبدو كان هناك عدد كبير آخر من المدن والمواقع العربية بالساحل الافريقي لكنها اندثرت فلم تلق من الشهرة ما لقيه غيرها من المدن التي بقيت حتى مجئ البرتغال في نهاية القرن الخامس عشر وكانت لهم معهم مواقف محددة، وقد أوردت بعض المراجع بيانات عن بعض هذه المواقع العربية التي اندثرت(٣٣).

أما عن نظام الحكم والادارة في هذه المدن:

فلا توجد لدينا صورة كاملة تفصيلية عن نظام الحكم في هذه المدن العربية لشرق افريقيا، لكن نستطيع من كتابات الرحالة الذين زاروا هذه المناطق خاصة في الفترة السابقة لوصول البرتغاليين لشرق القارة، وكذلك مما كتبه البرتغاليون انفسهم، ان نكون صورة قريبة من الواقع عن النظام الذي ساد هذه المدن.

والاجماع يمكن القول ان العرب الذين جاءوا لساحل شرق افريقيا جاءوا بتقاليدهم القبلية وعاداتهم وان تأثرت بالطبع بما كان سائدا في هذه المناطق من تقاليد افريقية، لكن على العموم لم يشهد الساحل قيام وحدة سياسية كاملة ولا وجدت امبراطورية عربية تجمع شتات المدن وان كانت هناك محاولات قامت بها بعض المدن من أجل فرض نوع من السيطرة على المدن الاخرى والاشراف على أوجه النشاط الرئيسية كالتجارة في الموانئ، وباستثناء فترات قصيرة استطاعت فيها سلطة اسلامية ان تفرض نفوذها على معظم مدن الساحل وتطالبها بدفع الجزية رمزا للتبعية(٣٤).

وكما قلنا ان المدن العربية التي قامت في شرق القارة كانت تتمتع بنظام خاص للحكم فقد كانت كل منها تحت حكم حاكم يصل للسلطة اما عن طريق الوراثة أو القوة، ويعاون الحاكم مجلس من الشيوخ المحليين وكان في بعض الاحيان الى جانب الحاكم وزير أول وسكرتير دولة، وقاض أو أكثر بالاضافة الى المحتسب وخطيب المسجد وعدد من الموظفين والمعاونين(٣٥).

فدينة كلوة مثلا بلغت في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) درجة كبيرة من السطوة والنفوذ وزاد نفوذها وامتد الى موانئ الجنوب وعند وصول البرتغال الى موزمبيق كان بها ممثل لسلطان كلوة(٣٦).

كذلك أصبحت مدينة بات في القرن الرابع عشر تمثل قوة كبرى تحت حكم أسرة النبهان، وقد مدت هذه الاسرة نفوذها على براوة ومقديشيو ولامو ومالندى ونافست كلوة السيادة في هذه المناطق.

وهكذا نستطيع ان نقول ان هذه المدن أو المراكز العربية بساحل افريقيا كانت في أغلب فترات تاريخها مدنا مستقلة فلم تكن هناك امبراطورية عربية واحدة تضم هذه المدن باستثناء فترات ليست طويلة استطاعت فيها سلطة واحدة ان تبسط سلطانها على مساحة من الساحل، ومن هذه المحاولات التي نجحت في ربط المدن الساحلية الهامة بعضها بالبعض الاخر ما قامت به الاسرة الشيرازية التي ظلت تحكم كلوة وما تبعها من مدن الساحل مدة طويلة امتدت لثلاثة اجيال متتالية ثم تلتها في نهاية القرن الثالث عشر أسرة المهدي وهي أسرة من الزيديين جاءت من اليمن، كذلك الدولة الاسلامية التي عرفت باسم (دولة الزنج) والتي نجحت في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي في توحيد معظم المراكز الاسلامية على ساحل شرق افريقيا وظلت قائمة حتى سقطت على يد البرتغال في اوائل القرن السادس عشر(٣٧).

ولابد من الاشارة الى أن معظم معلوملتنا عن نظام الحكم في هذه الامارات العربية نستقيه مما كتبه بعض الرحالة العرب مثل ابن بطوطة(٣٨) عن مشاهداتهم اثناء رحلاتهم، كذلك الرحالة أو المكتشفون البرتغال فقد ذكروا بعض ما شاهدوه عندما وطأت اقدامهم هذه البلاد، فقد ذكر الرحالة فاسكو داجاما Vasco da Gama الذي اشتهر برحلته حول افريقيا في اواخر القرن الخامس عشر ما شاهده في موزامبيق من مظاهر حضارية، كذلك دوراث باربوسا Duarte Barbosa تحدث عن أوضاع كلوة وممبسة ومالندى، وبيا وزنجبار وقت زيارته لها.

ويعلق كوبلاند على ما أشار اليه البرتغاليون الذين وصلوا لاول مرة لشرق افريقيا فدهشوا للمظاهر الحضارية التي لمسوها بهذه الجهات التي لم يكونوا يعرفونها فعلق على ذلك بقوله: «اننا يجب الا نندهش لما يذكره هؤلاء الرحالة عن مظاهر الحضارة التي نقلها العرب لشرق افريقيا فان العرب كانوا في ذلك الوقت حملة لواء الحضارة في الغالب فلا شك في ان مدارس بغداد والقاهرة وتونس كانت حتى القرن الثالث عشر تفوق تلك التي في أكسفورد أو ي أي مدينة مسيحية

أخرى(٣٩).

وتغنينا هذه الشهادة من أجنبي استعماري عن كل تعليق أخر.

ورغم ان كوبلاند ذكر ان العرب كانوا في السواحل الافريقية يكونون ارستقراطية تمثل الطبقة الحاكمة صاحبة السيادة لكن مما لاريب فيه انهم لم يكونوا بعيدين عن السكان أو متباعدين عنهما فقد كان هناك تقارب وتجانس، وكانت هناك مصالح مشتركة، وأدى هذا للاختلاط والتزاوج، وقد عاد الكاتب فناقض نفسه واعترف في اكثر من موضع في كتابه بروح المحبة التي سادت بين السكان الاصليين وبين المهاجرين العرب وترتب عليها تزاوجهم، وكانت نتيج ذلك جنس تميزت فيه الصفات الزنجية المعتدلة كما أثمرت فيه كثير من العادات والصفات العربية(٤٠).

وقد ابرز جميع الكتاب والرحالة الحقيقة التي ذكرناها سابقا وهي ان العرب في شرق افريقيا كونوا امارات متفرقة فلم تكن لهم امبراطورية متحدة فعلا ولو انه في فترات متقطعة كانت لامارة منها سيادة على منطقة واسعة تشمل عدة امارات، فحين جاء البرتغال مثلا لشرق افريقيا في القرن الخامس عشر كانت لامارة كلوة السيادة على الجزء الجنوبي من الساحل، ولما وصل فاسكو داجاماالى موزمبيق وجد ان حاكم المدينة كان نائبا عن سلطان كلوة وكان يجبي الضرائب لحسابه على كل السفن التجارية التي ترد الى المدينة، وكانت هناك علاقة مصاهرة بين سلطاني لوة وممبسة، وهكذا ــ كما ذكر هؤلاء الرحالة ــ كان لامراء كلوة شئ من السيادة سواء عن طريق القوة أو عن طريق السياسة والمصهرة على جزء كبير من ساحل افريقيا الشرقي وان لم تكن لهم السيادة الكاملة بالمعنى الذي نعرفه اليوم.

على أنه يستفاد ايضا من كتابات هؤلاء الرحالة ان الامارات العربية كان قيامها على الساحل وان تعمقها للداخل كان فقط بالقدر الذي يخدم الغرض التجاري فكل ما كان يهم هذه الامارات هو تسويق منتجاتها الواردة من الجزيرة العربية وجهات آسيا الاخرى ومبادلتها بالعاج والذهب الروديسي والعبيد وغير ذلك من منتجات هذه الجهات فلم يتعمقوا الى الداخل الا بقدر ما تطلبه عملية المبادلة هذه.

٢ ــ الآثار الاقتصادية للعرب في شرق افريقيا:

لقد كان التبادل التجاري في مقدمة الدوافع التي دفعت العرب للخروج من شبه الجزيرة العربية لشرق القارة، وأدى هذا كما رأينا الى استقرار جماعات عربية بشرق القارة وتكوين المدن والامارات العربية هناك.

والحقيقة ان وجود العرب بهذه المناطق أدى لنهضة اقتصادية شاملة ولتطوير في المعاملات وفي أوجه النشاط الاقتصادي المختلفة.

وقد أشار الرحالة العرب والاجانب الى ازدهار الحركة التجارية بين شرق افريقيا وشبه جزيرة العرب ــ اشار لذلك المسعودي وابن بطوطة كما أشار دورات باربوسا Duarte Barbosa وغيرهم وليس هذا بغريب فقد كان العرب في الفترة من القرن الاول الهجري حتى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) سادة المحيط الهندي والمتحكمين في التجارة بين اوروبا واسيا عبر هذا الطريق، وقد اتسعت حلقة هذه التجارة فشملت تجارة التوابل وأدوات الترف الشرقية التي يحضرونها من الهند وسيام والفلبين والصين بالاضافة الى سن الفيل والعاج والذهب والحديد، والرقيق وغيرها من واردات شرق افريقيا، وبذا اصبح شرق افريقيا حلقة هامة في شبكة هذا التبادل التجاري واصبحت هناك مراكز مهمة على امتداد هذا الطريق من الصين شرقا الى أوروبا(١١).

وفيما يتعلق بصادرات شرق افريقيا يأتي الرقيق في مقدمتها، ولابد من الاشارة هنا الى أن تجارة الرقيق كانت معروفة قبل مجئ العرب الى شرق افريقيا كما انه حتى وصول البرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر واوائل السادس عشر لم تكن لهذه التجارة صورتها البشعة وتطورها التي تطورت اليها بعد ذلك حتى ادخل الاوروبيون الاسلحة النارية في عمليات القنص وتوسعوا في استخدام الرقيق الافريقي لسد حاجاتهم المتزايدة للايدى العاملة الرخيصة في العالم الجديد فتضخمت هذه التجارة البشعة واتخذت صورا واساليب اخرى(١٢).

ويأتي العاج في مقدمة صادرات شرق افريقيا وكان يصدر الى الهند، والصين وغيرهما ويستخدم في صناعة مقابض السيوف والخناجر وأدوات الزنية وتطعيم المصنوعات الخشبية وغيرها من المصنوعات العاجية والتماثيل التي اشتهر بها هذا العصر وقد تميز عاج شرق افريقيا بليونته وسهولة تشكيله(١٣).

كذلك يأتي في قائمة صادرات شرق افريقيا الصمغ العربي وجوز الهند وزيت النخيل ومن المعادن الذهب والفضة.

وقد دلت المعلومات التي وصلت الينا على ان الذهب كان يستخدم بكميات كبيرة من مناجم شرق افريقيا (منطقة زيمبابوي الحالية) وكان ميناء سفالة هو الميناء الرئيسي لتصدير الذهب، وقد أدى هذا بالبعض الى الربط بين شهرة شرق افريقيا في الذهب ودور العرب في عمليات التعدين بهذه الجهات وبين كنوز الملك سليمان وقصة مملكة سبأ(١٤).

وحين وصل البرتغاليون الى شرق القارة كان نشاط العرب التجاري في مجال التعدين وتجارة الذهب قد وصل الى ذروته فقرروا الاستيلاء على القواعد العربية الهامة في شرق القارة والقضاء على نفوذ العرب التجاري ونشاطهم في مجال التعدين.. وسنشير لهذا بالتفصيل فيما بعد(١٥)

كذلك كانت التوابل والبخور من صادرات شرق افريقيا لاوروبا فقد كانت التوابل كالقرفة والقرنفل وجوزة الطيب واللبان والفلفل تضاف الى الطعام كما تستخدم في العلاج، كما أن الجوز كان

لازما وازداد الطلب على هذه المنتجات وقد فرض المماليك في مصر والحجاز قيودا على نقل هذه البضائع لاوروبا وفرضت المكوس الباهظة على السفن التي تنقلها عبر موانئ الشام ومصر وكان هذا من الدوافع الرئيسية وراء محاولات البرتغاليين للسيطرة على المراكز الرئيسية لهذه المنتجات واكتشاف طريق آخر لنقلها لاوروبا دون المرور بالموانئ التي يسيطر عليها المماليك(٤٦).

هذا ولم يقتصر نشاط العرب الاقتصادي في شرق القارة على التجارة فقط فقد كان لوجودهم واستقرارهم في بعض المناطق بشرق افريقيا أثره على ازدهار الزراعة وعلى الاهتمام بالثروة الحيوانية وان كان نشاطهم في هذا المجال أقل من نشاطهم في مجال التجارة والتبادل التجاري.

كذلك نشير الى دور العرب في ازدهار بعض الصناعات كصناعة المنسوجات القطنية وبعض الصناعات التعدينية المتصلة باستخراج معادن الحديد والذهب.

وأشير الى أن النشاط الاقتصادي للعرب بشرق القارة وما ترتب عليه من تبادل تجاري اتسع نطاقه شرقا الى الهند والصين وغربا الى أوروبا ترتب عليه وجود عملة تستخدم كوسيلة لهذا التبادل بدلا من طريقة المقايضة التي كانت سائدة وقد عثر على العديد من العملات النحاسية الخاصة بامراء كلوة ومافيا وزنجبار وممبسة وغيرها من امارات شرق افريقيا في عصور مختلفة(٤٧).

وتحتفظ المتاحف الخاصة بالبرتغال بالعديد من هذه العملات(٤٨).

هذا كما عثر في شرق افريقيا على بقايا متعددة من الخزف الصيني وغيره من صناعات الصين والهند وأندونيسيا وكلها ترتبط بهذا النشاط العربي والتبادل التجاري بين ما نسميه اليوم بالشرق الاقصى وشرق افريقيا.

٣ ـ أثر العرب في الحياة الاجتماعية في شرق افريقيا:

لاتكاد توجد لدينا دراسات وافية عن طبقات المجتمع في شرق افريقيا وعن حياتهم الاجتماعية، كما أنه لا توجد لدينا احصاءات وافية عن السكان من حيث العدد والنوع. لكن نستطيع ان نلم ببعض المعلومات عن السكان وعاداتهم وتقاليدهم من خلال كتابات الرحالة العرب والاجانب.

والحقيقة التي نستشفها من هذه الكتابات انه في المدن والامارات العربية بشرق افريقيا وجدت اجناس متعددة. فقد كان هناك العرب الذين وفدوا من أجيال واستقروا واستوطنوا هذه البلاد واختلطوا بالسكان الاصليين (الافارقة) وأصبحت هذه الامارات العربية مزيجا تجمع في أنظمتها بين أشياء افريقية أصيلة وأشياء عربية.. ولكن مما لاشك فيه أن العرب المهاجرين الى هذه الجهات قد حملوا معهم تقاليدهم وعاداتهم.

وقد لمس ابن بطوطة بنفسه أن العرب في هذه المناطق التي استقروا فيها لم ينسوا تقاليدهم وعاداتهم كما نوه الرحالة الاوروبيون أيضا الذين زاروا هذه الامارات العربية بشرق افريقيا بما لمسوه

في هذه المجتمعات من رقي وتحضر.

ورغم أن كوبلاند مثلا يذكر أن العرب كانوا في السواحل الافريقية يكونون ارستقراطية تمثل الطبقة الحاكمة صاحبة السيادة. لكن مما لاريب فيه أنهم لم يكونوا بعدين عن باقي السكان(٤٩).

والى جانب العرب وجد الهنود الذين وفدوا للساحل بأعداد غفيرة أيضا وكان لهم نشاطهم التجاري ونشاطهم في أوجه الاقتصاد الاخرى(٥٠).

وقد ترتب على التزاوج بين العرب والافارقة في شرق افريقيا نشأة الشعب السواحلي بمميزاته اللغوية وصفاته التي هي مزيج من الصفات العربية والصفات التي كان يتميز بها البانتو الافارقة، واللغة السواحلية التي انتشرت في سواحل شرق افريقيا تمثل هذا المزج بين الحضارتين العربية والتقاليد والعادات الافريقية.

ولاشك في أن التأثيرات العربية لم تكن في كل مكان بنفس القوة.. رغم أن الحضارة العربية باعتبارها كانت في ذلك الوقت متفوقة فقد كان لها الغلبة في كثير من المجالات على العادات والتقاليد التي توارثها الافارقة وهذا شئ طبيعي. ويقسم بعض المؤرخين السواحليين بشرق القارة الى سواحلين شماليين وسواحلين جنوبيين والبعض لا يجد أساسا قويا لهذا التقسيم(٥١).

لانستطيع أن نقر التقسيمات التي يحاول البعض تقسيم المجتمع بشرق القارة اليها كما هي. فقد ذكر كوبلاند العرب باعتبارهم في قمة هذا المجتمع الذين يمثلون الارستقراطية الحاكمة فيه ثم المولدين نتيجة الاختلاط بين العرب والافارقة فالهنود، ثم العبيد في القاعدة(٥٢).

ورغم ان الهنود مثلا تميزوا بنشاطهم في التجارة وبعض الاعمال المالية واليدوية بينما كان العبيد يعملون في أعمال الزراعة التي تحتاج لجهد عضلي وفي خدمة الحريم فإن التميز والفصل بين هذه الطبقات لم يكن بهذا العنف. هذا وأشير الى أنه ليس لدينا تقدير دقيق لعدد السكان في كل مدينة وتوزيعهم تبعا للطبقات أو الاجناس، فقد اختلفت التقديرات التي أعطاها الكتاب والرحالة اختلافا كبيرا يدعو الى عدم الاطمئنان لأى منها(٥٣).

وقد أعطانا ابن بطوطة صورة لا بأس بها للمجتمع في شرق افريقيا وقت زياراته لهذه البلاد، فوصف عادات الناس في المأكل والملبس وتقاليد الضيافة وبعض العادات وتقاليد ومراسيم السلطنة. ولاشك في أن الصورة التي رسمها ابن بطوطة لهذا المجتمع قبل وصول البرتغاليين للساحل تدل على مدى التقدم الحضاري الذي بلغه هذا المجتمع وأثر العرب القوى والواضح في ذلك(٥٤).

وقد أكدت أقوال الكتاب البرتغاليين الاوائل الذين زاروا الساحل بعد هذه الحقيقة.

ومن الاشياء الهامة التي ابرزها ابن بطوطة تقاليد السلطنة، وأشار الى معاوني السلطان من الامراء والقضاة والفقهاء والوزراء وما يتبع من مراسيم عند استقبال السلطان لكبار الزوار.. فتدق الطبول وغيرها من الآلات الموسيقية بما يشبه السلام الوطني اليوم.

وهناك مندوبين في الموانئ لاستقبال الزوار كما أن للسلطان حاشية، وتوجد بعض السجلات

لتسجيل أسماء الزائرين، كما ان هناك دار للضيافة وغير ذلك من مظاهر الحضارة التي تعتبر فريدة في ذلك العصر(٥٥).

أما عن المباني سواء الاميرية أو المساجد أو المنازل فقد كانت في كثير من مدن الساحل مبنية بالحجر والملاط وهي جميلة ومنسقة والشوارع مرصوفة بالاحجار(٥٦).

وإذا كانت المنازل الحجرية ــ كما يرجح ــ منازل الطبقة الغنية من المجتمع فان منازل عامة السكان كانت ــ كما يعتقد ــ مبنية من الطين والبوص والقش على نظام المسكن الافريقي المعروف في القارة، وأثاث المنزل يختلف من طبقة لاخرى. بينما أشاد الرحالة بأثاث منازل الاثرياء التي كانت تحوى الكثير من وسائل الراحة والتي غطيت أرضية بعضها بأنواع من السجاد ولعله من تأثيرات فارسية فإن منازل الفقراء كانت لا تحوى الا عددا من الاسرة تشبه ما يعرف (بالعنجريب) في السودان، وأدوات وأوانى لحفظ الاطعمة والمياه ووجدت بعض وسائل الاضاءة كالمصابيح الفخارية. كما يعتقد أن الشمع كان يستخدم ايضا لهذا الغرض، وقد وجدت بقايا أوان من البرسلين الصيني، كما وجدت صوان وأطباق نحاسية. هذا بالاضافة الى أوعية وأدوات من الأصداف البحرية(٥٧).

وقد ذكر ابن بطوطة أن سكان مقديشو يستخدمون صحافا من الخشب.

وقد أشار الرحالة الى أنواع الاطعمة المنتشرة في هذه المناطق الساحلية، فالطعام السائد من الارز والسمك واللحم وبعض الخبز من الذرة والفاكهة متنوعة، وبالاضافة الى الاسماك والحيوانات المائية توجد أعداد كبيرة من الاغنام والابقار والماشية والخيول(٥٨).

وفيما يتعلق بملابسهم فانها تختلف تبعا لطبقات المجتمع فالاغنياء يلبسون ملابس حريرية وعمائم بينما لباس الرجل العادى لا يتعدى قيصا وفوطة تشد الى الوسط وتتدلى حول الجزء الاسفل من الجسم. وقد أشار بعض الرحالة الى وجود صناديق خشبية لحفظ الملابس وتتحلى النساء بقلائد وأساور وأقرطة من ذهب وفضة، وقد عثر على أدوات للزينة من ذهب وفضة كما عثر على أدوات للزينة لحفظ المساحيق التي تشبه الكحل(٥٩).

وكانت للمرأة في المجتمع السواحلي منزلة ولها احترامها، وكان للتقاليد العربية أثرها في ذلك، كما أن الاسلام أضفى على المجتمع في شرق افريقيا الكثير من تعاليمه ومبادئه فأصبح للمرأة قيمتها في هذا المجتمع ومركزها وحقوقها.

هكذا كان أثر العرب على المجتمع في شرق افريقيا قويا وعميقا، وقد لمس جميع الرحالة ذلك في عادات الناس وتقاليدهم سواء في حياتهم اليومية المعتادة أو المناسبات والمعاملات، ولا غرابة في هذا فقد كان أثر العرب واضحا في جميع المجتمعات التي احتكوا بها خاصة بعد الاسلام والاسس الواضحة المعالم المحددة للمجتمع الاسلامي، فكان الطابع الاسلامي واضحا في مختلف المجتمعات التي وجد فيها العرب وانتشر الاسلام.

٤ ـ الأثر الثقافي للعرب في شرق افريقيا:

لاشك أن الاثر الثقافي للعرب في شرق افريقيا من أقوى الاثار التي ترتبت على هذه الصلات بين عرب شبه الجزيرة وسكان الساحل الشرقي للقارة. فمنذ بدأ العرب رحلاتهم التجارية للساحل الشرقي وإنتشارهم في السهول واستقرارهم في المناطق الملائمة لهم ــ ترتب على هذا الاحتكاك انتشار ثقافة العرب وحضارتهم، وحين جاء الاسلام كان تأثيره قويا وأثره أكبر وأعمق فالاسلام بتعاليمه كما نعلم غير حياة العرب وطبعهم بطابع مميز، وبالطبع انعكس هذا التأثير المنظم على من اتصل بهم العرب من الشعوب الاخرى ومن يتتبع التيار العربي في تدفقه من شبه الجزيرة الى شرق القارة يلمس بعمق اثر هذا التيار في ثقافات هذه الشعوب الافريقية وعاداتها وتقاليدها.

وبالطبع اختلفت هذه الاثار الثقافية قوة وضعفا تبعا لاختلاف فرص وظروف الاتصال بين العرب وسكان شرق القارة وتبعا لقوة الموجة العربية تبعا لظروف انتشار الاسلام وعدد الذين اعتنقوا الدين الجديد من السكان.

وهناك روايات عديدة عن الظروف التي انتشر فيها الاسلام والثقافة العربية بين سكان المدن الساحلية مثل كلوة، وممبسة، ومدن ساحل الصومال الاخرى(٦٠).

ولعل ما ذكره ابن بطوطة عن سكان ممبسة، وكلوة يعطى فكرة عن مدى تأثرهم بالثقافة العربية فيما يذكر أنهم شافعيو المذهب ويغلب عليهم التدين والصلاح.

وقد أدى الاحتكاك العربي بشعوب شرق افريقيا لتعديل كثير من معتقداتهم وعاداتهم. فمثلا عبادة السلف وتقديم القرابين والأضحيات والذبائح لاسترضاء الاموات وكشف الغيب وتقديم الصدقات الى غير ذلك من المبادئ(٦١).

ولعل اللغة العربية من أقوى مظاهر التأثيرات الثقافية على سكان شرق افريقيا فنتيجة المعاملات التجارية والامتزاج بين العرب والافارقة بشرق القارة تولدت لغة هي خليط بين لهجات البانتو واللغة العربية ــ وهي اللغة السواحلية ــ وبالاضافة الى العديد من المفردات العربية في هذه اللغة فإن التأثيرات العربية في التراكيب والمكونات قوية(٦٢).

ولقد اصبحت اللغة السواحلية من أهم المقومات الحضارية لشرق القارة، وأصبح لها آدبها وترجمت اليها بعض من أمهات الكتب ولا يتسع المجال للتعرض للنظريات المتعددة عن نشأة هذه اللغة وتطورها وقواعدها، وآدابها لكن الظاهرة البارزة أن التأثيرات العربية القوية وواضحة في هذه اللغة وآدابها، وان هذه اللغة لعبت ومازالت تلعب دورا هاما في إبراز الشخصية المتميزة لشرق افريقيا ولشعوبها ولدولها التي تكونت فيما بعد.

ولاشك في أن الادب العربي بقصصه وبطولاته وميادينه والمختلفة قد أثر تأثيرا عميقا في تكوين

الشعب السواحلي بمكوناته الثقافية، وقد وجدت في مدن شرق افريقيا الهامة مدارس لتحفيظ القرآن الكريم ولتعليم المبادئ الاساسية للحساب وألحق بعض هذه المدارس التي تشبه (الكتاتيب) بالجوامع ــ وقد نقل العرب الكثير من معرفتهم في مجال الملاحة وغيره لهذه البلاد.

وقد اتسع مجال وأفق سكان هذه البلاد ومعرفتهم بما يدار في أجزاء اخرى من العالم عن طريق احتكاكهم بالعرب وبسبب رحلات العرب وجولاتهم.

وبالطبع لا ننسى في هذا المجال أثر الثقافة الهندية والصينية في ثقافة سكان شرق افريقيا ــ وقد وجد في الآثار التي عثر عليها ما يدل على تأثير هذه الثقافات الهندية الصينية.

ولا شك في أن التجار العرب لم يكونوا يحملون البضائع بين هذه البلاد فحسب لكن كانوا يسهمون في تبادل الثقافات بين هذه الاقطار التي يتعاملون معها.

ومن يتعمق في دراسة الاصول الثقافية لشعوب شرق افريقيا يلمس بوضوح الاثر العربي في التكوين الثقافي والحضاري لها.

خامساً: وصول الاوروبيين لشرق افريقيا والنتائج المترتبة على ذلك:

ظلت للعرب السيادة في المدن والامارات التي كونوها في شرق افريقيا حتى القرن الخامس عشر الميلادي فقد نجح فاسكو داجاما في عام ١٤٩٧ في الوصول الى نهاية القارة وعبر رأس الرجاء الصالح الى الساحل الشرقي حيث زار الامارات العربية في المنطقة وقد وصف هذه الامارات وما بها من حضارة زاهرة، ونوه داجاما بما لمسه في دوائر بلاط الامراء وبين الشعب وفي الاسواق من ارتفاع المستوى الحضاري الذي لا يقل ان لم يزد عن المستوى الحضاري للبرتغال ذاتها(٦٣).

وتتابعت بعد ذلك رحلات البرتغال عن هذا الطريق الجديد. وفي سنة ١٥٠٢ قام داجاما برحلته الثانية، ونزل في كلوة وتحت التهديد بإحراق المدينة أجبر سلطانها على الاعتراف بسيادة البرتغال، وتبع ذلك خضوع زنجبار التي يصفها البرتغال بأنها كانت في ذلك الوقت عبارة عن جزيرة خضراء ناضرة تعج حدائقها بالخضروات والفواكه.

وفي سنة ١٥٠٥ غادر لشبونة أسطول كبير من ثلاث وعشرين سفينة تحت قيادة فرانسيسكو دى الميدا Francisce De Almeida بقصد تثبيت نفوذ البرتغال في السواحل الشرقية الافريقية، ولتحقيق هذا الهدف أرسلت البرتغال قوة استولت على سفالة، وحاصرت كلوه واستولت عليها بعد قتال عنيف، وتقدموا الى ممبسة، وقد قاوم سكانها الذين كانوا يزيدون عن عشرة الاف الغزاة لكنهم اضطروا للتسليم فاشعل البرتغاليون النار في المدينة انتقاما من بطولة أهلها.

وفي ١٥٠٦ أرسل أسطول برتغالي آخر من اربعين سفينة تحت قيادة البوكيرك ALbuquerque، استولى على لامو، وبراوة، وجزيرة سوقطرة.

وفي ١٥٠٧ سقطت موزمبيق في يد القائد البرتغالي دوارات داميللو Duarte De Mello.

وهكذا مد البرتغاليون نفوذهم على الساحل الشرقي للقارة من سفالة جنوبا الى مالندى شمالا وفي سنة ١٥٠٩ عين البرتغاليون حاكما عاما لمستعمراتهم في شرق القارة فاتخذوا موزمبيق مركزا لهم ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل اتجهوا لمهاجمة سواحل الجزيرة العربية والخليج العربي معتمدين على مراكزهم وحصونهم في شرق افريقيا فهاجموا مسقط، وهرمز، وعدن وقد امتد هذا الصراع البرتغالي العربي واتسع واشتركت فيه الدولة العثمانية والتي أصبح لها النفوذ في الشام ومصر والجزيرة العربية بعد القضاء على نفوذ دولة المماليك في هذه البلاد(٦٤).

وقد ساعد البرتغاليين في صراعهم مع الامارات العربية في شرق افريقيا ان هذه الامارات لم تكن ــ كما أشرنا من قبل ــ مرتبطة بعضها بالبعض الآخر بل بالعكس فقد كان التنافس بينها شديدا. فالنزاع بين مالندى وممبسة مثلا والصراع بينهما للسيادة على الساحل ترتب عليه أن صفيت قوة كل منهما وخدم ذلك الغزاة البرتغاليين خاصة وأنهم كانوا يتسلحون بالاسلحة الحديثة(٦٥).

ويذكرنا ذلك بوضع الممالك العربية في الاندلس (ممالك الطوائف كما يطلق عليها المؤرخ عبد الله عنان) حين تعرضت للبرتغاليين والاسبان فيما أطلقوا عليه حرب الاسترداد Reconquesta.

خاتمة...

دفعت عدة عوامل بالعرب للخروج من شبه جزيرتهم الى شرق القارة وكان الهدف الاول لهذا الاتجاه هو التجارة لكن انتهى الامر باستقرار بعض العرب في شرق افريقيا، وبمرور الزمن كثر عدد المستقرين منهم كما دفعت عوامل اخرى بموجات جديدة من العرب استقرت في شرق القارة واندمجت بالتدريج مع سكانها الاصليين، وأضاف الاسلام والظروف المختلفة التي مرت بها الدولة الاسلامية الى أسباب ودوافع الهجرة لشرق القارة والاستقرار بها.

وتمكن العرب من تأسيس عدة مدن ساحلية، وكان امتدادهم للداخل حسب ما تطلبته الظروف.

وترتب على هذا الاحتكاك والاستقرار العربي نتائج هامة في مختلف المجالات، فقد كانت له آثار اقتصادية كبيرة فذاعت شهرة المدن والامارات العربية بشرق القارة كموانئ تجارية تصدر أهم غلات القارة الزراعية والحيوانية والمعدنية.

ووصل النشاط التجاري الى الشرق الاقصى الى الهند والصين كما امتد الى أوروبا لسد حاجتها من بضائع الشرق والحاصلات الافريقية.

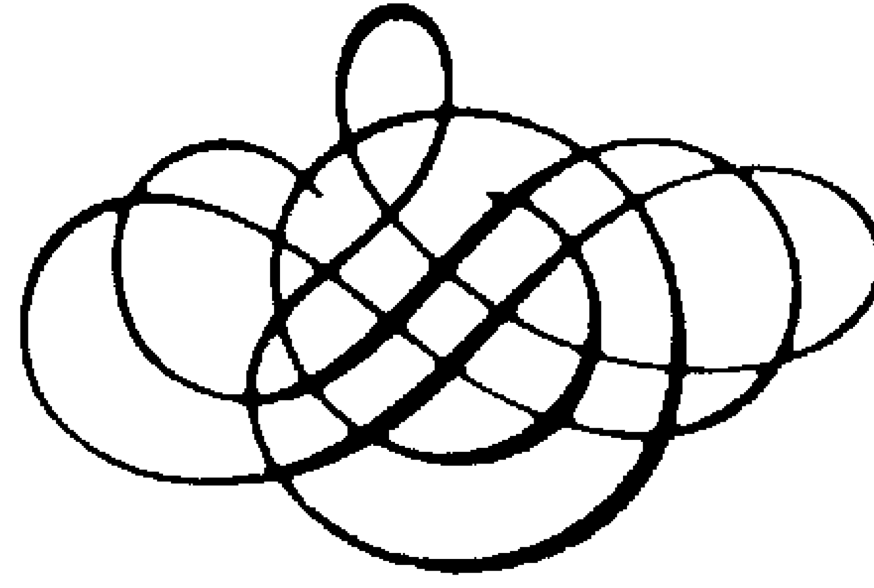
وكان التأثير العربي والاسلامي الثقافي والحضاري في شرق القارة قويا أيضا وأن أختلفت

التأثيرات من منطقة لاخرى، فالقسم الشمالي من الساحل الشرقي تأثر أكثر من القسم الجنوبي الذي تبدوا فيه تأثيرات المحيط الهندي وتياراته والتأثيرات الفارسية أكثر وقد اعتنق عدد كبير من سكان الجزء الشمالي من الساحل الشرقي الدين الاسلامي.

ويلاحظ انه لم تتم عملية تعريب كاملة للسكان كما حدث في كثير من البلاد التي استقر فيها العرب لكن كانت محصلة هذا الاختلاط اللغة السواحلية التي تأثرت باللغة العربية لفظا وأدبا.

وكان تأثير العرب في المجتمع الافريقي واضحا في تعديل وتغيير كثير من العادات والتقاليد والسلوكيات.

وظل تأثير العرب قائما وقويا ونفوذهم واضحا الى أن جاء البرتغاليون فحاولوا الحلول محل العرب في نشاطهم لكن للاسف صحب هذه الموجة الاستعمارية كثير من التخريب والدمار، وأدى قدوم البرتغاليين لصراع طويل بين القوة الاسلامية في العالم العربي كله وبين الاوروبيين الذين تطلعوا لثروات شرق القارة والطرق التجارية التي كان يسيطر عليها العرب، كما انفتح الطريق أمام النشاط الاوروبي المتعدد الاهداف والوسائل الى شرق القارة، بل امتدت الاطماع الاوروبية الى شبه جزيرة العرب نفسها والى المناطق العربية الاخرى الواقعة خلف شبه الجزيرة.



١. ولد ابو الحسن على بن الحسين الذي اشتهر باسم المسعودي في بغداد، ومات في مصر في عام ٣٤٦ه (٩٥٣م) وكتابه المشهور هو (مروج الذهب ومعادن الجوهر) ولكن له مؤلفات أخرى ذكرت في بعض المصادر ولم نعثر عليها منها أخبار الزمان ومن اباده الحدثان (وهو في ثلاثين جزءا).

٢. ابن بطوطة ــ هو محمد بن عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي ــ صاحب كتاب تحفة الانظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار وقد طبع كتابه هذا عدة طبعات منها طبعة بولاق عام ١٩٣٤.

٣. Stong, Arthur: History of Kilwa 'journal of the Royal Asiatic Society April 1895 أما جون كيرك فقد ولد في عام ١٨٣٢ وكان طبيبا وعالما في النبات، وقد رافق لفنجستون في رحلته للكشف عن نهر زمبيزي (١٨٥٨ ــ ١٨٦٣) وقد زكاه لفنجستون للعمل في زنجبار فعمل اولا كطبيب للوكالة البريطانية بها، ثم قنصلا عاما لبريطانيا بزنجبار.

وقد استطاع هذا الرجل بحكمته وسياسته واساليبه الخاصة ان يصبح القوة المحركة لسلطان زنجبار أو كما يقول مارش كنجز نورث، كان يلعب دور رئيس وزراء السلطان لكن بصفة غير رسمية، وقد اصبح مديرا لشركة شرق افريقيا البريطانية الامبراطورية حتى صفيت الشركة في عام ١٨٩٤ ــ لمزيد من التفاصيل انظر:

&arsh, Z—A.& Kingsnorth, G: Introduction to the History of East Africa (London 1961) p158

٤. لمزيد من التفاصيل حول هذه المخطوطة انظر ــ جمال زكريا قاسم (دكتور) الاصول التاريخية للعلاقات الافريقية العربية (القاهرة ١٩٧٥) وكذلك المرجع السابق لنفس الكاتب.

٥. Chittick, Neville: Kilwa and the Arab Settlement of the African Coast (Journal of the African History No.2 1963)

٦. Free man, Granville: Select documents on the East Africa coast feom the first to the earlier nineteenth (Oxford 1962) the Medieval History of the coast of Tanganika (Berlin 1962)

٧. Roland, O: the History of East Africa (Oxford 1963)the Dawn of african History (Oxford 1969)

٨. Coupland Reginald: East africa and its Invaders, From the, Ealiest Times to the Death of Seyyid Said 1856 (Oxford 1938)

٩. Hitchman, C: The Land and peoples of East africa (London 1960) p.61

١٠. صفي الدين محمد: افريقيا بين الدول الاوروبية (القاهرة١٩٥٨) ص٥٢،٦٧.

١١. محمد عوض محمد: الشعوب والسلالات الافريقية (١٩٦٥) ص٩.

١٢. للمزيد من التفصيلات انظر:

شوقي الجمل: تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، القاهرة، ١٩٨٠، ص٤٨،٤٩.

وصفي الدين: محمد: مرجع سابق، ص٦٨.

١٣. الطبري ابو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الامم والملوك، القاهرة ١٩٦١، ج٢، ص٣٢٠.

١٤. زاهر رياض: الاسلام في اثيوبيا، القاهرة ١٩٦٤، ص٣٧٠.

١٥. الطبري: المرجع السابق، ص٣٢٨.

١٦. نفس المرجع ونفس الصفحة.
١٧. الواقدي: ابو عبد الله محمد بن سعيد: الطبقات الكبير ج١، القاهرة ١٩٦٨، ص٣٩٠.
١٨. عبد الرحمن زكي: الاسلام والمسلمون في شرق افريقيا، القاهرة ١٩٦٥، ص١٢٠.
١٩. Coupland, R.East Africa and its Invaders (London1934) p.21
٢٠. حسن احمد محمود (دكتور): الاسلام والثقافة العربية في افريقيا، ١٩٦٣، ص٤٣٦.
٢١. نفس المرجع، ص٤٣٨.
٢٢. يرجع نسبهم الى زيد بن على حفيد الحسين بن على بن ابي طالب ــ انظر حسن احمد محمود (دكتور) مرجع سابق، ص٤٣٧.

٢٤. حسن احمد محمود: مرجع سابق، ص٤٣٩.
٢٥. Coupland, Op. cit.P.25
٢٦. Hichens, W.:Islam in East Africa (1960)P.110
٢٧. Coupland, R.:Op. Cit. P.P21 - 24
٢٨. عبد الله بن مصبح الصوافي: اخبار كلوه (نشر وتحقيق ارثر سترونج، لندن ١٨٩٥) ص٤١١، ٤١٢.
٢٩. جمال حمدان (دكتور): جغرافية المدن (القاهرة١٩٧٠) ص١٣٠
وحسن احمد محمود: مرجع سابق ص٤٣٨.
٣٠. أحمد بن ماجد، شهاب الدين احمد بن ماجد بن عمرو: ثلاث ازهار في معرفة البحار تحقيق تيودور شوموفسكي ترجمة محمد منير موسى (دكتور) القاهرة ١٩٦٩، ص٤٠٦ وما بعدها.
٣١. عبد الرحمن زكي (دكتور) مرجع سابق، ص١٢١.
٣٢. ابن بطوطة: مرجع سابق، ص١٦٢، ١٦٣.

٣٣. يرجع الى: Freeman, G: The Medieval History of the Coast of Tanganika (Berlin 1962)
وكذلك Kirkman, J: Men and Monuments on the East African Coast (N.Y. 1966)
وكذلك اشار اليها: عبد الرحمن ذكي: بعض المدن العربية على ساحل شرق افريقيا في العصور الوسطى (مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ١٩٦٤)
٣٤. حسن ابراهيم حسن: انتشار الاسلام والعروبة فيا وراء الصحراء الكبرى ــ شرقي القارة الافريقية وغربيها (القاهرة ١٩٥١) ص٣٠.
٣٥. ترمنجام سبنسر: الاسلام في شرق افريقيا، ترجمة محمد عاطف النزاوي ــ القاهرة ٧٣.
٣٦. Grevor C.P: The Planting of Christianity in Africa (London 1948) V.I.P 112
وابراهيم على طرخان (دكتور) الاسلام والممالك الاسلامية (مجلة الجمعية التاريخية عدد٨ ص٤٣.
٣٧. للمزيد من التفاصيل يرجع الى:
جمال زكريا قاسم (دكتور): استقرار العرب في ساحل شرق افريقيا ــ حولية كلية آداب عين شمس الخامس ١٩٦٧، ص٢٩٢ وما بعدها.
٣٨. زار ابن بطوطة كلوه وممبسة مقديشيو عام ١٣٣٣ ودهش لما كانت عليه هذه المدن من تنظيم ورخاء ووصف

شوارعها ومنازل العرب المبنية هناك بالحجارة والمونة ونوافذها الخشبية المزينة والمحفورة وحدائقها الغناء ومساجدها التي يبدو فيها تأثير الفن الفارسي، وذكر ان العرب في هذه البلاد التي زارها لم ينسوا تقاليدهم العربية فهم يستضيفون الغريب ويقدمون له حاجته من مأكل ومشرب.

٣٩. Coupland: Op. Cit. P.39

٤٠. Ibid: P. 27

٤١. لمزيد من التفاصيل عن هذا الطريق التجاري الطويل انظر:

جورج فاضل حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي ترجمة يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨، ص٢٣٦.

وكذلك Marsh, Zoe: An Introduction to the History of East Africa (Cambridge 1961) P.8

٤٢. لا يتسع المجال هنا للرد على اتهام الاوروبيين للعرب بانهم مسئولون عن نشر تجارة الرقيق الافريقي ورواجها — وقد ناقشنا هذه الادعاءات بتفصيل في اماكن متعددة من كتابنا — تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، القاهرة ١٩٨٠.

٤٣. Kenneth, I: History of Africa (London 1963) P.P 4-5

٤٤. لمزيد من التفاصيل خاصة ما يتعلق بمناطق التعدين في الداخل وتطور هذه الصناعة بشرق افريقيا ودور العرب فيها يرجع الى:

شوقي الجمل: قضية روديسيا بين الامم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية، القاهرة ١٩٧٧.

٤٥. Roland, 0: The Dawn of African History (Oxford 1969) P.47

٤٦. صبحى لبيب (دكتور) التجارة الكاريبية وتجارة مصر في العصور الوسطى (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) مايو ١٩٥٢.

٤٧. Basil, D: The African Fast Chronicles, From Antiquity to Modern Times (1963) P.113

٤٨. عبد الرحمن ذكي (دكتور) مرجع سابق ص١٢٤.

٤٩. Coupland; Op. Cit. P.39

٥٠. هولينجزوت.ل: الآسيويون في شرق افريقيا ترجمة عبد الرحمن صالح، القاهرة ١٩٦١، ص١٩،١٨.

٥١. للمزيد من التفاصيل يرجع الى Reusch R.: History of East Africa (1963) P.P 222-24

٥٢. Coupland: op. Cit, P.31

٥٣. Freeman, G: Op. Cit, p193

٥٤. الرحلة ج١، ص١٦١٠

٥٥. نفس المصدر

٥٦. Freeman, G: Op. Cit.P.192 (1963) p.p 222-24

٥٧. Chittich, N.: Op. Cit. P.236

٥٨. ابن بطوطة: الرحلة ص ص ١٦١ — ١٦٣ وكذلك

Dames, M.L: The Book of Duarte Barbosa (London 1918) v01. 1p. p. 17-31

٥٩. Freeman: Op. Cit. p.195

٦٠. عبد الرحمن زكي: مرجع سابق ص٧٢

٦١. Johns, M: African Religions & Philosophy (1960) p.240

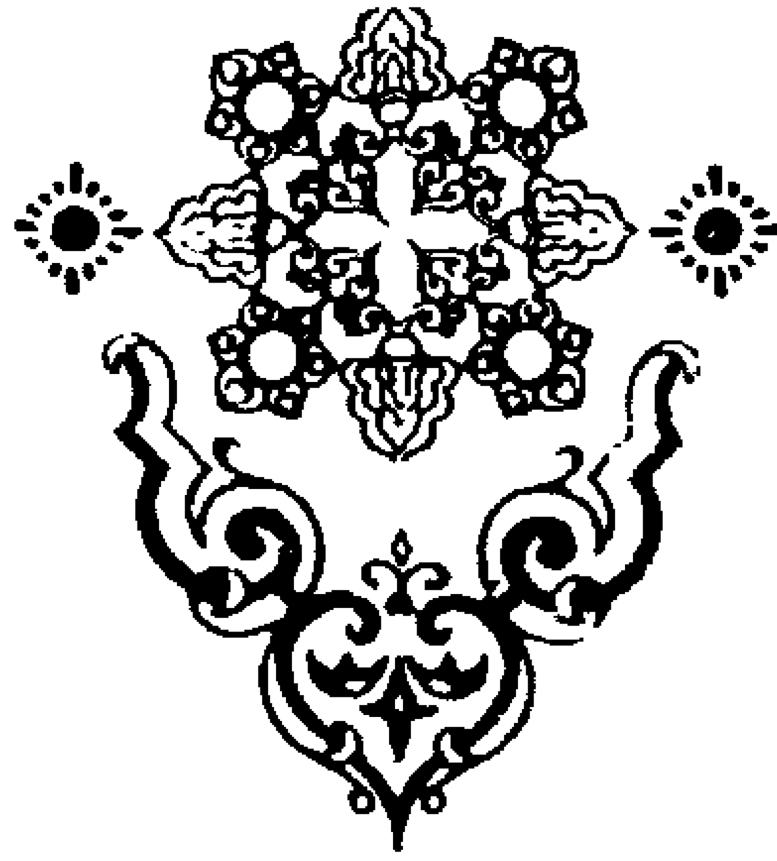
٦٢. محمود طه ابو العلا: المؤثرات العربية في شرق افريقيا (مجلة الجمعية الجغرافية المصرية مايو ١٩٦٠) ص١٤٠.

٦٣. Duffy, James: Portuguese Africa (London 1969) P.26

وكذلك: Freeman, G: Op. Cit. P.50

٦٤. لا يتسع المجال لتتبع مراحل هذا الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين في المحيط الهندي والبحر الاحمر ثم البحر المتوسط ــ لكن للمزيد من التفاصيل في هذا المجال يرجع الى: شوقي الجمل: تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، القاهرة ١٩٨٠، وكذلك المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، القاهرة ١٩٧٧.

٦٥. للدراسة التفصيلية لهذا الصراع، يرجع الى السلوة في تاريخ كلوه، مرجع سابق ص٢٢٨ وما بعدها.



العلاقات التجارية بين الخليج العربي وشرق افريقيا كما يعكسها البلدانيون العرب في العصر الوسيط

الدكتورة/ صباح ابراهيم الشيخلي

جامعة بغداد ـ كلية الاداب

١ ـ صلات الخليج العربي بشرق افريقيا:

كان لسكان الخليج العربي صلة قديمة بشرق افريقيا، ويبدو من المعلومات المتوفرة بين أيدينا أن التجارة كانت الحافز الاول والاهم في هذه الصلة، فقد كانت مصالحهم في ساحل شرق افريقيا هي امتداد لتجارتهم في الخليج العربي والبحر الاحمر والمحيط الهندي بصفة عامة. فالتجارة التي دفعت العرب الى الابحار الى شرق افريقيا حاملين معهم المواد التي يرغب بها سكان تلك المنطقة، ليأخذو بدلها منتجات الشرق الافريقي، جعلتهم اقدم في عرف افريقيا الشرقية وأول من اتصل بسكانها(١).

ظل الاتصال بين الخليج العربي وشرق افريقيا ينمو ويتسع قبل الاسلام، وساعد في ذلك جملة عوامل نذكر منها، الطبيعة المناخية لشرق افريقيا والتي يسرت الملاحة مع الخليج العربي، ونقصد بذلك حركة الرياح الموسمية التي تهب على منطقة المحيط الهندي والتي مكنت السفن العربية الشراعية في القيام برحلتين منتظمتين في السنة بأقل مجهود. في شهر تشرين الثاني في كل سنة تبدأ هذه الرياح بالهبوب من الشمال والشمال الشرقي ولمدة أربعة أشهر فتنطلق السفن العربية معها من الخليج العربي الى ساحل افريقيا الشرقي، أما في شهر نيسان من كل سنة فتنعكس العملية حيث تبدأ هذه الرياح بالهبوب من الجنوب والجنوب الغربي لمدة أربعة أشهر أخرى فيخرج العرب بسفنهم التجارية معها من شرق افريقيا للعودة الى أوطانهم(٢). وقد ظلت الرياح الموسمية هذه سراً من الاسرار التي احتفظ بها التجار العرب (والهنود) لانفسهم، والتي مكنتهم من السيطرة على التجارة مع شرق افريقيا، الى أن تمكن ملاح اغريقي في القرن الاول الميلادي من كشف اتجاه هذه الرياح(٣). كما كان لعرب الخليج من الامكانيات التي سهلت لهم عملية الاتصال بشرق افريقيا عن طريق البحر.

منها المهارة الملاحية الناجمة عن البيئة البحرية التي عاشها سكان الخليج ومعرفتهم الجيدة بالفلك والانواء. أما القرب المكاني بين سواحل الخليج والسواحل الشرقية لافريقيا فقد شجعت سكان الخليج على الاتصال بشرق افريقيا، فكان دور الوسيط التجاري في نقل منتجات شرق افريقيا وبضائعه الى الاسواق العالمية التي كانت تطلبها. ولم يكتف العرب بهذا الدور، إذ بسبب التفاوت الزمني للرياح الموسمية صيفا وشتاء فقد اهتموا بايجاد مراكز أو محطات تجارية لهم في الساحل الافريقي الشرقي استخدمت كأسواق للتبادل التجاري، وبصورة تدريجية تحولت هذه المراكز الى اماكن استقرار مؤقت أو دائم للعرب وهي التي مكنتهم من متابعة أعمالهم التجارية(٤). ويبدو أن المستقرين العرب الاوائل في ساحل افريقيا الشرقية كانوا أول حلقة اتصال بين الخليج العربي وسواحل الجزيرة العربية وبين افريقيا الشرقية.

واذا كانت الصفقات التجارية قد جذبت عرب الخليج الى شرق افريقيا قبل الاسلام، فان ظهور الاسلام في القرن السابع الميلادي قد رافقه تغير تام في علاقات الخليج العربي بالشرق الافريقي، ونقصد بذلك أن أول خطوات الاستقرار الدائم واقامة كيانات عربية اسلامية في شرق افريقيا كانت على يد عرب الخليج. فالصلة بين المنطقتين لم تقم على أساس التبادل التجاري فقط، بل زادت العلاقات وتنوعت في مختلف المجالات، ولعل ما يؤكد ذلك الاثار التي ترتبت على الهجرات العربية الى شرق افريقيا في مجالات الدين، واللغة والجنس، والنظم الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية وغيرها.

ومما يجدر ذكره أن العوامل القديمة ظلت تلعب دورها في جذب عرب الخليج المسلمين على الهجرة الى الساحل الافريقي الشرقي والاستقرار فيه. فأهل الخليج استمروا على ما كانوا عليه قبل الاسلام ملاحين يتمتعون بمهارة فائقة، وتجار بارزين مشهود لهم بالخبرة، كما ظلت موانئ الخليج بعد الاسلام مراكز تجارية مزدهرة تنطلق منها السفن الشراعية باتجاه الشرق الافريقي، وظلت الرياح الموسمية تتحكم في مسير هذه السفن الى شرق افريقيا. وفضلا عن ذلك فان هناك عاملا جديداًهو بعد منطقة شرق افريقيا عن الصراعات السياسية والدينية التي شهدتها الدولة العربية الاسلامية في العصر الوسيط، الامر الذي جعل افريقيا الشرقية محط أنظار القادمين في اضطهاد أو اندحار سياسي.

والملاحظ ان الهجرات من الخليج العربي الى ساحل شرق افريقيا قد بدأت متقطعة منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي وزادت بصورة تدريجية، وأول هذه الهجرات هي هجرة عمانية من قبيلة الا زد بقيادة سليمان وسعيد من بنى الجلندي. وكانت أسرة الجلندي قد سيطرت على عمان حتى نهاية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي(٥)، وفي أيام حكم الاخوين سليمان وسعيد اصبحت عمان ملجأ لبعض العناصر المناهضة للحكم الاموي، ولذلك قررت الخلافة الاموية على أيام عبد الملك بن مروان، إرسال جيش الى عمان لاعادتها الى طاعة الدولة المركزية وقد نجح هذا الجيش الذي جهزه الحجـاج بن يوسف الثقفي الوالي الاموي على العراق في مهمته عام ٧٥هـ / ٦٩٥م، وانهزم آل الجلندي(٦). وقد لجأ الزعيمان سليمان وسعيد وجموع كبيرة من الاذر الى شرق افريقيا. وفي هذا يقول سرحان بن سعيد الازكوي: «لما شعر سليمان وسعيد بالعجز أمام جيش الحجـاج حملا ذراريهم

وسوادهما ومن خرج معهما من قومهما ولحقا ببلد من بلدان الزنج حتى ماتا هناك»(٧). وليس معروفا بصفة اكيدة مكان استيطان بنى الجلندي في شرق افريقيا ويفترضون انهم في جزيرة باتا (احد جزر ارخبيل لامو)(٨).

تعاقبت الهجرات في الخليج العربي الى شرق افريقيا بعد ذلك، ففي نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي وصلت هجرة عربية من منطقة الاحساء، وكانت هذه الهجرة بزعامة قبيلة الحارث العربية بقيادة سبعة أخوة بعد اختلافهم مع حاكم الاحساء. وقد هبط بنو الحارث بسفنهم الثلاثة في ساحل بنادر في افريقية الشرقية، وعملوا على تدعيم سيطرتهم في المنطقة حيث أسسوا مدينة مقاديشو، وكذلك مدينة براوه في الساحل الافريقي الشرقي(٩). وقد خضع الساحل الافريقي الشرقي ولمدة قرنين من الزمان لمشيخة مقاديشو التي اسسها بنو الحارث(١٠).

في بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وصلت الى ساحل افريقيا الشرقي هجرة كبيرة من عمان تزعمها سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني. وكان النبهانيون حكام عمان قد رحلوا الى مدينة باتا في الساحل الشرقي لافريقيا بعد انهيار دولتهم على يد اليعاربة عام ٦٠١هـ/ ١٢٠٣م. وقد استقبل النبهانيون استقبالا طيبا في باتا من قبل سكانها، الذين معظمهم من عرب الخليج، وتزوج سليمان النبهاني من ابنة حاكم المدينة المدعو اسحق، وبعد اتمام الزواج تنازل اسحق عن الحكم لصهره سليمان الذي اصبح أول حكام الاسرة النبهانية في شرق افريقيا(١١). وعندئذ اصبحت باتا مركزاً للسلطة النبهانية في ساحل افريقيا الشرقي وغدت أقوى سلطة في الساحل في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، حيث استطاعت ان تمد سيطرتها على طول الساحل، وعلى أيام النبهانيين انتعشت حركة التجارة بين الخليج العربي وشرق افريقيا. استمرت سلطة النبهانيين العمانيين في الساحل الافريقي الشرقي الى ان انتهى بهم الامر، وبعد مراحل طويلة من اقوة والضعف، بالخضوع الى السلطنة العربية في زنجبار خلال النصف الاول من القرن التسع عشر الميلادي(١٢).

ومن الجدير بالاشارة أن هجرات عرب الخليج واستقرارهم في شرق افريقيا لم ينقطع بدأً(١٣)، اذ شجعت الدوافع التي اشرنا اليها الى توثيق الصلاتبين الخليج وشرق افريقيا. ومن المؤكد ان هذه الصلات والروابط العميقة بين الخليج والشرق الافريقي وتنوعها قد حفزت الكتاب العرب، وفي طليعتهم البلدانيين، على الكتابة عنها والكشف عن بعض جوانبها. وستكون الصفحات التالية محاولة لدراسة أهم مدونات البلدانيين العرب لبيان أهمية هذه المصادر وامكانية مساهمتها في التعرف على العلاقات التجارية بين الخليج العربي وشرق افريقيا موضوع البحث.

٢ ـ البلدانيون العرب وشرق افريقيا:

تعد كتب البلدانيين العرب من المصادر المهمة عن صلة الخليج العربي بشرق افريقيا، ومازالت

هذه المصادر بحاجة ماسة الى دراسة شاملة لبيان اهميتها وامكانية مساهمتها في هذا الموضوع.

فبعد النجاح السياسي التي ظفرت به الدولة العربية الاسلامية في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، تحفز رجالاتها الى اقتحام ميادين المعرفة المتنوعة، كان في مقدمتها نشأة علم البلدان (وهو المعروف في المصطلح الحديث بالجغرافية الوصفية)، وذلك لان الدولة العربية الاسلامية بعد أن اصبحت قوة عالمية وامتدت رقعتها الى مسافات واسعة كانت بحاجة الى هذا العلم كأداة للتعرف على ارضيها وحدودها ولحصول على معلومات دقيقة عن الاقطار المتاخمة لها. كما أن التجارة المزدهرة في الدولة العربية الاسلامية كانت تريد من هذا العلم أن يكون لها هاديا ومرشدا في دولة مترامية الاطراف واسعة الارجاء مختلفة الشعوب والاجناس والالسنة، وكان التجار يريدون معرفة السبل والمسالك وماذا يعطون وماذا ياخذون، فلقد وجدوا في هذا العلم بغيتهم فأقبل عليه رجال الدولة والتجار يطلبون من اصحابه، فظفر بتأييد أتاح له ان يتطور تطورا سريعاً، حتى اصبح في اوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي علماً كامل المعالم والاسس ولاسيما ان هذا العلم قد تيسر له رجالا علماء أفذاذ، جاب الكثير منهم الاقطار وتحملوا المشاق، فتعرفوا على المسالك والطرق والناس ووقفوا على طبيعة البلاد التي زاروها وعرفوا احوالها، ودونوا ما اراوا وما سمعوا، حرصين على تبيان الحقيقة قدر الامكان فكانت كتاباتهم مصادر يهتدى بها كل باحث.

لقد استهوت شرق افريقيا والخليج العربي البلدانيون العرب (كما استهوت التجار)، وقد وصل الينا أخبار الكثيرين من هؤلاء مدونة بشكل يتيح لنا تقصي أخبار صلات الخليج بشرق افريقيا ولاسيما التجارية منها. ولابد لنا من الاشارة الى أن المعلومات التي جاءتنا من هذه المدونات، بخاصة ما يتعلق بشرق افريقيا، غير وافية بالحاجة. كما أن بعضه كانت تخالطه الاسطورة أو الخيال، لكن هذا لا ينقص من قيمتها في كونها مصدرنا الوحيد في الكتابة في هذا المجال، وامكانية استخلاص الكثير من الحقائق منها. ولعل عذر اصحاب هذه المصنفات ولاسيما الاوائل منهم، أن شرق افريقيا تعد مناطق متطرفة عن لب العالم الاسلامي فلم تحظ بشئ كثير من اهتمامهم(١).

لايقدم لنا البلدانيون الاوائل الا معلومات مقضتبة جداً عن شرق افريقيا، وعلى الرغم من أن الاخيرة تقع ضمن دائرة النشاط التجاري للدولة العربية الاسلامية في المحيط الهندي، الا أنها بالنسبة لهم تقع خارج نطاق اهتمامهم وان مجال حصولهم على المعلومات الخاصة بها اقل مما هو عليه بالنسبة لمناطق أخرى، ويمكن ان يقرن ذلك بقلة النشاط التجاري بين الخليج وشرق افريقيا في القرون الاسلامية الاولى إذا ما قورن مع النشاط التجاري للعرب المسلمين مع الشرق الاقصى. وعلى أية حال، فان الاشارات الاولى التي وصلتنا عن شرق افريقيا تشير اليها أشارة عامة ببلاد الزنج(١٠).

من بين كتب البلدانيين الاولى التي وصلتنا، رحلة قام بها تاجر يدعى سليمان في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وقد قام سليمان برحلاته في الخليج العربي قاصداً الهند والصين في فترة بلغ فيها النشاط التجاري في الدولة العربية الاسلامية قمته ولاسيا مع الشرق الاقصى.

اما فيما يتعلق بطبيعة الاسفار التي قام بها سليمان واهدافها فلا نكاد نعرف عنها الا اليسير جدا. تتألف رحلة سليمان التاجر من قسمين: الاول كتب حوالي عام ٢٧٣هـ/ ٨٥١م من قبل مؤلف مجهول. أما القسم الثاني فقد حوره شخص من سيراف اسمه ابو زيد حسن تراءى له ان يتمم رحلة سليمان في بداية القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي. والذي يهمنا من هذه الرحلة، وعلى الرغم من طبيعتها القصصية، فانها تحوي على معلومات عن الرياح والطقس والمخاطر البحرية ومناطق الوقوف وما شابه ذلك في المحيط الهندي. والى جانب ذلك فانها تحوى على معلومات قيمة عن السواحل الشرقية لافريقيا، اذ انها تصف بلاد الزنج وملوكها وبعض الخصائص الاجتماعية للزنج، والاهم من ذلك كله الاشارة الى أن سكان هذه البلاد من الزنوج يعرفون العرب ولهم هيبة عظيمة في قلوبهم[16]. ولعل هذه المعرفة متأتية من وصول التجار العرب الى مناطقهم.

أن المدونات الرئيسية التي تعيننا في فهم علاقات الخليج العربي بشرق افريقيا ــ وفي مقدمتها العلاقات التجارية ــ قد جاءت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وأهمها مؤلفات المسعودي. وقبل ان نتكلم عن أهمية معلومات المسعودي يجب ان نتساءل عن سبب غزارة المعلومات التي دونها البلدانيون العرب كما ونوعا في القرن المذكور، وللاجابة عن هذا التساؤل لابد من الاشارة الى أن النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، شهر اضطرابات في بلاد الصين فكان ذلك بداية لضعف التجارة مع الشرق الاسلامي، اذا لم تعد المواصلات البحرية تجرى بانتظام بين الخليج والشرق في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي[17]. وقد مهد هذا الامر لانتعاش التجارة وانتظامها بين الخليج وافريقيا الشرقية، ابتداء من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[18]. وفضلا عن ذلك فقد انتقل النشاط التجاري للدولة العربية وثقله في القرن التالي من الشرق الى البحر الاحمر كما سنشير الى ذلك.

يحتل المسعودي المكانة الاولى بين البلدانيين العرب في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ولاسيما أنه كان من الرحالة الذي جمع اكثر ما كتبه عن طريق المشاهدة والاختبار والاسفار[19]. وعلى الرغم مما يؤخذ عليه، من قلة معلوماته عن شرق افريقيا، ولاسيما أن زمن وصول المسعودى الى تلك المناطق كان عند تأسيس المدن والامارات العربية الاسلامية، فانه يورد في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» معلومات تعتبر مهمة وتشكل لنا البدايات الاولى والاصلية لدراسة العلاقات العربية الافريقية، ولاسيما التجارية منها بين الخليج وشرق افريقيا. وعلى هذا الاساس اعتبر بعض الباحثين المتخصصين بتاريخ شرق افريقيا كتاب المسعودي بأنه احسن مصدر عن هذه المنطقة[20]. فقد رحل المسعودى مع البحارة من عمان وسيراف عدة مرات، واقام في ساحل افريقيا الشرقي زمنا، وحاول ان يتخطى الساحل الى الداخل ولكنه لم يصل الى ابعاد كثيرة[21].

بعد وصف المسعودي لبلاد الزنج في الاعمال الاصلية بصورة عامة، ولاسيما انه اعتمد في معلوماته على ملاحظاته الشخصية، وعلى مصادر مختلفة مكتوبة وشفهية، أخذها في الغالب من

تقارير رحالة مختلفين، لم يذكر اسماءهم، ومن أصحاب السفن المبحرين بين الخليج وشرق افريقيا(٢٢).

ان معلومات المسعودي عن بلاد الزنج تشير الى اصل الزنج واماكن استقرارهم، فضلا عن وصفه لنظمهم الاجتماعية من طراز اللباس والمأكل. كما يذكر منتجات الشرق الافريقي المتنوعة والتي جذبت السفن الخليجية الى شرق افريقيا. كما اعطى المسعودي تقريراً مهماً عن طبيعة الرحلة التجارية بين الخليج وشرق افريقيا، ولاسيا فيما يتعلق بالطريق التجاري في مراحله ومخاطره والمدن التي تبدأ السفن بالانطلاق منها أو الارساء فيها. كل هذه المعلومات، على الرغم من قلتها وسطحيتها في احيان كثيرة واختلاطها بالاساطير، فانها تحتل اهمية كبرى في قضية العلاقات التجارية بين الخليج وشرق افريقيا.

ظل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي يمدنا بمعلومات كثيرة عن موضوع التجارة بين العرب وشرق افريقيا. ويتضح لنا ذلك بصورة جلية في سلسلة المصنفات التي تعكس طراز «المسالك والممالك»، التي ركزت على وصف العالم الاسلامي. تبدأ هذه السلسلة بالاصطخري الذي عاش في النصف الاول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، والذي لانجد في كتابه «المسالك والممالك» ايه معلومات عن شرق افريقا. أما ابن حوقل فقد اهتم بالكتابة عن افريقيا، واذا تركنا قضايا التشابه العديدة بينه وبين الاصطخري، فاننا نجد في كتابه «صورة الارض» الذي يمثل رحلة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، الكثير من المعلومات عن القسم الشمالي من شرق افريقيا لاسيا مناطق الحبشة والنوبة، أما القسم الجنوبي من المنطقة فلم يحظ منه الا باشارات قليلة جدا، منها غنى بلاد الزنوج بمعدن التبر، وتجارتها مع الشعوب الاخرى، ولعل عذره في عدم اهتمامه بالكتابة عن بلاد الزنج، هو كونها من المناطق الواقعة خارج حدود الدولة العربية الاسلامية التي كرس لها كتابه(٢٣).

أما المقدسي الذي يعد أخر بلداني القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، فانه قد رسم خط مؤلفه على الفكرة السابقة، في التركيز على وصف بلاد الاسلام، ولذلك نجد ان معلوماته نادرة عن شرق افريقيا.

ازدادت المعلومات عن شرق افريقيا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وتشكل هذه المعلومات اضافة جديدة ومهمة ولاسيا في موضوع التجارة في شرق افريقيا، والتي نشطت في الحقبة القريبة من ذلك القرن، بعد أن تحولت حركة الملاحة من طريق الخليج العربي الى البحر الاحمر بسبب الاضطرابات السياسية في منطقة الخليج(٢٤).

لقد خلف لنا ابو عبيد البكري الذي كان يعيش في الاندلس في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي عددا من المؤلفات من بينها كتابه «المسالك والممالك» الذي يعد مصدرا مهما في تاريخ افريقيا. لانعرف ان البكري قد زار شرق افريقيا، ولكن الذي نعرفه انه جمع معلوماته عن طريق التجار والرحالة الذين التقى بهم في الاندلس، فضلا عن المدونات والمؤلفات

العربية الكثيرة التي كانت تحت تصرفه في مدينة قرطبة والتي أغناها دراسة وتحليلا. أما معلوماته عن شرق افريقيا فهي قليلة ومقتضبة إذا ما قورنت بمعلوماته عن غرب افريقيا، ولعل السبب يعود في قلة اهتمام التجار والرحالة الاندلسيين بمناطق شرق افريقيا لبعدهم عنها. لقد انحصرت معلومات البكري عن افريقيا الشرقية في وصفه لحدود هذه البلاد وذكر سكانها الزنوج من حيث اصولهم وتواجدهم في بلاد الزنج واسماء ملوكهم، وهو ينقل هذه المعلومات عن الذين سبقوه من الكتاب ولاسيما المسعودى(٢٥). كما يتطرق الى ذكر منتجات بلاد الزنج ولاسيما التجارية منها والتي تحمل الى الخليج العربي والشرق الاقصى(٢٦)، وهي معلومات طريفة ومهمة لموضوع بحثنا.

أما المجموعة التالية من المعلومات عن افريقيا الشرقية والنشاط التجاري للعرب فيها، فقد ارتبطت بالادريسي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. في كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الافاق» نجد تأكيداً للعلاقات التجارية التي كانت قائمة بين العرب وشرق افريقيا والتي أولاها كل اهتمامه. وعلى الرغم من ان الادريسي لم يرحل الى شرق افريقيا الا انه من المؤكد قد سمع وقرأ كثيراً عنها، ولاسيما انه كان تحت يده مادة كثيرة، ولذا فقد جاء وصفه لهذه المنطقة وعلاقاتها التجارية غاية في الاهمية. فهو أول من تحدث عن مدن الساحل الافريقي الشرقي وجزره وعن النشاط التجاري الذي تتميز به وهذا ما لم يذكره من سبقه، ولعل ذلك لان المدة التي الف الادريسي فيها كتابه كانت مزدهرة ازدهاراً كبيراً للتجارة العرب مع شرق افريقيا(٢٧). ويولي الادريسي اهتماما خاصا بتجارة الحديد السائدة في مدن شرق افريقيا(٢٨)، في حين لانجد لديه معلومات مهمة عن تجارة الذهب والعاج المشهورة. ونحن لا نعرف من اين جاء اهتمامه بتجارة الحديد، هل انه كان قد انتبه الى أن شهرة تجارة الذهب والعاج في شرق افريقيا، تدعوه الى ان يثير انتباه التجار والرحالة الى تجارة معدن مهم ومتوفر في شرق افريقيا وهو الحديد؟ ويبدو ان معرفته عن شرق افريقيا حتى مومباسا كانت واضحة جداً، ولكن ابتداء من هناك فان معلوماته عن ارض الزنج تصبح غامضة، ومن الواضح فان هذا الامر كان نتيجة للمعلومات المشوشة التي كانت بحوزته(٢٩). فمثلا يذكر ان مدينة براوة لاتزال وثنية(٣٠)، ولكن المعروف ان الاسلام قد دخلها منذ زمن سابق، كما انه لم يتعرض الى مدينة مقاديشو التي كانت تفرض سيطرتها على كثير من مدن الساحل على أيامه وكانت تشهد نهضة تجارية واسعة، في حين انه يذكر مدناً كانت تابعة لها مثل براوة.

وفي اخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي عاش بلداني اخر وهو ياقوت الحموي، الذي عرف باسفاره التجارية العديدة، وقد اعتبر البعض مصنفه «معجم البلدان» من خيرة الكتب الجغرافية في العصر الوسيط بنوعيه، فهوّ يبحث في هذا المعجم أصل الموقع الجغرافي ونشأته والظروف التي أحاطت بذلك ومن سكنه من العلماء والفقهاء، والدور التريخي الذي لعبه، وبذلك فان مادة ياقوت متنوعة للغاية(٣١). وقد أفادته الاسفار التي قام بها في زيادة معرفته بالمسالك التجارية المطروحة في عهده ومنتجات البلاد التي زارها. وعلى الرغم من قيمة المعلومات التي دونها ياقوت في

معجمه الا ان المادة التي احتواها عن شرق افريقيا مقتضبة وقليلة جداً، وتكاد تكون نادرة في علاقات الخليج التجارية بالشرق الافريقي، فهو يذكر مثلا نشاط مدينة مقاديشو التجاري وارتحال التجار اليها لجلب المتاع منها ولاسيما الخشب والعاج متوقفاً عند هذا الحد(٢٢)، كما يهمل ذكر كثير من مدن شرق افريقيا التي كان لها نشاط تجاري متميز في ايامه.

في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بلغ النشاط التجاري في الدولة العربية الاسلامية أوجه حيث كانت السفن التجارية في ذلك القرن تجوب البلاد في كل اتجاه وتصل الى كل الاسواق النائية، وعلى رأسها أسواق شرق افريقيا الغنية بالذهب والعاج الجديد، مسترشدة بخرائط مفصلة حوتها كتب الجغرافية العربية، وفي هذه الحقبة بالذات يطالعنا ابن سعيد بكتابه «الجغرافية». وعلى الرغم من انه نقل الكثير من معلوماته ممن سبقه الا أنه جاء بالشئ الجديد جداً فيما يخص سواحل افريقية الشرقية، التي لم يزورها بنفسه على حد اعترافه، لكنه استقى مادته من ملاح عربي لانعرف عنه سوى ان اسمه «ابن فاطمة» كان يعيش على اغلب الظن في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وقد أبحر هذا الرجل من سواحل افريقية الشرقية وبلغ سفالة وجزيرة مدغشقر(٢٣).

ان معلومات ابن سعيد عن بلاد الزنج تتصف بالجدية والاصالة وهي التي سمحت له ان يحدد بكثير من الدقة مواقع المدن والجبال ومجاري الانهار في المنطقة، كما ان اعتماده على أسفار ابن فاطمة قد اتاحت له مادة اصلية لم يعرفها من سبقه (ولاسيا عن جزيرة مدغشقر)(٢٤)، وهذه المادة تعيننا كثيرا في رسم الطريق الذي كانت تسلكه السفن التجارية في شرق افريقيا.

أما القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي فانه حافل ايضا في مجال المعرفة العربية بشرق افريقيا، ولعل كتاب ابن بطوطه «تحفة النظار وغرائب الامصار وعجائب الاسفار» هو أهم ما يسترعي الانتباه. فقد كان ابن بطوطة أخر رحالة عربي كبير جاب العالم الاسلامي باجمعه. ويقول عنه كراتشكوفسكي(٢٥) انه «مهما اختلفت الاراء فيه فانه من المستحيل انكار انه كان أخر جغرافي عالمي من الناحية العلمية». ولعل ذلك يرجع الى كونه قد حصل على معلوماته عن طريق اسفاره الى مختلف البلاد وانه لم ينقلها عن غيره. وكان ابن بطوطة قد عزم على السفر لتأدية فريضة الحج، لكن عصا الترحال أخذته الى مختلف الاقطار ولم يعد الى مدينة طنجة الا بعد اكثر من ربع قرن. والذي يهمنا هو زيارته الى شرق افريقيا والتي تمت عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م، حيث تحول من عدن الى زيلع (في الصومال) متجهاً الى مدن ساحل الزنج مثل مقاديشو (في الصومال) ومومباسا (في كينيا) وكلوة (في تانزانيا). ثم عاد الى اليمن ومنها الى عمان ودخل الخليج العربي ووصل الى البحرين والقطيف(٢٦). أن هذه المراحل التي قطعها ابن بطوطة بين شرق افريقيا والخليج مهمة جداً لموضوع البحث. ذلك لانها تدل على الطريق المعروف آنذاك عند التجار الذين يمارسون عبره نشاطاتهم بين منطقتي الخليج وشرق افريقيا. كما احتوت الرحلة على معلومات مهمة عن النشاط التجاري من مدن

الساحل الافريقي الشرقي، بل ونتائج هذا الاتصال الطويل الذي أثمرت بصورة واضحة أيام ابن بطوطة، حيث يسجل لنا استخدام اللغة العربية كلغة رسمية في مدينة مقاديشو، واتباع نظم الحكم ذات المنحى العربي ووجود المدارس الفقهية في مجال الدين. وكذلك يسجل لنا التأثير العربي ولاسيا سكان الخليج في طراز البناء في شرق افريقية(٣٧)، وفي هذا كله تأكيد على صلات الخليج العربي بشرق افريقيا.

على أن ما يأخذ على رحلة ابن بطوطة كونها ليست في تصنيف ابن بطوطة نفسه بل تمثل صياغة أدبية لروايته كتبها الاديب الغرناطي محمد بن جزي الكلبي بأمر من الحاكم المريني ابن عنان (٧٤٩ ــ ٧٥٩هـ/ ١٣٤٨ ــ ١٣٥٨م)، الذي شهد عهده وعهد سلفه ابي الحسن أزدهاراً للثقافة وتشجيعاً للادب في بلاد المغرب.

على أية حال، فقد جعلنا من رحلة ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي خاتمة للمدونات التي استقينا منها مادة هذا البحث، باعتبار انه لم تجر رحلة عربية على غرارها فيا بعد

٣ ــ حركة التجارة بين الخليج العربي وشرق افريقا:

أ. الطريق التجاري بين الخليج وشرق افريقيا:

سوف يتم تحديد معالم حركة التجارة بين الخليج العربي وشرق افريقيا طبقاً لما ورد من معلومات في مدونات البلدانيين العرب، وتشمل اولى معلوماتهم وصفا لمناطق شرق افريقيا وسكانها وتعتبر هذه المعلومات بيانات مهمة للتجار وربانية السفن التجارية فهي تعرفهم على تلك المنطقة وبالتالي تسهل عليهم الوصول اليها. كما أنها تقوم دليلا على معرفة التجار العرب بشرق افريقيا ولاسيا اذا اخذنا بعين الاعتبار ان التجار كانوا أهم الينابيع التي استقى منها البلدانيون العرب معلوماتهم.

ومن المؤكد أن التعرف على الزنوج واماكن استقرارهم واقسام بلادهم مهمة جداً في حركة التجارة بين العرب وسكان شرق افريقيا. فقد اطلق البدانيون العرب «بحر الزنج» على الجانب الغربي من المحيط الهندي الذي يطلق عليه الشاطئ الشرقي الافريقي، كما سمى الشاطئ المطل على هذا البحر باسم «بلاد الزنج»(٣٨)، وحددوا الاقليم الجغرافي الذي تقع فيه بلاد الزنج، وقسموه على أربعة أقسام كل له صفات خاصة. ونجد ان هذا التقسيم واضح حتى في اشارات المسعودي الغامضة عن الساحل، والتي اصبحت اكثر وضوحاً عند الادريسي، ولذلك سيكون اعتمادنا عليها بالدرجة الاولى في وصف اقسام شرق افريقيا، مؤكدين على اهميتها بالنسبة لحركة التجارة.

وهذه الاقسام هي:

١ ــ بربرا: وهي كما يقول المسعودي «وله (البحر الحبشي) خليج متصل بارض الحبشة يمتد الى

ناحية بربرى من بلاد الزنج والحبشة ويسمى الخليج البربري، وطوله خمسمائة ميل، وعرض طرفيه مائة ميل، ... واهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج الى جزيرة قنبلو من بحر الزنج.. وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الازد»[٣٩]. كما يضيف قائلا: «ان أرباب المراكب العمانيين يعرفون هذا البحر ويعرفون امواجه العظيمة»[٤٠].

ويبدو ان البلدانيين العرب بعد المسعودي حاولوا تحديد أخر بلاد بربرا، فابن سعيد يقول: ان نيل مقديشو هو أخر حد بلاد بربرة، وأول بلاد الزنج[٤١]، لكنه لم يحدد امتداد منطقة بربرا شمالا. أما ياقوت فان فكرته عن بربرا واضحة فهو يقول انها تقع بين الحبشة وارض الزنج[٤٢]. وبذلك يمكن القول بان بلاد بربرا تؤلف الان السواحل الشمالية والشرقية من الصومال (وتعرف بساحل بنادر) وان التجار العرب من الخليج ــ ولاسيما العمانيين ــ كانوا يمارسون التجاة مع هذه المنطقة.

٢ ــ **بلاد الزنج:** وتمتد من مقاديشو التي اعتبرت أول بلاد الزنج[٤٣] الى سفالة[٤٤]. يقول المسعودي «ومساكن الزنج من حد الخليج المتشعب من اعلى النيل الى بلاد سفالة والواق واق، ومقدار مسافة مساكنهم واتصال مقاطنهم في الطول والعرض نحو سبعمائة فرسخ اودية وجبال ورمال»[٤٥]. كما يضيف المسعودي: «ان الفيلة كثيرة في ارض الزنج ومنها يتجهز التجار بالعاج الذي يحمل الى مناطق الخليج والشرق الاقصى»[٤٦].

أما الادريسي فيفصل لنا في مدن بلاد الزنج، فيذكر ملندة بأنها مدينة على الساحل «وهي مدينة كبيرة واهلها يحترفون الصيد براً وبحراً فيصيدون في البر النمور والذئاب ويصيدون في البحر ضروبا من الحيتان. وعندهم معدن حديد يحفرونه ويعملونه وهل جل مكسبكم وتجارتهم[٤٧]. ان لهذا النص قيمته حيث يشير الى ان حركة التجارة في هذه المدينة كانت تقوم على تجارة الحديد. كما يشير الى احتراف اهل مدينة مومباسا استخراج الحديد ويقول: «أنها مدينة على البحر وعلى ضفة خور كبير تدخله المراكب مسير يومين وليس عليه شيئا من العمارة وفي هذه المدينة سكنى ملك الزنج واجناده»[٤٨]. أما أخر بلاد الزنج فيحددها الادريسي بما ياتي «ومن منبسة الى قرية البايس ستة ايام في البر والبحر. وقرية البايس قرية جامعة اهلة بالناس... وهي أخر عمالة الزنج ويتصل بها ارض سفالة»[٤٩].

٣ ــ **سفالة:** ويشار الى بلاد سفالة باسم «سفالة الزنج» ايضا[٥٠]، كما سميت بارض الذهب أو التبر[٥١]. وكانت مقصد أصحاب المراكب الخليجية[٥٢] من أجل الحصول على الذهب. ويشير البلدانيون العرب الى بعض مدن سفالة مثل بتينة[٥٣]، وحيونة التي كانت مقر ملك سفالة، ويبدو أنها كانت مركزاً تجارياً حيث يتاجر أهلها بالذهب والفضة وهي أخر عمائر بلاد سفالة[٥٤].

الواق واق: تكمل هذه المنطقة صورة بلاد الزنج، ومع هذا فقد وصفت بشكل غامض حيث قيل بأن اراضيها تمتد الى جنوب منطقة سفالة. في الوقت الذي نجد فيه المسعودي لايذكر أي شئ عن الواق واق، فان الادريسي بعده بقرنين يشير الى وجود «مدينتين حقيرتين (في الواق واق) وسكانها قليل لضيق عيشها وتكدر رزقها وليس بارض هؤلاء القوم شئ من الذهب ولايخرج من عندهم تجارة ولا مراكب ولادواب»(..). ويدل هذا على أن هذه المنطقة لم تكن محط أنظار التجار العرب ولم تسهم في حركة النشاط التجاري في شرق افريقيا بسبب عدم توفر المنتجات التي ينشدها التجار.

وعلى أية حال، فان منطقة الشرق الافريقي، التي تشمل ما نسميه اليوم بالصومال وكينيا وتنزانيا وموزمبيق، قد شهدت نشاطاً تجارياً عربياً واسعا، وكان هذا النشاط الركيزة الرئيسية في قيام العلاقات العربية ــ الافريقية في العصر الوسيط.

بعد هذه الصورة التفصيلية لاجزاء الشرق الافريقي كما عكستها كتب البلدانيين العرب، نحاول رسم الطريق التجاري الذي يربط منطقة الخليج العربي بشرق افريقيا.

أما الطريق التجاري الذي تقطنه السفن ما بين الخليج العربي وشرق افريقيا ذهابا وايابا، فنستطيع ان نتتبع مراحل السير فيه ومحطات توقف السفن فيه والمخاطر التي تتعرض لها، في جميع مدونات البلدانيين العرب. ان عناية هؤلاء واهتمامهم بوصف الطريق بين الخليج وشرق افريقيا تقوم دليلا على وجود الصلة القوية بين المنطقتين ولاسيما الصلة التجارية.

ومن الجدير بالذكر ان كتب البلدانيين العرب الاوائل لاتحتوى على تفاصيل لجميع مراحل الطريق الذي يصل بين الخليج وشرق افريقيا. فبينما تفصل هذه الكتب بمراحل السفر في مياه الخليج العربي والبحر العربي، فتصف موانئها وظروف الملاحة فيها، نجدها لاتذكر أي معلومات عن مراحل السير في بحر الزنج، وانما تكتفي بالاشارة الى وجود طريق بحري ما بين الخليج يمر بعمان وعدن الى بلاد الزنج(..). ويمكن ان يعزى ذلك الى قلة النشاط التجاري بين الخليج وشرق افريقيا في القرون الاسلامية الاولى إذا ما قورن بحركة التجارة بين الخليج والشرق الاقصى حيث كان الاخر محط اهتمام الدولة العربية الاسلامية أيام العباسيين.

لقد سجلت تجارة الخليج ما بين القرن الثاني الى القرن الخامس الهجريين/ الثامن ــ الحادي عشر الميلاديين تطوراً كبيراً مع الشرق الاقصى حيث جذبت منتجاته التجار العرب. ولكن في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بدأت القلاقل والاضطرابات السياسية في الخليج تؤثر على هذه التجارة فاضعفتها واخيرا تحولت نشاطات التجار العرب الى البحر الاحمر وشواطئ بلاد الزنج بعد انهيار الدولة العباسية(..). بدأت تجارة الخليج مع الشرق الاقصى بالضعف. كما أشار المسعودي الى ذلك بالتفصيل(..)، منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بعد الاضطرابات التي حلت

بالصين. وتأثرت هذه التجارة ايضا، كما يشير ابن حوقل، بالاضطراب السياسي والفوضى التي وقعت في البحرين (بسبب سيطرة القرامطة)، مما شجع القبائل البدوية الى ان تفرض سيطرتها على الطرق التجارية التي لم تعد أمنة[٥٩]...

ومنذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي نجد تفاصيل دقيقة عن الطريق التجاري الذي يربط الخليج العربي بشرق افريقيا. اذ كانت الرحلة الى شرق افريقيا تبدأ من منطقة البصرة (في الابلة) ثم الى القطيف (في الاحساء)، ثم الى البحرين وجزائر قطر ثم الى بلاد عمان فبلاد المهرة ثم الى ارض الشحر (حضر موت) حتى تصل المراكب الى عدن ومن هناك. أما ان تذهب السفن شمالا الى سواحل جزيرة العرب الغربية أو شواطئ افريقية المطلة على البحر الاحمر، أو ان تذهب جنوبا الى بحر الزنج حيث شواطئ افريقيا الشرقية[٦٠] ولعل ما يورده البلدانيون العرب ما يوضح ما ذهبنا اليه. فالمسعودي يقول: انها نهاية الخليج الشمالية هي أرض البصرة بعدها «بلاد البحرين وجزائر قطر وشط بني جذيمة وبلاد عمان وارض مهرة الى رأس الجمجمة الى أرض الشحر والاحقان وفيه أجزاء كثيرة..»[٦١] أما البكري فبعد ان يصف مراحل السير التي تبدأ من منطقة البصرة الى «قطيف والبحرين وعمان ثم يمر متخذاً من الشمال على ساحل البحر حتى يأتي على عدن. وعدن منتهى العنق الذي يخرج من البحر، ثم ينعطف هذا العنق من عدن فيمضي منعطفاً على جزيرة العرب مستقبلا الشمال فمن يمين الذاهب منه الى جزيرة العرب والى يساره بلاد السودان»[٦٢]. ويمكن ان نسمى هذه المرحلة الاولى في الطريق التجاري بين الخليج العربي وشرق افريقيا، تتبعها المرحلة الثانية والتي تبدأ من منطقة الشحر بين عمان وعدن (في حضر موت)، وتنتهي بسفالة الزنج أخر منطقة تصلها السفن العربية[٦٣].

تبدأ الرحلة كما ذكرنا من الشحر باتجاه جنوبي غربي مارة (برأس جوردفوي) الى جزيرة سوقطرة ومن هذه الجزيرة تبحر السفن الى أول مرفأ افريقي هو رأس حافوني (يعرف اليوم رأس حافون على الساحل الصومالي)، ومنه جنوباً الى مقديشو اول بلاد الزنج[٦٤]، ثم الى المدن الساحلية الواحدة تلو الاخرى حيث تبحر السفن الى براوة ثم تدخل مدينتي باتا ولامو وبعدها تتجه المراكب جنوبا الى مالندى وممباسا وهي من المراكز التجارية المهمة في الساحل. وحين تبحر المراكب من مومباسا تلتزم الطريق المحاذي للساحل الافريقي الى أن تتمكن من عبور قناة زنجبار، ثم تدخل جزيرة زنجبار، وقد تزور السفن قبل زنجبار جزيرة بمبا، والى الجنوب من زنجبار تتجه المراكب الى مدينة كلوة المركز التجاري المهم[٦٥]. وقد تسير بعض المراكب من مومباسا مباشرة باتجاه الجنوب حتى تصل الى آخر قرية في بلاد الزنج وهي اليابس، وبعدها تدخل الى أرض سفالة فتمر على أهم مدنها منها بتهنة وحنطمة ودندمة التي هي أخر قواعد بلاد سفالة. وقد تبحر السفن من بلاد سفالة الى جزر القمر[٦٦]. كما قد تزور بعض السفن جزيرة مدغشقر ايضاً.

ولعل من الضروري هنا الاستشهاد ببعض ما كتبه البلدانيون العرب وهم يصفون لنا الطريق التجاري بين الخليج وشرق افريقيا توضيحاً وتأكيداً للمراحل التي تقطعها السفن في المرحلة الثانية من رحلتها من الخليج الى شرق افريقيا. إذ يذكر ابن خرداذبة ان عدن هي مركز لتجميع البضائع القادمة من الخليج ـــ ولاسيا البصرة ـــ والقادمة من بلاد الزنج والحبشة وغيرها. وبذلك تكون هذه أول اشارة ـــ وان كانت مقتضبة وغير مباشرة ـــ الى ابحار السفن بين عدن وشرق افريقيا عبر طريق معلوم(٦٧).

أما المسعودي فقد كان من المؤكد على علم بالطريق البحري بين الخليج وشرق افريقيا وان لم يورد تفاصيله. فقد تحدث عن رحلات تجار الخليج ولاسيا عرب عمان من الازد الى بلاد الزنج، وكان هو نفسه قدأبحر عدة مرات مع السفن الخليجية من عمان الى افريقيا الشرقية، حتى وصل الى جزيرة قنبلو، فهو يقول:

«واهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج (خليج بربرى) الى جزيرة قنبلو في بحر الزنج، وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار من الزنج، والعمانيون الذين ذكرنا من ارباب المراكب يزعمون ان هذا الخليج المعروف بالبربري، وهم يعرفونه ببحر بربري، وبلاد جفوني (حافون)، اكثر مساحة مما ذكرنا (قدرها المسعودي بطول خمسمائة ميل وعرض مائة ميل) وموجه عظيم كالجبال الشواهق.. وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الازد.. وينتهي هؤلاء في بحر الزنج الى جزيرة قنبلو على ما ذكرنا، والى بلاد سفالة والواق واق في اقاصي أرض الزنج والاسافل في بحرهم.. وقد ركبت انا هذا البحر في مدينة سنجار من بلاد عمان (وسنجارقصبة بلاد عمان) مع جماعة من نواخذة السيرافيين وهم ارباب المراكب... واخر مرة ركبت فيه سنة اربع وثلاثمائة من جزيرة قنبلو الى مدينة عمان..»(٦٨).

ويضيف المسعودي في مكان أخر واصفا قنبلو بقوله:

«أنها جزيرة عامرة فيها قوم من المسلمين الا ان لغتهم زنجية. غلبوا على هذه الجزيرة.. وذلك في مبدأ الدولة العباسية ونهاية الاموية، ومنها الى عمان في البحر نحواًمن خمسمائة فرسخ على ما يقول البحريون حزرا منهم لذلك، لا عن طريق التحصيل والمساحة»(٦٩).

أن اهتمام المسعودي بجزيرة قنبلو يرجع الى بقائه فيها لمدة، وهي أخر محطة وصلها في ترحاله في الشرق الافريقي، أما بلاد سفالة فلم يزرها بل اخذ أوصافها من أصحاب المراكب من عرب الخليج الذين يصلون اليها. وقد كانت جزيرة قنبلو وما تزال مجال نقاش بين الباحثين من أجل معرفتها بالضبط. ومع ان المسعودي أورد بعد التحديدات الجغرافية الخاصة بموقع هذه الجزيرة، لكنها لاتعيننا على وضع تحديد نهائي لها ولاسيا ان هناك جزراً متعددة في الساحل الافريق الشرقي تنطبق على أوصاف المسعودي كلا أو جزءاً.

لقد حاول ترمنكهام(٧٠) عرض نصوص الجغرافيين العرب التي تصف جزيرة قنبلو وكل ما يتصل بها مبتدأ بالمسعودي ثم ابن حوقل وبزرك بن شهريار والبيروني، وكذلك يورد معلومات الادريسي وياقوت وابن سعيد، وبعد دراسته لهذه النصوص يتوصل الى الخلاصة التالية، حيث يقول: «كما هو واضح من الخرائط الخاصة باوائل الجغرافيين وروايات الرحالة الى شرق افريقيا، فان قنبلو من الممكن ان تكون مستقرا للقادمين الاجانب على جزيرة في ذلك الساحل (ساحل افريقيا الشرقي) كأن تكون بمبا أو زنجبار أو ماقيا، وليست مدغشقر»(٧١).

وهكذا نجد فيما دونه المسعودي تاكيداً واضحا على الصلة التجارية بين الخليج العربي وشرق افريقيا. ولكن مما يستدعي الاسف أن المسعودي لم يفصل في مراحل الطريق الذي سار فيه فلم يذكر المدن والمراكز التجارية الساحلية التي اسسها العرب أو التي وصلوا اليها في الشرق الافريقي منذ زمن بعيد قبل بدء المسعودي برحلاته الى تلك المنطقة، والتي كانت على أيامه محطات تجارية للسفن العربية القادمة من الخليج. أن هذه المعلومات المهمة الخاصة بالطريق التجاري الذي يربط بين الخليج وشرق افريقيا في مرحلته الثانية (أي شواطئ الشرق الافريقي) نجدها بصورة تفصيلية في مدونات البلدانيين العرب الذين كتبوا بعد المسعودي، حيث يقدمون لنا وصفا للمدن الساحلية في افريقيا الشرقية ونشاطها التجاري.

فالادريسي يذكر مدن الساحل الافريقي الشرقي بصورة متتالية، فكأنما يسير على الساحل وينتقل من مدينة الى أخرى محددا المسافات بينها، ثم يشير الجزر المقابلة للساحل مؤكداً في ذلك على النشاط التجاري لهذه المدن والجزر. فهو بعد أن يتكلم عن منطقة بربرة (بربرا) ينتقل الى أرض الزنج حيث يبدأ بوصف مدينة ملندة فيقول:

«مدينة ملندة من بلاد الزنج ثلاثة أيام في البحر بلياليها وملندة على ضفة البحر على خور ماء عذب وهي مدينة كبيرة.. وعندهم معدن حديد يحتفرونه ويعملونه وهو جل مكسبهم وتجارتهم. وفي هذه المدينة الى ممبسة على الساحل مسافة يومين وهي مدينة صغيرة للزنج واهلها محترفون باستخراج الحديد من معدنه والصيد للنمور. وهذه المدينة على البحر وعلى ضفة خور كبير تدخله المراكب مسير يومين.. ومن منبسة الى قرية البايس ستة في البر ومجر أو نصف في البحر.. وهي أخر عمالة الزنج وتتصل بها أرض سفالة»(٧٢)

ثم ينتقل بعد ذلك لوصف مناطق سفالة فيذكر مدنها بقوله: «فنها قرية البايس على الساحل الى مدينة تسمى تهنته ثمانية أيام في البر ومجر ونصف في البحر. وبلاد تهنته ايضا في سفالة»(٧٣).

كما يذكر من مدن سفالة مدينتان حيث يقول: «جنطمة ودندمة وهي على ضفة البحروهما صغيرتان واهلها في ذاتهم قلة وفي انفسهم اذلة وليس بأيديهم شئ يتصرفون به ويعيشون منه الا الحديد، وذلك ان في بلاد سفالة يوجد في جبالها معادن الحديد الكثير واهل جزاير الزابج وغيرهم من ساكني الجزائر المحيطة بهم يدخلون اليهم ويخرجون من عندهم الى ساير بلاد الهند وجزائره

ويبيعونه بالثمن الجيد لان بلاد الهند اكثر تصرفهم وتجاراتهم بالحديد.. وبين جنطمة ودندمة مجريان في البحر، ودندمة هذه أخر قواعد سفالة ويتصل بأرض سفالة ثلاثة مدن احداهما تسمى حيونة لاخيل عندهم وهذه المدينة على خور تدخله المراكب المسافرة اليها ومنها الى مدينة بوخة على الساحل.. ومن مدينة بوخة الى مدينة جنطمة في البحر وبها معادن التبر وفي بلاد سفالة أجمع يوجد التبر»(٧٤)

أن المعلومات التي أوردها الادريسي عن مدن الساحل الافريقي يؤكدها ابن سعيد وابو الفدا الذين ينقلان عنه في الغالب. فابن سعيد وابو الفدا يؤكدان لنا ان (خافوني) الجبل المشهور عند المسافرين في منطقة بربرا هو الذي تستقبله السفن بعد خروجها من جزيرة سوقطرة(٧٥). ثم يتكلم ابن سعيد عن مدينة مقاديشو أول بلاد الزنج مشيراً الى كونها «مدينة الاسلام المشهورة في ذلك الصقع المترددة الذكر على ألسن المسافرين»(٧٦). ثم يذكر ابن سعيد مدن الزنج المشهورة مثل ملندة وممنبسة (ممبصة) وكونها مراكز لحط السفن، ثم ينتقل الى منطة سفالة مشيراً الى مدينة بتينة «وهي على ذيل جوف عظيم يدخل في البحر» ثم يتكلم عن عمائر السفاليين... واكثر معاشهم من الذهب والحديد ولباسهم جلود النمور». ثم ينتهي الى مدينة ليرانة التي يقول عنها «أنها للمسلمين كمقديشو واهلها مجتمعون من الاقطار، وهي بلد حط واقلاع». أما مدينة دغوطة «فهي اخر مدن سفالة واخر العمارة في البر المتصل بهذا البحر»(٧٧)

وبذلك تكون مدينة دغواطة أخر المدن التي تصلها سفن العرب المسلمين حيث نجد بعدها بلاد الواق الوق التي لم تسهم باي نشاط تجاري عربي، حيث يقول الادريسي في ذلك: «ويتصل بارض سفالة ارض الواق واق وبها مدينتا ن حقيرتان وسكانها قليل لضيق عيشها وتكدر رزقها وليس بارض هؤلاء القوم شئ من الذهب ولايخرج من عندهم تجارة ولا مراكب ولا دواب»(٧٨).

وهكذا تصل رحلة الخليج التجارية الى أخر بلاد سفالة لتعود بعدها محملة بمنتجات الشرق الافريقي الى الخليج العربي في الطريق الذي سلكته في ذهابها.

ب. المنتجات الرئيسية المتبادلة بين الخليج وشرق افريقيا:

تكشف مدونات البلدانيين العرب أهمية شرق افريقيا كمصدر لا غنى عنه لمعادن وثروات عدة دخلت في التجارة العالمية المعروفة آنذاك. ومن الممكن القول أن من العوامل التي تحكمت في الاتصال بين الخليج العربي وافريقيا الشرقية، المنتجات الافريقية التي دفعت التجار العرب للوصول الى سواحل افريقيا الشرقية وممارسة نشاطاتهم التجارية في تلك المنطقة، ومبادلة بضائع افريقيا وسلعها مع البضائع التي يحملونها من الخليج والتي يرغب فيها سكان الشرق الافريقي.

يزودنا البلدانيون بصورة عامة باسماء البضائع والسلع الداخلة في التجارة العربية مع افريقيا الشرقية، حيث نجد من بينها الذهب والحديد والعام والعنبر والاخشاب والجلود وما الى ذلك.

يعد الذهب المادة المهمة التي كانت وما زالت اساسا لتهافت الدول في الحصول عليها من أجل دعم مركزها الاقتصادي والسياسي معاً. وقد أدرك التجار العرب ومن بينهم تجار الخليج اهمية شرق افريقيا كموطن لتوفر هذا المعدن الحيوي، فعملوا كل جهدهم في الحصول عليه وحمله الى مراكز الخلافة العربية والاسلامية. فالمسعودي يعطينا صورة مهمة عن هذه المادة واندفاع العمانيين للحصول عليها فيقول اثناء حديثه عن الزنوج وسكانهم في بلاد الزنج: «وتمتد مساكنهم الى بلاد سفالة، وهي أقاصى بلاد الزنج واليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين، وهي غاية مقاصدهم أي أسافل بحر الزنج، وكذلك أقاصي بحر الزنج هو بلاد سفالة، وقاصية بلاد الواق واق، وهي أرض كثيرة الذهب كثيرة العجائب»(٧٩).

وبعد قرنين من الزمن يؤكد لنا الادريسي أهمية هذه المنطقة كمصدر لتجارة الذهب حيث يقول: «ومدينة دغوطة أخر بلاد سفالة، وبهذه المدينة يوجد التبر مثلما يوجد في بلاد سفالة»(٨٠).

وعلى الرغم أن جميع نصوص البلدانيين العرب تؤكد وجود الذهب في منطقة سفالة لاغيرها، فان ابن بطوطة يشير الى ناحية مغايرة بقوله: «ان الذهب يجلب الى سفالة في منطقة يوفي، وان بين سفالة ويوفي من بلادالليميين مسيرة شهر، وفي يوفي يؤتى بالتبر الى سفالة»(٨١). ولكننا للاسف الشديد لا نعرف شيئا عن يوفي وابن بطوطة ولم يوضح هو نفسه اين تقع فهل هي منطقة تابعة لسفالة، أم أنها منطقة في داخل افريقيا الشرقية، ومنها يتم جلب الذهب الى سفالة وبهذا تكون سفالة بموجب الافتراض الاخير مركز تجميع للذهب الوارد اليها من الداخل. ويفترض ترمنكهام(٨٢) ان الذهب ياتي من منطقة الواق واق الى سفالة، بيد ان هذا الافتراض لا يتفق مع نص الادريسي الصريح، الذي اشرنا اليه انفا، والذي يذكر ان منطقة الواق واق منطقة فقيرة لعدم وجود الذهب في أراضيها وتبعا لذلك لا نجد فيها أي تجارة بحرية أو برية(٨٣).

تؤكد جميع النصوص التي بين ايدينا ان التجار العرب يحملون بضائعهم التي يرغب بها سكان منطقة الذهب (سفالة) ليأخذوا بدلها الذهب. ولنترك البلدانيين العرب يصفون لنا طريقة المتاجرة بالذهب بين التجار العرب والزنوج. فياقوت يرى أنها تتم كالاتي:

«والحكاية عنهم (أهل سفالة) كما حكينا عن بلاد التبر بارض جنوب المغرب انهم يجلبون اليهم الامتعة ويتركها التجار ويمضون ثم يجيئون وقد تركوا ثمن كل شئ عنده، والذهب الغالي معروف عند تجار الزنج»(٨٤).

ومعنى ذلك ان الحصول على ذهب سفالة يتم بطريقة «تجارة الذهب الصامتة» التي كانت متعارفة في غرب افريقيا والتي وصفها ياقوت بصورة تفصيلية(٨٥)، ولكن من الملفت للنظر انه لم يصف طريقة أدائها في شرق افريقيا واكتفى بالقول انها تجري بنفس الطريقة التي كانت قائمة في غرب افريقيا.

أما العاج فقد كان من منتجات الشرق الافريقي المهمة، التي جذبت تجار الخليج للاتجار مع تلك

المناطق. ويبدو ان العاج كان متوفرا بكثرة في افريقيا الشرقية التي اعتبرت المصدر الرئيسي لهذه المادة في العصر الوسيط. وفي هذا يسجل لنا المسعودى الاتي: والفيلة في بلاد الزنج في غاية الكثرة، وحشية وكلها غير مستأنسة، والزنج لاتستعمل منها شيئاً في حروب ولا غيرها، بل تقتلها.. لأخذ انيابها، فمن ارضها تجهز انياب الفيلة»[٨٦]. ومعظم عاج الشرق الافريقي كان يصدر الى الخليج العربي، وبالتحديد الى عمان، وفي عمان يعد تصديره الى المناطق التي تطلبه ولاسيا الهند والصين، حيث كان ملوك تلك البلدان يستخدمونه في صناعة ادوات الشطرنج والنرد. وقد امتاز عاج افريقية بجودته وكبر حجمه على ما ذكره المسعودي[٨٧].

تعد مقاديشو أهم مركز في شرق افريقيا يتزود منه التجار العرب بالعاج، ومنها يحمل الى مختلف البلاد[٨٨] كما كانت معظم مدن الساحل الافريقي الشرقي ــ على ما يبدو ــ توفر العاج للتجار الذين يطلبونه حتى اعتبر في بعض المدن الزنجية أهم من الذهب[٨٩].

ويشكل الحديد مادة اساسية أخرى جذبت التجار العرب الى افريقيا الشرقية، التي غدت أهم مصدر الى هذه المادة. ويبدو ان تجارة الحديد كانت قد شهدت ازدهارا كبيرا في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وليس أدل على ذلك مما ذكره الادريسي بقوله:

«وملندة على ضفة البحر.. وهي مدينة كبيرة.. وعندهم معدن حديد يحتفرونه وهو جل مكسبهم وتجارتهم. وفي هذه المدينة الى مدينة منبسة على الساحل مسافة يومين وهي مدينة صغيرة للزنج واهلها محترفون باستخراج الحديد من التربة حيث يكتشف»[٩٠].

وفي المناطق التي توفر فيها الحديد وامتاز بكثرته وجودته في بلاد سفالة، حيث كانت بعض مدن هذه المنطقة (مثل جنطمة ودندمة) تعتمد عليه في معيشتها وتجارتها[٩١] ويستدل مما ذكره الحميري في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي أن صناعة الحديد أصبحت من الصناعات المهمة في شرق افريقيا[٩٢].

كما أشتهرت شرق افريقيا بوجود الانواع الجيدة من المواد العطرية التي نالت شهرة بين العرب. ويعد العنبر من أهم انواع الطيب الذي وفرته بلاد الزنج، فهو ينبت في قصر بحر الزنج كما ينبت القطر والكماة[٩٣].

ويبدو ان سكان شرق افريقيا كانت لهم طرق خاصة بجمعه، وأول من وصف هذه الطرق المسعودي. اذ يذكر ان لاهل السواحل التي يوجد فيها العنبر نجب يركبونها في الليل، ويسيرون بها على الساحل وفي الجزر القريبة منه حيث يتوفر العنبر والذي يكون قد قذفه البحر بفعل الرياح. ويظهر ان هذه النجب كانت مدربة فما أن تحس بوجود العنبر حتى تبرك فيأخذ اصحابها ما يجدونه من العنبر[٩٤] أما الطريقة الاخرى لجمع العنبر فتكون مع اشتداد البحر وقذفه للعنبر من قعره فتبتلعه الحوت المعروفة بالاوال فتموت لحالها وتطفو على الماء. وكانت عادة الزنوج رصد هذه الحيتان، فما أن يروها حتى يرموا حبالهم وكلاليبهم لاصطيادها، ثم يستخرجون العنبر من بطونها[٩٥].

وكان العنبر يصدر عادة الى مناطق الخليج ولاسيا العراق(٩٦)، حيث ازداد طلب الخلفاء والامراء عليه كثيرا لجودة نوعه، ولهذا اصبح مادة مهمة في النشاط التجاري بين الساحل الافريقي الشرقي والخليج العربي. واتجه التجار الى مناطق توفره في شرق افريقيا مثل ماليندي ومقاديشو وغيرها(٩٧).

تعد شرق افريقيا من المواطن الرئيسية لكثرة الحيوانات التي لها سوق رائجة في مناطق مختلفة من اجل استخدامها لشتى الاغراض. فقد توفر في هذه المنطقة النمور والفيلة والزرافات وغيرها. والفيلة ــ كما اسلفنا ــ كانت مرغوبة للحصول على عاجها، كما استخدمت وسيلة لركوب الخلفاء والامراء في الاعياد والمناسبات(٩٨). أما النمور الزنجية وجلودها فقد كانت معروفة لدى التجار، حيث وصفت جلودها على انها من افضل الانواع، واستخدمت لصناعة السروج. أما الزرافات فقد حملت من بلاد الزنج الى الملوك والامراء كهدايا لغرابتها(٩٩).

وأخيرا عرف عن الشرق الافريقي انه مركز مهم لكثير من انواع الاخشاب الثمينة والمرغوبة كالابنوس والصندل والساج التي تنمو في غابات بلاد الزنج. والذي يبدو ان مقاديشو كانت مركزا مهما لتزويد التجار بالاخشاب ولاسيا الصندل والابنوس الذي شكل مادة اساسية في تجارتها(١٠٠). كما صدرت زنجبار خشب الابنوس(١٠١). ويبدو ان السفن العربية كانت تحمل الاخشاب من شرق افريقيا الى الخليج العربي من اجل استخدامه في بناء مدن هذه المنطقة سقوفا للبيوت(١٠٢)، فضلا عن استخداماته المعروفة الاخرى.

اما عن المواد التي يحملها التجار العرب من الخليج العربي الى الشرق الافريقي ليبادلونها بالمنتجات التي ذكرناها باعتبارها تكون الركن الثاني الذي كان يتحكم في النشاط التجاري بين الجانبين، فلا نجد لها اى ذكر في كتب البلدانيين العرب. ولعل العذر في ذلك انها معروفة بالنسبة للتجار واصحاب المراكب في ذلك العصر.

٣ ــ النظم البحرية والتجارية:

ان النشاط التجاري بين الخليج والشرق الافريقي الذي قام على تبادل منتجات الطرفين المتنوعة، تطلب اتباع نظم وتقاليد بحرية وتجارية متطورة لتنظيم هذا النشاط. فالرحلة التجارية الطويلة بين الخليج العربي وشرق افريقيا اقتضت من التجار وربانية السفن معرفة مراحل هذا الطريق اولا ولعوامل التي تتحكم فيه والمخاطر التي تجابه السفن التجارية ثانيا.

سبق ان أشرنا بصورة تفصيلية الى مراحل هذا الطريق. أما الجانب الثاني من الامر فيمثل العوامل والمخاطر التي تتحكم في الرحلة التجارية بين الخليج وشرق افريقيا. واهمها معرفة الرياح الموسمية التي تسير بموجبها السفن التجارية سواء في الخليج أو في بحر الزنج وفي هذا يقول المسعودي: «ولكل من يركب هذه البحار من الناس رياح يعرفون في اوقات تكون منها مهابها، قد علم ذلك

بالعادة وطول التجارب يتوارثون علم ذلك قولا وعملا، ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها آبان هيانه واحوال ركوده وثوراته»(١٠٣). ثم يتحدث عن الرياح الموسمية واتجاهاتها وكيف ان اصحاب السفن في أهل الخليج يعرفون ان الرياح تهب في موسمين: في الشتاء تندفع الرياح باتجاه الجنوب الغربي فتخرج السفن من الخليج الى شرق افريقيا وتستمر هكذا لمدة ستة أشهر، أما في الصيف فتندفع الرياح باتجاه شمالي شرقي بحيث تمكن السفن العربية من العودة من شرق افريقيا الى أوطانهم في الخليج(١٠٤). وهكذا استطاع تجار الخليج العربي بفضل هذه المعرفة والمعرفة الفلكية من الوصول الى سواحل الشرق الافريقي بسلام.

كان من الضرورات التي يعرفها التجار والملاحون الذين يزاولون نشاطهم التجاري بين الخليج وشرق افريقيا وجود المخاطر عبر الطريق البحري. فالسفن التجارية الخارجة من منطقة البصرة والاتية عبر الخليج تلاقي في طريقها المنعطفات الضيقة والصعبة والهوارات الكثيرة وكثرة اللصوص. وقد تحدث عدد من البلدانيين العرب عن هذه المخاطر وكيفية التغلب عليها. فابن حوقل، الذي ينقل عن الاصطخري، يشير من خلال حديثه عن الخليج العربي قائلا: وفي هذا البحر هوارات كثيرة ومعاطف صعبة وأجوان مختلفة وأشدها ما بين جناية والبصرة فانه مكان يسمى هور جنابة وهو مكان مخوف لا يكاد تسلم منه سفينة في هيجان البحر(١٠٥).

وضعت الحلول لمجابهة هذه المخاطر، فقد تم انشاء برج أو فناء من الخشب اطلق عليه البلدانيون اسم «الخشبات» في منطقة البصرة، وهو عبارة عن اربع خشبات منصوبة قد بني عليها مرتب يسكنه ناظور يوقد بالليل يهتدى به، ويعلم به المدخل الى الاجلة، واذا ضلت السفينة فيه خيف انكسارها لرقة الماء(١٠٦). واذا انحدرت السفن التجارية في مياه الخليج فعليها ان تتجنب هجمات اللصوص والقراصنة، ولذلك فان السفن كانت، في اغلب الاحيان، تحمل المقاتلين والنفاطين رداً لهذه الهجمات(١٠٧).

لاتقل المخاطر التي تجابه حركة السفن التجارية في مرحلتها الثانية بين الخليج وشرق افريقيا، ونقصد بذلك رحلتها في بحر الزنج، صعوبة عن المرحلة الاولى، حيث تظهر الامواج العالية والاهوال التي لا تحصى فيه. ويصف المسعودي امواج هذا البحر بأنها عظيمة كالجبال الشواهق، وان ارباب المراكب من أهل الخليج العربي ولاسيا العمانيين، يقولون عنه «أنه موج اعمرا يريدون بذلك انه يرتفع كارتفاع الجبال، وينخفض كأخفض ما يكون من الاودية، لا ينكسر موجه، ولايظهر من ذلك زبد، كتكسر سائر البحار، ويزعمون انه موج مجنون»(١٠٨) ويبدو أن هذه الاحوال قد أتت على الكثير من السفن الخليجية التي ركبت بحر الزنج، وقد اكد ابن سعيد في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي هذه الاهوال والمخاطر التي تجابه السفن في بحر الزنج(١٠٩) ولكن هذا الامر لم يثن التجار العرب من المتاجرة مع شرق افريقيا محاولين التغلب على صعابه بالمعرفة والتجربة الطويلة.

ومن الجدير بالملاحظة، ان الحركة التجارية بين الخليج العربي وشرق افريقيا تطلبت تأمين مناطق وقوف للسفن التجارية ومراكز لتجميع البضائع واماكن آمنة يمكن للتجار العرب للجوء في الفترة الواقعة بين موسمي الرياح الموسمية، وهذا ما سنحاول التطرق اليه من خلال الاشارة الى محطات الوقوف في شرق افريقيا ومن ثم ما يقابلها في الخليج العربي.

كانت جزيرة قنبلو اقدم محطة تجارية لجأ اليها تجار الخليج العربي باعتبارها مركز وقوف لهم للانطلاق الى سفالة الزنج وربما مركز لتجميع البضائع التي يراد حملها بعد ذلك الى الخليج العربي(١١٠) حتى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. أما بعد ذلك فقد حلت مقاديشو محلها مركزا لوقوف السفن التجارية،يمكث فيها التجار العرب فترة محدودة ويمارسون نشاطهم التجاري لحين مغادرتهم للسواحل الافريقية. وربما اكتسبت هذه المدينة اهميتها باعتبارها مدينة كبيرة لاستقبال التجار في ساحل بلاد الزنج، كما اشرنا انفا. ومنذ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي اصبحت مدينة مقاديشو مركزا ومحطة تجارية مهمة للتجار العرب، حيث يذكر ابن سعيد، نقلا عن الرحالة ابن فاطمة الذي زار هذه المدينة «انها مدينة الاسلام المشهورة في ذلك الصقع والمترددة الذكر على ألسن المسافرين وهي مقديشو»(١١١). ويضيف ايضا «واهلها مجتمعون من الاقطار، وهي بلد حط واقلاع»(١١٢). ليس هناك افضل من شهادة ابن بطوطة عن المكانة التي كانت تتمتع بها هذه المدينة في الساحل الافريقي الشرقي.

احتفظت مدينة مقديشو بمكانتها التجارية ــ كما يبدو ــ في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. فابن بطوطة الرحالة العربي المشهور الذي زار هذه المدينة واقام فيها مدة من الزمن يشير بعد ان يصفها بانها مدينة متناهية الكبر، وان «اهلها تجار اقوياء»، وان المراكب تصل الى مرساها باستمرار ومن مختلف الاقطار، وان حكام هذه المدينة وسكانها كانوا دائما مستفيدين لاستقبال السفن التجارية وما تحمله من بضائع وسلع، ولهم في ذلك تقاليد خاصة(١١٣).

ومن المراكز التجارية المهمة التي تتوقف فيها السفن ممباسا، ويسميها الكتاب العرب (منبسة) ويبدو ان وقوعها على ضفة خور كبير قد سهل دخول السفن التجارية اليها(١١٤) ومع اننا لانريد ان نخوض هنا في جميع المحطات والمراكز التجارية التي تتوقف عندها السفن التجارية العربية لشراء بعض البضائع أو للراحة أو للتزود بما تحتاج اليه وما الى ذلك، وهي من المؤكد نفس المدن والمراكز التي وصفها في مراحل الطريق التجاري بين الخليج وشرق افريقيا التي اشرنا اليها، فاننا في الوقت نفسه نشير الى اخر محطة تجارية يقصدها التجار العرب ويستقرون فيها ردحا من الزمن من أجل جمع البضائع المتوفرة فيها، ونقصد بذلك منطقة سفالة بمدنها المتعددة. ولعل المسعودي كان أول من أشار الى وصول تجار الخليج ولاسيا العمانيين، الى بلاد سفالة الواقعة في اقاصي بلاد الزنج. وكان غرض التجار في قيادة مراكبهم الى تلك المنطقة هو الحصول على الذهب الذي يعد اول منتجات المنطقة

واهمها فضلا عن الحديد. ويبدو ان التجار العرب كانوا يعرفون المدن السفاليية التي تعد مراكز لتجميع الذهب الذي يحمل من مناجمه، واهم هذه المدن هي بتينه وجنطمة وبوخة وبسطة ودغواطة(١١٥).

أما أهم المحطات والمراكز التجارية الواقعة على الطريق التجاري الذي يربط الخليج بشرق افريقيا في مرحلته الاولى، والتي كانت تتلقى البضائع الواردة الى الخليج وتخزنها من اجل تصديرها الى بلدان العالم المختلفة فنذكر منها على سبيل المثال عمان والبصرة. فقد عرفت عمان بخصوصيتها في النشاط التجاري بين الخليج وشرق افريقيا، باعتبارها قاعدة الخليج التي تستقبل السفن القادمة اليه والذاهبة منه الى مختلف الاقطار. وقد تكلم معظم البلدانين العرب عن نشاط عمان التجاري، باعتبارها تتمتع بموقع استراتيجي يجعلها محطة تجارية في التجارة الذاهبة والقادمة من شرق افريقيا(١١٦).

وكانت البصرة الواقعة في رأس الخليج العربي الشمالية من الموانئ الرئيسية المهمة في الخليج لمكانتها التجارية حيث اعتبرها اليعقوبي «مدينة الدنيا ومعدن تجارتها واموالها»(١١٧). وهي على حد قول المقدسي «فرضة البحر ومطرح البحر»(١١٨). وهكذا فان موقع البصرة الاستراتيجي قد جعلها اشبه بمجمع تسويقي تخزن فيه البضائع الواردة التي تحملها السفن من الاقطار المختلفة وفي مقدمتها شرق افريقيا ليعاد توزيعها على المراكز التجارية التي تطلبها. والى جانب ذلك فان البصرة تعد أول محطة تجارية تنطلق منها السفن الخليجية في رحلتها الى شرق افريقيا لتعود محملة بالذهب والعاج والعنبر والاخشاب الثمينة.

لابد ونحن بصدد التنظيمات الخاصة بالنشاطات التجارية بين الخليج العربي وشرق افريقيا من الاشارة الى ان السفن التي تنقل البضائع من شرق افريقيا واليها كانت مراكب يمتلكها عرب الخليج وهذا ما أكدته لنا نصوص البلدانين(١١٩) فالادريسي يشير الى ذلك بصورة صريحة بقوله: «وليس للزنج مراكب يسافرون فيها وانما تدخل اليهم المراكب من عمان وغيرها... فيبيعون هناك متاعهم ويشترون متاع الزنج»(١٢٠). وكان يقود هذه المراكب عادة ربانية عرب متخصصون بالسفر الى شرق افريقيا نظراً لطبيعة بحر الزنج وهواله التي سبق الحديث عنها. أما ملكية هذه المراكب فاما انها كانت تعود الى تاجر هي وحمولتها(١٢١)، أو انها تستأجر من مالكها ويكون عادة ربانية السفن المشهورين في السفر بين الخليج وبلاد الزنج(١٢٢).

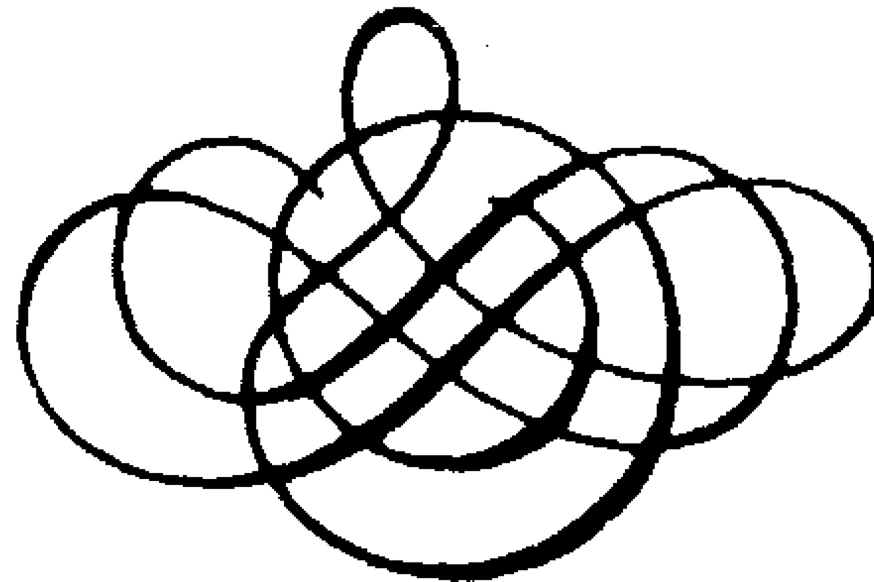
ومن التنظيمات التجارية الجديرة بالذكر ان التجار العرب القادمين الى مدن الساحل الافريقي الشرقي يجدون فيها من المرشدين أو الوكلاء المحليين الذين يساعدونهم في اقامتهم وتصريف بضائعهم وشراء ما يريدون. ولعل ما شاهده ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي في مدينة مقديشو خير ما يوضح لنا ذلك، فهو يقول:

«ما أن يعلم أهل مقديشو بوصول سفينة الى ميناء قديشو، حتى يرسلوا الصناديق وهي القوارب

الصغار اليها، وفي كل واحد منها جماعة من أهل مقديشو، يصعدون الى المراكب ومع كل واحد منهم طبق فيه الطعام يقدمه الى احد تجار السفينة القادمة، ولا يكتفي بذلك، بل يدعوه الى النزول عنده، وهكذا يغادر كل تجار في السفينة الى دار نزيله من سكان مقديشو، وتكون مهمة النزيل عادة مساعدة التاجر في بيع ما عنده اولا، ثم مساعدته في شراء ما يريده ثانيا. ويخبرنا ابن بطوطة ــ ان هذه العادة لا تتبع مع التاجر كثير التردد على مقديشو، بسبب معرفته بها وباهلها، حيث تترك له حرية النزول حيث يشاء»(١٢٣)

ويبدو ان حاكم مقديشو كان هو الاخر يهتم بشأن السفن التجارية القادمة الى مدينته، فهو الاخر كان يرسل صندوقه لدى وصول اية سفينة للسؤال عن المكان الذي قدمت منه، ومن هو ربان السفينة وصاحبها، وما هي نوع البضاعة التي تحملها، ومن هم التجار القادمون فيها، فاذا تم لهم معرفة ذلك، فانه يدعو من يستحق النزول عنده الى ضيافته(١٢٤)، ولم يشر ابن بطوطة الى أوصاف الشخص الذي ينال ضيافة السلطان، هل هو اغنى التجار، أم هل هو حامل البضائع التي يرغب فيها حاكم مقاديشو، أو انه صاحب معرفة بالسلطان أو غير ذلك من الاوصاف، وهكذا نجد في اعراف اهل مقاديشو التجارية ما يدل على وجود تقاليد ورسوم معروفة لمن مارسوا النشاط التجاري مع شرق افريقيا.

وهكذا تعكس لنا صفحات هذا البحث صورة عن اهم ما احتو ته مدونات البلدانيين العرب من معلومات عن العلاقات التجارية بين الخليج العربي وشرق افريقيا. وبالرغم من ان معلوماتهم في هذا المجال كانت في كثير من الاحيان قليلة وربما ناقصة، فان ذلك لم يمنعنا من رسم صورة مناسبة لطبيعة تلك العلاقات على ضوءما ذكره البلدانيون العرب. كما ان ما اورده هؤلاء من معلومات يدل على قدم وسعة العلاقات التجارية بين الجانبيين وعمقها. تلك العلاقات التي كانت ذات أثر كبير ليس فقط في نشر العقيدة الاسلامية بين سكان الشرق الافريقي، وانما في الاستقرار المؤقت أو الدائم للتجار العرب في المراكز التجارية في افريقيا الشرقية، وما تبعه من متغيرات واسعة في الاوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في المنطقة.



هوامش البحث

١. سبنسر ترمنكهام، الاسلام في شرق افريقيا، ترجمة احمد عاطف النواوي (القاهرة، ١٩٧٣) ص٣٥.

٢. أبو الحسن حسن بن الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة، ١٩٦٤)، ج١، ص١١٥، انظر ايضا محمد عبد الغنى سعودي، الاتصالات العربية الافريقية في العصور القديمة، في: العلاقات العربية الافريقية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة، د.ت)، ص ص ٢٤— ٢٦.

٣. جمال زكريا قاسم، استقرار العرب في ساحل شرق افريقيا، حوليات كلية الاداب، جامعة عين شمس، المجلد العاشر (١٩٦٧) ص٢٨١.

٤. خولة شاكر الدجيلي، العلاقات العربية الاسلامية مع الساحل الافريقي الشرقي حتى القرن التسع الهجري، رسالة دكتوراه غير منشوره من جامعة بغداد، كلية الاداب، ١٩٨٠، ص١٤٠.

٥. للتفاصيل انظر: ج.س. ولكنس، بنو الجلندي في عمان (عمان، ١٩٨٢) ص٥.

٦. عامر محمد الحجري، تاريخ العلاقات العمانية الافريقية، بداية التواجد، العماني في شرق افريقيا، مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية (الدوحة، قطر، ١٩٧٦) ص ص ٧٧٦ — ٠٧

٧. تاريخ عمان: كشف الغمة الجامع لاخبار الامة، تحقيق عبد المجيد حسيب القيس، عمان، ١٩٨٠) ص٤٢.

٨. أحمد حوده المعمري، عمان وشرقي افريقيا، ترجمة محمد أمين عبد الله (عمان، ١٩٧٩) ص٤٣.

٩. قاسم، استقرار العرب في ساحل شرق افريقيا، ص٢٨٧.

١٠. محمد محمد أمين، تطور العلاقات العربية الافريقية في العصور الوسطى في العلاقات العربية الافريقية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة د.ت، ص٤٨.

١١. جمال زكريا قاسم، الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية، القاهرة ١٩٧٥، ص٦١، انظر ايضا:

A. Warner, "ASanili History of Pate" Journal of AFrican Society, Vol. xiv, 1913, p.153

١٢. قاسم، استقرار العرب في ساحل شرق افريقيا، ص ص ٣١٢ — ١٤.

١٣. لقد توالت هجرات عدد من الاسر العمانية الى شرق افريقيا بحيث استطاعت السيطرة على هذا الساحل

للتفاصيل انظر: نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان، القاهرة ١٣٤٧، ج٢، ص٩٨، ٢٢٠، مبارك بن علي الهنائي، العمانيون وقلعة ممباسا، عمان ١٩٨٠، ص ص ١٥ — ٦، قاسم، استقرار العرب، ص ص ٣١٤ — ٦.

١٤. ابو القاسم بن حوقل. كتاب صورة الارض، بيروت، د.ت، ص٦٣، قاسم الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية، ص٥،

S.Trimingham, Notes on Arabic Souvces of information of East Africa in: East Africa and the orient, ed. by H.Neville chittick and Robert t. Rotberg. African Publishing Company, Newyark, 1975, (Appendix t), p.273.

١٥. أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة، المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩، ص٦.

١٦. أبو زيد السيرافي، اخبار الصين والهند حتى كتاب (من رحلات العرب)، بيروت، ١٩٧٤، ص٧٤.

١٧. المسعودي، المصدر السابق، ج١، ص٣١٨، سليان التاجر، أخبار الصين والهند ضمن كتاب (من رحلات العرب)، بيروت، ١٩٧٤، ص٢٢.

١٨. جورج فضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨، ص ص ٢٢٩ ــ ٣٠.

١٩. اغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، القاهرة ١٩٦٣، ج١، ص ص ١٨٣ ــ ٥.

٢٠. J.S Trimingham, "The Arab Geographers and East African Coast in: East Africa and the Orient, ed.by Chitticls and Rotberg(Newyork, 1975), pp. 129- 30, Chittick, "The Peapling of the East African Coast, in: East Africa and the Orient, p. 23.

٢١. المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص١٠٨.

٢٢. T. Lewicici, Arab external Sources for the history of Africa to the South of Sahara (Waroclaw, 1969) pp. 38- 9

٢٣. ابن حوقل، المصدر السابق، ص٦٣، كراتشكوفسكي، المصدر اليسابق، ج١، ص٢٠٣.

٢٤. انظر د.ج. لاندن، عمان منذ ١٨٥٦ مسيرا ومصيرا، ترجمة محمد أمين عبد الله، عمان، ١٩٧٠، ص ص ١٩ ــ ٢٠.

٢٥. انظر ابو عبيد الله بن عبد العزيز البكري، المسالك والممالك، مخطوطة، مصورة محفوظة في مكتبة الدراسات العليا في كلية الاداب/ جامعة بغدادرقم ١٢٦٠، وهي نسخة مصورة عن نسخة مكتبة نور عثمانية في اسطنبول تحت رقم NO. 3034، ج٢، ورقة ١٨٧أ. والحقيقة اننا اعتمدنا هذه المخطوطة لان فيها معلومات كثيرة عن شرق افريقيا لاتوجد اطلاقا في كتاب البكري المنشور.

٢٦. البكري، المصدر نفسه، ورقة ١٨٧أ.

٢٧. كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ج١، ص٢٨٧.

٢٨. ابو عبد الله محمد بن محمد الشريف الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، نسخة مصورة بالفوتستات عن نسخة بروليان ــ اكسفورد، محفوظة في مكتبة المجمع العلمي العراقي رقم (١٥ ــ جغرافية)، ورقة ٦٠. وتمتاز هذه النسخة المخطوطة لكتب الادريسي ــ حسب علمنا ــ بان فيها من المعلومات عن شرق افريقيا ما لم يتوفر في النسخ المنشورة الاخرى.

٢٩. Lewicki, op. Cit, p. 65

٣٠. الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٢.

٣١. كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ج١، ص ص ٣٣٤ ــ ٥.

٣٢. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، دار بيروت، ١٩٥٥ ــ ١٩٥٩، ج٥، ص١٧٣.

٣٣. كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ج١، ص ص ٣٥٨ ــ ٩.

٣٤. أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافية، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت، ١٩٧٠، ص٦٣، (المقدمة).

٣٥. تاريخ الادب الجغرافي العربي، ج١، ص ٤٢١.

٣٦. محمد بن عبد الله اللواتي المعروف بابن بطوطة، تحفة الانظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، تحقيق علي

المنتصر الكتاني، بيروت، ١٩٧٩، ج١، ص١٦.

٣٧. ابن بطوطة، المصدر نفسه، ج١، ص ص ١٨٠ ــ ٨٢.

٣٨. المسعودي، المصدر السابق، ج٢، ص٦، ١١٠، الاصطخري، المسالك والممالك، ص١٩، ابن حوقل، المصدر السابق، ص٤٩، البكري، المصدر السبق، ج٢، ورقة ١٨٧ب، ١٨٨أ.

٣٩. مروج، ج١، ص ١٠٧.

٤٠. المصدر نفسه.

٤١. ابن سعيد، المصدر السابق، ص٨٢، انظر ايضا شمس الدين ابن عبد اللهمحمد بن ابي طالب الانصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، لديبزك، ١٩٢٣، ص١١١.

٤٢. معجم، ج٢، ص ١٠٦.

٤٣. ياقوت الحموي، معجم، ج٥، ص١٧٣، زكريا بن محمد بن محمود القزويني، اثار البلاد واخبار العباد، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٠، ص٦٢.

٤٤. ياقوت المصدر السابق، ج٣، ص ٢٢٤، المسعودي، المصدر السابق، ج٢، ص٦.

٤٥. مروج الذهب، ج٢، ص٦.

٤٦. المصدر نفسه.

٤٧. نزهة المشتاق، ورقة ٥٢.

٤٨. المصدر نفسه، الورقات ٥٢ ــ ٣.

٤٩. المصدر نفسه، ورقة ٥٣.

٥٠. شيخ الربوة، المصدر السابق، ص ١١٤.

٥١. الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٧٠.

٥٢. المسعودي، المصدر السابق، ج١، ص ١٠٧.

٥٣. الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٢، ابن سعيد، المصدر السابق، ص ٨٣.

٥٤. ابن سعيد، المصدر نفسه.

٥٥. نزهة المشتاق، ورقة ٧٠.

٥٦. أبو علي أحمد بن عمر بن رسته، كتاب الاعلاق النفسية، ليدن، بريل، ١٨٩/٢، ص٨٦. ابو بكر احمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢، ص١١.

٥٧. لاندن، المصدر السابق، ص٢١، نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت، ١٩٦٢، ص٢٢٤، عبد الجبار ناجي، العلاقات التجارية بين البحرين والعراق خلال العصر الوسيط، مجلة الوثيقة (البحريينة) العدد السادس، السنة الثالثة، يناير ١٩٨٥، ص١٠٨.

٥٨. مروج الذهب، ج١، ص ٣٠٨.

٥٩. ابن حوقل، المصدر االسابق، ص٤٧، ناجي، المصدر السابق، ص ص ١١٧ ــ ٨.

٦٠. المسعودي، المصدر السابق، ج١، ص١١٠، ابن الفقيه، المصدر السابق، ص١١، ابن حوقل، المصدر السابق، ص١٦، البكري، المصدر السابق، ج١، ورقة ٦٧أ، ١١٥أ.

٦١. مروج الذهب، ج١، ص ١١.

٦٢. المسالك والممالك، ج١، ورقة ٦٧أ.

٦٣. ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة، المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩، ص ص ٦٠ — ٦١، الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٣، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بابن الفداء، تقويم البلدان، تحقيق البارون ماك كوكين ديسلان، باريس ١٨٤٠، ص ص ١٥١ — ٥٢.

٦٤. المسعودي المصدر السابق، ج١، ص ١٠٧، ابن سعيد، المصدر السابق، ص٨١، ابن بطوطة، المصدر السابق، ج١، ص ٢٨٣.

٦٥. سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان في امجادها البحرية، عدد٨ (عمان، ط٢، ٩٨٠) ص ص ٦٨ — ٧٠.

٦٦. الادريسي، المصدر السابق، الاوراق، ٥٢، ٦٠، ٧٠.

٦٧. المسالك والممالك، ص ص ٦٠ — ٦١.

٦٨. مروج الذهب، ج١، ص ص ١٠٧ — ٨.

٦٩. مروج الذهب، ج١، ص ٩٨.

٧٠. Trimingham, The Arab geographers and the East African Coas, pp. 129-36

٧١. Ibid, P. 136

٧٢. نزهة المشتاق، الورقات، ٥٢ — ٥٣.

٧٣. المصدر نفسه، ورقة ٥٣.

٧٤. المصدر نفسه، ورقة ٦٠.

٧٥. الجغرافية، ص٨١، تقويم البلدان، ص ١٥١.

٧٦. الجغرافية، ص ٨٢.

٧٧. ابن سعيد، المصدر نفسه، ص ص ٨٣ . ٥، ابو الفداء، المصدر السابق، ص ١٥٢.

٧٨. نزهة المشتاق، ورقة ٧٠.

٧٩. مروج، ج٢، ص٦.

٨٠. نزهة المشتاق، ورقة ٧٠.

٨١. رحلة ابن بطوطة، ج١، ص٢٨٣.

٨٢. Trimingham, The Arab geographers, p.20 ويبدو ان ترمنكهار يبني افتراضه هذا بوجود مناجم الذهب في شرق افريقيا على اشارة ابن الفقيه الى «ذهب واق واق».

٨٣. نزهة المشتاق، ورقة ٧٠.

٨٤. معجم البلدان، ج٣، ص٢٢٤.

٨٥. المصدر نفسه، ج٢، ص ص ١٢ — ٣.

٨٦. مروج الذهب، ج٢، ص ٦.

٨٧. المصدر نفسه، ج٢، ص٦، انظر ايضا البكري، المصدر السابق، ورقة ١٨٨أ.

٨٨. ياقوت، المصدر السابق، ج٥، ص١٧٣، القزويني، المصدر السابق، ص٦٢.

٨٩. ابن بطوطة، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٨٤.

٩٠. نزهة المشتاق، ورقة ٥٢.

٩١. المصدر نفسه، ورقة ٦٠، ابن سعيد، المصدر السابق، ص٨٣.

٩٢. محمد عبد المنعم الحميري، كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، بيروت، ١٩٧٥، ص٥٥٢، ٥٥٤.

٩٣. المسعودي، المصدر السابق، ج١، ص١٥١، ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص٦١، البكري المصدر السابق، ج١، ورقة ١١٥أ.

٩٤. مروج الذهب، ج١، ص ١٥٠.

٩٥. المصدر نفسه، ج١، ص ص ١٥٠ — ١، انظر ايضا البكري، المصدر السابق، ج١، ورقة ١١٥أ.

٩٦. المسعودي المصدر السابق، ج١، ص ١٥١، البكري، المصدر السابق، ج١، ورقة ١١٥أ.

٩٧. ياقوت، ج٥، ص١٧٣، القزويني، المصدر السابق، ص٦٢.

٩٨. المسعودي المصدر السابق، ج٢، ص١٢.

٩٩. المصدر نفسه، ج٢، ص٤، البكري، المصدر السابق، ج١، ورقة ١٨٨أ.

١٠٠. ياقوت، المصدر السابق، ج٥، ص١٧٣، القزويني، المصدر السابق، ص٤٤.

١٠١. شيخ الربوة، المصدر السابق، ص ١٦٢.

١٠٢. ياقوت، المصدر السابق، ج٥، ص١٩٣، ابو الفداء، المصدر السابق، ص٣٢٧.

١٠٣. مروج، ج١، ص١١٢.

١٠٤. المصدر نفسه، ج١، صص ١١٥ — ٦.

١٠٥. صورة الارض، ص ٥٢.

١٠٦. المصدر نفسه، ص٥٢، المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ليدن، ١٩٠٦) ص١٢، المسعودي، المصدر السابق، ج١، ص١٤٩.

١٠٧. القدسي، المصدر السابق، ص١٢، الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٥.

١٠٨. مروج الذهب، ج١، ص ١٠٧.

١٠٩. الجغرافية، ص ص ٨١ .٤٠.

١١٠. المسعودي، المصدر السابق، ج١، ص ٩٨، ١٠٧ — ٨.

١١١. الجغرافية، ص ٨١.

١١٢. المصدر نفسه، ص ٨٤.

١١٣. رحلة ابن بطوطة، ج١، ص ص ٢٧٩ . ٨٠، انظر ايضا شيخ الربوة، المصدر السابق، ص ٢٦٩.

١١٤. الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٢، ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٢٨٣.

١١٥. المسعودي المصدر السابق، ج١، ص١٧، الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٢. ابن سعيد، المصدر السابق، ص٨٣، ابن بطوطة، المصدر السابق، ج١، ص٢٨٣.

١١٦. المسعودي، المصدر السابق، ج٢، ص ص ٦ — ٧، ابن حوقل، المصدر السابق، ص ص ٥٤ — ٥، المقدسي، المصدر السابق، ص٩٢، البكري، المصدر السابق، ج١، ورقة ١٨٧أ ب، الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٥، ابن بطوطة، المصدر السابق، ج١، ص ٢٨٥.

١١٧. البلدان، ص ٣٢٣.

١١٨. احسن التقاسيم، ص ١٢٨.

١١٩. المسعودي، المصدر السابق، ج١، ص ١٠٧، الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٣.

١٢٠. نزهة المشتاق ورقة ٥٣.

١٢١. ابن بطوطة، المصدر السابق، ج١، ص٢٦٧.

١٢٢. المسعودي، المصدر السابق، ج١، ص١٠٨.

١٢٣. الرحلة، ج١، ص ٢٧٩.

١٢٤. المصدر نفسه، ج١، ص ٢٨٠.



ابن ماجد
دوره في اكتشاف طريق الهند البحري
ومظاهر التفكير العلمي في كتاباته

دكتور/ حسام الخادم
بالمركز القومي لتاريخ العلوم
جامعة بروكسل ـ بلجيكا

ان دور رجل البحار والفلكي شهاب الدين احمد ابن ماجد (ولد بجلفار ـ رأس الخيمة ـ حوالي ٨٣٩هـ سنة ١٤٣٥م، وتوفى بعد ٩٠٦هـ/ ١٥٠١م) في اكتشاف البرتغاليين لطريق الهند البحري، والنتائج السياسية والاقتصادية التي أعقبت ذلك الاكتشاف مازالت حتى الان تثير اهتمام ومناقشة الباحثين والمؤرخين.

في نفس الوقت نظراً لاهمية اكتشاف البرتغاليين لطريق الهند وما تبع ذلك من تغيير اقتصادي ودبلوماسي وعسكري فان الدراسات التي خصصت لابن ماجد غالباً ما تركزت حول حقيقة علاقته بالبرتغاليين وارشاده لفاسكو دي جاما ١٤٦٠م ـ ١٥٢٤م الى طريق الهند البحري، واغفلت الاهمية العلمية لكتاباته خصوصاً في مجالي علم الملاحة وعلم الفلك ومكانته في تاريخ العلوم عند العرب.

لذلك سنتناول في هذا البحث نقطتين:

الأولى: علاقة ابن ماجد باكتشاف البرتغاليين للطريق البحري للهند وذلك تمهيداً لمناقشة دراسة جديدة عنه ظهرت في البرتغال سنة ١٩٨٣م.

الثاني: بيان بعض مظاهر التفكير العلمي في كتابات ابن ماجد في علم الملاحة وعلم الفلك..

في السابع من شهر مايو (أيار) سنة ١٤٨٧ ترك بيرو داكو فيلاوو Pero da Covilhao وافنسو دي بايفا Alfonso da Paiva ميناء سانتا ريم بعد ان كانا قد كلفا من قبل جان الثاني (١٤٥٥ ـ ١٤٩٥) ملك البرتغال بالقيام ببعثة بحرية لمحاولة اكتشاف طريق التوابل وزيارة بلاد الحبشة. لقد كان بيرو داكوفيلاوو ملما باللغة العربية التي يرجع انه كان قد تعلمها اثناء

اقامته في شمال افريقيا وبالتحديد في تلمسان وفاس حيث كان يقوم هناك بدور الممثل الرسمي لملك البرتغال.

كانا هذان المبعوثان يستعملان اثناء هذه الرحلة خريطة للعالم من رسم فرا مورو **Fra Mauro** الراهب في مدينة البندقية. هذه الخريطة تحمل تاريخ سنة ١٤٦٠، وقد كانت متميزة بدقة معلوماتها فيا يتعلق ببلاد الحبشة وشرق افريقيا عموما. سبب ذلك هو ان المبشرين والرحالة خلال القرن الخامس عشر كانوا قد جمعوا قدراً لابأس به من المعلومات على جانب كبير من الدقة فيا يختص بهذه المنطقة، بجانب ذلك هذه الخريطة قد أضافت الكثير من المعلومات الجغرافية التي لم تكن معروفة سابقاً عن هذا الجزء من افريقيا.

أما بخصوص شبه جزيرة العرب فهي متميزة عما سبقها من خرائط بعدة نقاط منها الشكل العام لشبه الجزيرة كان صحيحاً تقريباً برغم ان التفاصيل الداخلية قد بقيت ــ كما هو الحال في الخرائط السابقة ــ تكاد تكون غير معروفة. فقط مكة والمدينة المنورة توجدان في موقعهما الصحيح. أما فيا يتعلق بالخليج العربي فالخريطة أقل دقة بكثير فشرق الخليج مثلا هو نسخة من خريطة بطليموس (١٠٠م ــ ١٧٠م).

بيرو دا كوفيلاوو، وأفنسو دا بايفا ابحرا على ظهر سفينة برتغالية الى مصر وبعد وصولهم الى الاسكندرية اتجها الى القاهرة بصحبة مجموعة من المغاربة من فاس وتلماس كانوا في طريقهم الى عدن،ثم من قلزم (السويس)ابحر البرتغاليون مع من صحبهم من هؤلاء المغاربة الى عدن. في عدن افترق الرحالان داكوفيلاوو، ودا بايفا.. دا بايفا رحل وحده قاصداً الحبشة ولكنه مات في الطريق، بينا داكوفيلاوو ذهب من عدن الى الهند على ظهر سفينة عربية حتى وصل الى كانانور بعد رحلة دامت شهراً كاملا.. هذه السفينة كانت عائدة الى الهند بعد ان كانت قد حملت حجيج مسلمين من الهند الى مكة. أثناء رحلته البحرية هذه بيرو داكوفيلاوو كان قد تعلم من البحارين العرب على ظهر السفينة مبادئ الابحار في المحيط الهندي بالاعتماد على مواسم الرياح. بعد وصوله الى الهند داكوفيلاوو قد قام بزيارة المدن الآتية: كانانوا وكالكوت وجوا. هذه الزيارة وقعت عشر سنوات قبل زيارة فاسكو دي جاما.. بالاضافة الى ذلك داكوفيلاوو كان قد رجع من الهند مباشرة الى ساحل افريقيا الشرقي، وبالتحديد سفالهو ثم من سفالة على ظهر سفينة عربية ايضا طوال ساحل افريقيا حتى السويس ومنها الى القاهرة.

حسب شهادة فرانسسكو الفاريس، داكوفيلاوو قد أعطى للملك في هذا التقرير وصفاً تفصيلياً للساحل الشرقي لافريقيا ذكر فيه المدن التي يمكن منها عبور المحيط بسهولة الى كاليكوت. وهناك احتمال كبير بان هذا التقرير كان قد وصل فعلا للملك حيث كان قد اتخذ بعد ذلك أساسا لخط السير الذي التزمه فاسكو دي جاما في رحلته بعد ذلك وبعد وصول داكوفيلاوو الى الحبشة بفترة قصيرة حدد ملك الحبشة اقامته هناك ولم يسمح له بالرجوع مرة اخرى الى البرتغال.

هكذا قضى بقية حياته في الحبشة وتوفى هناك... واثناء اقامته في الحبشة كان قد التقى بفرانسسكو الفاريس الذي كان يشغل من سنة ١٥٢٠م الى سنة ١٥٢٧م وظيفة القس الرسمي لسفارة البرتغال في الحبشة، وهو نفس الشخص الذي نقل الى البرتغال تفاصيل رحلة داكوفيلاوو، كما سمعها منه حيث اكد ان داكوفيلاوو كان قد زار جميع مراكز نشاط البرتغال في المحيط وهي:

أولا: الموانئ العربية على طول الساحل الشرقي لافريقيا كسفالة وموزامبيق وكلوة وممباسة وملندي وغيرها.

ثانيا: عدن   ثالثا: هرموز   رابعاً: كاليكوت وكانانور وجوا.

بالاضافة الى ذلك أنه هو، فرانسسكو الفاريس الذي كان قد حمل الى الملك جان الثاني بلشبونة التقرير الذي كان قد كتبه داكوافيلاوو.

كانت رحلة فاسكو دي جاما هي أول عمل هام في فترة حكم الملك مانيويل (١٤٩٥م ــ ١٥٢١م) الذي خلف جان الثاني على عرش البرتغال. كان فاسكو دي جاما قد اختير قائداً لهذه الرحلة ومسئولا عنها..

أولا: لان البرتغاليين كانوا يعلمون مقدماً أنه سيصل من الساحل الشرقي لافريقيا الى الهند، حيث كان مقرراً ان يتبع خط سير رحلة داكوفيلاوو التي كان قد قام بها منذ عشر سنوات..

ثانيا: كان البرتغاليون في حاجة الى دبلوماسي ماهر ورجل مفاوضات قبل احتياجهم الى بحري مدرب وذلك لمفاوضة الزاموريم في كاليكوت.

في الثامن من يوليو (تموز) سنة ١٤٩٧م ابحر الاسطول البرتغالي من لشبونة بقيادة فاسكو دي جاما، وفي الثامن من مارس (آذار) سنة ١٤٩٨م وصل الى موزامبيق، وفي الخامس عشر من ابريل (نيسان) الى ماليندي. في ماليندي قام فاسكو دي جاما بتعيين المرشد البحري الذي قاده الى كاليكوت مرة واحدة. وإن معلومتنا عن هذه الفترة مستمدة من مصدرين اساسيين:

الأول: سجل رحلة فاسكو دي جاما: ان الفقرة الخاصة بهذا الجزء من الرحلة مختصر جداً ولاتعطي تفصيلات فيما يتعلق بهوية هذا المرشد البحري..

نص هذه الفقرة هو الآتي:

«لقد تركنا مالندي في الثلاثاء، الرابع والعشرين من شهر (ابريل) نيسان قاصدين مدينة اسمها قاليكت (كاليكوت) مع المرشد الذي كلفه الملك بمرافقتنا» (ص٤٦).

الثاني: كتابات المؤرخين البرتغاليين في القرن السادس عشر مثل:

أ ــ خواو دي باروس Joao de Barros

ب ــ فرناو لويس دي كستانيدا[1] Fernao Lopes de Costanheda

ج ــ دمياؤو دي جوييس Damiao de Goes

هؤلاء المؤرخون البرتغاليون الثلاثة يعطون جميعا اسم المرشد البحري الذي قاد فاسكو دي جاما

من مالندي الى كاليكوت. عند دي باروس اسم هذا المرشد هو «ماليمو كانا Malemo Cana» بينما عند كل من دي كستانيدا ودي جوبيس الاسم هو كنكا.

هذا الجزء من رحلة دي جاما مذكور ايضا في مصدر عربي هو كتاب «البرق اليماني في الفتح العثماني» لقطب الدين النهراوالي (٩١٧هـ/ ١٥١١م ـ ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م) هذا هو النص كما نشره جبريل فراند.

واستمروا على ذلك وهم يهلكون في ذلك المكان ولا يخلص من طائفتهم احد الى بحر الهند الى ان خلص منهم غراب الى الهند فلازالوا يتوصلون الى معرفة هذا البحر الى ان دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له احمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنج، وكان يقال له الاملندي، وعاشره في السكر فعلمه الطريق في حال سكره، وقال له لاتقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا في البحر ثم عودوا فلا تنالكم الامواج فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا في بحر الهند.

إن أهمية هذا المصدر هو انه يعطي لاول مرة في نص، سواء عربي أو أوروبي، اسم المرشد البحري لفاسكو دي جاما، غير أن في رأيي ان قطب الدين النهر والي قد غالط في حقيقة ما حدث للاسباب التالية:

أولا: قصة دعوة فاسكو دي جاما لابن ماجد للشراب هي قصة متأخرة لم يذكرها أي مؤرخ عربي أو أوروبي قبل النهر والي، أي أنها ترجع على أرجح الاحتمالات الى حوالي خمسين عاماً بعد وفاة ابن ماجد...

ثانيا: من الصعب تصديق ان فاسكو دي جاما يعرض نجاح بعثته البحرية بوضع قيادتها في يد مرشد لا يسيطر على جميع قواه العقلية بسبب حالة السكر التي هو فيها. هذا السبب يبدوا لنا اكثر اقناعا عندما نعلم اجماع المؤرخين المعاصرين على خطورة الملاحة في هذه المنطقة من شاطئ افريقيا الرشرقية. النهراوالي نفسه يؤكد تلك الحقيقة في النص الذي ذكرناه عند وصفه لهذا الشاطئ وفشل محاولات البرتغاليون المتعددة في تخطيه..

قال النهراوالي أنه: «مكان كثير الامواج لا تستقر به سفاينهم وتنكسر ولا ينجوا منهم احد واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون في ذلك المكان، ولا يخلص من طايفتهم احد الى بحر الهند» ص١٨٥.

اعتقد اننا نستطيع أن نرفض هذه الرواية المتواترة عن سكر بن ماجد مع فاسكو دي جاما.

ثالثا: كان البرتغاليون يبحثون عن طريق الهند البحري، وبعد محاولات عديدة فاشلة للاقلاع عن الشاطئ الشرقي لافريقيا كان واضحا انه يجب الاستعانة بمرشد بحري على درجة كبيرة من الكفاءة لاخراج الاسطول البرتغالي من الشاطئ الافريقي اولا ثم قيادته الى الهند ثانيا.

أحمد بن ماجد كان بشهادة معاصريه أكفأ بحري ارتاد هذه المنطقة من المحيط. كان من الطبيعي اذاً ان يلجأ اليه البرتغاليون للاستفادة من كفاءته خصوصا بعد ان كان فاسكو دي جاما قد شاهد بنفسه مدى سعة علمه بعلم الفلك وآلات الرصد والخرائط.

اذا كان ابن ماجد قد قبل ارشاد البرتغاليين الى طريق الهند فهذا أمر كان متوقعاً خصوصاً وان كان الكثير من السفن البرتغالية في القرن السادس عشر كان يقودها قباطنة عرب، وبرز بالاضافة الى ذلك انه من الواضح انه ما كان لابن ماجد ولا لأي من معاصريه ان يتنبأ بالعواقب الاقتصادية والدبلوماسية والعسكرية التي ستنشأ من ارشاد البرتغاليين الى الطريق البحري للهند. ابن ماجد كان معينا من قبل البرتغاليين لاداء عمل معين وهو قد ادى هذا العمل على أكمل وجه وبكل امانة ودقة. خمسون عاماً بعد وفاة ابن ماجد كانت كافية لبيان عواقب ارشاد البرتغاليين الى الطريق البحري للهند، عندئذ أخذ قطب الدين النهراوالي على نفسه مهمة بيان عدم مسئولية ابن ماجد باختراع قصة السكر..

سنعود الان الى المصادر البرتغالية التي ذكرناها لتحليل الاراء التي تحتويها حسب رأي كستانيدا. فاسكو دي جاما وصل الى مالندي في الخامس عشر من ابريل (نيسان) سنة ١٤٩٨م. في الثاني والعشرين من ابريل وضع ملك مالندي تحت تصرفه مرشداً بحرياً من جودجيرات Gudjerat اسمه كنكا.

اما دي باروس فيعطينا رواية مختلفة قليلا وان كانت اكثر تنميقا حسب روايته انه اثناء اقامة فاسكو دي جاما في مالندي زار سفينته، وهي السفينة الرئيسية من الاسطول، بعض الاهالي ومن بينهم مسلم من جودجيرات اسمه ماليموكانا. هذا الشخص هو نفسه المرشد البحري الذي اختاره فاسكو دي جاما بعد ذلك ليقوم مع البرتغاليين بالرحلة الى الهند. هذا المرشد اطلع دي جاما على خريطة لكل الشاطئ الهندي مذكور عليها خطوط الطول وخطوط العرض. فاسكو دي جاما بدوره اظهر للمرشد اسطرلابا كبيرا من الخشب، وآخر من المعدن، ولكن المرشد لم يبدي أي دهشة كانت لروءيتهم دي باروس كتب في هذا الخصوص:

هو (المرشد البحري) يقول ان المرشدين البحريين في البحر الاحمر استخدموا آلات من النحاس لها شكل مثلث وارباع لاخذ ارتفاع الشمس وخصوصا النجم (في الغالب الجاه) الذي يستعينون به كثيراً في الملاحة. ولكن انه قد اضاف هو نفسه والبحارون بالهند جميعاً يبحرون بالاستعانة ببعض النجوم المعينة سواء في النصف الشمالي أو النصف الجنوبي من الكرة الارضية، ونجوم اخرى معروفة توجد عادة في وسط السماء من جهة الشرق الى جهة الغرب. أنهم لايأخذون الارتفاع بآلات شبيهة بتلك ولكن بآلات أخرى. وكان المرشد يجلب آلة ليريها لهم وهي مكونة من ثلاثة الواح من الخشب ربما كانت نوع من البلستي..

"Il dit que les pilotes (arabes) de la mer Rouge se servaient d'instruments en laiton de forme triangulaire et quadrants pour prendre la hauteur du soleil et surtout de I'e'toile dont ils se servaient le plus pour naviguer. Mais lui, ajouta-t-il, et les marins de toute I'Inde naviguaient (en utilisant) certaines e'toiles, bore'ales aussi bien qu'australes, et d'autres e'toiles remarq-

uables qui se trouvaient habituellement au milieu du ciel, d'Est en Ouest; ils n'en prenaient pas la hauteur avec des instruments semblables, mais avec un autre dont il se servait; et il apporta imme'diatement pour le montrer, cet instrument qui se compose de trois planches." (FERRAND, III, pp. 193-194).

لفاسكو دي جاما رأي في هذا المرشد،حسب تعبيره هو «كنز عظيم». ان الرحلة من مالندي الى كاليكوت تمت بدون أي عقبة أو صعوبة في عشرين يوماً.

ان المقارنة بين المصادر التاريخية العربية والبرتغالية تظهر لنا بوضوح المشكلة الآتية: كيف يمكن ان يكون كنكا، أو ماليمو كنكا، هو نفسه احمد بن ماجد؟؟ في الحقيقة أنه يمكن التوفيق بين هذه المصادر برغم اختلافها الظاهر.

«كنكا ـ كلمة من اصل تامول، وتعني عالم بالرياضيات أو فلكي أو كاتب، بينما ماليمو ـ فهي تحريف «معلم» التي تعني في مصطلحات الملاحة العربية عالم بالملاحة. «مالمو كنكا» اذا ليس اسماً وانما لقباً. والمصادر العربية دون الاوروبية تمدنا باسم هذا «المعلم كنكا» هو شهاب الدين احمد بن ماجد الذي وصفه فاسكو دي جاما بأنه «كنز عظيم **(FERRAND, «Grand tre'sor 111, p. 194)**

كما ذكرت في مطلع هذا البحث في سنة ١٩٨٣ ظهرت ضمن مطبوعات مركز دراسات الخرائط القديمة بكويمبرا بالبرتغال ترجمة انجليزية مع تعليق للقصيدة السفالية لابن ماجد. القصيدة من ترجمة وتعليق ابراهيم خوري. وهذه حسب علمي ربما تكون أحدث دراسة ظهرت عن ابن ماجد.

القضية الاساسية التي يعرضها ويدافع عنها ابراهيم خوري هو ان القصيدة السفالية قد تعرضت للتزوير والاضافة وذلك لان فيها حسب رأيه مائة وستة ابيات منتحلة لم تكن أصلا في القصيدة. ابراهيم خوري يدعم قضيته بالحجج الاتية:

أولا: تاريخ تأليف القصيدة:

يرى ابراهيم خوري ان ابن ماجد كان قد اشار الى «القصيدة السفالية» في القصيدة الذهبية التي الفها سنة ٨٠٠هـ/١٤٧٥م أي أثنين وعشرين عاما قبل رحلة فاسكو دي جاما الى افريقيا.

ثانياً: شيخوخة وموت ابن ماجد:

يذكر ابن ماجد في مؤلفاته عموما الكثير من التواريخ آخر تاريخين كان قد ذكرهما هما سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٥م وذلك في كتاب «تقسيم منطقة الماء». وسنة ٩٠٦هـ/١٥٠١م في الارجوزة المخمسة، ولكن ابن ماجد يذكر في سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٥م انه قد شاخ الى درجة انه ينتظر الموت. ابراهيم خوري يستنتج من ذلك انه اذا كان ابن ماجد قد تقدم في السن هكذا فانه قطعا لم يكن على اتصال بالبرتغاليين ولم يعلم شيئاً عن رحلتهم الى افريقيا وذلك لان أول رحلة لفاسكو دي جاما مكثت من سنة ١٤٩٧م الى سنة ١٤٩٩م. ابراهيم خوري يرى اذا ان جميع الابيات في القصيدة السفالية التي

تذكر البرتغاليين هي ابيات منتحلة.

ثالثاً: عدد ابيات القصيدة السفالية:

ابن ماجد ذكر في القصيدة السفالية انها مكونة من سبعمائة وواحد بيتا ولكن المخطوط الوحيد لهذه القصيدة (مخطوطلننجراد)[1] يحتوى على ثلاثمائة وسبعة بيتاً. اذا هناك مائة وستون بيتا منحولا وذلك في رأي ابراهيم خوري.

رابعاً: عدم وحدة القصيدة السفالية:

يرى ابراهيم خوري ان عدم وحدة هذه القصيدة مرجعه ان بعض الابيات مجموعة معا أدت الى تفكك هذه الوحدة، في رأيه ان هذه الابيات منحولة كذلك.

هذا ملخص لوجهة النظر التي يعرضها ابراهيم خوري في تعليقه على ترجمته الانجليزية «للقصيدة السفالية». ان الجزء الذي يتعلق بموضوع بحثنا هذا هو العلاقة بين ابن ماجد والبرتغاليين. مؤدى النتيجة التي وصل اليها ابراهيم خوري هي ان «ابن ماجد كان مسنا جداً، وأنه قد أنسحب داخل بلاد العرب عندما اقلع (البرتغاليون) الى المحيط الهندي».ص٢٥

(Ibn Magid was too old and retired inland in Arabia when they set sail to the Indian Ocean.) p.25.

من رأيي أن الدليل الذي يقدمه ابراهيم خوري على نفي أي علاقة بين ابن ماجد والبرتغاليين أي بين ابن ماجد وفاسكو دي جاما هو دليل ضعيف ويمكن رفضه للاسباب التالية:

أولا: لو فرضنا ان في سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٥م كان ابن ماجد قد ذكر تقدمه في السن أوحتى لو كان قد ظن دنو أجله، كما جاء في كتابه «تقسيم منطقةالماء» فانه كان مع ذلك مازال حياً في سنة ٩٠٦هـ/١٥٠١م، حيث قال في القصيدة الخمسية:

ونظمي لهذي الاستوايات فاعلم — على عام تسعمائة وستة مقدم
تعد من المجرات للمتقدم — بأول النيروز وشهر محرم

في رأي ان العبارة التي يذكر فيها ابن ماجد تقدمه في السن لاتبرر اطلاقاً الوصول الى النتيجة التي وصل اليها ابراهيم خوري عندما كتب عن ابن ماجد:

«ان احترافه للملاحة قد انتهى في ٩٠٠هـ، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، كان غير قادر أو غير راغب في ممارسة أي عمل بحري»ص١٩

ثانياً: كان ابن ماجد في سنة ٩٠٦هـ/١٥٠١م ليس فقط حيا بل وبالتأكيد متملكا لجميع قواه وملكاته العقلية، ومازال محترفا مهنة الملاحة مشغولا بها على عكس ما يريدنا ان نعتقده ابراهيم خوري عندقوله ان ابن ماجد «كان غير قادر أو غير راغب في ممارسة أي عمل بحري». الدليل على ذلك هو موضوع القصيدة نفسه وهو علم الفلك وتطبيقه في مجال الملاحة.

ان مقارنة هذه القصيدة بكتابات ابن ماجد السابقة عليها لتدل على ان ابن ماجد ظل متمتعاً

بنفس الروح العلمية والنشاط العقلي، وبنفس سعة الاطلاع والخبرة بعلم الفلك والملاحة التي تميز كتاباته السابقة. ليس هناك أي دليل على تدهور عقلي أو حتى فتور نفسي قبل مهنة الملاحة أو علم الفلك..

هكذا وصل ابن ماجد مع فاسكو دي جاما الى كاليكوت في أقل من أاربع أسابيع ودون أي عقبة، اضطر فاسكو دي جاما بمجرد وصوله الى الهند ان يواجه مشكلات لم تكن في حسابه من قبل والتي كان محتاجاً في حلها لكل قدرته كدبلوماسي. فقد اضطر مثلا الى بيع حمولة سفنه بخسارة. كذلك وجد صعوبة كبيرة في شراء شحنة من التوابل وذلك لمعارضة التجار المسلمين والعرب له هناك.

ادرك فاسكو دي جاما سريعاً ان الحل الوحيد لفرض سلطة البرتغال في المحيط الهندي هو تحطيم منافسة التجار المسلمين والعرب وذلك بالحصول على شروط مناسبة واكثر ملائمة للتجار في جميع مراكز استقرار ونشاط البرتغاليين.

لقد ركز فاسكو دي جاما كل نشاطه لتحقيق هذه السياسة بل وأنه قد نصح الملك مانويل على تبنيها وعلى مطالبة البحارين البرتغاليين باستمرار تنفيذها بعد ذلك.

هكذا احتكر البرتغاليون تجارة التوابل عشرين عاماً فقط بعد رحلة فاسكو دي جاما اى الهند.. ومن الواضح اليوم أن اهمية فاسكو دي جاما في التاريخ الدبلوماسي والاقتصادي لاكبر بكثير من أهميته في مجال الكشوف الجغرافية.

في هذا الجزء الثاني من البحث سنحاول ان نرى المعالم الرئيسية للتفكير العلمي في كتابات احمد بن ماجد وخصوصا مفهومه للمنهج العلمي وتطبيقه له. وكمثال واضح على الروح العلمية عند ابن ماجد موقفه النقدي واستقلاله الفكري أمام كتابات السابقين له من الفلكيين والملاحين ولو كانوا ذوى شهرة كبيرة. هنا ينقد ابن ماجد آراء محمد بن شدهان، سهيل ابن آبآن، وليث ابن كحلان الذين يؤكدون جميعاً أن قيمة الترفا (قياس درجة الميل نحو الشمال والجنوب اثناء الملاحة) للثريا والجوزاء بثلاثين زاما (وحدة لقياس الوقت اثناء الملاحة). ابن ماجد يرفض هذا الرأي مؤكداً أن رأيه هو مبنيا على التجربة الشخصية. هنا يقول ابن ماجد في كتاب الفوائد:

فأما الأولين فقد اخطأوا في تصنيف الترفا خطأ عظيما باهرا اذ قالوا أنها لثلاثين زاما ولنا في ذلك دليل كثير يقبلها الخاص والعام من الناحية العقلية والناحية التجريبية، وقد شرحنا بعضاً منها في شرح الذهبية، ونشرح ما يليق بهذا المكان:

الأول أن المركب اذا جرى في الحمارين (xB Centauri) وجرى مركب غيره في العقرب وقطع كل واحد منهما ترفا فيكون قطع المركبين ثلاثين زاما وبينهما زامين ومركبين وغيرهما جرى أحدهما في القطب والأخر في السلباد (xEnidoni) فجميعهم جروا ثمانية وعشر زاما فيكون بينهما زامين وهذه الازوام بالسوية فهذا هو الغلط..

والدليل الثاني على غلطتهم ان مركب بينه وبين ازاديو احد وعشرين زاما فيكون أقرب عنه من مليار في مطلع السماك لانها دائرة سهيل والنعش (xVzsaMajor) يحكم على جري البروتوسطه مطلع الرامح فاذا جرى في المطلع الاصلي يأخذ البر على احد وعشرين زاما، واذا جرى في السماك وقصد القرب لم يأخذ دنداباشي (الاختلاف في ارتفاع النجم القطبي) الا اذا رق عليها بأحد وعشرين وقطع على صدره ترفا بخمسة وعشرين زاما فكيف يكون البر القريب عنك خمس وعشرين زاما والبر البعيد الذي هو بعيد عنك بأحد وعشرين زاما (ورقة ٣٩ وجه وظهر).

مثال آخر على روح ابن ماجد العلمية هو استمرار اعادته النظر فيما كان قد كتبه سالفا وذلك لتنقيحه وتصحيحه. بالفعل ابن ماجد يقرر في «كتاب الفوائد» كيف انه اعاد تناول ما كان قد كتبه سابقا لتصحيحه من الناحية العلمية فهو قد الف كتاب «حاوية الاختصار في اصول علم البحار» في صدر شبابه ثم بعد مضي فترة من الزمن صحح ما جاء فيه في الارجوزة السبعية التي قام بتصحيحها هي نفسها بعد ذلك في «كتاب الفوائد» هنا يذكر ابن ماجد في كتاب الفوائد:

وكنا أول العمر نحسب كحساب الجهلاء، فبعد كثير من التجارب رجعنا لصحة العمر ودققناه وحققناه، فما للجهل عندنا مدخل وكنا قد ذكرنا أول الشباب في الحاوية، فلما تحققنا شخصيا في الحاوية والسبعية ابيات لنستدرك بها ابطالهم وقلة صحتهم، وذكرنا الناسخ والمنسوخ (....) فقد بان لنا خلله عند المشيب. (ورقة رقم ٣٦ وجه وظهر).

هذه الروح النقدية عند ابن ماجد تجد تعبيراً في مواقع متعددة من كتاباته، ففي كلا من القصيدة الذهبية وكتاب الفوائد يشير ابن ماجد الى خطأ الكثيرون من الملاحين في تحديد خطوط الطول والعرض وبين أسباب هذا الخطأ وكيفية تجنبه حتى يكون الملاح على يقين من موقع سفينته في عرض البحر.

وفي موضع آخر من نفس الكتاب ينتقد ابن ماجد معرفة الملاحين عموما بفلك ومطلع النجوم. فعند سؤالك وقولك (لهؤلاء الملاحين) متى يطلع سهيل فيقولون لك في أي بلد وليس هذا بجواب المراد (....) بل قل لهم متى يطلع سهيل سواء كنت في سيلان أو في جيلان المراد بطلوعه من القطب فانه يطلع مع طلوع التير (Sirius) ويستقيم على القطب في مستقبل التير، والتير يطالع الهنعة (Genninown) ويغيب في الخط الاستواء في اربعين النيروز. ومن لم يطلع في تصنيفي هذا لم يهتدي ابدا لهذه النكتة. (ورقة ٣١ ظهر)

كانت دراية ابن ماجد بعلم الفلك مزدوجة: نظرية وعملية. في «كتاب المنافع» نجده يلوم بعض الفلكيين قصور معرفتهم على الجانب النظري دون مزاولة الرصد والقياس مزاولة فعلية.

في حقيقة الامر قد نشر بعض الفلكيين خلال القرون الوسطى الاسلامية جداول للنجوم دون القيام الفعلي بقياس احداثياتها الفلكية من طول وعرض بانفسهم، بل اكتفوا باضافة بعض الدرجات أو الداقائق للاحداثيات التي نشرها بطليموس في «الماجسطي» كذلك نهج نفس المنهج

بعض صانعي الكرات النجومية حتى ان عبد الرحمن الصوفي (٢٩١هـ/٩٠٣م – ٣٧٦هـ/٩٨٦م) قد أشار الى ذلك في كتابه «صور الكواكب الثابتة».

عند ابن ماجد كملاح «الجانب العلمي» لعلم الفلك أهم وأنفع من الجانب النظري للبحث.

لذلك كان الملاحون في كثير من الحالات أكثر الماماً بعلم الفلك من الفلكيين النظريين. يشير ابن ماجد الى ذلك في «كتاب الفوائد».

فهذه السبعة السيارة بما يتعلق بعلم البحر وأما الثوابت التي هي للهداية والدلالة فعالمة البحر أخير من جميع الناس، ولو عرفوا أهل الفلك الطول والعرض والدرج والممر ما عرفوا الشخوص مثل المعالمة (...) فكثير من النجوم صحت عندنا في الهداية والدلالة ولم أرى في زماننا من يعرفهن من أهل الفلك، فسميتهن وعملت عليهن ولو حضرني خمسون كتابا في علمهن. (ورقة ٤٦ وجه).

من الناحية الاخرى تشكل التجربة اساساً من أهم أسس المنهج العلمي وتكرار التجربة عددا كافيا من المرات شرط اساسي لضمان سلامة نتيجتها من أجل أن تحوز بدرجة عالية من القبول. كتابات ابن ماجد تظهر بوضوح مدى وعيه ليس فقط بأهمية التجربة بل ايضاً بضرورة تكرارها قبل استنباط النتيجة من هذه القاعدة الاساسية للمنهج العلمي في «كتاب المنافع» كما يأتي:

«وجئنا هنا بأمثال من القياسات الجيدات فلو قاس هذه الانجم المجهولات أحد منكم لا يتكلم بها الا بعد تجربة مكررة، وثم مكررة صافية من العلل فربما جرب احدكم قياس وفيه علة وما اطلع عليها داذا رآه تكرر ينبغي ان ينطبق به. فو الله ما صنفت هذه القياسات المنتجات شيئا فيه من التفاوت ربا وثمنا في الرترفين والثلاث الا وقد حذرتكم منه وقلت في مصنفاتي أنه ضيق أو نفيس أو اعادة أو محتكم وقد قدمت هذه القيود في شرح الذهبية». (ورقة ٤٨ مكرر ظهر، ٤٩ وجه).

القياس في اصطلاحات الملاحة عند العرب هو العلم الذي يختص بتحديد خط العرض وذلك بواسطة اخذ ارتفاعات النجوم. الغرض من ذلك هو تجديد موقع السفينة في عرض البحر.

ان أخذ ارتفاع النجوم كان اذا من أهم عمليات الملاحة. خطوات هذه العملية يمكن تلخيصها كالاتي:

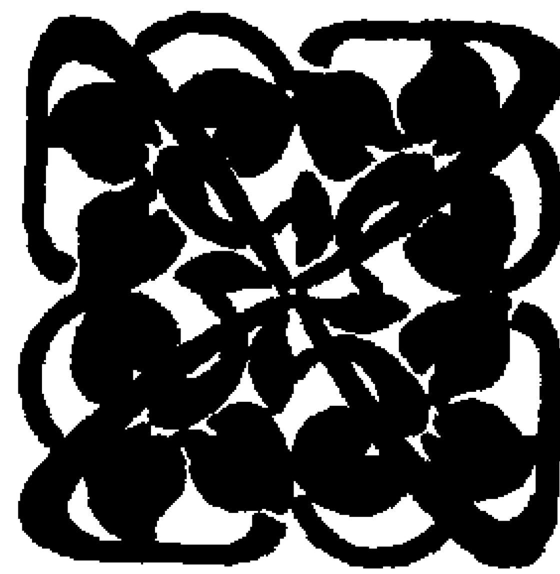
يأخذ البحار ارتفاع نجم ما في وقت معين ومنه يستنبط ارتفاع نجمة القطب وبهذا يمكن تحديد موقع السفينة في عرض البحر تعتمد اذا على معرفة ارتفاع نجمة القطب، لذلك تحتل الجداول الخاصة بارتفاع نجمة القطب في الاماكن المختلفة مكانا هاما في مؤلفات علم الملاحة.

لاخذ ارتفاع النجوم استعمل الملاحون العرب في البحر الاحمر والخليج العربي والمحيط الهندي احدى هاتين الالتين: الكمال والخشبة. أما وحدة قياس ارتفاع النجوم في علم الملاحة فقد كانت الاصبع الذي كان مقسماً الى ثمانية ازوام وذلك على خلاف وحدة القياس في علم الفلك التي هي الدرجة..

في كتاب الفوائد يعطينا ابن ماجد وصفا تفصليا لخطوات القياس. هذا الوصف يدل على مدى

استيعابه لقواعد المنهج العلمي وشروطه. هنا يحلل ابن ماجد ليس فقط عملية القياس خطوة خطوة، بل يعرض ايضا بتفاصيل العوامل التي قد تؤدي الى الخطأ في القياس والتي يجب الاحتياط منها حتى لا تتعرض السفينة للخطر. هنا يكتب ابن ماجد «اعلم ان للقياس علل فمنها اذا قمت من النوم ينبغي ان تغسل وجهك وعينيك بماء بارد وتجود الجلسة وتجعل النجم المقيوس عن النجم الذي يلقي وجهك سبعة اخنان كالجاه والطائر. ويكون الخشب الكبار ضيقات القياس ومداهم بذكره ما استطعت والاربع الصغار نفسيات وقصر بهم يدك ما استطعت والاربع المتوسطات قياسهم عادة وذلك لا تساع ذيل الافق وانكفاف اعلى الافق، فافهم انا ادركنا جميع كسور هذه الصنعة، وينبغي ان يكون بين النجم المقيوس وبين الخشبة خيطا، وبين الماء، والخشبة كذلك خيطا، والزخن من مفسدات القياس وفساد الجلسة والباشي الفاسد اذا رأيت النجم مستقلا وانت على جانب غير مستقل فيزعم انه يستقبل وهو غير ذلك خصوصا اذا كان الفرقدين من جانب الجاه، فان الجاه سريع السير مثل استقلال الزراع، وانه مما يفسد صحة القياس، وتغميض احد عينيه والبعض يفتح الجميع والاصح بفتح اليمين وتغميض اليسرى. والقياس باليد اليسرى من فساد القياس، واذا كان البحر فيه شباب من برد أو ظل وحاية أو جيش في البحر فترى البحر كالنور لم يعرف الجو من البحر وقد عرفناك بذلك أقول هذا والله اعلم واحكم. (ورقة ٥٦ ظهر)

إن تاريخ العلوم عند العرب يحتاج اليوم الى مجموعة من الدراسات العلمية المفصلة التي تتناول كل منها جانباً من جوانب كتابات ابن ماجد العلمية خصوصا ما يتعلق منها بعلمي الملاحة والفلك مع بيان كلا من الخلفية العلمية لهذه الكتابات والجانب الاصيل في تجربته العملية، وذلك حتى يأخذ ابنماجداخيرا المكانة التي يستحقها في التراث العلمي عند العرب.



المراجع

- AHMAD, S.Maqbul, IBN MAJID, in Dictionary of Scientific Biography, vol. IX, New York, Scribner's Sons, pp. 35 - 37
- IBN MADJID, The Encyclopaedia of Islam, 2nd ed.
- ALVARES, Francisco, The Prester John of the Indies, 2 vol., Tr. Lord Stanley of ALDERLEY, Cambridge University Press, 1961.

- AXELSON, Eric, South - East Africa 1488 - 1530, London - New York - Toronto, Longmans, Green and Co, 1940.
- Portuguese in South - East Africa 1488 - 1600, Johannesburg, C.Struik (PTY), 1973.
- BOXER, C.R., The Portuguese Seaborne Empire 1415 - 1825, London, Hutchinson, 1969.
- CRONE, G.R., The Discovery of the East, London Hamish Hamilton, 1972
- DA GAMA, Vasco, A Journal of the First Voyage 1497 - 1499, Tr. &ed E.G. RAVENSTEIN, London, The Hakluyt Society, 1898.
- FERRAND, Gabriel, Instructions nautiques et routiers arabes et portugais des XV et XVI siecles, 3 vol., Paris, Librairie orientalist Paul Geuthner, 1921 - 1928.
- KAMMERER, Albert, La Mer Rouge, l'Abyssinie et L'Abyssinie et L'Arabie depuis l'antiquite', in Me'moires de La Socie'te' Royale de Ge'ographie d'Egypet, XV, 3 part., 451p.
- KHORY, Ibrahim, Tr.& Exp., As-Sufaliyya "The Poem of Sofala by Ahmad Ibn Magid", (Junta de Investigacoes Cientificas do Ultramar, Serie Separatas CXLVIII), Coimbra, Centro de Estudos de Cartografia Antiga, 1983.
- TAYLOR,E.G.R., The Haven - Finding Art, London, Hollis&Carter, 1956
- TIBBETTS,G.R, Arab Navigation in the Red Sea, The Geographical Journal, CXXVII,3, 1961,pp. 322 - 334.
- Arab Navigation in the Indian Ocean before the Coming of the Portuguese, London, The Royal Asiatic Society of Great Britain and Lreland, 1981.
- VERLINDEN,C., Vasco da Gama in het Licht van zijn Portugese en Arabische voorgangers, in Mededelingen van de Koninklijke Vlaamse Academie voor Wetenschappen, Letteren en Shone Kunsten van Belgie", XIX, 4, 1957, pp.3 - 21.

* * * * *

القرصنة الاوروبية في الخليج العربي وسواحل افريقيا الشرقية ضد القوى البحرية العربية في القرن ١٨ ونهاية النصف الاول من القرن ١٩

الدكتور/ صادق ياسين الحلو
جامعة بغداد/ كلية التربية
قسم التاريخ

المقدمة:

يعتبر موضوع القرصنة من اكثر المواضيع التي تثير نقاشاً وجدالا حول تفسير الاعمال البحرية التي قامت بها القوى البحرية العربية المحلية، والقوات البحرية للدول الاوروبية في العصور الحديثة من تاريخ الخليج العربي، فبالوقت الذي كانت القوات العربية ترى فيه ضرورة استجابة الاوروبيين للاعتراف بسيادتها على مياهها الاقليمية (وهذا من حقها) وبالتالي دفع رسوم المرور على السفن الاوروبية المارة في تلك المياه، وفي حالة الرفض تلجأ الى مهاجمة الرافضين الى أن يرضخوا للامر الواقع، كانت الدول الاوروبية من جانبها تصف تلك الاعمال وتطلق عليها اسم القرصنة مبررة بذلك اعمالها العدوانية على تلك القوات العربية المحلية الناهضة.

كما ناضلت القوى العربية لان تحافظ على استقلاليتها من مسألة الصراع بين الفرنسيين والبريطانيين والهجمات البحرية المتبادلة بينها في مياه المحيط الهندي والخليج العربي، لكنها لم تنجح في تحقيق هذا الهدف في كثير من الاحيان لان موانئها وسفنها تعرضت لأعمال قرصنية من هذا الطرف أو ذاك بحجة ضرورة تأييد تلك القوى وانحيازها الى أحد الطرفين. ولهذا خسرت عدداً من سفنها وبضائعها بسبب تجاهل أولئك الاوروبيين لموقف الحياد العربي وبخاصة في مسقط ومع ذلك ظل العرب يلجأون الى الطرق الدبلوماسية للوصول الى حل لتلك المشاكل، بينما لجأوا في أحيان أخرى الى قوة السلاح وهاجموا أولئك المعتدين وأتصفت تلك الهجمات بالجرأة والشجاعة.

وتعرض البحث الى هذا الموضوع الذي سمي القرصنة الاوروبية في مياه الخليج وشرق افريقيا ويقصد بها الاعتداءات الاوروبية على السفن العربية ونهبها وذلك ابتداء بالقرصنة البرتغالية في القرن السادس عشر وانتهاء بالقرصنة الانكليزية ضد القواسم في القرن التاسع عشر.

القرصنة البرتغالية في الخليج العربي:

أبتدأت أعمال الاعتداء والقرصنة الاوروبية ضد السفن والاساطيل العربية البحرية التجارية والحربية منذ أن غزا البرتغاليون الخليج العربي في القرن السادس عشر وكانتلاأهم أهدافهم تدمير الامكانيات العربية البحرية حيث ما صادفوها حتى وان كانت مسالمة وليس لها أي أذى أو مقاومة ضدهم(١)، وقد بلغ عدد السفن المدمرة أثناء تجوال الاسطول البرتغالي في المنطقة الشمالية الشرقية في المياه العمانية بالقرب من مصيره لوحدها كما قدرها مايلز بين ٣٠ الى ٤٠ سفينة(٢).

ولم تتوقف الاعمال القرصنية للبرتغاليين ضد السفن العربية طيلة القرن السابع عشر فظلوا ينهبون حتى السفن الصغيرة في الموانئ العربية ساعين الى تحجيم القوى البحرية حتى وان كانت صغيرة الى الحد الاقصى الممكن(٣)، وقد تذرعوا بحجج واهية منها أن هذه السفن لاتحمل تراخيص من السلطات البرتغالية.

غير أن القرصنة البرتغالية لم تتمكن من ايقاف تطور نمو القوى البحرية العربية وبخاصة العمانية منها التي استطاعت أن تبرز وتنشط بشكل فاعل على المسرح التجاري والحربي في مياه الخليج العربي وكان لها شرف طرد البرتغاليين نهائيا من مياه الخليج العربي وملاحقة الغزاة الى سواحل شرق افريقيا والهند.

عمليات القرصنة لسفن جزيرة فرنسا ضد الموانئ والسفن العربية في القرن الثامن عشر:

أدى امتددا الصراع الفرنسي ـ الانكليزي الى مياه المحيط الهندي والخليج العربي الى تعرض الموانئ والسفن العربية لهجمات قرصنية نتج عنها نهب بضائع وأسر عدد من السفن العربية تحت حجج ملاحقة كل طرف أوروبي للأخر ضمن إطار عمليات نهب السفن وبضائعها المتبادلة بين فرنسا وبريطانيا.

في عام ١٧٥٨ دخلت بندر عباس سفينتان بريطانيتان هما Revenge الريفانج، والدراك Drake، للاستيلاء على سفينة فرنسية كانت ترسو في ميناء البصرة منذ ثلاثة أشهر لتتزود بالوقود، وطلب ممثل شركة الهند البريطانية في البصرة من حاكمها بأن يضع كل الفرنسيين في البصرة بالحجز حتى يمنع بذلك السفينة الفرنسية البرستول Pristol من أسر ثلاثة سفن انكليزية قادمة من الهند وستكون في مدخل شط العرب(٤).

وقد تطور الصراع اكثر في عام ١٧٥٩ عندما دمر اسطول فرنسي المكتب التجاري البريطاني في بندر عباس وهذا الاسطول كان يتألف من سفينتي شركة الهند الفرنسية «الكوندي» Le conde والفرقاطة الاكسبديسيون L'Expedition وقد كانتا قد غادرتا ميناء جزيرة فرنسا تحت أمرة ديسنيان D'Estaing وعند مرورهم في مسقط أطلق ديستيان النار على سفينة تسمى الميري Le merry(٥) معتقدا انها تعود الى الانكليز، ولكنها في الواقع كانت عائدة لشخص يدعىَ شلبي من تجار البصرة من الدرجة الاولى(٦)، وعند مقابلة أسقف بابل لباشا بغداد كان الباشا يذكر للأسقف «بأنه مندهش عندما علم أن أسطولا فرنسيا نهب سفينة تعود الى أحد الرعايا الاتراك في ميناء محايد ويعود الى المسلمين كميناء مسقط»(٧). ويبرر اسقف بابل العملية عند رده على الباشا ويقول: «بأن السفينة شحنت البضائع من سيوارت، المدينة التي استولى عليها الانكليز من الفرنسيين وانها تحمل أوراقاً موقعة من الانكليز، وعندما دخل اسطولنا مياه مسقط كانت السفينة ترفع العلم الانكليزي، كما أنها أطلقت طلقات المدفعية ضد اسطولنا قبل أن تعرف بأن سفينتنا ستهاجمها»(٨).

ويبدو ان الفرنسيين اخترقوا بشكل واضح حياد ميناء مسقط، فيستمر أسقف بابل بالقول «المسقطين لم يكونوا ابداً محايدين تجاهنا فالامير العربي الذي يحكم مسقط طرد بطلب من الانكليز السير هوكيت Hoguet ساعي البريد الذي كان يقيم في هذا الميناء(٩). واعتدوا على سفينة بصرية، وبهذا العمل خرق الفر نسيون حياد ميناء مسقط والبريطانيون حياد ميناء البصرة.

وتكررت تلك الاعمال القرصنية في السنوات التالية.في عام ١٧٦١ وصلت حملة فرنسية جديدة ورست في ميناء مسقط قادمة من ميناء بورت لويس Portouis وكانت تتألف من السفينة بولون Boulogne وقارب للحماية، وتجاهل قائد البولون حياد ميناء مسقط، فهاجم فيه أحدى السفن الانكليزية(١٠).

وهكذا أصبح ميناء مسقط مسرحاً للصراع الدموي(١١) الانكليزي الفرنسي، ونتيجة لاستمرار خرق حياد ميناء مسقط من السفن الفرنسية اتخذت حكومة مسقط في بعض الاحيان مواقف حادة ضد تلك الهجمات. ففي عام ١٧٧٨ تابعت احدى السفن الفرنسية القرصنية سفينة انكليزية لجأت الى الميناء فما كان من حاكم مسقط خلفان بن محمد الا أن قدم حماية الى تلك السفينة الانكليزية، وقدم ملاحظة احتجاج الى المهاجين (الفرنسيين) وعندما لم يرتدعوا اطلق النار على السفينة الفرنسية التي قتل خمس من بحارتها قبل أن تتمكن من الهرب(١٢).

ولكن هذا الموقف لا يعنى ان حاكم مسقط والعمانيين كانوا بجانب الانكليز «وانما كان ذلك العمل من العادات العربية التي تقوم على حماية الدخيل والدفاع عنه بالسلاح عند الضرورة بغض النظر عن جنسيته وديانته»(١٣).

وفي هذه الفترة أيضا بدأت قوى القواسم بالبروز وأخذت زمام المبادرة في مهاجمة السفن الانكليزية التي ترفض الاعتراف بسيادتهم وتدفع ضرائب المرور مقابل الرسو في موانئهم، وقد أطلق

الانكليز على تلك المقاومة المشروعـة اسم القرصنة(١٤).

وفي اثناء فترة حرب الاستقلال الامريكية، تصا عد التصادم الانكليزي الفرنسي، فأنعكس ذلك سلبا حيث تبعه خرق لحياد ميناء مسقط من قبل اساطيل البلد ين وبالاخص الاسطول الفرنسي.

غير أن العلاقات المسقطية الفرنسية وان لم تنقطع الا انها شهدت مرحلة تأزم عندما تم أسر السفينة المسقطية، الصالح، ونهب بضاعتها، من قبل الاسطول القرصني الفرنسي الذي كان يقوده الكابتن (ديشتيان كالوي) (Deschiens Kalway)(١٥).

وبدأت عمليات سفن القرصنة الفرنسية التابعة لجزيرة فرنسا، بالقرب من سواحل أفريقيا الشرقية والتي تتجول في السواحل الغربية للهند، ومياه الخليج العربي بالعمل على ضرب وتخريب تجارة العدو (الانكليزي) وكذلك أنها كانت تعامل كل السفن التي تشك بأنها تحمل بضائع تعود للتجار الانكليز بنفس المعاملة (للسفن الانكليزية)(١٦).

أما عن كيفية أسر سفينة الامام الصالح فيروى ان سفينتين من سفن القرصنة الفرنسية (Corsaires) تلاقتا في الخليج معها، وفيها بطاريتين ومسلحة ب٥٠ مدفعاً، وهي محملة ببضائع ومنتجات هندية وكانت متوجهة الى البصرة فهاجمتها تلك السفن وسيطرت عليها ومن ثم نهبت بضاعتها»(١٧) وتعتبر شحنة السفينة مهمة جداً لانها مرسلة الى تجار عديدين(١٨) وقد تمكن أحد أفراد الطاقم من الهروب من الاسر وأخبر الامام بالحادث.

وكان لهذا الحادث القرصني وقع مؤثر على الامام والمسقطيين لان مسقط ليست في حالة حرب ضد فرنسا، والامام كان يحتفظ بعلاقات تجارية مهمة مع جزيـرة فرنسا لذلك عندما رست أحدى السفن الفرنسية في ميناء مسقط للتزود بالمياه وهي تجهل ما وقع للسفينة المسقطية أعطى الامام الامر بالاستيلاء عليها. وبعث رسولا الى السفن القرصنية الفرنسية التي أسرت الصالح مقترحا استبدالها بالسفينة الفرنسية المحتجزة واسمها الفلبين (Le philippine).

غير أن الامام فضل حل المشكلة بالطرق الدبلوماسية متحاشياً اللجوء الى الانتقام من السفن الفرنسية، ولهذا أطلق سراح الفلبين وطاقها وأرسل ملاحظة الى حاكم جزيـرة فرنسا (السيد دوسوياك (De Souillas) للأحتجاج ضد اعمال السفن الفرنسية القرصنية المتصاعدة وخرقها لحياد ميناء مسقط. كما وجه رسالة أخرى الى لويس السادس عشر عبر فيها عن رغبته بالاحتفاظ بعلاقات طيبة وقلبية مع فرنسا، لكنه طالب باتخاذ عقوبات ضد قبطان السفينة المؤول عن حادث أسر السفينة المسقطية(١٩).

وكان رد الملك الفرنسي ايجابيا فهو أيضا يسعى للحفاظ على العلاقة الفرنسية المسقطية(٢٠)، وتعهدت الحكومة الفرنسيةبأهداء سفينة فرنسية (Le courrierd'ile de France) كتعويض للامام عن خسارة الصالح(٢١).

لكن تلك الهدية لم تصل مسقط مطلقا، لانها نهبت في الطريق بفعل عملية قرصنية من السفن الانكليزية، وأصبح امام مسقط ضحية مرة أخرى للصراع الفرنسي الانكليزي(٢٢).

وواصل خلال هذه الحقبة الاسطول الفرنسي فعاليته القرصنية في مناطق الخليج الاخرى، مما أدى الى الاضرار بتجارة الخليج ودمرت اكثر من مئتي بارك (نوع من السفن الصغيرة) في البصرة(٢٣).

أضرت تلك العمليات البحرية التي قام بها الاسطول القرصني لجزيرة فرنسا (مورشيوس) بصغار التجار العرب الذين فقدوا أموالهم والذين أخذوا يضغطون أكثر فأكثر على الامام ليسرع بارجاع الاموال المنهوبة(٢٤). وبدأ الناس في البصرة لاينظرون الى الفرنسيين الا بمنظار سئ منذ أن قامت سفن القرصنة لجزيرة فرنسا بعمليات النهب في الخليج العربي(٢٥). وطالب تجار بغداد سلطان عمان بمنع الفرنسيين من دخول ميناء مسقط لانهم تسببوا في فقدانهم لبضائعهم(٢٦).

وظل سلطان مسقط ينتهز كل فرصة للمطالبة بالتعويض عن سفينته المنهوبة بعمل قرصني، الا ان التعويض لم يتم الا بعد تسع سنوات لانشغال فرنسا بمشاكلها الداخلية وعدم اعارتها المشكلة ما تستحق من الاهمية، وعلى الرغم من السفينة المهداة من الملك الفرنسي الى السلطان لم تكن كبيرة كتلك التي فقدها الامام(٢٧)، فأنها احدثت فرحاً عظيماً مشوباً بالعاطفة لدى المسقطيين وأفتخر الامير العربي بها، حيث شرف بالاحترام الكبير من قبل عظيم اوروبا(٢٨).

نشوب الثورة الفرنسية وتصاعد الاشتباكات الفرنسية البريطانية القرصنية في الخليج العربي:

عند قيام الثورة الفرنسية في ١٤ تموز ١٧٨٩ تجددت حدة الصراع البريطاني الفرنسي البحري القرصني، وقد قدرت الحكومة العمانية، بأن قيام الجمهورية الفرنسية ستكون له نتائج مقبولة على العلاقات مع فرنسا وستجدد أعمال القرصنة التي اقترفتها البحرية الفرنسية ضد السفن العمانية في منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي. ولهذا السبب تقدمت حكومة مسقط برسالة الى القنصل الفرنسي طلبت فيها معرفة «فيما اذا كانت الصداقة السائدة بين الفرنسيين والمسقطيين تبقى دائمة، والا اذا كانت الحالة معاكسة لذلك نستطيع (الحكومة العمانية) أن تحمي بلدنا وتجارتنا»(٢٩).

وصدقت توقعات العمانيين فبعد اشتعال حرب عام ١٧٩٣ في أوروبا «خرق الفرنسيون من جديد حياد مسقط»(٣٠) «وعادت شكاوي واحتجاجات المسقطيين ضد قراصنة جزيرة فرنسا الى الشرق من سؤاحل افريقيا الشرقية فبالرغم من الحبوب التي يأخذونها من مسقط، فالمستعمرين الفرنسيين في الجزيرة كانوا مهتمين جداً بالنهب، حتى يؤمنوا الخدمات لان الحكومة الفرنسية بعيدة عنهم، وليس لها سلطة على هذه المستعمرة، فهم مستقلين في الحقيقة ومن جهة اخرى، لهم هموم أخرى، وعندما يأتيهم احتجاج من الامام يعرضونه على المجلس، ويظهر ان السلطات العمانية غير معروفة لديهم»(٣١).

وهكذا عاد عهد قرصنة سفن جزيرة فرنسا (Corsaires)، وبدأ الحياديون وبخاصة سفن مسقط تقاسي بعنف من تلك الاعمال»(٣٢)

وفي الحقيقة لم تول الحكومة الفرنسية اهتماما كبيرا بمنطقة الخليج العربي في البداية وأنما اعطتها اهتماما ثانوياً لانشغالها بتركيز أوضاعها الداخلية والاوروبية، ولذا بدأ قلق حكومة عمان من جديد وحاولت معرفة موقف الحكومة الجديدة من الاعمال القرصنية فكتبت اليها «اذا أثبتت لنا الجمهورية الفرنسية رغبتها بعدم قطع علاقاتها معنا واذا ما أرجعت السفينتين التي نهبها رعاياها الى امام مسقط، والا في الحالة المعاكسة، اذا رغبت في قطع عقد الصداقة، سيكون كل واحد منا يعمل ما يحلو له من جانبه ويلائمه»(٣٣).

لم يقم العمانيون بأي عمل انتقامي ضد السفن الفرنسية بل ظلوا يأملون بالطرق الدبلوماسية لوضع نهاية لأعمال القرصنة وهددوا بقطع العلاقات التجارية مع جزيرة فرنسا في حالة استمرارها، لكن هجمات سفن قرصنة الجزيرة استمرت ضد السفن العربية(٣٤) وأخبر ممثل الامام في بغداد القنصل الفرنسي روسو Rousseau بأن سفن الكورسير Corsaire (القرصنة) استولت على السفينة المسقطية فتح (FATH) ونهبت بضائعها التي قدرت قيمتها ب ١٤,٠٠٠ روبية قبل قيادتها الى جزيرة فرنسا(٣٥).

وعندما تمادت عمليات القرصنة ووصلت الى حد «قتل طواقم السفن من قبل سفن الكورسير Corsaire القرصنية»(٣٦) ردت السلطات المسقطية «بمنع تصدير الحبوب الى المستعمرات الفرنسية(٣٧) أدينت عمليات القرصنة في داخل فرنسا فقدمت لجنة العلاقات الخارجية تقريراً الى لجنة السلامة العامة تدين العمليات القرصنية التي ارتكبتها البحرية الفرنسية ضد السفن العربية مؤكدين أنها بالضد من أخلاق البلاد المتطورة والمتمدنة»(٣٨). ومع ذلك ظل المسقطيون يستقبلون السفن الفرنسية التي كانت ترسي في ميناء مسقط استقبالا حسنا، ولم ينجرفوا الى اعمال القرصنة، فالشيخ خلفان حاكم مسقط كتب بهذا الخصوص يقول بأن «سفينة فرنسية في نفس هذه الفترة وصلت الى مسقط، لاننا ليس فقط لم نقم بأي سوء ضدها، لكننا قمنا بمساعدتها وحمايتها لان الجمهورية الفرنسية عزيزة علينا، ونترك لها أن تعطينا العدالة التي تتوجب عليها جراء العمليات القرصنية ضد السفن المسقطية»(٣٩).

مع ذلك تصاعدت عمليات سفن (الكورسير) السفن القرصنية الفرنسية ولم تسلم من شرها السفن العربية، وهذا ما وصفه كتبة روسو القنصل الفرنسي في بغداد لتلك الاعمال «ان ما يقوم به الجمهوريون (المستعمرون) من جزيرة فرنسا من اعمال مزعجة في كل بحار الهند، فنهبوا اكثر من ثلاثين سفينة من مختلف القوى أضافة الى اسطول مؤلف من خمس سفن وفرقاطة للتجول، ومنذ ثلاث سنوات في ضواحي سورات وبومباي، وكل ساحل ملبار، وبالنسبة الى معرفتي فالكورسيرا

Corsairs، سبق ونهبت خمس سفن انجليزية كبيرة كانت قادمة من الصين، وسفينتين انجليزيتين من البنغال، وفي منطقة الخليج العربي نهبت سفن محملة ببضائع غنية اهبة من مدراس الى امام مسقط، وقائدها كان انكليزيا، وسفينة اخرى عربية أكد لي أن على ظهرها ما قيمته اكثر من ٦٠٠ الف روبية من ذهب، وفي الاخير فان سفن الكورسيرا نهبت من ميناء مسقط سفينة كبيرة لشركة الهند الهولندية قادمة من بثافيا(٠).

وكما هي الحالة مع السفينة المسقطية التي نهبت سابقاً بعمل قرصني لم تتوقف حكومة مسقط من المطالبة بالتعويض عن السفن المنهوبة، وانفجر جدل بخصوص القيمة الحقيقية لحمولة تلك السفن، فالفرنسيون رأوا بأن الادعاءات العربية مبالغ فيها فأنهم (الفرنسيون) يرون بأن السفن العربية صغيرة ومبنية دون حديد أي الألواح المخاطة المشدودة بالحبال»(١).

ويظهر من ذلك ان اللجنة المكلفة من الحكومة الفرنسية بتقدير التعويضات عن تلك السفن «تجهل بشكل عام حالة الاسطول العربي وسفنه، وتمزج في الواقع بين البارك (القوارب الصغيرة) التي تستعمل محليا مع السفن الكبيرة التي يبنيها العرب لاغراض التجارة»(٢).

وفي الواقع لاتوجد معلومات عن ما قدمته فرنسا من تعويضات الى حكومة مسقط غير أن احد رسائل ردسو الى الشيخ خلفان حاكم مسقط تؤكد استعداد فرنسا لاحترام حياد الميناء(٣).

ان عدم منع القرصنة الفرنسية ضد السفن المسقطية لم يمنع من تطور التبادل التجاري بين ميناء مسقط وجزيرة فرنسا، ونظر الانكليز بعدم الارتياح لهذه الوضعية، ففي الحقيقة ليس فقط العمانيون يحصلون على فائدة كبيرة من بيع البضائع والسفن المستولى عليها من الانكليز (كما يدعون)، كما انهم (الانكليز) لم يتمكنوا من منع مسقط لان تكون قاعدة تنطلق منها هجمات الكورسير المدمرة ضد سفن الملاحة الانكليزية في المحيط الهندي والخليج العربي(٤).

القرصنة ومشكلة رفع العلم المسقطي على السفن الفرنسية والهولندية:

في عام ١٧٩٧ أخذت حكومة بومباي على ممثلي شركة الهند الشرقية في مسقط عدم تأشير الدعايات التي تقول بأن سلطان مسقط سمح للسفن الفرنسية والهولندية برفع العلم العربي (يقصد المسقطي) والتجهيز بالمؤن في ميناء مسقط، وهكذا تخلص من هجمات السفن الانكليزية ويأخذ عليهم (ممثلي شركة الهند ايضا) عدم احتجاجهم لدى السلطان على ذلك، لذا طلب السلطان بعدم السماح للاوروبيين برفع العلم العربي على سفنهم في أعالي البحار(٥).

ولاننسى أن نؤشر أن الوجود الفرنسي كان فاعلا بمنطقة الخليج العربي في نهاية القرن الثامن عشر، فللفرنسيين علاقات تجارية مزدهرة مع مسقط والبصرة وهذه التجارة كان ممكن ان تتطور اكثر لو تجنبت السفن الفرنسية مهاجمة السفن العربية ونهبها(٦)

لذا سعت انكلترا لتقوية جهدها السياسي في مسقط فالانكليز تخوفوا من السلطان وشكوا من انه يهاجم السفن الانكليزية لحساب الفرنسيين وهذا ما كتبه مهدي على خان (مبعوث حكومة الهند الى فارس) ممثلهم في بوشير فيذكر «لدي أسباب كثيرة تجعلني أشك أن الفرنسيين يستخدمون السفن التي تقوم بالتجارة بين مسقط وخليج البنغال والتي أعتقد أن عددها ارتفع من سبعة الى ثمانية»(٤٧).

ومن جهة أخرى اعتقد الانكليز أن السلطان لم يحتفظ بحياده تجاه النزاع الانكليزي الفرنسي في الخليج والمحيط الهندي، فالتجار المسقطيون يشترون البضائع وحتى السفن المأسورة من الفرنسيين. واضافة الى ذلك أن احد الاسباب لفشل الحصار الانكليزي ضد جزيرة فرنسا هو الاحتفاظ بالعلاقات التجارية بين الجزيرة ومسقط.

ومما زاد من الشكوك الانكليزية أن سلطان بن أحمد، بعث برسالة الى دنكان (حاكم الهند) أصر على حياده ويشرح له فيها رفضه مهاجمة السفن الفرنسية فيقول «انتم تعلمون بأنه لا يوجد بينهم (الفرنسيين) وبيني أي تقارب لكن آخذين بالحسبان النقل البحري مع الهند والاتصالات العديدة مع السفن الفرنسية التي تسير بهذا الاتجاه لاأستطيع اعلان الحرب عليهم بشكل مفتوح، وذلك حتى لاتتحطم تجارة رعاياي الذين يتعاملون بشروط جيدة معهم. اذا اعتقدتم بانه يجب اعلان الحرب على الفرنسيين فيجب أن تعرفوا باننا سنكون مضطرين لاستخدام كل سفننا التجارية للدفاع عن زنجبار ومسقط وجانبي الخليج»(٤٨).

وهذا الموقف تلائم بشك تام مع جهود ماكلون Magallon (حاكم جزيرة فرنسا) الذي دفع باتجاه بقاء مسقط على الحياد من هذه الفترة وظهر ذلك عندما أسرت سفن الكورسير الفرنسية ثلاثة سفن مستعصية: الاحمدي، المصطفى، والفضل عيلام، فرفض مالكون الاعتراف بهذا الاستيلاء، فكلف دليل السفينة شاتوڤيل ليقود تلك السفينة الى الهند لارجاعها الى الامير العربي وفي مارس ١٨٠١ ظهر شاتوڤيل Chatenuvile أمام مسقط على ظهر الاحمدي وهو يحمل رسائل بتعليمات مناسبة(٤٩).

مناقشة حجج عمليات القرصنة البريطانية ضد القواسم في القرن التاسع عشر:

ان تطور القوى البحرية العربية أقلق بريطانيا التي وجدت فيها تهديداً لمصالحها في المنطقة، فالانكليز لم يريدوا بأي ثمن رؤية قوة عربية تتنافس مع قوتهم على طريق مستعمراتهم الهندية حتى وأن كانت تلك القوى تمارس تجارة عادية، فكان عليهم إذن عاجلا أو آجلا الدخول في صراع مع القواسم الذين يمتلكون اكبر اسطول عربي مهم يقاوم محاولتهم للهيمنة، كذلك كانت بريطانيا في نفس الوقت تواجه البحرية الفرنسية لتتخلص من المنافسة الاجنبية في مناطق النفوذ هذه.

ولاجل بلوغ هذا الهدف أي ضرب القوى العربية البحرية، كان على الانكليز ايجاد غطاء لذلك فاخترعوا مسألة ما يسمى بالنضال ضد القرصنة، فأطلقوا على اعمال تصدي القواسم وكعب وغيرهم للسفن الاجنبية التي ترفض الاعتراف بالسيادة العربية على مياههم الاقليمية اسم القرصنة

فكان «ضرورة القضاء على القرصنة أحد الحجج، المقبولة كغطاء للتدخل في شؤون كل الدول الصغيرة لساحل بحر عمان. فالعرب لم يظهروا أقل حماسة في نهب السفن فهي مثل القوافل من وجهة نظرهم، فالبحارة الهندوس كفرة والملاحين الاوروبيين غير مؤمنين» كما كتب أحد الرحالة الفرنسيين(٥٠).

وفي الواقع لانستطيع أن نطلق أسم القرصنة على الهجمات التي شنها القواسم ضد السفن الحربية أو المدنية التي ترفع العلم الانكليزي أو الامم الاخرى لانهم يدافعوا عن حقوقهم. «في حين أن القراصنة هم أولئك الذين يهاجمون السفن أو الجزر في أعالي البحار»(٥١).

ومن جانب آخر فان المعنى السياسي للدولة لم يكن بعد قد تطور لدى القوى العربية والحروب تركت آثارها بين مختلف القبائل العربية على ضفتي الخليج ولكل واحد يهاجم سفن الاخر، وكان المؤرخون الغربيين لايفهمون تلك الحروب لذلك أطلقوا عليها مصطلح قرصنة(٥٢).

وكمثال على تلك الاحداث ما زودنا به الصراع في ذلك العصر بين العمانيين والقواسم والذين حولوا الخليج الى ساحة معركة حقيقية ونتج عنه الاستيلاء على بعض السفن البريطانية، فالانكليز سموا ذلك قرصنة. بدون ان يأخذوا بعين الاعتبار أن سفنهم كانت تمر من خلال منطقة حربية(٥٣).

وبمهاجمتهم للسفن التجارية تصور القواسم انهم يقومون بعمل مهم يشبه الى حد ما الغزو لدى البدو(٥٤).

وفي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أتخذت نشاطات القواسم البحرية طابعاً دينياً وأعتبرت مهاجمة السفن نوع من الجهاد (حرب مقدسة) وأعتبروا ما يستولون عليه من بضائع كغنائم الحرب يعطي خمسها الى الشيخ، فعندما كانوا يسيطرون على سفينة انكليزية كانوا يغسلونها ويطهرونها بالمياه(٥٥) ثم يقودون اعضاء طاقهما الواحد بعـــد الاخر الى مقدمة السفينة ليقطعوا رؤوسهم تحت هتافات الله اكبر(٥٦).

ولم يكن القواسم وحدهم يمارسون ذلك فالانكليز والفرنسيون أنفسهم مارسوا الواحد ضد الاخر في مياه المحيط الهندي والخليج العربي(٥٧) وخصوصا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وسنوات العشرينات من القرن التاسع عشر وهذه الحالة هي نفسها للقوى الامبريالية الاوروبية الاخرى، وهكذا فبين ١٨٠٣، ١٨٠٩، استطاعت فرنسا من خلال عمليات القرصنة بأن تنهب ما قيمته بحدود ١٥,٠٠٠ طن من البضائع تعود الى شركة الهند البريطانية(٥٨).

أن هجمات القواسم ضد السفن الانكليزية كانت بسبب رفض الاخيرة دفع ضرائب الكمارك في الموانئ القاسمية، وكان هدف القواسم القضاء على الاحتكار التجاري الذي يمارسه الاجانب في الخليج العربي(٥٩)، وهذا ما رفض الانكليز الاقرار به لان الخليج يقع على الطريق بين أوروبا والهند، لذا مارست بريطانيا ضغطا على التجار الهنود الذين يقيمون علاقات مع الخليج للشكوى ضد القواسم.

فالانكليز أنفسهم كانوا يعتبرون القرصنة التي مارسوها ضد السفن الفرنسية شرعية سواء كانت تعود الى أشخاص أو الاسطول الحكومي(٦٠)، لان تلك الاعمال اجيزت من الحكومة البريطانية

بهدف أضعاف قوة منافسه، والفرنسيون من جانبهم طوروا من تلك التبريرات (التفسيرات)، فنشاط القواسم اعتبر نوعاً من القرصنة لانه لم يجز من قبل حكومة لكن فب بعض الحالات يمكن اعتبار القبيلة كياناً سياسياً رسمياً، وعلى هذا الاساس تعتبر الهجمات العربية كأفعال حربية بحرية تهدف منع الاوروبيين من أختراق منطقة النفوذ العربي(٦١).

وفي هذه الفترة ولدت الامارات العربية الصغيرة ففي ١٨٠٦ عقد الانكليز اتفاقية مع القواسم، وفي عام ١٨٢٠ عقدت بريطانيا اتفاقية بحرية معهم وهذا دليل على اعترافها بأنهم يشكلون سلطة من الممكن ان يتعاملوا معها على المستوى العالمي، كما أن مفهوم الامة لم يكن ناضجاً في المنطقة وبذلك لايمكن أطلاق كلمة قرصنة على الاعمال البحرية التي تقوم بها سفنهم.

ومن جانب أخر فان القواسم كانوا يتعاملون بقسوة مع السفن والبحارة الانكليز أكثر من تعاملهم مع الفرنسين، وفي هذا الصدد يروى بأن سفينتين من سفن جزيرة فرنسا كانتا تحملان بضائع وأحدهما كانت مسلمة وهاجمتها سفن قاسمية في رأس الحد ونهبت شحنتها. وجلبوا بحارتها (طاقمها) الى اليابسة ولكن بمجرد أن عرف القواسم بأنهم فرنسيين أعطوهم حريتهم(٦٢). وهذا دليل على ان القواسم يفرقون بين العدو الحقيقي الانكليزي وأولئك الذين ليسوا في حالة حرب معهم.

فبدل أن يتوجهوا الى القواسم بشكل سلمي ويعرضون عليهم مطالبهم، لجأ الانكليز الى العنف، ومراسلات شركة الهند الشرقية تدل بوضوح على أنها ارادت القضاء على المنافسة العربية في طرق الاتصال البحري بين الخليج والهند وأفريقيا الشرقية(٦٣).

وفي الواقع تعتبر منطقة الخليج لبريطانيا منطقة منفعة اساسية انطلاقا من حقيقة أنها تشكل سلسلة هامة لطريق التجارة الشهير الى الهند، العصب الحيوي للامبراطورية البريطانية، ويجب التذكير بأن احد المرتكزات الاساسية للسياسة البريطانية هو ضمان الاتصالات الامبريالية بين لندن، التي هي رأس الامبراطورية، والهند التي هي القلب، فاليوم الذي تقطع به انجلترا عن الهند سيكون بدون شك نهاية العظمة البريطانية، ولهذا السبب عملت انجلترا على تركيز سلطانها في كل المناطق التي يمر منها طريق الهند(٦٤).

ولهذا غزت بريطانيا المنطقة عسكريا ووجهت ضدها الحملات العسكرية البحرية في أعوام ١٨٠٦ و١٨٠٩ ــ ١٨١٠ و١٨١٩ و١٨٢١، تحت ستار القضاء على القرصنة في حين انها استهدفت بالدرجة الاساس القضاء على النشاط البحري للقوى العربية وتدمير أساطيلهم البحرية، وبذلك تنفرد بريطانيا بالسيطرة الكاملة في منطقة الخليج العربي.

وبالوقت الذي كان فيه القواسم يتصدون للقرصنة والغزو البريطاني للخليج العربي وقفت فارس بجانب الانكليز وأيدت أعمالهم العدوانية، واكد ذلك التأييد للمبعوث البريطاني هارفرد جونز Harfard Johni الى البلاط الفرسي فقال «أن الشاه ايد الحملات البريطانية ضد عرب الخليج، وعندما أخبره جونز بالنجاحات التي حققها أسطول شركة الهند البريطانية ضدهم أجاب بارك الله هذا عمل شجاع»(٦٥).

حاولت الحكومة الفرنسية في القرن التاسع عشر تقوية علاقاتها مع مسقط لان نابليون لم يتخل عن مشاريعه معها لقربها من المستعمرات البريطانية في الهند ولهذا كان يحتاج الى تقوية العلاقات مع الحكام المحليين على طريق الهند، اضافة الى الموقع الاستراتيجي المهم لمسقط. وتتضح تلك الرغبة فيما جاء بتعليمات القنصل الفرنسي كاڤيناك Cavaighac المرسل الى مسقط حيث اكدت تعليمات على «تطمين الامير العربي بأن ينتظر عدالة الحكومة الفرنسية وانه سينظر في احتجاجاته والحقيقة أن الاحداث ستفهم بشكل كامل، ونعرف بان عدد من السفن المسقطية (التي نهبت بضائعها وقدرت بكميات هائلة قامت بنهبها سفن الكورسير لجزيرة فرنسا، وقد أدينت تلك العمليات من محكمة الجزيرة»[66].

وكانت تعليمات ديكان (حاكم جزيرة فرنسا) الى كاڤيناك تؤكد على نفس الموضوع حيث جاء فيها «اعطاء سلطان مسقط التقدير والاهتمام بأرسال شخص منتخب لاعادة العلاقات الخاصة التي لم تتدهور أبداً بين الفرنسيين الذين يأتون الى السواحل العربية السكان الا بسبب سفن الكورسير التي بقيت بعيدة عن الرقابة».

وأشارت تعليمات دريكان أيضا الى كاڤيناك «ابدأ علاقاتك مع الامام بأعطائه اثبات عن تصور حكومة فرنسا تجاه القرصنة التي تمارس ضد تجارة الأمة والتي لا تريد معها الا علاقات الصداقة، وانت مكلف بشكل خاص لجمع المعلومات والتلويح بأنه سيتم التعويض اذا ما ثبت ذلك»[67].

وعلى الرغم من كل هذا الاهتمام من الحكومة الفرنسية لم تتوقف سفن الكورسير الفرنسية التي استمرت ترسو في ميناء مسقط للتزود بالوقود، من مهاجمة السفن الانكليزية التي تلاقيها في الخليج العربي[68].

وبسبب من تلك الاوضاع اقترح المقيم الانكليزي في بوشير على حكومة الهند بتأمين الحماية للتجارة الانكليزية وحراسة كل سفينة تجارية بسفينه حربية[69].

ومن جانب آخر ازدادت الاشتبكات واعمال القرصنة البحرية بين السفن الانكليزية والفرنسية في هذه الحقبة، وقد قدرت الاضرار التي نجمت عن اعمال الهجمات القرصنية تلك بين عام ١٧٩٣ ــ ١٨٠٤ ب ٣٠٠ ألف ليڤر استرليني.

والجدول التالي يوضح عدد «السفن التي نهبت من الفرنسيين أو الانكليز في المحيط الهندي والخليج العربي بين عام ١٧٩٣ ــ ١٧٩٧»[70].

السنة	سفن بضائع سيطر عليها الفرنسيين من الانكليز وعددها	سفن بضائع سيطر عليها الانكليز من الفرنسيين وعددها
١٧٩٣	٢١٦	٦٣
١٧٩٤	٥٢٧	٨٨
١٧٩٥	٢٠٢	٤٧
١٧٩٦	٤١٤	٦٣
١٧٩٧	١١٤	٥٦٢
المجموع	١٤٧٣	٧٨٣

ويبدو ان العمانيين كانوا يستفيدون من اعمال القرصنة المتبادلة بين البريطانيين والفرنسيين، فثمرة تلك العمليات كانت جلب تلك السفن المستولى عليها قرصنياً وبضاعتها وبيعها في جزيرة فرنسا فكان «عرب مسقط يجدون في هذه العمليات (عمليات البيع) وقسم من المواد الغذائية سوقاً مفتوحة للمضاربة(٧١)، فالسلطان والتجار العمانيين كانوا يحتفظون بممثلين في بورت لويس ومكلفين بشكل خاص لشراء تلك المنهوبات التي ترسل لاحقا الى موانئ الخليج العربي، وحتى الى كلكتا لتباع هناك ثانية»(٧٢).

لقد غالى الطبيب والفيزيائي الايطالي ميروزي Muruz الذي كان يقيم في مسقط عام ١٨٠٩، كطبيب خاص للسلطان فذهب الى حد القول «بأن غالبية سفن البحرية العمانية ذات حمولة ٣٠٠ الى ٧٠٠ طن كانت سفن انكليزية نهبت من قبل الفرنسيين تم شراؤها من قبل المسقطيين في جزيرة فرنسا»(٧٣).

والواقع أن هذا التفسير ينطلق من وجهة نظر الانكليز التي أرادت الضغط على سلطان مسقط لتجعله يتخلى عن موقف الحياد ويقف الى جانب انكلترا في صراعها ضد الفرنسيين.

أن تصاعد الاعمال القرصنية الفرنسية أقلق الانكليز اكثر فأكثر، فالقبطان وود Wood قائد سفينة الحرب كونكورد Concorde التي كلفت بالتجول والحراسة في الخليج مع السفينة كورنواليس Cornowlace قدم تقريرا في ٧ تشرين الاول ١٨٠٤ الى مسؤوليه ليجلب انتباههم حول الخطر الذي تشكله حالة القرصنة سواء بالنسبة للنقل التجاري والمراسلات الانكليزية(٧٤).

ومن الامثلة على عمليات القرصنة المتبادلة بين السفن الفرنسية والانكليزية في منطقة الخليج العربي الذي حصل في تشرين الاول ١٧٩٩ فتقابلت السفينة الملكية Tricomali تريكومالي مع

السفينة الفرنسية الاقيجين Ephigenie ونتج عن الاشتباك تدمير السفينتين بعد حصول أنفجار في السفينة الانكليزية Tricamali وفي عام ١٨٠٤ نهبت سفينة الحرب الفرنسية La Fortury الحظ، والسفينة الانكليزية الطائر، فلاي Fly التي تعود الى شركة الهند الشرقية(٧٥) وتقودها الى بوشير ومن جانب آخر لم تكن هذه أولى السفن التي تعاد الى هذا الميناء(٧٦) فثلاثة أخرى على الاقل لاقت نفس المصير بين أيلول وتشرين الثاني عام ١٨٠٤(٧٧)، وعندما علمت حكومةبومباي بخبر الاستيلاء على الفلاي Fly أرسلت كورت الذي سبق أن شارك بعمليات بحرية داخل الخليج ليحاول أرجاع السفينة المنهوبة لكن قبل مغادرته وصل خبر الاستيلاء على السفينةالفرنسية لافورتين La Fortune في شهر تشرين الثاني بواسطة السفينة الانكليزية الكونكورد(٧٨).

ولعل الشئ المهم الملاحظ على هذه العملية البحرية أن تأثيرها لم يظل محدوداً ومقتصراً على سفن الدول الاوروبية وانما أمتد تأثيره بشكل قرصنة ضد السفن العربية التي لم تكن داخلة في حرب مع أي من البلدين، فقامت سفينة فرنسية كانت تتجول مقابل مسقط بمهاجمة «سفينتين عربيتين بالقرب من هذا الميناء»(٧٩).

ولم يقتصر التأثير السلبي للأصدامات الفرنسية البريطانية البحرية على مهاجمة السفن العربية فقط اذ كان يقود قسم منهم السفن المنهوبة وبضائعها الى الموانئ العربية وهذا ما يثير سلطاتالطرف الثاني ضد العرب ويتهمونهم بالتواطؤ مع هذا الطرف أو ذاك. في شهر آب من عام ١٨٠٥ استولت السفينة الفرنسية بيل بون Belle Poule على السفينة الانكليزية Endeauour أنديڤور وقادتها الى مسقط(٨٠) وهذا أثار من جديد سلطان بومباى وذهبت الى حد اعتبار ميناء مسقط قاعدة للسفن الفرنسية تهاجم سفنها (الانكليزية) منها، وقاعدة لتوينها وسوقاً لمنهوباتها(٨١).

وفي الحقيقة ان الانكليز يطلبون من سلطان مسقط تحقيق ما هو مخالف للقانون وفوق طاقة الحكومة المسقطية فلا توجد اتفاقيات معقودة بين الانكليز والسلطان يتعهد فيها بمنع رسو السفن الفرنسية في موانئه.

عادت الاصدامات مرة اخرى بشكل كبير بين السفن الفرنسية والانكليزية في منطقة الخليج العربي اثناء حكم سيد سعيد، واقتربت اكثر فاكثر من المياه الاقليمية المسقطية، وفي بعض الاحيان كانت تقع في ميناء مسقط نفسه. ولكن في هذه المرة كان الفرنسيون يشتكون الى سلطان مسقط من هجمات الانكليز ضد سفنهم في حين في المرات السابقة كان العكس. «في ٢٦ تموز ١٨٠٦ كانت سفينة الكورسير الفرنسية Le vigilant الڤيجلانت في ميناء مسقط تتزود بالمياه والمؤن عندما ظهرت الفرقاطة الانكليزية الكونكورد Concorde وهاجم البحارة الانكليز البحارة الفرنسيين الذين كان قسم منهم في سفن عربية صغيرة بالقرب منها، بعد أن رفضوا طلب أحدي موظفي السفينة الانكليزية بتسليم مفاتيح مخازن السلاح في السفينة الفرنسية»(٨٢).

ولم يكتف قبطان السفينة الانكليزية الكونكورد بذلك، بل تقدم الى السلطان يطلب منه اعطاء

الامر الى السفينة الفرنسية لمغادرة ميناء مسقط خلال اربعة وعشرين ساعة، لان الخدمات التي قدمت لها، تشكل خرقا للاتفاقيات المعقودة بين مسقط وانكلترا، وتضع علامة استفهام على حياد مسقط (كما قال القبطان الانكليزي)(٨٣).

بعد هذا الانذار أعطى السلطان امراً مباشرا الى السفينة الفرنسية الفيجلانت لمغادرة الميناء وعند خروجها من الميناء اعترضتها السفينة الانكليزية على بعد ٩ أميال(٨٤) واستولت عليها دون مقاومة لانها لم تتمكن من التزود بالوقود من مسقط(٨٥).

ولخشية سيد سعيد (امام عمان) من رد الفعل الفرنسي ضد السفن العمانية (لان جزيرة فرنسا كانت مركز لسفن الكورسير القرصنية ويخشى من انها تهاجم السفن المسقطية)، أرسل مبعوثا الى حاكم جزيرة فرنسا لتسوية المشكلة وشرح الحادث الذي وقع اثناء غيابه واثناء الاضطرابات في مدينة مسقط(٨٦).

ثم كتب الامام بعد ذلك الى دنكان (رئيس حكومة بومباى) محتجا ضد ماقام به قبطان الكونكورد وطلب أعادة الفيجيلانت، وقد اعترف دنكان بان حجة قبطان السفينة الانكليزية القانونية لم تكن مقنعة لكن دنكان عندما طلب كان يقدم شرحاً الى رئيس محكمة بومباى الذي يحكم بقضية الفيجلانت ذكر للقاضي بأن الحكومة (حكومة بومباى) ستكون في وضع رسمي حرج في حالة مصادرة السفينة، غير ان هذا القاضي ظل يرفض ان يأخذ بعين الاعتبار وجهة نظر دنكان وأكد للحاكم انه يعتبر الفيجلانت غنيمة حرب(٨٧).

ولم يكن سلطان مسقط مخطئا لتحويطاته، في الواقع بعد بضعة اشهر تعرض الاسطول المسقطي لخسائر كبيرة، السفينة الفرنسية البيومنتيز Piemontaise اعترضت بالقرب من خليج البنغال ثمان سفن ونهبت حمولتها وبضائها وعندما اعترض المسقطيون على هذا العمل رد قبطان السفينة الفرنسية، بأن العلاقة بين فرنسا ومسقط قطعت منذ أن رفض السلطان استقبال كافيناك، ومنذ ان عوملت السفينة الفيجلانت معاملة سيئة(٨٨)، وأضاف كذلك بانه استلم أمراًمن الجنرال ديكانللانتقام من الاستيلاء على الفيجلانت(٨٩).

وخشية من تأمر الفرنسيين، قرر سيد سعيد أرسال مبعوث الى بومباى يحمل رسالة الى دنكان، وفي هذه الرسالة يشتكي السلطان من موقف البريطانيين منه. واقترح عليه أما أن يتكفلوا بحماية السفن المسقطية وأما أن يعيدوا سفينة الفيجلانت الفرنسية(٩٠).

يأس سيد سعيد من وصول جواب على رسالته من دنكان فأرسل مبعوث الى دنكان، حاكم جزيرة فرنسا، وهو يحمل رسالة «اكد فيها مساعيه السابقة لدى السلطات الانكليزية في الهند لاستعادة السفينة الفرنسية وأمله في استعادتها»(٩١).

غير أن حاكم جزيرة فرنسا أوقف المبعوث المسقطي وحجز سفينته في ميناء نابليون، ولكنه سمح لقسم من الطاقم بالمغادرة بعد أن أعطاهم رسالة الى السيد سعيد «احتج فيها ضد المعاملة السيئة

التي عانى منها الفرنسيون عند الاستيلاء على الفيجلانت، وضد مقتل قبطان أحدى السفن الفرنسية، وطلب بأن تعاد السفينة الفرنسية المأسورة وطاقمها، ويجري معاقبة قتلة القبطان شتلات، وارسال ممثلين لديهم صلاحيات كاملة للتفاوض على ما يرضي فرنسا وما لها من حقوق»(٩٢).

ويبدو أن الرسالة تركت اثرها على السلطان فكتب من جديد الى حكومة بومباى بأعادة السفينة الفرنسية، وتعجب من عدم استلام أي جواب على رسائله السابقة بهذا الخصوص.

ولم يأت الرد من حاكم بومباى الى السلطان حتى نيسان عام ١٨٠٧ ومما جاء فيه «ان حكومة بومباى ترى من الافضل أن تعتمد مسقط موقف الحياد من الصراع الانكليزي الفرنسي، وبالنتيجة لاترى بأن من غير المناسب أن يكون لمسقط علاقات صداقة حميمة مع فرنسا(٩٣).

أن سلطان مسقط استمر في سعيه لحل مشكلة السفينة الفرنسية كي لاتتعرض سفنه الى قرصنة جديدة، فوصل مبعوثه الى ميناء نابليون في ٢٠ مايس ١٨٠٧ مع سفينتين(٩٤)، وأكد المبعوث المسقطي الجواب السابق أن حادث السفينة الفرنسية وقع اثناء وجود الامام خارج الميناء، أما بالنسبة لقاتل القبطان الفرنسي فانه غادر مسقط قبل ان يعرف أحد بجريمته ويوجد الان خارج اطار سلطة امام مسقط»(٩٥).

وخلال فترة النظام القاري عقدت اتفاقية بحرية مهمة عام ١٨٠٧ بين جزيرة فرنسا وامام مسقط سمحت أحد موادها لسفن السلطان بالانتقال بين مختلف الموانئ الواقعة تحت النفوذ الفرنسي أو الانكليزي بدون التعرض لخطر الاستيلاء عليها من سفن جزيرة فرنسا(٩٦)، الا ان هذه الاتفاقية لم تصادق عليها الحكومة الفرنسية لتعارضها مع تشريع النظام القاري.

غير ان عمليات اقرصنة عادت من جديد ضد السفن المسقطية بالرغم من الاتفاقية السابقة، فعادت معها شكاوي التجار ضد سلطات جزيرة فرنسا، في عام ١٨٠٨ كتب امام مسقط رسالة الى الجنرال ديكان يبين له فيها «بأن سكان جزيرة فرنسا قاموا بأعمال بالضد من الصداقة (بين البلدين فرنسا ومسقط) فعند ملاقاة السفن العمانية في المحيط الهندي وزنجبار، فأنهم يقتربون (الفرنسيين) من السفن المسقطية بحجة أخذ الاخبار منها ولكنهم يستولون عليها وينهبونها(٩٧)، وعلى الرغم من ارجاع عدد من السفن المسقطية وحمولتها الى المسقطيين بعد تدخل ديكان ظل «المرشسيون يبحثون عن ألف حجة وعذر لتفادي الانصياع الى أوامر الجنرال»(٩٨).

وقد أخبر امام عمان (حاكم جزيرة فرنسا) بأنه كتب الى كارون السفير الفرنسي في فارس، طالبا اليه الكتابة الى الحكومة الفرنسية لتمنع الاعمال القرصنية السفن الفرنسية وتضع حداً لها ونهاية(٩٩) وعندما تم نهب سفن مسقطية من جديد، أرسل السلطان من جديد مبعوثا آخر هو علا صالح، الى ديكان الذي حاول تهدئته، لكن المبعوث المسقطي طالب بأحترام الاتفاقية المعقودة بين الحكومتين من قبل الحكومة الفرنسية(١٠٠).

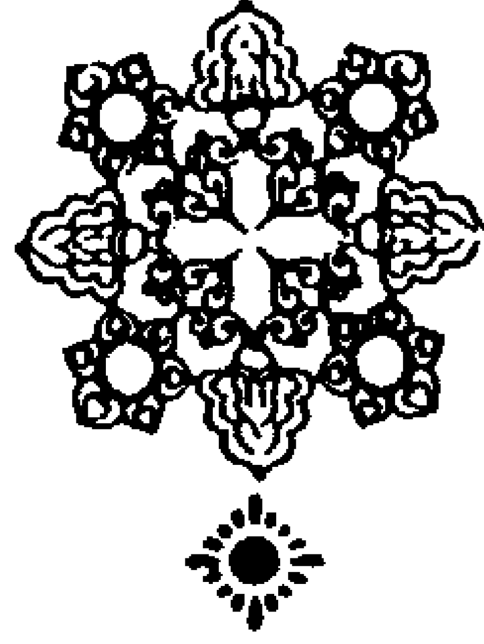
وفي الحقيقة لم تتوقف عمليات القرصنة ضد السفن العربية رغم كل تلك الجهود ويظهر غضب

التجار الوطنيين من خلال رسالة أحد التجار الاغنياء المسقطيين الى نابليون الاول التي جاء فيها «لم يبق أمام العرب أي طريق للخروج من مأزقهم، فهم اعتادوا الاتجار مع الهند، ولكن بسبب ما تعرضوا له من نهب فأنهم قللوا من تلك العلاقات، ونحن نكتب الى فخامتكم لنحتج على ما سلب منا من قبل سكان جزيرة فرنسا.(١٠٠)

الخاتمة:

كانت القرصنة الاوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ضد القوى العربية البحرية أحد العوامل المهمة التي أثرت على التجارة العربية وطرق اتصالها الخارجي وأضرت بالمصالح الاقتصادية العربية، واستهدفت القضاء على السيادة العربية على مياه العرب الاقليمية في الخليج العربي والحد من عملياتهم التجارية في المحيط الهندي والبحر الاحمر.

ولم يحترم الاوروبيون موقف الحياد الذي اتخذه العرب تجاه الصراع الفرنسي الانكليزي، فتعرضت السفن والموانئ العربية الى الضرب والنهب. وبالوقت الذي خاضت فيه بعض الموانئ العربية البحرية كالقواسم مثلا قتالا بحريا شجاعا ضد القرصنة الاوروبية (خاصة الانكليزية) التي ترفض الاعتراف بسيادة العرب على مياههم وسميت هجماتهم على سفنها باسم قرصنة، نرى ان الفرس باركوا العدوان البريطاني القرصني على السفن العربية وأيدوا تدمير قوى الاساطيل العربية.



الهوامش

1. Pavie (Th), La marine des Arabes et des Hindous, Revve des deux moudes, Vol 4, Paris, 1843, p.576.
2. Miles S.B., "THE COUNTRIES AND THE TRIBES OF PERSIAN GULF, London, 1966, p.143.
3. Al Hilo S.L'EUROPE ET LES PROBLEMES MARITIMES DU GOLFE ARABE DE 1789-1857.
   T.1 AIXEN PROVENCES, Thise doctorat d'Etat un public, 1983, p. 57.
4. Expedition Maritime Aux Indes Orientales, Archives, Nationales, Serie M1201. France.
5. Ibid.
6. Lettre de Mr. I'Eveque de Babylone a'mr le Ministre de la Marine, Bagdad, 9 Janvier 1760. Archive Nationales, A.F.B. Bagdad, Correspondance consulaire et commercial, p.140.
7. Ibid.

8.9. Ibid.

10. Miles S.B., Op Cit. pp 269-270.
11. Guillain m., DOCUMENTS SUR L'HISTOIRE LA GEOG-RAPHIE ET LE COMMERCE DE L'AFRIQUE ORIENTALE, Vol 2, PARIS 1857, p.555
12. Miles S.B. Op. Cit. p.274.
13. العابد، صالح، الموقف البريطاني من النشاط الفرنسي في الخليج العربي، بغداد ١٩٧٩، ص ٦٨
14. Al Hilo S, p.99
15. Miles S.B. Op. Cit. 277.
16. Guillain M. "Op. Cit, Vol 1, pp. 204-205.
17. Ibid 205.
18. Lettre de Mr. Rousseau a Mr. le Marquis de castries, Ministre de la marine, Arch. Nat. BIAF 197, 1783-1791), Bassorah, p. 348.
19. Lettre de I'Imam de Muscate TI, 1783-1810, p.33
20. Copie de la lettre de I'Imam de Muscate a Mr. Roussau, 1786 Arch. Nat. Corresp. Consul, BIAF Bagdad, 176, 1776-1786.
21. ـ صالح، زكي، العراق وبريطانيا ١٦٠٠ ـ ١٩١٤، بغداد ١٩٥٧ ص ٥٣
22. Miles (S.B) Op. Cit. p. 278.
23. Au Zoux A LA FRANCE ET MASCATE AUX XVIII ET XIX SIEDES, Revue d'Instuite diplomatique, Vol 23, Paris, 1990. p. 526.
24. Ibid.
25. Lettre de Mr. Rousseau a Mr. le Ministre de la Marine, Alep, le 26 A Avril 1782, Arch. Nat. B1 AF 1.76, 1776-1786 Bagdad.
26. Au Zoux A. Op Cit p. 558.
27. Lettre de I'Imam de Mascate a M. Rousseau 1790, Corresp. Consul Muscate TI 1783-1810 p.72.

28. Rousseau a M.le Comte de la, le 28 mai 1790, Arch. Nat, Bagdad, BIAF 177.
29. Lettre de Rousseau au Citogen Descroches, envoye extraordinaire de la Republique Francaise aupres de la Porte Ottomane, AAE, Corresp. Politique, Perse, Vol 8. p.54.
30. ـ العقاد، صلاح، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة.
31. AuZoux M. Op Cit. Vol 24 p. 234
32. Firouz K.LE SULTANAT D'OMAN ET LA QUESTION DE MASCATE, Paris, 1974 p. 76.
33. Lettre de Rousseau Des Corche, representant de la France aupres des Ottomans, Bagdad 430 Venal mare AN III, AAE., Corresp Consul et commercial, Mascate TI p. 79.
34. Al HiloS Op Cit. Pt 1 p. 120
35. Al Akad S. La rivalite Franco — Britanique dans le Golfe Arabe et les dependance de l'Oman 1792-1862, Thise de doctorat de, Universite de Paris, Paris 1956 p. 13.
36. ـ العقاد، صلاح، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة. ص ٦٢
37. Archives Colonies, Ile de France, Corresp. General 37 C4 Vol 93 An III
38. Rapport au Comite de Salut Public, 18 Germinal, Au III Archives Colonies 14 de France Vol 93.
39. Tradition de la copie d'une lettre ecrite paz le cheik Kalfan Government de Mascate 1 au citoyen Rosseau Consul in Bagdad An 71, AAEI Mimoires et documents, Perse, Vol 2, 1740-1839 p. 156.
40. Lettre du Citogen Rousseau au Citogen Descroches envoye' extra-ordinaire de la Republique Francaise a' Constantinople AN 11 1AAE, Corresp Consul Bagdad Vol 4 1792-1812, p.25.
41. Rapport du 18 germinal, ANIII, AAE Corres Consul Mascate TI 1783-1810, p. 110.
42. AuZoux M l Op cit Vol 24 p. 235
43. Lettre de M. Rousseau a Descroches envoye extraordinaire de la Republique Francaise Pres de la porte Ottoman, Bagdad 30 Nov. AN 111, AAE, Corresp. Consul, TI Mascate p. 79.
44. العابد، صالح، الموقف البريطاني من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ص ٧٣.
45. Miles SB Op Cit p. 289
46. Al Hilo S. Op Cit. TI p. 130
47. Al Akad S. les rivalities Op Cit p. 28
48. Ibid p. 51
49. Prentout Henri Lile de France Sous Decaen 1803-1810 Paris 1901 p. 332
50. La mer Rouge et le golfe Arabe: Situation des Agents anglais et Francais. par un voyageur 1 Revue des deux mondes, vol. 6 Paris 1844 p. 825.
51. نودي، برهان محمد. ساحل القراصنة، آفاق عربية العدد ١١، بغداد تموز ١٩٧٨، ص ١١٣

52. Landen R. OMAN SINCE 1856 New Jersey, 1967 p. 10.
53. ـ العابد، صالح، دور القواسم في الخليج العربي بغداد ١٩٧٦، ص ٩٦.
54. Dubuisson P "Qasimi, Piracy & the General Treaty of Peace 1820"
55. ـ العقاد، صلاح، التيارات السياسية، ص ٩٣.
56. Kelley J. BRITAIN AND THE ARAB GULF 1795-1880 Oxford 1968 p. 111
57. Al Hilo S. Op Cit. p. 305
58. Philips CH THE EAST INDIA COMPANY 1784-1834 Manchester 1961 pp 79-155
59. ـ ابراهيم، عبدالعزيز غني، بريطانيا وامارات الساحل العماني، بغداد ١٩٧٨، ص ١٧٣ ـ ١٣٨
60. Dubuisson P. Op Cit p. 47
61. ـ النجار، مصطفى عبدالقادر، التاريخ السياسي لمقاطعة عربستان ١٨٨٧ ـ ١٩٢٥، القاهرة، ١٩٧٠ ص ٤٥.
62. Buckingham J.S. TRAVELS IN ASSYRIA, MEDIA & PERSIA London 1829 pp 380-382.
63. ـ ابراهيم، نفس المصدر، ص ١٣٧
64. Chevalier J.J. LE'VOLUTION DE L'EMPIRE BRITANNIQUE T2 Paris 1930 p. 999
65. Brydges U.J. AN ACCOUNT OF THE TRANSACTIONS OF HIS MAJESTY TO THE COURT OF PERSIA 1807-1811 Vol 2 London 1834 p. 40.
66. Instructions pour le citoyen cavaignae, resident commissaire general des relations commerciales de la Republique Francaise a Mascate 5 Vendemiaire ANXI Arch Nat Section d'outre mer papier de cavaignal, mission a lile de France, micro film No. 1 mit B8
67. Ibid
68. Coupland R. AFRICA AND ITS INVADERS FROM THE EARLIEST TO THE DEATH OF SEYYED SAID IN 1856 Oxford 1938 p. 106
69. ـ العقاد، صلاح، التيارات السياسية، ص ٦٦
70. Malleson CGR "les deraieres lettes des Francaise dans I'Inde et sur I'ocean indien" Translait de Englis, Paris, 1932, p. 87.
71. Guillain M. Op. Cit. Vol. 1 p. 210
72. Coupland R. Op Cit pp 16-107
73. Maurizi V.S. A HISTORY OF SEYED SAID SULTAN OF MUSCATE TOGETHER WITH AN ACCOUNT OF THE COUNTRIES AND PEOPLE ON THE SHORES OF THE GULF, London, 1811. p. 30.
74. Captain Wood, Commanding HMS Concorde to G.A. Grant, Nov 7 1801 IOR, Bombay Pol & Sec. Proceeding Range 382 Vol 1
75. Buckingham G. Op. Cit p. 409.
76. Bulletin des nouvelles d' Alep du per nivose au XIII, AAE Corresp. Publique Perse Vol 8 1758-1805 p. 205
77. Low C.R. HISTORY OF INDIAN NAVY 1613-1863 London 1877 p. 225
78. Ibid

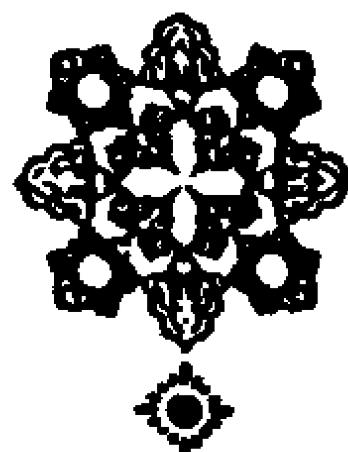
79. Bulletin des nouvelles Op Cit AAE Corresp. Politique Perse Vol 8 p. 203
80. Miles Op Cit p. 307
81. Kelly J.B. Op Cit p. 307
82. AuZoux Op Cit Vol 24 p. 256-257
83. Coupland R. Op Cit p. 116
84. Kelly J.B. Op Cit p. 76
85. AUZOUX A. Op Cit Vol 1 pp 256-257
86. Rapport du ministre de la marine a a a majeste l'empreur et Roi sur les evenements qui out precede la conclusion d'une convention Signee l'imam de Mascate, Paris, Mars 1808, dossier 4 AN, AF 1215
87. Kelly J.B. Op Cit. p. 77
88. Coupland R. Op. Cit p. 110.
89. Kelly J.B. Op Cit p. 77
90. Ibid.
91. Sayed Said a 'Decaen 15 Sep 1806 Arch Nat Colonies 14 de France, Corresp. Politique Vol 113.
92. Decaen a Sayed Said, 21 Octobre 1806 Arch Nat, Colonies 14 de France, Corresp Politique Vol 113
93. Kelly J.B. Op Cit p. 78.
94. Au Zoux Al Op Cit Vol. 24 p. 259.
95. Rapport du ministere de la marine Op Cit, Arch. Nat. AFIV 1215.
96. Al Hilo S Op Cit TI p. 212
97. Lettre du Sultan de Zanzibar et d'Oman au general gardane 1808, Arch. Nat. AFIV 1686.

98, 99. Ibid.

100. AuZoux Op Cit Vol. 24 p. 264.
101. Traduction d'une lettre e'crite par Said Mohamed Akib, Negociant de Mascate, a.s.m.

l'empereur et Roi, Mascate, le 27 aout 1810 AAE Corresp. Consul Mascate TI 1783-1820 p. 317.

ABBREVIATIONS:
AAE Archives du minister des Affaire etrangere
Arch Nat. Archives Nationales
Corres Consul Correspondence Consulaire



عدن والمطامع البرتغالية في القرن السادس عشر

محمد عبد المحسن عبود الحلي

كان نجاح الاسبان والبرتغاليين في حروبهم الصليبية التي شنوها على العرب المسلمين في الاندلس خلال القرن الخامس عشر والتي انتهت بتصفية معاقلهم في تلك البلاد حافزاً لمتابعة حروبهم الصليبية ضد المسلمين لا في الاندلس وشواطئ المغرب العربي فحسب بل في معاقلهم البعيدة في الشرق. لتنفيذ مخططهم الصليبي الذي كان يهدف الى الوصول لمملكة القديس يوحنا المسيحية (الحبشة) في شرق افريقيا ويعنون بها الحبشة ـ للتعاون معها في شن حرب على المسلمين في تلك المناطق وطعنهم من حيث لا يتوقعون(١).

ويمكن القول ان البرتغال كانت من أوائل الدول الاوربية التي مخرت سفنها عباب البحر الاحمر والخليج العربي في طريقها الى الهند موطن الثراء مستهدفين القضاء على توسط المسلمين والبنادقة في نقل التجارة منطلقين الى تأسيس امبراطورية استعمارية فيا وراء البحار مدركين ان ذلك لايتم الا بالقضاء على النفوذ الاسلامي في البحار الشرقية(٢).

ومنذ ان تم لهم اكتشاف الطريق الجديد الى الهند عبر رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٩٢م فقد عززوا احتكارهم لتجارة الشرق لسيطرتهم على العديد من الجزر الواقعة على امتداد شواطئ افريقيا واسيا وخاصة بعد ان برزت لهم أهمية ميناء عدن كقاعدة هامة على الطريق البحري الى الهند، وأفضل نقطة استراتيجية يمكن من خلالها السيطرة على حركة المرور في البحر الاحمر(٣).

تعرضت عدن خلال النصف الاول من القرن السادس عشر لكثير من الضغوط الاستعمارية التي استهدفت احتلالها والسيطرة عليها لما كانت تتمتع به من أهمية استراتيجية وتجارية، وأصبح أمر السيطرة على عدن وانهاء دورها جزءاً من مخططات السياسة البرتغالية المقبلة(٤) والظاهر أن البحر الاحمر كان اكثر اغراء للبرتغاليين لانه يؤدي الى الاماكن الاسلامية المقدسة ولتثبيط همة المقاومة الاسلامية في الهند ومن جهة أخرى كان البرتغاليون يريدون ان يقطعوا سبيل الاتصال ما بين مسلمي الهند ودولة المماليك في مصر لاسيا وان الممالك لحقهم ضرر اقتصادي نتيجة اكتشاف رأس الرجاء الصالح(٥).

ادرك المصريون خطورة تسرب النفوذ البرتغالي في الهند وفي نفس الوقت كانت تراودهم نفس الاطماع التي كانت تراود البرتغالين في احتلال عدن وشعروا بالمنافسة البرتغالية على تجارتهم(٦). وخاصة بعد وصول البرتغاليين الى عدن في سنة ١٥٠٣م واستمروا يترددون على المدنية يدرسون ويحللون أحوالها السياسية والاقتصادية والعسكرية. وفي سنة ١٥٠٤م وصلت الى ميناء عدن سفن حربية برتغالية وأسرت سفينة عربية وقتل البرتغاليين بحارتها بطريقة قاسية(٧). وفي سنة ١٥٠٥م تمكن البرتغاليون من تثبيت أقدامهم على سواحل الهند حينا أسسوا بها حكومة يرأسها نائب الملك (وليدا) في سنة ١٥٠٥(٨).

وفي سنة ١٥٠٦م نجح البوكيرك في الاستيلاء على جزر كورياموريا وجزر هرمز وبعض موانئ الخليج العربي مما جعل الملك (عمانوئيل) يسند الى البوكيرك منصب نائب الملك في الهند سنة ١٥٠٩(٩). وصارت الامدادات ترد عليهم من البرتغال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين اسرا ونهبا ويأخذون كل سفينة غصبا الى ان كثر ضررهم على المسلمين رغم آذاهم على المسافرين(١٠).

ويقول ابن الديبع عن اعمالهم تلك (قويت شركة المفسدين في قطاع طرق المسلمين في البحر بطريق الهند وهرمز وكان اعظمهم ضررا طائفة لافرنج (البرتغاليون) فأنهم فعلوا بالمسلمين الافاعيل وأخذوا كل سفينة غصبا واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم ونسائهم وأولادهم وفعلوا المنكر عيانا واستمروا على ذلك زمانا فبعث أهل مدينة عدن الخبر الى السلطان (قانصوه الغوري) يستطيعون على الفرنج(١١) كذلك بعث مظفر شاه سلطان كجرات الى السلطان يطلب المساعدة منه ويطلب العدد والالات والمدافع لدفع ضرر الافرنج ولم يكن أهل الهند اذ ذاك يعرفون المدافع والبندقيات يؤمئذ(١٢).

فأراد المماليك الدخول في معركة حاسمة مع البرتغاليين لاثبات وجودهم في البحر الاحمر والمحيط الهندي وأدرك المصريون أنه لابد لهم من مراكز تجارية وعسكرية لتعزيز حملاتهم المنتظرة مع خصومهم البرتغاليين والمركز الذي كانوا يرمقونه هو (عدن) وخاصة بعد تسرب النفوذ البرتغالي اليه(١٣).

وضع المماليك خطتهم في مواجهة البرتغاليين على أساس يهدف الي القضاء على المراكز البرتغالية في الهند، باعتبار أن القضاء على تلك المراكز سيؤدي الى تهاوي المواقع البرتغالية الأخرى موضحة موضع التنفيذ بالتعاون مع الامراء الهنود، واستطاع الاسطول المصري من احراز انتصار جزئي على البرتغاليين في عام ١٥٠٨م وظلت الحرب سجالا بين الطرفين الا ان المصريين لم يكونوا في مستوى البرتغاليين من حيث القوة العسكرية والدراية البحرية، حيث تمكنت القوات البرتغالية من ان تحقق انتصارا بحرياً هاماً على المماليك في معركة (ديو) المشهورة عام ١٥٠٩م ونقل البركيرك مقره من (كتانور) على الطرف الجنوبي لشبه جزيرة الهند الى (جوا) على ساحل (ملبار) المطل على بحر العرب لينظم القرصنة البرتغالية ضد الملاحة التجارية العربية(١٤). فراح البرتغاليون يطاردون السفن العربية في المياه الافريقية وجعلوها غير قادرة حتى على الحركة في الخلجان الافريقية

الصغرى. وكان نصيب السفن اليمنية الجنوبية من تلك المطاردة العنيفة اكثر من نصيب السفن العربية الاخرى(١٥).

واستمر البرتغاليون باخضاع السواحل الهندية الغربية فبأنقضاء سنة ١٥١٠م كانوا قد احتلوا اقليم (كوهين) واقليم (كاليكوت) بعد ان نهبوا واحرقوا المدينة واقليم (جوا) التي كانت تحكمها اسرة هندية مسلمة، وقد قتل البرتغاليون جماعة من المسلمين كانت تؤدي صلاة الجمعة في جامع (جوا) وابتدأوا يعدون العدة لغزو (عدن) التي كانت خاضعة للدولة الطاهرية اليمنية على عهد الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب الطاهري وكان حاكم عدن هو (مرجان الطاهري) وهو نائب بني طاهر(١٦).

وفي سنة ١٥١٣م عاود البرتغاليون الكرة بادئين بالبحر الاحمر ولكنهم كانوا يصطدمون دائما بالبحرية المصرية وفي تلك الاثناء حدث اتصال بين الحبشة والبرتغال بهدف ايجاد جبهة متحدة ضد المسلمين وبخاصة ضد المماليك(١٧).

فتحركت من ميناء (جوا) الهندية عشرون سفينة برتغالية وهندية تحمل الف وخمسمائة جندي برتغالي وثمانمائة هندي تحت قيادة البوكيرك وهاجمت تلك القوة عدن ولكنها وجدت مقاومة عنيدة(١٨). ووجدوا ان مرجان الظاهري قد ركز دفاعه على طول السور المواجه لشاطئ (صبرة) وأقام المدافعون على الحصون والابراج والاسوار، ومضى يومان دون ان تعرف عدن النوم وصمم اهلها على الدفاع عنها واختلط أهل عدن بالبرتغاليين والتحموا معهم في معركة هائلة، فاضطر البوكيرك الى الانسحاب وأمر جنوده بالعودة الى السفن وكانت مذبحة من اعظم ما عرفت شواطئ عدن، سالت فيها دماء البرتغاليين بغزارة(١٩). وعند خروج البوكيرك من ميناء عدن حاول اطفاء نار الهزيمة المتأججة في صدره بأحراق اربع سفن عربية كانت راسية في ميناء عدن(٢٠).

ويصف ابن الديبع ما فعله البرتغاليون بعدن وأهلها حيث يقول... (وخربوا المدافع ونشروا الاعلام وفتحوا الحرب على مدينة عدن ولم يقعوا على طائل لتحصين البلاد وخبرة أهل عدن بالحرب فضربوا المدافع على عدن وصدعوا بعض البيوت وقتلوا جماعة في الاسواق واحرقوا ما جاورهم من المواكب بالساحل ثم نزلوا الى الساحل ليلا وقد استعد أهل عدن بسلاحهم ورجع الافرنج بالجرحى منهم الى مراكبهم فات اكثرهم وانقطع رجاهم على المدينة وكانت مدافع المسلمين تتلف لهم كل يوم سفينتين أو ثلاثة فابتعدوا بعد ذلك الى حيث لاتصلهم مدافع المسلمين ثم توجهوا الى طريق الهند مكسورين مخذولين مدحورين)(٢١).

لقد كان انتصار أهل عدن ضربة شديدة الى هيبة البرتغاليين البحرية والعسكرية في المنطقة اذ كانت هزيمتهم في عدن أو ل هزيمة كبرى يمنون بها منذ انتصاراتهم المتلاحقة على حكام الاقاليم الصغيرة في شرق افريقيا والهند.

ولكي يمسح البرتغاليين عار الهزيمة أو ليحققوا على الاقل وقعها في نفوس الهنود والعرب راحوا يعززون مراكزهم العسكرية والتجارية في المنطقة توكيداً لقوتهم ونفوذهم(٢٢).

وعلى الرغم من ان السيطرة على التجارة الشرقية ومصادرها قد تمت لهم فان البرتغاليين كانوا

يشعرون بأهمية عدن فراحوا يعدون العدة للانتقام من عدن والعدنيين وكانت عيونهم طوال الوقت مفتوحة على ما كان يجري في عدن وفي المناطق المجاورة لها، وقد ازداد خطرهم بعد وفاة البوكيرك عام ١٥١٥م وتحالفوا مع الحبشة لاعلان الحرب المشتركة ضد المماليك فقاموا بهجوم على ميناء جدة التي اصبحت قاعدة المماليك في البحر الاحمر(٢٣).

وفي سنة ١٥١٦م وصلت الى عدن قطع من الاسطول المصري بقيادة سليمان باشا الخادم بناء على رغبة السلطان (قانصوه الغوري) لاحتلال عدن، وتوالى وصول سفن الاسطول المصري الى عدن الى ان بلغ عدد قطعه سبعا وعشرين سفينة ولكن قلعة عدن صمدت أمام هجمات المصريين فتراجع المصريون أمام صمود أهل عدن وبفضل المدد العسكري الذي تلقاه الامير مرجان الظافري من تعز ومن الشحر ولكن تحصينات عدن العسكرية قد تعرضت لتخريب ليس بالهين، كما قتل جنود كثير من حاميتها من جراء الحملة المصرية(٢٤).

ويقول النهروالي عن تلك المعركة (لقد رموا حصن المدينة بالمدافع ورموا اكثر دوره) ولم يقدروا على أخذه ولا على أخذ عدن وخرج أهل عدن ووقعت مقتلة كبيرة جرح فيها سليمان باشا ثلاث جراحات ثم وقعت حروب أخرى وكانت الحرب سجالا فوصل من (تعز) أخو عامر بن عبد الوهاب بعسكره ودخل عدن فيأس العسكر المصري من أخذ عدن فأخذوا ما وجدوا حول عدن من المراكب وركبوا سفائنهم(٢٥).

وفي نفس العام تقدم البرتغاليون بقيادة (سواريز) من الممتلكات البرتغالية في الهند بأسطول حربي الى البحر الاحمر يتكون من سبع وعشرين سفينة تحمل الفا ومائتي برتغالي وستمائة هندي فأتجه الى عدن فوجد مواقعها الدفاعية قد تخربت بعد المحاولات المصرية لغزوها ولما رأى الامير مرجان الظافري أنه عاجز عن مقاومة البرتغاليين اغتبط القائد البرتغالي لذلك ولم يشك في نوايا الامير مرجان الظافري في السماح لاتخاذ عدن قاعدة للبرتغاليين لحين عودته من مطاردة الاسطول المصري ولما عاد (سواريز) لعدن وجد ان الامير مرجان الظافري قد اغتنم فرصة انشغال البرتغاليين مع المصريين فجدد تحصين عدن(٢٦)، واستمرت الحرب عنيفة بين المصريين وبين الظاهريين من جهة وبين المصريين والبرتغاليين من جهة أخرى، مما أضعف قوة المماليك وانهزامهم أمام العثمانيين نحو البحر الاحمر حتى تمكنوا من دخول مصر سنة ١٥١٧م(٢٧).

هنا بدأت صفحة طويلة من الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين، وبدأت توجه الدولة العثمانية الى البحار الشرقية لانها كانت تشكل بالنسبة لها منطقة استراتيجية هامة لكونها منطقة متصلة بحدود دولتها الجنوبية(٢٨) وحاول كل منهم الاستيلاء على جنوب اليمن (عدن) ليفرض كلمته على الشرق وينفرد باستغلال مواردم(٢٩).

فالموقع الاستراتيجي لليمن من العوامل التي برزت أهميتها في تحقيق الأهداف العثمانية الدفاعية والتوسعية، فلقد جعلها هذ الموقع الممتاز وتلك الحدود التي تطوق جنوب الجزيرة العربية منطقة دفاع

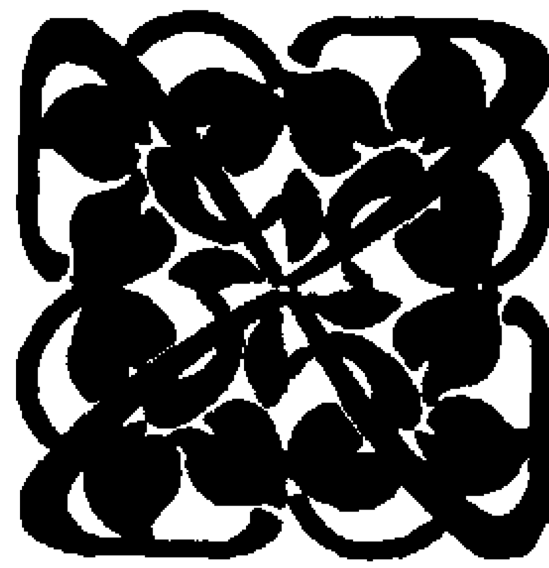
هامة عن حدود الامبراطورية العثمانية في الجنوب، فسيطرتهم على اليمن جعلهم يتجهون لسلامة الاماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز والتحكم في البحرين (الاحمر والعربي) وأمتلاك موطئ صالح للوثوب على البحرية البرتغالية في البحار الشرقية وتطويق اعدائهم الصفويين في ايران من الجنوب وتحقيق احلامهم بمد سيطرتهم شرقا الى أقاصي العالم العالم الاسلامي(٣٠).

وازداد التنافس حدة في البحر الاحمر خاصة والبحار الشرقية عامة بعد ان أصبح العثمانيون ورثة الحكم المملوكي بكل مشكلاته وظهرت روح التنافس واضحة من خلال ما أعلنه حكام كل من الدولتين من تصريحات واضحة فقد أكد الملك البرتغالي (عمانوئيل الاول) أنه سيد غينيا والفتوحات والملاحة والتجارة في الحبشة والجزيرة العربية وايران والهند، كما اعلن السلطان (سليم الاول) بعد الاحتلال العثماني لمصر سنة ١٥١٧م: (والان فان كافة مناطق مصر وحلب وسورية ومدينة القاهرة ومصر العليا والحبشة واليمن والحجاز ومدن مكة والمدينة والقدس وجميع الاراضي حتى حدود تونس قد اضيفت الى الامبراطورية العثمانية)(٣١).

على أن البرتغاليين واصلوا جهودهم لتنفيذ خططهم في البحر الاحمر فقد هاجموا ميناء جدة سنة ١٥٢٠م وفي هذه السنة مات الملك عمانوئيل وتوفى ايضا الامير مرجان الظافري حاكم عدن واستمر البرتغاليون بالاغارة على المناطق العربية. ففي سنة ١٥٢١م قاموا بهجوم على عدن وكذلك قاموا بمهاجمة ميناء الشحر اليمني عام ١٥٢٣م ثم خربوا عدن بالمدافع عام ١٥٢٥م وهم في طريقهم الى ميناء (مصوع) ولكن لم يتحقق للبرتغاليين أي هدف في ذلك الحين(٣٢).

ولهذا فضل البرتغاليون اخيراً عقد معاهدة جديدة مع حاكم عدن عام ١٥٣٠م ونصت هذه المعاهدة على اعتراف عدن بسيادة البرتغاليين عليها وبدفع الجزية السنوية اليهم وذلك نظير اعتراف البرتغاليين بحرية الملاحة لسكان عدن ولكن بشرط عدم توجههم الى جدة ولكي يضمن البرتغاليون تنفيذ هذه المعاهدة تركوا في ميناء عدن احدى سفنهم وقوة قوامها أربعين برتغاليا ليشرفوا على الميناء وعلى ايراداته المالية(٣٣).

فقد اثارت هذه المعاهدة غضب اليمنيين على حاكم عدن، غير ان حجته تركزت دائما في حرصه على عدم تعرض عدن للاحتلال الكامل من قبل البرتغاليين المتفوقين حربياً من جهة وفي خشية هجوم العثمانيين عليها من داخل اليمن أو من ناحية البحر من جهة أخرى(٣٤).



المصادر والمراجع

١ ــ وليد محمد جرادات: الاهمية الاستراتيجية للبحر الاحمر بين الماضي، ط١، دار الثقافة، الدوحة ١٩٨٦، ص٨٩.

٢ ــ د. طارق نافع الحمداني: دور مصر واليمن في مقاومة الغزو البرتغالي للبحر الاحمر والمحيط الهندي في اوائل القرن السادس عشر، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، العدد الثاني عشر، بغداد، ١٩٨٣، ص٢١٨.

٣ ــ حمدي لطفي: الثورة جنوب اليمن، بلات، ص٦٨. كذلك انظر جرادات، مصدر سابق، ص٩٥.

٤ ــ الحمداني: عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامع العثمانيين خلال النصف الاول من القرن السادس عشر، مجلة دراسات الخليج العربي، العدد الثاني والاربعون، السنة الحادية عشر، ١٩٨٥، ص١٦٩.

٥ ــ د. صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٣، ص١٤.

٦ ــ محمد عبد القادر بو مطرف: الشهداء السبعة، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٤، ص٥٠.

٧ ــ حمزة علي لقمان: تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٦٠، ص١١٥.

٨ ــ العقاد: مصدر سابق، ص١٦.

٩ ــ نفس المصدر، صفحة . كذلك لقمان: مصدر سابق، ص ١٠٩

١٠ ــ قطب الدين محمد بن احمد النهروالي: البرق اليماني في الفتح العثماني، دار اليمامة، الرياض ١٩٦٧، ص١٨.

١١ ــ عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الدبيع: الفضل المزيد على بغية المستفيد في اخبار زبيد، دراسة وتحقيق محمد عيسى صالحية، الكويت، ١٩٨٣، ص٢٠٣.

١٢ ــ النهروالي: مصدر سابق، ص١٩.

١٣ ــ بومطراف: مصدر سابق، ص ٥٠

١٤ ــ العقاد: مصدر سابق، ص١٧.

١٥ ــ بومطراف: مصدر سابق، ص٤٧.

١٦ ــ نفس المصدر والصفحة.

١٧ ــ العقاد: مصدر سابق، ص١٨.

١٨ ــ بومطرف: مصدر سابق، ص٥١

١٩ ــ لقمان: معارك حاسمة من تاريخ اليمن، ط١، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء، ١٩٧٨، ص١١٢.

٢٠ ــ بومطرف: مصدر سابق، ص٥١.

مراجع عربية أو معربة:

١. ترمنجهام سبنسر:
الاسلام في شرق افريقيا (ترجمة محمد عاطف النزاوي، القاهرة ١٩٧٣)
٢. جمال زكريا قاسم (دكتور):
الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية، القاهرة ١٩٧٥.
٣. جمال حمدان (دكتور):
جغرافية المدن، القاهرة ١٩٧٠.
٤. جورج فاضل حوراني:
العرب والملاحة في المحيط الهندي (ترجمة يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨)
٥. حسن ابراهيم حسن (دكتور):
انتشار الاسلام والعروبة فيا وراء الصحراء الكبرى، شرق القارة الافريقية وغربها، القاهرة ١٩٥١.
٦. حسن احمد محمود (دكتور):
الاسلام والثقافة العربية في افريقيا، القاهرة ١٩٦٣.
٧. زاهر رياض (دكتور):
الاسلام في اثيوبيا، القاهرة ١٩٦٤.
٨. شوقي الجمل (دكتور):
تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، القاهرة ١٩٨٠.
٩. شوقي الجمل:
قضية روديسيا بين الامم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية، القاهرة ١٩٧٧.
١٠. شوقي الجمل:
المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، القاهرة ١٩٧٧.
١١. عبد الرحمن زكي (دكتور):
الاسلام والمسلمون في شرق افريقيا، القاهرة ١٩٦٥.
١٢. محمد صفى الدين (دكتور)
افريقيا بين الدول العربية، القاهرة ١٩٥٩
١٣. محمد عوض محمد (دكتور):
الشعوب والسلالات الافريقية، القاهرة ١٩٥٦.
١٤. هولنجزوث.ل:
الآسيويون في شرق افريقيا، ترجمة عبد الرحمن صالح، القاهرة ١٩٦١.



المراجع:

مصادر أصلية:

(تشمل كتب الرحالة، وكتابات المؤرخين المعاصرين..)

١. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم:
تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، بولاق ١٩٣٤.

٢. ابن الاثير، ابو الحسن على:
الكامل في التاريخ، ١٩٣٢.

٣. أحمد بن ماجد: شهاب الدين احمد بن ماجد بن عمرو:
ثلاث ازهار في معرفة البحار
(تحقيق تيودور شوموفسكي، ترجمة دز محمد منير موسى) ١٩٦٩.

٤. الطبرى: ابو جعفر محمد بن جرير الطبرى:
تاريخ الامم والملوك، ج٢، ١٩٦١.

٥. عبد الله بن مصبح الصوافي:
كتاب السلوه في اخبار كلوه (نقلا عن اوراق الشيخ محيى الدين الزنجباري نشر وتحقيق ارثر سترونج) لندن ١٨٩٠.

٦. المسعودى، ابو عبد الله محمد بن سعيد:
مروج الذهب ومعادن الجوهر، ١٩٦٤

٧. الواقدي: ابو عبد الله محمد بن سعيد: الطبقات الكبير ج١، ١٩٦٨.

أبحاث منشورة في دوريات عملية:

١. ابراهيم على طرخان (دكتور): الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة (مجلة الجمعية التاريخية المصرية العدد الثامن ١٩٥٩)

٢. جمال زكريا قاسم (دكتور): استقرار العرب في سياحل شرق افريقيا (حوليات كلية آداب عين شمس، المجلد العاشر ١٩٦٧)

٣. جمال زكريا قاسم: المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا (المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع عشر)

٤. صبحى لبيب (دكتور): التجارة الكاريبية وتجارة مصر في العصور الوسطى (مجلة الجمعية التاريخية المصرية مايو ١٩٥٢)

٥. عبد الرحمن زكي: بعض المدن العربية على ساحب شرق افريقيسا في العصور الوسطى (مجلة الجمعية الجغرافية المصرية مايو ١٩٦٠,

٦. محمود طه ابو العلا: المؤثرات العربية في شرق افريقيا (مجلة الجمعية الجغرافية المصرية مايو ١٩٦٠)



التهديد البرتغالي لتجارة البحر الاحمر

الباحث بشير حمود كاظم

تعد رحلة فاسكو دى جاما الاولى في سنة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م الى الهند رحلة استطلاعية عرف من خلالها ان العرب يسيطرون على سواحل شرقي افريقية والجزر القريبة منها وعلى معظم التجارة في غرب المحيط الهندي رغم ان دى جاما لم ينجح في كسب ثقة حكام الموانئ التي زارها.

وفي مستهل القرن السادس عشر الميلادي (١٤٩٩م ــ ١٥٠٩م) توالت الرحلات البرتغالية في المحيط الهندي فارضة سيطرتها في منطقة كان النشاط التجاري فيها قاصرا على العرب. اذ تابع ملك البرتغال جهود فاسكو دى جاما بارسال حملة اخرى في مارس من عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م بقيادة بدرو الفاريز كابرال (P.A. Gabral) مهمتها الحصول على قاعدة للسفن البرتغالية في الشرق سواء أكان ذلك عن طريق المفاوضات أم باستخدام القوة المسلحة(١) وقد افلح كابرال في اقامة مركز برتغالي في كاليكوت سنة ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م(٢) وابلغ اميرها(كاليكوت) برسالة يحرم فيها على العرب الاقامة داخل حدود مملكته كما عرض عليه شراء ما يبيعه للعرب بثمن افضل(٣) الا ان ملك كاليكوت رفض طلب القائد البرتغالي كابرال، مما أدى الى مهاجمة الاسطول البرتغالي لمدينة كاليكوت اذا امطرها بنيران المدفعية البرتغالية واحرق (٢٩) قطعة بحرية للتجار المصريين وكان بضمنها سفينة السلطان الغوري وهي محملة بالتوابل وتروم الابحار الى ميناء جده، وجميعها كانت راسية في الميناء ومحملة بمختلف السلع التجارية(٤) وقد استنجد ملك قاليقوط بالسلطان قانصوه الغوري وسلطان مصر الا ان تأخر الاسطول المصري عن الوصول الى الهند اضطرته الى عقد معاهدة الصلح مع البرتغاليين الذين عادوا بعدها الى لشبونه ومعهم ١٣ قطعة بحرية مليئة بالبضائع الشرقية الثمينة(٥).

ونرى من خلال ما تقدم ان سياسة البرتغاليين قد تغيرت بعد ان ثبتوا اقدامهم في المراكز التجارية الهندية المهمة حيث اسفروا عن وجههم الحقيقي وعبروا عن اهدافهم الصليبية المبيتة ضد المسلمين، عندما بدأت سفنهم تجوب المحيط الهندي والبحار العربية فما عثرت بسفينة عربية الا ونهبتها وقتلت من فيها كما اصبحت تغير على شواطئ الجزيرة العربية تنهب وتقتل وتحرق ثم تهرب(٦). وغدت الاطماع البرتغالية اشد ضراوة وعبروا عن شراستهم ووحشيتهم واستخدموا اشد انواع الارهاب والقسوة في معاملاتهم مع الموانئ والسفن العربية الت كانوا يعثرون عليها(٧)، ولعل ما يشير الى

معاملتهم الوحشية الوثائق البرتغالية التي أوردها جوا دى بروس والتي عبر فيها عن احقادهم الصليبية، معترفا باعمالهم الوحشية حين قال: «عندما غزا الكفار ــ وخاصة العرب منهم ــ وكانوا قد تركوا بلادهم الواقعة في الشرق ووفدوا الى بلادنا في الغرب.. ثم قضت ارادته ان يمارس البرتغاليون حقهم الطبيعي هذا بعد انقضاء قرون عديدة وبالطريقة ذاتها بحد السيف.. ليس في الجزيرة العربية الحدباء حيث دمروا مدنها واحرقوا منازلها وخطفوا نساءها واطفالها واستولوا على الثروات والاوطان فيها فقط.. ولكنهم غزوا الفرس.. وقد دفع الفرس ثمن اهانتهم لاسبانيا لانهم اعتنقوا ديانة اولئك العرب المتخلفين»(٨).

ومن خلال ما تقدم يتضح ان معاملة البرتغاليين لم يكن لها مثيل في القسوة وانعدام الروح الانسانية، وهناك الكثير من الشواهد والامثلة التي اوردها المؤرخون والتي تدل على وحشية البرتغاليين وقسوتهم، ومن الامثلة على ذلك ما قام به البوكيرك، عند مهاجمته (قلعة) على الساحل العماني اذ انه اشعل النار في المدينة واغرق سبعا وعشرين سفينة تجارية كانت راسية في الميناء وتعرض اهل عمان الى ابشع انواع التعذيب على ايدى البرتغاليين الذين قتلوا الاطفال وشقوا بطون السيدات وطعوا آذان الرجال وانوفهم واحرقوا المساجد المقامة في ثغور ساحل عمان(٩).

اصبح التفوق البرتغالي في مياه المحيط الهندي واضحا على الرغم من بعد البرتغاليين عن بلادهم وقلة عددهم واتساع المنطقة التي كانوا يهدفون السيطرة عليها الا انهم تمكنوا من فرض الحصار على التجارة الاسلامية، واستطاعوا مهاجمة السفن العربية ومنعها من المتاجرة في المحيط الهندي ، ضد التطلع لمعرفة تلك الاسباب يبدوا واضحا تفوق البرتغاليين عسكريا وامتلاكهم السفن الحديثة المزودة بالمدافع والبنادق لم تكن معروفة في تلك الاقاليم(١٠).

وفي عام ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م جهز ملك البرتغال اسطولا يتألف من عشرين سفينة بقيادة فاسكو دى جاما، تحرك من البرتغال واتجه الى المحيط الهندي(١١) وكانت هذه الرحلة الثانية بالنسبة الى دى جاما، حيث كان يحمل معه تعليمات من اسياده البرتغاليين بتخريب موانئ العرب وتحطيم مراكبهم وسد مدخلي البحر الاحمر والخليج العربي في وجه التجارة البحرية(١٢) ومنع تجارة الشرق من الوصول الى الموانئ المصرية وكذلك منع السفن المصرية من الوصول الى الهند حتى يتسنى لبحرية البرتغالية السيطرة على تجارة الهند(١٣) ومن أجل تحقيق ذلك الغرض ابق دى جاما خمس سفن من الاسطول الذي قاده الى الهند، تجوب مياه المحيط الهندي للقرصنة البحرية وامرهم بسد مدخل البحر الاحمر امام السفن العربية الداخلة والخارجة منه(١٤).

مضت البرتغال بتنفيذ مخططها الاستعماري بعد ان استحدثت منصب نائب الملك البرتغالي في الهند، حيث اصدر ملك البرتغال في عام ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م تعليمات بتولي فرنسسكو دالميدا هذا المنصب، وبهذا التاريخ فان البرتغال تعد أول حكومهاستعمارية اوروبية انشأت في الشرق الاقصى، لحماية مصالحها هناك وتحقق الاحتكار التجاري لسلع الشرق والسيطرة على مصادرها في الهند.

وتتابعت الحملات البرتغالية لترصين مركزهم هناك، ففي عام ١٥٠٥م خرج من البرتغال اسطول تعداده (٢٠) سفينة تحمل على ظهرها ١٥٠٠ محارب من بينهم عدد من الجويين والبنادقة والالمان، وتم لهم احتلال سفاله وكلوه وممباسا التي قاتلهم اهلها قتالا شديدا، ولم يسلم من ايدي البرتغاليين في ساحل شرقي افريقيا من الخراب والتدمير سوى أهل مالندى الذي تعاونوا معهم في احتلال تلك السواحل(١٥).

وفي عام ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م عزز ملك البرتغال الحملة السابقة بحملة اخرى مؤلفة من اربع عشرة سفينة(١٦)، فرض البرتغاليون من خلالها سيطرتهم على سواحل شرقي افريقيا، وصاروا يحكمون الجزء الجنوبي منها والمتمثل في سفالة وموزمبيق وكلوه حكما مباشرا تدعمه حصونهم واساطيلهم المتواجدة في المنطقة، أما الجزء الشمالي من هذه السواحل، فكانت سيطرة البرتغاليين عليها غير مباشرة، اذ ان ذلك لايتعدى وجود جماعات من المستعمرين والتجار دون وجود حاميات وحصون، لكنهم كانوا يزرون هذه الموانئ باساطيلهم ويجمعون الجزية من السلاطين والشيوخ(١٧). واخذت السفن البرتغالية تفرض حصارها على السفن الحربية وتعقبها في مياه المحيط الهندي الى ان يتم لها اسرها أو احراقها أو اغراقها زيادة على ذلك نهب بضاعتها وقتل ملاحيها، مما قلل من ظهور هذه السفن امام الساحل الهندي(١٨).

واصل البرتغاليون زيادة نفوذهم البحري وسيطرتهم على التجارة الشرقية، وسعوا جاهدين في سبيل تنفيذ سياستهم التوسعية، فاسندوا الى القائد البرتغالي البوكيرك مهمة تنفيذ المخطط البرتغالي في البحر الاحمر والخليج العربي، فجهز البوكيرك حملة عسكرية بقيادة نائبه (كرستان دانكها) لاحتلال جزيرة سوقطره لاتخاذها قاعدة بحرية تنطلق منها السفن البرتغالية لقطع الطريق أمام السفن التجارية العربية القادمة الى خليج عدن، وتم لهم ذلك في سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م بعد قتال شديد مع اهالي الجزيرة(١٩).

وفي آب من العام نفسه قام البرتغاليون بمهاجمة السفن التجارية الاسلامية في الطريق بين «هرمز» والهند وقطعوا الطريق التجاري عبر الخليج العربي وهاجموا مسقط وخورفكان(٢٠) ونهبوا السفن واحرقوها واسروا بعض التجار وعذبوهم ومثلوا بهم ابشع صور التمثيل(٢١) وبعد احتلالهم لجزيرة سوقطره اتضح لهم بان عدن اكثر اهمية من هذه الجزيرة، وان احتلالها يهدد تجارة البحر الاحمر بالانهيار ويشل حركتها.

وبعد ان عين الفونسو البوكيرك حاكما عاما للقواعد والمراكز البرتغالية على ساحل الهند الغربي في سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م(٢٢) زاد في نشاطه لتحقيق الاهداف الاستعمارية الجديدة والسيطرة على المواقع الاستراتيجية والاقتصادية المهمة وفي اطار هذه السياسة التوسعية احتل البوكيرك في سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م مدينة (جوا)(٢٣) في الهند وجعلها مركزا للحكومة البرتغالية هناك(٢٤)، ثم اعقب ذلك الاستيلاء على ملقا عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م في الطريق الجنوبي الشرقي من آسيا والتي تعد من أعظم

القواعد التجارة العالمية حيث تتجمع فيها منتجات الهند الصينية بصفة خاصة(٢).

وبرز من خلال سياسة البوكيرك التوسعية انه يتصف بنزعة عدوانية تعصبية ضد المسلمين، وانه كرس جهوده للهيمنة البرتغالية في المحيط الهندي وذلك بالاعتماد على فكرة السيطرة على كل المضايق البحرية التي تعود الى الهند(٢٦) كما سعى للحصول على حلفاء محليين لتحقيق اغراضه العدوانية على البلاد الاسلامية من خلال اقامة العلاقات مع البلاط الحبشي في عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م(٢٧)، وبعد ان سيطر البوكيرك على الطريقين الرئيسين للتجارة الشرقية امر بمطاردة السفن الاسلامية في المحيط الهندي من اجل طرد المسلمين من المراكز التجارية الهندية والافريقية ومنعهم من مزاولة النشاط التجاري في المحيط الهندي(٢٨).

وفي بداية شهر شباط من عام ٩١٧هـ/ ١٥١٣م ارسل البوكيرك حملة بحرية مؤلفة من عشرين سفينة حربية تحمل على ظهرها ٢٥٠٠ محارب، خرجت من (جوا) مركز انطلاق البرتغاليين في المحيط الهندي واتجهت نحو عدن، وبعد وصول الاسطول البرتغالي الى ميناء عدن، فانه استولى على السفن الراسية فيه ثم قصفوا المدينة بمدفعيتهم، مما اضطر حاكم عدن الى حماية المدينة من تدمير البرتغاليين وعمد اول الامر الى استخدام اسلوب المهادنة، فارسل بعض الهدايا الى البرتغاليين وطلب عقد المدنة معهم(٢٩)، الا ان البرتغاليين رفضوا اقتراح حاكم عدن وانذروه بتسليم المدينة لهم، ومنحوه مهلة حتى اليوم التالي(٣٠)، ولكن حاكم عدن الظافري رفض تسليم المدينة، مما دفع البرتغاليين الى تسلق الاسوار والنزول الى المدينة وعند ذلك قام اهالي عدن بالدفاع عنها حيث انهم استبسلوا استبسالا رائعا وقاوموا الذين تسربوا الى داخل المدينة واضطروهم للانسحاب الى ظهور سفنهم بعد ان فشلوا في الاستيلاء على عدن ورفضوا الانسحاب منها والاتجاه شمالا نحو باب المندب(٣١) وقبل ان ينسحبوا من ميناء عدن اطلقوا نيران مدافعهم على المدينة واحرقوا السفن الراسية في الميناء ثم توجهوا بعدها نحو جزيرة كمران(٣٢) (تمران) وسيطروا عليها في نيسان من عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م(٣٣). ومما يذكر ان البرتغاليين كعادتهم استخدموا سياسة القسوة والارهاب والقتل مع سكان هذه المدينة، واستقروا فيها نحو اربعة اشهر وهم في طريقهم الى ميناء جدة لغرض تدميره والعبث بالمقدسات الاسلامية، الا انهم خابوا في مسعاهم هذا بسبب تعرض اسطولهم الى عاصفة شديدة شتتت سفنهم والحقت الدمار بها مما اضطرهم الى العودة ثانية الى جزيرة كمران(٣٤) ومنها هاجموا ميناء زيلع واشعلوا النيران في السفن الراسية فيه ودمروها، كما قصفت مدافعهم ميناء عدن بعد عودتهم الى الهند(٣٥).

وعلى الرغم من ان البوكيرك لم يستطع تحقيق نصر عسكري حاسم في البحر الاحمر الا انه استطاع ان يتوغل اول مرة في تلك المنطقة مما ساعد على التعرف على طبيعتها ورسم خطط العمل لمن يأتي من بعده للسيطرة على عدن وغلق مضيق البحر الاحمر(٣٦).

وفي عهد البوكيرك ايضا تم الاتصال بين الحبشة والبرتغال لغرض تنسيق الجهود والتعاون ضد

المسلمين وخاصة المماليك الذين كانوا يساعدون (الامارات الاسلامية) التي عاشت صراعا دائما مع الحبشة(٣٧).

في عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م حشد البرتغاليون اسطولا مؤلفا من اربعين سفينة، تحمل على ظهرها الفين من المقاتلين، واوكلت قيادة هذه الحملة الى القائد البرتغالي لوبو سواريز دى البرجاريا (Lopo Soures de allbergoria)(٣٨) وكان هدف هذه الحملة البرتغالية مهاجمة الاسطول المصري في البحر الاحمر وتدميره ومهاجمة ميناء جدة ايضا والوصول الى الحبشة(٣٩)، وتزامنت هذه الحمة مع النزاع الذي حصل بين السلطان عامر عبد الوهاب الطاهري امير عدن وبين القوى البحرية المصرية التي كانت بقيادة الامير حسين الكردي، وحاول البرتغاليون استغلال الموقف واعلنوا انهم يريدون مساعدة شعب عدن ضد المصريين(٤٠) وقد استقبلوا من قبل حاكم عدن مرجان الظافري(٤١) واجابهم لما طلبوه من المؤن والمرشدين البحريين عندما كانوا متوجهين لغزو جده، ويفسر بعض الكتاب والمؤرخين استقبال الامير مرجان الظافري للبرتغاليين وتلبية حاجاتهم والتعاون معهم بسبب خوفه من مهاجمتهم عدن وتدميرها في حالة رفض طلبهم(٤٢) ولكن البرتغاليين فشلوا في حملتهم هذه كما فشلوا في حملاتهم السابقة، لانهم وجدوا الاسطول المصري راسيا في ميناء جده، وقفلوا راجعين الى جزيرة كمران بعد ان خربوا ميناء زيلع، وبعد ذلك شتت اسطولهم وشقت الرياح بعض سفنهم ومات عدد كبير منهم بسبب نفاذ مخزونهم من المياه العذبة ومطاردة الاسطول المصري لهم في البحر الاحمر(٤٣) ويذكر في هذا المجال ان البرتغاليين اتهموا سواريز باضاعة الفرصة التي سنحت لهم في الاستيلاء على عدن، كما ان ملك البرتغال يرى أن الفشل الذي اصاب البرتغال في عدم تحقيق اهدافها في البحر الاحمر كان بسبب تصرفات سواريز الذي عزله من منصبه وسحبه من الهند الى البرتغال في ٢٠ من كانون اول سنة ١٥١٨(٤٤).

وخلف البوكيرك قائد برتغالي اشد قسوة منه وهو «ديوجو لوبيس دى سكويرا» (Diogo Lopes de Squeira) ويذكر ان سكويرا عمل على تطوير سياسة البرتغال وتوسيعها في المحيط الهندي، وسمح للسفن البرتغالية التجارية بالمتاجرة مع بلدان شرق افريقيا والهند، وامن الحماية لها مما زاد من عددها هناك بحيث انها تمادت في اعمالها وتحولت من سفن تجارية الى سفن قرصنة بحرية، تنهب السفن التجارية غير البرتغالية التي تعثر عليها وتغير على الشواطئ(٤٥) وعلى أيه حال فقد كان القادة البرتغاليون الذين خلفوا البوكيرك اكثر وحشية وقسوة منه في معاملتهم مع اهالي المناطق التي سيطروا عليها الى الدرجة التي خاطب فيها اهالي المناطق ملك البرتغال باعادة البوكيرك اليهم حيث انهم كانو يعتقدون بانه حي ولم يمت(٤٦):

وبعد ان زاد نشاط البرتغاليين البحري وتوسعت سيطرتهم على اطراف مترامية من المحيط الهندي وشرقي افريقيا عمدوا الى اتباع سياسة استعمارية جديدة تتلائم وامكانياتهم البشرية(٤٧) وعلى هذا الاساس فقد صور البرتغاليون سياستهم الاستعمارية وجعلوها تعتمد على ثلاثة محاور اساسية نذكرها فيا يأتي:

المحور الاول:

ويتضمن السيطرة على الطريقين الرئيسيين للتجارة الشرقية بعد غلق منفذيها المؤديين للبحار العربية والمتصلين بمياه المحيط الهندي، في وجه التجار والملاحين العرب والمسلمين ومطاردة السفن الاسلامية في المحيط الهندي واغراقها، والعمل على طرد التجار المسلمين من المراكز التجارية الهندية والافريقية ومنعهم من مزاولة النشاط التجاري في المحيط الهندي.

المحور الثاني:

وهو استيلاؤهم على المحطات التجارية المهمة في المحيط الهندي وعلى ساحل مالابار مثل مدينة جوا (Goa) ومدينة ديو (Duo) وغيرهما من المراكز التجارية المهمة وانشاء قواعد عسكرية فيها لاسناد الاسطول البرتغالي اثناء تحركاته في المحيط الهندي لفرض السياسة الاحتكارية بالقوة وعدم السماح للسفن الاسلامية بممارسة أي نشاط ملاحي أو تجاري في هذه المنطقة.

المحور الثالث:

وهو فرض البرتغاليين سيطرتهم على المراكز التجارية الاسلامية الواقعة على الساحل الشرقي للقارة الافريقية والت اشرنا اليها في الصفحات السابقة من هذا الفصل والتي تطل على المحيط الهندي، وجعلوا منها مراكز تجارية لهم وقواعد عسكرية لامداد اسطولهم اثناء تحركاته في المحيط الهندي(٤٨).

واستطاع البرتغاليون بعد اتباع هذه السياسة من احتكار التجارة الشرقية واحتكار نقلها ايضا الى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح، مما ادى الى الانهيار الاقتصادي السياسي الذي اصاب القوى المحلية المسيطرة على سواحل البحر الاحمر وموانئه وبشكل خاص المماليك والطاهريين(٤٩).

ولعل الحملات البرتغالية المتعاقبة اسفرت عن نتيجتين خطرتين اثرتا في الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للعرب في تلك المنطقة هما:

١ ــ اعتبار وصول البرتغاليين الى المحيط الهندي وشرقي الجزيرة العربية بعد معرفتهم لطريق رأس الرجاء الصالح بداية للاطماع الاوروبية الاستعمارية في هذه المنطقة زيادة على أن نشاطهم البحري هذا قد فتح لهم آفاقا جديدة لم يعرفوها من قبل، وذلك انهم ادركوا الاهمية البالغة لشرقي الجزيرة العربية من النواحي الاقتصادية والسياسية وكان وجودهم في المنطقة قد وضع نهاية لعصر الازدهار التجاري والملاحي العربي والاسلامي في شرقي الجزيرة العربية مما اصابه بالركود والانكماش(٥٠) نتيجة للسياسة الاحتكارية العدائية التي فرضها البرتغاليون على الحركة التجارية والبحرية للبحر الاحمر.

٢ ــ والنتيجة الثانية التي جاءت بها هذه الحملة هو انتقال مسرح الصراع السياسي والديني بين

البرتغاليين والمماليك من منطقة البحر المتوسط الى الساحل الشرقي لافريقيه والهند وشرقي الجزيرة العربية(٥١)، وعمدوا الى احراق المدن الاسلامية والمساجد، والتنكيل بالسكان المسلمين والاستيلاء على السفن التجارية والسفن التي تحمل الحجاج الى بلاد الحجاز وقاموا باسر ركابها وتعذيبهم وقتل بعضهم واغراق بعضهم الاخر(٥٢).

وعلى ايه حال فقد كان الوجود البرتغالي في الشرق ضربة قاصمة للنشاط التجاري العربي والاسلامي في البحر الاحمر والمحيط الهندي كما كان له الاثر البالغ على الاوضاع السياسية والاجتماعية للعرب والمسلمين في سواحل افريقيه الشرقية وجزيرة العرب والبحر الاحمر وشمال المحيط الهندي، وبالتالي القضاء على دولة المماليك في مصر.

موقف القوى المحلية من الغزو البرتغالي

١ ــ موقف المماليك المصريين:

كانت الجهود البحرية البرتغالية تهدف الى تحقيق مطامع اقتصادية واخرى سياسية ومدفوعة بعوامل دينية صليبية كانت امتدادا لتلك الحروب الصليبية التي استمرت طويلا بين الشرق والغرب، وكانت هذه الجهود تسير بتأييد وحماس من قبل البابوية(٥٣)، لذا نراهم يتبعون في تحقيق ذلك أقصى انواع القرصنة البحرية العسكرية، وكما ذكرنا سابقا ان البرتغاليين ركزوا في خطتهم على تحقيق الحصار الاقتصادي على مصر من ناحية الجنوب والسيطرة على مواطن التوابل وانتزاع احتكارها من العرب وتحويلها الى لشبونة مباشرة، وحرمان مصر والبندقية من أهم مورد تحصل عليه، لاضعافها اقتصاديا وحربيا حتى تصبح عاجزة عن التصدي لاي عمل برتغالي ضدها، حيث ان المماليك في مصر يمثلون القوة الاسلامية الكبرى في المنطقة وهي حاملة لواء الجهاد ضد الصلبيين(٥٤).

وكانت هذه التطورات الاقتصادية والسياسية في المنطقة بداية للصراع بين المماليك والبرتغاليين اذ ان دولة المماليك، كانت من اولى الدول التي تأثرت اقتصاديا بتحويل طريق التجارة الى الحد الذي اصبح فيه مجئ السفن التجارية الى موانئ مصر نادرا، واصبح البنادقة لا يجدون ما يحملونه من التوابل والبضائع الشرقية الى أوروبا(٥٥).

وذكر ابن آياس ان هذه البحار قد اقفرت من العرب الذين كانوا بالامس سادتها كما اشار الى نقص داخل الدول التي كانت تمر بها التجارة نتيجة للهجمات البرتغالية على موانئ البحر الاحمر الجنوبية(٥٦)، ولذلك بدأ السلطان المملوكي في اتخاذ الاجراءات اللازمة لايقاف البرتغاليين عند حدهم ولانقاذ مصر من الانهيار الاقتصادي الذي تعرضت له، وقام السلطان الغوري في سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م باعداد حملة بحرية مهمتها تقوية الحكم المملوكي في منطقة البحر الاحمر وتحصين ميناء جده

ثم الاندفاع الى الهند للقضاء على البرتغاليين هناك[٥٧] وفضلا عن جملة العوامل التي حركت السلطان الغوري لمواجهة الغزو البرتغالي، فان استنجاد الامراء والهنود المسلمين بحكومة مصر من العوامل المهمة التي شجعت السلطان الغوري على اعداد هذه الحملة[٥٨] وذكر ابن آياس ان ما قام به ملوك الهند من ارسال الرسل الى السلطان الغوري لاغاثة المسلمين من عبث البرتغاليين الذين كانوا ينهبون أموال الناس ويلحقون الاذى[٥٩] ويذهب المليباري الى ابعد من هذا عندما اشار في تحفة المجاهدين الى عبث البرتغاليين حين قال: «امتهنوا المصاحف وداسوها بأقدامهم واحرقوها وحاولوا تنصير بعض المسلمين، واغرائهم بالمال والنساء و قتلوا الحجاج، أو باعوهم عبيدا ونساء واطفالا ولم يأنفوا من قتل العلماء»[٦٠].

وقد وردت الى السلطان الغوري رسائل من ملوك الهند، اذ بعث كل من السامري صاحب قاليقوط[٦١]، ومظفر شاه بن محمود شاه سلطان كجرات[٦٢،٦٣] برسائلهم يستغثون بها السلطان المملوكي قانصوه الغوري لتدارك الموقف واتخاذ الاجراءات الكفيلة بتخليصهم من المخاطر التي تعرضت لها بلادهم وتجارتهم والعمل على تأمين الملاحة في المحيط الهندي والبحر الاحمر وبالوقت نفسه فقد كتب صاحب اليمن السلطان عامر بن عبد الوهاب رسالة الى حكومة المماليك بطلب امداده بالالات والمدافع للوقوف في وجه البرتغاليين[٦٤].

ومن الملاحظ ان هذه الممالك الاسلامية ندما احست بالخطر الذي هدد مصالحها، استنجدت بالسلطان الغوري وذلك لان دولة المماليك في تلك الفترة كانت تعد اكبر قوة اسلامية في المنطقة لامتلاكها الاسلحة النارية التي لا توجد عند غيرها من القوى المحلية في المنطقة كما انها كانت اكبر دولة ذات مصالح مباشرة مع الهند[٦٥].

اقلع الاسطول المملوكي من ميناء السويس في ٦ جمادى الاخر من سنة ٩١١هـ/ المصادف الرابع من تشرين الثاني لسنة ١٥٠٥م[٦٦]. وعين قانصوه الغوري الامير حسين الكردي قائدا له، حيث كان هذا الاسطول مؤلفا من خمسين سفينة، ولم تشر المصادر التاريخية الى عدد جنود هذه الحملة، ويذكر انهم كانوا من المماليك السلطانية وعدد من اولاد الناس (ابناء المماليك) الذين يجيدون استخدام الاسلحة النارية[٦٧]، وكان المغاربة يؤلفون اغلب افراد هذه الحملة لانهم كانوا ذوى خبرة في القتال البحري، واستخدام المدافع فضلا عن كونهم بحارة ماهرين[٦٨].

ويروي ابن آياس انحملة حسين الكردي المتوجهة الى جدة قد اصطدمت بامير ينبع يحيى بن سبع وقتلت عددا كبيرا من اتباعه واحرقت الدور التي على ساحل البحر الاحمر في ميناء ينبع وخربوا الدكاكين وشتتوا العريان[٦٩] ويبدو لي من خلال هذا الحدث ان امير ينبع لم يكن خاضعا لسلطة المماليك في مصر قبل مجئ حسين الكردي الذي حسم الموقف في ينبع لصالح دولة المماليك وتوجه الى جده لغرض تحصين مينائها وحمايته من خطر البرتغاليين الذين ما لبثوا ان اعلنوا عزمهم لمواجهة المدن المقدسة وتدميرها، وما ان وصل الامير حسين الكردي الى جده حتى باشر ببناء سور ضخم ذى

ابراج عالية حول مينائها(٧٠) واشارت المصادر التاريخية الحديثة الى ان الامير حسين الكردي قد بالغ في بناء سور جده حيث انه هدم كثير من بيوت الناس التي تقع بالقرب من موضع السور واستخدام عامة الناس في البناء زيادة على الاعداد الكبيرة من البنائين والنجارين وغيرهم من الفنيين الذي جلبهم معه الى جده، واستطاع ان يتم بناء السور والابراج في اقل من عام وذلك في ذى الحجة من سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م(٧١).

ومن جده توجه حسين الكردي الى «سواكن» فاستولى على مينائها دون ان يقاوم اهلها(٧٢) واقام بعض الاستحكامات فيها من أجل تأمين البحر الاحمر ثم توجهت الحملة الى الموانئ اليمنية، بجيزان ثم بجزيرة كمران ثم الى (المخا) بعدها استقرت بعض الوقت في ميناء عدن، بعد وصولها اليه في ربيع الاخر من عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م(٧٣).

وقد اوضح حسين الكردي لوالي عدن ان الغرض من الحملة هو التوجه الى الهند لمحاربة البرتغاليين(٧٤) كما طلب ان يمده بالطعام والمؤونة اللازمة لذلك فاجابه الوالي لما اراد وامر بان يأخذ من عدن ما يحتاج اليه لانه اعطى وعودا سابقة للمماليك بمساعدة الاسطول المصري في حربه ضد البرتغاليين(٧٥) وقد وصف المؤرخ اليمني ابو مخرمة الذي عاصر الفترة موضوعة البحث الاستقبال الذي قوبل به حسين الكردي في عدن حيث قال: «وفي الشهر المذكور (ربيع الاخر سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م) كان وصول الامير حسين المصري في ثلاث برثات وثلاثة اغربه من جده الى الجهات اليمانية، ولم يعلم احد مقصوده حتى مر بباب المندب، فلما قرب من مدينة عدن، ارسل قاصدا من قبله في سنبوق الى الامير مرجان الظافري، يستأذن في الدخول الى (حقات)، فاذن له، فدخل في غاية ما يكون من الادب... فلما استقر بالبندر، ارسل اليه الامير مرجان بسؤاله، النقيب عبد القادر فرج النجاشي والنقيب جابر البعداني، فلما وصلا اليه اكرمهما وكساهما، وقال بلغا الامير مني السلام وعرفاه، لولا اني مأخوذ على من قبل السلطان قانصوه ان لا ادخل عدن لدخلت اليه ومثلت بين يديه، ولكن لا يمكن مخالفة امر السلطان واستأذان في شحنة ما يحتاجه من الماء والحطب وغير ذلك، فاذن له الامير مرجان بذلك...»(٧٦)، وبعدها تحرك الاسطول المصري من مياه عدن واتجه الى الهند حيث وصل الى ميناء كجرات الهندي في اواخر سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م(٧٧)، وتشير المصادر التاريخية الى ان سلطان كجرات مظفر شاه قد رحب بالامير حسين الكردي حين قدومه(٧٨) وسرعان ما تعاونت معه اساطيل المسلمين في الهند ضد الوجود البرتغال، واتحدت هذه القوى الاسلامية تحت قيادة الامير حسين الكردي، وبعد ان اشتبك الاسطولان في معركة بحرية تمكن حسين الكردي من تحقيق انتصار رائع على الاسطول البرتغالي في موقعة شول البحرية (Chaul)(٧٩) سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٨م ويذكر ان هذه المعركة كان لورنزوا(٨٠) قائد الاسطول البرتغالي من بين القتلى(٨١) مما اثار غضب والده فرانسسكو دالميدا ودفعه الى ان يقسم قسما كبيرا للانتقام من المسلمين لمقتل ولده(٨٢) وعد عدته وخرج على رأس اسطول برتغالي مكون من تسع عشرة سفينة واشتبك مع الاسطول المصري وحلفائه في موقعة ديو البحرية في الثالث من شباط عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م دمرت فيها معظم السفن المماليكية والهندية المتحالفة(٨٣) ويذكر زين الدين في تفاصيل مهمة عن هذه المعركة، ان الاسطول البرتغالي كان قد

انتهز فرصة لجوء الاسطول المماليكي والاسطول المتحالف الى جزيرة ديو للتموين ولاصلاح بعض سفنها، وقام بمفاجأتها من الخلف وحدثت معركة بحرية ضاربة انتصر فيها البرتغاليون وقتلوا الكثير من بحارة الامير حسين الكردي وارغموه على الانسحاب بما تبقى من سفنه والعودة الى جده لتقوية تحصيناتها وحماية المقدسات الاسلامية حيث انهم كانوا يتوقعون وصول البرتغاليين الى البحر الاحمر(٨٤).

وقد اختلف المؤرخون في تعليلهم لهزيمة الامير حسين الكردي امام البرتغاليين في معركة ديو رغم الانتصار الذي حققه في موقعة شول التي سبقتها بعام تقريبا فقد اشار المليباري في تحفة المجاهدين الى ان سبب ذلك يكمن في الغرور الذي اصاب حسين الكردي وجعله يرفض الاستماع الى نصيحة حاكم ديو الذي أشار عليه بعدم الخروج الى عرض البحر لملاقاة البرتغاليين بل الانتظار في مياه ديو لحماية ظهور السفن(٨٥) كما يشك المليبلري بخيانة حاكم ديو (مالك آياس) لحليفه حسين الكردي واتصاله بالبرتغاليين بشكل سري، ومما يؤيد شكوكه ان البرتغاليين لم يتعرضوا لسفن ملك آياس بسوء بل ركزوا هجومهم على السفن المصرية، كما انه قام بتسليم كل الذين كان حسين الكردي قد قبض عليهم وحبسهم من البرتغاليين زيادة على ارساله الهدايا الى دالميدا من المؤن والذخائر الى الاسطول البرتغالي(٨٦).

أما المؤرخ البرتغالي باربوسا (Barbosa) فقد علل لجوء حاكم ديو (مال آياس) الى عقد معاهدة الصلح مع البرتغاليين بسبب ضعفه وتداركه للامر الواقع بعد ان اخذ بعين الاعتبار مصلحة بلده لذلك سارع في ارسال رسله الى (دالميدا) ليعبر فيها عن رغبته في السلام(٨٧).

وبعد ان تحقق للبرتغاليين الانتصار على المصريين في موقعة ديو البحرية زاد نشاطهم في المحيط الهندي ووضعوا ايديهم على مصادر التوابل واحتكروا التجارة هناك واخذت سفنهم تراقب مداخل البحر الاحمر لمنع السفن الاسلامية من الدخول أو الخروج منه بعد ان تيقنوا من ضعف الاسطول المملوكي وعمدوا الى الاعتداء على المناطق العربية في عدن والبحر الاحمر(٨٨).

لم تثنى عزيمة المماليك الهزيمة التي لحقت بهم في موقعة ديو البحرية عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م بل سعى السلطان الغوري لانشاء اسطول بحري ثان لمواجهة هذا الموقف المتطور، ومن اجل ذلك اتصل باطراف مختلفة لاعانته في اعداد حملة السويس الثانية، ففي ايلول من عام ١٥١٠م اتصل السلطان الغوري بالبنادقة لمباحثتهم حول امداده بالاخشاب والاسلحة والمعدات اللازمة لبناء سفن الاسطول المصري الجديد، وبعد ان ارسل البنادقة هذه الامدادات اعترضها فرسان القديس يوحنا واحرقوا بعضها واستولوا على البعض الآخر ولم تصل الى مصر سفينة واحدة من هذه السفن(٨٩) كما اتصل قانصوه الغوري بالسلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١ ــ ١٥١٢م) من اجل ان يشتري من العثمانيين ما يحتاجه من اخشاب وادوات لبناء الاسطول المصري(٩٠) وفي شوال من عام ٩١٦هـ/ ١٥١١م استجاب السلطان بايزيد العثماني لطلب قانصوه الغوري، ووصلت الى مصر سفن عثمانية عدة وهي تحمل الاخشاب والحديد والبارود والبنادق والكاحل والمجاذيف والمهام والحبال والمراسي وغير

التجار، حيث اعتمد في نفقات التحصين وبناء الاسوار والقلاع على مصادرة اموال بعض التجار وعلى المساعدات التي وردت اليه من حكام بعض الممالك الاسلامية للقيام بجهد اسلامي مشترك لايقاف العدو عند حده(١٠٠) كما قام باجبار الاهالي على العمل (سخره) في تحصين المدينة(١٠١) وطبيعي ان هذا النوع من التعامل كان بسبب سوء الاحوال الاقتصادية لدولة المماليك في تلك الفترة نتيجة للحصار الذي فرضه البرتغاليون على مدخل البحر الاحمر وعدم وصول السفن التجارية الى ميناء جده.

وتتابعت الامدادت العسكرية الى قوات الامير حسين الكردي، حيث ارسل الغوري اسطولا اخر في حزيران من عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، والحقه باسطول ثالث في تموز من عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م بقيادة سلمان الريس(١٠٢)، وتجمعت كل القوات التي ارسلت من السويس في ميناء جده وظلت فيها طوال شهر رمضان، ثم ابحرت بعد عيد الفطر وفي السنة نفسها بقيادة الامير حسين الكردي ويساعده الامير سلمان الريس(١٠٣).

لكن الحملة المملوكية التي كان هدفها ملاقاة البرتغاليين وطردهم من المنطقة واستعادت سيادتهم السياسية والاقتصادية في البحر الاحمر والمحيط الهندي قد فشلت وانتهى امرها الى حدوث صراع مرير بين المماليك الجراكة وبين السلطان اليمني عامر بن عبد الوهاب، وفشل الاسطول المصري في التوجه الى الهند(١٠٤).

ونتيجة لعوامل عديدة كانت قد واجهت حملة المماليك وغيرت من سياستها واهدافها وجعلتها تتوقف عند عدن دون ان تحقق هجومها الى الهند، وتغير سياستها العسكرية من سياسة هجومية الى سياسة دفاعية، وللتبصر في هذا الامر نجد ان بعض المصادر التاريخية التي تحدثت عن هذه الحملة، حددت بعض الاتجاهات التي ادت الى تلك النتيجة واهم هذه الاتجاهات والعوامل ما يأتي:

١ ــ تأكيد بعض المصادر التاريخية على ان السبب الرئيسي في عدم تحقيق الامير حسين الكردي هدفه بالوصول الى الهند هو الخلاف الذي وقع بينه وبين سلمان الريس، الذي ادى الى انقسام الاسطول المملوكي بحيث توجه سلمان الريس الى زيلع ومنها الى جده في حين عاد الامير حسين الكردي الى جده، بعد مروره بالموانئ اليمنية الواقعة على ساحل البحر الاحمر، ومما يستدل على خيانة سلمان الريس، وانفراده بقيادة الاسطول المرابط في جده وتنفيذه أوامر السلطان سليم بالقبض على الامير حسين الكردي واغراقه في البحر الاحمر امام ميناء جده(١٠٥). وكان ذلك بعد استيلاء العثمانيين على مصر وقضائهم على دولة المماليك الجراكسة.

٢ ــ أما العامل الثاني فهو عدم تعاون السلطان اليمني عامر بن عبد الوهاب، الذي استنجد بالمماليك في بداية الامر وخاصة بعد هجوم البوكيرك على عدن سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م(١٠٦) ولكنه سرعان ما تراجع عن الوفاء بعهده للغوري بتقديم المساعدات الى الاسطول المملوكي ورفض ان يتخذ الاسطول المصري قواعده في اليمن وكذلك احتجازه السفن الواردة بالمؤن ومنعها من الوصول الى الاسطول المصري في كمران(١٠٧). ونتيجة للاسباب واردة الذكر قام الغوري بتحقيق ما يريده عن طريق القوة حيث وجه قواته المعدة، لمحاربة البرتغاليين للقيام بالسيطرة على بعض الموانئ اليمنية،

ذلك من عتاد الحرب، وكان مضافا اليها نحو الفين من البحارة العثمانيين بقيادة سلمان الريس للمساعدة في اعداد الاسطول في ميناء السويس والمشاركة في الحملة البحرية المنتظرة الى الهند(١١) ويشير ابن آياس في حديثه عن حملة السويس الى اهتمام السلطان الغوري بسلمان الريس وجماعته، انه ذهب الى السويس بنفسه للاحتفال بانزال سفن الاسطول الى البحر، ووصف ذلك بقوله: «وكان هناك الريس سلمان العثماني وجماعة من العثمانية البحارة فقصد السلطان اظهار العظمة لاجل جماعة ابن عثمان حتى قيل: دخل العسكر الى السويس وهو لابس آلة الحرب وكانت جماعة ابن عثمان هناك نحو الفي انسان..»(١٢).

وتشير بعض المصادر التاريخية(١٣) الى ان المماليك كانوا يديمون الصلة بامراء الممالك الاسلامية في الهند وكانوا يثيرون حماسهم الديني من اجل التعاون معهم ومساعدتهم في تحصين مدينة جده وحماية المقدسات الاسلامية التي كان البرتغاليون يهددون باستمرار في الوصول اليها وتدميرها، وقد اسفرت هذه المساعي عن قيام سلاطين الممالك الاسلامية في الهند بتقديم كميات كبيرة من التوابل والاقمشة وغيرها من منتجات «كامياي» شحنت هذه المساعدات على متن ثلاثة مراكب من الهند الى جده مساهمة منهم في تقوية سور جده وتحصينها وحمايتها من التهديد البرتغالي(١٤).

وزيادة على ذلك كان دخول الاسطول البرتغالي الى البحر الاحمر سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م قد اثار مخاوف القوى المحلية والاسلامية واحدث رد فعل عنيف في المنطقة، مما دفع امير مكة الشريف بركات التوجه الى جده، ومخاطبة الغوري وابلاغه بخطورة الموقف والطلب منه الاسراع في ارسال الامدادات الى جده لمنع نزول البرتغاليين(١٥) اليها.

ونتيجة للحصار الذي فرضه البرتغاليون على عدن والبحر الاحمر بعد دخولهم المنطقة ومحاصرتها فقد حدثت تطورات واضرار كبيرة في الاقتصاد المصري واصبحت تجارة المماليك تواجه ظروفا صعبة ومعقدة اشار ابن آياس اليها في حوادث سنة ٩٢٠هـ حيث قال: «وكان في تلك الايام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الانشحاب والتعطيل، فان بندر الاسكندرية خراب لن تدخل اليهالقطائع في السنة الخالية وبندر جدة خراب نحو من ست سنين»(١٦).

وفضلا عما ذكرنا فان الاسطول المملوكي الذي اعده الغوري في السويس لمواجهة البرتغاليين وحماية البحر الاحمر قد انتهى من اعداده في بداية عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م، وكان حصيلة ذلك العمل بناء عشرين سفينة حربية(١٧)، ويستطرد ابن آياس في حديثه عن جهود السلطان الغوري ويذكر انه توجه بنفسه الى ميناء السويس في آذار من عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م للاشراف على انزال السفن الجديدة الى البحر الاحمر والتي صرف على انشائها نحو اربعمائة الف دينار من مال السلطان، وكان سلمان العثماني هو المسؤول عن عمارة تلك السفن حتى أن السلطان قد انعم عليه بالف دينار كما اكرم النجارين والبنائين والحدادين (والقلافطه) الذين عملوا في بناء الاسطول واعداده في السويس(١٨).

خرجت حملة المماليك الثانية من السويس متجهة الى جده واسند امر قيادتها للامير حسين الكردي، كما رافق الحملة احد الامراء لاستقصاء اخبار البرتغاليين(١٩) وعند وصول الامير حسين الكردي الى ميناء جده بالغ في تحصينها مرة ثانية الى الحد الذي اثار فيه سخط بعض معاصريه من

بعدها استطاعت هذه القوات من السيطرة على المدينة بعد ان لاقت مقاومة عنيفة من سكانها، مما اضطرها من الانسحاب من عدن في العام نفسه.

وفضلا عما ذكر من العوامل والاتجاهات التي عطلت المماليك عن اداء مهمتهم في مواجهة البرتغاليين في الهند فان بعض المؤرخين يشككون في نزاهة الامير مرجان الظافري حاكم عدن ويتهمونه بالخيانة بسبب عقد الاتصالات مع البرتغاليين واجابته لمطالبهم والتواطؤ مع سواريز قائد الاسطول البرتغالي وتسهيل مهمة دخوله البحر الاحمر الى الحد الذي عرض عليه مفاتيح المدينة(١٠٨).

وخلاصة القول ان موقف المماليك في مصر تجاه الغزو البرتغالي كان ضعيفا بسبب جملة عوامل تعرضت لها دولتهم في بداية القرن السادس عشر الميلادي يمكن اجمالها بما ياتي:

١ ــ اضطراب الاوضاع السياسية لدولة المماليك بسبب الصراعات الداخلية بين الامراء انفسهم وحدوث الثورات في الاقاليم التابعة لهم وتعرض السواحل الشمالية لهجمات القراصنة الاوروبيين وعلى رأسهم «فرسان القديس يوحنا» الذين كانوا يقيمون في جزيرة (رودس)(١٠٩).

وأشار ابن آياس الى ذلك واوضح ان قانصوه الغوري كان اثناء اعداده الحملة لمواجهة البرتغاليين في الهند قد اعد حملتين لاخماد ثورات العربان في الداخل. احدهما ارسلها الى (الكرك) بالشام والاخرى ارسلها الى (ينبع) بالحجاز(١١٠).

يضاف الى ما سبق ذكره من اسباب سوء الاحوال الاقتصادية لدولة المماليك بسبب تحول التجارة العالمية عن طريق البحر الاحمر والخليج العربي الى طريق رأس الرجاء الصالح وحرمان دولة المماليك من مصدر مهم من مصادر ثروتها.

٢ ــ والعامل الثاني الذي اثر على موقف المماليك من الغزو البرتغالي هو ان دولة المماليك تمتاز بكونها دولة برية وليست بحرية اذ كان المماليك فرسانا وليسوا بحاره، ولما كان الصراع بين الطرفين صراعا بحريا لذا استوجب من المماليك بناء اسطول حربي لمواجهة الموقف الجديد مع العلم ان دولتهم لم تكن تملك الاخشاب اللازمة لبناء هذا الاسطول، بل كانت تجلب الاخشاب والفنيين والصناع من الخارج، وبشكل خاص من دولة البندقية التي كانت تعاني هي الاخرى من الوجود البرتغالي بسبب انتقال مركز الثقل التجاري الى طريق رأس الرجاء الصالح وتأثر مصالحها التجارية من جراء ذلك(١١١).

ومن خلال ما تقدم يتضح للباحث ان الجهود المتواضعة التي بذلها المماليك المصريون في مواجهتهم للخطر البرتغالي كان بدوافع اقتصادية، اذ كان يدفعهم الى ذلك رغبتهم الشديدة في حماية تجارة الهند المارة عبر البحر الاحمر والتي كانوا يحصلون من وارداتها سنويا على ارباح طائلة وبشكل خاص تجارة التوابل.

موقف اليمنين من مواجهة الغزو البرتغالي

ان اهم القوى المسيطرة على البحر الاحمر والمحيط الهندي في مطلع القرن السادس عشر هي مصر في سواحل البحر الاحمر الشمالية واليمن في سواحله الجنوبية(١١٢) وقد تزامن وجود هاتين القوتين مع وصول البرتغاليين الى مياه المحيط الهندي والبحر الاحمر وتحويلهم تجارة الشرق الى طريق رأس الرجاء الصالح الذي ادى الى اضعاف دور البحر الاحمر التجاري والذي اضعف ايضا بدوره الاقتصادي المصري واليمني.

وعند دراسة موقف اهل اليمن من الغزو البرتغالي الذي هدد مصالحهم التجارية نجد ان هذا الموقف كان يتصف بالضعف والتهاون الى الحد الذي يوصف بانه اقل ايجابية من موقف المماليك في مصر(١١٣).

ورغم ذلك فان اليمن اهتمت بالغزو البرتغالي، ولكن امكانياتها البحرية كانت ضئيلة، حيث انها لا تملك اسطولا حربيا يقوى على مواجهة القوة البرتغالية(١١٤). ولم يقف اليمنيون مكتوفي الايدى تجاه الغزو البرتغالي، فقد اعد السلطان عامر بن عبد الوهاب في عام (٩١٢هـ/ ١٥٠٧) حملة بحرية على الرغمن من ضعف امكانيات اليمن الحربية والمالية، وكانت هذه الحملة مؤلفة من اربع عشرة سفينة تحمل على ظهرها ستمائة مقاتل(١١٥)، وتشير المصادر التاريخية الى ان بعض رجال الحملة كانوا من الفقهاء وطلبة العلم الذين تطوعوا للجهاد ضد البرتغاليين(١١٦). الا ان اخبار هذه الحملة البحرية لم يعرف عنها شئ واغلب المؤرخين العرب يعتقدون بان هذه الحملة الصغيرة وقعت فريسة سهلة للبرتغاليين في المحيط الهندي(١١٧)، غير ان المؤرخين يشيرون الى ان بعض سفن حملة عامر بن عبد الوهاب قد التحقت باسطول الامير حسين الكردي في المحيط الهندي(١١٨) ومن المرجح ان هذه الحملة المتواضعة قد دمرت من قبل البرتغاليين في عرض المحيط الهندي وذلك لان سفن هذه الحملة كانت عبارة عن سفن نقل عادية لا تتناسب مع السفن البرتغالية الحديثة، التي تحمل المدافع والاسلحة النارية(١١٩) في الوقت الذي كان فيه اليمنيون يستعملون السلاح الابيض في حروبهم حيث انهم لم يعرفوا بعد البنادق والرصاص(١٢٠).

وبالنظر لاهمية ميناء عدن التجارية وموقعه من مدخل البحر الاحمر فقد عزم البرتغاليون على الاستيلاء عليه والسيطرة على جده من بعده ومن ثم تحقيق التحالف مع الحبشة لكسر شوكة المسلمين هناك(١٢١). وخططوا لتحقيق اهدافهم العدوانية التوسعية للسيطرة على عدن بعد ان تمت لهم السيطرة على جمنيع مراكز تجارة التوابل من (ملقا) الى هرمز الى سوقطره.

وفي عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م وصلت السفن البرتغالية الى سواحل ميناء عدن حيث استولوا على السفن الراسية فيه ثم باشروا في قصف المدينة بنيران مدفعيتهم(١٢٢) وقد اخاف هذا العمل حاكم عدن وخشى تدمير البلاد فارسل بعض الهدايا الى قائد الحملة وطلب منه عقد الهدنة الا ان

البرتغاليين رفضوا طلب حاكم عدن مرجان الظافري وانذروه بتسليم المدينة وهددوه بالاستيلاء عليها بالقوة(١٢٣) لكن أهل عدن رفضوا الاستجابة للتهديد البرتغالي واستبسلوا استبسالا رائعا للدفاع عن بلدهم بالهجوم على البرتغاليين الذين تسلقوا اسوار المدينة حيث اجبروهم على الهروب منها والعودة الى سفنهم خائبين دون ان يحققوا هدفهم بالاستيلاء على عدن(١٢٤).

وتشير بعض المصادر التاريخية الى ان السلطان عامر بن عبد الوهاب حاكم اليمن كان قد ارسل جنوده لمساعدة حامية عدن وان الامير مرجان الظافري امر بتحصين المدينة جيدا وكذلك طلب من اليمنين عدم منازلة البرتغاليين في معركة بحرية نظرا لقوة الاساطيل البرتغالية(١٢٥) وبعد ان فشل البرتغاليون في حملتهم هذه سوغوا فشلهم بتدمير السفن الراسية في الميناء ثم انسحبوا بعدها نحو باب المندب(١٢٦)

واورد ابن الديبع في حوادث ٩١٩هـ/ ١٥١٣م تفصيلات مهمة عن موقف اهل اليمن من الغزو البرتغالي حيث قال: وفي اثناء شهر المحرم من سنة تسع عشره وتسعمائة، وصل العلم الى مولانا السلطان (بزبيد) بقدوم ثمانية عشر مركبا الى بندر عدن فيها جمع عظيم من الافرنج، فجهز السلطان عسكرا الى ثغر عدن وامر بالتحفظ والتحرز فيه وفي سائر البنادر، وامر بالقنوت عليهم بالصلوات الخمسة وفي خطبة الجمعة.. فركب مرجان ولم يكن فيها فارس غيره، فقاتلهم وقاتل معه اهل المدينة، فنالوا من المسلمين، ثم كانت الدائرة عليهم، فهزموا هزيمة منكرة وقتل منهم جماعة، فرجعوا منهزمين لا يلوون على احد، وانكسر منهم جمع واخذت دروعهم وسلاحهم واصبح حزب الله هم الغالبون(١٢٧).

وبعد ان فشل البوكيرك في مهاجمة جده، عاد ثانية الى جزيرة كمران فبقي فيها اكثر من شهرين(١٢٨)، ولما تعذر عليه الاتصال بحلفائه الاحباش المسحيين عمل خطته التدميرية في موانئ البحر الاحمر التي وصلها في عودته حتى وصل عدن ثانية فضربها بالمدفعية(١٢٩) الا ان اهلها ابدوا بطولة رائعة وشجاعة فائقة وحماس شديد في الدفاع عنها، واكد ذلك ابن الديبع في الفضل المزيد بقوله «..ثم انهم نزلوا ليلاقي االسنابيق ففطن بهم اهل عدن، فخرجوا لهم خفية وثاروا عليهم فهزموهم وقتلوا منهم جماعة وجرحوا آخرين. فلما انقطع رجاءهم من المدينة وتحققوا ان حزب الشيطان لا يقاوم حزب الرحمن رحلوا خائبين..»(١٣٠) واستطرد ابن الديبع في وصف شجاعة اهل اليمن وبطولتهم اذ قال: «وقد استعد اهل عدن بسلاحهم ورتبوا في الساحل، فنزلوا من سنابيقهم الى العراء رجاله مستعدون للحرب بالسلاح وغيره... فلما نزلوا بالساحل ثار عليهم المسلمون من كل جانب وضربت المدافع من البلد ومن مراكبهم وكانت صحية عظيمة وفتية قوية فنصر الله المسلمين..»(١٣١).

وعلى اثر هذه المقاومة التي نظمها الامير مرجان الظافري ضد الغزو البرتغالي في عدن فقد خابت آمال البوكيرك وفشلت اهدافه العدوانية التي كان يسعى بموجبها الى التنكيل بالمسلمين من

جهة وارضاء الاحباش الذين اراد لهم ان يكونوا عملاء تجاريين في منطقة البحر الاحمر من جهة ثانية.

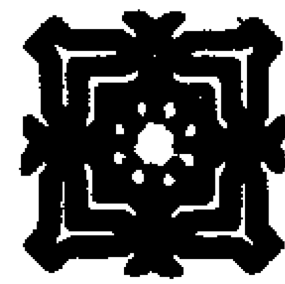
وكان لاهل عدن تاريخ يذكر في مقاومة الحملة البرتغالية التي قادها لوبر سواريز (Lopo Soares) عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، والتي استغل فيها البرتغاليون الصراع الذي كان قائما بين المماليك وحاكم اليمن، كما انهم على علم بالاضرار البالغة التي لحقت بحامية عدن وتحصيناتها الدفاعية من جراء هذا الصراع. فعند وصول حملة سواريز الى سواحل ميناء عدن اعلن انه جاء لمساعدة اهل اليمن ضد المماليك الجراكسة(١٣٢). وبعد ان وصل الى ميناء عدن، اجتمع الامير الظافري بوجهاء مدينة عدن وبعد التشاور معهم اتفقوا على تسليم المدينة للبرتغاليين حفاظا عليها من الدمار والخراب وكذلك صونا لارواح سكان عدن(١٣٣). واذا كان هذا القول صحيحا فان تفسيره يعزى لثلاثة اسباب لابد من ذكرها:

١ ـ استياء اهل عدن من المماليك الذين دمروا تحصينات المدينة بمحاولاتهم المتكررة لغزو عدن وتخريبها، وانهم ارادوا من تحالفهم مع البرتغاليين ازعاج المماليك واغاظتهم، كما ان هناك احتمال آخر مفاده ان اهل عدن كانوا يفضلون ان يجابهوا عدوا واحدا من ان يجابهوا عدوين قويين.

٢ ـ وبما ان الامير مرجان الظافري كان يعرف ان اهتمام البرتغاليين ليس بمدينة عدن فقط وانما الاندفاع داخل البحر الاحمر للوصول الى مدينة جده وتدميرها لذلك عمد لاتباع سياسة المهادنة لاستغلال الوقت واكمال تحصينات المدينة والاستعداد للدفاع عنها، كما حصل فيما بعد.

٣ ـ اما الاحتمال الاخير فهو ان الامير مرجان عرض تسليم عدن على البرتغاليين ليثير المصريين ويدفعهم الى القيام بهجوم قد يحطم قوى الطرفين أو على الاقل يحطم طرفا ويضعف الطرف الاخر فيستطيع مرجان ان يقاوم الطرف المنتصر بعد اعادة تحصينات عدن.

ومن جانب آخر تشير بعض المصادر التاريخية ان الظافري استقبل البرتغاليين والدموع في عينيه من الذل والقهر، ولكن لوبر سواريز جعل المدينة بيد الظافري.



الهوامش

١. زين الدين المليباري: «تحفة المجاهدين في بعض احوال المجاهدين»، لشبونة، ١٨٩٨م، ص٣٧.
٢. محمود: المصدر السابق، ص ٢٢٠.
٣. المليباري: المصدر السابق، ص ٣٧.
٤. صفوة بك: «وثائق تركية» ص ٣.
٥. المصدر نفسه، ص ١٦.
٦. محمود سمره: «الصراع بين العرب والبرتغاليين في شرق افريقيا» مجلة العربي، الكويت، العدد/ ٥٩ سنة ١٩٦٣، ص١٣٢.
٧. صفوة بك: المصدر السابق، ص ١٩.
٨. جوا دى بروس: «الوثائق البرتغالية» العشارية الثانية، القسم الاول ص١.
٩. عبد العزيز محمد الشناوي: «معالم الوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية» لجنة تدوين تاريخ قطر، ج٢، ١٩٧٦، ص٦٢٥.
١٠. Serjeant: Ibid, P. 42-
١١. صفوة بك: المصدر السابق، ص ٦، انظر ايضا عبد ربه: المصدر السابق، ص٢٠٧.
١٢. Serjeant, Op, Cit, P. 169.
١٣. شهاب: «فن الملاحة عند العرب» ص ٤٦.
١٤. Serjeant: Op. Cit, P. 169.
١٥. الغول: المصدر السابق، ص ١٠٨.
١٦. محمود: المصدر السابق، ص ٢٢١.
١٧. Serjeant: R. B: Op, Cit, P. 14.
١٨. Ibid: P, 110
١٩. Serjeant: R.B. Ibid, P. 136
٢٠. مسقط خورفكان ميناءان مهمان في مدخل الخليج العربي.
٢١. محمود سمره: المصدر السابق، ص ١٣٣.
٢٢. جوا دى بروس: «الوثائق البرتغالية» الفصل الثاني، ص٩١ ــ ٩٤، ٩٥ . ١٢٢.
٢٣. جوا: وهي احدى الموانئ المهمة في الهند وتقع على ساحل (مالابار) المطل على بحر العرب (Serjeant: Ibid, P, 111)
٢٤. Serjeant: R. B: Ibid, P. 110
٢٥. شارل ديل: «البندقية جمهورية ارستقراطية» ص ١٤٨ ــ ١٤٩.
٢٧. Serjeant: R.B: Op, Cit, P. 112
٢٨. سالم: المصدر السابق، ص ٥٣.
٢٩. ابو مخرمه: «تاريخ عدن» ج١، (ليدن ــ ١٩٣٦) ص ١٢ ــ ١٣.
٣٠. المصدر نفسه: ص ١٦ ــ ١٧.

٣١. احمد دراج: «المماليك والافانج»، ص ١٥٥.

٣٢. كمران جزيرة كبيرة مشهورة في البحر الاحمر مقابلة للساحل اليمني، سبق الحديث عن مينائها في المبحث الاول.

٣٣. Duarto Barbosa: Adesscription of the coast of East Africa and Malabar in the beginning of the Sixteen century, Translzted by Henry E.J. Stanley (London - 1918) P. 50-

٣٤. Ibid, P, 51

٣٥. Serjeant: Op, Cit, P. 169.

٣٦. صفوة بك: «الوثائق التركية» ص٨.

٣٧. سالم: المصدر السابق، ص ٧٣.

٣٨. صفوة بك: المصدر السابق، ص ١٢.

٣٩. قاسم: المصدر السابق، ص ٢١٦.

٤٠. Serjeant: R.B: Ibid, P. 169.
انظر كذلك محمود: المصدر السابق، ص ٢٢٣.

٤١. كان الامير مرجان حاكما لعدن، في ايام السلطان عامر بن عبد الوهاب ثم استمر في منصبه بعد مقتل هذا السلطان حتى توفي بها في سنة (٩٢٧هـ/ ١٥٢١) وقد اطلق عليه مرجان الظافري نسبة الى لقب السلطان عامر: (سالم: الفتح العثماني الاول لليمن، ص٢١).

٤٢. قاسم: المصدر السابق، ص ٢١٦.

٤٣. سالم: المصدر السابق، ص ٨٩.

٤٤. Serjeant, R.B: Op, Cit, P. 170
كذلك قاسم: المصدر السابق، ص ٢١٧.

٤٥. Serjeant: R.B: Ibid, P. 170
انظر ايضا: السمره: المصدر السابق، ص ١٣٢.

٤٦. صفوة بك: المصدر السابق، ص٣.

٤٧. ان البرتغال لا تمتلك اعدادا بشرية كبيرة تسمح بتهجيرها الى المناطق التي احتلتها وتسكينهم على شكل مستوطنات بعيدة عن الوطن الام حيث ان تعداد نفوسها في القرن السادس عشر الميلادي لا يتجاوز المليون نسمه (الشناوي: المصدر السابق، ص٦٢٢)

٤٨. Bell, Op, Cit, P. 415.

٤٩. Serjeant, Op, Cit, P. 16.

٥٠. Serjeant, Ibid, P. 16

٥١. Bell:Op, Cit, p. 415

٥٢. الشناوي: المصدر السابق، ص ٦٣٥.

٥٣. Serjeant: Op, Cit, P.2

٥٤. سونيا هاو: المصدر السابق، ص ١٠٧.

٥٥. شارل ديل: «البندقية جمهورية مستقلة» ص ١٤٧.

٥٦. ابن آياس: «بدائع الزهور»، ج٤، ص ١٩٨.
٥٧. دراج: المصدر السابق، ص ١٣٧.
٥٨. سالم: المصدر السابق، ص ٦٠.
٥٩. ابن آياس: المصدر السابق، ص ١٩٨.
٦٠. المليباري: المصدر السابق، ص ٣٨.
٦١. المليبارى: المصدر السابق، ص٤٠، انظر ايضا Barbosa, Op, Cit, p.47
٦٢. تعد كجرات اهم الممالك الاسلامية على ساحل الهند الغربي وهي تحتل اقصى شمال هذا الساحل، وعاصمة هذه السلطنة، احمد آباد، أما اهم موانئها فهي كمبايا وديو وسوارت. (سالم: الفتح العماني الاول لليمن، ص٦٠).
٦٣. النهروالي: المصدر السابق، ص ١٩.
٦٤. ابن آياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ١٨٢.
٦٥. سالم: المصدر السابق، ص ٦١.
٦٦. ابن آياس: المصدر السابق، ص ٨٥.
٦٧. النهروالي: البرق اليماني، ص ١٠.
٦٨. ابن آياس: المصدر السابق، ص ٩٦.
٦٩. المصدر نفسه، ص ٩٥.
٧٠. المصدر نفسه، ص ٨٤ ــ ٩٦.

٧١. The Itinerary Ludovico di Varthema of Bologna from 1502 - 1508, transiated from the Original Italian, John Winter Jones (London - 1928 P. 18).

انظر كذلك محمود: المصدر السابق، ص ٢٢٥.
٧٢. ابن إياس: «بدائع الزهور» ج٤، ص ٩٦.
٧٣. ابو مخزمه: «البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه» ص١٠٣، انظر كذلك ابن الديبع «قوة العيون باخبار اليمن الميمون» حققه وعلق عليه محمد بن علي الخوالي (القاهرة ــ ١٩٧٧) ج٢، ص٢١١.
٧٤. سالم: المصدر السابق، ص ٦٢.
٧٥. ابو مخزمه: المصدر السابق، ص ١٠٩.
٧٦. المصدر نفسه، ص ١٠٨.
٧٧. النهروالي: البرق اليماني في الفتح العثماني، ص ٣٠.
٧٨. ابن إياس: «بدائع الزهور» ج٤، ص ١٤٢.
٧٩. يقع ميناء شول (Chaul) على الشاطئ الغربي للهند الى الجنوب من سلطنة كجوات وكان يتبع مملكة الدكن الاسلامية.
٨٠. لورنزوا دالميدا (Lorence Almeida) هو ابن فرانسسكو دالميدا نائب الملك البرتغالي في الهند، (احمد دراج): المماليك والافرنج ص١٣٧.
٨١. المليباري: المصدر السابق، ص ٤٠ ــ ٤١.
٨٢. فهمي: المصدر السابق، ص ٣٠ ــ ٩١.

٨٣. المليباري: المصدر السابق، ص ٤١.
٨٤. ابن اياس: «بدائع الزهور» ج٤، ص ٢٨٦. انظر كذلك احمد دراج: المماليك والافرنج» ص ١٣٧ — ١٣٨، وسعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص ١٧٨.
٨٥. المليباري: المصدر السابق، ص ٤١.
٨٦. المصدر نفسه.
٨٧. Barbosa: Op, Cit, P. 61-
٨٨. Stripling, G., W.F: The Ottoman Turks and the Arabs, 1511-1574. U.S.A. Urpana, University, of Illinos Press, 1942, P. 1.
٨٩. ابن اياس: «بدائع الزهور»، ج٤، ص ١٩١ — ١٩٢.
٩٠. ابن اياس: «بدائع الزهور» ج٤، ص ١٩٦.
٩١. ابن اياس: «بدائع الزهور» ج٤، ص ٢٠١.
٩٢. المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٦٥.
٩٣. ينسب ابن اياس اصل هؤلاء البحارة الذين ارسلهم السلطان العثماني والذين رافقوا سلمان الريس الى عثمانيين ومغاربة وان خمسمائة منهم كانوا من المماليك واولاد الناس (ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٦٠).
٩٤. جوادي بروس: «الوثائق البرتغالية» العشارية الثانية، الجزء الاول، الفصل الثالث، ص٢٤ . ٤١.
٩٥. ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ٣٠٧ — ٣٠٨ — ٣١٠.
٩٦. المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٥٩.
٩٧. ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ٣٦٥.
٩٨. ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ٣٦٢ — ٤٦٦، انظر ايضا عبد ربه: المصدر السابق، ص ١١٤.
٩٩. المصدر السابق، ج٤، ص ٣٦٢ — ٣٦٤ . ٣٦٦ . ٤٥٨.
١٠٠. 6. The Sumaorientel of Tome Pires: An account of East from the Red Sea to Japan, written in Malacca and (India in 1512 - 1515) Vol. I. (London) Itakluy socity, 1944. P.
١٠١. سالم: المصدر السابق، ص ٨٠.
١٠٢. ابن اياس: «بدائع الزهور»، ح٤، ص ٤٦٦.
١٠٣. صفوة بك: المصدر السابق، ص٣.
١٠٤. ابن الديبع: «قرة العيون» ح٢، ص ٢٢٤ — ٢٢٦، ايضا النهروالي البرق اليماني، ص ٢٠.
١٠٥. النهروالي: البرق اليماني، ص ٢٦ — ٢٧.
١٠٦. سالم: المصدر السابق، ص ٨١.
١٠٧. النهروالي: المصدر السابق، ص ٢٠ — ٢٣.
١٠٨. صفوة بك: المصدر السابق، ص ٤.
١٠٩. ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٢٠. انظر ايضا سالم: المصدر السابق، ص٧٦.
١١٠. المصدر نفسه، ج٤، ص ٨٢.
١١١. Stripling: Op, Cit, P.32.
١١٢. Tome pires: Op, Cit, P. 5.

١١٣. Mr, Abir: Ethiopia and the Eed Sea, London, 1980. P. 110.

١١٤. Ibid: P, 112.

١١٥. ابن الديبع: «قرن العيون باخبار اليمن الميمون»، ص٢١١.

١١٦. سالم: المصدر السابق، ص ٥٨ . ٥٩.

١١٧. نفس المصدر والصفحة.

١١٨. Abir: Op, Cit, P, 112.

١١٩. سالم: المصدر السابق، ص ٥٩.

١٢٠. حمزة علي ابراهيم لقمان: «تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية» دار مصر للطباعة، ١٩٦٠، ص١٢١.

١٢١. شارل ديل: (البندقية جمهورية ارستقراطية) ص ١٤٩.

١٢٢. ابو مخزمه: المصدر السابق، ص ١٢ . ١٣.

١٢٣. المصدر نفسه، ص ١٦ ـ ١٧.

١٢٤. Tome Pires: Op, Cit, P. 15.

١٢٥. لقمان: المصدر السابق، ص ١١٧.

١٢٦. نفس المصدر والصفحة.

١٢٧. ابو مخزمه: المصدر السابق، ص ١١٩.

١٢٨. Serjeant: Op, Cit, P, 170.

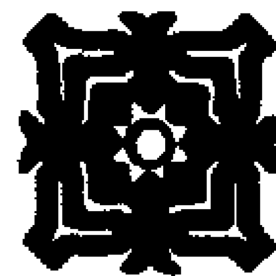
١٢٩. لقمان: المصدر السابق، ص ١١٨.

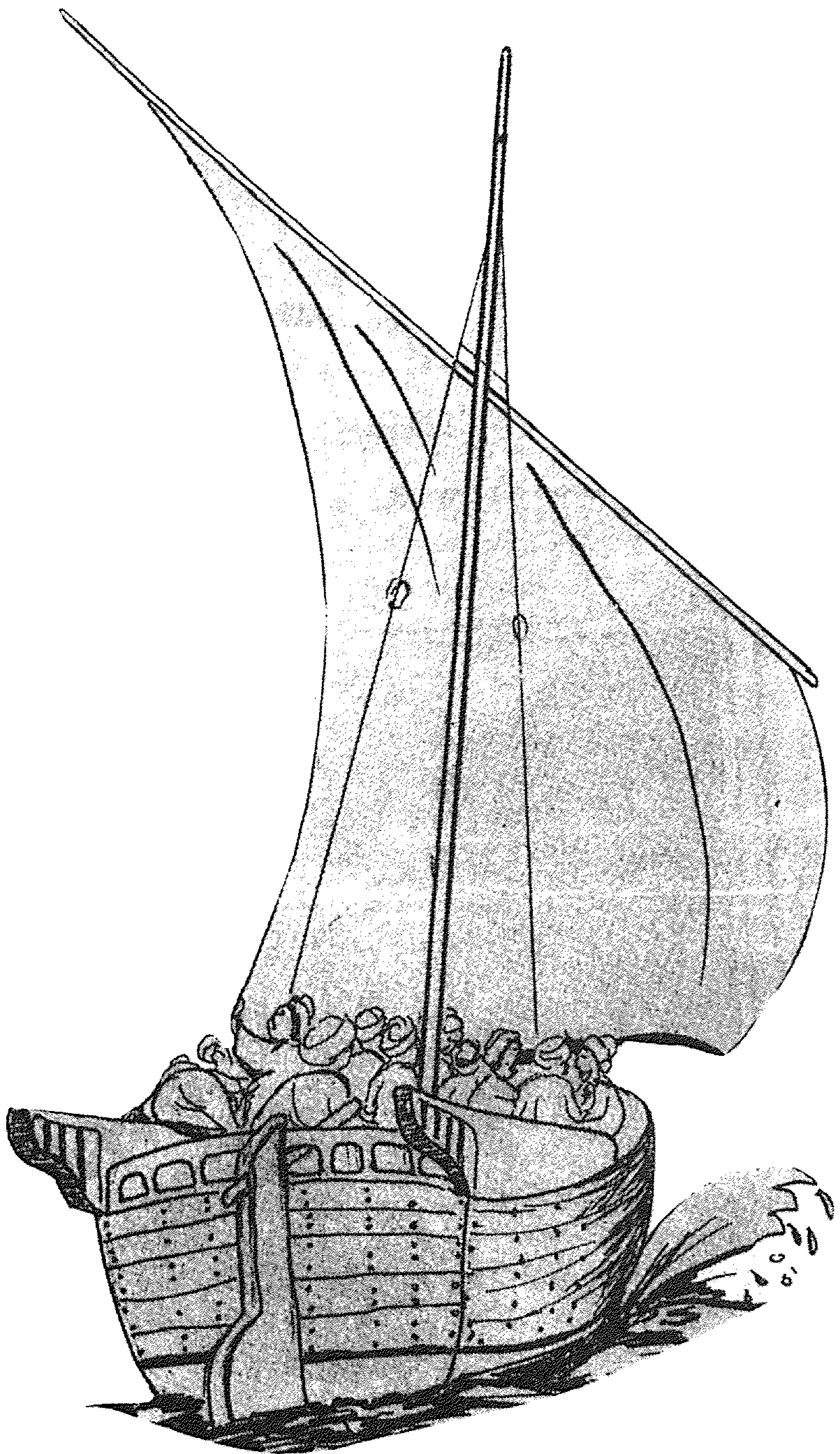
١٣٠. ابو مخزمه: المصدر السابق، ص ١٢٥.

١٣١. المصدر نفسه: ص ١٢٦.

١٣٢. شهاب: فن الملاحة عند العرب، ص ٤٨.

١٣٣. بامطرف: المصدر السابق، ص ٥٥.





الصراع العماني البرتغالي وتحرير الشرق الافريقي خلال القرن السابع عشر.

د. صالح محمد العابد
جامعـــة بغــداد

بدأ الغزو البرتغالي للبحار العربية في الشرق بعد وقت قصير من اكتشاف طريق راس الرجاء الصالح وايجاد صلة مباشرة بين المحيط الهندي واوروبا، في اعقاب رحلة فاسكوديكاما الشهيرة في ١٤٩٧ــ ١٤٩٨. وتركزت المراحل الاولى للغزو، في إخضاع موانئ شرق افريقيا، وانشاء قاعدة قوية على الساحل الغربي للهند. وشهدت سنوات ١٥٠٢ ــ ١٥٠٧، اخضاع كلوة وزنجبار وسوفالة وممباسا، والتقدم الى الموانئ الشمالية: لامو واوجا وبراوة (١) وبحلول سنة١٥٠٩، اى بعد مرور حوالي عشر سنوات على دخول البرتغاليين الى المحيط الهندي، تم اخضاع ساحل شرق افريقيا، وايقاع الدمار بالمستوطنات العربية الممتدة من سوفالة فيالجنوب، الى براوة في الشمال، مع جزر زنجبار وبمبا ومافيا.

وبنجاح البرتغاليين في ايقاع هزيمة كبرى باسطول المماليك في معركة ديو(٢) تمكنوا من تأسيس قاعدة قوية في غوا، على الساحل الغربي للهندفي ١٥١٠ أصبحت مركز ممتلكاتهم في أسيا واندفع البرتغاليون اكثر نحو الشرق، الى جزر التوابل (اندونسيا) والملايو واستولوا على مالقا (٣) في ١٥١٣ (٤) وكان الهدف الاستراتيجي للبرتغال التحكم المطلق بالتجارة الشرقية عن طريق السيطرة على مخارجها التقليدية، ومن ثم محق اقتصاديات العالم الاسلامي المهيمن على هذه التجارة. وهذا يفسر عدم اكتفاء البرتغاليين بالتحكم بالنقاط الاستراتيجية لممرات هذه التجارة، وتبنيهم اسلوب القرصنة والهجمات في البحار العالية ومحاصرة الموانئ لمنع السفن الاسلامية من ممارسة اى نشاط ملاحي او تجاري (٥). ويتبع ذلك، تأسيس امبراطورية استعمارية تضم شرق افريقيا والهند والخليج العربي والساحل الجنوبي للجزيرة العربية، في المرحلة الاولى، تعقبها مراحل اخرى، باحتلال عدن

واختراق البحر الاحمر والتحكم بساحليه (٦) ويعود الفضل في تنفيذ ذلك المخطط الى الكابتن البوكيرك (٧) الذي اخذ على عاتقة بناء امبراطورية قائمة على اساس متين لا يمكن تحديه في المحيط المندى. فكان احتلاله لجزيرة سوقطرا في ١٥٠٧، ودخوله الخليج العربي بعدها مباشرة للاستيلاء على موانئه المهمة تطبيقا عمليا للسياسة التي رسمتها البرتغال. وبالسيطرة على سوقطرا والهيمنة على هرمز ومالقا، ثم تأسيس نظام للتحكم يستمد بقاءه وقوته من استمرار تفوق البحرية البرتغالية وعدم تعرضها لاى ضعف طارئ (٨)

اتسمت عمليات البوكيرك في خليج عمان والخليج العربي بأقصى درجات الوحشية والحقد والتدمير، واسفر عنها احتلال موانئ الساحل العماني من رأس الحد الى خورفكان (٩)، ثم اجبار هرمز (١٠) على الخضوع. واقتضى الامر حملة برتغالية كبرى اخرى بقيادة البوكيرك لتثبيت احتلال هرمز في ١٥١٥ التي اصبحت الى جانب مسقط والبحرين، قواعد الارتكاز البرتغالية الرئيسه في الخليج العربي. ولحقبة تزيد على القرن، عانى سكان الخليج العربي مرارة الاضطهاد الشرس من جانب البرتغاليين الذين جعلوا انفسهم سادة الموانئ الرئيسه على جانبي الخليج، واستخدموا مركزهم، بقدر امكانهم، لمنع اية سفينه اخرى من التجارة. فكانت سفنهم تسيطر على مياهه، وحكامهم ينظمون تجارته باجازات تصدر منهم، والقلعة العظيمة في هرمز تتحكم بمدخله ولم تتمكن اى من دول المنطقة ان تكسر القبضة البرتغالية لانه لم يكن بمقدور احداها تحدى البرتغاليين في البحر (١١). كما لم تؤد الثورات التي قام بها العرب في الموانئ المختلفة الى زعزعة تلك السيطرة (١٢).

تعرضت الهيمنة البرتغالية الى الاهتزاز منذ اوائل القرن السابع عشر بتأثير عوامل متشابكة، منها اتحاد العرشين الاسباني والبرتغالي سنة ١٥٨٠ (١٣)، فاصبحت البرتغال تابعة لاسبانيا حتى عام ١٦٤٠، عندما استعادت استقلالها، اذ توجه اهتمام أسبانيا على نحو بين تجاه مستعمراتها في العالم الجديد (١٤).

ومنها تعصب البرتغاليين وقسوتهم، الى جانب ما اتصف به حكامهم وموظفوهم من جشع وفساد مما جعل سكان الخليج يمقتونهم (١٥). هذا، بالاضافة الى ظهور قوى اوروبية اخرى منافسة لهم ولا سيا الانجليز والهولنديون(١٦). ولكن اهم عوامل تفكك وانهيار السيطرة البرتغالية في رأيي هو تنامي قوة العرب العمانيين في عهد سلالة اليعاربة التي قدر لها ان تحسم الصراع لصالح العرب، وتقضى على الامبراطورية البرتغالية لا في الخليج العربي وحسب، وانما في غرب المحيط المندي كذلك.

شكل انتخاب ناصر بن مرشد اليعربي اماما في نهاية ١٦٢٤ منعطف تحول مهما في تاريخ عمان، دخلت فيه عصرا جديدا مجيدا«والامبراطورية البحرية التي سيبنيها اليعاربة ستكون ندا للقوى الاوروبية، وبفضل ثروتها اصبحت عمان من جديد قرابة قرن قطرا مزدهرا» (١٧)وكان تحرير سواحل عمان من الهيمنة البرتغالية،هدفا مركزيا للامام ناصر لان ترصين الامامة وثباتها لا يمكن ان يتحقق دون تحرير الموانئ فاذا لم يتم التحكم بها، والحصول على الدخل الذي تقدمه، فان ذلك

سيؤدى الى نتائج وخيمة (١٨)ولكن الامام كان يدرك ان تحقيق ذلك الهدف لن يتم بدون وحدة وطنية تجمع ما بين القبائل العمانية كافة، وان ذلك الهدف سيكون له، دون شك دور حاسم في قوة القبائل وتلاحمها. ولهذا فما ان تحقق له توحيد البلاد (١٩) حتى وجه القائد مسعود بن رمضان على رأس جيش كبير، في نهاية ١٦٣٢ الى قاعدة الوجود البرتغالي في مسقط (٢٠).

التقى الجيش العماني بالقوات البرتغالية في الدويج، قرب مطرح، وفي القتال الذى تلا ذلك، تم تدمير حصون المراقبة المشرفة على مسقط، وقتل عدد كبير من البرتغاليين، وهرب الباقون الى الحصون الداخلية، ولم يكن بمقدور القائد العماني ان يحقق نتيجة حاسمة، بسبب الضعف الذى اصاب قواته، وقوة تحصينات مسقط، ولهذا وافق على طلب الهدنة الذي تقدم به القائد البرتغالى، متعهدا بعدم التعرض للعمانيين، ومن ثم، لم تسفر الحملة عن نتيجة حاسمة (٢١). ولهذا وضع الامام خطة بعيدة المدى تستند الى تجريد البرتغاليين من قواعدهم على طول الساحل، قبل شن الهجوم الكبير على قاعدة ارتكازهم الرئيسية فيمسقط فوجه اهتمامه اولا الى تحرير جلفار (رأس الخيمة) من السيطرة البرتغالية ــ الفارسية المتمثلة بقلعتين احداهما برتغالية، تعززها عند الساحل سفينتان حربيتان، اما الاخرى ففارسية يقود حاميتها المدعو ناصر الدين.

تقدم جيش الامام يقوده على بن احمد، يساعده عدد من قادة اليعاربة، فحاصر القلعة الفارسية. وكانت الحمية تتلقى الدعم من السفينتين الحربيتين البرتغاليتين، ولهذا فقد كان من المتعذر شن هجوم مباشر. ودفع هذا بالقائد العمانى الى ان يأمر بالهجوم ليلا على برج مرتبط بالقاعة وتمكنت القوة المهاجمة من الاستيلاء على البرج، واندفعت مقتحمة القلعة، وبعد قتال لم يستغرق طويلا استسلمت الحمية الفارسية (٢٢) وفي خلال ذلك، وصلت تعزيزات عسكرية جديدة لقوات الامام، تتألف من قوة من قبيلة الدهامش يقودها خميس بن رمضان. فاحكم حصار القلعة البرتغالية، التي اضطر قائدها الى طلب الصلح مقابل اخلاء القلعة وبذلك، تم تحرير ساحل السر باكملة في تموز ١٦٣٣ (٢٣). وقد دفع اندحار الفرس وطردهم من جلفار الى لجوئهم للانجليز طلبا للمساعدة، ولكن المشروع فشل حينما اعدم الشاه صفي حاكم شيراز في العام نفسه (٢٤).

شجع هذا الانتصار الامام على مواصلة الجهاد لتحرير صحار. ففى السنة نفسها، اصدر امره الى والي ليوا، حافظ بن سيف، لحشد قوة لهذا الغرض وتقدمت القوة الى صحارحيث واجهت مقاومة ضارية من البرتغاليين الذين تحصنوا داخل قلعتها القوية.. ومن اجل احكام الحصار على المدافعين، بنى القائد العمانى قلعة قريبة من القلعة البرتغالية (٢٥). وتم التوصل الى هدنة وافق البرتغاليون بموجبها على وقف القتال وتسليم مراكزهم المحصنة في مطرح والسماح للعمانيين بالتجارة الحرة من مسقط (٢٦).

وباشر الامام في مطلع السنة التالية ١٦٢٤، عمليته لتحرير مينائى صور وقريات، وتمكن من تخليصهما من قبضة البرتغاليين (٢٧).

وهكذا، خلال عشر سنوات من وصوله الى الامامة تمكن ناصر بن مرشد من طرد الغزاة من الساحل العماني كله عدا نقطتين فقط، أدت هجماته المتواصلة على المراكز البرتغالية الى تدهور معنوى كبير في نفوس البرتغاليين كان بالامكان استغلاله بمواصلة الضغط على بقية قواعد ارتكازهم في الساحل ولاسيا مسقط. إلا أن تطور الأوضاع الداخلية، عرقل خطة الامام، وأجبره على توجيه اهتمامه للقضاء على حركة التمرد التي قادها شيخ بنى هلال ناصر بن قطن، تعاونه بعض القبائل. ووقعت سلسلة من المعارك بين الطرفين استغرقت بضع سنين، استغلها البرتغاليون فأعادوا سيطرتهم على صور وقريات. وتمكن الامام بعد جهود مضنية أن يقضى على التمرد، وفر ناصر بن قطن الى الاحساء (٢٨)، وبذل البرتغاليون جهودهم لتشجيع الانشقاقات الداخلية، فى ١٦٤٣ دعموا حركة تمرد قام بها الشيخ سيف بن محمد حاكم ليوا وساعدوه بقوة عسكرية، ولكن الامام سارع على رأس قوته فسحق التمرد، وأوقع هزيمة منكرة بالقوة البرتغالية وأسر أفرادها كافة. واتبع ذلك بتطويق الحامية البرتغالية في صحار. وبعد مقاومة غير مجدية أمام إصرار القوات العمانية التي يقودها الامام بنفسه، استسلمت الحمية في ٧ تشرين الثانى ١٦٤٣ (٢٩). ففتح ذلك الطريق الى طرد البرتغاليين من السواحل العمانية.

وشهدت سنة ١٦٤٨ بداية المرحلة الحاسمة في حرب التحرير، وتتويجا للخطة الأولى بانتزاع قاعدة الارتكاز البرتغالية في مسقط، تحرك جيش كبير بقيادة مسعود بن رمضان الى الهدف. ووصل هذا الجيش الى مسقط في ١٦ آب، وباشر بعملية التطويق وتواصل القتال حتى ١١ أيلول، ونجح العرب خلاله من انتزاع معظم تحصينات الميناء، مما أجبر الحامية البرتغالية على طلب الصلح، وتضمنت الشروط التي عرضها القائد العربي: استلام قلعتى صور وقريات، اعفاء العرب من دفع الضرائب على البضائع في مسقط التى يجب إزالة أسوارها، أن يدفع البرتغاليون جزية الى الامام (٣٠). وعد القائد البرتغالى دوم جولياودانورنها (Dom Juliao da Noronha) هذه الشروط ثقيلة جدا، ولهذا استؤنف القتال وتمكنت القوات العربية من الاستيلاء على المرتفعات المشرفة على القلعتين الكبيرتين. فورت كابتن ومكلا، واستمر الضغط باصرار متزايد على البرتغاليين ستة أسابيع أخرى، مما ولد اليأس في نفوسهم. ووجد دانورنها نفسه مجبرا على التماس الصلح مجددا موافقا على الشروط العربية، وتم توقيع اتفاقية في ٣١ تشرين الأول ١٦٤٨ تضمنت: تدمير قلاع صور وقريات، إزالة القلعتين البرتغالية والعربية في مطرح، وانسحاب القوات المتحاربه منها واعلان حيادهما، اعفاء العرب من دفع الضرائب وضمان حرية التجارة، امتناع البرتغاليين عن اقامة تحصينات خارج مسقط (٣١) ويمكننا القول أن هذه الاتفاقية حددت بداية النهاية للوجود البرتغالي في مسقط ولم يعد الأمر يتطلب إلا محاولة موحدة وقوية لتأمين طردهم منها.

أثارت أنباء الحصار العربي للحامية البرتغالية قلقا كبيرا في الأوساط البرتغالية في كل من مستعمرتها في الهند، وفي العاصمة لشبونة، وسارع نائب الملك في الهند الدوم فيلبي ماسكارنياس

تحرير سواحل عُمان
١٦٣٣ ـ ١٦٥٠

(Mascarenhas) الى إرسال جزء من الأسطول لنجدة الحامية ووصل الأسطول الى مسقط في منتصف تشرين الثاني ١٦٤٨ ليفاجأ بالتسوية التي تمت بين قائد الحامية والقيادة العربية وتغلبت روح العنجهية الاستعمارية على قائد الأسطول، فوجه الاتهام الى دوم جولياو لعدم صموده أمام الحصار العربي، وأرسله الى غوا حيث القى في السجن (٣٢). وحينما وصل نبأ حصار مسقط الى لشبونه، أرسل الملك دوم جوا الرابع (Dom Joao) أو امره في ٤ كانون الثانى طالبا بذل كل جهد من أجل التمسك بمسقط، وزيادة عدد السفن الحربية في الميناء، ومنع العرب من البقاء في المدينة وتقوية حصن خصب (٣٣). ولكن في الوقت الذي وصلت فيه تلك الأوامر الى غوا، كان الأمر قد خرج عن إرادة القادة البرتغاليين، وكان العلم العمانى يرتفع بشموخ على طول الساحل المحرر.

توفي الامام ناصر بن مرشد في ١٠ ربيع الاخر ١٠٥٩ هم/٢٣ نيسان ١٦٤٩، بعد أن حقق الاستقرار وعمق الوحدة الوطنية وأنجز المرحلة الأصعب من مراحل طرد الغزاة. ومع أنه توفي بدون أن يعين خليفة له، فان القضاة وكبار الشيوخ الذين اجتمعوا في الرستاق يوم وفاته، اجمعوا على انتخاب ابن عمه وقائده العسكرى سلطان بن سيف اماما. وأيدت القبائل كافة هذا الاختيار. وشهد عهد الامام الجديد المرحلة الأخيرة من عملية التحرير وطرد الغزاة نهائيا من البلاد. فما أن أعلنت بيعته بالامامة، حتى تقدم بنفسه لقيادة العمليات الحربية التي تكللت بنهاية مجيدة خلال تسعة أشهر (٣٤). وسارعت القبائل بابتهاج مستجيبة لدعوة الامام بحمل السلاح واحتشدت في (سيح الرمل) خارج مطرح (٣٥) وكانت سنة ١٦٤٩ تقترب من نهايتها حينما تحرك سلطان بن سيف ليباشر العملية الحاسمة التى خطط لها لاستئصال الوجود البرتغالى الذي هيمن على الموانئ المهمة من ساحل عمان، متحديا مشاعر السكان مدة مائة وأربعين عاما.

في مطلع سنة١٦٥٠ قامت قوة فدائية صغيرة بهجوم ليلى مباغت فعبرت السور واندفعت الى شوارع مسقط مجندلة كل من وقف أمامها من الغزاة. وأصيب البرتغاليون بانهيار معنوي تام، فتدافعوا الى السفن الراسية في الميناء والى المركز (مخزن السلاح والذخيرة) طلبا للنجاة.

واندفع العرب نحو أعدائهم ونجحوا في الاستيلاء على سفينتين واحاطوا بالمركز. ولم يتمكن المدافعون وعلى رأسهم الحاكم العام فرانسسو دى تافونا من الصمود طويلا، فانسحبوا الى القلعة الحصينة (فورت كابتن ــ الجلالى) تاركين الحرس البلوش لمصيرهم. وفي يوم ٢٣ كانون الثاني استسلمت القلعة، وبعد ثلاثة أيام استسلم المركز (٣٦).

وتراجع الاسطول الذي يقوده براز كلدارا داماتوس الى ديو، بعد أن فقد اثنتين من سفنه. ونجد من المناسب ان نقتبس أقوال شاهد عيان لعملية الهجوم على مسقط أوردها مايلز (٣٧): «بلغت الحماسة لدى العرب درجة قصوى بحيث هددوا بالتمرد اذا لم يقدهم ضباطهم على الفور الى الهجوم على أسوار المدينة. وحينما لم يجد الملك (الامام) حجة يمكن أن تهدئ ثائرهم على الرغم من اقتراب الليل، أصدر أمره بالهجوم وجوبه المهاجون بنيران كثيفة أطلقها البرتغاليون عليهم من قلاعهم على

المرتفعات، ولكن العرب تقدموا الى الامام ولم يكن بحسبانهم أن يتراجعوا ولم يبالوا بالأعداد الكبيرة من رفاقهم الذين تساقطوا قتلى وواصلوا تسلق الأسوار على اشلاء من سقطوا. وعند غياب الشمس تمكنوا من السيطرة على بابين من أبواب المدينة، مجبرين المدافعين على الفرار واندفعوا خلف أعدائهم باصرار بحيث لم ينج منهم أحد بالرغم من فرارهم بأقصى سرعة باتجاه القلعة العظيمة حيث مقر الحاكم. وهذه القلعة مبنية على صخرة عظيمة تحيط بها المياه من كل جهاتها تقريبا، والطريق الوحيد المؤدى اليها لا يسمح لأكثر من شخصين أو ثلاثة بارتقائه سوية. وأدرك العرب أن اقتحامها أمر مستحيل بدون تضحية جسيمة، ولهذا فرضوا عليها الحصار الكامل وخسر العرب في الهجوم ما بين أربعة الى خمسة آلاف من رجالهم... وأجبروا المتحصنين في الحصون الصغيرة على الاستسلام... ثم استسلم رجال الحصن بدون قيد أو شرط».

وفي الوقت الذي تم فيه تحرير مسقط، نجحت قوة عمانية أخرى في الاستيلاء على حصن خصب (٣٨). وهكذا جاءت نهاية ورثة افونسو البوكيرك في الخليج العربي.

ادرك الامام سلطان بن سيف ان معركة مسقط لن تكون نهاية الصراع مع البرتغال، ولهذا كان امتلاك قوة بحرية قوية هوازية لقوة العدو امراً حاسما لتأمين السواحل من الهجمات التدميرية وصيانة تجارة البلاد من تعرضها للتخريب. وبعد ان عين ابن بلعرب حاكما وامر بترميم اجزاء السور الذى تعرض للتخريب خلال المعارك، ركز اهتمامه على قوته البحرية. فالصراع مع العدو سيكون صراعا بحريا بالدرجة، كان على العمانيين تطوير بناء سفنهم، وتبني طراز جديد من السفن الحربية. وقد شكلت السفن البرتغالية التى اسرها العرب خلال معارك التحرير، نواة الاسطول الحديث (٣٩). وخلال وقت قياسي، تحرر العمانيون من الاسلوب التقليدى في بناء السفن ذات الهيكل الذى تشد الواحة بالحبال، واخذوا ببناء سفن على الطراز الاوروبي من ذوات الاشرعة المربعة المزودة بمدفعية حديثة. وحتى المراكب المبنية على الاسلوب القديم اخذت تبنى بالواح مثبتة بالمسامير (٤٠). وتمكن أئمة اليعاربة المتعاقبون (٤١) وحتى عام ١٧١٨، من جعل عمان اعظم قوة بحرية غير اوروبية في غرب المحيط الهندى، وبلغ اسطولهم اوج عظمته خلال العقدين الاول والثانى من القرن الثامن عشر.

وصف الكابتن تشارلس لوكير الذى زار مسقط في ١٧٠٦ المدينة واسطولها بقوله (٤٢): «تطور هذا الميناء كثيرا على ايدى العرب الذين انتزعوه من القبضة البرتغالية.. ويمتلك العمانيون اربعا وعشرين سفينة حربية وعشرين سفينة تجارية واحدى سفنهم تحمل ٧٠ مدفعا، وليس في اسطولهم سفينة تحمل اقل من ٢٠ مدفعا. ومع صعوبة الحصول على البارود، فان العرب اكثر الناس سخاء به في كل المناسبات... وتجدهم يرفعون راياتهم الحمر بخيلاء على كل صوارى سفنهم». اما هاملتون، فقد قدر الاسطول العماني في سنة ١٧١٥ بأنه يتألف من: «سفينة واحدة ذات ٧٤ مدفعا واثنتين ب ٦٠ مدفعا، وواحدة ذات ٥٠ مدفعا، وثماني عشرة سفينة اصغر حجما تحمل ما بين ١٢ الى ٣٢

مدفعا لكل منها، وبعض سفن الترانكي او السفن ذات الجاديف تحمل من ٤ الى ٨ مدافع لكل منها» (٤٣). اما السالمي، فقدر قوة الاسطول في الحقبة نفسها ما بين اربع وعشرين الى ثمان وعشرين سفينة حربية تحمل اكبرها وتدعى (الملك) ثمانين مدفعا ضخما (٤٤).

جاء رد الفعل البرتغالى على الاندحار في مسقط سريعا، فما ان وصلت انباء الهزيمة الى نائب الملك دوم فيلبي، حتى ارسل اسطولا من سبع سفن الى الخليج العربي، واصدر تعلياته الى قائد الاسطول بالسعى للحصول على مساعدة الفرس ضد العمانيين (٤٥). وبعد ان توقف الاسطول في ميناء كونك، اتجه الى القطيف وهناك التقى اسطولا عمانيا، فنشبت معركة بحرية اسفرت عن تراجع البرتغاليين بعد ان فقدوا سفينة حربية اسرها العرب الى جانبْ ست سفن تجارية برتغالية (٤٦).

وفشل اسطول برتغالي آخر اكثر قوة ارسله نائب الملك في آذار ١٦٥٠ في ا ستعادة خصب او اي ميناء اخر على ساحل عمان، امام مقاومة الاسطول العمانى (٤٧). وقد ولد النمو السريع للقوة البحرية العمانية اقصى درجات القلق لدى البرتغاليين، فكتب نائب الملك الى حكومته: «اصبح العرب على ثقة كبرى بانفسهم... بحيث تتطلب مواجهتهم ارسال اسطول كبير، لا من اجل تدميرهم فقط، وانما للحيلولة دون توجههم الى ممباسا، وهو امر اصبح بمقدورهم تحقيقه (٤٨) وفشل اسطول كبير ثالث ارسل في مايس ١٦٥٢ في تحقيق نتيجة حاسمة (٤٩).

الهبت هذه الانتصارات الكبيرة التى حققها العمانيون حماستهم فلم يكتف الامام سلطان برد حملات الاغارة البرتغالية على سواحل عمان، بل عمد الى نقل الحرب الى مناطق وجود العدو في المحيط الهندى. في ١٦٥٢ هاجمت قطعة من الاسطول العماني الحامية البرتغالية في زنجبار وابادت معظم افرادها ومن بينهم قائد الحامية (٥٠) وتعرضت المواقع البرتغالية في الهند الى الهجمات التالية: بومباى في ١٦٥٥ و ١٦٦١، وديو في ١٦٦٨، و ١٦٧٠، و١٦٧٦، وباسين في ١٦٧٤، وسالست في ١٦٩٤و١٦٩٩، وباسلور ومانغلور في ١٦٩٥ و ١٦٩٦. وشمل ميدان المعارك غرب المحيط الهندى، وخاض العمانيون صراعا طويلا لتحرير موانئ شرق افريقيا (٥١). ونجح الامام سيف بن سلطان الاول ١٦٩٢ — ١٧١١ في تحرير ممباسا بعد حصار متواصل للقاعدة البرتغالية دام اكثر من سنتين (٥٢). وتقدم الاسطول العماني على طول ساحل شرق افريقيا مجبراً الحاميات البرتغالية على الاستسلام، فتحررت بمبا وزنجبار وباتا وكلوه «واستقبل السكان بسعادة غامرة تحررهم من السيطرة البرتغالية».

وشجعت الهزائم المتوالية التي اوقعها العرب بالبرتغاليين سكان شرق افريقيا على القيام بثورة شاملة، وتمكن الثوار من تدمير المواقع البرتغالية الاخرى، واصاب الانهيار النفوذ البرتغالي من رأس غوار دانو الى رأس دلغادو (٥٤).

وادت الضربات التي وجهها العرب للمواقع والاساطيل البرتغالية الى اضعاف البرتغاليين عسكريا وشل تجارتهم مما اتاح الفرصة لمنافسيهم الاوروبين لتحقيق المكاسب على حسابهم في الهند

ميادين الصراع
العماني - البرتغالي

جزيرة العرب

الهند

مسقط

ديو

سورات

دامان

جوا

كاليكوت

سيلان

المحيط الهندي

هجمات العمانية على المواقع البرتغالية ١٦٥٠ - ١٦٩٨

تحرير ساحل شرق افريقيا

مقاديشو

ممباسا

بمبا

زنجبار

مافية

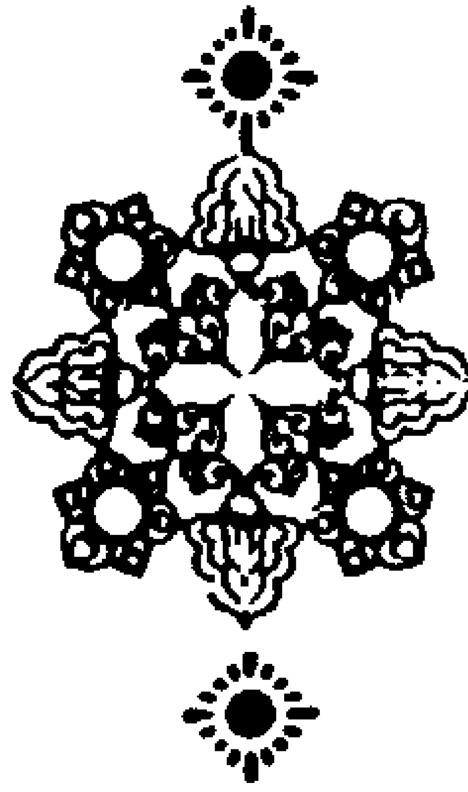
كلوة

جزر القمر

موزمبيق

وجنوب شرق أسيا وانتزاع ممتلكاتهم. فقد شنت هولندا حرب استنزاف على الوجود البرتغالي في جنوب شرق اسيا وتمكنت في ١٦٤١ من انتزاع مالقا، وفي ١٦٥٦ على سيلان، وتعاقب سقوط القواعد البرتغالية على طول ساحل كوروماندل وارخبيل الملايو (٥٥).

ويتجلى الضعف الذى اصاب البرتغاليين في لجوئهم الى الانجليز طلبا للدعم. وتعبر المعاهدة المعقودة بين الملك الفونسو السادس وتشارلس الثاني في ٢١ حزيران ١٦٦١، وكانت ثمرة الزواج بين كاترين ابنة ملك البرتغال وملك انجلترا عن ذلك الضعف، اذ تنازلت البرتغال فيها لانجلترا عن جزيرة بومباى ذات الاهمية الاستراتيجية ونصت مادتها الحادية عشرة: من اجل تمكين ملك البرتغال ومساعدتهم وحمايتهم في تلك الانحاء، فان ملك البرتغال ينقل الى ملك انجلترا وورثته، الى الابد ميناء وجزيرة بومباى بجميع حقوقها وثرواتها ومقاطعاتها» (٥٦) وهكذا فقد ادت الضربات العمانية للبرتغاليين في البر والبحر الى بلوغهم درجة الاعياء «وما ان انتهى القرن السابع عشر، حتى لم يعد البرتغاليون منافسين خطرين في اى حقل من حقول التجارة الشرقية» (٥٧). ولم يبق لهم من قواعدهم المنبثة في الشرق الا جيوب قليلة اهمها غوا وداماو (٥٨).



الهوامش

١ — R.B. Serjeant, The Portuguese off South Arabian Coast, Beirut, 1974, PP. 13-14.

٢ — لتفاصيل تصدى المماليك للبرتغليين في البحر الاحمر والبحر العربي، يراجع: د. عبدالعزيز محمد الشناوى، المراحل الاولى للوجود البرتغالي في شرقي جزيرة العرب، بحوث مؤتمر تاريخ الجزيرة العربية، الدوحة، ١٩٧٦، ج ٢، ص ٦٤٣ — ٦٦١.

٣ — تقع مالقا على الساحل الغربي لشبه جزيرة الملايو، وكانت ذات اهمية كبرى لنظام التجارة الاسلامي لكونها الميناء المؤدى الى الصين وجزر الهند الشرقية، ينظر:—

Boies Penrose Travel and Discovery in the Renaissance 1420 - 1620 Cambridge 1967, P. 62

٤ — K.R. Singh, The Indian Occean, Columbia, 1978, pp. 5-6.

٥ — Ibid, p.6

٦ — الشناوى، ص ٦١٦

٧ — نائب الملك البرتغالي في الهند ١٥٠٩ — ١٥١٥.

٨ — Singh, p. 7, K.M. Panikar, Asia and Western Dominance, London, 1959, P.41

٩ — S.B. Miles, Countries and Tribes of the Gulf London, 1966, PP. 143-150.

١٠ — كانت هرمز دولة غنية تسيطر على البحرين وجميع الجزر الواقعة في مضيق هرمز وساحل عمان، وكانت لها تجارة واسعة مع الخارج، ينظر:

Tome Pires, Summa Oriental, An Account of The East From the Red Sea to Japan London, Hak, Soc. 1944, Vol. I. PP. 19-21.

١١ — ينظر للمؤلف: دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ — ١٨٢٠، بغداد ١٩٧٦، ص ٢٣، في الوقت الذى وقفت فيه الدولة الصفوية موقفا سلبيا بتحالفها مع البرتغاليين وعقدها معاهدة ١٥١٥، بين الشاه اسماعيل والبوكيرك (ينظر: الشناوى، ص ٦٣٩ — ٦٤١، حاولت الدولة العثمانية مجابهة البرتغاليين وطردهم من الخليج العربي، ولكن تلك المحاولات لم تسفر عن زعزعة السيطرة البرتغالية. ينظر: الميرالاى اسماعيل سرهنك، حقائق الاخبار عن دول البحار، القاهرة، ١٣١٢ هـ، ج ١، ص ٥٤٧ — ٥٥٠.

J.G. Lorimer, Gazetteer of the Gulf, Oman and Central Arabia, Holland, rep.. 1970. Vol I A, PP. 6-7.

١٢ — للتفاصيل عن الثورات العربية، يراجع: نوال حمزة الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، الرياض، ١٩٨٣، ص ١٤٠—١٤٤.

١٣ — سقط الملك البرتغالي سباستيان قتيلا في معركة القصر الكبير في مراكش سنة ١٥٧٨، فخلفه الامير هنرى الابله الذى توفي بعد اقل من سنتين، وبذلك جاءت نهاية سلالة افيس البرتغالية التى اسسها جون الاول. ومن ثم وجد البرتغاليون انفسهم رعايا لفيليب ملك اسبانيا انظر:

Penrose, p. 75.

١٤ — Frederick C. Danvers, The Portuguese in India, A History of the Rise and Decline of their Empire. London, 1894, Vol. II, pp. 35-40.

١٥ — Abdul Amir Amin, British Interests in the Gulf Leiden, 1967, p. 2.

١٦ — العابد، ص، ٢٥ — ٢٩

١٧ — J.C. Wilkinson, The Origins of the Omān State, in The Arabian Peninsula, ed. D. Hopwood, London, 1972, p. 82.

١٨ — R.D. Bathurst, The Ya'Rubi Dynasty of Oman (Ph. D Thesis, Oxford University) March, 1967. pp. 85, 108-9.

١٩ — حول جهود الامام ناصر بن مرشد لتوحيد عمان، يراجع المصدر الماصر لتلك الاحدث: عبدالله بن خلفان بن فصير، سيرة الامام ناصر بن مرشد، تحقيق، عبدالمجيد القيسي، عمان ١٩٧٧ ص ١٦ — ٨٧.

٢٠ — Bathurst, The Ya'Rubi, pp. 82-4.

٢١ — Ibid, p. 85.

٢٢ — Ibid, pp. 85-6.

٢٣ — Ibid, p. 86.

٢٤ — Bathurst, Maritime, Trade and Imamate Government Two principal Themes in the History of Oman to 1798, in The Arabian peninsula, pp.98

٢٥ — Miles, pp. 193-204.
عائشة السيار، دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا، بيروت ١٩٧٥، ص ٥٥ — ٥٦.

٢٦ — Bathurst, Maritime, p. 98.

٢٧ — Miles, p. 204.

٢٨ — عبدالله حميد السالمي، تحفه الاعيان بسيرة اهل عمان، ط ٥، ١٩٧٤، ص ١٠٠ — ١٠٢،
Bathurst, The Ya'Rubi, pp. 97 - 100

٢٩ — Miles, p. 194, Bathurst, Maritime, pp. 98-9 —

٣٠ — سرحان بن سعيد الازكوى، كشف الغمة الجامع لاخبار الامة، تحقيق عبدالمجيد القيسي ص ١٠١.
Miles p. 194.

٣١ — Ibid, pp. 195 - 210.

٣٢ — Ibid, p. 195

٣٣ — Ibid,

٣٤ — Bathurst, Maritime, pp. 98-9.

٣٥ — G.P. Badger, History of the Imams and Seyyids of Oman, by Sali. Ibn Razik, London, 1871

٣٦ — Bathurst, The Ya'Rubi, pp. 106-7
ومن الجديد بالذكر ان هناك اختلافا بسيطا في تاريخ استسلام الحاكم العام في كتاب (Miles)، في الصفحة ١٩٦ يرد التاريخ المذكور في المتن، وفي ص ٢١١ يحدد يوم ٢٧ كانون الثاني.

٣٧ — Miles, pp. 196-7.
انظر أيضا: W. Phillips, Oman, a History, London 1967. pp. 46-47

٣٨ — Bathurst, The Ya'Rubi, p. 111, Miles, p. 198

٣٩ — Bathurst, Maritime, p. 99



رسم، من أواخر القرن الثامن عشر، لمركب صغير يعتقد البعض أنه من نوع الغراب العربي. كان يستخدم في التنقل بين منطقة الخليج وبحر العرب وشرق افريقيا..

(من مجموعة رسوم وليم دانييل)

٤٠ — Robert Landen, Oman Since 1856, Princeton, 1967, p. 54

٤١ — سلطان بن سيف ١٦٤٩ — ١٦٧٩، بلعرب بن سلطان ١٦٧٩ — ١٦٩٢ سيف بن سلطان الاول ١٦٩٢ — ١٧١١، سلطان بن سيف الثانى ١٧١١ — ١٧١٨.

٤٢ — Charles Lockyer, An Account of Trade in India, London, 1711, pp. 206 7.

٤٤ — Alexander Hamilton, A New Account of the East Indies, ed. by W.Fosger, London, rep 1930, Vol. I.P. 51.

٤٤ — حدد السالمي طول المدفع ب (٣٠٠ شبر) ما يقارب سبعة امتار السالمي ص ١٠٠.

٤٥ — Bathurst, The Ya'Rubi, p. 112.

٤٦ — Miles, p. 198.

٤٧ — Ibid, Bathurst, Maritime, p. 99.

٤٨ — Quoted in: Bathurst, The Ya'Rubi, p. 113.

٤٩ — Ibid, pp. 114-5.

٥٠ — Phillips, p. 47.

٥١ — Miles, p. 214-215, R. Coupland, East Africa and Its Invaders, Oxford, 1938, pp. 65-6; Charles Law, History of the Indian Navy 1613-1862, London, 1877, Vol. I, pp. 311-312.

٥٢ — Freeman Grenvile, The Coast 1498-1840, in: History of East Africa, Oxford, 1963, PP. 141-2.

٥٣ — Miles, pp. 220-1.

٥٤ — Ibid, p. 222; Phillips, p. 49.

٥٥ — William Milbrun, Oriental Commerce, or the East India Traders Complete Guide, London, 1813, Vol. I, p. 308-9.

٥٦ — R.H. Thomas, Treaties, Agreements and Engagements Between the H.E.I.C and the Native Princes. Bombay, 1851, pp. 563-4.

٥٧ — Coupland, p. 53.

٥٨ — Singh p. 7-8.



البرتغاليون في شرق افريقيا وطردهم منها

الباحث
عبد الرزاق علي عثمان
مركز الوثائق والدراسات الانسانية
دولة قطر

مقدمة:

يرتبط الغزو البرتغالي للعالم الاسلامي بسلسلة من الغزوات والنكبات التي توالت على العالم الاسلامي كله آنذاك، سواء في مركزه (العراق ــ الشام ــ مصر) أو في أطرافه في آسيا وافريقيا وشبه جزيرة أيبيريا. منها الغزو المغولي الذي استهدف الوجود الحضاري الاسلامي نفسه، والخطر الصليبي الذي سبقه وعاصره ثم عاش بعده. وبالرغم من انتهاء الوجود الصليبي في الشام عام ١٢٩١م(١) الا ان الروح الصليبية كانت متقدة في الغرب المسيحي عامة، وفي شبه جزيرة أيبيريا خاصة. في هذه الفترة كان للاسلام وجود في الاندلس، حيث لعبت البرتغال دورا أساسيا في سلسلة الحروب الصليبية الطويلة ضد المسلمين في الاندلس حتى تم طردهم الى الشمال الافريقي، فلاحقهم البرتغاليون واستولوا على سبته عام١٤١٥(٢). وكانت النتيجة أن وضع البرتغاليون أقدامهم لأول مرة على الارض الافريقية الاسلامية، مما زاد من حماسهم لمواصلة الزحف على العالم الاسلامي كله. ثم ازدادوا غيرة وحقدا بعد سقوط القسطنطينية في يد المسلمين عام ١٤٥٣م(٣).

وفي بحثنا هذا سوف نتناول بايجاز دوافع البرتغاليين في توجههم نحو الشرق. ويهمنا هنا التعرض لدوافعهم الدينية والاقتصادية ونغض الطرف عن الدوافع الاخرى. ننتقل بعد ذلك الى الوجود البرتغالي في ساحل شرق افريقيا وكيف تم، ونسير خطوة خطوة مع بعض رحلات البرتغاليين نحو الشرق. ثم نعالج في آخر المطاف موضوع تصفية الوجود البرتغالي في شرق افريقيا. ويهمنا هنا ابراز

التلاحم العضوي بين مسلمي شرق افريقيا والخليج العربي مما كان له أثر حميد في تطبيق مبدأ الاخوة الاسلامية، فبمجرد ان استغاث مسلمو شرق افريقيا بمسلمي الخليج العربي حتى لبى العمانيون تلك الاستغاثة، فتوحدت القوتان الاسلاميتان، وبذلك تم طرد البرتغاليين من شرق افريقياوعادت السيادة الى أيدي المسلمين في تلك البقاع. وفي آخر هذا البحث سوف نعرض بايجاز لمركز الاسلام في ساحل شرق افريقيا والقرن الافريقي قبل مجئ البرتغاليين وحتى الآن.

دوافع الاكتشافات الجغرافية البرتغالية:

لقد امتزجت الدوافع الدينية امتزاجا يكاد يكون كليا مع الدوافع الاخرى لدى البرتغاليين في كشوفاتهم الجغرافية للدوران حول افريقيا. بل ولا نبالغ اذا قلنا أن البرتغاليين قد سخروا كل الدوافع الأخرى لتحقيق أغراضهم الدينية. وفيا يلي سنتعرض لدوافعهم الدينية والاقتصادية فقط وهي:

أ ــ الدوافع الدينية:

١ ــ السعي الى هدم الحضارة الاسلامية واقامة حضارة مسيحية محلها، وذلك بتخريب الحرمين الشريفين ونشر المسيحية واحتلال الاماكن المقدسة في فلسطين واستعادة القسطنطينية(٤). وكانت البرتغال مدركة صعوبة تحقيق ذلك عن طريق الهجوم على العالم الاسلامي من الغرب، حيث دولة المماليك في مصر والشام ومجاهدو البحر في شمال افريقيا والدولة العثمانية الصاعدة في آسيا الصغرى التي ازدادت قوة وهيبة بعد فتح القسطنطينية(٥). فكان لابد لهم من كشف طريق آخر للالتفاف على العالم الاسلامي من الخلف.

ومن هنا نرى وجود علاقة وثيقة بين انهاء الوجود الصليبي في الشام وطرد المسلمين من الاندلس وفتح القسطنطينية من جهة، وبين الكشوفات الجغرافية البرتغالية للدوان حول افريقيا من جهة أخرى، لأن احد أهم أهداف المغامرات الكشفية البرتغالية كان من أجل تحقيق الأهداف الصليبية الأنفة الذكر. ولعل حماس البابوية الكاثوليكية للكشوفات الجغرافية خير دليل على أهدافها الصليبية. ففي عام ١٤٥٤م أصدر البابا «نيقولا الخامس» منشوراً أيد فيه جهود هنري الملاح الكشفية، كما أعطاه حق غزو جميع الشعوب والاقاليم التي يسودها أعداء المسيح(٦).

وقد نهج سائر البابوات فيا بعد نفس نهج نيقولا الخامس في تحمسهم للكشوفات الجغرافية البرتغالية. وقد أشار الى غلبة الروح الصليبية على تصرفات البرتغاليين كتاب مسلمون من أمثال «زين الدين» في كتابه «تحفة المجاهدين» اذ قال «ان بغيتهم العظمى وهمتهم الكبرى قديما وحديثا

تغيير دين المسلمين وادخالهم في النصرانية نعوذ بالله من ذلك»(٧). كما نستدل ذلك ايضا من نوايا الملك عمانويل الاول (١٤٩٥ ــ ١٥٢) الذي حدد أول حملة برتغالية الى الشرق بقوله: «ان الغرض من اكتشاف الطريق البحري الى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق»(٨).

اضافة الى أن الامير هنري الملاح الذي اشتهر بروحه الصليبية وعدائه الشديد للاسلام كان قد نذر نفسه على أن يهزم الاسلام «تماما ونهائيا»(٩).

وتظهر الروح الصليبية البرتغالية بصورة عملية في سلوك البرتغاليين مع المسلمين في المناطق الاسلامية التي احتلوها، ذلك أنهم ما أحلوا ببلد فيه الاسلام الا وطبقوا فيه نفس النهج الذي طبقوه في الاندلس، وذلك بقتل المسلمين دون تمييز، وحرق المساجد وهدم البيوت واغراق السفن بمن عليها ومحاولة احلال الدين المسيحي محل الاسلام.

وقد خص البرتغاليون هذه المعاملة الوحشية بالمسلمين دون سائر الأقوام الأخرى. من هنا نرى أن أي تقليل من شأن الدافع الديني للحركات الكشفية البرتغالية حول افريقيا لهو امر ينافي الواقع بل ويتعارض مع الحوادث التاريخية في تلك الفترة.

٢ ــ البحث عن برستر جون (Prester Jhon)(١٠)

انتشرت في اروبا خلال القرن الثاني عشر أسطورة القديس يوحنا، وهي أسطورة أدبية، تدور حول بطريك مسيحي، أسس امبراطورية مسيحية قوية في الشرق، يحكمها ملك مسيحي قوي، يخوض حروبا مريرة ضد المسلمين المحيطين به. وبمرور الزمن تطورت هذه الأسطورة في اوروبا حتى تجسدت في القرن الثالث عشر وما بعده بصورة آمال للاوروبيين في ايجاد تحالف مع هذه المملكة المسيحية، التي ساد الاعتقاد فيها فيما بعد على أنها الحبشة. وقد آمن الاوروبيون أن هذه الحرب التي تخوضها مملكة برستر جون انما هي جزء من الحروب الصليبية التي يمكن بواسطتها تقويض العالم الاسلامي.

ولما كانت الروح الصليبية هي المحرك الاول للمغامرات الكشفية البرتغالية، فقد اهتم البرتغال في البحث عن برستو جون قبل غيرها من الدول الاوروبية حيث أرسلت عام ١٤٨٧ بعثتين لاكتشاف موقع هذه الامبراطورية المسيحية(١١). ثم توالت بعد ذلك جهود برتغالية أخرى للوصول الى مملكة برستو جون بغرض ايجاد تعاون وثيق معها ضد المسلمين، وهذا ما تم خلال الحروب الصومالية ــ الحبشية في القرن السادس عشر(١٢).

ويلاحظ هنا أن الدوافع الدينية للكشوفات الجغرافية برمتها كانت متداخلة ومترابطة لأنها كانت تهدف الى شئ واحد وهو القضاء على الاسلام دينا وحضارة.

ب ـ الدوافع الاقتصادية:

يصادف الباحث صعوبة بالغة في أن يجد خيوطا فاصلة بين الدوافع الدينية والاقتصادية لدى البرتغاليين في كشوفاتهم الجغرافية للدوران حول افريقيا، لأن دوافعهم الاقتصادية كانت مسخرة لتحقيق أهدافهم الدينية، ومع ذلك قد تتمثل دوافعهم الاقتصادية في حاجتهم للوصول الى مصادر السلع الشرقية والحصول عليها بأسعار أقل، وكذلك المشاركة في أرباح التجارة الشرقية وكسر احتكار المسلمين للعمليات الاقتصادية التجارية الشرقية.

وكانت البرتغال مدركة تماما استحالة تحقيق ذلك طالما أن الحركة الدائمة للتجارة الشرقية تمر عبر أراضي المسلمين وتقوى من شوكتهم بما تدر عليهم من صافي الأرباح والضرائب، وغيرها من الفوائد المالية ذات الصلة بتجارة الترانزيت. لأجل ذلك فقد فكر البرتغاليون بجدية ونشاط في البحث عن طريق آخر يوصلهم الى الهند ولا يمر بديار المسلمين، ليتمكنوا من السيطرة على تلك التجارة بغرض الحصول على فوائد مزدوجة وهي تقوية مركزهم سياسيا واقتصاديا وأضعاف المسلمين بعد تحويل التجارة عنهم تمهيداً للقضاء على الاسلام.

لم يقدم البرتغاليون على هذه المشاريع الطموحة عشوائيا، وانما أعدوا العدة لذلك علميا، فاهتموا بأمور البحر والملاحة، وأرسلوا البعوث الكشفية ودرسوا تقاريرها. كما جمعوا ما أمكن جمعه من كتب الرحلات، واهتموا اهتماما خاصا بالاطلاع على مجهودات المسلمين في الاندلس في نواحي الملاحة والفلك(١٣). وبذلك حصلوا على معلومات جغرافية وبحرية مما مكنهم في النهاية من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، فتحولت التجارة الى الطريق الجديد وبالتالي فقد المسلمون مصدرا هاما من مصادر قوتهم مما أدى الى ضعف بنائهم السياسي والاقتصادي.

لم تكن افريقيا في البداية هدفا(١٤) برتغاليا من الناحية الاقتصادية (وان كانت هدفا دينيا) وانما كانت وسيلة للوصول الى الهند. غير ان تفكير البرتغاليين تجاه افريقيا الشرقية تغير تغيرا جذريا بعد وصولهم اذ رأوا فيه أنه يتيح لهم مزايا اقتصادية ودينية على النحو الاتي:

١. وجدوا في المدن الاسلامية الساحلية اسلاما حضاريا ذا جذور عميقة، ونظم سياسية وادارية راقية فقرروا القضاء عليه وكان هذا مكسبا دينيا.

٢. وجدوا في المدن الساحلية مجتمعات اسلامية ترفض الولاء لهم فاضطروا الى الشروع في نشر المسيحية بكل السبل حتى يخلقوا لأنفسهم مراكز تدين الولاء لهم فانشئوا الكنائس ومدارس التبشير وتدفق الجزويت على شرق افريقيا وكان هذا مكسبا دينيا.

٣. وجدوا في المدن الساحلية تجارة راقية واقتصادا فقرروا السيطرة على هذه العمليات الاقتصادية وكان هذا مكسبا اقتصاديا.

٤. بعد وصولهم استحوذتهم فكرة نقل الأفارقة الى البرتغال كخدم وعبيد للنبلاء والأسر

الارستقراطية في البرتغال استرضاء لهم أو مكافأة لمساهمتهم المالية في الحملات العسكرية والاكتشافية وقد تطورت هذه العمليات الاستغلالية البشعة فيا بعد الى ما يعرف بتجارة الرقيق وكان هذا مكسبا اقتصاديا وسياسيا.

٥. احتكروا تجارة السلع الافريقية وفرضوا على السكان عدم التعامل مع غير البرتغاليين وكان هذا مكسبا اقتصاديا.

٦. ان وصولهم الى شرق افريقيا قد قلص المسافة بين أوروبا والحبشة مما يتيح لهم سهولة الاتصال بالحبشة والتحالف معها لتحقيق الآتي:

أ ــ وضع المسلمين في شرق افريقيا بين فكي كماشة، البرتغاليين من البحر والحبشة من البر، وقد طبقوا ذلك في الحروب الحبشية ــ الصومالية في القرن السادس عشر.

ب ــ محاولة انتشار القوتين معا للهجوم على مركز العالم الاسلامي من الجنوب وكانت تراود البرتغاليين في سبيل ذلك المشاريع الاتية(١٠):

١. اشتراكهما معا في ضرب السويس باعتبارها مركزا للعمليات العسكرية الاسلامية.

٢. السعى لاقناع ملك الحبشة بقبول فكرة تحويل مجرى النيل ليصب في البحر الاحمر بدلا من المتوسط.

٣. السعى لاحتلال مدينة مكة حتى يمكن القضاء على الاسلام.

٧. ان الطريق الجديد بين اوروبا والهند يحتاج الى اقامة محطات وحصون لحمايته وتزويد السفن التجارية والاساطيل البحرية البرتغالية بالمؤن اللازمة مما حتم عليهم البقاء في شرق افريقيا، وكان بقاؤهم في تلك البقاع مكسبا سياسيا واقتصاديا ودينيا لهم.

وهكذا أملت الظروف التي استجدت لدى البرتغاليين بعد وصولهم الى شرق افريقيا باتخاذ الاجراءات اللازمة والتدابير الضرورية لاحتلال شرق افريقيا وتحويله الى مناطق برتغالية. وبذلك بدأ الوجود البرتغالي في شرق افريقيا.

الوجود البرتغالي في شرق افريقيا

يحسن بنا عند الحديث عن الوجود البرتغالي في شرق افريقيا أن نتتبع جهود البعثات الكشفية والحملات العسكرية البرتغالية، وأن نسير خطوة خطوة مع هذه الحملات العسكرية لنتعرف على كيفية الاحتلال البرتغالي لتلك المناطق، وقد استغرق احتلالهم للساحل زهاء عشر سنوات، ذلك أن كل حملة عسكرية كانت تخضع سلطنة أو منطقة ثم تغادرها وتاتي حملة أخرى وتفعل مثلما فعلت الاولى. ولم يجازف البرتغاليون بترك حاميات عسكرية في المراحل الاولى لوصولهم الى الساحل لأنهم لم يجدوا حليفا محليا يعتمدون عليه باستثناء سلطان مالندى الذي تحالف معهم آملا في مساعدتهم في

القضاء على ممبسة. وفيما بعد بدأ البرتغاليون في اقامة المحطات وبناء الحصون وترك حاميات عسكرية في تلك الحصون وذلك تمشيا مع بروز أهمية الساحل لهم.

وهكذا استمر الحال باحتلال تدريجي للساحل الى أن تمكنوا في النهاية من اخضاعه، وبذلك كانت الجهود الكشفية البرتغالية بداية عهد جديد بين اوروبا من جهة وافريقيا وآسيا من جهة أخرى الى أن بسط الاوروبيون نفوذهم السياسي والاقتصادي على السواحل الافريقية والآسيوية(١٦).

لم يصل البرتغاليون الى شرق افريقيا بيسر وسهوله، وانما تم ذلك نتيجة لجهود جبارة قاموا بها وتحملوا في سبيلها العناء والمشاق وصولا الى أهدافهم. وكان احتكاكهم بشمال وغرب القارة قد سبق احتكاكهم بشرقها، ففي عام ١٤١٥ احتلوا سبته، وأصبح الامير هنري الملاح (١٣٩٤ — ١٤٦٠) حاكما عليها(١٧).

ومن المعروف ان هنري الملاح هذا قد قام بدور بارز في تكوين الامبراطورية البحرية البرتغالية وكان من أشد المتحمسين لمحاربة الاسلام. وقد خطط لتكون سبته قاعدة لشن الحملات العسكرية على المسلمين في شمال افريقيا. وقاد بنفسه حملة حاولت احتلال طنجة عام ١٤٣٧م. وفي عهده وصلت الحملات البرتغالية الى الرأس الاخضر عام ١٤٤٦، ومصب نهر السنغال وسيرالون عام ١٤٦٠، واجتاز البرتغاليون خليج غانة عام ١٤٧١، وتمكنوا من اكتشاف مصب نهر الكونغو عام ١٤٨٢م.

يبدو ان الحملات البرتغالية بشمال وغرب القارة لم تؤد الى تحقيق أهدافهم، مما أدى الى محاولة توغلهم نحو جنوب القارة، فقام برتليمو دياز برحلته المشهورة عام ١٤٨٦م، وتمكن من الدوران حول رأس الرجاء الصالح الذي سماه برأس الزوابع بسبب مالاقاه من أهوال(١٨). ولعل ذلك كان أحد اسباب اتجاه البرتغاليين بعد ذلك الى الابحار غربا عبر المحيط الاطلسي للوصول الى الهند. غير ان فشلهم في كشوفاتهم عبر الاطلسي، بعكس الاسبان الذين نجحوا في كشوفاتهم عام ١٤٩٢م زاد من غيرتهم، فعادوا ثانية الى مسالكهم السابقة، حيث قام فاسكو دى جاما برحلته المشهورة عام ١٤٩٧ مقتفيا اثر سلفه دياز فاجتاز رأس الرجاء الصالح(١٩).

وكانت رحلة دى جاما بداية عهد جديد حيث ترتبت عليها فيما بعد أثار بعيدة المدى في العلاقات ما بين اوروبا والشرق كله، وعلى كل فقد وصل دى جاما الى موزمبيق عام ١٤٩٨، ويقال أن أهلها استقبلوه بحفاوة ظنا منهم ان البرتغاليين مسلمون، الا أن هذه الحفاوة اختفت على الفور بعد علم المسلمون هناك ان البرتغاليين قوم من النصارى. وقد غادر دى جاما موزمبيق بعد ان تزود ببعض الادلاء متوجها الى كلوة غير انه لم يرسوا فيها فتوجه الى ممبسة ولكن سفنه رست في مالندى.

أقام دى جاما فترة في مالندى وطد خلالها علاقات التفاهم والود مع سلطان مالندى، ثم شق طريقه عبر المحيط الهندي في طريقه الى الهند مستعينا ببعض عرب الساحل كما يقال ووصل الى المليبار.

وجد دى جاما وجودا عربيا قويا في الملبار ولم يرغب في الاصطدام معهم، مما دفعه في التوجه الى كنافور وجوا. ومن هناك تمكن من شحن سفنه لاول مرة بالسلع الشرقية من مصادرها الاصلية، وعاد الى بلاده مباشرة عن طريق مقديشو التي ضربها بالمدافع وهدم كثيرا من منازلها، كما أغرق عددا كبيرا من السفن الراسية في مينائها. ومر بمالندى التي تزود منها بالمؤن، وزنجبار، وجنوب افريقيا. ووصلت طلائع سفنه الى لشبونه في يوليو ١٤٩٩م.

استقبلت لشبونه دى جاما استقبالا لائقا به كبطل فاتح مظفر. وهكذا حصدت البرتغال، ومعها اوروبا كلها، فوائد الكشوفات الجغرافية. وتحققت أحلام اوروبا في الوصول الى مصادر السلع الشرقية دون المرور ببلاد المسلمين.

اتجهت السياسة البرتغالية في عهد الملك عمانويل الأول (١٤٩٥ ـــ ١٥٢١) الى احتلال الساحل الشرقي لافريقيا، خاصة وقد ظهرت أهميته بالنسبة للبرتغاليين بعد النجاح الذي لاقاه دى جاما في رحلته الى الهند، كما اتجهت سياستهم الى احتلال ثلاثة مواقع هامة وهي: ملقا، وعدن، وهرمز باعتبار هذه المواقع مفاتيح للبحر الاحمر والخليج العربي وجنوب شرق آسيا(٢٠).

وتنفيذا لهذه السياسة الاحتلالية توالت الحملات العسكرية البرتغالية الواحدة تلو الاخرى، بهدف احتلال شرق افريقيا، واقامة محطات وحصون من أجل تأمين الطريق الى الهند. ففي عام ١٥٠٠ احتلت حملة دياز مدغشقر وموزمبيق(٢١). وقاد كابرال في نفس السنة حملة مكونة من ثلاثة عشر مركبا مزودة بالمدافع والمعدات العسكرية الاخرى، وعليها ١٥٠٠ رجلا، فوصلت الى موزمبيق في يوليو وتوجهت الى كلوة حيث سلم كابرال رسائل من ملك البرتغال الى السلطان ابراهيم سلطان كلوة الذي رفض قبول السيادة البرتغالية(٢٢). واتجهت الحملة بعد ذلك الى مالندى، حيث تم نزول شخصين برتغاليين الى البر الافريقي بهدف البحث عن الحبشة تمهيدا للتحالف معها. واصلت الحملة بعد ذلك طريقها الى الهند.

لم تتوقف حملات البرتغاليين الى الشرق. ففي مارس ١٥٠١ منح دى جاما لقب اميرال البحار الشرقية، وتوجه في فبراير ١٥٠٢ الى افريقيا الشرقية في طريقه الى الهند، وكانت حملته تتكون من خمسة عشر سفينة يتبعها أسطول مكون من خمس سفن. ولما وصل كلوة قصفها بكل عنف وقسوة، مدمرا جزءا كبيرا منها وفرض عليها قبول السيادة البرتغالية ودفع الجزية لهم. ولكن بمجرد ان غادر دى جاما «كلوة» تنصل سلطانها عن التزاماته للبرتغاليين. ومن كلوة اتجهت الحملة الى مالندى واستولى البرتغاليون على السفن الاسلامية الراسية فيها.

وكان البوكيرك مهندس احتلال ساحل شرق افريقيا. ففي عام ١٥٠٢ احتلت حملته مدينة كلوة وأرغم سلطانها على الاعتراف بالسيادة البرتغالية والتعهد بدفع جزية قدرها الف وخمسمائة مثقال من الذهب. وفي عام ١٥٠٣ فرض على زنجبار السيادة البرتغالية ودفع جزية قدرها مائة مثقال من

الذهب. أما مدينة ممبسة فقد استسلمت بعد أن دافع عنها سكانها دفاع الابطال المجاهدين، وبعد ان فشلت في اقناع مالندى للوقوف بجانبها.

وفي عام ١٥٠٥ عين داالميدا أول نائب لملك البرتغال في الهند وقد أعاد تأكيد الاحتلال البرتغالي لشرق افريقيا وهو في طريقه الى الهند فقام باقامة حصون عسكرية في مينا ئي كلوة وممبسة(٢٣).

وفي عام ١٥٠٦ خرج أسطول برتغالي من موزمبيق لاحكام السيطرة على ساحل افريقية الشرقية. فتوجه الى مدغشقر وكلوة ومالندى ثم احتل مدن لامو، وأوجا، وبراوة التي رضيت بدفع جزية للبرتغاليين(٢٤).

أما مقديشو فقد فشل البرتغاليون في احتلالها ثم اتجهوا الى سوقطرة واحتلوها. وكانت الخطوة التالية في احكام السيطرة على ساحل شرق افريقيا هو الاحتلال الرسمي لموزمبيق الذي تم عام ١٥٠٧. وأقيم فيها قلعة ومستشفى وكنيسة ومنشآت عسكرية أخرى وبذلك أصبحت موزمبيق أهم مركز برتغالي في شرق افريقيا واستمرت كذلك حتى عام ١٥٧٥م. ولم يبق أمامهم للسيطرة على ساحل شرق افريقيا كله سوى مدينة مقديشو.

لقد أدرك البرتغاليون أن بقاءهم في ساحل شرق افريقيا لن يخلو من تهديدات طالما بقيت الجزيرة العربية خارج مناطق نفوذهم، وذلك لوجود ارتباط عضوي وثيق بين شرق افريقيا وبين الجزيرة العربية التي كانت تمده عبر التاريخ بالمدد البشري والحضاري والديني(٢٥)، فاتجه البرتغاليون لاحتلال الخليج العربي وعدن. وذلك لقطع الصلة بين شرق افريقا والخليج ثم لاحكام السيطرة على منافذ البحر الاحمر والخليج العربي. وبعد أن تمت لهم عملية احتلال مسقط وهرمز الى هزيمة القوات المصرية في معركة ديو البحرية عام ١٥٠٩ سيطر البرتغاليون على المحيط الهندي والطرق البحرية المؤدية اليه أو الخارجة منه(٢٦).

وهكذا سيطر البرتغاليون على ساحل شرق افريقيا في مدة زمنية محددة وانتقلت السيادة من أيدى الصليبين المتعصبين. وأصبح مصير المدن الاسلامية اما قبول السيادة البرتغالية أو القضاء عليها وتدميرها ما عدا مالندى حليفة البرتغاليين. وكان البرتغاليون قد أنشأوا في بعض مدن الساحل مستعمرات رئيسية مثل: كلوة وموزمبيق وسوفالا، كما أنشأوا مستعمرات أخرى أقل شأنا في مناطق أخرى مثل زنجبار وبمبا. أما بقية المدن فقد احتفظت ببعض نظمها المحلية مقابل قبول السيادة البرتغالية عليها ودفع الجزية لهم. وكان تمركز الحكم البرتغالي في المدن الجنوبية أكثر من المدن الشمالية لاعتبارات مناخية واقتصادية.

كانت السيادة البرتغالية الرسمية فيما يتعلق بشرق افريقيا ترتكز على احتلال الساحل، وتدمير الوجود الاسلامي في هذا الساحل، والسيطرة على الحركة التجارية الاسلامية، ولم تفكر اطلاقا في توسيع مستعمراتها نحو الداخل لأن ذلك يتطلب تجهيزات عسكرية وادارية مما قد يسبب عبئا ماليا، اضافة الى شعورهم بصعوبة الدفاع عن المراكز البرتغالية اذا كثر عددها وتباعدت المسافة بينها،

وخاصة وان البرتغال كانت تعاني من قلة في عدد السكان. وعموما فان إلبرتغاليين كانوا مدركين أن التوغل في الداخل عملية كثيرة التكاليف في الرجال والمال. فحصروا أنفسهم في الساحل مما جعل القوى الوطنية تنمو في الداخل بعيدا عن ارهاب البرتغاليين. وعلى كل فقد بقي البرتغاليون في ساحل شرق افريقيا حتى أواخر القرن السابع عشر. وقد مارسوا خلال هذه الفترة أشد أنواع الاضطهاد للمسلمين والسعى الجاد الى توحيد القوى المسيحية في تلك المنطقة سعيا للقضاء على المسلمين. وقد تجلى ذلك حين هب البرتغاليون لمساعدة الحبشة في حربها ضد الصوماليين بقيادة الامام أحمد بن ابراهيم (جرى)(٢٧) في النصف الاول من القرن السادس عشر. حيث اشتركت في الحرب قوة عسكرية برتغالية مكونة من أربعمائة جندي مسلحين بالاسلحة النارية بقيادة «كروستوفر» مما أدى الى هزيمة القوات الاسلامية الصومالية في عام ١٥٤٠. غير أن المسلمين استعانوا بالاتراك في اليمن وألحقوا الهزيمة بالاحباش وحلفائهم وقتل «كروستوفر»(٢٨). غير أن الحلفاء المسيحيين تمكنوا مرة أخرى من هزيمة المسلمين وقتل الامام.

كيف تمكن البرتغاليون من احتلال ساحل شرق افريقيا؟

من المعروف تاريخيا ان الوجود الاسلامي والعربي في ساحل افريقية الشرقية (وليس هنا مجال بحثه) كان وجودا قديما، وذا معالم حضارية بارزة، وقد اعترف بذلك البرتغاليون ومن وصل بعدهم من الاوروبيين الى تلك المنطق(٢٩). ومع ذلك فقد آلت سيادة الساحل الى البرتغاليين بمجرد وصولهم في نهاية القرن الخامس عشر ويرجع ذلك الى الاتي:(٣٠).

١ ــ قام الوجود العربي الاسلامي في ساحل شرق افريقيا على اكتاف جهود المهاجرين والعلماء والتجار وكان وجودا حضاريا واقتصاديا ولم يعتمد على التوسع الحربي، وبذلك لم تكن لديه قوات عسكرية يعتمد عليها في حالات الخطر.

٢ ــ كانت المدن الاسلامية في الساحل غير موحدة سياسيا بل على العكس كانت المنازعات والمنافسات محتدمة فيا بينها ولعل ما كان بين مالندى وممبسة خير دليل على ذلك.

٣ ــ كانت الدول الاسلامية الكبرى آنذاك على خلاف فيا بينها، فالدولة العثمانية لم تكن على وفاق لا مع الدولة المملوكية في مصر والشام ولا مع الدولة الصفوية في ايران، وبذلك لم يجد الشعب المسلم في الساحل الشرقي الافريقي من يسنده ليقف في وجه الغزو المسيحي البرتغالي.

٤ ــ كان البرتغاليون يتسلحون بأسلحة تفوق الاسلحة التي كانت متوفرة للسكان والمدن الاسلامية في ساحل افريقيا.

ثالثا: طرد البرتغاليين من شرق افريقيا:

كان الوجود البرتغالي في ساحل شرق افريقيا يمثل بحد ذاته تحديا للوجود الاسلامي في تلك المناطق، لكونه وجودا صليبيا اتصف بالقسوة والعنف لتحقيق أغراضه الصليبية، بحيث لم تنج مدينة من مدن الساحل من عبث الطغاة البرتغاليين، فقد احرقت ممبسة مرات عديدة وقصفت كلوة ومقديشو وبراوة وبربرة وزيلع كما دمرت مساجد لامو وباتا(٣١).

هذه الاعمال الوحشية الصليبية المتمثلة في تدمير المدن، وهدم المساجد. وقتل المسلمين وحرق بيوتهم، والاستيلاء على السفن والمتاجر الاسلامية واقامة المنشآت العسكرية والتبشيرية، وارغام المسلمين على اعتناق المسيحية، قد أدت الى هجرة اعداد غفيرة من المسلمين الى داخل القارة، حيث وجدوا الامان والقبول من السكان المحليين فامتزجوا بهم، مما كان له اكبر الاثر في انتشار الاسلام، وتوحيد مشاعر العنصرين لمواجهة الخطر البرتغالي(٣٢). ومهما يكن فان الوجود البرتغالي بساحل شرق افريقيا كان في الاساس مرفوضا من قبل الاهالي، لاعتبارات دينية واقتصادية وقومية وأن بقاءه كان مرهونا لحين استرداد القوى الاسلامية المحلية أنفاسها من هول مفاجأة الغزو البرتغالي.

ونرى هنا ونحن بصدد طرد البرتغاليين من شرق افريقيا أن نحدد ذلك في المنطقة ما بين رأس دلجاو جنوبا حتى مقديشو شمالا، ذلك لان الوجود البرتغالي في موزمبيق قد بقي حتى عام ١٩٧٥، كما أن وجودهم الى الشمال من مقديشو كان وجودا ضعيفا لعوامل متعددة لسنا في سبيل بحثها. ولكن قبل كل شئ لابد ان نشير بايجاز الى بعض العوامل التي كانت مبعث الثورات في شرق افريقيا والتي أدت في الوقت نفسه الى ضعف الحكم البرتغالي لا بشرق افريقيا فحسب وانما في الشرق كله منها(٣٣).

١. سوء الادارة البرتغالية في المناطق المحتلة.

٢. سوء السياسة التجارية الاحتكارية التي طبقها البرتغاليون في المناطق المحتلة.

٣. بعد المسافة ما بين البرتغال والمناطق المحتلة واضطرارها باستمرار الى ارسال الحملات العسكرية لاخماد الثورات الوطنية مما شكل عبئا على مواردها المالية.

٤. خضوع البرتغال للحكم الاسباني ابتداء من ١٥٨٠ واهتمام الاسبان بمصالحهم لا بمصالح البرتغال(٣٤).

٥. تصدي الدولة العثمانية للسيطرة البرتغالية على الخليج العربي والبحر الاحمر واحباطهم المحاولات البرتغالية لاقامة حلف مسيحي حبشي ــ برتغالي.

٦. المقاومة الاسلامية المستمرة في المناطق المحتلة واتصالاتها المستمرة بالدولة العثمانية طلبا للعون العسكري باعتبارها حامية الاسلام.

٧. ظهور قوى أوروبية أخرى في بحار الشرق كمنافسة للبرتغاليين خاصة الهولندية والانجليزية اللتين كانتا أكثر تنظيما وتسليحا من البرتغاليين(٣٥).

٨. تمركز الوجود البرتغالي في الساحل دون العمق ترتب عليه نمو القوى الوطنية في الداخل، لذلك كان الداخل عموما مركزا للعداء المستمر للمستعمر البرتغالي.

٩. ظهور قوى جديدة في الخليج العربي وهي دولة اليعاربة في القرن السابع عشر التي تحملت مسئولية الصراع البرتغالي ــ الاسلامي(٣٦).

ولاشك ان تصفية الوجود البرتغالي في شرق افريقيا كان يمثل صورة مشرفة من صور التعاون والعمل الاسلامي المشترك للوقوف في وجه العدو المشترك. فالى جانب المقاومة الوطنية شاركت دولة اليعاربة في عمان مشاركة فعلية في تصفية الوجود البرتغالي في شرق افريقيا، بينما كانت الدولة العثمانية مصدر الهام وعون لتلك الحركات الوطنية، وفيما يلي نستعرض بايجاز دور كل قوة من تلك القوى الاسلامية، سواء أكان دورها مباشرا أو غير مباشر وهي:

أولا: دور دولتي المماليك والعثمانيين:

على الرغم من ان كلا من دولتي المماليك والعثمانيين لم تساهما مساهمة مباشرة وفعلية في طرد البرتغاليين، الا أنه مع ذلك لايجوز اغفال دورهما ــ(خاصة الدولة العثمانية)باعتبارهما القوتين الاسلاميتين اللتين تصدتا للوجود البرتغالي في المحيط الهندي، وكانت الدولة العثمانية أكثر من دولة المماليك مصدر الهام وعون للثورات الوطنية باعتبارها حامية الاسلام والمسلمين.

كانت دولة المماليك اكثر الدول الاسلامية الكبرى آنذاك شعورا بخطر البرتغاليين خاصة فيما يتعلق بمحاولاتهم تحويل طرق التجارة الى رأس الرجاء الصالح، مما كان يعني توجيه ضربة قاضية للمصالح الاقتصادية والعسكرية والسياسية لدولة المماليك(٣٧). لذا كان طبيعيا أن يثير النشاط البرتغالي في تلك المناطق ثائرة المماليك، الذين قاموا لمواجهة ذلك بنشاط سياسي وعسكري فاتصلوا بالبندقية وبالدولة العثمانية وبامراء المسلمين في الهند(٣٨)، كما قاموا باستعدادت عسكرية وشرعوا في بناء السفن في السويس وارسلوا الحملات تلو الأخرى،غير ان جهوداتهم تحطمت عند هزيمة ديو عام ١٥٠٩(٣٩). وكانت النتيجة أن اتخذ المماليك خططا دفاعية في سواكن وزيلع على الجانب الغربي، من البحر الاحمر وسهل تهامة وجدة كخط دفاع اول وثان على جانبه الشرقي.

ولما حلت الدولة العثمانية محل الدولة المملوكية ورثت عنها تركة ثقيلة فيما يتعلق بمواجهة البرتغاليين الذين سيطروا قبل أن يظهر العثمانيون في البحر الاحمر على مناطق شاسعة في شرق افريقيا

والهند والخليج العربي. ويلاحظ ان الموقف العثماني لمواجهة الخطر البرتغالي لم يكن فعالا بالقدر المطلوب في البحر الاحمر، ذلك انهم وجهوا معظم حملاتهم العسكرية نحو اوروبا خاصة باتجاه جزيرة رودس وبلغراد والمجر مما أدى الى تفاقم الخطر البرتغالي في المحيط الهندي وشرق افريقيا والخليج العربي.

وليس هنا محل بحث المواقف العثمانية تجاه البرتغاليين بصورة عامة، وانما نشير بايجاز الى موقفهم فيما يتعلق بشرق افريقيا، وقد اتخذ اتجاهين:

١. اتجاه رسمي قامت به الدولة العثمانية لاحباط التحالف البرتغالي — الحبشي.

٢. اتجاه غير رسمي قام به أحد المغامرين العثمانيين.

بالنسبة للاتجاه الاول فقد قامت الدولة العثمانية بجهودات عظيمة لاحباط الحلف البرتغالي — الحبشي، الذي كان موجها أساسا للاسلام والمسلمين سواء في القرن الافريقي أو مركز العالم الاسلامي، وقد سبق أن ذكرنا بهذا الخصوص بعض المشاريع البرتغالية — الحبشية. من المعلوم أن العثمانيين وصلوا الى جنوب البحر الاحمر متأخرين، والحلف البرتغالي — الحبشي قائم، والحرب مشتعلة في القرن الافريقي بين المسلمين والتحالف المسيحي البرتغالي — الحبشي، ففزع العثمانيون من ذلك كما ارتاعوا من ازدياد تبادل البعثات بين البرتغاليين والاحباش خاصة بعد عام ١٥٢٠ أي بعد ظهور العثمانيين في البحر الاحمر وكانت أهداف تلك البعثات هو التعجيل بتنفيذ المشاريع البرتغالية الحبشية الموجهة ضد الاسلام قبل أن يتمكن العثمانيون من توطيد أقدامهم في المنطقة.

هكذا وجد العثمانيون أنفسهم وجها لوجه أمام تحالف مسيحي في جنوب البحر الاحمر، وعلى الرغم من ان العثمانيين وجهوا معظم مجهوداتهم العسكرية نحو البلقان، الا انهم مع ذلك قاموا بجهود جبارة لاحباط التحالف البرتغالي . الحبشي معتبرين ذلك واجبا دينيا، من أجل ذلك تحركوا جنوبا واتخذوا قواعد للانطلاق من بعض الموانئ الآسيوية والافريقية التي خضعت لهم على البحر الاحمر مثل جده وسواكن ومصوع وزيلع وبربرة وعدن(٤٠).

وهكذا اصبح القرن الافريقي مسرحا التقت فيه القوتان العثمانية والبرتغالية بطريق غير مباشر. فبينما استنجدت الحبشة بالبرتغاليين الذين قدموا لهم مساعدات عسكرية سخية في الرجال والعتاد، استغاث المسلمون في القرن الافريقي بالعثمانيين الذين قدموا لهم عن طريق والى زبيد حوالي تسعمائة من حملة البنادق، وزودوهم بالمدافع والمعدات العسكرية الاخرى.

وقد تمكن الامام احمد بفضل المساعدات العثمانية من احراز تقدم ملحوظ نحو داخل الحبشة، وتوالت عليه الانتصارات على التحالف البرتغالي — الحبشي في المراحل الاولى من حربه التي استمرت في الفترة من عام ١٥٢٨ — ١٥٤٣، الا انه لسبب نجهله حتى الان أنهى علاقاته مع

العثمانيين وأرجع القوة العثمانية الى زبيد(١١).

ويجب ان نشير هنا الى انتصارات القوى الاسلامية في القرن الافريقي على التحالف البرتغالي ــ الحبشي في المراحل الاولى من تلك الحرب، أنما يعود ايضا الى أن العثمانيين قد أحكموا السيطرة على البحر الاحمر، وحالوا دون وصول الامدادات البرتغالية الى الحبشة من قواعدهم في الهند.

مما سبق نرى ان العثمانيين قاموا بدور ايجابي (وان كان أقل مما كان منتظر منهم) في نصرة اخوانهم مسلمي القرن الافريقي، كما نجحوا في احباط التحالف البرتغالي ــ الحبشي الذي كان أساسا يحمل في طياته بعض عوامل فشله.

أما فيما يتعلق بالاتجاه الثاني فقد لعب العثمانيون دورا بارزا في اضعاف الوجود البرتغالي بشرق افريقيا، ذلك انه على الرغم من أن الدولة العثمانية لم تقم بأية محاولة لتكتل القوى الاسلامية أو توحيد صفوفهم بشرق افريقيا ــ علما بأن المسلمين هناك كانوا يكنون لها الولاء باعتبارها حامية الاسلام ــ الا أن بعض المغامرين العثمانيين قاموا بمحاولات جادة في زعزعة الوجود البرتغالي في شرق افريقيا مما أدى الى زيادة حدة الصراع بين البرتغاليين والعثمانيين.

في عام ١٥٨٦ وصل «على بك» الى مقديشيو ــ وكان على هذا قد سبق له أن هاجم القواعد البرتغالية في الخليج العربي ــ فادعى أنه موفد من قبل السلطان العثماني ليحررهم من الاستعمار البرتغالي، واستقبله سكان مقديشيو استقبالا حارا وأعلنوا ولاءهم للسلطان العثماني، وقاموا بالثورة على البرتغاليين، ووقعت معارك بين الجانبين وانتصر المسلمون فاستولوا على بعض السفن البرتغالية كما تم أسر بعض البحارة البرتغاليين الذين أرسلوا الى القسطنطينية.

بعد هذا النجاح توجه على بك جنوبا الى براوة وكسمانير ولامور وفازا وممبسة. وكان يستقبل في كل مدينة استقبالا لائقا برسول سلطان المسلمين، وبذا تمكن على بك من اشعال الثورة في كل مدينة حل بها مما أزعج البرتغاليين وهدد وجودهم بساحل شرق افريقيا. ولا ندري الى أي مدى توغل على بك جنوبا الا انه من المعروف أنه عاد الى القسطنطينية وفي حوزته كثير من الاسرى البرتغاليين وكثير من الغنائم(١٢).

وفي عام ١٥٨٨ عاد على بك الى شرق افريقيا تلبية لطلبات تلقاها من سكان الساحل، الذين وعدوه ايضا ان يساهموا في تكاليف الحرب، وظهر بالفعل في ساحل شرق افريقيا أسطول عثماني مكون من خمس سفن، واستقبل على بك وأسطوله استقبالا حارا، وكانت خطة على بك ان يقضي اولا على مالندى بمساعدة ممبسة، الا أن سلطان مالندى لم ينتظره وانما هاجم أسطول على بك كما طلب سلطان مالندى النجدة من البرتغاليين، وعلى الفور تحرك أسطول برتغالي لمهاجمة أسطول على بك في ممبسة، وفي نفس الوقت هاجمت على بك بعض القبائل الافريقية من البر، فوقع على بك بين نارين وتمكن البرتغاليون من أسره وتبديد قواته، وأرسلوه الى لشبونة ويقال أنه مات هناك بعد أن اعتنق المسيحية.

مما سبق نرى أن المساهمة العثمانية في طرد البرتغاليين من شرق افريقيا لم تكن مباشرة ومع ذلك كانت ايجابية للاسباب الاتية:

١. كان ظهور العثمانيين في البحر الاحمر عونا معنويا للمسلمين، كما كان مصدر الهام للمسلمين للقيام بالثورات ضد البرتغاليين واستمرارية هذه الثورات الجهادية لاعتقاد المسلمين هناك بأن الدولة الاسلامية سوف تأتي يوم ما لتحريرهم.

٢. ساند العثمانيون فعلا بعض القوات الاسلامية وأمدوهم بالسلاح والمعدات كما سبق ان ذكرنا.

٣. نجح العثمانيون في احباط التحالف الحبشي ــ البرتغالي وكان ذلك قد ساهم في اضعاف الوجود البرتغالي.

ثانيا: المقاومة الوطنية:

تمثل الثورات الوطنية الاسلامية بشرق افريقيا ضد الحكم البرتغالي ملحمة رائعة من ملاحم الجهاد الاسلامي، ذلك أن المسلمين في تلك المناطق لم يستسلموا قط للحكم البرتغالي، بسبب ما كان يمثله ذلك الحكم من تهديد لعقيدتهم وحياتهم السياسية والاقتصادية، اضافة الى رفضهم اساسا الولاء لحكام غير مسلمين وغيرتهم من المحاولات البرتغالية الرامية الى نشر المسيحية بينهم. ولولا المنافسات بين السلطنات الاسلامية التي استغلتها البرتغال خير استغلال، كالمنافسة التي كانت محتدمة بين ممبسة ومالندى، اضافة الى تجنيد البرتغاليين بعض القبائل ضد المسلمين، لما تمكنت البرتغال من البقاء بساحل شرق افريقيا طوال تلك الفترة، ذلك أنه لم تواجههم ثورة شاملة وانما كانت كل سلطنة أو مدينة تقوم بالثورة على حدة بمعزل عن السلطنات الاخرى ولم تؤد محاولات سلاطين ممبسة في التودد الى سلاطين مالندى أو تحريضهم لسكان زنجبار وبمبا الى توحيد الصف الاسلامي، ومع ذلك فلم تخمد الثورات الاسلامية بل ظلت مستمرة مما أرهق البرتغاليين. وكما سبق ان ذكرنا فان كل تحرك عثماني ضد البرتغاليين كان يؤدي الى اشعال الثورة في منطقة من مناطق شرق افريقيا(٤٣).

وكانت مدينة ممبسة أول مدينة تصدت للوجود البرتغالي وبدأت حركة المقاومة الاسلامية للاستعمار البرتغالي(٤٤). وقد أخذ البرتغاليون هذه المقاومة بعنف وقسوة فأحرقوا المدينة عام ١٥٠٥م، ومع ذلك واصل سلطان ممبسة كفاحه ضد البرتغاليين، فكون قوة سواحلية واتصل بسكان زنجبار وبمبا عام ١٥٢٨ للمشاركة في حركة الجهاد، الا أن هؤلاء خافوا العاقبة فتخلوا عنه فأسرع البرتغاليون الى حصار المدينة مما أدى الى قبول السلطان بدفع الجزية لملك البرتغال والتعهد بعدم الاتصال بالعثمانيين مقابل فك الحصار.

سبق أن أشرنا الى أن سكان ساحل افريقيا الشرقية قاموا بثورة مع على بك ضد البرتغاليين،

ولكن بمجرد رحيل على بك هذا وصل الى تلك المناطق عام ١٥٨٧ أسطول برتغالي قدم من جوا بطلب من سلطان مالندى، فقام البرتغاليون بحركة تأديبية ضد المدن التي تعاونت مع على بك، وقاموا بأعمال شنيعة وقاسية لدرجة أن سكان ممبسة أخلوها فدخلها البرتغاليون وهي خاوية، بينما اضطر شيخ بات الى التذرع بأن الثورة فرضت عليه من قبل العثمانيين، في حين أن شيخ لامور هرب الى فازا وتبعه البرتغاليون وعاثوا فيها الفساد. أما مدينة مقديشيو فقد قاومت البرتغاليين أشد مقاومة بفضل قوة أسوارها وبسالة سكانها.

وللأسف فان التفكك كان السبب الرئيسي فيما آلت اليه ثورة سكان مدن ساحل شرق افريقيا، لأنه مصدر ضعف السلطنات الاسلامية، كما كان في نفس الوقت مصدر قوة للوجود البرتغالي في شرق افريقيا.

وقد استغل البرتغاليون ظروف تفكك السلطنات الاسلامية كما استغلوا المنافسات التي كانت قائمة بين تلك السلطنات مما أدى كثيرا الى وقوع حروب بين بعض السلطنات. ففي عام ١٥٩٢ قام سلطان ممبسة بشن حملة عسكرية على مالندى، بغرض القضاء على أهم حليف للبرتغاليين وبالتالي توحيد السلطنتين لتكوين قوة عسكرية، تمهيدا للانقضاض على البرتغاليين. غير أنه تعرض لهجوم كاسح من احدى القبائل الموالية لمالندى، مما أدى الى قتله وأسر أبنائه وبعض قواته وأرسل أحد أبنائه وكبار المشائخ الى مالندى لتقديم ولاء الطاعة لسلطانها. وكانت النتيجة ان تمكن سلطان مالندى من ضم سلطنة ممبسة الى ممتلكاته. ثم تم الاتفاق بين البرتغاليين وسلطان مالندى على المشاركة في الغنائم، بحيث يحق للبرتغاليين بناء الحصون في ممبسة ووضع حاميات عسكرية فيها والاشراف على ايراداتها الجمركية وتوطين البرتغاليين فيها مقابل أن يقيم السلطان في ممبسة ويحكم سكانها ويحصل على ثلث ايراداتها الجمركية(٤٥).

هكذا كانت مالندى حليفة البرتغاليين مع اختلافهم في الدين والجنس رغبة في الانتقام من ممبس. وبعد هذه المعارك توجه البرتغاليون الى محاولة ترسيخ اقدامهم في ممبسة، فشرعوا في بناء حصن ممبسة المعروف بحصن يسوع في الفترة من ١٥٩٣ ـــ ١٦٣٠، كما أقاموا منشآت للجمارك في المدينة في عام ١٥٩٤. واتخذوا خطوات ايجابية لتعزيز مركزهم الاقتصادي في ممبسة فأجبروا السفن القادمة من الهند الى اروبا بالتوجه اليها ودفع رسوم جمركية تصل الى ٦٪ من واقع ما تحمله السفن من بضائع(٤٦).

كان حصن ممبسة بداية الاحتكاك بين البرتغاليين وسلطان مالندى، المدعو حسين الذي بدأ يشكو من عدم حصوله على نصيبه من ايرادات الجمارك بينما اتهمه البرتغاليون بعدم الولاء لهم، مما أدى الى هروب السلطان من ممبسة عام ١٦١٤. غير أنه اغتيل بواسطة احدى القبائل لقاء رشوة قدمها لهم البرتغاليون وبالتالي أسر يوسف ونقل الى جوا ليربى هناك تربية نصرانية كاثوليكية بعيدا عن بيئته الاسلامية ثم أعيد الى ممبسة عام ١٦٣٠ بعد أن عمد هناك نصرانيا. الا أن يوسف هذا

خيب أمال البرتغاليين فيه ليكون عونا لهم على أساس أنه مسيحي مثلهم، اذ أنه كان يتظاهر بالنصرانية مخفيا اسلامه، منتظرا فرصة كي يثأر من البرتغاليين، حتى واتته هذه الفرصة في اغسطس ١٦٣١ حيث كان البرتغاليون في أحد أيام هذا الشهر يحتفلون باحدى أعيادهم في حصن ممبسة. فهاجمهم يوسف على غره ومعه ثلاثمائة من اتباعه فقضى على كثير من الجالية البرتغالية وعلى بعض المتنصرين الوطنيين كما قتل بيده قائد الحامية البرتغالية وزوجته وابنته والقس الذي كان يقيم الصلاة(١٧).

وكانت نتيجة هذه الحادثة أن تقوى مركز السلطان يوسف كما كانت البداية الفعلية لحرب طويلة ومريرة قادها السلطان ضد البرتغاليين الذين كانوا مصممين ليس لاستعادة مركزهم، وانما كذلك للانتقام من السلطان يوسف الذي وجه كل جهوده للجهاد المقدس ضد الوجود البرتغالي، ليس في البر وانما لمطاردتهم في البحر، كما سعى الى تحريض المدن الاسلامية كلها ضد الوجود البرتغالي. وفي نفس الوقت فقد أرسل البرتغاليون حملة عسكرية من جوا الا أنهم لجأوا الى المناوشات خوفا من استعدادات السلطان يوسف في الحصن، ثم عادوا الى جوا، ولكنهم واصلوا ارسال الحملات حتى تمكنوا من احتلال الحصن بعد أن تركه السلطان يوسف عام ١٦٣٢م. وخلال ذلك أشيع ما يفيد بوفاة السلطان يوسف مما شجع البرتغاليين على تنفيذ خططهم، فأصلحوا الحصن عام ١٦٣٥ ثم قاموا باخضاع الامارات الاسلامية التي كانت قد انضمت الى السلطان يوسف. وبذلك استعاد البرتغاليون ساحل شرق افريقيا ولكن الى حين لأنه حدث في الساحة الاسلامية أمر هام في تلك الفترة وهو تحرير العمانيين من السيطرة البرتغالية فهبوا لمساعدة اخوانهم في شرق افريقيا مما كان سببا مباشرا في تصفية الوجود البرتغالي في تلك البقاع الى الابد كما سيأتي الحديث عنه.

ثالثا: دور عمان في تصفية الوجود البرتغالي بشرق افريقيا:

خضعت عمان مثل شرق افريقيا للحكم البرتغالي فترة طويلة ابتداء من القرن السادس عشر. ولم يجد الحكم البرتغالي قبولا في عمان لاسباب دينية وقومية واقتصادية، بل كانت الثورات الوطنية ضد الحكم البرتغالي مستمرة. غير أنه في عام ١٦٢٤م حدث في عمان أمر هام كانت له آثاره البعيدة المدى لا في عمان وحدها وانما في مناطق أخرى. في ذلك العام اتحد العمانيون بتنصيبهم راشد بن مرشد اليعربي اماما للبلاد، وكان هذا الحدث بداية قيام دولة عربية قوية تحملت بأمانة مسئولية الجهاد الاسلامي ضد الوجود البرتغالي، حيث نجحت هذه الدولة الفتية في عهد حكامها الاوائل خاصة ناصر بن مرشد (١٦٢٤ ــ ١٦٤٩) وسلطان بن سيف (١٦٤٩ ــ ١٦٦٨) في القيام بحركات تحررية ناجحة كانت نتيجتها تحرير عمان وشرق افريقيا.

ولا عجب ان لبى العمانيون استغاثة اخوانهم في شرق افريقيا، فاضافة الى مشاركتهم معهم

معاناة الخضوع للحكم البرتغالي الذي تحرروا منه، فقد كانت بين الجانبين صلات قوية تعود الى عهود قديمة قبل الاسلام، حيث كان المهاجرون العمانيون كغيرهم من المهاجرين من عرب الجزيرة، يتوجهون الى تلك المناطق بدافع التجارة أو طلبا للرزق. وتطورت هذه الهجرات بعد ظهور الاسلام. فالى جانب الدوافع السابقة ذكرها ظهرت عوامل أخرى كانت سببا في هجرة أعداد هائلة من سكان الجزيرة العربية الى مناطق شرق افريقيا وهي الرغبة في نشر الاسلام أو الهجرة نتيجة للمنازعات السياسية أو المذهبية(٨).

وفيما يتعلق بعمان فان الظروف السياسية التي تعرضت لها في عهد دولتي بنى أمية وبنى العباس قد دفعت باعداد غفيرة من العمانيين في الهجرة الى شرق افريقيا، ولعل أهم تلك الهجرات هي هجرة الاخوين سليمان وسعيد بن عباد الجلندى في الفترة من عام ٦٩٤ — ٧٠٤(٩).

وتوالت الهجرات العمانية بعد ذلك منها هجرة سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني في القرن الثالث عشر الميلادي. وقد وجد العمانيون في شرق افريقيا الأمان ورغد العيش فساهموا في الحركة التجارية وازدهار الثقافة الاسلامية وانتشار الدين الاسلامي هناك.

ولاشك ان هذه الصلة العضوية اضافة الى الصلة الدينية كانت وراء اهتمام العمانيين بتحرير شرق افريقيا حتى قبل أن يزيلوا الوجود البرتغالي من عمان نفسها. ففي عهد الامام سلطان بن سيف طلب سكان شرق افريقيا النجدة من العمانيين بعد أن سمعوا بنجاحهم في مطاردة البرتغاليين، فلبى السلطان استغاثتهم وأرسل أسطوله الى سواحل شرق افريقيا عامي ١٦٥٠، ١٦٥٢ فهاجمت اساطيله زنجبار وباتا ودمر كثيرا من التحصينات البرتغالية(١٠).

وكان هذا الحادث عاملا مشجعا للوطنيين للقيام بالثورة ضد البرتغاليين كما كان عاملا مفزعا بالنسبة للبرتغاليين الذين سارعوا بارسال حملة عسكرية بقيادة «كابرا» نزلت بالقرب من باتا وتمكنت من تحرير الاسرى البرتغاليين. وتلى ذلك أن قام البرتغاليون باضطهاد المسلمين والتنكيل بهم انتقاما منهم، وعلى أثر ذلك طلب المسلمون النجدة مرة أخرى من ائمة عمان.

وكان أئمة عمان يعتمدون في حربهم على قوة عسكرية بحرية يقودها «رجال بحر مدربين خبروا مياه المحيط الهندي على ظهور سفنهم منذ صغرهم»(١١) وقد قاد الامام سلطان بن سيف أسطوله القوى عام ١٦٦٠ فاستولى على مدن «فاز وممبسة» غير انه لم يسيطر عليها لقوة دفاعاتها، ثم عين السلطان العماني محمد بن مبارك حاكما على تلك الجهة، وعاد هو مسرعا الى عمان نتيجة لبعض الحوادث التي وقعت في عمان اثناء غيابه. مما كان له أثر كبير في تمكن البرتغاليين في الاستيلاء على ممبسة مرة ثانية عام ١٦٦١.

بعد هذه الاحتكاكات الحربية اتخذت الحرب بين عمان والبرتغال بساحل شرق افريقيا طابع اصرار كل منهما على الحاق الهزيمة بالاخر. اذ بينما كان العمانيون مندفعين بروح الجهاد وبحلاوة الانتصارات العسكرية، كان البرتغاليون يستميتون في الدفاع عن آخر بقايا امبراطوريتهم في

الشرق. ففي عام ١٦٦٩ اتجه أسطول عماني الى ممبسة وموزمبيق ثم انسحب. وتبعه توسع برتغالي في الساحل حيث استولوا من جديد على سيو ولامور وماندا وارتكبوا أفظع الجرائم ضد المسلمين، لدرجة أنهم اتخذوا من مسجد باتا(٢٠) اسطبلا لخيولهم، مما دفع الامام سيف بن سلطان الى ارسال أسطول تمكن من تحرير باتا. فانسحب البرتغاليون الى موزمبيق عام ١٦٧٩م. واستمرت الحرب بين الجانبين حتى تمكن العمانيون من تحرير ممبسة عام ١٦٩٨ بعد حصار دام شهورا عديدة عانى البرتغاليون خلاله كثيرا من المآسي سواء في نقص المؤن أو المعدات الحربية أو في الخسائر البشرية اضافة الى الظروف النفسية التي عاشوها خلال الحصار، خاصة بعد فشل كل المحاولات البرتغالية في فك الحصار مما أدى في النهاية الى سقوطها في يد العمانيين(٢١).

وبالرغم من أن تحرير ممبسة قد كلف العمانيين جهدا كبيرا وتضحيات جسيمة الا أنه مع ذلك لم يثبط من اصرارهم على هزيمة البرتغاليين، بل على العكس كان عاملا مشجعا لهم اذ تلى ذلك تحرير بمبا وكلوة وباتا وزنجبار، كما كان عاملا مفزعا بالنسبة للبرتغاليين لأن تحرير ممبسة كان ايذانا بأفول شمس الامبراطورية البرتغالية في ساحل افريقية الشرقية. وقد تكررت المحاولات البرتغالية لاستعادة ممبسة وذلك في الاعوام ١٦٦٩، ١٧٠٣، ١٧١٠ حتى اذا كان عام ١٧٢٨ تمكنوا من استعادتها ولكن بقوا فيها لمدة سنتين فقط ارتكبوا خلالها أشد الفظائع ضد المسلمين، ولكن لم يستسلم المسلمون لبطش البرتغاليين وانما قاوموا كل المحاولات البرتغالية وصمموا هذه المرة على التحرر النهائي، فقاموا بالثورة وطالبوا النجدة من أئمة عمان. وانتهز المسلمون فرصة انشغال البرتغاليين في الاحتفال بأحد أعيادهم فنزلت جموع المسلمين الى الشوارع للانقضاض على البرتغاليين وهوجمت الكنائس واستسلم حصن ممبسة. وفي أثناء ذلك وصلت النجدة العمانية بقيادة محمد بن سعيد المعموري فاستولى نهائيا على حصن ممبسة وعين نائبا للامام في تلك الجهات.

وهكذا تمكن العمانيون والمسلمون في شرق افريقيا من هزيمة البرتغاليين ــ سادة الامس ــ هزيمة ساحقة في ممبسة وبدأت المناطق الاخرى تخوض غمار الثورة حتى تحررت افريقيا الشرقية في عهد الامام احمد بن سعيد من الحكم البرتغالي وأصبحت المنطقة من خليج دلجاو جنوبا الى مقديشو شمالا تابعة للحكم العماني(٢٢).

رابعا: مركز الاسلام بساحل شرق افريقيا والقرن الافريقي قبل مجئ البرتغاليين وحتى الآن:

يحتاج الحديث عن هذا الموضوع الى بحث مستقل وليس غرضي هنا سوى أن أشير اليه بمجرد اشارات عابرة موجزة آملا في أن أفرد له بحثا خاصا في المستقبل.

من المعلوم أنه كانت في شرق افريقيا والقرن الافريقي في العصور الوسطى حضارة راقية مزدهرة،

وقد اعترف بذلك البرتغاليون أنفسهم وغيرهم من القوى الاوروبية التي قدمت الى المنطقة فيا بعد، كانت هذه الحضارة شاملة لجميع أوجه الحياة وهي الانتاج العقلي والمادي الذي ساهم في بنائه المسلمون سواء أكانوا أفارقة أو عربا أو فرسا، وكان طابع هذه الحضارة عربيا ــ اسلاميا على أساس ان لغتها كانت العربية.

لم تقم هذه الحضارة على التوسع الحربي، وانما قامت على المبادئ الاسلامية طبقا للآية الكريمة «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة». وبذا كانت حضارة سلمية طابعها التفاهم والحوار والاستقرار، وقد قامت نتيجة لذلك مدن أو سلطنات أو دويلات اسلامية على طول الساحل الشرقي لافريقيا الشرقية والقرن الافريقي، ويلاحظ ان هذه الحضارة كانت محصورة في الساحل بالنسبة للساحل الجنوبي من افريقيا الشرقية حيث قامت فيه مدن مثل كلوة ومالندى وممبسة، بينما كانت في منطقة القرن الافريقي أكثر ازدهارا وأوسع رقعة اذ امتدت الى داخل الهضبة الحبشية وكانت هناك سلطنات قوية مثل سلطنة مقديشو أو دويلات قوية أمثال دولة أوفات ودولة عدل (زيلع) التي نقلت العاصمة فيا بعد من زيلع الى هرر(..).

كانت لكل هذه المدن أو السلطنات أو الدويلات نظمها السياسية القائمة على نظام الشورى الاسلامي، كما كان يسود فيها النظام الاسلامي في القضاء والمال والتجارة والحرب والتعليم.

كانت الحرب العلمية مزدهرة في كل تلك البقاع، حيث قامت هناك مدن جامعية: مثل مقديشو وبراوة وزيلع ومركة وكلوة وممبسة. وقد توافد على هذه المدن الجامعية العلماء من بعض أنحاء العالم الاسلامي. وأخرجت هذه المدن الجامعية علماء التفسير والحديث والفقه وعلماء العلوم العربية وحفظة القرآن والكتبة. وكان لهذه الطبقة المثقفة (بلغة العصر الحديث) مركزها السياسي والاجتماعي ودورها الريادي في نشر الاسلام وترسيخ العقيدة الاسلامية، كما لعبت دورها القيادي للوقوف في وجه الغزو البرتغالي في الساحل الجنوبي والانخراط في صفوف المجاهدين وتعبئة المسلمين في منطقة القرن الافريقي للتصدى للعدوان الحبشي. واتضح دور هذه الطبقة خاصة في حروب الامام أحمد بن ابراهيم في القرن السادس عشر.

وبينا الحالة على هذا النحو، أي هدوء واستقرار وانتشار تدريجي للاسلام نحو الداخل في الساحل الجنوبي وغلبة سياسية وفكرية للمسلمين في منطقة القرن الافريقي، مع انتشار مذهل للاسلام نحو الداخل، تصل المنطقة طلائع الغزو البرتغالي في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، فيصبح شرق افريقيا كله مسرحا لحروب صليبية مريرة، ليس مصدرها اوروبا وحدها (كما كان الحال بالنسبة للحروب الصليبية في بلاد الشام) وانما اوروبا والحبشة معا (وكما يحدث الان)، فيتعرض الساحل الجنوبي للغزو البرتغالي من البحر ويتم احتلاله، بينما تعرض القرن الافريقي للغزو الحبشي من البر والغزو البرتغالي من البحر، وتمت هزيمة الجيوش الصومالية.

وهكذا فقد الاسلام مركزه السياسي وانتقلت السيادة السياسية الى الصليبيين الذين استهدفوا

اقتلاع الجذور الاسلامية من الأساس، واتبعوا في سبيل تحقيق ذلك سياسة قمعية ضد المفكرين والعلماء والامراء فأصيبت المنطقة كلها بجمود فكري وتوقف حضاري. ولكن لحسن الحظ يشاء الله ما لم يكن في حسبان الصليبيين فنتيجة للاضطهاد لجأ عدد كبير من علماء المسلمين الى المناطق الداخلية انتشر الاسلام هناك وانتعش وأصبحت المناطق الداخلية بمرور الزمن مصدر المدد البشري المسلم لمقاومة المحتلين. ولما تحررت المنطقة من الحكم البرتغالي زادت المسئوليات الملقاة على عاتق المسلمين، وبدأ المسلمون يعوضون ما فاتهم علمه في السنوات التى عاشوها تحت الكابوس البرتغالي، وبدأ الدعاة في لم الشمل من جديد للجهاد السلمي لنشر الاسلام. وتحرك الاسلام نحو عمق القارة فوصل الى موزمبيق وسفالة ونياسالاند وكينيا وتنجانيقا واوغندا وهضبة البحيرات والى داخل الحبشة وبدأت المراكز الحضارية الساحلية تنتعش من جديد في تخريج الدعاة، والعلماء، وحفظة القرآن، وأئمة المساجد. وانتشر الدعاة في كل مكان في الداخل وبنيت فيه المساجد ومدارس القرآن ومراكز علوم الدين والعلوم العربية.

ومرة أخرى بينا الحالة على هذا النحو السالف الذكر في شرق افريقيا يصل الى المنطقة غزاة أوروبيون جدد: المان، انجليز، ايطاليون، فرنسيون، يأبون أن يبقى سكان المنطقة أحرارا، فيتقاسمون المنطقة ويصبح الساحل الجنوبي من نصيب بريطانيا، ويتفقون على تفتيت الجسم الصومالي الى خمسة أجزاء، فتحتل بريطانيا أقصى جنوب الصومال وتضمها اداريا الى كينيا ليصبح فيما بعد جزء من كينيا، كما تحتل منطقة شمال الصومال، وتحتل ايطاليا جنوب الصومال، كما تحتل ارتيريا، وتحتل فرنسا اقصى شمال الصومال. وتحظى الحبشة بمكانة المكانة الممتازة كما كانت في العهد البرتغالي ويهدى لها الصومال الغربي أي (الأوجادين) مكافأة لها لدورها الصليبي في المنطقة. وهكذا مرة أخرى فقد المسلمون في شرق افريقيا دورهم الريادي السياسي وحتى الآن.

وبعد أليست هذه الحالة نتيجة لحروب صليبية تقوت بقدوم البرتغاليين ثم الانجليز والايطاليين والفرنسيين وهي مستعمرة حتى الان؟ والا ما معنى ما حدث للصومال من تفتيت وما معنى ما يحدث للاسلام الآن في تنزانياوكينيا من مسخ، وابادة جماعية للمسلمين في أوعندا، وما يحدث للمسلمين في الصومال الغربي أو ما يحدث لمسلمي الحبشة وما معنى ما حدث ويحدث للمسلمين فى ارتيريا من ابادة وتشريد، ثم ما معنى ما يحدث الان في جنوب السودان. ثم بماذا يفسر المركز الخاص الذي كانت ومازالت تتمتع به الحبشة قديما وحديثا من لدن الدول الاوروبية. غربية كانت أو شرقية اضافة الى الولايات المتحدة . . . ؟



الهوامش

١. د. عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، ص١٧، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٨٢.

٢. د. جلال يحيى، تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر، ص٧٢، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، ١٩٨٤، انظر كذلك:

E, W. Bovill- The Golden Trade of Moors, p. 91

٣. نوال حمزة يوسف الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرنين ١٠هـ/ ١٦م، ص٦٩، الرياض، ١٩٨٣.

٤. د. محمد متولى، د. رأفت الشيخ، افريقيا في العلاقات الدولية المعاصرة، ص١٤١، دار الثقافة، القاهرة.

٥. نوال حمزة، مصدر سابق، ص ٦٨.

٦. المصدر السابق، ص٦٦، لمزيد الاطلاع على دوافع البرتغال الدينية انظر: شوقي الجمل ــ تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، ص١٣١، ط٢، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٠، وكذلك د. محمود متولى ، د. رأفت الشيخ، مصدر سابق، ص٣٣ ــ ٣٧.

٧. نوال حمزة، مصدر سابق، ص ٦٧.

٨. د. سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الاول لليمن، (١٥٣٨ ــ ١٦٣٥) ص٦٣، ط٣، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٨.

٩. د. عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم، مصدر سابق، ص١٨.

١٠. د. السيد رجب حراز، افريقية الشرقية والاستعمار الاوروبي، ص١٣، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٨. ونوال حمزة، مصدر سابق، ص٧٠.

١١. نوال حمزة، مصدر سابق، ص٧٢، لمزيد الاطلاع عن البعثات الدينية البرتغالية الى الحبشة انظر: ممتاز عارف، ارتيريا بين احتلالين، ص٥٥، دار الجاحظ، بغداد.

١٢. لمعرفة حوادث هذه الحرب انظر كلا من:

أ ــ عرب فقيه (شهاب الدين أحمد عبد القادر بن سالم بن عثمان الجيزاني): تحفة الزمان (فتوح الحبشة). الجزء الاول. وقد عاصر هذا المؤلف أحداث الحرب ووصفها وصفا دقيقا وموضوعيا.

ب ــ د. رجب محمد عبد الحكيم، العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٥.

١٣. نوال حمزة، مصدر سابق، ص ٧٨.

١٤. د. محمود متولى، د. رأفت الشيخ، مصدر سابق، ص ٥٤.

١٥. بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، ج٢، ص٦٢٤، الدوحة ١٩٧٦.

١٦. د. حسن ابراهيم حسن، ص١٧٦، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٤.

١٧. د. محمود متولى، د. رأفت الشيخ، مصدر سابق، ص٣٣ ــ ٣٥.

١٨. المصدر السابق، ص ٤٦.

١٩. د. السيد رجب حراز، مصدر سابق ص١١ ــ ١٢،وانظر كذلك: كتاب العلاقات العربية الافريقية، دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار ص٦٣، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٧.

٢٠. د. حسن ابراهيم حسن، مصدر سابق، ص ١٧٧.

٢١. نوال حمزة، مصدر سابق، ص٩٥.

٢٢. د. السيد رجب حراز، مصدر سابق، ص ١٤.

٢٣. المصدر السابق، ص١٥.

٢٤. د. حسن ابراهيم حسن، مصدر سابق، ص١٧٨.

٢٥. صلاح الدين حافظ، صراع القوى العظمى حول القرن الافريقي، ص٥٣، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٢.

٢٦. د. السيد رجب حراز، مصدر سابق، ص١٥.

٢٧. يرد اسمه في كل المصادر هكذا: الامام احمد بن ابراهيم الملقب ب «جرين» أي الاشول، وهو خطأ ناتج من خطأ في ترجمة كلمة (GUREY) الصومالية التي تطلق على الأشول، وترجمتها بالعربية حرفيا هي «جرى» وليست «جرين» أو «غرين». ولذا وجب التنويه.

٢٨. مجلة دراسات افريقية، ص٥٥، العدد الاول، ابريل ١٩٨٥، المركز الاسلامي بالخرطوم. وانظر كذلك: ندوة البحر الاحمر في التاريخ والسياسة المعاصرة، ص٢٣٨، جامعة عين شمس، ١٩٧٩.

٢٩. العلاقات العربية الافريقية، مصدر سابق، ص ٦٦.

٣٠. د. السيد رجب حراز، مصدر سابق، ص ١٥.

٣١. د. حسن أحمد محمود، الاسلام والثقافة العربية في افريقية، ج١، ص٤٧٦، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣.

٣٢. صلاح الدين حافظ، مصدر سابق، ص ٥٤.

٣٣. ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، الجزء الاول، ص٦٤٣، الدوحة ١٩٧٦.

٣٤. نوال حمزة، مصدر سابق، ص ١٨٦.

٣٥. د. حسن أحمد محمود، مصدر سابق، ص ٤٧٧.

٣٦. صلاح الدين حافظ، مصدر سابق، ص ٥٤.

٣٧. بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، مصدر سابق، ص٦٤٣.

٣٨. المصدر السابق، ص ٦٥٠.

٣٩. المصدر السابق، ص٦٤٧، د. شوقي عطا الله الجمل، دور مصر في افريقيا في العصر الحديث، ص١٠٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤.

٤٠. د. حسن أحمد محمود، مصدر سابق، ص٤٦٦، العلاقات العربية الافريقية، مصدر سابق، ص٧٥.

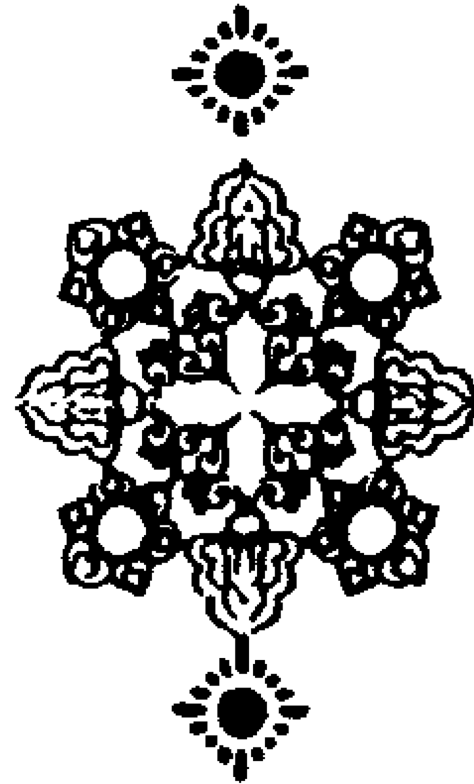
٤١. ندوة البحر الاحمر، مصدر سابق، ص٢٣٨، قيل أن الامام أنهى علاقاته مع العثمانيين لسببين:

أ ــ تذمره من مطالبات الجنود العثمانيين الكثيرة في الغنائم.

ب ــ غضب الدولة العثمانية لقتله القائد البرتغالي، وكان العثمانيون يريدون أن يسلمه له وهو حي حتى يستفيدوا منه في معرفة الخطط البرتغالية الحربية في الحبشة.

٤٢. العلاقات العربية الافريقية، مصدر سابق، ص٧٣.

٤٣. د. حسن أحمد محمود، مصدر سابق، ص ٤٧٨.
٤٤. د. السيد رجب حراز، مصدر سابق، ص١٨.
٤٥. المصدر السابق، ص ٢٠.
٤٦. المصدر السابق، ص ٢١.
٤٧. المصدر السابق، ص٢١.
٤٨. المسح الشامل، مصدر سابق، ص ٦٢.
٤٩. بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، مصدر سابق، ص٧٧٦. ومجلة دراسات افريقية، العدد الثاني، ص٨٣، المركز الاسلامي بالخرطوم، ١٩٨٦.
٥٠. بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، مصدر سابق، ص٧٨٣.
٥١. جلال يحيى، مصدر سابق، ص ٢٠٥.
٥٢. بحوث مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية، مصدر سابق، ص ٧٨٥.
٥٣. العلاقات العربية الافريقية، مصدر سابق، ص ٨٤.
٥٤. المصدر السابق، ص٨٥، دونالد وندير، مصدر سابق، ص١٤٨.
٥٥. أ ــ كلوة وجزيرة زنجبار وتوابعها في جمهورية تنزانيا الحالية.
ب ــ مالندى وممبسة ولامو في كينيا.
ج ــ مقديشو، براوة، كسمانيو، زيلع، بربرة في جمهورية الصومال الديمقراطية.
د ــ هرر عاصمة الصومال العربي المحتل من قبل الحبشة.



مصادر البحث

١. د. السيد رجب حراز، افريقية الشرقية والاستعمار الاوروبي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٨.

٢. د. السيد رجب حراز، أرتيريا الحديثة (١٥٥٧ ــ ١٩٤١)، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٤.

٣. جامعة عين شمس، البحر الاحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، (سمنارات الدراسات العليا للتاريخ الحديث)، القاهرة، ١٩٨٠.

٤. ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، الجزء الاول، اعداد قسم الترجمة بقصر الدوحة، قطر.

٥. د. جلال يحيى، تاريخ افريقية الحديث والمعاصر، المكتب الجامع الحديث، الاسكندرية، ١٩٨٤.

٦. د. جلال يحيى، مصر الافريقية والاستعمار الاوروبي في القرن التاسع عشر، دار المعارف، الاسكندرية.

٧. دونالد ويدنر، تاريخ افريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد البراوى، مكتبة الوعى العربي، القاهرة.

٨. و. جون فيج، موجز تاريخ افريقيا، ترجمة دولت صادق ومحمد السيد غلاب.

٩. حمدي السيد سالم، الصومال قديما وحديثا، (جزءان)، وزارة الاستعلامات الصومالية، مقديشو ١٩٦٥.

١٠. د. حسن ابراهيم حسن، انتشار الاسلام في القارة الافريقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٤.

١١. د. حسن أحمد محمود، الاسلام والثقافة العربية في افريقية، الجزء الاول، دارالنهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣.

١٢. مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، (بحوث المؤتمر، الجزء الثاني) الدوحة، قطر، ١٩٧٦.

١٣. د. محمد عبد العال أحمد، البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، ١٩٨٠.

١٤. د. محمود متولى، د. رأفت الشيخ، افريقيا في العلاقات الدولية المعاصرة، دار الثقافة، القاهرة.

١٥. ممتاز عارف، أرتيريا بين احتلالين، دار الجاحظ، بغداد ١٩٧٩.

١٦. معهد البحوث والدراسات العربية، المسح الشامل لجمهورية الصومال الديمقراطية، بغداد ١٩٨٢.

١٧. معهد البحوث والدراسات العربية، العلاقات العربية الافريقية، دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار، القاهرة، ١٩٧٧.

١٨. نوال حمزة يوسف الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرنين العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٨٣.

١٩. د. سيد سالم مصطفى، الفتح العثماني الاول لليمن، (١٥٣٨ ــ ١٦٣٥) ط٣، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٨.

٢٠. عبد المجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي، القاهرة.

٢١. د. عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٨٢.

٢٢. عبد الرحمن النجار، الاسلام في الصومال، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية، القاهرة ١٩٧٣.

٢٣. عرب فقيه (شهاب الدين أحمد عبد القادر بن سالم بن عثمان الجيزاني) تحفة الزمان أو فتوح الحبشة، الجزء الاول تحقيق فهيم محمود شلتوت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤.

٢٤. د. فاروق عثمان اباظة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر (١٨٣٩ ــ ١٩١٨) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦.

٢٥. فتحى غيث، الاسلام والحبشة عبر التاريخ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٢٦. صلاح الدين حافظ، صراع القوى العظمى حول القرن الافريقي، عالم المعرفة الكويت، ١٩٨٢.

٢٧. د. رجب محمد عبد الحليم، العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٥.

٢٨. شارل أندريه جوليان، تاريخ افريقيا، ترجمة طلعت عوض أباظة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ١٩٦٨.

٢٩. د. شوقي الجمل، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، ط٢، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٥.

٣٠. د. شوقي الجمل، دور مصر في افريقيا في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤.

٣١. E, W. Bovill- The Golden Trade of The Moors, Oxford Un. Press.

٣٢. الدارة (مجلة)، العدد الثاني، السنة العاشرة، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، سبتمبر ١٩٨٤.

٣٣. دراسات افريقية (مجلة)، العدد الاول، ابريل ١٩٨٥، المركز الاسلامي الافريقي، الخرطوم.

٣٤. دراسات افريقية (مجلة)، العدد الثاني، ابريل ١٩٨٦، المركز الاسلامي بالخرطوم.



نظرة جديدة للانجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية في آسيا دراسة في عوامل تدهور وانحطاط الامبراطورية البرتغالية

الدكتور/عبد الامير محمد أمين
أستاذ التاريخ الحديث
الجامعة الاردنية

ملخص

نظر الى الانجازات البرتغالية في الشرق بشئ كثير من المبالغة والتهويل. فقد اعتقد أن البرتغاليين أقاموا خلال القرن السادس عشر امبراطورية امتدت من الخليج العربي غرباً الى بحر الصين شرقاً. واحتكروا التجارة الاوروبية ــ الآسيوية، وسيطروا على تجارة آسيا الداخلية، وحولوا التجارة من طرقها التقليدية البرية عبر الشرق الادنى الى الطريق البحري عبر رأس الرجاء الصالح.

والواقع لايتفق مع ما ورد ذكره، فالوجود البرتغالي في الشرق لم يتعد موانئ ومواقع ساحلية وجزر صغيرة، مفصولة ان لم تكن معزولة عن بعضها بعضا. وهي أقرب الى كيانات اقطاعية منها الى امبراطورية متناسقة ومتماسكة. وعاشت على هامش امبراطوريات شرقية قوية جدا ومتمكنة. كالامبراطورية الصينية والامبراطورية المغولية والامبراطوريتين الصفوية والعثمانية.

والبرتغاليون الذين قدموا الى الشرق لم يكونوا تجار ولا اداريين، بل فرسانا صليبيين وسادة اقطاعيين يملكون كثيراً من الجرأة والغطرسة والتعصب الديني، وقليلا من الكفاءة والحصافة والنزاهة. ومثلهم لايمكن ان يكونوا مؤهلين للانجازات التي نسبت اليهم. لقد فشلوا في احداث تغييرات جذرية في المجالات التجارية. فلم يطوروا التجارة الاوروبية ــ الاسيوية بأي شكل من الاشكال. فلم يزيدوا من حجمها، ولم يقدموا للاوروبيين سلعا لم يكونوا يعرفونها من قبل، ولم يجدوا أسواقاً لسلع أوروبية في الشرق، وعجزوا عن زحزحة التجار الآسيويين الذين احتفظوا بسيطرتهم على تجارة آسيا الداخلية.

ومنذ العقد الثالث من القرن السادس عشر أظهر البرتغاليون عجزاً في الحفاظ على حصارهم لمدخل البحر الاحمر. وخلال ما تبقى من القرن كانت السلع التي تصل ذلك البحر وتأخذ طريقها عبر الطرق التقليدية الى أوروبا تفوق بشكل هائل تلك التي تحملها السفن البرتغالية عبر رأس الرجاء. هذا ومن الثابت الان أن السفن البرتغالية التي عادت من الشرق الى أوروبا عبر هذا الطريق البحري في أواخر القرن كانت أقل عدداً وكفاءة من تلك التي كانت اجتازته في أوائله.

وانحطاط الامبراطورية البرتغالية في الشرق لم يكن ليعود فقط الى الضغوط الخارجية المتمثلة في تحدي شعوب أوروبية أخرى وقوى آسيوية للبرتغاليين بل الى ضغوط داخلية أيضا. وتتمثل هذه في تفسخهم وعجزهم التجاري والاداري والعامل الاساسي الذي حفظ تلك الامبراطورية المفككة طيلة القرن السادس عشر هو تفوقهم البحري. وعندما قدمت الى الشرق أمم أوروبية تفوقهم في هذه الناحية، حلت الكارثة، وبسرعة مذهلة، بتلك الامبراطورية.

ABSTRACT
The Decline and Fall of the Portuguse Empire

For exactly a century, from 1500 to 1600, The Portuguse enjoyed a political and commercial influence in the East. They carried out great activities in a vast area which extended from East Africa, the Red sea and the Arabian Gulf in the west to the Malay Archipelago and China sea in the east. Impressive as it might appear, the contemplated Afro - Asian empire never developed beyond the limited boundaries of the isolated portuguse strongholds.

The Portuguse had neither the political strength nor the personal character necessery to maintain an empire in the East. They were neither traders nor administrators but knights - errant and crusaders, who looked on every non - Catholic as an enemy of Portugal and Christ.

The decline of Portuguse influence in the East arose not only fon external pressure presented by Asian and Europeans enemies but from internal weaknesses. The poor efficiency of their commerce and administration toward the end of the sixteenth century can be attributed to four principle couses. Their small numbers; their practice of racial inter - marriage; their uncompronising religious policy; and their corruption.

اعتدنا في الوطن العربي قراءة الشئ الكثير عن الانجازات الكبيرة التي حققها البرتغاليون في المجالات السياسية والعسكرية والتجارية، خلال القرن السادس عشر في الخليج العربي، وفي غيره من مناطق الشرق. فقد صار معروفاً لدينا أن البرتغال، وهو ذلك البلد الصغير القابع في زاوية نائية من القارة الاوروبية، استطاع خلال سنوات قليلة بناء امبراطورية مترامية في الشرق تمتد من شرق افريقيا والخليج العربي والبحر الاحمر غربا الى أرخبيل الملايو وبحر الصين شرقا. والى جانب تلك

الانجازات السياسية والعسكرية، فقد صار معروفا لدينا أيضا ان البرتغاليين استطاعوا السيطرة على طرق التجارة، وذلك باحكام قبضتهم على المواقع الاستراتيجية والجزر المهمة والممرات المائية ومكنهم كل ذلك من الهيمنة على التجارة سواء كانت تلك التجارة المباشرة بين أوروبا وآسيا أو تلك التي كانت قائمة بين الموانئ الاسيوية بعضها مع بعض. وصار مألوفا أيضا الاعتقاد بأن تلك الانجازات قد صاحبها تحول التجارة بين أوروبا وآسيا من طرقها التقليدية البرية عبر الشرق الادنى الى الطريق البحري عبر رأس الرجاء الصالح.

لقد صارت المعلومات السابقة شائعة بل أصبحت من الامور المسلم بها. والبحث الحاضر محاولة لتفحص هذه المسلمات فالدراسات الحديثة تلقي أضواءً جديدة على طبيعة الوجود البرتغالي في آسيا وتكشف عن نوعية الامبراطورية التي أقامها البرتغاليون في الشرق، وفي الوقت نفسه تعطي تقييما دقيقا الى حد كبير للمكاسب التجارية والسياسية التي حققوها خلال قيام نفوذهم في القرن السادس عشر.

وتكشف تلك الاضواء ايضا عن مدى المبالغة والتهويل في تقدير الانجازات البرتغالية في المجالات السياسية والعسكرية والتجارية. وهذه الورقة تمثل محاولة لوضع تلك الانجازات في اطارها الصحيح واعطائها حجمها الحقيقي.

حقا لقد نجح البرتغاليون بعد جهود مضنية استغرقت ما يقرب من قرن من ارتياد الساحل الغربي لافريقيا كله(١). وتكللت جهودهم الاستكشافية بالنجاح في الوصول الى رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٨٧، ثم وصلوا بعد هذا بسنوات قليلة الى الساحل الغربي للهند. وكان ذلك أول اتصال مباشر في التاريخ بين أوروبا وآسيا(٢). واكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصلح هو من غير شك انجاز هائل، بل من الممكن القول أنه انجازهم الرئيسي، وهو يحق من أعظم الانجازات في مجال الريادة والاستكشاف خلال التاريخ البشري كله.

أما خطوتهم التالية في تجاوزهم رأس الرجاء الصالح ووصولهم الى ساحل افريقيا الشرقي، ثم عبورهم المحيط الهندي ووصولهم ميناء كاليكوت في الهند، فهذه الانجازات كلها، على الرغم من الضجة التي أثيرت حولها، فأنها لاتقارن من حيث الاهمية باكتشافهم لرأس الرجاء الصالح. وذلك أن الساحل الشرقي لافريقيا لم يكن من الامور المجهولة والمحيط الهندي طريق مسلوك منذ أقدم العصور التاريخية والملاحة بين الخليج العربي والبحر الاحمر وشرق افريقيا من جهة والهند وبعيداً منها الى الشرق كلها أمور معروفة ومألوفة. وبمجرد نجاح البرتغاليين في الانتقال من المحيط الاطلسي الى المحيط الهندي صار الامر يسيراً بالنسبة لهم للاستفادة من الخبرات الملاحية الواسعة والمعرفة الكبيرة التي كان يمتلكها التجار العرب وغيرهم من التجار الاسيويين في هذه المياه. بل أنهم لم يجدوا عناءا كبيرا في الحصول على شخص عربي يساعدهم في اجتياز المحيط الى ساحل الهند. وهكذا بينا صرفوا قرنا من الزمن لارتياد ساحل افريقيا الغربي واكتشاف رأس الرجاء الصالح، لم يتطلب الامر منهم بعد ذلك

سوى سنوات قليلة لاحتياز المحيط الهندي الى الهند.

حقا لقد حقق البرتغاليون خلال العقدين الاولين من القرن السادس عشر انجازات عسكرية وسياسية كبيرة. فاحتلوا مواقع استراتيجية مهمة مثل هرمز وكوا وملقا ومواقع اخرى على ساحل الهند في الغرب والشرق من ديو Diu الى جاتاكونك Chittagong وانتشرت قلاعهم في الخليج العربي وسواحل الهند وأرخبيل الملايو وانتزعوا حقوق الاتجار في مناطق كبيرة في تايلاند وبرما وكومبوديا. وصارت لهم قاعدة تجارية مع الصين في مكاو وأبعد من ذلك في ميناء تانكاشيا Tanegashima الياباني.

واحتفظ البرتغاليون طيلة القرن السادس عشر بامبراطوريتهم الواسعة التي أقاموها خلال العقود الاولى من القرن المذكور. ولعله مما يثير الحيرة والاستغراب أن دولة صغيرة كالبرتغال ذات الموارد البشرية والاقتصادية الضئيلة. قد استطاعت ان تقيم الامبراطورية الضخمة. على أية حال، فان معرفة طبيعة تلك الامبراطورية قد تزيل الشئ الكثير من ذلك الاستغراب. فالامبراطورية البرتغالية ذات صفات خاصة تختلف عما ألفه التاريخ من امبراطوريات في عصوره المختلفة.

ونظرة أولية الى خارطة الامبراطورية البرتغالية في الشرق وتقسياتها الادارية تظهر ضخامة تلك الامبراطورية واتساعها، لقد كان نائب الملك يتخذ من كوا Goa على الساحل الغربي للهند مقرا رئيسيا للامبراطورية البرتغالية. ويفترض انه يشرف من ذلك المقر على بقية انحاء الامبراطورية التي قسمت اداريا الى سبعة أجزاء هي(٣):

١. الجزء الاول: ويمتد من رأس الرجاء الصالح الى البحر الاحمر وهكذا فان هذا الجزء يضم جميع ساحل شرق افريقيا.
٢. الجزء الثاني: ويضم جنوب بلاد العرب ومدخل الخليج العربي.
٣. الجزء الثالث: ويمتد هذا الجزء من الخليج العربي الى مصب نهر السند.
٤. ويشمل هذا الجزء الساحل الغربي للهند حتى رأس كومورن Comorine.
٥. ويشمل هذا الجزء الساحل الشرقي للهند حتى البنغال.
٦. ويغطي هذا الجزء الساحل الغربي لجنوب شرق آسيا والنصف الغربي لارخبيل الملايو.
٧. ويشمل هذا الجزء كل المناطق التي تقع شرق الجزء السادس ويضم جزر التوابل في مولاكاس Moluccas والجزر المنتجة لخشب الصندل وهي فلورس Flores وتيمور Timore. وكانت مكاو Macao ضمن هذا الجزء وكذلك الامر بالنسبة لسيلان.

ويبدو من هذا الوصف للامبراطورية البرتغالية ان الامر مثير مذهل خاصة اذا أخذ بالاعتبار، كما ذكر صغر البرتغال وضآلة طاقاتها، ولكن النظرة المتفحصة قد تزيد الكثير من الاثارة والذهول. فالامبراطورية البرتغالية في الواقع، لم تزد عن كونها مواقع استراتيجية وموانئ ونقاط ساحلية وجزر صغيرة، شيدت فيها قلاع كبيرة وفرت لها حماية بحرية كافية. ولكنها كانت متباعدة ومفصولة ان

لم تكن معزولة عن بعضها بعضا ولا تكون بمجموعها كيانا سياسيا وعسكريا مترابطا. وهي أقرب الى وحدات سياسية اقطاعية منها الى امبراطورية متناسقة ومتماسكة التركيب. بل ان ما ذهب اليه «فان لر Van Luer»[٣].

وهو «ان الامبراطورية البرتغالية في الشرق لم تكن تمثل حتى ذلك النوع البدائي من الاستعمار»[٤] لهو عين الصواب.

ولم يتخط سلطان البرتغاليين تلك الجزر الصغيرة والاماكن الساحلية الى الاماكن الداخلية. ولم يكن لهم تأثير يذكر على الكيانات والامبراطوريات الشرقية القوية القائمة في آسيا آنذاك كالامبراطورية المغولية في الند وامبراطورية الصين والامبراطوريتين الصفوية والعثمانية. وبعبارة اخرى عاشت الامبراطورية البرتغالية على هامش تلك الامبراطوريات القوية المتمكنة.

كانت الضغوط الخارجية التي تعرضت لها الامبراطورية البرتغالية في آسيا في أوائل القرن السابع عشر من قبل بقية الاوروبيين خاصة الانجليز والهولنديين ومن قبل القوى المحلية في الهند وفي أرخبيل الملايو وفي الخليج العربي والبحر الاحمر على يد العرب والعثمانيين والايرانين من العوامل المهمة، من غير شك، في اضعاف تلك الامبراطورية. ولكن عوامل الضعف الاخرى وربما كانت الاهم ــ جاءت من ضغوط داخلية نبعت من طبيعة الوجود البرتغالي في الشرق. بل لقد حملت الامبراطورية البرتغالية بذور ضعفها وانحلالها معها منذ قيامها. وتمثلت تلك البذور في ممارسات البرتغاليين السياسية والعسكرية من ناحية وفي أساليبهم التجارية من ناحية أخرى. كما تمثلت في البيروقراطية الحاكمة المنحدرة من أصول ارستقراطية والتي كانت نموذجا قل له نظير في التاريخ الحديث من حيث التفسخ والانحلال والعجز.

وعانى البرتغاليون منذ البداية من قلة عددهم في الشرق، فلم يزد ذلك العدد في أية مرحلة من مراحل وجودهم في آسيا خلال القرن السادس عشر على عشرة آلاف رجل[٥]. واذا أخذ بعين الاعتبار كثرة قلاعهم ومواقعهم وسفنهم وما كانت تحتاجه الامبراطورية من عاملين في مجال الحرب والملاحة والادارة أمكن تصور قصور ذلك العدد وعجزه عن تلبية الاحتياجات المطلوبة. وكان لذلك القصور نتائجه الخطيرة في نواحي عديدة.

قدم البرتغاليون الى الشرق رجالا دون نساء. فالسفن البرتغالية القادمة الى آسيا والتي تحمل ستمائة أو ثمانمائة من الرجال، لم يكن على ظهرها في أغلب الاحيان الا حوالى عشرة من الفتيات المؤهلات للزواج. وكان الملك يعطى لكل واحدة من تلك الفتيات مهرا لتشجيعهن على الذهاب الى الشرق والزواج من البرتغاليين هناك ويتمثل ذلك المهر في ضمان منصب خاص للشخص الذي يتزوج من احداهن[٦]. ولكن هذا النظام لم يكن يكفي لحل مشكلة البرتغاليين. فقد بقي هؤلاء بحاجة الى النساء. ولما كان أغلبهم لا يرجعون الى أوروبا مطلقا فقد عمدوا الى الزواج من النساء الشرقيات خاصة من الطبقات الدنيا في المجتمع الهندي. وكانت عملية التزاوج تلك من السعة والانتشار

بحيث، وبعد اجيال قليلة لم يعد في الامكان تميز الجنس البرتغالي الابيض. لقد صار جيل جديد من البرتغاليين في الشرق. وكان ذلك الجيل «تنقصه شجاعة الاباء البرتغاليين الاوائل واقدامهم، ولكن لم تكن لتعوزه من ناحية اخرى غطرسة اولئك الاباء وتعاليهم»(٧) كما كان هذا الجيل مهيئا اكثر للتفسخ والفساد وعلى استعداد أقل للتضحية والفداء.

وظهرت الاثار السلبية لقلة عدد البرتغاليين في نواحي خطيرة فالحاجة الكبيرة والمتزايدة لتوفير العاملين في السفن البرتغالية العاملة في الشرق، دفع بالسلطات البرتغالية الى استخدام الهنود. وكان المسلمون الهنود امهر الملاحين وأكثرهم كفاءة ولكن العداء والحقد الذي كان يكنه البرتغاليون والمسلمون لبعضهم البعض حال دون الاستفادة والاستعانة بالمسلمين، بل لجأ البرتغاليون الى استخدام فئات من الهنود تنقصها الخبرة في السفن والملاحة(٨). وقد أدى هذا، من بين أمور أخرى، الى تدهور الخدمات في السفن البرتغالية، بل وعجزها في مواجهة المصاعب والمخاطر الهائلة التي كانت تحيط بها.

ودفعت تلك الحاجة بالبرتغاليين ايضا، خاصة في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن الذي تلاه، الى استخدام عدد متزايد من الاوروبيين من هولنديين وانكليز وايطاليين وفرنسيين في مجالات ادارية مهمة(٩). وبصرف النظر عن مدى اخلاص هؤلاء الاوروبيين لمستخدميهم، فان عملهم وفر لهم فرصة للوقوف عن كثب على وضع البرتغاليين في الشرق والتعرف على نواحي الضعف والانحلال التي كانت الامبراطورية البرتغالية تعاني منها(١٠). والمعلومات التي سربوها والتقارير الكثيرة التي أرسلوها الى بلادهم عن حالة تلك الامبراطورية، كانت من غير شك، من العوامل التي شجعت الامم الاوروبية الاخرى على القدوم للشرق ومنافسة البرتغاليين، بل والاجهاز على امبراطوريتهم المنهكة.

والامر الاخر الذي أثر في وضع البرتغاليين السياسي في الشرق، الى جانب قلة العدد، هو تعصبهم الديني وفقدانهم المرونة، وعجزهم عن الفصل بين مصالحهم السياسية والتجارية من جهة وحماسهم الديني من جهة أخرى. لقد قدم البرتغاليون الى الشرق جنود صليبيون اكثر من كونهم تجار وسياسيين. وتعصبهم الديني أثار عداء الشعوب الشرقية التي قدر للبرتغاليين التعامل معها. وكان لذلك العداء أثره الهام في اضعاف الهيمنة البرتغالية وتمهيد السبل لمنافسيهم الاوروبيين للتغلب عليهم.

ولعله لا يغيب عن البال، أن الدافع الديني، كان منذ البداية من العوامل الاساسية لحركة الاستكشافات البرتغالية. والحقيقة ان شعور البرتغاليين الوطني وتحمسهم الديني قد تأججا من خلال حروبهم الطويلة والمريرة مع المسلمين في أواخر العصور الوسطى. ونظر البرتغاليون الى كل من يخالفهم في العقيدة على أنه عدو للبرتغال وعدو للسيد المسيح.

والبوكرك، مؤسس الامبراطورية البرتغالية الرئيسي في الشرق، على الرغم مما عرف عنه من

قسوة وعنف، ربما كان الوحيد الذي حاول اقتطاف رضا السكان في كوا خاصة بالنسبة الى الهندوس. ولعل هذا هو الذي خلد الذكرى الطيبة له والتي تدفع الهندوس، بل وحتى المسلمين، كما يقول «و.و.هنتر W.W.Hunter لان يحجوا الى قبره مستصرخين روحه معبرين لها عن تظلماتهم مبتهلين الى الله لتخليصهم من جور خلفائه»(١١).

على أية حال، كانت محاربة المسلمين وتحطيم تجارتهم وتدنيس مقدساتهم هي الهدف الرئيسي للحروب الصليبية البرتغالية، لقد كان المسلمون في نظر البرتغاليون، هم الاعداء الحقيقون، ان لم يكن الوحيدون، ويرى الفرد البرتغالي، ولافرق في ذلك بين الملك والنبيل والشخص العادي، أن محاربة المسلمين ضرورة يحتمها الدين والوطن.

ويعقب ك.م. بانيكار وهو احد الباحثين في تاريخ التوسع الاوروبي في آسيا على هذا الامر قائلا «..سيظل الشئ الكثير من تصرفات البرتغاليين في آسيا غامضا لا سبيل الى تفسيره ما لم نتذكر هذه الحقيقة على الدوام»(١٢) وعندما نجح فاسكو دى جاما في الوصول الى الهند لأول مرة عن طريق رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٩٨، ورجع الى أوروبا أثار انجازه هذا موجة عارمة من الفرح والتفاؤل. واعتبر ذلك نصرا مبينا للمسيحية على الاسلام. وبادر الملك مانوئيل الكتابة الى البابا يزف له البشرى بهذا الفتح المبين ويطلب منه اقرار ادعاءاته بهذا الشأن واستجاب البابا. وأعلن ذلك في مرسوم بابوى جاء فيه «..قد منحنا الملك افونسو الحق الكامل المطلق في غزو وفتح وقهر جميع البلدان الواقعة تحت حكم أعداء المسيح مسلمين كانوا أو وثنيين»(١٣).

كان شعار البرتغاليين في آسيا، كما يقول أر.ج جينة R.G. Jayne صداقة وود للمسحيين حرب لاهوادة فيها مع المسلمين(١٤). هذا وعندما جاء فاسكو دى جاما على رأس الاسطول البرتغالي الثالث الى الهند والذي أبحر من البرتغال في عام ١٥٠٢ وكانت العلاقات قد توترت في هذا الوقت مع حاكم كاليكوت وشرع دى كاما في قصف الميناء تقدم الحاكم بطلب لايقاف القصف والتفاهم واحلال السلام. ورد القائد البرتغالي بكل غطرسة وتعالي أنه لا يقبل منَ الحاكم بشئ أقل من طرده للمسلمين جميعا واخراجه لهم من الميناء(١٥).

لقد كان هذا موقف البرتغاليين من المسلمين منذ البداية، ولا عجب ان أثار ذلك حقد المسلمين وكرههم لهم في كل انحاء الشرق في الهند وفي الشرق الادنى الاسلامي كله وفي أرخبيل الملايو.

ومع مرور الزمن لم يتوقف التعصب الديني للبرتغاليين عند هذا الحد، ولم يقتصر على المسلمين، بل شمل كل من لم يكن من اتباع عقيدتهم الكاثوليكية. ومن الجدير بالذكر أن موقف البرتغاليين لم يتسم بالعداء تجاه الهندوس في الهند فيبداية الامر، بل لم تكن لديهم أفكار عدائية مسبقة تجاههم وتجاه دياناتهم. وأنه من الامور الطريفة ظنهم أنهم مسيحيين من فئة أخرى. ويتضح هذا من هذه الرسالة الممتعة التي بعثها الملك مانوئيل الى فرد ناند وأزبيلا ملكا اركون وقشالة وقد جاء فيها(١٦):

«ان المسيحيين الذين اكتشفناهم ووصلنا اليهم هنا ليسوا على درجة كافية من قوة العقيدة

ورسوخها، بل ينقصهم الايمان الكامل الصحيح. وعندما يحين الوقت ويتحصنون بالايمان المسيحي السليم، فسوف تتوفر لنا الفرصة لتدمير المسلمين في هذه البلدان بل ونحن لا نزال نأمل بأكثر من هذا. فبعون الله ستقع في ايدينا هذه التجارة الكبيرة التي لا يستمتع بفوائدها الان سوى المسلمين. سوف ننتزعها منهم وسوف تعود الفائدة منها الى رعايانا وسفننا.»

ولكن هذا الشعور الودي تجاه الهندوس سرعان ما تبدد، وفي عام ١٥٤٠ وصل امر ملكي الى نائب الملك في كـوا يقضي بتدمير جميع المعابد الهندوسية في الميناء(١٧). وتلى ذلك أمر بطرد جميع الاشخاص غير المسيحيين من الوظائف العامة(١٨). ثم لم يقتصر الاضطهاد على المسلميسن والهندوس بل تعداه أيضا الى المسيحيين النساطرة فقد اعتبروا هراطقة مرتدين(١٩). وزادت عمليات الاضطهاد بعد وصول الجزويت من أوروبا الى المستوطنات البرتغالية في آسيا(٢٠). وفي عام ١٥٠٦ جاءت محاكم التفتيش لتعالج أمر الهراطقة والكفرة والمرتدين(٢١). وباتحاد العرشين الاسباني والبرتغالي بشخص ملك اسبانيا في عام ١٥٠٨ ازداد الامر تفاقما. فقد كان الملوك الاسبان اكثر تطرفا وتعصبا(٢٢). ولم ينج اليهود من عمليات الاضطهاد الديني. وكان البوكرك نفسه يشك في نواياهم ومواقفهم تجاه البرتغاليين وقد كتب في عام ١٥١٥ الى ملك البرتغال يستأذنه «باستئصالهم واحد واحد حيثما وقع أحد منهم بين يدي»(٢٣) على أية حال، فان تحمس البرتغاليين الديني، بل بالاحرى تعصبهم وجهود بعثاتهم التبشيرية ونشاط الجزويت، لم تفشل في القضاء على المسلمين والهندوس والنساطرة واليهود ولم تعجز عن تحويلهم الى الكثلكة فحسب، بل زادت من كره هذه الشعوب ومن بغضها للبرتغاليين.

واذا كان تعصب البرتغاليين الديني المقيت قد أكسبهم تلك السمعة السيئة، فان قسوتهم ووحشيتهم في معاملة أعدائهم قد زادت من عتمة تلك السمعة.

مارس البرتغاليون وحشيتهم وقسوتهم في كل بقعة من بقاع الشرق التي شاء لها سوء الحظ ان تقع بين أيديهم. والامثلة على الممارسات البرتغالية في هذا المجال كثيرة جداً لا يتسع المجال للاطالة بها بل الاكتفاء بأمثلة منها. ففي منطقة الخليج العربي أحرقوا ودمروا تدميرا كاملا كثيرا من الاماكن والموانئ عند بداية وصولهم الخليج(٢٤).

وهذا ما فعله البوكرك في مدينة مسقط في عام ١٥٠٦ وبعد القتل والنهب والحرق والتدمير والاسر، أطلق سراح بعض الرجال والنساء ولكن لم يفعل ذلك الا بعد ن قطع أنوفهم وآذانهم(٢٥).

ولعل ما حدث للسفينة مريم خير مثال على القسوة البرتغالية وكانت هذه السفينة عائدة من الحج الى الهند عندما اعترضها الاسطول البرتغالي قرب ساحل الملبار. وكانت تحمل على ظهرها ٣٨٠ راكبابينهم عدد كبير من النساء والاطفال. وقصفت سفن الاسطول البرتغالي السفينة ويصف أحد رجال الاسطول البرتغالي وضع السفينة «مريم» فيقول: لقد أخذت النيران تلتهم مريم ومن على ظهرها من الركاب وكانت النساء وهن يحملن اطفالهن يصرخن ويستغثن ولكن دون جدوى. ويصف برتغالي اخر شهد المأساة الوضع بشكل اوضح(٢٦):

«لقد استولينا على السفينة مريم العائدة من مكة والتي كان على ظهرها ٣٨٠ راكبا وكان بينهم كثير من النساء والاطفال. واستطعنا سلب ١٢,٠٠٠ دكات ducat منها نقدا كما سلبنا ما قيمته ١٠,٠٠٠ دكات من السلع. ثم حرقنا السفينة مع جميع من كان على ظهرها وكان ذلك في اليوم الاول من شهر تشرين الاول».

وفي الهند قام فاسكو دى جاما عام ١٥٠٢ بتدمير وحرق عدد كبير من سفن المسلمين التي كانت بالقرب من ميناء كاليكوت ثم أسر ثمنمائة من رجال تلك السفن وعمد الى قطع انوفهم وآذانهم وايديهم وارسلهم الى حاكم كاليكوت مقترحا عليه عرضهم في مدينته. وقام فنست سودر Vincente Sodre أحد ربابنة السفن في أسطول دى كاما بجلد كبير التجار في كانانور حتى اغمى عليه ثم ملأ فمه بالاوساخ وغطاه بشرائح من لحم الخنزير(٢٧) وقد لا يكون هناك حدود لامثلة من هذا النوع.

واذا كانت قسوة البرتغاليين وتعصبهم الديني قد حالا دون خلق جو من المحبة والوئام بينهم وبين الشرقيين، فان جهلهم بالمجتمعات الشرقية وتقاليدها وعاداتها د باعد الشقة بين الطرفين. لم يتفهم البرتغاليون ابداً طبيعة المجتمعات العربية والايرانية والهندية والاندونيسية التي كان يتحتم عليهم التعامل معها(٢٨). وعلى سبيل المثال لا الحصر لم يستوعب البرتغاليون «نظام الطبقات System The Caster» عند الهندوس في الهند. وقد استشاط البوكرك مرة غضبا عندما رفض ارجا كوجين طلبه في رفع أحد اصد قائه من الهندوس من الطبقة الدنيا التي كان ينتمي اليها الى طبقة أعلى. دون ان يدور في خلده أن مثل هذا الطلب لا يمكن تلبيته، وأنه لا يقع في نطاق صلاحيات الراجا المذكور وليس في قدرته. هذا وكثير ما امتعض ربابنة السفن البرتغالية من رفض البراهمة تناول الطعام معهم على ظهر سفنهم معللين ذلك الى خشية اولئك البراهمة من وضع البرتغاليين السم لهم في الطعام(٢٩). دون أن يدركوا ان ليس في استطاعة تلك الفئة من المجتمع تناول الطعام مع الاخرين بذلك الشكل.

ولعل الامر الاكثر خطورة بالنسبة الى مصير البرتغاليين في الشرق، والذي قد يفوق في آثاره السلبية كل ما ذكر عن تعصبهم وقسوتهم وجهلهم. هو قصورهم في المجال الدبلوماسي وفقدانهم الحس السياسي السليم. فقد كان مثل ذلك الحس يتطلب ادراكا افضل للاوضاع السياسية في الساحة الاسيوية واستيعابا أحسن لموقف القوى الشرقية المختلفة. والادراك والاستيعاب السليمين كان بامكانها خدمة المصالح البرتغالية وذلك بالتحالف مع هذا الفريق أو ذاك، بل واستغلال الخلافات والصراعات بين القوى الشرقية عوضا عن التورط في نزاع شامل مع كل قوى الشرق تقريبا. وهذا الذي حدث للبرتغاليين في الخليج العربي وفي شبه القارة الهندية وفي ارخبيل الملايو.

ولما كان البرتغاليون اعتبروا المسلمين منذ البداية، اعداءهم الرئيسيين في آسيا فكان يترتب عليهم التعاون مع القوى الاخرى المناهضة للمسلمين. وكان الوضع في الهند مهيئا لمثل هذه السياسة طالما كان هناك صراع مستمر طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر بين الامارات الاسلامية والامارات الهندوسية.

لم يستفد البرتغاليون من تلك الظروف فبعد سنوات قليلة من وصولهم الى الهند اشتبكوا في صراع مع حاكم كاليكوت الهندوسي وبعد سنوات قليلة اخرى تورطوا في نزاع مع راجاكوجين وهو حاكم هندوسي آخر وكان خصما ومنافسا لحاكم كاليكوت(٣٠). ولعل الامر الاكثر خطورة بالنسبة لكل ما سبق هو عجز البرتغاليين عن التحالف مع القوى الهندوسية الكبيرة في شبه القارة الهندية. بل انهم لم يبذلولوا جهودا جادة للتحالف ولاقامة علاقات جيدة ووطيدة مع الدولة الهندوسية القوية والمهمة جدا وهي امبراطورية فيجا ياناكار Vijayanagar في الوقت الذي كانت هذه تخوض صراعا مصيريا مع عدد من الامارات الاسلامية القوية خلال القرن السادس عشر. ثم جاءت معركة تاليكوت Talikot في عام ١٥٦٥ التي انهت امبراطورية فيجاياناكار كقوة سياسية فعالة، وأخذ مكانتها في هذا المجال عدد من الامراء المسلمين الذين صارت لهم سيادة لامنازع لها في أغلب الجزء الجنوبي الهندي. وكان من النتائج المبشرة لهذا النصر الاسلامي اتفاق اولئك الامراء المسلمين على محاربة البرتغاليين بل ومحاولتهم الاستيلاء على كوا عاصمتهم في الشرق(٣١).

سبق القول ان البرتغاليين حملوا معهم منذ البداية بذور ضعفهم وانحلالهم. واذا وضعت الجوانب السياسية والعسكرية التي عولجت في الصفحات السابقة جانبا. فان مثل هذا القول يتمثل ايضا الى حد كبير في ممارستهم التجارية. فمن ناحية لم ينجح البرتغاليون في احداث تغيير جديد بالذكر في العلاقات التجارية الاوروبية . الاسيوية(٣٢). فلم يزيدوا من حجم التجارة بين القارتين ولم يقدموا سلعا آسيوية الى الاوروبيين لم يكن يعرفها هؤلاء من قبل. وفي الوقت نفسه لم يحملوا معهم من اوروبا سلعا جديدة الى الاسيويين. كما انهم لم يوفقوا في ايقاف نزيف الاموال الذي كانت تعاني منه اوروبا من جراء التجارة مع اسيا. ثم ان البرتغاليين لم يحدثوا اى أثر فعال في التجاة الاسيوية نفسها. لقد احتفظت كلا التجارتين ـــ التجارة الاوروبية ـــ الاسيوية والتجارة الاسيوية بطابعها التقليدي الاساسي. ولم يحولوا اى منها الى مشروع استثماري ذا صفة متميزة عما كان معروفا ومألوفا من قبل. والخلاصة ان البرتغاليين فشلوا في خلق مؤسسات اقتصادية ذات طابع رأسمالي استثماري يستند الى أسس اقتصادية راسخة وفوائد دائمة ومضمونة. بقيت التجارة البرتغالية حتى النهاية تمثل، كما يصفها بعض الباحثين، تجارة الباعة المتجولين The Peddlers. ولعل فان لر كان موفقا الى حد كبير فيما ذهب اليه في وصفه للتجارة البرتغالية اذ يقول(٣٣):

«ان الانماط التجارية والاقتصادية خلال عهد السيطرة البرتغالية هي نفس الانماط التجارية التقليدية المألوفة دون أن يطرأ عليها تغيير جذري أو ابتكار. فهي صغيرة نسبيا في حجمها. وهي بجملتها مشروع ملكي سخرت فيه كل العناصر: الملاحة والسفن والموانئ والضرائب للاستغلال الغاشم ولتوفير الفائدة المباشرة والسريعة.

بل ان فان لريذهب الى ابعد من ذلك عندما يؤكد «أن البرتغاليين لم يقدموا عنصرا جديدا

واحدا لتجارة جنوب شرق آسيا خلال عهدهم الاستعماري»(٣٤) وما قاله فان لو عن جنوب شرق آسيا لا يمكن ان يقال عن التجارة البرتغالية في بقية انحاء القارة الاسيوية التي مارس فيها البرتغاليون تجارتهم.

لقد اتسمت التجارة البرتغالية في آسيا منذ بدايتها بطابع القسوة والعنف والاحتكار الغاشم. لقد صارت قصه ذلك الجزء من الحوار بين بعض التجار المسلمين وفاسكو دى كاما شائعة ومعروفة فعندما سأله اولئك التجار ما الذي جاء به الى هذه البلاد النائية؟ أجابهم «المسيحية والتوابل». ولكن هناك تتمة لما دار بين الطرفين من حوار قد لاتكون جلبت اهتمام الكثيرين على رغم اهميتها. فقد واصل التجار السؤال «لماذا لم يحاول ذلك ملك قشتالة ولماذا لم يحاول ذلك ملك فرنسا؟ بل لماذا لم يحاول ذلك حاكم البندقية؟ فكان الجواب: ان ملك البرتغال لايوافق على ذلك وسوف لن يسمح لهم به(٣٥) وهكذا ومنذ فجر وجودهم لم يفكر البرتغاليون الا في الاحتكار المطلق وفي تلك الفترة المبكرة من تاريخ البرتغاليين في آسيا، قدم أحد تجار البندقية النصح لهم قائلا: «اذا كنتم ترغبون حقا في تجارة ناجحة فعليكم ان لاتنهبوا وتدمروا سفن منافسيكم»(٣٦).

وهذا الطابع القهري للتجارة وللفعاليات البرتغالية في آسيا تبدو واضحة في كل خطوة من خطواتهم، وفي كل التفاته منهم ويكفي أن نشير هنا الى ذلك اللقب الكبير الذي أطلقه ملك البرتغال على نفسه «سيد الفتوحات والملاحة والتجارة مع الحبشة وبلاد العرب والهند وايران»(٣٧). كان ذلك في عام ١٤٩٩ قبل أن يحقق البرتغاليون أي وجود عسكري ذى شأن لهم في آسيا. وبعد سنوات قليلة عندما توفر لهم مثل ذلك الوجود بادروا بسرعة الى محاصرة البحر الاحمر لضرب خصومهم سياسيا وعسكريا واقتصاديا ولضمان نجاح الاحتكار لتجارة الشرق التي كانوا يخططون لها.

ويرى كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين ان ذلك الحصار كان ضرورة تاريخية ويعقب البروفسور نيلز ستينز كارد Niels Steensgaard على هذا الرأي قائلا: «انه قد تكون هناك ضرورة تاريخية كما يقول اولئك المؤرخون ولكن لم تكن أمام البرتغاليين فرصة للاستفادة من ذلك»(٣٨) لقد عمد البرتغاليون الى حصار البحر الاحمر والى ابعاد بقية البرتغاليين عن رأس الرجاء الصالح قبل أن يحاولوا الاستفادة من اكتشافهم عن طريق المنافسة النافعة. ويعرض اف.سي لين F.Lane الامر بشكل اوضح اذ يقول «لم يعتبر البرتغاليون رأس الرجاء الصالح اكتشافا فنيا يمكنهم الاستفادة منه ويعطيهم ميزة على منافسيهم، ولكنهم اعتبروه احتكارا لا يستند الا على القوة الغاشمة»(٣٩).

حقا مرت لحظات في تاريخ البرتغاليين في الشرق بدا فيها ان امام البرتغاليين خياران: اولهما المنافسة الحرة والتجارة المسالمة، وثانيهما الاحتكار والربح السريع والمباشر. والتمعن في نوعية الفئات البرتغالية التي قدمت الى الشرق والخلفيات الاجتماعية التي انحدرت منها تلك الفئات لاتترك مجالا للشك ان الاختيار الثاني كان مناسبا للبرتغاليين اكثر من الاختيار الاول. لم يأت البرتغاليون الى آسيا كتجار ومستثمرين، بل جاءوا فرسانا صليبيون وسادة اقطاعيين ومغامرين جريئين. وهم من

قادة وضباط ورهابنة وحكام ينتمون بجملتهم الى الطبقة الارستقراطية البرتغالية. وهم بهذا غير مؤهلين مطلقا للخوض في منافسة تجارية حرة مع التجار الاسيويين في القارة الاسيوية ولا مع التجار الايطاليين وغيرهم من التجار الاوروبيين في أوروبا. لم تكن المشاريع التجارية موضعا لاهتماماتهم. لقد كانت اهدافهم تتمثل في السلطة والنفوذ وفي الوظائف العالية والالقاب الكبيرة وبعد كل هذا وذاك الربح الكبير والسريع والمباشر.

والقت الاوضاع الاجتماعية في البرتغال بضلالها على الوجود البرتغالي في آسيا. فالاراضي الزراعية في البرتغال قليلة ومحدودة وهي مملوكة بطبيعة الحال من قبل فئة ارستقراطية صغيرة. وكانت هذه الفئة تستخدم الرقيق المستوردين من افريقيا للعمل في اراضيها. وتبق هناك فئة ارستقراطية أكبر وأكثر عددا محرومة من امتلاك الارض. ولمنزلتها الاجتماعية واصولها النبيلة لم تكن على استعداد للعمل التجاري أو غيره من الاعمال. لقد كانت المناصب الحكومية هي الشئ الوحيد الذي يلائمها ويرضي طموحاتها. ولكن تلك المناصب كانت قليلة ومحدودة ولم تكن على ايه حال كافية للجميع. وجاءت الامبراطورية البرتغالية الى الشرق لتحل جزءا من هذه المعضلة. فقد فسحت المجال أمام عدد كبير من ابناء الطبقة الاستقراطية لتولي المناصب التي كانوا يتشوقون اليها. وبق هناك عدد أخر لم يسعفهم الحظ في الحصول على شئ. ومثل هؤلاء شدوا الرحال الى الشرق بمبادرتهم الفردية مغامرين وطلاب حظ. وفي سنة واحدة توجه ٢٤٠ من هؤلاء الى آسيا. ولم يكن هناك من رادع أمام هؤلاء يمنعهم من اقتراف أي عمل ما دام يوفر لهم الربح. لقد مارسوا القرصنة والسلب والنهب واستخدم قسم منهم من قبل السلطات الملكية لجمع الضرائب. ومنح فريق آخر منهم امتيازا ملكيا خاصا لمزاولة التجارة لحسابهم الخاص.

وبمرور الزمن لم يعد هناك خط واضح بين اولئك الذين شغلوا المناصب بتكليف ملكي وبين هؤلاء الذين فرضوا انفسهم على الساحة الاسيوية. لقد كان هدف الكل الربح السريع وصفة الجميع التفسخ والفساد. لقد كون هؤلاء الطبقة البروقراطية التي تولت شؤون الامبراطورية البرتغالية في آسيا. «..وفي مثل هذا الجو، الذي نجد فيه كل فرد سواء كان يشغل أعلى المناصب أو ادناها، وهمه الوحيد الحصول على المال فان فرص الابتزاز والفساد لاحدود لها»(١٠). وكان جواب مسؤول برتغالي نزيه من الامور النادرة جدا. ولعل رئيس قضاة كوا في الخمسينات كان من تلك الشخصيات النادرة في هذا المجال. وقد كتب للملك في عام ١٥٥٢ قائلا:

«لاتوجد عدالة في الهند. فهي لا تتوفر عند نائب الملك. ولا عند الذين هم أدنى منه. والهدف الوحيد للجميع هو جمع المال بكل السبل. ليس هناك أحد في الشرق يثق في البرتغاليين. مد لنا يد العون يا صاحب الجلالة فاننا غارقون»(١١).

والحديث عن الفساد والتفسخ في الاجهزة البرتغالية في الشرق حديث طويل جدا ويعقب ستينزكارد على البيروقراطية البرتغالية في الشرق قائلا: «أنها أفضل الامثلة وأوضحها للفساد

الدستوري المصمم Constitutional determined Corruption(٢٣) وبالاضافة الى الفساد الذي اتسم به البرتغاليون في الشرق فقد نقلت معها تلك الفئة من المجتمع البرتغالي غطرسة الارستقراطية الاوروبية وتعاليها بل وتقاليدها.

وحيثما اجتمع ستة أو سبعة من الضباط البرتغاليين في كنيسة أو في شارع أو في أي محل عام آخر اتخذ جمعهم مظهرا رسميا كحفلة راقصة أو سباق، وأي خرق من احدهم لقواعد ذلك الحفل الارستقراطي سوف لا ينظر اليه على أنه تصرف غير مهذب فحسب بل اهانة لا يمكن التغاضي عنها الا بامتشاق الحسام(٢٤).

هذ هي الفئة البرتغالية الحاكمة في الشرق ولانتوقع بطبيعة الحال حكومة صالحة ولا تجارة مثمرة ونافعة. خاصة اذا عرفنا ان التجارة البرتغالية مع آسيا هي احتكار ملكي يشرف على القيام بها تلك الفئة البيروقراطية التي سبق الكلام عنها. ولم يكن الملك البرتغالي نفسه اقل رغبة في الحصول على الربح السريع والمباشر من اتباعه في الشرق ولم يكن اقل منهم حماسا لجمع المال بأية صورة ممكنة. ومنذ البداية كانت مصادر دخله تأتي من المصادر التالية:

١. نهب سفن المسلمين وأموالهم وبمرور السنين امتد هذا النهب ليشمل المسلمين وسواهم.
٢. جباية الضرائب والرسوم من السفن الاسيوية وفي الموانئ والمواقع البرتغالية.
٣. الفوائد من التجارة الاسيوية الداخلية.
٤. الفوائد من التجارة الاوروبية ــ الاسيوية.

وحسب تقديرات ج.ن. فونسكو J.N.Fonseco فان المصادر آنفة الذكر كانت توفر للخزانة الملكية مليوني ريال سنويا كان نصفها يأتي من السلب والنهب والقرصنة ونصفها الاخر من الضرائب والرسوم والتجارة(٢٥). وتكون الضرائب جزءا اساسيا من الدخل الملكي وليس من المبالغة في شئ عندما وصف ملك البرتغال بأنه أكبر جامع ضرائب في العالم.

جمعت الضرائب بوسائل عديدة منها تلك التي كانت تجئ من المواقع والموانئ البرتغالية التي يهيمن عليها البرتغاليون. وفي مقدمتها كوا وهرمز. ولعل نظام الجوازات Cartaze system كان من اهم مصادر الدخل وبموجب هذا النظام تحتم على كل سفينة آسيوية الحصول على جواز عن طريق دفع ضريبة معينة في أحد الموانئ أو المواقع البرتغالية. ويحدد في كل جواز الموانئ التي يحق للسفينة دخولها والسلع التي يسمح لها بحملها. وجميع السفن الاسيوية عرضة للتفتيش في عرض البحر. وأية سفينة لاتحمل مثل ذلك الجواز أو تتخطى الحدود المرسومة لها فيه يكون مصيرها المصادرة أو التدمير.

والحقيقة انه لم تكن تلك الجوازات مجرد وسيلة للحصول على الدخل للخزانة الملكية فحسب بل لتوجيه التجارة الى الموانئ والمواقع البراتغالية. وقد أعطي في حينه مبررا ايدولوجيا لتلك الجوازات، فقيل انها استخدمت لغرض الهيمنة على التجارة وقطع خطوط مواصلات المسلمين في الشرق واضعاف القدرات الاقتصادية والعسكرية للامبراطورية العثمانية خاصة. تلك الامبراطورية التي

كانت تهدد في ذلك الوقت قلب العالم المسيحي. ولايبدو لهذا التبرير أساس كبير من الصحة. فالمصادر البرتغالية المعاصرة نفسها تشير الى اهتمام السلطات البرتغالية بالدخل الذي توفره تلك الجوازات بشكل مباشر وذلك اكثر من اهتمامها بأية ايدلوجية معينة في هذا الشأن. هذا وبمرور السنين منحت تلك الجوازات للهندوس والمسلمين والارمن واليهود. طالما دفع الجميع الاجور المطلوبة لها.

ويبقى السؤال وهو الى أي مدى نجح البرتغاليون في تطبيق نظام الجوازات وفي تحقيق الفوائد المرغوبة منها؟ لقد أفلح كثير من التجار الآسيويين في تجنب المسالك البحرية المألوفة وبهذا تحاشوا الرقابة البرتغالية ولم يضطروا الى حمل تلك الجوازات، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لم يكن باستطاعة البرتغاليين مراقبة وحراسة آلاف الاميال من السواحل والبحار والممرات المائية الممتدة من الخليج العربي والبحر الاحمر وشرق افريقيا غربا والى ارخبيل الملايو شرقا. وبعد كل هذا وذاك، فان السلطات البرتغالية وما عرف عنها من تفسخ وفساد لم تكن تتردد في منح الجوازات لمن يرغب فيها لقاء شئ بسيط من المال. وكما وصف احد الملاحين الفرنسيين موقف البرتغاليين من هذا الامر بقوله «في سبيل المال يمكن التجاوز عن أي شئ»(١٦).

والاساس في التجارة البرتغالية في الشرق انها احتكار ملكي. وينطبق هذا على التجارة الاوروبية ــ الاسيوية وعلى تجارة آسيا الداخلية، وفي المراحل الاولى من الغزو البرتغالي للشرق سمح الملك مانوئيل بفتح ابواب التجارة الاوروبية ــ الاسيوية للتجارة الخاصة. على أن يكون القائمين بها من البرتغاليين. وعلى ان يكون هناك ترخيص خاص لكل رحلة، وللملك ٣٠٪ من جملة الحمولة، واشترط على التجار تخصيص حيزا من السفينة لملاحيها لحمل بضائعهم الخاصة(١٧). ولم تكن هذه الشروط مشجعة. ومع هذا وبمرور السنين وتناقص دخل الملك من تجارته مع الشرق ألغيت التجارة الخاصة وصارت التجارة الاوروبية ــ الاسيوية كلها احتكارا ملكيا. وأبقي الحق للملاحين في الاحتفاظ بذلك الحيز من السفينة لسلعهم الخاصة. واشترط عليهم دفع ضرائب على تلك السلع في لزبن. واتضح انه من الصعوبة السيطرة على مثل هذا الوضع. فقد تجاوز ربابنة السفن الملكية والملاحون البرتغاليون فيها ذلك الحيز المخصص لهم وتم ذلك على حساب التجارة الملكية. اضافة الى هذا فقد استطاع اولئك الربابنة والملاحون التهرب من دفع الضريبة. وكانت لزبن مليئة بالسفن والتجار الاوروبيين من ايطاليين وانجليز وفرنسيين وكان هؤلاء على استعداد لتلقف السلع الشرقية(١٨) من الربابنة والملاحين قبل ان تصل هذه الى مراكز دفع الضرائب في لزبن.

لقد كان مبدأ السماح للربابنة والملاحين لحمل سلعهم الخاصة على ظهر السفن الملكية من اهم مظاهر الفساد في التجارة البرتغالية وكان من العوامل المهمة التي أدت الى تدني الارباح التي كان يحصل عليها الملك من تجارة آسيا. وفسر النظام على انه تعويض لما كان يتقاضوه اولئك العاملون في

السفن الملكية من أجور ضئيلة(٤٩) كما قدم تفسير اكثر طرافة وهو ان المسؤولين عن تلك السفن سوف يحاربون ويدافعون عن السفن الملكية بشكل افضل اذا ما تعرضت للخطر وذلك لانهم اذ يفعلون ذلك فانهم لايدافعون عن اموال الملك بل عن أموالهم الخاصة كذلك(٥٠).

وتفاقم الوضع في اوائل القرن السابع عشر وتدنى دخل الملك من تجارته الى حد كبير بسبب الممارسات الآنفة الذكر. وحاول الملك اصلاح الامر فالغى النظام القديم وأبدله في عام ١٦٤٧ بنظام جديد للخدمة في السفن الملكية تضمن نقاط مهمة أهمها أن الحصول على رتبة الربان يتوقف على الخبرة والكفاءة ولا يتطلب المنزلة الاجتماعية الارستقراطية والنسب.

ورفعت اجور الربابنة والملاحين وحرموا في الوقت نفسه من حقهم في نقل أي سلع لحسابهم الخاص من آسيا، لقد تعرض هذا الاصلاح للنقد الشديد والاعتراض عليه من أصحاب المصالح الخاصة واضطر الملك الى تعديله في عام ١٦٤٩ ثم الى الغائه في عام ١٦٥٢(٥١).

واعتبرت التجارة الاسيوية الداخلية هي الاخرى احتكارا ملكيا، ولكن الفساد الذي اتسم به الاحتكار الملكي للتجارة الاوروبية ــ الاسيوية كان له ما يمثله بالنسبة للاحتكار الملكي للتجارة الاسيوية الداخلية. وقبل الافاضة في الحديث عن دور البرتغاليين في هذا المجال يمكن القول ان البرتغاليين لم يستطيعوا التأثير تأثيرا يذكر في طبيعة التجارة الاسيوية الداخلية وفي مقوماتها. فقد بقيت في جوهرها تبادل للسلع بين الموانئ الاسيوية نفسها ترتكز في جملتها على السفن الاسيوية والتجار الآسيويين. ولم تمثل التجارة الاوروبية ــ الاسيوية سوى جزء ضئيل بالمقارنة بها. ولعله من المفيد جدا اعطاء فكرة عن حجم التجارتين ولكن هذا ليس بالامر اليسير. ولحسن الحظ عمد بعض الباحثين الى وضع دراسات وتقديرات لتجارة الهند وبعض بلدان آسيا الاخرى خلال القرن السادس عشر أي فترة النفوذ البرتغالي(٥٢). وتظهر تلك الدراسات والتقديرات استمرار السمات الاساسية القديمة دون تغيير للتجارة الاسيوية. وهناك تقدير جدير بالذكر هام للغاية على الرغم من كونه لا يتناول الا جانبا محددا من تجارة الهند خاصة باقليم «كوجرات» وضعه موظف برتغالي هو «توماس برس Tome Pires» في أوائل القرن السادس عشر.

لقد ذكر توم برس بشئ من التفصيل صادرات كوجرات الى البلدان الواقعة الى الغرب والى الشرق من ذلك الاقليم الهندي العام. وجاءت تقديراته كما هي مبينة في الجدول التالي(٥٣):

جدول رقم (١)

الغرب	طن	الشرق	طن
أوروبا	٦٠٠٠	بيجوا الخ	٥٠٠٠
شرق افريقيا	١٠٠٠	مالقا	١٠٠٠٠
البحر الاحمر ــ سفن الحجاج	٥٠٠٠	سومطرة	٣٠٠٠
ــ سفن اخرى	٤٠٠٠	جاوة	٢٠٠٠
الخليج العربي وبلاد العرب	١٠٠٠٠	مالا كاس	١٠٠٠
		الصين واليابان	٣٠٠٠

وبعد الاخذ بعين الاعتبار اهمية اقليم كوجرات كأكبر مصدر للسلع الهندية خلال تلك الحقبة من الزمن، فالجدول يلقي الضوء على حجم صادرات الاقليم واتجاهاتها من ناحية، كما أنه يظهر بوضوح ضآلة نصيب التجارة الاوروبية مع آسيا من ناحية اخرى فهي لم تكن لتمثل سوى حوالي الثمن من مجمل صادرات الاقليم.

هذا ومن الجدير بالذكر هنا ايضا ان البرتغاليين لم ينجحوا طيلة القرن السادس عشر في زيادة حجم هذه التجارة بين آسيا واوروبا. وعندما حدثت تلك الزيادة في أواخر القرن المذكور، وازداد الاستهلاك الاوروبي للسلع الاسيوية، لم يتم ذلك على ايدى البرتغاليين وليس عبر رأس الرجاء الصالح، بل تم على يد التجار الاسيويين والايطاليين عبر الشرق الادنى وبطرق القوافل التقليدية.

لقد اعتبرت تجارة آسيا الداخلية، كما ذكر، احتكارا ملكيا. ولكن البرتغاليين فشلوا فشلا ذريعا في زحزحة التجار الاسيويين من الميدان، على الرغم من وسائل العنف والقسوة التي استخدموها خاصة في بداية عهدهم.

والواقع ان التجارة الاسيوية كانت اكبر بكثير من طاقتهم وامكانياتهم، فهذه التجارة قديمة العهد قدم التاريخ المكتوب نفسه، راسخة القدم شامخة البناء، ويعتقد فان لو ان عدد السفن البرتغالية العاملة في سواحل الهند لم يتجاوز في أية فترة من الفترات سدس السفن الاسيوية العاملة في تلك السواحل(٥٤).

ودعنا نرى الان كيف نفذ الاحتكار الملكي لهذه التجارة. كان من الناحية النظرية، للسفن الملكية الافضلية في شراء السلع الشرقية من الموانئ الاسيوية، ولا يقدم التجار الاخرون على شراء تلك السلع الا بعد أن تأخذ تلك السفن كفايتها. ومن الناحية العملية لن تسر العملية بهذه السهولة وبهذا اليسر. فقد اصطدم الامر هنا مرة أخرى بتفسخ وفساد السلطات البرتغالية. فقد لجأ المسؤولون البرتغاليون الى مختلف الوسائل للاستفادة من هذه التجارة على حساب المصلحة الملكية. فبحجة عدم توفر السفن الملكية عمد اولئك المسؤولون في كوا وفي غيرها من الموانئ البرتغالية الى الاستحواذ على تلك السلع دون ان يظهروا انفسهم بشكل علني ومباشر بمثل هذه العملية. فقاموا بمنح رخص الشراء الى الاقرباء والاصدقاء، بل وبيعها الى التجار الاسيويين. والواقع ان هذه الممارسات اجهضت الاحتكار الملكي للتجارة. وعلى سبيل المثال منح احد المسؤولين البرتغاليين الكبار في عام ١٥٤٢ اربعين رخصة لاقربائه مرة واحدة.

ولم يكتف الموظفون الملكيون البرتغاليون بالاستفادة من الاحتكار الملكي بالطرق الانفة الذكر، بل انهم استغلوا السفن الملكية العاملة في التجارة الى ابعد حدود الاستغلال. وهناك امثلة لاحصر لها في هذا المجال. ففي احد الرحلات التي كانت تقوم بها سفينتان ملكيتان بين الموانئ الاسيوية وكانت تحت قيادة مسؤول برتغالي كبير شحنت احداهما بأكثر من طاقتها بسلع الموظفين البرتغاليين الامر الذي أدى الى غرقها ووصلت الاخرى سالمة ولكنها لم تكن تحمل سوى بضائع ذلك المسؤول(٥٥).

وفي رحلة من البنغال الى الملبار في عام ١٥٣٠ حملت احدى السفن الملكية ما قيمته ١٢٠٠٠ ريال من البضائع العائدة لربان السفينة ولم تكن تحمل للحساب الملكي سوى ما قيمته ٤٠٠ ريال(٥٦). والحقيقة ان الفساد والاستغلال الذي مارسه المسؤولون البرتغاليون في التجارة الاسيويةفاق ذلك الذي مارسه اولئك المسؤولون في مجال التجارة الاوروبية ـ الاسيوية. والنتيجة لكل تلك الممارسات واحدة وهي تدني كبير في الدخل الملكي. واذا اخذنا بعين الاعتبار الضغوط المالية الهائلة التي كانت تعانيها الامبراطورية البرتغالية في آسيا بسبب تفسخ وفساد الاجهزة الادارية فيها من ناحية والحاجة للحفاظ على الممتلكات والقلاع والمواقع والسفن في الشرق من ناحية اخرى امكننا تصور الازمة المالية التي كانت تأخذ بخناق البرتغاليين.

والى جانب تلك الضغوط الداخلية، فقد عانى البرتغاليون من ضغوط خارجية كبيرة طيلة القرن السادس عشر. فالصراع مع العثمانيين في الخليج العربي والبحر الاحمر والمحيط الهندي استنفذ كثيرا من طاقاتهم. وصراعهم مع الايرانيين خاصة في أواخر القرن المذكور وأوائل القرن الذي تلاه كان هو الاخر عنيفا ومكلفا. والشئ نفسه يقال عن نزاعاتهم مع القوى المحلية في الهند وارخبيل الملايو. ولعل أشد الضربات التي تعرض لها البرتغاليون خاصة في مجال التجارة جاءت من نمو واتساع دور التجار والسفن الاسيوية على حساب التجارة البرتغالية. بل ونجاح الاسيويين في كسر وتحطيم الاحتكار البرتغالي واختراقهم الحصار الذي فرضه البرتغاليون على بعض مناطق الشرق وخاصة البحر الاحمر. ونجاح الاسيويين في هذا المجال لم يؤثر في وضع البرتغاليين في ميدان التجارة الاسيوية الداخلية. بل اتسع ليشمل التجارة الاوروبية ـ الاسيوية نفسها وقد صاحب هذا التطور تطورا آخر يفوقه في الاهمية وهو انعاش طرق القوافل التقليدية عبر الشرق الادنى على حساب طريق رأس الرجاء الصالح الذي بقي طيلة القرن السادس عشر محتكرا من قبل البرتغاليين.

ولعل أكثر التحديات خطورة بالنسبة للتجارة البرتغالية والاحتكار البرتغالي، جاءت من نمو قوة كل من سلطنة أجة Acheh في شمال سومطرة، وولاية كوجرات الهندية المهمة، وبقي دور هاتين القوتين في تحطيم الهيمنة البحرية البرتغالية على المياه الشرقية مجهولا تقريبا، الى ان قام بالكشف عنه بعض المؤرخين(٥٧)، وفي مقدمتهم س.أر.بوكسر والى حد اقل السيدة ملنك رولوفز.

ويعتقد بوكسر ان سلطنة آجة وولاية كوجرات بدأتا منذ الثلاثينات من القرن السادس عشر في كسر طريق الحصار البرتغالي وحمل الفلفل والتوابل الى البحر الاحمر بل انه يذهب الى حد القول انهما بدأتا قبل ذلك(٥٨). وفي عام ١٥٤٧ عبر ملك البرتغال عن قلقه الى نائبه في كوا من الانباء المتواترة حول انتعاش تجارة آجة مع البحر الاحمر. وخلال الخمسينات والسيتنات اتخذت تجارة اجه وكوجرات شكلا اوسع مع البحر الأحمر مما دفع البرتغاليين الى ارسال اساطيل لاعتراض سفن آجه وكوجرات ودارت معارك شديدة قرب سواحل حضر موت ولكنها لم تكن حاسمة. ولم يستطع البرتغاليون وضع حد لتدفق التوابل الى البحر الاحمر.

ومصادر التجار البنادقة المقيمين في القاهرة أشارت في عام ١٥٦٥ الى وصول ثلاث سفن من آجه وذكرت أن هناك اثنتين اخريتين متوقع وصولها قريبا أيضا بالاضافة الى ذلك فقد وصلت الى جدة خمس سفن من سومطرة وعشرون سفينة اخرى من مختلف موانئ الهند. وفي العام التالي أي ١٥٦٦، وصلت سفن اخرى الى جدة من آجه وبلغ مقدار ما حملته كل تلك السفن ٢٤٠٠٠ كانترا Cantera من الفلفل(٥٩).

ونتيجة لفشل البرتغاليين المتكرر في اعتراض السفن الاسيوية القادمة الى البحر الاحمر والى التكاليف الباهظة التي كانت تكلفهم الاساطيل التي يرسلونها لايقاف تلك التجارة الاسيوية فقد عدلوا منذ عام ١٥٦٩ عن ارسال مثل تلك الاساطيل وقبلوا على مضض بالامر الواقع.

وعندما دارت اشاعات في كوا في عام ١٥٨٦ حول عزم البرتغاليين على ارسال اسطول قوي للبحر الاحمر لوضع حد لتجارة التوابل هناك علق كثير من الناس ساخرين «ان الفشل سيكون مصير مثل هذا الاسطول المزمع ارساله الى البحر الاحمر، تماما كما كان الفشل مصير جميع الاساطيل التي ارسلها العثمانيون الى المحيط الهندي»(٦٠).

وكتب فرنسيسكو دى سلفيرا أحد القادة البرتغاليين في مذكراته في عام ١٥٨٠ «مرت سنوات طويلة منذ ان كانت هناك أي من اساطيلنا قد ابحر الى البحر الاحمر. ولذا لم تعد لدينا معرفة بأحوال ذلك البحر. فنحن نجهل الرياح السائدة فيه والموانئ المهمة ولا نعرف اماكن الارساء ولا مواطن المياه الصالحة للشرب»(٦١).

وصحب نجاح آجة في اختراق الحصار البرتغالي للبحر الاحمر زيادة ضغطها على ملقا، ذلك الميناء الحيوى الهام للامبراطورية البرتغالية والتجارة البرتغالية في الشرق كله. وازداد ضغط آجة على ملقا خاصة في عهد سلطانها «رايات شاه القهار» الذي قيل عنه «لم يكن يتقلب على جانبيه في فراشه دون أن يفكر بالوسائل التي تمكنه من الاستيلاء على ملقا وتدميرها».

وفي فترة الثمانينات والتسعينات من القرن السادس عشر، وبعد ان عجز البرتغاليين في حصارهم للبحر الاحمر، تحولوا الى محاولة غزو آجة نفسها واحتلالها. وقد رأى المسؤولون في لزبن وكوا وملقا ان هذا هو السبيل الوحيد لحماية التجارة البرتغالية. بل الامبراطورية البرتغالية، ولكن كل مشاريع غزو آجه لم يحمل محمل الجد والسبب في ذلك هو عجز البرتغاليين في توفير السفن والرجال والمال. وقد اعترف احد البرتغاليين المعاصرين بهذه الحقيقة عند تعقيبه على نشاط التجار الاسيويين في أرخبيل الملايو «لا نستطيع منعهم من ممارسة التجارة، طالما اننا لانملك الاسطول القوي القادر على تحقيق ذلك.»(٦٢).

وفي عام ١٥٩٦ كتب الملك الى نائبه في كوا قائلا انه اذا كان لابد من صلح مع آجه فيجب ان يعطينا ذلك الصلح فرصة لتوجيه الهجوم الحاسم. وبعد سنين غير الملك لهجته هذه ونصح بضرورة الاحتفاظ بصداقة حذرة مع آجه(٦٣).

وكانت كميات الفلفل المصدرة من آجة في أواخر القرن السادس عشر كبيرة جدا. وقد قدرت كمية تلك الصادرات في أحد التقارير البرتغالية بخمسة عشر ألف بار(٦٤). ولا يذكر هذا التقرير الكمية التي ذهبت بشكل خاص الى البحر الاحمر وتلك التي ذهبت الى الاسواق الاخرى مثل الصين والهند. ومن حسن الحظ ان هناك تقاريراً برتغاليا آخر قدر الكمية المرسلة من الفلفل والتوابل الاخرى والتي وصلت الى جدة من آجه وكوجرات ٤٠٠٠٠ ـ ٥٠٠٠٠ كونتال(٦٥). وبصرف النظر عن صحة هذه الارقام أو عدم صحتها، فان هناك امرا مؤكدا وهو أن كميات التوابل والفلفل التي جاءت الى أوروبا عن طريق البحر الاحمر والتي نقلتها سفن آجة وكوجرات تفوق كثيرا جدا تلك التي نقلها البرتغاليون الى اوروبا عن طريق رأس الوجاء الصالح.

واذا استعرضنا السلع الرئيسية في التجارة الاوروبية ـ الاسيوية خلال القرن السادس عشر نجد انها تتضمن التوابل النفيسة والحرير والفلفل. والتوابل النفيسة هي أربعة: القرنفل وجوزة الطيب، وقشرة جوزة الطيب، والقرفة أو الدارسين وتنتج الثلاثة الاولى منها في جزر صغيرة ومتناثرة في أرخبيل الملايو. أما الرابع فينتج في سيلان. وايران هي المصدر الرئيسي للحرير المصدر الى اوروبا، ان لم تكن المصدر الوحيد لذلك. ولاتوجد أي ادلة تشير الى وصول كميات من الحرير الى اوروبا من الصين أو من البنغال، وهما البلدان الاخران الرئيسيان المنتجان للحرير في آسيا. وينتج الفلفل بكميات كبيــرة في جزر ارخبيل الملايو الكبرى: جاوة وسومطرة وفي ساحل ملبار.

وتناقصت كميات التوابل النفيسة التي حملها البرتغاليون الى أوروبا خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر. وعلى سبيل المثال قدرت حصة البرتغاليين من تجارة القرنفل وهو أهم التوابل النفيسة ب١٥٪ فقط في أواخر القرن المذكور(٦٦).

أما بالنسبة الى الحرير، فلم تمثل هذه السلعة مطلقا طيلة القرن السادس عشر جزءا منها بالنسبة للتجارة البرتغالية. اذ كان الحرير الايراني يصل الى اوروبا عبر الطرق التقليدية المألوفة. فهو ينتقل من ايران عبر العراق والاناضول ليصل الى سواحل البحر الابيض ولينتقل من هناك الى اوروبا.

والفلفل هو السلعة الرئيسية بالنسبة الى تجارة البرتغاليين الاوروبية ـ الاسيوية. وهو المصدر الاساسي للدخل الملكي من تجارته الاسـيوية وتتبع مسيرة تجارة هذه السلعة تعطي فكرة جيدة واضحة عن وضع التجارة البرتغالية. ومن حسن الحظ ان هناك معلومات متوفرة بما فيها الكفاية في هذا المجال.

ويعتقد ف.لين(٦٧) أن التوابل خاصة الفلفل منها وصلت الى الاسكندرية في عام ١٥٦٠ لتأخذ طريقها من هناك الى اوروبا تفوق كثيرا تلك التي حملها البرتغاليون الى أوروبا عبر رأس الوجاء الصالح. والى جانب هذا التعميم فان كلا من بوكسر وستينزكارد قد أعطى معلومات مفصلة ودقيقة الى حد كبير في هذا الشأن. وقد سبقت الاشارة الى ماأورده الاول حول الكميات التي نقلتها سفن آجة وكوجرات الى البحر الاحمر. أما ستسنزكارد فعلوماته تنحصر حول واردات البرتغاليين من الفلفل

الى أوروبا.

ومع أن المعلومات التي أوردها ستينزكارد غير متصلة سنة بعد الاخرى، الا ان السنين التي توفرت المعلومات عنها تكفي لتوضيح الصورة الى حد كبير. فقد كان المعدل السنوي للواردات البرتغالية من الفلفل بين عامي ١٥٨٧، ١٥٩٩ هو ١٠,٧٣١ كونتال[٦٨] أي أكثر من مليون ليبرة ويمثل هذا انخفاضا كبيرا عما كان عليه الامر في منتصف القرن السادس عشر. ففي عام ١٥٤٧، ١٥٥٦ كانت الكمية ٣٦٠٠٠، ٢٤٠٠٠ كونتال على التوالي. وفي عام ١٥٥٨ كانت الواردات ٣٠٠٠٠ كونتال.

وتنقطع المعلومات بعد ذلك حتى عام ١٥٨٧، وخلال ثلاث سنوات ١٥٨٧ . ١٥٩٠، كان المعدل السنوي ٢٠٠٠٠ كونتال. وفي التسعينات انخفضت الكمية الى النصف فكان حوالي مليون ليبرة، في حين ارتفع الاستهلال الاوروبي لهذه السلعة ليقترب من خمسة ملايين ليبرة، ومن هذه الارقام يتبين ضآلة الكميات المستوردة من قبل البرتغاليين عبر رأس الرجاء الصالح. كما يتبين منها ان هناك ما يقرب من أربعة ملايين ليبرة من الفلفل وصلت الى أوروبا عن طريق البحر الاحمر وعبر الطرق التقليدية وبواسطة التجار الاسيويين والايطاليين ولعل الجدول رقم (٢) يوضح هذا الامر.

وبعد وصول سفن شركتي الهند الشرقية الانجليزية والهند الشرقية الهولندية الى المياه الشرقية في اوائل القرن السابع عشر، زاد الامر سوء بالنسبة الى التجارة البرتغالية فخلال العقد الاول من القرن المذكور اختفت التوابل النفيسة من حمولة السفن البرتغالية المتجهة الى اوروبا. وكان الحرير مفقودا من الاساس من تلك الحمولة. وبقي الفلفل ولكنه كان في تناقص مستمر. وأخيرا في عام ١٦٢٨، لم يصل الى لزبن من الفلفل سوى ١٩٨١ كونتال أي ما يقرب من مئتين الف ليبرة، في حين تجاوز الاستهلاك الاوروبي الخمسة ملايين ليبرة في هذا الوقت.

جدول رقم (٢)

تقدير للاستهلاك الاوروبي من السلع الاسيوية الرئيسية حوالي عام ١٦٠٠

السلعة	رأس الرجاء الصالح	طريق القوافل التقليدية	المجموع
الفلفل	٢٠٠٠,٠٠٠ — ١ ليبرة	٤٠٠٠,٠٠٠ — ٣ ليبرة	٥٠٠٠,٠٠٠ ليبرة
أعشاب طبية قشرة جوزة الطيب جوزة الطيب	٦٥٠,٠٠٠ — ٣٥٠,٠٠٠ ليبرة	١,٠٠٠,٠٠٠ — ٧٠٠,٠٠٠ ليبرة	١,٣٥٠,٠٠٠ ليبرة
الانسجة	؟	؟	؟
الحرير الخام	—	٥٠٠,٠٠٠ ليبرة	٥٠٠,٠٠٠ ليبرة

والحديث عن تدهور التجارة البرتغالية مع الشرق تقود للحديث عن السفن. فالتفوق الذي تمتع به البرتغاليون منذ بدايةتقدومهم للحياة الشرقية من حيث عدد السفن وقوتها وكفاءتها والخدمات فيها قد تضاءل خلال القرنين السابع عشر والسادس عشر. وأظهرت السفن البرتغالية عجزا ملحوظا ليس امام السفن الاوروبية فحسب بل أمام السفن الاسيوية ايضا. ويعزى قصور السفن البرتغالية الى أسباب كثيرة:

فربابنة السفن البرتغالية القادمة الى الشرق، لم يشترط فيها الكفاءة الملاحية. حيث كانت وظيفة الربان هبة ملكية تمنح لقاء خدمات معينة يقدمها الشخص أو عائلته الى الملك. والوظيفة محصورة اغلب الاحيان بالفئة الارستقراطية. وهي تباع وتشترى وتؤجر بل وتورث. وعلى هذا الاساس من الممكن أن تنتقل للنساء من زوجات وبنات. وهن يستطيعن بيعها ولكن بموافقة ملكية. وكان هناك عدد من الربابنة اكثر بكثير من عدد السفن الراحلة الى الشرق. وكانت هناك دائما قائمة طويلة بأسماء الاشخاص الذين ينتظرون دورهم أو يتوقعون ان يسعفهم الحظ بقيادة احدى السفن. ومن الناحية النظرية، يختار الملك الاشخاص الملائمين من ذوى الخبرة الملاحية بقيادة سفنه الذاهبة الى آسيا. ومن الناحية العملية كان الامر يختلف، فهناك عوامل كثيرة تتحكم بالاختيار الملكي وقد اختير في بعض الاحيان أشخاص لم يكونوا قد شاهدوا مياه البحر من قبل(٧١).

وكانت الظروف المحيطة باولئك الذين عملوا في تلك السفن من ملاحين وجنود وعاملين آخرين في غاية السوء. فكانوا مكدسين مع السلع التي تحملها السفن. وتفشت أنواع الحمى بينهم. والاصابة بالدسنتري مألوفة وشائعة. ولهذه الاسباب ارتفعت نسبة الوفيات خلال الرحلات. ويفترض ان يكون هناك طبيب لكل سفينة راحلة الى الشرق أو عائدة منه. كما يفترض ان تكون هناك صيدلية تتوفر فيها الادوية الضرورية. وفي الواقع لم يكن هناك شئ من هذا وذاك. ففي كثير من الحالات كان يقوم حلاق جاهل بدور الطبيب ولعل أحسن مثال على ذلك اسطول عام ١٦٣٣ والذي كان يضم أربع سفن وثلاثة الاف جندي. ولم يكن الملك بخيلا بتجهيز الادوية الضرورية للسفن. ولكن الادوية كانت عادة أخذ من قبل المسؤولين وتباع أو تعطى للاصدقاء(٧٢).

وفي الوقت الذي ازدادت فيه السفن البرتغالية ضخامة فان كفاءتها قد تدنت الى حد كبير. وانعكس هذا التدني في الخسائر الكبيرة التي عانت منها السفن البرتغالية والعدد المتناقص لها في التجارة الشرقية ونورد هنا معلومات ذكرها ثلاثة من ابرز المختصين.

ونبدأ بما اورده البروفسور هـ.فوربر H.Furber في هذا الشأن وفي الجدول الذي وضعه لهذا الغرض.

جدول رقم (٣)(٧٣)

عدد السفن التي غادرت لزبن الى كوا خلال

ثلاثة قرون (١٥٠٠ ــ ١٨٠٠)

الفترة الزمنية	عدد السفن
١٥٠٠ ــ ١٥٤٩	٤٥١
١٥٤٩ ــ ١٥٩٩	٢٥٤
١٦٠٠ ــ ١٦٥٠	٢٦٥
١٦٥١ ــ ١٧٠٠	١٠٦
١٧٠٠ ــ ١٧٥٠	١١٢
١٧٥١ ــ ١٨٠٠	٧٠

يعطي البروفسور ستينز كارد معلومات وأرقام لا تقل أهمية. فن مجموع ثلاث وثلاثين سفينة أرسلت من لزبن ١٥٩٠ . ١٥٩٦، رجعت منها ثمان سفن بعد ان اكملت رحلة إعتيادية. وخمس وصلت بعد ان تأخرت سنة. وبقيت أربع سفن في آسيا. ومصير واحدة غير معروف. وأخيرا ست عشر سفينة قد تحطمت أو تم الاستيلاء عليها من قبل خصوم البرتغاليين. انها خسارة تقارب ٥٠٪. بينما كان معدل خلال القرن كله ٢٠٪. وفي الثمانينات من القرن السادس عشر كانت الخسائر تصل ١ الى ٤ وفي التسعينات كانت ٣ الى ٦ وخلال العقدين الاولين من القرن السابع عشر كانت الخسارة ٩ الى ٩. وانت الخسارة في السفن البرتغالية في عام ١٦٢٠ ثلاثة اضعاف الخسارة في الثمانينات من القرن السادس عشروابعة أضعاف الخسارة في التسعينات من القرن المذكور(٧٤).

ونقتبس في هذا المجال ايضا ما يقوله البروفسور ج. بري:

«لم تشهد السنوات الاخيرة من القرن السادس عشر انخفاضا في عدد السفن البرتغالية التي اجتازت رأس الرجاء الصالح، بل شهدت تدهورا وانحطاطا في كفاءتها. فخلال الثمانين سنة ١٥٠٠ ــ ١٥٨٠ اجتازت ٦٢٠ سفينة رأس الرجاء الصالح عادت منها ٣٢٥ سالمة الى البرتغال وبقيت ٢٥٦ في الشرق. وفقدت ٣٩ سفينة.

وخلال الفترة ١٥٨٠ ــ ١٦١٢ ابحرت ١٨٦ سفينة من البرتغال عبر رأس الرجاء الصالح عادت ١٠٠ سفينة منها سالمة الى البرتغال وفقدت ٥٧ سفينة. وبقية ٢٩ سفينة في الشرق. وعلى هذا فان ٩٣٪ من السفن البرتغالية بقيت سالمة خلال الفترة الاولى. أما خلال الفترة الثانية فلم تسلم سوى ٦٩٪ من تلك السفن»(٧٥).

ويقابل هذا التدني في السفن البرتغالية تفوق هائل في السفن الاوروبية الهولندية والانجليزية

منها خاصة، من حيث العدد والكفاءة، ولم يقتصر التقدم في مجال السفن على الاوروبيين المنافسين للبرتغاليين بل حدث بالنسبة للسفن الاسيوية ايضا. ويرى «و.ه.مورلاند W.H.Moreland أنه منذ عام ١٥٠٧ بدأ العرب يبنون سفنا على غرار السفن البرتغالية. والحقيقة ان البوكرك نفسه قد كتب مرة ان الهنود أخذوا يقلدون البرتغاليين في بناء السفن وانهم استفادوا من التقنيات البرتغالية. ولاحظ احد السائحين في عام ١٦٣٨ ثمان سفن هندية في آجة وصفها قائلا: «ان لم تكن للمرء فكرة مسبقة عنها فانه لا يستطيع الا ان يظنها سفن اوروبية»(٧٦) ويعتقد بوكسر ان من عوامل نجاح تجارة آجة وكوجرات مع البحر الاحمر يعود بالدرجة الاولى الى تفوق سفنها وقوتها.

واذا وضعنا السفن وربابنتها جانبا وألقينا نظرة على الجنود البرتغاليين العاملين في الشرق. فربما تكون الصورة هنا اكثر سوءاً فالى جانب المرتزقة الاسيويين واغلبهم من الهنود الذين استخدمهم البرتغاليون. فقد عمدت السلطات البرتغالية الى ارسال أصنافاً من الناس من البرتغال الى الشرق لا يمكن ان يتصور المرء انهم قادرون على اداء أي عمل نافع هناك. فخلال العقود الاخيرة من القرن السادس عشر وخلال القرن التالي لم يرسل الى الشرق في أغلب الاحيان جنود مدربون ومؤهلون. فقد فسح المجال للخياطين والاسكافيين والخدم وعمال الموانئ للانضمام الى صفوف الجنود الذاهبين الى الشرق دون اعداد وتدريب. بل كثيرا ما عمدت الحكومة البرتغالية الى جميع الرجال من الشوارع والحقول بل ومن السجون ايضا لارسالهم الى هناك. ثم انها جندت احداث معتلي الصحة ضعاف البنية لهذا الغرض(٧٧). وكثيرا ما اشتكى نائب الملك في كوا ورئيس الاساقفة فيها من هذا الامر بالذات وغالبا ما ذكرت السلطات في البرتغال بأن مثل اولئك الجنود ينقصهم التدريب ويعوزهم الشعور بالمسؤولية والحماس «وكثيرا ما يتركون صفوف قواتنا ويلتحقون بالاعداء من مسلمين وهندوس عندما تتاح لهم الفرصة لذلك»(٧٨).

لقد صار تدهور وضع البرتغاليين وانحطاط مكانتهم، في النواحي العسكرية والسياسية والملاحية والتجارية واضحا وجليا خلال العقود الاخيرة من القرن السادس عشر. وازداد الامر تفاقما في القرن التالي. وشمل التدهور والانحطاط كافة مناطق تواجدهم كافة مناطق تواجدهم في أرخبيل الملايو وسواحل الهند والخليج العربي والبحر الاحمر وشرق افريقيا. والتفاؤل الذي عبر عنه بعض البرتغاليين في أوائل القرن السادس عشر بشأن مستقبل امبراطوريتهم وعاصمتها كوا لم يتحقق مطلقا. فقد كتب توم برس عام ١٥١٥ معبرا عن توقعاته ما يلي:(٧٩).

تتمتع الدكن بمنزلة تجارية كبيرة. و «دابول Dabhol» ميناء كبيرة فيها، تأمه كثير من السفن، ومعظم الخيول التي تصل الى هذه المملكة تأتي عن طريقه والان وبفضل جهود نائب الملك البرتغالي سوف لا تستطيع مملكة الدكن الاحتفاظ بتلك المنزلة السامية، بل ستفقدها الى الابد. وسوف تكون كوا مؤهلة لانتزاع تلك المنزلة لتصبح اعظم مدينة في العالم.

وعلى النقيض من تلك التوقعات المتفاءلة كانت الامبراطورية البرتغالية في حالةمن الاحتضار

في أواخر القرن المذكور.

والمصادر الاوروبية المعاصرة مليئة بالتقارير والتعقبات والوصف لاوضاع البرتغاليين في الشرق. وفي عام ١٦٢١ ادعى فان دربروك Van der Broecke أحد الهولنديين العاملين في الشرق «ان تجارة البرتغاليين الساحلية مع كوجرات قد اصابها الدمار الكامل»(٨٠).

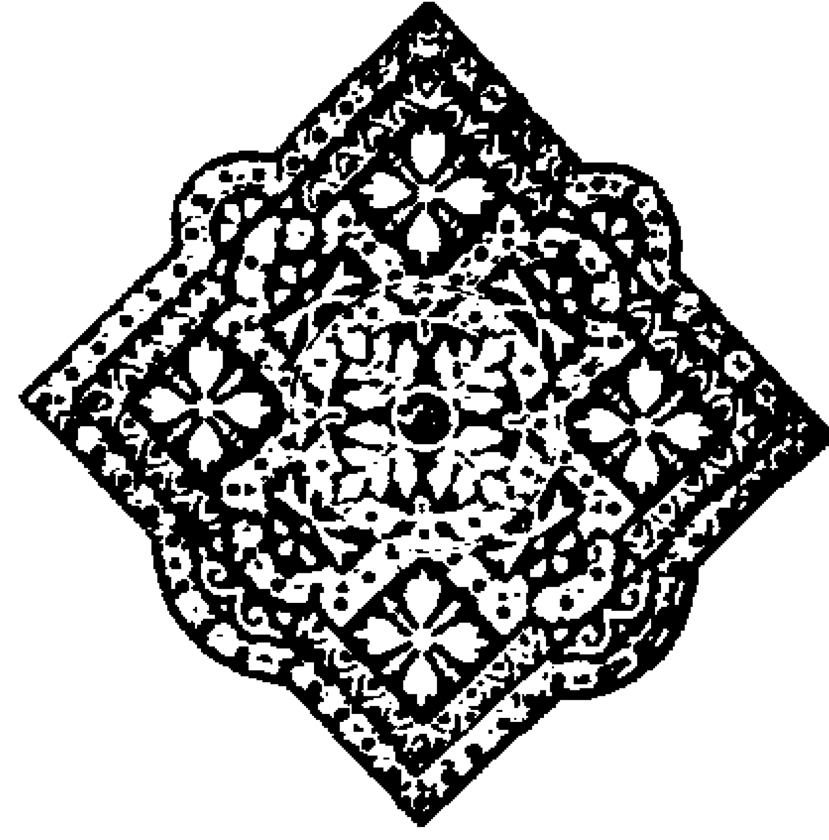
واحتفظ البرتغاليين بسيطرتهم على الخليج العربي ولكنهم تلقوا ضربية مهلكة هنا في عام ١٦٢٢ بسقوط هرمز وهي أهم معاقلهم في المحيط الهندي. ولكن مظاهر انحلالهم وضعفهم كانت واضحة وجلية حتى قيد ذلك السقوط. ففي احد التقارير الانجليزية التي كتبت في عام ١٦١٨ ذكر ان تجارة التوابل البرتغالية لاتكون الا سدس ما كانت عليه قبل سنوات(٨١). ومع ان البرتغاليين قد وطدوا انفسهم على ساحل الكوروماندال، الساحل الجنوبي الشرقي للهند، وقاموا بحمل الانسجة القطنية منه الى أرخبيل الملايو. الأانهم فقدوا هذه التجارة بسرعة بعد وصول الهولنديين والانجليز الى هذه المناطق عند مفتتح القرن السابع عشر.

وتعتبر ملقا من ابرز المواقع التجارية في الشرق كله وهي احد اهم المعاقل البرتغالية ويصفها «رائف فيج» احد السواح الاوروبيين، في أوائل القرن السابع عشر بأنها ميناء كبير يعج بالحركة والنشاط(٨٢). وذكر سائح هولندي آخر ان ثلثمائة سفينة تاتي سنويا الى ملقا. ولكن اغلب هذه السفن وجلة حمولتها تعود الى التجار الهنود وغيرهم من التجار الاسيويين وليس للبرتغاليين منها الا النصيب الضئيل(٨٣). وكتب السير توماس رو Sir Thomas Roe سفير الملك جيمس الاول الى بلاط امبراطور المغول معقبا على وضع المستوطنات البرتغالية في الشرق قائلا: «..على الرغم من امتلاك البرتغاليين لمستوطنات كثيرة وجميلة في الشرق، الا ان النفقات على مؤسساتهم العسكرية قد افقرتهم الى حد كبير، على الرغم من ان حامياتهم ليست بهذه القوة والحصانة»(٨٤). وهناك تقارير كثيرة جدا وصلت الى اوروبا خاصة الى هولندة كتبها الهولنديون الذين كانوا يعملون في خدمة البرتغاليين، وكلها تصف وضع البرتغاليين المتدهور ولعل «جان فان لنجتون Jan Van Linschoten الذي عمل مدة طويلة مع البرتغاليين في كوا هو من ابرز اولئك الهولنديين الذين اعطوا معلومات قيمة ومفصلة عن الاوضاع التي كانت سائدة في المستوطنات البرتغالية في الشرق. وتتلخص معلوماته بشئ واحد هو انحلال الادارة البرتغالية في الشرق بسبب الفساد وسوء الادارة(٨٥).

والخلاصة: لقد كان ذلك وضع البرتغاليين في الشرق عند أوائل القرن السابع عشر. كانوا ضعفاء عسكريا وسياسيا وتجاريا. ومتردين نفسيا ومعنويا. وكان الشرقيون من أرخبيل الملايو شرقا مرورا بالهند الى الخليج العربي والبحر الاحمر غربا يناصبونهم العداء ويضمرون لهم الحقد والكراهية. وعندما جاءت الى الشرق شعوب اوروبية اخرى اكثر حيوية ونشاطا وقوة لتنافس البرتغاليين ولتنتزع ما يمكنها ان تنتزعه منهم وجدت السبيل ممهدا امامها ولم يستطع البرتغاليون الصمود امام التحدي الجديد. وهكذا خسروا أغلب معاقلهم المهمة في أرخبيل الملايو على يد الهولنديين خلال العقد الاول

من القرن السابع عشر. وفقدوا هرمز في الخليج العربي في عام ١٦٢٢. وخسروا ملقا في عام ١٦٤١ وأضاعوا سيلان في عام ١٦٥٦ وكوجين في عام ١٦٦٣.

وتصدى لهم اليعاربة في الخليج العربي ووضعوا نهاية لوجودهم في هذا الجزء من الوطن العربي. فقد انتزعوا منهم الموانئ والمواقع الواحد تلو الآخر وما ان حل القرن الثامن عشر حتى لم يعد لهم وجود مطلقا. ولم يكتف اليعاربة بهذه الانجازات الكبيرة بل تعقبوا البرتغاليين الى سواحل الهند وشرق افريقيا وانزلوا بهم ضربات ما حقة زادت في ضعفهم وانحلالهم(٨٦).



الهوامش

١. التاريخ العام للوجود البرتغالي في آسيا أنظر بشكل خاص:

C.R. Boxer, From Lisbon to Goa 1500 - 1750, London : 1984; Fred.

C. Danvers, The Portuguse in India, 2 vols. London: 1894;

R. S. Whiteway, The Rise of Portuguse Power in India, Westminster ; 1899.

2. K.G. Jayne, Vasco da Gama and His Successors 1460 - 1580, London1 189

3. G. Masseknab, The Cradle of Colonialism, Lonson : 1963, PP. 223 - 24

4. Van Leur, Indonesian Trade and Society, The Hague, 1955, PP. 162 - 65.

5. C. G. F. Simkin, Traditional Trade of Asia, London : 1968. P. 182.

6. Boxer, Op. cit., P. 50.

7. W. H. Moreland, A short History of India, London : 1956. P. 203.

8. J. H. Parry, Europe and A wider world, 1415 - 1715; London : 1905, P. 94.

9. Smikin, Op. cit., PP. 189 -191.

10. Ibid.

11. Sir W. W. Hunter, A Brief History of the Indian Peoples, Oxford : 1907, P. 165.

١٢. ك. م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، ص٢٥.

١٣. نفس المصدر.

14. Jayne, Op. Cit., P.62.

15. Ibid. P. 65.

16. Ibid., 62. والحقيقة انه يشير هنا الى الهندوس الذين ظنهم مسحيين.

17. Parry, Op. Cit., 96.

18. Ibid.

19. Ibid.

20. Ibid.

21. Ibid.

22. Ibid.

23. Ibid.

24. A.Wilson, The Persian Gulf, London: 1959. PP. 10-128.

25. Ibid. 112- 15.

26. Jayne, Op. Cit., p. 65. لمزيد من المعلومات حول هذه القسوة والوحشية التي مارسها البرتغاليون انظر:

Sir W.W.Hunter, History of British India, 2 Vols. London: 1912-19. Vol.1, p.109.

B.Schrieke, Indonesian Sociaiogical Studies,2 Vols. The Hague, 1955-57, Vol.1, p.47.

27. Masselman, Op. Cit., p. 218.

28. Parry, Op. Cit., p.96.

29. Ibid.

30. Ibid.

٣١. للاطلاع على الاوضاع السياسية في شبه القارة الهندية خلال القرن السادس عشر وعلاقة القوى المختلفة بعضها ببعض ومواقف البرتغاليين منها أنظر:

H.H.Dadwell (ed.) The Cambridge History of India, Cambridge: 1929, Hunter, A Brief History of the Indian Peoples, R.C Majumdar and others, An Advanced History of India, London: 1956.

٣٢. استعمل في ثنايا هذا البحث اصطلاحان هما التجارة الاوروبية ـــ الاسيوية والمقصود به التجارة بين هاتين القارتين. والاصطلاح الاخر التجارة الاسيوية أو تجارة آسيا الداخلية والمقصود به التجارة بين الموانئ الاسيوية بعضها ببعض والتي أخذت تعرف خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر باصطلاح خاص هو "Country Trade" وقد عمد الباحث في بحوثه الاخرى الى وضع تعبير عربي هو «تجارة الموانئ الاسيوية» للدلالة على الاصطلاح الانجليزي الآنف الذكر.

33. Van Leur, Op. cit. 118.

34. Ibid.

35. Neils steensgaard, The Asian Trade Revolution of the Seventeenth century, London: 1974.p.84.

36. Ibid.

37. Jayne, Op.cit. 65.

38. Steensgaard, Op. cit., 84.

39. F.C. Lane, Venice in History, Baltiory, Baltimore: 1966. pp. 376-77

40. Masselman, Op.cit, 220.

41. Ibid. 221.

٤٢. للاطلاع على المزيد عن تفسخ وفساد البرتغاليين في الشرق انظر:

Huter, History of British Indis, Vol. 1, PP. 176 - 78 ; Meilink Roelofez, Asian Trade and European Influence In the Indonesian Archipilage between 1500 and about 1630, Hague : 1962, PP. 125 - 28.

43. Steensgaard, Op. cit., 82 - 83.

44. Ibid. 85.

45. J. N. da Fonseca, Historical and Archaeological sketch of the city of Goa, Bombay : 1878, P. 24.
والريال وحدة النقد البرتغالية الرئيسية وهو من الفضة وفي اوائل القرن السادس عشر كان الريال يعادل مارك فضي بزنة ٢٢٩,٥ غرام.

46. W.H.Moreland, From Akbar to Aurangzeb, London: 1923, p.8.

47. Masselman, Op.cit., p. 220.

48. Ibid.

49. C.R. Boxer, From Lisbon to Goa 1500-1750, p.53.

50. Ibid.

50. Ibid.

٥٢. من هؤلاء، وهـ.مولارند W.H.Moreland

من كتابه القيم India at the Death of Akbar London: 1920.p. 218-22

53. Tome Pires, Suma Oriental, London: 1944, p.42.

54. Van Leur, Op.cit., p.

55. Masselman, Op. cit., 218-222.

56. Ibid.

57. C.R.Boxer, Portuguse conquest and Commerce in Sothern Asia, London: 1985, pp. 415-428, Meilink-Roelofez, Op. cit., 134-135.

58. Boxer, Portuguse conquest and Commerce pp. 415-422-

59. Ibid.

الكدنترا Cantra وحدة للوزن تستعمل عادة في الاسكندرية وهي تعادل الكنتال Quintal وهذه وحدة الوزن البرتغالية الرئيسية وتعادل ١١٢ ليبرة انجليزية.

60. Ibid.

61. Ibid.

قارن هذه المعلومات التي اوردها بوكسر والنتائج التي توصل اليها بتلك التي أوردها البروفسور سيتنزكارد والتي يقول فيها «اننا متأكدون من ان البرتغاليين قد احتفظوا بسيطرتهم الفعلية على البحر الاحمر حتى مفتتح القرن السابع عشر، ولكن الامر كان يقتصر على السيطرة لا الحصار» ويتضح مما ذكره بوكسر ان رأي ستيز كارد ليس له أساس من الصحة.

Steensgaard, Op.cit., p. 91.

62. Boxer, Portuguse and Commerce, pp, 415-422.

63. Ibid.

٦٤. والبار وحدة للوزن تساوي ٣,٥ كانتال.

65. Boxer, Portuguse quenquest and Commerce PP. 415 - 422

66. Van Luer, Op. cit., 162 - 165.

67. Lone, Op. cit., P. 170.

.96 - 361 ,.tic .pO ,draagsneetS .68

69. Ibid.

70. Ibid.

71. C. R. Boxer, From Lisbon to Goa, 1500 - 1750, PP. 33 - 82.

72. Ibid.

73. H. Furber, Rival Empires of Trade, Oxford University Press : 1976. PP. 26 - 27.

74. J. H. Parry, Trade and Dominion, New York : 1971, P. 95.

76. Boxer, Portuguse Conquest and Commerce, P. 428.

77. Boxer, From Lisbon to Goa, 1500 - 1750, PP. 49 - 50.

78. Ibid. 50.

79. Tome Pires, Op. cit., PP. 52 - 54.

80. Queted in Simkin, Op. cit., 189.

81. Meilink - Roelofsz, Op. cit., P. 190.

82. Ibid. 172.

83. Ibid. 172.

84. Queted in D. G. E. Hall, History of South East Asia, London : 1964. P. 225.

85. Simkin, Op. cit. PP. 190 - 91.

86. See: J.G.Lorimor, Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Centeral Arabia Vol. 1, Part. 1. S.B. Miles, Countries, Countries and Tribes of the persian Gulf. 2 Vols. London: 1919.

المراجع العربية:

ـ بانيكار، ك.م. آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبد العزيز حامد، القاهرة

المراجع الاجنبية:

- Boxer, C. R. Portuguse Society in the Tropics, Madisson and Milwoukee : 1965.

— The Portuguse Seaborne Empire, 1415 - 1825, London : 1969.

— From Lisbon to Goa 1500 - 1750, London : 1984.

— Portuguse Conquest and Commerce in Southern Asia 1500 - 1750, London : 1985.

— Danvers, F. C. The Portuguse in India, 2 vols. London : 1894.

— Report on the India office Records Relating to Persia and the Persian Gulf, London : 1900.

— Dutt, R. C. The Economic History of India London : 1882.

— Furber, H. Rival Empires of Trade in the Orient 1600 - 1800, Oxford : 1976.

— Hunter, Sir W. W. A Brief History o;f Indian Peoples, Oxford : 1907.

— Hunter, H. H. History of British India, 2 vols. London : 1912 - 1919.

— Jayne, K. G. Vaco De Gama and His Successors 1460 - 1580, London : 1970.

— Lane, Frederick C. , Venice and History, Baltimore : 1966.

— Lorimer, J. G. Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia, Calcutta : 1908.

- Masselman, George, The Cradle of Colomialism, London: 1963.

Meilink, Roelofez, Asian Trade and European Influence in the Indonesian Archipelago, between 1500 and about 1630, Hague: 1962.

- Miles, S.B.Countries and Tribes of the Persian Gulf, 2Vols. London: 1919.

- Moreland,W.H. Indie At the Death of Akbar, London: 1920.

- From Akbar to Aurangzib, london: 1923.

- A short History of India, london: 1962.

- Parry, J.H. Europe and Wider, 1415-1715, London: 1965.

- Trade and Dominion, New York: 1971.

Schrieke, B. Indonesion Sociological Studies, 2Vols. the hague 1955-57.

- Simkin,C.G.F., The Traditional Trade of Asia, London: 1968.

- Steensgaard, Niels, The Aisan Trade Revolution of the seventeenth century, London: 1974.

- Van Leur, J.C. Indonesian trade and Society, Haag-Bandung: 1955.

- Whteway, R.S. The Rise of Portuguse in India, Westminster: 1899.

- Wilson, A.The Persian Gulf, London: 1928.

Wood, A. A History of the Lavant Company, London: 1935.

- Woodruff, William. Inpact of Western Man, London: 1966.



سلطنة مسقط وزنجبار بين الوحدة والانفصال

الدكتور/ جمال زكريا قاسم
استاذ التاريخ الحديث
كلية الاداب ـ جامعة عين شمس

قبل ان نعرض للوحدة السياسية والاقتصادية التي قامت بين عمان وشرق افريقيا على عهد السيد سعيد بن سلطان ١٨٠٦ ـ ١٨٥٦ قد يكون من الضروري ان نركز على اهم مقومات تلك الوحدة والتي تبرز من بينها المقومات البشرية والاقتصادية والجغرافية والدينية ومن المعروف ان عمان ارتبطت بشرق افريقيا على فترات كثيرة من التاريخ حتى ان كثيرامن سكان زنجبار يرجعون باصولهم الى اسرات عربية قديمة ويرجع توثق الروابط بين عمان وشرق افريقيا الى عوامل كثيرة لعل من ابرزها البيئة البحرية المثالية ذات الظهير الطارد التي نشأ فيها العمانيون مما أدى الى تفوقهم في فنون السفر والملاحة وفضلا عن ذلك فقد ساعدت عوامل الجوار والعوامل الجغرافية ونعني بها دورة الرياح الموسمية على تنشيط حركة الملاحة بين الاقليمين ومن خلال رحلات السفر والتجارة تعرف العمانيون على سواحل شرق افريقيا. ومن ثم اخذت هجراتهم تفد الى تلك السواحل. ولعل مما يسترعي النظر في تلك الهجرات ان الذي كان يتزعمها حكام عمانيون اضطرتهم الظروف السياسية والاقتصادية لمغادرة بلادهم واللجوء الى شرق افريقيا(١).

وقد يكون من المفيد الاشارة بصدد ذلك الى هجرة سليمان وسعيد من آل الجلندى الذين تزعما الثورة في عمان ضد الخليفة عبد الملك بن مروان ٦٨٤ . ٧٠٧م وعقب فشل ثوراتهما التجأ ومعهما جموع كثيرة من القبائل الى سواحل شرق افريقيا. كذلك يجدر الاشارة الى الاسرة النبهانية التي هاجر زعيمها سليمان بن مظفر النبهاني في اوائل القرن الثالث عشر الميلادي الى جزيرة بات نتيجة الانهيار الذي تعرضت له الاسرة النبهانية في عمان بسبب ما واجهته من صراعات القوى المنافسة لها من الاباضيين وجماعات الجيود(٢).

وقد استطاعت تلك القوى الاسياسية التي هاجرت من عمان ان تجد ما يدعم مركزها حين وصولها الى سواحل شرق افريقيا من القبائل العمانية التي سبقتها ولذلك كان من السهل أن تظهر العديد من الامارات العربية على طول سواحل شرق افريقيا بدأً من رأس جردفون في الشمال الى خليج دلجادو في الجنوب. وقد وصلت تلك الامارات والممالك العربية الى درجة كبيرة من الازدهار بعد ان تنوعت مصادر ثرواتها واستطاعت ان تمازج بين الحضارة التي نقلتها معها وبين حضارات الساحل الافريقي التي وفدت اليها. وقد شهد الكتاب والرحالة العرب المعاصرون من أمثال المسعودي والادريس وياقوت الحموي بالمستوى العالي الذي بلغته حضارات الساحل الشرقي لافريقيا ولم يكن المصنفون والرحالة العرب وحدهم هم الذين أشادوا بهذا الجانب وانما نجد ذلك ايضا في سجلات الرحالة البرتغاليين أنفسهم نشير من بينهم الى دورات باربوسا وكاستنهيدا وجونز وغيرهم كثيرون(٣). وقد توثقت الصلات والروابط بين العمانيين وسكان الساحل الشرقي بسبب المعاملات التجارية التي نشطت نشاطا كبيرا بين الاقليمين وبسبب الامتزاج العرقي الذي حدث نتيجة عمليات الاستيطان العربي على سواحل شرق افريقيا واستمرت الروابط والصلات تقوى بين الاقليمين حتى أتى البرتغاليون بسياستهم الاحتكارية وسيطرتهم العسكرية التي كان لها اثر كبير في قصم الروابط بينهما بسبب ما ترتب على الاساليب البرتغالية من وقف المعاملات التجارية بين عرب الخليج والساحل الشرقي لافريقيا حيث انقطعت نتيجة ذلك الصلة بين مقاطعات الساحل الشرقي لافريقيا وبين وطنها الام الذي كان يمدها دوما بأفواج كثيرة العدد من المهجرات العربية. وقد استمر ذلك الوضع قائما ما يقرب من قرن ونصف قرن من الزمان حتى بدأت الامبراطورية البرتغالية في الشرق تعاني عوامل التصدع والانهيار مما افسح المجال لدولة اليعاربة وهي الدولة الناشئة في عمان لتجميع القوى العربية في الخليج لمقاومة البرتغاليين وكان للنجاح الذي احرزه اليعاربة في طرد البرتغاليين من قلاعهم الحصينة في مسقط سببا في تطلع الجماعات العربية والاسلامية في شرق افريقيا اليهم خاصة بعد ان قام اليعاربة بتكوين اسطول بحري قوى كان كفؤاً لمواجهة البحرية البرتغالية في الخليج العربي وشرق افريقيا بل وتتبع البرتغاليين في قواعدهم على سواحل الهند.

وبفضل الانتصار الكبير الذي حققه اليعاربة على البرتغاليين والذي وصل الى تحطيم اهم القلاع البرتغالية في شرق افريقيا وهي قلعة المسيح في ممباسة في عام ١٦٩٨ عادت الصلات بين عمان وسواحل شرق افريقيا تستأنف مسيرتها من جديد واستطاع اليعاربة نتيجة تحريرهم لمعظم مقاطعات الشرق الافريقي من الاستعمار البرتغالي ان يفرضوا سيادتهم على تلك المقاطعات حيث بدأ لاول مرة في التاريخ الحديث ظهور وحدة سياسية بين عمان وشرق افريقيا(٤). ومع ذلك فان اهم ما يلاحظ على تلك الوحدة انها كانت وحدة إسمية اكثر منها وحدة فعلية، ويرجع ذلك في تقديرنا الى ان دولة اليعاربة وهي دولة قامت على أساس الامامة الاباضية كانت تعنى في الدرجة الاولى بتدعيم مركزها في المقاطعات الداخلية من عمان. كما ان المشكلات الداخلية والخارجية التي

واجهتها الدولة من تنافس حول الحكم أو في استمرار المواجهة البرتغالية والفارسية كانت من اهم العوامل التي جعلت سيادتها على شرق افريقيا سيادة اسمية اكثر منها سيادة فعلية وكان ذلك مما دفع الاسرة العمانية التي هاجرت الى شرق افريقيا ان تمارس في ظل تلك السيادة الشكلية استقلالا عن التبعية العمانية. ولعل هذه المشكلة كانت من ابرز المشاكل السياسية التي واجهت دولة البوسعيد وهي الدولة التي خلفت اليعاربة في الحكم عام ١٧٤١. وكان اتجاه الحكام الاول لتلك الدولة الى مواجهة الحركات الانفصالية في شرق افريقيا بالقدر الذي سمحت به ظروفهم بعد ان استنفذت جهودهم الى حد كبير في استمرار صراعهم ضد الفرس من ناحية فضلا عن وقوع المناطق الساحلية من بلادهم في حلبة التنافس الانجليزي الفرنسي في نهاية القرن الثامن عشر والسنوات الاولى من القرن التاسع عشر وقد استمر ذلك الوضع قائما الى أن وصل السيد سعيد الى الحكم في مسقط عام ١٨٠٦ واخذ يختط سياسة افريقية واضحة المعالم. وعلى الرغم مما ذهب اليه كثير من الباحثين ان اتجاه السيد سعيد الى الشرق الافريقي كان محاولة منه للتخلص من المشكلات التي كان يواجهها في عمان والخليج العربي على حد سواء كانت تلك المشكلات ناتجة عن ضغوط داخلية كصراعه مع القواسم والسعوديين والعتوب أو خارجية ممثلة في استمرار الضغوط البريطانية الا اننا لا نتفق تماما مع هذا الرأي لان اتجاه السيد سعيد الى الشرق الافريقي لم يكن ليبعده عن المشكلات العمانية التي كان يفرغ لها جزءا كبيرا من جهده ووقته حتى انه رغم اقامته الرسمية في زنجبار الا انه كان حريصا على التردد في اوقات كثيرة على مركز حكمه الاول في عمان وظل مواظبا على رعاية شئونه حتى نهاية حكمه حتى انه مات على ظهر سفينته في عام ١٨٥٦ خلال رحلة عودته الاخيرة من مسقط الى زنجبار(٥).

وعلى الرغم من حرص السيد سعيد على ممتلكاته في عمان الا انه اكثر ادراكا لمن سبقه من الحكام الى اهمية الممتلكات التي آلت اليه في شرق افريقيا بسبب كثرة موارد الثروة بها وزيادة فرص استغلالها وظهر ذلك واضحا في نقله لعاصمة حكمه من مسقط الى زنجبار وفيما يبدو ان الظروف السياسية الجديدة التي آلت اليها الدولة العمانية لم تكن لتضطره كما اضطرت أسلافه من قبل على البقاء في اقليم عمان بطابعه التقليدي وذلك بعد ان ارسى دعائم الحكم الدنيوي بعلاقاته الخارجية مع الدول الاجنبية وبالتنظيمات الادارية والاقتصادية التي ادخلها في البلاد وان ظل مع ذلك حريصا طوال حكمه على الاحتفاظ بلقب الامام الى جانب لقبه كسلطان على مسقط وزنجبار وقد بدأ السيد سعيد جهوده في شرق افريقيا بالتخلص من نفوذ منافسيه آل المزروعي في ممباسة وساعده على ذلك ما تعرضت له تلك الاسرة من تفكك نتيجة صراعها حول السلطة حيث التجأ بعض الزعماء المتنافسين اليه لتدعيم نفوذهم وتمكن السيد سعيد في عام ١٨٣٧ من الاستيلاء على حصون ممباسة وقلاعها وجعل من نفسه السيد الذي لامنازع له على طول الساحل الشرقي لافريقيا(٦) وقد دفعه ذلك الى اختيار جزيرة زنجبار لتكون مركزا لحكمه وهناك من الباحثين من يعلل ذلك التحول في مركز الحكم من مسقط الى زنجبار بالظروف الجغرافية والاقتصادية باعتبار زنجبار مركزا وسيطا للتجارة

وعمليات التبادل التجاري وما تتمتع به من موانى صالحة لرسو السفن(٧) بينما يعلل باحثون آخرون ذلك التحول بالظروف السياسية إذ انه في السنوات السابقة لنقل مركز حكمه من مسقط الى زنجبار كان يعاني الكثير من المضايقات السياسية والمتاعب الاسرية ولذلك فمن المحتمل ان يكون السيد سعيد لجأ الى تلك الجزيرة الصغيرة الواقعة على مسافة بعيدة من ممتلكاته الرئيسية في عمان لكي يبتعد عن عناء الثورات والاضطرابات التي كانت كثيرا ما تواجهه في عمان. وفي تقديرنا ان الدوافع الاقتصادية كانت هي الدوافع الرئيسية التي دفعته للاهتمام بممتلكاته في شرق افريقيا اذ حرص عند انتقاله الى زنجبار على ان يصطحب معه كبار التجار العرب والهنود كما وفدت معه ايضا العديد من القبائل العمانية فازدهرت التجارة وانتعشت بقدومهم وبينما كان نشاط الهنود يقتصر على الساحل كان التجار العمانيون يتوغلون في المناطق الداخلية من شرق افريقيا وقاموا بتأسيس المحطات والمراكز التجارية التي اصبحت تشع قدرا كبيرا من النفوذ للسلطنة العربية في زنجبار حتى لقد اشتهر المثل السواحيلي القائل عندما يلعب احد على المزمار في زنجبار يرقص الناس طربا على البحيرات(٨). وقد اسهمت تلك الجماعات العربية في نشر الاسلام والحضارة العربية بين القبائل الافريقية الخالصة(٩)

ولم تكن التجارة هي المصدر الرئيسي لدخل السلطنة العربية في زنجبار وانما اضيف الى ذلك مصدر آخر تمثل في تشجيع السيد سعيد على زراعة قصب السكر والقرنفل وذلك باستغلاله خصوبة بعض المقاطعات الافريقية وعلى الاخص جزيرتي بمبا وزنجبار حتى ان هاتين الجزيرتين لا تزالان تمدان العالم بالقسط الاعظم من استهلاكه من القرنفل حتى وقتنا الحاضر(١٠). ولم يقتصر الامر على انعاش الاقتصاد الداخلي، بل امتد الى التعامل اقتصاديا مع الدول الاجنبية ومن بينها الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وبعض الولايات الالمانية التي كانت مشتركة في اتحاد الهانسا. ورغم الطابع الاقتصادي الذي تميزت به المعاهدات التي عقدت بين سلطنة مسقط وزنجبار وبين تلك القوى الخارجية الا ان التدخل الاقتصادي والامتيازات الاجنبية التي حصلت عليها تلك القوى كان يعد تمهيدا للتدخل السياسي السافر الذي حققته كل من المانيا وانجلترا وفرنسا في ممتلكات السلطنة العربية في شرق افريقيا. ويمكننا ان نضيف الى التدخل الاقتصادي الاجنبي نشاط البعثات الكشفية والتبشيرية، ويعترف كثير من المبشرين والمستكشفين انهم لاقوا عناية كبيرة من حكام السلطنة العربية في زنجبار، كما استفادوا فائدة كبيرة بما اوجده التجار العمانيون من مراكز تجارية في المقاطعات الداخلية من شرق افريقيا. واذا ما تعرضنا لتلك البعثات الاوروبية التي اتخذت شكل غزو تبشيري واستكشافي وما سبق ذلك من نشاط اقتصادي للدول الاجنبية امكننا ان ندرك مقدار الخطر الذي كان يتربص بممتلكات السلطنة العربية في زنجبار، يضاف الى ذلك انه كان من الصعب الابقاء على دولة عربية في شرق افريقيا في القرن التاسع عشر اذ ان ذلك القرن شهد تفوق قوة اوروبا العسكرية والصناعية. وشهد هذا الرتل الطويل من المستكشفين والرواد والمبشرين

والتجار الاوروبيين الذين انتهوا الى حقيقة مفادها ان هنالك مناطق في افريقيا صالحة للاستغلال، وانها قارة جديرة بالامتلاك والسيطرة.

ويمكن القول ان الدولة العمانية في شرق افريقياعاصرتالموجةالامبريالية، وكان ذلك من اهم اسباب انهيار تلك الدولة. وهكذا اثبتت الاحداث التي مرت بها سلطنة مسقط وزنجبار استحالة استمرار الوحدة فيما بينها رغم ما كان يربط الاقاليم العمانية والافريقية من روابط بشرية وسياسية ودينية واقتصادية، واذا كنا نحمل الاطماع الاجنبية مسئولية تفكك الدولة فلا ينبغي ان نتغافل في نفس الوقت عن عوامل الانفصال الداخلية التي كانت تدب في كل من الاقليمين، ولعل السيد سعيد كان اول من ادرك بنفسه صعوبة الاحتفاظ بممتلكاته العربية والافريقية، فان بقاءه في زنجبار كان يعني الفوضى والاضطراب في عمان، كما ان بقاءه في عمان لن يكون متمشيا مع اهدافه في تحقيق الوحدة السياسية والاقتصادية بين الاقليمين. وعلى الرغم من محاولاته العديدة للسيطرة على اقليمي السلطنة الا ان التوازن كان يختل منه في كثير من الاحيان ولذلك لم يشأ ان يترك الحكم دون ان يصل الى حل يطمئن به على مصير ممتلكاته العربية والافريقية ولعله آثر توزيع تلك الممتلكات بين ابنائه مقدرا ان بقاء اقاليم الدولة من آسيوية وافريقية خاضعة لابنائه حتى في حالة انفصالها خير من ان يحدث الانفصال على ايدي قوم غرباء عن اسرته أو معادين لها وهو امر لم يكن بعيداً عن الاحتمال(١١). ويروي لنا البريجادير كوجلان المقيم البريطاني في عدن ان السيد سعيد كتب رسالة الى اللورد ابردين رئيس الحكومة البريطانية في عام ١٨٤٤ جاء فيها «عند وفاتنا استقر التنظيم الذي وضعناه لدولتنا على تعيين ابننا السيد خالد حاكما على ممتلكاتنا الافريقية والسيد ثويني حاكما على جميع ممتلكاتنا في عمان والخليج العربي». ومما يستلفت الانتباه انه على الرغم من ان السيد خالد توفي في عام ١٨٥٤ في حياة ابيه، الا ان السيد سعيد لم يوصى بتعيين ابنه الاخر السيد ماجد حاكما على زنجبار، ولعله اكتفى بانه كان يقوم بالحكم في زنجبار في السنوات الاخيرة من حياته(١٢). ولذلك لم يجد القنصل البريطاني في زنجبار اتكنز هامرتون عند وفاة السيد سعيد صعوبة في ان يحصل السيد ماجد على مبايعته بالحكم في زنجبار وذلك في الوقت الذي كان فيه السيد ثويني يمارس الحكم في عمان باستثناء اقليم صحار الذي سيطر عليه السيد تركي بن سعيد في حياة ابيه منذ عام ١٨٣٩.

وعلى الرغم من تلك الصورة المفككة التي آلت اليها سلطنة زنجبار بعد وفاة السيد سعيد الا ان السيد ثويني وهو اكبر ابنائه حاول الابقاء على وحدة اقاليم الدولة، وفيما يبدو انه لم يكن مقتنعا بالنصيب الذي حصل عليه من ارث ابيه ولذلك سعى للقضاء على فكرة التقسيم مؤكداً في ادعاءاته انه هو الذي ينبغي ان تؤول اليه شرعا ممتلكات الدولة كلها باعتباره الابن الاكبر وان أباه عندما أوصى بتعيين احد ابنائه حاكما على مسقط والاخر حاكما على زنجبار كان يعني بذلك توزيع الادرة وليس تقسيم الدولة نفسها(١٣).

ولعل مما سيترعي الانتباه انه على الرغم من ان الازمة الناشبة كانت تعد بكل المقاييس من

قبيل الازمات الداخلية الا ان النزاع لم يقتصر على ابناء السيد سعيد، وانما تدخلت فيه بريطانيا وفرنسا، وهما الدولتان الطامعتان في ممتلكات السلطنة العربية الافريقية. اذ اعتبرت بريطانيا نشوب صراع مسلح بين ثويني وماجد بمثابة تهديد لمصالحها الامبراطورية في الجزء الغربي من المحيط الهندي في الوقت الذي رأت فيه فرنسا ان مساندتها للسيد ثويني سيؤدي الى توطيد نفوذها في سواحل شرق افريقيا بينما كانت بريطانيا ترى ان تقسيم السلطنة امر يتمشى مع مصلحتها في الا تقوم دولة محلية كبيرة في طرق مواصلاتها الى الهند ولذلك رأت في تقسيم السلطنة وسيلة لكي تجعل من كل قسم وحدة سياسية في حاجة الى حمايتها ومساندتها.

وبينما ظلت فرنسا تراقب تطورات الازمة اسرع نائب الملك في الهند اللورد كاتنج بايفاد بعثة الى كل من مسقط وزنجبار يكون هدفها التحقيق في اسباب النزاع القائم بين البلدين، وقد رأس هذه البعثة البريجادير كوجلان المقيم السياسي البريطاني في عدن، وكان من ابرز اعضائها الدكتور بوسي بادجر الذي يعد من ابرز الباحثين الثقاة في تاريخ عمان وشرق افريقيا(١٤). وقد اكدت البعثة في تقريرها الذي قدمته الى حكومة الهند انه ليس هناك مبررا لمطالبة السيد ثويني بالسيادة على ممتلكات اخيه السيد ماجد في زنجبار، واقترحت ان يبقى كل منهما سلطانا في اقليمه وانه من غير المنطق ان تكون زنجبار وغيرها من مقاطعات الشرق الافريقي من توابع مسقط بعد ان فاقت في اهميتها الاقتصادية والحضارية الاقاليم العمانية ذاتها(١٥). وبناء على تقرير البعثة اصدر اللورد كاتنج تحكيمه المشهور الذي كان يقضي بفصل زنجبار عن مسقط وقيام سلطنتين مستقلتين، وقضى قرار التحكيم ان يدفع سلطان زنجبار سنويا الى سلطان مسقط ٤٠,٠٠٠ الف ريال على الايعني دفع ذلك المبلغ اية تبعية من جانب زنجبار لمسقط، وانما لتحقيق المساواة بين الميراثين(١٦)، ولاشك ان ذلك التحكيم كان يعد مثالا صارخا للضغوط التي مارستها بريطانيا على كل من سلطنتي مسقط وزنجبار، اذ لم يكن يستند الى اسس قانونية، وقد عنى كثير من الباحثين بتحليل شروط التحكيم ومخالفتها للقانون الدولي، وتجدر الاشارة بصدد ذلك الى فيروز قاجار الذي يؤكد ان اللورد كاتنج لم يصدر قراره الخاص بتقسيم سلطنة مسقط وزنجبار الى سلطنتين منفصلتين بناء على تحكيم فعلي، وانما كانهذا هو رأيه الخاص بضرورة تقسيم السلطنة قبل ان تفوض اليه الحكومة البريطانية امر التحكيم(١٧).

ولعل ما تجدر الاشارة اليه ان بريطانيا استطاعت بجهودها الدبلوماسية تعزيز ذلك الانفصال وذلك باشراك فرنسا في الاعتراف بالوضع الجديد.

وصدر نتيجة لذلك تصريح انجليزي فرنسي مشترك في عام ١٨٦٢ اعلنت فيه الدولتان استقلال كل من سلطنة مسقط وزنجبار، وقررت حكومة الهند منح كل من الحاكمين لقب سلطان(١٨). على ان ما يثير الانتباه ان التصريح المشترك لم يكن يستهدف سلطنة مسقط، وانما كان يستهدف سلطنة زنجبار، اما السبب في ان ذلك التصريح شمل السلطنتين فيرجع الى حدوث خطأ كتابي اثناء تبادل لاقتراحات بين الدولتين، وقد نتج ذلك الخطأ من اعتبار سلطان زنجبار سلطانا على مسقط، كما لو لم تكن قد حدثت تجزئة في ممتلكاته، ومن ثم صدر التصريح وهو لا يقتصر على اعلان استقلال سلطنة

زنجبار فقط وانما يعلن احترام استقلال سلطنة مسقط ايضا وهو امر لم تثره الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت، ومما يذكر ان تلك الملابسات قد ادت الى تعقيدات سياسية امام بريطانيا حيث ظلت فرنسا تعتبر ان مركزها في مسقط مساو لمركز بريطانيا في تلك السلطنة(١٩).

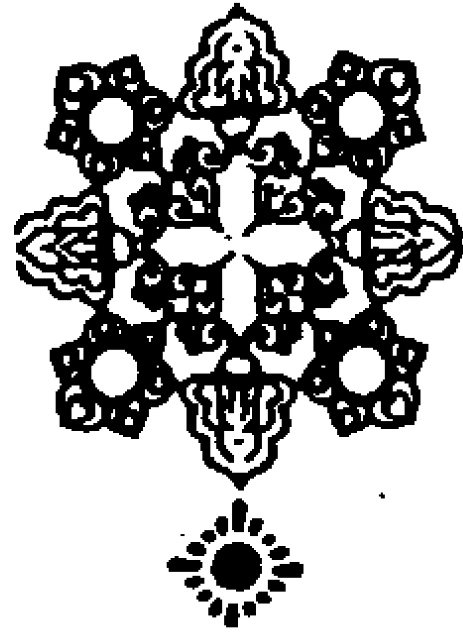
وعلى الرغم من الانفصال الذي حدث بين مسقط وزنجبار نتيجة تحكيم كاتنج وصدور التصريح الفرنسي البريطاني المشترك وقرار حكومة الهند بمنح كل من حاكم مسقط وزنجبار لقب سلطان(٢٠) الا ان اعادة الوحدة بين عمان وزنجبار ظل هو الشغل الشاغل لكثير من السلاطين الذين تعاقبوا على الحكم في عمان، ومن ثم حرصت بريطانيا على تفكيك الروابط القائمة بين السلطنتين، وقد بدأ الامر بالقضاء على الروابط المادية على اثر عقدها معاهدة ١٨٧٣ مع سلطان زنجبار والتي ترتب عليها الغاء تجارة الرقيق في شرق افريقيا، ولما كان ذلك الالغاء قد أثر على موارد سلطنة زنجبار، فقد تولت بريطانيا على عاتقها دفع المعونة السنوية لسلطنة مسقط(٢١)، وعلى الرغم من ان العلاقات التجارية ظلت قائمة بين السلطنتين الا ان ما يلاحظ على تلك العلاقات اقتصارها على التجارة التقليدية وذلك بعد ان فقدت سلطنة مسقط معظم اسطولها البحري الذي كان راسياً بالصدفة في موانئ الشرق الافريقي.

وحتى ذلك النشاط المحدود لم يعد يسلم من مصادرة بريطانيا للسفن العربية وتفتيشها بحجة منع القراصنة وتجارة السلاح والرقيق، وكان قيام بريطانيا بتفتيش السفن قد تقرر لها بموجب عقدها للمعاهدات الخاصة بذلك مع القوى العربية والاجنبية وذلك باستثناء فرنسا التي عارضت بريطانيا في ممارسة التفتيش البحري. ومن ناحية اخرى فقد ترتب على استخدام الوسائل الملاحية الحديثة، ونعني بذلك استخدام البخار في الملاحة البحرية الى تدهور ملحوظ في الانشطة التجارية والملاحية القديمة. وسرعان ما اكتشف ابناء الخليج ان السفن التجارية انما جاءت لتقضي على تجارة النقل والاسفار التي كانوا يزاولونها، وترتب على ضعف الاتصالات بين موانئ الخليج العربي وموانئ الساحل الشرقي لافريقيا الى فقدان المقاطعات الافريقية شيئا فشيئا لمقوماتها العربية في الوقت الذي اخذت فيه تخضع فيه للتأثيرات الاستعمارية، كما اخذ الطابع الافريقي يغلب على السلطنة العربية في زنجبار نتيجة انقطاع صلاتها بالوطن الام في عمان. ومن ناحية اخرى فقد عمد الانجليز خلال سيطرتهم الاستعمارية على مقاطعات الشرق الافريقي الى تقسيم فئات السكان الى افريقيين وشيرازيين وعرب وكومور ورغم ان الجميع يعتنقون الدين الاسلامي، ولا توجد فوارق قانونية أو لونية بين هذه الاجناس والطوائف الا ان الادارة الانجليزية في زنجبار استندت في التقسيم الى الانتساب القبائلي(٢٢)، وكان من السهل تحديد العرب الذين ينتمون الى قبائل عربية خاصة وان هذه القبائل كانت تتشكل من اسر حققت شيئا كبيرا من النفوذ والثروة نتيجة اشتغالها بالتجارة وقيامها بزراعة مساحات واسعة من الاراضي ومن ثم اصبح العرب ينتمون الى الطبقة الارستقراطية مما اثار عليهم حقد العناصر الاخرى. ورغم ذلك فقد ظلت الجالية العربية في زنجبار لها وزنها السياسي والاقتصادي بل كان لها دور في الحركة الوطنية التي قامت في شرق افريقيا في اعقاب الحرب

العالمية الثانية.. حيث بدأ العمل السياسي في زنجبار بقيادة المثقفين من ذوي الاصول العزبية، وردا على ذلك اتجهت الادارة البريطانية في زنجبار الى مساندة الحزب الافرو شيرازي وذلك على اعتبار ان الشيرازيين قد اصبحوا افارقة وعلى جميع الافارقة في زنجبار ان يتحدوا في جبهة واحدة ضد الاقليات الاخرى وخاصة العرب حتى لا يعود حكم البلاد اليهم كما كان الحال في القرن الماضي(٢٣). ومما تجدر الاشارة اليه ان حزب الاتحاد الافروشيرازي كان له دور في المذابح العنيفة التي تعرض لها العرب في زنجبار في عام ١٩٦٤ حين سقطت السلطنة العربية واعلن قيام الجمهورية، وفر آلاف من العرب الى مواطنهم الاولى في عمان والخليج العربي(٢٤).

بقي أن نؤكد في خاتمة دراستنا هذه الى انه اذا كان الاستعمار الاوروبي قد نجح الى حد كبير في فصم الروابط السياسية والاقتصادية والثقافية بين الخليج العربي وشرق افريقيا فانه يتحتم على الدارسين العرب والافارقة ان يبذلوا مزيدا من الجهد لازالة رواسب الاستعمار الثقافي ومن ابرز مظاهر تشويه تاريخ العلاقات بين الخليج العربي وشرق افريقيا، ويظهر هذا التشويه بصورة جليلة في التجاهل المتعمد لما شهدته سواحل شرق افريقيا ودواخلها من ازدهار حضاري واقتصادي والتأكيد على ان النشاط العربي في شرق افريقيا كان مثابة غزو استعماري استهدف في الدرجة الاولى عمليات التسلط والاستغلال.

وليس من شك في ان ازالة تلك الرواسب سوف تجعل من تاريخ العرب في شرق افريقيا سبيلا للتقارب وليس للتباعد بين العرب والافارقة خاصة بعد ان ظفرت دول الخليج العربي ودول شرق افريقيا باستقلالها السياسي واصبحت في حاجة ملحة لتوثيق التعاون فيما بينها على مختلف المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية بما يحقق مصالح كل منها(٢٥).



الهوامش

١. د. جمال زكريا قاسم: اثر الاستعمار الاوروبي في تفكيك الروابط بين الخليج العربي وشرق افريقيا، من مجموعة أعمال مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، المجلد الثاني، ص٧٩٨ ــ ٧٩٩، الدوحة ١٩٧٦.

٢. لمزيد من التفصلات عن الهجرات العمانية الى سواحل شرق افريقيا راجع دراستنا عن استقرار العرب في ساحل شرق افريقيا العدد العاشر، من حوليات كلية الاداب جامعة عين شمس ١٩٦٥، وكذلك كتابنا الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية، ص٤٧ وما بعدها، القاهرة ١٩٧٥.

٣. ل. هـ. هو لنجزورث: زنجبار ١٨٩٠ ــ ١٩١٣ ترجمة وتعليق د. حسن حبش، راجع المقدمة، ص١ ــ ٢، القاهرة ١٩٦٨.

٤. Guillain, ch. Documents Sur L'Histoire, G'eographie et le Counmerce de l'AFrique Orientale- CF tome I Expose critique de diverses notion a Cquises Sur L'AFrique Cerientale P. 520FF Paris, 1856

٥. توفي السيد سعيد بن سلطان في البحر اثناء عودته الى زنجبار بعد حروبه مع فارس وتفقده لشئون ممتلكاته في عمان وكانت الحرب العمانية الفارسية قد قامت في ذلك الوقت بسبب الخلاف بين البلدين على موانئ وجزد الساحل الشرقي من الخليج التي كانت خاضعة للادارة العمانية. راجع بصدد ذلك السالمي: تحفة الاعيان بسيرة آل عمان، ج٢، ص٢١٦.

٦. قامت اسرة المزروعي في ممباسة في عام ١٧٣٩ كنائبه عن اليعاربة في الحكم واستمرت مضطلعة بشئون الحكم حتى سقوطها في عام ١٨٣٧ أي انها حكمت قرابة قرن من الزمان انظر:

Krapf, Lewis, Travels, Research and Missionars during an evghteen residence in Easteru AFrica PP. 536-537 London 1860 see also Pearce, S, Zanzibar The gsland Metropolis of Eastern AFrica P.117 London 1920

٧. Coupland, Sir Reignald, East AFrica and It's Invaders From the earliest tiwes to the Death of Seyyid Said P. 245. London, 1938.

٨. Pearce, S, Op. Cit P. 113.

٩. جمال زكريا قاسم: الدولة العمانية في شرق افريقيا راجع المجلد الثالث من مجموعة أعمال ندوة الدراسات العمانية ص ٧٨ نشر وزارة الثقافة والتراث القومي سلطنة عمان.

١٠. نقل العمانيون زراعة القرنفل من جزيرة موريس الى شرق افريقيا وكان الفرنسيون أول من ادخلوها في تلك الجزيرة، انظر:

Ruete, R.S, Said Bin Sultan PP. 73-74 London 1939 see also Couplaud R., Exploition ul East AFrica P.4

١١. جمال زكريا قاسم: دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا ص ٢٥٤ وما بعدها.

١٢. راجع تقرير البريجادير كوجلان المقيم السياسي البريطاني في عدن وهو تقرير يبحث في اصول النزاع بين مسقط وزنجبار، ويذكر هامرتون القنصل البريطاني في زنجبار ان السيد سعيد كتب هذه الرسالة الى الحكومة البريطانية لكي يعتمد على تأييدها في تنفيذ وصيته، انظر:

Coupland, Sir Reigrald, Exploitaton of East AFrica P. 26.

Ructe, Emily, Me moire d'une Princesse Arabe P. 97

١٣. Coupland, R., Exploi tation ab East AFrica P.15
انظر ايضا: جمال زكريا قاسم: دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا ص ٢٦٠.

١٤. من المفيد الاشارة في هذا المجال الى ان الدكتور بادجر قد استطاع ان يحصل اثناء مهمته في مسقط على مخطوطة حميد بن رزيق وذلك على سبيل الاهداء من السيد ثويني بن سعيد، وقد قام بادجر بترجمة المخطوطة ونشرها باللغة الانجليزية في مقدمة وتحليل امتد بها الى عام ١٨٧٠، ولا تزال المخطوطة مودوعة بقسم المخطوطات بمكتبة المتحف البريطاني في لندن. وقد قامت وزارة التراث القومي بسلطنة عمان بتحقيق تلك المخطوطة.

١٥. Badger, Percy, History of the Imaus and Seyyids of Oman by Salil Bin Razik Translated From the Orignal Arabic and edited with appendices and Introduction Contnuing the listory down to 1870 P XCIX, London 1871.

١٦. Aitcuison, Cu, ALollection Treaties, Enqagencnts and Sands relating to India and Neighbouring Countries Yol XII P. 225 CF letter From lord Canning to His Highness Sayed Thouynee Bin Said, Calcutta, 1892

١٧. Kajare, Firouz, le Sultanate d'oman et to Duestion de Maskate, Etude d'Histoire diplomatique et de droit International, P. 124 Paris, 1905

١٨. راجع نص التصريح الانجليزي الفرنسي في مجموعة ايتشيون/ المجلد الثاني عشر، من مسقط، ص٧٣٢.

١٩. جمال زكريا قاسم: دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا ص ٢٦٨.

٢٠. جمال زكريا قاسم: الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ص ٢١٧.

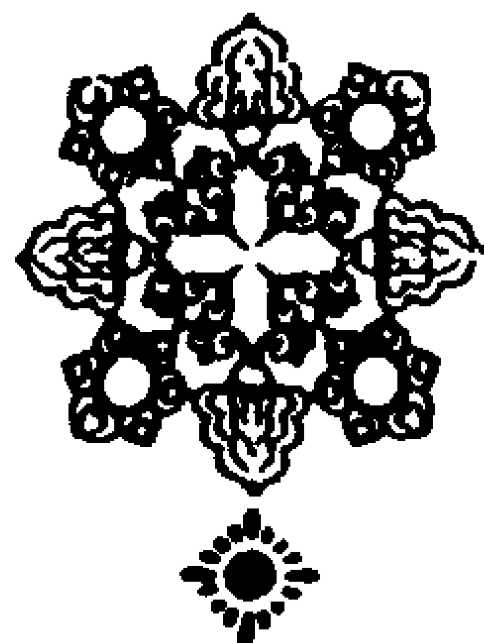
٢١. ج. ج. لوريمر: دليل الخليج، المجلد الثاني، القسم التاريخي ص ١٦٧، الدوحة ١٩٦٧.

٢٢. ل. هـ هولنجزورث_ زنجبار ١٨٩٠ _ ١٩١٣ (مترجم) ص ص٢٤٥ _ ٢٤٦.

٢٣. عبد القادر زبادية: دور العرب الخلجيين في نشأة وتطور الحركو الوطنية في زنجبار ١٩٤٩ _ ١٩٥٦، من اعمال مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، المجلد الثاني، ص ٧٧٣، الدوحة، ٢١ _ ٢٨ مارس ١٩٧٦.

٢٤. ل. هـ هولنجزورث: زنجبار ١٨٩٠ _ ١٩١٣، انظر تعليق الدكتور عبد الملك عودة، زنجبار من الحماية الى الاستقلال والوحدة ص٢٥١.

٢٥. جمال زكريا قاسم: تاريخ العرب في افريقيا، سبيل للتقارب ام التباعد، من اعمال ندوة العرب في افريقيا، جامعة القاهرة، ابريل ١٩٨٧.



الصراع البحري العماني ـــ البرتغالي في البحار الشرقية ١٦٥٠ ـــ ١٧٢٠

غانم محمد رميض
معهد البحوث والدراسات العربية
بغداد

نجحت دولة اليعاربة بفضل قوتها البحرية الناشئة في مد نفوذها عبر البحار، كما استطاعت ان تحول هذه القوة البحرية الى جسر يربطها بسائر مناطق امتداد دولتهم في الخليج وشرق افريقيا من جهة أخرى. ولما كانت دولة اليعاربة قد نجحت في تحدي الوجود البرتغالي في الخليج العربي، فقد دفعها هذا النجاح الى تعقب البرتغاليين في مناطق كان لعرب الخليج والعمانيين بالذات، نفوذ قوى فيها منذ وقت طويل(١)، وان جذورهم لم تكن قد تقطعت بعد، مما كان باعثا لهم في تخليصها من سيطرة البرتغاليين(٢).

ان طرد البرتغاليين من الساحل العماني كان تمهيداً لحرب بحرية دامت نحو قرن أو اكثر، اغار فيها العمانيون على المواقع البرتغالية، وأصبح العرب مصدر رعب وقلق للبرتغاليين في البحر، ويتوضح ذلك من تقرير (كمبرون) الى مركز شركة الهند الشرقية البريطانية في سورات في ٨آذار ١٦٥١ حيث جاء فيه «ان عرب مسقط ارهبوا البرتغاليين بواسطة السفن التي استولوا عليها منهم، وسفنهم الخاصة بحيث اصبحوا يترددون كثيراً في الابحار في الخليج»(٣). وبهدف معالجة الموقف، تقرر في لشبونة، ارسال قوة كبيرة، سعياً وراء استعادة مكانة البرتغاليين، بتدمير اسطول الامام وبناء قاعدة جديدة بدلا من جزيرة (هنكام) التي اتخذت قاعدة مؤقته بعد هزيمتهم في مسقط.

في الأول من آيار ١٦٥٢، دخل خليج عمان اسطول يقوده انطونيو سوسا كوتنهو(٤) (Antonio de Souse Continho) ورسا خارج (خصب)، وحاول البرتغاليون بناء قاعدة هناك، الا ان تهديد الاسطول العماني منعهم من ذلك، وابحرت القوات البرتغالية الى (كنك) حيث طلب القائد البرتغالي عقد اتفاقية مع الفرس(٥)، ومما تجدر الاشارة اليه ان التهديد العماني للبرتغاليين في هذه

المرحلة لا يمكن ان يعزى لعامل واحد وهو التفوق الملاحي العماني فحسب وانما كان لضعف البرتغاليين من جراء مواجهتهم خطر الهولنديين في البحار الشرقية، التي فرضت عليهم موقف الدفاع لمواجهة الاساطيل العمانية والهولندية، وقد أدت المعارك المستمرة من كانون الاول ١٦٥٣ الى تشرين الاول ١٦٥٥ الى توقف تجارتهم في الخليج(٦). كما ان خسائرهم في الخليج صاحبها تدهور مماثل في شرق افريقيا. ان العلاقات التجارية العريقة والروابط الدينية بين عرب عمان وشرق افريقيا، جعلت انتقال المجابهة العمانية البرتغالية الى شرق افريقيا امرا لابد منه.

واعتبارا من عام ١٦٤٥، عندما كتب ملوك سيو (Siyu) وفازا (Faza) وبمبا (Pemba) الى ملك البرتغال شكوى من الظلم الذي تتعرض له شعوبهم من قبل كابتن (مومباسا)، وحتى سنة ١٦٥١، شنت القبائل المجاورة لمومباسا حربا ضد البرتغاليين(٧)، وقد ارسلت البرتغال الكابتن (فرانسيسكو دي سيكاس كابريرا) Francisco de Sexas Cabrira الى شرق افريقيا عام ١٦٥١ لاعادة السيطرة البرتغالية، ومنع التغلغل العماني هناك(٨).

ان التحدي العماني للوجود البرتغالي في المياه الساحلية لشرق افريقيا، حث ملوك زنجبار وبمبا على كسر اتفاقاتهم السابقة مع البرتغاليين وطلب المساعدة من الامام(٩). وبسبب تزايد قوى العمانيين، فقد فشلت مخططات كابريرا. من خلال الهجوم الذي شنته السفن العمانية على الحامية البرتغالية في زنجبار(١٠)، حيث ابيد معظم افراد الحامية بما فيها قائدها عام ١٦٥٢، وقد انتزع فازا وباتا من السيطرة البرتغالية(١١). وبسبب هذه الانتصارات فقد انكر معظم الحكام المحليين مواثيقهم السابقة مع البرتغاليين، كما انها من ناحية اخرى اتاحت الفرصة امام منافسيهم الاوربيين لتحقيق المكاسب على حسابهم في الهند وجنوب شرق آسيا، فقد احتكر الهولنديون التجارة الصينية، بعد ان نجحوا باجلاء البرتغاليين من كولومبو عام ١٦٥٦(١٢) ومن جزيرة سيلان عام ١٦٥٨(١٣).

شجعت الانتصارات العربية، ونشوب الثورات المحلية في سواحل شرق افريقيا الامام على مواصلة الهجمات على مواقع البرتغاليين هناك، فقد وصل اسطول عماني الى الساحل عام ١٦٦٠ وتمت محاصرة الحامية البرتغالية في (مومباسا)(١٤)، وشن هجمات متتالية على امتداد الساحل حتى (رأس دلجادو) Delgado Cape، وبحلول آب ١٦٦٢ كانت سفن اليعاربة تمتلك السيطرة على كل الساحل باستثناء (مومباسا) التي خضعت للحصار. وتلقت قوات الامام الاسناد من القبائل المحلية. وبذلك اضطر قائد الحامية البرتغالية هناك (جوزيف بوتلهودا سلفا) Joseph Botelho Siva الى طلب المعونة من (كوا) الا ان الحالة هناك لم تكن تسمح بذلك، بسبب حاجة الاسطول الحربي في (كوا) اليها(١٥). وفي ظل هذه الظروف أصبح استسلام الحماية البرتغالية في (مومباسا) امرا لا مفر منه. ففي عام ١٦٦٥ خضعت الحامية للعرب، وتم تعيين محمد بن مبارك المزروعي(١٦) واليا عليها من قبل الامام(١٧). الا ان البرتغاليين استعادوا سيطرتهم عليها واساءوا معاملة سكانها(١٨).

ان قوة الاسطول العماني كانت كبيرة لدرجة ان العمليات الحربية في شرق افريقيا ــ اثناء حصار مومباسا ــ لم يؤثر على العمليات ضد البرتغاليين في الهند. يتوضح ذلك عندما توجه اسطول

عماني الى جزيرة (بومبي) Bombay ودمر حاميتها، ولم يتم اتخاذ أي اجراء لاستعادة الموقع البرتغالي حتى وصول الحاكم الجديد (جاونوس داكونها) de Cunha Joao Nnes في ايلول ١٦٦٦ الذي حاول البحث عن اية وسيلة للانتقام من العرب، فقد جهز اسطولا من ثمان سفن كبيرة و(٤٠ ــ ٦٠) سفينة صغيرة وارسلهاالى مسقط في أواخر ١٦٦٧، الا ان هذه الحملة فشلت ولم يكن بمقدورها الوصول الى اهدافها(١٩). ان ذلك يؤكد بشكل واضح ضعف البرتغاليين، وقد تجلى ذلك الضعف بشكل واضح بلجوئهم الى الانكليز، والذي نجم عنه عقد اتفاقية بين ملك انكلترا تشارلس الثاني (Charles II) واميرة البرتغال كاترينا (Catherina في ٢٣ حزيران ١٦٦١، وعلى ضوئها تمت المصادقة على جميع الاتفاقيات السابقة بين البرتغال وانكلترا، وبموجبها سلمت قلعة تانجير (Tangier) وميناء بومبي الى ملك انكلترا وولي عهده وحلفاءه الى الابد(٢٠). وعلى العكس من ذلك فان العمانيين اجادوا قيادة السفن الكبيرة، وتطورت قدراتهم الحربية في البحر في السنوات التي تلت استعادتهم مسقط.

وقد بلغت قوة الامام سلطان البحرية من المكانة بحيث لم ينقطع تفكيره من القيام بعمليات عسكرية اخرى، فقد ابحر اسطول عربي نحو الهند عام ١٦٦٨(٢١)، ولديه تعليات بتدمير القاعدة البرتغالية في (ديو)(٢٢)، واقترب الاسطول ليلا من الشاطئ بسرية تامة، وكانت الخطة المرسومة تقضي بشن الهجوم صباحا بعد فتح ابواب اسوار المدينة، وفي الصباح المبكر وبعد فتح الابواب، دخلت المجموعة الاولى من العرب وهم يخفون اسلحتهم، وبعد اكتشاف امرهم، انطلقت صيحات الانذار الى الاهالي، واطلقت المدفعية البرتغالية نيرانها بشكل عشوائي، وبذلك فقد امر القائد العربي قواته بالانسحاب الى سفنهم، وتذكر لنا بعض المصادر ان خسائر العرب بلغت (١٠٠٠)(٢٣)، ويبدو ان حجم الخسائر مبالغ فيه، الا أنه يكشف من ناحية اخرى ضخامة القوات العربية، ويذكر لنا باثرست (Bathurst) ان العرب مكثوا ثلاثة ايام في المدينة(٢٤). وبعد عملية الانسحاب ارسلت ثمان سفن حربية برتغالية لملاحقة القوات العربية، لكنها عادت الى (كوا) في بداية اذار ١٦٦٩ دون احراز نجاح يذكر، ما عدا حصولهم على (٣٠٠٠) تومان من حاكم فارس نصيبهم من مشاركتهم له في الكمارك في (كنك)(٢٥) وهو المكان الذي انشأوا فيه مستعمرتهم الرئيسية في فارس، بعد طردهم من هرمز عام ١٦٦٢(٢٦).

لقد اصبح للامام سلطان تأثير مهم في الخليج العربي، وأصبح العمانيون اسياد الملاحة والتجارة فيه، وفي عام ١٦٦٩ اتجهوا صوب شرق افريقيا، حيث ارسلوا اسطولا قوياً الى موزنبيق وحاصر قلعتها، غير انها صمدت لحصاره(٢٧).

في صيف عام ١٦٦٩ ارسل اسطول برتغالي مكون من عشر قطع بحرية الى منطقة الخليج بقيادة (دوم كيرونيمو مانويل) Dom Ceronimo Manoell وقد مر الاسطول في (كمبرون) في أواخر حزيران، وبعد فترة قصيرة وصل اسطول عماني الى (كنك). وفي آب وايلول التقى الاسطول العماني

المكون من خمس وعشرين قطعة بحرية بالاسطول البرتغالي، وكانت حاميات(هرمز ولاراك وقشم) قد وضعت على اهبة الاستعداد، وقد وصف الانكليز تلك المعركة كما يلي:

«بأنها معركة دموية.. تم فيها قتل ٥٠٠ من العرب، ولكن البرتغاليين فقدوا معظم رجالهم البيض الاقوياء.. وقد هوجم القائد البرتغالي، الا ان العرب انسحبوا في النهاية، مهددين بمعركة أخرى، وذهب القائد البرتغالى منتصرا الى (غوا) حيث بدأ بتحضير اسطول آخر اكبر للذهاب نحو مسقط»(٢٨).

وفي هذا العام هاجم العرب مركز البرتغاليين في جزيرة قشم، وهرمز التابعة للفرس(٢٩).

في آب عام ١٦٧٢، عندما ابحرت قطع برتغالية من (كنك) الى البصرة، وخلال ابحارهم في الخليج شاهدوا مجموعة من السفن قادمة من مسقط، محملة ببضائع غنية، فقاموا بمهاجمتها والاستلاء على بعضها. وبعد هذه الحادثة ينفرد باثرست (Bathurst) بالاشارة الى ان هدنة عقدت بين الامام سلطان، والقائد البرتغالي (دي ميلو) في صحار في ٢٤ أيلول من العام نفسه. تضمنت: ايقاف العمليات العسكرية لمدة ستة أشهر، وعند وصول دي ميلو الى غوا قبض عليه، وأرسل الى لشبونة للمحاكمة بتهمة عقد هدنة مع اليعاربة خلافا لتوجيهات الحاكم(٣٠). وصمم الحاكم على ارسال اسطول باسرع وقت ممكن، مع اوامر مشددة بعدم ترك شبر من الارض للعمانيين، وعدم توقيع أي اتفاقية معهم، حتى يتم طردهم من مسقط، وجميع المناطق التي كانت خاضعة للبرتغال. وتم ارسال قوة بحرية برتغالية الى الخليج، وامرت سفن خرى في (باسين)(٣١) (Bassin) باللحاق بها باسرع ما يمكن لغرض محاصرة مسقط. وبالرغم من هذه الاوامر المشددة، فلم تحقق هذه الحملة النجاح المطلوب، ما عدا قيامها في الشتاء باعمال تخريب المناطق المحيطة بمسقط(٣٢). وتم الثأر من هذا العمل في شباط عام ١٦٧٤ بعد ان ارسل الامام اسطولا من عشرة سفن الى منطقة (باسين)، ونزل حوالي (٦٠٠) مقاتل عربي الى المدينة(٣٣)، وحصلوا على الغنائم وبقوا فيها خمسة أيام دون ان يجرأ البرتغاليون على مهاجمتهم. ونتج عن هذا الهجوم هجرة العديد من السكان الي (بومبي)(٣٤).

في بداية نيسان ١٦٧٨ ارسلت خمسة عشر سفينة كبيرة وبعض الزوارق البرتغالية الى الخليج بهدف توجيه ضربات الى الاسطول العماني، الا انها انسحبت بسبب التحاقها مع قوة اخرى الى شرق افريقيا، حيث تلق الحاكم (دوم بدروي الميدا) (Dom Pedrode Almeida) تعليمات من ملك البرتغال باعادة اهتمام أكبر نحو شرق افريقيا، خشية خسارة ما بين الساحل والهند وعدم امكانية المحافظة على الموقع البرتغالي، وفعلا توجه الحاكم بنفسه مع القوات المتوفرة، وقد تم ترك بعض التعزيزات في موزمبيق وموباسا، وفي ١٧ آب اخذت القوة البرتغالية طريقها الى (فازا) (Faza)، ولم يتمكنوا من احتلالها حتى ١٦ كانون الاول عند وصول تعزيزات كافية من (كوا) بعدها استسلمت المدينة المجاورة (سيو) (Siyu) وتم اسر ملكها، ومن ثم اسر ملكي (لامو) (Lamu) و(ماندا) Manda بعد هجمات متتالية(٣٥). وقبل ان يتمكن الاسطول البرتغالي من توسيع فعالياته العسكرية قاطعهم وصول اربع سفن عربية في ١١ و١٢ كانون الثاني ١٦٧٩، وبالرغم من نشاط البرتغاليين

هذا، الا انهم فشلوا في منع العرب من النزول الى البر(٣٦)، وفي غصون ايام قليلة تعرضوا لضغط شديد من العرب وحلفاؤهم من ابناء هذه المناطق، مما اضطرهم الى الجلاء، والانسحاب بحراً الى موزمبيق(٣٧)، وهناك توفي الحاكم بعد اربعة ايام.

في ١٩ كانون الاول ١٦٧٩(٣٨) توفي الامام سلطان بن سيف، بعد ان خاض كفاحاً مجيداً ضد البرتغاليين، وانتخب ابنه بلعرب اماما في نفس اليوم الذي توفي فيه والده، وتابع الحرب ضد البرتغاليين بنفس همة والده السابقة(٣٩).

بعد نجاح البرتغاليين في احتلال (مومباسا) مرة اخرى تطلعوا الى مد سيطرتهم على (باتا) (Bata)، التي كانت بمقاطعاتها الثلاث: (بات) و(سيو) و(فازا) باستمرار ميدانا لمعارك البرتغاليين مع شعوب الساحل. وكان القائد البرتغالي في (مومباسا) يشعر ان ليس بامكانه المحافظة على امن حاميته دون الاستيلاء على (بات)، وقام بمحاولتين الاولى في اذار ١٦٨٦ عندما قدمت سفينتان من (كوا) بمهاجمة (سيو)، الا ان وجود سفن عربية في (بات) ثبط عزيمتها والحملة الثانية في نيسان من العام نفسه حملتها التيارات بعيدا عن (بات) واقفلت عائدة الى (كوا)(٤٠). ولابد من الاشارة الى ان السلطات في (كوا) لم تشجع اضعاف القوة العسكرية في (مومباسا) في سبيل السيطرة على (بات)، وانه اذا ما تم السيطرة عليها فيجب اعطائها الى امير (فازا) ليحكمها كممثل للبرتغاليين، ولهذا الغرض فقد ابحر (جاو أنتونس) Joao Antunes في ايار ١٦٨٧ مع تعزيزات من (كوا) مع امير (فازا) نحو (بات)، وعند وصوله وجد بعض السفن العربية في الميناء، ولذلك عاد الى (مومباسا) دون تحقيق أي شئ، وبعد رحيل السفن العربية اعاد محاولاته، التي اسفرت عن احتلال المدينة في ٣ آب من السنة المذكورة(٤١). وفي كانون الاول ارسلت تعزيزات الى (بات) الا ان اسطولا عربياً وصل بعد ايام من ارسال هذه التعزيزات من مسقط بدعوة من اهالي (بات) ونجح في استرجاع المدينة، ولم يكن لدى القائد البرتغالي أي خيار سوى العودة باسطوله الى (مومباسا)(٤٢).

لقد ادرك البرتغاليون بأن اساليبهم في المجمات القرصنية في البحر كانت اكثر تأثيرا من خوض المعارك على الساحل، فعملوا على مضايقة النشاطات التجارية في الخليج الى الحد الذي أدت الى فتح باب المفاوضات بين ممثل الامام بلعرب وبين مراقب (كنك) ممثلا للحاكم البرتغالي، وكانت مسودة بنود المفاوضات قد بنيت اساسا على المدنة التي وقعها (دي ميلو) عام ١٦٧٢ والتي اجهضت من البرتغاليين، ويبدو ان هذه المفاوضات قد زادت من عنجهية البرتغاليين وغرورهم، ففي أواخر تلك السنة، استطاع اسطول برتغالي بقيادة الكابتن (ديوغودي ميلو) Diagodi Mello من مهاجمة سفن عربية خارج (سوادت)(٤٣)، وبعد ثلاث سنوات خسر اسطول الامام معركة اخرى، ولكن العمانيون كانوا يردون تلك الهجمات على المواقع البرتغالية في الهند.

في عام ١٦٩٤ هاجم اسطول عماني جزيرة (سالت)(٤٤) وجلبوا غنائم كثيرة وحملوا معهم ١٤٠٠ أسير(٤٥)، وتبع ذلك هجوم على (بارسلور) Barceloar التي كانت مخزنا للرز الذي يتم تجهيز (كوا)

منه. ومنغلور Mangelore التي كانت اكبر سوق في تلك المستعمرات، وتوجد فيها وكالة الرز الخاصة بالبرتغاليين(٤٦). فقد انحدرت السفن العمانية عام ١٦٩٥ مع ساحل كنارا، واغارت على المدينتين، وتم تدمير واحراق وكالة الرز واغراق السفن الراسية في الميناء، وجلبت معها كمية كبيرة من الغنائم(٤٧).

في منتصف كانون الثاني عام ١٦٩٥، استغل العرب الغياب المؤقت للاسطول البرتغالي في الخليج العربي، فارسلوا خمس سفن تحمل زهاء (١٥٠٠) رجل لمهاجمة ميناء (كنك)، ونجحوا في تدمير المستعمرة، وأسر سفينة غنية بالحمولة كانت راسية في الميناء، وكان مجموع ما غنموه (٦٠,٠٠٠) تومان، وبعد تلك الغارة كتب الامام الى شاه فارس (سلطان حسين) مطالبا بنفس الحقوق التي يتمتع بها البرتغاليون في كنك مهددا في حالة عدم الاستجابة لطلبه بمهاجمة وتدمير بندر عباس(٤٨).

لقد دفعت هذه الانتصارات الامام سيف بن سلطان (١٦٩٢ ــ ١٧١١) الى شن هجوم أخر على (مومباسا) وبتشجيع من ملك لامور والامراء الاخرين في شرق افريقيا(٤٩)، في ١٣ آذار ١٦٩٦ وصلت سفينتان كبيرتان، وخمس سفن صغيرة، وعشرة زوارق، وبعد أن رست في مرفأ (كليندايني) بدأ الحصار العربي الذي استمر ٣٣ شهرا(٥٠). وفي آب تلقى البرتغاليون المحاصرون امتدادت من موزمبيق وعمل العرب كل ما بوسعهم لقطع طريق الامدادات عن البرتغاليين من الجهة المقابلة للبحر، وفي ٢٢ تشرين الاول توفي قائد الحامية (جاورود رغز سيهو) Joao Radrigus Seho وحدثت بعد ذلك حالات هروب عديدة بين صفوف البرتغاليين، وفي ٢ تشرين الثاني وصلت تعزيزات عربية، وفي يوم عيد الميلاد وصل اسطول برتغالي مكون من اربعة سفن وثلاثة زوارق يحمل (٧٧٠) رجلا معظمهم من الوطنيين الذين تم جمعهم قسرا(٥١)، لقد ثقل الحصار على البرتغالين بسبب الوباء وقلة الامدادادت(٥٢)، وقد شعرت السلطات البرتغالية في كوا بالحالة اليائسة في مومباسا، وبسبب الحالة المالية المتدهورة، فلم يتم ارسال قوة حتى ٣٠ تشرين الثاني، عندما ارسلت اسطولا صغيرا الى الحامية والذي اكتفى بتوزيع الامدادات، وابحر الى زنجبار ومنها الى كوا، في ١٩ كانون الثاني ١٦٩٨، وبذلك فقد البرتغاليون فرصتهم الاخيرة لانقاذ الحامية، وفي منتصف كانون الاول ١٦٩٨ بعد وصول (٥٠٠) من جنود الانزال العرب، كان العلم العماني يرتفع فوق الحامية(٥٣).

وبنجاح العمانيين في انتزاع مومباسا كان من الممكن ان يقوم سيف بن سلطان الاول، بتأسيس دولة عربية عمانية على انقاض الامبراطورية البرتغالية الا ان الاوضاع الداخلية حالت دون ذلك، وبذلك تأجل تأسيس هذه الدولة الى ان قام بتأسيسها سعيد بن سلطان (١٨٠٦ ــ ١٨٥٦)(٥٤).

لقد اوضح حصار مومباسا ان البرتغاليين لا يمتلكون الموارد الكافية، وليس بامكانهم قيادة المواجهة لوحدهم ضد العمانيين، وبذلك فقد وصل المبعوث البرتغالي (دوم غريغوريو بيريرا) Dom Gregorio Pereira الى اصفهان طالبا من الفرس التحالف مع البرتغال واعلان الحرب ضد عمان(٥٥).

بعد بلوغ انباء النصر العربي في مومباسا الى الامام سيف بن سلطان الاول، اصدر اوامره بتعيين

ناصر بن عبد الله المزروعي(٥٦) حاكما لها، كما اوعز باستثمار هذا النصر لطرد كافة الحاميات البرتغالية في شرق افريقيا(٥٧). فاندفعت الوحدات العمانية، تدعمها قوات متطوعين من ابناء الساحل واستطاعت اخضاع ببا (المعروفة بالجزيرة الخضراء) وزنجبار وباتا وكلوه(٥٨). وبذلك فقد تم طرد البرتغاليين من جميع مواقعهم الى الشمال من راس ديلغادو Cape Delgado(٥٩)، كما هوجمت حامية موزمبيق الا انه لم يكن ناجحا(٦٠)، كما وافقت مدينة (مقاديشو) على ان تكون تحت حماية سيف. وفي وقت مبكر من ١٦٩٩ ابحر اسطول برتغالي من لشبونة مكون من خمسة سفن بهدف انقاذ مومباسا الا انه وصل الى موزمبيق بعد سقوط حاميتها في قلعة يسوع(٦١) واتجه الاسطول الى كوا. وفي ليلة ٩ كانون الثاني ١٧٠١ تحطم الجزء الاكبر من اسطول اعده البرتغاليون لاحتلال مومباسا، عندما كان راسيا خارج كوا(٦٢).

ان نهاية القرن السادس عشر كانت من ازهى فترات تطور وازدهار القوة البحرية العمانية، فقد اصبحت في أوقات كثيرة من أقوى الاساطيل في المحيط الهندي، وقد تجلى ذلك في الاقتراح الذي قدمه الحاكم البرتغالي الى لشبونة في كانون الاول ١٧٠٣، بدفع مبلغ نقدي للامام كضمان لنجاح المفاوضات معه للحصول على تسهيلات في مومباسا وقد زعم الحاكم:

«ان العرب راغبون بالسلام لانهم يعرفون ان وارداتهم الاساسية من الرز يمكن قطعها بسهولة من قبل البرتغاليين».

وكان اسطول عماني قبل بضعة اسابيع قد هاجم دامان(٦٤) Deman والحق خسائر جسيمة بها(٦٥). وفي سنة ١٧٠٤ هدد العرب بالهجوم على موزمبيق جنوبا. ان الهجوم التالي على دامان في اذار ١٧٠٥ قد حطم اية افكار حول قيام علاقات سلمية مع العمانيين.

في عام ١٧٠٥ وصلت البرتغاليين شائعات من الامراء المنفيين مفادها ان الشعوب الساحلية في شرق افريقيا سترحب بمجيئهم مرة اخرى، اذا ما منحوهم حرية اكبر في التجارة. ومع ان ابناء الساحل الافريقي رفضوا الاستجابة للبرتغاليين، الا ان اهتمامهم بالعودة الى شرق افريقيا قد ازداد، وبذلوا ما بوسعهم للحصول على معلومات حول الظروف هناك(٦٦).

وفي رسالة من الحاكم الى ملك البرتغال في ١٢ كانون الثاني ١٧١٥. تلقي الضوء عن معركة دارت في ميناء سورات بين العرب والبرتغاليين في وقت مبكر من السنة المنصرفة ذكر فيها:

«عندما تلقيت انباء بان العرب وصلوا بأسطولهم الى سورات، امرت قائد الشمال بالتقدم لمهاجمتهم، حيث كنت واثقا من ان اقرارهم بالسلام هو فقط حجة لترميم سفنهم، ومن ثم مهاجمة الاقاليم الشمالية.. وقد اعطانا العدو على ايه حال فرصة عندما احتجزوا سفينة تعود الى القطاعيي جلالتكم.. واعطيت التعليمات الى محافظ سورات باعتبار العرب اعداء، ودعمه للجيوش البرتغالية.. باشر الجنرال الهجوم على العدو في ١٩ شباط ١٧١٤ وكانت المعركة عنيفة جدا، استمرت من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من الليل وهرب العدو بطريقة عشوائية بحيث ان سفينة القيادة في اسطوله غرقت في الخليج.. وتعرضت سفننا لبعض الاضرار.. وبلغت خسائرنا ثمان

وعشرون قتيلا واربع وثلاثون جريحا.. ولرغبة العرب بالثار دخلوا مضيق هرمز ببعض السفن وامروا محافظ كنك بتسليمهم وكيل جلالتكم.. وانهم يمتلكون القوة الكافية لاجباره.. ونزلوا الى المدينة واحرقوا بعض البيوت ونهبوا اخرى بسهولة.. وتمت مهاجمتهم بغضب شديد بحيث انهم انسحبوا الى سفنهم متكبدين خسائر باهظة بضمنها قائدهم»(٦٨).

ولما وصلت انباء هزيمة الاسطول العربي الى الامام سلطان بن سيف الثاني (١٧١١ ــ ١٧١٨) اصدر تعلياته الى الاسطول بالتوجه نحو جزيرة لارك وقطع خطوط الاتصال بين الهند والموانئ الفارسية، ونجح العرب في بسط نفوذهم على جزيرتي قشم ولاراك وضربوا حصارا على هرمز(٦٩).

فسحت الحرب الاهلية في عمان المجال للبرتغاليين لالتقاط انفاسهم فاخذوا يجولون في البحار، ففي شباط سنة ١٧١٩ استدرج الاسطول البرتغالي اسطولا عربيا (عمانيا قاسميا)(٧٠) الى معركة خارج كنك، واستمر القتال من الساعة التاسعة صباحا وحتى الساعة السابعة مساء، وتواصل في اليوم التالي واسفر عن انسحاب الاسطول العربي الى رأس الخيمة وف آب من نفس العام خسر العرب معركة اخرى امام البرتغاليين، وقد وقع عدد من العرب في الاسر، وقد لاقوا معاملة قاسية، على عكس معاملة العرب لاسراهم من البرتغاليين(٧١)، وقد سجل لنا الكسندر هاملتون تلك المعركة كما يلي:

«على الرغم من ان البرتغاليين كانوا يسومون اسراهم سوء العذاب، وكانوا يسخرونهم في الاعمال الشاقة، ويجبرونهم على تنفيذ الاوامر بقوة السياط، فقد كان العرب يعاملون اسراهم بمنتهى الانسانية، وكان غاية ما يفعلونه هو حجز اسراهم في سجن جماعي دون ان يسخرونهم في الاعمال الشاقة، وكذلك كانو يمنحونهم بدل الارزاق كتلك التي يتقاضاها جندهم.. واذا وجد بين البرتغاليين صناع بارعون واصحاب مهن، فانه قد يسمح لهم بحرية ممارسة مهنهم،كي يتسنى لهم جمع المال اللازم لفك اسرهم»(٧٢).

بلغ الصراع الاسرى اقصاه في عمان، فانتهز البرتغاليون هذه الفرصة للتغلغل في شرق افريقيا(٧٣). كما انهم استغلوا فرصة وصول ملك بات الى غوا في نهاية عام ١٧٢٧ ــ طالبا المساعدة ضد منافسيه ــ وتوقيع اتفاقية مع البرتغاليين كان من ضمن بنودها:

ان تقوم قوات بات باسناد البرتغاليين لاستعادة مومباسا ومنع الصلات البحرية بين العرب والمقاطعات. وقد قرر البرتغاليون الابحار في نهاية كانون الاول بثلاث فرقاطات وسفينتان وزورق وعليها (١٦٤٧) رجل، وامير فازا المنفي وقاد تلك الحملة (لويس دي ميلو) Luis de Mello، وبسبب عاصفة قوية اختفت اثنان من قطع الاسطول، ووصلت الاربعة الباقية الى بات، وبعد معارك متقطعة مع سفن عمانية، رفع العلم البرتغالي هناك بعد حوالي (٥٠) يوما من وصولهم(٧٤).

استثمر القائد البرتغالي هذا الانتصار فاعد حملة مع (٥٠٠) من المرتزقة المحليين وبدعم من ملك بات. وصلت هذه الفرقة الى مرفأ كلنديني في آذار ١٧٢٨ وحدث تبادل قصير لاطلاق النار في

حامية سانت جوزيف (St. Joseph)، وتم اخلاء المعسكر والاستيلاء عليه، وبعد يومين من القتال نجح البرتغاليون في احتلال مومباسا، وفي اليوم التالي دخل البرتغاليون وملك بات وامير فازا حامية يسوع وبخضوع هذه الحامية اعلن لويس دي ميلو عودة الحكم البرتغالي الى الساحل، وفي غضون اسبوعين جاء سبعة ملوك ساحليين، من ضمنهم ملوك زنجبار وبمبا لاعلان الطاعة للبرتغال(٧٥). وبعد فترة قصيرة غادر القائد البرتغالي ــ الذي كانت مسئوليته قيادة العمليات الحربية في البحار الشمالية ومضيق هرمز والبحر الاحمر والمحيط الهندي ــ شرق افريقيا وابحر مع سفينتين الى فارس وترك سلفادو كايتانودي كاستر (Silvada Catanode Castrs) كحاكم لمومباسا مع معسكر مكون من ١٢٠ رجل(٧٦).

في الثاني من كانون الثاني عام ١٧٣٠ ارسل الحاكم البرتغالي اسطولا مع (١٢١٥) رجل الى شرق افريقيا لتعزيز السيطرة البرتغالية هناك، وقبل وصوله التي في ٢٣ كانون الثاني بزوارق نقلت له انباء سقوط مومباسا في ايدي العمانيين بعد وصول سفن عمانية تحمل ٧٠٠ رجل بقيادة محمد بن سعيد المعمودي الذي نجح في استعادة بات(٧٧) واخضاع زنجبار، وقد عين هذا القائد نائبا للامام هناك.

وعند وصول القوة البرتغالية بقيادة لويس دي ميلو نفسه كان العلم العماني الاحمر يرفرف على الحامية، وكانت سفن عمانية كبيرة موجودة في ميناء كلنديني. فاضطر القائد للابحار الى موزمبيق، وابحر ثانية في نهاية شباط مع تعزيزات من موزمبيق الى مومباسا في محاولة لاحتلالها، الا ان الرياح والتيارات المعاكسة اضطرته على العودة الى موزمبيق وتم التخلي نهائيا عن اية افكار باستعادة مومباسا(٧٨). وفي ١٧ مايس من العام نفسه تعرض الاسطول البرتغالي اثناء عودته الى كوا الى اعصار مدمر اغرق جميع السفن بما فيها سفينة القيادة التي كانت تقل القائد دي ميلو(٧٩)، وهكذا انتهى اخر احتلال برتغالي لشرق افريقيا، وفقدوا فرصتهم الوحيدة اثناء انشغال العمانيين بالصراعات الداخلية حول منصب الامامة.

ان نجاح العمانيين في اقصاء البرتغاليين ارتبط بجملة عوامل اهمها:

تنامي قوتهم البحرية، واستخدامهم للسفن الاوروبية الحديثة التي وقعت في ايديهم، كما ان المعاملة السيئة التي تعامل بها البرتغاليون مع شعوب مستعمراتهم قد اثار موجة شديدة من السخط والكراهية لهم، مما كان حافزا لهم لطلب النجدة من العرب لطردهم من اراضيهم، كما حدث ذلك للمستعمرات في شرق افريقيا.

كما ان البحرية العمانية رغم حداثتها كانت تسير على نظام عسكري دقيق لا يقل عما كان متبعا في الدول الاوروبية البحرية كبريطانيا وهولندا، فكان العمانيون يراقبون حركة قوة اعدائهم بدقة وحرص شديد.

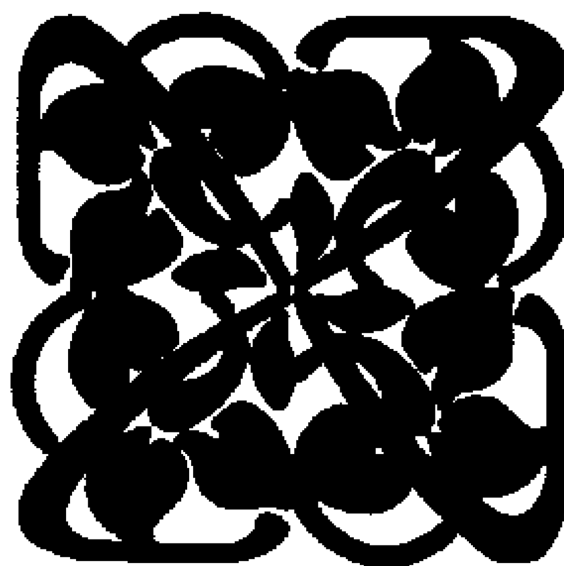
ومن العوامل المهمة التي اسهمت في انهيار نفوذ البرتغاليين في البحار نزاعهم المستمر مع منافسيهم الاوروبيين، وحكام الولايات الهندية المختلفة التي كانت سببا مهما في نقص مواردهم.

اعتمدت الهجمات البحرية العمانية ضد البرتغاليين على عنصر المفاجأة وسرعة الحركة، كما ان هذه الهجمات وخاصة في السواحل الهندية لم يكن الغرض منها الاستيلاء على تلك المستعمرات، وانما تدمير الوجود البرتغالي فيها.

ولابد من الاشارة الى ان معظم المصادر الاوروبية وصفت الصراع البحري العماني باتجاهين:

الاتجاه الاول: وصفت فيه الجهاد العماني على انه من اعمال (القرصنة) في حين حرصت على وصف المآسي التي الحقها البرتغاليون بشعوب مستعمراتهم ومنها منطقة الخليج العربي على انها من الانجازات القومية الكبرى.

الاتجاه الثاني: انها بالغت في وصفها للمعارك البحرية فصورت لنا ان البرتغاليين انتصروا في معظم معاركهم البحرية ضد العرب، وقدرت الخسائر العربية تقديرا لايصدق مقارنة بخسائر البرتغاليين ــ وكما اشرت سابقا ــ في واحدة من تلك المعارك كانت خسائر العرب (١٨٠٠) قتيل يقابلها (٢٨) قتيل من البرتغاليين(٨٠).



الهوامش

١ ــ اشتهر العرب كملاحين مهرة حيث وصلوا الى سواحل الخليج والمحيط الهندي وجنوب شرق اسيا وشرق افريقيا، واستوطنت مجموعات منهم في هذه المناطق منذ فترة سبقت العصور الاسلامية. انظر: يوسف فضل حسين، الجذور التاريخية للعلاقات العربية الافريقية، العرب وافريقيا، بحوث ومناقشات الندوة القطرية لمركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤، ص٢٧.

٢ ــ رأفت غنيمي، دور عمان في بناء حضارة شرق افريقيا، ندوة الدراسات العمانية، سلطنة عمان، ١٩٨٠، المجلد الثالث، ص ١٥٨ ــ ١٥٩.

٣ — Quoted in: Bathurst, The Varubi Dynasty of M Oman unpublished Ph.b. Thesis (Oxford, 1967) p. 114.

٤ ــ انطونيو سوسا كوتنهو، هو احد أعضاء المجلس الثلاثي الذي تولى سلطة البرتغال بعد وفاة الحاكم البرتغالي دوم فيليب Dom Filippe انظر:

Danvers, The Portuguse in India, Being a History of the Rise and Decline of their Eastern Empire, London, 1894, Vol II, p.302.

٥ — Bathurst, Op. Cit. p. 115.

٦ — Danvers, Op. Cit. p. 299.

٧ — Bathurst, Op. Cit. p. 119.

٨ ــ عامر محمد الحجري، تاريخ العلاقات العمانية الافريقية، البحوث المقدمة الى مؤتمر دراسات شرقي الجزيرة العربية، الدوحة، قطر، ١٩٧٦، ص٧٨٤.

٩ ــ جمال زكريا قاسم، الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية، القاهرة، ١٩٧٥، ص ١٦٠. Danvers, Op, Cit. pp317-8

١٠ ــ الحجري المصدر السابق، ص ٧٨٤، غنيمي، المصدر السابق، ص ١٦١.

١١ ــ عدنان هرير جودة، عمان وسياسة نادر شاه، بغداد، ١٩٨٣، ص ٢٩.

١٢ ــ للتعرف على الشروط التي استسلم بها كولومبو للهولنديين يراجع:

Danvers, Op Cit., pp. 317 - 8

١٣ — Danvers, Op, Cit., p. 321.

١٤ ــ صلاح العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج، ندوة الدراسات العمانية، سلطنة عمان، ١٩٨، المجلد الرابع، ص١٠٢.

١٥ — Bathurst, Op. Cit. pp. 120 - 121.

١٦ ــ المزروعيون أو الزواريع: فرع من قبيلة بني ياس التي لازالت تقطن الساحل العماني وقد حكمت هذه الاسرة في شرق افريقيا قرابة مائة عام، وامتد سلطانها في اوائل القرن التاسع عشر على طول ساحل كينيا من لامو شمالا حتى بنجا جنوبا، وقد نشر وليم اوين (W. Owen) الرحالة الانكليزي الذي زار شرق افريقيا عام ١٨٢٤ ملخصا

لكتاب وجده في مومباسا عن تاريخ آل المزروعي ضمن كتابه:

Narratives of Voyage to explore the shores of Arabia, Africa and Madagascar, 2 Vols. (London) 1862.

انظر: جمال زكريا قاسم، الدولة العمانية في شرق افريقيا، ندوة الدراسات العمانية، سلطنة عمان، ١٩٨٠، المجلد الثالث ص ٩٥.

١٧ ــ العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة ١٩٧٤، ص٤٦.

١٨ ــ غنيمي، المصدر السابق، ص ١٦١، احمد حمود المعمرى، عمان وشرق افريقيا، ترجمة محمد امين عبد الله، سلطنة عمان، ١٩٧٩، ص٦٦.

١٩ ــ Baturst, Op, Cit. pp. 121 - 2.

٢٠ ــ Danvers, Op. Cit., Vol. II, p.331.

٢١ ــ يقع مايلز في تناقض واضح حيث ذكر ان الحملة على ديو كانت عام ١٦٧٠ بعد عامين من توليه الامام بلعرب بن سلطان، في حين ان الحملة كانت في زمن والده سلطان الذي توفي عام ١٦٧٩. انظر: مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد امين عبد الله، سلطنة عمان، ١٩٨٦، ص٢٠٨.

٢٢ ــ ديو: جزيرة مهمة تقع في الطرف الجنوبي من كوجران الهندية عند خط عرض ٤٢ ــ ٢٠ شمالا وخط طول ٥٧ ــ ٧٠ شرقا.

٢٣ ــ فالح حنظل، المفصل في تاريخ الامارات العربية المتحدة، ابوظبي بلا تاريخ، ج١، ص٨٦. عائشة السيار، دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا للفترة من ١٦٢٤ ــ ١٧٤١، بيروت، ١٩٧٥، ص٧٣.

٢٤ ــ Bathurat, Op, Cit., p. 123

٢٥ ــ Bathurst, Op. Cit., p. 124

٢٦ ــ لوكهارت، التهديد العماني ونتائجه في اواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، ترجمة علاء الدين احمد حسين، مجلة الخليج العربي، العدد العاشر، جامعة البصرة، ١٩٧٨، ص٩٠.

٢٧ ــ الحجري، المصدر السابق، ص ٧٨٥.

٢٨ ــ Qudted in: Bathurst, Op, Cit., pp. 125 - 6.

٢٩ ــ السيار، المصدر السابق، ص ٧٢.

٣٠ ــ Bathurst, Op. Cit., p. 128 -9.

٣١ ــ ياسين، ميناء يقع على ساحل الهند، يبعد حوالي واحد وعشرين ميلا عن بومباي.

٣٢ ــ السيار، المصدر السابق، ص ٧٤.

٣٣ ــ مايلز، المصدر السابق، ص ٢٠٩، صالح محمد العابد، تحرير ساحل عمان وانهيار الامبراطورية البرتغالية في الشرق، مجلة افاق عربية، العدد الثالث، بغداد، ١٩٨٥، ص٤٣.

٣٤ ــ Bathurst, Op. Cit. p. 131 - 2.

٣٥ ــ السيار، المصدر السابق، ص ٩٨.

٣٦ ــ Bathurst, Op. Cit, p. 133

٣٧ ــ جودة، المصدر السابق، ص ٣٠.

٣٨ ــ اختلفت المصادر العمانية في التاريخ الحقيقي لوفاة الامام سلطان بن سيف. ففي الوقت الذي يعطي الازكوى التاريخ المذكور، فانابن زريق يعطي يوم ٢٢ تشرين الثاني عام ١٦٤٩ تاريخا لوفاته. ومن الواضح ان المصادر

العمانية خلت من تفاصيل هذه الفترة. لذلك فان من المنطقي قبول التاريخ الذي تعطيه المصادر المبكرة لذلك اعتمدت على تاريخ (الازكوى).

الازكوى: تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لاخبار الامة، سلطنة عمان، ١٩٨٠، ص١١٢.

حميد بن محمد رزيق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعدين، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٩٧٧، ص٢٩٢.

٣٩ ــ الازكوى، المصدر السابق، ص١١٢.

٤٠ ــ Bathurst, Op, Cit., 138 - 9.

٤١ ــ السيار، المصدر السابق، ص ٩٨ ــ ٩٩.

٤٢ ــ Bathurst, OP, Cit, p. 140.

٤٣ ــ Danvers, Op. Cit, Vol II, p. 370

٤٤ ــ سالست: جزيرة تقع شمال بومبي مساحتها حوالي ٣٤١ ميلا مربعاً تشتهر بمناطقها الاثرية.

٤٥ ــ مايلز، المصدر السابق، ص ٢١٠، العقاد، دور العرب والفرس، ص ١٠١.

٤٦ ــ السيار، المصدر السابق، ص ٧٥ ــ ٧٦، لوكهارت، المصدر السابق، ص٩١.

٤٧ ــ مايلز، المصدر السابق، ص ٢١٠.

٤٨ ــ لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، قطر، الدوحة، بلا، ج٢، ص١١١. لوكهارت، التهديد العماني، ص٩١.

٤٩ ــ بعث الامراء في شرق افريقيا وفدا الى الامام سيف يطلبون فيه العون والمساعدة ضد البرتغاليين وقد تشكل الوفد من: الشيخ احمد الميلندي، وتموت بن موترغو الكليندي، وموشال بن التنجاني ومعهم ممثل لكل قبيلة وطائفة. انظر: سعيد بن علي المغيري، جهينة الاخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٧ ــ ٨.

٥٠ ــ المعمري، المصدر السابق، ص٦٢، المغيري، المصدر السابق، ص ١٠٦.

٥١ ــ Bathurst, Op. Cit, p. 144

٥٢ ــ السيار، المصدر السابق، ص ١٠٠.

٥٣ ــ Bathurst, Op. Cit. p. 146

٥٤ ــ رودلف سعيد روت، سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١ ــ ١٨٥٦، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ١٩٨٣، ص ٩٠ ــ ٩١.

٥٥ ــ Bathurst, Op, Cit., p. 147.

٥٦ ــ قام جنود ناصر بن عبد الله باعتقال قائدهم وعينوا احدهم وهو (سيس رمب) قائدا لهم، غير ان كبار رجال مومباسا اعلنوا الحرب على هذا القائد، وتلت ذلك فترة من الفوضى والصراع على السلطة بين حكام مومباسا وبات وعمان، للمزيد من التفاصيل يراجع: وزارة التراث القومي والثقافة، العمانيون وقلعة ممباسا، سلسلة تراثنا، العدد التاسع سلطنة عمان، ١٩٨٥، ص١٧ ــ ١٨.

٥٧ ــ حنظل، المصدر السابق، ج١، ص ١٠٦.

٥٨ ــ العابد، دور القواسم في الخليج العربي، ١٧٤٧ ــ ١٨٢٠، بغداد، ١٩٧٦، ص٤٢.

٥٩ ــ قاسم، الاصول التاريخية، ص ١٠٩.

٦٠ ــ المعمري، المصدر السابق، ص ٦٦ ــ ٦٧، جودة، المصدر السابق، ص٣٢.

٦١ ــ قلعة يسوع: انشأها البرتغاليون عام ١٥٩٣ وهي مبنية من الاحجار المرجانية كخط دفاع عن مدخل ميناء مومباسا ولتأمين مركزهم على الساحل الشرقي لافريقيا. انظر، وزارة التراث القومي والثقافة، العمانيون وقلعة ممباسا، ص١٤.

المعمري، المصدر السابق، ص ٩.

٦٢ — Bathurst, Op, Cit., p. 261

٦٣ — Quoted in: Bathurst, Op. Cit, p. 264.

٦٤ ــ داماَن، هي احدى المستعمرات البرتغالية على خليج كامباي غربي الهند.

٦٥ ــ جودة، المصدر السابق، ص ٣١.

٦٦ ــ وصلت معلومات من جاسوس من موزمبيق للبرتغال تضمنت معلومات تفصيلية عن حجم القوات العربية على الساحل، انظر:

Bathurst, Op. Cit, p. 264 - 5.

٦٧ ــ تذكر عائشة السيار في كتابها (دولة اليعاربة ص ٧٩)، وكذلك فالح حنظل في كتابه (تاريخ الامارات، ج١، ص ١٢٤) على ان هذا العدد هو خسائر العرب في حين يبالغ دانفرز (Danvers) بقوله على ان انباء موثوقة وردت الى الحاكم البرتغالي من مسقط تفيد بان خسائر العرب بلغت ١٨٠٠ رجل في هذه المعركة. انظر:

Danvers, Op. Cit., p. 379

٦٨ — Quoted in: Danvers, Op. Cit, pp 379 - 380.

٦٩ ــ لوكهارت، المصدر السابق، ص ٩٤.

٧٠ ــ حنظل، المصدر السابق، ص ١٣١.

٧١ ــ السيار، المصدر السابق، ص٨٠، حنظل، المصدر السابق، ج١، ص١٣١.

٧٢ — Alexander Hamilton, A New Account of the East Indies, London, Vol. I. pp. 66-2

وانظر ايضا، العابد، تحرير ساحل عمان، ص ٤٢.

٧٣ ــ حاول البرتغاليون اعادة سيطرتهم على مومباسا منتهزين فرصة نشوب الصراع الاسري في عمان، اضافة الى حدوث صراعات بين زنجبار وموباسا، انظر: قاسم، الاصول التاريخية، ص ١١٠ ــ ١١١.

٧٤ — Bath urst, Op. Cit. p. 27.

٧٥ — Bathurst, Op. Cit., p. 272.

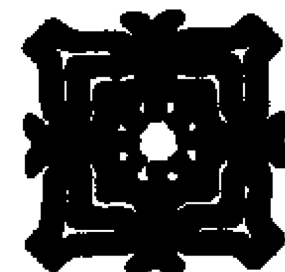
٧٦ ــ حنظل، المصدر السابق، ج١، ص٥٤. Bathurst, Op. Cit. p.275

٧٧ — Coupland, East Africa and its Invaders from the Earlest Times to the Death of Seyyid Said in 1850, Oxford, 1938, p.67.

٧٨ ــ السيار، المصدر السابق، ص ١٠٣.

٧٩ — Bathurst, Op, Cit. p. 276

٨٠ — Danvers, Op. Cit, p. 379.



دور السياسة البريطانية في تقسيم السلطنة العربية الافريقية

الدكتورة/سنى محمد علي عبد الجبار الطائي
جامعة بغداد

المقدمة:

انتقل الطور الايجابي للعلاقات العربية الافريقية الى طور الارتباط العربي الافريقي. وهو الارتباط بين مسقط وزنجبار، أي ارتباط شرق افريقيا ووسطها بالسواحل العربية تحت سيطرة حاكم عربي اتخذ من زنجبار مقراً له. وامتد حكمه حتى عام ١٨٥٦م.

الا ان التنافس الدولي الذي اشتد على سواحل شرق افريقيا والسواحل العربية في ذلك الوقت لم يكن ليترك هذا النمو والازدهار للارتباط العربي الافريقي.

فكانت المحصلة النهائية لهذا التنافس، خروج بريطانيا بنصيب الاسد حيث اصبحت السياسة البريطانية ازاء هذه المنطقة معروفة لدى الكثير من الباحثين وكتبت حولها العديد من الدراسات.

والذي يلفت الانتباه لاول وهلة هو ان بريطانيا اهتمت بالسلطنة لاهميتها الاستراتيجية اكثر من القوى الاستعمارية الاخرى، صحيح ان البرتغاليين والفرنسيين ثم الالمان لم يغفلوا عن هذه الاهمية لكن البريطانيين رسموا خطتهم للسيطرة على المنطقة بدهاء وبرؤية مستقبلية، بالاضافة الى ذلك ان بريطانيا كانت تتميز بتفوق بحري واضح في المحيط الهندي مما دعم هذا اقتصادها المتين وارثها الاستعماري ودهاء قادتها السياسيين.

فنجاح بريطانيا في السيطرة على السلطنة العربية الافريقية يعني السيطرة على طرقها التجارية في هذه المنطقة، وخلق مراكز حربية تكون نقطة الانطلاق لتحقيق اهدافها.

ولم يكن نجاح السياسة البريطانية النشطة في السيطرة والتدخل في شؤون السلطنة فقط، وانما

امتدت لتكون سببا رئيسياً في تقسيمها وتفتيت كيانها حفاظا على مصالحها الحيوية، اضافة الى الحد من الارتباط الافريقي بالجانب العربي.

تقسيم السلطنة العربية الافريقية:

في السنوات الاخيرة من حكم السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦ ــ ١٨٥٦)(١) بلغت ممتلكات دولته اقصى اتساع لها، فقد كانت تمتد في اقليم عمان من رأس مسندم الى صحار، واشتملت على بعض الاراضي الشرقية من سواحل الخليج العربي، منها ميناء بندر عباس الذي أستأجرته دولة بو سعيد من فارس لمدة عشرين عاما بمبلغ ٣٥,٠٠٠ ريال نمسوي(٢).

أما بالنسبة للممتلكات الافريقية، فقد كانت تضم الساحل الشرقي من رأس جوردفاي شمالا الى رأس دلجادو جنوبا. هذا بالاضافة الى عدة مقاطعات كانت تخضع لحماية الدولة العثمانية كمديشيو ولاموريان(٣).

وكادت تدخل ضمن هذه الدولة ايضا الاراضي الداخلية في وسط افريقيا التي كان يطرقها التجار العرب الذين لعبوا دورا مباشرا في نشر الدين الاسلامي واللغة العربية(٤). وكان سكان هذه المناطق يعترفون بشئ من السيادة للسيد سعيد عاقدين مع العرب الاتفاقات التجارية عن طريق قنصلياتهم وبيوتهم التجارية ووكلائهم في زنجبار(٥).

ولم تقصر ممتلكات دولة بو سعيد على تلك الاراضي التي ذكرناها وانما امتد النفوذ العماني الى بلاد اخرى، وان لم يتحقق لهذه الدولة ما كانت تنشده من سيطرة على تلك البلاد كجزيرة البحرين وزيلع وعدن وغيرها(٦).

وايا كان الوضع فلايجوز ان تبالغ في تصويرالتناسق الذي اتسمت به دولة بو سعيد فالسلطة المركزية لم تكن قوية الا في بعض اجزاء الدول كمدينتي مسقط وزنجبار، بينا كانت مزعزعة في المناطق الاخرى، حيث الاضطرابات القبلية والمعارضة ضد الحكم التي كنت تتمثل في الجناح المحافظ، والاعتداءات الاوهابية المستمرة على الاراضي العمانية. كل هذه العوامل كادت تقضي على سلطة بوسعيد في المنطقة الساحلية من عمان(٧).

الا ان اختيار السيد سعيد زنجبار مقراً لحكمه في عام ١٨٣٢م لم تبعده بالضرورة عن المشكلات العمانية، وان اتجاهه للشرق الافريقي لم يكن في حرصه البالغ على هذا الجزء من دولته لكثرة موارده ووفرة خيراته، اضافة الى موقعه التجاري الحيوي(٨)، وانما كان راغبا في تكوين دولة عربية في الشرق الافريقي(٩).

على ان السيد سعيد لم يلبث ان تأكد من صعوبة السيطرة على عمان من موقعه في شرق افريقا، لذلك كان مضطرا الى أن يغادر زنجبار كي يواجه المشكلات في عمان، على الرغم انه استطاع في

بداية السنوات الاولى من حكمه ان يفرض سيطرته على ممتلكاته العربية(١٠).

فتمسكه بممتلكاته الافريقية ونقله مركز حكمه اليها كان له اثر واضح في الاحداث التي ظهرت في عمان، بحيث كان السيد سعيد سلطانا على زنجبار اكثر منه سلطانا على عمان. وهذا لم يمنع ان تكون زنجبار طيلة حكمه الطويل تابعة من الناحية الرسمية لمسقط.

التقسيم الاداري للسلطنة:

اذا كان السيد سعيد قد فشل في تحقيق الاستقرار لحكمه رغم ماحظى به من تأييد أجنبي خاصة وانه كان حليفا دائما لبريطانيا طيلة حكمه الطويل(١١). خاصة وان هذا التحالف قد اثبت فعاليته على امتداد الفترة التي حكم فيها آل بوسعيد.

فالنتيجة الحتمية كانت استحالة الوصول الى حكم مستقر بعد وفاته فكان من المحتمل ان يكون السيد سعيد حين قسم دولته اداريا بين اثنين من ابنائه، انما كان يريد ان يسهل عليه مهمة ادارتها، وان كان هذا لايعني بالضرورة رغبته في تقسيم السلطنة الى دولتين منفصلتين ــ كما فسرتها الحكومة البريطانية فيما بعد.

فقد عين السيد سعيد اثنين من انجاله نائبين عنه في كل من الجزء الافريقي زنجبار، والجزء الاسيوي مسقط، للعمل اثناء الفترات الطويلة التي كان يتغيب فيها عن الحكم، ومنذ عام ١٨٣٣ كان السيد ثويني ينوب عن والده في العاصمة ــ مسقط ــ بينما كان الابن الثاني السيد ماجد ينوب منذ عام ١٨٥٤ عن والده في زنجبار(١٢) فكان من الطبيعي ان يكون لكل منهما نفوذ واسع في المنطقة التي يحكمها ولكن ليس بالدرجة التي تمكنه من ضم الجزء الاخر الى حيز نفوذه كما لايبدو ان السيد سعيد قد رشح احد ابنائه ليخلفه على الحكم بعد وفاته واصبح وضع دولة بوسعيد حرجا بعد وفاة السيد سعيد عام ١٨٥٦ حيث كان يعد اخر حاكم بارز في الخليج ويعد عهده مرحلة ناجحة في اطار الحضارة التقليدية للمنطقة ونطاقها الديناميكي، اذ ان تأثير الامبريالية الغربية وعملية التحديث للمنطقة دمرت البناء السياسي العام ان لم تكن قد دمرت كل خاصية من خواص ذلك النظام وذلك بعد اعوام قليلة من وفاة السيد سعيد، حيث تمت مبايعة السيد ماجد حاكما على زنجبار ــ وبتأييد من الانجليز ــ واعلن السيد ثويني نفسه حاكما على المملكة العمانية بما فيها زنجبار وبذلك انقسمت السلطنة بطريقة فعلية(١٤).

وقد تعرض حكم السيد ماجد في زنجبار لعدة اخطار ــ قبل ان يثبته الانجليز بتحكيمهم لعام ١٨٦١ ــ منها:

ــ الاخطار والاضطرابات التي اثارتها قبيلة الحارث أو ــ الحرث ــ اكبر العائلات في زنجبار حيث طلبت من السيد برغش ان يقودها في صراعه مع اخيه السيد ماجد والواقع ان هذه القبيلة كانت

ترغب في التخلص من حكم اسرة بو سعيد كلها، ووضع حاكم منها على زنجبار(١٥).

ـــ رغبة السيد ثويني في توحيد السلطنة تحت حكمه وكان عليه من المبررات ما يستطيع بها ان ينازع اخاه السيد ماجد وحكمه في زنجبار بوصفه اكبر ابناء السيد سعيد وهو يحكم اقاليم الوطن الام وانه يستمد من بيعة القبائل العربية له قوة في ادعائه.

وفي اطار الاستراتيجية التي فرضها مبدأ المحافظة على طرق المواصلات الى الهند نجد ان السياسة البريطانية كانت تؤيد تقسيم السلطنة وتعارض فكرة ضم ممتلكات ثويني الى ممتلكات ماجد، بحيث تضمن السيطرة على موقع يعد من اهم المواقع لحماية مصالح الامبراطورية حيث تعد الشواطئ الشرقية الافريقية امتداداً استراتيجيا يؤثر في المجال الدولي للسيطرة على الملاحة البحرية للتجارة العالمية الى الهند وقد اصطدمت خطط بريطانيا بمطالبة السيد ثويني في توحيد السطلنة انطلاقا من: ان موارد القسم الافريقي من السلطنة تبلغ اضعاف موارد القسم الاسيوي، وان امتناع السيد ماجد من دفع الاعانة السنوية الى مسقط التي قدرت ب ٤٠,٠٠٠ ريال نمسوي، قبل ان يثبتها تحكيم كاننج، اثارت مشكلة حول طبيعتها، وهل تعني نوعا من التبعية من جانب زنجبار لمسقط أم انها اعانة شخصية من اخ الى اخ، ويبدو اصرار السيد ثويني على اعتبار الامر الاول هو الذي منح السيد ماجد الى الامتناع عن الدفع(١٧).

وبذلك امتدت المشكلة بين الطرفين وكانت من الاسباب التي دفعت السيد ثويني الى اعلان الحرب ضد اخيه السيد ماجد واعادة توحيد السلطنة.

التنافس البريطاني الفرنسي:

كان لاعلان الحرب وارسال حملة في عام ١٨٥٩ الى زنجبار من قبل السيد ثويني وقع سيئ على بريطانيا خاصة وان السيد ثويني اتجه الى فرنسا من اجل مساعدته في توحيد السلطنة. وقد بثت هذه الحملة الذعر في الاوساط البريطانية خشية تعرض مصالحها في المنطقة الى المنافسة الفرنسية التي كانت ترمي الى الحصول على موطئ قدم في المحيط الهندي وفي المراكز الاستيراتيجية الحساسة على طريق الهند مما جعل بريطانيا تسارع بايقاف الحملة(١٨)، وتوجيه الاتهامات الى فرنسا التي كانت ترغب بتقديم المعونة الى السيد ثويني مقابل حصولها على بعض الاراضي في شرق افريقيا واحياء تجارة الرقيق(١٩) ـــ التي حرمتها بريطانيا ـــ نظرا لحاجتها للعمالة الافريقية للعمل في المستعمرات التي حصلت عليها والملاحظ ان اهتمام فرنسا بزنجبار جاء نتيجة لتزايد تبادلها التجاري مع الساحل الشرقي لافريقيا.

ومما لاشك فيه انه ترتب على ظهور اطماع فرنسا في زنجبار ان إزداد السيد ماجد تقربا الى الانجليز واصبح اكثر انصياعا لهم ولم يقف الامر عند حد تقديم المعونة البريطانية اليه بل حاولت

بريطانيا ان تحل النزاع القائم بين مسقط وزنجبار بطريقة يقبلها الطرفان أو يرغمان على قبولها اذا استدعى الامر ذلك انطلاقا من تصميمهم على منع أي دولة من استخدام المنطقة الحساسة بشكل يهدد الهند أو المواصلات الامبراطورية بالخطر.

بعثة كوجلان Coghlan

تتميز بريطانيا عن القوى الاستعمارية التي سبقتها الى المنطقة باتباع استيراتيجية ذات صفة غير عسكرية وهي اسلوب عقد المعاهدات والاتفاقيات مع حكام المنطقة والزامهم بنصوصها.

ومما يستوقف النظر في أمر الاستعمار البريطاني ان الاساليب التي اتبعها في السيطرة على السلطنة واحدة تقريبا، فقد جرى على اغتنام فرص وقوع الخلافات العائلية في اسرة بوسعيد وما كان يتورع عن ايجادها اذا قضت الظروف للتدخل. فيؤيد احد الفريقين المتنازعين ويكون الفوز دائما في جانب الفريق الذي يؤيده لكثرة وسائطه وتعددها ثم يبسط ظله على البلاد عن طريق الحاكم الجديد الذي يجلسه أو يعضده(٢٠).

ومعنى ذلك ان السيطرة البريطانية على السلطنة العظيمة لم تكلف الانجليز جهودا مادية تستحق الذكر بل سيطروا عليها بالطرق والاساليب الدبلوماسية وبالوسائل الاخرى التي يعرفونها مستعينين على ذلك بالزمن وقد انالهم ما يريدونه ولانظن ان استعمارا في العالم تم على مثل هذا المنوال.

فالهدف الرئيسي للسياسة البريطانية كان تقسيم السلطنة وتفتيت كيانها انطلاقا الى ما يلي:

ــ ان التقسيم سوف يمهد لها سبل السيطرة على اقليمي الدولة. وبشطريها الافريقي والعربي.

ــ ان دعمها للسيد ماجد يعني تدعيم نفوذها في زنجبار وبالتالي سيطرتها على مسقط لكونها واقعة ضمن مناطق نفوذها في الخليج العربي

ــ ان بريطانيا كانت تدرك بلاشك انها ان لم تتدخل في النزاع الناشئ بين مسقط وزنجبار بما يحقق في النهاية الهدوء والسلام في المنطقة قد تتأثر مصالحها الحيوية في الطريق الموصل الى امبراطوريتها في الهند.

ولكي يتفادى البريطانيون اتساع نطاق هذا الصراع الذي يمكنه نشر الفوضى على امتداد منطقة حوض المحيط الهندي، اقترحوا على المتنازعين على السلطة احالة الخلاف بهدف التحقيق في اسبابه على هيئة تحكيم هندية بريطانية، كان على رأسها الكولونيل دبلين كوجلان المقيم السياسي في عدن(٢١).

وكان من نتيجة الاعمال والدراسات التي قامت بها بعثة كوجلان بعد زيارتها الى مسقط وزنجبار (١٨٦٠) التعرف على مطالب وحجج كل من السيد ثويني والسيد ماجد وقد تضمنت حجج

السيد ثويني انطلاقا في رغبته في توحيد السلطنة الاتي:(٢٢)

ــ ان السيد ثويني يرى انه مادام حاكما لعمان، فهو بالتالي حاكما لتوابعها، وان والده السيد سعيد ليس من حقه ان يتنازل أو يتصرف في ممتلكاته، مؤكداً على انه ليس من حق أي حاكم ان يتنازل أو يتصرف في ممتلكات دولته.

ــ ويرى السيد ثويني ان والده السيد سعيد لم يقصد أو ينوي أو يهدف الى تقسيم سلطنته، وان تعيينه لابنه السيد ماجد ــ بعد وفاة اخيه السيد خالد عام ١٨٥٤ والذي انابه السيد سعيد على زنجبار ــ على الشطر الافريقي وتعيينه ــ أي السيد ثويني ــ على الشطر الاسيوي لايعني بالضرورة استقلال كل منهما بممتلكاته وانما حدث هذا التعيين لاسباب ادارية تنظيمية بحته. ــ وعليه فالهيمنة على شطري السلطنة تكون لمن يحكم الدولة الام، والذي ترضى به القبائل العربية.

ــ وجد السيد ثويني المبلغ الذي تدفعه زنجبار الى مسقط سنويا ما هو الا دليل كافي لتبعية زنجبار للدولة الام في مسقط.

وبالمقابل جاء تبرير السيد ماجد ضعيفا مقارنة بحجج السيد ثويني حيث اكد على ما ياتي:(٢٣)

ــ انه تم انتخابه من قبل اسرة بوسعيد المقيمة في زنجبار.

ــ وانه حصل على تأييد الزعماء الافريقيين القبليين وانه يتعامل مع القوى الاجنبية كمسؤول وحاكم زنجبار وتوابعها.

ــ اما المبلغ الذي تدفعه زنجبار سنويا الى مسقط، ما هو الا اعانة منه الى أخيه، ولا تعني التبعية له، مؤكدا على ذلك، ان السيد ثويني ارسل وفدا ــ كما ذكرنا سابقا ــ للتفاوض معه بشأن المبلغ المذكور وهذا ــ برأيه ــ اعتراف ثويني باستقلاله.

وبعد دراسة ما تقدم به الطرفان المتنازعان على السلطة، قدمت بعثه كوجلان تقريرها النهائي الى اللورد كاننج Ganng نائب الملك في الهند في عام ١٨٦١ بعد ان كان لبريطانيا دور كبير في تعويم الحقائق وعدم اقرار العدل، بحيث جاء التقرير يتفق ومصالحها في المنطقة انطلاقا من الاستراتيجية التي فرضها مبدأ المحافظة والسيطرة على طرق المواصلات الى الهند، والذي تضمن الاتي:(٢٤)

ــ ان الطريقة التي يتولى بها الحكم سلاطين اسرة بوسعيد، انما تقوم على اساس الانتخاب، وانه عقب وفاة السيد سعيد بن سلطان فان اهل زنجبار انتخبوا ابنه السيد ماجد حاكما عليهم. وعلى ذلك فليس هناك مبررا لمطالب السيد ثويني في السيطرة على ممتلكات اخيه في زنجبار، وينبغي اذا ان يبقى كل منهما سلطانا في مكانه.

تحكيم كاننج لعام ١٨٦١:

وبموجب تقرير كوجلان الذي استند عليه اللورد كاننج في وضع تحكيمه المشهور، نجحت

السياسة البريطانية في تحقيق هدفها الرئيسي وهو تقسيم السلطنة الواسعة الى دولتين:
...... دولة افريقية غنية عاصمتها زنجبار.
...... دولة اسيوية فقيرة عاصمتها مسقط.
وبمقتضى التحكيم تم اقرار ما ياتي:(٢٥)
ـ بقاء السيد ماجد في منصبه حاكما على زنجبار والممتلكات الافريقية الاخرى خلفا للسيد سعيد، والاعتراف بالسيد ثويني حاكما شرعيا على مسقط.
ـ ومراعاة للعدل في عملية التقسيم (السلطنة) تتعهد الدولة العمانية الافريقية في زنجبار بدفع تعويضات مالية ٤٠,٠٠٠ ريال نمسوي سنويا على ان تتعهد بدفع المتأخرات المستحقة عليها عن العامين الاخيرين اعتبارا من عام ١٨٥٨.
ـ وعد التعويض المالي السنوي الذي تدفعه حكومة زنجبار لحاكم مسقط هو لقاء تنازل الاخير عن كل حقوقه ومطالبه في القسم الافريقي من المملكة.
ـ وتقرر بموجب التحكيم ان يستمر هذا الحل على تعاقب الورثة من حكام الدولتين.
ـ واطلق وفقا للتحكيم لقب (سلطان) على كل حاكم منهما.
ـ كما جاء في التحكيم ايضا رفض طلب تقدم به السيد تركي بن سعيد وهو الابن الثالث للسيد سعيد الذي اعلن نفسه حاكما على القسم الشمالي من مسقط في ولاية صحار ـ في الاستقلال بولايته(٢٦).

وقد تمخض عن تحكيم كاننج، ان وجدت بريطانيا نفسها ملزمة بالاشراف على عملية دفع التعويض المالي السنوي أو حتى التعهد بدفعه من جانبها اذا لزم الامر.

وبذلك اصبحت العلاقة بين شطري السلطنة علاقة مالية فقط، واعطى التحكيم حق قطع هذه العلاقة اذا ما تعرض حاكم زنجبار لاعتداء من حاكم مسقط على ان يعرض الامر على حكومة الهند(٢٧).

وبذلك نجحت استراتيجية السلطان ماجد من تجريد اخيه من كل حق له في زنجبار، ولا يخامرنا شك بانه لولا الانجليز وتأييدهم له في حججه لما نجح في حل اهم مشكلة واجهته في حكمه. فالتأييد الخارجي له ـ لكونه الدعامة الاساسية لدولته ـ كان نقطة تحول جديدة في سياسة زنجبار تجاه مسقط.

التطورات التي اعقبت التحكيم:

ان الحل الذي فرضته بريطانيا لمشكلة النزاع بين الاخوين كان اسوأ من المشكلة نفسها من وجوه عديدة.

فالطابع الافريقي اخذ يغلب على سلطنة زنجبار بعد التقسيم، نتيجة لانقطاع الصلة بالوطن الام، حيث اتخذ السلطان ماجد بعض الاجراءات ادت الى اضعاف الصلات بين زنجبار ومسقط.

فالتقسيم لم يشطر فقط دولة قائمة وموحدة وضعها احد المراقبين البريطانيين بالدولة البحرية(٢٨) الاولى بل قوض اقتصاد هذه الدولة ووضعيتها السياسية واسهم بالتالي في انتعاش النشاط التجاري للملاحين العمانيين في زنجبار نتيجة لاضعاف الحركة الملاحية بين الشطرين حيث منع السلطان ماجد سفن مسقط من الملاحة في مياه زنجبار الا اذا اثبتت انها تتجر في سلع شرعية مستندا على اتفاقه مع بريطانيا في مكافحة تجارة الرقيق.

وانه منع مشايخ الخليج العربي ارسال سفنهم الى زنجبار وحرم على سكان زنجبار تأجير المساكن للتجار العرب الاتين من شبه الجزيرة العربية، واوقف الهدايا التقليدية التي يقدمها السلاطين لقبائل عمان(٢٩).

ولم يكتف السلطان ماجد باتخاذ هذه الاجراءات فقط وانما اصبحت اهداف سياسته تنحصر في محاولة التخلص من دفع الاعانة السنوية الى مسقط وبذلك يستطيع ان يلغي اخر مظهر يشير الى الصلة بين زنجبار ومسقط وكانت اول فرصة اتاحت له محاولة تنفيذ سياسته هذه هي مقتل اخيه السيد ثويني عام ١٨٦٦ بيد ابنه السيد سالم الذي أعلن نفسه سلطانا على مسقط(٣٠).

فكان من الطبيعي ان يعلن السلطان ماجد عن رغبته في معاقبة قاتل اخيه السيد سالم ــ الذي وصفه بالقرصان المغتصب(٣١). الا ان السياسة البريطانية الثابتة في تقسيم السلطنة وعدم فسح المجال لاية محاولة لاعادة توحيدها مهما كان السبب منعت السلطان ماجد من معاقبة السيد سالم(٣٢) الذي حصل على اعتراف لبريطانيا به حاكما شرعيا على مسقط وتثبيته سلطانا عليها، في مقابل ان يكون ركيزة للسياسة البريطانية في المنطقة وان يكون منفذا لما يملى عليه من شروط بريطانية.

وعلى اية حال فقد تشبثت بريطانيا بتحكيم كاننج والذي فرض على السلطان ماجد دفع الاعانة السنوية ووافق عليها وان هذه الموافقة ــ من وجهة نظر بريطانيا ــ جاءت بدون قيد أو شرط ولم تكن مجرد اتفاق شخصي ينتهي بوفاة احد الطرفين.

وتعهدت بريطانيا بأن تتولى هي أخذ المعونة من سلطان زنجبار وتقديمها لسلطان مسقط حتى يمكن تجنب العلاقة المباشرة بين الطرفين ــ وبدأ السلطان ماجد يوفي بالتزاماته منذ عام ١٨٦٨ ــ خاصة وان سلطان مسقط اعلن بانه عاجز عن دفع قيمة ايجار ميناء بندر عباس الى دولة فارس مما حدا بالاخيرة الى محاولة استعادة الميناء ثم محاولة القيام بنشاط بحري واسع النطاق في الخليج العربي(٣٣).

وهذا يعني ان على بريطانيا ان تضع استراتيجية اخرى من اجل تنفيذ ادوارها في المنطقة والتي رمت الى جعل الخليج العربي كله بمثابة بحيرة لبريطانيا بدون منافس.

ولم تكتف بريطانيا بذلك بل انها استغلت معاهدات منع تجارة الرقيق لكي تقضي على

الاتصالات البحرية بين مسقط وزنجبار ــ مستخدمة في ذلك حق تفتيش السفن العربية ومصادرتها وفقا لما تقرر لها في تلك المعاهدات وكان هذا اخر حل وصلت اليه السياسة البريطانية للقضاء على الامل الذي قد يراود بعض حكام المنطقة في احياء السلطنة العربية الافريقية.

الخاتمة

في ضوء ما تقدم نستطيع ان نقول ان الذي يبحث في احداث هذه الفترة التاريخية للسلطنة العربية الافريقية لابد وان يتأكد من ان حكام أسرة بوسعيد ــ والذي امتاز تاريخ حكمهم الطويل بالخضوع للسيطرة البريطانية . لم يكنوا يعرفون اسباب التخبط الذي كانوا غارقين فيه، لان احداثا تخرج من سيطرة يدى حاكم كالتدخل البريطاني والتغيرات الاقتصادية والملاحية في المحيط الهندي، ربما كانت من الاسباب الرئيسية لانهيار امبراطوريتهم، وكان من الممكن بالاستخدام الذكي للامكانيات السياسية والاقتصادية التي كانت لدى سلاطين بوسعيد ان يحافظوا على دولتهم بشطريها العربي والافريقي الا ان ممارسة الوجود البريطاني في المنطقة انطلاقا من مبدأ توازن القوى بين الدول الاوروبية الكبرى الطامعة في المنطقة كان سببا رئيسياً في انهيار وتفتيت السلطنة والتغلغل فيها وبذر انشقاقها وهدمها في النهاية.

وبذلك نجحت السياسة البريطانية في تحقيق الابعاد الثلاثة في هذه المنطقة وهي: البعد الامبريالي والبعد الهندي والبعد السياسي وكان لكل منها نصيب في تكييف السيطرة البريطانية. وغنى عن البيان ان فوز الاستعمار البريطاني بامتلاك السلطنة وتفتيتها ساعده على التسلط على المناطق الاخرى تدريجيا.

وبصرف النظر عن الافتراضات والتخمينات فانه من الواضح ان السيد سعيد بن سلطان ــ رغم كل شئ نظرا لتورطه مع الانجليز ــ الا انه كان ولا يزال يعد أهم وأقوى حكام اسرة بوسعيد.

وهكذا اختتمت هذه الحقبة من تاريخ السلطنة العربية الافريقية التي اقترنت بها العلاقات العربية الافريقية بالنمو والازدهار للجانبين بينما عرفت العلاقات العربية والافريقية بالدول الاستعمارية بالنزف المادي والقهر البشري. كما هو معروف تاريخيا.



الهوامش

٢. روبرت جيران لاندن: عمان منذ ١٨٥٦، ترجمة محمد امين عبد الله، لبنان، ١٩٧٠، ص١٩٤.

٣. د. جمال زكريا قاسم: دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا منذ تأسيسها حتى انقسامها (١٧٤١ ــ ١٨٦١)، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٧، ص٢٥٤.

٤. جون جوزيف: الاسلام في ممالك وامبراطوريات افريقيا السوداء، ترجمة مختار السويفي، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٨٤، ص١٤٠.

٥. James B: Missionary Reseave hes and Travets to Tanganika, Dublin, 1970, P.47

٦. د. جاد محمد طه: دور بريطانيا والمانيا في تفكيك سلطنة زنجبار، العلاقات العربية الافريقية، معهد البحوث والدرسات العربية، القاهرة، ١٩٧٧، ص١٠٦.

٧. Conpland R: East AFrica and Its Invaders, Oxford Press, London, 1938, P.6.

٨. «عرف عن السيد سعيد انه كان اكثر ميلا الى التجارة منه الى المنازعات السياسية»

ــ روبرت جيران لاندن، مرجع سبق ذكره، ص٦٦.

٩. Pears F.B: Zanzibar, The Island Metropchs of Eastern AFrica, London, 1920, P116.

١٠. «على الرغم من الخطر الذي كان يهدده في عمان فانه لم يعد اليها الا في عام ١٨٥١ بعد ان نصحه الانجليز الذي بدأ الخوف يساورهم من تغلب العناصر المتطرفة المتمثلة من جماعة قيس من البطانة الممثلة في الفئات الاباضية المحافظة اضافة الى المناطق الداخلية من عمان حيث كانت تضطرم بالقلاقل».

روبرت جيران، مرجع سابق، ص٦٤.

١١. «ان النفوذ البريطاني بدأ بالتغلغل الفعلي في زنجبار منذ ان عقدت بريطانيا مع السيد سعيد معاهدة عام ١٨٣٩ استنادا لمعاهدة Moresby Treaty كان من اهم نصوصها: ان يعمل السيد سعيد على اتخاذ اجراءات اكثر حزما ضد تجارة الرقيق (الرابحة آنذاك) كما اعطيت للسفن البريطانية حق تفتيش المراكب في الموانئ التابعة للسيد سعيد للتأكد من خلوها من الرقيق»

ورد ذلك في كتاب روبرت جيران لاندن: مرجع سبق ذكره، ص٦٢.

A. J. Arberry and Rom Landan: Islam Today London, 1942. P. 124

١٢. د. السيد رجب حراز: بريطانيا وشرق افريقيا من الاستعمار الى الاستقلال، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧١، ص١٤٠.

١٣. Lyne: R.N: Zanzibar In Contamporay, Times, London, P. 49

١٤. Ibid., P. 50

١٥. د. جمال زكريا قاسم: مرجع سبق ذكره ص ١١٩.

١٦. «حيث بادر السيد ثويني بارسال ابن عمها محمد بن سالم مبعوثا الى اخيه السيد ماجد للتباحث حول المشاكل السياسية بينهما وكانت نتيجة هذه المباحثات تعهد السيد ماجدبدفع ٤٠,٠٠٠ ريال سنوي الى اخيه السيد ثويني على ان يتخلى الاخير عن مطالبته باقليم زنجبار».

روبرت جيران لاندن: مرجع سبق ذكره ص٦٦.

١٧. Coupland R: Op. Cit., P.151

١٨. «حيث سارعت السلطات البريطانية في الهند بارسال الكولونيل رسل Russel لمنع الحملة مما اضطر السيد ثويني الى التراجع الى مسقط بعد ان اغلق الاسطول البريطاني الطريق في وجهه.

ـ د. صلاح العقاد، د. جمال زكريا قاسم: زنجبار، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٩، ص١٢١.

١٩. «كانت تعتبر جزيرة زنجبار من المراكز المهمة والرئيسية لتجارة الرقيق قبل تحريمها»

Jasper H. Stembridge. The World, ACaneral Regional Geography. at Ford univ press, London, 1939, P361.

٢٠. محمد سعيد: تاريخ الاستعمار الانجليزي في بلاد العرب، الجزء الاول، مطبعة عيسى البنامي الحلبي، القاهرة ١٩٣٦، ص٣٨٩

٢١. «ليس الهدف من ارسال بعثة كوجلان تحقيق الهدوء بين البلدين فقط وانما لمنع تدخل الفرنسيين في تلك المناطق الهامة على الطريق البحري الى الهند»

روبرت جيران لاندن: مرجع سبق ذكره، ص١٧٧.

٢٢. المرجع السابق، ص ٦٦.

٢٣. المرجع السابق.

٢٤. د. جاد محمد طه: مرجع سبق ذكره، ص١٠٥.

٢٥. ج.ج. لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي، ترجمة مكتب صاحب السمو امير دولة قطر، الجزء الثاني، ص٧٣١.

٢٦. د. جمال زكريا قاسم: مرجع سبق ذكره، ص٢٥٨.

٢٧. روبرت جيران لاند: مرجع سبق ذكره، ص٦٨.

٢٨. «كان يتألف اسطول السيد سعيد من ١٥ سفينة حربية من الطراز الاوروبي، ٧٤ سفينة مقاتلة وخمس فرقاطات وعدد كبير من السفن الغربية الطراز»

روبرت جيران لاندن: المرجع السابق، ص٦٦.

٢٩. د. صلاح العقاد، د. جمال زكريا قاسم: مرجع سبق ذكره، ص١٣٠.

٣٠. ج.ج. لوريمر: مرجع سبق ذكره، ص ٧٤٥.

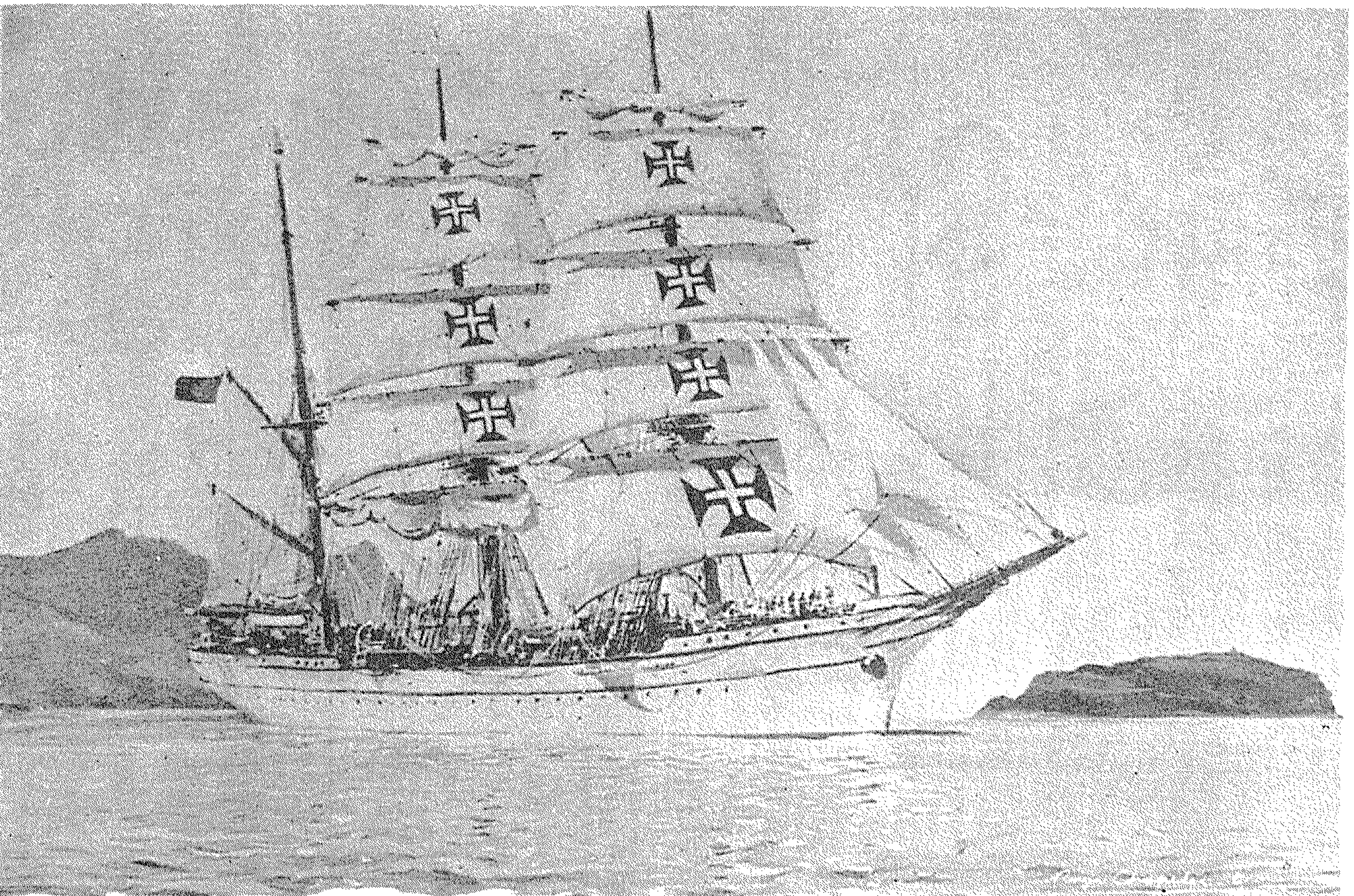
٣١. المرجع السابق.

٣٢. «انطلاقا من وجهة نظر بريطانيا في مقتل السيد ثويني بيد ابنه السيد سالم والتي تنحصر في انه (اي سالم) ليس اول حاكم شرقي اعتلى السلطة وسط الدماء والسيد سعيد نفسه طعن ابن عمه السيد بدر واحتل مكانه في السلطة»

رودولف سعيد روث: سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان (١٧٩١ ـ ٨٥٦)، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، مركز دراسات الخليج العربية، جامعة البصرة، ١٩٨٣، ص١٧٧.

٣٣. Lyne. R.N: Op. Cit., P45.





من سفن الاسطول البرتغالي الذي غزى شرق افريقيا والخليج العربي

الاسلام والصليبيون في ساحل افريقيا في العصور الوسطى

د. السر سيد أحمد العراقي
كلية الاداب/ جامعة ام درمان الاسلامية

المقصود بساحل شرق افريقيا تلك المنطقة التي تحتل مساحة كبيرة تمتد بين خطى عرض ٥ شمالا و١٠ جنوبا أي انه يشغل حوالي ١٥ من درجات العرض. والمقصود بساحل شرق افريقيه في العصور الوسطى هي أرض الزنج الاسلامية الممتدة من مقديشو شمالا حتى سوفالا (روديسيا) جنوبا(١) يضاف اليها الحبشة المسيحية ودول الطراز الاسلامي في منطقة القرن الافريقي، وهي المنطقة التي دخلها الاسلام منذ أن هاجر اليها جعفر بن ابي طالب(٢) وظلت منطقة ساحل افريقية اسلامية خالصة حتى مجئ البرتغاليين عام ١٤٩٧ بقيادة فاسكو دي جاما.

ونضال المسلمين في ساحل شرقي افريقية والحبشة ضد تقدم البرتغاليين واعمالهم الوحشية ضد المسلمين هي التي نعنيه بالحروب الصليبية لان البرتغاليين نقلوا معهم الى هذه الجهات كل فضائح الصليبيين التي مارسوها ضد المسلمين في الشرق الاوسط حول بيت المقدس وغيرها من الامارات الاسلامية في تلك الجهات حتى ليخيل الى الكثيرين ان مسرح الحروب الصليبية قد انتقل الى شرقي افريقية خاصة وقد دخلت هذا الميدان قوى أخرى جديدة تتمثل في دولة المماليك في مصر والشام ومن بعدها الدولة العثمانية التي بسطت سيطرتهاعلى الشرق الادنى والاوسط واستولوا على سواكن وجزيرة زيلع في مدخل البحر الاحمر الجنوبي وانشأوا علاقات مع المسلمين في الحبشة وسواحل شرقي افريقية ونافسوا البرتغاليين في المحيط الهندي(٣)

على هذا النحو اضحى النضال الاسلامي في سواحل افريقيا وداخلها مغذى للنضال العثماني — البرتغالي أو النضال االاوروبي في حوض البحر الاحمر ثم البحر المتوسط بعد ذلك. وبعبارة اخرى فأن نضال المسلمين في سواحل افريقيا الشرقية والحبشة صورة من صور النضال المزمن بين الشرق والغرب

وهو من جانب أخر امتداد لذلك النضال القديم بين فارس والروم وصداه داخل شبه الجزيرة العربية(١)، وهو ايضا الصراع بين الشرق والغرب في العصور الوسطى الذي اصطلح على تسميته بالحروب الصليبية. وهي تلك الحروب الاستعمارية التي شنتها اوروبا تحت اسم الدين، ثم ذلك النضال الذي شمل المسلمين وجمع كلمتهم في ذلك الوقت خلال القرن الحادي عشر الى نهاية القرن الثالث عشر. وتاريخ الاستعمار الاوروبي لافريقيا منذ حركة الكشوف البرتغالية فيها، مليء بالمآسي، كما أنه مليء بالبطولات القومية الفذة، وهي التي خلدها التاريخ خلال مراحل الكفاح الوطني.

والحروب الصليبية مرحلة من مراحل الكفاح بين الشرق والغرب بل هي أهم الفصول في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب. والصراع بين الشرق والغرب قديم ولا يزال قائما حتى اليوم. وهو صراع بين مدنيتين مختلفتين وعقيدتين متباينتين وهو من ناحية اخرى دليل على رغبة بعض الناس في التسلط على البعض الاخر. ومن صور الصراع بين الشرق والغرب ذلك الذي وقع بين الفرس والاغريق قديما. وامتد الى فجر العصور الوسطى، وهو اول مراحل هذا الكفاح. وكما توغل الاغريق في قلب آسيا زمن الاسكندر الاكبر توغل الفرس في قلب بلاد الاغريق ثم كانت حركة الفتوح الاسلامية الكبرى في العصور الوسطى ووصول المسلمين الى قلب اوروبا. بل يضم الى هذا قيننا اواخر القرن السابع عشر.

ثم جاءت حركة الصليبيين في العصور الوسطى بهدف ظاهري هو الاستيلاء على أرض الميعاد، لان خطر استيلاء المسلمين على اوروبا ظل ماثلا في اذهان الاوروبيين. ولذا فالحروب الصليبية من هذه الناحية رد فعل من قبل الغرب ضد الشرق وبهذا تكون الحروب الصليبية قد حمت اوروبا من توغل المسلمين فترة طويلة اتاحت الفرصة للغرب ان يقوى نفسه وان ينمي مدنيته الى ان نهض الاسلام مرة اخرى من جديد في العصور الحديثة من ناحية الضغط على اوروبا على ايدى العثمانيين.

وتعتبر الحروب الصليبية دورة الاحياء الديني الذي بدأ في اوروبا اثناء القرن العاشر، وارتفع شأنه خلال القرن الحادي عشر نتيجة لحركة البعث الديني والاصلاح الذي نهضت به الحركات الدينية. ونظر بعض الاوروبيين من رجال الدين الى الحروب الصليبية على انها حرب مقدسة ووسيلة للخلاص الروحي وغفران الخطايا وانها الطريق المؤدي لنيل السعادة الابدية. واعتبر الحج الى الاراضي المقدسة من اهم الوسائل للتوبة وهو من اعمال التكفير عن الذنوب مثل الصيام والايذاء البدني.

ومن صور الحروب الصليبية كذلك ما قام في غرب اوروبا ضد مسلمي الاندلس سواء اكان من ناحية الفرنجية أم من ناحية مسيحي اسبانيا وكذلك الكفاح الذي قام به النورمان وغيرهم ضد المسلمين في صقلية وفي جنوب ايطاليا. وقد وعد البابا خلال هذا الصراع ان من يموت دفاعا عن الصليب سوف يظفر بالخلاص الروحي. وقد بارك البابوات هذا العمل ولهذا اثره الكبير في استعادة صقلية من ايدى المسلمين. وشجع هذا التوفيق على ارتياد منطقة الشرق الاوسط وسواحل افريقية،

لان البابا كان قد اصدر قرارا بابويا عام ١٤٥٦ يقضي بتقسيم الاملاك بين البرتغاليين واسبانيا.

ومن صور الحروب الصليبية في اوائل العصر الحديث حروب العثمانيين ضد الدول الاوروبية واخذت صور دينيال ولاسيا حين تكون حلف مسيحي في جنوب شرق اوروبا لمقاومة الزحف العثماني. وفي اقصى المشرق بجزائر الفلبين كان للمسلمين سلطنة كبيرة هي سلطنة بورنيو التي اشتد عليها الصراع بين المسلمين والاسبان في اوائل القرن السادس عشر وربما كان المستعمرين الاسبان مدفوعين بالحقد على المسلمين الذين كانوا قد استولوا على بلادهم (الاندلس) من قبل. ونظر المسلمون في جزائر الفلبين الى الحرب ضد الاسبان الى انها جهاد في سبيل الله، وقد دوخوا الاسبان حتى اعترفوا باستقلالهم وذلك في اوائل القرن التاسع عشر.

والحروب الصليبية التي امتدت نحو من قرنين كانت من بعض الاحداث الكبرى التي واجهت المجتمع الاسلامي وكانت اضخم الاحداث بما كان من وقائعها وحروبها وبما كان من اثارها ونتائجها. وسميت هذه الحروب التي خاضتها اوروبا المسيحية ضد المسلمين في الشرق الاوسط وافريقيا وغيرها من بلاد العالم الاسلامي لانها حروب شنتها باسم الدين. وفي كل حروبات اوروبا ضد المسلمين في كل مكان حل الاوروبيون الصليب على صدورهم ونقشوه على اسلحتهم وعلى رؤوس اعلامهم.

أهداف الكشف البرتغالي:

كانت الفكرة الصليبية واضحة في مشروع الكشف العام للبرتغاليين الذي وضعه هنري الملاح بين ملك البرتغال وبدأه بانشاء معهد بحري في مدينة ساجر بالبرتغال عام ١٤١٩ وكما ذكر طرخان فقد اوقف هنرى الملاح حياته وجهوده لتنفيذ المشروع العام لحركة الكشف الجغرافي ويرمي من وراء هذا المشروع الى هدفين:(٥)

أولها: تعقب المسلمين في شمال افريقيا ونقل الحروب الصليبية الى بلادهم والمعروف عن تاريخ البرتغال ومبدأ تكوينها ان اصول هذا التكوين لم تكن سوى فصل من فصول الحروب الصليبية الدائرة رحاها في الشرق الاوسط وفي اسبانيا الاسلامية في وقت معا خلال القرن الثاني عشر. فيذكر عن البرتغاليين انهم انتهزوا فرصة مرور حملة صليبية متوجهة الى الشرق لتنضم الى جموع الحملة الصليبية الثانية التي اعدتها اوروبا على أثر سقوط امارة الرها الصليبية في يد عماد الدين زنكي عام ١١٤٤. والمعروف ان امارة الرها هي أول امارة اسلامية يستولى عليها الصليبيون وهي أول امارة كذلك يستعيدها المسلمون عام ١١٤٤. وقد اغرى البرتغاليون هذا الفرع الصليبي المار ببلادهم بان البرتغال ميدان خصب للحروب الصليبية ولاداعي للرحلة الطويلة الشاقة الى الشرق. وكان هذا الفرع مكونا من جموع الفلمنكيين والفرزيين والفلاندرز والسكندنافيين والالمان والانجليز وافق البعض

وتودد البعض الاخر واخيرا تقدموا لمساعدة البرتغال في حروبها ضد المسلمين في بلادهم واستطاعوا انتزاع مدينة الاشبونة (لشبونة) الاسلامية بعد حصار دام اربعة شهور عام ١١٤٧ وذبحو حاميتها الاسلامية بعد ان امنوها وبعد الانتصار سافر بعض الصليبيين الى الشرق ولكن اغلبهم بقي في البرتغال والى هذا الحادث يرجع التحالف الطويل الامد بين البرتغال والانجليز. اذن فالفكرة الصليبية واضحة في مشروع هنرى الملاح للكشف والاستعمار.

الهدف الثاني: الوصول الى ذهب السودان عن طريق البحر وتحويل التجارة عن طريق القوافل الى الطريق البحري والى موانئ المحيط الاطلسي بدلا من موانئ البحر المتوسط على أن هنرى اعلن بعد ذلك انه يريد فتح طريق بحري الى الهند واماطة اللثام عن لغز مملكة القديس يوحنا، وتحويل الوثنيين الى المسيحية ومملكة القديس يوحنا هي أحدى الممالك المسيحية التي تحدثت عنها اقاصيص الرحلة في العصور الوسطى، ولكن لم تحدد هذه الاقاصيص موقع المملكة تحديدا واضحا، ولكن فهم انها تقع في مكان ما وسط القارة الافريقية ولم يعثر البرتغاليون على طول الساحل الغربي لافريقيا على اثر لتلك المملكة فقد رجحوا ان تكون في الجانب الشرقي للقارة وربما كانوا يعنون بتلك المملكة دولة الحبشة المسيحية. معنى ذلك ان منطقة افريقيا الشرقية المواجهة للمحيط الهندي كانت تحقق كذلك جميع الاهداف بالنسبة للبرتغاليين. فالامارات التي تنتشر على ساحل افريقيا الشرقي امارات اسلامية، وتخضع لحكومة اسلامية مركزية في كلوة عاصمة امبراطورية الزنج الاسلامية التي تمتد من مقديشو شمالا الى سوفالا جنوبا يضاف اليها الممالك الاسلامية الموجودة في منطقة القرن الافريقي وتناصب الحبشة المسيحية العداء وهي ممالك سبعة اشتهرت باسم دول الطراز الاسلامي هذا بجانب ان مناجم الذهب موجودة في روديسيا خلف هذه الامارات وقد ظهر ان العرب يستفيدون من هذه المناجم ثم أن مملكة القديس يوحنا تقع قريبة منهم(٦).

ومن العوامل التي أدت الى نجاح هذا المشروع والاستمرار فيه الى نهايته صدور امر بابوي في عام ١٤٥٦ يثبت حق البرتغاليين في امتلاك الارض التي يكتشفونها ويقضي بتقسيم المكتشفات ا لجديدة بين اسبانيا والبرتغال ويجعل الملاحة ما بين غرب افريقيا حتى الهند احتكار للبرتغاليين بينما يختص الاسبان بالجزء الغربي من الكرة الارضية.

يضاف الى تلك الاهداف ان اوروبا المسيحية لم تنسى ما لحق بها من هزائم انتهت بطرد الصليبيين من العالم العربي. ومنذ ذلك الحين كانت تسعى حثيثا لايجاد طريق يمكنها من تطويق العالم الاسلامي من الجنوب والسيطرة على التجارة الشرقية ومصدر رخائه وقوته. وكانت البرتغال بسبب قربها من مسرح الصراع بين المسلمين والمسيحيين في اسبانيا ووقوعها تحت تاثير تجارة جنوة اكثر الدول اهتماما بهذا الامر. وحاولت استغلال فكرة الدوران حول القارة الافريقية التي روج لها الجنوبيون. ومع ان التجارة الشرقية كانت سببا هاما في القيام بهذه الرحلات الا ان المحرك الاساسى كان دينيا. بل ان بعض المؤرخين يصفون هذه الرحلات بانها موجه جديدة في سلسلة الحروب الصليبية. وقد اجمل عمانويل الثاني ملك البرتغال (١٤٩٥ ــ ١٥٢١) هذه الدوافع عند وصفه لاسباب رحلة

فاسكو دى جاما الاولى للهند بقوله: ان الغرض من اكتشاف الطريق البحري الى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الهند.

أحوال المسلمين عند دخول البرتغاليين السواحل الشرقية الافريقية:

منذ تاسيس سلطنة كلوة عام ٩٧٦م على يد على بن حسن الشيرازي وحتى دخول البرتغاليين الساحل في نهاية القرن الخامس عشر كانت لهذه السلطنة السيادة والنفوذ على معظم الامارات الساحلية. وخلال تلك الفترة ازدهرت تجارة العاج والرقيق والذهب، ونمت ثروة المراكز التجارية واتسعت المدن وبلغت مستوى راقيا من الحضارة. ولم تكن كلوة اقوى دول السساحل فقط بل انها كانت اوفرها حضارة وكانت حضارة ذات مظاهر عربية وفارسية. وقد ادخل الشيرازيون اساليبهم في البناء وفي النقش على الخشب ونسج القطن. وشيدوا عدة مساجد ومباني جميلة مازالت مخلفاتها باقية الى اليوم. وازدهرت الصناعة والزراعة. واشتهرت كلوة بالنهضة الادبية والعلمية(٧).

الا ان هناك عدة عوامل عجلت بسقوط هذه الامبراطورية العظيمة. وقد بدأ الافول السياسي لها منذ نهاية القرن الخامس عشر. ولم يكن هذا الافول نتيجة ظهور البرتغاليين في شرق افريقيا فحسب، بل كانت هناك عملية تدهور مستمر لهذه الامارات منذ مطلع القرن الخامس عشر تقريبا.

ومن أهم العوامل التي اضعفت هذه الامارات تنازعها فيا بينها على السيادة والنفوذ وذلك بجانب الانقسام الداخلي في حكومة كلوة المركزية فقد اشتد بحيث اصبح سلاطين كلوة الاواخر مسلوبي السلطة والنفوذ وهذا بجانب ضعف الروح العسكرية وتفكك القوات. لذلك كانت أحوال العرش في كلوة عند ظهور البرتغاليين في شرق افريقيا في حالة يرثى لها. فالثابت ان عرش كلوة قد اصابه التصدع والانهيار عقب وفاة السلطان ابي المواهب (١٣٠٨ ــ ١٣٣٤) الذي يعتبر من أعظم سلاطين امبراطورية الزنج نفوذا وقوة. وقد زار بلاطه الرحالة المعروف ابن بطوطة عام ١٣٣٣م وشهد بان عصره يمثل العصر الذهبي لسلطنة الزنج الاسلامية(٨). وبوفاة هذا السلطان العظيم بدأ يخيم الظلام ويعم التدهور والانحلال في جسم الامبراطورية اذ حكم في كلوة سلاطين ضعاف ساعدوا بضعفهم على انهيار هذه الامبراطورية العظيمة.

وكانت السلطة الفعلية في البلاد تحت ايدى الوزراء والامراء الذين كانوا اكثر ثراء أو نفوذ واستطاعوا بنفوذهم وقبضتهم على ناحية الامور اقصاء السلاطين واستبدالهم باخرين. ومحمد كيواب هو اشهر هؤلاء الوزراء نفوذا واستبدادا(٩). وهذا يشبه الى حد كبير حجاب القصور في اواخر الدولة الميروفنجية، ومن نوع صناع الملوك الذين ظهروا في القرن الخامس الميلادي في الشطر الغربي من الامبراطورية الرومانية. لذلك عندما وصل البرتغاليون ساحل افريقيا الشرقي لم يجدوا سوى بلاطه ممزق وقوة عسكرية ضعيفة فضلا عن عدم اتحاد الامارات ووقوفها قوة واحدة. ولعل للعامل الجغرافي اثره في ان امبراطورية كلوة هذه لم تكن امبراطورية موحدة من نوع الامبراطوريات القديمة

أو الامبراطورية الاسلامية، وانما كانت امبراطورية من نوع امبراطوريات العصور الوسطى الغربية وأبرز هذه الامبراطوريات مشبها بها الامبراطورية الانجوفية في القرن الثامن عشر، التي كانت املاكها موزعة بين القارة الاوروبية في فرنسا وبين الجزر البريطانية المنعزلة عن قارة اوروبا أي انها لم تكن امبراطورية بالمعنى الصحيح(١٠). وهذا ما يسمى مهمة البرتغاليين في القضاء على عناصرها الممثلة في الامارات كل امارة على حدة، دون ان تنهض الاخرى وتنطوي تحت لواء السلطان الاكبر لمقابلة البرتغاليين قوة واحدة، حقيقة حدث ان تحالفت بعض الامارات معا ضد البرتغاليين، لكن بعد ان فات الأوان، بعد ان سيطر البرتغاليون على شرقي افريقيا، وشنوا حربا متصلة ضد مسلمي الساحل وقد بدأت فترة من الصراع العنيف بين البرتغاليين وبين اهالي المدن الاسلامية السلطية. فقد هاجم هؤلاء كلوة وممبسة وزنجبار وبيت، وبدأوا اعمال القرصنة ضد مقديشو ومرارة، وهكذا نرى ان البرتغاليين يشنون حروبا صليبية ضد المسلمين في شرقي افريقيا ومن المدهش حقا ان من نتائج الحملة الوحشية ان انتشر الاسلام لان المسلمين تركوا الساحل امام نيران المعتدين ولجأوا الى الداخل حيث اختلطوا بالقبائل فازداد انتشار الاسلام(١١).

بدأ البرتغاليون في ارسال اساطيل ضخمة الى المحيط الهندي. وفي الفترة ما بين ١٥٠٠ ــ ١٥٠٩ سيطروا على معظم ساحل شرقي افريقية واسروا عددا من المستعمرات. وقد نجحوا ليس فقط في اخضاع امبراطورية الزنج بل اخضعوا البلادالتي حول الخليج بما فيها مدن هرمز ومسقط بالاضافة الى اجزاء من سيلان كما ضموا ملقا ومجموعة جزر الملايو وكثيرا من المناطق والمراكز المنتشرة حولها(١٢).

البرتغاليون وحركة الجهاد في شرقي افريقيا:

وصل البرتغاليون الى مالندى (في كينيا الان) وكان على رأسهم فاسكو دي جاما وقد وجدوا ثغرة خطيرة في مالندي وهي خيانة حاكمها الذي اراد ان يتخلص من تبعيته لسلطان كلوة فارتمى فيأحضان الغزاة وقدملهم جميع انواع المساعدة التي يحتاجون اليها. وكان حاكم مالندي يتمنى ان يجد في فاسكو دى جاما الحليف والصديق ضد امارة ممبسة الاسلامية اذا كانت مالندى تدخل في صراع عنيف مع جارتها اللدود ممبسة منذ ان جعل على بن حسن مؤسس امبراطورية الزنج مالندي امارة تابعة لممبسة وقد طلب داجاما من حاكم مالندي ان يساعده بمرشد ماهر في الملاحة الى الهند فامده الملاح العربي النجدي واسمه شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي وكان ابن ماجد ينحدر من اسرة خبيرة بفنون الملاحة. وامده حاكم مالندي ببعض الملاحين العرب والهنود. وفي خلال هذه الرحلة تأكد لداجاما اهمية ساحل شرقي افريقيا بالنسبة لامبراطورية البرتغال واحتكار تجارة التوابل بين الشرق الاقصى واوروبا واحتكار الذهب شرقي افريقيا لان التجار في الهند لا يبيعون الا بالذهب(١٣).

كانت ممبسة من اكثر الامارات الساحلية التي حاربت البرتغاليين لدرجة ان لقبوها باسم (جزيرة الحرب) لانها كانت شوكة في ظهورهم وقاومتهم بكل بسالة وشجاعة من اجل المحافظة على تقاليدها وتراثها العربي الاسلامي. وخلال المائتي سنة التي قضاها البرتغاليون في الساحل كانت ممبسة هي المصدر الرئيسي للثورات والعصيان على سيطرة البرتغاليين وسيادتهم على الساحل الا ان السلاح الناري كان العامل الحاسم في المعارك وتغلب على الشجاعة والاسلحة البدائية وكان عامل قوة ممبسة وصمودها يكمن في ازدهار تجارتها وامكانياتها المادية الهائلة. وقد اثبتت كل التقارير انه كان لدى ممبسة عند ظهور البرتغاليين على الساحل مخازن عديدة وكميات ضخمة من الذهب والفضة والعاج والاحجار الكريمة والاقمشة الهندية والفارسية وكميات وفيرة من ارز وعسل ودواجن بالاضافة الى قطعان الماشية والضأن وكانت تجارتها مزدهرة مع سوفالا وكل امارات ساحل شرقي افريقيا الاخرى بالاضافة الى دول البحر الاحمر والخليج العربي بالاضافة الى الهند(١٤)

نظم شيخ ممبسة المقاومة من العرب والافريقيين وانتظمت روح المقاومة التي امتدت الى زنجبار وبمباسا وكلوة ومقديشو التي اضطر البرتغاليون الى ضربها بالمدافع. وقاومت مقديشو جميع المحاولات التي بذلها البرتغاليون لاخضاعها لانها تمتعت بمناعة أسرارها وحصونها، واشتهرت بثروتها الضخمة وكثرة عدد سكانها فلذا كانت مركزا للمقاومة وظلت تناصب البرتغاليين العداء طوال مدة اقامتهم على الساحل(١٥).

تمكن البرتغاليون من كسر شوكة المقاومة بفضل السلاح الناري الذي يمتلكونه. وعندما خلا الميدان لهم انتزعوا التجارة البحرية من العرب وتفرغوا لتنظيم شئونهم في الساحل الشرقي الافريقي وقرروا منذ البداية الاكتفاء بالاستيلاء على المنافذ البحرية كشرط ضروري لضمان التفوق البحري. وقسم البرتغاليون الامبراطورية الى اربع مجموعات من المحطات البحرية لكل منها حاكم يعينه نائب الملك في الهند الذي اتخذ مقره في جوا بالهند، وهذه المجموعات هي ساحل شرقي افريقيا وهرمز وتوابعها على ساحل العرب جزيرة سيلان وملقا. وفيما يختص بشرقي افريقيا، فقد ارتكز البرتغاليون على القسم الجنوبي من الممتلكات العربية الاسلامية بسبب اعتدال المناخ وقرب مناطق الجنوب من مناجم الذهب الداخلية. وفيما يتعلق بالمناطق الشمالية اكتفوا بالاعتماد على محالفة حكام مالندى الذين كانوا يتلقون من البرتغاليين معونة عسكرية(١٦).

ابدت اليمن ومصر اهتماما شديدا بالغزو البرتغالي ولكن امكانتها البحرية كانت ضئيلة. فالدولتان لا تملكان اسطولا حربيا يقوى على مواجهة الخطر البرتغالي. وفي عام ١٥٠٧ غامر السلطان عامر بن عبد الوهاب الذي كان مشغولا ببعض الفتن الداخلية بحملة واحدة مكونة من اربع عشر سفينة وستمائة مقاتل بعضهم من الطلاب المتطوعين البرتغاليين في الهند ولم يعرف شئ عن مصير تلك الحملة. ومن قبلهم سعى المماليك لمواجهة البرتغاليين لفك الحصار الذي فرضوه على السفن والتجارة العربية في المحيط الهندي وتلبية لاستنجاد ملك اليمن بهم(١٧). كانت خطتهم تقوم على تقوية الحكم المملوكي في البحر الاحمر وسواحله بما في ذلك ميناء جدة وبخاصة بعد ان اعلن

البرتغاليون عزمهم على مهاجمة الحرمين الشريفين وتخريبها وفي سنة ١٥٠٥ بعث الملك قنصوه الغوري باسطول حربي بقياد حسين الكردي فشيد تحصينات جيدة في ميناء جدة، لرفع كفاءتها القتالية ثم استولى على سواكبة وزار بعض الموانئ اليمنية ثم عدن ثم خرج لمواجهة البرتغاليين حيث اصطدم بهم امام ديو وتمكن بمعاونة بعض الامارات الهندية من احراز نصر جزئي لم يدم طويلا اذ حلت الهزيمة به في فبراير سنة ١٥٠٩ فانسحب الى البحر الاحمر تاركا المحيط الهندي تحت سيطرة البرتغاليين الذين زادت جرائهم(١٨).

ولما تكررت الاعتداءات البرتغالية على البحر الاحمر استنجد قنصوه الغوري الذي كان يعد العدة لمواجهة اخرى مع البرتغاليين في الهند بالسلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١ — ١٥١٢) يطلب منه مده بالاخشاب والعتاد فامدهبايزيد مما يحتاج اليه هدية مضافا اليها نحو الفين من البحارة بقيادة سلمان الريس للساعدة في تشييد السفن والمشاركة في رحلة الهند(١٩).

وبدخول العثمانين القاهرة في ١٣ ابريل ١٥١٧ طويت صفحة عن عهد رائع من انبل العهود الاسلامية كللت فيها مساعي المماليك بالنصر على المغول والصليبيين ولكنها اخفقت في رد عادية البرتغاليين وورث العثمانيون دولة المماليك وتبنوا سياستها في مواجهة الخطر البرتغالي والدفاع عن البحر الاحمر وحماية الحرمين الشريفين(٢٠)

تفرغ العثمانيون في عهد السلطان سليمان القانوني الى بلاد الشرق الاوسط وافريقيا فتمكنوا من انتزاع العراق من الصفويين عام ١٥٣٤ وبذلك اصبح العراق ولاية عثمانية خاضعة للسلطة المركزية في القسطنطينية. وقد سعى الصفويين كثيرا لاستيرداد العراق من العثمانيين وتمكنوا بالفعل من الاستيلاء على بغداد فيما بعد وذلك في عام ١٦٠٢ الا ان حكمهم الجديد لم يستمر طويلا اذ تصدى لهم السلطان مراد الرابع ودخرهم وافتتح العراق مرة ثانية عام ١٦٣٨. وتابع العثمانيون مجهوداتهم لبسط سياستهم على سائر اجزاء شبه الجزيرة العربية كاليمن وسواحل البحرين وعدن ومسقط وكان هدفهم الاساسي هو حماية الاماكن المقدسة بالذات من عبث البرتغاليين وغاراتهم المتكررة. بالرغم من مجهودات العثمانيين الكبيرة لمحاربة البرتغاليين واسقاط نفوذهم التجاري في شرق افريقيا وتحطيم التطويق البحري الذي احكمه على الطريق التجاري الى مصر والمنطقة العربية الا انهم عجزوا تماما عن طرد البرتغاليين من الخليج العربي، وضرب نشاطهم في المحيط الهندي، كما فشلت جهود المماليك في تحقيق ذلك من قبل. واخيرا فقد لقي الاسطول العثماني هزيمة ساحقة من الاسطول البرتغالي في جزيرة دير عام ١٥٣٨(٢١). ورغم فشل العثمانيين في تحطيم الحصار الاقتصادي الذي فرضه البرتغاليون على المنطقة العربية، الا انهم استطاعوا ان يخففوا الضغط على التجار العرب والموانئ بالامارات العربية الساحلية في عمان ومسقط والخليج العربي. كما انهم تمكنوا من احباط كل المحاولات لتكوين جبهة مسيحية من البرتغاليين والاحباش ضد القوى العربية الاسلامية في البحر الاحمر وشرقي افريقيا(٢٢).

بهذا الوضع بدأ البرتغاليون منذ ايام السلطان سليمان القانوني يواجهون قوة اسلامية كبرى، هي

قوة العثمانيين الذين بسطوا سيادتهم في هذا الاثناء على سواحل البحر الاحمر واستولوا على سواكن وجزيرة زيلع وانشأوا علاقات مع المسلمين في مصوع التي يحتلها البرتغاليون واسسوا في كل منها ديوانا للجمارك لتنظيم تجارتهم. وجاء استيلاء العثمانيين على هذه المناطق في الساحل الافريقي مصدر قلق وخطورة على المسلمين والاحباش على السواء في اثيوبيا. فقد عرفت القوتان المتناحرتان ان الغزاةالجدد يتسلحونباسلحة ناريةومدافعلن تستطيع احداهمامقاومتهم.غير انالمسلمين وجدوا عاملا هاما للارتباط مع الفاتحين الجدد وهو عامل الاتفاق في الدين فضلا عن ترحيب العثمانيين بهذا الارتباط الديني بجانب الاهداف التجارية ولدى المسلمين بالحبشة معلومات وافية عنها. أما الحبشة فكان الامر مختلفا بالنسبة اليها فهي مسيحية متعصبة لمسيحيتها وليس هناك ادنى احتمال لامكان استعداء الاتراك على المسلمين الاعداء اذن لابد من محاربة مسلمي الحبشة واحلافهم الجدد لكن اسلحة الاحباش لم تزل حتى ذلك الوقت هي القوس والنشابَ والسيف والاعتماد على الشجاعة والفروسية ونحو ذلك وهذه لا تجدي فتيلا امام الاسلحة الحديثة آنذاك. اذ لابد من عون خارجي يتفق في التسليح والنظام مع العدو الاقوى كما يتفق مع الاحباش في العقيدة .

حينئذ رأت الملكة هيلاند أو الين العجوز الوصية على ابناءنجل (١٥٠٨ ــ ١٥٤٠) ان المخرج الوحيد هو الاستعانة بالدول الاوروبية استعانة جدية فعالة فحين سمعت بانتصارات البرتغال في المحيط الهندي طلبت مساعدتهم ومن ثم توالت البعثات الحبشية الى اوروبا منها ما كان للبرتغال ومنها ما كان للبابا في روما(٢٣).

كان دافع (هيلانه) الحقيقي لارسال هذه البعوث الى اوروبا هو املها في الحصول على مساعدات مسيحية لوقف نشاط مملكة أوفات الاسلامية اكبر دول الطراز الاسلامي في القرن الافريقي ومن البديهي ان يرحب الاوروبيون باقامة علاقات مباشرة مع مملكة (القديس يوحنا) وقد يمكنهم هذا التحالف من حرب الحركة الاسلامية في شرقي افريقيا ومن تطويق العالم الاسلامي من الجنوب وايجاد مراكز بحرية لهم في داخل البحر الاحمر لمهاجمة الحجاز ومصر ومن جانب أخر فان هذا التحالف المسيحي قد اقلق مضجع العثمانيين الذين كانوا في غضون ذلك في صراع من اجل سيطرة وهيمنة الطرق التجارية البحرية فاقاموا اتصالهم مع مملكة اوفات الاسلامية وذلك لافساد الخطة الصليبية واقتضت مصلحة التحالف والتعاون مع المسلمين في دول الطراز الاسلامي في الحبشة وتزويدهم بالمعدات الحربية والتأييد المعنوي وانقذهم ذلك من خطر ماحق عليهم(٢٤).

توالت المساعدات العثمانية لمملكة اوفات وازدادت زمن المجاهد الكبير احمد بن ابراهيم الجران (الاشوك) وذلك لاجهاض حركة التعاون الحبشي البرتغالي الذي ظهر انه يهدد النفوذ العثماني في البحر الاحمر ويهدد الحرمين الشريفين اللذين دخلا في نطاق الدولة العثمانية. وبفضل المساعدات العثمانية المستمرة تمكن المسلمون من فتح معظم الاراضي الحبشية. وتمكنت مملكة اوفات من توسيع الرقعة الاسلامية ونشر الاسلام في داخل الهضبة الحبشية(٢٥).

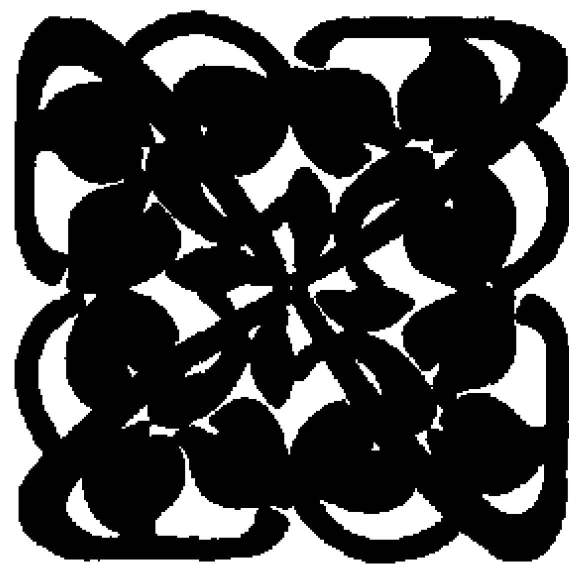
على هذا النحو اضحى النضال الاسلامي داخل افريقيا صدى النضال العثماني البرتغالي أو النضال العثماني الاوروبي في المحيط الهندي والبحر الاحمر ثم البحر الابيض بعد ذلك، او قل نضال الممالك الاسلامية في شرق افريقية والقرن الافريقي ضد الحبشة صورة من صور النضال المزمن بين الشرق والغرب وهو من جانب اخر امتداد لذلك النضال القديم بين العرب المسلمين واوروبا وصداه داخل الجزيرة العربية.

استمرت سيادة البرتغال على معظم ساحل شرقي افريقية حتى القرن الثامن عشر وعند ذلك تخلص العرب من الحكم البرتغالي وذلك على يد عرب عمان الذين تمكنوا من طرد البرتغاليين من هذا الساحل وتأسست سلطنة عمان في زنجبار على يد السلطان السيد سعيد (١٨٠٦ـ ١٨٥٦) وحكمت هذه السلطنة الساحل الشرقي لافريقيا واصبغت المنطقة بالصبغة العربية التي كانت لها من قبل وعادت جميعها للحكم العربي الاسلامي.

استمرت السيادة لعرب عمان على معظم اجزاء افريقيا الشرقية حتى زوالها ببداية التدخل الاوروبي في القرن التسع عشر. واصبح شرق افريقيا محمل انظار الاوروبيين لمناخه المعتدل ومما شجعهم كذلك نشاط البعثات التبشيرية الكنسية فاستطاعت فرنسا ان تمد نفوذها الى واستأثرت المانيا بمناطق كثيرة الا ان املاكها صفيت بعد نهاية الحروب العالمية الثانية وتحولت شرق افريقيا الالمانية الى تنجانيقا البريطانية. وتأسست شركة جنوب افريقيا فاعلنت بياساوند محمية بريطانية بينما تركت روديسيا الجنوبية والشمالية في يد الشركة البريطانية حتى تحولت الاولى الى مستعمرة عام ١٩٥٣ ومنحت حق الحكم الذاتي. أما روديسيا الشمالية فقد اتحدت أجزاؤها سنة ١٩٢٤ ثم اتحدت هذه الاقاليم الثلاثة سنة ١٩٥٢.

قبل تفككه بعد عشر سنوات استمر البرتغاليون يكافحون التدخل الاجنبي والمد المسيحي الصليبي ولكن ما ان انتصف هذا القرن حتى بدأت الحركات الوطنية تأتي ثمارها رغم الاستقلال.

لم تتوقف الهجمات الصليبية الشرسة المتمثلة في التدخل الاوروبي الاستعماري في شئون البلاد الافريقية بل زادت شراسة ويتوسع مداه كلما برزت حركة من حركات المد الاسلامي اصبحت ظاهرة من مظاهر وملامح الثقافة العربية الاسلامية. وابرز ما يتمثل ذلك في هجمات اثيوبيا المتكررة على الصومال العربي والمساعدات الاثيوبية المتواصلة لاعداء الثقافة العربية والفكر الاسلامي في جنوب السودان.



هوامش وحواشي

١. انطوني سلوى (ترجمة) افريقيا الجغرافية الاجتماعية، ص١٥. الدناصوري، جمال الدين، جغرافية افريقيا واستراليا، ص٧٠، القاهرة ١٩٦٨.

٢. ابن الاثير، ابو الحسن على بن الكرم بن محمد الشيباني، (ت ٦٣٠هـ ١٢٣٣م) الكامل في التاريخ، ج٢، ص٥١. ابو الفداء عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر، (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) المختصر في تاريخ البشر، ج١، ص١٨، القاهرة.

٣. طرخان، ابراهيم على: الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة في العصور الوسطى ص٦٦، وما يليها، مستخرج من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد الثامن، القاهرة ١٩٥٩.

٤. طرخان، نفس المرجع، ص٦٨.

٥. طرخان: البرتغاليون في غرب افريقيا، ص٢٢ وما بعدها، مستخرج من مجلة كلية الاداب، جامعة القاهرة، المجلد الخامس والعشرون، الجزء الاول، مايو ١٩٦٣، القاهرة ١٩٦٧.

٦. طرخان: البرتغاليون في غرب افريقيا، ص٢٣.

٧. الشيخ محي الدين، كتاب السلوى في اخبار كلوة.

٨. ابن بطوطة ابو عبد الله على محمد بن عبد الله اللواتي البخي (ت٧٧٩هـ/ ١٣٦٩): تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، القاهرة ١٣٢٢، ص١٩٤.

١٠. الامبراطورية الانجوفية: نواتها دوقية نورماندیا بشمالي فرنسا ويرجع قيام هذه الدوقية الى عام ٩١١ زمن شارل البسيط من اواخر الملوك الكارولنجيين، فقد منح النورمان هذه المنطقة لتقي شر غزوهم، اتسعت هذه الدوقية تدريجيا وفي القرن الحادي عشر فتح الدوق وليام الفاتح انجلترا عام ١٠٦٦م، ثم توسعت حتى شملت في زمن هنري الثاني في القرن الثاني عشر الميلادي كونتيه انجو، ومين وبلو، ودوقية اكوتين، وعرفت بهذا الاسم نسبة الى كونتيه انجو التي كان يحكمها ابو هنري الثاني، وتضم الامبراطورية الانجوفية كذلك: انجلترا، بعض اجزاء من ايرلندا، السيادة على اسكتلندا، وفي فرنسا: نورماندیا واكوتين وانجو ومين وبلوا.

١١. حمدي السيد، الصومال، ص٤٨٩ — ٤٩١، مقديشو ١٩٦٥.

١٤. صلاح العقاد، جمال زكريا قاسم، زنجبار، ص٢٦، القاهرة ١٩٥٩.

١٥. ابن الدبيع، عبد الرحمن بن علي بن عمر الديبع، الفضل المزيد على بغية المستفيد، مخطوط دار الكتب المصرية، رقم١١، تاريخ ورقة ٣٨. باغزمة على محمد عبد الله الطيب بن عبد الله (٨٧٠هـ٩٤٧/ ١٤٦٥ — ١٥٤٠م) قادة النحر في وفيات اعيان الدهر، ج٣، تحقيق ودراسة محمد عبد العال احمد، الاسكندرية، ١٩٣، ص٩٩.

نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، القاهرة ١٩٧٣، ص١٤٤.

١٦. زنجبار، ص٢.

١٧. ابو شامة، عبد الرحمن بن اسماعيل، الروضتين في اخبار الدولتين (بدون تاريخ)، ج٢.

١٨. محمد زغلول عبد ربه، البرتغاليون في البحر الاحمر (ندوة البحر الاحمر) عين شمس، القاهرة، عاشور، سعيد عبد الفتاح، بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى المجلة المصرية التاريخية، المجلد ١٤ (١٩٦٨) ١ — ٤٣.

١٩. عبد الرحيم عبد الرحمن: النشاط والتجارة في البحر الاحمر في العصر العثماني ١٥١٧ ــ ١٧٩٨، ندوة البحر الاحمر، جامعة عين شمس ١٩٧٩.

٢٠. محمد احمد انيش: الدولة العثمانية في الشرق العربي، القاهرة (بدون تاريخ) محمد امين صالح، تجارة البحر الاحمر في عصر المماليك الشراكسة، ندوة البحر الاحمر، عين شمس، ١٩٧٩.

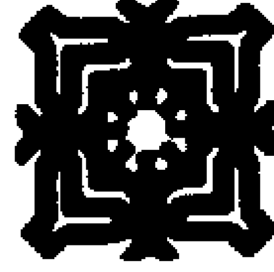
٢١. ديو مرفأ تجاري هام على الساحل الغربي للهند، انظر السيد مصطفى سالم: الفتح العثماني الاول لليمن (١٥٣٨ ــ ١٦٣٥) القاهرة ١٩٧٤، ص٦٠.

٢٢. راشد البراوي، الصومال، ص٢١، القاهرة ١٩٦١.

٢٣. السيد مصطفى، المرجع السابق، ص٦٨.

٢٤. قلادة النحر، ج٢، ص١١١ ــ ١١٣ ــ ١٢٣ ــ ١٢٥، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد، غاية الاماني في اخبار القطر اليماني تحقيق وتقديم سعيد عاشور، القسم الثاني، القاهرة ١٩٦٨.

٢٥. الامام احمد بن جرا (الجران) كلمة جرا أو جر الصومالية، انظر: السيد اليسري، وجرا معناها الاشول أو الاعسر. انظر: عرب فقيه، شهاب الدين احمد بن عبد القادر الحيراني، تحفة الزمان أو فتوح الحبشة، حققه فهيم محمد شلتوت، القاهرة ١٩٧٤، ص٢١٩.



كتابة اللغة السواحيلية بالحرف العربي

الدكتور/ يوسف الخليفة ابو بكر
معهد الخرطوم الدولى للغة العربية

تهدف هذه الورقة الى استعراض لغات الشعوب الاسلامية التي كتبت بالحرف العربي، والمساحة اللغوية التي انتشر فيها الحرف العربي في العالم عبر التاريخ، والاسباب التي ادت الى انحسار الحرف العربي بعد انتشاره الواسع، والدوافع التي ادت بالاستعمار الى محاربته واحلال الحرف اللاتيني محله، ويتناول ادعاءات دعاة الحرف اللاتيني بقصور الحرف العربي عن تمثيل اصوات اللغات الاخرى.

وتعرضت الورقة للمعايير والشروط التي وضعها علماء اللغات للنظام الهجائي الجيد، والعيوب التي ينبغي ان يخلو منها النظام الهجائي لكي تكون الكتابة علمية أو صوتية، وتطبيق هذه المعايير على اللغتين العربية والانجليزية لمعرفة عملية النظام الهجائي العربي مقارنا بالانجليزية.

ثم ينتقل البحث الى لغات الامم الاسلامية، وعلى رأسها اللغة الفارسية، ويشير الى استفادتها من الاسس التي وضعها ابو الاسود الدوعلي والعلماء الذين جاءوا بعده، وطوروا نظام الكتابة العربية خلال مائة عام بتعديله واصلاحه عن طريق النقط، حتى اصبح الحرف العربي قادرا على التعبير عن اصوات اللغة العربية واللغات الاخرى التي اقتبست فكرة اضافة النقط للحرف ليعبر عن الاصوات غير العربية، وبذلك تكونت ثروة عظيمة من الحروف العربية في لغات الشعوب الاسلامية جعلتها قادرة على كتابة كل اللغات.

ويقدم البحث دليلا على مرونة الحرف العربي ومقدرته على اصوات اللغات الاخرى مهما كان عدد حروفها.

ثم يدلف البحث الى اللغة السواحلية ويعرض للاطوارالتي مرت بها كتابة اللغة السواحلية

بالحرف العربي ويحدد المشكلات التي تواجهها اللغة السواحلية في كتابتها بالحروف العربية، ويقترح الحلول لهذه المشكلات.

وفي نهاية البحث دعوة للعمل على تطوير الحرف العربي واعداد حروف الطباعة والراقنات (الالات الكاتبة) من اجل تيسير نشر الحرف العربي وجعله في متناول الجميع، واشادة بالمشروع الذي يتبناه بنك التنمية الاسلامي مع المنظمة العربية والمنظمة الاسلامية.

وقد حاولت ان أتفادى الدخول في مصطلحات علم الاصوات ورسم جداول الاصوات أو وصفها وصفا صوتيا دقيقا حتى يمكن لغير المتخصصين في علم الاصوات استيعاب الافكار التي تضمنها البحث.

١/ لغات الشعوب الاسلامية المكتوبة بالحرف العربي:

وقع تحت نظري ذات يوم كتاب بالانجليزية من ذى القطع الكبيرة يسمى «كتاب الالف لسان» THE BOOK OF SOUNSAND TONQUES أعده الدكتور أرك نورث السكرتير العام لجمعية الكتاب المقدس الامريكية ونشرته هذه الجمعية عام ١٩٣٨، يقدم هذا الكتاب جهود الجمعية في خدمة الكتاب المقدس بترجمته الى اكثر من ألف لغة من لغات العالم. والكتاب عبارة عن مقدمة ونماذج مصورة من الكتاب المقدس بألف ومائة من لغات العالم وكل نموزج مصور بالحروف التي كتبت بها اللغة التي ترجم اليها الكتاب المقدس. وقد لفت نظري كثرة النماذج للغات المكتوبة بالحرف العربي وترجم اليها الكتاب المقدس فأثار ذلك في نفسي رغبة في تصفيح الكتاب من أوله الى أخره وحصر اسماء اللغات التي ترجم اليها الانجيل بالحرف العربي. وقد هالني أنني وجدت عدد هذه اللغات المكتوبة بالحرف العربي وترجم اليها الانجيل ستة واربعين لغة وذلك حتى الثلاثينيات من هذا القرن العشرين.

وتذكرت ان هناك لغات اخرى مكتوبة بالحرف العربي ولم تضمن في هذا الكتاب فقلت لعل الكتاب المقدس ترجم اليها بالحرف اللاتيني.

وبدأت منذ ذلك الوقت في تتبع لغات الامم الاسلامية التي سبق ان كتبت بالحرف العربي. فعثرت على كتاب يشمل على أبجديات لست عشرة لغة ولهجة من لغات ولهجات الشعوب الاسلامية بجمهوريات الاتحاد السوفيتي. وهذا الكتاب الف باللغة الروسية وترجمه الى الانجليزية ادوارد اولورث EDWARD ALWORTH واسم الكتاب Nationality of the Soviet East Publications And Writing Systems ونشرته مطبعة جامعة كولومبيا عام ١٩٦١ ومن بين اهم هذه اللغات واللهجات للشعوب الاسلامية بالاتحاد السوفيتي ما هو مضمن في كتاب الالف لسان، ومنها ما لم

يشتمل عليه هذا الكتاب فارتفع عدد اللغات المكتوبة بالحرف العربي الى مايزيد على الخمسين لغة. وقد اوضح هذا الكتاب الذي قدم الحروف الابجدية للغات المسلمين بالاتحاد السوفيتي التاريخ الذي صدر فيه القانون السوفيتي الذي حرم كتابة هذه اللغات بالحرف العربي. وكان ذلك خلال العشرينات من هذا القرن العشرين.

ثم وجدت الفرصة سانحة لى في معهد الخرطوم الدولي للغة العربية الذي يَفد اليه كل عام عشرات من معلمي اللغة العربية من شتى أنحاء العالم للحصول على درجة الماجيستير في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها وكل منهم لديه معلومات وافية عن لغته أو لغات بلده المكتوبة بالحرف العربي. كما أفدت من جولاتي في افريقيا وآسيا وكان واحدا من اهتماميَ العثور على اللغات المكتوبة حاليا أو سبق ان كتبت بالحرف العربي في يوم من الايام.

وفي السودان اتيحت لي عام ١٩٥٧ فرصة العمل في شعبة اللغة العربية للمديريات الجنوبية التي كان يرأسها العالم اللغوي الدكتور خليل محمود عساكر، وفي هذه الشعبة تمت كتابة خمس من لغات جنوب السودان(١) وتدرب المعلمون هنالك، ودرس التلاميذ كتب المطالعة الاولية بلغاتهم مكتوبة بالحروف العربية. وعندما علمت الارسالية الامريكية في مدينة بيبور بمديرية اعالي النيل بالسودان بهذا العمل بادت هي الاخرى وكتبت خمس لغات اخرى من لغات جنوب السودان بالحروف العربية وضمنت هذه الكتب وكتبا اخرى نصوص من الاناجيل والاناشيد الدينية المسيحية وكان يشرف على هذا العمل في الارسالية الامريكية عالم لغوي يدعى الدكتور هكستي.

وخرجت من كل هذه المحاولات بحصيلة تقريبية لعدد لغات الشعوب الاسلامية (وغير الاسلامية) المكتوبة بالحرف العربي وهي أنها دون أدنى شك تزيد على سبعون لغة ولهجة مع احتمال أن هناك لغات اخرى لم تقع تحت علمي.

٢/ التحول من الحرف العربي الى الحرف اللاتيني:

بدأت في محاولة اخرى لتقصي اللغات التي تحولت كتابتها من الحرف العربي الى الحرف اللاتيني، وموقف الحرف العربي في وقتنا هذا، وكذلك اللغات التي لم تكتب بعد بالحرف اللاتيني، وتلك التي ما تزال تكتب بالحرفين العربي واللاتيني.

والنتيجة التي انتهيت اليها وهي ان هذه اللغات تقسم الى اربع مجموعات:

أ. مجموعة اللغات التي لم تعد تكتب بالحرف العربي واصبح الحرف اللاتيني هو السائد وذلك مثل اللغة التركية وبعض لغات المسلمين في الاتحاد السوفيتي.

ب. مجموعة اللغات التي انحسر منها الحرف العربي وانحصر في مجال ضيق هو التعليم الديني التقليدي وذلك مثل اللغة الاندونسية وعدد من اللغات الافريقية والاسيوية.

ج. مجموعة اللغات التي صمدت أمام الحرف اللاتيني، وقاومت محاولات ابعاد الحرف العربي عنها، وعايشت الحرف اللاتيني ومازالت تكتب بالحرف العربي في كثير من مجالات الحياة العامة الدينية والشعبية وفي مجال محدد في الاعلام (الصحافة) ومثال لذلك لغة هوسا بنجيريا واللغة الماليزية.

د. مجموعة اللغات التي قاومت كل المحاولات لكتابتها بالحرف اللاتيني وظلت حتى الان تكتب بالحرف العربي فقط وفي كل مجالات الحياة بما في ذلك التعليم في مراحل التعليم المختلفة مثال ذلك اللغة الفارسية واللغة الاردية. ونحن لا نعجب اذا رأينا نصا في دستور ايران ينص على ان تكون كتابة اللغة الفارسية بالحرف العربي ولعله اول دستور يتضمن نصا اساسيا على هذه القضية، وما ذلك الا رد فعل للمحاولات والاصوات التي تنادي بتغريب الحرف والغاء تعريبه.

لماذا حورب الحرف العربي:

اذا كان هناك استعمار عسكري وسياسي وثقافي، ولغوي وديني، فانه يحق لنا ايضا ان نقول ان هنالك استعمارا حرفيا، أي استعمار عن طريق الحرف الذي تكتب به اللغة. فالاستعمار الذي غزا العالم الاسلامي في افريقيا واسيا كان في بداية امره اقتصاديا ثم صار عسكريا يجرجر في اذياله الاستعمار الثقافي والفكري والديني وهذا أبقى له وأنفع عندما ينقشع في شكله العسكري أو السياسي.

وقد وجد الاستعمار ان عشرات من لغات الشعوب الاسلامية تكتب بالحرف العربي. وان تراثها وتاريخها وادبها قد دون بهذه اللغات بالحرف العربي، ووجد ان المتكلمين بهذه اللغات يستطيعون الاتصال بكتابهم ـــ القرآن الكريم ويقرأونه بسهولة دونما مشقة يساعدهم في ذلك مقدرتهم على قراءة لغاتهم بالحرف العربي. اذن فالحرف هو حلقة الوصل بينهم وبين القرآن. وعلم ان كتابة هذه اللغات بالحرف اللاتيني ستكون حائلا بينهم وبين هذا القرآن. من ناحية، ثم انها سترىطهم بفكر الحرف اللاتيني وبذلك تكون هناك صلة عاطفية بينهم وبين هذا الحرف. ومن ناحية اخرى فأن الحرف اللاتيني سوف يعزل الجيل الجديد والاجيال القادمة عن تراثها المكتوب بلغاتها بالحرف العربي. ومن ثم كانت المحاولات الجادة من قبل الاستعمار في كل ارض اسلامية وطئتها بأقدامه من اجل تغيير كتابة لغات هذه الشعوب من الحرف العربي الى الحرف اللاتيني.

«ان الحرف الذي تكتب به اللغة له تأثير نفسي عميق في نفوس المتكلمين باللغة، فهو يمثل جزءا من تراثهم الشعبي ويمثل جزءا من تاريخهم وتكوينهم النفسي والعقلي. ومن خلاله يرون تاريخهم وحضارتهم وفيه يرون شخصيتهم وذاتهم في الماض والحاضر. فهو اذ يمثل تكوينهم النفسي، لهذا فان ارتباط الانسان بالحرف الذي تكتب به لغته تمتد جذوره الى اعماق نفسية بعيدة الغور»(٢).

لذا فأننا نجد أن محاولة تغيير الحرف الذي تكتب به اللغة الى حرف اخر تلق دائما معارضة شديدة تنتهي الى ثورة. وتغيير كتابة اللغة من حرف الى حرف اخر لا يتم عادة الا بقوة السلطة، وتسليط السيوف على رقاب الاخرين. ولعنا نذكر المعارضة الشديدة التي حدثت في باكستان قبيل انفصال بنغلاديش، والجرح العميق الذي تركه تغيير كتابة اللغة التركية من الحرف العربي الى الحرف اللاتيني والذي لم يتم الا بالقهر والتسلط، ونحن نرى الان ما ترتب على ذلك من اثار أولها عزل الشعب التركي عن تراثه العظيم من ناحية، وارتباط الاجيال الجديدة بحضارة الحرف اللاتيني الذي كتبت به اللغة التركية منذ عهد اتاتورك. ولولا العنف والقهر الذي صاحب كتابة اللغة الصومالية بالحرف اللاتيني لما امكن فرض هذا الحرف على الشعب الصومالي المسلم. وقد كان من وراء هذه العملية مخطط استعماري كان يجري الاعداد له في جامعة لندن منذ وقت طويل.

ومالنا نذهب بعيداً؟ أو لم ينادي هواة التغريب الذين تأثروا بثقافة الاستعمار بكتابة اللغة العربية ذاتها بالحرف اللاتيني حتى وقت قريب بل واى يومنا هذا؟ أو لم يناد هؤلاء بكتابة العاميات العربية، والتعليم بها وتسجيل كل اداب الامة عن طريقها بدلا من الفصحى لغة القرآن؟ متعللين بصور الحرف العربي عن التعبير عن أصوات اللغة وهم يعلمون ان الهجاء العربي من أدق هجاءات اللغات كما شهد بذلك علماء الاصوات. ومتعللين بان من عيوب الكتابة العربية ان حركاتها توضح فوق الحروف وليس بعدها وهذا يعوق الطباعة (التي تطورت الان وتغلبت على هذه الصعوبة).

٤/ شروط الهجاء السليم:

لقد وضع علماء اللغات معايير دقيقة للنظام الهجائي الجيد وأسموه بالنظام الهجائي الصوتي أو الفونيمي. والمعيار الذي وضعوه يتلخص في تطبيق قاعدة وتوفير شرطين. فأذا اختلت هذه القاعدة بفقدان أي من هذين الشرطين عد ذلك عيبا في الكتابة أو النظام الهجائي للغة.

القاعدة هي: ان يكون لكل صوت من الاصوات الاساسية للغة (الفونيات) رمز أي حرف خاص به:

ONE - TO - ONE COEERSPONDANCE

وذلك يتحقق بتوفير شرطين هما:

١/ الا يعبر عن الصوت الواحد باكثر من رمز (حرف) واحد بالا يعبر عن الصوت مرة بحرف معين ومرة اخرى بحرف اخر وهذا العيب يسمى OVEENDERDI FFERENTI ATION

٢/ الا يعبر الرمز (الحرف) الواحد عن اكثر من صوت واحد، فلا يدل الحرف مرة على صوت معين، ومرة اخرى على صوت اخر. وهذا العيب يسمى:

UNDER DIFFERENTI ATION

وبتطبيق هذه القاعدة بشرطيها على كثير من اللغات العالمية الحية نجد انها تفقد هذه القاعدة. لنأخذ مثلا اللغة الانجليزية، اذا نظرنا في نظامها المجائي نجد أنه ليس صوتيا بل نجده من أردأ النظم الهجائية في لغات العالم حيث تفتقد الشرطين المذكورين.

فنجد في الانجليزية ان هنالك صوتا واحدا يعبر عنه برموز كثيرة وبطرق مختلفة كما في صوت الشين الذي يعبر عنه حينا ب (Sh) كما في كلمة (She) وحينا اخر ب (Ch) في (Cheap) وحينا ب (t) كما في (Action) وحينا ب (Sch) كما في (Schedne) وهكذا.

كذلك صوت الفا الذي يكتب مرة (f) ومرة اخرى (ph) ومرة ثالثة (gh) كما في الكلماتالثلاثة على التوالي fan, phone, caugh

ويختل الشرط الثاني ايضا في رموز كثيرة من رموز اللغة الانجليزية حيث نجد رموزا كثيرة لايقتصر الواحد منها على التعبير عن صوت واحد بل يعبر عن اصوات كثيرة. كما في الرمز (c) حيث نجده يعبر حينا عن صوت الكاف وحينا اخر يعبر عن صوت السين، وحينا ثالث يعبر عن صوت الشين كما في الكلمات التالية على التوالي:

can, place, majician

وينطبق ذلك على الرموز a, e, i, y, g, u حيث نجد ان كل واحد منها له مدلولات صوتية كثيرة وامثلة ذلك واضحة لمن يعرف اللغة الانجليزية.

أقر الكلمات الانجليزية التالية ولاحظ نطق الحرف e في كل كلمة:

men, women, writer, be, apple

لاحظ نطقها المختلف في الكلمة الواحدة.

even, event, ever, eve,

وانظر التي عبر بها عن صوت الكاف في الكلمات التالية:

فاذا قارنا ذلك بالنظام الهجائي للغة العربية نجد أن ستة وعشرين حرفا من حروفها الثمانية والعشرين يعبر كل واحد منها عن صوت واحد لا يتعداه الى غيره، وحرفان اثنان فقط يعبر كل واحد منهما عن صوتين مختلفين ولكن عند ضبط الكلمة بالشكل فان اللبس يزول ويكون هذا الرمز مع الحركة قاصرا على التعبير عن صوت واحد. هذان الحرفان هما الواو والياء حيث يعبر الواو عن الحرف الصحيح كما في (ولدو سواء) ويعبر ايضا عن الضمة الطويلة كما في يدعو، قالوا، ولكن عندما تضبط الكلمة بالشكل فان الواو مع الحركة هو المعبر عن الصوت، وبذلك يزول اللبس. ولهذا السبب عد علماء الاصوات النظام الهجائي للغة العربية من أدق النظم الهجائية للغات، وانه نظام صوتي وعلمي بالمعايير التي وضعها علماء اللغات.

٥/ الحرف العربي بين القصور والمرونة:

يتعلل انصار الحرف اللاتيني بان الكتابة العربية قاصرة عن كتابة اللغات غير العربية لان اللغات غير العربية تشتمل على بعض الاصوات الصحاح التي لاتوجد في العربية وبالتالي لاتوجد لها رموز (حروف) تعبر عنها. ويتعللون ايضا بان رموز الحركات في العربية ثلاث هي الفتحة والكسرة والضمة بينا تشتمل معظم اللغات غير العربية على اكثر من ثلاث حركاتقد تزيد على خمسة وكلها تقريبا تشتمل على الحركتين (e) أو (o) ولا يوجد لها مقابل في العربية. فأذا كتبت هذه اللغات بالحروف العربية فسوف يواجه القارئون صعوبات جمة على رأسها اللبس الذي يحدث عند القراءة.

فالى أي مدى تذهب صحة هذا الكلام؟

لنعد الى الوراء لنرى كيف كتب لغات الامم الاسلامية بالحرف العربي.

٦/ لغات الامم الاسلامية بالحرف العربي:

لعل أول لغة غير عربية كتبت بالحروف العربية بعد الاسلام هي الفارسية. وحين نقارن بين النظام الهجائي المعاصر للغة الفارسية بالنظام الهجائي الذي نقرأه في التراث لذات اللغة نجد ان الفارسية قد حافظت على نظامها الهجائي الذي سبق ان كتبت به منذ عدة قرون واللغة الفارسية مثال حي لمقدرة الحرف العربي ومرونته عندما يراد للغة ان تكتب بالحرف العربي.

لنرجع قليلا الى اواسط القرن الهجري الاول عندما كانت الكتابة العربية خالية من النقط والشكل، وهي الصورة التي كتب بها الوحي القرآني. وكتب بها الرسول صلى الله عليه وسلم رسائله للملوك. فكانت الكتابة العربية خالية من النقط والشكل، بمعنى ان كثيرا من حروفها كان يعبر كل واحد منها عن اكثر من صوت واحد (UNDERDI FFERENTI ATION) فكانت اصوات الجيم والحاء والخاء كلها يعبر عنها بصوت واحد هو (ح) كذلك كانت كل الاصوات التي تسمى بالحروف المعجمية (ذات النقط) يعبر عنها بصنوها المهمل (الذي بلا نقاط فيه) فكان المهمل يعبر عن صوت المهمل والمعجم كما في حالة الدال والذال والراء والزاى والسين والشين..الخ.

وعندما فشا اللحن في الكلام، وخاصة في قراءة القرآن، شرع أبو الاسود الدؤلي بتوجيه من ولاة الامور (وهنا تختلف الروايات في من امر ابا الاسود باصلاح الكتابة) بدأ ابو الاسود في ضبط الكتابة فاخترع النقط ليعبر به عن الحركات (الفتحة والكسر والضمة والتنوين) وسمى ذلك نقط الحركات. ثم جاء تلاميذ ابي الاسوْد من بعده فطوروا الكتابة العربية وضبطوا حروفها متخذين النقط اساسا للتفريق بين الحروف المتشابهة التي كان الواحد منها يدل على اكثر من صوت واحد. كما اتخذوا من عدد النقط، ومكانه في الحروف (فوق أو تحت) وسيلة اخرى لتمييز بين الحروف بأقل عدد

من النقط. فأذا استعرضنا النقط في الحروف العربية المعجمة (المنقوطة) وعددها خمسة عشر نجد أن النقط فيها لا يتعدى الخمسةالتالية:

= . .. ..

. ..

وبتطبيق هذا المبدأ على الهجاء العربي ارتفع عدد الحروف العربية من ١٣ الى ٢٨ حرفا.

واصبح للحركات الثلاثة رموز تدل عليها وهي الفتحة ـَـ والكسرة ـِـ والضمة ـُـ. واصبح للمده رمزه الخاص به وهو الالف المفتوح ما قبلها والياء المكسور ما قبلها والواو المضموم ما قبلها مثل قال، يقول، قيل. فأذا لم يسبق الواو أو الياء شئ فهي تعبر عن الصوت الصحيح كما في (ولد)، واذا كانت وسط الكلمة أو اخرها ولم يسبقها ما يجانسها فهي تدل على الصوت الصحيح مثل بيت ــ موت ــ لولا.

ان الذي نهدف اليه هو ان نصل الى حقيقة هي ان الاساس الذي وضعه أبو الاسود الدؤلي لزيادة عدد الحروف العربية عن طريق النقط كان هو الا ساس الذي نهج عليه من جاءوا بعد ذلك وكتبوا اللغات غير العربية بالحرف العربي، فقد وجد هؤلاء ان هنالك اصواتا فارسية لا توجد في العربية وبالتالي ــ لا توجد لها رموز تدل عليها. فلجأوا الى ما لجأ اليه أبو الاسود الدؤلي من تعديل بعض الحروف بالنقط لتعبر عن الاصوات الفارسية التي لاتوجد في العربية فاختاروا الباء ونقطوها ثلاثا لتعبر عن الباء الفارسية المهموسة (p) كما اختارو (ج) لتعبر عن الجيم المهموسة (c) (ch)، واختاروا الراء ونقطوها ثلاثا (ز) لتعبر عن صوت السين المجهورة واختاروا الكاف ووضعوا فوقها شرطة (گ) لتعبر عن الكاف المهجورة (g).

وهكذا استطاعت اللغة الفارسية ان تنشئ نظاما هجائيا كاملا تعبر به عن اصواتها الصحاح تعبيرا علميا دقيقا.

اما كون الحركة موضعها فوق الحرف الصحيح أو تحته وانها لاتوضع تالية للحرف فهذاأولاًموضع اصطلاحي ولا مشاحة في الاصطلاح كما يقول العلماء، وهو من الناحية النقطية دقيق ومعبر عن الحركة ولا يتعداها الى غيرها فلا يحدث بسبب ذلك لبس فلا نجد فتحة تعبر عن كسرة، ولا العكس والامر اخيرا هو امر المناسب والانسب (Cenvaience) بالنسبة للطباعة خاصة قارن مثلا بين تدلول رمز الفتحة (a) في اللغة الانجليزية في الكلمات التالية:

At, ate, many, wash

ان الاساس الذي بنى عليه أبو الاسود الدولي ومن جاء بعده من اللغويين الى الخليل بن احمد الفراهيدي هو اتخاذ النقط وسيلة للتميز بين الحروف حتى يكون لكل صوت حرفه الخاصه الذي يدل عليهوبذلك يزول اللبس.

واقتبست لغات اخرى من لغات الامم الاسلامية الهجاء الفارسي للتعبير عن اصواتها الخاصة بها والتي لا توجد في العربية، وخالفت لغات اخرى النظام الفارسي، ولكنهم جميعا اتخذوا النقط اساسا لابتكار رموز جديدة ولذا فأنك تجد الرموز التالية في كتابات لغات الامم الاسلامية:

i ، آ، گ، ݣ، غ، ظ، ڤ، پ....

نأتي الان الى كتابة اللغة السواحيلية بالحروف العربية لنرى الاطوار التي مرت بها والتي استقرت عليها.

٧/ كتابة اللغة السواحلية بالحروف العربية:

كانت اللغة السواحلية وما تزال تكتب (في حدود ضيقة) بالحروف العربية. وفي محاضرة القاها الاستاذ بارد كيهورى استاذ اللغة السواحلية بمعهد الدراسات الافريقية والاسيوية بجامعة الخرطوم اوضح ان كتابة اللغة السواحلية بالحروف العربية مرت بثلاثة اطوار هي:

الطور الاول:

استخدمت اللغة السواحلية في كتابتها الحروف العربية كما هي دون تعديل لكي تعبر بها عن جميع اصواتها الخاصة بها حتى تلك التي لاتوجد في اللغة العربية وبذلك صار الحرف الواحد يعبر به عن اكثر من صوت واحد كما كان الحال في الكتابة العربية في أول أمرها مثال ذلك حرف (ب) كان يعبر به عن اربعة اصوات: ١. الصوت الشفوي المجهور الشديد ب كما هو الحال في اللغة العربية، ٢. الباء المهموسة (پ)p ٣. الباء الانفية المهجورة (mb) ٤. الباء الانفية المهموسة (mp) وكل هذه الباءات اصوات لها وظيفة فونيمية في هذه اللغة. وكذلك الامر بالنسبة لكثير من الاصوات الاخرى فقد استخدم حرف الغين (غ) ليعبر به عن الغين العربية في الكلمات العربية الاصل وعن الاصوات السواحيلية الاصل ايضا وهي m وفي نفس الوقت كانت هنالك اصوات يعبر عنها باكثر من حرف واحد مثل صوت ال g يكتب حينا (غ) وحينا اخر (ج) وهذا ما يسمى Overdifferentiation واستمر الحال على هذا المنوال حتى نهاية القرن التاسع عشر.

الطور الثاني:

الفترة ما بين عام ١٩٠٠ و ١٩٣٥ جرت محاولات لاصلاحات جزئية على نظام الكتابة حيث أدخلت حروف جديدة في هجاء اللغة السواحلية مثل حرف الجيم المنقوط ثلاثا چ ليعبر به عن الجيم المهموس كما في الكلمة الانجليزية (Church كنيسه) والكلمة الفارسية جهاز بمعنى اربعة ومن

المحتمل ان يكون هذا الحرف مستعارا من الفارسية غير ان عملية الاصلاح هذه كانت محدودة ولم تشمل جميع الحروف. ومع ذلك فقد وجدت معارضة من الكثيرين في تانزانيا.

الطور الثالث:

كانت هناك محاولة لتقنين كتابة اللغة السواحلية بعد ١٩٣٥ حيث ادخل احد القضاة واسمه الشيخ محمد الامين بعض الحروف المستخدمة في كتابة اللغة الفارسية والاردية الى الحروف السواحلية فأدخل الفاءالمنقوطة (ڤ) والغين المنقوطة (ڠ) كما ادخل الحروف المركبة للتعبير عن الاصوات المركبة مثل (مب) = *mb* و(ند) = *nd* وهكذا ... غير انه ماتزال هنالك بعض المشكلات التي تكتب لها نظير في اللغة العربية خاصة وان نظام هذه اللغة يسمح بتوالى اربع حركات دون ان يكون بينها صوت صحيح، وقد قام معهد الخرطوم الدولي بمحاولة جادة لحل هذه المشكلة من خلال بحوث الدارسين تحت اشراف اساتذة المعهد.

هذه هي الاطوار التي مرت بها كتابة اللغة السواحلية، وما تزال هذه اللغة وكثير من اللغات الافريقية الاخرى في حاجة الى ضبط واصلاح حتى يكون لكل صوت من اصولها الاساسية (الفونيات) رمز خاص به حتى تكون في مصاف لغات الامم الاسلامية التي عني بها اهلها وضبطوا نظام هجائها بتطبيق المعايير الصوتية لنظام الكتابة.

ولكى نحصر مشكلات كتابة اللغة السواحلية بالحروف العربية نعرض مقارنة بين اصواتها واصوات اللغة العربية لنحدد الاصوات المشتركة بينها والخاصة بكل منها، وما توفر لكل مجموعة من حروف. أما الاصوات الصحاح Consonants فهي كما يأتي:

المجموعة الاولى:

الاصوات المشتركة بين اللغتين العربية والسواحلية وعددها ١٦ حرفا وهي (ب ت ج د ر ز س ش ف ك ل م ن ه و ى) وقد عبرت هذه الحروف عن الاصوات التي وضعت لها اصلا وهي موجودة ايضا في اللغة السواحلية.

المجموعة الثانية:

مجموعة الاصوات التي انفردت بها اللغة العربية، ولا توجد في اللغة السواحلية، وهي لاتمثل مشكلة بالنسبة لكتابة اللغة السواحلية، وعددها ١٢ حرفا.

وهي حروف الاطباق (ص ض ط ظ) وحروف الحلق (ح خ ع غ والهمزة) والحروف الاسنانية (ث ذ) والحرف اللهوي (ق).

المجموعة الثالثة:

مجموعة الاصوات التي انفردت بها اللغة السواحلية، ولا توجد في اللغة العربية، وتحتاج الى ان

توجد لها حروف تعبر عنها، وعددها تسعة هي التي يعبر عنها بالرموز الصوتية على النحو التالي:

mb **,*nd*** ,nj ,p ,g ,c ,v ,n **(ny)**n **(my)**

الحركات السواحلية التي لا توجد في العربية:

معلوم ان حركات اللغة العربية ثلاثة هي الفتحة والكسرة والضمة وهي مشتركة بين العربية والسواحلية، اما الحركـات التي تنفرد بها اللغة السواحلية فهي الامالتان *(e)*, *(o)* وهي تحتاج ايضا ان يرمز لها بعلامات غير علامات الفتحة والكسرة والضمة.

كتابة الاصوات السواحلية غير العربية:

بالنسبة الى مجموعة الاصوات الصحاح، نجد ان منها ما هو شائع في لغات الامم الاسلامية التي كتبت لغاتها بالحرف العربي، واوجدت لها رموزا تعبر عنها وهي كالاتي:

پ: **p**، گ: **g**، چ: **c (ch)** ، ڤ: **v**، ڠ: **g (ng)**....

أما الاصوات غير الشائعة والتي تحتاج الى ان تبتكر لها رموز فنها الاصوات المركبة الانفية الثلاث، ويمكن ان يعبر عنها بالطريقة التي عبرت بها الحروف اللاتينية وهي:

مب: ***mb*** ، ند: ***nd*** ، نج: **nj**

بقيت النون الحنكية، وهذه قد كتبت في لغات الامم الاسلامية بطريقتين الاولى نون وياء (ني: ***ny*** - ***n***) والثانية نون منقوطة نقطتي الياء وهي نِ وبذلك تكون الاصوات الصحاح قد غطيت جميعاً.

اما الحركتان **o , e** فان امرهما يسير ايضا، فقد سبق ان عبر علماء الضبط عن امالة الكسرة في كتابة القرآن الكريم بدائرة صغيرة (سكون) تحت الحرف الممال، وكتبوا كلمة مجراها هكذا مجرِيها. وهي العلامة التي ابدلها علماء القراءات المحدثون بالشكل المعين فكتبوها هكذا: مجريها. وفي كتابة لغات جنوب السودان عبر عنها د.خليل محمود عساكر بنصف دائرة وضعت تحت الحرف الممال. مثل:

ب: ***be*** ، م: ***me*** ، د: ***ne***

وهو رمز في رأيي مناسب.

أما إمالة الضمة (o) فقد عبر عنها د. عساكر، ايضا في كتابة لغات جنوب السودان، واختار لها الضمة المتجهة الى اليمين (c) وبذلك تكتب: م: ***mo***، ب: ***bo***، د: ***ro***، وهكذا يصبح جدول الحركات السواحلية مكتملا.

اما الحركات الطويلة او المد فهو مشترك بين اللغتين العربية والسواحلية، ويسير على النظام العربي ــ المد بالالف والواو والياء.

وفي حالة الامالة تمد امالة الضمة بالواو وتمد امالة الكسرة بالياء .. مثال ذلك:

امالة الضمة الممدوة ***boo*** بو

امالة الكسرة المددودة ***bee*** بي

مشكلة الحركات المتتالية:

تتميز اللغة السواحلية في نظامها الصوتي بتوالي حركاتها، كما في الكلمات التالية:

barua بمعنى خطاب، *toa* بمعنى يخرج أو يحرك

jioni بمعنى الماء، *zaidi* بمعنى اكثر

siatu نوع من النمل، *chukua* بمعنى يأخذ

fagia يكنس، *sahau* بمعنى ينسى

مثل هذه الحركات المتتالية كتبها د. عساكر في لغات جنوب السودان فجعل الحركة الاولى على الحرف، وكتبت الثانية واوا أو ياء، ووضع عليها الحركة هكذا:

barua بَرُوَ، *toa* توَ

jioni جِيُنِ، *zaidi* زَيِدِ

siafu سِيَفُ، جُكوَ، *fagia* فَكِيَ

sahua سَهوُ... وهكذا.

وهناك اقتراح آخر ارتأيناه في معهد الخرطوم الدولى للغة العربية وهو كتاب الحركة الثانية على نبرة أو على الف فنكتب الكلمات التالية كما هو مبين وذلك منعا للبس، لان طريقة عساكر قد تجعل كلمتين مختلفتين تكتبان بطريقة واحدة مثلا: كلاهما يكتب هكذا: تو

أما طريقة المعهد فهي كالاتي:

toa : تاَ أو تىَ (دون نقط الياء)

fagia: فكَاَ أو فكَىَ

zaidi زاَدِ أو زيدَ

والكتابة والهجاء والنظام الثلاثي الاملائي هو اولا واخيرا اصطلاح، وكل اصطلاح اتفق عليه الناس، وأزال اللبس وييسر امر الطباعة فهو لاشك مقبول.

وقد ابتكر علماء الاصوات الدوليون عددا كبيرا من العلامات التي توضع على الحروف الصحاح أو الحركات فوقها أو تحتها لتدل على بعض الخصائص الصوتية وهي اشبه بعلامات الحركات العربية، ويمكن اقتباس المناسب منها لاثراء عدد علامات الحركات في اللغات التي تكتب بالحرف

العربي، فنحن نجد العلامات التالية مستعملة لدى علماء الاصوات في الكتابة الصوتية، وفي كثير من اللغات:

(... v c e ، ٨ ٧ /)

وعلى كل حال ينبغي مراعاة الاسس التالية عند النظر في اصلاح كتابة لغة من اللغات:

أولا/ عند الحاجة الى اقتراح حرف جديد لصوت لايوجد في العربية يستحس الاستعارة من النظام الشائع في لغات الامم الاسلامية الاخرى مثلا يفضل اختيار الرمز چ للتعبير عن الجيم المهموس c (ch) لانه شائع في كتابات الامم الاسلامية وذلك بدلا من ابتكار رمز جديد كما فعل د.عساكر الذي اقترح الجيم بنقطتين ج للتعبير عن الكاف المجهوم g في لغات جنوب السودان بدلا من الكاف الفارسية گ.

ثانيا/ يفضل اختيار الرمز الشائع في الالات الكاتبة لاغراض عملية، مثلا الرمزان گ و چ موجودان في مفاتيح الآلة الكاتبة الفارسية والاردية، وفي هذه الحالة ينبغي عدم اللجوء الى رمز جديد يحتاج الى صناعة جديدة لادخاله في الالة الكاتبة.

ثالثا/ ينبغي أخذ رأي أهل اللغة خاصة اذا سبق ان كتبت لغتهم بالحرف العربي والتشاور معهم فيما هو انسب بدلا من فرض النظام الجديد عليهم وقبل ذلك ينبغي الاتفاق على الاسس التي تطبق على التعديل والاصلاح، وقد يحتاج الامر الى تدريب بعض المثقفين في علم الاصوات phonetics والكتابة الصوتية حتى يمكنهم استيعاب المشكلات الصوتية والهجائية بتفكير علمي لغوي، ومن جهل شئ عاداه.

رابعا/ اتباع النظام الهجائي للغة التراث اذا كان هذا التراث متداولا بين الناس (كما في لغة هوسا) اما اذا كان غير متداول فيمكن ادخال الجديد على نظام الكتابة كما في اللغة السواحلية.

خامسا/ اذا كان الرمز يعبر عن اكثر من صوت في التراث فلا بأس من اضافة رموز جديدة حتى يكون لكل صوت رمزه الخاص به، مثال ذلك كتابة اللغة السواحلية التي كانت الباء فيها (ب) تعبر عن كل أنواع الباء في هذه اللغة فأضيف اليها رموز جديدة لتعبر عن الانواع الاخرى للباء مثل پ، مب.

وعلى كل ينبغى مرعاة الجوانب العلمية من الناحيتين الاجتماعية وشيوع الاستعمال، واعنى بالجانب الاجتماعي تفادي الاصطدام بعواطف اهل اللغة، وبشيوع الاستعمال اعنى اركان نشر الحرف أو انتشاره عن طريق تعديل مفاتيح الالة الكاتبة.

مشكلة الطباعة والكتابة بالالات الكاتبة:

اذا اردنا للحرف العربي الاصلاح والازدهار والانتشار فلابد من العمل الجاد على ايجاد حروف الطباعة ومفاتيح الالات الكاتبة التي تساعد على كتابة هذه اللغات وطباعتها وانتشارها. ومن هنا

ينبغي اختيار الرموز المناسبة والعملية من زاوية الطباعة بالالات، ومن المعلوم لدينا ان واحدا من المداخل التي استخدمها المستعمرون لاقناع المسئولين بكتابة لغتهمبالحرف اللاتيني وفرة الالات الكاتبة بالحرف اللاتيني وتدريبهم لمجموعة من المثقفين على علم الاصوات ونظم الكتابة.

وفي هذا المقام تجدر الاشادة بالمحاولة لجادة التي يقوم بها حاليا بنك التنمية الاسلامي بجدة بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ممثلة في مكتب تنسيق التعريب بالمغرب، ومعهد الخرطوم الدولى للغة العربية، ومع منظمة الاسيسكو (المنظمة الاسلامية للتربية والثقافة والعلوم) من اجل تطوير الحرف العربيالذي نكتب به لغات الشعوب الاسلامية وصناعة الراقنات وحروف الطباعة لنشر الحرف العربي في كل اللغات التي تكتب به وعلى اوسع نطاق مصحوبا بحملة لمحو الامية. وبذلك تعود للحروف العربية المكانة التي فقدها منذ ان بسط الاستعمار نفوذه على بلاد الاسلام.

ومن هذا المنبر ننادي كل المخلصين والمقتدرين من قادة العرب وعلمائهم للمساهمة في عودة السيادة للحرف العربي الذي يزيد من ربط هذه الشعوب بكتابها وعقيدتها.

هوامش ومراجع

أ ــ باللغة العربية:

١/ المطالعة الاولية بلغة الدينكا بالحروف العربي، مكتب النشر الخرطوم ١٩٦٠
المطالعة الاولية بلغة الزاندى بالحروف العربية، مكتب النشر الخرطوم ١٩٦٠.
المطالعة الاولية بلغة اللاتوكا بالحروف العربية، مكتب النشر بجوبا ١٩٦٠.
المطالعة الاولية بلغة الباريا بالحروف العربية، مكتب النشر الخرطوم ١٩٦٠.
المطالعة الاولية بلغة المورو بالحروف العربية، مكتب النشر الخرطوم ١٩٦٠.

٢/ يوسف الخليفة ابو بكر: «الحرف العربي واللغات الافريقية» في العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الافريقية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٨٥، ص١٦٧.

٣/ معهد الخرطوم الدولي للغة العربية يتبع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وهو يعد ويدرب اساتذة متخصصين في اللغة العربية على أحدث اساليب تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها على مستوى درجة الدبلوم العالي والماجستير، وقد نص نظامه الاساسي على ان من اهداف تطوير الحرف العربي الذي تكتب به لغات الشعوب الاسلامية، وبالمعهد مجموعة من رسائل الماجستير في كتابات لغات الشعوب الاسلامية بالحرف العربي.

٤/ انظر سلسلة كتب المطالعة الاولية بلغات الدينكا، والزاندى والبارى والمورد اللاتوكا بالحروف العربية، تأليف شعبة اللغة العربية للمديريات الجنوبية، مكتب النشر الخرطوم ١٩٦٠.

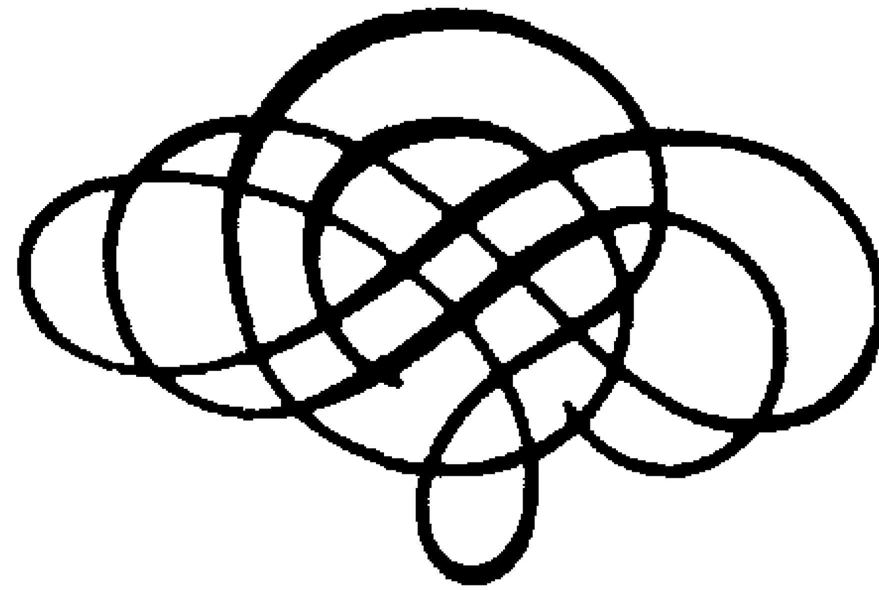
٥/ انظر نفس المصدر.

٦/ حسن الطيب: كتابة اللغة السواحلية بالحروف العربية ــ بحث قدم لمعهد الخرطوم الدولي للغة العربية كجزء من التحضير لدرجة الدبلوم العالي في تعليم اللغة لغير الناطقين بها عام ١٩٧٧.

٧/ يوسف الخليفة ابو بكر «كتابة لغات جنوب السودان بالحروف العربية» مجلة الدراسات السودانية، العدد الاول ١٩٦٨، جامعة الخرطوم ١٩٦٨.

ب ـ باللغة الانجليزية:

8. J. Berry, (The Making of Alphabet) in Readings in the Sociology of Language ed. Joshua A. Fishman. The Hagus, Mouton, 1968.
9. Le Clezo. Yves, (Writing Shilluk with an Arabic Script) in Directions in Sudanese Lingusitics and Folklore. ed. Sayyid H. Hureiz and Herman Bell, University of Khartoum Press 1975.
10. Eric N. North (editor), The Book of a Thousand Tongues, New York and London, 1938.
11. Salih al-Tuma, (The Arabic Writing Systems and Propposals for Reform) in the Middle East Journal, vol. 15, 1961.
12. Sebeok, T.A. (ed) Current Trends in Linguistics vol. 7 (Linguistics in Sub-Sharan Africa), Mouton, 1971.
13. W.A. Smalley, Writing Systems and their Characteristics in Orthography Studies ed. W.A. Smalley, London 1964.
14. (The Use of Non-Roman Scripts for New Languages) in Smalley Op. Cit.
15. Yousuf el-Khalifa Abu-Bakr, The Medium of Instruction and Lingua-franca in The Southern Sudan) in Education in Sudan (Procedings of the Annual Conference of The Philosophical Society of the Sudan ed. Yousuf Badri, 1963.
16. United Nations Year Book (1966/67).



مؤثرات لغوية وادبية عربية في شرق افريقيا

ـ المفرد العربي في اللغـة السواحيليـة والحكاية التراثية العربية في الحكاية الصومالية الشعبية

د. داود سلوم
كلية الأداب ـ جامعة بغداد

١ ـ العلاقة التاريخية مع شرق افريقيا:

بدأت العلاقات بين الشرق الاوسط ومنطقة الخليج وشرق أفريقيا منذ أبعد العصور. فالنصوص الفرعونية تتكلم عن علاقة تجارية بين شرق افريقيا ومصر في حدود القرن الخامس عشر ق.م وقد سجلت أخبار زيارة تجارية في النصوص الصورية الفرعونية (١).

ومن المحتمل ان السومريين أو الاكريين قد وصلوا تلك السواحل فان صلة السومريين في حوالي ٢٠٥٠ ق.م. بماجن Magan (عمان) ودلمون (البحرين) وملنخا (عمان او الحبشة) كانت ثابتة واكيدة (٢) وكانت للفنيقيين ايضاً صلات تجارية مع الساحل الشرقي وقد ارسلوا سفنهم الى الشاطئ الافريقي في حدود ١٠٠٠ ق.م. (٣) وتأتي بعد ذلك في العلاقات القديمة هجرة عرب الجنوب من اليمن الى الحبشة وهي هجرات وقعت قبل التاريخ. ويعتقد ان مملكة أكسوم انشأها عرب الجنوب الذين طبعوا بطابع القارة الافريقية.

وفي القرن السادس ق.م هاجر السبأيون واستقروا في أرتيريا والحبشة واسسوا مملكة تعزية ويوحي اللفظ بتقارب في الاشتقاق بين تعز اليمن وهذا الاسم (٤).

وتشير المصادر الرومانية القديمة التي سبقت بطليموس الى سيطرة دولة معافير العربية الجنوبية على دولة آزانيا ولكن بطليموس يتكلم في حدود القرن الثاني الميلادي عن مدينة (هابتا) وكأنها عاصمة دولة عربية على الساحل الافريقي (٥).

ولعل أهم اثر تركه السبأيون في المنطقة الافريقية لغتهم، لغة الجيز ذات الحروف السبأية والحميرية حيث اصبحت لغة مملكة اكسوم(٦).

وبعد الأسلام اطلق العرب على شرق افريقيا بلاد الزنج ويحدها من الشرق المحيط الهندي، ونهر روفا Ruvuma من الجنوب والبحيرات الكبرى من الغرب، والصحراء من الشمال وبذلك تنفصل هذه المنطقة عن السودان او الحبشة او غابات الكونغو (٧).

ويدخل تحت هذه المنطقة في الجغرافية الحديثة: الصومال وكينيا وتنزانيا وموزمبيق والتي تقع بين خطي عرض ١٢ درجة شمالا و ٨و٢٥ درجة جنوبا (٨) واقام العرب في عدد من مناطق هذا الشرق الافريقي ابتداء من مقاديشو في الشمال فسكنوا براوا وسيو وباتا ولاسو ومالندي وكليفي ومومباسا ونومبا وبمبا وزنجبار ومافيا وكلوة وموزمبيق وسفالة واغلب هذه الاماكن اقيمت على جزر او قرب الساحل (٩)

وتذكر المصادر العربية المحطات التجارية وسكن الجاليات في الشرق الافريقي وقد بدأت هذه المحطات منذ زمن عبر الملك بن مروان. وأول مجموعة خرجت من الشام للاستقرار في الساحل عام ٧٥هـ/٦٩٤م. وفي هذا اسست لامو وبعد سنتين من هذا التاريخ اقام العرب ٣٥ مدينة ساحلية واصبحت لهم قاعدة في زنجبار. ولم يكن اهتمام العباسيين الأوائل جاداً بهذه المنطقة ولكن اخبار الهجرات تظهر في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) واضحة وفي مطلع القرن الثاني عشر الميلادي نجد ان الاسلام قد انتشر انتشاراً واسعا مما أدى الى اعتناق الناس له (١٠).

وكان ذلك نتيجة حتمية لهذه الهجرات المستمرة وللعلاقات التجارية المتواترة.

٢ ــ العلاقات الثقافية بين العرب وشرق افريقيا:

ان انتشار الثقافة العربية في شرق افريقيا يقترن بظهور الشخصية العربية هناك وكان ذلك مرتبطاً بنشاط التجار العرب وانتشار الاسلام بين القبائل الحامية. وقد تكررت الهجرات بين سواحل الخليج العربي والساحل الافريقي ابتداء من القرن السابع الميلادي واستمرت خلال العصور الوسطى وكان الاثر العربي عنيفا في الساحل الافريقي (١١)

وبدأ الاثر العربي باختلاط العرب العرقي بقبائل البانتو الافريقية وكانت الحصيلة شعوبا قريبة من ملامح وتقاطيع العرب (١٢)

وبترسيخ هذه العلاقة انتشر تعلم القران الكريم وعلوم الشريعة وانتقلت مظاهر الحياة العربية وحضارة العرب، وانتشرت مدارس اللغة العربية والدين الاسلامي في براوة وغيرها (١٣).

وبانتقال الخلافة العباسية الى مصر عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م اشتدت الحركة الثقافية فيها علاقة مصر مع الشرق الافريقي واصبح لمسلمي الصومال أروقة خاصة بالازهر واشتهر من الشرق الافريقي علماء ومحدثون مثل الامام الزيلعي، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد (ت ٧١٢هـ/١٣٦١م)

والعاف بالله الشيخ علي الجبرتي (ت ٨٩٩هـ/ القرن السادس عشر الميلادي) ومن هذه العائلة السيخ عبد الرحمن الجبرتي جد الجبرتي المؤرخ المصري والذي جاء في الأصل من الحبشة في القرن العاشر الهجري /١٦م وكان شيخ رواق الجبرتية في الازهر (١٤).

وبدأ مفكرو الساحل الافريقي منذ القرن التاسع الهجري/١٤م يكتبون ادبهم الأسلامي وينتجون أدباً شفهياً باللغة السواحيلية التي استخدموا لكتابتها الحروف العربية ولكن السيادة كانت للغة العربية (١٥).

وكان اثر المسلمين في بلاد الصومال اثراً بالغاً فظهر العلماء والخطباء الذين ابدعوا باللغة العربية ومنهم ابو عثمان فخر الدين الزيلعي الذي ذكرناه آنفاً والذي سافر من مقديشو الى القاهرة ومات فيها وترك كتاباً اسمه «شرح كنز الوثائق» ومنهم المؤرخ شهاب الدين الملقب بعرب وله كتاب باللغة العربية باسم «فتوح الحبشة» ومنهم الأديب عبد الله منير الزيلعي (١٦).

وتغلب في الشرق الافريقي المذهب الشافعي بسبب هجرات الخليج العربي والجزيرة العربية (١٧).

وان ظهور اللغة السواحيلية كان نتيجة حتمية لاختلاط العرب بالافارقة وقد استخدمت السواحيلية الحروف العربية ويفترض الباحثون استعجال الحروف العربية منذ وقت مبكر اي منذ القرن العاشر الميلادي (١٨).

ولكن ظاهرة اختفاء او فناء المخطوطات القديمه ظاهرة تتسم بها القارة الافريقية في الشرق والغرب منها لاسباب مناخية ولذلك فان أقدم مخطوطات شرق افريقيا لا يتجاوز عمرها القرن السادس عشر وان أقدم مخطوطه هي مخطوطة (كيلوا) التي تعود الى النصف الأول من القرن السادس عشر، وقد كتبت باللغة العربية.

وتظهر الوثائق التي تليها باللغة السواحيلية. وقد بنى الباحثون على ذلك فرضاً هو: ان الثقافة العربية كانت هي الغالبة قبل الغزو البرتغالي وبأن الثقافة السواحيلية لم تزدهر الا بعد القرن السابع عشر، ومعنى ذلك انهيار الثقافة العربية وازدهار الثقافة السواحيلية (١٩). وحين نصل الى القرن التاسع عشر نجد قائمة باسماء عدد من العلماء الافارقة الذين اشتد ساعدهم في الثقافتين العربية والسواحيلية منهم: احمد بن سمياط (ت ١٨٦١ - ١٩٢٥) وكان قاضياً في زنجبار وله كتاب «موجز حياة الشيخ فضل بن علوي» وقد طبع الكتاب في اسطنبول عام ١٨٨٧م ومنهم: الشيخ عبد الله بن محمد بن كنز (١٨٦٠كانت ولادته) وله نصوص شعرية، ومنهم: الشيخ الامين بن علي المزروعي (١٨٩١ــ١٩٤٧) وهو من اشهر علماء شرق افريقيا، وقد اسس مجله (الاصلاح) وترجم سورة البقرة باللغتين الانجليزية والسواحيلية وعين قاضياً في مومباسا عالم ١٩٣٢ وقاضي قضاة فيها عام ١٩٣٧ (٢٠).

ومنهم: الشيخ شعيب سياكو المعروف ب (شيخ مزي) والشيخ عبد الله صالح الذي تخرج من مدارسه القرآنية حوالي ٥٠٪ من علماء او غنده وعين مفتياً عام ١٩٧٣ (٢١).

ومنهم: الشيخ عبد الله صالح المولود في زنجبار عام ١٩١٢م والمتوفى في مسقط (عمان) في ١٩٨٢ واشتغل في القضاء في زنجبار عام ١٩٦٠ وكينيا عام ١٩٦٨ وله من المؤلفات «اخطاء جسيمة في ترجمة الاحمدية للقرآن» وكتاب «تاريخ الامام الشافعي وعلماء شرق افريقيا» وله ترجمة كاملة للقرآن الكريم الى السواحيلية [٢٢].

وكان الادب السواحيلي في بدايته شفوياً وتدور موضوعاته حول الاحتفالات ومراسيم الزواج والختان وحفظ القرآن وتسمية الاطفال ومديح الشخصيات الاجتماعية والسيرة. وكان الأدب السواحيلي المكتوب هو أدب الدين وان كان اغلبه يكتب باللغة العربية مثل التفسير والحديث والفقه والمواعظ [٢٣].

وكانت اغراض الشعر السواحيلي ذات جذور قديمة منها ما يعود للتقاليد الثقافية العربية ومنها ما هو مستمد من ظروف البيئة كالأدب الشفهي [٢٤].

ولم تنقطع الصلة بين بلاد الساحل وخاصة بلاد الصومال وبين البلاد العربية. فقد كانت الهجرة مستمرة حتى الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

فقد وفدت جماعات من الوهابيين والنجديين واستقرت في بلدة بارديرا واخذت هذه الجماعات تدعوا الى الوهابية وذلك في حدود ١٨٣٠م [٢٥].

وكما ظهر في نيجيريا عثمان بن فودي وفي السنغال الحاج عمر تال وفي السودان المهدي فقد ظهر في الصومال المجاهد الداعية محمد بن عبد الله بن حسن وكان مجاهداً حارب المبشرين ودعا الى الجهاد وتوحيد الكلمة [٢٦].

ويبدو لنا ان اغلب هذه الحركات كانت متأثرة بما كان في الجزيرة العربية من صراع فكري تمخض عن الحركة الوهابية مذهباً فكرياً نقياً حاول ان ينفي عن الاسلام ما علق به من ممارسات غير اسلامية عبر القرون.

ولذلك فأن الأدب السواحيلي العربي او الشعبي او الذي كان يترجم عن العربية كان متأثراً بهذه النزعات الدينية.

فقد ترجمت الهمزية للبوصيري الى اللجة الشعبية الكنيفوزية احدى لهجات السواحيلية وقد ترجمها شاعر سواحيلي يجيد اللغتين، العربية والسواحيلية واسمه: ايداروس عثمان [٢٧].

ومن شعراء السواحيلية في القرن التاسع عشر الشاعرة مونا كوبونا من منطقة الساحل في كينيا. وكانت تبتدئ في بعض اشعارها باسم الله وباسم الرسول الكريم وباسم الصحابة وكان شعرها تربوياً. ففي احدى قصائدها وجهت نصيحة لابنتها موانا هاشمية في ان تكون مسلمة صالحة. ومن شعراء السواحيلية شعبان روبرت المتوفى في منتصف الستينات وكان مسلماً ملتزماً وذا موهبة شعرية وقد كتب حوالي عشرين مؤلفاً في الشعر والادب وعاش اغلب حياته في تعانفا في تنجانيفا [٢٨].

ومن هذه العلاقات الثقافية المتأخرة بين شرق افريقيا والعرب ما قام به المعلمون العرب في

بوغندا منذ اواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر الى اواخر النصف الثاني منه اي ما بين (١٨٤٤) و (١٨٨٤م) بالضبط.

وقد ساعد المعلمون العرب الملك رلى الدخول في الاسلام وادخال القراءة والكتابة ودخل العرب الى بوغندا في صفة مستشارين وقامت مراسلات بين الملك وبين الجنرال غوردون وسلطان زنجبار والخديوي واستخدمت العربية والسواحيلية في هذه الرسائل (٢٩).

وان دخول موتيسا ملك بوغندا في الاسلام تلاه دخول رجال الدولة واصبحت صفات الثقافة العربية علامات مميزة ودائمة في الفكر البوغندي وقد أخذ في هذه الدولة آنذاك بالتقويم الاسلامي وازداد عدد المفردات العربية في اللغة الاوغندية وان شيوع اللغة السواحيلية فيها سهل التواصل العلمي بين بوغندة والقبائل المجاورة. وان تعلم الكتابة والقراءة التي ادخلها العرب نهضت بالمستوى الثقافي في هذا البلد (٣٠).

ولذلك فان الاستعمار قد بذل جهوداً مضنية لمنع تأثير الإسلام في اوغندة ولذلك اتخذ قرارا بمنع تعليم اللغة السواحيلية وعدم قبولها كلغة من لغات التعليم وقد عبر « المطران الانغليكاني في اوغندة، أ. د. تكر عن ذلك بقوله: السواحيلي قريبة جداً من المحمدية (اي الاسلام) بحيث لا يمكن الترحيب بها في المدارس الاوغندية (٣١).

ومن خلال هذه السياسة القاسية ضد الثقافة الاسلامية فان دعاة المسيحية كانوا يتوقعون زوال الاسلام من اوغندا وذوبان المسلمين في المسيحية او الوثنية كما عبر عن ذلك في اوغنده الكاهن آش في عام ١٨٩٣م وقال: «ان الحزب المحمدي (اي الاسلام) كما اعتقد». يذوب نهائيا خلال بضع وبدأت سنوات الا اذا تم تدفق عناصر محمدية (اي مسلمة) خارجية السواحيلية من شأنها ان تمده بالقوة..» (٣٢).

تنحسر عن طريق الحياة الحديثة في المجالات الثقافية فهي ما زالت لغة المسلمين فقط كما انها تستخدم في القضاء وفي الطب الروحاني (٣٣).

وقوة السواحيلية وضعفها تقترن بقوة او ضعف المد الثقافي العربي والاسلامي وتتماشى طرديا مع الجهد المبذول في مناطق الخليج او الساحل الجنوبي للجزيرة العربية. ويمكن ان نعطي في آخر هذه الخارطة الثقافية صورة عن وضع الثقافة في (الصومال) بين القرنين التاسع عشر والعشرين.

ان رجال الدين وادباء العصور السابقة كانوا يكتبون ادبهم باللغة العربية وكانوا يكتبون هذا الأدب لحلقات ضيقة من القراء الذين يقرأون العربية. وكانت موضوعاته مستمدة من القصص الديني والاخلاق الاسلامية والمواعظ وتلقى هذه النصوص على المريدين والطلبة وقد نظم كثير من القصص الديني الذي يرد في القرآن الكريم والسير والاخبار مثل قصص الانبياء والصحابة والعلماء (٣٤).

ويمكن ان نذكر من ادباء الصومال في القرن التاسع عشر الشيخ عبد الرحمن الزيلعي الذي تنسب

اليه الطريقة الزيلعية والشيخ أحمد غيبو وهو من مواليد أخر القرن التاسع عشر وهو من العلماء والفقهاء والمصلحين الاجتماعيين وقد قاد حركة ثورة ضد الاستعمار الايطالي.

ومنهم: الشيخ حاج آدم وهو من المعمرين فقد ولد عام ١٨٥٤م وناضل في الحرب العالمية الثانية في سبيل استقلال الصومال وكان حياً في عام ١٩٨٥ ـ (٣٥).

ومنهم الشيخ عبد الله بين معلم يوسف القطبي صاحب كتاب «نصر المؤمنين على المردة والملحدين» والكتاب باللغة العربية وفيه عدة رسائل منها رسالة «السكين الذابحة على الكلاب النابحة» وقد الف هذا الكتاب في حدود ١٣٣٥هـ وهو من الذين ولدوا في أواخر القرن التاسع عشر وعاشوا الى اوائل القرن العشرين. ومن مؤلفاته ايضاً: «زهرة الانوار في قصائد أهل الاسرار» و «المجوعة الكبرى في فنون أصحاب السرى» (٣٦).

ومن رجال الصومال في العصر الحديث الشيخ عبد الرحمن حسين سمنتر (ولد عام ١٩٣٦) وقد تخرج في كلية الشريعة الاسلامية بالرياض عام ١٩٦٦ واشتغل بالقضاء عام ١٩٦٧ـ١٩٨١ وعين موظفاً في مكتب رابطة العالم الاسلامي عام ١٩٨١ وقد الف وترجم عدة كتب (٣٧).

ومنهم الشاعر عمر محمد عبد الرحمن وقد اشتغل بالتدريس والصحافة ويحرر اليوم جريدة «الطليعة» الصادرة باللغتين العربية والايطالية (٣٨).

ومنهم عمر علسو أحمد من مدينة (عدل) ومن مواليد عام ١٩٣٤ وقد درس العلوم الدينية وحفظ القرآن الكريم وتخرج من كلية العلوم في جامعة القاهرة عام ١٩٦٦ واشتغل بالتدريس.

واصيب تيار الثقافة العربية الاسلامية في الصومال بنكسة حين تحولت اللغة الصومالية الى الحروف اللاتينية.

ففي عام ١٩٧٢ ولأول مرة كتبت اللغة الصومالية بالحروف الاجنبية وادى هذا الى حماسة الكتاب والأدباء الذين ليس لهم ثقافة عربية اصيلة لجمع بعض الحكايات الشعبية او كتابة القصص والروايات والمسرحيات باللغة الصومالية وبالحرف اللاتيني (٣٩).

وبالرغم من طول العلاقة الثقافية بين شرق افريقيا والخليج والجزيرة وبقية انحاء العالم العربي وبالرغم من كثرة الهجرات والعدد الكبير للعالماء والفقهاء والقضاء والمثقفين الا ان ما تبقى من تراث قديم لايكاد يساوي شيئاً في الوقت الذي كانت تصدر فيه الكتب الى شرق افريقيا ويشتريها الحجاج والطلبة من الافارقة وهم في طريق عودتهم الى بلادهم. وان ما تبقى من هذا التراث الذي كان يجب ان يقدر بمئات الآلاف من المخطوطات لا يعد اليوم شيئاً. ونقرأ في بحث كتبه د. سيد حامد حريز من السودان ما يلي:

«بعض هذه المخطوطات [في شرق افريقيا] مكتوبه باللغة العربية والبعض الأخر باللغات الافريقية المكتوبة بالحرف العربي كالسواحيلية والملقاسية.... وفي عام ١٩٨٠/٧٩ [في زنجبار] امكن جمع اكثر من مائة مخطوطة... وهذه المخطوطات تعطي صورة حسنة عن الحياة الثقافية والاجتماعية في جزيرة

زنجبار وهي تتناول مواضيع مختلفة من بينها التاريخ والسياسة والنحو والفقه والصوفية والشعر والسيرة النبوية والقصص الشعبي والسيرة الذاتية والمذكرات الخاصة... وفي بعض الاحيان كان اسهامهم عبارة عن شرح الكتب العربية والاسلامية الشهيرة وتقديمها لمواطنيهم في الساحل الشرقي الافريقي في اثواب جديدة على منوال عيون الكتب العربية والاسلامية واختاروا لها اسماء وعناوين مشابهة لنظيراتها التى حذت حذوها وانتهجت نهجها، كما الفوا ايضاً في مواضيع تاريخية وثقافية تهم الساحل الشرقي الافريقي وتتناول قضاياه الخاصة. وفي بعض الاحيان كتبوا عن تجاربهم الخاصة في شكل مذكرات وسير ذاتية يغلب عليها الطابع الشخصي بالرغم من ارتباطها ببعض القضايا العامة..» (٤٠).

اللغة العربية في افريقيا ومشاكلها:

في هذه الفقرة من البحث ننظر في وضع اللغة العربية في افريقيا كلها في شرقها وغربها لان ظروف دخولها الى القارة متشابهة ولان المعلومات التي نستلمها من باحث في غرب افريقيا قد تكون عاملاً مساعداً لتفهم مشاكل اللغة في شرق القارة.

اجمع الباحثون في غرب افريقيا على ان اللغة العربية كانت مرافقة للعلاقة التجارية التي قامت بين العرب والافارقة منذ القرن السابع الميلادي واشتدت هذه العلاقة بعد القرن الحادي عشر وادى ذلك الى انتشار الاسلام. وان دخول العربية عن طريق التجارة لم يكن اقل اهمية من دخولها عن طريق اللفظ الديني. فالعربية اصبحت لغة التخاطب والتبادل بين التجار (٤١). ودخلت مفردات كثيرة مع الحاجات المستوردة فدخلت تلك الاسماء في اللغات واللهجات الافريقية. وان حفظ القرآن وتعلمه ادى الى انتشار مفردات اللغة العربية واستخدم كذلك الحرف العربي في كتابة اللغات المحلية (٤٢) وتلا ذلك تدرج المثقف في سلم الثقافة العربية وقراءة القرآن منذ الطفولة فتكونت طبقة من المثقفين الذين اطلعوا على الكتب الدينية العربية وعانوا ترجمة بعضها الى لغاتهم.

وان ممارسة الثقافة العربية ادت ببعض المثقفين الافريقيين الى التأليف باللغة العربية (٤٣) ونعتقد ان الصلة بالقرآن الكريم كانت وراء استقرار كثير من المفردات في اللغات الافريقية ودوام الصلة في التعامل التجاري.

ولعل اكثر اللغات الافريقية تأثراً في غرب افريقيا باللغة العربية هي لغة الهوسا وفي شرق افريقيا هي السواحيلية وقد كتبت كلتا اللغتين بالحرف العربي (٤٤).

وان الالفاظ العربية التي دخلت الهوسا الفاظ كثيرة العدد تربو على الالفين وخمسمائة مفرد، تتوزع بين المفرد الدين والمفرد التجاري وبسبب هذا الغنى في المفرد المستضاف فأن الهوسا والى اليوم تعتبر أهم لغات غرب افريقيا فأن اسماء البضائع التجارية واسماء العقود والاعداد وبعض المصطلحات التي تقوم على المعايير الاخلاقية عربية الأصل والجذر والاشتقاق (٤٥).

ومع ان العربية كانت مرافقة لكل الاجيال الافريقية التي قرأت القرآن الكريم منذ دخول الاسلام وان مئات الالفاظ دخلت في معاجم اللغات الافريقية الا ان اللغة العربية لم تكن في يوم من الايام لغة التخاطب الا بين الجاليات العربية المقيمة وان العربية كانت لغة القراءة والكتابة والتأليف فقط.

ورغم كثرة العلماء الافارقة الذين قد يتجاوز عددهم المئات في جيل واحد وفي منطقة واحدة الا ان اللغة العربية بالنسبة لهم لم تكن لغة حديث الا ما يحفظ من نصوصها للاستشهاد به. قال احد الباحثين:

«ومعنى ا نتشار اللغة العربية في تلك الفترة هو انتشار الدين الاسلامي وكثرة من يستطيع ان يقرأ الكتب الدينية المكتوبة باللغة العربية ويفهمها. وليس معنى ذلك ان العلماء كانوا يتكلمون بالعربية لانها ليست لغة للتخاطب فيما بينهم ولكنها هي لغة الثقافة وكان يتعلمونها على الطريقة التقليدية بواسطة قراءة الكتب الدينية او تفسيرها او ترجمتها باللغات المحلية» (٤٦).

ثم يذكر هذا الباحث عدد العلماء الذين اجتمعوا في عيد الاضحى في مناسبة عامة فيقول: «ان عدد العلماء الذين جمعهم سلطان غدير باوا في عيد الاضحى للمناظرة مع الشيخ عثمان في سنة ١٢٠٢هـ الموافق ١٧٨٨م كان فوق الألف» (٤٧). وفي تقرير عن وضع اللغة العربية في السنغال نجد ان اللغة العربية لم تكن هناك لغة كلام او حديث بين المثقف المسلم السنغالي واخيه وانما كانت لغة قراءة وكتابه فقط. يقول الباحث السنغالي:

«ولأي جمهور كان هذا الانتاج الادبي ؟ وبعبارة اخرى: الى من وجه ادباء مؤلفاتهم؟ فاولا: جعلوها عرضة لاتباعهم وتلاميذهم وطلابهم قبل كل شئ وان لم يكن جل هؤلاء الاتباع يفهمون اللغة العربية، غير ان اهل القلم مطمئنون الى من حولهم من الادباء او الى بعض اتباعهم الذين يسعهم ان يفسروا مؤلفاتهم للجهال اثناء حفلات مسائية او في المدارس. وبعد تفسير هذا الانتاج في اللغة الولفية او في اللغة الفلانية. يقضي اهل القلم اوطارهم على كل حال. واخيراً فان هذا الادب المعد للعلماء ولكل من هو راسخ في اللغة العربية وكثيرا ما يكتب اصحاب العلم بعضهم الى بعض ويرسل بعضهم الى بعض رقاعا لطيفة او امداحاً وثناء او يبارزون في الشعر (٤٨).

وعلى الرغم من التفاوت في كثافة الهجرات البشرية بين غرب افريقيا وشرق افريقيا الا ان الامتزاج العرقي كثيرا ما يفقد الهجرة قدرتها على الحفاظ على لغتها وبالتالي تتسرب اللهجات واللغات المحلية الى ابناء المهاجرين من خلال امهاتهم وتصبح العربية بالنسبة لهم لغة الدين والتأليف والدراسة ايضاً كما هو بالنسبة للافارقة الاصليين.

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هو السبب او لاسباب خلف عدم نجاح الغربية في ان تحول الافارقة عن لغتهم الأم اليها مع كثرة مفرداتها في الدين والتجارة؟.

اضافة الى قلة الهجرات بالنسبة لحجم القارة فأننا يمكن ان نعود الاسباب التي ادت الى فشل

اللغة العربية في ان تكون لغة الكلام والعلم في شرق القارة وغربها ومن هذه الاسباب:.

أ ــ صعوبة مخرج الحروف العربية وابدالها:

ان صعوبة مخارج بعض الألفاظ العربية كان احد اهم الاسباب في عدم قدرة اللغة العربية على فرض نفسها لغة كلام ولذلك فقد وجد الافريقي من السهل عليه اخذ اللفظة العربية التي يضطر الى استعارتها ومزجها في سياق جملته الافريقية وكان ذلك اسهل من ان يركب جملة عربية بعض كلماتها صعبة المخارج لا يمكن اخراجها اخراجاً مفهوماً للسامع وقد شرح احد الباحثين السنغاليين صعوبة النطق باللغة العربية نطقاً سليماً نظراً لاختلاف المخارج قال:

«وكيفما كان الأمر فان القوم الذين يتكلمون بالعربية الفصحى وينطقون بها بوجه افصح واوضح فما ابعد بلادهم وأنأها....ولاجل ذلك يلفظ السنغالي بلغة الضاد على وجة معيب وناقص حتى ولو حضر العربي لكان عزيزاً عليه ان يفهم السنغالي الذي يخاطبه في اللسان القرآني اذ ينطق بحرف الضاد كما ينطق بحرف اللام وحرف الصاد والزاي والذان يلفظ بها سيناً على اختلافها واما حرف الخاء والقاف والغين فينطق بها خاء على تباينها ولكن الذين تخرجوا من موريتانيا او البلاد العربية فلهم نطق خال من كل عيب وصارت سلامة نطقهم وصحته أشد جودة واقوى وضوحاً اذا طالت اقامتهم في تلك البلاد.

وفيما يلي نقدم جداول بعض الحروف العربية التي تبدل بحروف اخرى في اللغة السواحيلية والصومالية وفي اليوربا والهوسا والسنغالية لنجد مقدار التبدل الذي يطرأ على المفرد العربي اذا لفظه الافريقي وصعوبة اخراجه صوتياً اخراجاً سليماً.

وقد قسمنا اللغات الافريقية الى مجموعتين حسب المنطقة فجمعنا في جدول الابدال في لغات شرق افريقيا بين اللغتين الصومالية والسواحيلية وجمعنا في جدول الابدال في لغات غرب افريقيا بين اللغة السنغالية ولغة اليوربا ولغة الهوسا. ووضعنا امام الحرف العربي الحرف المبدل منه ثم اعطينا امثلة من الكلمات اذا توفرت لدينا في المصادر التي اعتمدنا عليها في رسم هذين الجدولين.

الابدال في لغات شرق افريقيا (اللغة الصومالية واللغة السواحيلية)

الحرف العربي	الحرف الصومالي	الحرف السواحيلي	كلمات صومالية	كلمات سواحيليـــة
ث	ت	....		
ح	....	ه	....	هدر (= حذر)
خ	....	ه	....	هبري (= خبر)
ذ	د	د	....	دبيحو (= ذبيح)
ز	س	....	سياد (= زياد)	....
ش	....	ج	....	جي (= شاي)
ص	س	س	....	سباح (= صباح)
ض	د	د	دعيف (ضعيف)	دعيفو (= ضعيف)
ط	د	ت	داع (= طاعة)	تبقه (= طبقة)
ظ	د	د	....	دالمو (= ظالم)
ع	ف. جيم مصرية	أ	....	أدمة (= عظمة)
غ	....	جيم قاهرية	....	كوفيرا (= غفران)
ق	....	ك	....	كادي (= قاضي)
م	ن	....	معلن (= معلم)	

الابدال في لغات غرب افريقيا (السنغالية واليوربا والهوسا)

الحرف العربي	الحرف السنغالي	حرف اليوربا	حرف الهوسا	كلمات من اليوربا	كلمات من الهوسا
أ	—	—	ه	——	هبوبكر (= ابوبكر)
ب	—	—	م.ل.ه.ف	——	الجيفو (= الجيب)، اللورة (= الابرة)، الجهه (= الجبة)، الركومة (= الركوبة)، البفور (= البخور)
ت	—	—	ر.د	——	سبد = (السبت)
ث	—	ت	س.ت	اثنين (= الاثنين)	الكوسر (= الكوثر)، تومني (= الثمن)
ج	—	—	د.ر	——	سردي (= السرج)، اللزام (= اللجام)
ح	—	أ	ه.ز	الآجي (= الحاج)	الهمدي (= الحمد)، زنو (= الحزن)
خ	—	أ	ف.ه.ك	الأميس (= الخميس)	بافور (= البخور)، هلق (= خلق)، تاريها (= تاريخ)
د	—	—	ي.ل.ن. س.ش.	——	مشاجي (= مشاهد)، كوال (= قواد)، محمن (= محمد)، الباروس (= البارود)، الزمرزو (= الزمرد)
ذ	س	د	د.ت.ز	لدان = (الآذان)	دراع (= ذراع)، هدب (= هذب)، حتر (حذر)، زلاقة (= ذلاقة)
ر	—	—	ل.م.ب	——	محالبي (= محارب)، خمام (= خمر)، الحرين (= الحرير)
ز	س	—	د.ج	——	داد (= زاد)، حمحة (= حمزة)
س	—	—	ش.ز	——	خوموشي (= خمس)
ش	س	—	ج.س	——	أجر (= عشر)، كروس (= قروش)
ص	—	—	ش.ز.س	——	المكشي (= المقص)، الزومي (= الصوم)، سراظ (= صراط)
ض	ل	د	ل.د	فدكه (= فضة)	الولا (= الوضوء)، لردي (= الارض)
ط	—	ت	د.ت.ظ	تيرة (طيرة)	دبما (= طبعاً)، الخوتا (= الخط)، فنتار (= قنطار)، سراظ (= سراط)
ظ	—	—	ز	——	وزيفة = (وظيفة)
ع	—	أ	أ.ه	الآفيه (العافية)	هلام (= علامة)، آأوز (= أعود)
غ	خ	—	ك.ه.ج	——	كروش (= غروش)، هارا (= غارة)، جفور (= غفور)

الابدال في لغات غرب افريقيا (السنغالية واليوريا والهوسا)

الحرف العربي	الحرف السنغالي	حرف اليوريا	حرف الهوسا	كلمات من اليوريا	كلمات من الهوسا
ف	—	—	ه.ب	——	الهوتا (= الفوطة)، سوبا (= صفة)
ق	خ	ج.ك	ج.ك.ه	الجمجي (=المقص) الكران (= القرآن)	تاكا (= طاقة)، هباري (= قبر)، كنتار (= قنطار)
ل	—	—	ك.ن.ر	——	هلاك (= حلال)، جبرين (= جبريل)، الكواري (= القول)
م	—	—	ن		هانسا (= خمسة آلآف)
ن	—	—	ل.م		سابولو (= صابون)، ممبر (= منبر)
ه	—	—	ج	——	مشاجي (= مشاهد)

ب ـ المناهج التعليمية:

ان المناهج التعليمية الشائعة في افريقيا سبب أخر من عدم مقدرة اللغة العربية على الصمود في افريقيا لغة كلام وحوار وحديث والشئ الذي يشغل بال الباحث حول هذا المنهج هو معرفة التاريخ التقريبي لظهوره والغالب على هذا المنهج التعليمي المركز ابتعاده عن تدريس اللغة والشعر والأدب ولعل هذا كان مسؤولا عن عدم شيوع اللغة العربية لغة حديث. والذي نلاحظه ان العلاقه قد اشتدت بين العالم العربي وافريقيا بعد ان بدأت الحضارة العربية تتدهور في المشرق والمغرب والاندلس.

وحين تحجرت مناهج الدراسة واشتد التأكيد على الدراسات الدينية نجد ان افريقيا بدأت تقتبس هذا المنهج. وان المناهج العربية مالت بعد سقوط بغداد وضعف العالم العربي الى تقليب الدراسات الدينية كالتفسير والحديث والفقه والموجز النحوي واختفت الدراسات الادبية مثل تفسير الشعر وجمعه أو الاهتمام بكتب اللغة الا ما يمس فهم النصوص الدينية. ولذلك فأن اثر موريتانيا في مناهج التعليم في السنغال أو المغرب في نيجيريا او الجزيرة العربية والخليج العربي في الشرق الافريقي كان واحداً من حيث تجميد الذوق، والاكتفاء بالضروري الذي يعلم العقيدة. ونتوقع ان مناهج القرن التاسع عشر التي كانت سائدة في غرب افريقيا هي ذات المناهج او قريبة من المناهج التي پانت شائعة في شرق افريقيا فان اثر الحج واثر الازهر وغيرهما من الاماكن التي يلتقي بها اهل شرق

افريقيا وغربها كان كبيرا بحيث ادت هذه اللقاءات الى توحيد نمط الثقافة الدينية وان اختلفت الكتب احياناً.

ولو نظرنا في منهجي التعليم في السنغال ونيجيريا في القرن التاسع عشر واوائل العشرين لما وجدنا فيه الا الجانب العملي التطبيقي في قضايا الدين ويتم ذلك من خلال الكتب الموجزة ويمثل منهج التعلم فيها نموذج التعليم السائد في القارة الافريقية كافة وان كان يبدو ان المنهج التعليمي في السنغال كان انشط منه في نيجيريا لقيام صلات تجارية وفكرية بين موريتانيا والسنغال. ولا يمكن ان نحكم على نوع التأثير السائد في شرق افريقيا وهل يغلب عليه اثر الجزيرة العربية واليمن او الاثر الازهري وذلك لانعدام مفردات هذا المنهج لدينا. ويخلو المنهج التعليمي في افريقيا شرقاً وغرباً من النشاط الادبي ويكتفي ذكر الشعر الاموي والعباسي. ويركز المنهج على كتب الدين والفقه والحديث.

ان بعض مؤلفات القرن الثالث والخامس الهجريين كانت من بين كتب المناهج السائدة ولكن عند اشتداد الصلة في العصور الوسطى كان المؤلف المصري او المؤلف من المغرب العربي هو الذي سيطر على الكتاب المنهجي والتعليمي في افريقيا وذلك لصعوبة وصول المخطوط المشرقي ولنشاط الدراسات النحوية والفقهية في شمال افريقيا وبقي الكتاب الادبي في المنهج التعليمي كتاباً مشرقياً وان كان عدده اقل من السابق واصبحت كتب الحديث او الفقه والنحو والتفسير واحدة في الغالب في عموم افريقيا وان كانت مؤلفات القرنين السادس والثامن الهجريين هي التي شاعت في نيجيريا ومؤلفات القرن السابع الهجري هي التي شاعت في السنغال. وكانت نيجيريا قد انقطعت صلتها بالمؤلف العربي منذ القرن العاشر الهجري في الوقت الذي استمرت الصلة بين المؤلف العربي والسنغال الى القرن الرابع عشر الهجري فظهرت اسماء مؤلفين محدثين في قسم من مواد المنهج التعليمي.

لم يظهر في نيجيريا مؤلفون يؤلفون الكتب التعليمية ولكن قد ظهر في السنغال مثل هؤلاء المؤلفين وان بقيت الكتب المنهجية المعتمدة عربية الأصل. ان هذه الملاحظات العامة يمكن ان تصدق على شرق افريقيا من حيث التأثر بالمنهج التعليمي المشرقي الذي اعتمد على الدراسات الدينية والفقهيه والنحوية وتصل اليها تلك الدراسات من خلال الموجزات والحواشي.

ومن المحتمل جداً ان بعض المؤلفين. من ابناء الشرق الافريقي قد حاولوا ان يؤلفوا لتلامذتهم ولكن يبقى الكتاب الذي يؤلف في البلاد العربية أهمية خاصة ويتمتع باحترام عال بين طلبة العلم وفيما يلي نضع قائمة الكتب التعليمية التي كانت شائعة في السنغال ونيجيريا في حدود اواخر القرن التاسع عشر وهي تتناول الفقه والتفسير والحديث والنحو والعروض وبعض المواد الاخرى. ونعتقد ان هذا المنهج الذي كان سائداً وما فيه من ضيق وبعد عن العربية الادبية قد ساعد على انحسار العربية من افريقيا في شرقها وغربها.

١ ـ المناهج التعليمية في السنغال:

ق ٣هـ ـ صحيح البخاري (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م)
صحيح مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ/٨٧٥م)

ق ٤هـ ـ الرساله لابن ابي زيد القيرواني ـ عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٣٨٦هـ/١٥٨٠م) (في الفقه).
مقصورة ابن دريد (ت ٣٢١هـ/٩٣٣م)، (في الشعر).

ق ٥هـ ـ الورقات لابي المعالي الجويني (ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥م)، (في الفقه).
المعلقات السبع للزوزني (ت ٤٦٨هـ/١٠٧٥م)، (في الشعر).

ق ٦هـ ـ منظومة ابن رشد، محمد بن رشد الحفيد (ت ٥٩٥هـ/١١٩٨م)، (في الفقه)
مؤلفات الغزالي (ت ٥٠٥هـ/١١١١م)، (في التصوف).

ق ٧هـ ـ تفسير عبد الله بن عمر البيضاوي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)
ملحة الاعراب للحريري (ت ٥١٦هـ/١١٢٢م)، (في الاعراب)
الفية ابن مالك (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م)
لاميه الافعال لابن مالك.
قصيدة «البردة»، «الهمزية» لمحمد البوصيرى (ت ٦٩٥هـ/١٢٩٥م) (في الشعر والمدائح النبوية).
الدائرة الشفية في العروض والقافية على بحر الطويل لعلي الخزرجي (ت ٦٥٠هـ/١٢٥٢م)، (في العروض).

ق ٨هـ ـ اقرب المسالك والمختصر للشيخ خليل بن أسحق (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، (في الفقه).
الاجرومية لابن اجروم الصنهاجي (ت ٧٢٤هـ/١٣٢٣م)، (في النحو والاعراب).

ق ٩هـ ـ تحفة الحكام في نكت العقود والاحكام لابن عاصم الاندلسي (ت ٨٢٩هـ/١٤٢٦م)، (في الفقه).
الدالية للبوشي نور الدين (ت ٨٥٦هـ/١٤٥٢م)، (في الأدب).

ق ٩/١٠هـ ـ تفسير الجلالين للسيوطى (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) وجلال الدين المحلي (ت ٨٦٤هـ/١٤٥٩م).

ق ١٠هـ ـ تفسير مدارك التنزيل للنسفي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)
الالفية لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، (في الحديث)
الاخضري في العبادات ـ وهو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عامر المغربي (ت ٩٨٣هـ/١٥٨٥م)، (في الفقه)
المقدمة العزية لابي الحسن عبد الله بن ناصر الدين المصري الشاذلي (ت ٩٣٩هـ/١٥٣٢م)، (في الفقه)
الجوهر المكنون لعبد الرحمن الاخضري الجزائري (ت ٩٨٣هـ/١٥٨٥م)، (في الأدب)
متن السلم لعبد الرحمن الاخضري المغربي (ت ٩٨٣هـ/١٥٨٥م)

ق ١١هـ ـ متن العشماوية ـ وهو عبداللطيف بن شرف الدين العشماوي (كان حياً في ١٠٨٦هـ/١٦٧٥م)، (في الفقه)
الموشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشور القاسي الاندلسي (ت ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م) منظومة على مذهب مالك، (في الفقه)

ق ١٢هـ ـ الحكم لابن عطاء الله المصري (كان حياً في ١١٧٠هـ/١٧٥٧م)، (في التصوف).

ق ١٤هـ ـ المقدمة الكوكبية لمودخج كهبة الكوكي السنغالي ـ (في النحو) سراج طالب العلوم، للعربي بن ادريس الموساوي (ت ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م)، (في العروض)
ميزان الذهب لأحمد الهاشمي المصري، (في العروض)
مبين الاشكال للقاضي مبحنحت كل السنغالي، (في العروض) تبشير الطلاب بمبادئ الحساب للشيخ الهادي نوري السنغالي.

وهناك كتب في الجغرافية على طريقة بطليموس وفي علم الحساب وعلم النجوم وعلم الافلاك الخ...

المناهج العلمية في نيجيريا:

ق ٥٢ ــ موطأ مالك (ت ١٧٩هـ/٧٩٥م)

ق ٥٣ ــ صحيح البخاري (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م)

صحيح مسلم (ت ٢٦١هـ/٨٧٤م)

ق ٥٤ ــ رسالة بن ابي زيد القيرواني، عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٩٩٦/٣٨٦م)، (في الفقه)

ق ٥٦ ــ المختصر في فروع الفقه المالكي لخليل بن اسحق الجندي المالكي (ت ٥٦٧هـ/١٣٦٦م)، (في الفقه)

منظومة يحيى القرطبي، لعله: يحيى بن عمر بن سعدون القرطبي، ضياء الدين، ابوبكر وهو فقيه، ناظم ولد في قرطبه ودرس في مصر وبغداد واقام بدمشق له دلائل الاحكام (ت ٥٦٧هـ/١١٧٢م)، (في الفقه)

مقاماتب الحريري (ت ٥١٦هـ/١١٢٢م)، (في الأدب)

القصائد العشر للتبريزي(ت ٥٠٢هـ/١١٠٨م)، (في الشعر)

ق ٥٧ ــ الفية ابن مالك (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، (في النحو)

ق ٥٨ ــ الاجرومية لابن اجروم الصنهاجي(ت ٧٢٤هـ/١٣٢٣م)، (في النحو)

قطر الندى وشرح ابن هشام على الألفية وشذور الذهب وكلها لابن هشام (ت ٧٦١هـ/١٣٥٩م)، (في النحو)

ق ٥٩/٥١٠ ــ تفسير جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) وجلال الدين الجلى (ت ٨٦٤هـ/١٤٥٩م)

ق ٥١٠ ــ العزية، المقدمة العزية لابي الحسن عبد الله بن ناصر الدين المصري الشاذلي (ت ٩٣٩هـ/١٥٣٢م)، (في الفقه).

تلف المخطوطات والوثائق:

سبق ان قلنا ان اللغة العربية لم تتمكن من الثبات في شرق او غرب افريقيا بسبب ذوبان المجرات والمكان الوحيد الذي لم يحدث هذا فيه هو السودان الاوسط لضخامة المجرة فاستقرت العربية هناك لغة كلام وثقافة، ولهجة وفصحى.

ونضيف الى ذوبان اللهجات طبيعة القارة الافريقية التي تؤدي الى تلف المخطوطات والوثائق في سنين معدودة وقد تكون لظروف المجتمع الافريقي نفسه وكثرة الحروب وما اليه سبب آخر لخلو افريقيا من المخطوط. فان كل جيل من الافريقين يبني تراثه الادبي ثم يفقده ويضطر الجيل الاتي الى بناء تراث آخر وهكذا، ولذلك فلا يوجد ميراث ادبي من المخطوطات متواصلا مع القدم.

وهذا الواقع هو الذي جعل احد الباحثين الافارقة يثير المشكلة ويتساءل عن مصير المخطوطات العربية في افريقيا قال:

«اي شئ وجدنا اذن عند السودانيين المسلمين (في السنغال) منذ اوائل القرن الثامن للميلاد ؟ وكيف صارت المؤلفات التي تركوها لذريتهم؟ واين هي؟ ولا يقبل عقل الانسان

ان هؤلاء لم يموتوا عن وثيق مكتوب من زمان اعتناقهم للاسلام الى القرن التاسع عشر الميلادي. وكيفما كان الشأن فقد بحثنا عن الامر وفتشنا غير أنا لم نعثر على اي شئ من مخطوطات من عهد ملك وارجابي الى زمان حج الشيخ عمر تال الي بيت الله الحرام في سنة ١٨٢٠م... الا ينبغي لنا ان نعترف رغماً عن ذلك بان ما عثرنا عليه من الوثائق لا يدل الا على جزء أيسر وعلى قسم أزهر من المكتوبات الضخمة التي تركها ادباؤنا الاقدمون وما اكثر ما فقدناه من كتب ومخطوطات. غير ان ما بقي منها له فائدة مهمة في الميدان التاريخي والاجتماعي ولا سيا في الميدان الادبي.(٥٠)

ونريد ان نضع افتراضا تقديريا عن مجمل ما دخل القارة الافريقية من مخطوطات خلال الف سنة لنرى مقدار ما ذهب ومقدار ما تبقى.

قال محمد بلو بن الشيخ عثمان بن فودي انه قرأ ما مجموعه عشرون الف كتاب(٥١).

واذا افترضنا ان هذا الرقم هو حصيله ما جمع في نيجيريا خلال قرن من الزمن فان مجموع ما دخل الى غرب افريقيا في عشرة قرون يكون قد بلغ ٢٠٠ الف نسمة ومثلة في شرق افريقيا فيكون مجموع ما دخل افريقيا خلال عشرة قرون قد بلغ ٤٠٠ الف مخطوط عدا نسخ القرآن الكريم التي قد تدخل الى افريقيا بمعدل ١٠٠٠ نسخة كل عشر سنوات وبذلك يكون مجموع ما دخل اليها في عشره قرون قد بلغ ٢٠٠ الف نسخة من القرآن الكريم وبذلك يكون مجموع المخطوط العربي الذي دخل الى افريقيا قد بلغ ٦٠٠ الف فاين هي الان؟.

فالمكتبه السنغالية لا تعرف من المخطوطات اكثر واقدم من كتب الحاج عمر تال وفي نيجيريا لا يمكن ان تكون المخطوطات الموجودة اقدم مما تبقى عن مكتبة آل فودي وفي الشرق الافريقي لا توجد مخطوطة اقدم من مخطوطة كلوا التاريخية ولا تبلغ المخطوطات الا بضع مئات.

ان هذا التلف المستمر في الخزين الثقافي كان خلف ضعف الثقافة المستمر. وكانت الموجات المهاجرة تحاول ان ترفده بالمتحدث العربي وبالكتاب المستورد والمجلوب معها ولكن طبيعة القارة وقدرتها على الأتلاف كانت تتغلب. ولذلك فان اللغة العربية قد عجزت عن السيطرة والاقامة المستمرة في شرق القارة او في غربها.

تأثير العربية في شرق افريقيا:

لقد اسهبنا في الفقرة السابقة في الاسباب التي جعلت العربية لغة غير مقيمة في افريقيا ولعل أهمها قلة كثافة الهجرات وذوبانها السريع ولم تنجح الهجرة العربية في الاستقرار الا في السودان الاوسط حيث بقيت اللغة العربية حية في اللهجة والفصحى وحصلت على موضع قدم جنوب مصر.

اما في غرب افريقيا وشرقها فلم يبق من العربية الا المفردات والمقيمة في اللغات الافريقية كالمفرد الديني والتجاري والا بعض المضامين الادبية.

يذكر احد الباحثين اثر المفرد العربي في لغة الهوسا واللغات الاخرى بسبب التجارة فيقول:

«ادخلت كلمات عربية جديدة في اللغات المحلية وخاصة في لغة الهوسا التي كانت وما تزال اللغة التجارية السائدة في غرب افريقيا. ادخلت مثلا اسماء بعض البضائع المستوردة من البلاد العربية والتي لم تكن معروفة عند أهل تلك الولايات قبل ذلك مثل الحرير والزعفران والسرج وغيرها وكذلك ادخلت العقود من الاعداد من عشرين الى تسعين وبعض الكلمات التي يستغني عنها التجار كالغش والامانة وامثالها. فهذه الكلمات وامثالها كلها دخلت في لغة الهوسا في تلك الفترة ومنها الى بعض اللغات المحلية كلغه فولا ويربا ».

ثم يضيف الى ذلك الاثر الديني ودخول« كلمات دينية كالركوع والسجود والكفارة وغيرها.

ولعله في اوائل تلك الفترة دخلت أسماء الايام العربية وانتشر استعمالها حتى نسي الناس اسماءها المحلية.»

وان هذا التقرير عن لغة الهوسا في غرب افريقيا بصدق عن اللغة السواحيلية في شرق افريقيا وفي سبيل ان نعطي نموذجا لاثر العالم العربي والجزيرة العربية والخليج العربي في ثقافة شرق افريقيا فاننا سنحاول ان نقدم نموذجا لما في السواحيلية من مفردات عربية تحت الحرف الأول من حروف المعجم السواحيلي ثم نقدم نموذجا أخر للاثر الادبي والحكايات العربية في الحكايات الشعبية الصومالية.

أ ــ المفرد العربي في السواحيلية:

استضافت السواحيلية عددا كبيرا من المفردات العربية ويمكن ان نصنف هذه المفردات الى مجموعات ذات لون واحد، فهناك الألفاظ التجارية، والالفاظ الدينية والفاظ الأداب والسلوك والاخلاق ثم المفردات العامة المتفرقة وسنتناول هنا المفردات التجارية والدينية. وسنعطي نماذج من هذه المفردات التي وقعت تحت الحرف الأول من حروف المعجم السواحيلي،

١ ــ المفردات التجارية:

لا يمكن حصر المفردات العربية التجارية في مضمون واحد فهي تتناول عدداً مهماً من مفردات المعجم التجاري وتغطى كثيرا من أسماء البضائع التجارية والفاظ المعاملات ويمكن

ان نقدم بعضها في القائمة التالية:

ABIRI, to travel as passenger	(عبري): مسافر. عبر
ABIRA, a passenger	(عبيريا): مسافر. عابر سبيل
ABIRISHA, to convey as passenger	(ابيريشا): سفر. عبر
AHADI, a promise	(عهدي): عهد، وعد
AHIDI, to promise	(عهيدي): عاهد
AHIRISHA, to postpone	(احيريشا): اخر. ارجأ
AJIRI, AJIRISHA	(اجيري، احيريشا): أجر
AJIRIWA, to be hired	(اجيروا): مؤجر
ALA, a tool	(آله): اداة آلة
ALAMA, a mark, sign	(علامة): علامة
ALMASI, a diamond	(ألماسي): الماس
AMALI, action; occupation	(عملي): عمل. مهنه
AMANA, pledge, deposit	(امانة): عهد. وذيعة. امانة
AMANI, peace	(اماني): امان. سلام
AMARA, urgent business	(امارا): امر مستعجل
AMINIKA, trusted	(امنيكا): مؤتمن
AMINISHA, to entrust	(امنيشا): يضع ثقته في
ARABUNI, a deposit, guarantee	(عربوني): عربون
ARDHI, soil, ground	(اردي): ارض. تربة
ARIFU, to inform	(عريفو): اخبر. عرف
ARIFIWA, be informed	(عريفوا): معرف. مخبر
AROBA, four	(اروبا): اربع. اربعة
AROBAINI, forty	(اروبيني): اربعون
ASALI, honey, syrup	(عسلي): عسل. دبس

٢ ـ المفردات الدينية والاخلاقية:

ADHURURI, noon	(الظهروري): الظهر. وقت الظهر
ADILI, righteous, just	(عادلي): عادل
ADILISHA, to teach right conduct	(عدليشا): علمه السلوك الصحيح
AFDHALI, preferable, preferably	(أفضلي): مفضل
AFU, AFUA, Deliverance from calamity	(عفو. عفوا): عفو. نجاة من الشر

AFUA, to deliver, save	(عفوا): عفا عن. غفر
ALASIRI, Afternoon	(الأسيري): العصر. بعد الظهر
ALFAJIRI, Before dawn	(الفجيري): الفجر
ALLAH, God	(الله): الله جل جلاله. الاله
AMINI, to believe, AMINIWA, be believed	(اميني). (أمينوا): آمن. يعتقد. معتقد
AMINI, AMINIFUWA, Faithful	اميني). (امينيفو): امين. مؤمن. مخلص
AMRI, Command, Authority	(امري): امر. سلطة
AMIRIWA, Be ordered	(امريوا): مأمور. يؤمر
AMURU, To command	(امورو): أمر
ASI, To disobey, rebel	(عاصي): عصى. شار
ASUBUHI, Morning	(الصوبوحي): الصبح
AYA, a verse, short section	(آيه): آية. فعل
AZALI, without beginning	أزالي): ازلي. ابدي
AZIRI, to disgrace publicly	(عزيري): عزر. عاقب علناً

ب ــ اثر مضامين الحكايات العربية التراثية في الحكايات الصومالية الشعبية:

على الرغم من عدم توفر شواهد عن عدة اقطار افريقية الا انه يمكن القول وبكثير من الثقة ان الادب العربي قد اثر في الأداب الافريقية الشفهية والمكتوبة وان الرصد الذي قنا به هنا يخص شرق افريقيا ويخص الصومال بالذات. وقد اظهر هذا الرصد اثر المضامين التراثية والحكايات التراثية في الحكايات الشعبية ونحض الباحثين على متابعة العمل والمقارنة بين الادبين العربي وأدب الاقطار الافريقية الاخرى مثل كينيا واوغندا والصومال والحبشة في شرق افريقيا ويمكن اجراء هذه المقارنات في غرب افريقيا في اقطار مثل نيجيريا والسنغال والجاد وفي لغات مثل اليوربا والفولانية والهوسا. واذا ما توفرت لنا المصادر في الاداب الشعبية الافريقية فاننا نأمل ان نقوم ببعض هذه المقارنات بين تراث العربية القصصي وتراث اللغات الافريقية. وليس الغرابة في وجود الشبه والعلاقة او التأثر ولكن الغرابة في عدم وجود مشابهة بين الاداب او مقاربة لحضارة عايشت الحياة الافريقية اليومية على مدى اكثر من الف سنة.

وسنعطي هنا نماذج من الحكايات العربية التراثية المتشابهة:مع حكايات شعبية صومالية. ويجب هنا ان انوه بفضل السيد «علي يلحو» في تقديم النماذج الصومالية التي اعانتني على تقديم هذه الفقرة من هذا البحث بمقارنتها بالمصادر العربية وسنعطي النموذج العربي مع نموذج الحكاية الصومالية واغلب هذه الحكاية تكاد تكون قد ترجمت بتصرف عن الأدب العربي الى الادب الصومالي. واخترنا لهذه المقارنه خمس حكايات.

١ ـ حكاية في بيته يؤتى الحكم:

وردت في العربية بروايتين. فقد رويت في أواخر القرن الثاني للهجرة في كتاب الامثال (٠) لابي فيد السدوسي (ت ١٩٥ه‍). ووردت كذلك في كتاب مجمع الامثال للميداني (ت ٥١٨ه‍) واختلفت الحيوانات المتخاصمة في الروايتين العربيتين. في رواية مؤرخ السدوسي تقوم الخصومة بين الضبع والثعلب والحكم هو الضب. وفي رواية الميداني تقوم الخصومة بين الارنب والثعلب ويحتكمان الى الضب كذلك. اما في الرواية الصومالية فالحكم هو الافعى والمشتكي هو السنجاب والمشتكي عليه مجهول ولكن صيغة الحكاية واحدة مما يدل على الاثر العربي فيها. وننقل هنا النصين النص العربي والنص الصومالي.

النص العربي:

قال الميداني: « في بيته يؤتى الحكم: هذا مما زعمت العرب عن السن البهائم. قالوا: ان الارنب التقطت ثمرة فاختلسها الثعلب فاكلها، فانطلقا يختصمان الى الضب. فقالت الارنب: يا ابا الحسل. فقال: سميعاً دعوت. قالت: اتيناك لتختصم اليك. قال: عادلا حكمتما قالت: فاخرج الينا. قال: في بيته يؤتى الحكم

قالت: اني وجدت ثمرة.

قال: حلوة فكليها

قالت: فاختلسها الثعلب

قال: لنفسه بغى الخير.

قالت: فلطمته!

قال: بحقك أخذت

قالت: فلطمني.

قال: حر انتصر

قالت: فاقضي بيننا

قال: قد قضيت. فذهبت اقواله كلها امثالا (٠٠).

النص الصومالي:

الحية والسنجاب: كانت في قديم الزمان حية ملكة، فقدم اليها سنجاب بشكوى ضد لصوص استخرجوا حبوباً له دفنها للخزن في مكان ما وجرى بينهما في هذا الموضوع الحوار التالي.

السنجاب: ايتها الملكة اختزنت حبوباً في احد الحفر في مكان ما.

الحية: ان في طبيعة الرجال ان يقتصدوا وينمو اموالهم.

السنجال: لقد استخرج شخص ما تلك الحبوب وسرقها
الحية: ان ذلك من كثرة الطمع.
السنجاب: عند ذاك لطمت الشخص
الحية: فعلت فعل من يسرق ماله
السنجاب: فصرعني بعدئذ ورماني على الارض
الحية: انه عين ما يفعله المغلوب على امره والمعتدى عليه ، وبعد ان تم هذا الحوار بينه وبين الحية ودعها حيث رأى الحية لم تفعل اكثر مما فعلت.
وذهب غير راض عن الحديث الذي جرى بينهما بعد ان علم منها كل ما تستطيع ان تفعل او تقول (٥٦).

٢ ـ حكاية انما اكلت يوم اكل الثور الابيض:

ترد هذه القصة في مجمع امثال الميداني (ت ٥١٨هـ) وتنسب الى الامام علي ولم اجد لها اصلا قديماً وليس لها ذكر في نهج البلاغة الذي جمعة الشريف الرضي في القرن الرابع الهجري ونجد الحكاية الصومالية تقترب كثيرا من مضمون الحكاية العربية وان اختلف تسلسل الثيران التي اكلها الاسد. ففي الرواية العربية ياكل الاسد الثور الابيض اولا ثم الاسود ثانياً والاحمر ثالثاً اما في الرواية الصومالية فانه ياكل الابيض اولا ثم الاحمر ثانياً والاسود ثالثاً. وفيما يلي نص الروايتين العربية والصومالية.

النص العربي:

انما اكلت يوم اكل الثور الابيض: يروى ان امير المؤمنين علياً رضى الله تعالى عنه قال: انما مثلي ومثل عثمان كمثل انوار ثلاثة كن في أجمة ابيض واسود وأحمر ومعهن فيها أسد فكان لا يقدر منهن على شئ لاجتماعهن عليه. فقال للثور الاسود والثور الاحمر: لا يدل علينا في أجمتنا إلا الثور الابيض فأن لونه مشهور ولوني على لونكما فلو تركتماني آكله صفت لنا الاجمة.

فقالا: دونك فكله. فأكله ثم قال للاحمر: لوني على لونك فدعني آكل الاسود لتصفو لنا الاجمة. فقال: دونك فكله! فاكله. ثم قال للاحمر: اني آكلك لا محالة. فقال: دعني انادي ثلاثاً فقال: افعل! فنادى: الا إني اكلت يوم اكل الثور الابيض ثم قال على رضي الله تعالى عنه: الا اني هنت ويروى وهنت يوم قتل عثمان. يرفع بها صوته (٥٧)».

النص الصومالي:

الاسد والثيران الثلاثة: كانت ثيران ثلاثة اسود واحمر وابيض تعيش في غابة نائية بعيدة عن الضوضاء ومشاكل البشر، تتوفر فيها الاعشاب الخضراء والمياه العذبة وكانت حياتهم هادئة مطمئنة

ذات سعة وهناء. وجاء الى تلك الغابة أسد شارد انفصل عن بني جنسه وطلب لنفسه حياة اكثر سعادة واكثر رغداً وسكن تلك الغابة. بقي فيها زمناً دون ان يجد ما يسد رمقه ثم خرج للصيد فصادف الثيران الثلاثة بالقرب من غدير الماء. وحين حاول افتراس احدها علم انه قد رأته قبل ان يقترب منها كثيراً فانضمت الجماعة سوية وشخصت بقرونها اليه وهي تتطلع اليه بنظرات غاضبة فداخله خوف ورعب، فعدل عن خطته في المواجهة لافتراس احدها وحاول ان يسلك سبيل الحيلة وحاول التقرب اليها وعقد صداقة معها. عرض عليها صداقته ــ وهي في داخلها خائفة مرتجفة ــ وعاهدها على الثقة والوفاء وكان امام هذه الثيران مواجهة احد امرين كليها مر. اما الدخول في صراع مع الاسد او مرافقته والعيش معه فاختارت الامر الاخير ومضت ايام وتقرب الاسد من الثور الاسود والثور الاحمر واجتمع بها وعرض عليها امر التخلص من الثور الابيض تحقيقاً لمصلحة المجموع لان اللون الابيض يختلف عن اللونين الاحمر والاسود وانه يساعد الوحوش على الاهتداء الى مكانهم ليلا ويكون ذلك خطراً على حياة الجميع. وحصل منها على الموافقه على التخلص من الثور الابيض فافترسه واكله.

وبعد ايام قليلة اتى الى الثور الاسود واقترح عليه التخلص من الثور الاحمر لان لونه يسطع في ضوء القمر ويكون ذلك دليلا للوحوش الضاربة على مكانها معاً . فما كان من الثور الاسود الا الموافقة على رغبة الاسد تحت إلحاح الهواجس والرعب والخوف وبذلك استباح الأسد اكل الثور الاحمر ونال منه ما اراد.

وبعد ايام جاء الى الثور الاسود ودون ان يصطنع اية اعذار اخرى ويتعب نفسه في البحث عن مبررات اخرى قال له: اريد ان آكلك فرد عليه متسائلا: فيما اذا كان الاسد يريد نقض الاتفاقية المعقودة بينها او التنكر لصداقتها فاجابه الاسد: كان في البدية يريد ان يأكل الثيران الثلاثة ولكن القوة والتضامن والاتحاد بين الثيران الثلاثة قد اخافه، فلم يتجرأ على الاغارة عليها علناً. ولذلك فقد عزم على التحايل عليها لتحقيق طمعه وقد نجح في ذلك في اليوم الذي وافقت انت والثور الاحمر على اكل الثور الابيض واليوم جاء دور الثور الاسود الذي هو انت حيث لا حام لك وبذلك انتهت حياة الثيران الثلاثة (٥٨).

٣ ــ حكاية عن حماقة جحا

ان الحكاية الصومالية تشابه الحكاية العربية اذ انها قد اخذت مباشرة عن مصدر عربي ثم انتقلت الى الرواية الشفهية بعد ان القيت في مجلس من المجالس التي يجتمع فيه الادباء او رجال الدين مع جمهور الناس. وقد الفت الرواية الصومالية اسم جحا وربما اخذت الحكاية عن مصدر عربي لم يذكر اسم جحا. وفيما يلي نص الروايتين.

النص العربي:

«كان احمقان يمشيان في الطريق. فقال احدهما للاخر: تعال نتمنى. فقال له احدهما: اتمنى ان يكون لي قطيع من الغنم عدده الف. وقال الأخر: اتمنى ان يكون لي قطيع من الذئاب عدده ألف ليأكل غنمك. فغضب متمني الغنم وشتمه، فشتمه الأخر ثم تضاربا فمر بهما جحا وسألهما ما بالكما؟ فحكيا له القصة وكان جحا محملا حماره قدرين مملؤين عسلا فانزل القدرين وكبهما وقال: الله يهرق دمي مثل هذا العسل ان لم تكونا احمقين (٥٩)».

النص الصومالي:

وهناك حكاية ترويها العامة للدلالة على الحمق والبلاهة قالوا: سافر صديقان يوماً فتحدثا وسأل احدهما الأخر ان يذكر أحب امنياته. فقال احدهما: انا أحب ان تكون لي اغنام كثيرة اشرب من لبنها وآكل من لحمها فقال الأخر: وانا احب ان تكون لي ذئاب كثيرة تأكل اغنامك. فنهض صاحب الاغنام واراد ان يترك رفيقه وقال له: كيف نتصادق ونترافق وانت هكذا؟ كيف تسلط ذئابك على اغنامي؟ فاجابه الأخر: لاني اعجب لماذا تخص نفسك بها ولا تشاركني بألبانها ولحومها فلم اجد بدأ من تسليط الذئاب على اغنامك. وتخاصم الرجلان وتعاركا وبعد فترة من العراك أعياهما الجهد فقعدا واتفقا على ان يحتكما لأول من يقابلهما. فجاء رجل يقود جملا محملا بالسمن يريد بيعه في السوق فاوقفاه وعرضا عليه امرهما فما كان من الرجل الا ان أناخ البعير وأنزل احد الاوعية من على ظهره وفتحه وصب ما فيه من السمن على الارض ثم قال: اراق الله دمي كما ارقت هذا السمن ان لم تكونا احمقين! فهل الذي تقولانه يستحق الخصومة والنزاع؟.. (٦٠)»

حكاية الجارية وقريب الحجاج بن يوسف:

في هذه الحكاية، رويت الحكاية العربية في صيغة الحكاية التاريخية وكانها حدثت في القرن الأول الهجري لجارية مع قريب من اقرباء الحجاج الثقفي وقد وردت في رواية متأخرة في كتاب المستطرف للابشيهي. واخذت الحكايه الصومالية سمة الحكاية الشعبية غيرالمخصصة ولكن اثر المحاكاة والنقل والترجمة بين وواضح بين الحكايتين.

النص العربي:

«قيل: كان لفتى من قريش جارية مليحة الوجه حسنة الأدب وكان يحبها حباً جماً فاصابته اضاقة وفاقة فاحتاج الى ثمنها فحملها الى العراق وكان ذلك في زمن الحجاج بن يوسف فابتاعها منه الحجاج فوقعت منه بمنزلة. فقدم عليه فتى من ثقيف من اقاربه، فانزله قريباً منه واحسن اليه فدخل على الحجاج والجارية تكبسه وكان الفتى جميلا فجعلت الجارية تسارقه النظر ففطن الحجاج بها فوهبها له فاخذها وانصرف. فباتت معه ليلتها وهربت بغلس. فأصبح لايدري اين هي. وبلغ الحجاج ذلك لأمر منادياً ان ينادي: برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا ولم يحضرها

فلم يلبث ان أتى له بها. فقال لها الحجاج: يا عدوة الله كنت عندي من احب الناس الي فاخترت لك ابن عمي شاباً حسن الوجه ورأيتك تسارقينه النظر فعلمت انك شغفتْ به فوهبتك له فهربت من ليلتك. فقالت: ياسيدي اسمع قصتي ثم إصنع بي ما شئت فقال: هاتي ولا تخفي شيئاً.

قالت: كنت للفتى القرشي فاحتاج الى ثمنى فحملني الى الكوفة فلما قربناها دنا مني فوقع علي فسمع زئير الاسد فوثب فاخترط سيفه وحمل عليه وضربه فقتله واتى برأسه ثم اقبل علي وما برد ما عنده ثم قضى حاجته وان ابن عمك هذا الذي اخترته لي لما اظلم الليل قام الي فلما علا بطني وقعت فارة من السقف فضرط ثم غشي عليه فمكث زماناً طويلا وأنا ارش عليه الماء وهو لا يفيق لخفت أن يموت فتتهمني به فهربت فزعاً منك.

فا ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك. وقال: ويحك اكتمي هذا ولا تعلمي به احداً. قالت: على ان لا تردني اليه. قال لك ذلك (٦١)».

النص الصومالي:

الزوج الجبان: اراد أحد الازواج ان يقترب من زوجته وحين تهيأ لذلك سقطت اوزة من سطح البيت الى ساحه الدار ووقعت على جسده وكان الزوج منطرحا مع زوجته فدهش وماتت رغبته وعجز عن الاستمرار في المداعبة. وحين رأت زوجته ذلك منه حكت له حكاية روتها عن امها عن خالتها عن احدى صديقات جدتها: انها كانت ذات يوم مع حبيبها في لقاء تحت شجرة ظليلة في احدى الغابات واذ هما معاً اذ هجم عليهما اسد قسور فا كان من حبيبها الا ان نهض منتصبا وتصدى للاسد وبعد ان قتله عاد اليها واخذ بما هو فيه لم يبرد ولم يتغير مزاجه وانتهى مما باشره قبل مجئ الأسد وكأن شيئاً لم يحدث. وبعد ان قصت المرأة الحكاية لزوجها قالت له: لقد كان ذلك الانسان اكثر رجولة منك حقاً... (٦٢)».

٥ ــ حكاية مكايد النساء

تروى هذه الحكاية في نصها العربي في كتاب الاذكياء وتدور حول كيف ان امرأة خدعت الامام ابا حنيفة لانه اوصى بفتى خطب تلك المرأة فتزوجته على انه غني فظهر بعد ذلك فقره.

وفي الحكاية الصومالية اعطيت الطابع الشعبي وسلبت الشخصيات التاريخية هوياتها ولكن عقدة الحكاية بقيت كما هي مما يدل على الاصل العربي لهذه الحكاية الشعبية.

النص العربي:

«بلغنا ان رجلا ابتلى بمحبة امرأة فأتى ابا حنيفة فأخبره إن ما له قليل وانهم ان علموا بذلك لم يزوجوه فقال له ابو حنيفة: اتبيعني امليلك باثنى عشر الف درهم؟ قال: لا. قال: فاخبر القوم اني اعرفك. فمضى فخطبها. فقالوا: من يعرفك؟ فقال: ابو حنيفة فسألوا ابا حنيفة عنه فقال: ما اعرفه الا أنه حضر عندي فسووم في سلعة له باثني عشر الف درهم فلم يبع. فقالوا: هذا يدل على انه ذو

مال، فزوجوه. فلما تيقنت المرأة حاله قالت: لا يضيق صدرك. هذا مالي بحكمك. ثم مضت الى ابي حنيفة في حليها وحللها فقالت: فتوى! فدخلت فأسفرت عن وجهها فقال: تستري. فقالت: ما يمكن، قد وقعت في امر لا يخلصني منه الا انت. انا بنت هذا البقال الذي على رأس الدرب. وقد بلغت عمراً واحتجت الى الزوج وهو لا يزوجني ويقول لمن يخطبني: «ابنتي عوراء قرعاء شلاء». ثم حسرت عن وجهها ورأسها ويديها ويقول: «بنتي زمنة»، وكشف عن ساقيها، واريد ان تدبرني. فقال: ترضين ان تكوني لي زوجة؟ فقبلت قدميه وقالت: من لي بغلامك؟ فقال: امضي في دعة الله. فخرجت. فاحضر البقال ودفع اليه خمسين ديناراً وقال: زوجني ابنتك. فكتب كتاباً بمائة دينار فقال البقال: يا سيدي استر ما ستر الله. انا لي بنت ازوجك؟ قال: دع هذا عنك رضيت بابنتك القرعاء الشلاء الزمنه. فزوجه على المائة والخمسين ومضى. فحدث زوجته فقالت: والله لا كان يكون هذا الا على يد ابي حنيفة. فلما كان عشية تلك الليلة أجلسها ابوها في حسن (شبيه بالسلة المستطيلة) وحملها بينه وبين غلامه. فلما رآها ابو حنيفة قال: ما هذا؟ فقال البقال: اشهد علي بطلاق امها ان كانت لي بنت غيرها. فقال ابو حنيفة: هي طالق ثلاثاً. اعد علي الكتاب وانت في حل من الخمسين. وبقي ابو حنيفة متفكراً شهراً. ثم جاءت تلك المرأة اليه فقال: ما حملك على ما فعلت؟ فقالت: وانت ما حملك على ان غررتنا برجل فقير؟» (٦٣).

النص الصومالي:

من المحال معرفة مكايد النساء:

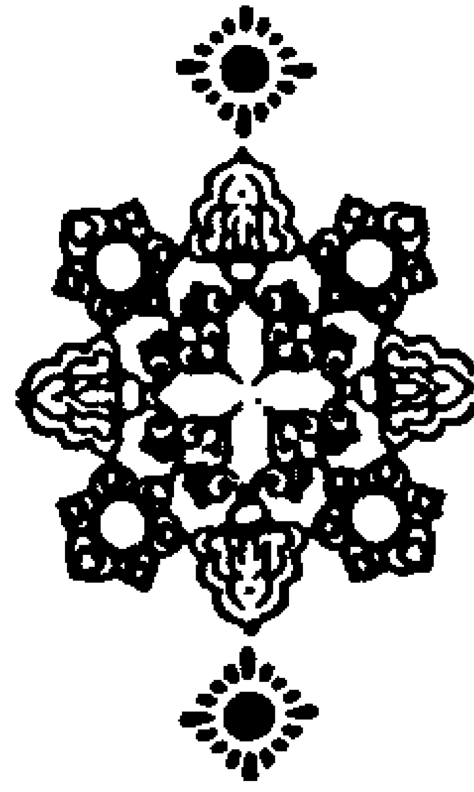
وقد روي ان شاباً اراد ان يتحدى مضمون هذا المثل ويكذبه، فعلق على باب دكانه لوحه مكتوب عليها: «انا الذي عرف مكايد النساء» وكانت فتاة جميلة تتردد على دكان هذا الشاب تشتري منه حاجاتها فوقع نظرها على اللوحه فعز عليها هذا التحدي السافر لعبقرية المرأة وللدفاع عن قدرة المرأة الفكرية وعبقريتها بدأت الفتاة تتبرج وتغري الرجل وتتحبب اليه حتى اذا ما تأكدت من وقوعه في شراكها بدأت تحوك مؤامراتها. فقد ادعت انها تبادله الحب والحنان ولكنها ابنة السلطان وان اباها لا يوافق على زواجها منه الا بشروط يفرضها عليه ولا بد من موافقته على تلك الشروط وتنفيذها اذا كان يحبها حقاً.

ذهب الشاب الى السلطان يطلب منه يد ابنته باسمها الحقيقي فاندهش السلطان من ذلك الطلب الغريب فرفضه ولكن الشاب الح عليه فوافق السلطان اخيراً على طلبه بشروط منها: ان يدفع أموالا طائلة في مهرها، والا يراها الا في ليلة الزفاف، والا بعد انصراف الناس من عندها في غرفة النوم، والا يطلقها البتة. فوافق الشاب على جميع تلك الشروط ونفذها بحماسة فلما حان موعد الزفاف وأخلى له ولزوجته البيت وجدها امرأة اخرى مقطوعة اليدين والرجلين فانسدت دونه ابواب السعادة وانقطعت امامه اسباب الأمل وادرك انه وقع في فخ صانعته، تلك الحسناء التي كان يسعى الى الزواج منها.

فلما كان الصباح ذهب الى الدكان ليفتحه ويستقبل فيه الزبائن فدخلت عليه الفتاة ذات المكيدة فعاتبها على غدرها فخرجت من الدكان ومدت يدها الى اللوحة المعلقة فوقه وقالت له: الا ترى هذه العبارة التي كتبتها على باب دكانك التي تقول:«انا الذي عرفت مكايد النساء؟» وهنا ثاب الرجل الى رشده فتضرع اليها لتنقذه من ذلك المأزق الذي اوقعته فيه. فلبث طلبه واشارت عليه بان يخلع ثيابه القشيبة وان يلبس ثيابا رثة، قذرة ثم فليذهب يتسول في الطريق العام وفي الاسواق الكبيرة فأخذ برأيها ونفذ وصيتها.

فشق ذلك على السلطان وعز عليه ان يقول الناس بان ابنته شحاذ يتسول في الشوارع لذلك فقد دفع السلطان كل ما انفقه الشاب في الزواج من ابنته وطلب اليه ان يطلقها. وبذلك انتصرت الحسناء على الشاب الذي اسرع فابعد اللوحة السابقة واستبدل بها لوحة اخرى مكتوب عليها: من المحال معرفة مكايد النساء...» (٦٤).

يمكن ان نقول: ان حصيلة اكثر من الف عام من التأثير في افريقيا لم ينته الا الى هذين الاثرين المفرد والمضمون واذا اكتفينا بهذا القليل فان الفجوة لتتسع بيننا وبين افريقيا كلما زادت صلتها بالغرب وابتعدت عنا. فاذا لم نرفد علاقتنا بتأسيس الجامعات في قلب المدن الأفريقية نعلم لغتنا وحضارتنا فيها فان بحوثنا هنا ستكون كالزيارة الأخيرة لمريض يحتضر وكرثاء حضارة عريقة تصاب بالدمار والخراب والموت والرحيل عن اندلسى اخرى الى غير رجعة.



المصادر والمراجع:

أ ـ المصادر:

١ ـ اخبار الاذكياء لابن الجوزي. تحقيق د. مرسي الخولي. القاهرة

٢ ـ الامثال: لابن فيد مؤرج بن عمرو السدوسي. تحقيق د. رمضان عبد التواب. القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧١

٣ ـ مجمع الامثال للميداني (ت ٥١٨هـ) تحقيق محي الدين عبدالحميد. القاهرة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م

٤ ـ المستطرف في كل فن مستظرف: للابشيهي. بيروت د.ت

٥ ـ نوادرجحا: تحقيق وجمع عبد الستار فراج. القاهرة د.ت

ب ـ المراجع:

٦ ـ الأدب السنغالي العربي: عامر صمب. الجزائر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩

٧ ـ الأدب الصومالي المعاصر: علي الشيخ عبدالله يلحو. رسالة ماجستير. معهد البحوث والدراسات العربية (خط). بغداد ـ ١٤٠٥هـ/١٩٨٥

٨ ـ الاسلام ومراكز الثقافة الاسلامية في اثيوبيا والصومال. د. السر السيد احمد العراني (بحث في كتاب ندوة العلماء الافارقة. الكويت ١٩٨٥)

٩ ـ الألفاظ العربية المستعارة في لغة الهوسا: د. داود سلوم. مجلة كلية الأداب. العدد ٣١ لعام ١٩٧٧

١٠ ـ الألفاظ المستعارة من العربية في اللغة السواحيلية: د. داود سلوم. مجلة كلية الأداب العدد ١٩ لعام ١٩٧٦

١١ ـ الثقافة الاسلامية ضمن اطار السيطرة المسيحية، مثال اوغندة: عيسى ك. ك. لوكوافو (بحث في كتاب ندوة العلماء الافارقة. الكويت ١٩٨٥)

١٢ ـ حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا: د. شيخو احمد غلادنت. دار المعارف. القاهرة ١٩٨٢

١٣ ـ حضارة ساحل شرق افريقيا السواحيلية حتى القرن الخامس عشر: أ. شريف (بحث في كتاب ندوة العلماء الافارقة. الكويت ١٩٨٥).

١٤ ـ دور شعراء السواحيلية التقليديين في الحضارة الاسلامية والعربية: ت.س.ي سينغو (بحث في كتاب ندوة العلماء الافارقة. الكويت ١٩٨٥)

١٥ ـ الصومال في العصور القديمة: الدكتور فوزي مكاوي (بحث في كتاب المسح الشامل لجمهورية الصومال الديمقراطية الكويت ١٩٨٢)

١٦ ـ الصومال في العصور الوسطى الاسلامية: د. محمد محمد امين (بحث في كتاب المسح الشامل لجمهورية الصومال الديمقراطية الكويت ١٩٨٢)

١٧ ـ عبد الله بن فودي ومحمد بلو بن الشيخ عثمان بن فودي من علماء غربي افريقيا في القرن التاسع عشر: د. السر سيد أحمد العراني (بحث في ندوة العلماء الافارقة. الكويت ١٩٨٥)

١٨ ـ العلاقات العربية الاسلامية مع الساحل الافريقي الشرقي حتى القرن التاسع الهجري: خولة محمد شاكر، رسالة دكتوراه، كلية الأداب، جامعة بغداد (خط) ١٩٨٠

١٩ ـ علماء شرق افريقيا واسهاماتهم في الثقافة والحضارة العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين: بدرود كاينريفا (بحث في ندوة العلماء الافارقة. الكويت ١٩٨٥)

٢٠ ـ المؤثرات العربية والمحلية في الحكايات الشعبية الصومالية: د. داود سلوم (بحث في مجلة التراث الشعبي. العدد الأول. الفصل الأول ١٩٨٦)

ج ـ مراجع اجنبية:

21 - Madan and F. Johnson: A Standard Swahili - English Dictionary, Oxford University Press, East Africa, 1978

22 - D.V. Perrot, Swahili - English Dictionary, Teach Yourself, London, 1970

الهوامش

(١) الصومال في العصور القديمة: الدكتور فوزي مكاوي (بحث في كتاب المسح الشامل لجمهورية الصومال الديمقراطية. الكويت ١٩٨٢ ص ٣١).

(٢) العلاقات العربية الاسلامية مع الساحل الافريقي الشرقي حتى القرن التاسع الهجري (رسالة دكتوراه، كليه الأداب. جامعة بغداد ١٩٨٠ ـــ خط: خولة محمد شاكر ص ٤٧).

(٣) المصدر نفسه ص ٤٢.

(٤) المصدر نفسه ص ٤٢و٤٣.

(٥) حضارة ساحل شرق افريقيا السواحيلية حتى القرن الخامس عشر: أ. شريف (بحث في كتاب ندوة العلماء الافارقة. الكويت ١٩٨٥) وانظر العلاقات العربية الاسلامية ص ٤٣.

(٦) العلاقات العربية الاسلامية ص ٤٥.

(٧) المصدر نفسه ص ٢٤.

(٨) المصدر نفسه ص ٢٨.

(٩) المصدر نفسه ص ٦٢.

(١٠) المصدر نفسه ص ٥٥ وانظر: تفصيل هذه الهجرات في بحث: الصومال في العصور الوسطى: د. محمد محمد امين. (في كتاب المسح الشامل ص ٦٢).

(١١) العلاقات العربية الاسلامية ص ٣٩

(١٢) الصومال في العصدر الوسطي الاسلامية: د. محمد محمد امين (بحث، في كتاب المسح الشامل ص ٦٩).

(١٣) المصدر نفسه ٢ ٦٩.

(١٤) المصدر نفسه ص ٨١.

(١٥) علماء شرق افريقيا: بدرود كانيريفا (بحث، كتاب ندوة العلماء الافارقة ص ٢٦٣).

(١٦) الاسلام ومراكز الثقافة الاسلامية في اثيوبيا والصومال: د. السر السيد أحمد العراقي (بحث. كتاب ندوة العلماء الافارقة. الكويت ١٩٨٥ ص ١٦٩.

(١٧) علماء شرق افريقيا واسهاماتهم في الثقافة والحضارة الاسلامية ـــ العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، بدرود كانيريفا (بحث. كتاب ندوة العلماء الافارقة ص ٢٦٣).

(١٨) حضارة ساحل شرق افريقيا السواحيلية حتى القرن الخامس عشر: أ. شريف (بحث. كتاب ندوة العلماء الافارقة ص ٣٠٧).

(١٩) المصدر نفسه ص ٣٠٧.

(٢٠) علماء شرق افريقيا: بدرود كانيريفا (بحث، كتاب ندوة العلماء الافارقة ص ٢٦٧).

(٢١) المصدر نفسه ص ٢٦٧.

(٢٢) المصدر نفسه ص ٢٧٣.

(٢٣) دور شعراء السواحيلية التقليدين في الحضارة الاسلامية والعربية: ت.س.ي. سينفو (بحث. كتاب ندوة العلماء الافارقة ص ٥٩).

(٢٤) المصدر نفسه ص ٥٩.

(٢٥) الاسلام ومراكز الثقافة الاسلامية في اثيوبيا والصومال: د. السر سيد أحمد العراقي (بحث. كتاب ندوة العلماء الافارقة ص ١٧٠).

(٢٦) المصدر نفسه ص ١٧٠

(٢٧) دور شعراء السواحيلية: سينفو (بحث. ندوة العلماء الافارقة ص ٥٩).

(٢٨) المصدر نفسه ص ٦١ و ص ٦٢

(٢٩) دور المعلمين العرب في العلاقات الافريقية العربية والثقافة في بوغندا (١٨٤٤ ــ ١٨٨٤): د. كاسوزي (بحث. كتاب ندوة العلماء الافارقة ص ٧١).

(٣٠) المصدر نفسه ص ٧٣

(٣١) الثقافة الاسلامية ضمن اطار السيطرة المسيحية، مثال او غندة: عيسى ك.ك. لوكواغو (بحث. كتاب ندوة العلماء الافارقة ص ٨١).

(٣٢) المصدر نفسه ص ٨١.

(٣٣) دور شعراء السواحيلية: سيفو (بحث. كتاب ندوة العلماء الافارقة ص ٦٤).

(٣٤) الأدب الصومالي: علي يلحو ص ٢٦.

(٣٥) المصدر نفسه ص ٣٤.

(٣٦) المصدر نفسه ص ٣٤ــ٣٥.

(٣٧) المصدر نفسه ص ١٣٩

(٣٨) المصدر نفسه ص ٤٠

(٣٩) راجع اسماء هؤلاء الكتاب في الأدب الصومالي لعلي يلحو ص ٢٩و٣٨و٤٥و٥٠و٨٣ و١٩٦و٢٠٢و٢٢٢ و٢٤٧و٢٧٥.

(٤٠) مساهمة علماء شرق افريقيا: د. سيد حامد حريز (بحث في كتاب ندوة العلماء الافارقة ص ١٣٩).

(٤١) حركة اللغة العربية وأدابها في نيجيريا ص ٧٩.

(٤٢) المصدر نفسه ص ٨٠

(٤٣) المصدر نفسه ص ٨٠

(٤٤) المصدر نفسه ص ٤٠ وانظر: بحث الألفاظ العربية المستعارة في لغة الهوما وبحث الألفاظ العربية المستعارة في اللغة السواحيلية: داود سلوم.

(٤٥) المصدر نفسه ص ٧١.

(٤٦) و (٤٧) المصدر نفسه ص ٧٩.

(٤٨) الأدب السنغالي العربي ص ٤٤ــ٤٥.

(٤٩) الأدب السنغالي العربي ص ٤٠.

(٥٠) المصدر نفسه ص ٥.

(٥١) عبد الله بن فودي (بحث. كتاب ندوة العلماء الافارقة ص ٣٦٢).

(٥٢) حركة اللغة العربية وآدابها ص ٧١و٧٢ وانظر: الألفاظ العربية المستعارة في لغة الموسا: داود سلوم.

(٥٣) انظر: الألفاظ المستعارة من العربية في اللغة السواحيلية: د. داود سلوم ومعجم .Sawahili - Eng. Dict تأليف D.V. Perrot
ـ لندن ١٩٧٠ ومعجم .A Standard Sawahili - Eng. Dict., by F. Johnson, 1978, East Africa

(٥٤) كتاب الامثال لابي فيد مؤرج بن عمرو السدوسي (ت ١٩٥هـ) تحقيق د. رمضان عبد التواب. القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧١

(٥٥) كتاب مجمع الامثال للميداني (ت ٥١٨هـ) تحقيق محيي الدين عبد الحميد. القاهرة ١٣٧٤هـ/١٩٥٧م اوخست دارالمعرفة لبنان ج ٢ ص ٧٢.

(٥٦) مجلة التراث الشعبي، العدد الأول، الفصل الأول ١٩٨٦، المؤثرات العربية والمحليه في الحكايات الشعبية الصومالية: د. داود سلوم ص ٢٧ وما بعدها.

(٥٧) مجمع الامثال للميداني ٢٥/٢ (المثل ٨١).

(٥٨) التراث الشعبي، العدد ١ الفصل الأول ١٩٨٦ ص ٤٠

(٥٩) نوادر جحا. تحقيق عبدالستار فراج. القاهرة. د. ت، صفحة ٦٠

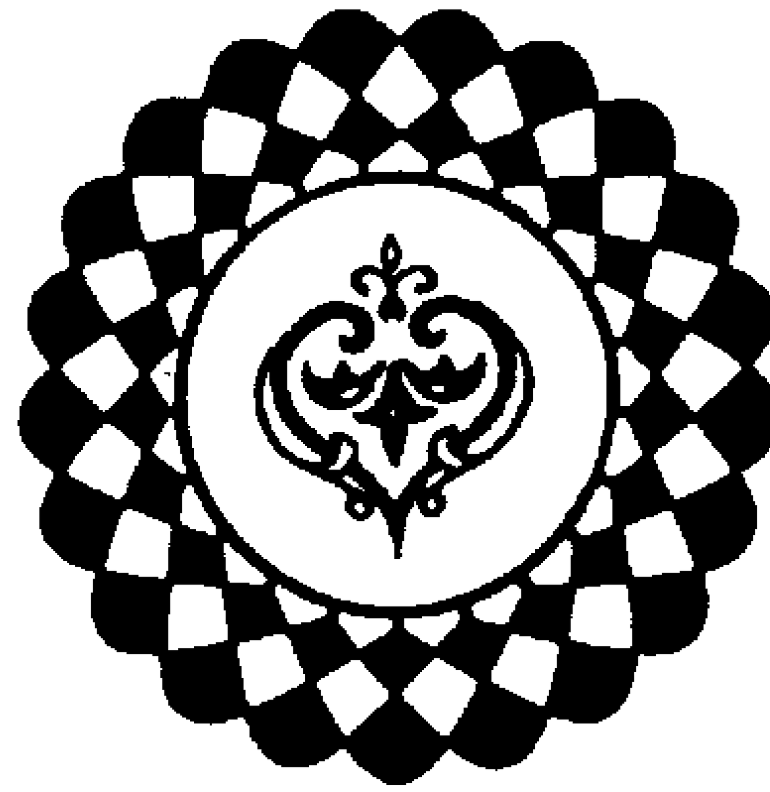
(٦٠) مجلة التراث الشعبي. العدد الأول، الفصل الأول ١٩٨٦ ص ٤٢

(٦١) المستطرف للابشيهي ج ١ ص ٢٨٨

(٦٢) مجلة التراث الشعبي العدد ١ الفصل الأول ١٩٨٦ ص ٤٢

(٦٣) أخبار الاذكياء لابن الجوزي تحقيق مرسي الخولي القاهرة. ص ٢٤١

(٦٤) مجلة التراث الشعبي العدد ١ الفصل الأول ١٩٨٦ ص ٤٤



فهرس الصور والخرائط

صورة افتتاح الندوة برعاية صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي ٥

صورة من الجلسة الفتتاحية للندوة ١١

صورة من الجلسة الفتتاحية للندوة ١٦

خارطة تبين موقع الخليج العربي الاستراتيجي ٣٨

خريطة الرحلات البرتغالية إلى الشرق والغرب (متحف لشبونة) ١٠٤

أحد ضباط الحملة البرتغالية يرفع الصليب في موقع تسلطهم في طريقهم إلى الخليج العربي ١٣٠

القادة البرتغاليون يدرسون ويهيؤون لحملتهم على البلاد العربية والهند (المتحف الوطني لشبونة) ١٤٤

خريطة الموقع الجغرافي لمنطقة الخليج العربي (من الأرشيف الهولندي) ١٦٠

خريطة بحر القطيف (من الأرشيف الهولندي) ١٧٨

برج للحراسة في رأس الخيمة حيث ينتشر على الشواطئ وفوق الهضاب
(رمز إمارة رأس الخيمة) ٢٠٦

رسم تصويري لمركب نقل خشبي ٤٣٠

خريطة تحرير سواحل عمان ٤٣٥

خريطة تمثل ميادين الصراع العماني البرتغالي ٤٣٩

رسم لسفينة من نوع الغراب كانت تستخدم في التنقل بين الخليج وشرق إفريقيا ٤٤٣

من سفن الأسطول البرتغالي الذي غزى شرق إفريقيا والخليج العربي ٥٣٦

فهرس الموضوعات

مقدمة الطبعة الثانية بقلم د. علي عبد الله فارس ٣

تصدير بقلم سمو الشيخ سعود بن صقر القاسمي ٧

تعريف بندوة رأس الخيمة التأريخية بقلمأحمد جلال التدمري ٩

الأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي

د. جمال زكريا قاسم ٢٥

الأوضاع الاجتماعية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي

د. فوزية العطية ٣٩

النظام الدولي الإقليمي في منطقة الخليج العربي خلال فترة الاستعمار البرتغالي

د. حـــامـد ربـيـــع ٥٥

قـــراءات أرشيفية

أحمد جلال التدمري ٧٥

أحمد بن ماجد ودوره في الملاحة البحرية في الخليج العربي

د. حسين أمين ٩٥

الأسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي في الخليج العربي

د. محمد عارف الكيالي ١٠٥

حركة الكشوف البرتغالية وأهدافها

بشير حمود كاظم ١٢١

الأطماع البرتغالية في المقدسات الإسلامية

د فـلاح حـنـظـل ١٣١

موقف المماليك ودول الخليج من الاستعمار البرتغالي
د. يوسف بن علي الثقفي ١٤٥
المجابهة البرتغالية العثمانية في المياه العربية
د. عبد الوهاب القيسي ١٦١
الصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي والتحرير الأفريقي
د. شوقي عطا الله الجمل ١٧٩
التنافس والصراع بين البرتغاليين والتحالف الإنجليزي الهولندي في الخليج العربي
د. هيفاء عبد العزيز كريم ١٩٧
معركة تحرير مسقط
د. غانم الرميض ٢٠٧
الرحالة البرتغاليون في الخليج العربي خلال القرنين ١٦ و ١٧ م
د. طارق نافع الحمداني ٢١٧
الغزو البرتغالي للخليج العربي من خلال المصادر الفرنسية
د صادق ياسين الحلو ٢٣٥
دراسة عن الوثائق والمصادر المنشورة عن الغزو البرتغالي والسيطرة البرتغالية في الخليج العربي.
د. طارق الحمداني ٢٥٥
أصداء الغزو البرتغالي في أدب الخليج العربي.
بقلم د. علي أحمد الزبيدي ٢٧٣
الخليج العربي .. الأهمية الاستراتيجية وملامح السياسة البرتغالية.
د. نوار عبد الوهاب قاسم القيسي ٣٠١
دور العرب الحضاري في شرق إفريقيا في القرنين ١٦ و ١٧م.
د. شوقي عطا الله الجمل ٣١٧

العلاقات التجارية بين الخليج العربي وشرق إفريقيا كما يعكسها البلدانيون العرب في العصر الوسيط
د. صباح إبراهيم الشيخلي ٣٤١
ابن ماجد ودوره في اكتشاف طريق الهند البحري ومظاهر التفكير العلمي في كتاباته.
د. حسام الخادم ٣٦٩
القرصنة الأوروبية في الخليج العربي وساحل إفريقيا.
د. صادق ياسين الحلو ٣٨١
عدن والمطامع البرتغالية في القرن السادس عشر.
الباحث : محمد عبد المحسن عبود الحلي ٤٠١
التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر.
الباحث : بشير حمود كاظم ٤٠٩
الصراع العماني البرتغالي وتحرير الشرق الإفريقي خلال القرن ١٧.
د. صالح محمد العابد ٤٣١
البرتغاليون في شرق إفريقيا وطردهم منها.
الباحث عبد الرازق علي عثمان ٤٤٥
نظرة جديدة للانجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية في آسيا
دراسة في عوامل تدهور وانحطاط الامبراطورية البرتغالية.
د. عبد الأمير محمد أمين ٤٧١
سلطنة مسقط وزنجبار بين الوحدة والانفصال.
د. جمال زكريا قاسم ٥٠١
الصراع البحري العماني البرتغالي في البحار الشرقية ١٦٥٠ - ١٧٢٠م.
الباحث : غانم محمد رميض ٥١١
دور السياسة البريطانية في تقسيم السلطنة العربية الإفريقية.
د. سنى علي عبد الجبار الطائي ٥٢٥

الإسلام والصليبيون في ساحل إفريقيا في العصور الوسطى.

د. السر أحمد العراقي ٥٣٧

كتابة اللغة السواحلية بالحرف العربي ومؤثرات لغوية وأدبية عربية في شرق إفريقيا.

د. يوسف الخليفة أبوبكر ٤٤٩

مؤثرات لغوية وأدبية عربية في شرق إفريقيا المفرد العربي في اللغة السواحلية

والحكاية التراثية العربية في الحكاية الصومالية والشعبية.

د. داود سلـــوم ٥٦٥

فهرس الصور والخرائط ٥٩٥

فهرس الموضوعات ٥٩٧



